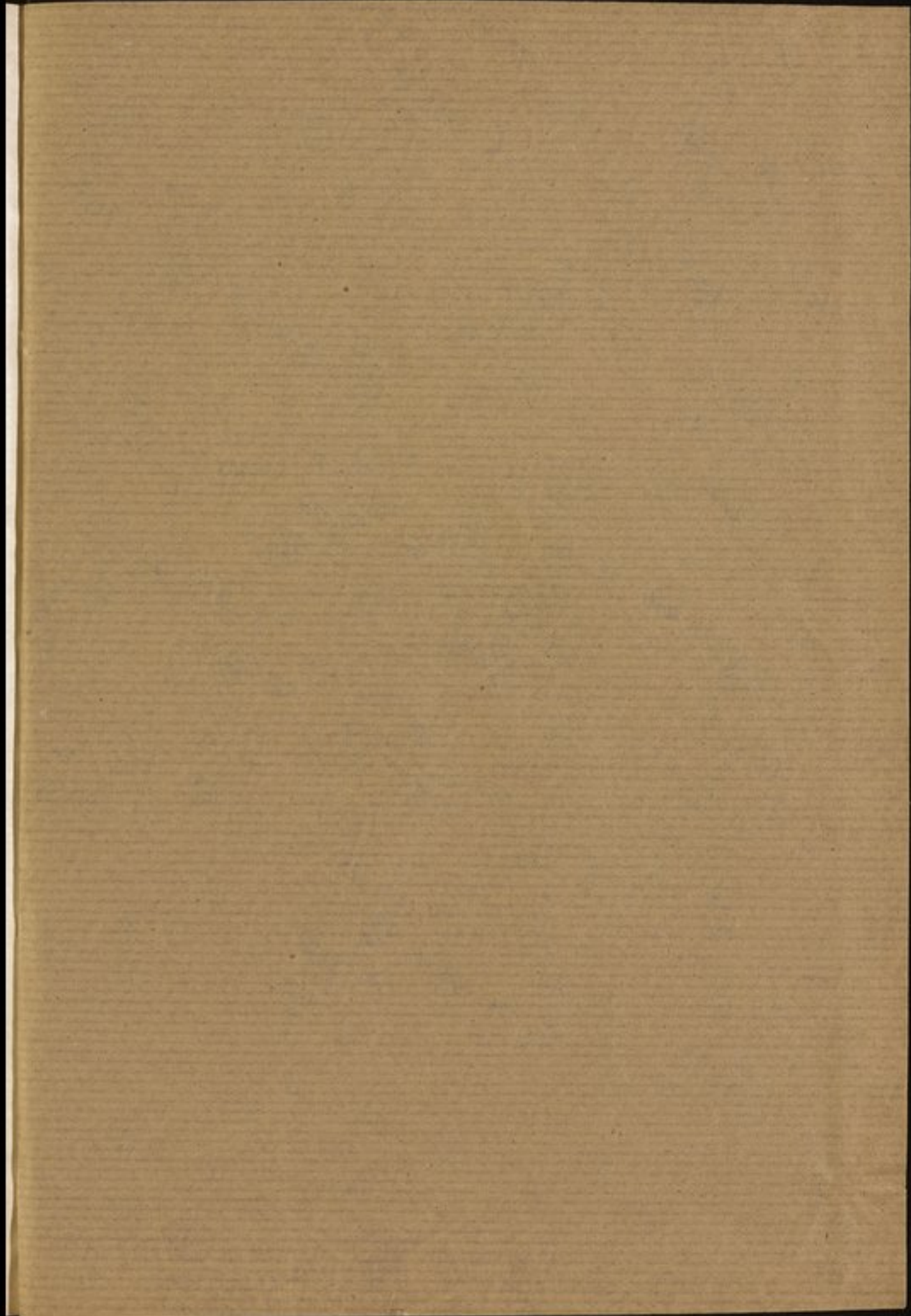


The image shows the front cover of a book. The cover is decorated with a complex, repeating geometric pattern in shades of brown and gold. The pattern consists of interlocking lines forming various shapes, including squares and hexagons, with small floral or scroll-like motifs within the spaces. In the center of the cover is a white rectangular label. The label is framed by a blue Greek key border. Inside the label, the text is printed in a serif font. At the top, it reads "THE LIBRARIES" and "COLUMBIA UNIVERSITY". Below this, there is a decorative horizontal line with a small diamond-shaped ornament in the center. At the bottom of the label, it reads "GENERAL LIBRARY".

THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY

GENERAL LIBRARY





الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

لشمس علي عجاب بنع الكوت وأغرب الألباء أباصراً

تأليف

الأستاذ المحكم شيخ طنطاوي جوهرى

للمدرسة بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقاً
متع الله المسلمين بحجته آمين

الجزء الحادي والعشرون

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ - رقم ١٧١

حقوق الطبع محفوظة

طبع بطبعة

مصطفى الباني الحلبي وأولاده بمصر

بمباشرة عبد العزيز عثمان

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الدخان

(هي مكية)

آياتها ٥٩ - نزلت بعد الزخرف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَم * وَالكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا
يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُوفَ الْمُؤْمِنِينَ * لَا إِلَهَ إِلَّا
هُوَ يُخْفِي وَيُخَيِّتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ * بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ * فَاذْقَبْ
يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَا اكشِفْ عَنَّا
الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ * أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ
وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِّجَنُونٌ * إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ

الْكُبْرَى إِنَّا مُتَّقِمُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَدْوَا
 إِلَىٰ عِبَادَةِ اللَّهِ إِنَّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ *
 وَإِنِّي عَذْتُ رَبِّي وَرَبَّكُمْ أَنْ تَرْجُونِي * وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاغْتَرِبُوا * فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ
 هُوَ لَأَهْلَ قَوْمِ مُجْرِمُونَ * فَأَسْرِبِي يَدَايَ لَيْلًا إِنِّي لَمُتَّبِعُونَ * وَأَتْرِكُ الْبَحْرَ وَهُوَ إِيْتَهُمْ
 جُنْدٌ مُفْرَقُونَ * كَمْ تَرَكَوْا مِنْ جَنَاتٍ وَعَيْوِينَ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةً كَانُوا
 فِيهَا فَآكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَسَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ
 وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ * وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ
 كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ * وَلَقَدْ أَخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ آيَاتِ
 مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ * إِنَّ هُوَ لَأَبْقَاؤُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ *
 فَاتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * أَهْمُ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ
 إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ * مَا خَلَقْنَاهُمَا
 إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنْ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ
 لَا يُعْنِي مَوْتِي عَنْ مَوْتِي شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ
 الرَّحِيمُ * إِنْ شَجَرَتِ الزُّقُومِ * طَعَامُ الْأَيْمِ * كَأَلْهَلٍ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَعَلِي
 الْحَمِيمِ * خُدُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ *
 ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ * إِنْ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ * إِنْ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامِ
 أَمِينٍ * فِي جَنَاتٍ وَعَيْوِينَ * يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ * كَذَلِكَ
 وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ
 إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * فَضَلًّا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *
 فَإِنَّمَا يَسْتَرْئَاهُ يَلِسَانَكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * فَأَرْقَبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ *



هذه السورة قسبان

(القسم الأول) في تفسير البسملة

(القسم الثاني) في تفسير السورة كلها

القسم الأول في تفسير البسملة

حضر اليوم الثلاثاء (٩) من شهر ديسمبر سنة ١٩٣٠ صديق العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير فقال : لم يبق في البسملة معنى إلا ظهر في السور السابقة . قلت : إن المعاني التي خطرت في هذه البسملة أجلّ قدرا ، وأوسع مدى ، وأعظم ذخرا ، واني قبل أن أذكر فيها أسألك في مقدمتها وهو ما تقدم من آراء الحكماء شرقا وغربا في آية « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الأتخافوا ولا يحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون » ، فان كنت ذا كرا لما تقدم هناك فلخصه الآن . فقال نعم :

إن بارنلمي ساتهليبر (الذي ترجم علم الأخلاق لنيقوماخوس تأليف أرسطاطاليس من اليونانية الى الفرنسية ، وصدره بمقدمة هامة في علم الأخلاق ونقل أخيرا الى اللغة العربية) قد رتب علماء الأخلاق لجعل أرسطاطاليس الثالث وأفلاطون الأول والاستاذ كانت الألماني الثاني ، وإنما دعاه الى ذلك ما رآه كل من هؤلاء في تأسيس علم الأخلاق وبيان قواعده ، وهل قواعده القائمة وأساسه إلا أدلة انبث صانع العالم ، وأفلاطون أثبت أن طغفه العوالم ذاتا قدسية منها صدرت العوالم المعنوية والمثل التي سماها الناس أفلاطونية ، وهذه المثل هي البنابيع والاصول التي على نهجها وبواسطتها صدر هذا العالم المشاهد كما أن الحوادث على الأرض والموالييد حدثت بآثار الشمس ، فهنا عالم محسوس من آثار الشمس بفعل الله تعالى وهي القائمة بهداية الحيوان منه الى السبل في الأرض ، وهناك عالم عقلي ثابت بنبات تلك الذات المقدسة ، ونسبة عيوننا الى ضوء الشمس إذ ترى آثارها كنسبة عقولنا الى الهداية الواصلة من تلك الذات القدسية لندرك آثارها الدائمة والحقائق الثابتة كالجمال والعدل والصدق والشرف وكل ما هو بهي عجيب منزّه عن المادة

هذا ملخص آراء أفلاطون ، ولقد تعقبه أرسطاطاليس بأن المعاني الكلية التي سميت (مثلا) لاروجود لها إلا في أذهانتنا ، والذي في أذهانتنا ناجم مما رأيناه في المادة والصورة ، وما في المادة والصورة من المعاني نجعله عقولنا كليات كالانسان والحيوان والجناد والحجر والشجر وهكذا ، فهذه أمور تصورتها عقولنا لا أمور لها وجود في أنفسها وأطال في ذلك ، فأما الاستاذ كانت الألماني فإنه أثبت الذات المقدسة بقانون الأخلاق إذ رأى أن الانسان عليه أن يكون نورا للناس نافعا لهم ، ولكن الجزء على محاسن الأخلاق وفضائل الأعمال قلما يتم في هذه الحياة . إذن لابد من بقاء الروح ودوامها ، ولابد من ذات قدسية تكفي الروح على أفعالها الجلية

هذه هي الآراء الثلاثة ، وهناك الرواقيون الذين حدثوا قبل الميلاد وبعد موت أرسطاطاليس ، فهؤلاء لهم طريقة في علم الأخلاق تشبه طريقة الصوفية في أم الاسلام ، وحدثت فرقة تسمى الأفلاطونية الحديثة بعد الميلاد بقرنين ، وهذه سارت شوطا بعيدا في العلم والحكمة وتطبيق المذاهب القديمة اليونانية ، ولقد أقر (بارنلمي) في غير ما موضح أن علماء اليونان أثبت قدما في علم الأخلاق ، وفي هذه الأدلة المتقدمة ، ولم يظهر في أوروبا إلا الاستاذ (كانت) وحده ، وأن علماء اليونان لهم القدح المعلى الى الآن والسبق والفضل بالنسبة لهذا الموضوع ، ولقد لخص فلسفة اليونان الرسام الايطالي المشهور المسمى (روفائيل) فرسم في الصورة التي جعلها تمثل مدرسة أثينا صورة سقراط رافعا يده الى السماء ، وأرسطاطاليس مشجرا يده الى الأرض

هذا هو الذي تقدم ، ولكنك أنت لما اطلعت على آراء الأمم في (٢٥) قرنا فكرت فيها وقلت : اذا كان برهان أفلاطون هو آخر ما يصل له العلم في هذه الأمم فاني أعلن للآلاف برهانا يكون أقرب الى أذهان الأمم وبسطت ذلك وشرحت من نفس جسم الانسان ، وأن الحواس منظمة من أسفل الى أعلى بحيث ترى حاسة اللمس أذناها ، وحاسة البصر أعلاها ، والعقل هو المدرك ، وهذا العقل في النبوة العليا ، واذا كانت كل حاسة قد اتصلت بعالم يلائمها وكانت العين أشرف الحواس وأعلاها قد اتصلت بعالم النور الذي لانعرف له حدا وهو أوسع من عالم الهواء المعروف حده تقريبا ، فان المدرك الذي فوق مرتبتها وهو العقل متصل بعالم أظف وأوسع من النور وهو عالم كله علم وجمال ، وعلى ذلك أصبح الانسان الآن يشهد تلك العوالم العقلية بعقله كما يشهد الخشن والناعم ، والثقيل والخفيف يده ، وغاية الأمر أن الذين سموهم فلاسفة ماهم إلا أناس وضعوا في درجاتهم في الحياة ، فمن وقف عند المحسوسات بالحواس فهو رجل لم ترق نفسه وقد غفل عن عقله والعالم الانساني حائرنا مقلد ، وكل امرئ يقلد من تصويبه نفسه ، فالعقول الصغيرة وأرباب الشهوات اذا سمعوا من يقول : « إن العقل أفرز المخ كما تفرز الكبد الصفراء » ، يفرحون بهذا ويقولون وصلنا الى نهاية الحكمة ويسفهون آراء من هم أعلم منهم ، وقد غفلوا غفلة نامة عن الفرق بين الكبد والمخ ، فالخ بدمك الكليات وهو يشرف على الحواس والحواس لها مخازن خارج الجسم تلائمها والعقل مخزنه أوسع وأظف كما تقدم ، وهذا المخزن هو عالم العقول الذي يستمد منه العقل معقولاته كما تستمد العين صور المرئيات ، وهذا برهان أول ، ذلك برهان ثان وهو أنك قلت ان الأرض عجزت عن أن تأتى لحيوانها ونباتها بحرارة تثير الهواء فيصير رياحا ، وتثير البخار فيصير سحبا ، وهذان يتجهان الى الأرض فيكون الزرع والضرع والحيوان ، وعن أن تأتى للنبات وللحيوان بوضو يساعد في إصلاح غذاء الأول وفي هداية الثاني الى ما يحتاجه ولاجرم أن إثارة البخار والرياح وإصلاح تغذية الحيوان وهدايته الى السعى في الأرض أسهل مما فوق ذلك من هداية الحشرات وسائر الحيوان ومن علوم الانسان ومعارفه والرجة التي تفرس في الأم لترضع ولدها ومن إثارة الهمم وإبراز الجمال في العوالم ورقشه ورقشه ، فهذه المادة بجزئها عن أضعف القسامين وهو الحرارة والضوء برهنت على أنها أكثر عجزا وأشد ضعفا عن إبراز العقول الشريفة ، والعواطف الجيلة ، والقوش البديعة ، واذن يكون جسم هذا الانسان فيه برهان يأتي من طريق قوانا العقلية ، وبرهان يأتي من طريق عواطفنا الشريفة وأخلاقنا ، فلكل منهما أصل استمد منه ، فملومنا مستمدة من علم أعلى وعواطفنا مستمدة من آثار احسان ورجة عاتية ، إذ لا سبيل لاستناد هذه العلوم وهذه العواطف والأخلاق الى هذه المادة العاجزة عن احداث أحسن الأمرين ، فاذن هي عن أشرفهما أعجز

ثم قال صديق العالم : هذا ما خطر لي في تلخيص ذلك المقال في تفسير قوله تعالى « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » في سورة فصلت فلعلي وفقت الى تلخيصه تذكرة لمن قرأه وتبصرة لمن لم يقرأه فأرجو أن أسمع ما تريد من تفسير البسملة في (سورة الدخان) الذي جعلته مرتبا على ما ملخصه الآن . فقلت : لقد أحسنت صنعا وأجدت تلخيصا ، والآن أقول : اني في ليلة الجمعة الماضية (٥ ديسمبر سنة ١٩٣١ م) فكرت في معنى البسملة في هذه السورة ، وهناك فرحت النفس فرحا كثيرا وابتهجت ابتهاجا تاما ، لأنها انتقلت من عالم المادة الى عالم الجمال ، وأخذت ترتقي الى عوالم عرفها العقل ببرهانه ، وأخذت تسعي حثيثا الى العلا وتحقر العوالم المادية التي قام البرهان على أنها أشبه بالخيال ، وأيقنت بأن صور العلوم والمعارف المخزونة في عقولنا لها عوالم ورائها جيلة وكل نقش وبهجة وعلم ورجة وكال وجمال ان هو إلا آثار من ذلك الجمال ، وأخذت عقلي يفكر في تلك العوالم الجيلة التي يستمد منها ويقول : يا عجبا ! إذن كانت محبتي للعلم وغرامي بالحكمة وشوقى الى تحصيلها أعم شيئا لها اتصال بحب أعلى ، إذن هذا الحب ورائه حب عالم ،

وحب العلم الذي حدث في نفسي وأبهج قلبي من أيام الشباب الى الآن مستمداً من حب أعم وأعلى ، وهذه المعارف التي أعرفها مستمداً من علوم بديعة وعواطف من الشفقة والرحمة التي أحس بها في نفسي مستمداً الى راحة أعم ، والجمال الذي أبهج قلبي حين أنظر في النقوش والجباب في هذه الدنيا إن هو إلا أثر لجمال أرقى ، وإذا لم يكن كذلك فمن أين أتى حبي للعلم ، ولرقي الانسانية ؟ ومن أين أتت عواطفى القليلة ، ورحمتى للضعفاء ، ولبن أعولهم ، أمن المادة التي أعلنت مجزها عن حرارة وضوء يقربان منها ولم تنلها إلا من الأثير الذي تؤثر فيه الشمس بإشراقها فتكون حرارة ويكون نور في نفس الأثير ، فإذا كانت المادة استعارت هذين من الأثير الذي هو أطف منها فإذا فعلت هذه المسكينة فيما هو أعلى من الحرارة ومن الضوء ، ثم قلت ان هذا البرهان الذي ظهر لى والكشف الذي كشف لى هذه الأيام هو يقينى والانسانية من قبلنا لم تنضح لها كما تنضح لها الآن ، فعلى إذن أن أنامل في عطفى وعواطفى ، ولأن أعجب من هذه النفس الجيلة الشريفة ذات العقل وذات العواطف وذات الحب ، ذلك الحب الذي هو أشرف ما نالت نفسى ، ذلك الحب المفرح السار البهيج ، ذلك الحب الذي لا يذر جالا إلا علق به في السماء وفي الأرض ولا عالما إلا أحبه على مقدار ما وصل الى من علمه ، ولا حسنا رحباً إلا أحبه على مقدار احسانه ، ولا شجاعا ناعفا إلا أغرم بسماع أخباره ، هذا الحب الذي استمدت من حب عام فوفقه ، وإذا كنت أنا مع ضعفى وحدوثى أجد حبي يشمل الصور الجيلة والعقول الشريفة ، والأخلاق الفاضلة عموماً بحيث عامة إجمالاً ، ويشمل اليسير من ذلك العموم بهيئة خاصة تفصيلاً فكيف بمن يعلم كل معلوم : إن حبه الذي من آثاره كان حبي يشمل كل عالم شمسي وقرى وكوكبي وجميع المجرّات والسدم

هنالك صعد عطفى فوق المجرّات والسدم والسموات والنجوم وأخذ يلقي نظره على هذه العوالم ويقول : « لأكن هنا لأكن سعيداً لأفرح بهذا الكشف ، لأكن في جور من النور وبحر من الرجات وجمال وبهجة أمد الحياة ، لاموت وانما هو انتقال فلا فرح به ، ما أجهل الانسانية ، انها ضعيفة ، الناس لاهون لا يصلون لماذا خلقوا ، هاهوذا البرهان ، فمن ذا يتقنه ، هاهي ذه الأجيال الانسانية قبلنا قد غاب عن أكثرها هذا الجمال ومن عرفه منهم كتبه ، فلا جد ولا جعل حياتى كلها جلالاً ، وأجدت في منفعة الناس مادمت حيا اقتداء بتلك الذات المقدسة التي قام البرهان اليقيني الذي لا يدخله الشك على حبا العلم ورحمتها وجمالها وقد أحست نفسى بذلك البرهان إحساساً لافتقر عنه ، فأنا إذن سعيد ، وأى سعادة أكبر من اليقين ، بثت الحياة حياة الجهل ، ونعمت الحياة حياة العلم ، هذه هي الخواطر التي خطرت لى ليلة الجمعة المذكورة ، هذه هي السراء وأعقبها :

امتحان هذه النفس بالضرء

في يوم الجمعة ، وفي ليلة السبت بعدها حدثت لى حادثتان : إحداهما منزلية ، والأخرى خارجية ، فالخارجية كانت يوم الجمعة ، والمنزلية كانت ليلة السبت ، ففي يوم الجمعة توجهت خارج القاهرة لأقابل الحادث الخارجى ، وفي ليلة السبت قابلت حادث داخل فى المنزل فاعتراتنى غم شديد ، وههنا أخذت أفكر فى هذه النفس وأبحث عن ذلك السرور والبهجة والجمال فأجد غمها وهما ، فقلت أينها النفس : ماذا حدث ؟ أرايت البرهان المتقن ناقصاً ؟ قالت : كلا . قلت : أليس علمك وحسبك ورحمتك كل ذلك آثار لراحة وحب لذات مقدسة بينك وبينها صلة ما وحب ما . قالت بلى . قلت : لماذا أرى البهجة قلت والسرور هنا فتوديت فى سرى إن ذلك نعمة لانتمة ، لودام ذلك السرور لقتلك ، وهذه هي النظريات التي أنت تقولها فى التفسير كثيراً ، إن ذلك الجمال البديع أرقى من أرواح أهل الأرض ، ومتى فتح على روح فتح ودام أمداً طويلاً أهلكها فلا بد من

التم حتى تعادل الروح ، وأخذت أسأل نفسي أراضية بهذا فوجدتها متمتعة بنعمة الرضا تمتعا حقيقيا وقلت في نفسي : « إن هذا يراد به خبري لا شر » وهذا الرضا أنا به موقن ، فأنا راض أن يكون هناك حجاب يحجبني عن التفكير لأني موقن بعد هذه المباحث العلمية أن ذلك كله لخبري أنا ، فهو شر ظاهر أخير باطنا وهذا هو شر قوله ﷺ « وأن تؤمن بالقدر خبره وشره من الله » وسرآية « يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي »

ولقد زارني ليلة السبت أثناء الحادث المتزلي صديق جاء يسمى لزورني ، فأحسن بذلك الحادث المتزلي ، فأخذ يأسف على أن يضيع وقتي في أحوال تعكس صفوي ، فأسررت إليه اني فرح بهذا الحادث لأن هذا هو الاعتدال والنظام فلا بد من مقوم يقوم هذه النفوس الأراضية ويهدئها ، وإذا دامت مسراتي العلمية أهلكنتي فأنا الآن عندي مسرة معنوية ترجع إلى الرضا الحقيقي اليقيني ، لأن رضا الانسان بالقضاء إما أن يكون عن تقليد إيماني خصب ، وهذا هو التسليم بلا برهان . وأما أن يكون عن يقين وبرهان ، وهذا هو الرضا الحقيقي فأنا الآن عندي الرضا الحقيقي ، ولكن لا أدري هل هذه النفس في حوادث أخرى يكون عندها هذا الرضا الحقيقي ، أم تكون واجبة ؟ أنا لا أعلم لي بالمستقبل فأكل أمرها إلى الله

وما جاء يوم السبت حتى خرجت من القاهرة نهي لأتوجه إلى بلدة شين القناطر لمعالجة الحادث الخارجي في نزاع أثاره جار سوء في الحقل ، فما جلست في العربة الجارية في الطريق التي تسير بالكهرباء وهي مزدهجة ازدحاما تاما بالراكبين وتخترق المزارع حتى أحست بأن هذه النفس قد بارحت هذا الجوق وعرجت إلى عالم السموات ، أنا جالس مع الناس وأحسن بمن حولي وأحفظ قواي وموازنتي مع الراكبين ولكن سرعان ما رأيت في خيالي أن هناك سلعا منصوبا بين السماء والأرض ، فأخذت روعي تعلاه درجة فمرجة حتى وصلت إلى عالم السموات (كل هذا تخيلته وأنا في اليقظة والناس حولي) ولما وصلت إلى عوالم فوق هذه الطبقات الكوكبية ، خيل لي أن هناك علما من النور يهيجها بديعا ، عجيب الألوان ، سريع القلب جاله يسبي العقول ويحير الألباب ، فاقوس قرح ، وما الصور الجيلة في أرضنا ، وما البدائع الأراضية ، وما الشمس والأقمار ، وما الكواكب ، هو فوقها جمالا وبهاء وحسنا ، ثم غادرت عالم الأنوار ، فألفت نهرا متلاطم الأمواج ، صافي الماء ، سريع الجريان ، وعلى حافته قصور جيلات ، فهن قيات مارأت عيني أجل منهن ، قد لبسن الخلي والحلال ، وازدن بأنواع الأحجار الكريمة ، والمر والرجان والياقوت ، وبالجملة ففي عالم الأنوار ، وفي ذلك النهر ، وفي تلك القصور على حافته ما يحير الألباب ويسبي العقول

هنالك حارلي وأخذت أقول : ياليت شعري ، ما هذا الخيال ؟ أنا في العربة والركاب حولي ، فأين الثريا وأين الثريا ، هنالك خيل إلى أن روحا لطيفة تمثل لي بهيئة انسان مصنوع من النور جميل الميها بهيج المنظر فسلم على وحياتي وهو باسم الثغر منشرح الصدر . فقال : لعلك في حيرة مما رأيت . فقلت إى وربي انه لحنى لقد جرت العادة أثناء هذا التفسير أن لا يمر بخاطري إلا ما يناسب السورة التي يكون فيها التفسير ، فما هذه المناظر وأين هذه من تفسير البسملة في سورة الدخان ، فتبسم ضاحكا وقال هي نفس التفسير . وهأنذا أشرح ذلك المقام فهيا بنا :

لقد ضاق صدرك جزعا في هذين اليومين . فقلت نعم . فقال : وقد استجمعت بالماء الحار وأبغته بالماء البارد أمس واليوم فكان ذلك مطلقا لأحوال النفس لأن للجسم عليها تأثيرا . فقلت نعم . قال : وهأنذا اليوم خيل لك سلم صعدت عليه حتى وصلت إلى هذه المناظر البديعة . فقلت نعم . قال أتدري ما هذا السلم . قلت لا قال : إن الجنين في بطن أمه يخلق أولا بهيئة بويضة بسيطة ، ثم يصير ثانيا دودة وثالثا حلزونة ورابعا سمكة وخامسا ذبابة وسادسا قردا وسابعا انسانا ، ولا يتوارى ذنبه إلا في الصورة الانسانية

هذه درجات يتقلب فيها الجنين في بطن أمه ، وهناك درجات أخرى وهي المدركات الست أعنى الحواس الخمس والعقل . إذن الانسان يقطع درجات في ارتقاء جسمه ، ودرجات أخرى في ارتقاء عقله ، وهذه الدرجات بقسميها قد مثلت لك الآن بهيئة سلم عرجت عليها ، فأما الأنوار فهو العلم الذي منه استمددت علمك ، وأما هذا النهر الصافي فهو يمثل لك الرجة العاتقة ، وأما هذه الحور المقصورات البديعات وما عليهن من الخلى والحلل ، وما فيهن من رقة وشعور وحب وطهارة فهن أولا مثال آخر للرجة نجلت في أخلاقهن ، وثانيا مثال لابداع الصنع واتقانه ، وثالثا هن يمثلن الحب بأجلى مظاهره . أنت قد اعتراك غم مضاعف وهذا الغم أشبه بقنطرة عرجت عليها روحك ، ألم تر أن هذه المثل لم تظهر لخيالك إلا بعد أن وقعت في هذا الغم وما مثل ما تجلّى لك الآن في خيالك من الجمال إلا كمثل النوع الانساني عند الموت ويوم القيامة فان ذوى العقول الكبيرة ، والنفوس العظيمة اذا دهمهم الموت ، أو أصابهم الفزع الأكبر يوم القيامة لا يمرّ عليهم هذان الحادثان إلا كما مرّ عليك الحادثان المنزلّي والخارجي أمس والبارحة فيتجلّى لهم بعد الموت وفي يوم القيامة حقائق الأشياء ويكون الموت وتكون القيامة قنطرتين يمرّون عليهما سراعا الى معرفة الحقائق لأقلّ ولا أكثر كما أن هذين الحادثين أعقبهما هذا الخيال الذي أبرز لك المعاني المجردة التي عرفها عقلك بصور تمثيلية كما قال تعالى « فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا » . واذ كنت الساعة خاطبك خطابا خياليا فان الحكيم عند موته وعند قيام الساعة تلتقاه الملائكة ويخاطب خطابا حقيقيا كما خاطبتك أنت خطابا خياليا وهذا قوله تعالى : « لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون » وما هذان الحادثان لك بأوّل ما صادفك ، فانك ما ألقت كتابا ، ولا أبرزت حكمة إلا بعد حادث أزجحك في هذه الحياة ، فهذه قاعدة مطردة . فقلت : حقا هو ذلك . فقال : انظر في الامور الأربعة التي هي المقصود الحقيقي وهي العلم والرجة والجمال والحب

هذه هي الاصول والينابيع التي يستمد منها كل ماني الأرض وما في السماء . ولقد درست أنت آثار هذه الأربعة في الأرض . إن قلبك يحب كل جمال ، وكل علم ، وكل حاذق ، في علم أو صنعة ، ويحب كل محسن في الأرض ، وما هذه إلا نزر يسير جدا من هذا العالم النورى المعبّر عن العلم والنهر والحور المعبرات عن الرجة والجمال واحكام الصنع والحب . فهذه الرجات ، وهذه العلوم ، وهذه المحبات ، وهذا الجمال لاحد لها ولا نهاية . فاذا اتجه حبك لأهل الأرض كان محدودا . واذا اتجه لهذه المنابع كان الحب لاحد له والسعادة لانهاية لها ، وأين السعادة إلا في الحب ، حب لعلم ، وحب لرجة واحسان ، وحب لجمال ، وحب لانتان ، وحب لنفس الحب العام الذي منه ينبع كل حب في الأرض كحب الأم وأنتى الطائر والأنعام للطفل والفرخ الصغير وفضيل الناقة . إن نفسك التي أدركت أن المادة (وقد عجّزت بحجزنا تاما عن أن تكفل لما عليها حرارة ونورا ظاهرين) حربية أن تججز عن إعطاء الأم وأنتى الطيور والناقة الغرام والهيام بالابن والفرخ وبالفضيل . إذن هذا الحب له منبع أعلى كما أن الحرارة لها منبع وهي الشمس

واذا كنتم يا أهل الأرض تعجبون بعلمائكم ومخترعيكم وقوادكم والمحافظين على أوطانكم وتفرحون بهم ويدهشكم جمال الصور الفاتن لعقولكم ، فكيف بكم اذا غادرتم هذا الجسم ، واطلعت على هذه المنابع ورأيتم الحب العام يعيون مخلق لكم ، إنكم إذ ذاك تحسون بلذة نسبتها الى لذائذكم الآن كنسبة رجة الناقة لفضيلها الى الرجة التي عمت كل طير ، وكل حوت ، وكل دابة ، وكل كوكب ، وكل مجرّة

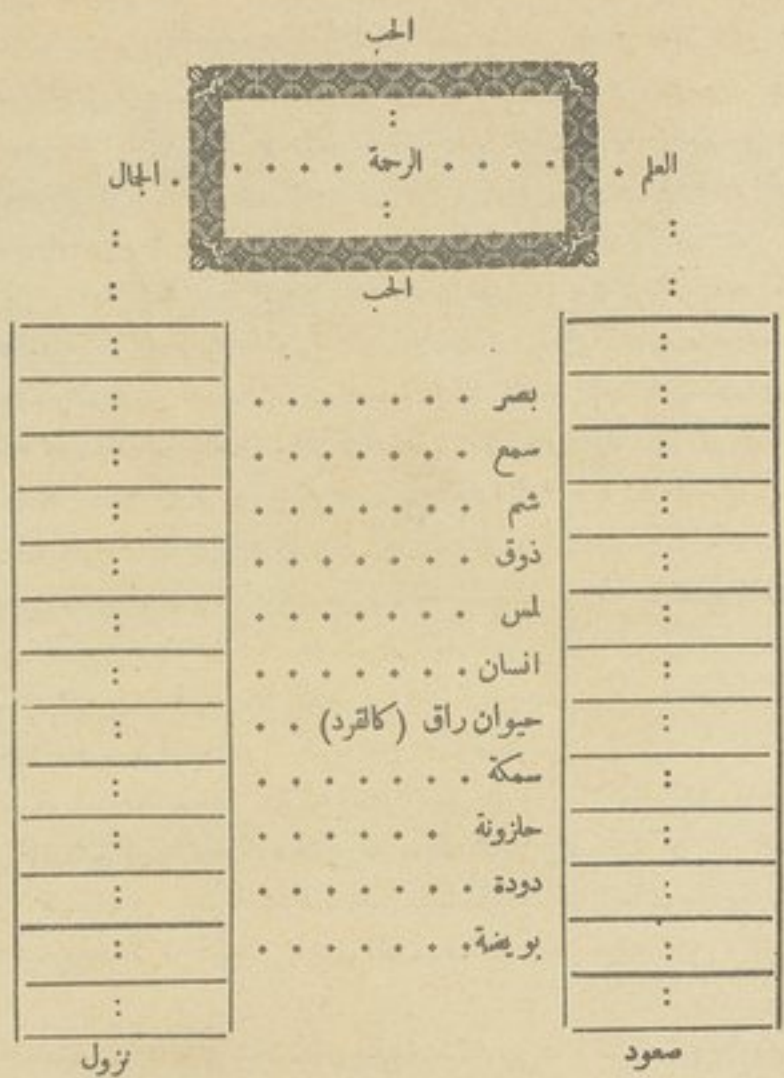
فأذا لم تسكن حياتكم في الأرض لها هذا الأثر فانها تكون لهوا ولعبا ، وهذا قوله تعالى في هذه السورة « وما خلقتنا السموات والأرض وما بينهما لالعين » ما خلقتناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون » والافلامنا هذه الأجرام العظيمة المتحركة ، ولماذا ترون الشمس والقمر يجران حولكما ، وهل هذه النفوس

لا تعيش إلا أياما في نفس م تعدم ، وأى هو وأى لعب أعظم من هذا ، وإذا كان أحدكم لا يعمل عملا إلا لغاية فما الغاية لاحداث نفوس لاعمل لها إلا أن تعدم ، وحياتها ماهي إلا هو ولعب ، إذن لابد من حال أخرى تتجلى فيها العلوم والرحات والجمال والحب . يقول الله في سورة الرعد « وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى » . أكل هذا للهو واللعب وأتم تعملون لغايات ، وعملكم مبنى على علمكم وعلمكم نابع من عالم الأنوار التي رأيتموها الآن ، فهل تجدون في أعمالكم الصغيرة والله يلعب في أعماله الهائلة بشموه وأقاربه ومجراته وسدمه وكواكبه وسياراته وأراضيه . ولذلك قال تعالى : « يدبر الأمر يفصل الآيات لعلمكم ببقاء ربكم توقنون » ، فهذا كله لأجل الايقان . أما الايمان فليس في حاجة الى كثير عناء . فما هو إلا أن يظهر للناس صادق ذو مبرزة فيصدقونه وانتهى الأمر . وهذا الذي قلته لك الآن يجمع أطراف سورة الدخان فانه ذكر السموات والأرض وما بينهما في أول السورة وانه ربهما . وأعاد الكرة عليهما في القسم الثاني منها . وأخبر انه ليس لاعبا في خلقهما . وذكر العذاب الذي يفتى الناس يوم تأتي السماء بدخان مبين كالذي حصل في الحرب الكبرى ويوم القيامة . وذكر البطشة الكبرى . وهذان يدخل فيهما كل حادث عظيم للناس أول الفرد . والذي انفق لك هذين اليومين مثل صغير لهذه الأحوال كلها في الدنيا والآخرة وذكر قوم فرعون واعرانهم وأن السماء والأرض لم تبكيا عليهم لأن عقوبهم لم تتفطن لماذا خلقت هذه العوالم . ولكن الحكيم يظن لماذا خلقت هذه العوالم ؟ ولماذا خلق هو ؟ فهذا لفظته وعلمه بهذه العوالم في حكم من تبكيه السموات والأرض اذا فارقهما فهو يحب النظر فيهما . وكأنهما محبوبان . وكان أحبائه يكون عليه عند الفراق . وما هذا كله إلا كناية عن انه عرف وأيقن . وذكر النار والجنة . والأولى لمن عقوبهم ونفوسهم لاتزال جامدة خامدة . والثانية لتلك النفوس التي أدركت الحقائق واشترأت الى العلاء فهذا معنى قولى لك : إن ما خطر لك هو نفس تفسير البسمة في (سورة الدخان) وقد أحاطا بآياتها . أ كفاك هذا ؟ قلت كفاي . وما كدت أنطق بهذه الجملة حتى غاب عنى الخيال . فأبصرت القوم حولي جالسين في السيارة تجوب الأرض جوبا . ورأيت اني وصلت الى بلدة شين القناطر . وكأنني كنت في عالم غير عالمنا

وهناك أخذت أعالج المشاكل الخارجية . فرأيت هناك معنى قوله تعالى « نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة » وكما كنت في السيارة مع الزاكبين قد تجلى لى العلم والحكمة ، هكذا لما وصلت الى مكان الحاجة رأيت تسهلا جيلا وقبولا وقضاء حاجة . قلت : هذا معنى قوله تعالى « نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة » فكما أسعفت في الطريق باتمام العلم في تفسير البسمة أسعفت بقضاء حاجتي ليكون العلم والعمل تفسيرا للرحمة العامة أولا وللرحمة الخاصة المذكورة في آية : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون »

فقال صاحبي : ما أجل هذا المنظر . وما أحسن هذا الجمال . سلام صاعدات الى العلاء وفوقها مقام رفيع تتجلى فيه المعارف والجمال والحب فلوانك رسمت له شكلا يدل عليه لكان ذلك أجل بهجة وأحسن منظرا فقلت انظر الرسم الآتي في الصفحة التالية





فلما اطلع صاحبي على هذا الشكل واوضحه . قال : أريد أن تضرب لي مثلا لهذا الموضوع كله بحيث يكون مشاهدا . فقلت : انظر حشرة أبي دقيق الطاووسي (شكل ١ في الصحيفة التالية)

أليس الجمال في المنظر ودقة الصنع في إحسانه وارتقائه ناجمة من العلم ، أوليست الحشرة في هيئة سعيدة بالرجعة وهي ذات رجعة لنظام بيضها وهي تحافظ على ذرية لن تراها ، فهاتان رجعتان : رجعة لها هي ، ورجعة منها لتربيتها المستقبلية المحبوبة في بيضها علمت أم لم تعلم ، فقد ظهر الجمال في النقش والعلم في النبات الظاهر والباطن ، والرجعة وأصلها لها ولتربيتها ، وهل يكون هذا إلا بحب من العالم الأعلى ، وهذا كله بورث قلوبنا حبا لمسدى هذه النعم وأن حشرة أبي دقيق هنا رمز للعالم كله ، ففيه الجمال والاتقان والرجعة ، وهو يهبنا للحب ، وحبنا هو نهاية السعادة ، أنا لا أفهم للسعادة معنى إلا بالحب ، والحب هو السعادة ، والسعادة هي الحب

هنا قال لي صديقي العالم : هاأنذا عرفت الجمال بهذا الشكل ، فأرجو اوضح هذه الدرجات في أصل الموضوع في السلام . فقلت : أما السلم الذي على يمينك فإنه برينا ارتقاء الجنين أولا فارتقاء العقول ثانيا ، فإذا وصل الانسان الى المستوى الذي يتصل فيه بالعلم والرجعة والجمال مثل كثير من قراء هذا التفسير ، فإنه إذ ذلك تكون روحه نورا مشرقا يضيئ على النوع الانساني ماثم وعالوما واحسانا وحبيا كما ترى في السلم الذي



(شكل ١ - حشرة أبي دقيق الطاورسي)

على اليسار، فكما ارتقى من أدنى الى أعلى كما في السلم الذي على اليمين هكذا هو يلقى أشعة أنواره ورجائه وعلومه وجماله على اخوانه من النوع الانساني مبتدئا بأعلاه لأنهم اليه أقرب ، وكل طبقة تعطي ماتعتها هذا هو الانسان الذي جعله الله خليفة في الأرض يسوس عبادته ويخلف صانع العالم في اسعاد خلقه وتعليمهم وتربيتهم ونشوتهم وارقاتهم

فقال صديقي : وهل هذا الذي وصفته يخاطب الملائكة ويتصل بالملأ الأعلى عيانا ؟ أم ذلك يكون بمجرد العقل والفكر ؟ قلت : ان الذي وصفته الآن انما هو الانسان المفكر الذي يرقى بما يلهمه الله من الفكر والعلم ، أما أولئك الذين يكلمون الملائكة ويحادثونهم فليس كلامي فيهم لأننا الآن نجد في أن نتعلم لا أن نتكلم على غيرنا ، وهذا التفسير جاء لتربية الانسانية المحمدية . أما ذلك الذي وصفته فأمر آخر ، ألا ترى أن في العالم الانساني أناسا يخلقون على صفات كاملة بفطرتهم ، ولهم اتصال بتلك العوالم الشريفة ، وآخرون دونهم في المنزلة وهم متصلون أيضا ، ونحن لانسرب الى تلك المنزلة ، فان المفتوح عليهم من طريق الولاية وقد اتصاوا بالعوالم العلوية على خطر عظيم كما يقوله الشيخ الدباغ والشيخ الخواص إذ يجزمون بأن مانحن عليه من الحجاب مع البحث العقلي أهدي سبيلا وأقوم قيدا ، أما الذين كشف عنهم الحجاب فهم دائما في خطر عظيم ، لأن نفوس الناس في هذه الأرض جاءت لتتربى فيها لا أنها تتمتع بتلك الذات العالية في زمان هي أحوج الى العروج فيه بالترية والعبادة والخدمة والمجاهدة . فقال : أرجو أن تصف لي أولئك الذين فطروا على الكمال والذين هم دونهم نيتم القول في هذا المقام . قلت : اسمع ماجاء في (كتاب الابرز) في صحيفة ١٤١ وما بعدها وهذا نصه :

« إن النبوة والولاية وان اشتركتا في أن كلا منهما نور وسر من أسرار الله عز وجل ، فنور النبوة مبان لنور الولاية ، ومابه المبانة لا يدرك على الحقيقة إلا بالكشف . غير أن نور النبوة أصلى ذاتي حقيقي مخلوق مع الذات في أصل نشأتها ولذا كان النبي معصوما في كل أحواله ، ونور الولاية بخلاف ذلك ، فان المفتوح

عليه اذا نظر الى ذات من سيصير وليا يرى ذانا كساثر الذوات ، واذا نظر الى ذات من سيصير نبيا رأى نور النبوة في ذاته سابقا ورأى تلك الذوات مطبوعة على أجزاء النبوة السابقة التي سبقت في حديث « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف » فيكون صاحبها مطبوعا على قول الحق ولو كان مرآة ، وعلى السببر الذي لا يحسن معه بألم ولا تكون معه كافة ، وعلى الرجعة الكاملة ، وعلى معرفة الله عز وجل على الوجه الذي ينبغي أن تكون المعرفة عليه ، وعلى الخوف التام منه عز وجل خوفا يمزج فيه الخوف الباطني بالخوف الظاهري حتى يدوم له الخوف في سائر أحواله ، وعلى بغض الباطل بفضا دائما ، وعلى العفو الكامل حتى يصل من قطعه وينفع من ضره . فهذه هي خصال النبوة وأجزاؤها السبعة التي قطع عليها ذات النبي قبل الفتح وبعده ، وأما ذات الولي فإنها قبل الفتح من جملة الذوات ليس فيها شيء زائد ، فإذا فتح عليها جاءتها الأنوار فأثوارها عارضة ، ولذا كان الولي غير معصوم قبل الفتح وبعده ، وأما ما ذكره في الفرق بين النبي والولي من نزول الملك وعدمه فليس بصحيح لأن المفتوح عليه سواء كان نبيا أو وليا لا بد أن يشاهد الملائكة بذواتهم على ما هم عليه ، ويخاطبهم ويخاطبونه ، وكل من قال : « ان الولي لا يشاهد الملك ولا يكلمه » فذلك دليل على انه غير مفتوح عليه . قلت : وكذا قال الحاقمي رحمه الله في الفتوحات المسكية في الباب الرابع والستين وثلاثمائة غلط جماعة من أصحابنا منهم الامام ابو حامد محمد الغزالي في قولهم في الفرق بين النبي والولي « ان النبي ينزل عليه الملك ، والولي يلهم ولا ينزل عليه الملك » . قال : والصواب أن الفرق فيما ينزل به الملك فالولي اذا نزل عليه الملك ففدي أمره بالانبياء ، وقد يخبره بصحة حديث ضعفه العلماء ، وقد ينزل عليه بالبشرى من الله وانه من أهل السعادة والأمان كما قال تعالى : « لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة » . قال : وسبب غلط هؤلاء ظنهم انهم عموا طرق الله بسلوكم بحيث لما لم ينزل عليهم ملك ظنوا انه لم ينزل على غيرهم ولا ينزل أصلا على ولي ولو سمعوا من ثقة نزوله على ولي لرجعوا عن قولهم لأنهم يصدقون بكرامات الأولياء وقد رجعت لقولي جماعة كانوا يعتقدون خلافه . انتهى ملخصا من كتاب الابريز

هاأناذا أيها الذكي أوفيت لك المقام بقدر طاقتي ، ووصلت معك الى مقام الرجعة والعلم والجمال والحب التي يعترف منها أهل العقول والذين يوحى اليهم . فقال : الله أكبر . جل الله . إذن نحن الآن نتمتع بمعرفة الطرق الفكرية ، ووصف طرق الوحي والالهام . إذن هذا التفسير أشبه بسوق الصور الذي تعرض فيه الصور يوم القيامة وكل يلبس ما يشاء منها . فقلت له : أنا أجد الله عز وجل على نعمة العلم والهداية الى طرق الكمال والى هنا تم الكلام على تفسير البسملة والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الخميس ١١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ م

مقاصد هذه السورة

- (١) إزال القرآن ، والدلالة على التوحيد
- (٢) الانذار بالعذاب في الدنيا والآخرة للكافرين
- (٣) ذكر قوم فرعون وهلاكهم
- (٤) ذكر اختيار الله لبيبي اسرائيل : رجوع الى العرب الذين في زمن النبي ﷺ وموازينهم يقوم تبع (بتشديد الباء) وأن أولئك مع عظم بطشهم هلكوا فكيف بهؤلاء مع قلة شأنهم بالنسبة لأولئك
- (٥) الاستدلال على البعث بدليل عقلي ، فيقال : « اذا لم يكن هناك بعث فهذا العالم لغولافائدة منه »
- (٦) وصف عذاب جهنم يوم القيامة
- (٧) وصف النعيم في الجنة
- (٨) انتظار العاقبة لمن تكون ، المرسل ، أم للكافرين

﴿ التفسير اللفظي ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(حم) تقدم الكلام عليها في السور السابقة (والكتاب المبين) أي المبين ما يحتاج اليه الناس من حلال وحرام وغير ذلك ، وهذا قسم جوابه قوله (إنا أنزلناه في ليلة مباركة) أي أنزلنا القرآن في ليلة القدر بأن بدأنا إنزاله فيها ، ثم أنزل بعد ذلك نجوما في عشرين سنة ، وإنما كانت مباركة لبركة ما نزل فيها من القرآن ولأنها يستجاب فيها الدعاء ، وتنزل فيها الملائكة والرحمة ، وهي ليلة مجهولة ، وأكثر الأقوال انها في شهر رمضان ، ثم استأنف بذكر جلتين تبيينان المقتضى للائزال . فقال : (إنا كنا منذرين * فيها يفرق كل أمر حكيم) يقول إنما أنزلنا القرآن لأن من عادتنا الاذار بالعقاب حتى يخاف الناس بطشنا ، وإنما خصصنا بهذه الليلة لأن انزال القرآن من الامور ذات الحكمة ، وهذه الليلة فيها يفصل كل أمر محكم ، ففيها نكتب أرزاق العباد وآجالهم وأعمالهم فتعرف الى ليلة القدر التالية ، ولما كان القرآن أهم الامور المحكمة أنزلناه فيها . ثم قال أعنى بهذا الأمر (أمرا) حاصلنا (من عندنا) كما اقتضاه علمنا وتدينا ، يريد بذلك أن هذه الامور التي نكتب في صحائف الملائكة ليلة القدر هي التي اقتضاها علمه القديم ، وحكمته الواسعة ، وعنايته الشاملة ، إذ أن هذه الامور التي تفرق في تلك الليلة شأنها عظيم . ثم قال : وإنما يفرق فيها كل أمر حكيم من عندنا لأننا من شأننا ارسال رحمتنا ، ولا جرم أن فصل الامور ونظمها وتحديد درجاتها من الله تعالى وهذا قوله (إنا كنا مرسلين * رحمة من ربك) وفي ذكر الرب تبيان مناط الرحمة ، فهي رحمة من الرب ، والمرابي لا يعطى إلا بقدر كما يفعل بلين الأم ، وكما يعطى المعلم تلميذه على مقدار استعداده ، فتبين الأرزاق والأحوال وانزال القرآن في أوقات خاصة . كل هذا رحمة مصحوبة بالتربية ، والرحمة متى قيدت بالتربية كانت تامة بخلاف الرحمة المهملة بلا انتظام فانها ضائعة ، هذا معنى ذكر الرب ، وإنما أضاف الرب اليه اشارة الى انه يرييك ، وعلى ذلك تكون أعماله ^{صلى الله عليه وسلم} ستكون بنظام وحكمة ، ورحمته مصحوبة بتربية الأمة (انه هو السميع) لأقوال العباد (العليم) بأحوالهم (رب السموات والأرض وما بينهما) بدل من ربك (ان كنتم موقنين) أي ان كنتم من أهل الايقان فاعلموا ذلك (لا إله الا هو) إذ لا خلق سواه (بجي وبجيت) هو (ربكم ورب آبائكم الأولين) وقرئ الوصفان بالجر على البدل أيضا (بل هم في شك يلعبون) أي انهم ليسوا موقنين لما ارتطموا فيه من الشك والعب (فارتقب) فانتظر (يوم تأتي السماء بدخان مبين) (١) يوم شدة وبجاعة فتقل الأمطار ولقلتها يظلم الهواء ويكثر الغبار (٢) أو يأتي شرّ غالب يعبر عنه العرب بلفظ دخان (٣) أو ان الجائع يحيل له أن يينه وبين السماء دخانا ، ولقد فحط العرب حتى أكلوا جيف السكلاب وعظامها (٤) أو هو دخان بجي قبل قيام الساعة ولم يأت سابقا ، وقد جاء في الحرب الكبرى التي بدت سنة ١٩١٤ ميلادية فان الدخان كان فيها من أعظم الآلات الحربية ، وقد اخترعه الألمان وصارسته وعادة ثابتة حربية ، فيكون الدخان عند العرب الأولين قحطا ، وعند المسلمين الحاليين حرا با وهلا كما سيأتي إنشاحه ، فارتقب الدخان العرب مم البطشة الكبرى يوم بدر ، وينتظر المسلمون اليوم حوادث كبرى ، فان لم يرجعوا عن جهلهم وزغائهم الجاهلية هلكوا ، وقوله (يعشى الناس) أي يحيط بهم وهو صفة للدخان وهو منطبق على دخان الحرب الماضية ، فان الدخان يدخل الخنادق ، ويحيط بالبحارين من كل جانب ، ويكون قطعاً مظلمة عظيمة كالسحب العظيمة تحيط بالناس حال كونهم قائلين (هذا عذاب أليم * ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون) أي سنؤمن ان تكشف عنا العذاب ، وهذه عادة الناس انهم اذا وقعوا في شدة أيا كانت يعدون بالتوبة والرجوع عما هم فيه ، ولكن

الأخلاق الثابتة والملكات المتمكنة تمنع أصحابها من فعل الخير ، ولذلك قال : (أتى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون) أى كيف يذكرون ويتعظون ويفنون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب وقد جاءهم ما هو كافي في رجوعهم الى الصواب فلم يرجعوا إذ أرسلنا اليهم رسولا أتى بالمعجزات فلم يؤمنوا ، يقول : التوبة إما أن تكون بما ينال الناس من النوائب ، وإما أن تكون بما يتضح لهم من الحقائق ، وهؤلاء قد اتضحت لهم الحقائق فلم يفقهوا فأخذنا نعاقيهم ، وكيف يرجعون بالعقاب وقد ذكرناهم بالآيات وظهور الحقائق التي هي في مجموعها أنجح أثرا من العقاب ، فأعرضوا عنها ، وقال بعضهم انما يعلمه غلام أعجمي لبعض قبيص ، وقال آخرون : انه مجنون تلقى اليه الجن هذه الكلمات حال ما يعرض له الفشى . هذه أحوال هؤلاء الكافرين ومع ذلك نكشف عنهم العذاب قليلا (إنا كاشفو العذاب) كشفا (قليلا انكم عائدون) الى الكفر الذي كنتم فيه لما غلب على طباعكم ، ولما كان العذاب القليل لم يؤثر والاصلاح بالعلم والإيمان لم يقد أمهلناكم الى يوم البطشة الكبرى حيث لا توبة بعدها فننقم (يوم نبطش البطشة الكبرى) يوم القيامة أو يوم بدر (إنا منتقمون) أى ننقم منهم في ذلك اليوم .

الاعتبار بأمر فرعون

وقياس أمر هؤلاء على أمره ، وقد تم ذلك كله

قال تعالى (ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون) امتحناهم بإرسال موسى ، وتوسعة الرزق عليهم ، وامهالهم كما امتحنا هؤلاء بإرسال النبي ﷺ (وجاءهم رسول كريم) على الله وفي نفسه (أن) بمعنى أى المفسرة (أتوا الى عباد الله) أى سلموا الى عباد الله وهم بنو اسرائيل ولا تبقومهم في الذل والمهانة كقوله «أرسل معنا بنو اسرائيل ولا تعذبهم» (إني لكم رسول أمين) على رسالتى غير منهم (وأن) هى كالأولى (لا تعالوا على الله) أى لا تستكبروا على الله بالاستهانة برسوله ووجه (إني آتيتكم بسلطان مبين) بحجة واضحة تدل على أتى نبي (وإني عنيت بربي وربكم أن ترجون) أى التجأت اليه وتوكلت عليه ان تشتمون وتقولوا هذا ساحر أو ترجون بالحجارة ، والمعنى انه عائد بربه متكل على انه يعصمهم ومن كيدهم ، فهو غير مبال بما كانوا يتوعدونه به من الرجم والقتل والأذى (وان لم تؤمنوا لي فاعزلون) فكونوا بمعزل مني لاعلى ولا لى واعتزلوا أذى باليد واللسان ، ومع هذا كله لم يؤمنوا (فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون) كما جاء في آخر السورة السابقة «وقيله يارب ان هؤلاء قوم لا يؤمنون» جاءت هذه السورة لبيان نتيجة القيل هناك ، فاذا قال هنا «أن هؤلاء قوم مجرمون» فهو تعريض بالدعاء عليهم بذكر ما يوجب وهو الاجرام ، فهكذا في السورة السابقة عدم الإيمان سبب للدعاء ، ثم قال : «فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون» * ولما ذكر هنا أمر قوم فرعون ودعاء نبيهم عليهم سعيه بذكر النتيجة ليكون تبيانا لعاقبة أوامرك ، فهذه من المناسبة بين السورتين ، فقال الله ان كان الأمر كذلك (فأسر بعبادى ليلا انكم متبعون) سببكم فرعون وجنوده (واترك البحر) اذا قطعت أنت وأصحابك (رهوا) ساكنا فانركه على حاله حتى يدخله فرعون وقومه ، يقال ان موسى لما قطع البحر رجع ليضربه بعصاه ليلتم وخاف أن يتبعه فرعون بجنوده فقال لموسى اترك البحر كما هو حتى يدخلوه (لأنهم قوم مغرورون) فأخبر موسى بفرقهم ليطمئن قلبه في ترك البحر كما هو (كم تركوا) بعد الفرق (من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم) مجلس شريف حسن (ونعمة) وعيش لين رغد (كانوا فيها) في تلك النعمة (فاكفين) أى ناعمين (كذلك) أفضل بمن عصاني من عبادى (وأورثناها قوما آخرين) عطف على تركوا ، المراد أن قوما غير بنى اسرائيل دخلوا مصر ، وذلك انه بعد هذا التاريخ تغلب على مصر الآشوريون والبابليون تارة ، والحبش مرة أخرى ، والفرس مدة ، واليونان

آونة ، والرومان أخيرا ، ثم أمة العرب ، ثم الطولونيون ، والاشعديون ، والفاطميون ، والمماليك البرية والبحرية ، والترك ، والفرنسيون ، والانجليز ، وهانحن أولاء الآن في مصر نجاهد في خروجهم منها ، أما بنو اسرائيل فلم يتغلبوا عليها (فما بكت عليهم السماء والأرض) مجاز عن عدم الاكتراث ، وهذا التعبير يكثر ذكره في كلام العرب فيقولون : « بكت عليهم السماء ، وكسفت لمهلكهم الشمس » كما قال الشاعر يرثي عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى :

الشمس طالعة ليست بكاسفة * تبكي عليك نجوم الليل والقمر

ويروي في الأخبار أن المؤمن يبكي عليه مصلاه ، ومحل عبادته ، ومصعد عمله ، ومهبط رزقه ، فأما هؤلاء فلا بكاء عليهم ، والمعنى ما علمت وهو الاكتراث وعدمه (وما كانوا منظرين) مملين وقتا (ولقد نجينا بني اسرائيل من العذاب الملهين . من) استعباد (فرعون) وقتله أبناءهم (لانه كان عاليا) جبارا متكبرا (من) المسرفين) في العتو (ولقد اخترناهم) بني اسرائيل (على علم) علمه الله تعالى فيهم (على العالمين) على زمانهم (وأنتناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين) نعمة بينة كغلق البحر ، وظليل الغمام ، وانزال المن والسلوى الخ أو الرناء والشدة .

رجوع الى مشركي مكة

قال الله تعالى (إن هؤلاء ليقولون إن هي إلاموتنا الأولى) أي لاموته إلا هذه التي نموتها في الدنيا (وما نحن بمنشرين) بمبعوثين بعد موتنا (فأتوا بآياتنا) خطاب لمن وعدهم بالنشور وهم النبي والمؤمنون (إن كنتم صادقين) أنا نبئت أحياء بعد الموت ، فقد طلبوا من النبي ﷺ أن يجي لهم قصي بن كلاب

تخوف مشركي مكة بأن قوم تبع (بتشديد الباء) أقوى منهم فهلكوا لما كفروا

قال تعالى (أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم) كعاد وثمود ، كأنه قيل ما حالهم ؟ فقال : (أهلكناهم انهم كانوا مجرمين) واعلم أن ملوك حير (بكسر الحاء وسكون الميم) طبقتان : الطبقة الأولى ملوك سبأ وريدان من سنة ١١٥ قبل الميلاد الى سنة ٣٧٥ بعد الميلاد ، والطبقة الثانية ملوك سبأ وريدان وحضرموت والشحر وغيرهما من سنة ٣٧٥ بعد الميلاد الى سنة ٥٣٥ بعد الميلاد أولهم شمريرعش وآخرهم ذونواس ثم ذوجدن ، وهذا لم يحكم ، ومنهم ذوالقرنين أو أفریقش وهو الثاني من ملوكهم يسمى الصعب ، وبعده عمرو زوج بلقيس وتسمى الفارعة ، ثم الهدهاد أخوها ، ثم ملكيكرب ، ثم أبوكرب أسعد ابنه ، ثم حسان بن سعد ، ثم شرحبيل ، ثم شرحبيل بنوف ، ثم معدى كرب بنم وابنه ، ثم مرثد ، ثم ذونواس

هؤلاء هم الذين ثبتوا في العصر الحاضر في الآثار والنقوش القديمة ، وهؤلاء هم التابعة جمع تبع ، وهذا اللقب أشبه فرعون عند المصريين ، ويشترط لتبع أن يملك الشحر وحضرموت . وأما الطبقة الأولى فتسمى دولة سبأ وقبلها دولة معين ، وهذه الأخيرة لم تكن معروفة في كتب أسلافنا ، واعلم أن الذين اشتهروا من هؤلاء الملوك في كتب أجدادنا ثلاثة وهم : شمريرعش ، وذوالقرنين أفریقش (الصعب) ، وأسعد أبوكرب ، فذكروا في الأول انه دخل العراق وفارس وخراسان والصفد وراء جيحون قتلت الجهم (شمرقند) أي شمرخوب ، وبنى مدينة هناك سميت باسمه ، وعربها العرب فصارت (سمرقند) وملك بلاد الروم ، وهذه الروايات مبالغ فيها ، ولا مانع من مهنها ، ولكن يعوزها تقوية الآثار لها وكتب الأمم المعاصرة لهم ، وذكروا في الثاني انه فاتح بلاد المغرب (أفریقیة) وهو الذي قتل قبائل العرب بها ، وهذه أيضا مبالغ فيها وربما صح بعضها ، وذكروا في الثالث انه غزا أذربيجان ولقي الترك وهزمهم وقتل وسبي ، ثم رجع الى اليمن ، وهادته ملوك الهند ، ثم رجع لغزو الترك ، وبعث ابنه حسانا الى الصفد ، وابنه يعفر الى الروم ، وابن

أخيه شمرا الملقب بذي الجناح الى الفرس ، وأن شمرا لقي ملك الفرس فهزمه ، وهكذا ملك سمرقند ، وجاز الى الصين فوجد أخاه حسانا قد سبقه اليها ، فانتصرا ورجعا بالفنائم ، وبعث ابنه يعفرالى القسطنطينية ، فغضبوا له ، ثم سار الى رومه وحصرها ، ووقع الطاعون في عسكره ، فهجم عليهم الروم ولم يفلت منهم أحد ثم رجع الى الصين ، وزعموا انه ترك في بلاد الصين قوما من جبر وانهم بها لهذا العهد اه
وأنت خير أن هذه أقاصيص خيالية ، وإنما ذكرتها لتقف على ما كتب ، وإنما الآية في قوم تبع ولم تخص واحدا من هؤلاء ، يقول الله : أهؤلاء أهل مكة الذين لاملك لهم ولاسلطان ولا دولة خير أم قوم تبع الذين هم أقوى ملوك اليمن ، وهم أقرب الى زمانكم ، وأخبارهم أقرب اليكم لاسيما مع المبالغات التي تروى عنكم وقد عرفتها ، فهؤلاء أهلكناهم ، فكيف بكم أنتم أيها الضعفاء بالنسبة لهم ، هذا هو مغزى القرآن الذي يفتح لنا باب التاريخ في غضون المواعظ ليككون السلم ملما بالأحوال ، عارفا بالأخبار ، يقظا في جميع الأعصار ، فلتقرأ أيها الذكي العلم والحكمة ، ولتحمد الله معي على جلال العلم وبهاء الحكمة الصادقة ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم .

ذكر البرهان العقلي على البعث

بعد الاخافة بالمواعظ التاريخية

يقول الله : أيها الناس ، أنا خلقت السموات والأرض ، وأدرت الشمس والقمر ، وأنزلت السبل ، ونظمت أحوال المعاش ، ورتبت كل شيء ، وجعلت الجبال باديا في جليل الامور وحقيرها ، ولم أذر ذرة إلا نظمتها ، ولا حبة إلا رتبنا ، ولا عملا إلا أحكمته ، انظروا الى آثار الحكمة في الأنوار ، وفي الشمس ، وفي النبت ، وفي أجسامكم الانسانية ، والأجسام الحيوانية ، انظروا في ذلك كله ، هل نظمت عابثا ؟ أو خلقت باطلا ؟ أخلق مالا مستقبل له ؟ إذن فلماذا هذا الاحكام والانعام ! ولماذا هذه النظم القويمة ، والعجائب العظيمة والرحمة العميمة ، أأذر هذا كله كاطباء في الهواء ، والعصف في الصحراء ، والضلال في اليبداء ، وعمل أرباب الرياء ، وكسر الطفل للانهاء ، وتلهيه بالبيغاء ، وجريه في العراء ، أنهى عن الضلال وأبغىه ؟ أم أمر بالبر ؟ وأنا من مانعيه ؟ أم أمنع الشر وأقع فيه ، كلا ، أيها الناس : فلكونوا مفكرين ، وفي أعمالكم مستبصرين ، وهذا قوله (وما خلقتنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين) لاهين ، أنا خلقناهما وجعلنا فيهما الحياة والرزق والعلم والصدق (ما خلقناهما إلا بالحق) بالجهد لا باللعب ، ومن اللب أن أخلقكم في الأرض غافلين ، ثم أعدم أرواحكم هالكين ، كمن يوقد المصباح في النهار ويطفئه ، ويفتل الحبل ويتقضه ، ويبني البناء ، وفي الحال يهدمه ، لا سبب إلا هواء ، وللانليل إلا ما جناه ، فصل البلهاء ، والأذلة الجبناء ، الذين لا يعتلون (ولكن أكثرهم لا يعلمون) لقلة نظرهم ، ولوانهم فكروا بعقولهم لأدركوا وعرفوا أن من يخلق الجسم الانساني وقد حافظ على حياته وبقائه أمدا طويلا في الدنيا بما دبر في صنعه من عين تبصر النافع والضار ، وأنف يشم ما يصلح للغذاء وما لا يصلح ، وذوق يميز الخبيث من الطيب ، وأذن تسمع صوت العدو المهاجم ، والصديق الملائم ، وعقل يحكم في سائر القضايا ، ويدفع المهاجم ، وتجلب النافع ، ورجل يكون بها الطلب والطرب ، وأحشاء تهضم الطعام وتدفع ما فضل ، وأمور أخرى لا يسع تفصيلها . إن من هذا فعله وهذه رحته لا يدر هذه الأرواح تخطو الى العدم بعد هذه النعم ، فلو عملوا ما نظمناه ، لأيقنوا بما تكون عقبا ، ولذلك أعقبه بقوله (إن يوم الفصل) فصل الحق من الباطل ، والحق من المبطل بالجزاء (ميقاتهم أجمعين) وقت مواعدهم (يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا) يوم لا يدفع ولا يشفع أى قريب عن أى قريب آخر شيئا فلا يشفع له ولا يدفع عنه أى شيء . من عذاب الله (ولا هم ينصرون) أى ولا الأولياء يمنعون من عذاب الله (إلا من رحم الله) من المؤمنين فإنه يشفع بعضهم في بعض ، فالعالم يشفع لمن تعلم منه ، والشهيد

يشفع ، والأنبياء يشفعون ، وتلك الشفاعات في الآخرة تابعة للاقتداء في الدنيا ، فهمي أثر من آثار العلم والتعليم كما أوضحناه في (سورة البقرة) أيما إيضاح (إنه هو العزيز) لا ينصر من أراد تعذيبه (الرحيم) لمن أراد أن يرجه

وصف العذاب لأهل النار

قال الله تعالى (إن شجرة الزقوم) شجرة على صورة الشجر في الدنيا ، والزقوم ثمرها ، وتقدم الكلام عليها في (سورة الصافات) (طعام الأنيم) الفاجر الكثير الآثام ، وروى أن أبا الدرداء كان يقرئ رجلا فكان يقول : طعام اليتيم ، فقال قل طعام الفاجر يا هذا ، وبهذا استدلوا على أن ابدال كلمة بكلمة جائز إذا كانت مؤدبة معناها ، ولذلك أجاز أبوحنيفة رضى الله عنه القراءة بالفارسية بشرط أن يؤدى القارئ المعاني كلها على كمالها من غير أن يحرم منها شيئا . قالوا : وهذه الشريطة تشهد أنها اجازة كلا اجازة لأن كلام العرب فيه من الدقائق والنظم ما لا يحل محله لغة أخرى فيه لافارسية ولا غيرها ، وروى رجوعه الى قول صاحبيه وعليه الاعتقاد ، وقوله (كلهل) أى مثل دردى الزيت الأسود ، ويقال كالفضة الغدابة (بغلى فى البطون) فى بطون الكفار (كغلى الحميم) أى كالماء الحار إذا اشتد غليانه ، ثم يقول الله للزبانية (خذوه فاعتلوه) جرتوه وادفعوه وسوقوه بالعنف ، والضمير للأنيم (الى سواء الجحيم) أى الى وسط النار (ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم) قيل ان خازن النار يضرب على رأسه فينقب رأسه من دماغه ، ثم يصب فيه ماء حيا قد انتهى حرقه ، ثم يقال له (ذق) هذا العذاب (إنك أنت العزيز الكريم) أى عند قومك بزعمك يقال ان أبا جهل كان يقول : أنا أعز أهل الوادى وأكرمهم فيقول له ولأمثاله خزنة النار هذا على طريق الاستخفاف والتوبيخ (ان هذا ما كنتم به تمترون) تشكون فيه ولا تؤمنون به .

وصف أهل الجنة

قال الله تعالى (إن المتقين فى مقام أمين) أى فى مجلس أمنوا فيه من غيرهم (فى جنات وعيون يلبسون من سندس واستبرق) السندس مازق من الديباج ، والاستبرق ما غلظ منه وهو معرب استبر ، حال كونهم (متقابلين) فى مجالسهم وهوائهم للانس (كذلك وزوجناهم) وقرانهم (بحور عين) والبحوراء البيضاء ، والعيناء عظيمة العينين ، وهل هن نساء الدنيا أو غيرهم ؟ لا يعلم ذلك إلا الله ، وليس هنا تزويجا كتزويج الدنيا بل هو مجتمع دائم من غير كلفة (يدعون فيها) يطلبون ويأمرون (بكل فاكهة) باحضار ما يشتهون من الفواكه لا يتقيدون بزمان ولا بمكان (أمين) من الضر ، ومن نفاذ الفواكه ، ومن الموت والنصب والشيطان والمرض والكبر والضعف (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) بل يحيون فيها أى لا يذوقون فى الجنة الموت لكن الموتة الأولى ذاقوها . ويقال بوجه آخر : إن الحياة الدنيا عند الأصفياء متصلة بالحياة الأخرى ، فكأنهم عند الموت دخلوا الجنة ، فهم حين يموتون يكونون فى نفس الجنة ، فقوله «إلا الموتة الأولى» استثناء متصل على هذا الوجه ، وكأن الموتة المعلومة وجدت فى نفس الجنة لأن الروح وقت خروجها تكون فرحة متمتعة بروحها وريحانها ، وهذا المعنى الذى قاله المفسرون هو الذى نطقت به الأرواح . فقالوا : «إن النفوس الشريفة التى كرهت العلائق الدنيوية واطمأنت ولبست لباس الحكمة إذا حل بها الموت تكون متيقظة مستبشرة ، لا يهمها أنها نقلت من حال الى حال ، بل ترى أنها دخلت فى حظيرة السعادة ، وساحة السلامة ، أما الأرواح التى لم تتجرد من علائق الدنيا فانها إذا ماتت نظرت فرأت لها جسما كالجسم الذى كان لها فى الأرض ، ويحصل لها دهش كدهش النائم بين اليقظة والنوم ويصبح العقل الانسانى كالغشى عليه ، فهذه الروح تبقى أياما أو أشهرا أو سنين وهى فى بهت ودهش ، ثم تنجلي عنها

الغياض شيئاً فشيئاً ، وتتأمل في ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، وتعرف ما الذي قطعته في هذه المرحلة الأرضية وماذا صنعت لرفيها وأسعادها وسفرها الطويل ، وهنا يكون الفرح العظيم ، أو الشقاء الطويل ، والندم والعيوب والألم الويل . إن ذكر الموت يشعر بألم ، لكن الأرواح الشريفة عند الموت لانحس - بذلك الألم لأنه ثبت أن الألم إنما يكون بالاحساس ، والموت هو أخذ الروح في الانفصال عن الجسم ، والانفصال عن الألم ليس ألماً ، وإذا كان التنويم المغناطيسي لا يحس - معه الموت عند التنويم بألم من حيث هو تنويم ، فما بالك بالموت وهو النوم الأتم ، بل هو عند الناس أخوالعدم ، وإنما ألم الناس عند الموت للفراق لأنهم ظنوا أنه لا وجود إلا في هذه الأجسام فصعب عليهم فراقها ، وحزنوا على مفادرتها ، فظنهم أن لحياتها بعدها ، ولاجرم أن النفوس الشريفة لانتهال للموت ، ولا تحزن للفراق ، لأنها ترى أنها خرجت من سجنها ، ودخلت في نعيمها ، فهي لا تألم بالموت ، بل تفرح به ، لذلك أعقب ذكر الموت المشعر بالألم بقوله (ووقاهم عذاب الجحيم) فلا يحسون بألم الفراق ، ولا يوحز الضمير الذي يشعر به من تعلق قلبه بالدنيا وهو مذنب ولا يخاف من عذاب النار الجسمية ، كما لا يخاف من النيران القلبية ، أعطوا ذلك (فضلاً) عطاء وتفضلاً (من ربك ذلك) المذكور (هو الفوز العظيم) لأنه خلاص من المكروه وفوز بالمطلب . ولما أتم المقاصد التي أراد ذكرها في هذه السورة لحصها فقال (فإنما يسرناه بلسانك) سهلناه حيث أنزلناه بلغتك (لعلهم يتذكرون) لعلهم يتعظون ويفهمون (فارتقب) فانتظر ما يحل بهم كما حلّ بقوم نوح ﴿ بشديد الباء ﴾ وقوم فرعون (انهم مرتقبون) ما يحلّ بك . انتهى التفسير اللفظي

لطائف هذه السورة

- (١) في قوله تعالى : « إنا أنزلناه في ليلة مباركة »
- (٢) في قوله تعالى : « فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين الخ »
- (٣) في قوله تعالى : « وما خلقتنا السموات والأرض وما بينهما لاعين »

اللطيفة الأولى

في قوله تعالى : إنا أنزلناه في ليلة مباركة

اعلم أن الأيام والليالي وجميع الأزمنة وكذا الأمكنة لا يفضل لواحد منها على الآخر من حيث هو زمان أو مكان ، وإنما فضل كل باعتبار ما حلّ به من عبادة أو عمل صالح أو علم أو ظهور حكمه ، وعلى ذلك ما جاء في هذه الآيات وتخصيصها بما جاء فيها من قسم الأرزاق أو استجابة الدعاء أمر إلهي أراد الله كما خص الوجه بالعينين ، والسدر بالقلب ، والرحم بالجنين ، واليد بالبطش ، والرجل بالمشي ، فهو الذي يخصص الأزمنة والأمكنة كبعض الأماكن المقدسة عند الناس ، ولقد أخفى تلك الليلة حتى يكون الإنسان في كل وقت مشعراً للطاعة ، منقاداً للأوامر ، كما أخفى يوم الموت ، ولذلك أراني كلما وصلت إلى تفسير سورة أحد الله إذ أبقاني حتى وصلت إليها . ومن أعجب الأمور ما سأقصه عليك من نبأ هذه السورة وهي الدخان ، فاني منذ نحو عشرين سنة قبل الحرب الكبرى بنحو عشرين سنة كتبت رسالة طلبها مني الاستاذ ذاكر أفندي القادري لأرسلها إلى بلاد القازان ، فألفتها وسميتها ﴿ الرسالة القازانية ﴾ وفيها نبأ عن الدخان المذكور في هذه السورة وعن تفسير أمة الاسلام اليوم ، وعن معجزة القرآن بذلك ، وما كنت أعلم أني أعيش حتى أرى الحرب الكبرى وقد ظهر فيها الدخان بأجلى مظاهره معجزة للقرآن كما ستره ، وما كنت بالأولى أظن أني أعيش بعد ذلك حتى أفسر القرآن أو أصل إلى هذه السورة وأقص هذا القصص وأكتب الرسالة التي نشرت

في مصر وفي بلاد الاسلام مشيرة الى هذه السورة ، كل ذلك كان مجهولا عندي ، فلما وصلت الى هذه السورة في التفسير حدث الله عز وجل إذ تجلي لي نور الحكمة في هذه السورة ، وأشرقت الأرض بتور ربها ، والحمد لله رب العالمين .

ثم اعلم أن الانسان ما عمل عملا إلا كان للمسكان وللزمان استحضار ذهني في ذلك العمل ، حتى ان الانسان اذا ذكر عملا من الأعمال ، أو اثرا من الآثار ، أو حادثا من الحوادث كان الزمان والمسكان لهما معه ، فلذلك نزل القرآن على وفق ما اعتاده الانسان من ذكر الزمان أو المسكان ، وهذا من حكمة القرآن والى هنا تم الكلام على اللطيفة الأولى

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم
ليكن الكلام في هذا المقام على قسمين : القسم الأول في العذاب الذي يستحقه المذنبون ، القسم الثاني في الدخان وزواله على المذنبين

بيان القسم الأول وهو استحقاق العذاب لأجل الذنوب

اعلم أن الذنوب على ثلاثة أقسام : سلبية ، وقلبية ، وجسمية . فالسلبية هي الآثام التي يتحملها الانسان باهماله ما يقدر عليه من عظام الامور ، وتركه ما في استعداده من المنافع العاتمة ، فكل من أعطى مالا أو ذكاه خارقا للعادة ، أو منصباً ، أو ذكرا حسنا ، أو قوة نافعة ، ثم سكت عن العمل بها أو صرفها فيما هو أفضل من طاقتها عذب في الدنيا والآخرة عذابا شديدا (بيانه) أن أمة الاسلام اليوم أكثرهم من أهل الشرق وأهل الشرق هم أهل الديانات ، وأهل الفلسفة ، وأهل الحكمة ، ولقد سكتوا عن الحكمة حيناً من الدهر وناموا مئات السنين ، فانظر ماذا فعل الله فيهم ، قال الله لهم قولا بلسان الخال : إى عبادى ، ألم أعطيكم بلاد الشرق ، ألم أضىء شمسكم ، ألم أنور قركم ، ألم أجعلكم في أرض خصبة ؟ ستقولون بلى ياربنا ، فيقول ألم أجعلكم أذكي الأمم ، فان كنتم في شك من ذلك فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر ، إن الأنبياء منكم ، والعلماء منكم ، والحكماء منكم ، خرج الأنبياء من الشام ، ومن جزيرة العرب ، وخرج الحكماء من الهند ومن الصين ، فإعبادى أتم من نسلهم ، فالعقول راجحة ، والأرض خصبة والسما صافية ، والنعم متوافرة ، وأنتم يا عبادى عطلمت نعمى ، عطلمت مواهبى ، عطلمت ما وهبت لعبادى من المنافع ، فأنتم العقول ، وعكستم آية العلم والحكمة ، فبحق أقول : انى لم أخلق العالم سدى ، بل خلقت الخلق لغاية ، وأنتم وقفتم في طريقها ، فأنا الحكيم العليم ، سلطت عليكم من يسوسونكم ويسومونكم سوء العذاب ، ويستخرجون منافع أرضى ، ويفهمون سمواتى ، ويفرحون بنعمى ، ويشكرون مواهبى هذا هو العقاب الذي يراه الشرقي والمسلم اليوم متجليا أمام عينه ، ولا يعلم أنه معذب ومهان ، فالناس معذبون ولا يعلمون أنهم معذبون ، هذا هو المسمى عذاب الخزي في الحياة الدنيا والعذاب الآخرة أخزى والله هو الحكم العدل

هذه هي الذنوب السلبية وهي أسوأ الذنوب وان كان أكثر الناس لا يعلمون ، وتسمى في ديننا فرض كفاية ، ولكن المسلمون اليوم قلما يفكرون في هذا ، واليوم سيفكرون

القسم الثاني وهو الذنوب القلبية

اعلم رعاك الله أن تلك الذنوب ترجع الى الحسد والحقد والطمع والشهه ، ويلحق بها الغيبة والنميمة

وأمثال ذلك ، وهي ترجع الى قسمين : الغضب ، والشهوة ، فكل ما يحجم عن حب الشهوات ، وعن القوة الغضبية من ذلك فهو صادّ للإنسان عن المعالي ، وهذا القسم أوضحه الامام الغزالي في الاحياء في الجزء الثالث وهذه الذنوب أقسى وأشد من الذنوب الظاهرية لأنها ملامسة للقلب محيطة به

القسم الثالث : الذنوب الجسمية

وهي ضربان : ذنوب أقامت لها الشرائع الحدود والأحكام لأنها مضبوطة معلومة كالزنا والقتل والسرقة وأوشرب الخمر وما أشبه ذلك ، وضرب ليس بمضبوط ولم يكن له في الشرع حدود ولا أحكام ، وهذا القسم عسر كثير القروع وذلك كالأكل فوق الشبع ، وكتعاطي الأغذية التي لا توافق الجسم ، وكالتوم كثيرا ، وكالتعرض للبرد ، وللحر الشديد . وبالجملة كل ما يؤذي الانسان في جسمه أو عقله . فهذه أحوال لا ضابط لها . ولم يرد لها في الشرائع رادع ولا زاجر إلا أوامر عامة ونصائح كلية كقوله تعالى : « كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » ومن هذا القسم الاسراف في تعاطي تجارة الأمم القوية العظيمة ، فانهم يضعفون على أذقان الأئمة الجاهلة ، ويستنفدون مالههم من المال بما يبيعون لهم من الملابس البهجة والزينة البديعة ويفشون على عقولهم ، فهذا من التجارة المباحة ، ولكنها تنتهي بخراب البلاد ، وهكذا من يكثرون التمتع بالذات المباحة من مأكل وملبس ومشرب ونساء ، فهؤلاء يضعفون أيام حياتهم ، ونفوسهم تعيش في قص وتموت على ما عاشت عليه

فهذه الأقسام الثلاثة من الذنوب عقابها حاضر عند الأمم والأفراد ، فمن القسم الأول ذهب أنواع العلوم والصناعات ، ونتيجة ذلك تهقر المسلمين والشرقيين . ومن القسم الثاني العداوة والحسد والبغضاء بين الأحزاب والجماعات في الشرق ، وتعدّد الفرق الجاهلة الغيبة ، وذلك يمكن العدو منهم ويصدهم عن العلوم فان الذي يضع وقته في مدافعة أقرانه وأعدائه لا يجد وقتا يتفرغ فيه لتكميل نفسه ، فالانهماك في الذنوب القلبية يتبع نقص العلوم أي ان القسم الثاني من الذنوب يتبع القسم الأول منها . وأما الذنوب الجسمية كالسرقة والزنا وما أشبههما فعذابها في الدنيا ظاهر وهو الأحكام التي يقيمها القضاء بين الناس والحبس والتعزيم ، ثم احتقار الناس للمجرم واهاته ، وهذا عذاب ظاهر في الدنيا . وأما الذنوب التي لا ضابط لها فهي أدهى وأمرّ وقد شرحت لك بعضها وبها تكون الأمراض والعلل ، وبالأمراض والعلل يختل أمر الجسم ويتبعه ضعف العقل ، وهناك نسب واتصال بين جميع الذنوب فانه يتبع بعضها بعضا وتصبح دائرة أوطأ آخرها

إذا ثبت لك هذا علمت معنى قوله تعالى : « يوم نبطش البطشة الكبرى انا منتقمون » وقوله أيضا « هذا عذاب أليم » وما روى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : « ما من خدش عود ، ولا عثرة قدم ، ولا اختلاج عرق إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر » وما روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه . قال : « ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله تعالى حدثنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ، وسأفسرها لكم يا علي : ما أصابكم من مصيبة أي مرض وعقوبة ، أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم الخ » . وقال عكرمة : « ما من نكبة أصابت عبدا فبما فوقها إلا بذنب لم يكن الله ليغفر له إلا بها » فهذه الأحاديث وأمثالها لا يمكن معرفة حقائقها إلا بمعرفة ما تقدم . انظر كيف ذكر عثرة القدم ، وعثرة القدم تكون لسوء العادة في المشي ، أو الخلل في الطريق مثلا ، فسوء العادة في المشي يرجع لعدم الكمال والنظام في المشي ، وهذا من الذنوب التي ليست مضبوطة من أحد قسمي الذنوب الجسمية ، وأما الخلل في الطريق فذلك لكساد العلوم وتأخر النظام المدني ، وهذا بسبب ترك نظام الطرق فيعتبر الانسان لذلك ، وهذا ذنب عام فان اصلاح الطرق ونظام المدن من فروض الكفاية وفرض الكفاية يعاقب عليه عموم الأمة ، فهذا

من عقاب الله في الحياة الدنيا ويستمر العذاب يوم القيامة ، وذلك لأن عمرة الرجل أضعف الصحة وكل ما من شأنه أن يعكسفو الذهن يؤخر الانسان عن تأدية بعض واجباته ، وذلك يعوقه عن رقي نفسه ، فاذا مات لم يرتفع الى درجات العالمين ، واذا اختلج عرق كما ذكر في الحديث فانما يكون ذلك الاختلاج بسبب اختلال في الصحة ، والاختلال في الصحة إما لسوء الغذاء نوعا أو زمانا أو مكانا أو مقدارا أو غير ذلك ، وكل هذا لجهل الانسان ، أولشرهه ، أو لقلته ضبطه نفسه ، والجاهل ليس بمعذور ، فبيننا ﷺ يشير بذلك الى أن الناس ينبغي لهم أن يدركوا حقائق الأشياء ، والا فالعقاب واقع دنيا وأخرى ، وذلك لاختراج المسلمين من تواكلهم واتكاملهم على أنهم دخلوا الاسلام ومتى دخلوه لا يعاقبون ، فأفهم النبي ﷺ أصحابه أن المسلم يعاقب كما هو مشاهد بالمرض أو غيره ، وذلك بذنبه ، وأما البلاء في الدنيا فهو أمر عام يشمل أنواعا كثيرة عامة وخاصة . انتهى الكلام على القسم الثالث

الدخان وارساله على المذنبين

قد عرفت فيما تقدم أن الدخان يشمل الدخان الحقيقي والدخان الوهمي كما تقدم ، والغبار الناجم من قلة الأمطار ، وهكذا يشمل ما كانت تقوله العرب من أن الشرّ الغالب دخان ، والدخان يشمل ما ذكر والدخان المحدود من أشراط الساعة . قال عليه الصلاة والسلام : « أول آيات الدخان ، ونزول عيسى ، ونار تخرج من قعر عدن أبيض تنسوق الناس الى المحشر . قيل وما الدخان ؟ فتلا رسول الله ﷺ الآية ، وقال : يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوما وليلة ، أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكام ، وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخرية وأذنيه وديره » اهـ

ويجوز أن يكون الدخان يوم القيامة . وفي حديث البخاري ان الدخان قد مضى أمره فانه أصابهم من الجوع كالظلمة في أبارهم ، أي فهو إذن دخان وهمي . وقال غيره : هو دخان قبل قيام الساعة فيدخل أسباع الكفار والمنافقين حتى يكون الرجل رأسه كرأس الخنيزق يعني المشوي ، ويعتري المؤمن كهيئة الزكام وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ، وهذا القول لابن عباس وابن عمر والحسن ثبت لك من هذا أن العلماء في الصدر الأول جعلوها تشمل دخان الجوع ودخان الغبار والدخان الذي قبل قيام الساعة والدخان الذي سيكون يوم القيامة كما تقدم ، وأيضا تشمل كل شرّ غالب . فكل هذا يطلق عليه دخان ، وأظهر المعاني الدخان المحسوس الذي قبل قيام الساعة ، وأعمّ المعاني الذي يدخل فيه هذا وغيره الشرّ الغالب سواء أكان فيه دخان أم لا . هذا بتحقيق المقام وجع الأقوال

كيف كان الدخان عذابا

جعل لغة الدخان عذابا وقد أزل على قريش . وذلك أن رسول الله ﷺ لما رأى من الناس إديارا قال اللهم سبعا كسيع يوسف . وفي رواية لما دعا قريشا فكذبوه واستصعوا عليه قال اللهم أعني عليهم بسبع كسيع يوسف فأخذتهم سنة حصت كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة من الجوع . وينظر أحدهم الى السماء فبرى كهيئة الدخان . فأناه أبو سفيان فقال : يا محمد انك جئت تأمرنا بطاعة الله وبمسلة الرحم وأن قومك قد هلكوا فذبح الله لهم . قال الله عز وجل : « فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين » الى قوله « عائدون » فهذا دخان مضى وانتهى أمره . فأما الدخان الآخر فقد ظهر في الحرب الكبرى . وهنا أرجع بك الى أول هذا المقال والبحث في الذنوب وأقسامها . وكيف يكون العذاب بسبب الذنوب واذ ذكر قوله تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم » فاذا فهمنا أن الدخان الذي سيطر على أهل مكة بكفرهم فليكن الدخان الذي سيطر على المسلمين في الحرب الماضية بجعلهم . نعم لم يم المسلمون بل كان مرسلا على عموم العساكر المحاربين

شرفيين وغيريين . والله قبل أن يخلق هذه الأجيال أنزل القرآن وأخبر أن هناك دخانا . وأخبر ﷺ أن المسلم يصيبه الدخان كهيئة الزكام ، فأما الكافر فهو كالسكران ، وأيضا تكون الأرض كلها كموقد ذلك كله لإحاطة للمسلمين وتحذير ، إن الأمم اليوم دخلت في دور من الحرب عظيم ، ويشاع أن الألمان وعدوا أن يرسلوا دخانا عاما فيهلك أمتا كثيرة ، ويقال أيضا أنهم قالوا : يمكنهم إرسال دخان في الهواء فيهلك أهل الأرض جميعا وهم معهم ، قيل : انهم قالوا لاتفعل هذا إلا اذا يقسنا من الأمم وانصافها فانظر كيف يقول : « فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين » ، وكيف يقول العلماء ان الدخان يكون من أشراط الساعة ، وكيف يقال ان الألمان سيفعلون ذلك ، وكيف يقول ﷺ ان المؤمن يصيبه كهيئة الزكام وأن الكافر يكون كالسكران

إن المسلمين اليوم في أول زمن الانتباه وعذابهم بالدخان انما يحل بهم اذا كانوا جاهلين ما بثه الله من العلوم ، الأثرى الى ما قدمناه أن هذا من الذنوب السلبية ، فراجع ماتقدم ، وهي الذنوب التي تشترك فيها الأمم كلها كترك العلوم النافعة ، فهاهوذا الدخان ظهر ، وهامهم أولاء المسلمون تنهوا ، فليستمرروا في العلم ، وليقرءوا كل ما عرفته الأمم الحالية حتى اذا أرسل الدخان كانوا منه محترسين وأصابهم الزكام كما في الحديث ، ولا يكونون من الأمم الغافلة التي ينزل بها البلاء وهي ساهية لاهية ، والانتباه إنما يكون بدراسة العلوم كلها كما قررناه مرارا في هذا التفسير

فصيبة الدخان المنتشرة في العلوم الحربية اليوم لن تذهب من ذهن رجال الحرب ، وسيكون لها شأن ولا يقلل مصائبها عن أمة الاسلام إلا العلوم . فبأيها المسلمون : بذنوبكم يقتلكم الدخان ، والذنوب هنا هي الذنوب السلبية المشروحة فيما مضى ، أتمم لا تقرأون العلوم وهذا عقاب ربكم وصدق نبينا ﷺ « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » فاذا غلبتنا الأمم فبجهلنا ، واذا سلطوا علينا الدخان ونحن غير محترسين فبجهلنا ، فالعلم هو الباب للخروج من المآزق والله هو الولي الحميد

فاذا سمعت قوله ﷺ « وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه » وسمعت قوله : « حتى يكون الرجل كالخنيذ أي المشوى الخ » عرفت أن ذلك الدخان هو الذي ظهر في حرب الألمان وهو من أشراط الساعة ، ولعلك تقول : أشراط الساعة تقوم القيامة بعدها ؟ أقول لك هذا خطأ فان الله يقول : « وانه لعلم للساعة » فجعل عيسى علامة على الساعة وقد مضى له ألفا سنة إلا قليلا ، فألاف السنين ، بل مئات الآلاف لا تؤثر في قرب هذه الامور العظيمة « إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا »

ولقد كتبت ثلاث مقالات نشرت في بلاد روسيا مترجمة باللغة القازانية كما قدمت لك في أول هذا المقال أنذر المسلمين فيه الدخان ، وقد تم ما ذكر هناك ، فها أنا ذا أكتب تلك الرسالة المسماة بالقازانية في التفسير معيدا تذكير المسلمين قائلا : إن ما أنذرتم به قد تم وظهر الدخان في الحرب والمسلمون كانوا مطمئعين الفاتحين ومرمى مدافع الاوروبيين ، ومظهر المذلة والهون ، إلا قليلا منهم كأهل الأفغان وبعدهم الفرس والترك فقد خرجوا من ذلة الاستعباد وقد كشف الله العذاب قليلا ، فليحذر المسلمون النوم ، فالوقت جد وقد أخبر ﷺ أن المسلم يعتريه زكام وأن الكافر يكون كالسكران ، فلتكونوا أتم ذلك ، المؤمن الذي قرأ العلوم فاحترس فأصابه شر قليل من الحرب المستطير . إن الأرض قادمة على حروب وأحوال فاحذروا أن تكونوا طحين الرشي ، فان كان ذلك الشر قليلا فلتكونوا من أعلم الأمم لتنجوا من شره ، وان كان بعيدا بعد مئات السنين فقد كفيتم أنتم شره ، وليكن العلم رائدكم حتى تأخذوا مكانكم بين الأمم ، واليك ملخصا من الرسالة القازانية ، وقد كنت كتبها في جريدة اللواء ونشرت أيضا في كتابي « نهضة الأمة وحياتها » المطبوع سنة ١٩٠٨ م وهاك نصها :

الرسالة القازانية

وهي عبارة عن إجابة سؤال وجهه الى المؤلف أحد شبان القازان يقول : « أبلغ علماء الاسلام المتقدمين النهاية فلا تفكر نحن بعدهم ؟ أم بقي لنا مجال للتفكير في أمر الدين ؟ » فأجابه على هذا السؤال أقول : أيها الذكي : سألتني عن مبلغ ما وصل اليه علماءنا السابقون ، وهل شادوا صروح المدنية ومهدوا سبلها وأوفوا بما عهد اليهم من القيام بما يكفل للأمة نباتها ودوامها ، ويكلاً غدوها ورواحها ، سألت من أحسنت به ظناً ومن لي بأن أكون ذلك الخبر الخبير العالم بأسرارهم ، المحيط بعلاومهم ، المطلع على جلياتهم وخفياتهم وما كان لي أن أقف حكماً في موقف عظيم مهيب ، طأطأت لعظمته رموس الرموس ، وخضعت لجلالته أكارب حكاه الشرق ، وأساطين الحكمة في الغرب ، قوم يقول فيهم الاستاذ (سديوالفرنسي) في كتابه : « إن هؤلاء الأطباء الفضام ، والفلاسفة الكبار ، والمهندسين الأجله ، والعلماء الأعلام ، في قارة أوروبا انما هم تلاميذ علماء الأندلس المسلمين ، وبرهن على ذلك بآيات بينات ، وحجج واضحة جليات ، قسم كتابه أبواباً . وأبان فيه أن كثيراً من مخترعات الادرويين ، واكتشاف المكتشفين ، كانت قبسات من أنوارهم ونضحات من أسرارهم ، عثر عليها الباحثون في كتبهم فنقبوا عن أسرارها ، واكتنوها كنهها ، ثم ترجوها فأسرقوها . وأسندوا الاكتشافات الى أنفسهم . ولقد فصل ذلك تفصيلاً في الفلك والطبيعة والكيمياء وذكر أسماء أناس غريبين في نحو القرن الرابع عشر ادعوا اكتشاف عجائب من الفلك ، فدحض حججهم بأنه إذ ذاك لم تكن صروح للوصد قائمات ، ولا بروج لبوغ أسباب السماء مبنيات ، في عواصم الشرق . أناس كانوا نوراً لله للناس فازدانت بهم الدنيا . وأشرق بهم الأرض فأفاضوه على غيرهم من الأمم الغربية

لعلك تريد بالسؤال علماء الدين كالأئمة رضوان الله عليهم فمن بعدهم ، أولئك كانوا مصابيح الدجى وأنوار البصائر ، وشموس الحق ، في آفاق الشرق

أيها الذكي : تنحصر أعمال أولئك الأئمة العظام في أمرين : خاص وعام ، فأما الخاص فذلك تفصيل فروع الفقه اذا لم يتم غيرهم مقامهم وهي أمور ضرورية كفصل الخصومات والدعاوى والميراث والعبادات ، وأما العام فأنهم قالوا : « إن عامة العلوم والصناعات التي يحتاجها الناس في حياتهم الدنيا فروض كفايات يقوم بها أناس ساعدتهم أمزجتهم ، وأسعدتهم استعدادهم لجلها ، ولم يفرقوا بين علم الفقه وغيره ففكت العقول من عقالها . ونهضت الأمة من مرقدتها وانتشرت الحرارة الحيوية وأشرق شمس العلم على ربوع البلاد فظهر فيهم أمثال المنصور والرشيد والمأمون وترجموا الكتب اليونانية الى العربية وقامت الحركة الفكرية وساروا شوطاً بعيداً في ميدان الحياة والسعادة

طويت تلك القرون كطي السجل للكتاب . وحصر علماء الدين مهمهم في فروع الفقه وحدها وقصروا مهمهم على القضايا الفقهية . وجالوا فيها جولات . وحجى بينهم وطيس الجدال . في ميدان الخلاف . وتسابقوا لأصولها وفروعها ولم يعبروا غيرها التفاتة بل زادوا الطين بلة ووضعوا ضغناً على ابالة إذ ذموا علماء الطبيعة والفلك والفلسفة . وقد علمت انهم نظروهم في قيامهم بركن من أركان الحياة وسعهم معهم الى رقي الأمة وسعادتها . ولقد جعلهم على ذلك أمران : الأول انهم رأوا الأئمة العظام رضوان الله عليهم هم الذين دوتوا هذه الأحكام باجتهدهم ولم يقطنوا انهم أوجبوا العلوم على السواء ولم يفرقوا في الوجوب بين فروع الطب والزراعة وفروع الفقه وقيامهم به وحدهم لأنه أهم فتقدية محتم وتركوا النظر في العلوم الأخرى لسواهم . الثاني انهم إذ رأوا تلك العلوم ليس فيها استطالة على الأقران ولاتولى الادارات القضائية والأحكام السلطانية نبذوها بل ذموا القائمين بها فانتقم الناس إذ ذاك فر يقين : فربق للعلوم . وفر يق للدين

ثم قامت طائفة من العلماء كالشيخ الغزالي ورأوا أن السلف الصالح خلف من بعدهم خلف أضاعوا العلوم ، وانكبوا على فروع الفقه ، وصرفوا كثيرا من الناس عن علوم الحياة وال عمران والطبيعة والرياضة والفلك والفلسفة وتعلموا أن الدين يطلبها كالفقه سواء ، فأخذوا يحملون الناس على قراءتها وعدوها علوما دينية . ألف الامام الغزالي كتابا سماه « إحياء علوم الدين » ومزج الفقه كالحلال والحرام بجباب الحكمة الإلهية كالسحاب والهواء والماء والأرض والأنهار والسماء والنجوم والشمس والقمر وعجائبها ، ونواميس الطبيعة وفلسفة الضوء وشرح علم النفس . ولقد شرح في كتاب السكر من الاحياء أنواع السعادات وجعلها (١٦) قسما وأدخل فيها العلوم أجمع ، وترى الامام الغزالي أتى بعجب عجيب في حكمه ، فتارة تراه يذم الفلاسفة ويكفرهم ، وأخرى يذم الفقهاء ويرميهم بالتصور والجهل ، ثم أشار في كثير من كتبه الى أنهم من العامة هم ورجال علم التوحيد . ولقد فكرت في ذلك كثيرا ففهمت أن الرجل رأى المسلمين قد أشربوا كراهة العلوم بما أوحى اليهم أولئك العلماء القاصرون ، فأتحى على الفلاسفة في تعاليمهم وكفرهم موافقة للعامة ، ولكن في نحو ثلاث مسائل لاغير ، ثم رجع الى أولئك العلماء القاصرين فأوسعهم ذمنا ونقر بها ليطلق الناس من أسرهم ويفك قيود تقليدهم . ولما أعلن ذلك عمد الى مسائل الفلسفة فوضعها في قوالب اسلامية ، فتراه ذكر في باب الشكر نواميس كثيرة ، وفي باب الفكر عجائب الصفة الإلهية ، وتراه اقتبس أقيسة المنطق الأربعة في كتاب القسطاس من القرآن استثناسا لقلوب عامة المسلمين لحوز هذه العلوم واخراجا لهم من حظيرة الجود على أقوال العلماء الرسميين الذين اشتروا الضلالة بالهدى غرروا المسلمين العلوم العقلية والحكمة وأنبعه ابن رشد وناقشه في بعض القول ، وأوضح في كتابه في التوحيد ما يجب على علماء الاسلام من معرفة العلوم الكونية ، وأنحى على الجامدين الجاهلين ، وأنحى بكلسكه على طريقة تعليم التوحيد ، وأشار الى من بعده أن يمزجوا علوم الكون بالدين ويجتوا في اكتسابها واكتناه كنهها والتشهير في طلابها ثم خلف من بعده خلف رأوا وعورة الطريق وبعد الشقة ، فاستصعبوا الأمر وأوجسوا خيفة أن يصغروا في أعين أتباعهم حكموا بكفر أولئك المرشدين ، وصارت تلك سنة في الفارين ، كلما جاءهم عالم بما لا تهوى أنفسهم من الجود والجهل استكبروا عليه ، سترأ لجهلهم ، وحفظا لمرأ كرههم ، وصونا لمقاماتهم أن تسام بسوء ، ففريقا كذبوا وفريقا يقتلون ، ولئن سألتهم : لم نذم هذه العلوم ؟ قالوا قلوبنا غلف ، وفي آذاننا وفر ولمعرك اذا كفر الرازي وابن رشد والغزالي وأضرابهم وهم الذين طأطأت لهم رءوس الماضين والغابرين من العلماء فليس على وجه البسيطة مؤمن . ومن العجيب أن العلماء يعظمونهم عند ذكركهم ، واذا قلت لهم هؤلاء دونوا العلوم التي يقرؤها صفار التلاميذ في المدارس ، وأهل أوروبا يدرسون علومهم في مدارسهم يبغضون اليك رؤسهم ويقولون مالنا ولهذا ، انا نقرأ الوجيز والبسيط للغزالي وماعداه فليس من الدين في شيء . وبينما نرى هؤلاء يبغضون العلماء من وجه نرى زعانف الصوفية (لا أكابره) يبحون في الأرض بغير الحق ويقولون : « العلم حجاب بينك وبين الله فاجعل صورة شيخك في خيالك والله من وراءها وإياك والعلوم » . يقولون ذلك لئلا يستضيء الناس بأنوار المعارف فيفتضح أمر هؤلاء الدجالين وينذونهم بنذ النواة . فإرسل الله طائفة أخرى ظالمة غشتم بغاشية من عذاب الظلم والعسف فأرهقت الأمة واستعبدها وأخذت تقرب زعانف الصوفية وتصطنعهم آلات صكهم بائية تمحرك بهم صوراً من الرجال وأشباحاً من الجهال في مراسم الحياة وتمثل بهم فصولاً في الحياة والسياسة . فلما استحكمت تلك الحلقات الثلاث ونامت الأمم الاسلامية أجنة في الدهر خلفنا من بعد خلق في ظلمات ثلاث سيط عليهم سيولا جارفة . وصواعق محرقة من أمم الفرنجة فأذلواهم واستعبدوهم ومزقوهم كل ممزق وفرقوا أبدى سباً

المقالة الثانية

أيها الذكي: إذا اختصرنا قول: «أضاع الاسلام ملك ظالم، وصوفى طامع، وقبيح جاهل، اتحدوا على جهالة الأمة لينالوا حظ الرئاسة، أما وربك لوأنهم رجعوا الى القرآن لرأوه سوى بين العلوم على تباين مشاربها، ليس الفقه تلك الفروع المدونة، إلا انما الفقه هو الفهم، فليس محتما بنحو فروع الحيز التي قد تبلغ أربعة الآلاف»

أليس القائل في الحيز: «ويسألونك عن الحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في الحيض ولا تلبسوا حتى يظهروا فإذا تطهروا فأنوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب المتطهرين» هو بذاته الذي أنزل قوله تعالى: «إن الله فائق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون». نعم هو الذي لم ينزل آية حيض النساء إلا بعد أن سئل النبي ﷺ وأنزل ناموس النبات ومجانبه بدون سؤال، أليس ذلك برهانا قويا، وحجة لامة، على أن هذه العلوم الطبيعية أولى بالوجوب على الأمة من تلك الفروع الفقهية التي يشب الدهر ولا يسأل عنها سائل، لا بل أصبحت كأنها عبادة يتعبد بها الناس وهم لا يعلمون ما بها يصنعون، لم يجب عن الخمر والقمار إلا بعد السؤال. فقال: «يسألونك عن الخمر والميسر قل فيها إثم كبير ومنافع للناس» ولكنه أنزل بيان مجانب الليل وبدائع الصبح واشراق الآفاق، وبين بدعية من المجانب بلا سؤال. فقال: «فائق الاصبح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم»

أيها الذكي: إني أخالك تسألني عن أحكام الدين من الطلاق والخلع والتفقة والعدة وما شاكل ذلك مما قد يتخذها بعض العلماء حرفة يحترفون بها، انى أنبتك عن ذلك: إن المستقبل للشيبة فلا تتكلموا إلا على أنفسكم، قل تعالوا أنزل ما حرّم عليكم ربكم ألا تذكروا الاصلاح اتباعا لفقيه متعصب، ولا تكونوا للطب ناركيين، وللهندسة ناسين، وعن العلوم الكونية معرضين، ولا تكونوا عالة على الأمم الغربية، بل اسعوا سعيهم، واقروا علومهم، وسيروا معهم بسلام ووفاق، وتذكروا قوله تعالى: «ولنجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين وربانا وأنهم لا يستكبرون»

أيها الذكي: لئن جاءكم فاسق نبيا الخذلان والجهل فتبينوا خبره، ولا يصدنكم عن سبيل الله فقيه متعصب فاعلموا التعصب لقوته لا للاسلام، ولا يجر منكم شتات بعض الصوفية للعلوم وبغضهم للعارف، ولا يرهقكم الأمراء بالجهل، ابتغوا الوسيلة للعالي بالعلوم، ولئن اتبعتم أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل العلاء والشرف: «ان يتبعون إلا الظن وان هم إلا يخرصون»

ابفضوا كل رئيس لا يعين على العلوم، وأحبوا كل أمير وعالم وصوفى يحشمكم على مجارة الفريسيين أيها الذكي: إنا لفرجوا منكم فوق ماسطرناه، نرجو أن تكونوا قدوة الأمم أجمعين، فإبانا أصبحنا أذنا با عاجزين، وفي أخريات الأمم قاصرين، وفي فيافي الجهالات تأهين، وعن سبيل الاصلاح معرضين. انتهى الكلام على المقالة الثانية

المقالة الثالثة

أيها الذكي: ليكن كل قدم ومشار وبرة ويخار وحجارة ومكهرباء، مما عملت أيدينا، ومتى أعوزتنا الأيام الى إبرة أو مدفع مما عمل سوانا فذلك إثم كبير على المسلمين نعتب به مرتين: مرة في الحياة وأخرى في الممات

أليس الذي قل في الكتاب : « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » هو الذي يقول : « قل سبروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل ، فأوجب على فريق أن ينظر أحوال الأمم وعمارتها وخزائنها وسياساتها كما أوجب الحج في ميقاته على المستطيع ، أفدري لماذا ترك الناس الأول وأدوا الثاني لأن الحج سهل معروف ، أما السير في الأرض فما أحوجهم إلى اللغات وفهمها ، والأموال وصرفها ، والعلوم وجعلها ، وذلك أصعب الأمور وأشق على الجمهور ، فاستحجب الناس العمى على الهدى ، والراحة مع الذلة ، وذل الاستعباد مع التخلف ، وطبع على القلوب فهم لا يفقهون طمس على قلوب كثير فاتبعوا أهواءهم ، وصدوا الناس عن سبيل الإصلاح ، صرح بهذا الكتاب المجيد فقال « أفلم يسبروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » وفي هذه الآية من التفرغ والنم والتويخ على الكسل والتخلف عن السير في الأرض ما يبدلك على ما ذكرناه ، وتراه لم يكنف بذلك التويخ بالعمى بل صرح بأن إيمانهم معدوم فقال : « قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تفتي الآيات والتندر عن قوم لا يؤمنون » . ثم هدد بالعذاب في الدنيا فقال : « فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إلى معكم من المنتظرين » وقد أكد ذلك الإنذار والتهديد بقوله : « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيئا ويذيق بعضكم بأس بعض » نعم ذاق المسلمون أنهم تفرقوا شيئا وتفرقوا طرائق ، وتفرقوا خزائق ، واقتتلوا أجيالا طوالا وهو قوله « يلبسكم شيئا ويذيق بعضكم بأس بعض » وساط عليهم أخس الممالك ، وأحقق الصعاليك ، فأذلو أملاك العباسيين ، والهول الإسلامية كالممالك البرية والبحرية ، وهل ينظر المسلمون اليوم إلا إنذار العذاب من السماء الذي نص عليه بقوله « أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم » وتراه أشد وضوحا وذكر مشروحا في قوله عز وجل : « أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ان نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء » وفي قوله « وان يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم » أتدري ما ذلك الكسف المركوم والعذاب الموعود تلك البالونات الهوائية ، والأساطين الجوية ، والمدافع المكسيمية ، وتلك الآلات الجهنمية ، تعدها الآن الأمم الغربية ، فاذا وقعت الواقعة ، وانتشت المرائر ، وأمطرت السماء مطرا من سبعين ، ونزلت الصواعق على الغافلين ، فعند ذلك لا ينفع نفسا إيمانها من المسلمين إلا الذين آمنوا ونظروا وعلموا وجاروا الغربيين ، أولئك هم التاجون من ذلك العذاب الواقع « إن عذاب ربك لواقع » على أولئك المسلمين الذين لا ينظرون ولا يفسكرون ، ولا يعتبرون بالأندلس وهلاكهم ، وخراب ديارهم ، وأهل أمريكا وعذابهم وفنائهم ، قال متى أيها الناس أتم ساهون ؟ أنذركم صيحة فاجعة ، وحروبا واقعة ، فاذا جاءت الطامة الكبرى وشاهدتم سحبا مركوما بالمدافع والجنود ، وأرسلت الصواعق من البارود ، وزجرت الرعود ، وأمطرت السماء حجارة وحديد ، ودمدما ورماسا ، فأول واقع في العذاب هم الجاهلون ، ولن ينجو من هولها إلا العالمون الذين يصلحون في الأرض وهم يعقلون ، واتخذوا لهم حصونا في الهواء ، ولن يكون ذلك إلا إذا أتقتت الصناعات ، وقرئت الرياضيات ، وفهمت الطبيعيات ، وعلمت التواميس ، ودرست السياسات ، وصرم أمة كالأمة

هذه نصيحة لكم فافقهوها واياكم أن تضيعوها فوائده إلى لأعلم ذلك يقينا وكأني بالميدان يجري في السماء كالسحاب والهول تصطم في الهواء أساطيلها ، وتقتل على بلاد الاسلام جيوشها ، والمسلمون ينظرون ولا يتكلمون إلا من يعقلون منهم ويعملون ، فانظروا لأنفسكم قبل أن يأتي ذلك اليوم المشوم لعلمكم تتخذون لكم مع القوم سبيلا ، وأنذرهم يوم تصطف المراكب الهوائية وهي تقرب من السحاب ، هناك تنزل الصواعق

وتهطل الحجارة ، شآيب شآيب تدك الصروح ، وتهشم البيوت ، وتدهور القصور ، يوم تجور السماء مورا بالجيوش الحربية ، يوم تأتي السماء بدخان ميين يغشى الناس في الشرق والغرب هذا عذاب أليم « ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون »

أيها التكي : أنذر المسلمين الصيحة العظمى ، والبطشة الكبرى ، « أم أنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير »

هاهوذا اقترب زمان الدخان يغشى الناس من فوقهم من تلك الأساطيل الهوائية التي تعدها الدول لمحاربة الأمم الجاهلة « لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون » ولا يعلمون تلك النواميس الحجيبة المدهنة تلك الصواعق تنزلت على الناس لتفتشلهم من صرايخ جهلهم الى إعلاء عرش العلم والحكمة . أنذر الله الناس وحذرهم ثم هو بعد لهم الأساطيل الهوائية ترميهم بحجارة من سجيل حتى يكونوا كعصف ماكول « ولقد أنذرهم بطشنا فتماروا بالنذر »

ولعل فريقا يقولون : انما وعدنا هذا يوم القيامة ، وهانحن أدلاء الآن في الدنيا ، تقول على رسلكم فما من صورة في الآخرة والقيامة الكبرى إلا وطأ أخت نظيرتها في الدنيا « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا » ، ولئن سألتهم لم تدهور المسلمون ، وارتطموا في هدمتهم ، وزلوا من حائق يقولون الفقهاء انهم عاصون مجرمون ، ليسوا على الصراط السوي . ولئن سألتهم عدوا المعاصي لأجابوك : هي الزنا والخمر والميسر والأنصاب والأزلام وكلها رجس من عمل الشيطان والغيبة والنميمة وهلم جرا يجيبونك بهذا الجواب الأبر الناقص ويندرون الذنوب الكبرى والمعاصي والموبقات العظمى وهي سحائب الجهل المركومة تغشى عقولهم ، وتعجب نورهم ، وترسل عليهم غاشية من نار ودخان ، يجهل تلك التي يسمونها فروض كفايات

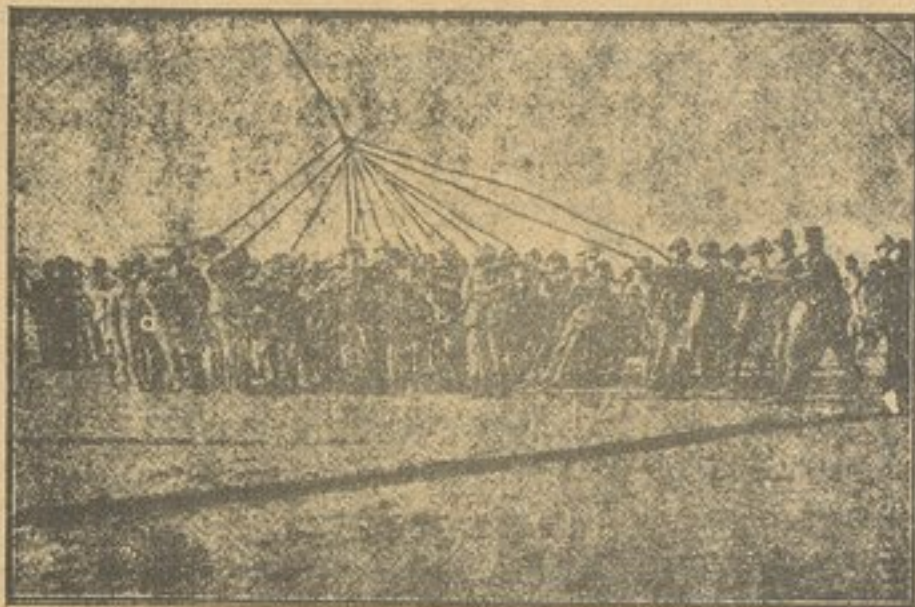
العلوم كلها فروض كفايات كما قدمنا ، وأو بعد الشقة وطول السفر ووعورة الطريق ومشقته فأعرضوا عنها وتولوا ولم يذكروا للناس من المعاصي إلا أسهلها وهي التروك ، من ترك شيئا فقد عاش بغيره وما أسهل ترك الخمر والميسر والأصنام ، الترك أمر سهل ، فأعرض عن الشيء يعرض عنك . فأما العلوم فلن تنال إلا بمشقة وسهر وتعب أمد العمر فكانت الكفاية فيها أشق ، والعمل أصعب ، والفكر فيها أدق ، والحيلة لجلبها أنمض ، والقيام عليها أدم وأعظم ، لذلك هربوا منها ولم يحوموا حولها ، وقالوا للناس ما أملاك المسلمين إلا تلك المعاصي المعلومة ونسوا حظا مما ذكروا به من فروض الكفايات ولم يذكروهم بنحو قوله تعالى : « أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض » الآية « سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما ياتهم تأويله » « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا » هكذا كان حتى قرعت الفارعة ، وانثقت المرائر ، وأحيط بنا ، وأصبنا مضغة الأفواه

أيها الشبان : إليكم أوجه خطابي ، وأدعوكم للعلم والعمل ، فقد بزغت شمس الإصلاح ، وبشرت بوادر الامور بالاقبال ، فالآمال بهذا الجيل معقودة فابشروا بالنجاح وذكروا قوله تعالى : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » انتهى ما أردته من كتابي « نهضة الأمة وحياتها » والحمد لله رب العالمين

الطيارات في الجو والضباب القاتل

إن ما تقدم هو الذي نشرته سابقا في جريدة اللواء بذلك التاريخ ، وحذرت المسلمين منه قبل الحرب الكبرى وصار ضمن كتاب سميت « نهضة الأمة وحياتها » كما ذكرت سابقا ، فأنا الآن أكرر القول بأني أجد الله عز وجل اني بقيت في الحياة الدنيا حتى شاهدت ما أوقر في صدري قبل تلك الحرب وأن نهاية

الاصطدام بين الأمم كان باستيلاء الطامعين منهم على أمم الاسلام وظلمهم وارهاقهم ، فلا كتب اليوم مصداق ما كتبت إذ ذاك محذورا ومبشرا ، وأنا واثق جدا الثقة بيشائر السعادة لأمم الاسلام في يوم من أيام شهر ابريل سنة ١٩٣١ بينما أنا في جهة العباسية شمالي القاهرة إذ رأيت الناس يهرعون وينظرون الى السماء ويقولون : « زبلن زبلن » بحركات غير عادية ، وسمعت تصفيقا وأصواتا واستحسانا فنظرت اذا بمنطاد (زبلن) يطير فوق المنازل كأنه الحوت يعوم في البحر ، واستمرّ يطوف فوق الأحياء أمدا طويلا ، وتوجه الى المطار المعد له في المأظنه التي تقرب من مصر الجديدة (هليوبوليس) وتقبلته شرفة من العساكر الانجليزية وأمسكوا به وهاك صورته (انظر شكل ٢) و(شكل ٣)



(شكل ٢ - الجنود يشدون الحبال لانزال المنطاد في مطار المأظنه)



(شكل ٣ - صورة المنطاد بعد تزوله في المطار)

فالسورة الأولى تمثل المنطاد والجنود يشتدون الجبال لانزال المنطاد في مطار المأظف ، والثانية تصور المنطاد بعد نزوله ، وذلك النزول كان في صباح يوم السبت ١١ ابريل سنة ١٩٣١ وهذا المنطاد طوله يقرب من ٢٣٥ مترا وقطر محيطه يبلغ نحو ٣٧ مترا وهو جسم مهول يطير في الجو لم تحلم به العصور

ففي يوم ٩ ابريل سنة ١٩٣١ م أخرج المنطاد من حظيرته بكل سهولة عند الساعة السادسة من الصباح ، وكان هناك جمهور من الذين تمكنوا من دخول المنطقة حينوا المنطاد . قال أحد الركاب : « قد ساعدت برودة الجو على أن يخلق المنطاد صعودا في الجو قبل ادارة المحركات ، ولما بلغ الى علو ١٠٠ متر أدبرت المحركات فأصبحنا في جو مدينة (فريدريكسهافن) في دقيقة واحدة ، ثم اجتزنا بحيرة (بودن) وعند الساعة السادسة والدقيقة ٣٣ كنا قد وصلنا الى بحيرة كونستانس ، وواصلنا السير فوق اليرين حتى دخلنا سويسرا فررنا بمدينة (بريسن) الساعة ٦ والدقيقة ٤٣ ثم اجتزنا الساعة ٧ والدقيقة ٢٠ شافوز حيث شاهدنا شلالات نهر اليرين المشهورة بروعتها وبلغنا مدينة بال الساعة ٨ والربع فدخلنا حدود فرنسا وحلقنا فوق مدينة (بيزانسون) على علو يتراوح بين ٤٠٠ و ٦٠٠ متر ، وكانت سرعة المنطاد في بداية الرحلة ٩٥ كيلو مترا في الساعة الى أن بلغت بالندرج ١٢٠ كيلومترا ، وقد كان الجو صحوا ، والشمس مشرقة ، غير أن السماء لم تحل من قطع الضباب وخصوصا في جو سويسرا . ولما أصبحنا في الجهة الشمالية الشرقية لمدينة ليون حول المنطاد سيره الى الجهة الجنوبية . وذلك لأن السلطات الفرنسية أبلغت قائد المنطاد في الساعة الأخيرة انه لا يجوز له أن يمر في جو مدينتي ليون ومرسيليا ، وهذا بعكس ما كان قد وقع في رحلات المنطاد السابقة ، ولاحق لنا مدينة ليون عن بعد عند الساعة العاشرة ، ولكن المنطاد انحرف في سيره ليتعد عنها ، وقد حلفت طائرة فرنسية وسابت المنطاد في منطقة ليون حتى اتجه الى الجهة الجنوبية الغربية مارا بمدينة فينيسو فمدينة جيفور ، ثم تابعنا وادي نهر الروت حتى بلغنا فالانس عند الساعة ١٠ والدقيقة ٥٥ وهي النقطة التي وقفت فيها أربعة محركات من محركات المنطاد في الرحلة التي قام بها في مايو سنة ١٩٢٩ فاضطر المنطاد الى النزول في مطار كويرس ببيرفو الذي تمكن من الوصول اليه بقوة محرك واحد ، وظلت مناظر المدن تتابع كشرى السينا ، فررنا بمدن مونتليار وأورانج وافينيون وطراسكون وارل الى أن بلغنا جنوبي سهل (كرو) . وساعدت الأحوال الجوية سير المنطاد أثناء الليل فمر على مقربة من مأظف في منتصف الليل ، وفي الساعة السادسة صباحا وصلنا الى الشاطئ الافريقي شرقى بنغازى ، وفي الساعة السادسة والدقيقة ٤٣ وصلنا الى درنا » وقال أيضا :

من ألمانيا الى افريقيا في ٢٤ ساعة

« ليتصور القارئ كيف تناولنا في بكورأمس فطورنا بفندق كورجان في فريدريكسهافن وفطورنا الثاني فوق بازانكون بفرنسا وغداونا مقابل كتيانور ، والشاي فوق جنوب كرسكا والعشاء فوق غرب صقليا ، وتناولنا الفطور اليوم فوق المياه المصرية ، وهكذا جاء جراف زبلن بنا من ألمانيا الى الشاطئ الافريقي في ٢٤ ساعة بالضبط ، فقد غادر حظيرتنا في الساعة السادسة من صباح أمس ، وشرع في رحلته في الساعة السادسة والدقيقة الثامنة ، ثم وصل الى افريقيا في الساعة السادسة من صباح اليوم » انتهى ما أردت انبائه في هذا المقام والحمد لله رب العالمين



الدخان والضباب وآثارها في الأمم في زماننا، وكيف وافق نص القرآن

الكلام على أن الدخان سلاح الحرب المقبلة

وأن ضبابا أحدث قتلا في أوروبا، وهذا من عجائب القرن العشرين، مصداقا لآيات القرآن
جاء في جريدة مصر يوم ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٣٠ مقالا تحت العنوان التالي مانسه :

الحرب القادمة وسلاحها الحديث

أصبحت العلوم الكيميائية من أهم العوامل في حياة الأمم الحديثة وحروبها لأنها أساس التخيبة الحربية
والمؤن المختلفة اللازمة للمقاتلين والأهلين، وقد كان لها الأثر الأكبر في إطالة مدة القتال في الحروب العظمى
فلوأن ألمانيا مثلا لم تتمكن من استخراج الحمض النتريك من آزوت الهواء للاستعاضة به عن النترات التي
كانت تستوردها ومجزت عن عمل البارود والمفرقات لاضطرت الى التسليم في أول سني الحرب
وما قبل بشأن الآزوت يقال أيضا بشأن المعادن والمنسوجات والمطاط والمواد الدهنية وسائر المواد الغذائية
وكان هناك ارتباط وثيق بين الكيمياء الغذائية والكيمياء الحربية، فلوأن الألمان مثلا حرموا الزراعة من
الأسمدة الآزوتية للاحتفاظ بالآزوت للمفرقات، أو استخدموا البطاطس وهي أساس غذاء الأهالي لعمل
الكحول اللازم لجماعة لا محالة بالبلاد، على أن الكيمياء الألمانية تمكنت من حل المشكلتين في
آن واحد، مراعية لوازم التخيبة والمؤنة للغذاء، ولولا استعداد معاملها الكيميائية وتجهيزها منذ زمن بعيد
للقيام بكل ما يطلب منها لما استطاعت قط أن تقف الموقف الذي وقفته من أعدائها طول مدة الحرب، فأنها
كانت بين أمرين لهما إما إنتاج ما يلزمها وإما التسليم فتمكنت مدة طويلة من الإنتاج بفضل كيميائيهما
العديدين الذين كانوا مدرّبين على العمل

ولم يكن للحلفاء بدء من مقابلة ألمانيا بالمثل فتمكنوا من مقابلة الاختراع بمثله، فزادت بذلك الاختراعات
المبيدة والنافعة في وقت واحد، حتى إذا خيم السلام على العالم انتفع الناس بتلك الاختراعات سواء في
المسائل الصناعية أو الزراعية أو التجارية أو الفنية، حتى صرنا كلما قلبنا مجلة علمية من المجلات الأوروبية
الجامعة نجد بها كثيرا من الآلات التي اخترعت أثناء الحرب وبعدها وسهلت الأعمال الحيوية المختلفة أمام
المنتجين في كل قطر من أقطار الأرض، ويكفي أن نشير فقط إلى أن الغازات السامة والناخقة التي ابتدعها
الألمان أصبحت تستخدم اليوم في إبادة الجرذان والجراد وغيرها من الحيوانات والهوام التي تفسد الزارع
والحقول، وأن آلات حفر الخنادق أصبحت تستعمل الآن في حفر الجدران ودك الأحجار واقلة الأرصفة
كما أن اللهبات تستخدم في تسوية الأراضي الحجرية ونسف التلال وغيرها مما يعوق نظام الأراضي
هذه فوائد اختراعات الحرب، غير أن المراسل الحربي لمجلة نيو بورك العلمية الجامعة يقول إن العلوم
الكيميائية سيكون لها الفضل في الحرب القادمة التي أخذ شعبها الخيف يحول الآن فوق سماء أوروبا لأن
كيميائيي الألمان باختراعهم الغازات الناقحة والسامة وغيرها مهدوا لغيرهم أن يخترعوا غازات أشد فتكا منها
كغاز اليوسيت الناقح الذي اخترعه أحد كبار ضباط الأمريكان وله قوة على القتل أشد من سائر الغازات
التي كانت مستعملة قبل الحرب

وهذا الغاز عبارة عن سيال زيتي تشتم منه رائحة الجرايظوم وقت انفجاره ويلتهب بلامسة الهواء، أما
إذا أطلق في الهواء فإنه يتحول إلى غاز يقتل لساعته بمجرد استنشاق شيء يسير منه لأنه يسمم الدم ويفتك
بالقلب والرئتين وإن سقطت منه قطرة واحدة على الكف سببت الموت بعد ساعات قليلة يقضيها صاحبها محضرا

في عذاب أليم

وقد وضع الأمريكان هذا الغاز في شكل قنابل طول الواحدة عشرون سنتيمترا تطلق بالآلات موضوعة على عجلات سيارة تقطع ٣٤ كيلومترا في الساعة ، وقد اخترعت فنجحت للغاية ودلت على أن هذه العجلات تستطيع أن تطلق قنابلها الغازية على مسافة ثمانين كيلومترا وتأثير الليويست عند انتشار غازه يبقى شديدا الى مسافة بعيدة حتى ان فتكه يكون ذريعا على مسيرة أميال كفتكه عند مصدره ، واذا ألقى من طائرة انشرف في بقعة عظيمة وقتل الالوف من الناس بلا رجعة ، واذا أقيمت ست قنابل منه على عاصمة من العواصم الكبرى أهلكت سكانها وأبادتهم في الحال وهذا الاختراع وضع في يد الأمريكان أقوى سلاح عرف منذ خلق العالم ، ومن يعلم غدا ما فتقته عقول المخترعين من الاختراعات الرهيبة في الحرب المقبلة التي ستكون أشد الحروب ويلا وأعظمها فظاعة . انتهى

الكلام على الضباب

جاء في تلفراف خاص من لندن من مراسل جريدة «الضياء» بتاريخ يوم الخميس ١١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ م تحت العنوان التالي وهذا نصه :

تكاثف الضباب في انكلترا

تكاثف الضباب ثانيا وعرقل سيرالمواصلات في شواطئ انكلترا الجنوبية وفي لندن وضواحيها ، ولكنه انقطع في اليومين الأخيرين في خليج المانش ، أما في ساوثمبتون فكان كثيرا ، وكذلك في دوفر عند مصب نهر التيمس ، وكان ينوى جلالة الملك الخروج للصيد لأول مرة بعد ابلاله من مرضه في سنة ١٩٢٨ إلا ان حالة الضباب جعلته يضطر الى العدول عن الصيد ، وفي توبكنهام قد اقتشع الضباب عنها قليلا عند الظهر فحيا الضباب في البلجيك

يقول الخبيرون انه لا بد أن الضباب الذي غشى جوف البلجيك كان مصحوبا بمواد غازية خائقة والتي كانت سببا في هلاك ٦٠ شخصا ولكن لم يثبت بعد أن الاله الكبريبي الصاعد من المصانع كان له أي أثر في ذلك ، وفيه أيضا ما يأتي :

هل أصبحت مسألة الضباب سرا غامضا ؟

برلين في ١٠ ديسمبر لمراسل الضياء الخاص : يكتنف مسألة الهول الناجم عن تكاثف الضباب وضحاياها سرا غامضا نظرا لهلاك كثيرين بسببه في الوادي القريب من لياج ، ولكن يظهر أن هذا السر المقتع أمكن الآن ازاحته بالتحقق من أن الأسباب المباشرة لضحاياها هو الاعتراف بوجود أبخرة خائقة من الدخان المؤذي المتصاعد من مداخن المعامل ثم يرسب ويتجمد ، وقد كان عدد ضحايا الضباب ١٣٠ شخصا بخلاف الذين نقلوا الى المستشفيات والذين نحت خطر الهلاك اختناقا ، ولكن انضح من تشريح الجثث طيبا أنه لا أثر فيها للغازات السامة كادلت تقارير الخبراء الاخصائيين ، وقد فتحت هذه الحادثة المروعة والغريبة في بابها بابا للعلماء لاكتشاف مفتاح هذا السر الغامض ، وبدؤوا يزاولون بحثهم بغير توان ولا كمال بينما تترى أمامهم مواكب الجنازات التي يشيعون فيها المنكوبين الى مرقدهم الأخير ، وقد أرسلت فرق من البوليس لحفظ النظام في الأقاليم المنكوبة اه

وجاء في تلفراف آخر من برلين من مراسل جريدة الاهرام الخاص بتاريخ ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٠

ميلاديه مانسه :

عودة الضباب الوبائي الى بلجيكا

جاء من بروكسل أن الطول الزاحف الذي أودى بحياة الكثيرين في وادي الموز في أوائل هذا الشهر عاد في عيد الميلاد ، إذ خيم ذلك الضباب الوبائي القتال على مدينتين في المنطقة الجنوبية ، ففضى على حياة ثلاثة أفس ، وهناك عدد كبير من المصابين بهذا الوباء في حالة خطيرة ، وأندرت الحكومات الناس بملزمة المنازل ، وقصد أعضاء اللجنة التي انتدبت لفحص الضباب الأول الى تلك المنطقة لمواصلة المباحث العلمية لمعرفة العلة اه

هاهوذا سلاح الطيران في الحرب الكبرى السابقة وفي الحرب المقبلة وهو الدخان ، وهاهوذا الضباب الذي أخذ يظهر في أوروبا قليلا قليلا ويقتل الناس . أيها الناس : أليس هذا هجبا ! ينزل الله سورة باسم الدخان ، ثم يقوم الناس باستخراج ذلك الدخان من المواد الأرضية وينشرونه بينهم فيقتل الناس بسهولة ثم ترى الله عز وجل يخرج من لدنه ضبابا وينشره بينهم في بلجيكا وغيرها فيموت به أناس ، أليس هذا الثاني هو نفس الدخان الذي جاء وصفه في الحديث الشريف المتقدم ، وأن هذه الانسانية الجاهلة الغبية لما أن سارعت الى استخدام الدخان الصناعي في المحاربة أشار الله لهم وللحجزة القرآنية بالضباب في أوروبا من صنعه هولاء من صنع الانسان ، وكأنه سبحانه يقول لهم : أنا قدر أن أبعث عليكم عذابا بنفس الدخان وأنشره بينكم فتهلكون في يوم أو بعض يوم ، لقد شرحت الجثث التي أماتها دخاني ، فهل وجدتم فيها أثرا غير دخاني أنا « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » إن الضباب الذي أهلك النفوس انذار للأمة كلها بالهلاك عاجلا أو آجلا اذا لم تقلع عن الشر ومصداق للنبوة واستجبال بالآيات التي ستظهر قبيل قيام الساعة ، فكأن العناية الالهية أظهرت هذا لتدل المسلمين على أن مافي كتابكم من الدخان هذا نموذج وعنوانه ، فكتابكم صدق وحق ، ولكن ليس معنى هذا انكم تكونون جهلاء فلا بد من التعليم والجدد ومجاعة الأمم حتى تفوزوا في الدنيا والآخرة . والى هنا تم الكلام على اللطيفة الثانية والحمد لله رب العالمين

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاجئين

هذه اللطيفة فيها جوهرتان

الجوهرة الأولى : محاوره سقراط مع أرسطو ديموس

علم سقراط من أرسطو ديموس انه لا يقرب القرابين ويحرق الامور الدينية ويسخر عن يعتي بالعبادة فقال له : أفي الناس من يجيبك براعته في الصنعة ؟ فقال نعم يسمى الشعراء والمصورين من كان منهم أبرع من غيره فقال سقراط : أيعا عندك أرفع شأنا ؟ أمن يصنع التماثيل العارية عن الحركة والعقل ؟ أم من يصور الأشباح الحية المتحركة ؟ فقال من يصنع الصور الحية المتحركة اللهم إلا اذا كانت تلك الصور من عمل المصادفة والاتفاق لامن عمل العقل . قال سقراط : اذا فرضنا أشياء لا يظهر المقصود منها وأشياء أخرى بينة المقصد والمنفعة فما قولك في تلك الأشياء ماهي عندك من فعل العقل . وماهي من فعل الاتقان ؟ قال لاشك ان مظهر قصده ومنفعته من فعل العقل . قال سقراط : أوليس ترى أن صانع الانسان في أول نشأته جعل له الآلات والحس لما في تلك الآلات من المنفعة الظاهرة فأعطاه البصر والأذنين ليبصر ويسمع ما يكون لعبه نافعا ، ومافائدة الروائح لولم يكن لنا الخياشيم ، وكيف ندرك المطاعم ، وتفرق بين الحلو والمر والمز لولم يكن لنا لسان نذوق به ، ان بصرنا معرض للآفات ، أوليس ترى كيف أعتفت القدرة الالهية بذلك فجعلت

الأجنان له كالأبواب لتمتع ما يسبب البصر وجعلت الأشجار كالنخل لتقيها من أضرار الرياح فما قولك في آلة السمع وهي تقبل جميع الأصوات ولا تملأ أبدا ، أما رأيت الحيوان كيف ربت أسنانه المقدمة وأعدت لقطع الأشياء فتلقبها الى الأضراس فتدقها دقا ، فإذا تأملت في ترتيب ذلك أيمن لك أن تشك هل هي من فضل الاتفاق أو العقل ؟ قال أرسطو ديموس : نعم اذا تفكرنا في ذلك لانك في أنها من فضل صانع حكيم كثير العناية بمصنوعاته . قال سقراط : اعتبر ماجبل عليه الذكور من حب التماسل وفي الاناث من الحنين الى بنها ، وهو مفروس في كل حيوان من الشوق الى الحياة ، والنفور من الموت ، أليس ذلك من عناية صانع قد أراد بقاء مصنوعاته ، فإذا تحققت وجود العقل فيك فكيف تظن ألا وجود للعقل فيما هو خارج عنك مع انك اذا تفكرت في الأرض واتساعها وقست ذلك بجسدك فقد تحققت أنه ليس لك من الأرض إلا أخس جزء وأقله وكذلك الرطوبة التي منها تركيب جسدك فانها ليست من مجموع الرطوبة إلا أحقر جزء وكذلك بقية ما في جسدك فكيف تظن انك منفرد تسبّد بالعقل دون بقية العالم على سعته ورحبه ، وأن هذه المصنوعات التي لا تدخل تحت الحصر ، وهذا النظام الغريب الحاصل فيها إيماننا عن عدم العقل قال لا والله وانما لا أرى أصحاب هذه العجائب كما أشاهد أصحاب التماثيل والصور المصنوعة في علمنا هذا . قال سقراط : انك لا ترى نفسك المدبرة لبدنك ، فعلى هذا كان ينبغي لك أن تقول ان أفعالك صادرة عن اتفاق ومصادفة لاعن عقل . قال اني لا أستصغر اللاهوت وانما أراها تجلّ عن أن تكون محتاجة لعبادتي . قال سقراط : فإذا كانت لا تجلّ عن العناية بك كان من الواجب أن نحترمها . ثم قال : اعلم أيها الحبيب أن نفسك تدبر جسدك ما دامت مقارنة إياه ، فعليك أن تعتقد أن الحكمة الموجودة في العالم تدبر كل شيء كما شئت . أظن أن بصرك يقدر على ادراك ما بعد عنك على مسافة بعيدة ، وأن بصير الإله لا يقدر على أن يحيط بجميع ما في العوالم . انتهى ملخصا

وانما نقلت هذه المحاوره لأنها من أحسن ما قاله الناس في نظام هذه الدنيا وعناية الله بها وهو معنى قوله تعالى : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لالعبين » . فالمحاوره تبين بالعقل وجود الله تعالى وعنايته بالخلوقات . ثم ان سقراط استدلل على بقاء النفس بأدلة في المحاوره التي بينه وبين فيثون في بقاء النفس بعد الموت وهناك ملخصا منها :

قال سيبس : ماهي العلة فيما يقوله الناس ؟ انه لا يسوغ قتل المرء نفسه ؟ هذا ما كان يقوله فيلوس وغيره ، ولكن لم أظفر من أحد بعلة شافية في ذلك ، قال سقراط : طب نفسا ، لعلك ترشد اليوم الى ما نطلبه بل ولعلك تقضى العجب بما أقوله وهو انه يجب على كل امرئ أن يعيش وان كان عن الموت خبير له من الحياة ، ألا تستغرب انه لا يجوز لمن يؤثر الموت على الحياة أن يتخلص منها بنفسه ، وانه من الواجب عليه أن ينتظر من يخلصه منها . فقال سيبس : الله أعلم على عادة بلاده . قال سقراط : هذا الرأي مخالف للعقل في ظاهره ، ومع ذلك فله علة معقولة ، نعم ان ما يقال عند تعليمنا أسرار العبادة : « ان الانسان كالجندي المنسوب لحراسة لا يسوغ له أن يتركه بدون إذن » فهو صعب الفهم ويتجاوز قدرتنا . فالأحسن أن يقال « إن الملائكة لهم عناية بالنفس ، وأن البشر متاع للملائكة وملكة » ، ألا ترى هذا حقا يا قابس ؟ فقال قابس نعم . قال سقراط : لو أن بعض رقيقك قتل نفسه من غير اذنتك لفضبت عليه ولعاقبته لو كان من الممكن ولهذا السبب فقد يسوغ القول بأنه لا يجوز للإنسان أن يقتل نفسه ، وينبغي له أن ينتظر الاذن بالخروج من الحياة مثل ما أتاني اليوم . قال قابس : وهذا لا يبعد عندي أيضا ، لكن اذا ثبت عناية الملائكة بالبشر وأن البشر من ربهم ومتاعه ، كيف تقول ان الفيلسوف يميل الى الموت بارادته ؟ وكيف يعقل أن يجب الفيلسوف الخروج من ولاية الملائكة وترك هذه الحياة اذا تقرر عنده أن أفضل الولاية يصرفون عنايتهم اليه

مادام حيا ، أیظن انه يدبر نفسه أحسن مما يدبرون ، نعم ان السفیه قد یحاول الفرار من ربه بكل وسيلة
 ولا یفهم انه لولازم ماهو أفضل منه لكان خیرا له ، لكن العاقل یرید أن یرقی دائماً فی ولاية من هو أفضل
 منه ، ولذلك فانی أقول یاسقراط قیض ما تقوله أنت ، فأقرّر أن العاقل یشق علیه الموت ، فلا یسرّ بالموت
 إلا المجنون . فقال سقراط : ماهو رأيك فی الموت ؟ ألیس هو فراق الروح من البدن بحيث یصیر الروح وحده
 الى جهة والبدن وحده الى جهة أخرى ، ألیس هذا ما یدعی الموت . قال سیمیاس : وهو كذلك . قال سقراط
 فهل ترى انه یناسب الفیلسوف أن یحرص علی ما یقال له الملاذ مثل المطاعم والمشارب وغیره من اللذات
 التابعة للبدن ، فیکون حرصه مثلاً علی الملابس الفاخرة ، والنعال المزخرفة ، وباقی ما یزین به البدن ، هل
 ترى انه یعظم أمرها ، أو انه یحتقرها إلا اذا أحوجته الضرورة الى استعمالها . قال سیمیاس : أرى أن
 الفیلسوف الحقیقی لا یسعه إلا احتقار كل ذلك . قال سقراط : فانك ترى إذن أن اجتهاد الفیلسوف انما یقصد
 لیس البدن ، وأن یفرغ جهده فی التباعد عنه قدر امكانه لیتفرغ لمصالح نفسه دون غیرها ، وعلى ذلك فان
 الفیلسوف یختص دون غیره من البشر باجتهاده فی الفصل بین نفسه وبدنه والفرق بینهما . قال سیمیاس :
 وذلك ظاهر ، إلا ان أغلب الناس یرون أن من لم یلتذ بمنزلة ما ذکرته ولا یستعمله فهو بمنزلة لا یحسن التصرف
 فی حیاته ، وانه أقرب الى الموتی منه للأحیاء . قال سقراط : وهذا حقّ فاذا تقول فی اكتساب العلم ؟ هل
 ترى أن البدن مما یعوقه ، أو انه یمین علیه ، هل ترى أن البصر والسمع مثلاً مما یدرك به الحق الیقین ، أم
 لخال كما قال الشعراء انا لا نسمع ولا نبصر شیئاً كما هو فی الحقیقة ، فاذا لم یثبت شیء مما ندركه بهاتین الحاستین
 لم یثبت شیء مما ندركه بالحواس الأخرى ، لأنها تنقص عنها قوّة وادراکاً ، وعلى هذا اذا سألنا عن الوقت
 الذی ندرك فی الروح الحق لا یقال انها تجرد الحق مادامت مشاركة للبدن ، لأننا نرى عیاناً أن البدن یرزقها عن
 الطریق الحق ویملؤها أوهاماً ، فینبغی أن یقال : « ان الروح لا یدرك الحق إلا بالفکر » نرى أن الفکر
 أقوى ما یکون اذا لم یشوشه البصر والسمع ولا الأمّ ولا اللذّة ، فانحاز فی نفسه وفارق البدن مفارقة تامة
 وتعلق بما هو موجود لیعلمه . قال سیمیاس نعم ما قلت . قال سقراط : أولیس تحتقر الروح البدن فی قتل
 تلك الأوقات وتفر منه ، وتحاول فی أن تنفرد بنفسها . قال سیمیاس : انی أرى ذلك أيضاً . قال سقراط :
 فاذا تقول فی بعض الأشياء كالعدل مثلاً والخیر والجمال ، هل تقول انها موجودة أم لا ؟ قال سیمیاس :
 لا شکّ فی وجودها . قال سقراط : هل رأيتها ببصرک هل أدركت بحاسة من حاساتک الأخرى الصحة والعظم
 والقوّة وغیر ذلك مما هو جوهر الأشياء أى ماهيتها ، هل تعلم حقیقة ذلك بواسطة البدن ، أولیس من الثابت
 أن ذلك انما یدرك أنّم ادراك اذا تمهياً الانسان لأن یدركه بالعقل وحده ، وانه یبلغ فی ذلك غاية البیان اذا
 جعل كل شیء نصب بصیره من غیر أن یستعین بالبصر وغیره من الحواس البدنیة واستعمل فکره صافياً
 من غیر شائبة شیء . دونه فحاول بأن یدرك جوهر الأشياء الصافی الحقیقی دون مشاركة العینین ولأذنین منفکاً
 عن بدنه انفکاً كاملاً إذ لا یحصل له من مشاركته بالبدن إلا التشویش وعدم وجدان الحق ، فأقول : انه
 اذا قدر أحد علی ادراك جواهر الأشياء فلا یقدر علیه إلا مثل من ذکرته الآن

ثبتت انه اذا أردنا أن نعلم شیئاً حقّ المعرفة فلا بد من الانفصال عن البدن حتى تنفرد النفس بالنظر فیما
 قصدنا معرفته فلانال المعرفة التي صرّحنا بحجبها إلا عند ذلك أى بعد موتنا ومفارقة الحیاة ، وهذا مما یؤید به
 العقل أيضاً ، فانه لما بین انه من المستحیل أن نعلم شیئاً صافياً مادمننا فی محبة البدن لا یخلو الأمر من حالین
 إما اننا لانعلم الحق أبداً ، واما اننا فعله بعد الموت لأن الروح إذ ذاك یکون مالکاً لنفسه حراً مما یعوقه الآن
 فادمننا فی قید الحیاة لا تتقرّب من الحق إلا بقدر ما نتباعد عن البدن ونفک عن الخلطة معه إلا بقدر ما ندعو
 إليه الحاجة ولا نجیز له أن یعدونا بما فیه من الدنس طباعاً وتبقي به أنفسنا صافیة من قاذوراته الى أن یخلصنا

الله ، فاذا تخلصنا من سفاهة البدن يشبه أن يكون كلامنا إذن مع من تخلص مثلنا فنعمل بنفسنا جوهر الأشياء الصافي وهو أصله ما يدعى الحق ، هذا ما يقوله الفلاسفة فيما بينهم على ما أراه . فاذا كان الأمر كما ذكر فان كل من هو بصدد السفر حيث أنا متوجه كان له أن يرجو ادراك الحق الذي أجهدنا طلبه في هذه الحياة وعلى ذلك فان هذا السفر الذي أمرني به الإله قد ملائني رجاء ، وعلى مثل هذا يكون كل من اعتقد من نفسه أنها مستعدة لمعرفة الحق أى انها بلغت من الصفاء والقوة القدر اللازم ، وهذا الصفاء لا يكون إلا بانفصال النفس عن البدن وتعودها على الانفراد بنفسها دون مشاركة قيدها البدني ، واذا كان الموت ليس إلا هذا الفراق بين النفس والبدن ، أليس من الصواب أن يقال : إن الفيلسوف لاشغل له إلا هذا الفراق فاذا سعى عمره كله لنيل هذا الغرض ثم نأسف وعضب عند اقتراب الموت أليس ذلك من المضحك ؟ قال سيمياس : نعم ما قلت . انتهى كلام أفلاطون وهو الدليل الأول على أن الموت لا يخاف منه من تفرغ للفلسفة إلا ان لمعترض أن يقول : ما الدليل على بقاء النفس بعد الموت ، فاذا لم يكن لنا ثبوت ببقائها فأنى لفيلسوف ما كان يرجوه من ادراك الحق عند مفارقة بدنه ، فأخذ سقراط في الرد على هذا الاعتراض وبيان بقاء النفس بعد موتها ، فأنى بأدلة : أولها انا شاهدنا في العالم الضد إنما يتولد عن ضده ، فالجبل مثلا ينشأ عن القبيح ، والعدل عن الجور ، واليقظة من النوم ، والنوم من اليقظة ، والقوة من الضعف ، وبالعكس فالأشياء تستحيل بعضها الى بعض ، ثم ترجع على صفة الدائرة الى ما كانت عليه ، والحياة والموت والوجود والعدم تقيضان ، والحياة تنشأ عن العدم ، والموت ينشأ عن الحياة ، وعلى ذلك فيلزم أن تنشأ الحياة من الموت إذ لا بد أن يكون للموت ما يناقضه والا فقد تخالف الطبيعة قاعدتها المطردة في جميع الأشياء : ثانيها ما يستدل به من طبيعة العلم ، وذلك ان العلم إنما هو تذكر النفس ما كانت قد علمته في حياة سابقة ومصداقه ان أجهل الناس اذا سئل سؤالا منتظما عن مبادئ الهندسة مثلا ، وانتقل به السؤال من أصل الى أصل شيئا فشيئا على الترتيب فقد يجد من نفسه مبادئ الهندسة ومبادئ كل علم ، وهذا لا يمكن إلا اذا كانت تلك الاصول منطبعة في فطرته ، موجودة عنده قبل ولادته ، وهناك دليل آخر من هذا النوع ، وهو اننا لولا فرضنا علما سابقا موجودا في ذهننا لما تمكنا من فهم شيء من الموجودات فانا اذا قابلنا مثلا شيئا بشيء آخر ما أمكن لنا أن نقول انه مساو أو غير مساو لولم يكن في ذهننا قبل كل مقابلة معنى المساواة المطلقة التي لم نستفدها من الأشياء المحسوسة إذ لا شيء منها يتحقق فيه المساواة إلا بنوع تقريبي ومسامحة فوجب أن تكون معنى المساواة مرسمة في ذهننا حتى نحكم على الأشياء انها متساوية بعضها ببعض أو غير متساوية ، ومثل هذا يقال في باقي ما يحكم به ففكرنا كالجمال والعدل والوجود وغيره ، فان كل ذلك يستدعى معرفة تلك المعاني قبل الحكم بها فيلزم منه أن العقل البشري إنما اكتسب هذه المعرفة بمشاهدة تلك المعاني صافية غير مشوبة بالمادة قبل ورودها الى هذا العالم

ألا ان لقائل أن يقول هذا الدليل قديكفي لبيان وجود النفس قبل هذه الحياة الدنيا ، فالدليل على بقائها بعد الموت ؟ فأجاب عدة أجوبة أولها : ان النفس جوهر غير مرئي فيلزم منه انه على غير طبيعة الأجسام لأن من طبيعة الجسم أن يكون مدركا بأحدى الحواس واذا كانت على غير طبيعة الجسم فهي إذن غير مدركة لأن التركيب من طبيعة الأجسام ، واذا كانت بسيطة فانها غير قابلة للانحلال لأن الانحلال يعترى للمركب الى المواد التي منها تركبت ، فاذا كانت النفس بسيطة فلا يتصور انحلالها . الثاني : ان النفس هي الأمرة والبدن هو المأمور فن طبيعة الامور الالهية أن تكون أمرة ومتصرفة ، ومن طبيعة الامور السفلية أن تكون مأمورة فالنفس إذن من الامور الالهية وهو غير قابل للزوال ، فهي اذا بقيت على صفاتها وفطرتها من غير أن تشارك البدن في أدناسه فانها تلتحق بعد الموت بوجود مثلها فتبقى معه سعيدة مبهجة محررة من أوهاها وأخوافها

وأهوائها وكل ما كان يسخرها وبشوشها إذ كانت في قيد الحياة ، وإذا تركت البدن ملوثة مدنسة غير معتقدة من الوجود إلا ما يؤكل ويشرب ويدرك بالحواس فلا يسمعها إلا أن ترجع الى الحياة فتتعلق بأبدان مشاكلة لطبيعتها ، فمن جعل بطنه إله يلتحق بأجسام حديد أو خنازير ، ومن كان دأبه التعدي والظلم والعدوان يتعلق بأجسام الذئاب والبوازي وغيرها من الحيوانات الضارية ، ومن اعتاد الخير والصلاح ، لكن بقوة الطبيعة والملذة دون أن يشاركها الفلسفة والفكر فقد يصير من النحل والنمل وغيره من الحيوانات النافعة ، أو يتعلق بأبدان الصالحين من الرجال ، وأما الالتحاق بالملائكة فلا يجوز إلا لمن ترك الحياة وهو على غاية من التقاوة والصفاء ، وهذا مختص بالفيلسوف الحقيقي دون غيره

قال أفلاطون : وقد سكت سقراط بعد هذا الكلام برهة وسكت أصحابه مفكرين ، ثم رجح سقراط لسؤالهم : هل ماسمعه منه يكفي في إثبات بقاء النفس بعد الموت ، أوفى الأقل في ترجيح هذا الرأي على غيره إذ هي الغاية القصوى التي يمكن ادراكها في هذه الحياة في مثل هذا الموضوع ، فاعترض عليه بعض التلامذة باعتراضين : الأول . لقاتل أن يقول إن النفس للبدن كالألحان لآلات الموسيقى ، فإذا تكسرت الآلة وفسدت لم يبق للألحان وجود ، وهكذا يمكن أن يقال : إن النفس ماهي إلا نتيجة تكافؤ العناصر واعتدالها في المزاج الانساني ، فإذا فسد الاعتدال وتلاشى المزاج تفسد النفس لا محالة ، والاعتراض الثاني أن يقال : قد سلمنا بوجود النفس قبل هذه الحياة وأنها أفضل من البدن وأقوى منه وأنها تبقى بعد موته غير أنه لا يترتب على ذلك بقاؤها على الدوام إذ قد يتأني أنها تبقى بعد موت بدنها ، ثم بعد موت بدن ثان ، فتنتقل هكذا من بدن الى بدن مدة ، ثم تفتي بفناء أحد أبدانها كما يموت الانسان وهو قد أخلق الثوب بعد الثوب ، ثم يموت عن آخر ثوب قد أخلقه

فأجاب سقراط عن الاعتراض الأول بقوله : إذا سلمنا أن العلم والتعلم إنما هو تذكري النفس ما كانت قد علمته في حياة سابقة ، فلا يسوغ أن يقال ان النفس نتيجة اعتدال المزاج إذ لو كان كذلك لماسبق وجودها وجود المزاج ، فكيف تنذكر معلوماتها في حياة سابقة ، فإذا وجب الاعتراف بأن العلم لا يتصور إلا بوجود هذه المعلومات السابقة في النفس لزم منه أن لا تكون النفس نتيجة المزاج . وهناك جواب آخر وهو أنه لو كانت النفس نتيجة المزاج لسكانت تابعة للمزاج ولا تخالفه في شيء بل تكون مسخرة له ، ونجد الأمر على خلاف ذلك في الواقع إذ قد ترى النفس تنهى البدن عن أشياء ، وتأمره بأشياء ، وتتصرف فيه بوجوده مختلفة ، وهذا يدل على أنها مغايرة للبدن مستقلة عنه ، وأن جوهرها أعلى وأفضل من طبيعة البدن إذ لو كانت تابعة للمزاج لما كانت تفارقه في شيء ، ولما كانت النفس تختلف عن النفس إذ لا فرق بين الألحان والألحان إلا في القوة والضعف لا من حيث أنها ألحان ، ونحن نشاهد بين النفس وأخرى التفاوت العظيم . أما الاعتراض الثاني فجوابه أن الأشياء المحسوسة الفانية لا يتصور قيامها إلا بوضع معان غير محسوسة أزلية كاملة الوجود ، وأن هذه المعاني مادامت هي لا تقبل شيئاً مما يناقضها وبمثل ذلك فإن معنى العدل لا يقبل شيئاً من الجور والمساواة لا يدخلها شيء من التفاوت ، والفرد مادام على جوهره الفرد لا يقبل من الزوجية شيئاً والعكس بالعكس ، والقول في النفس على مثل القول في المعاني سواء بسواء إذ قد تقرر أن النفس جوهر بسيط قائم بنفسه مجانس للمعاني فيكون حكمه مثل حكم المعاني من عدم قبول الضد والقيض ، ولا شك أن النفس أصل للحياة في كل حي فهي إذن حية من ذاتها فهي إذن لا تقبل تقيضها أي للموت ملامت على جوهرها وهو عين الحياة ، فكما أن الفرد مثلاً لا يكون زوجاً ، ولا العدل جوراً ما بقيا على حالهما ، كذلك النفس لا تقبل الموت ولا يدخلها الفناء فهي إذن أزلية ، ثم إذا كان الموت نهاية كل شيء كان فيها فائدة عظيمة للشرير والظالم فإنه يستريح بالموت من نفسه ، ومن بدنه ، ومن شره ، ومن عواقب شره دفعة واحدة ،

وهذا مما لا يرتضيه العقل ولا الانصاف ، فتعين أن نعتقد في النفس أنها إذا فارقت البدن فقد تحمل معها ما كانت عليه من الأوصاف وأن عاقبتها تكون في الحياة القابلة على نسبة تلك الأوصاف ان خيرا نخب وان شرا فشر فن ترك وهو في قيد الحياة ملاذ البدن ومتاع الدنيا واجتنبها كما يجتنب الملايعنى أو يضر ولم يطلب من اللذة إلا ما يحصل عن العلم ، وزين ضميره بما يواتيه من الزينة كاللغة والعدل والمروءة والحرية والصدق فله أن يتربح وقت السفر من غير اضطراب . انتهى الكلام على الجوهرة الأولى

يقول المؤلف : الأدلة جلية ، ولكننا نخالف سقراط في مسألة التناسخ وانتقال أرواح الناس الى حيوانات فهذه مهرودة ردا بشدة ، وأيضا الناس ليسوا ملكا للملائكة بل ملكا لله وحده اه

الجوهرة الثانية

حكاية

قد جاء في الجرائد الفرنجية منذ سنين أن التلاميذ في إحدى الكليات بانكلترا ليله سمعوا ضجة عظيمة في المدرسة ، ذلك انهم أزعجتهم طلقة نارية ، فهرولوا الى مكان الحادث ، فرأوا تلميذا يهوديا مضرجا بدمه ، وبجانبه الآلة التي ضرب نفسه بها وهي (الريفرفر) ووجدوا ورقة مكتوبة بجانبه وفيها : « أنا الذي قتلت نفسي لأنا في هذا اليوم قرأ علينا الاستاذ قول أرسطاطاليس : إن الانسان لا سعادة له إلا بعد الموت ، فهاأناذا قتلت نفسي لأصل الى السعادة » .

وقال أصحاب هذا التلميذ : انه قال عند المساء ، انى سأقتل نفسي الليلة ، فضحك منه أصحابه ، وقالوا : لماذا ؟ قال لأصل الى السعادة ، فان أرسطاطاليس يقول : « إن الانسان مادام في البدن فان البدن يعوقه عن سعادته ، فزاد فتحكمهم ، وظنوا انه يلهو ويلعب ، وقد تم ماقصده » اه

يقول المؤلف : وهذا هو الذى في هذه المقالة

خاتمة المقال

في معجزات القرآن ، في سورة الدخان

تبين لك في هذه السورة أن الدخان رآه أهل مكة ، وأنذروا البطشة الكبرى ، وقد تم ذلك يوم بدر والمسلمون اليوم رأوا الدخان في الحرب الكبرى ، وأنذروا البطشة الكبرى ، والبطشة الكبرى آتية لا ريب فيها في الدنيا أوفى الآخرة ، والأقرب أن تكون في الدارين ، فكما كانت البطشة الكبرى يوم بدر ولم تمنع من بطشة القيامة فهكذا ستكون البطشة الكبرى في الدنيا ولا تمنع من بطشة يوم القيامة ، والبطشة الكبرى يوم بدر كانت على الكافرين ، والبطشة الكبرى المستقبلية ستكون على من يجهلون نظام الله تعالى (وبعبارة أخرى) انها ستكون على المعاصي السلية المتقدم ذكرها ، فن تركوا العلوم والمعارف والصناعات والمواهب التي أعدها الله في الأرض فانهم لا يحالوا تصيبهم البطشة الكبرى فليكن المسلمون على حذر ، إن الله ما ذكر البطشة الكبرى إلا بعد ماقل في سور سابقة : « سأوريكم آياتى فلا تستعجلون » وقال : « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها الح »

فانه اليوم قد أبان الحقائق للشعوب ، والأمم الاسلامية ننظر ولا تعمل ، فالبطشة الكبرى موجهة لهم ولأمثالهم ممن يتعاملون عن الحكمة والعلم ولم يأخذوا الحيطة والحذر ، إن في تسمية السورة باسم الدخان أمرا عجيبا ، وكيف تسمى السورة باسمه ، وينذر الله المسلمين به ، وينذرهم بطشته الكبرى ، إن هذا من أكبر المعجزات في هذا الزمان ، فقد أرى الله المسلمين الآيات ، وأظهر لهم المعجزات ، وأبان لهم الخبايا ، ولم يذر

حجة إلا أذمها ، ولا آية إلا أبرزها ، فان نام المسلمون بعد الآن جاءتهم البطشة الكبرى فكانوا لها خاضعين ومن فكر وتدبر منهم لم يصبهم من الدخان المزمع حصوله إلا كهينة الزكام ، فليستعد المسلمون للعلم وليحذروا النوم والكسل ، وقد أنذرت وحذرت والله هو الوليّ الحيد تم سورة الدخان يوم الجمعة ١ مايو سنة ١٩٢٥

تذييل لسورة الدخان

لقد أصبحت مسألة الدخان من المسائل المعتادة في العالم الانساني ، ولما ختمت تفسير السورة يوم الجمعة في التاريخ المتقدم اطلعت يوم السبت الموافق ٢ مايو سنة ١٩٢٥ م على مقال تحت عنوان « آراء في وادي النيل وسكانه » جاء في التلغرافات العمومية فآثرت نقله ليعلم قارئ هذا التفسير أن ذكر الدخان في القرآن وتسمية السورة باسمه من أكبر معجزات القرآن ، في هذا الزمان ، وهذا نصه :

نشرت جريدة مفشتر جارديان اليوم مقالا للسترانسوم وصف فيه سياحته من القاهرة الى الشلال فقال ما يأتي : « إن مصر ليست بلادا بل نهرا فشقة الأرض الضيقة على ضفتي النهر هي الصالحة للسكنى وهي تتوقف بكل ما فيها من عوامل الحياة على مجرى ماء واحد ، ففي وسع من يسافر في النهر أن يرى الصحراء وراء المعمور على الجانبين ، واذا وضع مدفع على أحد الجانبين فإنه يسيطر على البلاد كلها . الى أن قال : وتهبّ الرياح الشمالية على طول ذلك الوادي الضيق مدة شهور عديدة ، فاستعمال الغازات السامة على الطريقة الحديثة يكفي وحده بدون صعوبة لاهلاك جميع الأهالي ، وتقع النتيجة نفسها اذا أمكن حجب النهر أو تحويل مجراه . انتهى المقصود منه

فانظر كيف أصبح الكلام على الغازات السامة أمرا عاديا ، وأصبح الدخان بمثابة السيف والمدفع ، فكما يقال سيف ومدفع يقال غازات خائفة أوسامة ، وهو الذي أعلنه القرآن منذ ألف وثلثمائة سنة ، والعالم الانساني اليوم قادم على أمور هائلة ، فلما فناء عظيم لقوم واذلال لآخرين ، واما أن يكون الناس قادمين على زمن انقلاب الى حال أجمل مما نحن فيه لأن الشيء متى جاوز حدّه القلب الى ضده . وبهذا تمّ تفسير « سورة الدخان » والحمد لله رب العالمين



تفسير سورة الجاثية

(هي مكية)

إلا قوله تعالى : وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون . فمدنية

آياتها ٣٧ - نزلت بعد الدخان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * إِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 لَأَيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَأَخْتِلَافِ
 اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ
 الرِّيَّاحِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبَأَى حَدِيثِ بَعْدَ اللَّهِ
 وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ * وَيُنِزِّلُ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * بِسْمَعِ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا
 كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشْرَهُ بِعَذَابِ أَلِيمٍ * وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا هَرُورًا أُولَئِكَ لَهُمْ
 عَذَابٌ مُهِينٌ * مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ
 أَوْلِيَاءَ وَهُمْ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ
 أَلِيمٍ * اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ
 تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمِمَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَأَيَاتٍ
 لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا
 كَانُوا يَكْسِبُونَ * مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ *
 وَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ
 عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ يَدْنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا
 يَنْهَاهُمْ إِنْ رَبُّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ
 مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا
 وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ * هَذَا بَصَّارٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ

لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى
كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ
وَحْتَمَ عَلَىٰ سَمِيهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ *
وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ
هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءآيَاتُنَا يَنبَغِينَ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتُوتُوا بِآيَاتِنَا
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلِ اللَّهُ يُخَيِّبُكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُجَمِّعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَرْيَبَ
فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ
يَوْمَئِذٍ يَخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ * وَتَرَىٰ كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ
مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
الْمُبِينُ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءآيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا
مُجْرِمِينَ * وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ
نُظِنُ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ * وَبَدَأَ لَهُمْ سَبِّحَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِءُونَ * وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ
مِنْ نَاصِرِينَ * ذَلِكَ بِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ ءآيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَعَرَّضْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا قَالِيَوْمَ
لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ * فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ * وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *

هذه السورة قسمان

(القسم الأول) في تفسير البسملة

(القسم الثاني) في تفسير السورة كلها

القسم الأول في تفسير البسملة

في يومى الثلاثاء والأربعاء ١٧ و ١٨ من شهر مارس سنة ١٩٣١ م تجلّى لى يوم الثلاثاء هذا الجسم

الانسانى بهيئة عجيبه ، وأخذت أدهش وأعجب من نظامه البديع ، أرانى أقف على قدمى ، أما اليدان فانهما مطلقتان ، ولمفاصل الأصابع ، وابداع الأنامل والبنان أثر عظيم فى الصناعة والزراعة والسياسة والتجارة ، ولم تكن أيدينا معاشر بنى آدم على هذا المتوال وبهذه الهيئة لم نحسن عملا من أعمالنا التى برعنا فيها ، يداى حرتان ورجلاى لاصقتان بالأرض عند الوقوف ، دواب الأرض وبهائمها وأنعامها وزواحفها لم تعط هذه المزية ، وإذا كانت يداى مطلقتين فلاجرم انطلق معهما عقلى فأدرك بعض الحقائق والمعارف التى تصوغها اليدان ، فلم يك للحصان ولا للتعلب اللذين شغلت أيديهما بحمل جثثهما ليجريا فوق الأرض من الفكر مابه يصنعان ما يصنع الانسان ، لاعتقل ولافكر إلا حيث يمكن العمل ، ولو أعطيا عقلا بقدران به على صنع الملابس والتصوير فى مدتنا العظيمة وهما باقيان بحاطما لم تتغير أيديهما لكان ذلك خطلا فى النظام ، إذن العقل لا يعطى إلا على قدر الحاجة ، وكل مالم يعط من الأيدي ما أعطى الانسان لا ينال من الفكر والتدكاه المناسب لصنع اليدين ما أعطيه الانسان

ثم نظرت اذا الطير فى جوّ السماء تطير بأجنحتها ، ورأيت نهر النيل أمامى يجرى فيه السمك ، ورجعت الى الانسان فوجدته لم يتجاوز بصنع يديه من الأعمال مابه ارتفع عن الطير فى الجوّ ، أو انحط عن السمك فى الماء ، الانسان محكوم عليه بالحبس فى هذه الأرض ، هو مع هذه الحرّية مسجون سجننا مؤقتا ، وهذا السجن نهائيه الموت ، الأرض سجن سجن فيه الحيوان والنبات والانسان ، النبات لاصق بالأرض والحيوان منجذب اليها ، والانسان هو الذى ارتقى بعقله ، وكل ما تقصه بطبعه ناله بعقله وصنع يده ، فهاهوذا اكتسى جلايب من صنع يديه بدل الأشعار والأوبر ، وارتقى فى الجوّ كالطيور بالطيارات ، وجرى فى البحر والنهر كالسمك وذلك بالقواصات ، الانسان لم يرتق الى الأفلاك ، ولم يصل الى القمر أو المريخ أو المشتري فضلا عن السماء ، ولم يخرق الأرض فيغوص فى قاعها ويصل الى مركزها محترقة قشرتها وما تحت قشرتها ، إذن صناعته لم ترتفع به فوق الطيور ، ولم تنزل به تحت السمك

الانسان رقيه الذى وصل اليه فى الأرض لم يزل محدودا معدودا ، الانسان حرّ وهو عبد ، مختار وهو مجبور ، لا ينسى له أن يصعد الى الجوزاء فيعرف أخبارها ، ولأن يصل الى باطن الأرض فيدرس علومها ، وأتى سجن أشد من هذا ، وليس سجنه قاصرا على هذا ، بل هو مسجون فى طبياعه وأخلاقه وآرائه وأحواله ونظام عشيرته ، وعوائده ، وتقليده لآبائه وأسائده ، وليس له خروج من ربة التقليد إلا بقوة تنقلب على مادته تضارع قوّة الطير فى الجوّ إذ تعالى عن الجاذبية التى تلتصقه بالأرض ، فأخذ يضرب هواه الجوّ بجناحيه فهرب الهواء الى الورا ، ثم يكرّ الهواء راجعا الى الأمام فيضرب الجناح ، وبهذا يكون الطيران ، فهذه العملية التى قام بها الطير جعلته بعيدا عن الأرض غير لاصق بها ، وهذه جعلت درسا للانسان ، وعلى هذه الشريطة صنع الطيارات فطار بها ، والى هنا وقفت أعمال الانسان من حيث الارتفاع فى وقتنا الحاضر ، نعم الانسان محبوس محدود الارتفاع ، محدود السياحة فى باطن الأرض ، ولكنه من جهة أخرى له سياحة عقلية ، هو يدرك الأفلاك بعقله ، ويدرسها بفكره ، وبالعقل وحده طار فى عوالم الأفلاك ، وغاص فى باطن الأرض وعرف أبعادها وأطوارها ومساحاتها ودرس ما أمجّز كل حيوان على هذه الأرض ، فإذا كان الانسان فى سجن من حيث جسمه ، فهو فى حرّية من حيث عقله

الانسان مجبور مختار محبوس مطلق

لم يحبس الانسان فى الأرض لظلمه ولا لإهانتة . كلا . ولكنه حبس ليدرس ، ويبقى ليتعلم ، ولو أنه أطلق سراحه وقيل له طر كما يطير الطاووس ، وحلق فى جوّ السماء ، وتنقل فى الكواكب ، وابتهج بجمالها

كما تنهج النحل الطائرات في الحدائق بجمال الأزهار .
أقول : لو أنه قبل له ذلك لخرج من الحياة بغير طائل لأنه لم يدرك كوكبا واحدا فضلا عن كواكب ، بل يعيش ويموت وهو لا يعلم له ولا حكمة وليس له كتاب منبر ، ويكون مثل الانسان إذ ذاك كمثل الذين يغدون ويروحون في دور السينا (الصور المتحركة) يقضون أوقاتهم فيها لهوا ولها ثم يرجعون ولا هم يعقلون
لو أن الانسان كان هذا شأنه لم يكن انسانا بل لم يكن إلا حشرات طائرات بين الكواكب كالخشرات الطائرات بين الأزهار .

تلك هي الحكمة في تباعد الكواكب واختلاف أوضاعها وبعد الشقة بينها حتى يستقر كل جماعة في كوكبهم ويدرسوا نظامه ، ومتى كملت نفوسهم بحصول الملكات العلمية ، هنالك يصلحون لدراسة نظام باقي الكواكب ، فاذا نتجت الأرواح عن أجسامها وغادرت هذه الأرض بالموت طارت الى تلك الكواكب وهي عالة قادرة على التعقل والفهم ، وهنالك تكون السعادة والسلام .

حبس الانسان في الأرض إذن رحمة

إذن ما ظهر لنا أنه شر هو في حقيقته خير ، فهنا أمران : جسم ظاهره شر وباطنه نعمة لأنه كان سببا في دراستنا هذه الأرض مدة حبسنا فيها مدة الحياة بما نعمل لتغذيته وتتميته ومداواته ولباسه والمدافعة عنه بنضال الأعداء والحساد ، وروح لها الاشراف على العوالم كلها ، فالروح خير والجسم يعين على خير الروح لأنه جعل لتربيتها ، فجميع الأغلال التي تحيط بنا في هذه الحياة ، وأنواع الهوان والذل . كل ذلك لرقى أرواحنا فاذا رأينا هذه الأجسام منجذبة نحو الأرض ، وهذه الشهوات الحيوانية تعذبنا كاللحم والولد ، وأنواع الزينة والمتاع فإل ذلك لترقية الروح . إذن الضدان وهما الخير والشر أو الروح والجسم ما لهما الرحمة . وهذا معنى « بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » فاحب هذه الرحمة المذكورة في هذه السورة . ثم احب لما خطر لي . فالذي خطر لي أن للانسان جسما وللانسان روحا . فبالجسم أصبح الانسان والحيوان أشبه بالمحيوسين في جهنم الذين قيل فيهم : « ترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد سرايلهم من قطران وتغشى وجوههم النار »

أنا لست أقول ان الحيوان والانسان اليوم في جهنم . كلا . ولكني أقول ان هذه الأجسام الحيوانية لها شبه ضئيل من حيث طباعها بطباع أهل جهنم كما أن قول القائل : « فلان وجهه كالبلدر » ليس معناه انه مثله من كل وجه . والانسان خاصة نراه يلبس ملابس مصبوغة بمواد القطران المستخرجات من الفحم الحجري كما هو معروف وتقدم في هذا التفسير موضحا ، والحرارة والبرودة تزيدان وتنقصان وهما تغشيان وجوه الانسان والحيوان . و ترى أن الأمم العظيمة في وقتنا الحاضر أشبه بزانية جهنم لأنهم قوم مجرمون يضحكون على ذقون الأمم الضعيفة الشرقية ويبيعون لهم المصنوعات الجليلة ويفسسونهم في النعيم ويذيقونهم العذاب ألوانا ويحتلون بلادهم . وقد تنبه الشرقيون اليوم لهذه المخازي . وأول من استيقظ لذلك أهل الهند واتبعهم العرب ومنهم أهل بلادى عند كتابة هذه المقالة . فهام أولاء أخذوا يقطعون البضائع الأجنبية لأنها نذير الهون والشر والقتل .

وبالجملة ان الأجسام الانسانية يحيط بها الشقاء ، ومن الشقاء أن الدول الظالمة معذبات بظلمها لأن الشر يصبح فيها عادة وذلك يضعفها بعد حين . فالظلمة معذبة وقت ظلمها ، والظلمة ستلقى جزاءها في نفس الحياة بعد حين باستفحال الشر فيها . وهذه الشرور اللاحقات بالظالمين والمظلومين نتائجها البصائر والحكمة والعلم والعبرة . فهذه دروس تعتبرها الأمم وينتخرج بها رجال يذيعون العلم في أكناف هذه الأرض في كل حين

وبالروح أدرك الانسان الحقائق حتى أشبه الملائكة الكرام ، وهذا ملخص ما تقدم ، أليس هذا هو معنى الرحمة في البسلة ؟ ياغبيا ! شرّ وخيرهما يصحان رحمة ، إذن الشرّ رحمة والخير رحمة ، الضدان رحمة ، أليس هذا به نعرف معنى ماورد في الصحيح « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله » وإذا كان القدر خيره وشره من الله فلم نقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، هلاقلنا بسم الله الرحمن المنتقم ، ولم نقول : الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ، ولم نقول : فلك الحمد على ما قضيت ؟ ولقد قلنا ان القضاء فيه الخير والشر ، ولاجرم أن الحمد لا يكون إلا على نعمة ، والشرّ في ظاهره ليس نعمة .

هذه بعض أسرار بسم الله الرحمن الرحيم ، فهو باحداث الخير رحيم ، و باحداث الشرّ والآلام يحافظ بهما على الخير كما حافظ على عقولنا ورباها بما حبس أجسامنا في الأرض وأحاطها بالتكاليف . كل ذلك يقوى الروح فتقوى على السير في العوالم الأخرى .

هذه هي الأسرار التي أطمعها في هذا اليوم ، وهذه الأسرار ظهرت في قوله تعالى في أول السورة « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » ، فعزته ظهرت في قهرنا ببقائنا في الأجسام الأرضية وشرورها وحروبها وردائها ، وحكمته ظهرت في ارتقاء أرواحنا بذلك السجن . ومن عجب أن السورة بدت بالعزة والحكمة وختمت بهما ، ففي أولها « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » وفي آخرها « فله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين * وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » . وهل افتتاحها واختتامها بالعزة والحكمة معا إلا ليقاظنا لدراسة هذه الدنيا ، لأننا إذا لم ندرسها نعيش أشبه بالمنافقين لأننا نقول : بسم الله الرحمن الرحيم مع ان النوع الانساني يعيش وهو في شقاء أمد الحياة ، فأين هذه الرحمة ؟ فيقول الله : أيها الانسان ، أنا عزيز وحكيم ، فقهرى لك مصحوب بالحكمة في تربيتك ، وأنت لن تعقل هذا إلا بالدراسة ، فادرس الأرضين وما عليها ، فبذلك تكون من الموقنين

واعلم أيها النكبي أن أسماء الله عز وجل ليس يعرف معناها هذا الانسان إلا بدراسة هذه الدنيا ، وكيف نعرف تكراراتية ثلاث مرات في آخر هذه السورة إذ يقول : « فله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين » مع ذكر الكبرياء والعزة والحكمة إلا بالدراسة الصحيحة ، فهو مرهب وذو كبرياء وعزة مع الحكمة ، ثم كيف نفهم قوله : « إن في السموات والأرض آيات للؤمنين » وفي خلقكم وما يث من دابة آيات لقوم يوقنون » (ومعلوم أن الإيمان أقل من الإيقان فلم جعل الأول مع اجمال خلق السموات والأرض وجعل الثاني وهو اليقين الذي اليه تشد الرحال وهو الذي طلبه الخليل وناله كما تقدم في سورة الأنعام) مع تفصيل خلق الانسان والحيوان . كل ذلك إنما يعرف بالدراسة والجد . إن ما ذكرته الآن من أن حبس الانسان في الأرض وان كان ظاهره شرا هو في حقيقته خبير من حيث انه يدرس هذه الدنيا ويتقن دراستها على قدر طاقته يمت بصلة الى آية « وفي خلقكم وما يث من دابة آيات لقوم يوقنون » لأن البحث العلم لابورث اليقين ، فأما البحث الخاص والوقوف على الحقائق فهو الذي يورث اليقين ودراسة الانسان والحيوان تفصيلا أسهل من دراسة العوالم كلها

ومن عجب أن الأقوال في الصلاة تتجه نحو هذه المعاني ، فانظر أليس المصلي عند قيامه بحمد الله الذي يربى العالمين ويرحمهم ويحاسبهم ويهديهم الصراط المستقيم ، وعند الرفع والاعتدال يحمد مل السموات ومل الأرض ومل ما بينهما ومل ما يشاء من شيء بعد . فأقوال المصلي في قيامه وفي رفعه من الركوع كلها اجمال لا تفصيل فيه ، وهذا بالإيمان أنسب وهو أشبه بالآية هنا « ان في السموات والأرض آيات للؤمنين » فمن ان قوله في ركوعه وسجوده (إذ يذكر العوالم العامة ويتجه الى الأحوال الخاصة الأرضية فيقول : « خضع لك سمعي وبصري وعيني وعظمي وعصبي وما استقلت به قدمي لله رب العالمين » في حال الركوع ، ويقول :

« سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره الخ » في حال السجود) يرجع الى الدراسة المفصلة لأن تفصيل تشريح الانسان وبقية ماحوله من الحيوان هو الذي يورث اليقين .
 الله أكبر ، إن هذا من أعظم أسرار آية « واسجد واقرب » والحديث « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » ، ألا ترى أن في السجود ذكر تشريح الانسان ، وباتقان دراسته هو وما يتصل به من علم الحيوان يكون اليقين ، وباليقين يكون الحب ، والحب هو أقصى سعادة الانسان ، انظر ما تقدم في سور كثيرة من اجماع العلماء أن اليقين والحب لا يكونان إلا بالدراسة التفصيلية . والآية هنا جعلت اليقين في دراسة خلقنا وخلق حيواننا . اللهم إن هذا عجب وأى عجب ، فعزته عز وجل بحبسه لنا في الأرض جعلتنا موقنين بالدراسة الخاصة ، ولولم يحبسنا لعشنا جهالا ، فالجدد لله على العلم والفهم والحكمة .

خواتمى يوم الأربعاء ١٨ مارس سنة ١٩٣١ في تفسير البسملة في سورة الجاثية

إن هذه الخواطر متممات لما تقدمها في يوم الثلاثاء ، ذلك أتى قد أصابني مرض خفيف ، وقد جرت عادتي أثناء هذا التفسير أن أعمل بما أكتبه فيه من علم الصحة ، ولقد تقدم فيه أن أطباء العصر الحاضر قد رأوا أن الانسانية كثيرة الاسراف في ملابسها وما كلفها ومشاربها وشهواتها ونصحوا الناس أن يلتبسوا الشفاء في ترك كثير مما تلبسوا به ، ومن ذلك أن يجعلوا أجسامهم معرضة للشمس بشروط خاصة تقدمت في (سورة يونس) في أولها ، وأنا قد عملت بهذه الشروط ، وصرت أجلس في الشمس عاريا بعد التدرج في ذلك (وذلك في الخلوات) للتداوى ، ففي يوم الأربعاء فعلت ذلك ، وفي أثناء هذه الجلسة أخذت أفكر في أمر هذا الانسان في الأرض ، وكيف كانت رحمة الشمس عامة ، وقد تعرض لها النبات والحيوان فكانت الصحة والقوة

أما الانسان فان أمره عجب ! أسرف في ملابسه وجعلها زينة له كما افتخر بالمال كل والمشارب وهو في ذلك يحفر قبره بيديه ويتجمل المرض والموت والفقر والذل ، ولقد عجبنا لأمره هذا الانسان وملوكه وأغنيائه كيف شملت الغفلة أكثرهم ، وعمت أغلبهم ، ذلك أنهم لا يكادون ينالون تلك النعم حتى يفعلوا ما يفعله الصبيان والنساء فيتظاهرون بالزينة والزخارف والقصور ويتناولون ألوان الطعام وقد نسوا علم الصحة وجهلوا حقيقة السعادة في هذه الحياة الدنيا ، أوليس من العجب أن هذا الانسان المسكين نسوه الحكمة الإلهية سياسة الانسان للدواب ، ألم تر أن الانسان ربما يمسك حشائش يسيده وقد تكون من مستنقع يضرب بالدواب ضررا بليغا فيقدمها للجاموسة الشاردة فترجع اليه ، أليس الملوك والأمراء لما قصرت أنظارهم وقلت علومهم في أكثر هذا النوع الانساني قيل لهم احفظوا الأمم واحكموا الدول وهاكم الملابس والمال كل نفدوا منها ما نشاءون ، إذن جزاء قيام بعضهم بحفظ أهمهم قد يجلب المرض والضعف والموت الزؤام لهم .

يا سبحان الله : ضوء الشمس رحمة أرسلها الله لعباده فخرموا منها أجسامهم بما أكثروا من ملابسهم ، ولم ينالوا من ذلك الضوء ما نالته الآسود والنمور في القفار وحرمت الأجسام من تدخل الضوء في المسام الجلدية الانسانية كما يتدخل في المسام الجلدية الحيوانية والفتحات الشعرية في أوراق الشجر والنبات .

ما أعظم الجهل في أرضنا ، أرى الأغنياء في بلادنا المصرية الذين يملكون أرضا شاسعة قد يمرون وهم مكبلون بملابسهم على الزرايع الذين في مزارعهم وهم عراة الأجسام ماعدا عوراتهم فيرونهم أقوياء الأبدان أما هم فانهم مرضى الأجسام فلا يفكرون في ذلك .

يا سبحان الله : معصية آدم تلبس بها بنوه فخرم أكثرهم السعادة «ولات حين مناص» ، يولد الطفل ويحرم جسمه من ضوء الشمس من يوم الولادة الى يوم الوفاة وهذه من أكبر الضربات على هذه الانسانية

في يوم الأربعاء استحممت بالماء الحار وأتبعته بالماء البارد ، وهذه الطريقة كما تقدم مفيدة ، ثم جلست في الشمس ، فنال جسمي مزبتيين : مزبة الماء ، والشمس ، فهما نعمتان نلتهما معا في هذا اليوم ، وإن كنت لم أعلم بهذه النعمة إلا في أيام كبر سني ، وما لا يدرك كله لا يترك كله ، ضوء الشمس نعمة ، وكلما خفت الملابس كان الجسم الى الضوء أقرب وبالصحة أولى .

حرم كثير من الناس هذه النعمة جهلا بنعمة الشمس واتباعا للعادة الراسخة في نوع الانسان ، ضوء الشمس نعمة والناس جهلوا بها ، ومن جهل النعمة حرمها ، إن الحرمان من تلك النعمة يقبعه النذل ، فاذا انتاب المرض أكثر الناس وقصرت أعمارهم بحرمان جلودهم من ضوء الشمس فإن بعض الأمم الشرقية أغنياءهم وقراءهم بسبب الغرام بالتقليد الأعمى كتقليد القروء لم يكتفوا بما ينتجه صناع بلادهم من الملابس وإن لم تكن من أجود الأصناف بل أخذوا يتفننون فيها ويشترونها من الملابس التي نسجها الفرنجة في بلادهم وذلك من أكبر الجهالات الفاشية في أمم الشرق الأدنى كبلاد شمال أفريقيا وبعض بلاد العرب ، تلك الأمم التي نامت نوما عميقا ، فلبست ملابس الفرنجة وصارت تلك الملابس أصفادا قيدوا بها وأغلالا في أعناقهم وهم يسحبون في حميم الاستعباد ، وأنا أجد الله إذ كتبت هذا وأنا أعلم أن الأمم العربية على بكرة أبيها قد استيقظت لهذا الخطر وأخذت تعد له عدته ، وبالأجمال ان نعمة ضوء الشمس عامة ، ولما توارى عنها الانسان وأسرف في تواريه بالملابس أورثه ذلك الاسراف إما ضررا في الصحة كالامراء والملوك ، وأما أن يضاف اليه شيء آخر ، وهو النذل والاستعباد بالاستدانة والتترف والنعيم .

هذا ملخص هذا المقال وهو الذي خطر لي وأنا معرض جسمي لضوء الشمس ، ثم اني بعد الظهر أخذت أمشي على شاطئ النيل في النيل وقد تجلت لي هذه الدنيا بهيئة جميلة ، وأخذت أفكر في هذا الهيكل الانساني ، ذلك أن لي حاسة بها ألس الحار والبارد ، والرطب واليابس ، وأعرف الثقيل والخفيف ، والنام والحسن ، فهذه الحاسة كأنها ربة هذه المحسوسات ، ولي حاسة أخرى تفرق بين الطيب والخبيث من الروائح وهناك حاسة أعلى منها بها أعرف الأصوات وأنواعها ، وأخرى بها أعرف القريب والبعيد والألوان والسطوح والأجسام والحركات والسكنات ، وهذه هي حاسة النظر وعمدتها الشمس التي أراها أمامي في المليل يا عجبا ! هذه الشمس أمامي قد ملأت الأفق تبرا تثرته في القفر والحقل والحديقة والبر والبحر ، هاهوذا الضوء منشور في كل مكان ، وهذا التبر به أعرف الطرقات وأفرح بالجمال ، والعين أعظم الحواس الظاهرة كما أن الشمس أبهى الموجودات المحسوسات ، فلا تفتد الى ما وراء ذلك ، فها هو ياترى ؟ إن ما وراء ذلك هو عقلي ، ووراء الشمس عقل عام .

يا عجبا ! هذا اللمس يميز بالاصقة لكل ماحولى ، وحاسة الذوق تعرف الحلو والمر ، والحريف والملح ، والخامض والعفص الخ ، وحاسة الشم تميز الروائح ، وحاسة السمع تعرف الأصوات ، وحاسة البصر تميز بالبصرات فهل وراءها إلا العقل ، ذلك العقل الذي به ندرك حقائق ماحولنا ثم نجد له نظيرا في الأرض والسما . أنا أشرب الماء والماء يحيط بالأرض لا ينفذ ، أنا أشم الروائح وهي أيضا في كل مكان لا تنقاد لها ، أنا آخذ الهواء بالشهيق فيدخل في رئتي ، والهواء يحيط بالأرض لا ينفذ ، أنا أرى النور والنور يحيط بالأرض وذلك بيصرى ، فلم يبق إلا أن أقول : أنا لي عقل يدرك الحقائق ، وهذا العقل أرى آثار نظيره في الشمس وفي القمر والكواكب والنبات والحيوان والسحاب وكل مركب وبسيط . فهنا عقل عام لي أنا شعبة منه كما كان لي شعبة من الهواء وأخرى من الماء ، العقل العام يحيط بالكائنات إحاطة الأنير بها ، وإذا كان ماء جسمي وهواؤه ومواده الأرضية لها ارتباط بالماء والهواء والمواد الأرضية ، فما لا ريب فيه أن هنا عقلا عاما يحيط بهذه كلها ولا تنقاد له وهو متصل بعقلي وروحي ، وهذا العقل الكلي بالنسبة لله عز وجل أشبه بضوء الشمس

بالنسبة للشمس ، وهذا مجرد التمثيل للتقريب والا فالأمر فوق عقولنا ، إذن هنا رحمتان عامتان : أولاً رحمة الشمس وضوئها التي جهتها الناس فأقلبت عذابا في الدنيا بالأمراض إذ حججوها عن أجسامهم ، وبذهب مجدهم واستقلالهم بالاسراف فيما يسترون به أبدانهم . ثانياً رحمة العقل الذي اشتقت منه عقولنا واتصلت به ، وهذا العقل مستمد من نور الله الذي ليس كمثل شيء وهو السميع البصير .
وهذه الرحمة الروحية العقلية يعملها كل انسان في هذه الأرض ولكنها رحمة مخبوءة . الله رحم الناس بضوء الشمس فجعلها ، فنعوا الضوء عن أجسامهم ، فاعتزتهم الأمراض ، وضاعت بلادهم بالاسراف فيما يلبسون ، ورحمهم باسراق نفوسهم وعقولهم ، ولكنهم بغفلتهم نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، ذلك لأن أنفسهم مستمدة من العقل العام ، والعقل العام نور أودعه الله في العوالم كلها وعقول بني آدم فروع منه ، ولأنهم استيقظوا لذلك النور بالدراسة والصلاح وتقليل الشهوات لكانوا دائماً في حضرة مفيض ذلك النور وصاله واقربوا منه « إن رحمة الله قريب من المحسنين » والى هنا تم الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة والحمد لله رب العالمين

القسم الثاني في تقسيم السورة

هذه السورة ثلاث مقاصد

﴿ المقصد الأول ﴾ دلائل التوحيد بخلق السموات والأرض والدواب ، واختلاف الليل والنهار ، وانزال المطر ، وتصريف الرياح ، وتسخير الفلك ، وما يتبع ذلك من المكاسب في التجارة ، وصيد السمك ، وحوز اللؤلؤ والمرجان بالفصوص عليهما ، وتحلل ذلك جهالات الكفار ، ووجوب صفح المسلمين عنهم ، ومغفرتهم لهم من أول السورة الى قوله : « ثم الى ربكم ترجعون »

﴿ المقصد الثاني ﴾ فيه ذكر أن بني اسرائيل كان فيهم كتاب التوراة والشرايع العظيمة والنبوة ومجراتها وعندهم الرزق الحسن ، وفوق ذلك كانوا مفضلين على عالمي زمانهم ، وكانت لهم أدلة في أمور دينهم ، ومع هذا كله قد اختلفوا فيما بينهم لغلبة الشهوات والحسد والعداوات ، فاذن أهل الأرض متشابهون ، أشبه الآخرون الأولين ، فقومك على هذه الطريقة في هذه الحال ارتطموا ، ولقد بلوناكم كما بلوناهم فهل تصبرون فاصبر يا محمد وليصبر أصحابك والمصلحون من أمتك فان عالمكم هكذا شأنه ، قدم على شريكك ولا تعباً بين خالفك ، وهذا القسم الى قوله : « ورحمة لقوم يوقنون »

﴿ المقصد الثالث ﴾ من قوله تعالى : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات » الى آخر السورة ، وهذا في محاجة الكافرين وتقريرهم

﴿ التفسير اللفظي ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(حم) إشارة الى الحمد على النعم التي لا تنتهي المذكورة بحملة في هذه السورة . وأيضاً سيأتي في آخرها « فته الحمد » ، ان الحمد في أمة الاسلام هو كل دينها ، لأن الحمد راجع الى مجامع العلوم والأعمال ، الحمد يستوجب كل علم وكل عمل ، فكان « آل حم » تفسير لسورة الحمد وهي الفاتحة ، أوهي مثال العلوم النافعة للامة كلها ، وللإشارة أيضاً الى الحكمة المذكورة في قوله (حكيم) ففيها الحياء والميم ، وذلك فوق ما عرفت من مناي الحروف كلها مجتمعة في سور كثيرة ، أولها سورة « البقرة » والحمد والحكمة مجامع الجباب

لأن الحد لا يكون إلا على ما علم من النعم والحكمة ونظام هذه الدنيا . والحق أن هذه السورة سيوضح لك فيها من غرائب العلم وبدائع الحكمة ما يذهل له الغافلون من المسلمين الذين ظنوا الجدل وعلم الفقه يكفيان أمة الاسلام المظلومة المهضومة الحقوق التي طاردها أم أوروبا بعد أن طاردها علماءها ومنعها من الاستضاءة بالأنوار الالهية ، فاللهم قيض لأمتنا من يهديها الى الهدى ، ويردها عن الردى ، ويهديها الى الصراط المستقيم (تنزيل الكتاب) كائن (من الله العزيز) الغالب (الحكيم) في تديره ، ولاجرم أن ذكر الحكمة بعد العزة يعرفنا أنه مع قهره للعوالم المادية والروحية لا يتصرف فيها إلا بحكمة فهو غالب قاهر وقهره مصحوب بالحكمة كما يشاهد في النبات والحيوان والأجسام الانسانية ودوران الكواكب وانتظامها في سيرها وصلها حتى أضاءت ، كل ذلك من القهر والغلبة لها مع الحكمة في صنعها ، ولذلك أعقبه بنتائج العزة والحكمة فقال سبحانه (إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين) أى علامات وعبرا للمصدقين (وفى خلقكم) أى وفى تحويل أحوالكم حالا بعد حال آية وعبرة لكم (وما يثب من دابة) وما يفرق في الأرض من جميع الحيوانات (آيات) دلالات تدل على حكمة خالقها وجمال صنعه وابداعه (لقوم يوقنون) ورفع آيات على محل إن واسمها لأن محلها رفع ، وقوتت بالنصب كما تقول ان زيدا في الدار وخالدا ، أو خالد في السوق ، فالنصب بالعطف على اسم إن ، والرفع بالعطف على محل ان واسمها وهو الرفع (واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق) من مطر هو سبب الرزق (فأجابه الأرض بعد موتها) يبسها (ونصريف الرياح) باختلاف جهاتها (آيات لقوم يعقلون) ليس في اعراب هذه الآية صعوبة عند الأحنس ، فأما سيويه فانه يقر لفظ في أى وفى اختلاف الخ ولو لم تقدر في لزوم العطف على معمولين لعاملين مختلفين عند سيويه فلانظيل بالكلام فيه ، يقول الله تعالى : انكم اذا تأملت الحكمة المنبثة في السموات والأرض آمنتم ، فاذا ازدحم علما وفهما وبمنا ازدادت عقائدكم فصرتم موقنين لأن الايقان بتوافر الأدلة وتكاثرها ، ومتى أيقن الانسان بنظام هذه الدنيا أصبح ذا عقل لأن العقول لا تربي إلا بالمزاولة ، فأول المراتب إيمان بالله فاذا زاد الانسان حكمة وعلما وبحث في دقائق المخلوقات وعجائبها أصبح موقنا بربه ، وكلما زاد بحثا زاد عقله دراية ، فأصبح في الأرض نورا يستضاء به ، وهذا يدلنا أن الله تعالى لم يرد بنظرنا في العوالم مجرد الإيمان أو الايقان ، بل يراد فوق ذلك تربية عقولنا ، وتربية العقول في العالم الانساني اليوم في مدارس أوروبا وغيرها لا تتم إلا بقراءة علم الفلك والعلوم الرياضية والطبيعية والحيوان والنبات والانسان والمعدن ، تلك هي التي تربي العقول ، هذا مقصود الآية ، والله يقول لنا : أنا أمرتكم بالنظر في العالم أولا لتؤمنوا فاذا زدتم علما أيقنتم بي وذلك كله بربي عقولكم ، فنتيجة هذا الوجود تربية العقول ، فليفكر المسلمون في هذه الآيات ، وليحججوا من أمة هذا دينها يطلب منهم الإيمان بم الايقان ويقال لهم : نحن تربي عقولكم فيقول القراء الجاهل من المسلمين الذي غرّه صفار العلماء . كلا . والله لقد عرف الله وآمنت به ، ومتى آمنت بالله فلا سبب لنظري في العوالم بل هو فضول ، فعل المسلمون ذلك وجاءت أوروبا فظرت في السكون فازدادت عقول أبنائها فجاءوا الى الشرق فحكموا بلادنا . كل هذا لندهور العقول والتعاليم في بلاد الاسلام . يا قوم هلا قام فيكم عالم فصيحكم . يا قوم هلانها كم النهاية عن هذا التقصير والتقصاع . يقول الله لكم فكروا في العوالم لتؤمنوا ، ثم يكون الايقان ، ثم يأتي بالمقصود وهو تربية العقل بمزاولة العلوم الكيماوية والطبيعية والحيوانية والانسانية . يا الله أشكو اليك قادة ناموا ، وأسألك أن تحمي هذه الأمة التي أماتها الجهل ، اللهم أنر البصائر وعمم العلم في بلاد الاسلام . بربي الله عقولنا بتلك العلوم ، ويشير الى ذلك بهذه الآيات وتقوم أوروبا فتوجب هذه العلوم في المدارس الثانوية ليكون قادة الأمة ، والطبقة الوسطى من الشعب قد استنارت بصاؤها بدراسة ما حو لها من الكائنات ، فتربي فيهم المسكات ، فيحفظون بلادهم ، ويرقون شعبهم ، والمسلم قد انغمض عينه عما حوله

فلا يرى ولا يعقل ويكتفى بالإيمان ، فيكون العالم والعامي على حد سواء ، وهذه هي الطامة الكبرى ، وسأزبد
المقام إضاحاً إن شاء الله تعالى (تلك آيات الله) أى آيات دلالته حال كونها (تلاوها عليكم) ملتبسين (بالحق)
ولما كان هذا المقام عظيم الشرف ، جليل القدر ، عليه ارتقاء العقول ، ورتقى الأمم ، وإن لم يصرح به
أعقبه بقوله (فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون) أى بعد آيات الله ، وذلك كما تقول : أعجبني زيد وكرمه
أى كرم زيد ، فذكر زيد للبالغة والتعظيم ولم يقل فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون اكتفاء
بالأول لأنه للعموم ، أما الايقان فهو للخصوص وترية العقل كذلك ، والأمة الإسلامية تركت مباحث كبار
العلماء فى الكتب ، ولم ترد أن تعمل بها ، وسأقل لك خلاصة ما ذكره العلامة الرازى قريباً لتعرف كيف
كان حكماء الأمة يفهمون ويكتبون ، وكيف كان بقية العلماء لا يفكرون ، وعن رقى الأمة معرضون ،
فانا لله وأنا إليه راجعون ، تشير الآية هنا الى أن الايقان وترية العقل إنما تكون بما ذكر من العالم العلوى
والسفلى والمسلون ينمون ويعرضون ، ويكتفون بإيمان الجائز وعقول العائمة إلا قليلاً منهم « وقليل من
عبادى الشكور » ولذلك أعقبه سبحانه بدمّ المعرضين الذين لا يؤمنون فقال (ويل لكل أفاك) كذاب
(أنيم) كثير الآثام (يسمع آيات الله تنلى عليه ثم يصم) يقيم على كفره (مستكبراً) عن الإيمان بالآيات
وإنما ذكر « ثم » لبيان استعجاب الاصرار على الكفر بعد ما يسمع الآيات تنلى عليه (كأن لم يسمعها) أى
كأنه لم يسمعها فهو يصم مثل غير السامع (فبشره بعذاب أليم) على إصراره (وإذا علم من آياتنا شيئاً) إذا بلغه
شيء من آيات القرآن (اتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين) من ورأهم جهنم) أى من خلفهم لأنها
بعد آجالهم (ولا يفتى عنهم ما كسبوا شيئاً) ولا يدفع عنهم ما كسبوا من الاموال شيئاً من عذاب الله (ولا
ما اتخذوا من دون الله أولياء) كالأصنام (ولهم عذاب عظيم) لا يتحملونه (هذا) القرآن (هدى والذين
كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم) الرجز أشد العذاب (الله الذى سخركم البحر) فجعله لطيفاً
يحمل الفلك فتطفو ولا ترسب فيه بنواميس جلاها ، وحكم أبقاها ، بحيث خلق المواد الحشوية والحديدية ،
وجعلها قابلة لعمل السفن وأن يتحيل الناس فى ذلك حتى لا ترسب لتقلها بل تسير فوق الماء ، وأجرى الرياح
فوقها لتساعد على جريها ، وخلق الفحم وأمثاله لتوقد النار فتتحرك الآلات البخارية فتسير السفن ، فباطوا
تجرى ، وبالنار تجرى ، والكهرباء والبتروىل ، وهما يسيبان النار تجرى .

حكم نسجت بيد حكمت ثم اتسجت بالمتسج

وهذا من معنى قوله (لتجرى الفلك فيه بأمره) وما يدخل فى هذا المقام البوصلة البحرية التى تدل
الربان على الجهات الشرقية والغربية والشمالية والجنوبية ، وكذلك علوم الفلك وعلوم الطرق البحرية
فيعرف بها النجوم ومواقعها فى السماء والطرق والجهات ، فإن النجوم فى السماء جعلت علامات تعرف بها
الطرق ، ولها جداول بها يدرك الربان ما يريد ، وبالطرق البحرية يجتنب الربان المضار ، والفلك فى البحر
لا بد فيها من علوم الصناعات لعمل السفن ، ولصنع القلوع ، ولادارة الآلات البخارية ، ومن معرفة النجوم
بالدقة ، ومعرفة الطرق البحرية ، ومعرفة البوصلة . هذا معنى تسخير البحر لنا لتجرى الفلك فيه بأمره ، ثم
عطف عليه بعض النتائج من تسخير السفن فقال (ولتبتغوا من فضله) بالتجارة والغوص على المرجان
والدّر . ثم إن فى قرار البحر عجائب الحيوان البديع الذى لم يصله ضوء فغوص نوراً يستضيء به من جسمه
هو ، وذلك لاستنارة عقولكم ، فهذا وغيره من فضل الله تعالى (ولعلكم تشكرون) هذه النعم ، ولما كان
العالم كله كأنه جسم واحد يحتاج كل جزء منه الى الأجزاء الباقية ، فلا يستقيم مطر بلا حرارة شمس ، ولا منفعة
لحرارة الشمس بدون نظام فى السير ، ولا رياح إلا بحرارة ، ولا سفن إلا بهواء وكواكب مرصودة ونجم ، أو
كهرباء وحديد وخشب وما شابه ذلك بحيث يرى الانسان أن هذا العالم كله كساعة منظمة أردفه بما يفيد

ذلك فقال (وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعا) بأن خلقها نافعة لكم حال كون مافى السموات ومافى الأرض جميعا كائنة (منه) وحاصلة من عنده **ب** قال ابن عباس : كل ذلك رحمة منه . وقال غيره فضل واحسان (إن فى ذلك آيات لقوم يتفكرون) وهذا هو الكمال العلمى ، ثم أتبعه بالكمال العملى فقال (قل للذين آمنوا) اغفروا (بغفروا) ويعفوا ويسفحوا (للذين لا يرجون أيام الله) لا يتوفعون وقائعهم بأعدائهم كما تقول لوقائع العرب أيام العرب ، وإنما أمروا بالمغفرة ليجز بهم على صبرهم يوم القيامة بالجنة وهذا قوله تعالى (ليجزى قوما) بصبرهم على أذى أعدائهم (بما كانوا يكسبون) من العمل الصالح والصبر على الأذى ويجوز أن يراد بالقوم الفريقان ، وبالكسب ما يعمّ الشرّ والخير ، ويناسب المعنى الثانى قوله (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها) إذ لها ثواب العمل ، وعليها عقابه (ثم الى ربكم ترجعون) فيجازيكم على أعمالكم

الاعتبار والتأسى بقصص بنى اسرائيل

قال تعالى (ولقد آتينا بنى اسرائيل الكتاب) التوراة (والحكمة) الحكمة النظرية والعملية وفصل الخصومات (والنبوة) فقد كان فيهم أنبياء فى أكثر الأزمان ، وهذه هى النعم الروحية والأخروية (ورزقناهم من الطيبات) مما أحل الله من الرزق الواسع (وفضلناهم على العالمين) حيث أعطيناهم ما لم نعط غيرهم (وآتيناهم بينات من الأمر) أى أمر الدين كيبان الحلال والحرام (فما اختلفوا) فى ذلك الأمر (إلا من بعد ما جاءهم العلم) بحقيقة الحال (بغيا بينهم) عداوة وحسدا (إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) بالمؤاخضة والمجازاة (ثم جعلناك على شريعة) طريقة (من الأمر) أمر الدين (فاتبها) فاتبع شريعتك الثابتة بالحجج (ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون) أى مراد الكافرين ، فلقد كانوا يقولون له ارجع الى دين آباءك فانهم كانوا أفضل منك (إنهم لن يغفوا عنك) لن يدفوا عنك (من الله شيئا) أى من عذاب الله شيئا ان اتبعت أهواءهم (والله ولى المتقين) أى هو ناصرهم فى الدنيا والآخرة (هذا) القرآن (بصائر للناس) أى معالم للناس فى الحدود والأحكام يبصرونها به (وهدى راحة قوم يوقنون) يطلبون اليقين (أم حسب الذين) أى بل أحسب الذين (اجترحوا السبئات) اكفبوا المعاصى والكفر ، يقال : فلان جارحة أهله أى كسبهم (أن يجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى مثاهم ، إذ قال قوم من مشركى مكة للمؤمنين : لئن كان ما تقولون حقا لنفضلن عليكم فى الآخرة كما فضلنا عليكم فى الدنيا (سواء محياهم ومماتهم) أى أحسبوا أن حياة الكافرين ومماتهم كحياة المؤمنين ومماتهم سواء . كلا . فالؤمن مؤمن فى الحياتين ، والكافر كافر فى الحياتين ، وقوله «سواء محياهم الخ» أى حال كونهم مستويا محياهم الخ وان قرىء سواء بالرفع ، فالجمله بدل من الكاف (سواء ما يحكمون) أى بش ما يقضون اذا حسبوا أنهم كلؤمنين ثم أتى بالدليل على ذلك من علم المخلوقات المتشاهدة قائل (وخلق الله السموات والأرض بالحق) بالنظام التام والعدل والقسط ، ولولا العدل ما انتظمت أحوال هذه الدنيا ، فلولا سير الشمس فى أوقات معينة ونظام تام ولولا دخول العناصر فى النبات بحسب معين : ولولا وضع الأعضاء بعدد مخصوص فى الحيوان ومقادير معينة لم يستقم لهذا العالم وجود والحققه العلم ، وهذا كالأية السابقة فى سورة الشورى «الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان» إذ أفاد أن ما لا يقوم فيه العدل فى الدنيا من طريق القضاء الذى نزل به الكتاب يكون العدل فيه فى الآخرة تبعا للميزان العام ، وهنا يقول : ان الله خلق السموات والأرض بالعدل والقسط ، ولا يعقل هذا حتما إلا الذين درسوا هذه العوالم وأتقنوا دراستها ، ولم تكن دراستهم مجرد الوظائف ، أو مجرد الصناعات بل يكون الغرض منها الوقوف على نظام هذه الدنيا حتى تطمئن النفس لما يجرى به القدر عليها وعلى غيرها ، ومتى عرفت النفس ذلك أشرقت بالنور ، ووقفت على السرّ المكنون ، وأيقنت بالعدل فى

الموت والحياة ، والخفض والرفع ، والایمان والكفر ، واذن تعلم أن الله خلق العالم بنظام وحساب ليعدل في نسوبته في ذرّاته ومركبانه (ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون) بنقص ثواب وتضعيف عقاب . واعلم أنه لا يعقل العدل في هذا العالم ، ولا في الثواب والعقاب إلا من درس هذا الوجود وأتقن فهمه ، واذن يصبر ممن تربت عقولهم الذين ذكروا في أوّل السورة إذ أبان أن المفكر يكون أولاً مؤمناً ثم موقناً ثم عاقلاً وقد قدّمنا أن المراد بالعقل هنا هو الذي تربى تربية إلهية ، والتربية الإلهية بقراءة الكتاب الذي خطه الله بيّنه ووضعه وهو هذا الوجود الذي لا يقرؤه إلا المفكرون ، ولا يعقله إلا العالمون ، فلفظ العقل إذا أطلق في مثل هذا المقام إنما يراد به العقل الذي تربى على المبادئ الإلهية بالتفكير في نظام الوجود ، وكما أن طبيعة الحيوان تكون حاصلة من تفاعل المواد التي دخلت في عداد جسمه وصار لها مزاج خاص ناشئ من تفاعل العناصر الداخلة في جسمه وانتظامها والتثامها حتى يرى على شكل خاص ناجم من تلك المواد واتلافها ، هكذا عقول الحكماء والمفكرين تتربى تربية خاصة بالنظر في العوالم فانها تفتدى تغذية روحية . كل نظرة من نظراتها . وكل خطرة من خطراتها تزيدها نمواً وتكاملاً إلى أن يتم مزاجها ويكمل وجودها . وحينئذ تصيح تلك النفس خليفة الله في الأرض لأنها قرأت ما خطه بيّنه ، وصنعه بيده ، وهندسه بحكمته ، وزوّقه بعلمه ونمائه ، وأحكمه وسوّاه ، فتنتطح تلك النظم في عقله ، فتصبح تلك النفس إلهية حكيمة مشرقة عالمة ، فاذا ورد عليها أمثال هذه الآية « وخلق الله السموات والأرض بالحق » فهمتها لأنها ترى في العوالم المدوّنة الأرضية ذلك مسطوراً في لوح الوجود . واذا سمعت « ولتجزى كل نفس بما كسبت » أيقنت بذلك لأنها تشاهد النظام تاماً ، وتقول حقاً إني أشاهد أن الذين يهملون أنفسهم بالتعليم ولا تأديب يصبحون في الدنيا مقدّرة قيمتهم بمقدار حالهم ، وبراهم الناس على مقدار ما وصلوا إليه ، ومن عرف سرّ صناعة تراه يكافأ بآراء مصنوعة بحكمة ، ومن جهل ذلك يبنذ ، وهكذا أصبح الناس في نظر الحكيم وأعمالهم كالأشجار وأحوالها ، فعلى مقتضى نظام الشجر وأصله يكون ثمره لا يخلل فيه هكذا على مقدار ما كسب الانسان تكون نتائج أعماله فتواب الأعمال ليس إلا نتائج لها كما أن ثمر الأشجار نتائج لها ، واذا كانت الحرارة نتيجتها نموّ النبات والبرودة نتيجتها ضعفه وخلقه من قوّة الحياة ، فهكذا الأعمال الطيبة والأعمال الخبيثة نتائجها لازمة لها لزوماً عادياً « وهم لا يظلمون » ومن شرب المسهل أنتج ما أعدّه له من الاسهال ، ومن تعاطى الدواء المسكن أو المهيج أو الحارّ أو البارد أو تعاطى السمّ ، فكل أولئك يجنون على مقدار ما تعاطوا تسكيناً ونهييجاً وحرارة وبرودة وموتاً ، هكذا ترى المنكبرين والمستذلين بيمين ، وسريبي الغضب ، والبخلاء ، وذوى الحرص ، كل أولئك ينالون في الحياة مقت الناس ، أو اذلالهم ، أو بغضهم ، أو ذقتهم ، وهكذا ترى العلماء والكرماء والشجعان ، وذوى القلوب الثقية ، والعافين عن الناس ، ينالون احترام الناس ، وحبهم وقضاء حاجاتهم ، وذكركم بالجليل . كل ذلك نتائج كشمات الأشجار . ومن نال ما لا يستحقه في الدنيا ، أو نال أقلّ من حقه فبعد الموت ترجع الامور الى نصابها وتكون هناك الثمرات مقدّرات بيزان . هذا معنى هذه الآية . فاذا كانت آية الميزان جاءت في سورة الشورى ونفس السورة مسماة باسم يشعر بالميزان والعدل بين الناس اذا التأموا وتشاوروا ، فهكذا جاءت هذه الآية هنا دالة على العدل المشاهد في نفس الطبيعة لمن عقل ولا يعقلها إلا المدارس لنظام السموات والأرض ، أما أولئك الذين لا يدرسون ولا يعقلون ، وصاروا هم معبودهم فان الله ينزلهم المنزلة التي هم بها جدرون لأن الأرواح الانسانية طوائف ، فمنها المظلمة ، ومنها الثيرة ، ومنها المتوسطة فهذه الأرواح الفجة الغليظة التي لم تصل لدرجة النضج والكمال بعد فان الله حكم بيقائها في الضلال لأنه عالم بجوهرها وأنها لا قبل لها بالحكمة والعلم ، وهؤلاء يقولون : ما الحياة إلا حياتنا الدنيا ، وموتنا إنما يكون بمرور الزمان ، فلا نظام ولا ناطم ، ولا حساب ولا حساب ، ولا عدل ولا عادل ، وإنما صدر ذلك منهم لثقل

علمهم ، وإنما ينطقون بالقول تقليدا لآبائهم وأساتذتهم ومعلمهم وقرنائهم ، وهذا قوله تعالى (أفأرأيت من اتخذ إلهه هواه) أى هو مطواع طوى النفس ، يتبع ما بدعوه اليه ، فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلهه (وأضله الله على علم) أى وخذه علما بضلاله وفساد جوهر روجه استعدادا معلوما فى الأزل (وختم على سمعه وقلبه) فلا يبالي بما يسمع من وعظ (وجعل على بصره غشاوة) فلا ينظر بعين الاستبصار (فمن يهديه من بعد الله) من بعد اضلاله (أفلا تذكرون) * وقالوا ما هى) ما الحال أوما الحياة (إلا حياتنا الدنيا) التى نحن فيها (نموت ونحيا) أى يسيبنا الموت والحياة فيها ، وليس وراء ذلك الموت حياة (وما يهلكنا إلا الدهر) إلا مرور الزمان (وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون) وإنما ذلك بناء على التقليد والانكار . فأما العالمون فهم أولئك الذين فكروا فآمنوا ثم أيقنوا ، وهناك تربت عقولهم كما جاء فى أول السورة . فأما هؤلاء فلم تربت عقولهم لحرمانها من الغذاء النفسى وهو دراسة ماصته الله تعالى ، فهو غذاء العقول كما أن المادة غذاء الأجسام فكما ترى المزارع والأشجار ، والحبوب بها حياة الأجسام ، هكذا نظامها وحكمها واتقانها بدراسة حياة العقول . فهذه المخلوقات أقلت أجسامنا وبالتفكر فيها تمحو عقولنا ، والمحروم من ذلك ضال (وإذا نتلى عليهم آياتنا بينات) وانصحت الدلالة على خلاف ما يعتقدون (ما كان حجبتهم) ما كان ما يزعمون أنه حجة (إلا أن قالوا اتنوا بآياتنا) أى أحيوهم (إن كنتم صادقين) فى دعوى البعث (قل الله يحيىك) فى الدنيا (ثم يميتك) فيها عند انتهاء آجالكم (ثم يجمعكم الى يوم القيامة) أى يبعثكم يوم القيامة جميعا ، فالآيات بآياتكم أيسر من ذلك (لأرب فيه) أى فى الجح (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك لأنهم لا يفكرون فى نظام هذا العالم ، ولو أنهم فكروا لعرفوا بعقولهم سعة القدرة وبدائع الحكمة فى هذا العالم الواسع ، وعبر عن سعة بقوله (ولله ملك السموات والأرض) وهو مسرح الانظار ، وقبة النظر ، ونور الاستبصار . وضياء للأبصار فلو فهموه لعرفوا بعقولهم ما يتضمنه قوله تعالى (ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون) يومئذ بدل من يوم المتعلق يخسر أى يومئذ يظهر خسران أصحاب الأباطيل وهم الكافرون (وترى كل أمة جاثية) أى باركة على الركب وهى جلسة الخاصم بين يدي الحاكم ينتظر القضاء (كل أمة تدعى الى كتابها) الذى فيه أعمالها ويقال لهم (اليوم نحزون ما كنتم تعملون) وتقولون فى الدنيا (هذا كتابنا) ديوان الحفظه (ينطق عليكم بالحق) يشهد عليكم ببيان شاف كأنه ينطق (إما كنا نستنسخ) نستكتب الملائكة (ما كنتم تعملون) أعمالكم أى تأمر الملائكة بفسخ أعمالكم وكتابتها وإثباتها عليكم (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته) جنته (ذلك هو الفوز المبين) الظفر الظاهر (وأما الذين كفروا) فيقال لهم (أفلم تكن آياتى تنلى عليكم) أى آيات القرآن (فاستكبرتم) عن الإيمان بها (وكنتم قوما مجرمين) كافرين منكربين (وإذا قيل إن وعد الله حق) أى البعث كائن (والساعة لأرب فيها) لاشك فى أنها كائنة (قلتم ما ندرى ما الساعة) أى أنكرتموها وقتتم (إن نطق إلاظنا) أى مانعلم ذلك إلا توهمنا (وما نحن بمسقين) أنها كائنة (وبدا لهم) وظهر لهم (سبئات ما عملوا) على ما كانت عليه بأن ظهرت لهم صور أنفسهم الحقيقية بعد الموت ويوم القيامة فرأوا قبجها ، ونشويه صورها (وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) أى نزل بهم جزاؤه (وقيل اليوم نساكم) نترككم فى العذاب ترك المنسى (كما نسبتم لقاء يومكم هذا) أى كما تركتم الإيمان والعمل للقاء هذا اليوم (ومأواكم النار وما لكم من ناصرين) يخلصونكم منها (ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا) استهزأتم بها فلم تتفكروا فيها (وغرتكم الحياة الدنيا) غشبتكم أن لاهية سواها (فاليوم لا يخرجون منها) من النار (ولا هم يستعجبون) أى ولا يطلب منهم أن يرضوا ربهم لقوات أوائه (فمنه الحد رب السموات ورب الأرض رب العالمين) فإن كل ذلك مثار للحمد وسبب له ، فجانب السموات ، وبدائع الأرض ، وترية المخلوقات المحدثات ، يفتح بدراستها للنفس أبواب العلوم ، وبالمعرفة تكون الحمد (وله

الكبرياء في السموات والأرض) لظهوره آثارها فيهما (وهو العزيز) الذي لا يغلب (الحكيم) فيما أنقته وقدره. انتهى التفسير اللفظي

ابتداء السورة كانتهاؤها

انظر كيف ابتدأ السورة بالعزة والحكمة ، وقد بينا لك أن القهر والحكمة مصطحبان معا في غضون هذه العوالم ، مشاهدات في صغيرات الامور وكبيراتها ، ولذلك ذكر العوالم من مطر ونبات وحيوان الخ لأن العزة والحكمة شملتها ، هكذا ختم السورة بدينك الوصفين ، ليبين أن هاتين الصفتين وانحة آثارهما في السموات والأرض وما بينهما والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

- (١) في قوله تعالى : إن في السموات والأرض آيات للؤمنين
- (٢) في قوله تعالى : وفي خلقكم وما يبث من دابة . الى قوله : وتصريف الرياح الخ
- (٣) في قوله تعالى : الله الذي سخر لكم البحر الخ وهي المعبر عنها بيهجة العرفان الخ
- (٤) في قوله تعالى : أم حسب الذين اجترحوا السيئات الخ .
- (٥) في قوله تعالى : إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون .
- (٦) في قوله تعالى : وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم .

اللطيفة الأولى

في قوله تعالى : إن في السموات والأرض آيات للؤمنين
وفيها غرضان : الغرض الأول في ذكر عشرة أسئلة وأجوبتها . الغرض الثاني : كيف قصر المسلمون في هذه العلوم ، وكيف خالفوا علماءهم .

الغرض الأول في ذكر عشر مسائل وأجوبتها

تقلا من كتابي جواهر العلوم

ثم سألتها قائلا :

- (١) ما مقدار محيط الكرة الأرضية عند خط الاستواء بالأمتار ؟
- (٢) وما مقدار نصف قطر الأرض بالأمتار أيضا ؟
- (٣) وما مقدار سرعة الحركة الأرضية في مصر في الثانية الواحدة ؟ وما مقدارها في خط الاستواء ؟ وما مقدارها في باريس عاصمة فرنسا ؟
- (٤) وقال العلماء : إن دوران الأرض كلما زادت سرعته نقص ثقل الاجسام عليها على حسب السرعة فكيف سرعة مثل الحالية تحتاج لها الأرض حتى يعدم الوزن في خط الاستواء وتبطل مقادير الموازين
- (٥) وهل يمكن وزن الهواء الجوى ؟
- (٦) وما مقدار ارتفاعه بالأمتار ؟
- (٧) وهل بين ثقل الهواء والزئبق نسبة معلومة ؟
- (٨) في أي درجة من درجات العرض يصير أطول نهار ٣٤ ساعة ، وأقصر ليل معدوم بالمرّة فيكون الشروق مع الغروب . فقالت الفتاة عندئذ : عجبا لقدرة الباهرة والصنع العجيب

- (٩) ما مقدار حجم الشمس ؟ وما مقدار نصف قطرها ؟
- (١٠) وما مسافة بعدها عنا ؟ وما مقدار سرعة الضوء في الثانية الواحدة فهذه عشر أسئلة ، فشرعت الفتاة تحجبه فقالت :
- (١) أما مقدار محيط الكرة الأرضية عند خط الاستواء فهو $40.076.930$ مترا
- (٢) ومقدار نصف قطر الأرض 6366.198 مترا
- (٣) ومقدار سرعة الحركة الأرضية في خط الاستواء 465 مترا في الثانية ، وفي مصر 419 ، وفي باريس 305 مترا
- (٤) إذا صارت سرعة الأرض قدر أصلها 17 مرة ينعدم الوزن في خط الاستواء تماما ، فما أقدره سبحانه على هذا الحساب الجيب الذي به دبر الأرض فدارت على هذا الوضع الذي حفظت به الموازين وغيرها ، ولو أسرعت عن هذا لما بقي عليها سكان ألبتة « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده انه كان حليما غفورا » ولويؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى فاذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيرا »
- (٥) ثقل الهواء على الأرض يعادل ثقل 10 أمتار و 334 ملليمترا من الماء ، وهذا علم في جميع سطح الكرة الأرضية ، فكأننا في بحر من الماء يبلغ ماؤه فوقنا ما ذكر ، فالإنسان كسلك في قاع بحر يرتفع الماء فوقه بهذا المقدار أعني زيادة عن 10 أمتار ، ولو كان بدل هذا الهواء زيتي لكان 76 سنتيمترا أعني نحو 76 المتر فكانت الناس تخوض فيه خوفا ولا يغطيه ، فسبحان الحكيم في صنعه الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا ، وقد حسب هذا الثقل فوجد أنه $000.000.000.000.000$ تقريبا ، وهذا بالطونلاته (والطونلاته عبارة عن ألف كيلوجرام وهي 22 قنطارا و 22 رطلا و 32 درهما) أعني 5 كترليون و 263 ترليون تقريبا ولو كان نحاسا لكان عبارة عن 585 ألفا كلها مكعبات من النحاس ضلع المكعب الواحد ألف متر ، فما أجل العلم الذي به عرفنا مقدار الهواء نحاسا وماء وزيتقا « وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال »
- (٦) ارتفاع الهواء بالأمتار 48000 مترا على حساب العلامة (بيوت) وهذا المقدار تقريبا يسبب من نصف قطر الأرض أعني أن الأرض لو أدخل فيها محور من حديد وزجج به حتى خرج من الجهة الأخرى ، فان ارتفاع الهواء فوقها يكون قدر جزء من 65 من هذا المحور
- (٧) الزئبق أثقل من الهواء بمقدار 10.460 مرة أعني أننا اذا ملأنا زجاجة من الزئبق فنقله يعادل ثقل الهواء الذي في عشرة آلاف وأربعمائة وستين زجاجة قدر تلك الزجاجة « وربك يخلق ما يشاء ويختار »
- (٨) يكون أطول نهار 24 ساعة في الدائرة القطبية التي في درجة 66 و 33 دقيقة من درجات العرض في الشمال والجنوب ، وحينئذ ينعدم الليل بالكلية
- (٩) حجم الشمس قدر حجم الأرض 1028000 ونصف قطرها 692000 كيلومترا
- (١٠) أما بعدها عنا فهو 37 مليونا من الفراسخ ، والضوء يقطع في الثانية الواحدة 75 ألف فرسخ ، ثم ان ضوء الشمس حين يشرق منها لا يصل لنا إلا بعد 8 دقائق و 18 ثانية ، فته الحكمة البالغة . انتهى ما أردته من كتابي جواهر العلوم . وبهذا تم الكلام على الغرض الأول

الترض الثاني

كيف قصر المسلمون في هذه العلوم وعصوا علماءهم

انظر أيها النكبي إلى الأمة الإسلامية كيف نامت دهورا ودهورا ، وغتت في نومها غطيظا ، وعساؤها يوقظونها وهي غافلة ، ويعلمونها وهي راقدة لا تبدي حراكا ، ولا تريد فككا ، غابت عنها شمس العلم فأظلم جؤها ، وسكنت ريجها ، وذهب عزها ، وطاح مجدها ، فلانعلم كيف تبدي وتعيد .
انظر إلى ما جاء في هذه الآيات كيف طلب الله من المسلم أن يفكر في السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، وانزال المطر ، وبث الحيوان ، وخلق النبات بمجرد عقله ونظره لا بالتقليد والسمع . وانظر كيف ذكر أن هذا النظر به إيمان وبه إيقان وبه عقل ، وانظر كيف كان علماءنا يقولون ذلك والشعب غافل مما يقولون .

يقول العلامة الرازي في هذه الآيات مانسه : « واعلم أن كثيرا من الفقهاء يقولون انه ليس في القرآن العلوم التي يبحث عنها المتكلمون ، بل ليس فيه إلا ما يتعلق بالأحكام والفقه وذلك غفلة عظيمة لأنه ليس في القرآن سورة طويلة منفردة بذكر الأحكام وفيه سور كثيرة خصوصا المكيات ليس فيها إلا ذكر دلائل التوحيد والنبوة والبعث والقيامة . وكل ذلك من علم الاصوليين (يريد علماء التوحيد) . قال : ومن تأمل علم أنه ليس في يد علماء الاصول إلا تفصيل ما اشتمل القرآن عليه على سبيل الاجال ، ثم قال تعالى : تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، والمراد من قوله الحق هو أن صحتها معلومة بالدلائل العقلية ، وذلك لأن العلم بأنها منه صحيحة إما أن يكون مستفادا من النقل أو العقل . والأول باطل لأن صحة الدلائل العقلية موقوفة على سبق العلم بآيات الإله العالم القادر الحكيم ، وبآيات النبوة ، وكيفية دلالة المعجزات على صحتها ، فلو أثبتنا هذه الاصول بالدلائل العقلية لزم الدور وهو باطل ، ولما بطل هذا ثبت أن العلم بحقيقة هذه الدلائل لا يمكن تحصيله إلا بمحض العقل . وإذا كان كذلك كان قوله : « تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق » من أعظم الدلائل على الترغيب في علم الاصول (يريد علم التوحيد) وتقرير المباحث العقلية ، ثم قال تعالى : « فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون » يعني أن من لم ينتفع بهذه الآيات فلا شيء بعده يجوز أن ينتفع به ، وأبطل بهذا قول من يزعم أن التقليد كلف ، وبين أنه يجب على المكلف التأمل في دلائل دين الله ، انتهى ما أردته من مقال العلامة الرازي في تزييره « مفاتيح الغيب »

انظر كيف أثبت علماءنا في القرون الأولى أمثال هذا القول ، وكيف أبانوا أن العلوم الطبيعية والفلكية المذكورة في السور المكية الكثيرة واجبة على كل مكلف ، وأن المسلم لاحق له أن ينأى عن هذه العلوم مكتفيا بالتقليد

إن هذه العلوم لا يخرج المسلمون من ذلم إلا بدراستها وفهمها ، ويكون المتعلمون فيها قسمين : قسم يختص بتلك العلوم كاختصاص طائفة بعلم الفقه ويعلم النحو كما هو جار اليوم في بلاد الاسلام ، والقسم الثاني وهو أكثر الأمة يستنبطون بأضواء هؤلاء العلماء ، فكما أننا نرى في الاسلام اليوم فقهاء متنورين والعامة يسألونهم في أمور دينهم ، هكذا يجب أن يكون في الأمة قوم محتصون بهذه العلوم حتى يرجع اليهم الشعب في فهمها ، ويؤلفون الرسائل المشوقة لتلك العلوم كما تراهم يؤلفون رسائل في علم الفقه ونحوه ، وعلى المسلمين في أقطار الأرض أن لا يكتفوا من الفلسفة في القدرة والارادة وسائر الصفات ، بل يجتهدون في معرفة الآثار طبقا لمقتضى القرآن ، فالقرآن وجه العناية إلى الآثار ومجانبها ، ذلك هو النور المبين فيعجبنا لأئمة يقول علماءها : « إن الدين لا يقوم الاستدلال بآياته إلا بعد ثبوت القدرة والعلم والحكمة

والوجود والنبوة ثبوتا عقليا ، ومعنى هذا أن الإيمان به ﷺ وبالله وبعلمه وقدرته وحكمته إنما يكون بالعقل ثم بعد ذلك نكون قد قررنا أن الدين حق ، فلا دين إلا إذا بنى على العقل أولا ثم النقل ثانيا .
هذا ملخص مامضى من كلام العلامة الرازى ، والله هو الولي الحميد .

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : وفي خلقكم وما يثمن من دابة آيات لقوم يوقنون * ولتختلف الليل والنهار
وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح الخ
في هذه اللطيفة غرضان

الغرض الأول اختلاف الليل والنهار

وقد مرّ الكلام عليه في (سورة البقرة) و (يس) وغيرهما ، ولكن لا بد من ذكر ما يناسب المقام
مختصرا ، فهناك جدولا تعرف منه النقص والزيادة في الليل والنهار في كل يوم من أيام السنة ، واليوم الذي
يدخل فيه البرج من الشهور الشمسية القطبية وموازتها بالشهور السريانية وشهور الروم ، والمنازل وطلوع
المنازل بالفجر ، وإنما أوردت لك هذا الجدول ليكون لك نموذجا تعرف به نظام الشمس في سيرها ، وإذا
فكرت فيه وعقلته في ذهنك قام مقام النتيجة السنوية قبلا إجماليا بحيث تعرف في أي يوم من أيام السنة
مقدار اليوم ومقدار الليل أى مقدار مدة ظهور الشمس ومدة اختفائها واحتجابها تقريبا ، وإنما قلنا تقريبا
لأن الحساب اجمالى .

انظر في الجدول (في صحيفة ٥٧ الآتية) وتأمل في دخول البروج في الشهور القطبية ، فإني لما
أردت موازته بما في النتائج المعتادة وجدت الفرق يكون يوما أو يومين ، مثلا ترى الشمس قد حلت في
السنبلة سنة ١٣٤٣ هـ التي هي سنة تأليف هذا الكتاب يوم ٢٢ المحرم وهو يوم ١٧ مسرى وفي الجدول
يوم ١٩ وحلت في الميزان يوم ١٢ مسرى ، وفي الجدول يوم ١٤ وحلت في العقرب يوم ١٣ من بابه
وفي الجدول يوم ١٥ منها ، وحلت في القوس يوم ١٣ هاتور ، وفي الجدول يوم ١٤ منه . وحلت في
الجدي يوم ١٢ كيهك ، وفي الجدول يوم ١٤ منه ، وحلت في الدلو يوم ١١ من طوبه ، وفي الجدول يوم
١٣ منها . وحلت في الحوت يوم ١١ من أمشير ، وفي الجدول يوم ١٣ منه ، وحلت في الحمل يوم ١٢
من برمها ، وفي الجدول يوم ١٣ منه ، وحلت في الثور يوم ١٢ من برمودة ، وفي الجدول يوم ١٤
منه ، وحلت في الجوزاء يوم ١٢ من بشنس ، وفي الجدول يوم ١٤ منه ، وحلت في السرطان يوم ١٤
بؤنه ، وفي الجدول يوم ١٦ منها ، وحلت في الأسد يوم ١٤ أبيب ، وفي الجدول يوم ١٧ منه
فأنت ترى من هذا أن هذا الجدول الذي جاء في الكتب القديمة يخالف الحساب اليوم في يومين غالبا
وقد يكون يوما ، ويندر أن يكون ثلاثة أيام ، والقصد من ذكر الجدول بيان نظام الله تعالى الذي لا يتغير
ولا يتبدل على مدى السنين ، فأما تلك الفروق القليلة فإن الذي أوجبه تداول السنين وتغير أوضاع الكواكب
الثابتة ، وذلك يعرف من مسألة مبادرة الاعتدالين ، ولا نطيل في ذلك ، ولندكر لك قبل ذكر الجدول مقدمة
تعلم منها عجائب الحساب عند الأمم ، فنقول :

الكلام على السنة الاصطلاحية

وهي الشمسية وشهورها اثنا عشر شهرا كما في السنة الطبيعية إلا أن كل طائفة راعت دوران سننها
جعلت في أشهرها زيادة في الأيام إما جملة واحدة وأما متفرقة ، وسمتها نسبيا بحسب ما اصطلمحوا عليه ،

وعدد أيامها عند جميع الطوائف من القبط والفرس والسريان والروم وغيرهم ثلاثمائة يوم وخمسة وستون يوماً وربع يوم فتكون زيادتها عن العربية عشرة أيام وثمانية أعشار يوم وخمس سدس يوم . وقد قال بعض حذاق المفسرين في قوله تعالى : « ولبثوا في كهفهم ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعا » انه ان حل على السنين القمرية ، فهو على ظاهره من العدد ، وان حل على السنين الشمسية فالسعة الزائدة هي تفاوت زيادة الشمسية على القمرية لأن في كل ثمانمائة سنة تسعة سنين لا تحل بالحساب أصلاً .

قال صاحب مناهج الفكر : « وكذلك كانوا في صدر الاسلام يسقطون عند رأس كل ثلاث وثلاثين سنة عربية ، وبسببها سنة الازدلاف ، لأن كل ثلاث وثلاثين سنة عربية اثنتان وثلاثون سنة شمسية تقريباً . قال : وإنما جعلهم على ذلك الفرار من اسم النسيء الذي أخبر الله تعالى انه زيادة في الكفر . ثم اعتبروا السنة الشمسية اختلفت مصطلحاتهم فيها بحسب اختلاف مقاصدهم .

(المصطلح الأول) — مصطلح القبط ، وقد اصطالحوا على أن جعلوا شهرهم ثلاثين يوماً كما تقدم فإذا اقتضت الاثنا عشر شهراً أضافوا إليها خمسة أيام يسونها أيام النسيء ، يفعلون ذلك ثلاث سنين متوالية فإذا كانت السنة الرابعة أضافوا إلى خمسة النسيء المذكورة ما اجتمع من الربع الزائد على الخمسة أيام في السنة الشمسية فتصير ستة أيام ، ويجعلونها كهيئة في تلك السنة ، وبعض ظرفائهم تسمى الخمسة الزيادة السنة الصغيرة . قال أصحاب الزيجات : وأول ابتدائهم ذلك في زمن أغسطس ، وكانوا من قبل يتكون الربع إلى أن تجمع أيام سنة كاملة ، وذلك في ألف سنة وأربعمائة واجدى وستين سنة ، ويسقطونها من سنينهم ، وعلى ذلك المصطلح استقر عملهم بالسيارات المصرية في الاقطاعات والزروع والحراج وماشا كل ذلك .

(المصطلح الثاني) — مصطلح الفرس ، وشهورهم كمشهور القبط في عدد الأيام على ما تقدم ، وقد أطل فيه القلقشندى .

(المصطلح الثالث) — مصطلح السوربان ، وشهورهم على ما تقدم منها سبعة أشهر يزيد كل شهر منها يوماً على الثلاثين كما سيأتي في الجدول الآتي في الصحيفة التالية ، فتكون الزيادة سبعة أيام يكمل منها شباط وهو ثمانية وعشرون يوماً ويومين يبقى خمسة أيام وهي غنبر النسيء في سنة القبط والفرس .

(المصطلح الرابع) — مصطلح اليهود ، ولا حاجة للإطالة فيه ، والذي يهمنا أن نبين لك في الجدول الآتي في الصحيفة التالية السنين الرومية والقبطية والسريانية والفصول والبروج وعدد أيام الشهور والمنازل وطلوعها بالفجر

الغرض الثاني في الكلام على قوله تعالى : وتصريف الرياح

قد مرّ الكلام على الرياح في تفسير سورة الحجر ، وهو مفصل أيضاً في سورة الأعراف . فترى هناك كيف كانت الرياح تمرّ بين استراليا والهند والصين ، ولا بدّ من إيضاح المقام هنا ليجب المسلمون من عجائب تدبير الله تعالى .

أنظر أيها النكّي إلى الشمس في سيرها كما تراه في الجدول ، وكيف انتقلت في البروج ، وانظر آثارها ، آثارها هي الحرارة بالقرب ، والبرودة بالبعد ، فيسبحان الله : حرارة بقربها وبرودة ببعدها يكون بهما نظام أرضنا ، وكيف يتمّ النظام إلا إذا كان ذلك بحسب . هانت ذارأت الحساب ، فانظر الآن إلى الأرض عند خط الاستواء ، ألم تر أن الشمس هناك شديدة الحرارة ، انها تلج دائماً على تلك المنطقة ، فإذا يحصل يحصل أن الهواء يسخن ، يسخن جداً ، ومتى سخن علا في الجوّ ، وهذا العلو لا بدّ أن يصل إلى غاية منتهاه لشدة الحرارة هناك بحيث لا يكون للهواء في الأرض علو فوق علوه ، ومتى وصل إلى نهاية العلوّ قابل الطبقة

جدول في الفصول

وبين الزيادة والنقص في الليل والنهار من المرجات كل يوم مع بيان البروج وتدخُلها في الشهور القبطية وتدخُل
الشهور القبطية في الشهور السريانية المنصبة الموافقة للشهور الرومية ، وذكر المنازل وطلوعها بالفجر محسوبة بالشهور
القبطية ، واعلم أن هذا الجدول يفهم القارىء على وجه التقريب عدد ساعات النهار والليل ودقتها في كل فصل
السنة ، فهو نتيجة اجالية دهرية ، واعلم أن كل مقدار تقصه النهار زاده ليله وبالعكس

الفصول الأربعة	الفصل	النهار والليل والزيادة في الليل والنهار	البروج	اليوم الذي يدخل فيه الشمس من الشهر	الشهور القبطية للسريانية الاطليانوس	شهور السريانية الاسكندر	عدد الأيام شهور الروم القبطية لاصحت	عدد الأيام المنازل	مطلعها بالشمس
الربيع	يقص النهار نصف درجة	الميزان	١٤ من	توت يدخل في	٢٩ آب	٣١ أغسطس	٣١	الشرطان	٢٣ برمودة
	ثلاث درجة	المقرب	١٥ من	بأبه يدخل في	٢٨ ابول	٣٠ سبتمبر	٣٠	البطين	٦ بشنس
	سدس درجة يزيد النهار	القوس	١٤ عن	هاتور يدخل في	٢٨ تشرين الأول	٣١ أكتوبر	٣١	التريا	١٩ بشنس
الصيف	سدس درجة	الجدي	١٤ من	كهك يدخل في	٢٧ تشرين الثاني	٣٠ نوفمبر	٣٠	الدبران	٢ بؤنه
	ثلاث درجة	الحلو	١٣ من	طوبه يدخل في	٢٧ كانون الأول	٣١ ديسمبر	٣١	الحقعه	١٥ د
	نصف درجة يزيد النهار	الحوت	١٣ من	أشبر يدخل في	٢٦ كانون الثاني	٣١ يناير	٣١	الحقعه	٢٨ د
الخريف	نصف درجة	المحل	١٣ من	برمهات يدخل في	٢٥ شباط	٢٨ فبراير	٢٨	القرع	١١ أيب
	ثلاث درجة	الثور	١٤ من	برموده يدخل في	٢٧ آذار	٣١ مارس	٣١	التتره	٢٤ د
	سدس درجة يقص النهار	الجوزاء	١٤ من	بشنس يدخل في	٢٦ نيسان	٣٠ ابريل	٣٠	الطرفه	٧ مسرى
الشتاء	سدس درجة	السرطان	١٦ من	بؤنه يدخل في	٢٦ ايار	٣١ مايو	٣١	الجبهة	٢٠ مسرى
	ثلاث درجة	الأسد	١٧ من	أيب يدخل في	٢٥ حزيران	٣٠ يونيو	٣٠	الخرتان	٤ نسيه
	نصف درجة	السنبلة	١٩ من	مسرى يدخل في	٢٥ تموز	٣١ يوليو	٣١	الصره	١٢ توت
	٢٥ توت	العواء							
	٨ بأه	الساك							
	٢١ بأه	الفجر							
	٤ هاتور	الزيانان							
	١٧ د	الاسكيل							
	٣٠ ع	القلب							
	١٣ كهك	الشوله							
	٢٦ د	النعام							
	٩ طوبه	البلدة							
	٢٣ د	سعد القباغ							
	١٥ أشتبر	سعد بلع							
	١٨ د	سعد السمود							
	أول برمها	سعد الأخبية							
	١٤ د	الفرغ المقدم							
	٢٧ د	الفرغ المؤخر							
	١٠ برمودة	بطن الحوت							

الباردة ، لأنك تعلم أن زوايا انعكاس الضوء تكون منفرجة كلما ارتفعنا الى أعلى ، وتزيد انحرافا كلما زاد البعد امتدادا ، وهناك تزايد البرودة وتقل الحرارة تدريجا بعكس طبقات الأرض ، فانك كلما أوغلت فيها نقصت البرودة وازدادت الحرارة ، فاذا وصل الهواء المرتفع الى الطبقة الباردة اجتمع فصار سحابا فأمطر ، فالظهنك دائم لهوام التبخر ، وهذا الهواء الذي ارتفع الى أعلى اذا وصل الى متناه أخذ يسير جهة الشمال وجهة الجنوب لأن هواء غيره يحل محله من أسفل لشدة الحرارة على الأرض ، والهواء الذي يحل محله أت من الشمال والجنوب ، وهذا الهواء الجديد يتأثر سريرا بالحرارة فيرتفع أيضا ويحل مكانه غيره ، وهكذا ولذلك تهب دائما نحو خط الاستواء رياح من الشمال الشرقى ومن الجنوب الغربى تسمى الرياح المنتظمة أو الرياح التجارية ، وهذا الهواء المرتفع المنحج الى الجنوب والشمال لا يزال يسير حتى يصل الى درجة (٢٥) شمال و جنوب خط الاستواء ، فاذن يثقل ويهبط الى الأرض ، ومتى وصل سطحها لسعة الحرارة فارتفع ثانيا فلكأن الحرارة عصا من عصي الله يضرب بها الهواء فيرتفع وينقسم قسمين : أحدهما يرجع الى خط الاستواء ، والثاني يذهب الى جهة القطب ، فما يتجه جهة خط الاستواء يسمى بالاسم المتقدم وهى الرياح المنتظمة أو التجارية ، والتي تتجه الى الجهة القطبية تسمى الرياح المتغيرة ، أو التجارية الضدية ، فاذا وصلت الرياح التجارية الضدية الى الدائرة القطبية الشمالية والدائرة القطبية الجنوبية ، فهناك يرتفع الهواء كما ارتفع عند خط الاستواء لأنه يقابل الهواء البارد الآتى من جهة القطبين ، فهذا الهواء البارد يحل محل ذلك الحار فيرتفع الحار ويحل محله الرياح القطبية الشمالية والرياح القطبية الجنوبية كل منهما فى مكانه . ثم انك ترى جنوب آسيا الغربى وجنوبها الشرقى تهب عليها رياح غير ماتقدم تسمى الرياح الموسمية ، ذلك أن داخل القارة فى فصل الصيف أشد حرارة من البحار المحيطة بها ، ذلك لأن اليابس يتأثر بالحرارة أسرع من الماء وأشد منه فاذن يصعد الهواء عن سطح الأرض ويحل محله هواء آخر يهب من الجنوب الغربى والجنوب الشرقى فيصعد كثيرا من الأمطار على الشواطئ ، أما فى فصل الشتاء فانه يكون بالعكس فيكون داخل القارة أبرد من البحار المحيطة بها ولذا تخرج الرياح منه الى الجنوب الغربى والجنوب الشرقى ، وتكون جافة وشديدة البرودة . وهناك نسبان أحدهما يسمى نسيم البر ، والآخر نسيم البحر ، فترى الجهات القريبة من البحار يهب فيها الهواء نهارا من البحر الى البر ، ويسمى نسيم البحر ، وفى الليل يهب من البر الى البحر لأن الأرض تتأثر بالحرارة أسرع من البحر فتكون فى النهار أكثر حرارة من البحر فيرتفع هواؤها ويحل محله نسيم البحر الذى هو أقل حرارة . أما فى الليل فان البر يكون أبرد من البحر لسرعة تبرده لأن ما يسخن بسرعة يبرد بسرعة ، ومتى برد البر ليسلا ثقل هواؤه ، فأما هواء البحر فانه لا يزال خفيفا لأن البرودة لا تسرع فيه كسرعتها فى البر فيجربى نسيم البر الثقيل ويطرد نسيم البحر الخفيف الى أعلى ، وفى النهار يكون الهواء على البر أكثر حرارة وأقل كثافة من هواء البحر فيرتفع الأول ويحل محله الثاني ، وفى الليل بالعكس .

الآن يجب مما ترى : هواء جهة خط الاستواء ارتفع بالحرارة فوصل الى الطبقة الباردة حل محله من أسفل هواء من الجنوب والشمال فصار هوالى الجهتين حتى وصل الى قرب مدارى السرطان والجدي فثقل فهوى الى الأرض لأنه وجد الجو أبرد فقابلته الحرارة فارتفع واتجه الى خط الاستواء بعضه والى الدائرتين القطبيتين البعض الآخر ، ولما وصل الى الدائرتين القطبيتين عمل معه مثل ما حصل له فى خط الاستواء ارتفع الى أعلى وحل محله البارد الآتى من القطبين ، وهكذا نجد قارة آسيا اذا كان الحر فى الصيف أتاها النسيم من البحر على شواطئها الجنوبية فكثرت الأمطار . واذا كان الشتاء برد جوها حل محله النسيم البحرى الذى هو أقل كثافة فهب النسيم من نفس القارة الى البحار ، وهكذا نسيم البر والبحر فى كل مكان بالليل والنهار على هذه القاعدة يذهب نسيم البحر الى البر نهارا ونسيم البر الى البحر ليلا ، وكل هذه الرياح على قاعدة

أسباب كثرة الأمطار

(١) أسباب كثرة الأمطار أن يرتفع البخار فيصل للطبقة الباردة كما في خط الاستواء فان شدة الحرارة ترفعه الى أعلى جدا فيصيب الطبقة الباردة فيمطر ، ولما كان ذلك أمرا دائما كثرت الأمطار هناك .

(٢) وكذلك في الجهات التي تكون الجبال فيها ، فان الهواء اذا قابل الجبل اضطر أن يرتفع فيوصل الى الطبقة الباردة ، ولذلك يكثر المطر على سفوح الجبال ، فالهواء في خط الاستواء انما ترفعه الحرارة ، وعلى سفوح الجبال ترفعه الجبال .

(٣) وهكذا الرياح الضمنية المتقدمة تتجه من الجهات الحارة الى الباردة وان لم تكن مرتفعة ، ولذلك يسقط مطر غزير على القسم الغربي من أوروبا .

(٤) وتري الرياح الموسمية المتقدمة من هذا القبيل ، فانها تهب على جنوب آسيا الشرقى في فصل الصيف لأنها كما علمت تنقل من خط الاستواء الى الجهات الشمالية التي تزيد برودة عليها فيسقط مطر غزير على بلاد الهند والصين واليابان . وتحقيق هذه وايضاها في سورة الأعراف عند الآية التي ذكر فيها الرياح ، وكذلك في سورة الحجر عند آية : « وأرسلنا الرياح لواقح »

هذا هو معنى قوله تعالى هنا : « وتصريف الرياح » . ها أنا ذا أدعوك لتتأمل كيف كان أصل هذا كله ؟ أصله الشمس ، فلو وقفت ولم تتحرك لكان للعالم شأن غير هذا ولكنها تحركت بالحساب الذي في الجدول السابق ، وبحركتها أزعجت الشعاع والحرارة على الأرض ، ولما أزعجها عليها رفعت الهواء جهة خط الاستواء ، وحركت ربيعين شمالية وجنوبية ، وهذان اتجها الى الجهتين وزلا عند مدارى السرطان والجدي وارتفعا وسافرا الى المدارين ، وهكذا خفض ورفع في أماكن معينة وفي كل ذلك تنزل أمطار في مواضع وتمتع في أخرى ، وانظر كيف نصب الجبال في بعض المواضع ، ونصب البرودة في أخرى ، فالجبال ترفع الهواء فيصل الى الطبقة الباردة فيمطر ، وهكذا البرودة التي عند الدائرتين القطبيتين تقابل الرياح الحارة فتكون لها قامة مقام الطبقة الباردة : « إن ربي لطيف لما يشاء »

باربائه : جعلت الحرارة سببا للوصول للطبقة الباردة ، وكذلك الجبال ، وهكذا أنزلت البرودة فتقابلت الحرارة لانزال المطر ، فالبرودة إما أن يرتفع الهواء اليها بالحرارة عند خط الاستواء ، ولما أن يرتفع بالجبال ، ولما أن تنزل نفس البرودة فتقابل الحرارة فينزل المطر ، وهذا معنى قوله تعالى : « إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » وبهذا يفهم لم ابتدأ السورة وختمها بهذين الاسمين « العزيز الحكيم »

بمثل هذا فلتفهم أيها الحكيم معنى العزة والحكمة ، وبمثل هذا نفس أسماء الله الحسنى ، انظر تر السورة ابتدئت بالعزة والحكمة وختمت بهما ، فهو عزيز ، عز فقلب ، وقهر الهواء والماء ، وتصرف فيهما بالحرارة والبرودة ، وجعل الشمس مسيطرة عليهما ، تقرب وتبعد بنظام ، وتؤثر فيهما بنظام ، انظر كيف كانت الرياح ترفع بالحرارة وبالجبال ، أو تقابل البرودة ، كل ذلك لتنتج معلومة ، وذلك كله بحسب ما متقن ظاهري حركات الشمس ، ألا ترى الى نسيم البر والبحر والى الرياح الموسمية صيفا وشتاء ، أليس ذلك كله تابعا لحركات الشمس ليلا ونهارا في الأول وصيفا وشتاء في الثاني ، فالأول تابع لحركتها حول نفسها ، والثاني تابع لحركتها حول الشمس ، هذا هو معنى الحكمة ، وهذا هو معنى العزيز الحكيم ، وكررها في الأول والآخري ليفهمنا هذه المعاني ، وليقول لنا هكذا فلتعرفوا كتابي ، كتابي أنزلته لتدرسوا صنعتي ، فاذا قلت إني عزيز وحكيم

فلتقرءوهما في صنعتي لافي خيالكم .
بهذا وأمثاله فليدرس القرآن ، وبه و بأمثاله فليترق المسلمون ، وقد جاء أوامه ، وحلّ زمانه ، والله
أذن به ، والله هو العزيز الحكيم . والى هنا تمّ الكلام على اللطيفة الثانية والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة

بهجة العرفان ، في جزائر المرجان

في آية : الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون
ما كتبت أكتب هذا العنوان حتى حضر صاحبي العلامة المفضل الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير .
فقال : إن هذا العنوان يدل أنك تريد ذكر أهمّ عجائب البحر وهو المرجان ، والمرجان قد تقدم الكلام
عليه ، ورسّمته في سور كثيرة كسورة النحل وكسور غيرها ؟ فقلت : ههنا أمر أعجب ! وعلم أبداع لم يسبق
له نظير ، ههنا الجمال والحكمة وسعادة الدنيا والآخرة ، ألم تتذكر أيها الذكي يوم أن كنت تناقشني في
عجائب الحساب الذي وضعت بعضه في ﴿ سورة الرحمن ﴾ فيما سيأتي عند آية « الشمس والقمر بحسبان »
وبعضه الآخر في ﴿ سورة الناريات ﴾ عند آية « وفي الأرض آيات للموقنين » وفي أنفسكم أفلا تبصرون »
قال : أذكر ذلك ولا أنساه . قلت : ألم تتذكر أنني وقعت في يدى مجلة انكليزية وعنوانها هكذا : « منظر
في مملكة الحيوان ، بسحر الألباب ، وبحرك الوجدان » وفيها صور المرجان البديع التي أخذت بلي ، أنتذكر
ماقلته لك إذ ذاك ؟ قال : قلت لي إن هذه الصور المرجانية حديثة العهد لم يطلع الناس عليها إلا اليوم ، ولقد
أخذت بلي كما أخذ الحساب الذي نحن بصدده بمجامع قلبي . قال : نعم نعم أنتذكر ذلك . قلت : فأذكر ملخصه
لتظهر المناسبة بين بدائع الحساب التي في نفوسنا ، وبدائع المرجان التي خلقت في بحارنا ، فقال : إن ذكر
الشمس والقمر وانهما بحساب في ﴿ سورة الرحمن ﴾ وكذلك ذكر أن في أنفسنا آيات ، واتنا مطلوب منا
إبصارها ودراستها استبان منه أن كل كوكب وكل شجر ونبات لا وجود لها إلا بحساب في حركات الكوكب
ذى الأجزاء اللاتي تركب منها النبات الخ . وهناك ذكرت أنواع الحساب من الجذر والتربيع وحساب مثلثات
اقوام الزوايا التي ترجع في حسابها إلى (١-٢-٣-٤) وهكذا ، وأن الجذر والتربيع في هذه الأعداد البسيطة
ينتج مثلثات قوائم الزوايا لا حصر لها ، وهناك بدائع وعجائب مثل النظام لارتفاعات الأوتار والقواعد ،
وهكذا لا احصر له ، وذكرت هناك كيف كان الكسر الدائر المركب يشبه سير الكواكب في حسابها ،
فهى منظمات لا حصر لأدوارها ، ومن أهمّ ما تقدم في الموضوعين صور الأوقاف التي نقلتها من كتاب خواص
الأعداد للمرحوم علي مبارك باشا الذي ترجمه من اللغة الفرنسية ، وأثبت فيه كيف كان جمال الأوقاف وحسابها
وكيف كانت هذه الأوقاف من عجائب الحساب الكامن في نفوسنا المستمدة من نور الله عز وجل ، وأن انساءها
لتلك العلوم المدهشة المنظمة فتح باب لقاء الله ، وأن الأمم الاسلامية اللاحقة تبعاً للأهم الوثنية السابقة لما
انحطت مداركهم أخذوا يستعملون تلك الأعداد في الأدعية وجلب الرزق بالعزائم والدعوات ومزجها بآيات
القرآن ، والمابثون كانوا يتقدمون بها الى الكواكب ، هؤلاء وهؤلاء ضلوا السبيل في أواخر قرونهم مع
أن هذه العلوم مرقية للام والعقول ، مرغبة في لقاء الله ، مصفرة لأمر الحياة القانية الجاهلة . هذا ما
أندكره ، ولكن اذا تفضلت بذكر وفق واحد من تلك الأوقاف ليكون جالها وانحاحا بحيث لا يتكرر مع
الأوقاف الآتية هناك ويفيد فائدة أتمّ ، فانه به يستبين مامناسبة جزائر المرجان للحساب ؟ فقلت له : المذكور
هناك أن الأوقاف إما فردية واما زوجية ، وكلاهما تكون فيه المتوالية العددية والمتوالية الهندسية ، وأنا
لا أذكر هنا إلا وفقاً فيه المتوالية الهندسية ، وهذه المتوالية وان كانت موضوعة هناك في وفقها لم يبين

هناك كيف يوضع كل جدول فردي ، فني عرف الأذكياء وضع هذا الجدول الفردي ومثله بالتوالي الهندسية قاسوا عليه كيف يضعون المتواليات العددية في المثلث ، وكيف يضعون المتواليات الهندسية والعددية في كل وفق فردي نجس ومسدس ومسبع الى مالا حصر له ، وهاهوذا :

		١		
	٨		٢	
٦٤		١٦		٤
	١٢٨		٣٢	
		٢٥٦		

فهذه متواليات هندسية وضعت ثلاثة أعداد في الصف الأول الأيمن وتركتناصفا يليه وأنزلنا ٣ تلبها في الصف الثالث وتركتنا صفا يليه وأنزلنا الأعداد الثلاثة الباقية من ٦٤ الى ٢٥٦ في الصف الأخير ، ولاجرم أن المثلث الأصلي هو الذي أحيط بمحيطين في داخله ٤ مربعات لارقم بها ، فهذه المربعات يملا كل منها مما فوقه في صفه من الأرقام بشرط أن يكون الرقم الأبعد لا الرقم الأقرب ، فرقم ١ يوضع أسفل ورقم ٢٥٦ يوضع أعلى ، ورقم ٦٤ يوضع على اليمين ، ورقم ٤ يوضع على اليسار ، فإذا تم هذا فأنك ترى ناتج ضرب أعداد كل صف أفقي أو رأسي أو قطري يساوي مكعب الرقم الذي في قلب الوفق وهو ١٦ وهو ٤.٩٦.٤ وهناك يظهر جمال الحكمة وجمال نفوسنا ، فإن هذا النظام البديع فيه تجلي للنفس وفي النفس أن كل عدد مرتبط ارتباطا وثيقا بما يليه ، وكل صف مساو للصف الآخر وجميع الصفوف مساويات لمكعب الرقم الذي في القلب .
ومن عجب أن يكون ذلك العدد هو العدد الخامس من أعداد ٩ فكما كان في وسط الوفق هو وسط في الأعداد ، وهذا من أسرار نفوسنا المملوءة بحجائب وغرائب .

فلما اطلعت على المجلة المذكورة الانجليزية انتهجت نفسي بمنظر المرجان : وسحره الخلال ، والابداع العجيب ، وخيل لي أن نفوسنا أشبه ببحر متلاطم الأمواج ، وأن بحجائب الحساب المنظمة فيها تشبه بحجائب المرجان في البحار ، كيف لا وأنا أسر وأفرح بحجائب هذا الحساب كسروري وفرحي بحجائب المرجان المنظورة المسورة من أقصى البلدان ، أفلا ترى رعاك الله أيها الذكي أن المرجان نوع واحد : وتراه متوجعا تنوعا مدهشا في البحار كما أن الأعداد أصلها الواحد ، وبانضمام ١ آخر اليه كان اثنان والاثنان كان منهما كل زوج في جميع الأعداد ، ولاشك أنك ان ضربت ٢ في أي عدد فردي أو زوجي كان الناتج عددا زوجيا ، فلا عدد زوجي إلا وهو ناتج من ضرب عدد ٢ وجميع الأعداد الكاملة والمتحابة الآتي يانها في ذنبك للموضين تنتج من عدد ٢ والأعداد المتحابة والكاملة من الأعداد النادرة البديعة ، ومع ذلك يمكن استخراج مالا نهاية له منها بقاعدة واحدة ستوضح هناك .

فقال صاحبي : هذا القول حسن جدا وجليل ، وتبين المرجان وصورة البهجة جمال ، ولكنني سمعت كثيرا من أهل العلم بمصر وغيرها يقولون : ما فائدة مثل هذه العلوم سواء أكانت في تفسير القرآن أم في غيره ، إن هي إلا أشياء تسر بها النفوس ، ولكن لفائدة منها في الحياة . فقلت : إن هذه كلمة أسمعها في كل مكان يقسلي بها الجهلاء الغافلون الذين هم لا يعرفوا علم الشرقيين ولا الغربيين .

إن رقت الحياة وسعادة للمات بحب العلم ، ولو كان ما يقولون حقا ما أغرم الناس في أرضنا بالكواكب البعيدة ، ولاتنافست فيها دول الأرض مع أن الكواكب لا أكل فيها ولا شرب ولا درهم ولا دينار وهاهوذا

علم الأعداد وخواصه لما تركه الشرقيون قديما انتقل الى أوروبا وترجم بعضه أستاذنا المرحوم علي باشا مبارك مع اني كنت لما قرأت مقدمة ابن خلدون ورأيت فيها عند الكلام على الارتماطيق ما يفيد أن هناك في هذا العلم جداول منظمات بينها مناسبات مدهشات ومعجائب ولم يذكر شيئا منها ، اشتاقت نفسي لهذه المعجائب . وتحسرت على جهلي بها ، فلذلك وضعتها في التفسير لما حان حينها . فقال : إن هذا الجواب به دحضت حجة هؤلاء الكاسلين ، ولقد آن أوان شرح الصور المرجانية المرسومة في تلك المجلة الانجليزية ، قلت : إن في المجلة لمعجائب :

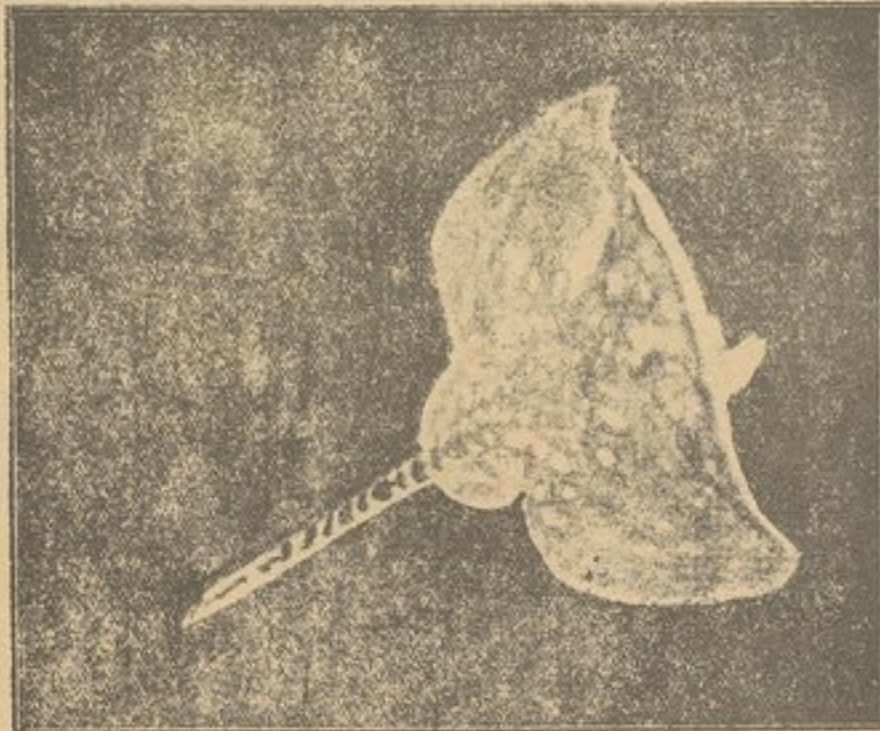
المعجبية الأولى

صور السمك العائش حول سلاسل الصخور المرجانية في البحار

وهناك صور الأسماك بألوانها . وهذا شرح المجلة لها ، وهاك تفصيله : « إن كثيرا من السمك الذي يكثر حول سلاسل الصخور المرجانية فوق وصف الواصفين من حيث بدائع ألوانها البراقة المؤثرة بهيئة خطوط ملونة مجتمعة وأزمنة مختلف ألوانها ظهرا وبطنا ، إن هذه الألوان وان كانت بهجة لماعة في أنفسها ليست ظاهرة كما ينتظر ، ذلك أنها متناسبات تناسبها تماما مع السلاسل المرجانية المجاورة لها من حيث ألوانها ، وبهذه المناسبة اللونية الموسيقية البديعة قد ينجو السمك من يصطاده بدون احتياج الى الاسراع في جريه ، لأنه لا يكاد يميز الرائي بين لونه ولون الصخور البديعة النقش ، وفي أكثر الأوقات ينجو السمك بأن يجرى في مجارى داخل تلك الصخور ليغيب عن الأبصار » اهـ

أقول : وهذه السلاسل لونها الحجر البديعة والبنفسجية ، ولون الشفق والزرقة والصفرة ، وهكذا ألوان السمك ، فترى في السمكة خطوطا صفراء ، وأخرى زرقاء ، وأخرى حمراء ، وكل هذا واضح في الرسم .

المعجبية الثانية : سمك يسمى النعل المنقوش

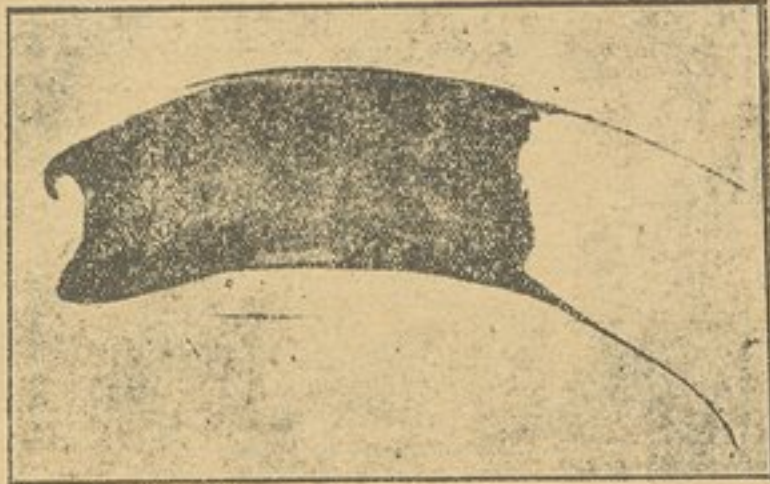


(شكل ٤ - سمك يسمى النعل المنقوش)

إن هذا وإن لم يكن مرجانا فهو سمك فيه عجائب وحكم ، كما ترى أن كل سمك يستعين بذيله على العموم ولكن هذا السمك ذيله مفقود ، فلا قدرة له على التحرك به ، فهذا إنما يتحرك بهذه الزعنفة التي تراها أشبه بالمثلث الذي تراه أمامك مرسوما بالصورة الشمسية (الفوتوغرافية)

المجيبية الثالثة : بيض سمك النعل المنقوش

اعلم أن هذا السمك إنما يسمى بالنعل لأنه يشبه النعل التي يستعملونها في المشي على الثلج ، فأما نقشه فهو ظاهر واضح أمامنا ، وأما البيض فهذه صورته (انظر شكل ٥)



(شكل ٥ - غلاف بيض سمك النعل المنقوش)

« إن غلاف بيض سمك النعل للنقوش خلقت جوانبه الأربعة من المادة التي صنعت منها أصابعنا ، (وبعبارة أخرى) هو قرن وهو يخلق في مبيض الأنثى محيطة بالبيضة بعد ما يتم تكونها ، وفي داخل هذا الغلاف الأسود القرني الصدفي تكون المادة البيضاء من البيضة (الفرقي) وفي وسطه الكرة التي يخلق منها الجنين في داخل ذلك البيض « الملح » (انظر شكل ٦)



(شكل ٦ - غلاف بيض سمك النعل المفرغ منه)

« غلاف سمك النعل ينزل إلى قاع البحر وتمموا البيضة في داخله قليلا قليلا ، وبعد أشهر كثيرة يرى سمك النعل الصغير التام الحلقة جاثما فوق قمة (مع البيضة) التي قد امتصت قليلا قليلا ، ثم يحصل هناك تغير كجأثي

في بياض البيضة فيذوب القرن عند طرف من أطرافه ، وهناك تخرج السمكة الصغيرة »

المجيبية الرابعة



(شكل ٧ - نقطة من الجزيرة للسماة « جزيرة الملك »)

« إن الجزائر المرجانية (سواء أ كان وضعها فوق أكتاف بركان لم يصل في ارتفاعه الى سطح الماء ، أم كانت حول جزيرة ارتفعت في البحر بوسيلة أخرى) إنما بنيت فتصير مستعمرة من سلاسل صخرية في البحار ومن قطع مضمومة لبعضها مهشمة من بقايا تلك السلاسل المذكورات ، وحوالي تلك السلاسل الصخرية البحرية يكون رمل جيل ذوامتداد ، وهذا هو الذي تراه في هذا الرسم المصور بالتصوير الشمسي أمامك الآن وقد اتخذته السلاحف الخضراء الألوان (التي تؤكل) مكانا مناسباً لأن تضع فيه بيضها وهي في هنا وحجور
« إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم »



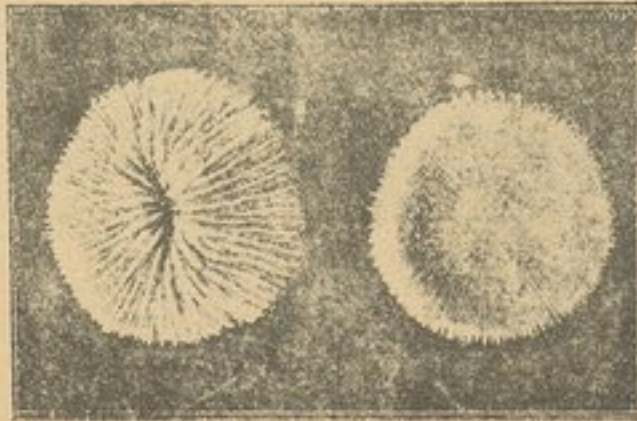
(شكل ٨ - مرجان ورقى يشبه ورق الأشجار)

المرجان الورقى يكون فى جهات فى بحار خط الاستواء ، ونمو بحجم كبير والمستعمرة الصغيرة منه تشبه الكبيرة :
الحديقة الغناء ، والمرجى البهجات ، وحيوان المرجان المتراكم فى تلك المستعمرة تضرب ألوانه للزرقة الخفيفة .



(شكل ٩ - سلاسل الصخور المرجانية)

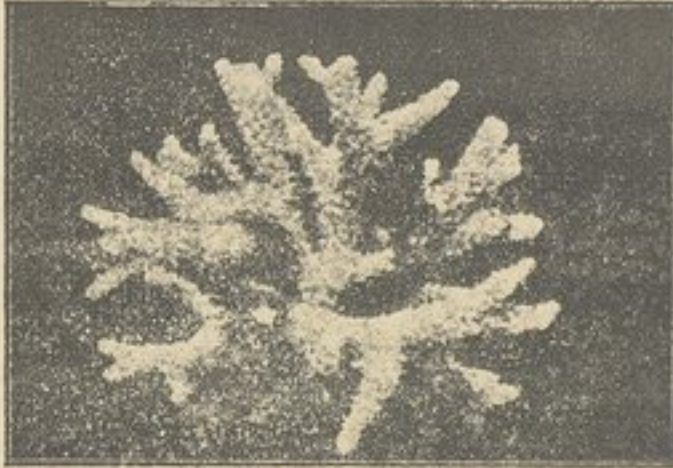
هذه إحدى المستعمرات الكثيرة المكونة من السلاسل الصخرية المرجانية المشتتة على ملاحصر له
من حيوان المرجان الدقيق ، وهو يتضاعف بأحد أمرين : إما بالانقسام ، ولما يحدث براعم فى الحيوان .



(شكل ١٠ - المرجان الذى يشبه ن هبته همن النباتات المظربة الصالحات للأكل خبز الغراب)

وهو يظهر فوق سطح الماء وتحت ، وهذه الصورة المشبهة الفنجال في شكلها هيكل حيوان مرجاني واحد يشبه من وجوه كثيرة شجرة كبيرة من الشقائق البحرية

المجبية الخامسة



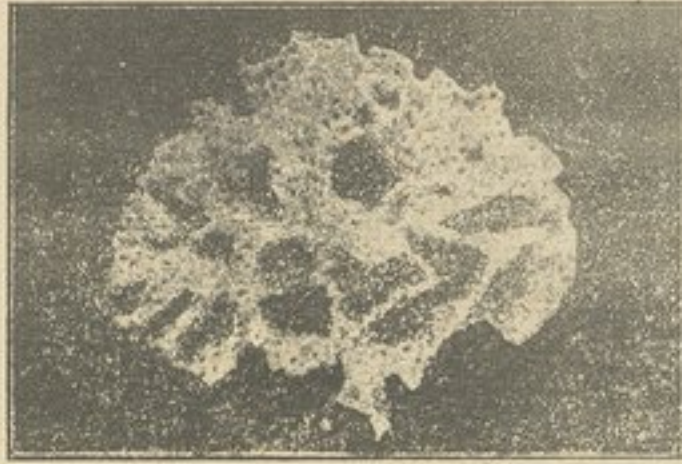
(شكل ١١ - مرجان مشدود بخيوط)

هذه مستعمرة حيوان يعيش على الأعشاب ، وهذه المستعمرة تخالف مستعمرة المرجان من عدة وجوه ولكنها تشبهها في أن كلا من أفراد الطائفتين المجتمع تحيط به مادة كلبية لحفظه « فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين » .



(شكل ١٢ - مرجان مدريبور)

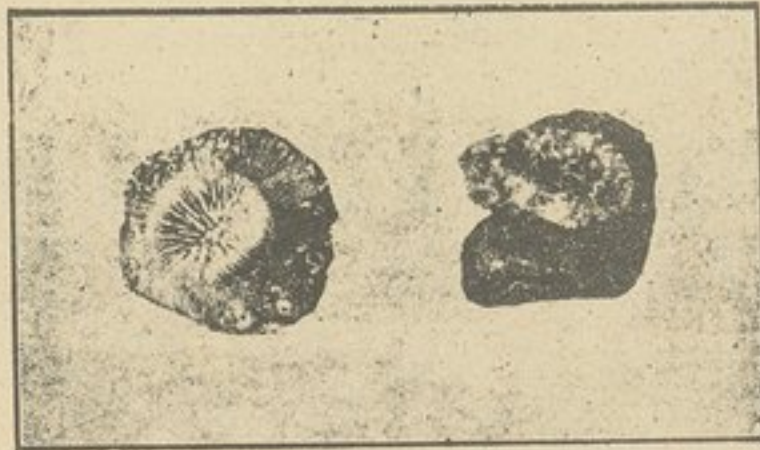
هذه مستعمرات مرجانية لنوع المرجان الحقيقي المسمى (مدريبور) وهو نجو بهيئة الورق المجدول ، وترى نوعا منه في المتحف البريطاني يحيطه يبلغ ١٦ قدما



(شكل ١٣ - مرجان يشبه الشبكة)

هذه مستعمرة أخرى للحيوان الجليل الذي يعيش على الأعشاب ، وهو أقرب الى النود منه الى حيوان المرجان ، وما هذه النقط السود إلا فتحات في هذه المستعمرة الشبكية

العجبية السادسة



(شكل ١٤ - مرجان الكوب)

هذا المرجان البسيط البريطاني في حجمه الطبيعي حيوان مفرد يشبه نبات الشقائق البحرية ، وأسفل هيكله مشدود بصخر ، أو حجر ، أو صدف .



هذه مستعمرة بهجة
المنظر بما فيها من
كؤوس الزهر البديع
المحيط بالأغصان
المشبهات أصابع اليدين
وكل كأس من كؤوس
الزهرات عبارة عن
مخارة أو صدفة تشبه
كوبافيه حيوان المرجان
المشبه نبات الشقائق
البحرية ، وهذه
المستعمرة تنمو بطريق
البراعم حتى يكون فيها
آلاف من حيوانات
المرجان المجتمعة بأدق
انتظام .

(شكل ١٥ - مرجان المحيط الهندي)

العجيبة السابعة : مرجان كوب البحر

نجم المرجان ، ومرجان كوب البحر



(شكل ١٦ - نجم المرجان)

هذا هيكل جميل المنظر ، بديع الشكل ، لمرجان نجمي فيه انتظمت حيوانات المرجان التي بها انشفت المستعمرة ، إن هذه المستعمرة المرجانية تتكاثر بما يظهر فيها من البراعم التي دائما تتجدد



(شكل ١٧ - هذا كأس بحري من المرجان)

هذا الرسم وان كان يشبه الكأس في شكله ليس قريبا من الكأس المرجانية المتقدمة الذكر (كرو فيليا البريطاني) كلا فان هذا مستعمرة لحيوانات مرجانية كثيرة جدا ، وكؤوس أزهارها البديعات بهجات تزي في داخل هذه الكأس المكسورة كسرا جزئيا .

العجبية الثامنة

حمبر البحر - أنابيب بحرية مصنوعة من المرجان



(شكل ١٨ - حمبر البحر)

« إن حصير البحر مستعمرة سمراء تشبه من بعض الوجوه الاعشاب البحرية ، وماهى إلا حيوانات دقيقة تنسب الى فصيلة من فصائل المرجان ، إن كثيرا من جماعات هذه الفصيلة مكون من الكلس ولذلك يسمى بالمرجان ، ولكن حصير البحر الذى كلامنا فيه له هيكل قرني لين مرن لطيف ، إن أول موضوع كتبه (تشارلس داروين) فى العلوم الطبيعية كان على حصير البحر »



(شكل ١٩ - أنابيب بحرية مكونة من المرجان)

هذه صورة بحجمها الطبيعي للأنابيب المكونة من المرجان ، إن كل حيوان مرجاني فى هذه المستعمرة

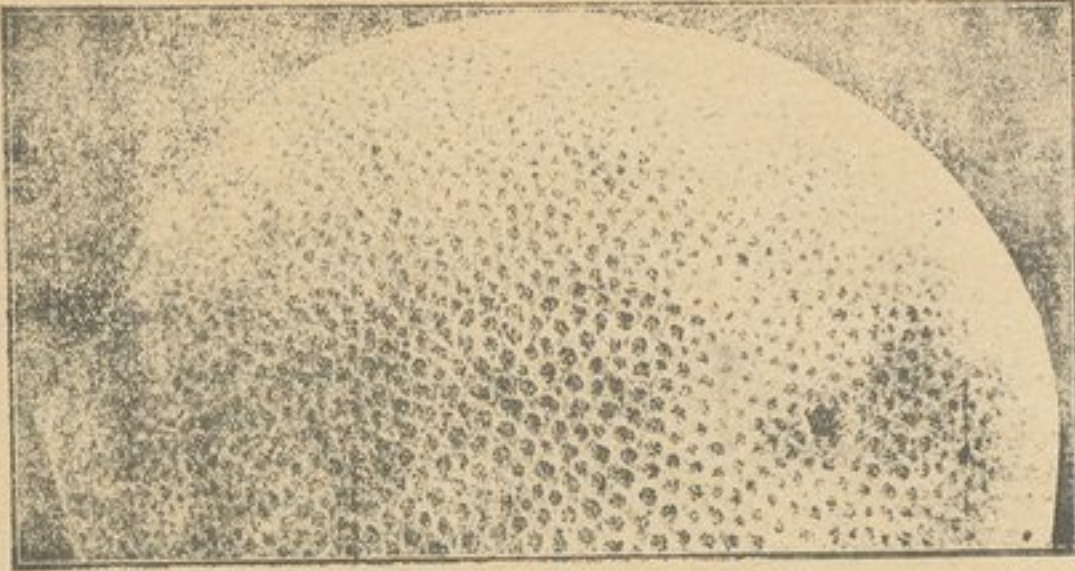
يشب في أنبوبة جراه مكونة من مواد الجير الذائبة ، وهذه الأنابيب منضم بعضها الى بعض مكونات مايشبه قلائد الأطفال ، إن هذه الأنابيب الكثيرة العدد مرتبطات ببعضها ارتباطا وثيقا محكما بواسطة قناطر ، وفي كل أنبوبة حيوان مرجاني يخرج من أعلى جسمه ٨ قرون ريشية خضراء ، إن هذه الفصيلة المرجانية المسماة (تايبورا) تظهر عادة في الماء القليل (الرقراق) في أطراف السلاسل المرجانية الصخرية في الدنيا القديمة والجديدة .

المجبية التاسعة



(شكل ٢٠ - مرجان الكوزيان الحلي)

هذه مستعمرة جيلة ذات أغصان تشبه الأعشاب وهي من مرجان الكوزيان ، وهذا النوع يشمل أصناف المراوح البحرية والأقلام البحرية ومايسمى أصابع الرجال الميتين ، وههنا ترى مئات من حيوان المرجان اتحدت مع بعضها في الحياة بواسطة قناة ، وكل حيوان منها له مايشبه قرون الحشرات الريشية ، وله سلاح اتخذه من المواد الجيرية ، ثم إن هذه الحيوانات يجمعهن محور يحفظ الجميع في نظام واحد ويشبهن المستعمرة .



(شكل ٢١ — مستعمرة المرجان في البحر الهندي)

إن لفظ « مرجان » يدخل تحته مئات من الحيوانات المختلفة الأشكال كما تقدم ، ولكنه يجب أن يعلم أن التاريخ الطبي ليس فيه فصيلة اسمها فصيلة المرجان ، وإنما المرجان منسوب إلى فصيلة (الزوفيت) تشبه أشجار (الشربين البحري) ، فهناك صنف يقال له : مرجان المديبور ، وهذا ينسب إلى ما يسمى « المرجان الشقيقي » المنسوب إلى نبات الشقائق البحري المتقدم ذكره مرارا ، وهناك مرجان أسود اللون له ما يشبه الساق الثقيل الشديد ، ومرجان آخر يشبه المروحة البحرية ، وآخر يسمى « هرورون » ينسب إلى « حصير البحر » المتقدم ، وهناك غير ذلك .



(شكل ٢٢ — شقائق البحر فوق الصخور)

هذه أشبهت باقة الأزهار في شقائق البحر من وجهين : فأولا شعاعها اللامع منتظم في جوانبها ، وثانيا للون الجليل ، إن جسمها الاسطواني مثبت في قاعدته ، والقم عند قطبها الأعلى محوط بأوراق منتظمة بهيئة دائرة حول الساق ، مسلحة بما يشبه قرون الحشرات اللامعات الموفرة للحياة ، إن الشقائق البارزة في هذه الصور الشمسية نوع منها يسمى « بيلاموز » ذو قرص موشح بأهداب ذات أشواك كثيرة صغيرة تشبه قرون الحشرات اللامعات .



(شكل ٢٣ - سلاسل الصخور المرجانية في جزيرة «داكو»)

هذه السلاسل الصخرية المرجانية تغطي مساحات شاسعة الأكناف ، ممتدة الأطراف ، في شواطئ جزيرة الملك ، فأقتبس ما كتبه العالمان « كانت » و « هارلي » ان هذا اللون المنتظم البراق يخدع الناظر فيخيل إليه أن أمامه على الشاطئ حديقة ممتدة على مدى الجوانب ، كثيرة الأزهار ، اذا هورق خلب ، سحر العين بمرآة ، إن من المرجان ما تراه وردى اللون ، أو قرنفليه ، أضعيفا يتكسر بأدنى لمس ، وبخبر واقعا على الأرض ، ومنه ما هو قوى متين شديد صلب ، لا تؤثر فيه المطرقة ولا تكسره الفؤوس



(شكل ٢٤ - الجزيرة البركانية)

إن الجزائر على قسمين : جزائر قارية (منسوبة للقارات) أي أنها كانت قطعة من القارة فانصلت منها ، وجزائر بحرية ، وهي التي تبرز في البحر بسبب احتياج بركاني في البحر ، إن هذه الصورة الشمسية ترىنا الجزيرة البحرية . انتهى ما أردته من المجلة الانكليزية المذكورة

فلما أتت هذه المقالات الشارحات للصور . قال صديقي : لئن صدق ظني ليكونن في الأمم الاسلامية بعد اليوم حكام لم يسمح بأمنهم الزمان من قبل ذلك ، إن مباهج الصور ومحاسن الأشكال مفاتيح العلوم وكيف يعقل أن انسانا يحتاج للعلم ، ويشاق للبحث ، إلا بمشوقات ، وصور بهجات ، تبارك الله أحسن الخالقين وكيف يعشق شبان المسلمين العلم ، ويحبون الأمة ، ويفرمون بصانع العالم ، إلا بمشوقات تراها أبصارهم ، ومعشقات تحرك وجدانهم ، وإذا سمعنا ابن سينا يقول في كتابه : « إن الصوت اللطيف ، والعشق العفيف والعبادة مع الفكر توصل العبد لربه » فإن هذه الصور فيها أرقى العبادات ، وهي أعظم من المعاني ، أنها لموسيقى بصرية أبعد أثرا من الموسيقى السمعية ، على أن الموسيقى السمعية قد كثرت القوائد المملوءة بالشهوات الفاسدات ، والأهواء والضلالات ، أما هذه المناظر فإنها قدسية إلهية ، صنعتها يد القدرة وزخرفتها

بالحكمة فأصبحت هي ونجوم السماء ، وبحجاب الزرقاء والغبراء ، جنة عرضها السموات والأرض لخاصة
المفكرين ، ما أكثر هذا النوع الانساني فانهم عن هذا الجمال غافلون . فقلت : لقد فطنت بعلم وأفنت
بحكمة . فقال : هذا هو الذي جال بخاطري أثناء هذه المناظر ، وأنا أقرأ في نفسي : « الذين يذكرون الله
قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا » فالتذكر في
الآية أشبه بمقدمة ، والفكر في خلق السموات والأرض كنتيجة له ، فالتاظر في هذه الجباب على هذا الخط
قد وصل الى النتائج ، ولم تكن الصلاة والصيام لإمعدت للتفكر ، فصلاة الغافل كإصلاة ، والعبادة لا تقرب الى
الله إلا مع الفكر ، فهذا هو الفكر وههنا في هذه الآية التي نحن بصدها يذكركم (بعد ذكر البحار وتسخيرها
وتسخير السموات والأرض لنا) الشكر والفكر ، أي ان نتيجة هذه العوالم هو الشكر والفكر ، وهل للناس شكر
إلا بعد فكر ! فرجع الأمر كله الى الفكر ، وأجل ما يحصر الفكر بشوق إتمامي الصور الجميلة التي لانهيحنا
للشعوات ، وانما نهيحنا للعالم بما في الأرض والسموات . ثم قال : هذا ما جال بخاطري ، فهل تسمح لي أن
أعرف ما أثر في نفسك ، واهتاج به لك ، عند دراسة هذه المناظر . فقلت : نعم أنا عند رسم صورة بيض
السمك المسمى « النعل المنقوش » وهي الصورة الثانية ، خطرت لي وأنا أكتب في شرح تلك الصورة أن أقول
« إن البيضة تنزل الى أسفل البحر شهوراً كثيرة ، فإذا تم خلق الجنين حصل هناك تغير كيميائي في بيض
البيضة فيؤثر ذلك في القرن وهو (القيض) أي قشر البيضة فتخرج السمكة الصغيرة ، إن الصانع الذي
يبدع هذا الإبداع في صنعه ، وينظر السمكة صغيرة محبوسة داخل حصن قويّ متين شديد نظر رجة فيحدث
في الغذاء المحيط بها عملاً وهو التغير الكيميائي في البياض ، فيؤثر في الحصن ، فيسهل على السمكة الصغيرة أن
تخرج من محبسها وتسمى في الماء وتفرح بنعمة ربها

أقول : إن الصانع الذي يفعل هذا ويريه لنا بأعيننا هو نفسه الذي أسمنا بآذانتنا آية « ولكل قوم هاد »
فلا أمة في هذه الأرض إلا لها هداة يخلقون فيها ، وهؤلاء الهداة يتولون هدايتها بما يناسب أخلاقها ،
فهاهي ذه جزيرة العرب جاءهم رسول منهم أمي مثلهم فقتلوا كلامه ، وهاهم الأنبياء كل يأتي على
شاكلة من أرسل اليهم ، وهاهم أولاء علماء الاسلام في كل قرن كانوا يتلاحقون ، وهم مصلحون بحسب
أزمانهم ، ولولاهم لذهب هذا الدين في الأرض . وخطرت لي أن بعض أمم الاسلام اليوم أشبه بهذا الجنين في
هذا القرن سواء بسواء ، فقد أحاطت بعقولهم الخرافات ، فنعتهم عن الحرية في دولهم ، وعن الترقى بين أمم
الأرض ولهم علماء ، ونحن انغمسنا في الجهالات ، فهذه الجهالات المتراكبات أشبه بذلك الحصن المحيط بالبيضة
المنقذمة ، ثم هؤلاء الهداة في الاسلام الذين ظهروا في الأصقاع الاسلامية أشبه بما حدث في البيضة من التغير
الكيميائي ، ذلك أن العلم الصادر من هذه العقول الممتازة في بلاد الاسلام يحلل الجهالات المتراكمة ، وتفصو
النفوس ، وبهذا التحليل العلمي تتخلص الأمم من الاستعباد الجسمي باحتلال الفرنجة وظلم الحكام الاسلاميين
ومن الاستعباد العقلي بنفور النفوس وبعدها عن العلم بما ذرأ الله في الأرض والسموات ، ولا يزال المسلم يجاهد
في مباحثه العلمية وهو يشهد الله في كل حجر وشجر ، وبحر وجزيرة وأرض حتى ينقذ أمته من الخطر ويرفعها
الى سماء المجد بأبحاثه ، وهناك ينطلق عند الموت من سجن الأرض الى فسيح عالم الأرواح والسموات كما
انطلقت السمكة الصغيرة من سجنها الى ماء البحر الفسيح ، ولكنها لم تنطلق إلا بمقدمة كيميائية هيأتها العناية
الإلهية ، هكذا نفس هذه العناية هي التي تهيئ اليوم نفوساً ونفوساً في الأمم الاسلامية تحلل ما تراكم من
الخرافات ، وبسببها تنطلق عقول أفراد من سجن الضلالات وأجسام ونفوس الأمم من الذل والجهالات
« إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم »

إن هذه المناظر والمباحث تعشق الناس في ربهم وفي العلوم وفي أممهم فيدرسون حبا في ربهم وحبا في
العلم ، ويعملون طبعاً لربي أممهم ، لأن من أحب الله وأحب العوالم والعلوم لا جرم يحب الأمم . وهذه نهايات

السمعات في الحياة والمات .

وأنا أجد الله الذي خلقنا في زمان النهضة الاسلامية التي سننسخ الجهالات المتراكمة التي أساطت بهذه الأمة منذ عدة قرون . فقال : وأنا بالتجربة أثناء نشر هذا التفسير وجدت هذه الآراء بخلافها والأخلاق بأنفسها قد انشرت بين قرّاء هذا التفسير . فقلت : أنا لاشكّ عندي أنهم من دعاة هذه النهضة الحديثة ، والله هو الهادي الى الصراط المستقيم . انتهى صباح يوم الأحد ١٩ ابريل سنة ١٩٣١ م

المعاني المحسمة في الحقل

بضواحي القاهرة يوم ٢٠ ابريل سنة ١٩٣١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

لما أتممت كتابة هذا الموضوع المتقدم رأيت أني يجب عليّ أن أخرج من القاهرة الى ضواحيها لأستنشق النسمات ، وأروّح النفس ، وأبى سبيل لتلك أفضل من أن أذهب الى حقلنا الذي أزوره وقنا فوقنا .
بت ليلة الثلاثاء ٢١ ابريل سنة ١٩٣١ بتلك القرية وكان معي بعض ورق مطبوع من سورة الزخرف لأضع له الفهرست ، فلما كان يوم الثلاثاء بدت لي ثلاث معان : في الأكل ، وفي النساء ، وفي السماء ، ذلك أني وأنا أعطى الطعام وقربت الشيع أخذت نفسي تحذني قائلة : « ما هذا الجوع ؟ وما هذا الشيع ؟ إن ههنا قائدين وسائقا ، والقائدان أحدهما بالين ، وثانيهما بالشدّة ، وأولهما أدم من ثانيهما ، فالسائق للطعام هو الجوع ، والسائق دائماً قاهر للسوق ، والقائد المؤدّب بالين هي لذة الطعام ، والقائد المؤدّب بالشدّة هو المرض وتعاطى الدواء . فعسل الله مع الانسان ما يفضله مع دابة نافرة ، فهذه لابتد لها من سائق ، ولشدّة نفورها لابتد لها من رجل آخر يكون معه برسيم لتأكله ، والجوع سائق ، ولذات الماء كل قائدات ، وقد يجرع الدواء تجرعاً »

ثم قفّلت راجعا الى بلدة المرج لأركب القطار ، فلمحت امرأة تحمل جرة على صدرها حلى لامع ، فما كادت تظهر من بعد حتى حجبت هذه الزينة نادبا ، وما كاد بصري يقع عليها حتى أخذ الفكر يحول في هذا المعنى وهو : « أن جمال الانسان والحيوان محدود من جهات ثلاث : من جهة الزمان ، إذ لا يكون إلا في زمان معلوم ثم ينطفيء ، ومن جهة المكان ، وهو بعض الأعضاء . ومن جهة المقدار ، فمقداره محدود له نهاية »

فأما جمال النجوم والشموس والأقمار ، وجمال البحار ، ولذرة والمرجان الذي تمّ كلامنا فيه ، فإن ذلك ليس محدودا زمانا ، لأننا لانعرف متى ابتدأت هذه العوالم ، ومكانا لأننا لاندرى نهاياتها ، ولانقدارا لأننا لانعرف عدد النجوم ، ولا عدد حيوان المرجان ولا غيرها

وإذا علمنا أن جمال المرأة أو نحوها من نوع الانسان محصور بثلاث اعتبارات ، وجمال العوالم غير محصور أدركنا لاحالة النتائج والثمرات واللذات الناجات عن كل جمال ، فنتائج جمال المرأة هو الولد ، ولولاه لم تحمل ، لأن الجمال إذ ذاك عبث ، ولذلك تحرم هي والرجل من الجمال في حال الصغر والكبر إذ لا قدرة لهما على التربية .

أما جمال النجوم والشموس والأقمار ، والأزهار والمرجان في البحار ، فأنما ذلك لاستخراج القوى الكامنة في هذا الانسان ليرقى الى العلاء ، فكما أن هذا الجمال لاحد له هكذا لاحد لتنتجبه العلمية . إذن العلم لاحد له ، ويقع ذلك اللذة ، فههنا علم لاحد له ، ولذة لاحد لها ، فأما في الانسان والحيوان فذلك كله محدود كما شرحناه

ولما كان هذا الخاطر مناسباً لموضوع المرجان المتقدم أثبتته هنا ، إذ هذه المنحة موافقة لهذا المقام .
ومن عجب أن الانسان لا يشعر له بحد في حوز المال ، ولا في الشهوات واللذات ، ولكن الحد يأتي له قهراً
فيضعف جسمه في طعامه وشرابه ، وتنحل قواه فلا يقدر على الوقاع ، وتحيط به الكوارث فيقل ماله .
سبحانك اللهم وبحمدك ، أنت بالمرصاد لمن حاد عن ذلك الصراط ، فالذين يتعدون حدودك في طعامهم
وشرابهم ووقاعهم ، ولا يدركون أنك قدرت اللذات فيها بقدر ، يعتر بهم المرض والضعف والهزال ، وتقصّر
أعمارهم ، ويحل بساحتهم الشقاء ، والفقر والبلاء ، ويعوزهم الطيب ، والدواء الكريه ، كل ذلك لأنهم
لم يزنوا هذه الحياة وزناً حقيقياً واعتبروا المقدمات نتائج ، وذلك لسوء التفكير ، والجهل بالمصير ، كتب ليلة
الخميس ٢٣ ابريل سنة ١٩٣١ وبهذا تم الكلام على اللطيفة الثالثة والحمد لله رب العالمين

اللطيفة الرابعة

في قوله تعالى : أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعمالوا الصالحات
سواء بحياهم ومماتهم ساء ما يحكمون * وخلق الله السموات والأرض بالحق ولنجزى كل
نفس بما كسبت وهم لا يظلمون

لقد تبين لك في التفسير اللغظي أن قوله تعالى : « وخلق الله السموات والأرض بالحق » جعل برهانا
على الجزاء يوم القيامة ، وأن هذا العالم بنظام ، والنظام ملازم له ، فحال أن يكون علما في كل شيء ،
ويختلف ذلك في الانسان ، ولكن الآن أذكر لك شيئا عجيبا ! أقل لك آراء علماء العصر الحاضر ، أنقل
لك آراء (اللورد اسبنسر) كيف يقول ؟ يقول : « إن الطبيعة نفسها فيها العقوبة ، العقوبة فيها مقدره
على مقدار الذنب » ، بل جعل تلك العقوبات من الطبيعة نعمة ، فكأنه نطق بقوله : « وهم لا يظلمون »
وإنما جعلها نعمة لأنها منفرات ومخدرات ، فإذا كل ألم نعمة لأنه منذر ومخدر ، وأني يمثل ما ذكرناه من
عقوبات الطبيعة ، ولا فرق بين قولنا وقوله إلا أنه رجل غربي ، فترى تضافر الشرق والغرب على رأى واحد
والرأيان يفسران القرآن ، فكأن هذا القرآن أنزل لهذا الزمان ، والافكيف يقين الآن في هذا الوجود
أن لا عقوبة ، وأن ما يسمى عقوبات بحسب ظاهره هونم بحسب باطنه ، وهو الذي طالما قلناه في التفسير
ويتضح إذن معنى قوله تعالى : « إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن » ، فعذابه إذن تحذير لا غير ،
وقدما في هذا التفسير أن مسألة الكفار وعقابهم الدائم لا أمرتض لها بل أنت سيفتح عليك وتعرف
الحقيقة ، لاسيما إذا قرأت كتاب الامام الغزالي وهو « فيصل التفرقة ، بين الاسلام والزندقة » ، فلا نقل
لك الآن كلام العلامة (اسبنسر) الموافق لما فهمناه من كتاب الله لنعلم أن دين الاسلام سيفظهر في مستقبل
الزمان ظهورا أوسع بعلم أشمل .

قال : « انظر لي نوع العقاب الذي يبدر في الطبيعة ، فانك اذا تأملتته وجدته أجدر أن يسمى نوابا
لاعتقلا ، وفرق عظيم بين عقاب الانسان المتكلف وبين عقاب الطبيعة المنظم الحسن الجميل ، إن عقاب
الطبيعة زجر عما أغفلناه ، وتعليم لما جهلناه ، فهو مقتر بقدر الذنوب ، فلا زيادة ولا نقصان ، وجزاء سيئة
سيئة مثلها » لا قل ولا أكثر ، فليس في الطبيعة حقد ولا حسد ولا عفو ، فاذا عمر الطفل لطيش فاصطدم
بنى . أمامه لم ينل من الطبيعة ألما إلا على مقدار مجلته وسرعته ، فان قلت قل الأم ، وان عظمت عظم
الأم ، ذلك هو الانصاف والعدل ، تعاقب الطبيعة بذلك وهي ساكنة صامته لا تبدى حواكا ، ولا نسمع شتما ،
فهى بالمرصاد معصمة مؤكدة ماضية في عزيمتها لا تنى ، يشاك الطفل بشوكة فيألم ، وكلما عاد الشك عاد الألم
وإذا لم يشك لم يفلم . وهذا هو الصدق . فاذا رأى الطفل من الطبيعة ذلك النصيم تأدب أدبا حقا فتجبا

إن هذه العقوبات ليست خاصة بالأطفال ، فكما أنها لا ترحم صغيرا لا تفرح كبيرا ، فإذا كبر الانسان وليس له والد يزرعه قعدت له الطبيعة بالمرصاد وأدبته كما تؤدّب الأولاد ، فإذا كان مأجورا ولم يراع حقّ العمل وفرط فيه يترع منه العمل ويترك ليتجرّع الضرّ والفاقة ، ويشرب الكأس التي ملاثها يده .
وترى الرجل الذي يخلف وعده يناله من سوء فعله ما يفقده ثقة الأصحاب بوعدده فتفتوت عليه القرص ويحلّ به الندم . وترى التاجر الذي يفلى على المتاعين بضائعه ينفذون من حوله وهو كئيب حسير .
وترى البائع الذي يحسن الظنّ بالمشتريين منه فيبيعهم نسبة ، وكذلك المساهم المخاطر ، فهذان يناهما من ضياع المال ما يؤدّبهما ويزرعهما جزاء وفاقا ، إهما كما لا يرجوان على جهلهما حسابا .
وترى الجائر المضلل يناله الطوان ، والخائن يلحق به الذلّ والصغار ، فيرجع الى رشده بعد تأديبه ، فحتى تخلص من ورطته ثبت على الهدى ، وتخلص من أسباب الردى ، ولم يخدعه خادع بعدها . ثم طلب بعد ذلك أن يكون عقاب الآباء كعقاب الطبيعة الخ اه
هذا ما يقوله العلامة (اسبنسر) أفلست ترى أن هذا المعنى بعض قوله تعالى : « وخلق الله السموات والأرض بالحق » . أفلست ترى هنا بعض الحق أى العدل ، والعدل فى العقاب . ثم انظر الى قوله تعالى : « وتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون » كأنه يقول :
أيها الناس : ما ظلمتكم ، إنما أتم أطفال ، وليس فى طبيعة العالم الذى تسكنون فيه أن ترتقوا إلا بما فعلناه ، تشوكم الشوكه فتألمون والمك لمنفعتكم ، فالألم نوع من الاحساس به تكون العلوم ، فكما تحلون المسائل الهندسية والحسابية والجبرية والفلكية بصفاء عقولكم ، هكذا تفهمون مضارّ الطبيعة بحاسة اللس مخلوقة فيكم ، فالعلم علمان : علم تدركه العقول ، وعلم تدركه الحواس وكلاهما له أثر فى نفوسكم والنتيجة أن تكونوا عالمين . فإذا كان الألم علما فليس ظلما . إنما الظلم ألم لا فائدة منه . وفى هذا الألم أكثر فوائد الانسان . انتهى الكلام على اللطيفة الرابعة

اللطيفة الخامسة

فى قوله تعالى : إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون

اعلم أن قول الله : « إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » قد عبر عنه علماء الأرواح الذين سألوها ، فأجابت بحقيقة أحبّ أن أذكرها لك هنا سواء أصححت عندنا أم لم تصح ، فلا أذكرها وليفكر فيها عقلاء المسلمين ، وليحضروا الأرواح ، ويسألوها كما يسألها أهل أوروبا ، فإذا كان المسلمون لم يتعلموا هذا العلم فليس ذلك بمانع أن نذكر منه ما وافق المقام ، بل انه معجزة للقرآن ، بل هو نفس قوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يفين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » سأقول لك ما ذكره علماء الأرواح لفائدتين : الأولى أن ما سمعته هو عين قوله تعالى : « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » . الثانية : أنك منى وقتت على ما أقوله الآن يعتبريك خشية وخوف شديد أكثر مما فى الكتب السماوية لأنك ترى أن كل كلمة ، وكل فكرة ، وكل خطرة نخطر لنا نرسم فى أجسامنا الروحية وهذا أمر عظيم ، فان الانسان يصبح بهذا خائفا وجللا اذا أدرك أن كل ما يبجول بمخاطره يرسم على جسمه الروحي ، فإذا مات ظهرت جميع الآثار ، ذلك أمر عظيم ، فلا كتف بالمقدمات ، ولا شرع فيما قالوه . قالوا ما ملخصه : « إن الحيوان فى هذه الأرض إما أن يكون فى الماء ، أو فى الهواء . فالذى فى الماء لا يستطيع الحياة فى الهواء ، والذى فى الهواء لا يستطيع الحياة فى الماء . هكذا هناك عوالم فوق الانسان والحيوان تعيش فى عالم يسمى (الأنير) وهو عالم لطيف ألطف من النور يحيط بأرضنا وبالأراضى والعوالم الأخرى ويقولون

إن أرضنا عالم متأخر خلقت فيه أرواح متأخرة هي أرواحنا ، أخلاقها وحشية ، قريبة من أخلاق البهائم ، لذلك عشنا معها في دار واحدة ، ويحيط بأرضنا مادة أنيرية أظف ألف مرة من الهواء ، ولكنها بالنسبة للمادة الأثيرية المحيطة بغيرها من العوالم أخشن وأخشن بما لا حد له ، وكلما كان الانسان أظف أخلاقا متجردا من الأنانية استحقّ النقل الى عالم يناسبه ، وكلما كان أحسن أخلاقا ، وأعزرحبا ، وأقنع لبني جنسه ازداد نقاء ، ويرتفع من عالم الى عالم ، وليس هناك مانع من الموانع تصدّ الانسان عن الرقيّ الى العوالم العالية إلا ذاته فانها ان لم تستعدّ لتلك العوالم تبقى في مكانها الخاص بها كالأرض التي نحن عليها ، فهي إذن أشبه بالسلك لا يصدّه عن الأرض إلا ضعفه عن استنشاق الهواء ، وكالانسان لا يصدّه عن الحياة في البحر إلا أن الماء أغلظ من الهواء فيقتله ، فاذن كل عالم من عالم الأرواح المفارقة أجسادها وهي في البرزخ محكوم عليه أن يعيش في عالم خاص ، فلأنه تجاوز عالمه الخاص لم يتحمل ما هو فوقه بل يكاد يكون فيه معدوما فيرجع أسرع من البرق الى عالمه ، هذا ما يقولونه في الأرواح بعد مفارقة الأبدان

أعمال الأرواح

ثم إن الانسان في الحياة الدنيا وهو في هذا الجسم المادّي يقولون انه يحيط به مادة أنيرية ، وفكره مسلط عليها ، مؤثر فيها ، فكل فكر أو عمل لابد أن يرسم في جسمه الروحي (المنطبق على الجسم المادّي) الذي سيبقى بعد الموت معه ، ثم ينتقل الفكر من جسمه الروحي الى السائل المحيط به فيحدث فيه صلاحا أو فسادا كما تنتقل الروائح العطرية والمكروهة الى الأجسام حولنا بالهواء ، فالمادة الأثيرية موضوع أعمال الأرواح في الحياة وبعد الموت كما أن الهواء محل أثير الأصوات ، فترى للنفس علائق بالأرواح المحيطة بها ، والسائل الأثيري ينقل آثارها اليهم وآثارهم اليها ، فترى أننا اذا كنا في جمع ملثم نحسّ بسرور منشؤه ذلك السائل ، واذا تحدثنا مع من يبغضنا ونبغضه نحسّ بتنافر في قلوبنا ، فاذا تخلّصت الروح من الجسم وأصبحت حرة كانت أفعالها في ذلك الأثير بنفس الارادة فتفعل في السائل الأثيري ما كنا تفعله ونحن أحياء في المادة بأدواتنا ، وتؤثر الروح في الأثير آثارا طوعا لأخلاقها وأحوالها ، وكأهلها ونقصها .

واذا كان الفكر الروحي في حال الحياة وبعد الموت يؤثر في السائل الأثيري صورا على مقدار تصوّره فانه بالأولى يرسم في جسمه الروحي تلك الصور ، وهنا بيت التصيد ، فاذا كنا نرى أن الخجل يظهر أثره على وجوهنا والخوف ، فبالأولى يرسم في جسمنا الروحي تلك الصور المتعاقبة ولا يمحو أحدها الآخر وتتراكم إذ ذاك الصفات المتعاقبة ، فيكون الجسم الروحي يجمع الأخلاق والأعمال ، فتظهر عواطف البغض والحسد والحقد والاشفاق والحلم والكبرياء والأنانية والغضب والرياء والجود والوداعة والحب ، وتلك العواطف لها آثار كما آثار العقاقير الطبية فتكون مهيجة أو مسكنة أو قابضة أو ملينة أو نافذة أو مقوية أو مخدرة أو منومة أو سامة أو شافية . وبالجملة تكون السوائل على عدد العواطف والنضائل والذائل البشرية ، ويكون اختلافها كالخلاف خضرة النبات ، أو كاختلاف روائحه أو صورته وما شاكل ذلك اه

ذلك ملخص ما تقوله الأرواح وعلماء الأرواح ، أفليس هذا يشرح قوله تعالى : « اقرأ كتابك الخ » ، وقوله : « إنا كنا ننسخ ما كنتم تعملون » .

فانظر الفرق بين نسخنا ونسخ الله ، نحن ننسخ الحروف ، ولكن الله ينسخ ما هو أجل . من الحروف ينسخ نفس الأعمال ، يرسم صورها ، يجعلها ظاهرة فينا واضحة ، فيبدل (ح س د) في معنى الحسد ، وبدل (ح ب) في حب يرسم صورة الحب وضاعة مشرقة بهجة ، وصورة الحسد معتمة قابضة ، يراها الناس فيفرحون بالحب ويشتمون من الحسد والبغض ، هذا هو نفس قوله تعالى : « كفى بنفسك اليوم عليك

حسبياً ، ففسحة الانسان إذن نفسه فيها صور أعماله واضحة لآحروف مكتوبة ، بل أعمال مرسومة واضحة ظاهرة ، وهذا هو كتاب الله الذي يكتبه في أرواحنا ، وهذا عينه من قوله تعالى : « وقل الحمد لله سبريكم آياته فتعرفونها » وهذا بعينه هو قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » . وإنما يظهره لأن الكشف الحديث فسر القرآن ، تلك من أجل مجازات القرآن والحمد لله رب العالمين . انتهى الكلام على الطيفة الخامسة . كتب يوم ٤ مايو سنة ١٩٢٥ م

الطيفة السادسة

في قوله تعالى : فله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين * وله الكبرياء
في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم

نقحة في صلاة العصر

يوم الأربعاء ٣٠ رمضان سنة ١٣٤٩ هجرية

في هذه الآية أربعة أمور

(١) ان الله يربى عوالم السموات والأرض ، ويربى العوالم التي فيهما

(٢) وله الكبرياء فيهما

(٣) وهو غالب لهما ولما فيهما

(٤) وهو مع هذه التريية له الكبرياء والقهر ، وهو حكيم في أعماله

إن التريية لامندوحة لها عن العلم بما تستدعيه حال من وجهت التريية لهم ، وقصد المرابي تكميلهم ولا بد من الحكمة في الاعطاء والمنع لئتم مقصود التريية ، وهذه المعاني في الاسم (رب) والاسم الحكيم ثم إن الله مع علمه وحكمته وترييته لما خلق لبس شرعة لكل وارد ولا يرد عليه إلا الواحد بعد الواحد ، فهو منبع الجناب ، رفيع الدرجات ، مترفع عن كل المخلوقات ، فناهت عظمته ، وعظمت منته ، وهذا معنى « وله الكبرياء الخ » وهذا الكبرياء وهذه العظمة بحق ، لأنه عزيز مرهوب الجانب غالب

واعلم أن هذه المعاني وأشاطها تتضمنها الصلاة ، سبحانه اللهم وبمحمدك ، أنت الحكيم العظيم ، خلقت الانسان وجعلته في الأرض ، وأحطته بالنجوم والشموس والأقمار ، وأظهرت حكمته وبدائع صنعك في خلقه وتريية جثمانه وعقله ، وأعميته وغشيت على عقله فلا يراها وهو يراها ولا يعلمها وهو يحس بها ، وشغلته بحاجات نفسه ، ومكاوحة بني جنسه ، ولكنك مع ذلك فتحت له الباب في الصلاة

الانسان يرى العظمة في الكواكب والشموس ، ويرى الجمال في الأنوار والصور والحسان التي لا يمكن أن يعرفها إلا بإشراق هذا النور عليها ، فههنا عظمة وههنا جمال والانسان يحار بينهما ، تارة يلحظ العظمة كما يرى في عظمة السموات ، وتارة يلحظ الجمال كما يرى في الأضواء والزرورع والأنهار والأزهار ، وتارة يلحظ العناية والحكمة معا كما في ابداع خلق الأعضاء والأعين والآذان والأعصاب وقوى الدماغ ، فإذا رفع رأسه وقال : « ربنا لك الحمد ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شيء بعد » فههنا يلحظ المصلى العظمة والكبرياء في السموات والأرض ، وإذا ركع فسيح لربه العظيم وقال : « اللهم لك ركعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصي وما استقلت به قدمي لله رب العالمين » ، وهكذا اذا سجد وسبح لربه الأعلى وأخذ يقول : « سجد وجهي للذي خلقه وصوره وخلق سمعه وبصره » وختم القول بهذه الجملة : « تبارك الله أحسن الخالقين » فهو في هذين المقامين

يلحظ الحكمة واحكام الصنعة ودقتها والعناية ، ففي الرفع والاعتدال تظهر للمصلي العظمة وفي الركوع والسجود يلحظ احكام الصنعة وجمال الوضع المؤدى للحب والفرام والقيام ، فهنا تربية تصحبها راحة تؤيدها حكمة ، تحيط بها عناية ، فهذه موجبات الحب ، والحب أعلى درجات السعادة ، وهذه المعاني هي مبادئ سرّ قوله ﷺ : « جعلت قرّة عيني في الصلاة » ، ففي الصلاة ملاحظة الكبرياء العاتمة والعظمة والترية والرحمة والحكمة . كل ذلك في خلق الأعضاء التي يذكرها المصلي في ركوعه وسجوده ، وهل قرّة أعين العقول الكبيرة في هذا الانسان إلا أن تحب وتعشق ، والعشق والحب إنما يكون لمن كملت أوصافه من جمال وعلم وعظمة وحكمة وابداع في الصنع ورحمة لهذا المحب ولغيره من كل من يتصف بالحياة . كل ذلك يقوله المسلون في صلواتهم والنبى ﷺ يلحظ معانيها ويتقد فؤاده بنارالحب ، وأكثر الناس لا يلحظون هذه المعاني .

(١) لا ظهور لهجة الحدائق والبساتين والزرور والأنهار ، ولا للوجوه الجيلة إلا بالأنوار الكوكبية ، أو ماضعه الانسان من الأنوار مشاكلة لها عند فقدها كالشمع والبترول ، اذا لم يكن نور فلاعلم لنا بالجمال ، إذن الشمس سبب في وجود كل جيل ، وسبب في ظهوره ، فالحرارة والضوء معا تعاونا على ظهوره هذه المخلوقات ، والضوء وحده سبب لظهورالجمال .

(٢) فاذا كانت هذه حال الشمس مع كل مخلوق فلنقل هكذا في نفس الكواكب والشموس ، إن هي إلا آثار الذات المقدسة الغائبة عنا ، فكما كانت الشمس سببا لخلق النوات الجيلة وغيرها وسببا في ظهورها ، هكذا الذات العلية المقدسة سبب في خلق نفس الشموس ، وسبب في ظهورها لنا ولغيرنا على سبيل قياس التمثيل .

(٣) واذا رأينا أن الذات الجيلة من نوع الانسان مصدرها وجودا وظهورا الشمس ، فهكذا تقول : الشمس مصدرها وجودا وظهورا الذات القدسية .

(٤) واذا ثبت أن كل جيل في أرضنا مشتق من الشمس وجودا وظهورا والشمس عن الذات القدسية وجودا وظهورا ، فليكن هذا الجمال الذي يدهشنا في أرضنا أو نعلمه في الكواكب وأضوائها أثرا من آثار ذلك الجمال المقدس ، إذن قرّة عينه ﷺ في الاستغراق في ذلك الجمال ، فاذا تفكر في الرفع والاعتدال في السموات والأرض وفي الركوع والسجود في خلق الأعضاء فهنا ترجع نفسه من الأثر العظيم والأثر الجليل الى مصدرهما وتكون العظمة ويكون الجمال هناك .

وأضرب لك مثلا أيها النكي : نرى الصانع المتقن لصنعه وقد أبدع وملاً البلاد والعباد بضاعة ونقشها ورقنشا ، وأعجبت الخاص والعام ، فمّ جاءت هذه الصناعة ؟ انها لو لم تستقر في أعماق نفسه لم تظهر في الحشب والحديد والذهب ، لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، ولذلك نجد الناس يتوقون لرؤية هذا الصانع ، ومتى وجدوه أخذوا يلتفون حوله ، ويجيبون به ، ويسرّهم منظره وكلامه ، وينسون تلك الصنعة ، وهذا شأن الناس جميعا مع العلماء والحكماء ، فهم بهم مغرمون ، فالصانع أفضل من صناعته ، إن الحكمة والابتداع والعلم المغروسة في قلب الصانع وعقله هي هولأن العلم هو نفس العالم ، والمصنوعات المتقنت له تسوق الناس لحيه وتشوقهم لمناظره ، وإنما أحبوه وأغرموا به لأنهم لما رأوا الصنعة أدركوا أن روحه نفسها فيها الكمال والجمال والحكمة التي تجلت وظهرت في المادة التي أمامهم من باب أوشباك أو كرسى وإنما يتركون الصنعة ويسعون لمشاهدة الصانع وحيه لأنهم يعلمون أن روحه أكمل وأعظم من صنعه ، وهذه الروح الكاملة تقدر أن تصنع آلافا وآلافا من هذا مع أن الانسان باعتبار صورته الشخصية ليس فيه شيء من ذلك ولكن ذلك كله راجع لروحه . ان العالم كله عند المصلي من عظمة السموات والأرض في حال الذكر عند الرفع

والاعتدال ، ومن احكام صنع الأعضاء والرحمة في حال الركوع والسجود ، ما هو إلا امرأة صقيلة يلحظها المصلي ويرى فيها (الذات القدسية) رؤية قلبية ، فهناك تقرّ عينه بذلك الجمال وينشرح صدره ، وهذه المبادئ هي التي يتجلى آلاف أضعافها للأنبياء عليهم الصلاة والسلام عند المناجاة لاسيما نبينا ﷺ .

هذا بعض معنى : « وجعلت قرّة عيني في الصلاة » وهناك يلحظ أن كل حب ورحمة في انسان أو حيوان في العوالم كلها ماهي إلا آثار من ذلك الحب والرحمة ، ولا جرم أن ذلك يستغرق قلب من أفيضت عليه هذه المعاني مرة واحدة ، بل لن يتحمل توارده هذه المعاني على قلبه إلا نادرا في نوع الانسان . ومن رحمة الله على أكثر نوع الانسان أنهم لا ينالون هذه النعمة لأنها تمزق أفئدتهم بهجومها مرة واحدة ولا يقوى عليها إلا مثل من يقول : « وجعلت قرّة عيني في الصلاة » انتهى الساعة الواحدة بعد نصف ليلة الثلاثاء ٢٤ فبراير سنة ١٩٣١ م

نور النبوة وبهجة العلم

في الحديث المتقدم : « وجعلت قرّة عيني الخ »

حيا الله العلم والحكمة ، اللهم إنا نحمدك ونشكرك على ما أنعمت وتجلت بالعلم والحكمة ، سبحانك اللهم وبحمدك ، إنك خلقت جيع ما أحاط به العلم ، وما أحاط به علمك هذه الأرض وما عليها ، وقد اتضح في الكشف الحديث وتقدم في هذا التفسير كثيرا أن الأرض اذا صغرت فرضا فأصبحت جوهرها فردا وصغرت العوالم المعروفة كلها على نخطها أصبحت كل العوالم المعروفة ألف مليون أرض كأرضنا المعروفة لنا الآن ، إذن أرضنا أشبه بالعدم ، فاذا يكون شأننا نحن بني آدم عليها ، واذا كنا نكمن ما يشبه العدم المحض ، فهل في خطة الانصاف والعدل أن نوازن أنفسنا بمن يسكنون العوالم التي هي أكبر من أرضنا ، وهل من العقل أن يقول هذا الانسان (المسكين الذي يعيش فوق ذرّة منبوذة في العراء لاهي في العبر ولا في التفير واذا قيست بالعوالم لم تكن إلا هباء ودون الهباء)

أني في العلم كمن يسكنون نفس الشمس (اذا كانت مسكونة بعض أجزائها) وهي أكبر من أرضنا مليوناً ونحو ذلك مليون أو كمن يسكنون بعض كواكب الجوزاء ، وهناك كوكب منها أكبر من شمسنا ٢٥ مليون مرة (وضوء شمسنا بالنسبة لضوئه كضوء الحياض بالنسبة لضوء الشمس) إذن لا يوضح حال هذا الانسان إلا قوله تعالى : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »

أما بعد فإن الله الذي هذه نموذج مخلوقاته لفرط جماله وعلمه ورحمته أراد أن يظهر آثار علمه وجماله ورحمته لكل عالم من العوالم على حسب استعداده ، ومن الرحمة أن لا يعطى الأدنى علم الأعلى ، كما لا يعطى الجنين غذاء الشاب والكهل والامات ، فلو أن بني آدم على الأرض أعطوا العلم التام لذابت مهجهم ولتقطعت أفئدتهم وهلكوا في أقرب من لمح البصر ، بهذه البراهين يتحقق العقلاء بعض أسرار هذه الدنيا (وبيانها) أن تاريخ هذا الانسان مشحون بالأصنام وعبادتها والأوثان والتقرّب إليها ، وعبادة الحيوان والأشجار والنار والأنهار والأحجار والصالحين وقبورهم . هذا من ناحية الانسان العقلية إذ أخذ يتلمس السبيل لمعرفة خالقه وهو لا يزال غارقا في بحور الأحوال الحيوانية ، فلم يجد سبيلا لمخرجه منها إلا بتلمس تلك السبيل بما يوتى عقله ويوافق ضعفه كما تدرّ البقرة اللبن اذا رأت صورة ولدها أمامها ، فكما أن البقرة والجاموسة لاندريان اللبن إلا اذا رأتا صورة ولدهما التي لاروح فيها . هكذا هذا الانسان في أول تلمسه للخروج من حال الحيوانية الى حال الانسانية لا تظهر فيه مبادئ الأحوال الشريفة من أخلاق وعبادات إلا اذا رأى ما يمثّل خالقه تمثيلا لانسبة بينه وبين الحقيقة إلا كنسبة جلد ولد البقرة الميت الى حقيقته الغائبة عنها

هذه حال الانسان من حيث مباحثه العقلية ، فأما حاله من حيث نظره لظواهر الجبال فان الله عز وجل علم ضعفه وأنه لن يرى ربه إلا في حال أخرى ، إذ لا نسبة بين المخلوقات والخالق ، ففعل معه في الجبال ما فعله في العلم والعبادة ، فحجبه عن شهود ذاته ، وخلق له الصور الجلية في الأرض ، وشغل الذكور بالاناث وبالعكس وجعل ذلك سلبا لتكاثر النسل ، وجعل العيون والأبصار سلام لنظر السموات والهجائب ، ومن هناك ترتقى العقول الى جبال خالقها بالبصائر لا بالأبصار

عظم الله في علمه ورحمته ، وتزول الناس أيام وحشيتهم الى عبادة الأصنام ، وأيام قهقر عقولهم في دياناتهم الى التقرب بالنذور للمصلحين ، وعظم وكل في جباله فأشرق نوره على الشمس والأقمار والكواكب ، ثم على الوجوه الحسان ، فكان ذلك خيرا به انتظم أمر المعاش بالمودة والذرية في حال الحيوانية ، إذن نسبة حال الجلد المنفوخ لابن البقرة والجاموسة الى حال نفس ابن البقرة الحى كنسبة حال الأصنام بالنسبة لصانع العالم ، وكنسبة جبال الوجوه الحسان من نوع الانسان الى مبدع العالم وجباله .

قصة الخليل عليه السلام وقصة سيدنا محمد ﷺ

إذا علمت هذا فاعجب من قصة الخليل وقصة النبي ﷺ ، الخليل كسر الأصنام كما في آية الأنعام ، ثم أخذ يدرس النجوم والقمر والشمس وانتهى الى الله .

الله أكبر : أفلا تعجب مني إذ ترى أن هذه القصة هي قصة الانسانية ، عبادة أصنام وأحجار ثم ارتقاء الى النظر في العالم العلوي ، ثم الوصول لله وهل هذا العالم كله إلا أرض وعوالم علوية ؟ ثم خالقها ، ثم انظر الى أمر الحواس الخمس كالسمع والبصر والشم ، فهذه بها تفرق بين الجليل وغير الجليل من الأصوات والألوان والطيب والخبيث من الروائح ، ثم ترتقى نظرات العيون الى العوالم العلوية من شمس وقمر الخ فتعرف الحكمة وتقف على النظام الكامل ثم تصل الى الله ، إذن هنا نهاية واحدة وهي الذات القدسية ، وهنا مبدآن : مبدأ من جهة التبعيد ، ومبدأ من جهة الشهوات الظاهرة ، وهذان المبدآن بعدهما العلوم ثم الوصول . فاذا كان أكثر نوع الانسان عا كفا على عبادة الأصنام وما تحا نحوها ، فان قصة الخليل أبانت الدرجتين الآخرين للانسان : درجة العلوم ، ودرجة الوصول ، وإذا كان أكثر هؤلاء الناس غارقين في الشهوات لا يجيدون منها مخرجا ، ظانين أن هذه اللذات المحسوسة ليس وراءها لذات أخرى ، فها هو ذا رسول الله ﷺ يقول : « أيها الناس : ها أنا ذا أحب الطيب ، وأحب النساء ، وكما كسر الخليل الأصنام ودرس الكواكب ووصل الى الله ، فما أنا ذا كسرت الأصنام بمكة وعبدت الله وحده ، وهكذا انتقلت من لذة النساء المحسوسة الى لذة القرب المعقولة » وجعلت قرّة عيني في الصلاة » لأنني فيها وصلت لدرجة الثالثة ، إن العلوم أفيضت على بالوحى فليست في حاجة الى دراسة فلسفية ، فأما أنتم فعليكم أن تنظروا ما حولكم من العوالم ، وبالعلم تصلون الى الله تعالى كما فعل الخليل في نظام سيره ليبين لكم ، وبالجملة فعكوف الناس على عبادة المحسوسات وحوز المشتهيات أمر عام ، والليل مثل خروجهم من الحال الأولى ، والنبي ﷺ مثل لهم الحال الثانية ، وكل ذلك بسر : « وله الكبرياء في السموات والأرض » ، فلولا تكبره لعلم عظمته جيع الجهال فلم يعبدوا الأصنام ولا القبور ، ولطام بجماله كل امرئ في هذه الأرض ، ولم يعشق أحد الصنفين الآخر ، ولكنه مع هذا الكبرياء والعزة حكيم ، فاتخذ من هذا الضعف الانساني حكمة ، ذلك أنه جعل غرام أحد الصنفين بالآخر سببا للحياة وللتناسل وان كانا محجوبين عنه تعالى كما جعل فضلات الحيوان سببا لظهور نبات آخر نافع للحيوان . هذا ما عتق لي هذه الليلة أثبتته هنا والحمد لله رب العالمين . كتب الساعة الثانية بعد نصف الليل صباح يوم الأربعاء ٢٥ فبراير سنة ١٩٣١ م

جوهرة النفحة المتقدمة

في آية : فله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين * وله الكبرياء في السموات

والأرض وهو العزيز الحكيم

(١) الله مهربي العوالم (٢) متكبر عزيز (٣) وهو حكيم ، فهنا تربية ، وكبرياء مع عزّة ، وحكمة فلتنظر آثار هذه الصفات :

(أولاً) في نظام الأغذية في الأرض .

(ثانياً) في نظام الآثار العلوية من خلق الجبال والتلال والبراكين وإحداث الزلازل والخسوف ، وهناك

نظم الكبرياء والعزّة المسحوبتين بالحكمة في التربية

(ثالثاً) في تعليم الأنبياء والإحياء اليهم أو تكليمهم الخ .

(رابعاً) في تربية النشء ، وكيف كانت تعاليم الأمم للنشء ، كلما كانت أرقى كانت أقرب الى النظام

الأمم وكلما كانت أدنى وأخس كانت أبعد منه .

(خامساً) في أمر الأمم من حيث سياستها . وانه عزّ وجلّ يفعل معها في السياسة المدنية ما يفعله مع

الناس في عوالمه الطبيعية سواء بسواء . فإذا كان من الأغذية ما يضرّهم فهم المسؤولون عن

ذلك الضرر الحاصل لهم لأن لهم عقولاً توجب عليهم الاستنتاج والبحث . فإذا أتاها فهم

المسؤولون . هكذا في السياسة . فإذا حكمهم ملوك عادلون مم قام أبناء أبنائهم الذين هم غالباً

يكونون فاسقين جهلاء غير مجزيين . فالأمم هي المسؤولة عن أعمال أمورهم وتسليمهم الزمام

لغيرهم فأين الشورى وأين العقول إذن ؟ « وقفوههم انهم مسؤولون مالكم لاتناصرون »

(سادساً) في نظام (دالتون) في التربية والتعليم .

فلنشرح هذه الفصول الستة تذكرة للمسلمين وهاك بيانها :

الفصل الأول في الكلام على نظام الأغذية

اللهم إني أشكرك وأشكرك ، وأعترف بهجزي وقصوري كما أعترف بنعمتك عليّ وعلى اخواني قراء هذا

التفسير وعلى سائر المسلمين ، لولا فضلك وانعامك وإلهامك وتوفيقك ما كتبت حرفاً واحداً .

اللهم انك برحمتك وحكمتك شرحت صدرى لما أكتبه الآن . فأقول أولاً لأقدم مقدّمة فأقول :

لقد احتجبت أنوارك وعلمك وجمالك وحكمتك وبهاؤك عن عقول خلقك ، فأنت ذوالكبرياء وذوالعزّة

والحكمة والجمال ، ولكنك برحمتك أريتهم آثار تلك الصفات من وراء حجاب ، فهذه العقول الانسانية

الشريفة ، ومزايها العلية المنيفة ، وغرائز الحيوان اللطيفة ، وعطف الأمتها على ذريّتها ، وحب الأساندة

لتلاميذهم ، وغرام أحد الصنفين بالآخر ، كل ذلك آثار تلك الصفات العالية ، ظهرت من وراء حجب السموات

والأرضين وما بينهما ، وأقرب مثل مضروب لتلك الماء المحيط بالكرة الأرضية ، فهو الجزء المهمّ في جسم كل

إنسان وحيوان ونبات ، ولا يتخلو حيّ من هذه الأحياء من قطرات من الماء ، فان كانت في الحيوان سميت

عرقاً تبرز منه ، وان كانت في النبات سميت ندى (وهذا تقدم شرحه في هذا التفسير) أى ان الندى لم

ينزل من السماء . كلا . بل هو قطرات بارزات من نفس النبات كالعرق بالنسبة للحيوان ، وتكون صفات

ذلك الندى من حيث الرائحة والطعم تابعة لصفات ذلك النبات كما أن العرق تكون رائحته ومزاجه وطعمه

على مقتضى مزاج الانسان والحيوان الذى ظهر منه ذلك العرق ، ومائبة عرق الحيوان وندى النبات الى

الماء المحيط بالأرض وما فوقه من البخار والسحب والتلويح المترامية فوق الجبال إلا نسبة ضئيلة ، فكما أن هذا العرق وذلك الندى أمر ضئيل بالنسبة للبحر المحيط بالأرض ، هكذا علمنا وحكمتنا والرحمات التي في قلوبنا ، والجمال الذي زاه في وجوه الفتيان والفتيات ، والصور البديعة في كل نبات وحيوان وأحجار كريمة والحب والغرام اللذين بهما عاش الناس وانتظمت الأسرات كلها ضئيلة بالنسبة لعلم الله ورحمته وجماله وحكمته كلها ، وما عندنا منها إلا آثار ضئيلة كضالة الندى والعرق بالنسبة للماء المحيط بالكرة الأرضية وقد تنوعت آثار تلك الصفات فينا كما تنوع الندى فكان متصفا بصفات النبات الذي برز منه من رائحة وطعم طيب وردى . وكما تنوع العرق بحسب الأخلط التي في الجسم الذي قام به العرق ، الماء واحد اختلفت آثاره باختلاف ما دخل فيه وتخلله من كل نبات وحيوان ، ولقد أدهشني والله ما عرفته من نفسي أنا ، ذلك أتى لم أترك اللحم إلا منذ عشرين سنين ، ولكن هذا الترك كان جزئيا لا كليا ، ذلك أتى كنت آكل الخضراوات المطبوخة بمرقة اللحم ، فهذه فيها شوائب اللحم ، فأما منذ سنتين اثنتين ، فأتى اقتصرت من الطعام غالبا على الخضراوات نيئة في الأكثر ، أو مطبوخة في النادر ، ونبذت ما يطبخ باللحم ، واقتصرت من الدم على الزيت الطيب ، ومن الخبز على ما كان غير منخول ، وأكثر من الفاكهة إلى آخر ما أوصلته في مقام آخر ، أفليس من عجب أتى قبل هاتين السنتين كان يكثر عرقى وهو مصحوب برائحة غير مقبولة ، وذلك يقل ويكثر حسب الأخلط ، وكان الاستحمام يزيل تلك الروائح ، فأما الآن فإن العرق أصبح قليلا جدا ، وربما أسير في الحر ساعات ولا أحس بعرق ما إلا قليلا ، وإذا ظهر منه قليل لم تصحبه تلك الرائحة ولا جزء منها ، أفليست هذه الحادثة الجزئية تكون نبراسا لهذا الموضوع كله ، فهنا عرق انصف بوصفين متضادين تبعا لأحوال الأخلط في جسمي أنا ، وهذا العرق في جسمي قطرات قليلة بالنسبة للماء المحيط بالكرة الأرضية ، فإذا رجعنا إلى ماسقنا الكلام لأجله ، وهي رجة الله وحكمته وعلمه اللاتي من آثارها كانت لنا صفات سميناها باسمها فقلنا فلان رجب أو حكيم الخ كما اختلف الندى والعرق من حيث طيب الروائح وخبثها بحسب المزاج طيبا وخبثا ، وهذه الصفات أيضا ضئيلة بالنسبة لصفات الله كضالة قطرات الندى والعرق بالنسبة للماء المحيط بالأرض ، ومن هنا لاتجيب من وسوسة الشياطين لبني آدم ، وكيف نجب ونحن نشاهد أن أمزجة النبات والحيوان لها آثار في انصاف الندى والعرق بصفات تلك الأمزجة النباتية والحيوانية ، فتكون طعومه وروائحها على مقتضى ما انصف به ذلك النبات والحيوان ، فإذا ألقينا الماء المحيط بالكرة الأرضية ينقلب في الحنظل مرًا مثله فليس بجيب إذا ألقينا النور الشريف البهيج في عقولنا وعواطفنا والشجاعة ينقلبان في النفوس الحسبية مكررا وخبثا وحقدا وحسدا وعداوة وانقيادا للشيطان الرجيم .

وخلاصة هذه المقدمة أن علمنا وصفاتنا الشريفة آثار صفات الله تعالى ، وهي بالنسبة لها كقطرات بالنسبة للبحر وهي تتلون فينا بحسب استعدادنا

انظرفيا تقدم في (سورة الكهف) في قصة الخضر وموسى عليهما السلام ، وما ورد في الصحيح مامعناه : « ما قص علمي وعلمك من علم الله إلا كما قص هذا الطائر بما أخذ بمنقاره من البحر » فته الكبرياء في السموات والأرض ، وله العزة ، ولكنه من جهة أخرى مهبط وحكيم ، التربية يعوزها الحكمة ، والكبرياء والعزة سياج لها . ما من عاقل يشعر بأن له ربا إلا وهو يجب أن يراه ، ولكن الله يقول : كلا . أنت ضعيف ، وإذا رأيتني صعقت ، ها هوذا موسى خرّ صعقا ، والجبل صارد كما لما تجليت له ، وكفأ كم أتى أريتمكم ما عملته عقولكم من آثار صفاتي ، فترون جلالا في الوجوه ، ورحمة في القلوب ، وعلمنا وحكمته ولكنها قليلة جدا : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

كبرياء الله جيلة محبوبة لأنها رجة لعباده ، انه لم يحجبنا عن رؤية ذاته وصفاته بكبريائه إلا لرحمتنا لأننا

ضعفاء ، ومن هنا نفهم معنى قوله تعالى : « وهو العزيز الحكيم » فجزنا عن مشاهدة ذاته وصفاته حاصل بمقتضى صفى الكبرياء والعزة ، واجترأنا برؤية هذه الآثار الضئيلة حاصل بمقتضى الحكمة والترية ، وبهذا تم الكلام على المقدمة التى بها عرفنا ضرب مثل لكبرياء الله فى السموات والأرض ، إذن فلنبداً بالكلام على ما أردناه فى الفصل الأول من الكلام على الأغذية .

بث الله فى الأرض النبات ، وبث الحيوان والانسان ، وأعطى الحيوان غريزة ، وغرس فى الانسان كما غرس فى الحيوان شهوات وأحوالا ، فأما الحيوان فعاش بغريزته ، وأما الانسان فإنه تقلب فى صفى الغريزة والاختيار فظهرت أمامه الأغذية فعرّفها بحواسه ، ولكنها مملوءة بالأسرار المحجبات عنه ، وإنما حجبتها عنه لأمرين كبرياته وحكمته ، ولولا هذه الكبرياء لم يمكن تربية الانسان بالحكمة والعلم ، إذ الحكمة لا تكون إلا بعد الطلب ، ولا طلب إلا بعد الشوق ، ولا شوق إلا عند الحاجة ، ولا حاجة إلا لطلب منفعة أو دفع مضرة ولو أن كل نبات ، وكل حيوان ظهرت فوائدها للناس بلا طلب ولا نصب لم يحشموا أنفسهم النصب فى معرفة تلك الفوائد ، بل ظلّ الناس خاملين أمد الحياة وكانوا أشبه بالسواب فى مرعاها .

فإذا رأينا هذه الأغذية الموزعة على الأرض ، والمنافع التى خبئت فيها والمضارّ حجبت عن نوع الانسان فذلك من كبرياء الله وعزته أولاً ، ومن حكمته فى تربيته للناس ثانياً ، ولو أن الأشجار وأنواع النبات فعلت مع الناس ما فعلته مع سليمان عليه السلام (كما جاء فى الأساطير القديمة) إذ نجّره الأشجار والنباتات بما فيها من الفوائد والمنزاي والمنافع لكان هذا الانسان حيواناً جديداً أدرج فى قوائم الحيوان البالغات نحو (٥٠٠) ألف نوع أو أكثر ، إذن صمت هذه الأشجار ، وهذه النباتات ، وهذه الأحجار ، وعدم نطقها لنا بما استكن فيها ، وعدم ظهور منافعها لنا من أجل الحكيم فى تربيتنا ، وتلك الكبرياء محجودة . اللهم لك الحمد إذ أفهمتنا معنى : « فله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين » وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » وبهذا تمّ الفصل الأول .

الفصل الثانى فى نظام الآثار العلوية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله رب العالمين « أما بعد » فقد عرفت أيها التكى ما كان من كبرياء الله فى أمر النبات ، وكيف كانت الكبرياء والعزة مصحوبتين بالترية القائمة على الحكمة . أفلا تجب معى أن يكون ما فعله معنا فى الأغذية هو نفسه الذى فعله فى أمر الآثار العلوية ، وأظهار الجبال والبراكين والحلم والزلزال ، ذلك أن هذه الأرض لم تكن إلا كرة نارياً كما هو الرأى السائد الآن ، وهذه الكرة أخذت تبرد من ظاهرها شيئاً فشيئاً كما ترى الفحمة المتقدة فإنها تبرد شيئاً فشيئاً ، ولكن باطنها لا يزال متقدداً ، وهذا الرأى وإن كان ظنياً قد أبداه عمال المناجم : ان نصف قطر الأرض نحو أربعة آلاف ميل ، وعمق المنجم قد يصل الى ميل واحد ، والحرارة ترتفع كلما ازداد العمق ، وقد يشتدّ الحرّ على عمال المناجم فلا يطيقونه ، ولا جرم أن زيادة الحرارة بزيادة العمق توصلنا الى أن فى باطن الأرض طبقات درجة حرارتها تذيب الصخور والمعادن ، وما يدل على ذلك الينابيع الحارة التى درجة حرارتها بعضها ١٩٠ درجة وتظهرها على سطح الأرض . إذا علمت هذا فانظر فى أمر الجبال والبراكين والزلزال ، إن الذى ينزل من قاع المحيطات وغيرها الى الطبقات الحارة من باطن الأرض يتحوّل حلالاً الى بخار ، وهذا البخار أخفّ من الهواء ، فهو يحاول الخروج الى مقرّه فى الجوّ ، فإذا يصنع إذن هو وماءه من الغازات المسكونة من المواد المصهورة ؟ فتارة تندفع فلتجبد لها منفذاً ، فيتهزّ سطح الأرض اهتزازاً على مقدار ذلك الضغط ، وهذا هو الزلزال الذى يهدّد المدن ويحجرّ بسببه

الجال هذا ، واذا اشتد هذا الاهتزاز وكانت هناك مواد مصهورة في باطن الأرض كثيرة وحاولت الخروج وطارتها قشرة الأرض ، فهناك يكون البركان ، واذا ثار البركان سمعنا طقطقة في الجو وفي باطن الأرض وأصواتا كالرعد ، وهناك تتطاير كتل الصخور العظيمة ، وألسنة اللهب ، وتهلح النفوس .

وقد يعقب الزلزلة خسف ، فانه اذا اشتد الضغط في باطن الارض يمينا وشمالا ولم ينفذ السائل والغازات الى الجوف فقد تنهار في الفجوات الواسعة في باطن الأرض طبقة من سطحها فتهدى سريعا ويتلها جوف الأرض ، وهذه الفجوة تارة يغمرها الماء ، وتارة لا ، وهذا هو الخسف . وبهذا عرفنا البراكين والزلازل والخسف .

ومن تأمل ما حصل في بركان (ديبلي) سنة ١٩٠٢ الذي ارتفع الى (٤٤٠٠) قدم واقدر رأسه ثم تكوّن له رأس آخر ارتفاعه (٥٠٧٠) قدما ، وكان الى آخر يونيو سنة ١٩٠٣ لا يزال أخذ في الارتفاع ، ويقال انه ارتفع ٢١ قدما في أربعة أيام ، وهذا الرأس الجديد كان قما مصهورة ذاتية مم تماسكت فصارت جسما صلبا .

أقول : من تأمل ما حصل في هذا البركان أدرك كيف تكوّنت أكثر جبال الأرض ، فأكثر ما تكون منها على هذا الاسلوب . إن الله عز وجل هو الذي خلق الجبال والخسف والزلازل والبراكين ، والخسف والزلزلة والبركان كلها مهلكات مدمرات . فانظر كيف :

(١) زلزلت اسبانيا (سنة ١٨٨٤) فتخرّب من غرناطة سبعة آلاف منزل ، ومات فيها أكثر من ٢٠٠٠ نفس .

(٢) وكيف زلزلت اليابان (سنة ١٨٩١) فتخرّب فيها أكثر من ٤٠٠٠ منزل ، ومات أكثر من ٨٠٠٠ نفس .

(٣) وفي سنة ١٨٩٥ طغى الماء بسبب الزلزلة على بعض البلاد باليابان فأغرق آلافا من أهلها .

(٤) وفي سنة ١٩٠٢ زلزلت كشمير من تركستان فمات نحو ثلاثة آلاف نفس .

(٥) وفي سنة ١٩٠٨ زلزل مضيق (مسينا) بإيطاليا فألقه ، وخرّب مدينتي مسينا بصقلية ورجيو بإيطاليا ، ومات بسببها آلاف من الناس كآبقي منهم آلاف بلا مأوى .

(٦) واضمحج بركان في جزيرة (كركتوا) بالقرب من جاوه بينها وبين سومطره ، فقطعها إربا ، ولم يبق منها إلا قسم صغير .

(٧) وثار بركان (ويزوف) بإيطاليا سنة ٧٩ ق.م ففطى مدينتي (بمبي) و(هركولانيوم)

هذه بعض أفعال الزلازل والبراكين ، وقد تقدم أكثر من هذا في ﴿سورة آل عمران﴾ وفي مواضع أخرى من هذا التفسير ، ولكن سقنا هذه الحوادث هنا لنبين كبرياء الله وعزّته المصحو بتين بحكمته وتريته ، هذا فعل البراكين وهذا تخريبها وتدميرها وإهلاكها للناس وللحيوان وللدن . كل ذلك لكبرياء الله عز وجل هو يفعل ذلك مع الأحياء ولا يبين لهم سرّ ما فعل ويقول : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » ويقول : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ، ويقول أنبياءه : « إن علم الناس أشبه بما أخذه منقار الطائر من ماء البحر » . يفعل الله ذلك كما فعل في الأغذية في الفصل السابق ، حجب أسرارها وأعطى الناس عقولا وقال ادرسوا ولم يزد في الوحي السماوي عن القول الاجمالي ، وكما درس الناس منافع النبات والحيوان بعقولهم فاتفعوا بقدر ما عرفوا ، هكذا درسوا فوائد تلك البراكين وغيرها بعقولهم فأروا عجبا رأوا :

﴿أولاً﴾ إن جماعة من الامريقيين اشتروا بركانا في بلاد المكسيك بليون من الجنيهات ليستخرجوا

الكبريت الراسب حول قنته

(ثانيا) رأوا أن جزيرة (في أرخبيل آسوره) ارتفعت بسبب ثورة البركان سنة ١٨١١ ولم يكن لها قبل ذلك أثر ولا عين

(ثالثا) رأوا أن جزيرة أخرى ارتفعت في بوغاز (بيرنغ) بين آسيا وأمريكا بسبب البركان والزلزلة أيضا .

(رابعا) رأوا جزيرة ارتفعت في خليج بنفاله طولها ٩٢١ قدما وعرضها ٦٥١ قدما ، وارتفاعها وقت مدّ البحر ١٩ قدما . وهي والسابقة بركانيتان .

(خامسا) رأوا أنه ارتفع تلّ بالقرب من نابل سنة ١٥٣٨ يسمى (منت نوفو) .

رأى الناس ذلك ، فاذا بشعر عقلاؤهم ، إن عقلاء الناس وحكّاهم يقولون : إن البراكين في الأرض كمنخاض المرأة ، فالتاس لما اعتادوا أن يروا منخاض النساء ، وأن المرأة تقاسي الأهوال في الوضع ، وربما ماتت بسبب ذلك الوضع لم يكن ذلك عندهم غريبا ، بل نفس المرأة تفرح اذا وجدت لها طفلا بجانبها بعد هذا العذاب ، وتحمد ربها وتشكره ، ولاتبالي بهذه الأهوال ، هكذا حكّاه أهل الأرض يرون هذه البراكين والزلازل نعمة ، لأنها يعقبها ظهور جبال نافعات في حفظ الثلج فوق رؤوسها ليمدّ الأنهار والعيون طول السنة وفي حفظ المعادن في باطنها لمنفعة الانسان ، وفي أنها تجتذب السحب المسخرة بين السماء والأرض ، فتسقط أمطارها لمنفعة الحيوان والانسان ، وفي وقاية ما خلفها من هبوب الرياح الباردة تارة كما في جبال الألب وأقاليم أوروبا الجنوبية ، ومن هبوب الرياح الحارة كما في جبال اطلس ، وأقاليم مراكش ، وريف البحر من بلاد البربر ، وفي أن سفوحها تغطي بأشجار نافعة ، ومنها ذوات الفم اللذيذ النافع ، وفي أن اعتدال هوائها يلائم صحة الانسان ويعيد له صحته ، فأكثر الناس على الأرض يسمعون بالبراكين والزلازل والخسف فيكونون أحد اثنين : إما أنهم لا يشكرون وهم الأكثرون ، وإما أنهم يكونون ملحدّين وهؤلاء هم المتعلمون تعليما ناقصا فقد عرفوا المضار ، ولم يوالوا التعليم والدرس حتى يعقلوا أن الآلاف المؤتفة من المنازل ، والناس الذين هلكوا بالبركان أو الزلزلة ما هم إلا عدد يسير جدا بالنسبة لمن سيعيشون بذلك الجيل الذي نشأ بسبب البركان أو بتلك الجزيرة ، أو بتلك التربة الخصبة التي أظهرها البركان والزلزلة كما تقدم في أول (سورة سبأ) عند آية : « يعلم ما يلج في الأرض ، الح ، فاني ذكرت لك هناك أن الأرض البركانية أرقى أراضي الزراعة ، فهذه الجبال ، وهذه التلال ، وهذه الجزائر ، وهذه الأرض البركانية يعيش بها آلاف من الأمم في مئات آلاف السنين ، فأما الذين هلكوا بتلك البراكين فهم آلاف معدودة ، أو مدن محدودة ، يموت أكثر منها كل سنة بالوباء ، أو الطاعون ، أو الحما ، أو التيفوس ، فهذه أمور يسيرة في جانب سعادات لاحد لها .

فهنا انقسم الناس ثلاثة أقسام : حكّاه كمن يفهمون هذا التفسير ، وملحدون : وهم الذين يقفون في الوسط بين بين ، لاهم حكّاه ولاهم عامة ، وهم أغلب المتعلمين في الشرق والغرب الآن ، وعامة وهم أكثر من على الأرض ، والحكّاه والعامة قلوبهم في راحة ، والطبقة الوسطى يعيشون في ألم مبرح ميين ، وكبرياء الله وعزته حجب الناس ما عدا الحكّاه عن معرفة هذه الأسرار واليقان بها ، وبحكمته ربي الحكّاه فحرفوها بعد النسب والتعب ، إن ذلك خبير أساليب الترية وأنفعها لنوع الانسان ، وبهذا تم الكلام على الفصل الثاني في الآثار العلوية والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثالث في تعليم الأنبياء

والإيحاء اليهم وتكليمهم الح

وذلك قوله تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا ، وذلك كما كان يوحى اليه صلى الله عليه وسلم في أول

البعثة ، وذلك في المنام ستة أشهر « أمن وراء حجاب » وذلك لموسى عليه السلام « أو يرسل رسولا فيوحى بأذنه ما يشاء » وذلك كما كان يوحى إليه ﷺ بعد الأشهر الستة الى آخر حياته ، وقد تقدم ذلك بأكثر من هذا في (سورة الشورى) ، إنما المدهش في هذا المقام أن الله عز وجل على صراط مستقيم فهو في هذه الأحوال الثلاثة حكيم ، وفي آيتنا التي نحن بسندها ، الكبرياء والعزة في مقابلة العلو في آية الشورى ، والترية والحكمة في مقابلة الحكمة هناك .

يا الله : عجبتنا لنظامك في خلقك ، ودهشنا دهشنا أشد من نظامك في كلامك ، فأنت هنا تقول : إن الحمد مختص بالله لأنه ربي السموات والأرض وربى العالمين ، وأردفت ذلك بأن هذه الترية مصحوبة بالكبرياء والعزة والحكمة ، فبحسبنا ذلك فألفيناك وهبنا عقولا ، وغرست فينا شهوات ، وخلقت لنا أغذية . وأخذت قلب الأرض أماننا ، فتجعل فيها نيرانا خارجة من باطنها ، وتصنع لنا جبالا ، وتخسفها تارة ، وتزلزلها أخرى ، فن درس منا فقد اتفع في الدنيا ، واستقرت نفسه ، وعمرت بالحكمة . ومن لم يدرس حياته حياة حيوان ، فأشرت للدراسة بالترية والحكمة ، وللخفة بكبرياتك وعزتك ، لأنك تعرض عن الناقص الغافل ، وهكذا نراك لانكلم الأنبياء كما يكلم أحدنا الآخر ، بل كلهم تارة بالرؤيا المنامية ، وتارة بملك يلقى الوحي اليهم ، وتارة من وراء حجاب . فبالكلام بأحد الطرق الثلاث أصف بالحكمة ، وبمحصر خطابك لهم في ذلك كنت عليا ، إذن كما أن لك الكبرياء والعزة في السموات والأرض كان لك العلو على الأنبياء ، ولكن التعبير بالكبرياء والعلو في السموات والأرض غير التعبير بالعلو في مقام الأنبياء لأن الحجاب هنا رقيق جدا بخلاف العوالم ، فلهذا حجابها ذكر في جانبها الكبرياء والعزة ، وهذا المقام في غاية الدقة ومن الأسرار البديعة والعلوم المخزونة التي أراد الله اظهارها اليوم للمسلمين .

اللهم إن لك الأسماء الحسنى ، وقد جاء في كتابك : « والله الأسماء الحسنى فادعوه بها » وجاء في سورة طه « الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى » . فبالت شعري : أكان الحسن في الألفاظ وحدها . كلا . فأنه يقول : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب » ، إذن هذا الكتاب لتتذكر به لا أننا نقف عند لفظه إذ التذكر لا يكون إلا في المعنى ، إذن حسن أسماء الله من حيث معانيها ، فإذا سمعنا أنه جبار متكبر قهار قابض خافض مذل على كبير عمت منتقم ضار ، فأننا ندرسه في هذه العوالم ، فنجد البراكين وجبال النار والصحارى والقفار . كل هذه مزعجة مخيفة مهلكة ، وبراء تعالى يبيت الأحياء وهم يكون على ميتهم ، ويتلى الناس بأنواع الهموم والمصائب ، وهذه تنطبق عليها تلك الأسماء الاحدى عشرة فهو بهذه الأعمال جبار متكبر قابض منتقم الخ ، فظاهر هذه الأسماء منطبق على ظواهر البراكين والزلازل وما أشبهها ، ولكن اذا بحثنا أسرارها بالحكمة والبراهين والعلم ألفينا هذه الظواهر لها بواطن سارة فظواهرها من قبله العذاب وباطنها فيه الرحمة ، فالبراكين تقسم الكلام في أنها رحمة مشروحا شرحا كافيا ، وهكذا الموت ظاهره هلاك وباطنه حياة .

قد شاهدت أمس جنازة متوجهة الى مقبرة سيدى زين العابدين ، وأمامها موسيقى محزنة ، تضرب ضربا يحدث في النفس اتقباضا ، ماشبهتها إلا برجل يضرب آخر على ظهره فيصرخ من الألم ، والنساء باقيات في الجنازة فهذا إنما كان للجهل الذى غشى على عقول أهل الأرض لأن هذه مرتبتهم ، فهم يجهلون حال الأتقى بعد مفارقة أبدانها ، وعلمهم بها ضئيل قد أخذوه من البيانات ، وما كان من الدين فما هو إلا إيمان ، ولكن العلم واليقين فوق الإيمان ، ولكن لا يكون اليقين إلا بالجد والتشهير ، ومتى درس المسلم بقية أسماء الله الحسنى مثل : السلام المؤمن المهيم العزيز الخالق البارئ المسور الغفار الوهاب الرزاق الفتاح الباسط الرافع

المبادئ النور، وهكذا وهي نحو ٨٨ اسما، فهذه الاسماء لها معان، وتلك المعاني موزعة في القرآن ومنبثة في أكناف الطبيعة، وينضم اليها ما دخل تحت الأسماء الاحدى عشرة المتقدمة التي ظاهرها العذاب، فان البحث كالمضى تقدم يظهر لنا أن باطنها الرحمة، فالقهر الذي نراه ظاهرا في حرارة الشمس إذ تكون محرقة في حجارة القيظ والانتقام المجسم في الاسود والقهود والنمور والضباع والحيات وأنواع الحيوانات الذرية المهلكة لنوع الانسان. كل هذه من حيث ظواهرها راجعات لظواهر الأحد عشر اسما المتقدمة أول بعضها، ولكن بواطنها أنها شروط للرحمات مقدّمة لها، والمطلع على أكثر هذا التفسير وبالأقل ما ذكرناه هنا يوقن بهذه المعاني إيقانا تاما، وبهذا تم الكلام على الفصل الثالث والحمد لله رب العالمين.

الفصل الرابع في تربية النشء

وكيف كانت تعاليم الأمم كلما كانت أرق كانت أقرب الى النظام المتقدم، وكلما كانت

أدنى وأخس كانت أبعد منه

أذكرك أيها النكّي بما مرّ في ﴿سورة الزمر﴾ عند قوله تعالى: «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون»، وكيف ترى الاستاذ (كانت) الألماني قد عوّل على أن تكون عقول التلاميذ موجهة الى التفكير، وما المدرّس إلا مرشد لهم ومذكر، وبالاختصار يكون التلميذ معوّلا على جده نفسه بإرشاد المعلم، ومن عجب ماجاء في حديث البخاري الذي ذكرته في ﴿سورة السجدة﴾ عند آية «الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين» إذ ذكرت لك هناك جبال ظواهر الأشجار وجبال بواطنها وأبنت تشرح النخلة ومعرفة ما في داخلها من الأعضاء، وهذه المناسبة ذكرت حديث البخاري إذ سأل رسول الله ﷺ أصحابه عن شجرة كالرجل المسلم لا يتحاث ورقها وإذا قطع رأسها ماتت؟ فوقع الصحابة في أشجار البادية، فقال ﷺ هي النخلة، فهذه هي السنة التي درج عليها علماء أوروبا الآن بحيث يكون أكثر الفهم راجعا لنفس التلميذ، وهذه هي الخلة التي سنّها الله للناس في أغذيتهم إذ أبهم كثيرا من أسرارها، وهامم الآن وغدا كما كانوا أمس يبحثون، وكلما ازدادوا في منافع الأغذية بحثا ازدادوا شوقا، ولا آخر لما يدرسون، وهكذا في أمر الأحوال الطبيعية من البراكين والحسف والزلزلة كما تقدم، وهكذا هنا في التعليم فكما كانت الكبرياء لله في الفصول المتقدمة هكذا في فصل التربية يجب على المعلم أن يستن بالسنّة الإلهية من حيث انه يجعل تلاميذه محبّين بأنفسهم، مفكرين بعقولهم، كما فعل الله مع الناس في منافع أغذيتهم، والآثار العالوية الحاصلة في أرضهم، فهو اكتفى بأن خلق لهم عقولا، وأراهم هذه الظواهر، وشوّقهم الى أسرارها، لمنفتها تارة، وللوقوف على حقائقها، ودفع الخبرة في النظام العام تارة أخرى، ولأكتف الآن بما جاء في مجلة الشبان المسلمين تحت العنوان الآتي، وهذا نصه:

التربية الحديثة

طريقة دولتون في التربية والتعليم

ظهرت طريقة دولتون بعد سنة ١٩١٩ وهي الطريقة التي كانت تستعملها (مس هيلين باركهيرست) في مدرسة بدولتون في (مساكيتز) بالولايات المتحدة في أمريكا، ولقد ذكرت (مس باركهيرست) في محاضراتها عن طريقها الجديدة أنها ليست محدّدة تحديدا يضمن جعلها صالحة لكل مدرسة، وكل نوع من الأطفال، بل هي طريقة قابلة للتغيير والتبديل، وتتضمن آراء محدّدة معينة، فهمي في جوهرها مجموعة مبادئ وقواعد، لا مجموعة أوصاف وأوامر، فلقد أعطت المدرّس نفس الحرية التي أعطتها للتلميذ، وأعطت التلميذ

المثل الأعلى الذي أعطته للمدرّس ، وتختلف عن طريقة تعلم الطفل في منزله تحت إرشاد أحد المرين .

ماهذه الطريقة ؟

هي طريقة انتقلوا فيها من تعليم الفصل ، أو تعليم السكّل الى تعليم الفرد ، والفكرة الرئيسية في هذه الطريقة أن نحوّل حجرة الدراسة أو الفصول الى معامل كعامل الطبيعة والكيمياء بحيث توجد فيها الكتب الضرورية ، وكتب المراجعة (من قواميس ودوائر معارف وغيرها) والأدوات العلمية التي يحتاج اليها في البحث عن المادة التي يبحث عنها التلاميذ والتلميذات بحثاً عملياً في فصولهم لتساعدهم على الوصول الى ما يرغبونه من الكشف والاطلاع والتنقيب .

وفي هذه الطريقة يلقي مقدار كبير من المسؤولية على التلاميذ في مذاكرة دروس معينة في مدة محدودة مقدارها أسبوع ، أو أسبوعان ، أو شهر مثلاً ، وفي هذه المدة ترك التلاميذ للقيام بأنفسهم بأعمالهم المفروضة عليهم بحيث ينتهون من أداؤها في نهاية المدة المخصصة لهم ، ويكونون على استعداد لاختبار خاص في الدروس التي قاموا بإعدادها وتعلمها بأنفسهم بعد إرشاد أساتذتهم ، وللتلاميذ الحرية في :

- (١) أن يبتدئوا معرفة أي مادة يختارونها من المواد المعينة لهم .
- (٢) وأن يملكوا أي مدة يريدونها في فهم هذه المادة ماداموا يرغبون في ذلك ، وهذه حسنة من حسنات دولتون ، فكثيراً ما يشعر الانسان بالألم حينما يقطع عليه بدقّ الناقوس في المدرسة ، وكثيراً ما يمتنى أن يترك ولو بعض الوقت حتى ينتهي من العمل الذي في يده ، فهذه الطريقة تشجع على أن يستمرّ الانسان في عمله متى أراد الاستمرار .

أما المعلمون فيتركون التعليم ويصبرون مرشدين وناصحين وقوادا للطلبة ، بحيث يعينون ساعات خاصة في حجرة معروفة لإرشاد التلاميذ الذين هم في حاجة الى الإرشاد ، والذين يجدون صعوبة في عملهم ، وتوضيح القواعد والنظريات الجديدة ، والمفروض أن المدرسين لا يتدخلون في عمل التلميذ مالم يكن مخطئاً ، ومالم يستشرهم التلميذ ، وكل تلميذ حرّ في أن يعمل ما يريد بقدر ما يستطيع مادام ينجح في القيام بعمله .

وحينما ظهرت هذه الطريقة الحديثة في أمريكا وإنجلترا لم يوافق عليها طبعاً بعض المدرسين ، شأن كل مشروع جديد ، أما الآن فقد اتضح لكل مدرّس حديث أنها هي الطريقة المثلى في تعليم كثير من المواد ولقد قام بتجربتها كثير من المدرسين والنظار في مدارسهم حتى أصبحت مبادئها مستعملة في معظم المدارس بالولايات المتحدة وإنجلترا وكندا وإيطاليا ، فالمدرّس الحديث يكلف تلاميذه أعمالاً خاصة يقومون بها بأنفسهم في أوقات معينة تحت إرشاد المدرّس في مواد خاصة كالرياضة والجغرافيا والتاريخ وقواعد اللغة وآدابها .

اليوم المدرسي على طريقة دولتون

في مدرسة دولتون كان التلاميذ أحراراً في عملهم المدرسي من الساعة الثامنة والدقيقة .٤ الى الساعة الحادية عشرة والدقيقة .٥ أي في النصف الأوّل من اليوم المدرسي ، وفي النصف الثاني من اليوم كان المدرّسون يقومون بتدريس المواد التي يحسن تدريسها في الفصول بالطريقة المعتادة عندنا ، وفي الوقت الحار عند التلاميذ يقومون بتعلم الدروس المعينة لهم بالطريقة التي يحبونها ، أما المدرّسون في هذا الوقت فيخصصون أنفسهم لهذه الواجبات الخمسة :

- (١) أن يقوموا بحفظ النظام في الفصل بحيث تكون الحجرة صالحة للذاكرة .

- (٢) أن يشرحوا النقط التي تحتاج الى شرح من المروس المعينة للتلاميذ .
 (٣) أن يبينوا للتلاميذ كيفية استعمال الأدوات والأجهزة الخاصة في العمل .
 (٤) أن يوعزوا بأنهم في كيفية حل المسائل الصعبة .
 (٥) حينما يظهر للمدرسين أن التلاميذ حقيقة في حاجة الى شرح نقطة معينة ، فعليهم أن يشرحوها ويبينوا صلتها بالقاعدة العامة في المادة .
- وقد أدركي أن طريقة (دولتون) سارت سيرا حسنا ، وأن التلاميذ بعد أن تركوا وأنفسهم يهتدون وسمح لهم باتباع الطريقة التي توافقهم قد نجحوا نجاحا باهرا في عملهم ، نجاحا أكثر من نجاحهم المعتاد ، وفي الوقت نفسه قد حصلوا على الثقة بأنفسهم ، واعتادوا مقابلة القواعد الجديدة والتفكير في حلها من غير اعتماد على أحد : سيوجد في الابتداء شيء من الصعوبة في تنفيذ هذه الطريقة ، ولكن سرعان ما سيعتادها التلاميذ وسيفضلونها على غيرها ، غير أنهم سيجدون أن بعض المواد يمكن السير فيها على هذه الطريقة أحسن من بعض المواد الأخرى ، فهي تحسن في الجغرافيا والتاريخ والحساب والهندسة والجبر والقواعد والانشاء ، والمطالعة وقانون الصحة وأدب اللغة ، ولتحسن في الموسيقى والألعاب الرياضية واللغة الأجنبية ، فإن اللغة الأجنبية مثلا تحتاج الى مدرس يعرف منه التلاميذ النطق ، ويتحدثون معه ويتحدث معهم ، ويسمعونه يتكلم حتى تعتاد آذانهم الاستماع وألسنتهم التكلم .

الصلة بين طريقة دولتون

وبين طريقة منسوري

إن هناك صلة كبيرة بين طريقة منسوري وبين طريقة دولتون ، ولكن فضل الأسبقية يرجع الى الدكتورة منسوري فقد ابتدأت طريقته قبل دولتون ، وان (مس هيلين باركرست) مؤسسة طريقة دولتون كانت من تلميذات منسوري ، وكانت مساعدة لها حينما ذهبت منسوري الى كاليفورنيا سنة ١٩١٥ ومن المهم في طريقة دولتون إعطاء حرية كبرى للأطفال في أعمالهم المدرسية ، ويقول الدولتونيون « إن التلاميذ يستطيعون أن يسبروا على هذه الطريقة من السنة الثامنة من عمرهم ، فمن الممكن استعمالها في مدارسنا العالية طبعا والثانوية من غير شك ، والابتدائية من السنة الثانية ، في الوقت الذي يستطيع فيه التلميذ أن يقوم بشيء من العمل بنفسه مع ملاحظة المدرس وإرشاده ، وهذه الطريقة يكون التلميذ أو الطالب مسئولا عن عمله المدرسي وأكثر ولعا به ، واشتياقا اليه ، ورغبة فيه ، والغرض من هذا المشروع أن نعطي الطفل حرية في عمله المدرسي ، وأن نجعل المدرسة كهيئة اجتماعية يستطيع فيها التلميذ أن يقوم بعمله الخاص وأن يشترك مع جماعة من التلاميذ في تنفيذ عمل معين اشتركا كمتبادلا بينهم .

حجر الدراسة على طريقة دولتون

أما حجر الدراسة فتصبح معامل للدراسة يجمع فيها جميع الكتب والأدوات المناسبة للواد الخاصة المراد تعلمها ، والتلاميذ لا يزالون يجمعون تحت اسم معين لأجل الراحة في العمل كالجماعة الأولى والجماعة الثانية الخ وحجرة الجغرافيا ، وحجرة التاريخ ، وحجرة الرسم ، ومعمل الطبيعة والكيمياء ، وحجرة اللغة العربية ، وحجرة العلوم الرياضية الخ . ولا يزال التلاميذ يستعملون الحجرة كمكان للبحث والتعليم ، بحيث يبحث فيه كل تلميذ على أفراد ، أو مع بعض أخوانه الذين معه في درجة واحدة ، وسنة واحدة . فإذا أراد بحثا تاريخيا ذهب الى حجرة التاريخ ، وإذا أراد أعداد دروسه في الجغرافيا ذهب الى حجرة الجغرافيا ، وفي كل حجرة يوجد طبعا مدرس خاص للمادة التي عينت لها هذه الحجرة يقوم بمساعدة من يحتاج الى المساعدة

وارشاد من يحتاج الى الارشاد . انتهى ما أردته من مجلة « الشبان المسلمين » والحمد لله رب العالمين .

هذا آخر ما جاء في فن التريية ، أليس هذا وأمثاله إنما هو ترديد لحديث النخلة المتقدم ، ولما في هذه العوالم من المنافع الخيومة المشوقة للانسان ، ومن الحوادث المهلكة المزججة له حتى يعقل الأولى لنفعها والثانية لفهمها ، والاحتراس مما يمكن الاحتراس منه ، ولن يتم ذلك إلا بالجد والتشمير ، لا بمجرد التلقين والتعليم ، إذن هذه المعاني كلها شملت آية : « فتهجد رب السموات ورب الأرض رب العالمين الخ » ، فهو يربي العالمين بالكبرياء والعزة المسحوبتين بالحكمة ، وهذا بعينه هو ما يريد أن يتبعه أهل الأرض اليوم في مدارسهم ، وبهذا تتم الكلام على الفصل الرابع .

الفصل الخامس

في أمر الأمم من حيث سياستها ، وانه عز وجل يفعل مع الأمم في سياستها ما يفعله مع الناس في عوالمه الطبيعية سواء بسواء

فاذا كان في الأغذية ما يضرهم فهم المسئولون عن ذلك الضرر الحاصل لهم لأن لهم عقولا توجب عليهم الاستنتاج والبحث ، فاذا أناموها فهم المسئولون ، هكذا في السياسة ، فاذا حكمهم ملوك عادلون ، ثم قام بدلمهم أبناءهم أو أبناء أبنائهم الذين هم غالبا يكونون غير مجربين وهم مترفون منعمون ، فالأثم هي المسئولة عن ذلك * وبيانه : أننا نرى المصريين وجميع سكان شمال افريقيا وأهل الشام والعراق والموصل ونجد والحجاز واليمن ، كل هؤلاء كانوا سادة العالم ، وهم الذين نشروا العلم في العالم كله ، ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فلقوا غيا .

ومن أعجب العجب أن سند العلم متى انقطع في جيل من أمة انقطع أجيالا وأجيالا ، فهذه الأمم لما اغترت بعظمة الملك نامت على وساد الراحة الوثير ، ونام الأبناء على الخيرات التي خلفها لهم الآباء ، وشر الأبناء من عاشوا من كد آبائهم ، إذ يكونون عائلة على المجتمع ، فاذا فعل الله معهم ؟ جعل ملوكهم يشبهونهم ، ذلك لأنهم تربوا في مدارسهم ، وتعلموا آراءهم ، وهل يحكم الأمير إلا بما درس في مدارس الشعب ، والشعب إن هو إلا عابد للشهوات ، فان الغنائم كثرت ، والأرزاق والخيرات غمرتهم ، فاطلم وللعمل ؟ فلتكن البطالة والراحة ، ومتى استراح جيل واحد ذهبت النخوة والمروءة والشرف . قال تعالى : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا »

إن عذاب الخزي في الحياة الدنيا بالترف ، وعذاب جهنم في الآخرة بالترف : « وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم * وظل من يحموم * لا بارد ولا كريم * إنهم كانوا قبيل ذلك مترفين » . فانظر كيف ذكر الترف قبل أن يذكر الكفر ، فهو كما يكون سبب الكفر يكون سبب الاستعباد ، ولقد اتخذ آباؤنا العرب من الفرس أجنادا ومن الترك ، واتخذ الأنطلسيون أجنادا ممن جاؤهم من الأمم ، وهكذا ملوك شمال افريقيا اتخذوا من السود الافريقيين جنودا ، فما كاد الملك الذي استعان بهم يفارق الحياة حتى التحق كل فريق من هؤلاء العبيد بأحد أبناء الملك ليحارب في صفه ضد أخيه ، وهذا درس واحد أتحدث فيه هذه الممالك ، فكان بمصر الطولونيون ، فالأششيديون ، فالفاطميون ، فالأيوبيون ، فالمماليك البرية والبحرية ، فالترك ، فالفرنسيون ، فأسرة محمد علي الحالية ، فالانجليز .

وكانت الممالك البرية والبحرية بمصر وكذا ولاية الترك بعدهم يتحكمون في رقاب الأمة ، ويهتكون الأعراض ، ويخربون الديار ، ومن عجب أن هؤلاء كانوا عبيدا يشترن بالمال ثم يملكون البلاد .

إن هذا كله هو آثار كبرياء الله في السموات والأرض وعزته ، فهو كما أعطى الناس عقولا ، وخلق لهم أغذية ، وأغراهم بالبحث عنها ، وهكذا خلق لهم أمورا مزججة من رعد وخسف وبركان ، وشوقهم لمعرفة ما أخرجه من بطون أمتهم ليعلمون شيئا ، وألمهم المرين أن يسجدوا على منوال سنة خالقهم في نظام خلقه من حيث استقلال التعليذ بالتفكير ، هكذا فعل معهم في السياسة ؟ أعطاهم عقولا ، وأنزل في القرآن آية الشورى ، وألمهم عمر والخلفاء الراشدين أمر الشورى ، ولما لم يفهموا ذلك وأعرضوا ، ولما لم يعطاهم عظمة ، فإذا ماتوا تولى أبناؤهم الجهلاء المترفون بحجة أن ابن الملك أولى بالملك على أي حال كان ، وهذه حجة داحضة ، فإن قصة آدم وإبليس التي شرحت مقاصدها في ﴿ سورة الأعراف ﴾ أبانت ذلك أيما تبين أن الحجج في علم المنطق إما برهان ، وإما جدل ، وإما خطابة ، وإما مغالطة ، وإما شعر . وأخس أنواع الحجج حجة المغالطة وهي التي احتج بها إبليس ، فامتنع عن السجود لآدم ، ولعمري أين آدم وأين إبليس ؟ إن القرآن لا يقرأ في زماننا إلا لنا نحن ، لا لآدم ولا لإبليس ، إنه منازل إلا عبرة لنا نحن ، فإذا لم نعتبر فلاحية لنا ولا علم . احتج إبليس بأنه خير من آدم ، وبرهانه أن أصله من نار وأصل آدم من طين ، والنار في نظره أشرف من الطين ، ومتى كان الأب أشرف كان الابن أشرف ، إذن إبليس أشرف من آدم ، وهل هذه الحجة إلا مغالطة ، وهل هي إلا نفس الحجج التي تلقفها جهلة المسلمين في الأمم المتأخرة ، فقالوا : « ابن الملك ملك لا بمزاياه ، وعواطفه ، وأخلاقه ، بل بمجرد الانسحاب »

والله تعالى يقول فيمن استحق الملك : « وزاده بسطة في العلم والجسم » ويقول : « يادادوا بنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق » ولاتتبع الهوى الخ ، فحجة المغالطة التي أقامها إبليس محتجا بالنسب إلى الأشرف هي نفس الحجج التي أقامتها أم الإسلام حججا ومعاذير في قبول ابن الملك أو قرينه أو عموه ، كإبن طولون ، وكافور الاخشيدى ، والمماليك البرية والبحرية ، ولكن الله لهم جميعا المرصاد وقد عامل هذه الأمم الإسلامية معاملة الأساتذة لتلاميذهم ، يطلقون لهم الحرية في الدراسة حتى يستيقظوا ، والله وهب لهم العقول ، ونسب لهم ملوكا ، وكلما مات ملك ورثه ولده ، أو عبده ، وأصبحت هذه الأمم :

كرة طرحت بصراحة في فلقها رجل رجل

ومن هؤلاء المتلقفين لتلك الكرة الماهر في اللعاب والجاهل ، وأصبح التعليم في ديار الإسلام في أيدي أخس طبقات الأمة وأجهلهم ، وتركت العقول الراجحة والنفوس الشريفة معطلة ، وبيوت العلم خاوية على عروشها ، اللهم إلا دور العلم المشهورة في بلاد الإسلام التي لولاها لم يبق للدين أثر ، إن خير وسيلة لتعليم السباحة في النهر أن يرى المتعلم في النهر وهو يجاهد ويكاولح حتى يتعلم السباحة بطريقته هو ، وهذه هي التي فعلها الله مع الأمم الإسلامية المتأخرة ، فهي ذاقت الأمرين من جهلة أمرائها ، ولما لم تستيقظ أرسل لها أم الفرنجة ، فاحتلت بلادها ، فاستيقظت ، وهذا التفسير قد جعله الله سبيلا من سبل نجاتها ، ولن تعود تلك الأضاليل والجهالات من بعد ، بل الأمر سيكون شوري ، ويستقيم التعليم ، وسيكون الملوك والأمراء أكفاء للحكم ، وسيكون وارث الملك مقيدا بالشورى ، وله امتيازات خاصة ، والأمر بيد الأمة لا بيده هو ، وسيكون لبراث الملك في بيوت الإمارة شروط وقبود لا بد منها ، ولن يحصل بعد اليوم ما حصل في الأزمان الغابرة من الاقتتال على الملك ، واضعاف الأمة بالتفرق والاختلال والاضطراب .

إن لانحطاط الأمم سببين رئيسيين : أحدهما الجهل المطلق ، ثانيهما اختلال الحكومات ، وقد منبت أكثر البلاد الإسلامية في القرون المتأخرة بذلك ، وأول السببين أهمها ، إذ لا سبيل لرقى الحكومات إلا برقى التعليم ، ولقد تقدم في هذا التفسير أن كتب الامام الغزالي أحرقت لإبان القرن الخامس في بلاد الغرب وبعد ذلك بقرن نبي ابن رشد وغضب الأمير عليه ، ومن ذلك الزمان سقطت النهضة العلمية في بلاد الإسلام

إلا قليلا وتبعها ضعف الحكومات ، وغبلة الحكام ، وقد حلم الله على هذه الأمم آمادا وآمادا لعله أن هذا الحلم مع العزة والكبرياء يفظهم اليوم ايقاظا تاما ، فهاهم أولاء أقبلوا إقبالا جديا على العلم ، وقد قبض الله للأمة الاسلامية كتابا ومؤلفين ومحررين يذكرونهم بمجدهم ويزيدونهم علما ، ومن معدت النهضة المستقبلية في القريب العاجل هذا التفسير ، فان ما فيه من المعارف لو ألقى بعضه الى تلك الترون الخالية التي كانوا فيها بمقتون الحكمة لتنبوه ظهريا ، ولوسموا قائله بالاحاد والكفر ، ولكن الله عز وجل يعامل الأمم معاملة الانسان الواحد ، فهو في صفه لا يعقل العلم والحكمة ، بل يهيم بالهوى واللعب ، فاذا بلغ سنا معلومة أدرك وفهم وعقل ، فهكذا هذه الأمم نبذت العلوم أيام الطفولة ، فهاهي ذه اليوم تتلقاها بشغف وشوق عظيم .

الله أكبر : هذا التفسير يتلقاه المسلمون في أقطار الأرض بشوق عظيم ، وهذا يظهر لنا أن أهم السببين المتقدمين لاحتياط الأمم أخذ يزول ، وكيف يبقى الجهل والشوق للعلوم في ازدياد ، إن الأمم الاسلامية ستعمم التعليم عاجلا ، ولن يبقى إلا السبب الثاني وهو ضعف الحكومات ، وقد قدمنا أن ضعفها من لوازم الجهل ، ولقد أثبتنا أن الجهل أخذ في الزوال ، وأن العلم أخذ في الازدياد ، وستصلح الحكومات على أثر ارتقاء التعليم وذلك كله راجع لأمرين : أحدهما الكبرياء والعزة المذكوران في الآية اللذان يترتب عليهما اضطراب الأمم أجيالا حتى تترك خطأها . ثانيهما : التربية بالحكمة التي ظهرت بوادها بعد أن فعلت الكبرياء فعلها ، فالكبرياء والعزة في مقابلة السبب الأول ، والتربية والحكمة في مقابلة السبب الثاني .

إن الأمم الاسلامية في القرون المتأخرة لما أغفلت التعليم ، وتلا ذلك أنها لم تكن حكوماتها منتظمة أصبحت أشبه بالأنعام في مراتبها تسام الخسف ، ولا تجد لها محيصا من الفل ، متى أعرض المرء عن الكمال بالتعليم أصبح عرضة أولا لنوى الأهواء من رجال الدين ، والجاهلين من الصوفية ، وظلمة الحكام ، سواء أ كانوا من أهل الوطن والدين . أم من غيرهم ، ويكون ارتقاؤهم واسعا لهم موقوفين على الحاكم ، إن أراد الخبير لهم نالوه ، أو التشر أزموه ، ولكن الأمم المستنيرة الحرّة تكون أشبه في عزتها بالحيوان في التفرغ ، عزيز الجانب ، مرحوب القوة ، يسعى بجده كالأسد ، والغزال في القفر . لا كالكلب والعنز في الريف والمدن ، إن الله يقطع مدده عن كل عضو لا يعمل له ، والعقول التي لا تعمل لها يسخرها الله ويذها للعقول العاملة المفكرة ، وهذا هو السبب في أن هذه الأمم الاسلامية المتأخرة أصابها الفل وسلط عليها الظالمون من أممهم ومن أم غيرهم ، ونبذة من ملخص تاريخ الأندلس تريك برهاننا على ما تقدم ، فهناك ما جاء في كتاب تاريخ العرب في الأندلس ، وهذا نصه :

« مما شيد عظمة البهولة الأموية الفتوحات الاسلامية لتلك العهد التي جعلت للإسلام عالما متراميا الأطراف نشرفه مدينة وعلما ودينا جديدا ، وتقصير الكلام هنا على ما كان من فتح الأندلس ، واذا ما راجعنا ما تقدم نجد أن الحوادث مكنت العرب من الاستيلاء على الأندلس . ويرجع فضل ذلك الى جرة طارق ، وإقدام موسى بن نصير ، ثم لانبث أن نرى عودة هذين القائدين ، ومصير الأندلس الى الولاة ، وكان خروج موسى عام ٩٦ هجرية ، واستمر حكم الولاة حتى عام ١٣٨ هـ وفي تلك المدة الوجيزة تعددت الحوادث الهامة ، وما بلغت الأنظار : تعدد الولاة وظهور العصبية ، وهذه عادة العرب اذا ما استقرت بهم الفتح وقصدوا عن الحرب والقتال مما يؤدي حتما الى تفرق الكلمة وضعف القوة ، ثم نرى ما كان بين العرب وحلفائهم أهل المغرب الذين ساعدوا بكل ما استطاعوا في فتح الأندلس ، وكان جزاؤهم سوء معاملتهم ففقد العرب بذلك أنصارا أشداء مخلصين ، وهذا دليل واضح على ضعف الحكمة السياسية من جهة العرب خاصة وكان عهدهم حديثا بتلك البلاد البعيدة عن مقر الخلافة الاسلامية .

كان من الطبيعي أن تؤدي تلك الحال الى الفوضى والثورات الداخلية ، وليس أدلّ على ذلك مما كان

من أمر صميل وأبي الخطار، وثورة جند الشام، ومصر الامارة الى يوسف بن عبد الرحمن الفهري . ثم كان ما كان من ظهور عامر وحباب وغيرهما من القرشيين ، وانقسام الناس على بعضهم ، مما جعل المؤرخين يقولون : إن سلطان الدولة الأموية كان ضعيفا على بلاد الأندلس ، أو عديم الوجود ، وما كان للأمويين في آخر سنيهم بالمشرق أن يعبروا الأندلس أى اهتمام لما أحاط بهم بالمشرق من ظروف .

وبينا كانت الأندلس تسير في حالتها هذه ، دبر الأمويون بها قتل الأمانة الى أميرهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، واستعانوا بجند اليمن ، وبعض البربر ، ودخل عبد الرحمن الأندلس ، واتصر على يوسف وصارت له الامارة ، فشيّد ملكا للأمويين ، دام ثلاثمائة من السنين ، ويقسم بحسب حالته الى عصر التأسيس ، ويشمل حكم الداخل وابنه هشام والحكم بن هشام ، وظهر كل منهم بمظهر الحزم والقوة فيما أحاط به من ظروف ، فترى الداخل يخضع الثورات بقوة السيف ويفوز الشمال حيث كان المسيحيون ، وتطلبت اليه الظروف أن يبنى ملكا على حكم استبدادي ، المكانة الأولى فيه للسيف ، وتبعه على سياسته من خلفه ، ولما كان هذا النوع الحكومى لا يتفق مع أهواء العرب نرى أنهم كانوا يخضعون صاغرين مادام السيف مشهورا ، واذا ما أحمده ثاروا ، وعملوا على استرجاع حرياتهم .

تعددت الثورات في عصر الداخل نفسه ، ونأمر عليه بعض رجاله وأهله ، ولكنه انتصر عليهم ، وأهم ما نجمه في عصر هشام وابنه الحكم ما كان من دخول مذهب مالك بلاد الأندلس وانشاره فيها مما أدى الى تطلع الفقهاء الى زعامة سياسية تتفق مع منزلتهم الدينية ، وزوال أيام الداخل واستبداده ساعدهم على ذلك ، فاتخذوا من حلم هشام وطيبية خلقه فرصة ، ولما كان عصر الحكم ولم يسمح لهم بنىء مما أرادوا قاد يحيى بن يحيى ، وعيسى بن دينار ، وغيرهما طلبة العلم ، وحرضا القوغاء على الثورة ، فقامت فتنة كادت تسقط إمارة الحكم ، ولكنه انتصر بقوته ، وعاقب الخارجين شديد العقاب .

وبموت الحكم بن هشام ، وانتقال الامارة الى ابنه عبد الرحمن الثاني يبدأ عصر ضعف يتناول حكم محمد ابن عبد الرحمن ، ثم المنذر وعبد الله ولدى محمد بن عبد الرحمن ، وكاد ذلك العصر ينتهى بسقوط ملك الأمويين بالأندلس ، وأسباب ذلك الضعف ترجع الى :

(١) اشتغال عبد الرحمن عن ملكه بتجميل قرطبة وتركه سياسة البلاد ليحيى بن يحيى والسلطانة طروب ، ونصر الحصى ، فقسرت القوضى الى البلاد ، فأدرك ما كان من خطئه ، وأسرع الى اصلاح ما فسد .

(٢) وفي عهد محمد بن عبد الرحمن الذى أصبح أميرا على الأندلس على حسب رغبة الخصيان والموالى بقصر الخلافة كره الناس الامارة لسوء سياسة الأمير وموقفه هذا من شعبه شجع بعض الأقاليم على الخروج فاستقلت طليطلة نظير مبلغ من المال تدفعه سنويا ، وما لبث أن بسط موسى الثاني نفوذه على أرجونة والأقاليم الشمالية ، وكان ذلك بمساعدة الفونسو الثالث ، ولاشك في أن تدخل المسيحيين في أمر المسلمين كان له أثر سيء للغاية كما أن استنجد المسلمين بالمسيحيين يدل على عدم ارتباط المسلمين ببعضهم ، ثم تمكنت ماردة من احراز انفصالها عن إمارة رطبة ، وهذه الحال بتلك البلاد شجعت ابن حفصون باقليم ربا على مقاتلة الامارة الاسلامية ، ولقد سببت حروبه ضعفا شديدا لها ، وتنج عن ذلك كله أن سقطت هيبة الامارة .

(٣) كانت امارة المنذر أقصر من أن تدفع شرا ، أو تعيد الى الامارة عظمتها الأولى ، ولما آل الملك الى عبد الله بن محمد ساءت الحال جدا ، قامت العصبيات ، وبلغ ابن حفصون وأمثاله قوة عظيمة وعمل أمراء العرب على الانفصال عن الامارة ، فعمت القوضى ، وأصبح ملك الأمويين على قلب

قوسين أو أدنى من السقوط . وفي هذه الحال مات عبدالله بن محمد وخدم بلاده بذلك أجل خدمة إذ أفسح المجال لحفيده عبد الرحمن الناصر .

بدأ الناصر عصر عظمة الأندلس واستمرّ العصر الذهبي مدة الناصر والحكم الثاني المستنصر ومدة حكم المنصور بن أبي عامر وولديه عبد الملك المظفر وعبد الرحمن المأمون ، وفي ذلك العصر خلقت الأندلس خلقاً جديداً ، تبدل ضعفها إلى قوة ، فأخضعت الثورات ، وأعيدت الولايات المستقلة إلى الطاعة ، وسارت الجيوش إلى بلاد المسيحيين شمال الأندلس ، وأذلتها ، ولم ينل منها الفاطميون مأرباً ، وسارت البلاد في طريق الحضارة وال عمران خطوات واسعة ، وإذا كان المنصور بن عامر وصل بالبلاد إلى درجة عظيمة من القوة والمجد ، فإنه أساء إلى الأسرة الأموية بطعناتها نجلاء في صميم قوادها ، وذلك بما كان من أمره مع هشام الثاني حفيد الناصر وتمهيد الحكم لولديه الواحد بعد الآخر ، فلما عجز ثاني الولدين عبد الرحمن المأمون أن يسير بالبلاد سيرة أبيه قتل ، وانتقلت البلاد إلى عصر يعرف بعصر الفوضى

(٤) وعنوان العصر كلف للدلالة على سير الحكم الأموي بالأندلس إلى سقوطه الأخير ، وعبرات هذا العصر :

(أ) تنافس الأمراء من أحفاد الناصر وأعقابهم على الخلافة ، واستعانة بعضهم على بعض بالمسيحيين ، وكانت تلك الحال خير فرصة لظولاه

(ب) انتقال النفوذ من يد الخليفة إلى الوزراء وقواد الجند الذين سعوا لإدراك أغراض شخصية ولم يهتموا بأمر الخلافة أقل اهتمام ، فساعدوا بذلك على تهديم ما تبقى من الخلافة .

(ج) ظهور دولة بني جود بمالقه وانتقال الخلافة إليها ، وصارت لعلي بن جود أولاً ، ثم لأخيه القاسم بن جود ثم ليحيى بن علي بن جود ، ثم للقاسم ثانية ، ثم ليحيى لثاني مرة ، ولكنهم لم يفلحوا في الاحتفاظ بالخلافة

(د) بداية عودة الإمارات إلى الانفصال عن قرطبة واعداد الطريق لقيام حكم ملوك الطوائف في عهد المستعين المرواني اقتضت سلطة الخلافة على قرطبة وثلاث مدن حوطها ، ثم كانت خلافة المرتضى ، ثم المستظهر ، ثم المستكفي ، ثم هشام الثالث ، ثم أمية وضعف أمرهم أدى بالناس إلى التفكير في إسقاط الأسرة الأموية نهائياً ، وقام بذلك زعيم من قرطبة يدعى ابن جهور

(هـ) ولا بد أن نصيف إلى ما تقدم من أسباب ما كلن من موقف المسيحيين العدائي نحو الاسلام وعملهم المتواصل على استخلاص البلاد من أيديهم وانهاز كل فرصة ممكنة لاسقاطهم وطردهم ، ويقول ليفبول : « إن من شر ما ارتكبه العرب من خطأ إهمال أمر المسيحيين من بدء الأمر .

(٦) ونحتم جلة الأسباب بما كان من تغير كمي للأخلاق العربية مما أدى بهم إلى نسيان شجاعتهم وعدم التمسك بدينهم والانفاس في الترف والتعيم ، والتكيد لبعضهم ، وقعودهم عن نصرة بعضهم لبعض لم يفض قيام حكم ملوك الطوائف شيئاً ، كثرة عددهم دل على ضعفهم وصغر ملكهم ، وتنافسهم أدى إلى حرب متواصلة بينهم ذهبت بريحتهم ، وكانت حالتهم خير أمانة للمسيحيين الذين استولوا على البلاد ، وفرضوا الجزية على الاسلام وأذلوا الناس ، وكان خلاص المسلمين على أيدي المرابطين لزمان محدود ، ثم كانت دولة الموحدين ولم تعمر طويلاً ، وفي آخر عهد الاسلام بالأندلس اقتصر الأمر على دولة بني الأحمر بقرطبة فشيبت

أثرا باقيا ، ومجدا دونه لها التاريخ ، فقاتلت وصبرت وانتصرت حتى انتابها الفتن الداخلية ، وكانت المسيحية وصلت الى عظمة قوتها على يد (فردناند) و (إزابيلا) فأسقطا المعقل الأخير من المعادل الإسلامية وبادت دولة الاسلام بهذه البلاد بعد أن قامت بأجل الخدمات للدنية والحضارة والعلم وال عمران ، وكل المؤرخين على اختلاف جنسياتهم يشهدون لها بذلك . انتهى ما أردته من كتاب « تاريخ العرب في الأندلس » تأليف الاستاذ حسن أفندي مراد ، والحمد لله رب العالمين .

بأمثال هذا التقرير ترقى أم الاسلام ، وبه تعرف بعض أسرار آي القرآن لاسيما أسماء الله الحسنى المذكورات في ثنايا آي القرآن « والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم » انتهى الفصل الخامس

الفصل السادس

في أن نظام دالتون في التعليم الذي تقدم في الفصل الرابع هو نفسه الذي صنعه الله في أرضه قبل خلق العالم كما ستره الآن في هذا المقام

بهجة العلم في هذه الآيات

« فته الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين الخ »

اعلم أن هذه المعاني التي تقدمت في الفصول السابقة تنضمها الصلاة ، ألا ترى أن قوله تعالى : « فته الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين » تتضمنه أول الفاتحة « الحمد لله رب العالمين » ، وقوله : « وله الكبرياء في السموات والأرض الخ » يذكرك به تكبيره الاحرام وتكبيرات الركوع والسجود والرفع منه والتكبير ٣٣ مرة عقب كل صلاة . هذا ما أردت بيانه في هذا المقام تفسيرا لآيات : « فته الحمد رب السموات » الى آخر السورة ، والحمد لله رب العالمين . انتهى في ليلة الجمعة الساعة العاشرة يوم ٢٧ فبراير سنة ١٩٣١ م

نفحة في صلاة الصبح يوم الجمعة ٦ مارس سنة ١٩٣١ م

بيان الكبرياء والعزّة أيضا مع التربية في السموات ، والتربية في الأرض ، وتربية العالمين المصحوبة بالحكمة

أجدك اللهم على نعمة العلم والحكمة والعرفان ، قرأت اليوم في صلاة الصبح أول سورة طه وأخذت أردد الآيات لفهم معناها ، فلك الحمد اللهم ولك الشكر على ما أنعمت به علينا من الفهم ، ذلك أننا أصبحنا نرى نظام نفس الأرض وتاريخ حياتها يضارع في تصاريفه وتاريخ أحواله نظام الدراسة في المدارس على أحدث الطرق ونظام الفرد الكامل في حياته أيام الطفولة وأيام الشباب وأيام إفاضة العلم على غيره واشراق أنواره على الناس في هذه الأرض . جاء في قصة موسى ، أن الله يقول :

(١) « إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري » ولاجرم أن هذه عبارة عن ظواهر الاسلام وعن بواطنه وهوالتفكير ، فالترديد والعبادة والصلاة المذكورات في هذه الآية هي من ظواهر الاسلام وباطنه ، والمقصود منها هو الذكري كما يقول تعالى في سورة ﴿ آل عمران ﴾ : الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض » ، فالتفكير بعد الذكر لأن الذكر باللسان يحرك القلب للتفكير ، والا يجذواه قليلة ، والذكر هنا في سورة طه

لوروده بعد ظواهر الصلاة يرجع للفكر في السموات والأرض ومجائب الصنع لأن ظواهر الذكر تنميتها الصلاة التي هي عبارة عن أقوال وأفعال ، ومن الأقوال الذكر اللفظي ، إذن قوله تعالى « لذكرى » هنا يراد به معرفة الحقائق المقابلة للتفكير في سورة ﴿ آل عمران ﴾ كما قدمناه .
(٢) حديث الله مع موسى إذ أسره بقاء العصي ، فألقاها فصارت حية ، نظاف موسى ، فقال الله له : « لا تخف » وأعادها لحالها الأولى كرة أخرى .

(٣) نبيان أن هذه الحادثة التي جرت بين الله وموسى نموذج ثلاث حوادث كلها كان فيها الخوف أولاً والسلامة آخراً ﴿ وبعبارة أوضح ﴾ إن حديث موسى مع ربه وخوفه أولاً وسلامته آخراً نظير :
(أ) لما حصل لأتمه إذ ألقته في التابوت ، وألقت التابوت في اليم ، واليم ألقاه بالساحل ، وأخذة العدو ، والعدو صار حبيبا له ، وقيل لها : « لا تخافي ولا تخزي إن أرادوه اليك » فقوله : « لا تخافي » في مقابلة : « خذها ولا تخف » وقوله « إن أرادوه اليك » في مقابلة « سعيدها سيرتها الأولى »

(ب) ونموذج لما حصل له في قتله القبطي : « وقتلت نفسا فنجيناك من التيم وفتناك فتونا » ويقول شعيب لموسى (لما ورد ماء مدين وسقى لابنتيه) وقص عليه القصص : « لا تخف نجوت من القوم الظالمين » ، وذلك أنه لما جاء له رجل من أقصى المدينة يسئ قال يا موسى إن الملا يا عمرو بك ليقتلوك فأخرج إني لك من الناصحين * فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين ، فها هو ذا وهو خارج من أرض مصر كان خائفا ودعا الله أن ينجيه من القوم الظالمين ، ولما توجه تلقاء مدين وقابل شعبيا قال له : « نجوت من القوم الظالمين » إجابة للدعاء الذي دعا به أولاً وهو خارج من أرض مصر .
(ج) ونموذج أيضا لما حصل بينه وبين السحرة إذ أجعوا كيدهم ثم أتوا صفا وألقوا حبالهم وعصيهم ، فليل اليه من سحرهم أنها تسمى ، فأرجس في نفسه خيفة موسى فقال له الله : « لا تخف انك أنت الأعلى * وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر »

عجب يلرب من هذا الكتاب المقدس وهو القرآن ، خوف من العاص إذ صارت حية فأرجعتها له سيرتها الأولى فذهب الخوف ، وخوف أم موسى عليه إذ ألقته في اليم ، فأزلت خوفها وبشرتها بنجاته ، وخوف موسى من أن القوم يقتلونه فنجيته من التيم ، وخوفه من حبال القوم وعصيهم إذ خيل له أنها حيات ، فألقى عصاه فتلفت ما يافكرون .

ههنا حوادث ثلاث : حادثة أمه ، وحادثة ، كاهن على نمط واحد ، ويجمعها كلها مثال واحد ، وهو أنه ألقى عصاه فصارت حية ، فأمرته بعدم الخوف ، وأرجعتها الى حالتها الأولى . أليس هذا يلرب من العجب ! عجب صنعك ! وعجب كتابك !

يارب أنت هذا فعلك ، وهذا قولك ، انك أرىنا هذه الوقائع في نظام أرضنا كلها لأنك تربي السموات وتربي الأرضين ، وتربي العالمين .

هاهي ذه أرضنا التي هي أقرب إلينا ألينا تربيته على نظام هو نفسه نظام حياة الفرد الشريف العظيم كموسى عليه السلام وكجميع المصلحين في الأرض لأنهم من العالمين الذين تربيهم ، أليس نظام الأرض أنها تحدث فيها الحوادث العظيمة كالزلازل والبراكين والصواعق والحسف (وهذا شرحناه قريبا في نفس هذا المقام) فيكون الذعر ، ويكون الخوف ، وتبلغ القلوب الحناجر ، ويظن الناس بالله الظنوننا ، فإذا يحصل

بعد ذلك ؟ يحصل أن البراكين :

- (١) يعقبها حدوث أراض زراعية جديدة لانظير لثربتها للزراعة ولا تحتاج الى سجاد .
- (٢) ويعقبها منافع معدنية كالسكبريت الذي ذكرناه آفا الخارج من أحد البراكين واشترته شركة أمريكية بألف جنيه لمنافع الناس ، وهكذا ترى إيطاليا تستعمل حجارة البراكين لمنافع عظيمة أخرى ، إذ بها تدير آلات لمصالح الحياة العاقمة كما تقدم في غير هذا المكان .
- (٣) ويعقبها حدوث جزائر وجمال ، وقد تحدث قارّات في مئات الآلاف من السنين ، فالزلازل والبراكين ونحوها تحدث خوفاً لنوع الانسان وذعرا شديداً ، فيقول الله للناس : يا عبادي لا تخافوا هذه كعصا موسى ، ألقاها فصارت حية ، فخاف ، فرجعت الى حائها ، فالتخوف إنما أبدعته في قوسكم ليكون المران على الصبر ، وبغير الصبر لا علم ولا سعادة ، صبرت أم موسى ، وربطت على قلبها لما فارقتها ، إذ ألقته في اليم ، وهكذا طمت موسى الصبر لما خاف من العصا وقد صارت حية إذ ألقاها بأمرى ، ليكون ذلك مرانا له على ما يحصل له ، إذ يلقى السحرة فيرى الجبال والعصى حيات ، إن التربية يا عبادي هذا شأنها ، فلتكن المشاق ، وتكن المخاوف أولاً ، ثم لتكن القوة ، وليكن السير في سبيل الحياة .

وذلك مثال لما يفعله من يعلم ابنه العموم ، إذ يلقيه في اليم بلا آلة تساعد على العموم ، فيجاهد بكل قوته حتى يتخذ له طريقا خاصة له ، فهناك خوف ، وهناك نجاة بعد الصبر ، هكذا تربية المدارس على أحدث طريقة ، وهي التي تقدم ذكرها عن (دالتون) .

يذرا الاستاذ تلميذه في ارتياحه وحبرته واضطرابه في حل المسائل العلمية ، ويعينه معاونة إيجابية ، ويترك له التنصّل ، ويعامله معاملة الله لموسى ، ومعاملته للأرض في نظامها ، فكما أن الأرض تضطرب اضطرابا شديدا حتى يظنّ الناس أن القيامة قامت بما يشور من براكينها ، وبما يحدث من زلازلها ، فيعقب ذلك حياة جديدة بتربة جديدة نافعة جدا ، أو بجبل ، أو بجزيرة ، أو بمنافع أخرى ، وهكذا موسى خاف من عصاه لما صارت حية ، وعلم الصبر على الخوف ، وهذه الاخافة صارت له نعمة لما ألقى السحرة جباهم وعصيم الخ وصار ذلك مرانا له وقدره إذ قال موسى « ما جئتم به السحرة ان الله سيبطله الخ » ثم غلبهم ، هكذا التلميذ في المدارس يضطرب في حل المسائل ، والمعلم يذره يتخبط ، ويفتح له الطرق ويذره ، وتكون عاقبة ذلك قوّة يكتسبها أيام عمله في المستقبل ، إن آخر طريقة للتعليم هي التي وضعها الله في نظام أرضه العالم وهي التي وصفها في تربيته لموسى عليه السلام ، إذ أخافه ليكون ذلك الخوف مرانا على أعماله المستقبلية ، وملخص ما تقدّم في هذا الجدول :

الكبرياء، والفضة	تربية السموات . تربية الأرضين . تربية العالمين . وأن الله حكيم في سنته
(١) الشمس كانت كرة ظلمة والأرض منها ثم بردت (وهذه مرسومة في سورة فصلت)	(١) الأرض بعد أن برد ظاهرها صلحت لهذه القلوبات
(٢) البراكين والزلازل والحسوف	(٢) ظهور جبال وتلال وجزائر وتيارات ومعادن
(٣) خوف أم موسى عليه في اليم ، وخوفه إذ ألقى عصاه فصارت حية ، وخوفه من أن القوم ائتمروا به ليقنطوه	(٣) كل ذلك مران له على ما أتاه من المكارة بمذلل إذ ألقى السحرة الجبال والعصى الخ ، فألقى عصاه وبطل سحرهم
(٤) ترك الاستاذ تلميذه يبحث في مسائل العلم بنفسه	(٤) نجاح التلميذ في الاجتهاد والاعتماد على نفسه في العمل

إذن ما يلاقه الناس في هذه الحياة مران لهم في نفس الحياة ، أوفى حياة أخرى ، ألا ترى أننا مأمورون بالجهد والموت في سبيل الله ، إن في ذلك لمرانا لنا على ترك ما نألفه ، وهذه الأرض مألوفة لنا ، والموت اخراج لنا منها ، والخروج من المألوف صعب . والله له عوالم غير هذه الأرض ، ولا بد من أننا نرى عدله ، وجمال صنعه فيها ، وهل يتسنى لنا ذلك إلا بتركها ، وهل تركها إلا للموت ! فهنا تناقض ، نحب أن نعلم جمال العوالم فوقنا ، ونحب البقاء في أرضنا ، ولكن الله الذي له الكبرياء في السموات والأرض لا في الأرض وحدها التي نحن فيها يقهرنا على ترك المألوفات في نفس الحياة ، وعلى ترك نفس الحياة وإن كرهنا ذلك لأنه سيرينا إبداع صنعه في عوالم الجيلة التي هي أرقى وأبهج وأبهى من أرضنا المتأخرة في أحوالها ونظامها عن غيرها .

تطبيق على ما تقدم من كبرياء الله وعزته مع تربيته لنا بالحكمة

وذلك في تذكريين

(التذكرة الأولى) هي مازاولته أنا في هذه الحياة

(التذكرة الثانية) في حديث سمكتين تتحاوران في ثقل ماء البحر عليهما ، وكيف أخذ البخار يسعد إلى الجوّ لينقص الماء وما هو ناقص ، وكيف صار بخارا ، ثم ماء في سحاب ، ثم مطرا سقط على الجبل وبقى بعضه تلجا ، فتراكم الثلج ، فأخذ ينزلق من الجبل حاملا معه صخورا سائرا إلى البحر ككرة أخرى فساقط فيه ، فواضعا تلك الحجارة أشبه بالبناء بقي ذلك السمك من ثقل الماء .

التذكرة الأولى

لقد ذكرت في هذا التفسير مرارا أنني في زمن الصبا عاهدت الله أني إذا نلت من العلم واليقين حظا نشرته بين المسلمين ليزول الشك من قلوب أذكيائهم ، ولما نلت من العلم حظا ، وأتممت الدراسة بدارالعلوم وعينت موظفا بالتدريس ، ونقلت من القاهرة إلى مدرسة الخيزة الابتدائية ، هنالك أخذت أفكر فيما عاهدت الله عليه من التأليف ، ولقد كانت الهمروس تستغرق النهار كله ، ولم يكن عندي من الليل ما يزيد على تحضير الدروس واصلاح خطأ التلاميذ في كراريسهم ، فعزمت على أن أجعل يوم الجمعة مقسما قسمين ، فمن الصباح إلى قبيل صلاة الجمعة يكون عملي في التأليف ، ومن صلاة الجمعة إلى الغروب يكون ذلك خاصا بالرياضة في الحقول والرياض الناضرة والخلاء ، ليكون ذلك الشطر للفكر وللجسم ، فدمت على ذلك مدة . ثم إنني يوما قلت في نفسي : لأترك التأليف في هذا الاسبوع ، ولأخرج في الخلاء من الصباح ، فما كدت أخرج إلى شاطئ البحر حتى قابلني رجل أعرفه من القاهرة جاء إلى الخيزة ليشتري عجلا من البقر ليذبحه في عيد الأنصحي ، فرافقته إلى سوق البهائم ، وهناك تصاعد الروائح الكريهة من أبواها وأروائها ، ويسمع الانسان عبارات السماسرة والمتبايعين ، والحلف المتكرر ، ورفع الأصوات ، والجلبة في البيع والشراء ، ولم أخلص من ذلك المأزق إلا وقت صلاة الجمعة ، هنالك عرفته أن ذلك معناه ما يأتي : « انك طلبت الرياض الناضرة ، والحقول الباهرة ، والمناظر السارة ، والحدائق الجيلة ، ناركا ما عاهدت الله عليه من التأليف ، فهانحن أولا عاقبك فأرسلناك إلى سوق البهائم لتسكون بين البقر والجاموس والجبر ، ولتسمع مالاتألفه ، ولتشم مانكرهه ، وذلك ضد ما تطلبه على خط مستقيم ، هنالك عرفت أن ترك التأليف في ذلك الموعد ذنب عوقبت عليه ، فذلك راجع لكبرياء الله وعزته أولا ، وتربيته وحكمته ثانيا « والله عاقبة الامور » .

ويبلغ هذه التذكرة الأولى حديثان : الحديث الأول : إنني قبل ذلك أي حين أردت أن أبتدىء

فأكتب ما عاهدت الله عليه وأنشره بين المسلمين ، أحاطت بي من المزهجات المنزليات والأحوال الداخلية ما أذاني وساءني ، ومن عجب أتى إذ ذاك خاترت لي خواطري عجيبة ، فكنت أقول : أنا في المستقبل سأكتب لرقى الاسلام ، ولا بد لكل عامل من حسدة وأعداء ، فهذه المزهجات اليوم قد أحاطت بي ، لأن من خلقت شدة الحياء ، وسرعة التأثر ، وهذه المزهجات تعطيني درساً به أتعلم الثبات في الأعمال النافعة ، وأقول أيضاً في نفسي : هذا تدريب لنفسي على الثبات ، وعدم التزلزل أمام الحوادث ، وفي تلك النوازل والحوادث والمزهجات أخذت أولف كتاب « جواهر العلوم » وكتاب « ميزان الجواهر » قائلاً للحوادث المنزلية . كلا . والله لا أنتني عن مطالبي مادمت حياً . وبهذا تم الحديث الأول التابع للتذكرة الأولى .

﴿ الحديث الثاني ﴾ : انني في أوائل طبع هذا التفسير أحاطت بي حوادث خارجية وهي مزيجة أشد من الأولى ، فقابلتها بسدر رجب ، ولم أدخر وسعاً في تذييلها ، وصرت بسلام ، ولم تعفني عن السير في التأليف والطبع ، وكنت أجد المعونة من الله واضحة جليلة ظاهرة .

التذكرة الثانية : حديث السمكتين

حدثنا الحارث بن ممام . قال : ركبت في سفينة بخارية في ليلج البحار العميقة ، وقد قادها الربان بمهارة وإتقان ، ولم أكن لأعتاد ركوب الأخطار ، ولما قاساة الأسفار ، فما أن مضت ساعات حتى أغمى عليّ ، وغبت عن حواسي ، وخيل إليّ أني في قاع المحيط ، وأمامي آلاف السمك تنفرج عليّ وتدهش لمنظري ، وقد أنطقهن الله ، فصرن بصوتين بأحاديث عجيبة ، وبما أذكره أن سمكة منهن تسمى (سانده) وأخرى معها تسمى (مانده) أخذنا تنسمران مسامرة أشبه بأقويل الفلاسفة وعلم الحكماء . فقالت (سانده) لأختها (مانده) : حدثيني أيتها الأخت ، إن ماء البحر يعلو فوقنا فوق (٢٠٠٠) ألفي قامة ، وهذا الانسان لا تقل فوقه أكثر من (٧) قلمات ، لأن الهواء الجوى المحيط بهم (وان كان عظيم الارتفاع) لا يزيد في ثقله على عشرة أمتار من الماء وهي تساوي ٧٥ سنتيمتراً من الزئبق ، نحن هنا في كرب شديد ، فكيف نتعمل هذا كله ، وهذا الانسان في راحة بال لا يزيد التقل فوقه عن ٧ قلمات تقريباً ، فأين السبعة وأربعون الألفان ؟ إن هذا هو البلاء . فقالت لها (مانده) : قومي ندعوا لله نحن وبقية السمك في قاع المحيط عسى الله أن يخفف الأثقال عنا .

هنالك غابت السمكتان عني ، ثم رجعتا بعد مدة ، وأخذت (سانده) تقول لأختها : إن الله استجاب دعاءنا ، وهاهوذا أخذ يخفف العبء عنا ، فان المحيط أخذ يبخر وهذا البخار يقلل الماء من فوقنا ، فاستقرت إذ ذاك (مانده) في الضحك وقالت لها : ما الذي يرفعه البخار من الماء ؟ إن هو إلا تزيير ، فقالت لها (سانده) : إذن أين إجابة الدعاء ؟ فقالت لها (مانده) : عجب لك ! إن الله له (الكبرياء والعزة) ففعله لحكمة ، ولا بد من الصبر حتى نفهم كيف استجاب الدعاء ، ألا ترى أن العنكبوت تخرج من جسمها خيوطاً فلا يدري العاقل لماذا تخرج ، وبعدها يظهر أنها شبكة لصيدها ومنزل لسكانها . فقالت لها (سانده) علميني مما علمك الله ؟ فقالت لها (مانده) : إن البخار يذهب إلى الجو ويصل إلى الطبقة الباردة فيصير ماء ثانياً ولكنه خال من الملح ، ثم يصير سحباباً ، فيسوقه الهواء الذي تكون الحرارة والبرودة بسببه ، ذلك أن الحرارة تمدد الأجسام والبرودة تكمئتها ، والصخور بتوالي الليل والنهار ، وتعاقب الصيف والشتاء تتمدد وتتكئش ، وينشأ عن ذلك تشققها بشقوق رأسية طويلة وعرضية ، فإذا كانت الصخور طباقية أصبحت كالطبوط المرصوص بغير ملاط مستعدة للانهياب (انظر شكل ٢٥ الآتي في الصحيفة التالية) فلا تلبث أن تنساق عليها عوامل الطبيعة من الماء والتلوج وتمزق شملها وتجرفها .



(شكل ٢٥ — تشقق الصخور من أثر التغيرات الجوية)

آثار المطر في التعرية



(شكل ٢٦)

واد ناشئ عن سقوط سقف مغارة جبيرة

في شكل (٢٦) واد عميق كان فيما مضى كهفا من الكهوف الجيرية التي وصفنا لك طريقة تكويناها بسبب ذوبان الصخور بفعل ماء المطر ، وقد رق سقف الكهف وسقط فكشف الوادي كما نراه .

وتأثير ماء المطر بهذه الكيفية في الصخور الجيرية تأثير كيميائي ناشئ عن التأثير الحمضي لهذا الماء بسبب ما يمتزج به من غاز حامض الكربونيك في أثناء سقوطه في الهواء .

وبؤثر المطر في الصخور بطريقة أخرى ، وذلك بتكرار لطمها ، وتمزيقها ، وتشنيت مادتها .

وتتشرب الصخور أحيانا ماء المطر ، ثم تجف ، ويتكرر التشرب والجفاف فتتراخي وتصبح عرضة لجرف المياه الجارية كما سترينه مفصلا في عمل الأنهار .

فقال ساندو لماندو : أنا الآن لم أعرف إجابة دعائنا ، فانك أيتها الأخت لم تذكرى لي إلا أن الحرارة والبرودة تؤثران في الصخور فتمزقها ، وأن المطر الذي من بخار البصار يؤثر بطريقة أخرى ، ولكن هذا كله فوق وجه اليابسة التي خلق فيها هذا الانسان ، ولكن أين إجابة دعائنا بتخفيف الضغط عنا ؟ فقالت لها

(مانده) : ألم أقل انك لن تستطيعي معي صبيرا ، فاصبري حتى تفهمي ، لأن العلم يعوزه الصبر ، ولاعلم بلاصبر ، ولاسعادة بلانصب ، وأعلى السعادات سعادة الحكمة والعلم . فقالت : فخذتيني إذن . فقالت مانده :

نشأة الأنهار

انها نشأت من تضاريس صغيرة في وجه الأرض الحديثة ، هذه التضاريس تعين اتجاه سير المياه ، ومتى تعين مرة أصبحت مسالكه متبوعة ، وأمعت المياه في الأرض نحتا وتعميقا حتى يكمل نفسبق حوض النهر .

العيون والآبار

بعض صخور القشرة الأرضية ذات مسام ينفذ فيها الماء وبعضها مصمتة فلاينفذ فيها ، فالقوة في الطبقة ترشح فيه لأنها من الفخار ، وهذا له مسام ، ولكن الطبقة يحفظ الماء ولايرشحه لأنه مصمت ، فان رشحت القوة حتى امتلا الطبقة وفاض سال الماء على جانب الطبقة ، فهكذا تتفجر العيون والينابيع على جوانب الجبال إذ ينفذ بعض ماء المطر من المسام والشقوق حتى تحجزه طبقة مصمتة ، فاذا ملاً تجوف هذه الطبقة وفاض نشأت العيون والينابيع ، وفي شكل (٢٧) مقطع رأسى في جانب الجبل يسيل منه الماء عند (ع) والصخور التحتية مصمتة كالسلسال ، والفوقية ذات مسام كالجير ، وقد تشربت هذه الصخور بالماء الى الارتفاع المشار اليه بعبارة (منسوب الماء) ، فاذا حفرت بئر عند (ب) وعمقت الى ما تحت منسوب الماء أمكن استخراج الماء منها بالدلو أو المضخة . وهالك صورته :



(شكل ٢٧ - مقطع رأسى في جانب الجبل فيه بئر عند ب وبين ماء عند ع)

الآبار الارتوازية



(شكل ٢٨ - نظرة الآبار الارتوازية)

في شكل ٢٨ طبقة من الصخور ذات المسام (ب) محصورة بين طبقتين من الصخور المصمتة (ا) و(ج) والطبقات كلها ملتوية مقعرة ، والطبقة (ب) حافتان على وجه الأرض تقع عليهما الأمطار فتملاً صحن



(شكل ٢٩ - منظر بئر ارتوازي)

هذه الطبقة ، بحيث
لو تقبت الطبقات التي
فوقها بحفر بئر في
وسطها ، يخرج الماء
من تلقاء نفسه ويملأ
الحوض ، وهذه الآبار
الارتوازية عظيمة
الأهمية فيرى الجهات
البعيدة عن الأنهار
والترع (انظر شكل ٢٩)

حفر المجرى وتوسيع الوادى



(شكل ٣٠ - واد عميق ضيق)

تحفر الأنهار مجاريها وتنحت الوديان ، فاذا
مرّ النهر بجبهات عديمة الأمطار ، حيث لا يمكن
أن يتزود بنهرات تمزق جدران الوادى وتساعد
في توسيعه ، ينحت النهر واديا غارا يسمى خائقا
مثل خائق نهر كلورادو ، وترى صورة مثل هذا
الخائق في (شكل ٣٠)

وفي الجهات الأخرى تمزق الأمطار والسيول
والنهرات جدران الوادى ، وتجرّف الصخور الى
بجى النهر فينقلها الى حيث شاء ، وبذلك
تتكوّن الوديان العريضة ، ولكل نهر واد قد
كوّنه بنحت الصخور المجاورة لمجرىه .

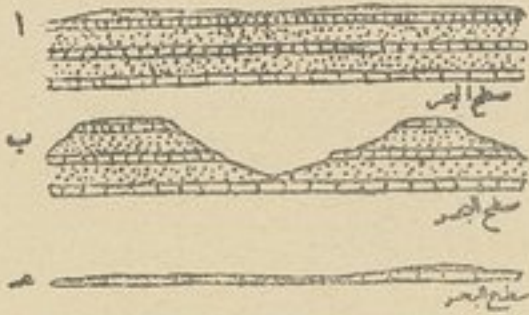
وقد عرفت أن الهضبة الحديثة اذا انسابت فيها الأنهار شققتها بالوديان تاركة سلاسل جبلية كالجدران
تفصل الأحواض المختلفة ، ويبين شكل (٣١) تكوين الوديان العريضة والجبال المتخلفة . وهذه صورته :



(شكل ٣١ - تحول الهضبة الى وديان وسلاسل جبلية بفعل عوامل التعرية)

وفي عمق خانق كلورادو دليل على مقدار ما يستطيع الماء نحت رأسيا في الصخور، فان حافة الصخر مرتفعة عن سطح الماء هناك بأزيد من ميل، فلأضفت الى ذلك ما يحتمل أن تعمله الأمطار والنبهات على جانبي النهر من توسيع الوادي، وخاصة اذا كانت الصخور رخوة أمكنك أن تصوّر كيف ينسني للأشهار الصغيرة أن تنحت لها وديانا عريضة منبسطة.

دورة التحات



(شكل ٣٢)
(أ) هضبة حديثة (ب) الهضبة بعد التضاريس،
(ج) السهل المنعوت.

تنشق الهضبة الحديثة اذا انسابت فيها الأنهار، فتتحول الى وديان فصلها الجبال المتخلفة، ثم لاتزال الأنهار تنحت في صخور هذه الجبال حتى تأتي على آخرها فتعود الهضبة مسطحا واحدا مستويا كما بدأت، ويسمى هذا النوع من السهل (سهلا منحوتا) وهو ينحدر عادة انحدارا خفيفا تجاه الساحل، ويبين شكل ٣٢ دورة التحات في درجاتها الثلاث.

سرعة الجريان وشدة التحات

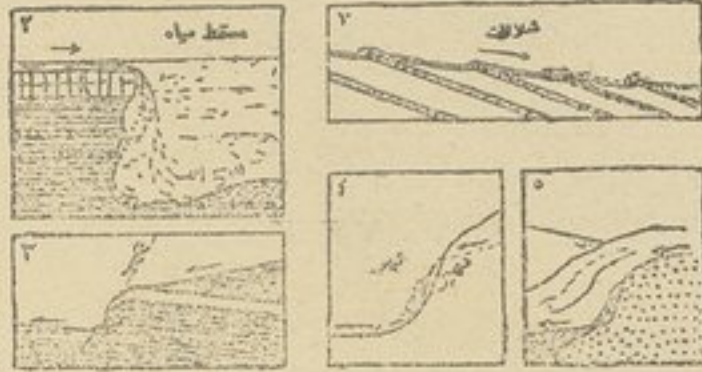
كلما كان التيار شديدا ازداد فعل النهر في التعرية، وازدادت تحات الصخور، لذلك نجد نجرها عظيما في الصخور عند المنابع، حيث يكون الانحدار شديدا والجري حديثا، إذ تمزق كتل صخرية فيجرفها الماء، وتلاطم فتفتت وتمتدك بعضها ببعض وبالجرى، وقد ترقد بعض الحجارة في حفر فلا يستطيع الماء أن يخرجها منها ولكنه يقلبها على كل جانب، ويهقل سطحها، فتتكون منها الجلاميد (الزلاط) المعروفة لنا، أما الحفر فتعمق ويكون لها أشكال وعائية غازة، ويوضح شكل ٣٣ الحفر الوعائية في حوض نهر آر بسويسرة. وهذه صورته:



(شكل ٣٣ - الحفر الوعائية في حوض نهر آر بسويسرة من أثر نفوذ الجلاميد)

مساقط المياه والشلالات

(١) بين اسوان والمخروط ستة شلالات مشهورة ، والسبب في تكوينها وجود طبقات جرانيت صلبة تمنخلل الطبقات الرخوة التي يجري عليها النهر ، فتتحط الطبقات الرخوة أكثر من الطبقات الصلبة وتظهر الشلالات على شكل صخور وجزائر تفترض مجرى النهر ، والجزء الأول من شكل ٣٤ يوضح ذلك .



(شكل ٣٤ - أسباب وجود الشلالات ومساقط المياه)

- (٢) ومن مساقط المياه المشهورة في الدنيا مساقط مياه فكتونور يا على نهر زمبزي حيث يهوى الماء من علو ٤٠٠ قدم ، ومساقط مياه نياجرا حيث يسقط الماء من ارتفاع ١٧٠ قدما ، والسبب في تكوين مساقط المياه وجود طبقات رخوة تحت الطبقات الصلبة ، فتتحط الطبقات السفلى بفعل الماء ، ثم تتداعى الطبقات التي فوقها بزوال دعائمها ، وهكذا يزداد علو المسقط ويتراجع من مكانه صاعدا نحو أعلى النهر ، والجزء الثاني من شكل ٣٤ يوضح ذلك .
- (٣) وقد تنشأ مساقط المياه عن وجود عيب في الطبقات يترتب عليه مسقط طبيعي في الصخور .
- (٤) كما تنشأ عند ملتقى نهر مجراه أعلى من مجرى النهر الأصلي .
- (٥) وكذا عند تغير نوع صخور القشرة من نارية صلبة إلى رسوبية رخوة .

المنعطفات والبحيرات المقطعة

في أدنى المجرى يضعف التيار ويبطؤ سير النهر فيغير مجراه إذا اعترضته الصخور ، ولا يخفى أن الماء يمتد في المجرى ، ويحمل الغرين ، ويحتفظ به ما دام التيار سريعا ، لكن إذا ضعف التيار تنعكس الحال ويغلب الترسيب ، والنهر المستقيم تياره في القلب أعظم منه في الجانبين ، لكن تختلف هذه القاعدة عند المنعطفات ، فإن التيار يكون بالغا أشده في المنحنى الظاهري ، ويكون في أضعف أشكاله في المنحنى الباطني ، فينشأ عن ذلك نحت وجرف في الأزل (حيث تكون المرتفعات عادة) وترسيب ودرم في الثاني (حيث تكون الأراضي الواطئة)

ولا يزال المنعطف في ازدياد حتى يستدير ويعد النهر سيلا لاجتيازه أخيرا في اتجاه مستقيم ، فيترك بحيرة

مقطعة على شكل الهلال . وفي شكل ٣٥ منعطقات الميسبي الأذني والبصبرات المقطعة . وهذه صورته



(شكل ٣٥)
منعطقات نهر الميسبي في أدنى مجراه

سهل الفيضان



(شكل ٣٦)
تكوين سهل الفيضان

يفتج من عمليتي النحت والترسيب عند المنعطقات تكون سهل فسيح في أواسط مجرى النهر وأدناه كما ترى في شكل ٣٦ وهذا السهل عادة قليل الارتفاع عن البحر وسير النهر فيه بطيء فيرسب الغرين في قواره ويرتفع القاع ، فإذا جاء زمن الفيضان لسبب اقبال موسم الأمطار ، أو ذوبان الثلوج ، تعرضت الأراضي المجاورة لخطر الفرق إذا لم تكن الجسور قوية ، وإذا غمر الفيضان الأراضي رسبت عليها طبقة من الغرين تجعلها فائقة الخصب ، والتطر المصري مثال من سهول الفيضان ، وكذلك حوض نهر هوانهو

المتكوّن من الغرين الأصفر في بلاد الصين ، وقد تغلب هذا النهر الأخير على جسوره مراراً فغير مجراه ، وسبب الكوارث ، ونقل مسبه أخيراً من البحر الأصفر إلى خليج بنشيلي .

وينشأ فيضان النيل عن الأمطار الموسمية التي تسقط على الحبشة في الصيف ، ويظهر الفيضان في مصر بوضوح في شهر سبتمبر من كل عام ، وقد حسب أن الأراضي الزراعية في مصر قد ارتفعت في خلال أربعة آلاف السنة الماضية أربعة أمتار ، تكوّنت من الطبقات الغرينية التي رسبت في مواسم الفيضان ، لذلك تجد الآثار مغمورة في الطين إلى هذا العلق . أما الأنهار التي تنبع من التلجات مثل « السين » بفرنسا ، فموسم فيضاتها أول الصيف عند ذوبان الثلوج .

تكوين دال النهر

عند المسب يقف جريان الماء ، فيرسب الغرين المعلق فيه ، فإذا كان البحر عظيم المد والجزر كالمحيط

الأطلسي فإنه لا يترك هذه الرواسب تعترض النهر بل ينقلها جانبا
ولكن الأنهار التي تصب في البحار القليلة المد والجزر كالبحر الأبيض المتوسط ، يرسب غريزها بمجرد
وقوف التيار عند مقابلة البحر الملح ، فيتكوّن من ذلك سهل غريزي مثلث الشكل غالبا تنفذ منه مياه
النهر الى البحر من عدّة فروع ، ونسعى الأرض الغريزية المتكوّنة بهذه الصفة (دلتا) أو (دالا) لقرب
شبهها عادة من حرف الدال ، غير أن لبعض الدالات أشكالا مميزة مثل دال المسيسيبي التي تمتد في خليج
المكسيك امتدادا عجيب الشكل ، وقد يكون للنهر فروع كثيرة في الدلتا ، مثلا لنهر أورنوكو بأمريكا الجنوبية
أكثر من خمسين فرعا ، ويجرى نهر المسيسيبي كل عام بثلاثة وخمسين مليون طن من الغرين الجديد ليزيد
بها بناء دلتا ، واستمرار تشييد النهر في الدال يقلل أهمية الثغور الواقعة عند المنصب بإبعادها عن البحر ، كما
قلت أهمية دمياط ورشيد أخيرا ، وقد كانت (أدريا) مدينة رومانية عند المنصب بإبعادها عن البحر ، كما
بحر الادرياتيك ، وهي الآن بعيدة عن الساحل بعشرين ميلا من الأراضي الغريزية .

ردم البحيرات التي تجتازها الأنهار

يصب نهر سميكي في بحيرة البرت فيرسب الغرين في أولها على شكل دلتا صغيرة ، ويخرج منها بحر الجبل
صافيا قليل الغرين لرسوب كثير منه في البحيرة ، ومآل البحيرات التي تصب فيها الأنهار أن يردمها الغرين
نهائيا ، ولا يبقى مجرى إلا مجرى النهر الذي يخترقها ، والبحيرات التي لا تنصرف مياهها الى البحر بالأنهار
مثل بحيرة (شاد) في أفريقية تكون ملحة لكثرة الأملاح في ضفافها اليابس التي ترد إليها ، أما البحيرات
التي تنصرف مياهها الى البحر مثل فكتوريا (التي تنصرف مياهها في النيل) فإنها تكون عذبة

هنالك قالت سائده لمائده : ياأختاه . قد طال الحديث ، ولم نصل الى إجابة دعائنا ، ولم أستفد منه إلا
ان العيون تنفجر على جوانب الجبال بسبب طبقات مسمّات تمنع سريان الماء الى أسفل فيفيض
الماء فيكون عيونا ، وقد يستخرج الماء بالأعمال الصناعية ، وهكذا عرفت أن النهر يوسع مجراه وينسع
الوادي ، وتحوّل الهضبة الى أودية وسلاسل جبلية بفعل عوامل التعرية ، بل ان الهضبات ترجع آخر الأمر
سهولا بذلك السبب ، وهكذا عرفت أسباب الشلالات ، ومساقط المياه ، والمتعطفات في بعض الأنهار وهكذا
سهل الفيضان وأنهار الجليد وفعلا ، فقالت لها : قريبا ستعرفين الجواب ، فاسمى بقية الحديث :

المطر والبرد والتلج

يسقط في مصر المطر ماء ، وقد يسقط معه البرد (بفتح الباء والراء) في بعض الأوقات ، فعزى قطعا صغيرة
من الثلج الجامد كالثلج الحجري ، ولكن في الأقاليم الباردة يسقط الثلج الأبيض الرخو بدل المطر ، وخاصة
في الشتاء حتى اذا ما أتى الصيف ذاب كله أو بعصه بحسب دفء المكان أو برودته .

الثلاجات وخط الثلج

وفي الجهات القاصية الشمالية مثل (إيسلند) و(جرينلند) ، والجنوبية القاصية مثل (انتاركشكا)
لاسيبيل الى ذوبان الثلج في مكانه ، فهو يزيد كل عام ، وتتراكم طبقاته ، ويندمج بعضها في بعض فتكوّن
منها مسطحات عظيمة من الثلج الجامد الأزرق ، سمكها بضع مئات من الأمتار ، وتسمى بالثلاجات ، ولا
يقتصر وجودها على الجهات القريبة من القطبين ، فان الارتفاع عن سطح البحر من شأنه نقص درجة
الحرارة ، ولذلك صارت رموس الجبال في كثير من جهات المنطقة المعتدلة مسرعا لنزول الثلوج وتراكمها ،

فاذا وقفت تشاهدها من بعد تراها مكسوة بقلنسوات مفضضة من الثلج اللامع ، ومتى جاء فصل الصيف وتزايدت الحرارة ذاب الجزء الأسفل من هذا الغطاء الى حد معين يسمى (خط الثلج) ، وكل ما زاد علواً عن هذا الخط دامت عليه الثلوج صيفا وشتاء .

الأنهار الجليدية

لا يمكن أن تزداد التلاجات باستمرار من غير أن يكون لها مصرف تنفذ منه ، لأن الثلوج الجديدة لا تنفثا تسقط عليها من الجوّ ، ومتى زادت هناك الثلوج وتراكت الطبقات الجديدة على القديمة ينزلق الثلج في فرجة بين الجبال وينحدر ثقله ودفع غيره له ، فيصبح لسانا من الثلج ممدودا تجاه سفح الجبل ، ولا يزال هذا اللسان يمتد وينعطف عند كل منعطف ويزوّد بثلوج أخرى من اليمين واليسار ، وهو ينحدر نازلا على شكل نهر جليدي كما تراه في شكل ٣٧ وهالك صورته :

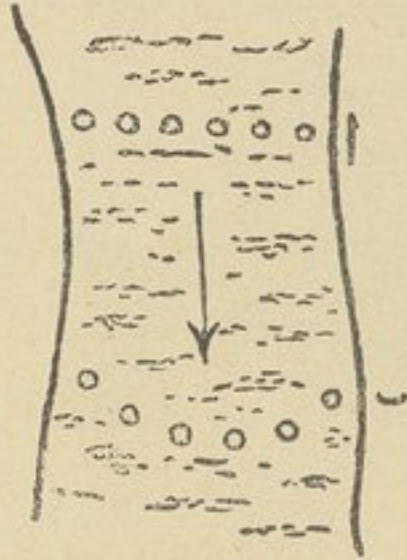


(شكل ٣٧ - صورة الطرف الأدنى من الجرف الثلجي في الرون بجاني فوكا متحدرا الى رأس واد من الأودية حيث ينحدر من النهر)

الهيارات الثلجية

ربما لا ينصرف الثلج المتراكم في التلال المرتفعة في الوقت المناسب ، فيزيد حجمه في إحدى النواحي فينهار منه الهيار إثر الهيار ، وتكون له قعقة مرعبة ، إذ يهوى وهو يتقلب ويتدحرج ، فيتلاطم ويحطم ، ويهشم ويدمر ، فلا يبقى ولا يذر ، وأهل القرى العالية يحرسون على الغابات ، لتكون بينهم وبين الهيار سداً

فعل الأنهار الجليدية في التعرية



(شكل ٣٨)

زيادة سرعة النهر الجليدي في القرب
عنها في الجانبين

شكل (ركامين جانبيين) وعند ملتقى نهرين جليديين يتحد ركامان جانبيان في (ركام وسطي) ، فإذا جمعت عدة أنهار جليدية تعددت الركامات الوسطية ، فالنهر الجليدي في شكل ٣٦ المتقدم ينحدر نحو ك ببطء وعلى وجه الثلج بجانب كل حافة سطر من الصخور هو الركام الجانبي ، وفي الوسط ركام وسطي ناشئ من اجتماع نهرين جليديين .



(شكل ٣٩ - صقل الثلج للصخور)

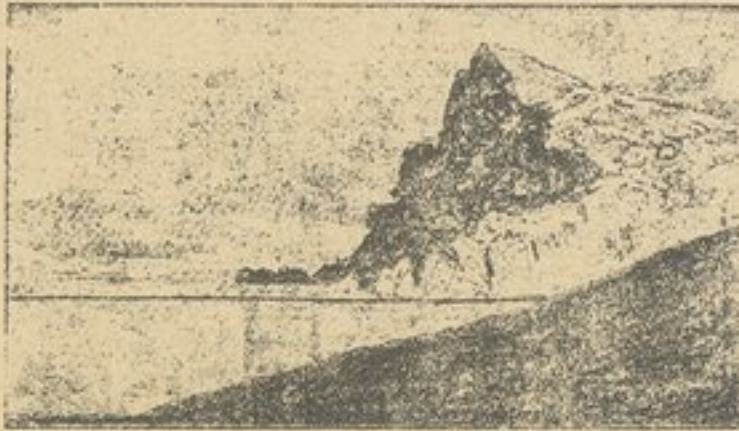
من خواص الأنهار الجليدية أنها كثيراً ما تنعطف مع الوادي من غير أن تنكسر ، وكثيراً ما تترافق على مجار خشنة مخرسة وهي متماسكة ، وإذا تشقت فقد تلتحم بسهولة ، لكن المجاري قد تكون وعرة جداً في بعض الأحيان ، فتتشقق الأنهار الجليدية بشقوق طويلة وعرضية ، والأنهار الجليدية كالأنهار المائية أسرع في قلبها منها في الجانبين ، وذلك طبيعي لأن الصخور الجانبية تعوق سير الثلج ، ولذلك تتقوس الشقوق العرضية أثناء سير النهر الجليدي (انظر شكل ٣٨)

وفي أثناء هذا السير أيضاً تنهار الصخور الآيلة للسقوط من أثر الصقيع والهيارات الثلجية السابقة وتقع على حافتي النهر الجليدي فيحملها معه على

وقد تقع الصخور في الشقوق فتصل إلى قاع النهر الجليدي فيجردها الثلج ، ويسير بها على شكل (ركام أرضي) ، وفي أثناء ذلك يستقلها وينحت بها المجرى . ويوضح شكل ٣٩ صقل الثلج للصخور . أما المسحوق الناعم الذي يتحات منها فيسير مع الثلج إلى (خطم النهر الجليدي) حيث يذوب الثلج ويمجرى الماء العكر بداية لنهر مائي عظيم ، وعند الخطم يتجمع فئات الصخور المختلفة التي جاءت مع الركامات كلها في ركام نهائي قد نشأ عنه رابية عظيمة .

الأجناد الطافية

لا يسمح البرد القارس في أطراف المعمورة من الشمال والجنوب للأشجار الجليدية بأن يؤول أمرها الى الفوبان ، فستمر ألسنتها في الانزلاق حتى تصل الى الساحل ، وهناك تنقسم منها الكتلة إثر الكتلة فتقع في البحر ، وتطفو على الماء كأنها جبال من الثلج : قد يكون الجزء الظاهر منها فوق الماء بضع مئات من الأمتار ، لكن باقى جرمها وهو تسعة أمثال ذلك ، يكون مخفيا تحت الماء (انظر شكل ٤٠)



(شكل ٤٠ - تكون الأجناد من الأشجار الجليدية)

وكما ذاب منها ركن نزع مركز ثقل هذا الجسد الهائل . وصار يتمايل ويتقلب ، وهو يسير مع التيارات البحرية تحفة به غيوم كثيفة ، وينشأ عنه خطر عظيم على الملاحة ، فقد دهم أحد هذه الأجناد الباخرة (نيتك) في أول سياحة لها في ابريل سنة ١٩١٢ تجاه سواحل جرينلاند ، وكانت عروس بواخر الدنيا . والأجناد كالأشجار الجليدية التي اشتقت منها تحمل معها ركلمات صخرية ، ومتى ذابت رسبت الصخور في قعر المحيط ، فكونت مسطحات مرتفعة يأوى إليها السمك ليقم فيها ، حيث يكون ضغط الطبقات المائية عليه أخف منه في أعماق المحيط ، وقد اشتهرت سواحل نيوفوندلند بأمريكا الشمالية ، وسواحل (هكيادو) في اليابان بكثرة مصائد السمك لهذا السبب .

فقلت (سانده) هيا بنا نذهب الى سواحل اليابان . فقلت (مانده) : إن العلم أحسن شيء في الوجود فأرجو أن تبنى درس الصقيع والثلج بحيث تسمعين ما أعلمك للنهابة ، وبعد ذلك نسافر . فقلت حبا وكرامة يا أختي فقلت مانده :

عمل الصقيع في التعمرية

قد عرفت في (شكل ٢٥) المتقدم كيف أن الصخور تنشق من تغير درجة الحرارة ، فإذا نشقت الصخور فإن ماء المطر يشغل الفراغ بينها ، وإذا برد الجوى يتحول الماء الى ثلج ، وقد رأيت الثلج يطفو على الماء في القديح ، ورأيت كذلك أن الأجناد تطفو على المحيط بحيث يكون العشر فوق الماء ، وتسعة الأعشار تحته . ومعنى هذا في علم الطبيعة أن الماء عند ما يستحيل الى ثلج يمتد ، لأن الثلج أخف من الماء ، فالأشجار التي في شقوق الصخور عند ما يتجمد يزيد حجمه فيضغط عليها ويمزقها ، وفي البلاد الباردة مثل كندا يساعد الصقيع على تزيق التربة فيوفر حرث الأرض ، وأثابيب الماء في الأقطار الباردة مثل إنجلترا

تعرض أحيانا للانفجار لضغط الثلج المتكوّن من الماء في داخلها .
 الواقف عند الساحل تلفت نظره الأمواج بانتظامها على الشاطئ ، وخاصة إذا هاج البحر وتلاطمت
 الأمواج ، فينتطح الموج الصخور ، فيوهنها ويقذف منها قطعاً يحرفها معه بعيداً عن الساحل ، ثم يعود بها ،
 فيناضل الساحل من جديد ، فلما قطع الصخور فتفتت إلى رمال وجماليد ، وأما الصخور الساحل فتتحات ،
 ومنها ما ينهار ، ومنها ما ينخرم بالتقوب والمغارات .
 والتأمل في قوة الأمواج وفعالها يدور بخلد ذكراً الأبدية ويسأل هل ظل البحر يناطح الساحل طول
 الأبد ، ولماذا لم يأت على آخرها ليس فيدفنه تحته ، ويظهر منتصراً عليه ؟ لكن لا يلبث أن يتذكر حركات
 القشرة الأرضية وأثرها في بروز أراض جديدة من قرار البحر لتعبد التوازن ، والصخور اللينة أسرع تحاماً
 من الصخور الصلبة . ففي (شكل ٤١) مسلات طبيعية قاومت الأمواج فبقيت بعد أن نحات ماحولها من
 الصخور ، وإذا كانت الصخور التحتية رخوة بليت ونحرت فتداعت الصخور التي فوقها من تلقاء نفسها .



(شكل ٤١ - مسلات طبيعية من تحت الأمواج)

والمدّ إذا ملأ مغاور الشاطئ ضغط الهواء فيها ، فإذا جاء دور الجزر انحسر الماء سريعاً ، فانسحب الهواء
 وراءه من شقوق المغاور ، فيتداعى ما لا يحتمل الجذب من الصخور ، وبمرور الزمان تتخرّم سقوف المغاور
 بالناور الطبيعية ، ثم يحين الوقت أخيراً لتداعى السقف كله وتكون فرجة في الساحل ، ومن تفاوت مقارمة
 الصخور للأمواج تنشأ الشروم والروس وتتكون تقاطيع الساحل ، وهذه التقاطيع عظيمة الأهمية في
 الملاحة ، فإن السفن لا يهولها اشتداد العواصف وسط المحيط مهما غضب البحر عليها ، ولكن تنزعها الأنواء
 قرب الشواطئ الوعرة . والمرافق الجيدة هي التي تتوافر فيها حماية السفن من الأنواء ، ومنى وجدت المرافق
 الصالحة أصبح مؤكداً نشوء الثغور وتبادل التجارة . انتهى
 ثم قالت (سانده) : الآن قد تمّ الحديث فقالت مائده : أما الآن فقد طاب السفر ، فهيا بنا إلى سواحل
 بلاد اليابان لنعيش هناك تحت الحجارة ، فما قالت ذلك سائده حتى غابت السمكتان عن عيني ولم ترجعاً لأنهما
 سافرتا .

قال الحرث بن همام : وما كادت السمكتان تسافران حتى استبقظت إذا طيبب السفينة وأعوانه يضعون
 السعوط في أنفي والأدهان على جسمى وهم يدلكونه ، ولم تزد المدة على نوان معدودة . قال : فعلت أنها
 أضغاث أحلام ، وهل لأضغاث الأحلام من تأويل ؟
 فلما سمعت ذلك من الحرث بن همام هجبت من ذلك وأيقنت أنه من فتوح العزيز الرحيم ، وأنه مناسب

لهذه الآية . فوصف (مانده) لأختها (سانده) فعل الأمطار في الجبال والصخور والأنهار وتكونها ثلوجا فوق الجبال ثم رجوعها للبحر ثانيا إجابة لدعاء السمك مشابه للجباب التي أسمعها الله لنا في قصة أم موسى والتابوت ووقوعه في يد فرعون وحفظه ، وفي قصة موسى وإلقائه عصاه وخوفه منها لما صارت حية ، ثم ذهاب خوفه وهكذا خوفه من القوم أن يقتلوه ، وخوفه من عصي السحرة إذ صارت حيات ، ثم نصره عليهم ، فهذه المقدمات والحكم التي نسمعها في التنزيل فظير ماني هذه العوالم من عجائب البخار والبرودة التي تجعله ماء ، ثم الهواء المسير للسحاب ، فالمطر ، فاقطابه ثلجا ، فتراكمه ، فنزوله في البحر فيصير مأوى للسمك .

تباركت يا الله ، تباركت وتعاليت . لك الكبرياء يا ربنا ولك العزّة ، لك العجائب في قصص أم موسى وموسى ، ولك الإبداع في قصص المطر والنهر والتلج والحجارة ، حكم أبدعت ، كيف هذا ؟ بخار يثور من البحر فيصير ماء ، فثلجا . ثم يفعل هذا البخار فعلا يمجز عنه البنائون والمهندسون والعمال ، فيكسر الصخور ويقطعها من الجبال ، ويحملها ، ويجري بها : وينزل بها في البحر ، وبينها ، وتصير مأوى للسمك عجب وألف عجب ! دنيانا يارب عجيبة ، مملوءة بالجبال ، فأنت بهذه الأعاجيب والمقدمات قبل ظهور النتيجة ذكبرياء وعزّة ، وبرحمتك للسمك وأمّ موسى وموسى صرّب وحكيم ، وهذه الآيات في آخر سورة الجاثية لبيان ماني أولها ، لأنه بدأها بأن الكتاب نزله عزير حكيم ، وهى العزّة والحكمة يظهران إلا فيما بعدها من الآيات وهو ما ذكرته من السموات والأرض ، وخلق الدواب ، وإزالة المطر ، وتصريف الرياح ، وختم السورة بأنه محمود لأنه يربى السموات والأرض المذكورتين في أولها مع العزّة والحكمة ، فأول السورة عزّة وحكمة ، وآخرها كذلك ، وهذا ملخص الفاتحة فان الحمد والرحمة والهداية كلها حكمة ، وقوله : « مالك يوم الدين » وذكر المفضوب عليهم والفاضلين راجع للعزّة . هذا هو الذى خطر لى في تفسير هذه الآية والحمد لله رب العالمين . كتب نصحى يوم ٨ مارس سنة ١٩٣١ م

تذكرة

في قوله تعالى في أول السورة : وما أنزل الله من السماء من رزق الخ مع آية : وقدر فيها أقواتها الخ في سورة حم فصلت

لما أتممت هذه السورة جاء صاحبى العالم الذى اعتاد محادثتى في هذا التفسير . فقال : لعلك نسبت ما وعدت به في سورة حم فصلت ؟ فقلت : وما الذى وعدت به ؟ فقال : ألم تقل هناك عند إصباح آية : « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت » مانصه : « وسياتى تفصيل هذا المقام في أول سورة الجاثية فراجعه ولا تقول إلا على التفصيل هناك » . فها أنا ذا قرأت أول السورة فلم أجد اجبالا ولا تفصيلا للكلام على الأغذية النباتية المناسبة لآية : « وما أنزل الله من السماء من رزق » الآية ومقاديرها التى أشار لها الله فقال : « وقدر فيها أقواتها الخ » . فقلت : أتذكر أننى بعد أن قلت ذلك فصلت الكلام هناك بعد نحو صفحتين . فقال : نعم ، ولكنك بهذا الوعد تحير الذى يقرأ التفسير ، فلا يقول على ما أوضحت هناك . قلت : انى أوضحت هناك في صحيفة ٣٣١ في الجزء التاسع عشر ، وأبنت أن الانسان اذا كان في فرائشه يعوزه في اليوم ١٨٠٠ سعر ، والسعر معروف هناك فلانعيده ، وان كان في شغل شاق يعوزه ٤٠٠٠ سعر في اليوم ، وان كان في شغل متوسط يعوزه ٣٠٠٠ سعر في اليوم أيضا . فقال : ولكن أذكيا القراء يتطلعون الى زيادة هنا . فقلت : هاك نص ما جاء في كتاب « الغذاء في الأمراض » تأليف الدكتور حسن عمر ، فقد جاء فيه تحت العنوان الآتى مانصه :

القيمة الغذائية للمأكولات

إن أهمية المأكولات موكولة لقيمها الغذائية أي ما يستفيد الجسم منها، وذلك بأن يتحول الغذاء المأكول إلى حرارة في الجسم وحركة (أي أن كل الحركات التي يعملها الشخص تنشأ عن الحرارة التي تتولد من الجسم) فكل جرام من هذا النوع من الغذاء يولد حرارة جديدة بدلا من الحرارة التي استنفدها الجسم وقت حركته، ووحدة هذه الحرارة تسمى (الكالوري أو السعر).

فالجرام الواحد من المادة الزلالية يعادل ٤ كالوري، والجرام الواحد من المادة الدهنية يعادل ٩ كالوري، والجرام الواحد من المادة النشوية يعادل ٤ كالوري.

نحن محتاجون للغذاء لتوليد الحرارة، وكلما كثرت العمل استنفد الجسم مقدارا من الحرارة يعادل العمل الجسماني. إذن فقد وجب أن نتناول من الغذاء مقادير تعادل ما يتطلبه العمل من الحرارة أو يزيد قليلا حتى لا يستنفد العمل كل حرارة الجسم فيظهر الضعف وانهاك القوى، ولكل عمل جسماني قيمة معينة من وحدات الحرارة (السعر) يتمكن بها من القيام به خير قيام. ويجب فوق ذلك ملاحظة وزن الجسم، لأن اختلاف الأوزان يدعو إلى اختلاف الوحدات المطلوبة، مثلا رجل وزنه ٦٥ كيلوجراما يحتاج من الغذاء يوميا إلى ما يأتي:

الحالة	السعر اللازم للكيلوجرام في اليوم	مجموع ما يحتاجه في اليوم بالسعر
في الفراش	٢٨	١٨٠٠
جالس	٣٢	٢١٠٠
شغل بسيط	٣٣	٢٣٠٠ - ٢٥٠٠
شغل متوسط	٤٠	٢٦٠٠ - ٣٠٠٠
شغل صعب	٤٨	٣١٠٠ - ٤٠٠٠

أما إذا كان العمل شاقا فإن قيمة الغذاء تختلف باختلاف ما يتطلبه العمل من مجهود جسماني، مثلا عمل الفلاح ليس كعمل البناء ولا النجار، إذ كل عامل منهم يحتاج إلى قيمة غذائية معينة حتى يتمكن القيام بالعمل على الوجه الأصح، وهالك جدولاً بمختلف الحرف وما يحتاجه من سعر يوميا:

أعمال عادية

الصنعة	السعر المحتاج له يوميا
الجزمجي	٢٤٠٠
الغزال	٢٧٠٠
النجار - البناء	٣٢٠٠
الفاعل - الفلابكي	٤٠٠٠
الفلاح (أيام العزق والحراث والحصاد)	٤١٠٠
الساعي (راكب الدرّاجة)	٥٠٠٠
السيدة (شغل بسيط)	٢٤٠٠

أعمال فنية

الصنعة	السعر المحتاج له يوميا
الطبيب	٢٦٠٠
قاضى - مهندس رسام	٢٧٠٠
أستاذ الجامعة - كاتب	٢٨٠٠
محام - مدرّس - تاجر	٣٢٠٠
تلميذ ابتدائى مصرى (داخلىة)	٢٥٠٠
تلميذ ثانوى مصرى (داخلىة)	٢٩٠٠
طالب مدرسة الفنون والصنائع المصرية (داخلىة)	٣٦٠٠
طالب بالزراعة العليا (داخلىة)	٣٧٠٠
طالب بالقسم العالى الأمريكى	٣٥٨٠
طالب شدّ الحبل ولاعب كرة القدم (أمريكى)	٦٥٠٠
العسكرى الانجليزى (فى السلم)	٢٢٠٠
» الألمانى »	٢٧٠٠
» المصرى »	٢٧٠٠
» الاسبانى »	٣٤٠٠
» الأمريكى »	٣٧٠٠
» الايطالى »	٤١٠٠
» الفرنسى فى الحرب »	٤٠٠٠

وقال فى صحيفه ٥١ وما بعدها مانصه : « ولكل جسم قدرة معينة وميزانية خاصة للاستفادة من خليط الغذاء الذى نأكله ، فما زاد عن حاجة الجسم إما أن يخزن ، وإما أن يخرج كإفرازات نالفة عديدة النفع للجسم ، وأهمّ علاج هذه الحالات هو تنظيم مقادير الأكل وأنواعها ، وقد قام رجال عدّة بهذه الأبحاث ، وقرروا ما يجب أن يؤكل من الموادّ الزلالية والنشوية والدهنية بمقادير معينة تفيد حالة الجسم ولا تزيد مابه من دهن ، وأهمها هي :

اسم الاستاذ	زلال	نشا	دهن	السعر	اسم الاستاذ	زلال	نشا	دهن	السعر
باتنج	١٧٢	٨١	٥	١١٠٠	أورتل	١٥٦	٧٥	٢٥	١١٨٠
هيرشفيلد	١٠٠	٥٠	٤١	١٠٠٠	كشن	٢٠٠	١٠٠	١٢	١١١٦
فون نوردين	١٥٥	١١٢	٢٨	١٣٦٦	ابشتين	١٠٢	٤٧	٨٥	١٣٠٠

هذه هي المقادير التي يجب اتباعها في علاج السمنة مع ملاحظة التفرينات الرياضية ، وعلاج ماسببت السمنة في الجسم كالأ كزيميا والأمراض الجلدية الأخرى وتصلب الشرايين وضعف القلب ، وكذلك معالجة الغدة الدرقيّة أو أى غدة أخرى ذات إفراز داخلى يكون لها يد فى هذه السمنة. انتهى ما أردته من الكتاب المذكور فلما سمع صاحبي ذلك . قال : لوعرفنا تحليل الأغذية لكان ذلك نفعا عظيما . فقلت : تقدم فى سورة ﴿ فصلت ﴾ فارجع إليه ، فاطلع عليه ففرح وقال الحمد لله رب العالمين . انتهى تفسير سورة الجاثية

تفسير سورة الأحقاف

(هي مكية)

إلا ثلاث آيات ، وهي قوله تعالى : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم » وقوله : « أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا وتتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون » وقوله : « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستجبل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون » غدنية

آياتها ٣٥ - تزلت بعد الجاثية

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

حَم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنَاذِرَةٌ مِنْ عِلْمِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ * وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنبَغُ عَلَيْهِمْ أَقْرَبُ أَمْ يَقُولُونَ كَذِئْبٍ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ الْبُرْهَانَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَفْتَرَيْتُمْ فَلَآ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم * وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ * إِنْ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا

فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ * وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ
 وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ
 نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ
 إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ تَتَّقُلْ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ
 فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصَّدَقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ * وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفِ لَكُمْ
 أَعْدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِئَانِ اللَّهَ وَيَلْتَكِمَانِ إِنَّ وَعْدَ
 اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّهِمْ قَدْ
 خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ * وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا
 وَوُفِّيَتْهُمْ أَعْمَالُهُمْ وَهُمْ لَا يظَلَمُونَ * وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلْهَبْتُمْ
 طِبَاقَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ
 تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِمَنْزِلِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ * وَإِذْ كُنَّا أَعْيُنًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ
 إِذْ أَنْذَرَهُ بِالْأَخْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ
 عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَا عَنِ الْهَيْبَةِ فَأَنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ
 مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا
 تَجْهَلُونَ * فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمَطَّرٌ نَا بَلْ هُوَ مَا
 اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا
 أَسْمَاكُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * وَلَقَدْ مَكَنَّاهُمْ فِيهَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا
 لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ
 كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا
 حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ يَرْجِعُونَ * فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ أَخَذُوا
 مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْسُرُونَ * وَإِذْ صَرَفْنَا

إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ
 مُنذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ
 يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ
 مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي
 الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي
 خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلْبَسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا قَالَ
 فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا
 تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ فَهَلْ يُهِنُكَ
 إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ .

هذه السورة قسمان

﴿ القسم الأول ﴾ في تفسير البسملة

﴿ القسم الثاني ﴾ في تقسيم السورة

القسم الاول في تفسير البسملة

تجارت الرحمة في هذه السورة بما تبدي بها من ضروب الحكمة ، وفنون العلم ، وأزاهير النظام الاجتماعي
 فيبينا تراها مبدرة بوصف الكتاب بالعزة والحكمة ، ومختومة بالنوصية بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل
 اذا نحن نرى القوم مخاطبين باظهار الأدلة على تلك الآلهة التي عبدوها ، والأصنام التي أقاموها ، موبخين
 على ما اقترفوا من إثم الذم بالسحر ، مقامه لهم الأدلة على صدق النبوة التي ليست بدعا بأن بعض بني اسرائيل
 صدقوها وآمنوا بها وهم أعلم منهم ، وقد تبع ذلك استهجان ما يهرفون به من أن الفضل خاص بهم فكيف
 يتعداهم الى غيرهم ؟ فلو كان القرآن كذلك لكانوا هم أولى به ، وتلاه الاشارة بمدح الذي حفظ وصية الله
 في والديه فبرهما وأطاع ربه ، والذم لمن عصى الله والديه ، ثم أتى بالقاعدة العاتية التي بها نظام الدول والممالك
 والأسرات والامارات ، وهي أن الانهماك في اللذات والشهوات ، والاسراف في اتقاق الأموال والخروج
 عن حد الاعتدال في الطعام والشراب . كل ذلك مورث هلاك الأمم ، وضياع الدول والأفراد ، والوقوع في
 الأمراض والخزي في الحياة الدنيا ، وضرب لذلك مثلا بعباد الذين أرسل لهم هود ، فانهم كذبوا واستكبروا
 فهلكوا فأنزل الله بهم العقاب في هذه الدنيا ، وسيتبعه عقاب الآخرة ، وهذه أمة عربية في بلاد حضرموت
 وهي الأحقاف ، وهم أقرب الى الأمة العربية ، المنزل الكتاب بلسانها ، وهذا كان في الحقيقة ذكرى لأمة
 الاسلام التي جاءت بعد نزول القرآن ، فياليت شعري : أي رحمة ، وأي نعمة على مسلمي زماننا هذا أكبر من

أن يتذكروا ما حلّ بالأمة الأموية والعباسية والممالك السلجوقية والفاطمية والتركية والمملكة الأندلسية من ذهاب مجدهم ، وأقول شمسهم ، وغروب سعدهم ، ويزوغ نحسهم ، وظهور ذلهم وعذابهم في الحياة الدنيا لما استكبروا في الأرض بغير الحق ، وتغنوا في ضروب الملاهي ، واتبعوا الشهوات ، وأسرفوا في كل ضرب من ضروب الحياة فذهبت ربحهم وخزّ عليهم السقف من فوقهم ، أليس كل هذا هو ما أنذره القرآن وحذر بذكر عاد ، وانهم أذهبوا طيبتهم في حياتهم الدنيا ، فعذبوا فيها بعذاب الخزي ، وسيعقب ذلك عذاب الآخرة ، وسيأتي مقدار ما أسرفت أمتنا السابقة ، حقّ علينا القول ، فهذا عذاب من الرحمن ، فأنه عزّ وجل عذب الأمم الإسلامية عذابا نقيجه الرحمة ، وهل الرحمة هنا إلا أن نجذب نحن مافعله آبائنا من الغفالي في تبذير المال ، واقتناء الجوارى اللاتي يبلغن المئات كما ستراه وانحما في هذه السورة ، وأن نسير على منوال الخلفاء الراشدين في نظام حياتهم فتكون لنا السعادة في الدنيا والآخرة ، لهذا جاء القرآن ، وهذه الذكرى كان هذا التفسير ، ثم ان الإيمان بالكتاب لم يقتصر من غير العرب على اليهود بل تعداهم الى الجنّ فهذه نذ من مجامع علوم هذه السورة ، وهي مما تتضمنه الرحمة المذكورة في البسملة . انتهى الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة . كتب يوم السبت ١٨ يوليو سنة ١٩٣١ م ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثاني في تقسيم السورة

هذه السورة ستة مقاصد

- ﴿ المقصد الأول ﴾ في التوحيد من أزلها الى قوله : « بعبادتهم كافرين »
- ﴿ المقصد الثاني ﴾ في المعارضات التي ابتدعها الكفار للنبوّة ، والاجابة عليها ، والبراهين على فسادها ، من قوله : « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات » الى قوله : « وبشرى للحسين »
- ﴿ المقصد الثالث ﴾ في أهل الاستقامة الذين وحدوا وصدقوا بالنبوّة ، وأن جزاءهم الجنة ، وذكر بعض وصايا تتعلق بالمؤمنين من اكرام الوالدين ، وذكر المحاورات بين الوالدين والمولودين ، وبيان ما يرضى الله في ذلك ، وذكر من صرفوا الحياة الدنيا في اللذات والشهوات ، وأذهبوا طيبتهم في شهواتهم ، من قوله تعالى « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » الى قوله : « بما كنتم تفتقون »
- ﴿ المقصد الرابع ﴾ في ذكر عاد والاستدلال بما حلّ بهم بعد العظمة والجلال ، على أن صرف الطيبات والنعم في غير محلها يورث الهلاك في الدارين ، فهي كالاستدلال على ما قبلها ، وفي ذكر الأمم التي هلكت بالقرب من مكة كشمود وقوم لوط ، وأن هؤلاء لم تنفعهم الشركاء التي ابتدعوها ، وذلك من قوله : « واذا كرأنا عاد » الى قوله : « وما كانوا يفترون » .
- ﴿ المقصد الخامس ﴾ في استماع الجنّ لرسول الله ﷺ وأنهم بلغوا قومهم ، وذكروا في الاستدلال ما يناسب أول السورة من أن القرآن مصدق لكتاب موسى وغيره ، وما يتبع ذلك ، من قوله : « واذا صرفنا اليك قرآن من الجنّ » الى قوله : « بما كنتم تكفرون » .
- ﴿ المقصد السادس ﴾ عظة للنبي ﷺ والمجاهدين من أمته ، وهي ختام السورة ، وذلك بالصبر كما صبر أولوا العزم من قوله : « قاصبر كما صبر أولوا العزم » الى آخر السورة .



المقصد الأول

﴿ التفسير اللفظي ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(حم) تقدم الكلام عليها في السور السابقة ، وأيضا تذكير بالحمد المتقدم في آخر السورة السابقة إذ قال الله تعالى : « فته الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين » . ثم أتبعه ببيان أن الكبرياء في السموات والأرض مختص به ، إذ ظهرت آثار كبريائه وعظمته فيهما ، وأردفه بإفادة أنه قاهر غالب حكيم فيما قدره وقضاه ، هذا ملخص آخر السورة السابقة ، وجاء في أول هذه السورة ذكر الرحمة في « بسم الله الرحمن الرحيم » كأنه يقول : « إن كبريائي وعزتي وحكمتي مصحوبات بالرحمة ، فكل ما قهرته من هذا الوجود وغلبته وحكمت عليه ، فاعلم ذلك بحكمة نامة ، ورحمة عامة وخاصة » ثم قال « حم » أي ان من يفعل ذلك يجب أن يحمد فاحسبه ، وهذا كالنتيجة للمقدمات السابقة المذكورة بعد قوله « فته الحمد » ، فكأنه استدل على اختصاص الحمد به بما تقدم ، وختم الاستدلال بالنتيجة ، وهي أنه يجب حمله بقوله « حم » وبهذا البيان صارت هذه السورة وما قبلها في نمط واحد ، وسلك منتظم ، ونسق واحد ، لا تغيير فيه ، ولذلك ترى ذكر العزة والحكمة هنا كما ذكرنا في آخر السورة .

يقول الله : الكبرياء لي في السموات والأرض ، وأنا الغالب القاهر ، المحكم لعملي ، المتقن لصنعي في السموات والأرض ، وفي تنزيل القرآن ، فإذا أنا قهرت المادة وأحكمتها ، فهكذا فعل في القرآن أقهر من لا يؤمن به فأتقّم منه ، وقد أنزلته بحكمة ، ففعلني بحكمة وقولي بحكمة ، إن (ال حم) أوها وآخرها ملتبان بالجد ، فأول (ال حم) مسبوق بالجد وآخرها كذلك ، فهذه السور فيها المقام المحمود ، والمقام المحمود مبتناه العلم . ثم قال تعالى (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى) أي خلقنا ملتبسا بالعدل وهو ما تقتضيه الحكمة والعدالة ، وبتقدير أجل مسمى لكل مخلوق ينتهي إليه أجله ، ومدة بقائه ، فلانبات ، ولاحيوان ، ولاإنسان ، ولاجبل ، ولاكوكب ، ولاجامدا ، ولاسائلا إلا لها آجال تنتهي إليها ، وهذا معلوم مشاهد . يقول الله : إن خلق السموات والأرض وخلق ما بينهما مصحوب بالحق ، قائم بالعدل والنظام ، ومن النظام أن تكون الآجال معلومة مقدرة لكل نوع ولكل فرد ولكل كوكب ولكل شمس ولكل روح ، وهذا مشاهد معلوم ، فإن النظام يعلمه الحكماء ، وهكذا الآجال معلومة لله والناس يرون أنه لا موجود في هذا العالم دائم ، وإذا كان الأمر كذلك فليكن ذلك دليلا اقتناعيا إن هذه العوالم كلها ، حقيرها وجليلها ، يوما يكون موعدا للجميع ، وهو يوم القيامة ، وهذا يفيد النظام ، إذ النظام يقضى أن يكون هذا العالم لغاية وحكمة ، وأن لا يستوي المحسن والمسيء (والذين كفروا عما أئذروا) أي عما أئذروه من هول ذلك اليوم الذي لا بد لكل مخلوق من الانتهاء إليه (معرضون) لا يؤمنون به ، ولا يستعتون له ، ولا يتفكرون فيه ، فلا بالكتاب المنزل وأنذاره اعتبروا ، ولا بما يشاهدون في العالم من النظام والحكمة فكروا ، فهم قاصرون سمعا وبصرا ، فلا هم بسماع الوحي متعظون ، ولا بالنظر في العالم المشاهد يتذكرون (قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات أئتنوني بكتاب من قبل هذا أو آثاره من علم إن كنتم صادقين) أي أخبروني عن حال آلهتكم بعد تأمل في خلق السموات والأرض وما بينهما ، والنظام الشامل لهما ، والحكمة السائرة على نظام واحد فيهما ، وبعد تأمل في حال آلهتكم هل يعقل أن يكون لها مدخل في خلق شيء من أجزاء هذا العالم فستحقق به العبادة

ولو كان لها دخل لظهر في هيئة المخلوقات وصار هناك تفاوت بين أجزاء النظام ، ولكن نظام العالم واحد يستمد أدناه من أعلاه ، فكأنه حيوان واحد ، أو إنسان واحد ، حتى إن كل كوكب أو مجموعة كواكب من الثوابت تفيد أهل الأرض علما بيسر سفنهم ، وسير قوافلهم في البحر والبر ، فكل النظام مرتبط ببعضه ببعض ، وكأن كل فرد واحد مخدوم بجميع الأفراد في الأرض ، وكأن كل كوكب يخدمه سائر الكواكب على نحو ما وهيئة ما ، فلو كان هناك شركاء لاختلف النظام ، ولاختل اختلالا ميينا ، وهذا هو قوله تعالى : « أرؤى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات » ثم طلب منهم أن يؤثروا بدليل على هذا الشرك المدعى بكتاب موسى به من قبل القرآن بقوله « أو أنارة من علم » أي بقية من علم بقيت عليهم من علوم الأولين هل فيها ما يدل على استحقات العبادة لمؤلاء الأصنام ، ومعلوم أن الدليل إما من الوحي ، وإما من العقل ، فأما الوحي فأين الكتاب قبل القرآن الذي فيه أنهم شركاء ، وأما العقل فأين بقية علوم العلماء المفكرين في خلق السموات والأرض ، ومعلوم أنهم قد أيقنوا بوحدة النظام ، فالفلسفة بمجموع على حسن النظام ووحده ، والوحي جاء بالتوحيد ، فهذا قوله : « قل أرأيتم » إلى قوله : « إن كنتم صادقين » لأن الصدق في الدعوى بالبراهين ، والبرهان هنا جاء على ضد ما زعموا فليسوا بصادقين ، ثم بين ضلالهم . فقال : (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له) يعني الأصنام لا تجيب عابديها إلى شيء بسألونها (إلى يوم القيامة) فهي لا تجيب أبدا مادامت الدنيا (وهم عن دعواتهم غافلون) فهم إما جادات ، وإما عباد مسخرون مشتغلون بأحوالهم (وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء) يضرتهم ولا ينفعونهم (وكانوا بعبادتهم كافرين) مكذبين ، إما بلسان الحال ، وإما بلسان المقال . انتهى تيسير المقصد الأول من السورة .

المقصد الثاني

وهو الذي فيه ذكر معارضات النبوة والاجابة عليها

قال تعالى (وإذا تنلى عليهم آياتنا بينات) وانفجرت ، أو مبيّنات (قال الذين كفروا للحق) أي لأجله وفي شأنه ، والحق المراد به الآيات المذكورة ، والذين كفروا هم المتلقون عليهم ، وذلك لتسجيل الحق على الآيات والكفر عليهم لشدة انهماكهم في الضلالة (لما جاءهم) أي بادءه بالجهود ساعة أأنهم وأول ماسمعه من غير نظر ولا فكر (هذا سحرمين) ظاهر أمره في البطلان ، ثم أضرب عن ذكر تسميتهم الآيات سحرا إلى ذكر قولهم ان النبي ﷺ افتراء واختلقه وأسندته إلى الله كذبا . فقال : (أم يقولون افتراء) أي بل يقولون (قل) يا محمد (ان افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا) أي لا تقدرّون أن تردّوا عني عذابه إن عذبي على افترائى فكيف أفتري على الله من أجلكم (هو أعلم بما تفيضون فيه) تندفون فيه من القدح في آياته والتكذيب وقولكم انه سحر (كفى به شهيدا بيني وبينكم) يشهد لي بالصدق وأن القرآن من عنده ويشهد عليكم بالانكار والكذب ، وهذا وعيد لهم على افاضتهم في القرآن (وهو الغفور الرحيم) لمن تاب وآمن منكم ، وهذا فتح باب الرحمة ليؤمنوا بعد الانذار السابق بالكفر (قل ما كنت بدعا من الرسل) بدعا منهم أدعوكم إلى ما لا يدعون إليه ، ولقد سبقني كثير من الأنبياء وأنا أدعوكم دعوتهم فكيف تنكرون نبوتى ، أو ما كنت بدعا من الرسل أقدر على ما لم يقدروا عليه وهو أنهم يأتون بكل ما يقترح عليهم . كلا . وإنما ذلك باذن الله ، فليس لي من الأمر شيء ، ويؤيد هذا المعنى قوله (وما أدري ما يفعل بي ولا بكم) في الدارين تفصيلا ، فما الغيب إلا الله (ان أتبع إلا ما يوحى إلي) لا أتجاوز (وما أنا إلا نذير) من عقاب الله (مبين) بين الانذار بالشواهد المبينة والمهجرات الصادقة ، فليست أتجاوز ذلك إلى الاخبار بالغيب عما يقترحه

المشركون ، أو أخبر بأمرى وأمر أصحابي ، أترك في مكاني أم أخرج أنا وهم الى أرض ذات نخل كما رأيت في منامي ، فلست أعلم بتفصيل شيء من ذلك كله (قل رأيتم ان كان) القرآن (من عند الله وكفرتم به) وقوله (وشهد شاهد من بني اسرائيل) وهو عبد الله بن سلام (على مثله) أى على نحو ذلك وهو كونه من عند الله (فآمن واستكبرتم) هذه الجملة كلها عطف على جملة « كان من عند الله » الخ وجواب الشرط محذوف ، أى ألتئم ظالمين ، ويدل عليه قوله (إن الله لا يهدي القوم الظالمين) . يقول تعالى : أخبروني ان اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به ، واجتمع شهادة أعلم بني اسرائيل على نزول مثله مع استكباركم عنه وعن الايمان به ، ألتئم أضل الناس وأظلمهم ؟ (وقال الذين كفروا للذين آمنوا) لأجلهم (لو كان) الايمان (خيرا ما سبقونا اليه) وهم سقاط فقراء مثل عمار وصهيب وابن مسعود من العرب ، ومثل عبدالله بن سلام من اليهود (و) ظهر عنادهم (إذ لم يهتدوا به) وهذا سبب في افتراءهم إذ يقولون انه إفاك قديم ، وهذا هو قوله (فسيقولون هذا إفاك قديم) وكيف يكون إفاك قديما (ومن قبله) أى القرآن (كتاب موسى) وهو التوراة حال كونه (إماما ورحمة وهذا) القرآن (كتاب مصدق) لكتاب موسى وغيره فكيف يكون إفاك قديما ، إذن هو صدق قديم لإفاك حال كون الكتاب (لسانا عربيا) والتوراة عبري فتصديق الأول للثاني دليل على اتحادهما صدقا واتحادهما مع ما قبله أوكد في الصدق ، فبطل كونه إفاك قديما وثبت الصدق القديم ، وقوله (لينذر) أى ليخوف متعلق بقوله « مصدق » (الذين ظلموا) أشركوا (و بشرى للمحسنين) أى للإندار واللبشارة . انتهى المقصد الثاني .

المقصد الثالث

في أهل الاستقامة الذين رحموا وصدقوا بالنبوة ، وأن جزاءهم الجنة ، وذكر بعض وصايا تتعلق بالمؤمنين من اكرام الوالدين ، وذكر المحاورات بين الوالدين والمولودين الى آخر ما تقدمناه

قال تعالى : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) جمعوا بين فضيلتي العلم والعمل الذي هو نتيجة العلم الذي هو أشرف منه ، فلذلك قدم عليه (فلاخوف عليهم) مما يلحقهم في المستقبل (ولا هم يحزنون) على فوات محبوب (أولئك أصحاب الجنة خالدون فيها جزاء بما كانوا يعملون) من التحلية بالعلم والعمل ، وجزاء مصدرأى جوزوا جزاء الخ (ووصينا الانسان بوالديه) أى وصينا بأن يحسن بوالديه (احسانا) أو وصينا بوالديه أمرا ذا حسن أى بأمر ذي حسن ، فهو بدل اشتغال من قوله « بوالديه » وفيه قرآنان كما عرفت ثم ذكر سبب هذه التوصية ، وخص الكلام بالأمم لأنها أضعف وأولى بالرعاية وفضلها أعظم (حلت أمه كرها) أى حلا ذا كره (ووضعته كرها) وهو المشقة فيهما (وحله وفضاله) أى ومدة حله وفضاله أى فطامه (ثلاثون شهرا) وفي أثناء ذلك تكابد أمه الآلام في التريبة ، ويؤخذ منه أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لأننا نعتبر مدة الارضاع حولين كاملين لقوله تعالى : « حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة » فلم يبق للحمل إلا ستة أشهر ، وبذلك يعرف أقل الحمل وأكثر الرضاع لتحقق حكم النسب والرضاع * ويروي عن ابن عباس أنه قال : « اذا حلت المرأة تسعة أشهر أرضعت أحدا وعشرين شهرا ، واذا حلت ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهرا » ، (حتى اذا بلغ أشده) جمع شدة عند سيبويه وهو جمع لا واحد له من لفظه عند غيره ، أى حتى اذا اكتمل واستوفى السن التي تستحكم فيها قوته وعقله ، وذلك فيما بين الثلاثين والأربعين ، وقوله (وبلغ أربعين سنة) بيان لنهاية تلك المدة (قال رب أوزعني) ألهمني (أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي) من التوحيد والاسلام (وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي) أى واجعل لي الصلاح ساريا في ذريتي راسخا فيهم (إني تبت اليك) عمما لارضاه ، أو عمما يشغل عنك (وإني من المسلمين)

المخلصين لك (أولئك الذين تتقبل عنهم أحسن ما عملوا) أى أعمالهم الصالحة التى عملوها فى الدنيا فالأحسن بمعنى الحسن فيثيبهم عليها (وتتجاوز عن سيئاتهم) فلا تؤاخذهم بها لتوبتهم حال كونهم (فى أصحاب الجنة) أى مع أصحاب الجنة ، ولما كان قوله « تتقبل » . « وتتجاوز » وعدا لهم أكده فقال : (وعد الصدق الذى كانوا يوعدون) فى الدنيا ، وهذه الآية تنطبق على سعد بن أبى وقاص وعلى أبى بكر الصديق اللذين قيل فى كل منهما انها نزلت فيه وتنطبق على كل مؤمن ، فهو موصى بالديه وأمه جلته ووضعت كرها ، وأرضعته حولين ، وهو مأمور أن يشكر نعمة الله عليه ، وعلى والديه ، وأن يعمل صالحا ، وأن يسمى فى إصلاح ذريته . كل ذلك بالجّد فيه ودعاء الله أن يوفقه له ؛ فهذا له الجنة ، وأما من اتصف بضد ذلك ، فهو من يأتى وصفه ، وهو : (والذى قال لوالديه) إذ دعواه الى الإيمان بالله والاقرار بالبعث بعد الموت ، وهو مبتدأ خبره ماسيأتى : « أولئك الذين حقّ عليهم القول الخ » وهذا القائل يعمّ كل كافر عاق لوالديه مكذب بالبعث ، وليس خاصا بعبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنه ، إن صحّ أنها نزلت فيه قبل اسلامه ، ومقول القول (أفّ) وهى كلمة للتضجر كما أن كلمة « حس » للتوجع ، وهذا التأنيف كائن (لحكا) خاصة ، ولأجلكما دون غيركما (أنعدائى أن أسخر) أبعث (وقد خلت القرون من قبلى) فلم يرجع واحد منهم (وهما يستغيثان الله) يقولان الغياث بالله منك ، أو يسألانه أن يغيثه بالتوفيق للإيمان حال كونهما يقولان له (ويلك) وهو دعاء بالثبور ، والمراد به الحضر على الإيمان لاحقيقة الهلاك (آمن) بالله والبعث (إن وعد الله) بالبعث (حقّ فيقول) لهما (ما هذا إلا أساطير الأولين) أولئك الذين حقّ عليهم القول (أى « ذملاّن جهنم » الخ (فى أمم) فى جهة أمم (قد خلت) مضت (من قبلهم من الجن والإنس انهم كانوا خاسرين) من الأبرار والفجار المذكورين فى هذا المقام (درجات مما عملوا) أى منازل ومراتب من جزاء مما عملوا (وليوفهم أعمالهم) أى جزاءها (وهم لا يظلمون) بنقص فى ثواب ، أو زيادة فى عقاب (ويوم يعرض الذين كفروا على النار) أى يعذبون فيها من قولهم : عرض بنوفلان على السيف اذا قتلوا به ، ويوم متعلق بفعل محذوف أى يقال لهم (أذهبتم طيباتكم) لذائدكم (فى حياتكم الدنيا) باستيفائها (واستمتعتم بها) فمابقى لكم منها شئ (فاليوم تجزون عذاب الهون) أى الهوان (بما كنتم تستكبرون) فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون) أى باستكباركم الباطل وفسقكم . انتهى المقصد الثالث .

المقصد الرابع

قال تعالى : (واذكرا ناعاد) أى هودا (إذ أنذرقومه بالأحطاف) جمع حطف ، وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء ، من احقوقف الشئ اذا اعوجّ ، وهو واد بين عمان ومهرة ، وقيل كانت منازل عاد بالجن فى حضرموت بموضع يقال له مهرة ، وكانوا أهل عمل سياراة فى الربيع فاذا هاج العود رجعوا الى منازلهم ، وكانوا من قبيلة إرم ، وسيأتى إيضاح هذا المقام إيضا ناعادا ، ثم قال تعالى (وقد خلت النسر) الرّسل جمع نذير أى المنذر (من بين يديه ومن خلفه) قبل هود وبعده (ألا تعبدوا إلا الله) أى لاتعبدوا ، أو بالاعتبدوا (إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) هائل بسبب شرككم (قلوا أجبثنا لتأفكنا) لتصرفنا (عن آهتنا) عن عبادتها (فأتانا بما تعدنا) من العذاب على الشرك (إن كنت من الصادقين) فى وعدك (قال إنما العلم عند الله) لاعلم لى بوقت عذابكم (وأبلغكم ما أرسلت به) اليكم (ولكننى أراكم قوما تجهلون) لاتعلمون أن الرسل بعثوا منذرين ، فلا يقترحون ، ولا يسألون غير ما أذن لهم (فلما رأوه عارضا) حال كونه سحبا عارض فى أفق من السماء (مستقبل أوديتهم) متوجها اليها (قلوا هذا عارض ممطرنا) أى يأتينا بالطر قال هود : (بل هو ما استعجلتم به) من العذاب ، ثم فسره فقال : (رجع فيها عذاب أليم) تعمر كل شئ (تهلك من نفوس عاد وأموالهم الكثيرة (بأمر ربها) ربّ الريح (فأصبحوا لآثرى إلامساكنهم) أى

فجأتهم الریح فدمرتهم ، فصاروا بعد الهلاك لا يرى إلا آثار مساكنهم ، لأن الریح لم تبق منها إلا الآثار والمساكن معطلة (كذلك نجزي القوم المجرمين) وذلك نحويف لأهل مكة (ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه) أى فى الذى ما مكناكم فيه ، فهم كانوا أكثر منكم عددا وأشد قوة (وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة) يعرفوا نعمنا عليهم ويشكروها (فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شئ) من الاغناء وهو القليل ، وقوله : (إذ كانوا يجحدون بآيات الله) الظرف منصوب بما أغنى ، وهو يجرى مجرى التعليل تقول ضربته حيث أساء ، أو إذ أساء ، تريد تخصيص الوقت بالضرب لوجود الاساءة فيه ، وقد غلب هذا فى إذ وحيث ، ومنه ما يجرى فى أحكام القضاء بمصر إذ يقال حيث حصل كذا ، وحيث حصل كذا حكما بكذا ، حيث متعلق بحكمنا فى معنى التعليل (وحق بهم) نزل بهم (ما كانوا يستهزئون) أى جزاء استهزأهم ، هكذا ستكون حالكم يا أهل مكة ، ثم أخذ يذكر أهل مكة فقال (ولقد أهلكتنا ما حولكم من القرى) كحجر ثمود وقرى قوم لوط (وصرفنا الآيات) كترنا عليهم الحجج ، وأنواع العبر (لعلهم يرجعون) عن الطغيان الى الايمان فلم يرجعوا (فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة) أى هلا منهم من الهلاك آلهتهم الذين يتقربون بهم الى الله حيث قالوا : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، وقوله : « اتخذوا » أى اتخذوهم ، وآلهة مفعول ثان ، وقربانا حال (بل ضلوا عنهم) غابوا عن نصرتهم (وذلك لإفكهم وما كانوا يفترون) أى وامتناع نصره آلهتهم وضلالهم عنهم أثر إفكهم الذى هو اتخاذهم إياها آلهة ، وثمره شركهم واقترانهم على الله الكذب . انتهى المقصد الرابع .

المقصد الخامس

اعلم أن بعض علمائنا يقولون : « إن الجن فرق وملل كأهل الأرض من الإنس ، ففهم اليهود والنصارى ، والمجوس ، وعبدة الأوثان ، وفى المسلمين منهم المبتدعة ، ومن يقول بالقدر ، وبخلق القرآن ، وأجمع علمائنا المحققون أنهم مكفنون »
وسئل ابن عباس : هل للجن ثواب ؟ قال نعم ، لهم ثواب وعليهم عقاب .

كيف كانوا يسمعون قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم

- (١) يقال إن الجن كانت تسترق السمع ، فلما حرست السماء عجبوا ودهنوا ، وأرسلوا سبعة نفر ، أوتسعة من أشرف جن نصيبين أو بنوى ، فضربوا حتى بلغوا تهامة ، ثم اندفعوا الى وادى نخلة فسمعوا قراءة رسول الله ﷺ وهو قائم فى جوف الليل ، أوفى صلاة الفجر .
- (٢) ويقول سعيد بن جبیر : ماقرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم ، وإنما كان يتلو فى صلاته ، فرآ به فوقوا مستمعين وهو لا يشعر فأنبأه الله باتماعهم ، وهذا القول كالذى قبله
- (٣) وقيل بل أمر رسول الله ﷺ أن يندرج الجن ويقرأ عليهم ، فصرف اليه نفر من منهم ، فقال انى أمرت أن أقرأ على الجن الليلة ، فن يبعنى ؟ قالها ثلاثا ، فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال : لم يحضره ليلة الجن أحد غيرى ، فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة فى شعب الحجون غطلى خطا وقال لا تخرج منه حتى أعود اليك ، ثم افتتح القرآن ، وسمعت لفظا شديدا ، فقال لى رسول الله ﷺ هل رأيت شيئا ؟ قلت نعم ، رجلا سودا ، فقال : أولئك جن نصيبين ، وكانوا اثني عشر ألفا ، والسورة التى قرأها عليهم « اقرأ باسم ربك الذى خلق الخ » .
- وهذا قوله تعالى (و) اذ كر (إذ صرفنا اليك نفر من الجن يستمعون القرآن) أى أملناهم اليك ،

والنفردون العشرة ، ووجهه أظنر (فلما حضره) أى الرسول (قالوا) قال بعضهم لبعض (أنصتوا) استكثروا مستمعين (فلما قضى) أتم وفرغ من قراءته (دلوا الى قومهم منذرين) إياهم بما سمعوا ، وبين ذلك الانذار فقال (قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى) وقد كانوا يهودا ، واليهود يكفرون بعبسى (مصدقا لما بين يديه) من الكتب (يهدى الى الحق) الى الله تعالى (والى صراط مستقيم) يا قومنا أجيئوا داعى الله محمدًا ﷺ (وآمنوا به يفرلکم من ذنوبکم ويحرکم من عذاب أليم) أى يفرلکم ربکم ذنوبکم فى الجاهلية وينجیکم من عذاب وجيع ، ثم قال تعالى (ومن لا یجى داعى الله فليس بمنجز فى الأرض) أى لا ینجى منه مهرب (وليس له من دونه أولیاء) بمنعونه منه (أولئك فى ضلال مبین) حیث أعرضوا عن إجابة من هذا شأنه (أولم یروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم یبى خلقهن) ولم یتعب ولم یجز (بقادر على أن یحیی الموتى) أى قادر (بلى) جواب للنفى (إنه على کل شیء قدير) و یوم یعرض الذین کفروا على النار) یقال لهم (ألیس هذا بالحق) والاشارة الى العذاب (قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما کتمت کفرون) بکفرکم فى الدنيا ، ومعنى الأمر هنا الاهانة والتویخ لهم . انتهى المقصد الخامس .

المقصد السادس

قال تعالى (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) أولوا الثبات والجد منهم ، فانك من جنهم ، ومن للتبعيض وأولوا العزم المذكورون فى الأزواج نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، فهؤلاء هم أصحاب الشرائع الذين أسوها وصبروا على تحمل المشاق ومعاداة الطاعنين فيها ، وبعضهم جعل منهم يعقوب ويوسف وأيوب ودأود لسبرهم (ولا تستجبل لهم) لكفار قریش بالعذاب فانه نازل بهم فى وقته لا محالة (كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم یلبثوا إلا ساعة من نهار) فهم يستقصرون حیث مدة لبثهم فى الدنيا حتى یحسبوا ساعة من نهار ، وهذا (بلاغ) أى هذا الذى وعظمت به لغاية فى الموعظة (فهل یهلك) هلاك عذاب أى فلن یهلك بعذاب الله (إلا القوم الفاسقون) المشركون الخارجون عن الانعاط به ، والعمل بموجبه . انتهى التفسیر اللفظى .

لطائف هذه السورة

- (١) فى قوله تعالى : أذهبت طبيباتكم فى حياتكم الدنيا .
- (٢) » » : واذا ذكرنا عاد .
- (٣) » » : وإذ صرفنا اليك نقرا من الجن .
- (٤) » » : أولم يروا أن الله الذى خلق الخ .
- (٥) » » : فاصبر كما صبر أولوا العزم الخ ،

اللطفة الأولى

فى قوله تعالى : أذهبت طبيباتكم فى حياتكم الدنيا الخ

- (١) لقد مرّ فى بعض سور الرّبع الثالث من القرآن حكاية الرّبع بن زياد وعمر رضى الله عنه ، وقد حضر الأول مع أبى موسى الأشعري من البحرين بأمر عمر رضى الله عنه ، وكان عاملا لأبى موسى فلما مثلوا بين يدي الخليفة صوّب وصعد ، ثم صوّب وصعد ، فلم يجبه غير الرّبع من الولاة الذين ولاهم أبوموسى لأنه تزيا بلزى الذى رضاه بإشارة برفأ خادم الخليفة ، ولما جلسوا على المائدة لم يجد رجلا منهم قد أكل بشهوة إلا هو ، وكان الطعام ليس مما يسرّ المترفين ، فظن أن ذلك

طبع فيه ، فأخذ يكلمه ، فرأى الربيع أن ذلك فرصة ، فكلمه في أمر الطعام ، وأنه كان الأليق أن يكون أنعم من هذا وأوفى لصحة أمير المؤمنين ، فزجره ، ثم قال : لو شئت لملاّت هذه الأفنية من رقيق الطعام ولذيذه ، ولكني رأيت الله ذمّ قوما فقال : أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا الخ انتهى ملخصا بلغني . فانظر كيف كان يفهم الصحابة في القرآن ، ولم يجعلوا الآية موجهة الى الكفار فقط كما يظن أكثر المسلمين اليوم ، فغاب عنهم كتاب الله تعالى .

(٢) اعلم أن الذي لا يريد من الحياة إلا اللذات يفقد اللذات ، فإذا قال الله تعالى : أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون الخ فاعلم أن لهذا القول صدى في هذه الحياة الدنيا ، ولذلك نجد النهم ، وكثير الشبق يحرمان من اللذات متى انكبا عليها ، وانظر الى قول سقراط : « إن العفيف يجمع باللذات ، ويحرم منها من ليس عفيفا . وضرب مثلا ، فقال : ألم تر الى من يكثر شرب الماء كيف يحرم لذة الماء ، فأما من عطش فانه يستلذ ، هكذا جمع اللذات . أقول : إن أكثر الناس في الدنيا غافلون نائمون .

(٣) جاء في البخاري ومسلم والنسائي عن أبي سعيد رضي الله عنه . قال : جلس رسول الله ﷺ على المنبر ، وجلسنا حوله ، فقال : إن مما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا (أي حسنها) وزينتها ، فقال رجل : أو يأتي الخير بالشر ؟ فسكت رسول الله ﷺ ، ورأينا أنه ينزل عليه ، فأفاق يمسح الرحضاء أي العرق الكثير ، وقال : أين هذا السائل ؟ وكأنه جده ، فقال : انه لا يأتي الخير بالشر ، وان مما يفتت الربيع ما يقتل حبطا (فخحا ، يقال حبط بطنه اذا انتفخ فهلك) أو ولم إلا آكلة الخضر (١) فلما أكلت حتى اذا امتدت خاصرتها فاستقبلت عين الشمس فلطقت (تلط يלט (٢) ألقي رجيعة سهلا رقيقا) وبات ثم ربع وان هذا المال خضر حلو ونعم صاحب المسلم هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل ، وان من يأخذه بغير حقه كمن يأكل ولا يشبع ، ويكون عليه شهيدا يوم القيامة اهـ

وملخص الحديث أن المال وكل ما على الأرض خير ، وهذا أشبه بالعشب النبات في الأرض بالطر ، فمن البهائم ما تستضر بأكله فتنتفخ وتموت ، ومنها ما تأكل وتسترخ ، وقد وافقها النبات ، فالعيب ليس من نفس النعمة بل العيب من المنعم عليهم ، فاذا كثر المال ، فان جعل للكفر أضرت بصاحبه ، وان جعل للاحسان والمنافع العامة نفع صاحبه ، فللمال في نعت ذاته ليس شرا ، بل الشر والخير يرجعان للاستعمال وللمستعمل نفسه . وفي البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب . قال : دخلت على رسول الله ﷺ فاذا هو متكئ على رمال حصر ، قد أثر في جنبه . فقلت : أستاذس يارسول الله ؟ قال نعم ، جلست فرفعت رأسي في البيت ، فوالله ما رأيت فيه شيئا يرد البصر إلا أهبة ثلاثة ، فقلت : ادع الله أن يوسع على أمتك ، فقد وسع على فارس والروم ولا يعبدون الله ، فاستوى جالسا ، ثم قال : أفى شك أنت يا ابن الخطاب ! أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا ، فقلت : استغفر لي يارسول الله . وفي البخاري ومسلم أيضا عن عائشة . قالت : ماشع آل محمد من خبز شعير بومين متتابعين حتى قبض رسول الله ﷺ . وفي رواية أخرى . قالت : « إنا كنا نتظر الى الهلال ، ثم الهلال ، ثم الهلال ، ثلاثة أهلة في شهرين ، وما أوقد في آيات رسول الله ﷺ نلر . قال عروة : يا خالة فما كان يعيشكم ؟ قالت الأسودان التمر والماء ، إلا انه قد كان لرسول الله ﷺ جبران من الأنصار ، وكانت لهم منافع ، فكانوا يرسلون الى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقيننا . وعن ابن عباس رضي الله عنهما . قال : « كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاريا ، وأهله

لا يجدون عشاء ، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير » أخرجه الترمذى .
 وفي البخارى عن أبي هريرة . قال : لقد رأيت سبعين من أصحاب الصفة مامنهم رجل عليه رداء ، إما
 إزار واماكساء ، قد ربطوا في أعناقهم ، فنها ما يبلغ نصف الساقين ، ومنها ما يبلغ الكعبين ، فيجمعه بيده
 كراهية أن ترى عورته .
 وفي البخارى أيضا عن ابراهيم بن عبد الرحمن أن عبد الرحمن بن عوف أتى بطعام وكان صائما . فقال :
 قتل مصعب بن عمير ، وهو خير منى ، فكفن في بردة ، إن غطى رأسه بدت رجلاه ، وإن غطى رجلاه بدا
 رأسه . قال وأراه قال : قتل حزة وهو خير منى ، فلم يوجد ما يكفن فيه إلا بردة ، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط
 وقد خشيت أن تكون هجت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا ، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام .
 وقال جابر بن عبد الله : رأى عمر بن الخطاب لما معلقا في يدي ، فقال ما هذا يا جابر ؟ قلت اشتيت لما
 فاشترته . فقال عمر : أولما اشتيت يا جابر اشتريت ، أما تخاف هذه الآية : « أذهبتم طيباتكم في حياتكم
 الدنيا » انتهت اللطيفة الأولى .

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : واذكرنا عاد
 قد تقدم الكلام على قوم عاد في سابق التفسير . وسيأتى بسط الكلام فيها

اللطيفة الثالثة

في الكلام على الجن وأنهم آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم

إن من اطلع على ما تقدم في هذا التفسير يرى أن هذا الزمان هو الزمان الذى تظهر فيه أسرار القرآن ان الملائكة
 والجن وأنما هم لا يقوم عليها دليل عقلى ، وماهى إلا سمعيات ، والسمعيات لا برهان لها إلا السمع ، فأما العقل
 فهو بمنزل عنها ، فليس في العقول أن هنا جنانا تحيط بنا ولا ملائكة ، فمثل هذا القول يؤمن به مجرد ايمان
 ونسكت ، هذا هو الذى عليه رأى في الأمة ، ولكن انظر الى الأمم المحيطة بالأمة الاسلامية اليوم ، انظر
 كيف أصبح قوله تعالى هنا : « واذ صرفنا اليك قرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا »
 الى آخره معقولا في الأمم الاوربية كما تقدم مرارا في هذا التفسير ، واذا كان العلامة الرازى في (سورة
 ابراهيم) يقول ناقلا عن قدماء الفلاسفة : « ان أرواح الناس بعد الموت تكون إما ماهمة للخير أو موصولة
 بالشر للناس على مقتضى طباعها » ، وهكذا الغزالي ، واخوان الصفاء ، وغيرهم . فانظر اليوم الى أمم أوروبا
 وتأمل كيف أصبحوا يخاطبون الأرواح التى فارقت الأجساد ، وكيف يقولون انهم بعد الموت على ما كانوا
 عليه من أخلاق وآداب وديانات وعلوم وأحوال ، فالمت يموت ومعه جميع أخلاقه لم يفقد منها شيئا ، وانظر الى
 قول أكبر عالم طبيعى في بلاد الانجليز وهو اللورد أوليفر لودج إذ يقول : « إن عالم هذه المدركات أى الأرواح
 ليس عالما غريبا عن عالمنا ، فان الكون واحد ، إن مداركنا ونحن هنا على الأرض محدودة ، فلانرى كثيرا
 من الامور التى تجرى ، ولكن تحيط بنا كائنات ، وتعمل معنا ، وتساعدنا ، قد عرفنا قليل من الناس بعض
 المعرفة من الرؤى التى رأوها . وعندى أن كل ما تقول به الأديان من أن الملائكة والتديسين معنا ، وأن الله
 نفسه يساعدنا على وجهه من غير تأويل ، هذه الجملة نقلتها عنه في كتابى المسمى (الأرواح) .

ثم إن السبر أوليفر لودج من أشهر علماء الطبيعة في هذا العصر ، وهو ممن يعتقدون أن أرواح الناس
 تخرج من أجسادهم وقتها يموتون ، وتلبس أجسادا روحية ، وتبقى في الفضاء بوجودها ومشاعرها وقواها

العقلية ، وتمثل بعض الأحياء ، فيرونها بهذه الأجساد ويخاطبونها ويخاطبهم ، كأنها لم تزل بأجسادها الأرضية ، ويقول إن هذا الاعتقاد سيبيح قريبا ، إذ تكثر الأدلة على صحته ويزيد عدد الذين يخاطبون الأرواح فيتم الاتصال بين العالم الفاني والعالم الباقي ، أو بين الحياة الدنيا والحياة الأخرى . كل هذا مذكور في كتابي (الأرواح) المذكور ، وقد تقدم في (سورة آل عمران) وغيرها .

موازنة بين علماء الاسلام وعلماء أوروبا في هذا المقام

لقد قرأت في تفسير السورة اللغظي الذي تقدم قريبا ما قاله سعيد بن جبير من أن النبي ﷺ كان يقرأ والجن يسمعون ، ولم يشعر هو بذلك ، وما قاله عبد الله بن مسعود انه خطاه خطأ ولزمه ، وقرأ النبي ﷺ والجن يسمعون ، وأن ابن مسعود رأيهم . وأيضا يقول بعض علمائنا انهم أصناف ، ففهم اليهودي والمسلم ، والنصراني ، والمجوسي الخ .

هذا ملخص ما تقدم ، وانظر الى علماء الأرواح كيف يقولون : « إن حولنا عوالم تحيط بنا ، ففهم من هم أرق منا علما وأدبا ، ومنهم من هم مثلنا ، ومنهم أشرار ، ومنهم أخيار ، والأشرار والأخيار غير قاصرين على الأرواح التي خرجت من أجسام أهل الأرض ، ومعلوم أن الملائكة يمتازون عن الجن بأمور أهمها أن الأولين كاملون ، والآخريين ناقصون ، ولقد علمت مما تقدم في هذا التفسير أن أرواحنا بعد الموت فيها التسمان ، ففهم من يلحقون بعالم الملائكة أي انهم أخيار ، ومنهم من يلحقون بعالم الشياطين أي انهم أشرار ، ويقول علماء أوروبا : إن الاتصال بين عالم الأجسام وعالم الأرواح حاصل الآن بالاستحضار وسيكثر ذلك ، وانظر لهذه الآيات وغيرها فإن الاتصال قد تم بين النبي ﷺ وبين عالم الملائكة وعالم الجن » فالأولون اتصل بهم فأرسلهم إليه على أيديهم ، والآخرون اتصل بهم فعلمهم ، وهل كان هؤلاء الجن من أرواح الناقصين من أهل الأرض كاليهود الذين ماتوا ، أو هم أرواح جاهلة لم تكن في الأجسام ، وانما مذاهبها وأخلاقها مقتبسة من أخلاق أهل الأرض وآرائهم .

هذا ما لانعله ، وانما مثل هذا يجب على الأمة الاسلامية بعدنا أن نجد في بحثه ، وتنظر في أمره ، لأن ذلك أجل العلوم وأشرفها ، وأي علم أشرف من أن نعرف مستقبلنا بعد هذه الحياة ، وأن ندرس العوالم التي هي أرق منا والعوالم الأخرى ، ولقد جاء ذكر قراءة النبي ﷺ على الجن لندرس هذه المسائل ونفكر فيها ، والتفكير فيها باب العلم النافع ، فاذا شك المسلم واشتبه عليه أمر الجن ، ودعش من أن النبي ﷺ كان يقرأ على الجن ، فهذا مهماز من الله ، وسبب يسوقه الى الدراسة والعلم ، وقراءة علم الأرواح واستحضارها ، ومعرفة أحوالها ، وبهذا يرتقي العقل الانساني ويستنير . إن المسلمين يمتدحون على مثل هذه الآيات من الكرام ، ولكن الأجيال المقبلة سيدرسونها ، ويعرفون الحقائق بأنفسهم لا بتقليد الفرجة الذين نقلنا عنهم ، ولقد مهد لنا أسلافنا فوجب علينا أن نحمد السبيل لمن بعدنا حتى يقفوا على الحقائق . انتهت اللطيفة الثالثة والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الرابعة

في قوله تعالى : أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يبي مخلقهن

بقادر على أن يبي الموتى الخ

اعلم أن الله ابتداء السورة بما يتحقق منه المبدأ ، فهنا ختمت بما يثبت المعاد . انتهت اللطيفة الرابعة

اللطيفة الخامسة

في قوله تعالى : فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل
هم ذرور الحزم ، والجدة ، والصبر ، والرأى ، والعقل الكامل ، ويقال إن كل الرسل كانوا أولى عزم ،
واستثنى بعضهم بونس ، وخصصهم بعضهم بالثمانية عشر المذكورين في الأنعام الذين قال الله فيهم « فبهداهم
اقتده » . وقيل هم ستة : نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم الصلاة والسلام . وبهذا تم الكلام
على اللطيفة الخامسة والحمد لله رب العالمين .

بهجة العلم

في قوله تعالى : « ويوم يمرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم » الى قوله :
« كذلك نجزي القوم المجرمين »
في هذا المقام فصلان
﴿ الفصل الأول ﴾ في قوله تعالى : أذهبتم طيباتكم الخ .
﴿ الفصل الثاني ﴾ في تحقيق الكلام في أمر عاد ، وأبن مساكينهم ، وفي الأحقاف ، وفي الخريطة الجامعة
لسيارهم ، وفي قبر هود وصالح عليهما السلام .

الفصل الأول في قوله تعالى : أذهبتم طيباتكم الخ

هذه الآيات وما يماثلها فيها :

- ﴿ أولا ﴾ ذهب الطيبات بالاستمتاع بها في الحياة الدنيا .
﴿ ثانيا ﴾ المجازاة بالعذاب الهون بسبب الاستكبار في الأرض بغير الحق ، وبسبب الفسق .
﴿ ثالثا ﴾ ضرب مثل لنلك بقصة عاد ، وأنهم كفروا ، فأهلكوا ، وأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ،
لأنهم مجرمون .
﴿ رابعا ﴾ جاء في سورة « حم السجدة » أن عادا استكبروا في الأرض بغير الحق وقتلوا من أشد
مناقوة .
﴿ خامسا ﴾ جاء في سورة « القصص » أن فرعون ائصف بصفتين هما العلو في الأرض والافساد فيها
﴿ سادسا ﴾ جاء في نفس السورة نهي قارون عن الافساد في الأرض .
﴿ سابعا ﴾ جاء في آخر ﴿ سورة القصص ﴾ أن الدار الآخرة تجعل للذين لا يريدون علوا في الأرض
ولا فسادا .

فلننظر إذن في هذه الآيات التي نحن بصددها . فتقول : ههنا قاعدة في هذه السورة وهي أن الشهوات
البهيمية ، والاستكبار في الأرض ، والفسق فيها عاقبتها العذاب الهون ، ولما كانت عاد قد استكبروا في
الأرض بغير الحق كما تقدم ناسب أن يضرب بهم المثل في ذلك كما جعل قارون مثلا لمن علوا في الأرض ،
وأفسدوا فهلكوا ، وهكذا فرعون .

هذا إجمال ما يريد في هذا المقام ، واعلم أيها السكتي أرشدك الله ، ولقائك من لدنه علما أن القضايا الكلية
مالم يؤت لها بالأمثال والحوادث الواقعة قليلا ما تؤثر في عقول الأمم ، وإذا رأينا الله عز وجل يضرب لنا مثلا
بعاد المستكبرين في الأرض بغير الحق ، وأنه أهلكهم بظلمهم واستكبارهم ، وعذبهم في الدنيا وفي الآخرة

إذ قال : « ولذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشد أذى وهم لا ينصرون » .
ولاجرم أن هذا القول كان مؤثرا أشد الأثر في أفئدة الأمم العربية وهم أبأونا لأنهم كانوا أقرب الى
تلك الأمم ، ونحن اليوم نسمعه في القرآن يتلى علينا ، والله يقول : « ويضرب الله الأمثال للناس » ،
ويقول : « لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون » .

فلتكن قصة عاد وأمثالها ضرب مثل يقبه أمثال متلاحقة ، ونسبة الدول الاسلامية الأموية والعباسية
والتركية والطولونية والاختشيدية والأيوبيية والفاطمية والبهوية والغزنوية الينا نحن الآن كنسبة عاد وثمود
الى آباؤنا أيام النبوة ، فلئن اكتفوا بتلك الأمم فلائهم أعرف بها منا ، وليس عندهم غيرها ، أما نحن فإنا
لا نعرف عن تلك الأمم مع بعدها الشاسع عنا إلا أبناء مجلة لاتفي بالقصود ، فوجب أن نذهبها بأمثال من
الدول الاسلامية لننظر في ممالك الاسلام السابقة ، هل بغوا في الأرض بغير الحق ، وهل أذهبوا طبيائهم
في حياتهم الدنيا واستمتعوا فيها ؟ وهل ذاقوا عذاب الخزي في الحياة الدنيا لما استمتعوا بالعطيات فيها ؟
وهل كان في هذه الأمم قوم مخلصون صادقون يمكننا أن نقادهم الآن وننقح خطواتهم .

إذا وجدنا ذلك ، وأثبتناه في هذا التفسير ، واطلع عليه المسلمون ، فإن ذلك موجب لسرعة ارتقاء
هذه الأمة لأنهم يرون التطبيق على القاعدة حاضرا عندهم ظاهرا وانحفا ، يقرءونه في تاريخ الأمم القريبة
منهم ، وهناك يتم الأمر ، وتنظم الأحوال ، ويفيد التاريخ حقا فائدته التامة ، فأما قراءة القرآن ،
وفهمه ، ومعرفة القاعدة العامة ، والاقتصار في التطبيق على الآثار البعيدة العامة ، وجهل الوقائع القريبة المعروفة
للأمة الاسلامية ، فإن ذلك معناه الجهل العام ، وتقل الفائدة العملية ، إن القواعد بلاتطبيق عليها كشجر
بلاثمر ، وكأرض طيبة لم تزرع .

فيها أنذا أيها الذكي أفضل هذا المقام في (مبحثين : المبحث الأول) في أن اتباع الشهوات وعدم المحافظة
على الصحة توجب ضعف الأجسام وعدم الانتفاع بالحياة (المبحث الثاني) في أن التبذير في الأموال
والاسراف سبيل لهلاك الأفراد والأمم .

أما المبحث الأول ، وهو أن الاسراف في المطاعم والمشارب يعذب الانسان عليها في الحياة الدنيا بالأمراض
وعدم الانتفاع بالحياة فذلك واضح أشد وضوح في (سورة ص) ، إذ أبت هناك كيف ظهر أن الطب
الحديث يحرص على ترك أنواع من الطعام متداولة بين الناس ، ويوجب الاقلال من الأغذية ، ويحتم الرياضة
البدنية ، وهناك ترى أن سيرته ﷺ في طعامه ، وسيرة أبي بكر وعمر وعلي ومن نحوهم كانت أقرب
الى الطب الحديث ، وأن ذلك موجب لقوة الأبدان ، والاخلال بذلك يورث الخزي في الحياة الدنيا بالأمراض
والأمراض توجب الحرمان من نعم كثيرة لولاها لارتقى الانسان في الآخرة درجات بأعماله ، وهناك ترى
كيف كان لقدماء الفلاسفة آراء في تربية الجند والملوك والأمراء ، وأن هذه الآراء لم يظهرها أثرها ، ولكن
في الصدر الأول من أئمة الاسلامية ظهرت آثار بطريق الوحي لا بالفلسفة التي لم يعمل بها أحد في الأمم التي
ظهر فيها أولئك الفلاسفة ، فذلك فضلا عن كونه معجزة هو تطبيق على الآية هنا في المبحث الأول من مبحثها
ولأدلى على ذلك من قول عمر رضي الله عنه للربيع بن زياد فيما مر بك : « لو شئت لملائت هذه الرحاب
صلائق وسبائك وصنابا ، ولكني رأيت الله عز وجل غير قوما . فقال : وأذهبهم طبيائكم في حياتكم الدنيا
واستمتعتم بها » الآية .

فلا تقصر في المبحث الأول على هذا ففيه غنية لدى لب لاسيا إذا أضاف إليها ما جاء في (سورة الشعراء)
وطه والحجر والأعراف والبقرة من المسائل الطبية الواضحة هناك

المبحث الثاني

في أن التبذير في الأموال والاسراف سبيل هلاك الأفراد والأمم

لما وصلت الى هذا المقام . قال لي صاحبي العالم الذي اعتاد أن يحادثني في هذا التفسير : لقد أجدت في المبحث الأول ، أما المبحث الثاني فليس من حقلك أن تكتب فيه شيئا ، بل يجب أن تشير اشارات الى ما كتبت فيه فيما تقدم ، لقد جاء في هذا التفسير العبر ، والمبتدأ والخبر ، بتقلب الدهر وضياح الأمم بجعلها وشهرها ، وهمل بعد ما تقدم في (سورة النمل) من شرح الأمم التي هلكت بظلمها ، و بعد (سورة الاسراء) ، و (سورة سبأ) وغيرها من المباحث التي بها ظهر أن أم الاسلام التي نحن أبناءها قد حمل بها الوبال والهلاك بظلمها ، وليس بعد ما قلته في أم الاسلام قول لقائل ، فانك ضربت الأمثال في أكثر السور بنفس التاريخ وشرحت شرحا وافيا ، فأصبح التعليم بذلك نافعا ناضجا ، وهمل بعد ذلك قول لقائل ؟ إن ما كتبه الآن لا يكون إلا تملارا وتحصيل حاصل . فقلت :

أيها النكي : إني خطر لي أمس أمر عجب في هذه الآيات ! فإني ما كدت أقرأ هذه الآيات ، وأعرض معناها على عقلي حتى حضرت في نفسى القرون الأولى وحكمتها وشهواتها .
لقد والله استحضرت الأمم وحكامها وملوكها ، كأنها كتاب أقرؤه ، وكأنها تفسير لكتاب الله تعالى في هذا المقام .

أيها النكي : إني أعجب لقابي ، وكيف تلوح له المعاني المختلفة فيراها موافقة . فقال لي : هذا الكلام مجمل فضله ، وموجز فينه ؟ فقلت : إن هذا القرآن قد أوضحت عقول الحكماء قبل نزوله ، وفسره الفلاسفة قبل الإيحاء به ، ثم فصلته وقائع الملوك بعد نزوله ، وأظهرته حوادث المسلمين في الأزمان الغابرة . فقال : إن هذا إجمال فسرت به إجمالا ، وأظن أني لم أصل للحقيقة ، فأنت في مستوى الاجال ، ولكن عقلي وفهمي في مستوى التفصيل . فقلت : الآن أقول : إن الذين إذا نزل من السماء ، ثم جاء أتباعه فوجدوا العقول الكبيرة قد فصلته قبل نزوله بالبرهان ، ثم جاءت الحوادث بعد ذلك وفصلته ، فإنه يكون دينا غاية في العجب ! مزدوج البرهان .

انظر الى هذه الآية : « أذهبتم طياتكم » الخ والى جمهورية أفلاطون ، أفليس من العجب أننا نرى أفلاطون في كتابه الثالث من جمهوريته يقول ملخصه تحت عنوان « دستور المدينة » :
قال : ولا يجوز تشجيع مخاوف الموت في قلوبهم باخبارهم أن الحياة في العالم الآتي مظلمة ، ولا تمثيل صفات أكار الرجال لبصرهم وسمعهم بصورة محقرة ، أو مضحكة ، أو دنية ، بل يجب أن تكون الشجاعة والحق وضبط النفس لجة ككل القصص المستعملة في تهذيبهم وسداها . ثم قال : ان الصورة التي بها ترف القصص الى عقولهم تؤثر في طبيعة نفوذها أعظم تأثير ، فيجب أن يكون فرض الشعر إما تمثيلا صرفا كما في الرواية ، أو قصصيا صرفا كما في خيرية باخس ، أو مركبا من النوعين كما في الشعر القصصي ، ولا يمكن الشخص الواحد أن يعمل أو يجيد تمثيل أشياء كثيرة ، فمن ثم ان أتيح لهم درس التمثيل فليقتصدوا على تمثيل رجال الصفات السامية المحترمة ، والنسق الذي يستعمله أناس هذه الطبقة في الالتقاء وفي التأليف بسيط فعال يندر أن يتلبس بالتمثيل ، فهذا هو النسق الذي يجب أن يؤذن للحكام بأن يستعملوه في إقناعهم ، والذي يتبعه الشعراء القائلون على تهذيبهم ، ويجب أن يسن لهم نظام شديد التدقيق في الأغاني والألحان والآلات الموسيقية ، فلا يسلم لأمة كاملة آلات موسيقية تنشى فيها الرخاوة وتثبيط العزائم ، فيحظر عليهم كل الآلات الموسيقية إلا العود والقيثارة والزمير ، ويحظر عليهم أيضا كل الألحان المركبة ، والبسيط من هذه هو المباح لهم ،

وغرض كل هذه القوانين هو أن يترقي ويرتقي في عقول التلاميذ الشعور بالجمال والاتساق والاتزان ، وهي صفات تؤثر في سميتهم ، وفي علاقاتهم المتبادلة .

وبعد ما بحث سقراط بحثه السابق في الموسيقى الاغريقية تقدم للنظر في الجناسميك . فقال : يجب أن يكون طعام الحكام بسيطاً ومعتدلاً وصحياً ، وذلك يفنيهم عن الانتشار الطيبة إلا في أحوال استثنائية ، وقد نخطئ في هذا الموقف إذا اعتبرنا أن نسبة الجناسميك للجسد هي نفس نسبة الموسيقى للعقل ، ويجب القول أن الجناسميك يراد لترقية العنصر الحاسي في طبيعتنا كما تراد الموسيقى لترقية العنصر الفلسفي ، وأقصى أغراض التهذيب إعداد هذين العنصرين ، ومزجهما معا على نسبة عادلة متزنة .

هذا ما يقال في شأن تهذيب الحكام وتدريبهم ، فمن هذه الطبقة العالية يجب انتقاء القضاة ، ويلزم أن يكونوا من أكبر أعضاء الجسم الاجتماعي سناً ، وأوفرهم فطنة ، وأعظمهم جدارة ، وأعرفهم وطنية ، وأقلهم أنانية ، هؤلاء هم الحكام الحقيقيون ، والذين دونهم يسمون مساعدين ، ولكي تقنع الأمة بعدالة هذه الأنظمة وحكمتها ينبغي لنا أن نقص عليهم القصة التالية ، وهي : أنهم كلهم قد نسجوا أولاً في أحشاء الأرض أمهم الكبرى ، وقد سرت الملائكة أن تمزج بجيلة بعضهم ذهباً ، وفي جيلة بعضهم الآسرفنة ، وفي غيرهم نحاساً وحديداً ، فالقمة الأولى هم الحكام ، والثانية المساعدون ، والثالثة الفلاحون والصناع ، ويجب رعاية هذا القانون وتخليده ، والا حلّ بالدولة السمار .

وأخيراً يجب وقف محلة في المدينة هؤلاء الحكام ومساعديهم يعيشون فيها عبثة شظف وتقتبر ، ساكنين الخيام لا البيوت ، معتمدين على تبرعات الأهالي ، وأخيراً يجب أن لا يمتلكوا ملكاً خاصاً والا اقبلوا ذئاباً بدل كونهم كلاباً حارسة .

ثم قال سقراط : أفنحصر أنفسنا في مراقبة شعرائنا ، فنوجب عليهم أن يطبعوا منظوماتهم بطابع الخلق الجيد ، والا فلا ينظمون ، أو نوسع نطاق مراقبتنا فنشمل أساندة كل فن ، فنحظر عليهم أن يطبعوا أعمالهم بطابع الوهن والفساد والسفالة والسماجة ، سواء في ذلك رسوم المخلوقات الحية ، أو الأبنية ، أو أي نوع آخر من المصنوعات ، ومن لا يستطيع غير ذلك فلنتنه عن العمل في مدينتنا ؛ لكي لا ينشأ حكمانا في وسط صور الرذيلة نشوء الماشية في مراعي رديئة ، فنقترب الأضرار إلى نفوسهم فتفسدها بماتتهم يوماً من الأقوات من مختلف المواقع ، فيتجمع في نفوسهم مقدار وافر من الشر وهم لا يشعرون ، وعلى الضد من ذلك أولاً يجب علينا أن نستدعي فنيين من طراز آخر فيتمكنون بقوة عبقرتهم من اكتشاف أثر الجودة والجمال ، فينشأ شباننا بينهم كما في موقع صحى ، ينشرون السلاح من كل مربع تبعث منه آى الفنون ، فتؤثر في بصرهم وسمعهم كنفسات جابة من مناطق صحية فتحملهم منذ حداثتهم دون أن يشعروا على عجة جمال العقل الحقيقي ، والمتمثل به ، ومطوعة أحكامه .

غلوكون : إن ثقافة كهذه هي أفضل الثقافات .

سقراط : فلهذا يا غلوكون نعوذ بالتهذيب الموسيقى شأنا خارقاً ؟ فإن الإيقاع واللحن يستقران في أعماق النفس ويتأصلان فيها فيثابن فيها ما يهباه من الجمال ، فيجعلان الانسان حلو الشرائل اذا حسنت ثقافته ، والا كان الحال بالعكس ، ومن حسنت ثقافته الموسيقية ، فله نظر ثاقب في تبيين هفوات الفن وفساد الطبيعة فيمندها ويمتتها مقناً شديداً ، ويهوى للموضوعات الجليسة ، ويقنع لها أبواب قلبه ، فيتغذى بها ، فينشأ شريفاً صالحاً ، واذا كان منه ذلك وهو بعد فتى دون سن الرشاد قبلما يبرز في تلك الامور حكماً عقلياً ، فانه متى بلغ رشده يزداد ولما بها عن معرفة إذ تربي عليها وألقها .

غلوكون : لا أرتاب في أن هذه هي أغراض التهذيب الموسيقى . انتهى

- مما هوذا نراه في صفحة ٧٩ في النسخة المترجمة بالعربية يقول :
- (١) يجب على حكام الدولة أن يتجنبوا المسكر، لأن الحاكم راع ، ولذا سكر الراعي فن ذا الذي برعاه
- (٢) إن الحاكم مجاهد مدة حياته ، فكيف يسكر المجاهدون وهم في الميدان ؟
- (٣) طعامهم يجب أن يكون بسيطاً ، والا جلب لهم العاس ، وهدد الصحة .
- (٤) اذا حادوا عن أطعمتهم قيد أنملة اتابتهم الأمراض ، واشتد عليهم الخطر .
- (٥) يجب أن يكون رجال الحرب يظنين كالكلاب الحارسة .
- (٦) إن « هومروس » الشاعر المشهور وصف الجنود على ضفاف المردينيل بأنهم شورا اللحم فقط ولم يسلقوه .
- (٧) ويقول في صفحة ٨٠ : اننى لا أستحسن طعام السيراتومسبيين ، ولا كثرة أنواع الطعام عند الصقليين .
- (٨) وقال : أنكر على الرجال الذين يحبون أن يحرصوا على سلامة أجسادهم تسرى الفتيات (الكرديدات) .
- (٩) وأخذ يشنع على أهل أيننا نأثمهم في صنوف الحلوى .
- (١٠) ويقول أيضا في صفحة ٨١ : إن هناك اتفاقا تاما بين تنوع الموسيقى ، وتنوع الطعام . فتتووع الموسيقى يجلب الفجور في النفس ، وتنوع الطعام يولد عللا في الجسد ، والبساطة في التمرينات البدنية تولد في الجسد صحة ، والبساطة في الموسيقى تولد في البدن عفة .
- (١١) اذا انتشرت في المدينة الأمراض ، وصور الفجور ، اضطر الناس لإنشاء المستشفيات ، ولانشاء الحاكم ، وهناك هناك ينه الطب عجبا ، والحقوق تكبرا ، ويقف كثير من الشرفاء حياتهم على هذه المهن بوافر الرغبة ، وكثرة المستشفيات في الأمة ، ووفرة القضاة فيها دليل على سوء تهذيب المدينة ، وانحطاط سكانها . وأى برهان أقطع على سوء تهذيبها من كثرة المستشفيات والقضاة
- (١٢) ما أكثر غرور الرجل الذي يضع حياته بين مدع ومدعى عليه ويفتن جهلا وغبارا أنه ماهر في ارتكاب الكبائر ، وأستاذ في الخيل ، والمواربة ، والدهاء والمكر بخلصه من قبضة العدالة والنجاة من برائن العقاب . وكل ذلك لأجل الحصول على أشياء طفيفة نافهة ، جاهلا بأفضلية الحياة المنظمة المتسقة وجالها ، فهي أفضل وأشرف من مثوله أمام قاض خامل .
- (١٣) وقال سقراط في صفحة ٨١ أيضا - : إن الاحتياج إلى المعالجة الطبية عيب ، اللهم إلا ما كان لجرح ، أو لمرض موسمي وافد . إن عارا علينا الاحتياج الى المعالجة الناشئة من كسلنا ، ونوع معيشتنا التي بها تملؤنا الرياح والأخلاق كما تملأ المياه القدرة الحماة ، وتظهر أسما جديدة للأمراض مثل قوطم : تطبل البطن ، الزكام الخ .
- (١٤) وأخذ في صفحة ٩١ يقسم الناس الى ثلاثة أقسام : ذهب وفضة وحديد ، وبرهن على أنه يجب أن يوضع كل امرئ في مركزه ويقطع النظر عن مركز والده ، فالذهب حاكم ، والفضة تساعد ، والحديد فلاح . ولا يجوز الخلط ، فلا عبرة إلا بالاستعداد ، والنسب هنا لاقيمة له .
- وقال سقراط : يلزم أن تكون الخيام كافة وقايتهم من تأثير الاقليم صيفا وشتاء .
- غلوكون : حسنا ، فيظهر أنك تعنى بها أن تكون بيوتا لخياما ، هذا اذا لم أكن مخطئا في ظنى
- سقراط : نعم ، ولكن بيوتا عسكرية ، لا بيوت أغنياء .
- غلوكون : فما الفرق بين هذه وتلك ؟

سقراط : سأريك ، فلن من أظلم أعمال الرعاة ، وأدعاها الى الخزي في الرعية أن كلاهم التي ربوها لحراسة القطيع نهجم على الأغنام ، إما لسبب جوعها ، أو نهمها ، فتنتزقها بأنيابها ، فتكون ذئبا لا كلابا حارسة .

غلوكون : حقا انه أمر شائن .

سقراط : أفلا يلزم الاحتياط لئلا يفعل مساعدو حكمانا هكذا بالأهلين ، لأنهم أقوى منهم فيصبرون وحوشا ضارية بدل كونهم حلفاء صادقين ؟

غلوكون : يلزم ذلك .

سقراط : أترلا يتسلحون بأفضل ضمان اذا تهذبوا تهذبيا حسنا ؟

غلوكون : لقد سبق أن سلمنا أنهم مهذبون .

سقراط : ليس من الضرورة يا عزيزي غلوكون الوقوف عند هذه النقطة ، ولكن الأمر الأجدر بأعظم أهمية هو الاصرار على ما قلناه ، وهو انه يجب أن يهذبوا تهذبيا صحيحا مهما يكن من أمرهم ، اذا أريد بهم الحصول على أعظم مؤهلاتهم للحنان واللفظ نحو رفاقهم ونحو الذين يتحكمونهم .

غلوكون : حق .

سقراط : علاوة على ذلك التهذيب ، فان الرجل الحكيم يقول : « يجب أن تكون بيوتهم مما لا يحول دون كونهم حكما كاملين ، ولا تمكنهم من الاضرار بالآخرين » .

غلوكون : وبحق يقول .

سقراط : فاعتبر الرأي التالي : « أوافق حياتهم وسكنهم اذا أريد أن يكونوا على ما ذكرت من الأوصاف الامور التالية ؟ :

أولا — أن لا يملك أحدهم عقارا خاصا مادام ذلك في الامكان .

ثانيا — ولا يكون لأحدهم مخزن أو مسكن يحظر دخوله على الراغبين ، فليكونوا في أسمى ما يتطلبه الأعداء الشجعان المدربين تدريبا حريا ، ويجب أن يقبضوا من الأهلين دفعات قانونية أجرة خدمتهم بحيث لا يحتاجون في آخر العام ولا يستفضلون ، ولكن لهم موائد مشتركة كما في نكبات الجنود ، وأن يجبروا أن الملائكة ذخرت في نفوسهم ذهابا وفضة سماريين ، فلا حاجة فيهم الى الركاز الترابي ، وعيب عليهم أن يدنسوا بصناعة الملائكة السامية بمزجها بالذهب الفاني ، لأن نفود العامة فيها دخل كثير ، وهي مجلبة لكثير من الشرور ، ولكن ذهب الحكام السموي عديم الفساد ، فهم وحدهم من بين كل رجال المدينة مستثنون من مس الفضة والذهب ، فلا يدخلونهما تحت سقفهم ، ولا يحملونهما ، ولا يشربون بكتوس صيغت منهما ، وبذلك يصرون أنفسهم ودولتهم ، لكنهم اذا امتلكوا أراضى ويونا ومالا ملكا خاصا صاروا مالكيين ووزراعا عوض كونهم حكما ، فيصبرون سادة مكروهين ، لا حلفاء محبوبين ويصبحون مبغضين ومبغضين ، يكاد لهم ويكيدون ، فيقبضون الجانب الأكبر من حياتهم في هذا العراك ، وخوفهم العدو الداخلي أكثر جدا من خوفهم العدو الخارجي .

ففي حال كهذه يسرعون بالدولة الى السمار ، فلاجل كل ما ذكره لم نبرم ما قررناه في مصير حكمانا بالنظر الى بيوتهم وغيرها ، وتر بط ذلك بأحكام الدستوراتم لا ؟

غلوكون : نبرمه وتر بطله . انتهى

(١٥) وهنا منع سقراط منعا باتا إدخال بدعة جديدة في الموسيقى ، وفي التمرينات العضلية (الجناستك) . وإن ظهور نشيد . أو أغنية جديدة ، فيها فتح الشهوات ، يحدث خللا في سياسة الدولة . وقال : « يجب أن يكون التسلي والتلهي بالأمور المشروعة ، لأن الملاهي إذا كانت غير مشروعة انغمس الأحداث فيها ، واستحال أن يشبوا رجالا مخلصين .

(١٦) وفي صفحة ١٠١ أخذ يذكر أن التهمين في الطعام والشراب تكون حياتهم كلها محيرة مضطربة يعيشون بين أيدي الأطباء ولا يستفيدون منهم شيئا ، بل يسرون من ردى . الى أردأ ، وهم دائما في حاجة الى من يصف لهم الدواء . قال : ومن المدهش أنهم يبغضون من يصرح لهم بالحق ، ويؤكد لهم أنهم مالم يعدلوا عن التهم والشراب والفجور والتراسي ، فإن العقاقير لا تفيدهم ولا كي ، ولا بتر ، ولا تعاويذ ، ولا أربطة ، ولا شيء آخر من أمثال هذه . وهنا أخذ يقيس رجال السياسة في الأمة على أحوال الفرد الواحد الكبير المعربد ، قال فكأن الشراء في الطعام للمواظب على طلب الذات مغرور لا يسمع نصيح الناصحين ، هكذا رجال الدولة الفاسقة سيئة النظام يكرهون من يتعرض لقوانينهم ، ولا يحبون إلا من يتلقى لهم ببراعتهم ويمدح سوء فعلهم .

(١٧) ولما كانت هذه الشرائط كلها لا يمكن كمالها في الأرض قال في صفحة ١٢١ وما بعدها مانعه : « إن غرض تبيان نظام الدولة الكاملة سعيا وراء الغرض المقصود منها هو اكتشاف طبيعة العدالة ، أما إمكان إنشاء دولة كهذه بالفعل فهي مسألة أخرى ، ليس لها أقل أثر في سلامة النظام وصحة نتائجه ، وكل ما يصح أن يطلب منه هو أن يبين كيف يمكن الهيئات الناقصة الحاكمة حاليا أن تبلغ أقرب نقطة يمكنها الى مدى السياسة الكاملة التي صرنا وصفها ، وهناك انقلاب واحد لا بد منه لتحقيق هذا الغرض وهو تسليم مقاليد السياسة الى الفلاسفة ، وللتخلص مما يلابس ذلك من وجوه المقاومة يلزم أن نلوى عنان البحث الى تحديد الفيلسوف الحقيقي .

(أولا) - الفيلسوف الحقيقي هو المغمم كل الغرام بالحكمة في كل فروعها ، وعلينا أن نميز في هذا الموقف أدق تمييز بين الفيلسوف الحقيقي وبين المدعى حب الفلسفة تدجيلا ، وتستقر نقطة الفرق بينهما في أن الدجال يكتفي بدرس الموضوعات الجبلة مثلا ، أما الفيلسوف الحقيقي فلا يقف عند ذلك الحد ، بل يتجاوز به إلى إدراك الجبال المطلق ، ويمكن وصف حال الأول العقلي بأنه « تصور » وحال الثاني انه « معرفة حقيقية » ، أو « علم » ، فهناك الوجود الحقيقي الذي يتناوله العلم ، واللاوجود ، أو العدم ، الذي نسبته الى الجهل نسبة الوجود الحقيقي الى العلم ويتوسط بين العلم وبين الجهل التصور ، فستنتج أن التصور يتناول الوجود الظاهري ، فالذين يدرسون الوجود الحقيقي يدعون « محبي الحكمة » ، أو « فلاسفة » ، والذين يدرسون الوجود الظاهري يدعون « محبي التصور » لافلاسفة . انتهى من « جمهورية أفلاطون »

هنالك قال صاحبي : إن هذه الحكم المستخرجة من كلام (سقراط) مدهشة ، ذلك انها مطابقة لمعنى الآية ، لأن هؤلاء السكارى ، أو الذين يكثرون ألوان الطعام ، أو الكسالى ، أو الذين يتحدثون في الدولة أنواع المفاني كما يحصل في بلادنا المصرية الآن ، أو الصور المحرّضة على الفسوق ، كما يفعله الاوروبيون الآن في بلادنا المصرية بواسطة دور السينما (الصور المتحركة) ، فكل هؤلاء أذهبوا طبيعتهم في الحياة الدنيا واستمتعوا بها ، وأخذ الجزاء يظهر فيهم ، ويعاقبون في نفس الحياة الدنيا قبل الآخرة ، فوالله اني لأوافقك كل الموافقة على ما قلته وهو أن كتاب الله قد فسر بالفلسفة قبل نزوله ، وإذا كان (سقراط) قبل النبوة بنحو ألف سنة

فن الحجب العجيب أن يكون مافصله هو نفس ماأجلته الآية ، بل أنا أقول إنها والله لمجزئة . فقلت بإصاح ، إن هذه الأمة الاسلامية في عصرنا تجترى بقولها هذه مجزئة ، والمتعلمون تعليماً ناقصاً يشكون في البيانات كلها ، ولكن ليس هذا جوهر الموضوع ، إن جوهر الموضوع هو بحث أخلاقنا وعوائلنا وعرضها على كتاب الله ، ولما كان كتاب الله مشروحاً بالحكمة التي ظهرت في الأمم كان ذلك أمراً مدهشاً يجب علينا إذاعته في زماننا حتى يوقن الشاك أولاً ويقنع أولئك المترفون ، العاجزون ، المتعلمون نصف تعليم في عصرنا أن شكهم في البيانات لا يخليهم من المسؤولية ، ولا يقوم حجة ، لأنهم يدعون أنهم متعلمون ، فنقول لهم : ويحكم ، أستم تسمعون علماء أوروبا ومنهم « سبنسر » وأمثال « ستلان التلياني » وغيرهما يقولان بأعلى صوتهما : « أيها الناس : انما معاشر الفلاسفة في أوروبا لا يبالغ في العلم والحكمة ، وأصول الفلسفة ، شار (سقراط) ، ولا (أفلاطون) ، بل نسبتنا الى هؤلاء القوم كنسبة البقرة الى الفيل ، فنحن إنما برعنا في العلوم الجزئية ، أما للسكليات التي توضح الامور العالية ، كأصل النفس ، ومنشأ العالم ، وماشابه ذلك ، فصن منه بعيد » إذن مانكتبه الآن في هذا التفسير حجة قائمة على كل متعلم في بلاد الشرق ، لأنه اذا ادعى أنه يشك في البيانات ، فلن يقضى له أن يتخلص من أنه رجل جاهل أحمق ، لأن فلاسفة أوروبا الذين يدعى هو أنه متمسك بأرائهم متعلق بهم . متبع سبيلهم ، فهو ككفر كما أنهم كفروا ، وأسرف كما أنهم أسرفوا وظلم كما أنهم ظلموا (في زعمه) قد أعلنوا أنهم أقل شأناً من سقراط وأفلاطون وهاهوذا سقراط يفسر القرآن قبل نزوله ، وبين لنا هذه الآية : « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا » وهو لا يعلم بالقرآن ولا بالنبوة ، ولا بالأمة العربية التي ستأتي بعده بنحو عشرة قرون .

فقال صاحبي : الله الله ، الآن حصص الحق ، واستبان السبيل ، وظهر الابداع الفلسفي الذي هو أكبر مجزئة قرآنية سياسية دولية ، وأن الأمم اليوم كلها عاجزة ، بعيدة عن الكمال ، فحدثني حفظك الله عما أحدثته ملوك الاسلام من الفسوق في السلوة الأموية والعباسية وغيرها تطبيقاً على ذلك كما وعدت . فقلت : اعلم أيها الذكي أن ما كتبه اليوم سترى فيه ما لم تره فيما مضى ، وما مثل الآراء والأحوال المختلفة في التعاليم إلا كمثل الأزهار في اختلاف ألوانها ، والثمار في تباين طعومها ، والأقطار في تنوع أهوائها ، ولكل زهر ، ولكل ثمر ، ولكل قطر قوم هم به مغمومون ، واذالم يكن التأليف جارياً مجرى النظام الطبيعي الإلهي في اختلاف المناظر ، وتباين المشارب ، ليجد كل امرئ فيه ما ربه ، لم يجر القبول في الأمم ، ولم يكن مثار الاتفاح ، ومجئى الأنظار .

فهاأنأذا أذكرك أيها الصديق أولاً بما جاء في (سورة الشورى) وما كان من أمر صميررضى الله عنه ومبلغ زهده وورعه ، وقد ذكرت هناك ١٧ خصلة مشروحة في عدله وأخلاقه الكريمة ، فهل تذكرها ؟ قال نعم ، ولكن هذا القول منك انتهجت به منهجى ، وانبت سننى ، وسمعت نصيحتى ، لأنك تشير اليه الآن ، ولأنك ذكره ، وهذا هو مقولى . فقلت : إنما أشرت إليه لأننى في هذا المقام كما تقدم أبحث في أمرين : أمر المصلحين الذين تقتدى بهم ، وهذا هو الذى ذكرته الآن ، وأمر المفسدين الذين نحترس من عملهم ، ونخالفهم ، وهؤلاء هم الذين سأفضل القول فيهم تفصيلاً كما وعدتك ، وقبل ذلك التفصيل أقول في السلف الصالح قولاً بجملاً غير ما تقدم لتمم القدوة بهم :

إن عصر الخلفاء الراشدين من سنة ١١ - ٤١ هجرية هو العصر الذهبى ، عصر العدل والتقوى ، كانت الحكومة جارية فيه على سنن العدل والاستقامة ، والغيرة الحقيقية على الدين ، ونسب الدنيا ، وهو العصر الذى اتخذهُ المسلمون منوالاً ينسجون عليه ، وكلما حادت دولة من دولهم عن جادة الحق طلبوا منها الرجوع إليه والسير على خطوات الخلفاء الراشدين ، لأن الحكومة انتقلت بعدهم الى طور جديد ، وانقلبت

من الخلافة الدينية الى الملك السياسي ، ونشأت في الخلفاء والعمال المطامع ، وأخذوا في حشد الأموال بأية وسيلة كانت .

(بيت المال) توفي النبي ﷺ والمسلمون هم رجال الحكومة والجند ، ولم يكن عندهم بيت مال للأسباب التي قدمناها ، ولم يكونوا يتطلبون المال إلا لقضاء الحاجيات ، وكان أكثر ما يرد عليهم منه ماشية وحظنة وخيلا ونحو ذلك من أموال الصدقة والغنيمة ، وكانت النقود قليلة بين أيديهم ، فلما فتحوا الشام وفارس ومصر وردت عليهم الأموال ذهابا وفضة ، فأدهشهم كثرتها ، وتنبهوا لها . يقال ان أبا هريرة قدم على عمر بن الخطاب من البحرين بمال . فقال له عمر : بم جئت ؟ قال بمحسنة ألف درهم ، فاستكثره عمر ، وقال : أندري ما تقول ؟ قال نعم مائة ألف خمس مرات ، فصعد عمر المنبر ، وقال أيها الناس : فد جاءنا مال كثير ، فان شئتم كلنا لكم كيلا ، وان شئتم عددنا لكم عتًا . وكان ذلك من جملة ما دعاه الى وضع الديوان ، وفرض العطاء لكل واحد من المسلمين ، باعتبار السابقة والقراية من النبي ، ولكنه نهى عن اختزان المال ، فقال له قائل : يا أمير المؤمنين ، لو تركت في بيوت الأموال شيئا يكون عدّة لحادث اذا حدث ؟ فجزوه عمر ، وقال له : تلك كلمة ألقاها الشيطان على فيك ، وقأني الله شرّها ، وهي فتنة لمن بعدى ، إني لا أعدّ للحادث الذي يحدث سوى طاعة الله ورسوله ، وهي عدتنا التي بلغنا بها ما بلغنا .

فلما كثرت الأموال في أيام عمر ، ووضع الديوان فرض الرواتب للعمال والقضاة ، ومنع ادخار المال ، وحرّم على المسلمين اقتناء الضياع ، والزراعة ، أو المزارعة ، لأن أرزاقهم وأرزاق عيالهم تدفع لهم من بيت المال ، حتى إلى عبيدهم ومواليهم ، أراد بذلك أن يبقوا جندا على أهبة الرحيل ، لا يمنهم انتظار الزرع ، ولا يقعدهم الترف ، والقصف . فاذا أسلم أحد من أهل النعمة سكان البلاد الأصليين صار ما كان في يده من الأرض وداره الى أصحابه من أهل قريته ، تفرّق فيهم ، وهم يؤدّون عنها ما كان يؤدّي من خراجها ويسلمون إليه ماله ورفيقه وحيوانه ، ويفرضون له راتبا في الديوان مثل سائر المسلمين .

والفرض الذي كان يرمى إليه عمر من هذه القاعدة أن يبقى أهل النعمة وأرضهم مصدرًا للمال الذي يحتاج إليه المسلمون في إتمام الجهاد ووقفًا لمصالحهم مدى الدهور ، أما اذا اشترى المسلمون الضياع فانهم يستقلون بنفعها دون سواهم ، ولا يمضي بضعة أجيال حتى تصير أملا كما خاصة بهم ، وعمر يريد أن يبقها محبوسة على آخر هذه الأمة من المسلمين المجاهدين قوّة على جهاد من لم يظهروا عليه بعد من المشركين لاتباع ولا تورث لما أزموه أنفسهم من إقامة فريضة الجهاد ، وأيد هذه القاعدة عمر بن عبد العزيز الأموي ، وكان يتحدّى ابن الخطاب بكل خطواته . فقال : « أيماذى أسلم فانّ اسلامه يحرز له نفسه وماله ، وما كان من أرض فانها من فيء الله على المسلمين ، وأيما قوم صالحوا على جزية يعطونها فن أسلم منهم كانت داره وأرضه لبعيبيهم » فترتب على ذلك ونحوه ترفع المسلمين عن سائر الأعمال من تجارة أو صناعة أو نحوها .

ثروة الخلفاء ومصلحتهم

علمت مما تقدّم أن الراشدين لم يكونوا يلتمسون ثروة ، فلما توفي أبو بكر ، لم يجدوا عنده من مال الدولة إلا دينارًا واحدا سقط من غرارة ، لأنه كان يفرّق كل ما يجتمع عنده على السواء ، لا ينظر الى مصلحة نفسه ، بل هو أنفق كل ما كان عنده من المال قبل اسلامه ، وذلك أربعون ألف درهم . غير ما اكتسبه من التجارة لأنه كان يتجر ليعتد على النفقة ، ثم فرضوا له مالا معينًا من مال المسلمين لينفقه على نفسه وعياله ، لئلا يشتغل بالتجارة عن النظر في مصالحهم ، فلما دنا أجله أوصى أن تباع أرض كانت له ويدفع ثمنها بدلا مما أخذ من مال المسلمين ، وكان عنده ثوبان أوصى أن يكفن بهما .

وأخبار عمر بن الخطاب بالزهد والنزاهة أشهر من أن تذكر ، ويقال بالأجمال انه هو مؤسس دولة المسلمين وقد أسسها على أمين دعائم الملك ، أسسها على العدل ، والتقوى ، والزهد ، والاستهلاك في نصرته الحق مما يندر اجتماعه في رجل واحد ، وقد يوهم لغرابته انه من قبيل المبالغة ، ويسهل علينا التصديق به اذا تذكرنا النتائج التي ترتبت على تلك المناقب مما لم يسمع بمثله في التاريخ ، يكفي منها تلك الفتوح التي جعلت الأموال تنصب نحو بيت المال في المدينة كما ينصب الماء من الميازيب ، وعمر مع ذلك لا يلتفت إليه ، ولا يأخذ منه إلا ما فرضه لنفسه كسائر الصحابة الأولين ، وكان اذا احتاج الى مال فوق راتبه جاء إلى صاحب بيت المال ، فاستقرضه حتى يفديه إياه من عطائه فيما بعد ، ولما طعن وأحسن بدنو الأجل قال لابنه : « إني استلفت من بيت مال المسلمين ثمانين ألفا فليرد من مال ولدي ، فإن لم يف ما لهم خال آل الخطاب » . وزهده في الطعام واللباس مشهور .

ويقال نحو ذلك في الامام علي ، فقد كان مغاليا في الزهد والعدل ، ومن أقواله : « تزوجت بقاطمة ومالي فراش إلا جلد كبش تام عليه بالليل ، ونعلف عليه ناضحا بالنهار ، ومالي خادم غيرها » . وجاءه في أيام خلافته مال من أصبهان ، فقسمه على سبعة أسهم ، فوجد فيه رغيفا ، فقسمه على سبعة أسهم ، ودعا أمراء الأسباع ، فأقرع بينهم ، لينظر أيهم يعطى أولا ، ولم يبن علي آجرة على آجرة ، ولابنة على لبنة ، ولا قسبة على قسبة ، وكان يأتي بحبوه من المدينة في جراب ، وقيل انه أخرج سيفا له الى السوق فباعه ، وقال : « لو كان عندي أربعة دراهم نحن إزار لم أبعه » . ومناقبه لا تحصى .

وقد ساعد الخلفاء الراشدين على تأييد العدل والحق ، أن عمالهم كان أكثرهم من أهل التقوى ، وحسن الاعتقاد في الاسلام ، فكان عمر اذا اكتسب أحد عماله مالا من تجارة ، أو سبيل آخر غير عطائه المفروض له قاسمه عليه ، وهولابري في ذلك غبنا ، كذلك فعل بسعد بن أبي وقاص عامله على الكوفة وعمرو بن العاص عامله على مصر ، وأبي هريرة عامله على البحرين ، وغيرهم .

ولا غرابة في ذلك ، لأن العامل اذا رأى خليفته زاهدا تقيا يمنع نفسه من كل شيء ويستهلك في مصلحة الأمة فانه يقتدى به ولو كان ذلك مخالفا لرأيه ، على أن الخليفة نفسه لا يولى أعماله إلا من يكون على رأيه وخلقه ، وخصوصا عمر ، فقد كان شديدا على العمال يتفقدهم كل سنة ويعزلم لأقل تهمة ، ذكروا أنه استعمل على حص رجلا اسمه عمر بن سعد ، فلما انقضت السنة كتب اليه : « اقدم إلينا » فلم يشعر عمر إلا وقد قدم إليه الرجل ماشيا حافيا ، عكازه في يده ، وإداوته ومزوده وقصعته على ظهره ، فلما رآه عمر ، قال : يا عمير أجبنا أم البلاد بلاد سوء ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أما هناك الله أن تجهر بالسوء وعن سوء الظن ، وقد جئت إليك بالدين أجرها بقرابها ، فقال : ومامعك من الدنيا ؟ قال : عكازة أتوكأ عليها وأدفع بها عدوا إن لقيته ، ومزود أجل به طعامي . فقال : ما صنعت بعمالك يا عمير ؟ قال : أخذت الإبل من أهل الأبل ، والجزية من أهل الذمة ، ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل ، فوائته يا أمير المؤمنين لو بقي عندي منها شيء لأنتيك به ، فقال له : عد الى عمالك .

ولأقتصر في هذا المقام على ما سمعته الآن ، وأقفي بذكر المبذرين ، فأقول مستعينا بالله :

شروع التبذير في الدولة

لم تطل مدة المسلمين الأولين الذين لم يكونوا يعنون الخلافة ملكا سياسيا ، فلما انقضى عصر النبوة وزالت دهشتها عاد الناس الى فطرتهم أيام عثمان سنة ٢٣ - ٣٥ هجرية ، لأنه لم يكن شديدا مثل عمر ،

وكان مع ذلك أمويا ، فاعتزّ الأمويون به ، وأردوا أن يسيّدوا لأنفسهم السلطة التي كانت لهم في الجاهلية ، وكان بنو هاشم قد سلبوهم إياها بعد الإسلام لأن النبي ﷺ منهم ، فأخذ عثمان يولي الأعمال رجلا من أقربائه ، وفيهم من لم يعتق الإسلام إلا بأسا من فوزه على المسلمين ، وكثرت في أيامه الفتوح ، وفاضت الغنائم فكان يختص أهله منها بأكثر من سائر الصحابة ، كما فصل بفتايم افریقیة سنة ٢٧ هجرية فان المسلمين حاربوها وعليهم عبدالله بن سعد (أخوه عثمان من الرضاع) ، قبلت غنائمهم منها (٢٠٥٠٠٠٠٠) دينار أعطى خمسها الى مروان بن الحكم وزوجه ابنته ، وكان هذا الخس من حقوق بيت المال ، وأبطل عثمان محاسبة العمال لأنهم من أهله ، فلزادوا طمعا في حشد الأموال لأنفسهم ، وخصوصا معاوية بن أبي سفيان عامله على الشام ، وهو أكثرهم دهاء ، وأبعدهم مطمعا ، فكان في مقدّمة الذين أبطلوا قاعدة عمر في منع المسلمين من الزرع واتخاذ الضياع ونحوها .

وكيفية ذلك أن المسلمين لما فتحوا الشام ، وأقربوا الأرضين في أيدي أصحابها ، كان جانب كبير منها ملكا للبطارقة قواد جنود الروم ، فلما غلبت الروم ، وفروا البطارقة ، أوقتلوا ، ظلت ضياعهم سائبة لأمالك لها ، فأوقفها المسلمون على بيت المال ، فكان العمال يقبلونها كما يقبل الرجل ضيعته (أى يضمونها) ويضيفون دخلها الى بيت المال ، فلما استقرت معاوية على ولاية الشام ، واقتدى بالروم في البذخ واتخاذ الحاشية ، لم يعد راتبه يكفي ، ورأى من عثمان ضعفا وميلا ، فكتب إليه : ان الذي أجراه عليه من الرزق في عمله لا يقوم بمؤون وأن لأمالك لها ، وليست هي من قرى أهل القنعة ، وللالخراج ، وسأله أن يقطعها إياها ، وكان عمر قد جعل لمعاوية على عمله في الشام راتبا مقداره ألف دينار في السنة ، وهو كثير بالظن الى رواتب العمال في تلك الأيام ، فلما طلب من عثمان أن يقطع تلك الضياع أجابه الى طلبه فوضع يده عليها وجعلها حبا على فقراء أهل بيته فجراه ذلك على التمداد في اقتناء الأرضين ويعمها في أيام خلافته ، والاذن للمسلمين في ذلك .

واقتدى بمعاوية غيره من العمال وسائر الصحابة ، فآقتنوا الضياع والعقار ، وفيهم جماعة من كبار الصحابة مثل طلحة والزبير وسعد ويعل وغيرهم ، وزادت أموالهم ، وظهر الغنى فيهم ، حتى عثمان نفسه ، فانه اقتنى الضياع الكثيرة ، واخترن الأموال ، فوجدوا عند خازنه بعد موته (١٥٠٠٠٠٠) دينار و (١٠٠٠٠٠٠) درهم ، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما (١٠٠٠٠٠) دينار ، وخلف خيلا وإبلا ، والظاهر أن عثمان اندفع الى تسهيل الثروة على المسلمين بما زاد عنده من الأموال ، وأغراه أهله على ذلك وخصوصا معاوية ، ثم صار امتلاك العقار مألوفا شائعا .

ومن أسباب شيوع الاملاك بين المسلمين أن عثمان أقطع هو وخلفاؤه بعض الأرضين بمال يتعين مالكوه على أن يدفعوا شيئا لبيت المال بمقابل الإيجار أو الضمان كما تقدم ، فلما حدثت فتنة الأشعث سنة ٨٢ هـ حرق الديوان وضاعت الحسابات فأخذ كل قوم ما يليهم .

على أن المسلمين لم يكونوا راضين عن أعمال معاوية في هذا الشأن لأنه لم يساو بينهم فيه ، فنصوا عليه وخصوصا الفقهاء ورجال التقوى ، وفي حكاية أبي ذر الغفاري ما يفي عن البيان ، فقد كان هذا الرجل مغاليا في التمسك بقاعدة عمر ، وكان يرى : « أن المسلم لا ينبغي له أن يكون في ملكه أكثر من قوت يومه وليته أوشى بنفق في سبيل الله ، أو يصدته لكريم » . وكان يقوم في الشام ويقول : « يا معشر الأغنياء ، واسوا الفقراء ، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحصى عليها في نار جهنم فكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » ، وما زال يقول ذلك ويكرره حتى ولع الفقراء بقوله وأوجبوه على الأغنياء ، فشكا الأغنياء الى معاوية ما يلقون منهم ، وكان معاوية يشكو أمر

من شكائهم ، لان أبا ذرٍّ وبخه غير مرة لاختزانه المال ، ومما قاله له على أثر بنائه قصر الخضراء في دمشق ، وقد سأله معاوية : كيف ترى هذا ؟ فقال أبو ذرٍّ : إن كنت بفيتة من مال الله فانك من الخائنين ، وإن كنت بنيتة من مالك فانك من المفسدين ، فعظم ذلك على معاوية ، فأراد أن يوقعه فيما يوجب محامته فبعث إليه بألف دينار أراد أن يفره بها ، ثم يتهمه باكتناز المال ، فلما وصلت الدنانير إلى أبي ذرٍّ فرّقها حالا مع أنها وصلتته ليلا ، وجاءه رسول معاوية في الصباح يزعم أنه دفع المال إليه خطأ ، وأن معاوية يطلبه ، فأخبره أنه أنفق في ساعته ، فلم ير معاوية سبيلا إلا اتهامه بالفتنة ، فكتب إلى عثمان : « انك أفسدت الشام على نفسك بأبي ذرٍّ » ، فكتب إليه : « احله على قتب بغير وطاء » ، فلما جاء المدينة حاكمه عثمان فلم يهرب سلطانه ، وجاهر بما يراه من جشع بني أمية وخروجهم من الحق ، فأخرج عثمان من المدينة إلى الربطة بالعنف ، وظلّ هناك حتى مات ، فنقم المسلمون بموته على عثمان في جملة ما تقوموا عليه إلى مقتله اه

هذا ما جاء في كتاب « تاريخ التمدن الاسلامي » وربما كان ما جاء فيه من أمر عثمان رضي الله عنه فيه مبالغة ، ومن جهة أخرى أنه رضي الله عنه كان مجتهدا ، والمجتهد مثاب ، أصاب أم أخطأ ، فله حرمة ، فلنفضل الكلام في أيام بني أمية :

الاسراف أيام بني أمية

وعصرهم سنة ٤١ - ١٣٢ هجرية

هذه الدولة كانت عربية بجحة محترقة لسواهم ، ومن أسلم من غير العرب يسمونهم الموالي

اعلم أن بني أمية وإن فتحوا البلاد شرقا وغربا فإن عمالهم أخذوا في الإسراف ، وبعض ملائكتهم كذلك ، فدالت دولتهم . خذ لذلك مثلا :

إن محمدا أنا الحجاج بن يوسف لما تولى اليمن أساء السيرة ، وظلم الرعية ، وأخذ أراضى الناس بغير حقها وضرب على أهل اليمن خراجا سماه « الوظيفة » . فلما ولي عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله هناك بالغاء تلك الوظيفة والاقتصار على العشر .

وفي كلام القاضي أبي يوسف في عرض وصيته للرشد بشأن عمال الخراج ما يبين الطرق التي كان أولئك الصغار يجمعون الأموال بها . قال : بلغني أنه قد يكون في حاشية العامل أو الوالي جماعة منهم من له به حرمة ومنهم من له إليه وسيلة يسوا بأبرار ولا صالحين يستعين بهم ويوجههم في أعماله يقتضى بذلك التملكات ، فليس يحفظون ما يوكون بحفظه ولا ينصفون من يعاملونه إنما مذهمهم أخذ شيء من الخراج كان أو من أموال الرعية ، ثم اتهم يأخذون ذلك كله فيما بلغني بالصف والظلم والتعدى ، ويقبضون أهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ، ويعلقون عليهم الجرار ، ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة ، وهذا عظيم عند الله ، شنيع في الاسلام .

وكان شأن بني أمية وعمالهم وحبائهم على نحو ما تقدم حين تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ هـ وكان تقيا منصفا ، فأراد أن يرد الأمور إلى ما كانت عليه في أيام سمييه وجده لأنه عمر بن الخطاب ، فأصدر أوامره إلى العمال بإبطال تلك المظالم ، وعينها بأسمائها مفصلة ، وإبطال لعن عليّ على المنابر ، وكان أهل قد اقتنوا الصباغ ، وأخذوا كثيرا منها من أهل النمة بغير حق ، ففتح بابها للناس وأعلن أن من كانت له ظلامة فليأت ، فأناه المظلومون ، وفيهم النصارى واليهود والموالي وغيرهم ، ومنهم من يشتكي اختلاس ماله ، وآخر اغتصاب ضيعته ، وكان ينصفهم بالحق والعدل ، ولو أن الحكم على ابنه أو اخوته أو أبناء عمه . فقال له بعضهم

وكيف تصنع بولدك؟ فبكي حزوا وقال: أكلهم إلى الله، وأخذ أموال أعمامه وأولادهم وسماها مظالم، فلما رأى أهله ذلك خافوا على سلطانهم وهو إنما قام بالمال، فاذا خرجت الضياع والأموال من أيديهم ذهب ضياعا، فمشوا إلى عمتهم فاطمة بنت مروان وشكوه إليها، فأنته، فقال لها: إن الله بعث محمدا ﷺ رجة ولم يبعثه عذابا إلى الناس كافة.

ولما رأى الموالى عدله وتقواه، اغتتموا الفرصة، وشكوا إليه ما يقاسونه من الذل والضعف، وكان الجراح بن عبد الله الحكمي عامل خراسان قد أرسل إلى عمر بن عبد العزيز في الشام وقد رجا من العرب، ورجلا من الموالى، فتكلم العربيان، والمولى ساكت، فقال له عمر: ما أنت من الوفد؟ قال بلى، قال فما يمنعك من الكلام؟ فقال: يا أمير المؤمنين عشرون ألفا من الموالى يغزون بلاعطاء ولا رزق وصلهم قد أسلموا من أهل الذمة يؤخذون بالخراج، وأميرنا بعد سيف من سيوف الحجاج قد عمل بالظلم والعدوان، فقال عمر: أحر بمثلك أن يوفد، وكتب إلى الجراح: انظر من صلى من قبلك فضع عنه الجزية، فرغب الناس في الإسلام، وتسارعوا إليه، فقيل للجراح: إن الناس قد سارعوا إلى الإسلام فقورا من الجزية، فامتنعهم بالثقتان. فكتب الجراح إلى عمر بذلك، فأجابه: إن الله بعث محمدا داعيا، ولم يبعثه خاتنا.

وفعل عمر نحو ذلك مع عامله على مصر حيان بن شريح، وكان حيان قد كتب إليه: أما بعد فإن الإسلام قد أضرّ بالجزية حتى سلفت من الخارث بن ثابتة عشرين ألف دينار أتممت بها عطاء أهل الديوان، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل. فكتب إليه عمر: أما بعد فقد بلغني كتابك، وقد وليتك جند مصر، وأنا عارف بضعفك، وقد أمرت رسولي بضربك على رأسك عشرين سوطا، فضع الجزية عمن أسلم قبض الله رأيك، فإن الله بعث محمدا هاديا، ولم يبعثه جابيا، ولعمري لعمراشقي من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه.

وقس على ذلك عماله الآخرون، فإنه عزل من لم يوافقهم، فأصبحت الدولة ورجالها كلها ضده لأنه حاول إصلاح الأمور بالعنف دفعة واحدة والطفرة محال، وما في بني أمية وعمالهم إلا من كره ذلك منه فلم يصبروا على خلافته ثلاث سنوات، فقتلوه بالسّم، ويعده المؤرخون من الخلفاء الراشدين، وإذا قالوا العمرين أرادوه وعمر بن الخطاب.

فترى مما تقدم أن القواعد الأساسية التي قام عليها الإسلام تدعو إلى الانصاف والرفق، ولكنها تختلف مظاهرها باختلاف الذين يتولون شئونها، ولوأنح لعمر بن عبد العزيز أن يعيدها إلى ما كانت عليه في عهد ابن الخطاب لأمحت مظالم بني أمية، ولكنه جاء في غير أوانه، فذهب سعيه هدرا، ولما مات عادت الأمور إلى مجاريها، ورافقتها ردّ الفعل، فصارت إلى أشدّ مما كانت عليه قبله، وبالغ العمال في الاستبداد والعسف وشدّدوا في استخراج الخراج وزادوه حتى اضطر بعض أصحاب الأرضين إلى الاجتاء، أي أن يلجئوا أراضيهم إلى بعض أقارب الخليفة، أو العامل تعززا به من جباة الخراج كما سيأتي.

أما الخلفاء فانهم ازدادوا انغماسا في الترف، وأولهم يزيد بن عبد الملك فإنه انقطع إلى اللهو والتجرواشتغل عن مصالح الدولة بجاريته: سلامة وجبابة، وحديثهما مشهور، وخلفه أخوه هشام، وكان بخيلا، وفي أيامه زبدت الضرائب في مصر على يد ابن الحبحاب كما تقدم، وجاء بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وكان مثل أبيه في اللهو والتجرو، فقتله أهله، وولوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ١٣٦ هجرية، وكان عازما على إصلاح الأمور اقتداء بعمر بن عبد العزيز كما يؤخذ من خطاب ألقاه عند مبايعته، فأصابه من الفشل نحو ما أصاب عمر، لأن الأحوال غير ملائمة، وفي أيام خلفه مروان بن محمد تغلب بنو العباس وصارت الخلافة إليهم. وكان بنو أمية قد انغمسوا في الترف واللهو والتجرو، وأصبحوا لا ينظرون إلى ما يؤيد سلطانهم ولا يباليون

في انتقاء عمالهم ، وربما ولوا العامل عملا بإشارة جارية ، أو مكافأة على هدية كما فعل هشام بن عبد الملك بالجند بن عبد الرحمن ، وكان الجند قد أهدى امرأة هشام قلادة من جوهر ، فأعجبت هشاما ، فأهدى هشاما قلادة أخرى ، فولاه هشام على خراسان سنة ١١١ هجرية ، وبلغ ثمن الجارية في أيام بني أمية (١٠٠٠٠٠٠٠) درهم ، وهي الذلقة ، وأصبح العمال لا هم لهم إلا حشد الأموال ، والاستكثار من الصنائع والموالي ، ولم يعد أهل العدالة يرضون بولاية الأعمال مخافة أن يقصروا بالمال الذي يطلبه الخلفاء ، كما حدث ليزيد بن المهلب لما ولاه سليمان بن عبد الملك العراق ، فقال يزيد في نفسه : إن العراق قد أخرجها الحجاج ، وأنا اليوم رجاء أهل العراق ، ومتى قدمتها وأخذت الناس بالخراج وعذبتهم عليه صرت كالخجاج ، أدخل على الناس الحرب (١) وأعيد عليهم تلك السجون التي قد عاقبهم الله منها ، ومتى لم آت سليمان بمثل ما جاء به الحجاج لم يقبل مني ، وقس على ذلك رأى غيره ممن يؤثرون الرفق ، فلم يرغب في الولايات إلا أهل المطامع ، وجعل الخلفاء من الجهة الأخرى يطعمونهم بالرواتب الفادحة ، فبلغ رزق يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق في أواخر أيام بني أمية ٦٠٠٠٠٠٠ درهم ، وكان العمال يبذلون جهدهم في اختزان الأموال لأنفسهم لعلهم أن الولاية غير ثابتة لهم ، فكثرت أموالهم واتسعت ثروتهم ، فبلغت غلة خالد القسري أمير العراق في أيام هشام ١٣٠٠٠٠٠٠ درهم أي نحو مليون دينار ، فأصبح الخلفاء لا يعزلون عاملا عن عمله إلا حاسبوه على ما عنده من المال ، وكانوا في أيام معاوية يشاطرون العمال اقتداء بعمر بن الخطاب ، ثم صاروا يحاكمونهم ويستخرجون كل ما وصل إليه معرفتهم كما فعلوا بخالد القسري ، إذ وشى به كاتبه حيان النبطي أنه فرق ٣٦٠٠٠٠٠٠ درهم ، فبعث هشام إليه من أخرج معظم هذا المال منه ومن عماله ، ويسمون هذا العمل استخراجا ، وكانوا يستخدمون الشدة فيه ، فوقع بين العمال والخلفاء تنافر زاد الخطر على دولة بني أمية .

وقد كان متوسط جباية العراق في أيامهم نحو ١٣٠٠٠٠٠٠٠ درهم ، وجباية مصر ٣٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار ، أو ٣٦٠٠٠٠٠٠٠ درهم ، وجباية الشام ١٧٠٠٠٠٠٠٠ دينار ، أو ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم . فيكون ارتفاع هذه البلاد نحو ١٨٦٠٠٠٠٠٠٠ درهم يضاف إليه أموال البلاد الأخرى مما لا نعرف مقداره . انتهى
هذا بعض أفعال هذه الدولة ، فسقطت وزهبت كأس الدابر ، وهذا عذاب الخزي في الحياة الدنيا المذكور في هذه الآية .

دولة بني العباس والاسراف فيها

هذه الدولة لها عصران : عصر ذهبي يمتد من أول نشأتها سنة ١٣٣ هجرية إلى آخر أيام المأمون سنة ٢١٨ هجرية ، والعصر الثاني وهو عصر التدهور والانحطاط ، ويتبدى بخلافة المعتصم سنة ٢١٨ وينتهي باقتضاء الدولة العباسية .
فانظر إليها النكتة إسراف الخلفاء ونسأهم ، فقد جاء في كتاب « تاريخ تمدن الاسلامي » أنهم انهمكوا في البذخ والاسراف والتبذير والترف ، فاقنتوا الجوارى ، واتخذوا القرش ، من الخبز والديباج والحرير والمسامير الفضة ، وابتنوا المنزهات ، والقصور ، والمدن ، واقتنوا الندماء ، وأنشوا مجالس الغناء ، وارتكبوا سائر ضروب الترف والتأنق بالطعام واللباس والرياض ، وقد سهل عليهم ذلك لقرب عهد العراق و فارس من بذخ الفرس قبيل الفتح الاسلامي ، وأطلقوا أيدي نسأهم ، وأمهاتهم ، وخاصتهم ، في الأموال .

ثروة نساء الخلفاء

لم يتزوج السفاح إلا امرأة واحدة ، وقبل أن يتوفى المنصور أوصى ابنه المهدي أن لا يشرك النساء في أمره ، ومع ذلك فإن الخيزران أم الرشيد كانت هي صاحبة الأمر والنهي في أيام الهادي وأيامه ، وكان وزيره تحت أمرها ، فأفضى نفوذها إلى حشد الأموال لنفسها ، حتى بلغت غلتها في العام (١٦٠٠٠٠٠٠) درهم ، وذلك نحو نصف خراج المملكة العباسية لتلك العهد ، وغلة أعظم متمولى العالم اليوم لازيد على نثني هذا المال ، فقد ذكروا أن إيراد « روكفلر » الغني الأمريكي الشهير نحو (١٠٠٠٠٠٠٠) جنيه في السنة ، وغلة الخيزران أكثر من ١٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار وقيمة النقود كانت تساوي ثلاثة أضعافها اليوم ، والدينار نصف جنيه ، فتكون غلة « روكفلر » نحو ثلثي غلة الخيزران ، وكانت الخيزران مع ذلك شديدة الوطأة ، ورغبة في الاستئثار ، فلما آنتت في ابنها الهادي معارضة لارادتها ، دست إليه من قتلها ، ولمامات توسع الرشيد بأموالها ، وأقطع الناس ضياعها .

على أن الخيزران كانت من أهل العلم والرأى ، فلا غرابة في اقتنائها الأموال في إبان الثورة العباسية ، إنما الغرابة في اقتناء أمهات الخلفاء الأموال الكثيرة في عصر الاحتطاط وبيت المال فارغ ، فإن قبيحة أم المعتز وجدوا لها من محبات في الدهايز ونحوها نحو (٣٠٠٠٠٠٠٠) دينار تقدا ، وما لا تقدر قيمته من التحف والجواهر مما نأى بذكره على سبيل المثال ، من ذلك مقدار مكوك من الزمرد النجني ونصف مكوك لؤلؤ كبير ونحو كيلجة ياقوت أجم مما قستروا قيمته (٢٠٠٠٠٠٠٠) دينار ، وكانت مع ذلك قد عرضت ابنها للقتل من أجل (٥٠٠٠٠٠) دينار .

وأغرب من ذلك شأن أم محمد بن الوائلي ، فقد كانت غلتها (١٠٠٠٠٠٠٠٠) دينار في العام ، تنفقها في جواربها وهي نحو غلة الخيزران ، وأخرجوا من تربة والده المقتدر ٦٠٠٠٠٠٠٠ دينار ، كانت محبأة هناك ولم يعلم بها أحد مع ضيق الخليفة ، وفراغ بيت ماله . وقس على ذلك أمهات الخلفاء الآخرين في العراق وغيره من بلاد الاسلام ، فقد كمن يتمتع بالنفوذ ويستولى على الأموال بالتواطؤ مع القواد ورجال الجند بما يتاح لهم من إطلاق الأيدي في أمور السولة كما فعل المستعين العباسي (٢٤٩ هـ) فإنه أطلق يد والده ويد انامش وشاهك الخادم في بيوت الأموال وأباحهم فعل ما أرادوا ، فكانت الأموال التي ترد من الآفاق يسير معظمها إلى هؤلاء الثلاثة .

فلا عجب والحالة هذه إذا تحولت الغنى الى النساء والخدم والقواد (وهل تستغرب بعد ذلك إذا علمت أنه كان بين رياش أم المستعين بساط أنققت على صنعه (١٣٠٠٠٠٠٠٠) دينار (ربما درهم) فيه نقوش على أشكال الحيوانات والطيور ، أجسامها من الذهب ، وعيونها من الجواهر) . أو إذا قيل لك : إن فلانة حشت فم الشاعر الفلاني درًا فباعه بعشرين ألف دينار . أو إذا سمعت بهدايا قطر الندى وغيرها من نساء الخلفاء . ناهيك بما كان في بلاط الخلفاء العباسيين وغيرهم من القهرمانات اللواتي كن يتولين شئون دور الخلفاء والنفقة عليها بالاتفاق مع الوزير أو من ينوب عنه ، فكان هؤلاء النساء نفوذ عظيم في قصور الخلفاء وفي أعمال الدولة ، كما كانت تفعل أم موسى القهرمانة في أيام المقتدر في أوائل القرن الرابع للهجرة ، ولم يكن لأولئك القهرمانات سبيل للاتفاق لولا ما في قصور الخلفاء من الجوارى والخدم وغيرهم (١) .

(١) إن هذا القول منقول من كتاب « تاريخ التمدن الاسلامي » ، وقد عزاه إلى المؤلفين المشهورين وكتبهم مثل : (١) المقرئى (٢) الجزء الأول من كتاب التمدن الاسلامي (٣) ابن الأثير (٤) النعزى (٥) ابن عساکر نسخة كرايمر (٦) كتاب الخراج لأبى يوسف (٧) اليعقوبى (٨) المستطرف (٩) السعوى (١٠) الماوردى (١١) ابن التقي (١٢) الطبرى (١٣) القرماني .

الجواري والعلمان

وفي مناقب المنصور (صفحة ١٠٤) : انه لما علم بوجود الطنبور في داره كسره على حامله ، ولكن لم يمض على موته اربعون سنة حتى أصبحت دور الخلقاء مسرحا للغناء والمهو ، قالوا انه كان في قصر الرشيد ثلثمائة جارية مابين جنسية إلى عودية ، إلى دفية ، إلى قاتونية ، إلى زاهرة ، إلى مغنية ، إلى راقصة ، إلى سنطيرية ، فضلا عن كان في قصره من الندماء والمضاحكين كالشيخ أبي الحسن الخليلي دمشقي (١) وابن أبي مريم المدني (٢) وغيرهما ، وامن جارية إلا ومنها ألف دينار ، أو عشرة آلاف دينار (٣) إلى مائة ألف دينار غير ما يقتضيه اقتناؤهن من النفقات الأخرى كالألبسة والحلي وهي شيء كثير ، فقد اشترى الرشيد خاتما بمائة ألف دينار (٤) وقس على ذلك .

ناهيك بما كانوا يقتنونونه من الممالك والعلمان بما يعتون بالثالث والالوف ، فقد بلغ عدد خدم المقتدر (١١٠٠٠) خصي من الروم والسودان (٥) غير ما يقتضيه ذلك من الأبنية والقصور والرياش ، فقد بنى المعز دارا في بغداد أنفق عليها ١٣٠٠٠٠٠٠ درهم (٦) وبنى الأمين قصورا في الخيزرانية أنفق عليها ٢٠٠٠٠٠٠٠ درهم (٧) واصطنع في دجلة خمس حرافات (سفن) إحداها على صورة الأسد ، والثانية بصورة الفيل ، والثالثة بصورة العقاب ، والرابعة بصورة الحية ، والخامسة بصورة الفرس أنفق عليها مالا عظيما ، وفيها يقول أبو نواس :

سخر الله للأمين مطايا * لم تسخر لصاحب المحراب
فاذا مارصكابه سرن برّا * سار في الماء راكبا ليشغاب
عجب الناس إذ رأوك على صو * رة ليش تمرّ من السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه * كيف لوأ بصروك فوق العقاب
ذات زور ومنسر وجناحي * ن تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير في السماء إذا ما * تتهلوا بحيئة وذهاب

ومما يحسن إيرادها مثلا على بذخهم أن الأمين المذكور أمر يوما أن يفرش له على دكان في الخلد ، وفرش عليها بساط ذريعي ونمارق وفرش مثله وهي من آنية الذهب والفضة والجواهر أمر عظيم ، وأمر قيمة جواربه أن تهبي له مائة جارية صانعة ، فتصعد إليه عشرا عشرا بأيديهن العبدان يعنين بصوت واحد ففعلت (٨) انتهى من كتاب « تاريخ التمدن الاسلامي »

فلما سمع صاحبي ذلك ، ضرب كفا على كفة ، وقال : أنا قرأت التاريخ في المدارس وفي الكتب ، ولكني والله لم أعلم ما علمته اليوم ، إن التفصيل يفعل ما لا يفعله الاجال ، وكيف يقتنى المقتدر ١١٠٠٠ من خصي الروم والسودان ، وكيف تكون الحياة كلها حياة اسراف ، وما هذا الاسراف في الطعام والشراب ، هذا والله هو التفسير الحقيقي للقرآن ، حكمة الفلاسفة قبل ظهور القرآن وظهور الآثار في أمم الاسلام بعد ذلك

لطيفة

إن ما كان ينفقه الخلفاء إنما كان من بيت المال ، ألا ترى أن يحيى بن خالد البرمكي أمره الرشيد أن

- (١) إعلام الناس ٩٧ - (٢) الطبري ٧٤٣ ج ٣ - (٣) ترتيب الدول ١٢٦ - (٤) ابن الأثير ٤٤ ج ٦ - (٥) الفخرى ٢٣٤ - (٦) ابن الأثير ٢١١ ج ٨ - (٧) ابن الأثير ١١٢ ج ٦ - (٨) ابن الأثير ١٢٠ ج ٦

يدفع ثمن الجارية ١٠٠٠٠٠٠ دينار، فاستكثره واعتذر عن دفعه فغضب الرشيد، فأراد يحيى أن يبين له مقدار ما يتحمله بيت المال من هذا الاسراف فيألا مصلحة للدولة فيه، فجعل ذلك المال دراهم، فبلغت نحو ١٥٠٠٠٠٠ درهم، فوضعها في الرواق الذي يمر به الرشيد إذا أراد الوضوء، فلما رأى الرشيد ذلك المال استكثره، ولما أخبروه أنه ثمن الجارية أدرك إسرافه، ولكنه شعر بما في ذلك من الجراءة عليه ومحاربة غلّ يديه، فحفظ ذلك في نفسه، ويقال أنه كان من جملة ما حمله على نكبة البرامكة (١).

واتفق نحو ذلك للوائق بالله مع وزيره ابن الزيت في ثمن جارية، فلما مظل الوزير بالدفع أمره أن يدفع ضعفين، ففعل (٢).

وفي كتاب سفيان الثوري إلى الرشيد جوابا على كتاب استدعاه به إلى بغداد ما يشبه كلام أبي ذر الغفاري لمعاوية، ويدل على أن الرشيد كان يهيب ويحجز من بيت مال المسلمين، وذلك أن الرشيد دعاه بكتاب بعثه إليه في الكوفة، وأخبره أن الناس قدموا إليه، وأنه فتح بيوت الأموال، وأعطاهم من المواعب السنية الخ. فأجاب سفيان بكتاب شديد اللهجة، وفي جملة ذلك قوله: «أما بعد فإني كتبت إليك أعلمك أنني صرمت حبلك، وقطعت وذك، وأنت قد جعلتني شاهدا عليك باقرارك على نفسك في كتابك، أنك هجمت على بيت مال المسلمين، فأنتفتت في غير حقه، وأنفذت بغير حكمة، ولم ترض بما فعلته وأنت ناه عني حتى كتبت اليّ تشهدني على نفسك، فأما أنا فإني قد شهدت عليك أنا وأخواني الذين حضروا كتابك وسنؤدى الشهادة غدا بين يدي الله الحكم العدل، ياهرون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم، هل رضى بفعلك المؤلفة قلوبهم، والعاملون عليها في أرض الله، والمجاهدون في سبيل الله، وابن السبيل؟ أم رضى بذلك حلة القرآن وأهل العلم (يعني العاملين)؟ أم رضى بفعلك الأيتام والأرامل؟ أم رضى بذلك خلق من رعبتك؟ (٣). فهذا وأمثاله يدل على أن الخلفاء كانوا يهبون ويحجزون ويبدخون ويسرفون من بيت المال.

ومن هذا القبيل استنثار رجال الدولة بالأموال لأنفسهم، فإن الدولة إذا بلغت إلى قمة ثروتها، وانغمس الملك في الترف والصف وتقاعد عن مباشرة الأحكام بنفسه تحوّل النفوذ إلى المحيطين به، أو الذين يتوبون عنه، أو يتوسطون بينه وبين الناس كالوزير والعامل والكتّاب والحجاب والقائد، وأصبح الأمر والنهي في أيديهم، فيستأثرون بالأموال لأنفسهم يجمعون منها ما استطاعوا ويسرفون ويبدخون على ما تقتضيه أحوالهم وأطوارهم، ولا يكون ذلك إلا في الدولة المطلقة التي ليس على أعمالها مراقب ولا محاسب، فمن يتوب عن الملك من الوزراء أو الكتّاب أو الحجاب في عصر الترف والتقاعد يكون له نحو ذلك النفوذ، وخصوصا في مثل الدولة العباسية، لأن وزراءها وكتّابها من أمة لم تقم دولتهم إلا بها، ولم يزه تمدنهم إلا بعلامتها، ولذلك كان للوزراء في هذه الدولة الكلمة النافذة، والسيف القاطع، حتى في إبان تمدنها، اعتبر ما كان من نفوذ البرامكة في أيام الرشيد، وما كان من احرازهم الأموال لأنفسهم، حتى كان يحتاج الرشيد إلى البسير من المال فلا يقدر عليه (٤) فلما غلوا يديه عما كانت تتطلبه نفسه من الترف والاستبداد (٥) نكبه على ما هو مشهور كما نكب المهدي قبله وزيره يعقوب بن داود، وكان قد استوزره، وسلم إليه الأمور، وفوض إليه السوابق، وانشغل المهدي عنه باللهو، وسماع الأغاني، فعظم ذلك على الناس، وخصوصا العرب، فهجوا يعقوب، ومن ذلك قول بشر بن برد:

بنى أمية هبوا طال نومكم * إن الخليفة يعقوب بن داود

(١) الطبري ١٣٣٢ ج ٣ - (٢) ابن الأثير ١٣ ج ٧ - (٣) الدميري ١٨٨ ج ٢

(٤) المسعودي ٢٠١ ج ٢ - (٥) الطبري ١٣٣٢ ج ٣

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا * خلافة الله بين الناي والعود (١)

ورشى بعض الناس إلى المهدي بذلك ، فاستدعاه ، وقبض عليه ، وسجنه ، وظلّ في سجنه أعواما طويلا وكما اتفق للمأمون مع يحيى بن أكرم القاضي إذ عهد إليه بتدبير مملكته وأكرمه نحو أكرام الرشيد للبرامكة (٢) ، ثم لم يكن راضيا عنه ، ولذلك لما دنت وفاة المأمون ، أوصى أخاه المعتصم قائلا : « لا تنفذن وزيراً تلقى إليه شيئا ، فقد علمت مانكيتي به يحيى بن أكرم في معاملة الناس وخبث سيرته » (٣) . وكان العرب يكرهون الوزراء ، خصوصا لأنهم في الغالب من الفرس ، وكانوا يصفونهم بالجبن والبخل وقبول الرشوة قال اعرابي يصف وزيرا :

ومظهر نسك ماعليه ضميره * يحب الهدايا بالرجال مكور

اخال به جينا وبخلا وشيمة * تجبر عنه انه لوزير (٤)

على أن الوزراء كثيرا ما كانوا يمتنعون المال عن الخلفاء ضنا ببيت مال المسلمين أن يذهب في الاسراف لاطمعا به لأنفسهم ، كما اتفق للوائق مع وزيره ابن الزيات إذ أعجبه صوت غنته جارية اسمها « علم » فأمر لصاحبها بخمسة آلاف دينار ، فطل ابن الزيات في دفعها ، فغضب الوائق ، وأمره أن يدفع ضعف ذلك المال ، فدفع إليه ١٠.٠٠٠ دينار (٥) وكان الوزراء يزادون نفوذا واستئثارا بالمال بزيادة ضعف الخلفاء ، حتى صارت معظم الأموال إليهم .

الوزراء

بلغ من ثروة الوزراء ما يشبه ثروة الخلفاء ، أو بيت المال في أيام الزهوكأن الأموال تحوّلت من بيت المال إلى بيوت هؤلاء الناس ، وصارت الوزارة مطمح أنظار أهل المطامع يبذلون الرشا ، ويقدمون الهدايا رغبة فيها ، على أنها كثيرا ما كانت تعرض عرضا على من يقوم بنفقات الجند (٦) ولكن الغالب أن تبذل الأموال في سبيل الحصول عليها اما رأسا إلى الخليفة كما فعل ابن مقلة إذ بذل ٥٠٠.٠٠٠ دينار حتى استوزره الراضى في أوائل القرن الرابع للهجرة ، وكما فعل ابن جهمر إذ ابتاع الوزارة من القائم بأمر الله بمبلغ ٣٠٠.٠٠٠ دينار (٧) أو بواسطة واحد من خاصة الخلفاء يستخدمونه بالمال ، وهم لم يكونوا يفعلون ذلك إلا لاعتقادهم أنهم يسترجعون في أثناء وزارتهم أضعاف ما بذلوه بما تصل إليه أيديهم من الرشوة من تولية العمال والنظار والكتاب وغيرهم .

ومن غريب ما يحكى عن ارتشاء الوزراء أن الخاقاني وزير المقتدر بلغ من سوء سيرته في قبول الرشوة انه ولى في يوم واحد تسعة عشر ناظرا للكوفة ، وأخذ من كل واحد رشوة ، فأنحدروا واحدا واحدا حتى اجتمعوا جميعا في بعض الطريق ، فقالوا كيف نصنع ؟ فقال أحدهم : ينبغي ان أردتم النصفة أن ينحدروا إلى الكوفة آخرنا عهدا بالوزير ، فهو الذي ولايته صحيحة لأنه لم يأت بعده أحد ، فاتفقوا على ذلك ، فتوجه الرجل الذي جاء في الأخير نحو الكوفة ، وعاد الباقيون إلى الوزير ، ففرّقتهم في عدّة أعمال ، وهجاه بعض الشعراء بقوله :

وزير لا يملّ من الرقاعه * بولى ثم يعزل بعد ساعه

ويبدى من تجمل منه مال * ويبعد من توسل بالشفاعه

(١) الفخرى ١٦٦ - (٢) ابن خلكان ٢١٧ ج ٢ - (٣) الطبرى ١١٣٩ ج ٣

(٤) الطبرى ١٠٨٨ ج ٣ - (٥) ابن الأثير ١٣ ج ٧ - (٦) ابن الأثير ٨٣ و ٨٦ ج ٨

وصلة تاريخ الطبرى ٧٩ - (٧) الفخرى ٢٥٣ و ٢٦٦

إذا أهل الرشا صاروا إليه فأحظى القوم أوفرهم بضاعة (١)

وكانت الأموال ترد على الوزراء من العمال وغيرهم من موظفي الدولة ضريبة في كل عام بصيغة هدية استبقاء لرضاهم . على أن بعضهم ، وهونادر ، لم يكن يقبل الرشوة ، ولا يصل إلا بالحق مثل عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل على الله فإنه كان عفيفا ، ذكر الفخري أن صاحب مصر حمل إليه ٢٠٠.٠٠٠ دينار وثلاثين سقفا من الثياب المصرية على عادته مع غيره من الوزراء ، فلما أحضرت بين يديه ، قال لوكيل صاحب مصر : « لا والله لا أقبلها ، ولا أتقبل عليه بذلك » ، ثم فتح الأسفاط ، وأخذ منها منديلا وضعه تحت نغذه وأمر بالمال ختم إلى خزانة الديوان وصحح بها وأخذ به دورا لصاحب مصر (٢)

ومن الوزراء الذين اشتهروا بالعبث وصدق الخدمة على بن عيسى وزير المقتدر ، ولا يخلو أن يكون غيرهم قد أخلص الخدمة ، ولكن يقال بالأجمال أن الوزراء في عصر التمهق العباسي قلما كانوا يتولون الوزارة إلا طمعا باختزان الأموال ، فإن أبا الحسن بن الفرات وزير للمقتدر ثلاث دفعات : الأولى سنة ٢٩٦ هجرية بقي فيها ثلاث سنين ، فكان مقدار ما اجتمع عنده من المال يساوي ٧٠٠.٠٠٠ دينار أخذت كلها مصادرة ، ثم عاد إلى الوزارة سنة ٣٠٤ وخلع سنة ٣٠٦ ثم عاد ثالثة سنة ٣١١ وخلع سنة ٣١٢ هـ فمجموع المدة التي مكث بها في الوزارة في الدفتين الأخيرتين نحو ثلاث سنوات ، فكان عنده لما خلع أخيرا ما يزيد على ١٠٠.٠٠٠ دينار ، وضياح يستغل منها كل سنة ٢.٠٠٠ دينار (٣) ومع ذلك لم يذكره المؤرخون بسوء لفرط كرمه واحسانه ، وكان إذا ولي الوزارة يغلوا الثلج والشمع والكاغد لكثرة استعماله له لأنه ما كان يشرب أحد كائنا من كان في داره في الفصول الثلاثة إلا الماء المتلوج ، ولا كان أحد يخرج من عنده بعد الغروب إلا وبين يديه شمعة كبيرة تقيه ، وكان في داره حجرة معروفة بحجرة الكاغد ، كل من دخلها واحتاج إلى شيء منه أخذه (٤) وكان يطلق لأصحاب الحديث عشرين ألف درهم ، وللشعراء عشرين ألف درهم ، ولأصحاب الأدب عشرين ألف درهم ، وللفقهاء عشرين ألف درهم ، وللصوفية عشرين ألف (٥) وكان يجري الرزق على خمسة آلاف من أهل العلم والدين والبيوت والفقراء وأكثرهم ١٠٠ دينار في الشهر ، وأقلهم خمسة دراهم وما بين ذلك (٦) ، فقطى الكرم طمعه كما غطى طمع البرامكة قبله ، وقطع السنة الشعراء ، وكسر أقلام المؤرخين .

وهناك كثيرون من الوزراء جمعوا أموالا طائلة ، وانغمسوا في أنواع الترف والبنخ ، وذلك طبيعي في الدول المنتظمة على الطرق القديمة ، لأن الوزراء كانوا يجمعون الأموال الكثيرة حيثما كانوا في العراق ، أو في مصر ، أو في الأندلس ، فقد خلف المارداني وزير بني طولون بمصر من الضياح الكبار ما قلما ملكه أحد قبله وارتفاعها ٤٠٠.٠٠٠ دينار كل سنة سوى الخراج ، وقد وهب وأعطى وأفضل ، وحج ٢٧ حجة أنفق في كل منها ١٥٠.٠٠٠ دينار (٧) . ويصفوب بن كلس أول وزراء الفاطميين كان في جملة أملاكه أقطاع في الشام دخله ٣٠٠.٠٠٠ دينار في السنة ، وخلف أملاكه وضياعا وقياسر ورباعا وخيلا وبغالاً ونوقا ، وغير ذلك ما قيمته ٤٠٠.٠٠٠ دينار غير ما أنفقته في تجهيز ابنته وهو ٢٠٠.٠٠٠ دينار ، وخلف ٨٠٠ حظية سوى جواري الخدمة ، وأربعة آلاف غلام عرفوا بالطائفة الوزيرية (٨) وخلف الأفضل أمير الجيوش وزير المستنصر الفاطمي ما لم يسمع بمثله وذلك ٦٠٠.٠٠٠ دينار عينا (٩) و٢٥٠ أردب دراهم

(١) الفخري ٢٤١ - (٢) الفخري ٢١٦ - (٣) ابن خلكان ٣٧٢ ج ١

(٤) الفخري ٢٤٠ - (٥) ابن الأثير ٥٧ ج ٨ - (٦) ابن خلكان ٣٧٢ ج ١

(٧) المقرئ ١٥٥ ج ٢ - (٨) المقرئ ٦ ج ٢

(٩) وهو في الأصل ستائة ألف ألف دينار ، ولا بد من خطأ تطرق إلى نفسه ، إذ لا يعقل أن يجتمع هذا

تقد مصر ، و ٧٥٠٠٠٠ ثوب ديباج أطلس و ٣٠٠ راحلة احتياق ذهب عراقى ، ودواة ذهب فيها جوهر قيمته ١٢٠٠٠٠ دينار ، ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال فى عشرة مجالس فى كل مجلس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مشدود مذهب بلون من الألوان أيعا أحب لسه ، و ٥٠٠ صندوق كسوة ماعدا الخيل والبغال والماشية والجوارى والعبيد مالا يحصى عد (١)

وقس على ذلك أحوال الوزراء فى الأندلس فان هدية الوزير ابن شهيد لعبد الرحمن الناصر سنة ٣٣٧ هجرية تدل على مقدار تلك الثروة ، فقد أوردها ابن خلدون والمقرئ ، وفصلها هذا الأخير تفصيلا حسنا فى ثلاث صفحات كبيرة (٢)

وحدث نحو ذلك فى الدولة العثمانية فى ابن ثروتها ، فكان الوزراء يقتنون الضياع الواسعة ، ويحتالون فى استغلالها بأن يقفوها على بعض المساجد ، بشرط أن يستولى ورثتهم على معظم ريعها ، ليخلصوا أنفسهم من خراجها ، أو عشورها ١

أما الأبواب التى كان وزراء الدولة العباسية يكتسبون تلك الأموال بها فكثيرة ، من جعلتها قبول الرشوة فى التوظيف كما تقدم وما يرد عليهم من هدايا العمال للسبب نفسه ، ومنها اغتصاب الضياع بما لم من النفوذ فيستولون على ماشاها وبغير حساب ، ناهيك بما كانوا يمتدنون إليه أيديهم من أموال الخراج الواردة إلى الديوان ، وقد تقدم أن طرق دقات تلك الأيام لم تكن تمنح الاختلاس أو تظهره .

ومن أبواب الكسب أيضا أن بعض الموظفين كانوا يحتاجون إلى رواتبهم وهم مشغولون بما هم فيه من الخدمة ولا سبيل لهم إلى المال فكان بعض الوزراء يقيم من قبله أناسا يشترى توقيعات أرزاق أولئك الموظفين بنصف قيمتها ثم يقبضها هو كاملة (٣) وكانوا يضاغون نحو ذلك أيضا فى رواتب الفقهاء وأرباب البيوت فكانتهم كانوا يقاسمون الناس على أنصاف رواتبهم ، وهو أتعاب رواتب الموظفين فضلا عن أتعابهم بالأرزاق وعمما كانوا يكتسبونه ممن يضمن بلدا أو خراجا على سبيل الرشوة أو الاقسام ، وما كانوا يقبضونه من التجار بنفوذهم وإغضاء الخلفاء عنهم (٤) . وكانوا يسمون ما يكتسبه الوزراء على هذه الصورة « صرافى الوزراء » وكانت مشهورة بين الناس ، ومن مرافقهم أيضا تنقيص عيار النقود ، فكانوا يضربون الدينار ناقصة ، فيربحون من ذلك مالا طائلا (٥)

تلك كانت حال الوزراء ، وفى أيديهم الحل والعقد ، ومع ذلك فالخلفاء هم المطالبون بأرزاق الجند ، وقد علمت ما كان من أمر الأتراك واستبدادهم فى الخلفاء ومطالبتهم بالأموال لأرزاقهم ونفقاتهم فلم يكن يرى الخلفاء سبيلا إلى ذلك إلا بمطالبة الوزراء ، فإذا لم يدفعوا أخذوا المال منهم بالقوة ، وهو ما يعبرون عنهم بالمصادرة ، وكانت المصادرة رائجة فى عصر التتقهر إذ لم يكن من سبيل إلى سد نفقات الدولة إلا بها ، ولا يكاد يتولى وزير إلا انتهت وزارته بالمصادرة أو بالقتل أو بهما جميعا اه

هنالك أعجب صديقى بهذه الأخبار إعجابا شديدا ، وانشرح صدره ، ولكنه قال : إن مصادر هذه الأخبار كتب مختلفة ، وبعضها كتب محاضرات وحكايات . فقلت نعم ، ولكنه على كل حال يدل على حال القوم إذ ذاك بحملته لا بتفصيله . قال : فأرجو أن تبين لى حال ثروة أهل المملكة فى ذلك الزمان . فقلت : جاء

المال عند واحد ، وهو يفوق مجموع خراج مصر لثلاثة سنة ، فألرحج أن يكون المراد ستين ألف ألف دينار كما قلنا ، ويستبعد أن يكون المراد دراهم بدل دينار ، لأن أموال مصر قلما قفرت بالدرهم .

(١) ابن خلسكان ٢٢٢ ج ١ - (٢) نصح الطيب ١٦٨ ج ١ - (٣) ابن الأثير ٨٤ ج ٨

(٤) الطبرى ٧٠٣ ج ٣ - (٥) ابن الأثير ١٤٩ ج ٨

في كتاب « تاريخ التمدن الاسلامي » مانسه :

« كانت المدينة محصورة في المدن دون القرى عملا بقاعدة التمدن في تلك الأيام وهي أن تكون الثروة والأبهة حيثما يكون ولاية الأمر أو من يلوذ بهم من الخليفة إلى أهله ، فأهل بلاطه فعماله ووزرائه ، وهؤلاء كانوا يقيمون في المدن ، وخصوصا العواصم ، ولذلك عمرت بغداد والبصرة ودمشق والقسطاط والقاهرة والقيروان وقرطبة وغرناطة ونحوها ، وظلت القرى والضياع مغارس لا عمارة فيها . ولا تكاد تجد أثرا من آثار ذلك التمدن في غير المدن .

ففي هذه المدن فاضت ينابيع الثروة الاسلامية وعاش الناس في الرخاء والرغد بجوار الخليفة ، ورجال دولته ينالون جوائزهم وهداياهم وخلعهم ويبيعونهم السلع والمجوهرات والأقتشة ، وفي هذه المدن كان يجتمع العلماء والشعراء والمغنون والندماء يتعشون بما يجود به الخليفة ، أو أمراؤه ، أو رجال دولته .

فلما كان بلاط الرشيد غاصا بالوفود ، وبيت ماله حافلا بالنقود ، والبرامكة يذلون المئات والالوف ، كان تجار بغداد في نعمة وثروة ، وخصوصا باعة المجوهرات والرياش لأنهما مما تتطلبه المدينة في عهد الترف والبدخ فقد رأيت في بعض ماتقدم أن جوهريا بالكركخ في بغداد ساومه يحيى البرمكي على سفظ من الجواهر بمبلغ ٧٠٠٠٠٠٠ درهم فلم يبيعه ^(١) وهو جزء مما في حانوته فما قولك بسائر ما فيه ، وهناك جوهرى آخر يقال له ابن الجصاص صادره الخليفة المقتدر سنة ٣٠٢ هـ فكان ما أخذوه من بيته من صنوف الأموال تزيد قيمته على ٢٠٠٠٠٠٠ دينار ^(٢) وكان في بغداد شريف يسمى محمد بن عمر بلغ خراج أملاكه ٢٥٠٠٠٠٠ درهم في السنة ^(٣)

وقس على ذلك سائر التجارات في بغداد وغيرها ، فقد كان في اصطخر بيت ينتسب إلى آل حنظلة أحدهم عمرو بن عينة ، بلغ من يساره أنه ابتاع بليون درهم مصاحف فرقها في مدن الاسلام ، وكان مبلغ خراج هذا البيت من ضياعهم نحو ١٠٠٠٠٠٠٠ درهم ، ومنهم مرداس بن عمر كان خراج ماله ٣٠٠٠٠٠٠٠ درهم وابن عمه محمد بن واصل ملكه مثل ملكه ^(٤) . وكان في سيراف تجار واسعوا الثروة يجوز مال أحدهم ٦٠٠٠٠٠٠٠ درهم اكتسبها من تجارة البحر من العود والكافور والعنبر والجواهر والخيزران والمعالج والآبنوس والفلفل وغيرها ^(٥) ، ومنهم من يبني دارا فينفق على بنائها ٣٠٠٠٠٠٠ دينار ^(٦) وأوصى أحدهم بثلاث ماله لعمل فبلغ ١٠٠٠٠٠٠٠ دينار بين مركب قائم بنفسه وآلته ^(٧) ، وأمثال ذلك كثير في معظم مدن المشرق .

وقس عليه ثروة كل من خالط الخلفاء ونال جوائزهم ، أو خدمهم في بلاطهم في ابان ثروتهم غير الوزراء والكتاب والعمال فانهم جمعوا أموالا طائلة حتى المغنين والشعراء ، فقد توفي ابراهيم الموصلي مغنى الرشيد عن ثروة مقدارها ٢٤٠٠٠٠٠٠ درهم ^(٨) ، وتوفي جبريل بن بختيشوع طبيب الرشيد وخلف مايساوى ٩٠٠٠٠٠٠٠ درهم من ضياع وجواهر وقود .

واعتبر ذلك في سائر البلاد والأحوال ، فتجد الثروة كانت في الغالب عند الخلفاء ، أو من ينتمى إليهم ، حتى التجار فانهم إنما كانوا يأمنون على ثروتهم بالانتماء إلى أولى الأمر إلا نادرا .

(١) الطبرى ٧٠٢ ج ٣ - (٢) ابن الأثير ٣٣ ج ٨ - (٣) ابن الأثير ٢٠ ج ٩

(٤) الاضطخري ١٤٢ - (٥) الاضطخري ١٥٤ - (٦) ابن حوقل ١٩٨

(٧) ابن حوقل ٢٠٧ - (٨) سير الملوك ١١٣

القرى

أما القرى فقد كان سكانها الفلاحين من أهل البلاد الأصليين ، ويسمونهم « أهل الحراج » ، فهؤلاء يعملون بالأجرة ، أو شركاء لأصحاب الأملاك من الخلفاء ، أو الأمراء ، أو من يفتى إليهم من الأعيان ، وخصوصا الدهاقين في العراق وفارس وهم أصحاب الاقطاعات الكبرى قبل الاسلام . فلما كان الاسلام قد برز من الحكومة بأموالهم (١) ونفوذهم في أهل بلادهم ، وبندران يكون للفلاحين ملك خاص بهم لأسباب تقدم بيانها ، فكان القرى هم الفلاحون ، ومن يجرى مجراهم ، وكانوا يقتنعون بالحصول على ما يقوم بأرد حياتهم ، ويقلب فيهم الفقر المدقع ، وربما كان بينهم من لم ير الدينار طول عمره ، فكان أهل الدولة في المدن يبذلون الدنانير جزافا ، ويهبونها مئات وآلاف ، وأهل القرى في فقر مدقع ، لورأى أحدهم الدينار لسجده وقبله مثنى وثلاث ، ولودفعت إليه عشرة دنانير أو عشرين لأصابه خبل ، أو مات من ساعته كما اتفق للصيد بين يدي ابن طولون أمير مصر في أواسط القرن الثالث للهجرة ، وهو مشهور بكرمه وبذخه بما أنشأه من القصور والغياض والاسطبلات ، وكان ينفق كل شهر ألف دينار على الفقراء ، وهو الذي جاء وكيله يوما ، فقال : « اني تأتيني المرأة وعليها الازار ، وفي يدها خاتم الذهب ، فتطلب مني فأعطيها » . فقال له : « من مديده إليك فأعطه » (٢)

ومع ذلك فإن هذا الأمير نفسه ركب في غداة باردة إلى جهات المقس بجوار القسطنطينية ، فأصاب بشاطئ النيل صيادا عليه خلق لا يواريه منه شيء معه صبي في مثل حاله ، وقد ألقى الشبكة في البحر ، فلما رآه ابن طولون رقى لحاله ، وقال : يا نسيم ادفع إلى هذا عشرين دينارا ، فدفعها إليه ، ولحق ابن طولون ، فسار ولم يبعد ، ورجع فوجد الصياد ميتا ، والصبي يبكي ويصيح ، فظن ابن طولون أن بعض سودانه قتله وأخذ الدنانير منه ، فوقف بنفسه عليه وسأل الصبي عن أبيه . فقال له الغلام : « هذا (وأشار إلى نسيم الخادم) دفع إلى أبي شيئا فلم يزل يقبله حتى وقع ميتا » . فقال : قتله يا نسيم ، فنزل وقتله فوجد الدنانير معه بحاها فخرص الصبي أن يأخذها فأبى ، وقال : هذه قتلت أبي وإن أخذتها قتلتي ، فأحضر ابن طولون قاضي المقس وشيوخه ، وأمرهم أن يشتروا للصبي دارا بمسبائة دينار تكون لها غلة ، وأن تجبس عليه ، وكتب اسمه من أصحاب الجرايات ، وقال : أنا قتلت أباه لأن الغنى يحتاج إلى تدرج والاقتل صاحبه ، هذا كان يجب أن يدفع إليه دينار بعد دينار حتى تأتبه هذه الجلة على تفرقة فلا تكثر في عينه (٣)

فإذا كان هذا حال رجل من أهل ضواحي العاصمة ، فكيف بأهل القرى البعيدين عن ترف الدولة وبذخها وجراياتها ووظائفها ؟ اه

فلما سمع صاحبى ما تقدم . قال : إن من أعظم نعم الله عز وجل على أمنا الاسلامية اليوم امتزاج التاريخ والفلسفة بالقرآن ، والله ان المسلمين بعد أن اختلطوا بالأمر ، وذاقوا حلو الزمان ومره ، لن يخرجهم من مأزقهم إلا الاطلاع على السبر والأخبار والفلسفة بشرط أن يكون منهم من يمتحنون تلك السبر ، ويفهمون المتأخرين أخلاق المتقدمين ، ويذكرونهم بما كان منهم من الخطأ والمخطئ ، هنالك يرجع للأمر الاسلامية مجدهم ، ويعلو شأنهم ، ويذهب عنهم الخزي في الحياة الدنيا .

هذا وانى أرجو أن أنشره بقول جامع في هذه المسألة ، وهى أن (سقراط) كان يحرم على الأمراء والجنود أن يقتنوا بيوتا ، أو يكون لهم مال ، فإذا أفضت في ذلك وشرحت أوامر عمر رضى الله عنه كان ذلك

(١) ابن الأثير ١٠١ ج ٥ - (٢) ابن خلكان ٥٥ ج ١ - (٣) المقرئى ١٢٣ ج ٢

خير معوان على تكبير أئمة الاسلام بعدنا . فقلت : جاء في الكتاب المذكور تحت عنوان « انتشار العرب في الأرض » مانصه :

« قد رأيت رغبة عمر بن الخطاب رجل الاسلام في جمع كلمة العرب وتوثيق عرى الاتحاد بين قبائلهم ، وتأكيد العلاقات بين منازلهم ، فخرّضهم على فتح العراق والشام ، لعلهم بما هنالك من قبائل العرب ، فإذا انضموا إلى عرب الحجاز واليمن زادوا الاسلام قوة ، ولكنه منعهم مما وراء ذلك ، وأمرهم إذا بنوا بلدا في دار الفتح أن لا يبنوه في مكان يحول بينه وبين المدينة ماء خوفا على الجامعة العربية أن يزداد تباعدا طرفها فتمزق ، ورغبة منه في اسبقاه مركز الخلافة عند قبر النبي ﷺ على أن يسبق البلاد المفتوحة لاستئثار ما فيها من غلة أموال لأهل الحجاز ، ولهذا السبب أيضا نهى المسلمين عن الزرع وشدد في منعهم اعتمادا على الحديث القائل : « السكة (المحراث) ما دخلت دار قوم إلا دخله الفل » (١) ولأن الاشتغال بالزرع يشغلهم عن الحرب ، وهو يريد أن يقيمهم حامية لجمع الحجاج والحزبة واسبقاه السلطة ، ولم تكن المدن التي بنوها في صدر الاسلام كالبصرة والكوفة والفسطاط إلا حصونا أو معسكرات يزل فيها جند العرب نزول الحامية أو جيش الاحتلال (٢) ولهذا السبب أيضا أخرج غير المسلمين من جزيرة العرب عملا بوصية النبي ﷺ أن لا يترك في جزيرة العرب دينان (٣) وأن لا يأتي الحج أحد من المشركين (٤) فأخرجهم وتخلص من خطرهم إذ لو بقوا هناك على غير دين الاسلام لأقلقوا الراحة ، وربما كانوا لغوا غير المسلمين ، كما كان نصارى الشام والعراق ينصرون الروم بعد ذلك كما سترى .

فكانت السياسة في صدر الاسلام أن يبقى المسلمون في بلاد العرب وضواحيها ، وكان القواد الذين قصوا الشام والعراق قد ذاقوا لذة الفتح مع سهولته عليهم فلم يكفوا عن عمر حتى أذن لهم بفتح ما وراء ذلك كما تقدم ، فكان عمر وهو في المدينة قابضا على أطراف الدولة يشدها نحوه ورجاله يحاولون الذهاب بها شرقا وغربا حتى اضطر أخيرا إلى مجاراتهم ، وأذن بانسياحهم في الأرض ، ففترق العرب ، وفتحوا مصر وفارس وافر يقيا وغيرها ، ولما تولى عثمان أطلق العنان لقريش أن يخرجوا من المدينة ، فخرجوا وفترق العرب في الأرض ، وانتشروا في مصر والشام والعراق وفارس ، وما وراءها ، وعددهم يومئذ لا يزيد على ٢٠٠.٠٠٠ نفس (٥) وهم جند المسلمين وعليهم حماية مملكتهم الجديدة واستغلالها ، وسكانها يزيدون على مئة مليون ، ودولة الروم واقفة لهم بالمرصاد » انتهى

فها أنت ذا ترى من هذا المقال ومن غيره أن عمر رضی الله عنه منع من الزرع وشدد فيه ، وإذا قرأت ما تقدم في « سورة الشورى » عند الكلام على عدل عمر رضی الله عنه عرفت مما هناك أيضا كيف كان يمنع المسلمين من اقتناء الأرض ، وهو نفسه كان لا يملك شيئا .

قال صاحبى : يا سيحان الله ، نحن جئنا في زمان مختلط مزدوج جاهلى ، نحن من أبناء العرب ، ونحن اليوم فلاحون ، إذن كان أمرنا قديما غير ذلك ، وكان آباؤنا مأمورين أن يكفوا عن الزرع ، وأن يكونوا قادة وسادة للام ، فلما طمعوا في المال ذلوا . فقلت نعم ذلوا ، وهمل ترى أعجب من أن يتحد العلم والدين على هذه القضية ، فترى (سقراط) يحرم على الأمراء والجند الذهب والنضة ، ويقول : خذوا ما يكفيكم من مال الأمة ، ولا تشاركوها في أموالها ، ثم ترى هذه الفكرة عينها هي التي جاءت في الاسلام ، ولكن الوحي الاسلامى كانت له نتيجة فعلا ، ودولة قامت ، وان لم تدم ، أما الفلسفة السقراطية فانها لم تقم بها دولة على قياسها ، بل هي آراء وقوانين لم يتحقق منها شيء في الأرض ، اللهم إلا ما يقبسه الناس اليوم في أوروبا

(١) ابن خلدون ١١٩ ج ١ - (٢) الجزء الأول من كتاب تاريخ التمدن الاسلامى

(٣) ابن هشام ١٩٥ ج ٢ - (٤) ابن هشام ٥٠ ج ٣ - (٥) ابن خلدون ١٣٦ ج ١

من تربية الجند وحفظ الأجسام والعقول بالتمرينات العضلية ونحوها ، ولقد أخذ المسلمون بما يقرب من نظام عمر زمانا ، فكان الرجل إذا أسلم من الأمم التي فتحوا بلادها سموه مولى ، وجرّده من ملكه ، وألحقه بالحامية الإسلامية ، وصار له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، وأخذ عطاء مثلهم ، ولكن لما فسدت الأخلاق ، وتطوّرت الأحوال ، وسامت العقبي ، خلعوا العذار ، ونسوا العهد ، وبثوا في الأرض فسادا ، فانظر تبنا مما جاء في كتاب « تاريخ التمدن الاسلامي » وهو خلاصة الجزء الخامس ، وهاك بيانها :

﴿ أولا ﴾ — أتباع الخاصة

كان للخاصة أتباع أخرجوهم من طبقات العامة بما خصوهم به من أسباب القربى أو الخدمة ، وهم أربع طبقات : الأولى الجند ، الثانية الأعوان ، الثالثة الموالى ، الرابعة الخدم . انتهى

﴿ ثانيا ﴾ — كثرة الأسرى أو الأرقاء

وتكاثر الأسرى في أثناء الفتوح حتى كانوا يعدّون بالألوف ، ويباعون بالعشرات ، اعتبر ما كان من ذلك في الصدر الأول ، وما تبعه من الفتوح البعيدة في أيام بني أمية ، فقد بلغت غنائم موسى بن نصير سنة ٩١ هجرية في إفريقية ٣٠٠.٠٠٠ رأس من السبي ، فبعث خنساء إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك ٦٠.٠٠٠ رأس ، ولم يسمع بسبي أعظم من هذا (١) ، وذكروا أن موسى هذا لما عاد من الأندلس كان معه ٣٠.٠٠٠ بكر من بنات شرفاء القوط وأعيانهم (٢) ، وقس على ذلك غنائم قتيبة في بلاد الترك وغيرها وبلغت غنائم إبراهيم صاحب غزنة سنة ٤٧٢ هجرية من قلعة في الهند ١٠٠.٠٠٠ نفس (٣) ، وفي وقعة بيلاد الروم سنة ٤٤٠ هـ بقيادة إبراهيم بن ينال سبي المسلمون ١٠٠.٠٠٠ رأس غير الدواب (٤) وفي جلة غنائم الحرب فضلا عن الأسرى من الرجال جماعات من النساء والغلمان مما يشغل قلبه ، فكثيرا ما كانوا يبيعونهم بالعشرات رغبة في السرعة كما فعلوا في واقعة عمورية سنة ٣٢٣ هـ إذ نادوا على الرقيق خمسة خمسة ، أو عشرة عشرة ، وربما بلغ ثمن الانسان بضعة دراهم ، ذكروا أن غنائم المسلمين في واقعة الأرك بالأندلس سنة ٥٩١ هـ بيع الأسير فيها بدرهم ، والسيف بنصف درهم (٥) والبعر بخمسة دراهم وقد يقضون عدّة أشهر وهم يبيعون الأسرى والغنائم . تلك أمثلة من أسباب تكاثر الرقيق عند المسلمين غير ما كان يرسله بعض العمال إلى بلاط الخلفاء من الرقيق وظيفة كل سنة من تركستان (٦) وبلاد البربر وغيرها .

معاملة الأسرى

كانوا في صدر الاسلام اذا ظفروا بغنيمة تولى الأمير قسمتها على القواد بعد إرسال الخمس إلى بيت المال ثم اختلف ذلك مع الزمان باختلاف الدول ، ففي الدولة الفاطمية بمصر كانوا اذا عاد الجند من حرب ومعهم الأسرى يصل الاسطول بالنيل إلى شاطئ القاهرة ، فينزلون الأسرى ويطوفون بهم القاهرة ثم ينزلونهم في مكان كانوا يسمونه المناخ (في جهة الاسماعيلية اليوم) كان مستودعا للأسرى الذكور ، فينظرون فيهم ، فاذا استرابوا في أحد قتلوه ، ومن كان شيخا لا ينفع ضربوا عنقه ، وألقوا جثته في بحر كانت في خرائب مصر تعرف ببئر المنامة ، ومن بقي يضاف الرجال منهم إلى من في المناخ ويمضى بالنساء والأطفال إلى قصر الخليفة

(١) فتح الطيب ١١٣ ج ١ وابن الأثير ٢٥٩ ج ٤ — (٢) ابن الأثير ٢٧٢ ج ٤

(٣) ابن الأثير ٤٦ ج ١٠ — (٤) ابن الأثير ٢٢٧ ج ٩ — (٥) فتح الطيب ٢٠٩ ج ١

(٦) المقرئ ٣١٣ ج ١

بعد ما يعطى الوزير منهم طائفة ويفرق الباقي لخدمة المنازل ، ويدفع الصغار من الأسرى إلى الاستاذين فيربونهم ويعلمونهم الكتابة والرماية ، ويسمونهم إذ ذاك « الترابي » وقد يرتقى أولئك الصبيان إلى رتب الأسماء (١)

ولم يكن استخدام الأسرى على هذه الصورة خاصا بالمسلمين ، بل هي عادة كانت مرعية في تلك الأعصر فمن يقع من المسلمين في يد أعدائهم كان حفظهم الاسترقاق حتى يقتديهم المسلمون ، وكان للخلفاء عناية في فكك الأسرى يبذلون في سبيله المال ، أو يعطون أسرى عندهم على سبيل المبادلة ، وأشهر ما وقع من الفداء بين المسلمين والروم ، لأن الحرب كانت سجالا بينهما في البر والبحر بأسر بعضهم بعضا فاحتاج الخلفاء إلى الفداء ، وكان الأمويون يقتدون أسراهم أحيانا وعلى قلة نفر بعد نفر في سواحل الشام والاسكندرية ومطية وسائر الثغور على الحدود ، وأول فداء منظم وقع في أيام بني العباس على يد الرشيد سنة ١٨٩ هـ وتوالى الفداء بعده بضع عشرة مرة في أثناء ١٥٠ سنة ، وتزايدت عناية المسلمين في فكك أسراهم حتى أصبح أهل الورع من الأغنياء يقفون المال على فككهم (٢) .

أما الروم فقلما كانوا يقتدون أسراهم بالمال ، ولعل السبب في ذلك أن أولئك الأسرى يكونون في الغالب لقيفا من رعاياهم ، أو أجنادا من الغرباء الأجورين وليس من الروم أنفسهم ، أما المسلمون فهم غالبا المهاجرون ، فإذا ظفروا كانت غنائمهم من ذلك اللقيف ، وإذا غلبوا فن وقع في الأسر منهم كان من المحاربين الذين يستحقون الفداء ، والرابطة القومية بين المسلمين يومئذ أشد وثوقا منها بين الروم ورعاياهم وأجنادهم . على أن المسلمين كثيرا ما كانوا يأبون المال بدل الأسرى ، ولا سيما في الدولة الفاطمية ، ولا يعرف عن هذه الدولة أنها فادت أسيرا من الأفرنج بمال ، ولا بأسير مثله ، فكان ذلك من جملة البواعث على زيادة الأرقاء عند المسلمين .

فهل يستغرب بعد ذلك إذا استكثر المسلمون من العبيد والمماليك ، فيبلغ عددهم عند بعضهم عشرة أومائة أو ألفا ، حتى الفقراء من عامة الجنود كان أحدهم لا يتخلو من عبد أو بضعة عبيد يخدمونه (٣) ، وكان للفارس في عصر الأيوبيين عشرة أتباع يخدمونه ، أو بضع عشرات إلى مائة (٤) فكيف بالأسماء والقوادح في صدر الإسلام ، فإن الخليفة عثمان كان له ألف مملوك مع علمك بزهد الراشدين قبله (٥) ، فاعتبركم يكون عددهم في أيام الثروة والترف ؟ فقد كان الأمير في الدولة الأموية إذا سار مشى في ركابه مائة عبد ، أو بضع مئات ، أو ألف عبد (٦) ، وبلغ عدد غلمان رافع بن هرثمة والي خراسان سنة ٢٧٩ هجرية ٤٠٠٠ عبد ولم يملك أحد من ولاة خراسان قبله مثله .

أصناف الأرقاء

وكانوا إذا تكاثروا الأرقاء عند أحدهم وأراد استخدامهم في منزله جعل عليهم قريبا يتولى النظر في شؤونهم يسمونه (الاستاذ) . على أن الغالب في الغلمان إذا كثروا عند أمير أن يتخذهم جندا يحرسونه فيعلمهم الحرب والقتال ، فقد كان عند الاخشيدي صاحب مصر ٨٠٠٠ مملوك ، يحرسه في كل ليلة ألفان ، وأكثر فرق الجنود عند الأسماء من غلمانهم ، وأصلهم من السبي والأسرى ، أو يبتاعونهم بالمال لهذه الغاية كما تقدم في كلامنا عن فرق الجنود ، وربما بلغ ثمن المملوك ألف دينار .

(١) المقرئى ١٩٣ ج ٢ ٤٨٩ ج ١ - (٢) المقرئى ٧٩ و ١٩١ ج ٢ - (٣) المسعودى ٢٢ ج ٢

(٤) المقرئى ٩٥ ج ١ - (٥) السبىرى ٤٩ ج ١ - (٦) ابن الأثير ١٤٧ ج ٤ والأغانى

أما الباقون من الأرقاء للخدمة في البيوت ، فيعلمونهم الصنائع اللازمة لتدبير المنزل ، فبهم الفرائش والطباخ والخازن والوكيل أو النقيب والبواب والملاح والركابي وغيرهم (١) ، ومنهم الوصيف والمملوك ، وفيهم الرومي والتركي والفارسي والبربري والزنجي والسقلي بين محبوب ومولد من الذكور والاناث مما لا يحصى . وإذا زادوا عما يحتاجون إليه في الخدمة أو الحراسة أو الحماية اتخذوا الفلمان منهم زينة لمجالسهم ، وكان يفعل ذلك أهل السعة واليسار ، ولاسيما الخلفاء فانهم تأقنوا في تزيينهم بأنواع الألبسة المزخرفة مما لم يسبق له مثل ، وأول من أقدم على ذلك الأمين بن الرشيد ، فانه بالغ في طلب الفلمان ولاسيما الخصيان وابتاعهم ، وغالى فيهم ، وصبرهم لخلوته ، وزينهم مثل زينة الجوارى ، ثم صار الاستكثار من الفلمان سنة عند الخلفاء ، فكان عند المقتدر بالله . . . ١١٠٠ غلام أو مملوك ، وفيهم البيض والسود ، فالبيض من الفرس والديلم والترك والطبرية وغيرهم : والسود من النوبة والزغاوة يجلبونهم من مصر ومكة وافرقيقة ، والزنج أصلهم من رجال صاحب الزنج الذي ثار بالبصرة ، وهم غنم قح يأكلون لحوم الناس والبهائم الميتة وقد عوقبوا على ذلك فلم يرجعوا وكانوا منفردين لا يختلطون بالبيض ، ولكل طائفة نوبة في خدمة الخليفة بين حراسة وغيرها (٢)

الخصيان

الخصاء عادة شرقية كانت شائعة قديما بين الاشوريين والبابليين والمصريين القدماء ، وأخذها عنهم اليونانيون ، ثم انتقلت إلى الرومان فالافرنج ، ويقال ان أول من استنبطها (سميراميس) ملكة آشور نحو سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، وكان المظنون أن الخصاء يذهب بقوة الرجولية ، وفي التاريخ جماعة من الخصيان اشتهروا بالشجاعة والسياسة ، وتولوا مناصب مهمة في أزمنة مختلفة ، منهم نارسس القائد الروماني الشهير في عهد يوستينيان في القرن السادس للميلاد ، وهرمياس حاكم اتارنية في ميسيا الشهير الذي قدم الفيلسوف أرسطو ذبيحة عن روحه غير ماذكره فيه من القصائد ، وعن اشتهر من الخصيان في الاسلام كقفور الاخشيدى صاحب مصر ، واشتهر منهم في الهند وپارس والصين جماعات كبيرة ، واستبد الخصيان في أواخر الدولة الرومانية استبدادا كبيرا .

وللخصاء أغراض أشهرها استخدام الخصيان في هور النساء غيرة عليهم ، فلما ظهر الاسلام وغلب الحجاب على أهلها استخدموا الخصيان في دورهم ، وأول من فعل ذلك يزيد بن معاوية ، فاتخذ منهم حاجبا لديوانه اسمه « فتح » واقضى به غيره ، فشاع استخدامهم عند المسلمين مع ان الشريعة الاسلامية أميل إلى تحريمه على ما يؤخذ من حديث رواه ابن مظنون .

وكانت تجارة الرقيق شائعة في أوروبا قبل الاسلام ، ومن أسباب رواجها أن قبائل السلاف (الروسين) نزلوا في أوائل أديارهم شمالي البحر الاسود ونهر الطونة ، ثم أخذوا ينزحون غربا جنوبيا نحو أواسط أوروبا وهم قبائل عديدة عرفت بعدئذ بقبائل السلاف أو (السكلاف) والسرب والبوهيم والبلات وغيرهم ، فاضطروا وهم نازحون أن يجاروا الشعوب الذين في طريقهم كالكسسون والهنون وغيرهم ، وكان من عادات أهل تلك العصور أن يبيعوا أسراهم ببيع الرقيق كما تقدم ، فتألف لذلك جماعات كبيرة من التجار يحملون الأسرى عن طريق فرنسا فإسبانيا إلى افرقيقة ومنها إلى الشام ومصر ، فلما وقعت هذه البلاد في أيدي المسلمين راجت تلك التجارة .

فكان التجار من الافرنج وغيرهم يتعاونون الأسرى من السلاف والجرمان من جهات ألمانيا عند ضفاف الرين والألب وغيرهما إلى ضفاف الدانوب وشواطئ البحر الاسود ، ولا يزال أهل جورجيا والجرس

إلى اليوم يبيعون أولادهم بيع السلع ، فإذا عاد التجار من تلك الرحلة ساقوا الأرقاء أمامهم سوق الأغنام ، وكلهم بيض البشرة على جانب عظيم من الجمال ، وفيهم الذكور والاناث ، حتى يحطوا رحالهم في فرنسا ، ومنها ينقلونهم إلى اسبانيا (الأندلس) ، فكان المسلمون يتاعون الذكور للخدمة أو الحرب والاناث للقسري وغلب على أولئك الأرقاء انسابهم إلى قبيلة السلاف ، وكانت تلفظ عندهم (سكلاف) فعرّبها العرب صقلي وأصبح هذا اللفظ عندهم يدل على الرقيق الأبيض بالاجمال ، وكثيرا ما برد لفظ الصقالبة في تاريخ الاسلام ، ويراد به الأرقاء من قبائل السلاف والجرمان ، وفعل الافرنج نحو ذلك أيضا فاستخدموا هذه اللفظة لنفس هذا المعنى ، ومنها (Esclave) في الفرنسية و(Sklave) في الجرمانية و(Slave) في الانكليزية .

﴿ثالثا﴾ — خصاء بعض الأرقاء

ولما شاع الحجاب بين المسلمين في إبان سلاطنتهم ، واستخدموا الخصيان في دورهم ، عمد تجار الرقيق ، وأكثرتهم من اليهود إلى خصاء بعض الأرقاء ، ويعيهم بأثمان غالية ، فراجت تلك البضاعة ، وكثرت المشتغلون بها ، وأنشأوا لاصطناع الخصيان معامل عديدة ، أشهرها معمل الخصيان في فردون بمقاطعة اللورين في فرنسا ، كانوا يخصون أولئك المساكين وهم أطفال ، فيموت كثيرون منهم على أثر العملية ، فمن بقي حيا أرسلوه إلى اسبانيا ، فيشتره الكبراء بثمان كبير ، وأصبحوا يتوالى الأزمان يتهادون الخصيان كما يتهادون الخيل ، أو الآنث ، أو الآنية ، فكان ملوك الافرنج اذا أرادوا التقرب من خليفة المسلمين في الأندلس أو غيرها أهدوه التحف ، ومن جلتها الخصيان ، كما فعل ملكا برشلونه وطركونة ، لما طلبا تجديد الصلح من المنتصر خليفة الأندلس ، فأنهما أهدياه ٢٠ خصيا من الصبيان الصقالبة و٢٠ قنطارا من صوف السمورالح ، فسكّثر الخصيان في بلاط الخلفاء حتى تألفت منهم فرق لحراسة الخاصة ، كما تألفت الفرق من سائر الممالك والعيبد ، فاذا احتفل الخليفة ببيعة أو نحوها كان الممالك والخصيان زينة ذلك الاحتفال . وراجت تجارة الصقالبة في إبان التمدن الاسلامي ، وكل ما كان يفد على المملكة الاسلامية منهم يستجلب من الأندلس لأنهم كانوا يخصون بالقرب منها ، غير ما يحملونه من الصقالبة من جهات خراسان مما يسببه الخراسانيون ويحملونه للبيع ، لأن بلد الصقالبة طويل يسببه الافرنج من الغرب والخراسانيون من الشرق (١)

﴿رابعا﴾ — الجوارى

للجوارى شأن كبير في تاريخ التمدن الاسلامي ، لا يقل عن شأن العبيد والموالي ، وأصل الجوارى ما يسببه الفاتحون في الحرب من النساء والبنات ، فهن ملك الفاتحين ، ولو كن من بنات الملوك ، أو الدهاقين ، يستخدمونهن ، أو يستولدنهن ، أو يتصرفون في بيعهن تصرف المالك بملكه (٢) ولما أفضت أحوال المسلمين إلى الترف والقصص ، وتدفت الأموال من خزائن الخلفاء والأمراء جعلوا يتهادونهن كما يتهادون الحلى والجواهر ، فمن أحب التقرب من كبير أهدى إليه جارية أنقنت صناعة يعلم أنه راضب فيها ، فاذا علم مثلا أنه يحب الجمال أهداه وصيفة جميلة ، أو علم منه ميلا إلى الغناء أهدى إليه قينة رخيمة الصوت ، وقد يهديه عدة جوار أنقن عدة صنائع ، وربما صارت إحداهن بعد حين أم ذلك المنزل وصاحبة الأمر فيه ، اذا استولدها سيدها ، واذا كانت في دار خليفة لا يبعد أن تصير من أمتهات الخلفاء ، كما اتفق لأكثر خلفاء بني العباس .

(١) ابن حوقل ٧٥ — (٢) ابن خلكان ٣٢٠ ج ١

ذكروا أن جارية اسمها « دنانير » صفراء صادقة الملاحظة ، كانت أروى الناس للغناء القديم ، وقد خرجها رجل من أهل المدينة ، فاشتراها جعفر البرمكي ، وسمع الرشيد صوتها فألفها ، وصار يسير إلى جعفر لسماع غنائها ، ووهب لها هبات سنوية . وعلمت امرأته زبيدة بخبرها ، فشكته إلى عمومتها ، فلم ينجحوا في إرجاعه ، فرأت أن تشغله عنها بالجوارى ، فأهدت إليه عشر جوار ، منهم مارية أم العتصم ، ومراجل أم المأمون ، وفاردة أم صالح (١)

وكثيرا ما كان العمال والأمراء يتقربون إلى الخلفاء بأمثال هذه الهدايا ، فأهدى ابن طاهر إلى الخليفة المتوكل هدية فيها ٢٠٠ وصيفة ووصيف (٢)

فلاغروا إذا تكاثرت في قصور الخلفاء ، والأمراء ، وأهل الوجاهة ، وليس الاستكثار منهم حادثا في الإسلام ، وإنما هومن بقايا التمدن القديم ، فقد كان ملوك الفرس والروم يتهادونهم ، وبلغت عدتهم عند بعض الأكاسرة ٦٠٠٠ جارية (٣) ، وكان لجماعة من بني العباس ألف جارية ، وسيأتي بسط ذلك في مكان آخر اه

﴿ خامسا ﴾ — ترتيبهم

فعمد الجوارى في دور الكبراء ، وتسابق أهل الترف إلى التفتن في ترتيبهم ، وأشهر من فعل ذلك أم جعفر المذكورة ، فانها لما رأته ابنها يفتن في تفتن الفلمان وإلباسهم ملابس النساء اتخذت طائفة من الجوارى سمنهن المقدودات ، عمدت رموسهن ، وجعلت لهن الطرر والأصدغ والأقفية ، وألبسهن الأقفية ، والقراطين والمناطق ، كأنهن من الفلمان ، واقتدى بها وجبهات قومها ، فاتخذن الجوارى الفلاميات ، أولطمومات ، وألبسوهن الأقفية والمناطق الذهب (٤) اه

﴿ سادسا ﴾ — مقاومة الخلفاء للغناء

على أن أهل التعقل من الخلفاء ، أو الأمراء كانوا لا ينفكون عن منعه جهد طاقتهم ، وكان العقلاء غير الحكام يحرضون الولاة على منعه حتى في المدينة معدن الغناء في ذلك العصر (٥) وكثيرا ما كان أمير مكة يخرج المنع من الحرم خوفا من افتتان الناس بغنائهم (٦) وصرفهم عن أمور دينهم ، ولم يكن أهل الفيرة على العرض يصبرون على سماعه ، ومن أقوالهم : « المغنون رسل الغرام » .
ذكروا أن سليمان بن عبد الملك ، وكان يكره الغناء سماعه في عسكره ، فطلبه ، فجاءوه به ، فقال : أعد ما غنيت ، فتغنى واحتفل ، فقال سليمان : والله لكانها جرجرة الفحل في السول ، وما أحسب أنني تسمع هذا إلا صبت إليه ، ثم أمر به بنقصي (٧)

وسليمان هو الذي أمر بنقصي المنع في المدينة لئلا يفتن هذا السبب ، قيل انه كان في بادية له يسمر ليلية على ظهر سطح وقد تفرق عنه جلساؤه ، فدعا بوضوه ، فجاءت به جارية ، فبينما هي تصب عليه لحظ أن ذهنها مشتغل عنه بغناء تسمعه ، فتجاهل ، وفي الصباح ذكر الغناء ولين فيه حتى طلق القوم انه يشتهي ، فأفاضوا فيه ، وذكروا من كان يسمعه ، ومن يغنيه ، حتى توصل إلى الرجل الذي شغلت الجارية بغنائه في الأمس ، فلما تحقق ذلك أقبل على القوم ، وقال : هدر الجمل فضبت الناقة ونبت النيس فشكرت الشاة وهدر الجلام فزافت الحمامة وغنى الرجل قطرت المرأة ، ثم أمر به بنقصي ، وسأل عن الغناء : ابن أمه ؟ فقيل في المدينة

(١) الأغاني ١٣٧ ج ١٦ — (٢) المسعودي ٢٨٠ ج ٢ — (٣) المسعودي ١١٥ ج ١ وترتيب الدول ١١١ — (٤) المسعودي ٣٦٦ ج ٢ — (٥) العقد الفريد ١٩٦ ج ٣ — (٦) الأغاني ١٣٠ ج ٢ — (٧) الكامل للبرد ٣٧٧

بجماعة الخنثين وهم أمته والخذاق فيه ، فكتب إلى عامله هناك : اخصر من قبلك من الخنثين المغنين ،
نفساهم (١)

على أن المنتهكين من الخلفاء والأمراء لم يشكروا ما بجرّ إليه الفناء من أسباب اللهو . قال الوليد بن
يزيد الذي ذكرنا أنه أول من استقدم المغنين إليه : « إياكم والفناء ، فإنه ينقص الحياء ، ويزيد في الشهوة
ويهدم المروءة ، ويشور على الخمر ، ويفعل ما يفعل المسكر ، فإن كنتم فاعلين فخبوه النساء ، فإن الفناء رقية
الزنا ، وإني لأقول ذلك فيه على أنه أحبّ إليّ من كل لئمة ، وأشهى إليّ من الماء البارد إلى ذى الغلة ،
ولكن الحقّ أحقّ أن يقال (٢) » اهـ

﴿ سابعاً ﴾ - الغيرة

كانت أيام بني أمية من حيث العفة والغيرة عصر انتقل من البداوة إلى الحضارة ، فلما انقضى عصر
الأمويين ذهب ما بقي من سداجة البداوة في طبائع العرب ، واستسلم الناس للترف والرئاء ، وضعت الغيرة
وأبيح التشبب ، وشاع على ألسنة الشعراء حتى صاروا يصدّرون به قصائد المدح والفخر ، وكان الخلفاء الأولون
من بني العباس لا يزالون على مقربة من البداوة ، فأنكروا ذلك ونهوا عنه ، ومن أشدهم غيرة المهدي بن
المصور فإن بشارة أنشده مديحاً فيه تشبيب ، فنهأ عن التشبيب ألبتة ، فصار إذا مدحه بدأ بالمدح (٣) فظلّ
التشبيب مستقبها حتى أباحه الرشيد وألحّ في نظمته (٤) قال ذلك طبعاً إلى ضعف الغيرة اهـ

﴿ ثامناً ﴾ - اللباس

ولما أترف بنو أمية لبسوا الحرير على أنواعه وتفننوا بأنواع الأنسجة ، وأحبوا الوش ، وأكثروا من
لبسه فقلدهم الناس في ذلك ، فراجت المنسوجات الموشاة في أيامهم اهـ

﴿ تاسعاً ﴾ - لباس رجال الدولة

على أن رجال الدولة ومن جرى مجراهم من الخاصة كانت لهم ألبسة لمجالس الأئس والشراب يسمونها
« ثياب المنادمة » وهي أثواب مصبغة بالألوان الزاهية ، الأجر أو الأصفر أو الأخضر ، يصقلونها حتى تلمع
وتشرق اهـ

﴿ عاشراً ﴾ : مباني العباسيين

أول من شاد الأبنية منهم المنصور ، فبنى القبة الخضراء ، ليحوّل أذهان الناس عن الكعبة إليها ، وبنى
الجامع ، والحصون والقصور في بغداد ، كقصر الخلد ، وقصر باب الذهب وغيرهما ، وأخذ الخلفاء بعده في
تشديد المصانع ، واقتدى بهم وزراءهم وأمراءهم ، فأقاموا قصوراً فخمة ، تعرف غالباً بأسماء بانها كقصور
البرامكة في الشامية ، وقصر ابن الحبيب ، وقصر أمّ حبيب بالجانب الشرقي من بغداد ، وقصر بني خلف
بالبصرة ، وقصر عيسى بن علي ، وهو أول قصر بناه الهاشميون في أيام المنصور ، وقصر وضاح بنه رجل
اسمه وضاح (بتشديد الصاد) للمهدي العباسي ، وقصر الرشيد ، وقصر الأمين ، وقصر ابن الفرات ، وقصر
ابن مقلة ، غير ما أطلقوا عليه لفظ الداركدار الشجرة الآتي ذكرها ، ودارالقرار ، وهي قصر زبيدة زوج
الرشيد وغير ذلك ، وأخذت رغبتهم في بناء القصور تتزايد كلما تقدموا في المدينة وأغرقتهم في الترف والرئاء .

(١) الأغاني ٦١ ج ٤ - (٢) الأغاني ١٣٤ ج ٦ - (٣) الأغاني ٤١ و ٥٨ ج ٣

(٤) الأغاني ١٦٠ ج ٣

على أن بعض خلفائهم كانوا يحبون العمارة وينشطونها ، وأولم المعتصم بالله ، فقد كان كافيا بالبناء ، فبنى سامرا الأثرى وأقطعهم فيها القطن ، والمتوكل على الله كان مفرما بالعمارة ، يبذل فيها الأموال الطائلة ، فأحدث أساليب من الأبنية ، لم تكن معروفة قبله ، منها النخلة الجبري ، والكمين ذات الأروقة ، وبنى ثلاثة أبنية تعرف بالهاروني والجوسقي والجعفري بذل في بنائها جيعا أكثر من ١٠٠٠٠٠٠٠ درهم (١) أنفق منها على القصر الجعفري أكثر من ٣٠٠٠٠٠٠٠ دينار (٢) أو نحو ٤٠٠٠٠٠٠٠ درهم ، ثم صار تشييد المباني عادة جرى عليها الخلفاء ، فضلا عن المتزهات ، فبنى اسماعيل بن علي متزها أنفق فيه ٥٠٠٠٠٠٠٠ درهم (٣) اه

(١١) - دار الشجرة

وبنى المقتدر بالله في أول القرن الرابع دارا فسيحة ذات بساتين موقفة عرفت بدار الشجرة ، لشجرة كانت فيها مصنوعة من الذهب والفضة في وسط بركة كبيرة أمام إيواتها ، وبين شجر بساتينها ، لها ثمانية عشر غصنا من الذهب والفضة ، لكل غصن منها فروع كثيرة مكحلة بأنواع الجوهر على شكل الثمار ، وعلى أغصانها أنواع الطيور من الذهب والفضة ، إذا مرّ الهواء عليها أبانت عن محائب من ضروب الصفيير والهدبر ، وفي جانب الدار من يمين البركة ثمانيل خمسة عشر فارسا على خمسة عشر فرسا ، ومثله عن يسار البركة ، قد ألبسوا أنواع الحرير المديج ، مقلدين بالسيوف ، وفي أيديهم المطارد ، يتحرّكون على خط واحد ، فيظن الناظر اليهم أن كل واحد منهم يقصد صاحبه (٤) .

وفي دولة آل بويه بنى معز الدولة قصره المعروف « بالدار المعزية » ، أنفق في بنائه ١٠٠٠٠٠٠٠ دينار ، وموّه سقفه بالذهب ، ذكروا أنهم لما أرادوا هدمه بذلوا في حك الذهب من سقفه ٨٠٠٠٠٠٠ دينار (٥) ولم يبق لهذه التصور أو الصور أثر الآن .

أما الأندلس فقد بنى بها آل مردان قصورا سارت بذكرها الركبان ، ولا يزال بعض آثارها باقيا إلى اليوم ، وأكثرها في قرطبة وغرناطة ، فبها في قرطبة القصر الكبير ، وهو آية من آيات الزمان ، شرع يبنائه عبد الرحمن الداخل في أواسط القرن الثاني للهجرة ، وأتمه من جاء بعده ، وبنوا القصور في داخله ، وقد رأيت عند ذكر أبنية قرطبة أن القصر المذكور مؤلف من ٤٣٠ دارا ، بينها قصور نفحة ، لكل منها اسم خاص ، كالكمال والمجدد ، والحائر والروضة ، والمعشوق والمبارك ، والرستق وقصر السرور والبديع ، وقد غالوا في زخرفها واتقانها ، وأنشأوا فيها البرك والبحيرات والبحاريج والأحواض ، وجلبوا إليها الماء في قنوات الرصاص على المسافات البعيدة من الجبال حتى أوصلوه إليها ، ووزعوه فيها ، وفي ساحاتها ونواحيها في تلك القنوات تؤذيها إلى المصانع صورا مختلفة الأشكال من الذهب الابريز ، والفضة الخالصة ، والنحاس المموّه إلى البصبرات الهائلة والبرك البديعة والصحاريج الغربية في أحواض الرخام الرومية المنقوشة ، ينصب فيها الماء من أنابيب من الذهب أو الفضة بصور الحيوانات الكاسرة ، أو الطيور الجميلة على أشكال بديعة (٦) اه

(١٢) : قصر الزهراء

ومن قصورهم في قرطبة « الزهراء » بدأ بإنشائها الخليفة الناصر سنة ٣٢٥ هجرية على أربعة أميال من المدينة ، وأتمها ابنه الحكم ، فاستغرق البناء أربعين سنة ، وهي عبارة عن بلد كبير ، طوله من الشرق

(١) المسعودي ٢٧٩ ج ٢ - (٢) ابن الأثير ٣٣ ج ٧ - (٣) ابن الأثير ٢٨ ج ٦

(٤) معجم باقوت ٥٢٠ ج ٣ - (٥) ابن الأثير ١٥١ ج ٩ - (٦) فتح الطيب ٢١٩ ج ١

إلى القرب ٢٧٠٠ ذراع ، وعرضه ١٥٠٠ وعدد أعمدته ، أو سواريه ٣٠٠ سارية بعضها جل إلى قرطبة من رومية وإفريقية وتونس ، وبعضها أهداه صاحب القسطنطينية ، وفيها الرخام الأبيض والأخضر والوردى والمجزع ، وكان في الزهراء مسجد نخم ، وعدة قصور ، وحدائق على نحو ما تقدم في وصف القصر الكبير ، وفيها البحيرات تسبح فيها الأسماك بألوانها وأنواعها ، وأحواض الرخام المقوش على أشكال شتى بين مذهب وغير مذهب ، في جلها حوض منقوش بنائل الإنسان جىء به من القسطنطينية ، ونصبه الناصر في بيت المنام بالمجلس الشرقي المعروف بالمؤنس ، وجعل عليه ١٢ تمثالا من الذهب الأحمر ، مرصعة بالدرّ النفيس الغالي ، مما صنع بدار الصناعة في قرطبة بصورة أسد ، بجانبه غزال إلى جانبه تمساح يقابله ثعبان وعقاب وفيل ، وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطايرس ودجاجة وديك وحدأة ونسر ، وكلها من ذهب مرصع بالجواهر ، يجري الماء من أفواهاها (١) ، ووكل الناصر النظر في بناء هذه القصور إلى ابنه الحكم بعده ، وذكروا أن الناصر كان ينفق عليها ثلث جباية الدولة وكانت ٦٠٠٠٠٠٠٠ دينار فينفق منها ٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار كل سنة على ذلك البناء ، وقد تقدم أنهم واصلوا العمل فيه ٤٠ سنة ، فلوفرنا أنهم كانوا ينفقون هذا القدر في نصف هذه المدة فقط لبلغ مجموع ما أنفق على الزهراء أكثر من ٥٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار ، ولكن يظهر أن الانفاق السنوي لم يكن يبلغ ثلث جباية المملكة إلا في بضع سنين ، وأما في سائر مدة البناء فكانت النفقة أقل من ذلك كثيرا .

وقد ورد في مكان آخر أن الناصر كان ينفق على بنائها في أيامه ٣٠٠٠٠٠٠ دينار في السنة ، فإذا حسبنا ما أنفق ابنه الحكم فيما بقي من الأربعين سنة على هذه النسبة مع ما أنفق هو غير المقدار السنوي المذكور كان مجموع ما دخل في بناء هذا القصر الفخم نحو ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار على الأقل ، ولا غرابة في ذلك ، لأننا إذا أعدنا النظر في تفاصيله رأينا فيه ما يفوق الحصر من المرصعات والمذهبات ، وقد أدخلوا فيه كثيرا من الذهب حتى جعلوا بعض قرميده منه ، وقد كان يتصرف في بنائه من الخدم والفعلة عشرة آلاف رجل و١٥٠٠ دابة ، وأغرب من كل ذلك أن الناصر إنما عمد إلى بناء الزهراء مرضاة لمحظية له كان اسمها زهراء طلبت إليه أن يبني مدينة باسمها وتكون خاصة بها (٢) اهـ

(١٣) : الزاهرة

واقتمدى بالخليفة الناصر المنصور بن أبي عامر ، فابتنى سنة ٣٦٨ هجرية قصرا لإقامته سماه الزاهرة ليكون مقلا له يحميه من أعدائه ، فأقامه في طرف البلد على نهر قرطبة الأعظم ، وحشد له الصناع والفعلة وبالغ في رفع أسواره ، وجعل فيه أبنية كثيرة من جلها أهراء ودواوين ، وأقطع ماحوطها لوزرائه وكتابه وقواده ، فأبنتوا السور والقصور ، وغرسوا الحدائق ، فقامت الأسواق ، وتنافس الناس بالنزول في أكنافها تقربا من صاحب السولة حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة ، واتصلت بهما الزهراء من الجهة الأخرى ، فأصبح الناس يمشون بين هذه المدن عشرة أميال على ضوء السرج .

ويجدر بنا في هذا المقام الإشارة إلى القنطرة الفخمة التي أقامها المسلمون على نهر قرطبة ، وكانت مبنية قبل الاسلام ، ثم سقطت ، فأعاد المسلمون بناءها على يد عبد الرحمن الغافقي وطولها ٨٠٠ ذراع وعرضها عشرون ذراعا وارتفاعها ٦٠ ذراعا ، وعدد حناياها ١٨ حنية ، وأبراجها ١٩ برجا (٣)

(١) نصح الطيب ٢٤٨ و ٢٦٧ ج ١ وابن خلكان ٢٩ ج ٢ - (٢) نصح الطيب ٢٤٨ ج ١

(٣) نصح الطيب ٢٢٦ ج ١

قصر الحمراء وأمثاله

الجزء قصر شهير في غرناطة لا يزال شكله محفوظا إلى الآن ، يتصدده السياح من كل مكان ، بناء ابن الأحرشي أواسط القرن الثامن للهجرة كما تقدم في أرض مساحتها ٣٥ فدانا على مرتفع فسيح ، ويقال انها سميت « الحمراء » نسبة إلى لون قرميدها ، وفي هذا القصر كانت بركة السباع ، وفي وسطها تماثيل أسود تقذف المياه من أفواهها على شكل جبل .

وبنى المنصور بن الأعلى قصرا نفيا في بجاية أنشأ فيه بركة على حافتها أسود بجري الماء من أفواهها ، وعلى البركة أشجار من ذهب وفضة ، ترمى فروعها في الماء ، وعلى أغصانها أطيار من أشكال شتى بألوان بدعية ، وصنع عجيب ، على مثال الشجرة التي ذكرنا انها نصبت في قصر المقتدر العباسي عند كلامنا عن أبنية العباسيين ، وقد نظم ابن حديس الشاعر الأندلسي قصيدة يصف بها بركة هذا القصر وخروج الماء من أفواه الأسود . قال منها :

وضراغم سكنت عربن رياسة * تركت خرب الماء فيه زئيرا
فكأنما غشي النضار جسمها * وأذاب في أفواهها البلورا
أسد كأن سكونها متحرك * في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فكأنها فكأنما * اقتعت على ادبارها لتثورا
وتخالط والشمس نجوا لونها * نارا وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول * ذابت بلانار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه * درعا فقتر سردها تقديرا (١)

وقس على ذلك قصر المأمون بن ذي النون الأندلسي ، فانه أخفق في بنائه بيوت الأموال ، وكان من عجائبه انه صنع فيه بركة ماء كأنها بحيرة ، وبنى في وسطها قبة ، وساق الماء تحت الأرض حتى علا فوق رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل من أعلى القبة وحواليها محيطا بها متصلا بعضه ببعض ، فكانت القبة في غلالة من ماء سكب لا يفتقر والمأمون قاعد فيها (٢)

مباني آل طولون بمصر

أنشأ بنو طولون في مصر أبنية نفمة ، أشهرها الجامع الذي بناه أحمد بن طولون ، لا تزال آثاره إلى الآن بالقاهرة ، والقصر الذي بناه في القطائع ، وجعل له ميادانا كبيرا ، ولما توفي أحمد زاد فيه ابنه « خارويه » وجعل الميدان كله بستانا ، زرع فيه أنواع الرياحين ، وأصناف الشجر ، ونقل إليه الودى اللطيف الذي ينال ثمره القائم ، ومنه ما يقاوله الجالس من أصناف خيار النخل ، وحل إليه كل صنف من الشجر المطعم الجيب ، وأنواع الورد ، وزرع فيه الزعفران ، وكسا أجسام النخل نحاسا مذهباً حسن الصنعة ، وجعل بين النحاس وأجساد النخل مزارب الرصاص ، وأجرى فيها الماء المدبر ، فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء فتتحد إلى فساق معمولة ، ويفيض منها الماء إلى مجار نسق سائر البستان ، وغرس فيه من الریحان المزروع على نقوش معمولة ، وكتابات مكتوبة يتمهدا البستاني بالقرص حتى لا تزيد ورقة على ورقة ، وزرع فيه النبلوفر الأحمر والأزرق والأصفر والجنوى الجيب ، وأهدى إليه من خراسان وغيرها كل أصل

(١) نفع الطيب ٢٣٣ ج ١ - (٢) سراج الملوك ٥٠

عجب ، وطعموا له شجر الشمس باللوز ، وأشباه ذلك من كل ما يستظرف ويستحسن ، وبني فيه برجا من خشب الساج المنقوش بالنقر النافذ ليقوم مقام الأقباص ، وزوّقه بأصناف الأصباغ ، وبلط أرضه ، وجعل في تضاعيفه أنهارا لطافا ، جداولها يجرى فيها الماء ، مدبرا في السواقي التي تدور على الآبار العذبة ، ويسقي منها الأشجار وغيرها ، وسرّح في هذا البرج من أصناف القمارى والدباسى والتونيات ، وكل طائر جيل الشكل حسن الصوت ، فكانت الطير تشرب وتفصل من تلك الأنهار الجارية في البرج ، وجعل فيه أوكرارا في قواديس لطيفة يمكنه في جوف الحيطان لتفرخ الطيور فيها ، وعارض لها فيه عيدانا يمكنه في جوانبه لتقف عليها اذا تطارت حتى يجادب بعضها بعضا بالسياح ، وسرّح في البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش ونحوها شيئا كثيرا . وعمل في داره مجلسا برواقه سماه بيت الذهب ، طلى حيطانه كلها بالذهب المجاول باللأزورد المعمول في أحسن نقش وأظرف تفصيل ، وجعل فيه على مقدار قامة ونصف صورا في حيطانه بارزة من خشب معمول على صورته ، وصور حظاياها ، والمقنيات اللآتي تغنيته بأحسن تصوير ، وأبهج تزويق ، وجعل على رؤسهن الأكاليل من الذهب الخالص الابريز الرزين ، والكوادن المرصعة بأصناف الجواهر وفي آذانها الأجراس الثقال الوزن ، المحكمة الصنعة ، وهي مسمرة في الحيطان ، ولوّنت أجسامها أشباه الثياب من الأصباغ العجيبة ، فكان هذا البيت من أعجب مباني الدنيا ، وجعل بين يدي هذا البناء فسقية ملاءة تبقا ، وذلك انه شكا إلى طبيبه كثرة السهر فأشار عليه بالتغيز ، فأنت من ذلك ، وقال : لا أقدر على وضع يد أحد عليّ ، فقال له تأمر بعمل بركة من زئبق ، فعمل بركة يقال انها خسون ذراعا طولا في خسين ذراعا عرضا وملاها من الزئبق ، فأنتق في ذلك أموالا عظيمة ، وجعل في أركان البركة سكا من الفضة الخالصة ، وجعل في السكك زناير من حديد محكمة الصنعة في حلق من الفضة ، وعمل فرشاً من أدم يحسنى بالريح حتى يتفخ فيحك حينئذ شده ، ويلقى على تلك البركة ، وتشد زناير الحرير التي في حلقة الفضة بسك الفضة وينام على هذا الفرش ، فلا يزال الفرش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق مادام عليه ، وكانت هذه البركة من أعظم ما سمع به من الهمم الملوكية ، يرى لها في الليالي القمرية منظر بهيج اذا تألف نور القمر بنور الزئبق (١)

مباني الفاطميين

ولما أفضى الأمر إلى الفاطميين بنوا في القاهرة الجامع الأزهر ، وهو عامر إلى اليوم ، وقصورا أشهرها القصران الشرق والغربي ، وأفقوا على الأخير منهما ٣٠٠٠٠٠ دينار (٢) ، فقس على ذلك ما أنفقوه في سائر القصور والدور كدار القطرة ، ودار الديباج وغيرها ، ولما استبحر عمرانهم قطنوا في بناء المقاصير والمناظر على ضفة الخليج وشاطئ النيل كمنظرة الجامع الأزهر ، ومنظرة اللؤلؤة على الخليج ، ومنظرة الغزالة بجانبها ، ومنظرة السكرية ، ومنظرة الدكة ، ومنظرة المقس ، ومنظرة التاج ، ومنظرة باب الفتوح ، ومنظرة البعل ، ومنظرة دار الملك ، غير المتزهات العظيمة ، والقصور الفخمة ، في الجزيرة والروضة كالقصر الذي بناه الأمر بأحكام الله لمحبوته البدوية ، وسماه الهودج .

وكانوا يتأقنون في زخرفة تلك المناظر والقصور تأقنا عظيما يدل على مبلغ حضارتهم وتفننهم ، فمنظرة بركة الحبش كانت مصنوعة من خشب مدهون صور فيها الشعراء كل شاعر وبلده ، وعند رأس الشاعر أبيات نظمها في ذكر المنظرة ، وبجانب كل صورة رفّ لطيف مذهب ، فاذا دخل الخليفة قرأ الأشعار أمر أن يوضع على كل رفّ صرة محتومة فيها خسون ديناراً ، فيدخل الشاعر ويأخذ صرته (٣)

(١) المقرئى ٣١٦ ج ١ - (٢) المقرئى ٤٥٧ ج ١ - (٣) المقرئى ٤٨٦ ج ١

مباني الأيوبيين والمماليك

ولما انتقلت الدولة إلى الأكراد كان أعظم آثارهم البنائية قلعة القاهرة ، بناها السلطان صلاح الدين ليعتصم بها من الشيعة ، ولا تزال قائمة إلى اليوم .
ومعظم ما في مصر الآن من الآثار البنائية إنما هو من أعمال السلاطين المماليك ، ولا سيما المساجد كجامع السلطان حسن ، وجامع المؤيد ، وقايتباي ، وقلاوون ، وغيرهم . ومن آثارهم قبور الخلفاء خارج القاهرة فأنها لهم وإن نسبت إلى الخلفاء بالاسم ، غير ما اندثر من قصورهم ، وكانوا يقلدون الفاطميين في زخرفها كالرفرف الذي بناه الأشرف خليل بن قلاوون عاليا يشرف على الجزيرة كلها وصوّر فيه أمراء الدولة وخواصها وعقد عليه قبة على عمد وزخرفها ، وكان السلطان يجلس فيه . وقصر يلبغا بناه الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٨ هجرية لسكنى الأمير يلبغا حيث مدرسة السلطان حسن تجاه القلعة وغيرها .

الثروة والرخاء

واشتغال الخلفاء والأمراء بإنشاء المدن و بناء القصور والمنزهات إنما هو من ثمار الثروة وتكاثر النقود في بيوت الأموال ، فتنقل إلى رجال الدولة وغيرهم على ما يئنه في نظام الاجتماع ، ولذلك كان الخليفة أكثر الناس مالا لأنه قابض على بيت المال يليه الوزراء والكتاب والعمال فبنوهاشم فالأتباع والتجار وغيرهم ، واليك أمثلة من ذلك :

ثروة الخلفاء وأهلهم

لما كان الخلفاء يتولون شؤون الدولة بأيديهم كانوا أكثر الناس ثروة ، فلما عهدوا بها إلى الوزراء تحوّلت الثروة إليهم ، وأصبح الخلفاء أحيانا مثل سائر الفقراء (١) والأصل في ثروة بيت المال أن تكون للدولة تنفق في مصالحتها ، وللخليفة بيت مال خاص به ، ولكن الخلفاء تصرفوا بأموال الدولة أولا لاعتبارهم اتفاقها مساعدا على تأييدها ثم أنفقوها في الجوائز والهدايا لمثل هذه الغاية ، وتدرّجوا إلى بذلها في ملذاتهم وسائر أسباب تنعمهم ، وكان يبق مع ذلك في بيوت الأموال شيء كثير ، وقد بينا في الجزء الثاني من هذا الكتاب « تاريخ التمدن الاسلامي » مقدار ما بقي منها في خزائن الخلفاء الأولين من بني العباس المنصور والمهدي والمعتمد والمستعين والمكتفي وغيرهم (صفحة ١٢١) وما صار إليهم من الضياع الكثيرة (صفحة ١٣٣) وذكرونا ما بلغت إليه ثروة أمهات الخلفاء ، ولا سيما الخيزران أم الرشيد وقبيحة أم المعتز وغيرهما (صفحة ١٣٤) فلاحاجة إلى التكرار ، وإنما أتاني ببعض التفصيل على سبيل المثال : ذكروا أن المكتفي خلف ١٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار هذا تفصيلها : (٢)

دينار

- ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ من العين والورق والأواني المعمولة .
- ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ من الفرس .
- ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ من السكر والفلحان والسلاح والفلمن .
- ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ من الضياع والعقار والأملك .
- ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ من الجواهر والطيب وما يجرى معهما . انتهى

(١) الجزء الثاني من كتاب « تاريخ التمدن الاسلامي » ١٦٣ - (٢) لطائف المعارف ٧٢

(١٤) : البذخ في الألبسة

كان المسلمون في صدر الاسلام يتوخون الخشونة في العيش والتعفف بالمطم والملبس ، فكان الخليفة من الراشدين يمشى في الأسواق وعليه القميص الخلق المرقوع إلى نصف ساقه ، أو ثوب من كرباس غليظ ، وفي رجله نعلان من ليف ، وحائل سيفه من ليف ، وفي يده درة يستوفى الحد بها (١) وكان عمالهم في مثل حالهم ، اذا وفدأحدهم على الخليفة لبس جبة صوف ، وتعم بعمامة دكناء ، واحتذى خفين مطارقين ودخل عليه (٢) ، وأول من اتخذ زى الملوك من أمراء المسلمين معاوية منذ كان أميراً في الشام ، وقدم عليه عمر بن الخطاب في أثناء ذلك ، فلما رآه في أبهة الملك أنكرها عليه ، وقاله : أ كسروية يامعاوية ؟ (٣) ثم تحضروا ، وكثرت الأموال بين أيديهم ، وشاططوا أهل الترف من الأعاجم ، فاضطروا بطبيعة المدينة إلى التبسط في العيش ، والتنعم باللباس ، وأحبّ الأمويون الوشى كما تقدم ، وأكثرهم رغبة في لبسه هشام بن عبد الملك ، فاجتمع عنده ١٢٠٠٠٠ قميص وشى و ١٠٠٠٠٠٠ تكة حرير ، وكانت كسوته اذا حجّ تحمل على ٧٠٠٠ جل (٤) ، وفي أيامهم تسابق الصناع إلى إجادة الوشى ، وزاد المسلمون بذخاً في أيام بني العباس ورغب أهل التجارة في حل أصناف المنسوجات الحريرية والصوفية بين موشى ومطرز ومحوك بالذهب أو الفضة ، والمرصع بالحجارة الكريمة على اختلاف البلاد التي يصنع فيها .

ومن أهم المنسوجات الثمينة الخز وهو نسيج ناعم يصنع من الحرير ، ومن وبر الخرز وهو ذكر الأرناب (٥) والابرسم حرير خالص ، والديباج نسيج حريري موشى بالقصب بأشكال الحيوانات ونحوها ، والبرز نسيج قطنى ثمين وغبر ذلك من أصناف الحرير والكتان والاداري والملحم والمعلم والمنبر ، ومنسوجات الشعر أو الوبر أو الصوف ، وما يلحق ذلك من أنواع السمور والقماقم وغيره ، يصنعون منها الأقبية والسراريق والطيالة والجيب والعمائم والأبراد والغلائل والملاحف والآزر والسرراويلات والشاشيات والتكك وغيرها .

وكان الصناع يقارون في اتقان هذه الصنائع ، ويقالون في ترفيعها ، لما يلاقونه من البذل في ابتاعها لتوفر الثروة بين أيدي الناس ، ولاسيما الخليفة وأهل دولته ، فكان هؤلاء يتهاقون على اقتناء الألبسة ، لا يباليون كم يكون ثمنها حتى بلغت قيمة العمامة من الديبقي خمسمائة دينار ، وهم مع ذلك يكثر من اقتنائها وربما لبس الواحد ٩ أقبية كل قباه بلون خاص للفاخرة في البذخ ، وقد تزيد على أضعاف حاجتهم إليها ، فيجتمع عند أحدهم عشرات أمثالات أو ألوف من القطعة الواحدة ولاسيما الخلفاء ، مثاله ما خلفه المكتفي بالله من الألبسة وهو :

عدد

من الثياب المقصورة سوى الخمامات .	٤٠٠٠٠٠٠
من الأثواب الخراسانية المروية .	٦٣٠٠٠
من الملاءات .	٨٠٠٠
من العمائم المروية .	١٣٠٠٠
من الحلل الموشاة اليمانية وغيرها منسوجة بالذهب .	١٠٨٠٠
من البطائن التي تحمل من كرمان في أنابيب القصب .	١٨٠٠٠
من الأبسطة الأرمنية .	١٨٠٠٠

(١) الفخرى ٢٥ و ٦٦ - (٢) العقد القربيد ٦ ج ١ - (٣) ابن خلدون ١٦٩ ج ١

(٤) المستطرف ٤ ج ٢ والعقد القربيد ٢٦٦ ج ٢ - (٥) ألف باء ١٨٧ ج ٢

وتوفى ذواليمين وفي خزائمه ١٣٠٠ سرزال لم يستعملها ، ووجدوا في كسوة بختيشوع الطيب ٤٠٠ سروال ديبقي ، ولما قتل برجوان خادم الوزير بمصر ووجدوا في تركته ألف سروال ديبقي بألف نكة حرر . انتهى

(١٥) الأثاث والرياش عند العباسيين

لما انتقلت الخلافة إلى العباسيين اشتغل السفايح والنصور بتأسيس الدولة وتأبيدها ، فلما تأيد سلطانهم ماوا إلى الترفه ، فأخذوا بتقليد الدول السابقة لهم عملا بناموس العميران ، فاقتنوا الأسرة الذهب المرصعة بالجواهر أو الأبنوس المنزل بالعاج ، وأخذوا المقاعد ، والتمارق ، والكراسي ، ونصبوا منائر الذهب ، وأوقدوا فيها الشموع من الصبر ، وعلقوا الستور المطرزة ، والموشاة ، واقترشوا البسط ، والطنافس المزركشة ، والحصر المنسوجة بالذهب ، المكلاة بالدر والياقوت (١) وغالوا في اقتناء آنية الذهب والفضة ، يأتون من كل بلد بأحسن مصنوعاته وأتمنها ، فملأوا الستور المعلمة من فسا ، والبسط ، والملصيات من نستر وبخارا ، والحصر من عبادان ، والمقاعد من دشت .

على أن أحسن أصناف الفرس المذهبة بطراز الذهب ، كانت تأتيهم من أرمينية ، والطاقم الأرمني وهو عشرة مصليات بمخادها ومساندها ومطارحها وبساطها يساوي خمسة آلاف دينار (٢) ، وكانت أطباق الخشب لآنية الطعام تأتيهم من طبرستان ، والزجاج والخزف من البصرة ، وأكثره وارد في الأصل من بلاد الصين على ما فصلناه في كلامنا عن التجارة فيما تقدم ، ولكن الزجاج الرقيق كان يحصل إليهم من الشام ، وكان يضرب به المثل بالرقه والصفاء ، فيقال : « أرق من زجاج الشام ، وأصنى من زجاج الشام » (٣)

أخذوا ما تقدم من الآنية والفروشات تقليدا للفرس والروم على ما كانت عليه عندهم ، ثم عربوها فجعلوا ما ينقش عليها من الكتابة باللغة العربية بين أمثال وأشعار وحكم ينقشونها على الستور ، ويعلقونها بمسامير الذهب والفضة (٤) وبزركشون البسط والطنافس ، فيرسمون في أواسطها أشكالا وصورا مما في البر والبحر ، ويطرزون حواشيها بالذهب أو القصب أينا من الشعر ، ويرمطرون دور البساط بقصيدة (٥) وغالوا في الزخرفة حتى نقشوا الأشعار على آنية الباور ، وأطباق الطعام ، وعلى جدران القاعات ، وفوق أبوابها . يتفاوت ذلك شكلا ومقدارا بتفاوت طبقات الناس من المطرزة بالحريز إلى المزركش بالقصب ، فالملهي بالذهب ، فالمرصع بالجواهر كالבساط الذي كان لأمّ المستعين وعليه صورة كل حيوان من جميع الأجناس ، وصورة كل طائر من ذهب وأعينها يواقيت وجواهر ، أنفقت في صنعه ١٣٠٠٠٠٠ درهم (٦) اه

— ١٦ —

وما خلفته رشيدة بنت المعز وحفظ هناك ما قيمته ١٧٠٠٠٠٠ دينار من جلتها ١٢٠٠٠٠ من الثياب المصمت ألوانا و ١٠٠ قاطرميز مملوءة كافورا قيصوريا ، ومعجمات بجواهر من أيام المعز ، وبيت هرون الرشيد الخز الأسود الذي مات فيه بطوس ، ومثل ذلك مما تركته عبدة بنت المعز أيضا ، ويطول شرحه ، وخزائن مملوءة بأنواع الصبني تساري القطعة منها ألف دينار ، وحصير من الذهب وزنه عشرة أرتال يظن أنه الحصير الذي حملت عليه بوران بنت الحسن بن سهل لما زفت إلى المأمون كما تقدم ، وصوان من الذهب كان ملك الروم أهداها إلى العزيز بالله .

ووجدوا أنواعا من الشطرنج والتزد مصنوعة من الجواهر والذهب والفضة ، أو العاج ، أو الأبنوس ، وعدد

(١) ابن خلدون ١٤٥ ج ١ (٢) الفرج بعد الشدة ١٠٣ ج ١ (٣) لطائف المعارف ٩٥

(٤) الابيدي ٩٨ (٥) الأغاني ٤١ ج ١٥ (٦) المستطرف ١٣٤ ج ١

كبير من الزهريات ونحوها ، ومن تماثيل العنبر . . . ٢٢٠ رطل قطعة أقل تماثل منها وزنه ١٢ منا ، ومن تماثيل الخليفة مالا يعد ، والكلوة المرصعة بالجواهر قيمتها . . . ١٣٠ رطل دينار فيها من الجواهر ١٧ رطلا وطاووس من ذهب مرصع بنفيس الجواهر ، عيناه من ياقوت أحمر ، وريشه من الزجاج المينا المجري بالذهب على ألوان ريش الطاووس ، وغزال مرصع بنفيس الدر والجواهر ، بطنه أبيض ، قد نظم من درّ رائق ، ومائدة من الجوز يتعد عليها جماعة ، قوائمها مخروطة ، ونخلة ذهب مكحلة بالجواهر وبديع الدر في إجانة من ذهب تجمع الطلع والبلح والرطب بشكله ولونه وعلى صفته وهياته من الجواهر لاقيمة لها ، وكوزير بلور مرصع بحمل عشرة أرتال ، ومزينة مكحلة بحب لؤلؤ نفيس ، وقس على ذلك عشرات من أمثاله .

(١٧) الفرش والأثاث عند الفاطميين

ووجدوا في خزائن الفرش من أصناف الأثاث والرياش ما يعد بالآلاف ، من ذلك . . . ١٠٠ رطل قطعة خسرواني أكثرها مذهب ومراتب خسرواني وقلموني ثمن الواحدة . . . ٣٠٥ دينار ، واجلة معمولة للفيضة من الخسرواني الأحمر المذهب ، و . . . ٣٠٠ رطل قطعة خسرواني أحمر مطرز بأبيض من هديها لم يفضل من كساء البيوت كاملة بجميع آلاتها ومقاطعها ، وكل بيت يشتمل على مسانده ومخادده ومساوره ومراتبه وبسطه ومقاطعته وستوره وكل ما يحتاج إليه .

ومن أدلة الترف والاسراف في هذه النبوة أن السيدة الشريفة ست الملك أخت الحاكم بأمر الله أهدت أباها هذا هدايا من جلتها ثلاثون فرسا بمراكبها ذهباً منها مركب واحد مرصع ومركب من حجر البلور وتاج مرصع بنفيس الجواهر ، وبستان من الفضة مزروع من أنواع الشجر اه

(١٨) أثمان الجواري

والاستكثار من الجواري في أوائل الإسلام لم يكن يحتاج إلى نفقة كبيرة لكثرة السبايا ، فلما نضج التمدن صاروا يتناصرون ، ويغالون في رفع أثمانهم ، وكانت أسعارهم تتضاعف إذا جعن بين الجبال ورخامة الصوت وصناعة الفناء ، ويختلف ثمن الجارية من بضعة مئات إلى بضعة آلاف ، أو مائة ألف دينار ، وأول من بذل في هذا السبيل إلى هذا المقدار سعيد أخوسامان بن عبد الملك ، فابتاع الزنقاء الجارية الشهيرة بليون درهم ^(١) (نحو . . . ٧٠٠ دينار) ، وابتاع الرشيد جارية بمائة ألف دينار ^(٢) ، وجارية أخرى اشتراها من إبراهيم الموصلي بمبلغ . . . ٣٦٠ دينار فباعت عنده ليلة ثم أرسلها إلى الفضل ، وطلب محمد الأمين إلى جعفر بن الهادي أن يبيعه جارية له اسمها «بذل» ، فأبى ، فأمر فأوقروا قلبه ذهباً ، فبلفت قيمة ذلك . . . ٢٠٠٠ درهم ^(٣) أي أكثر من مليون دينار ، وهذا إذا صحّ كان أعظم ما بلغ إليه بذلم في أثمان الجواري . وأما ما خلا ذلك فقد اشترى يزيد بن عبد الملك الأموي سلامة المغنية بعشرين ألف دينار ، وبيعت الجارية «ضياء» بخمسين ألف دينار ، واشترى جعفر البرمكي جارية بأربعين ألف دينار ، وابتاع الواثق بالله جارية مولدة للفناء اسمها «الصالحية» بعشرة آلاف دينار ، وقس عليه ما دون ذلك وما فوقه واعتبر مقدار ما كانوا ينفقونه من الأموال في اقتنائهم اه

(١٩) مبلغ السخاء على العموم

تدرج المسلمون فيه بتدرجهم في الحضارة والمدنية ، وزادت جوائزهم بزيادة الثروة واتساع الأرزاق ،

(١) العقد الفريد ٢٠٣ ج ٣ والمستطرف ١٣٢ ج ٢ (٢) الطبرى ١٣٣٢ ج ٢

(٣) العقد الفريد ٤٣ ج ٣ والأغانى ١٤٥ ج ١٥

فكان الأمويون يعطون بالآلف درهم ، أو بضعة آلاف يلحقونها ببعض الماشية ، أو الكسوة ، أو الخليل ، وإذا توسموا في العطاء مصلحة جعلوا الصلة عشرة آلاف ، أو عشرات الآلاف ، أو مائة ألف ، أو مئتا الآلاف كما فعل معاوية في استرضاء الناس واكتساب بني هاشم إلى حزبه ، فانه جعل صلات أبناء الصحابة ملايين يبذلها رواتب كل عام ، وهو أول من فعل ذلك من المسلمين ، غير ما كان يصلهم به من الهدايا ، لسبب أو لتفسير سبب كما فعل لما ولد لعبد الله بن جعفر غلام فبذل له ١٠٠٠٠٠ درهم على أن يسميه معاوية ، فرضى ولكنه أعطى تلك الصلة للذي بشره بالفلام (١)

واقتمدى بمعاوية من خلفه من الأمويين وأسرهم ، واشتهر من هؤلاء آل المهلب بالسخاء في الدولة الأموية كما اشتهر البرامكة في الدولة العباسية (٢) . ومن أسخياء عمالهم خالد القسري ، والحجاج بن يوسف ، إذا مست الحاجة إلى السخاء ، فالحجاج أعطى للذي توسط في زواجه بهند بنت أسماء ثلاثين غلاما مع كل غلام عشرة آلاف درهم وثلاثين جارية مع كل جارية تحت من ثياب وغير ذلك (٣) وكان سعيد بن العاص لا يرسل إلى أحد هدية مع عبد إلا كان العبد في جلته (٤) .

أما العباسيون فكانت الثروة في أيديهم أوفر ، فبذلت أعطيتهم عشرات الملايين من الدراهم ، وأول من أعطى هذا القدر منهم المنصور (٥) ، ثم صاروا يهبون الضياع وخراج البلاد ، أو يوقرون الزوارق ذهباً أو فضة ، أو يهدون الغلمان يحملون بدر المال ، أو يرسلون الجائزة على مئات من الدواب ، أو يولون الولايات والأعمال وتزداد جوائزهم إذا استخفهم الطرب ، أو استنزهم الإطراء ، فقد ولي السفاح رجلا الأهواز بقصيدة (٦) والغالب أن يكون سخاؤهم لفرض سياسي يعود نفعه على الدولة كما فعل المنصور إذ أعطى في يوم واحد عشرة ملايين درهم ، فرقها في أعمامه ، ووجوه قواده ، ليقطع ألسنتهم عن مقاومته . ولما تولى ابنه المهدي استكتب أسماء أولاد المهاجرين والأنصار ، وجلس مجلسا علما فرق فيه ٣٠٠٠٠٠٠ درهم ، وقرّر لكل واحد من أهل بيته ٦٠٠٠ درهم كل سنة (٧) ، وأعطى المغيرة بن حبيب ألف فرضة يضعها حيث شاء (٨) وقرّر الرشيد في يوم واحد ١٠٠٠٠٠٠ دينار (٩) ، وطرب يوما فتر على الناس ٦٠٠٠٠٠٠ درهم (١٠) ، وأعطى الهادي لعبد الملك بن مالك صاحب شرطة أبيه مالا أرسله إليه على ٤٠٠ بغل موقرة دراهم (١١) ، وأعطى الأمين إلى سليمان بن أبي جعفر مليون درهم (١٢) ، واختص الأمين من أساليب السخاء بأنه كان يأمر بإيقار زورق الطالب ذهباً أو فضة ، وكان قصره على شاطئ دجلة ، فإذا جاءه شاعر ، أو طالب في زورق وأخذته الأربحية ، أو استخفه الطرب ، قال : أوقروا زورق هذا ذهباً أو فضة ، ولما كانوا يضعون ذلك ، والغالب أن يموضوا عنه مبلغ من المال كما فعلوا بلقي محمد التيمي ، فانه مدح الأمين بقصيدة أطربته ، فأمر الفضل بن الربيع أن يوقر زورقه مالا ، فقال نعم ياسيدي ، فلما طالبه التيمي بذلك . قال له الفضل : أنت مجنون من أين لنا ما يملأ زورقك ؟ ، ثم صالحه على ١٠٠٠٠٠ درهم (١٣) ، وأجاز المأمون طيبه بمليون درهم وألف كحفظة (١٤) (كذا) ، وقرّر المأمون في ساعة ٢٦٠٠٠٠٠ درهم ، ومدحه اعرابي فأجازه بثلاثين ألف دينار (١٥) ، وكان المتوكل يهب القطائع جوائز على المدح (١٦) ، وقس على ذلك هدايا سائر الخلفاء اه

- (١) الأغاني ٧١ ج ١١ (٢) ابن خلكان ٢٦٦ ج ٢ (٣) الأغاني ١٣٠ ج ١ (٤) الفرج بعد الشدة ٣٣ ج ٢ (٥) لطائف المعارف ١٦ (٦) فوات الوفيات ٢٠ ج ١ (٧) سير الملوك ٦٥ و ٦٦ (٨) الأغاني ٩٨ ج ١٨ (٩) المستطرف ١٣٥ ج ١ (١٠) الأغاني ٨٨ ج ٩ و ١٢٤ ج ١٧ (١١) ابن الأثير ٤٣ ج ٦ (١٢) المستطرف ١٣٣ ج ١ (١٣) الأغاني ١١٨ ج ١٨ (١٤) طبقات الأطباء ١٢٨ ج ١ (١٥) فوات الوفيات ٢٤٠ ج ١ (١٦) الأغاني ٣ ج ١١

(٢٠) سخاء البرامكة

سمع المأمون بشيخ يأتي خزانات البرامكة ، ويبيكي وينتحب طويلا ، ثم يفسد شعرا برئيسهم به وينصرف فبعث في طلبه ، فلما حضر اتهره الخليفة وسأله من هو ، وبم استحق البرامكة منه ما صنع ؟ فقال الرجل وهو غير هائب : للبرامكة عندي أباد خضرة ، فان أمر أمير المؤمنين حدثته ببعضها ، فقال : هات ، فقال أنا المنذر بن المغيرة الدمشقي ، نشأت في نعمة فزالت حتى وصلت إلى بيع داري ، وأملقت إلى غاية ، فأشير علي بقصد البرامكة ، فخرجت إلى بغداد ، ومعي نيف وعشرون امرأة وصبيا ، فدخلت بهم إلى مسجد ببغداد ، ثم خرجت وتركتهم جياعا لانفقة لهم ، فررت بمسجد فيه جماعة عليهم أحسن زي ، فجلست معهم أردد في صدري ما أخاطبهم به ، فتجيد نفسي عن ذل المسألة ، واذا خادم قد أزعج القوم ، فقاموا ، فقامت معهم ، ودخلوا دارا كبيرة فدخلت ، فاذا يحيى بن خالد على دكة وسط بستان ، جلسوا وجلست ، وكنا مائة رجل ورجل ، فخرج مائة خادم في يد كل خادم منهم بحجرة ذهب ، فيها قطعة عنبر ، فقبضوا ، وأقبل يحيى على القاضي ، وقال : زوج ابن عمي هذا بابنتي عائشة ، فخطب وعقد النكاح ، وأخذنا الثار من فئات المسك ، وبنادق العنبر ، وتمائيل التذ ، فالتقط الناس ، والتقطت ، ثم جاءنا الخدم في يد كل واحد منهم صينية فضة ، فيها ألف دينار مخلوطة بالمسك ، فوضع بين يدي كل واحد واحدة ، فأقبل كل واحد يأخذ الدنانير في كفه ، والصنية تحت إبطه ، ويخرج ، فبقيت وحدي ، لأجسر أفسل ذلك ، فغمزني بعض الخدم ، وقال خذها وقم ، فأخذتها وقت ، وجعلت أمشي وألثفت خوفا من أن تؤخذ مني ، ويحيى يلاحظني من حيث لا أظن ، فلما قربت السرردت فيئت من الصينية ، فجئته فأمرني بالجلوس ، فجلست ، فسألني عن حال ، فحدثته عن قصتي ، فبكي ، ثم قال علي بموسى ، جاءه ، فقال : يا بني هذا رجل من أولادنا ، قد رمته الأيام بصرفها ، فغذه إليك فأخبطه بنفسك ، فأخذني وخلع علي ، وأمرني بحفظ الصينية لي ، فكنت في ألد عيش يومي وليلتي ، ثم استدعى أخاه العباس ، وقال : إن الوزير قد سلم إلي هذا ، وأريد الركوب إلى دار أمير المؤمنين ، فليكن عندك اليوم ، فكان يومي مثل أمس ، فأقبلوا يتداولوني وأنا قلق بأمر عيالي ولا أتجاسر أن أذكرهم ، فلما كان في اليوم العاشر أدخلت علي الفضل بن يحيى ، فأقت عنده يومي وليلتي ، فلما أصبحت جاءني خادم ، فقال : قم إلى عيالك وصبيانك ، فقلت : إنا لله ذهبت الصنية وما فيها ، فليت هذا كان من أول يوم ، وقت والخدام يشي بين يدي ، فأخرجني من الدار ، فزاد ما بي ، ثم أدخلني إلى دار كان الشمس تطلع في جوانبها وفيها من صنوف الآلات والفرش ، فلما توسطتها رأيت عيالي يرتعون في الديباج والستور ، وقد حل إليهم مائة ألف درهم وعشرة آلاف دينار ، وسلم إلي الخادم صكا باسم « ضيعتين جليلتين » ، وقال : هذه الدار وما فيها والضياع لك ، فأقت مع البرامكة في أخفض عيش إلى الآن ، ثم قصدتني عمرو بن مسعدة في الضيعتين والزمني من خراجهما ما لا يني به دخلهما ، فكلما لحقتي نائبة قصدت دورهم فبكي ، فاستدعى المأمون عمرو بن مسعدة وأمره أن يرد علي الرجل ما استخرج منه ويقرر خراجه علي ما كان في أيام البرامكة ، فبكي الشيخ بكاء شديدا ، فقال له المأمون : ألم أستاذ بك جيلا . فقال : بلى ولكن هذا من بركة البرامكة ، فقال امض مصاحبا فان الوفاء مبارك ، وحسن العهد من الإيمان (١) اه

(٢١) السخاء على الشعراء

أما الرشيد فأعطى مروان كما كان يعطيه المهدي أي مائة ألف درهم (٢) ، وأعطاه مرة ٥٠٠ درهم

(١) الفرج بعد الشدة ٢٢ ج ٢ وسير الملوك ١١١ والآنليدي ١٣٢ - (٢) الأغاني ١٩ ج ١٢

درهم وعشرة من الرقيق ، وكان يعطى أبا العتاهية راتباً سنوياً مقداره ٥٠٠٠٠ درهم غير الجوائز والمعونات (١) ، وفاقهم المتوكل في ذلك ، لأنه أعطى حسين بن الضحاك ألف دينار عن كل بيت من قصيدة قاطار هو أول من أعطى ذلك (٢) ، وكان المعتصم إذا أعجبه قول الشاعر ملاً فنه جوهرًا ، وقد سبقه إلى ذلك يزيد بن عبد الملك (٣) .

وتشبه الوزراء والأمراء بالخلفاء ، فكان خالد القسرى يجلس للشعراء في يوم معين ويبيحهم ، وكذلك آل المهلب فانهم فرضوا لهم الأغطية والجوائز (٤) ، أما في الدولة العباسية فالبرامكة لم يدخروا وسعاً في إجازة الشعراء ، وخصوصاً الفضل بن يحيى ، وقد قال فيه بعضهم :

مالتينا من جود فضل بن يحيى * ترك الناس كلهم شعراء (٥)

وكان أبوه يحيى إذا لقيه شاعر ولم يكن معه مال أعطاه دابته (٦) ، وقد فاق البرامكة الخلفاء في إجازة الشعراء ، فقال شاعرهم ابن الملاحق على قصيدة واحدة مثل مانالله مروان بن أبي حفصة من الرشيد كل عمره (٧) ، وقس على ذلك سخاء سائر الوزراء والأمراء فان يزيد بن مزيد أعطى نصف ماله لشاعر (٨) ويقال نحو ذلك في سخائهم على المغنين ، فقد أعطى المهدي دجنان المغني في ليلة واحدة ٥٠٠٠٠ دينار ، لأنه أطربه ، وأعطى الأمين اسحق الموصلي ١٠٠٠٠٠٠ درهم ، لأنه غناه شعراً في مدحه ، فحملها إلى داره مائة فراس (٩) ، وكان الهادي يجري على ابراهيم الموصلي عشرة آلاف درهم في الشهر سوى صلته ، أما الرشيد فكان إذا طرب وهب وجاد حتى ولي اسماعيل بن صالح مصر لأنه أطربه بفنائه (١٠) وأخبار الشعراء والمغنين كثيرة فلانطيل بها اه

(٢٢) التهنك

وطبيعيّ فيما قدمناه من الحضارة والترّف أن يتورها شيء من التهنك والفتحاء ، وإن كان ذلك لا يتخلو منه قوم مهما بلغ من بعدهم عن الحضارة ولكنه يكثر غالباً في المتحضرين ، لسكون خواطرهم وتوفر أسباب الرغد والتنم عندهم ، كان في جاهلية العرب جماعة من البغايا لم يأت يتنكبها الفتيان ، وكان بعض الناس يكرهون إمامهم على البغاء يتغنون عرض الدنيا (١١) ، ولكن ذلك شأن الحضرمين ، لأن البدو أقرب إلى صحة الآداب ، فاعتبركم تكون أسباب التهنك أو فر في المدن الكبرى حيث تنزاحم الأقدام ، وتتوفر الثروة ، وتكثر الجوارى ، ويتفشى الفناء والمسكر كما كان شأن بغداد وقرطبة والقاهرة والفسطاط في إبان ذلك التمتد ، فلا غرو إذا نفست الفتحاء فيها ، ولا سيما في العصور الوسطى ، حتى صار البغاء صناعة عليها رئيس يحتم إليه البغايا عند الحاجة (١٢) ، وتفننوا في ترويج تلك البضاعة بتصوير النساء على جدران الحمامات (١٣) ، وأصبح أهل القصف من الأغنياء يصوّرون حظاياهم على جدران منازلهم كما فعل ابن طولون ، وكان الحكام العقلاء يبذلون جهدهم في منع الفتحاء ، ويقاومون تيارها بما في إمكانهم (١٤) ، ولما هجروا عن كفت أذاها بالقوة ضربوا عليها ضرائب يدفعها أصحابها مثل سائر التجارات (١٥) .

- (١) الأغاني ١٥٧ ج ٣ (٢) الأغاني ١٨٤ ج ٦ (٣) الأغاني ١٧٤ ج ٦ و ١٤٧ ج ١
 (٤) الأغاني ١٦٤ ج ١١ (٥) ابن خلكان ٢١١ ج ١ (٦) الأغاني ٨ ج ٥ (٧) الأغاني ٧٣ ج ٢٠
 (٨) ابن خلكان ٢٨٥ ج ٢ (٩) الأغاني ٩٩ و ١٤٢ ج ٥ (١٠) حلبة الكميّ ٦٣ و ٦٤
 (١١) العقد الفريد ٢ ج ٣ (١٢) الفرج بعد الشدة ١٤٣ ج ٢ (١٣) ابن خلكان ١٢٧ ج ٢
 ونفح الطيب ٨٦٠ ج ٢ (١٤) ابن الأثير ٩٥ ج ١٠ و ٢١٥ ج ١١ والمقرئزي ٣١٦ ج ١
 (١٥) المقرئزي ٨٩ ج ١

وأقبح ماظهر من التهنك في أثناء هذا التمدن مغازلة الفلمان وتسربهم ، وظهر ذلك على الخصوص في أيام الأمين ، وتسكأثر بشكأثر غلمان الترك والروم من أيام المعتصم ، وفيهم الأرقاء بالأسر أو بالشراء ، وتسابق الناس إلى اقتنائهم كما تسابقوا إلى اقتناء الجوارى وغالوا في تزيينهم وتطيينهم ، وكانوا يحسونهم ليأمنوا قديهم على نساءهم وجواريتهم ، وفشا حب الفلمان في أهل الدولة بمصر وتفزك بهم الشعراء (١) حتى غارت النساء من ذلك ، فعمدن إلى التشبه بالفلمان في اللباس والقيافة ليستملن قلوب الرجال (٢)

وكثرة الجوارى في بعض التصورجرهن إلى التفنن بأساليب الفحشاء ، وربما اتخذت كل جارية خصيا لنفسها كالزوج ، كما فعلت جوارى خناروية صاحب مصر (٣) ، حتى النساء الشريفات فأن قعودهن عن الزواج لعدم وجودالأ كفاء ، وألسباب أخركان يجرهن إلى مثل ذلك ، فتكأثر الفساد فيهن لقلة التزوج (٤)

ذكروا أن ابنة الاخشيد صاحب مصر اشترت جارية لتمتع بها ، وبلغ العز لدين الله الفاطمي ذلك ، وكان لايزال في القرب يتحفز للوثوب على مصر ويخاف الفشل ، فلما بلغه ما فعلته ابنة الاخشيد استبشر ، وقال : هذا دليل السقوط ، وجند على مصر وفتحها ، والعفاف سياج العمران .

(٢٣) — شكل المجلس وفرشه

وقس على ذلك سائرما أدخلوه من مظاهر الأبهة من الطراز ، وقش الأشعار في صدورالمجالس ، وفرش الديباج والخز اه

(٢٤) احتفالات الأعراس ونحوها

فلاحتفال بالأعراس قلب على أحوال شتى ترجع إلى نحو المشهور من الاحتفال بأعراس المسلمين في مصر الآن مع اعتبار عوائد البلاد وتفاوت الثروة ، ونأني بمثال من أبلغ مايعرف من التناهي بالبذخ في مثل هذه الحال ، فنذكر احتفالين اشتهرا في تاريخ الاسلام : الأول زفاف خديجة بنت الحسن بن سهل المسماة بوران إلى الخليفة المأمون ، احتفلوا به في فم الصلح احتفالاً لم يسبق له مثيل ، نثرالحسن فيه على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق المسك ، فيها رقاغ بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك ، فكانت البندقة اذاوقعت في يدالرجل فتحها ، فيقرأ ما في الرقعة ، فاذاعلم ما فيها مضى إلى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها إليه ويسلم ما فيها سواء كان ضيعة ، أو ملكاً آخر ، أو فرساً ، أو جارية ، أو عملاًوكا ، ثم نثرعلى سائر طبقات الناس الدينانيروالدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر غير ما أنفقه على المأمون وقواده وأصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه ، وكانوا خلقاً لا يحصى ، حتى على الجمالين والمكارية والملاحين ، وكل من ضمه عسكريه ، ذكروا انه خدم في ذلك الاحتفال ٣٦٠٠٠ ملاح ، ونقد الحطب يوماً فأوقدوا تحت القصور الخيش مغموساً في الزيت ، ولما كانت ليلة البناء وجلت بوران على المأمون فرش لها حصير من الذهب ، وجيء بمكتل مرصع بالجواهر فيه درر كبر نثرت على النساء وفيهن زبيدة وجدونة بنت الرشيد ، فما مست لإحداهن من الدر شيئا ، فقال المأمون شرفن أبا محمد وأكرمته ، فذت كل واحدة منهن يدها فأخذت درة ، فبقي سائرالدر يالوح على ذلك الحصير الذهب ويتلأ ، فقال المأمون : قاتل الله الحسن بن هانيء كأنه قد رأى هذا حيث يقول :

كأن صفري وكبرى من فواقعها * حصباء درء على أرض من الذهب

(١) تزيين الأسواق ١٦٣ (٢) المقرئى ١٠٤ ج ٢ (٣) ابن الأثير ١٨٨ ج ٧

(٤) الفرج بعد الشدة ٦١ ج ٢

وكانت في المجلس شعبة عنبر فيها مائة رطل ، فضج المأمون من دنائها ، فعملت له مثل من التمتع ، فكان الليل مدة مقامه فيه كالتنهار ، وبلغت نفقة هذا الاحتفال ٥٠٠٠٠٠٠٠ درهم ، وأمر المأمون للحسن بن سهل عند منصرفه بمبلغ ١٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم وأقطعه فم الصلح ، جلس الحسن وفرق المال على قواده وأصحابه وحشمه ، وأطلق له خراج فارس وكورالاهواز مدة سنة ، وجاء المأمون إلى عروسه في الليلة التالية ، فنثرت عليه جدتها ألف درة كانت في صنية ذهب (١) وغير ذلك مما يفوق طور التصديق . والاحتفال الثاني احتفله المتوكل على الله حين ظهر ابنه المعتز بالوضع المعروف بركوازا ، وما جرى فيه انه جلس بعد فراغ القواد والأكابر من الأكل ومدت بين يديه مرافيع ذهب مرصعة بالجواهر ، وعليها أمثلة من العنبر والنّد والمسك المعجون على جميع الصور ، وجعلت بساطا ممدودا ، وأحضرت القواد والجلساء وأصحاب المراتب ، فوضعت بين أيديهم صواني الذهب مرصعة بأصناف الجواهر من الجانيين ، وبين السباطين فرجة ، وجاء القراشون بزناييل قد غشيت بالإدم بملاوة دراهم ودنانير نصفين ، فصبّت في الفرجة حتى ارتفعت على الصواني ، وأمر الحاضرون أن يشربوا ، وأن يتنقل كل من شرب من تلك الدنانير بثلاث حفنات ما حلت يده وكلما خف موضع صبّ عليه من الزناييل حتى يردّ إلى حالته ، ووقف غلمان في آخر المجلس ، فصحوا : ان أمير المؤمنين يقول لكم ليأخذ من شاء ماشاء ، فدّ الناس أيديهم إلى المال فأخذوه ، وكان الرجل يثقله مامعه فيخرج به ، فيسلمه إلى غلمانه ويرجع إلى مكانه ، ولما تقوّض المجلس خلع على الناس ألف خلعة ، وحلوا على ألف مركب بالذهب والفضة ، وأعتق ألف نسمة (٢) .

وقس على ذلك احتفال الخليفة المقتدى بالله سنة ٤٨٠ هجرية لما زفت إليه بنت السلطان ملكشاه وحمل جهازها إلى دار الخلافة (٣) ، وأما الاحتفال بتتويج السلاطين والبيعة فقد ذكرنا أمثلة منه في الجزء الأول من هذا الكتاب (تاريخ التمدّن الاسلامي) صفحة ٩١ و١١٧ و١١٨ هـ .

(٢٥) استقبال الوفود

أما استقبال الوفود فقد كان نفعا يظهر به عزّ الاسلام ، ولا سيما اذا كان القادمون من وفود الدول غير الاسلامية من الروم ، أو الهند ، أو الافرنج ، والاحتفال بذلك يختلف باختلاف الأحوال ، نذكر من أمثله احتفال المقتدر العباسي برسل جايوه من ملك الروم سنة ٣٠٥ هجرية ، فانه استقبلهم في دار الشجرة التي تقم ذكراها ، وعجى لهم الجيوش ، وصفت الدار بالأسلحة ، وأنواع الزينة ، وكانت جلة العساكر المصفوفة حينئذ ١٦٠٠٠٠ رجل بين راكب وواقف ، ووقف الغلمان الحجرية بالزينة والمناطق المحلاة ، وكانوا اثنين وعشرين ألفا ، ووقف الخدم والخصيان كذلك وعددهم سبعة آلاف منهم ٤٠٠٠ خادم أبيض و ٣٠٠٠ خادم أسود ، ووقف الحجاب وكانوا سبعمائه حاجب ، وزينت المراكب والزوارق في دجلة أعظم زينة ، وزينت دار الخلافة ، وكانت جلة الستور المعلقة عليها ٣٨٠٠٠ ستر منها ديباج مذهب ١٢٠٥٠ ستر ، وكانت جلة البساط ٢٢٠٠٠ بساط ، واستعرضوا مائة سبع مع مائة سبع ، وكان في جلة الزينة الشجرة الذهب والفضة التي تشتمل على ثمانية عشر غصنا من الذهب والفضة ، فكانت أغصانها تمايل بحركات موضوعة ، وعلى الأغصان طيور وعصافير مختلفة من الذهب والفضة تصفر بحركات مرتبة كما وصفناها في محلها ، فشهد الرّسل من العظمة ما يطول شرحه (٤) انتهى ما أردته من كتاب « تاريخ التمدّن الاسلامي » والمجد لله رب العالمين .

(١) لطائف المعارف ٧٣ وابن خلكان ٩٣ ج ١ (٢) لطائف المعارف ٧٤ (٣) ابن الأثير ٦٥ ج ١٠

(٤) أبو الفداء ٧٣ ج ٢ وابن السامى ٧٥

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : أما الآن فقد أوفيت القول حقه ، وأصبح ما كان مجرد خيال واضح الحقيقة ظاهراً للعيان ، إذن على المسلمين بعدنا أن بذروا الخطأ الذي وقع فيه آباؤنا الأولون ، ويقبوا دولهم على حفظ صحة الأبدان والعقول ، وترك الفضول ، والاهلكوا كما هلك الأولون ، ودلوا كما دلّ الأقدمون ، وإذا اتبعت هذا المقام بما يلقي عليه شعاعاً من نور العلم ، فتبين ما حصل لبعض الملوك الذين تربوا تربية الترف والنعيم ، وهل جنودهم وأعدائهم حفظوا عهدهم ؟ أم كانوا أول الفاتكين بهم ؟ ومات أكثرهم في ريعان شبابهم ، فقلت سأفعل إن شاء الله ، انظر :

عقاب الأمراء المسلمين بجهلهم في نفس الحياة الدنيا قبل عقاب الآخرة

ذلك أن صديق العالم الذي يذاكر في هذا التفسير سمع ماسمعه أنت أيها الأخ فهاله الأمر جدّاً ، وقال : ألهذا الحدّ وصل ملوك الاسلام ، ابن القرآن ؟ ابن الحكمة والفلسفة ؟ ابن العقول ؟ فكيف تكون أسرتهم ذهاباً مرصعة بالجواهر ، وكيف يميلون للترف والتنم ، اللهم لاحول ولاقوة إلا بالله العليّ العظيم .

ثم قال لي كما قلت أنت : أيها الصديق : ليكن في هذا المقام مقال فيه ما حلّ به هؤلاء المفسرين من الذل في الحياة الدنيا ولست أكتفي بأن تذكرنا أن دولهم ذهبت ، وعزّتهم اختفى ، بل أنا أرجو أن تبين ما حلّ بنفس هؤلاء المترفين ، فإن هذا يبين للناس أن الغفلة المستحكمة في الأمم لها عقاب في نفس الحياة ، ولعمري إن ذلك متى اتضح تماماً كان أقوى رادع ، وأعظم زاجر ، ومؤثر في الأمم بعدنا .

كيف يجهلون علم الصحة ، وكيف يسكرون ، وكيف يكترون من ألوان الطعام ، وكيف يتفتنون في الملاهي ؟ أجهلوا أن هذا نفسه يمنع السعادة في نفس الحياة ؟ ألم يدرسوا ، ألم يتعلموا ؟ هذا هو الجهل ، ثم إن الانغماس في اللذات هو نفسه مزيل للذكاء ، مسلط للجند على الأمراء ، فهل كان هؤلاء لا يعقلون ؟ قلت : حياك الله أرح فؤادك قليلاً ، إن المطلع على ما تقدم في ﴿سورة ص﴾ من الكلام على تربية الأمراء والجند عند آية : « باداود إنا جعلناك خليفة في الأرض الخ » وعلى حفظ الصحة في الكلام على قصة آدم هناك يعرف علم الصحة عند أطباء زماننا في أوروبا ، وبراهها موافقة أشدّ الموافقة لسيرة النبي ﷺ والخلفاء الراشدين في بساطة طعامهم ، وأن الذين يتجاوزون هذه السيرة أذلاء في نفس حياتنا الدنيا ، وهالك ما طلبت من الأمثلة على ذلك :

﴿أولاً﴾ جاء في كتاب « مروج الذهب » للسعودي ما نصه : « حدث البصريّ » ، قال : اجتمعنا ذات يوم مع السدّاء في مجلس المتوكل فتذاكرنا أمر السيف فقال بعض من حضر : بلغني بأمر المؤمنين أنه وقع عند رجل من أهل البصرة سيف من الهند ليس له نظير ولم ير مثله ، فأمر المتوكل بكتاب إلى عامل البصرة يطلبه بشرائه بما بلغ فنفتت الكتب على البريد ، وورد جواب عامل البصرة بأن السيف اشتراه رجل من أهل اليمن ، فأمر المتوكل بالبعث إلى اليمن بطلب السيف وابتياعه فنفتت الكتب بذلك ، قال البصريّ : فيدنا نحن عند المتوكل إذ دخل عليه عبيد الله والسيف معه ، وعرفه أنه أتبع من صاحبه باليمن بشرة آلاف درهم ، فسرّ بوجوده ، وجد الله على ماسهل من أمره ، وانتشاء فاستحسنه ، ونكلم كل واحد منا بما يحب ، وجعل له تحت نبي فراشه ، فلما كان من الغداة قال للفتح اطلب لي غلاماً تتق بنجدته وشجاعته أضع له هذا السيف ليكون واقفاً به على رأسي لا يفارقني في كل يوم مادمت جالسا قال فلم يستم الكلام حتى أقبل باغرا التركيّ فقال الفتح يا أمير المؤمنين هذا باغرا التركيّ قد وصف لي بالشجاعة والبسالة وهو يصلح لما أراده أمير المؤمنين ، فدعا به المتوكل ، فدفع إليه السيف وأمره بما أراد وتقدّم أن يزداد في مرتبته وأن يضعف له الرزق ، قال البصريّ : فواته ما انتضى ذلك السيف ولا خرج من عنقه من الوقت الذي دفع

إليه إلا في الليلة التي ضربه فيها باغر بذلك السيف . قال البصري : لقد رأيت من المتوكل في الليلة التي قتل فيها عجا ، وذلك أننا نذاكرنا أمر الكبر وما كانت تستعمله الملوك من الجيرية ، فجعلنا نحوض في ذلك وهو يتبرأ منه ، ثم حوّل وجهه إلى القبلة فسجد ، وغفر وجهه بالتراب خضوعاً لله عزّ وجل ، ثم أخذ من ذلك التراب ، فنثره في لحية ورأسه ، وقال : إنما أنا عبد الله ، وأن من صار إلى التراب لحقني أن يتواضع ولا يتكبر ، قال البصري : فتطيرت له من ذلك ، وأنكرت ما فصله من نثره التراب على رأسه ولحيته ، ثم قعد للشراب ، فلما عمل فيه غنى من حضر من المغنين صوتاً استحسنته ، ثم التفت إلى الفتح فقال يا فتى ما بقي أحد سبغ هذا الصوت من مخارق غبرى وغيرك ، ثم أقبل على البكاء ، قال البصري : فتطيرت من بكائه ، وقلت هذه ثانية ، فأنا في ذلك إذ أقبل خادم من خدم فتيحة ومعه منديل وفيه خلعة وجهت بها إليه فتبصّط فقال له الرسول يا أمير المؤمنين تقول لك فتيحة اني استعملت هذه الخلعة لأمبر المؤمنين واستحسنتها ووجهت بها لتلبسها ، قال فإذا فيه دراعة حراء لم أر مثلها قط ومطرف خز أجرك أنه دبتني من رقتي ، قال فلبس الخلعة والتحف المطرف ، قال فأتى على ذلك إذ تحرك المتوكل فيه وقد كان التفت عليه المطرف فجذبه جذبه نظره من طرفه إلى طرفه ، قال فأخذه ولفه ، ودفعه إلى خادم فتيحة الذي جاءه بالخلعة ، وقال : قل لها احتفظي بهذا المطرف عندك ليكون كفناً لي عند وفاتي ، فقلت في نفسي . إنا لله وأنا إليه راجعون ، انقضت والله المدة وسكر المتوكل سكرًا شديداً ، قال : وكان من عادته أنه إذا تمايل عند سكره أن يقيمه الخدم الذين عند رأسه قال فبينما نحن كذلك ومضى نحو ثلاث ساعات من الليل إذ أقبل باغر ومعه عشرة نفر من الأتراك وهم مثثمون والسيوف في أيديهم تبرق في ضوء ذلك الشمع ، فهجموا علينا وأقبلوا نحو المتوكل حتى صعد باغر وآخر معه من الأتراك على السرير فصاح بهم الفتح ويلكم مولاكم ، فلما رأهم القلمان ومن كان حاضراً من الجلّساء والتدماة تطايروا على وجوههم فلم يبق أحد في المجلس غير الفتح وهو يحاربهم ويمانهم . قال البصري : فسمعت صيحة المتوكل وقد ضربه باغر بالسيف الذي كان المتوكل دفعه إليه على جانبه الأيمن ففقدته إلى خصره ، ثم ناه على جانبه الأيسر ففعل مثل ذلك ، وأقبل الفتح يمانهم عنه ، فبجّه واحد منهم بالسيف الذي كان معه في بطنه فأخرجه من مته وهو صابر لا يفتنح ولا يزول ، قال البصري : فما رأيت أحداً كان أقوى نفساً ولا أكرم منه ، ثم طرح بنفسه على المتوكل فأتانا جميعاً ، فلما في البساط الذي قتلا فيه وطرحا ناحية ، فلم يزالا على حالتهما في ليلتهما وعامة نهارهما حتى استقرت الخلافة للنتصر ، فأمر بهما فدفنا جميعاً وقيل ان فتيحة كفتته بذلك المطرف المحرق بعينه ، وكانت سنة ٤١ سنة اه

ثانياً - الكلام على المنتصر بالله بعد المتوكل

الذي تولى الملك سنة ٢٤٧ وسنه ٢٥ سنة ، تولى الخلافة نصف سنة لا غير

قال المسعودي في « مروج الذهب » : إن الخليفة المنتصر كان يلعب الصولجان في الميدان ، فانصرف وهو عرق فدخل الحمام ونام في الباذنج ، فضر به الهواء ، وركبته حصى هائلة ، فدخل عليه أحد بن الخصب فقال يا سيدي أنت متفلسف وحكيم الزمان ، تنزل من الركوب تبعاً فتدخل الحمام ، ثم تخرج عرقاً فتنام في الباذنج ، فقال له المنتصر : أتخاف أن أموت ؟ رأيت في المنام البارحة أننا أنا في فقال لي : تعيش خسا وعشرين سنة ، فعلت أن ذلك بشارة في المستقبل من عمري ، وأنى أبقى في الخلافة هذه المدة ، قال فأت في اليوم الثالث ، فنظروا فإذا هو قد استوفى خسا وعشرين سنة .

وقد قيل ان الصنفوري الطيب سمه في مشراط حججه به ، وقد كان عزم على تفريق جمع الأتراك ،

فأخرج وصيفا في جمع كثير إلى غزاة الصانعة بطرسوس ، ونظر يوما إلى بقا الصغير وقد أقبل في القصر ، وحوله جماعة من الأتراك ، فأقبل على الفضل بن المأمون ، فقال : قتلني الله ان لم أقتلهم ، وأفرق جمعهم بقتلهم المتوكل على الله ، فلما نظر الأتراك إلى مايفعل بهم وماقد عزم عليه وجدوا منه القرصة ، وقد شكوا ذات يوم حرارة ، فأراد الحجامة ، فخرج له من الدم ثلثمائة درهم لما كان في المبضع ، وشرب شربة بعد ذلك خلقت قواه ، ويقال ان السم كان في مبضع الطبيب حين فصدته ، وقد ذكر ابن أبي الدنيا عن عبد الملك ابن سليمان بن أبي جعفر ، قال : رأيت في نومي المتوكل والفتح بن خاقان ، وقد أحاطت بهما نار ، وقد جاء محمد المنتصر ، فاستأذن عليهما ، ففتح الوصول ، ثم أقبل المتوكل على ، فقال : يا عبد الملك قل لمحمد بالكأس الذي سقيننا تشرب ، قال : فلما أصبحت غدوت على المنتصر ، فوجدته محموما ، فواظبت على عيادته فسمعت في آخر علقته يقول : « محملنا فعوجلنا » فمات من ذلك المرض اه

فلما سمع صاحبي ذلك ، قال : إن هذا وأمثاله هو الذي يفهمنا قوله تعالى : « فلاننجيبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وترهق أنفسهم » . فقلت :

ثالثا - الكلام على المستعين بالله

لما كان في شهر رمضان من هذه السنة ، وهي سنة اثنتين وخسين ومائتين ، بعث المعتز بالله سعيد بن صالح الحاجب ليلقي للمستعين ، وقد كان في جملة من حمله من واسط ، فلقية سعيد ، وقد قرب من سامرا فقتله واحترأ رأسه ، وحمله إلى المعتز بالله ، وترك جثته ملقاة على الطريق ، حتى تولى دفنها جماعة من العامة ، وكانت وفاة المستعين بالله يوم الأربعاء لست خلون من شوال سنة اثنتين وخسين ومائتين ، وهو ابن خمس وثلاثين سنة ، وذكر شاهك الخادم ، قال : كنت عديلا للمستعين عند أشخاص المعتزلة إلى سامرا ونحن في عمادية ، فلما وصل إلى القاطول تلقاه جيش كثير ، فقال يا شاهك انظر من رئيس القوم فان كان سعيدا الحاجب فقد هلكت ، فلما عاينته قلت هو والله سعيد ، فقال إنا لله وأنا إليه راجعون ، ذهب والله نفسي وجعل يبكي ، فلما قرب سعيد منه جعل يقنعه بالسوط ، ثم أضجعه وقعد على صدره ، واحترأ رأسه وحمله على ما ذكرنا ، واستقامت الامور للمعتز ، واجتمعت الكلمة عليه اه

رابعا : الكلام على المعتز وقتله

قال المسعودي : انه لما رأى الأتراك من إقدام المعتز على قتل رؤسائهم ، واعماله الحيلة في فنائهم ، وانه قد اصطنع المغاربة والفرعنة دونهم صاروا إليه بأجمعهم ، وذلك لأربع بقين من رجب سنة خمس وخسين ومائتين ، وجعلوا يقرعونه بذنوبه ويوبخونه على أفعاله وطالبوه بالأموال ، وكان المدبر لذلك صالح بن وصيف مع قواد الأتراك فليح وأنكر أن يكون قبله شيء من المال ، فلما حصل المعتز في أيديهم بعث إلى مدينة السلام في محمد بن الواثق الملقب بالمهتدي ، وقد كان المعتز نفاه إليها واعتقله فيها ، فأتى به في يوم وليلة إلى سامرا ، فالتقاء الأولياء في الطريق ، ودخل إلى الجوسق ، وأجاب المعتز إلى الخلع على أن يعطوه الأمان أن لا يقتل وأن يؤمنوه على نفسه وماله وولده ، وأتى محمد بن الواثق أن يقعد على سرير الملك أو يقبل البيعة حتى يرى المعتز ويسمع كلامه ، فأتى بالمعتز وعليه قميص مدنس وعلى رأسه منديل ، فلما رآه محمد بن الواثق وثب إليه فعاثقه ، وجلسا جميعا على السرير ، فقال له محمد بن الواثق : يا أخى ما هذا الأمر ؟ قال المعتز أمر

لا أطيقه ، ولا أقوم به ، ولا أصلح له ، فأراد المهتدي أن يتوسط أمره ، ويصلح الحال بينه وبين الأتراك ، فقال المعتز : لا حاجة لي فيها ، ولا يرضوني لها ، قال المهتدي : فأنا في حلّ من بيعتك ، قال : أنت في حلّ وسعة ، فلما جعله في حلّ من بيعته حوّل وجهه عنه ، فأقيم عن حضرته ، وردّ إلى محبسه ، فقتل في محبسه بعد أن خلع بستة أيام اه

خامساً : المعتمد على الله العباسي

قال المسعودي : قد كان المعتمد على الله قعد للغداء واصطبح يوم الاثنين لاحدى عشرة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين ، فلما كان عند العصر قدّم الطعام فقال ياموشكبره للوكل به ما فعلت الرؤوس بأرقابها ، وقد كان قدم من الليل أن يقدم له رأسا جلين ، وقد فصل فيهما أرقابهما فقتلنا ، وكان معه على المائدة رجل من ندمائه يعرف بقف الملقم ، ورجل آخر يعرف بخلف المضحك ، فأول من ضرب بيده إلى الرؤوس الملقم ، فانزع أذن واحد منهما ، وأما المضحك فانه يتتلع اللهازم والأعين ، فأكلوا وأكل المعتمد ، وأنعموا يومهم ، فأما الملقم صاحب اللقمة الأولى فانه تهرى في الليل ، وأما المضحك فانه مات قبل الصباح ، وأما المعتمد فأصبح ميتا ، قد لحق بالقوم ، ودخل اسماعيل بن جاد القاضي إلى المعتضد وعليه السواد فسلم عليه بالخلافة ، وكان أول من سلم عليه بها ، وحضر الشهود منهم أبو عوف والحسين بن سالم وغيرهم من العدول حتى أشرفوا على المعتمد ، ومعهم بدر غلام المعتضد يقول : هل ترون به من بأس أو أزمات جفاة وقتلته مداومته لشرب النبيذ ، فنظروا إليه ، فإذا ليس به من أثر فضل وكفن ، وحمل في تابوت قد أعد له إلى سامرا فدفن بها . وذكروا والله أعلم أن سبب وفاته أنه سقى نوعا من السم في شراهم الذي كانوا يشربونه ، وهو نوع يقال له البيش يحمل من بلاد الهند وجبال الترك والتبت ، وربما وجدوه في سنبل الطيب وهو ألوان ثلاثة وفيه خواص عجيبة اه

سادساً : المعتضد بالله بعد المعتمد

قال المسعودي : كانت وفاة المعتضد لأربع ساعات خلت من ليلة الاثنين لثمان بقين من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين في قصره المعروف بالحسني بمدينة السلام ، وقيل إن وفاته كانت بسم اسماعيل بن بلبل قبل قتله إياه ، فكان يسرى في جسده ، ومنهم من ذكر أن جسده تحلل في مسيره في طلب وصيف الخادم على ما ذكرنا ، ومنهم من رأى أن بعض جواربه سمته في منديل أعطته إياه يتنشف به ، وقيل غير ذلك مما عنه أعرضا اه

سابعاً — المقتر بالله

قتل وسنه ٣٨ سنة في سنة ٣٢٠ هجرية

وكان قتله وقت صلاة العصر في الواقعة التي كانت بينه وبين مؤنس الخادم بباب الشماسية من الجانب الشرقي ، وتولى دفن المقتر العاتق اه

ثامناً : القاهر بالله ابن المعتضد

بويح يوم الخميس ليلتين بقيتا من شوال سنة ٣٢٠ هجرية ، ثم خلع يوم الأربعاء لخمس خلون من جمادى الأولى سنة ٣٢٢ هجرية ، وسمت عيناه ، وكانت خلافته سنة وستة أشهر وستة أيام اه

تاسعا : المتقى لله

إذ بويع له بالخلافة سنة ٣٢٩ هـ وسلمت عيناه سنة ٣٣٣ هـ ، وكانت خلافته نيفا وثلاث سنين ، ولقد كان بينه وبين (تورون) التركي وقائع ، فأشهد تورون من حضره من الفقهاء والشهود ، وأعطى اليهود والموائقي بالسمع والطاعة للمتقى ، والتصرف له بين أمره ونهيه وترك الخلاف عليه ، وأخذ إليه كتب القضاة والشهود مما بذل من الإيمان وأعطى من اليهود ، وأشار بنو جندان على المتقى أن لا ينحدر ، وخوفوه من تورون وحذروه أمره فإنه لا يأمنه على نفسه ، فأبى إلا مخالفتهم والثقة بما ورد عليه من تورون ، وقد كان بنو جندان أنفقوا على المتقى نفقة واسعة عظيمة طول مقامه عندهم واجتياز بهم يكثر وصفها ويعسر علينا في التحصيل إيرادها باكثر المخبرين لنا بتحديداتها ، وانصرف الاخشيدي عن الفرات متوجها نحو مصر وانحدر المتقى في الفرات ، فلقاه أبو جعفر بن سيرار كاتب تورون بأحسن لقاء وأقام الأتراك ، ومضى في انحدره حتى دخل النهر المعروف بنهر عيسى ، وسار إلى الضيعة المعروفة بالسندرية على شاطئ هذا النهر ، فلقاه تورون هناك ، وترجل له ، ومشى بين يديه ، فأقسم عليه أن يركب ، ففعل حتى وافى به إلى المضرب الذي كان ضربه له على الشط من نهر عيسى ، وذلك على شوط من مدينة السلام ، فأقام هناك وأخذ رسلا إلى دار طاهر بلعصر المستكفي ، فلما حصل المستكفي في المضرب قبض على المتقى ، ونهب جميع ما كان معه وقبض على وزيره أبي الحسن علي بن محمد بن مقله وعلى قاضيه أحمد بن عبد الله بن اسحق ، ونهب جميع العسكر ، وانصرف القائد الذي كان الاخشيدي ضمه إلى المتقى ومن معه إلى صاحبهم ، وأحضر المستكفي فبويع له ، وبكى للمتقى ، وصاح النساء والخدم لصياحه ، فأمر تورون بضرب الدبابر حول المضرب نفخي صراخ الخدم وأدخل إلى الحضرة مسمول العينين ، وأخذ منه البردة والقضب والحمام وسلم إلى المستكفي بالله اه

عاشرا . المستكفي بالله

وقد بويع بالخلافة سنة ٣٣٣ هـ وخلع سنة ٣٣٤ هـ والذي خلعه أحمد بن بويه الديلمي ، وسلم عينيه لأنه اتهمه بمخاطبة الأعداء اه

نظام الأمم ونظام الأفراد على سنن واحد

مم قلت لصاحبي : هؤلاء هم الذين أردت أن أضرب لك المثل بهم ، وهم عشرة كاملة ليعلم المسلمون في أقطار الأرض أن نظام الدول ونظام الأفراد يسيران على وتيرة واحدة « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » .

ما الأمم إلا أفراد كثر ، إن الفرد الواحد يأكل ويشرب ويسكر ويبالغ في الشهوات ، وهو يجمل أنه يقتل نفسه يده ، ويجمل أن مطالبة نفسه له بالشهوات وبالظلم والبنى فتح باب هلاكه ، وقصر عمره وانحراف صحته .

اللهم انى لا أرى فرقا ما بين من يتعاطون السم ومن يسرفون في الشهوات . ياسبحان الله : انظر أيها الذكي في الذي كتبت في ﴿ سورة البقرة ﴾ في آية الحجر هناك ، وانظر ما يقوله أطباء أمريكا وفرنسا وانكلترا ، انظر كيف يقولون ، يقولون : « إن الحجر عقار من عقاقير جثة كهوت سامات ، والانسان متى تعاطى أى سم أحسن في نفسه بلذة ، إذن لذة الحجر ليست خاصة به بل هي حاصلة في جميع السموم ، اه
هذا كلام أطباء الأمم في عصرنا ، إذن جميع اللغات المهاجات على الناس قائلات لهم مهلكات ، فقس

على ذلك كل ما استلذ به الناس من حطام الدنيا ، إن في النفوس لسعادة يجهلها الغافلون ، ولا يحظى بها المترفون .

فقال صاحبي : ألم يكن في هؤلاء الملوك من يقتدى بالخلفاء الراشدين وبالنبي ﷺ ؟ فقلت : وهل تنفع تلك القدوة إذا فسد الزمان ؟ « رأس جل على جسم عز وخزير » . فقال : أوضح فإني لم أعرف ماذا تريد ؟ فقلت : إذا أردت إسعاد نفسك وجب عليك أن تعمم العلم والحكمة في الأمة ، ولتقرأ ما قصه الله عن موسى : « إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعل آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » ، فإنه لما رأى النار أحب أن يساعدها لعلها يساعده نفسه ، وهذه في القرآن وأمثالها مضرب أمثال لنا ، فليست هدايتي وحدي سواء أكنت ملكا أم فردا عاديا بمنغية عن هداية الأمة ، إن كل امرئ في الأرض عضو في جسم أمته ، وهذا العضو تصل آثار أمته إليه شرفا وضعة ، وعززا وذلا ، وسعادة وشقاء ، شاء أم أبى ، فأما أنى أقف وأقول سأكون على منوال أبي بكر وعمر ، وفي الوقت نفسه لم تكن التعاليم في المدارس والمعاهد على هذا النمط فإن الناس لا يعثون بما أقول . فقال : هذا كلام علم فأرجو أن تأتي فيه بيت القصيد . فقلت : هذا المهتدي بالله العباسي قد بويح به بالخلافة سنة ٢٥٥ هجرية وقتل ولم يستكمل الأربعين . هذا الخليفة قرب منه العلماء : ورفع من منازل الفقهاء ، وعمهم يبره ، وكان يقول : يا بني هاشم دعوني حتى أسلك مسلك عمر بن عبد العزيز ، فأكون فيكم مثل عمر بن عبد العزيز بنى أمية ، وقلل من اللباس والفرش والمطعم والمشرب ، وأمر بإخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن فكسرت ، وضربت دنانير ودراهم ، وعمد إلى الصور التي كانت في المجالس فمخبت ، وذبح الكباش التي كان يناطح بها بين يدي الخلفاء والديوك ، وقتل السباع المحبوسة ، ورفع بسط الديباج ، وكفل فرس لم ترد الشريعة بإباحته ، وكانت الخلفاء قبله تنفق على موائدها في كل يوم عشرة آلاف درهم ، فأزال ذلك وجعل لمائدته وسائر مؤناته في كل يوم نحو مائة درهم ، وكان يواصل الصيام ، وقيل أنه لما قتل أخرج رحل من الموضع الذي كان يأوي إليه فأصيب له سفظ مقفل فتوهموا أن فيه مالا أوجوهرا ، فلما فتح وجد فيه جبة صوف وغل ، وقيل جبة شعر ، فسألوا من كان يخدمه ، فقال كان إذا جن الليل لبسها وغل نفسه ، وكان يركع ويسجد إلى أن يدركه الصباح ، وأنه كان ينام من الليل ساعة من بعد العشاء الآخرة ، ثم يقوم وأنه سمعه بعض من كان يأنس إليه قبل أن يقتل وقد صلى المغرب ، وقد دنا من افطاره وهو يقول : « اللهم انه قد صح عن نبيك محمد ﷺ أنه قال : ثلاثة لا تحجب لهم دعوة عن الله ، دعوة الامام العادل ، وقد أجهت نفسي في العدل على رعيته ، ودعوة المظلوم ، وأنا مظلوم ، ودعوة الصائم حتى يفرط ، وأنا صائم » وجعل يدعو عليهم وأن يكفى شرهم وكانت بين المهتدي وبين بابيكيال حرب عظيم قتل فيها خلق كثير من الناس وانكشف بابيكيال واستظهر المهتدي عليه ، فخرج كمين بابيكيال على المهتدي وفيه مارجوج التركي ، فولى المهتدي وأصحابه ، ودخل سامرا مستغيثا بالعامة ، مستنصرا بالناس ، يصيح في الأسواق فلامغيت ، وأمامه أناس من الأنصار ، ففضى مؤبسا من النصر إلى دار ابن خيعونة بسامرا محتفيا ، فهاجموا عليه وعزلوه ، وجاهه منها إلى دار مارجوج ، وقيل له : أتريد أن تحمل الناس على سيرة عظيمة لم يعرفوها ، فقال : أريد أن أحلهم على سيرة الرسول ﷺ وأهل بيته والخلفاء الراشدين ، فقيل له الرسول ﷺ كان مع قوم قد زهدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم ، وأنت إنما رجالك تركي وجزري ومغربي ، وغير ذلك من أنواع الأعاجم لا يعلمون ما يجب عليهم من أمر آخرتهم ، وإنما غرضهم ما استجدوه من هذه الدنيا ، فكيف تحملهم على ما ذكرت من الواضحة فكثير منهم ومنه الكلام والمراجعة في هذا المعنى وأشباهه ثم انقادوا إليه على حسب ما ظهر للناس من ذلك ، فلما كاد الأمر أن يتم قام فيهم سليمان بن وهب الكاتب ، وقيل غيره ، وقال

هذا سوء رأى منكم ، وخطأ فى تدبيركم ، ان أعطاكم بلسانه فبئته فيكم غير هذا . قال وسياقى عليكم جميعا ويفترق جمعكم ، فلما سمعوا هذا القول استرجعوا وجامروا بالخناجر ، فكان أول من جرّحه ابن عم لبايكيال جرّحه بخنجر فى أوداجه ، وانكسب عليه فالتقم الجرح والدم يفور منه ، وأقبل بمصّ الدم حتى روى منه والتركى سكران ، فلما روى من دم المهتدى قام قائما وقد مات المهتدى ، فقال يا أصحابنا قد رويت من دم المهتدى كما رويت فى هذا اليوم من الخمر ، وقد تنوزع فيما ذكرنا من قتل المهتدى ، والأشهر ما ذكرناه من قتله بالخناجر ، ومنهم من رأى أنه عصرت مذاكيره حتى مات ، ومنهم من رأى أنه جعل بين لوحين عظيمين وشدّ بالجلال إلى أن مات ، وقيل خنقا ، وقيل كبس عليه بالبط والوسائد حتى مات ، فلما مات داروا به بنوحون ويكون عليه وندموا على ما كان منهم من قتله لما تينوا من نسكه وزهده . وبهذا تم الكلام على الفصل الأول فى آية : « أذهبتم طبيائكم فى حياتكم الدنيا الخ » والحمد لله رب العالمين

فقال صاحبي : أريد قبل أن ننقل إلى الفصل الثانى أن أرجو منك أن تشرح لى هذه الدنيا وأحوالها بقول موجز ، وكيف نراها إلى الهوان والبؤس أقرب منها إلى العزّ والسعادة ، وكيف وجدنا الفلاسفة قبل النبوة الاسلامية بعشرة قرون يقولون لنا : « إن سعادة الدنيا نفسها بترك الشهوات ، وأن الأمراء عليهم أن يكونوا زاهدين اصلحتهم هم أنفسهم واسعادهم ، وأن أرباب الدولة يجب عليهم أن لا يكون لهم متاع ولا ملك ولا يسكرون ولا يقتنون ، فإذا الذى دها هذا الانسان ؟

فقلت : أيها الصديق ، تخيل لى أن هذه الأرواح الأرضية كأنها كانت فى عوالم أخرى من عوالم الأرواح قبل حلولها فى هذه الأجسام ، وأن أهل هذه الأرض كأنهم لم يصلحوا للحياة هناك فأخرجوا من السعادة وقيل لهم : « أتم لاتصلحون إلا للحياة فى أجسام غليظة » ، فجاء بهم إلى هذه الأرض ، ومن رحمة الله انه أنزل لهم فلاسفة وحكماء يعلمونهم ، وأرسل لهم رسلا ، فهؤلاء بالعقل ، وهؤلاء بالوحى ، فيقولون لهم : يا أهل الأرض : إياكم والبطنة ، وإياكم والظلم ، وإياكم والفحشاء . وهم لم يقولوا ذلك لاسعادهم فى الآخرة فقط ، بل أرادوا لاسعادهم فى الدنيا أيضا ، فأخذ الناس بسمعون كلام هؤلاء الأنبياء كالحلفاء الراشدين رضى الله تعالى عنهم ، ثم غلب على الناس طبعهم ، فرجعوا إلى عادتهم ، ولقد مرّ بك مآله سقراط فى الجمهورية فان أهمّ علمها موافق للإسلام فى الفضيلة وقليل منه يخالف الإسلام ، لأنهم لارضى ولا نبوة عندهم ، فهذا العلم منبث من العقل ، وقد وافق الوحى والنبوة ، ولكن الناس يرجعون إلى دينهم ، ومتى رجع جيل واحد أتبعته الأجيال كلها .

هذا رأى فى هذا الانسان ، فمثل بنى آدم كمثل الذى استوفد نارا فى صحراء فلما أضاءت ماحوله ذهب النور وبقى الناس فى الظلمات وهم لا يبصرون ، فالحكمة والنبوة هما كالنار أضاءت ماحولها ، ولكن ما يكاد الأنبياء يارقون الناس حتى يرجعوا إلى أخلاقهم وأحوالهم .

هذه الأمم الاسلامية ورثت دول الروم والفرس ، واتبعت خطواتهم فى غدواتهم وروحانهم ، فما تركوا خرا ولا موائد ولا لذات ولا أوزارا وقع فيها القوم إلا اتبعوهم فيها ، سواء فى ذلك الأمويون والعباسيون والأندلسيون ، وكلما خلت أمة أتبعها أخرى حذو القذة بالقذة ، تشابهت قلوبهم ، فهم جميعا فى غمرات الجهالات غارقون ، حتى انك ترى أمتنا المصرية فى زماننا تسير على منوال العصر العباسى . ذلك أن الفرنجة ملثوا بلادنا بالخمر والحشيش والمخدرات . وأعظم ما يحزننى أن أكثر المتعلمين الذين يعيشون من خزانه حكومتنا لا يهتأ لهم طعام ولا شراب ولاسكر ولا هو إلا فى تلك الأماكن المعتدة للفسق ، وفيها الصور الداعية للشهوات وفيها الملاهى والمخازى ودور الصور المتحركة (السينما) التى لا تدرشأبالإحراك فيه الشهوات ، وأعدته للفسق

فان كان حاكما أصبح في الغالب لسا ، وان كان غنيا أضاع ثروته وهكذا . إن كثيرا من الناس في ديارنا أصبحوا في حال اختلال واختباط ، فانا لله وانا إليه راجعون . فقال : وما رأيك الآن ؟ فقلت :

﴿ أولا ﴾ أن تمتحن أشعار القرون الأولى ، وينبذ منها كل ما كان فيه رقاعة وحث على الشهوات ، ويطرح جيع الغزل المهيج الذي كان أيام السولة العباسية ، وذلك ببلجنة من علماء التريية الدارسين لعلم النفس حتى يميزوا بين الفث والسمين ، ويحرم على الشعب أن يقرأ شيئا من ذلك ، وهكذا تبحث الكتب العربية التي ورتناها عن آبائنا ويلقى منها كل بيت فيه ما يدعو إلى الشهوة ، ولو كان شاهدا على قاعدة ، فكفى جهلا وغرورا ، وكأ رأينا سقراط يعرض أشعار (هوميروس) وينقدها فلنعرض نحن أشعار المتنبي وأبي تمام والبصري والمعري ونقدها نقدا صحيحا ، ونحذف منها كل ما يخالف تهذيب شبابنا . فاذا سمعنا المعري يقول :

قالوا إله بلازمان ولامكان الأقولوا * هذا كلام له خبيء
معناه ليست لنا عقول ، واذا سمعناه يقول :

هذا جناب أبي علي * وماجنيت على أحد
ير يد بذلك احجام الناس عن التناسل بالثاني وجمود الإله في الأول ، فانا ننبذ ونحذفه ، ونحرم على الشبان قراءته . واذا سمعنا عبد الله بن المعتز يقول :

يقول العاذلون تعز عنها * واطف طيب قلبك بالسلو
وكيف وقبة منها اختلاسا * أذ من الشهامة بالعدو
أوسمعناه يقول :

إذا اجتنى وردة من خده فنه * تكوّن تحتها أخرى من الخجل
قلنا له يا ابن المعتز احفظ هذا لنفسك أنت وأشبهك ، فان حفظ هذه الآيات يدعو إلى الذكري والذكري تهيج النفس لأمثال ما سمعت ، وعلى الأمم الاسلامية أن تسقبل بذلك الجبال الطيبى في الكواكب والنبات والحيوان ، مما ملأنا به هذا التفسير وكتبنا الأخرى لفتح للشبان باب الجبال الذي لا تشوبه الشهوات ، فأما الأمم العربية آباؤنا في الشرق والأندلس فقد قتلهم الغزل ، وظنوا جهلا أن هذا يرقى النفوس ويعلم البلاغة ، وهذا حق أريد به باطل . الجبال المطلوب هو جبال السموات والأرض والنبات والحيوان وعجائب هذه الدنيا . أما الوقوف عند هذا الجبال الشهواني فهو الذي أضاع أمة العرب وأهلكها وأطمع أهل أورربا في الأندلسيين الذين انحصر عقولهم في تلك الشهوات ، وجيرانهم يستعوتون لهم سرا ، ففتكوا بهم فتكا ذريعا ، فعلى الأمم الاسلامية أن يرجعوا لأشعار آباؤهم فان أشعارهم هي التي قتلت دولتهم ، فهي إما مدح لملك ، وهذا قص ، واما غزل في امرأة ، وهذا قص آبخ ، ولبحصوها ، وليعطوا الأبناء منها ما يوافق الرقي كقول بشار بن برد :

إذا ماغضبنا غصبة مضرية * هتكنا حجاب الشمس أوقطرت دما
إذا ما أعرنا سيذا من قبيلة * ذرى منبر صلى علينا وسلما
أيها المسلمون : أنا أنذركم ان لم تفعلوا ذلك ، هاأناذا والحمد لله قد فتحت الباب فلجوه ، وادرسوا الأشعار ، ولا تقفوا ما ليس لكم به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مستولا .

﴿ ثانيا ﴾ أن لا ندع صورة من الصور (شريط السينما) تدخل بلادنا إلا اذا كانت لعلم ، أو لصناعة ،

- أولزراعة ، فأما العشق ، وأما الغرام فلا .
- (ثالثا) أن لا يجلس في المطاعم الفرنجية ، ولا يجلس إلا في مطاعم أبناء بلادنا ، فان كان ولا بد فلنعمل نحن طبقة منا ، ولنقم مقام الفرنجة في ذلك .
- (رابعا) أن نحرم على الملوك والأمراء والديريين أن يشتغلوا بغير المملكة ، ونعطيهم من مال الدولة ما يكفيهم ، فأما الاشتغال بالمال الخاص ، فهذا خطر عظيم . فقال : هذا أمر لا يقبله أحد . قلت : ليس المقام في القبول ولا عدمه ، وإنما أنا الآن في مقام النظام الكامل والناس ينظرون في أحوالهم بحسب زمانهم فيقتربون من الكمال بقدر الامكان . إن الأمة الكاملة هي التي يكون حكامها متفرغين لأعمالها فرحين برقيها فتكون لذتهم في اسعادها أعظم من السعادة بالمال آلاف الآلاف .
- (خامسا) أن نعمم التعليم للرجال والنساء .
- (سادسا) أن نضع كل متعلم فيما يستحقه بحسب استعداده .
- (سابعا) لارشوة ، لا محاباة .
- (ثامنا) أن نحرم السؤال في الدولة ، فنجمع الشحاذين ، ونعرضهم على الأطباء ، فن صلح للعمل أتينا له بعمل تحت اشرافنا ، ومن لم يصلح له أعطيناها طعاما من بيت المال اه هذا مجمل ما أريده في أم الاسلام اليوم ، والحمد لله رب العالمين .

فلما سمع ذلك صاحي . قال : لقد أوضح التاريخ العبر والمبتدأ والخبر في آية : « أذهبتم طبيباتكم في حياتكم الدنيا » وعرفنا كيف هلك الملوك وذلوا بأيدي جنودهم فأرجو أن تبين لي ثلاثة أمور : ما الذي جرى لأمم الاسلام في الشرق ؟ وهل ملوك الأندلس جرى لهم ماجرى لملوك الاسلام في الشرق ؟ وهل هلكت دولة الآخرين ودولة المتقدمين ؟ قلت : أولا إن الذي جرى لأمم الاسلام في الشرق إنما هو زوال الملك وضياع الأمة ، وذهاب ملك العرب بتاتا ، وهذا تقدم في (سورة الكهف) في آية : « إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض » ، فقد جاء التار من الشرق وعلى رأسهم جنكيزخان وخلفه ملوك منهم (هولاكو) وأذل الأمة ودمرها تدميرا لارجعة له ، وقتل الخليفة ، وقد أحضر أمامه جيع الجواهر والماس والياقوت والذهب مما لا يحصره العدّ وأراه أن هذا جاء من مخازنه وهو غافل عنه وقتله في زكية مكظوم النفس فان أردت بإصاح معرفة هذا الموضوع فاقراء هناك تحت عنوان « يأجوج ومأجوج » — (ثانيا) ان الذي جرى للأمراء الأندلس هو الذي جرى لملوك العباسيين في الشرق ، فانظر ماجاء في كتاب (غادة الأندلس) المؤلف حديثا في عصرنا ، وهذا ملخص مما فيه :

ذلك أن القائد (براقا) قابل الازفونش في رومه في الفاتيكان ، وجاء أيضا معهما دوق فينيزيا فقال له ابن اذفونش : « اعلم أيها البطل أن البابا قد استدعى بارونات أوروبا وشاورهم في استرجاع مملكة اسبانيا من العرب ، فلتكن مساعدنا لنا » . فقال براق : « إن الأسد لا يصاد إلا بالمكر والحديعة ، وقد يستعين الصيادون بالجر ، ولا يفلح الحديد إلا الحديد » . فقال دوق فينيزيا : إن جيوش البارونات تسحقهم سحقا في أقل من ملح البصر . فقال البراق : إن العرب يحافظون على دينهم وعلى حريمهم ، ولقد نفى القبيلة كلها محافظة على الشرف ، ولكن هم قوم كرام صادقون يأبون الكذب ، فهم يخدعون بسهولة بالظواهر الموهمة ، فأجعلوا بينكم وبينهم معاهدة على حرية الدين والتعليم والتجارة ، فهذه تفتح لربانكم طريقا بها يثرون التعاليم بين أطفالهم ، فان لم يتبعوا دينكم فهم على الأقل يهلون دينهم ، فيفقدون تلك الهبة الدينية

التي تحييمهم في الحرب ، فأما حربية التعليم فانها تولد لهم غلمان شؤم عليهم لأنهم يكونون مشغوفين بحب معلمهم ، ويتمدون عن محبة وطنهم ، فأما حربية التجارة فهي التي تضعع شيئا فشيئا تمسكهم بأزيائهم فضلا عن تجارة الخمر ، فهي الآن محرمة ، فتي شاعت بينهم أقدموا على المنكرات بلا مبالاة ، وفقدوا النخوة والشرف ، وضعفت منهم العقول والجسوم ، وفشا بينهم الشر ، وساءت حالهم ، وارتبكت شؤونهم ، فيساقون كالأغنام ، ولاتنس يا حضرة الدوق أن التأثق في النعمة ، والبذخ ، والاسراف في الشهوات ، وإهمال سير الآباء والجود من أقوى أسباب انحطاط الممالك القوية .

فلمعت أسرة وجه ابن أذفونش بعد أن كان يلوح عليه اليأس : وشكر برّاقا على إخلاصه . وفي الصباح اجتمع البابا ودوق فينيزيا وبارونات أوروبا ببرّاق وتحادثوا مليا وكتبوا صورة هذه الشروط وأرسلوها مع معتمدين إلى أمراء الاسلام بالأندلس ، فوصلت شروط طلب الهدنة إلى مالك بن عباد بقرطبة وقد فرغ من تحصيل مدائنه وقلاعه فدعا قواده وعمال مدائنه وأمراء أشيلية وطليلة وبلنسية ومالقة والجزيرة الخضراء وغرناطة ، حضروا بعد أيام إلى قرطبة وهم يحتالون على خيولهم ، وكان من بينهم عدى بن أبي عامر صاحب بلنسية يتبعه مائتا فارس فعال أفراسهم ذهب ابريز ، فزلوا جميعا برصانة قرطبة ، وكان مالك قد بنى بها قصرا نفعا تحيط به الحدائق والجنات ، قد جعل فيه تماثيل من فضة بأشكال الطيور والحيوانات ، تخرج من أفواهها المياه ، وفيها قال ابن زيدون من قصيدة :

قصر يقرّ العين منه ناظر * بهج الجوانب لومشى لاختالا

فقبلوا شروط الصلح فعرضهم قيس بن مصعب ، وبقى الأمراء في ضيافة مالك بن عباد شهرا :

ومن رمى غنما في أرض مسبعة * ونام عنها تولى رعيها الأسد

فلما انقضت أيام الولايم رجع الأمراء إلى بلادهم إلا عدى بن أبي عامر صاحب بلنسية فإنه بقي مع الأمير يقضيان الزمن في اللهو والصيد والخمر وهكذا بقية الأمراء وشعوبهم يتبعونهم ، فاحتطت الدولة بذلك ، وزاد في افسادها تلك المعاهدة ، فانتشر الرهبان في أنحاء الأندلس وأخذوا يثنون تعاليمهم ، وكأولوا يجتمعون في أوقات خاصة للشارر ، وقد شيدوا ضيعة على ضفة نهر قرطبة وسط البساتين ، وكانت متنزها جيلا يؤتمه العظماء والأمراء لاسيما أيام الآحاد .

وقال صاحب التاريخ المسمى بالمعجب : « لقد جددوا في عام هذه المعاهدة أربع مدارس كبرى على نفقة (دوق فينيزيا) أحد كبارهم وجعلوا التعليم فيها عاما لمن شاء (بينما كانت مدارس المسلمين بقرطبة وغيرها تكاد تمحى إذ أنقصت تعاليمها تماما إلا ما يختص بالشرعية) ، فأقبل العرب على تلك المدارس ، واختلطوا بالقسيسين والرهبان ، وتعلموا لغاتهم ، وجاروهم في عوائدهم وأخلاقهم ، وزاد الأمر في بلنسية فإن المبشرين والمعلمين تدخلوا في كل شيء لأن نائب عدى عليها المسمى (ابن ذى النون الغافري) أطلق لهم الحرية التامة حتى اتهمه بعض الوزراء بأن البابا استماله بالرشوة . »

ولقد لعب برّاق بن عمارة دورا مهما هنا ، ذلك أن أمير أشيلية المسمى (جندل بن حود) لم يمكث بقرطبة إلا ريثما وقع على شروط الهدنة ، وأبى البقاء وعاد إلى عاصمته ، وذلك لسرّ خفي في نفسه ، ذلك أن أحد معتمدى البابا الذين حضروا إلى قرطبة أعطاه خطابا من البابا وعده فيه بأنه يؤمل أن يجعله ملكا مستقلا بولايات الأندلس قاطبة ، وأن البارونات متفقون على نصرته في أى وقت شاء . ثم ان برّاق وفي بعده لأنه عاهد البابا أن يدخل بعض البطارقة في قيادة الجيش ، وقد أخذ البطريق المسمى (شيل) يرافقه في أيام الصيد ، وأخذ برّاق يمدحه عند ابن عباد بالشجاعة ثم أحضره إلى الدبران فقال مالك بن عباد وما بلغ من شجاعته يابرق ؟ فقال اختبره إن شئت . فقال مالك لتتبارزا فإن غلبته فكفاه خزيا وإن غلبك جعلته

من قواد جيشنا ، فتبارزا وتظاهرا ، فاق بأنه مغلوب ، فتكدر مالك بن عباد لما يعلم من مهارة برّاق وشجاعته وجعل البطريق قائدا وقربه منه ، فانتخب من أبناء بلاده من أراد لتدريب عسكر المسلمين على استعمال السلاح ، وصارت عواصم الأندلس محط الغرباء ، وراجت التجارة في البلاد ، ولا سيما الخمر .

قسيس يخصص شباب المسلمين المتعلمين بخمر عنب قرطبة

وهل أنك نبأ ذلك القسيس الذي لم يكتف بالخمر الوارد من أنحاء أوروبا حتى اشترى عنب قرطبة كله وعصره خرا ، وحلف أن لا يبيعه إلا لأكرم الناس عليه ، وهم المتعلمون من أبناء المسلمين في مدارس هؤلاء القسيسين ، وفرح الشبان بهذه الهدية :

- (١) فشرّبوا الخمر نهارا جهارا .
- (٢) وخلعوا رداء الحياء والحشمة .
- (٣) وحرقوا عوائد آبائهم .
- (٤) ولبسوا الحرير ، ونبذوا الصوف والشعر .
- (٥) وأهملت تعاليم البلاد .
- (٦) وأخذوا يختلفون إلى نسوة في حانات النزلاء ، فيصرفون الليل هناك مهتسين متصايين في عشق هؤلاء العاهرات .

وزاد الأمر حتى بلغ الأصمراء فان المعتصم بن صمّاح صاحب المربة عشق فتاة رومية واغتصبها من أيها فاستجار أبوها بمجندل بن جود ، فأرسل إليه يعنفه على ارتكاب ما لا يليق بأدنى الناس ، فكان ذلك سببا في الحرب بينهما ، فطلب ابن جود من دوق فينيزيا والبابا وباروناته نجدة على خصمه ، ففرحوا للخبر وأرسلوا إليه سفنا تحمل جندا تحت قيادة دوق فينيزيا ، فقهرروا ابن صمّاح ، وخرّبوا قصوره واحتلها جند الروم ، وأقم لهم ابن جود الولائم ، وملوك الاسلام هناك ساكتون لا يبدون سرا كما حتى الأمير مالك بن عباد وهو صاحب البلاد لم يرعه ذلك ، وقد قتل عامله ، وسقطت المربة ، وهذه أول نتيجة للعاهدة .

ولما رجع دوق فينيزيا إلى رومه قصّ القصص على البابا والبارونات فأيقنوا بتفرق كلمة العرب ، وأن الوقت آن لتخريب ممالكهم ، وتفريق شملهم .

ولقد كان عدد المبشرين بالأندلس ألفا ، وعدد المعلمين بالمدارس التي أُنفق عليها البابا ٤٨٥ وأنفق البابا من خزينته لترويج الخمر خمسمائة ألف (فلورين) .

وفي اليوم الرابع من جادى الثانية سنة ٤٨٦ هـ بلغ الحصين بن جعفر (وهو أحد القواد المعروفين بالأمانة على جيوش بلنسية) أن ابن ذى النون وزير عدى بن عبد العزيز راسل الفرنجة ، وأنه توأما معهم على تسليم حصونها لهم ، فقابل الحصين الوزير وكله في ذلك ، وظهرت له دلائل تدل على صدق ما سمعه عنه ومنها أنه دخل عليه وهو يحادثه بطريق من البطارقة ، فأخذ يساره واسمه (بردويل) فلما علم ابن ذى النون أن الإنكار لا يفيد أخبره بالحقيقة محتجا بأن ملوك الاسلام قوم ظالمون ، لا يبالون بالشكوى من الظلم ، وأن ملك الأندلس لابقاء له ، والملوك يقتلون الناس ظلما ، وعند الفرنجة ٧٥ ألف فارس فيم تقائلهم نحن ؟ فضرب الحصين وقال له : أنت تريد هدم مجد الآباء ، وأن تكون للثل السوء في الحيانة والجبن ، وإذا ظننت أن ابن (اذفونش) يعطيك نوالا فأنت مخدوع ، جزاؤك كجزاء سابورذى الأكتاف للنصرة بنت الضيزن ابن معاوية ، أنت كفرت النعمة ، وأنت سينالك النذل من العدو . وتمادى ابن ذى النون في ذلك وحضرت الجيوش النصرانية فاحتلت بلنسية ، وأخذ الفرنجة في نهب المدينة ، وفضحوا البكر بحضرة أيها ، والسيدة

الجليلة بحضرة زوجها ، فترك الرجل المدينة تاركا زوجته وأولاده وأملا كـ .
وقد قال ابن زبادة : ان الذين قتلوا في (بلنسية) ظلما بسبب الدفاع عن العرض (١٣) ألفا ، والذين
قتلوا لآبائهم السخول في دين الغير (٣٠) ألفا ، وأحرقوا المدرسة الكبرى والجامع الكبير .
وقد احتل هذه المدينة العدو قبل أن يبلغ عديا خبر تلك الخيانة ، فلما وصلته الأنباء جهز جيشا لاسترجاعها
فماجأته الأخبار بأن الفرنجة احتلوا (ميورقه) و (مينورقه) فاضطر أن يبقى الجند في قرطبة للدفاع عنها .
ثم استولى الفرنجة على طليطلة ، ثم ان ابن اذفونش بعد أن احتل بلنسية أمر باحراق ابن ذى النون ،
ويقول المؤرخون انه انما أحرقه لأنه لما خان دينه وملكه جدير أن يحون عدوه .

مصير براق بن صهار

ذلك الماكر الخبيث الذي مكث زمانا معظما في قرطبة عند مالك بن عباد حتى سقطت بلنسية ، وحضر
قواد الروم بجيوشهم ، وأرسلوا لمالك ، فطلب براق أن يكون قائد الطلائع ، فرضى بذلك ، فأرسله إلى
الأمرء ليجتمعوا لمقاومة العدو ، فتوجه لغير ذلك ، وذلك أنه أخذ رسالة من ابن اذفونش إلى جندل بن
جود ووعداه بالنصر على بقية ملوك الطوائف ، وانه يصير ملك الأندلس كلها كما وعدوه من قبل ، وفي شهر
شعبان سنة ٤٩٨ هجرية نرسل لك أسطولا تزحف بجندوك على قرطبة من جهة الغرب ، ففرح جندل
بهذا الخطاب ، ثم توجه براق إلى جهة المرية وبها جيش الروم من أيام أن قتل ابن صمادح ، فسلم كتابا معه
من ابن اذفونش إلى القنطور أي القائد ، وفيه : « اتنا سنرسل لك ٢٠ مركبا فيها جند ، وبمحضر ابن
صردينش معاهدنا أمير اقليمه قاضي كادية معاهدنا ، فيكون تحت رأيك ٢٥٠٠٠ مقاتل ، فتفتح أشبيلية
في شعبان وأمرها جندل إذ ذاك يكون مغيرا على قرطبة ، وقد تم ذلك كله ، جندل يغير على قرطبة في الوقت
الذي يغير فيه جيوش الروم على مملكة أشبيلية ، وبيننا جندل يفز قرطبة كانت جيوش الروم تحت إمرة
القائد (كولى) تبيع أشبيلية حلا لجنوده ، وقد ذل مالك بن عباد وهو محافظ على شرفه ، ولكن جندل
ابن جود الذي ظن انه سيكون سيد الأندلس كلها غاب فأله ، فقد قتله الفرنجة ، فأما عسكره فلما لم يرجع
إليهم رجعوا إلى أشبيلية ، فلاقاهم جند الروم ، فقتلوهم قتيلا ، فنادوا الأمان .

أما مالك بن عباد فبقي في سرقسطه ذليلا لا ناصر له مدة حياته . وأما ابن اذفونش فإنه جلس في قصر
الامارة ، واستحضر حسين بكرا من الأشراف وقسمها وقسم الدور على رجاله ، وأمر باحراق المكتبة وفيها
نيف و ٨٠٠ ألف مجلد وقتل أربعة آلاف نفس ، وهدم الجامع الأموي بالمجانيق وجعل مكانه فسقية . وأما
براق الخائن فقد قتل أيضا بأمر الدوق ، والى هنا أقف الكلام على أمر الأندلس اه
فلما سمع صاحب ذلك . قال : هذا والله نعمة عظيمة على المسلمين بعدنا ، فان التاريخ أصبح شرحا
لآيات القرآن ، ولكنني أعترض على ذلك اعتراضا يوافقني عليه جميع أذكيا المسلمين :

اعتراض على المؤلف

انك وان جمعت المنقرقات في الكتب ، وظهر ما كان خافيا على أكثر الناس من أفعال الملوك العباسيين والأمويين
وأمرء الأندلس وغيرهم ، فقد فانك أن التاريخ أكثره كاذب ، ألم تذكر ما كنا نقرؤه في زمن الصباه
واعلم رعاك الله أن السرا * تجمع ماصح وماقد أنكرا
التاريخ مشحون بالمتناقضات ، وقد أثبت ابن خلدون أن أكثر الممدوحين فيه مدحوا دهاء ونفاقا ، وظواهر
هذه الدنيا كلها خادعة ، وبكس ذلك من ذمهم التاريخ ، وإذا كانت هذه درجة التاريخ فكيف أطلت به

في آية : أذهبتم طبيبانكم في حياتكم الدنيا ، وكيف تذكر مالا صدق فيه وتجعله تفسيراً لما هو محقق الصدق ، ومن ذا الذي يقول ان الوهم مفسر للحقائق ! أوتفسر كتاب الله الحق بالتاريخ الموهوم ؟ ولقد ذكرت أمثال هارون الرشيد ، وذكرت مع ما لا يليق به من مال كثير لشراء جارية ، ومن أنواع الطرب ، فهل هذا يتفق مع قواء ؟ ومع ما روى عنه انه حج ماشياً ؟ لأنه نذر ذلك ، وانه أيضا كان يصلي بالليل ركعات كثيرة ، إن التاريخ مملوء بالمتناقضات ، فهذا لا يليق بكتاب الله تعالى ! فلما أتم مقالته قلت بإصباح : أهدارأيك فيما كتبناه وأسمعنا كه ؟ فقال بلي قلت : أنا أجيبك على هذا الاعتراض بحمد الله ، فأقول :

حدثني حفظك الله : اذا جاء رجل فلاح وقال أنا لا أزرع أرضي ، فيقال له لماذا ؟ فيقول : لأني لست على يقين من أن محصولها يوازي ما أصرفه عليها ، ويحتج ذلك الفلاح بقوله : « إن العاقل لا يعمل إلا بدليل يقيني ، وأنا لست على يقين من أن الجوائح والآفات السماوية تترك حقلتي ، وأيضا اذا قامت دولة تطالب أمة من الأمم بقطعة من أرضها ، فيقول أميرها : لترك هذه القطعة لها محتجا بأنه ليس على يقين من أنه يقهر الأمة الهاجعة عليه ، وهكذا لو قال مثل ذلك التجار في تجارته التي يريد بيعها في الأقطار البعيدة فيقول إنني لا أتاجر لأني سمعت أن سفنا كثيرة غرقت في البحر فرما غرقت تجارتي ، وهكذا اذا قال رجل أنا لا أعلم ابني ، فيقال له لماذا ؟ فيقول : لأني رأيت كثيرا من المتعلمين قد فسدت أخلاقهم .

فهذه أيها الأخ أربعة أسئلة ، فاجوابك على هذا ؟ أنقول ان الفلاح ، والأمير ، والتاجر ، وأبا الغلام مصيبون فيما فعلوا ؟ فقال . كلا . هم غير مصيبين . فقلت لماذا ؟ فقال لأن المدارف في هذه الامور العملية من الفلاحة والامارة والتجارة والتعليم على غلبة الظن ، فنتي كانت المنافع مظنونة بسبب مقدماتها فان الشروع في العمل واجب ، فأما اليقين هنا فانه لا وجود له ، ومن ترك أعمال الفلاحة والتجارة ومحاربة الأعداء الهاجين وترك تعليم ابنه محتجا بأنه لا يقين في ذلك كله ، فهو جاهل غبي مخدوع . فقلت : وهذا جوابي لك أيها الأخ . فقال : وأي مناسبة بين الأمثلة الأربعة وبين التاريخ الذي اعترضت عليك في جملة تفسيرنا للقرآن . فقلت : إن القرآن يقيني . قال نعم . قلت : والتاريخ ليس يقيني . فقال نعم . قلت : واذا لم تفسر اليقين وهو القرآن إلا يقين أصبحنا مغرورين كذلك الفلاح والأمير والتاجر وأبي الغلام .

إن أكثر الفقهاء في الدنيا حججهم في فقرهم (وان لم يعلموا) أنهم يطلبون اليقين ولا يقين له بل الظن هو المعول عليه في الأعمال ، والدين الاسلامي قسما : قسم هو الاصول ، وقسم هو الفروع ، فالاصول لا بد فيها من اليقين ، والاصول هنا هي العقائد كعقيدة الله وملائكته وكتبه ورسوله الخ .

أما الفروع الراجعة للأعمال فيكفي فيها الظن ، فاذا سمعت الله يقول : « إن الظن لا يغني من الحق شيئا » فذلك في الاعتقاد ، ولو أن علماء الاسلام أخذوا بما قلته أنت الآن ولم يعولوا إلا على اليقين لانهارت الأمم الاسلامية ولطاحت ومزقت كل مبرق ، فان علم الفقه كله مظنون ، ولولا هذه الأحكام المظنونة ، ولولا أن للظن في الأحكام الشرعية أمام القضاة منزلة لبطل القضاء في الاسلام ، ولزالت جميع ممالكه ، فالأدلة الشرعية في الفقه ظنية وشهادة الشهود ظنية ، والله كفنا بالعمل بهذين الظنين ، فهكذا هنا في تفسير القرآن اذا جرينا على هذه النظرية وقلنا هذا كلام الله وكلام الله يقين والتاريخ فيه الصدق والكذب ولا يفسر الصادق بما هو محتمل الصدق والكذب . أقول : اذا جرينا على هذه النظرية أصبحنا أمة عاطلة جاهلة غبية لا تفرق بين الخير والشر .

إن الله عز وجل قد ملأ القرآن بالقصص والتاريخ ، وأصرنا بالاعتبار والاحتراس مما وقع فيه غيرنا ولم يمنع ذلك مافي التواريخ من التناقض ، بل تجاوز القرآن ذلك ونظر إلى ملخص التاريخ لا إلى حوادث خاصة ألم تر إلى ما قصه الله في (سورة الكهف) . ألم يقل في عدد أهل الكهف انهم ثلاثة ورابعهم كلهم وخسة

وسادسهم كلهم وسبعة وثامنهم كلهم ، وأمر نبيه ﷺ أن يتجاوز عن ذلك ، وأن لا يمارى في مثل هذه المسائل إذ لا أهمية لها ، وإنما جعل الاعتبار بضمون القصة لا بكل حادثة على حدة .

إن الله تعالى أبان لنا في نفس القرآن أن هذه المتناقضات لا تنصّر في نفس القرآن لأن العبرة بملخص القصة ، وإذا صحّ هذا في نفس القرآن ، أفلا يصحّ في تفسيره ؟

ذكرنا هنا أم الإسلام والقول منقول عن كتب التاريخ ، وكتب التاريخ ملأى بالأكاذيب ، محشوة بالأباطيل ، ولكننا لو أطلنا علم التاريخ لما فيه من الأباطيل لأصبحنا أمة جاهلة ، غيبة غافلة ، لا تعقل ولا تفهم ومماثل علم التاريخ فيما نحن بصدده من العبرة به من حيث إجماله لا تفصيله إلا كمثل مناظر هذا الكون كله ، والموت والحياة فيه ، والفقر والغنى ، والعزّ والذلّ ، والسلم والحرب ، والمرض والصحة . فهذه العوالم من نظرها من حيث الجزئيات اعتقد أن هذا العالم كله ظم وخسار ودمار ، فما هذه الزلازل والبراكين والحروب والأمراض والعداوات ؟ فأما إذا نظر إليه نظرا فلسفيا علميا فانه يوقن بأنه عالم منظم ، ويصير حكما

فهذه نظرات الجهلاء والحكماء في هذه الكائنات ، وعلى منهاجها نظرات الناس في التواريخ التي تذكر في تفسير القرآن .

إن الأمم التي تذر التاريخ لمثل هذه الشبهة تصبح خاوية على عروشها . فياسبحان الله ، ألم أذكر في هذا التفسير أن أمة الانجليز لما دخلت بلادنا المصرية أعطت العرب الذين في جهة الشرقية جنبيات ذهبية وضعتها في أكياس ، وجعلت ظواهر الجنبيات من الذهب الخالص وما تحت الظاهر كله بهرج زائف ، وقد نجحوا ، لماذا ؟ لأنهم أخذوا هذه من قصة جعفر بن فلاح وزير المعز لدين الله الفاطمي ، فان القرامطة لما هجموا على مصر اتفق المعز مع العرب الذين في جهة الشرقية وأعطاهم أكياسا مملوءة ذهبا ، أعلاه ذهب خالص ، وأدناه زائف ، فما كاد عمود الصباح يظهر حتى اتقى الجمعان : العرب المصريون مع القرامطة ظاهرا ، ولكن بعد ساعة أخذوا يتقهقرون على غير انتظام ، فهلك القرامطة إذ كان جيش المصريين أقوى منهم ، فهذه بيننا هي التي فعلها الانجليز مع العرب في بلادنا أيام دخولهم ، فم أخذوها ؟ أخذوها من حادثة المعز لدين الله فنجحوا . وأيضاً إن الشركة الانجليزية في الهند فعلت مع بعض أمراء الهند ما فعله حسن بن الصباح في القرن الخامس الهجري في قلعة الموت إذ وصف لصاحب قلعة الموت وصفة طيبة ، وجعل صاحب القلعة له جعلا في مقابلة المداواة ، وهو مقدار ما يسع جلد الثور من أرض ذلك الأمير . فلما شق الأمير وطالب حسن بن الصباح بالجعل أعطاه الأمير مقدار ما يسع جلد الثور ، جاء ابن الصباح وجعل ذلك الجلد سيورا ومدّها فاحتوت أرضا واسعة جدا ، فلم يرض الأمير ، فحصل القتال ، فغلب ابن الصباح واستولى على قلعة الموت ، وهذا بينه هو الذي فعلته الشركة الانجليزية ، فوصفوا الدواء للأمير الهندي وشقوا النزاع على مقدار جلد الثور وانتهى ذلك باحتلال الانجليز .

فيأبها الأخ أنا لم أذكر مسألة الانجليز للاقتداء بهم . كلا . بل أقول ان العلم علنا والتاريخ تاريخنا ، وكان علينا أن نعتبر نحن به ، فهام أولاء أخذوا علومنا وأذلونا بها ، كل ذلك لجهل القائمين بالتعليم في ديار الإسلام ، فتراهم يتقاعدون عن العلم لشبهة كهذه الشبهة . فقال : وكيف ينتفع المسلمون بهذا التاريخ . فقلت : هذه الدولة الأموية والعباسية ودولة أمراء الأندلس وبقية المسلمين كانوا كلهم على وتيرة واحدة ، يظهر نابغون مصلحون ، ويتبعهم فاسقون مسرفون ، فتتخط الدولة ، فيذل الأمراء ، ويتحكّم الجند .

من ذا ينكر سطوة الجند وقتلهم للأمراء العباسيين وهكذا الانكشارية للولوك العثمانيين ، من ذا ينكر ذلك ، من ذا ينكر الاسراف والتبذير في مال الدولة بعد العصر الأول ، فإذا نحن نحاشينا أن نصدق المغالاة في أمثال سيرة الرشيد ومن نحاشيه فنحن مضطرون أن نصدق بالاسراف العام في الدول الإسلامية ونصدق

بفتأجه ، وهل ينكر عاقل ما بلغتته الثورة الاسلامية أيام قطب أرسلان إذ هجم التتار على بلاد الاسلام وقتلوا الشيوخ والأطفال ، والنساء والرجال ، والبهائم . ألم يكن مبدأ ذلك جهل هذه الأمة بجيرانها الذين اجتاحتها وأزالوها ، أليس ذلك من الجهالة العاتمة ، والتفاني في الشهوات ، الموجبات الكسل والبطالة ، حتى وقعت الواقعة ، وانشقت سماء المجد بالثورة العباسية ، وهلك من هلك عن بينة ، وأزال الملك ، وقتل الخليفة العباسي هولة كالتتارى .

ومن عجب أن أمراء الأندلس مثلهم كمثل أمراء الشرق كلهم لا يعقلون التاريخ ولا يعتبرون به ، انهمك في الشهوات ، وجهل مطبق بالتاريخ ، وغفلة عن الاعتبار .

وكما اكتسح التتار ملك العباسيين في الشرق في أوائل القرن السابع اكتسح الملك فرديناند والملكة إيزابله مملكة الأندلس في أوائل القرن التاسع الهجرى ، وترى القوم في الشرق والغرب صرعى كأنهم أمجاز نخل خاوية . فلم يعتبر الأندلسيون بأبائهم الأولين أيام مالك بن عباد والأمراء الأندلسيين معه إذ تفرقوا شذ منذر في القرن الخامس ، وصحك الاسبانون على عقول المسلمين ، وسقوهم الحجر ، وأذاقوهم سوء العذاب وجعلوهم مترفين منعمين كالغواني ، وزعزعوا عقائدهم ، فزلزلت بلادهم زلزالا شديدا ، واحتلها الاسبانون بمساعدة البابا في رومه الذى لعب دورا مهما في الضحك على أذقان هؤلاء الأمراء الجاهلين الأغبياء .

فقال صاحبي : ألم يستفد أحد بذلك التاريخ ؟ فقلت : كلا والله . هذه أمنا المصرية كانت غافلة نائمة قبل أيام محمد على باشا ، ولما علموا أن فرنسا تريد الاغارة على البلاد قالوا لو أن أوروبا كلها اجتمعت على حربنا لأذقناها سوء العذاب ولزقنا أجسام جيوشها بسنابك خيولنا ، فلم تمر ٤٥ دقيقة على التقاء جيش المصريين بجيش الفرنسيين عند بولاق حتى انهزم المصريون ، ذلك أنهم كانوا لا يعلمون عن الأمم شيئا ، ثم انظر وانظر بعد ذلك أى بعد أن تعلم المصريون أيام محمد على باشا ، ودارت الأيام دورتها ، ومات محمد على باشا وإبراهيم ابنه في القرن الثامن عشر ، وأراد اسماعيل باشا أن يحارب الحبشة ، فإذا حصل ؟ اتحن المصريون قوادا من الأمم الاوربية على جيوش المصريين ، فالتحدوا مع الحبشة سرا ، لأنهم أبناء دين واحد وأهلكوا المصريين .

أبست هذه جهالة ، أليس درس الأندلس قد نسي بتاتا وجهله القوم هنا ، نسي المسلمون ما حصل من القائد الاسلامى المسمى بـ راقا من الاتفاق مع البابا سرا ، وبهذه الوسائل السرية والتفان والمكر والحيل التي استعملها براق عدو الاسلام المتظاهر بحب الثورة الاسلامية القائم بالقيادة العامة في الجيش دمر الثورة ومنزقها شرّ بمنزق كما قتمناه في هذا المقام . فانظر ماجاء في كتاب « كشف الستار ، عن سرّ الأسرار » في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية سنة ١٢٩٨ هجرية وسنة ١٨٨١ ميلادية بقلم المغفور له السيد أحمد عرابى الحسينى المصرى . قال في الفصل الثانى صفحة ٣٣ وما بعدها ماملخصه :

« إن الخديوى اسماعيل باشا لما أرسل الجيش المصرى لمحاربة الأحباش ومكث الجيش هناك مدة طويلة أرسل أمرا وشدد على القائد العام راتب باشا ورئيس أركان حربه بوجوب السرعة في الزحف على الحبشة بسبب ما صنعوا من التمثيل بالمصريين ، فسارت الفرقة في شهر أغسطس سنة ١٨٧٦ للقتال ، ولقد قابلهم أحد القسيسين الفرنسيين البشرين في بلاد الأحباش ، وصار يتردد على رئيس أركان الحرب الجنرال (لورنج الأمريكى) مستطلعا أحوال الجيش المصرى حتى علم مقداراه واتفق معه على الحركة الحربية التي تكون سببا لهلاك الفرقة المصرية عند الصلحة الأولى ، وكان يبلغ المعلومات في كل يوم إلى ملك الحبشة فحشد هذا الملك جيشه ، وكان عدده أكثر من ثلثائة ألف من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال على حسب عادتهم في الدفاع عن بلادهم ، وكان القسيس المذكور الفرنسى المبشر يتردد كل يوم على الجنرال (لورنج)

رئيس أركان الحرب الفنى وضع فيه الخديوى اسماعيل باشا قوته ، و ينقل القيس مادار بينه وبين الجنرال إلى يوحنا ملك الحبشة ، ولما التقى الجيشان ، واستعدّ جميع أركان الحرب الاورويين والأمريكين للحملة ، ألقوا جانبا طرايبشهم الرسمية ، ولبسوا قبعاتهم ، ثم ربطوا في أعناقهم مناديل بيضاء إشارة إلى انهم مسيحيون ليأمنوا على أنفسهم الخطر عند اختلاط الجيشين على حسب الاتفاق مع القيس المذكور .

وهنا أطل المؤلف في خسارة المصريين وقتلهم ، ونجاة هؤلاء الاورويين . قال : وقد علم بذلك كله الخديوى اسماعيل باشا ، وكان يريد محاكمتهم ، ولكنه خاف من غدرهم كما غدر حسن شركس بملاوك السلطان عبد العزيز فى الاستانة ، فأطلق الرصاص على أحمد باشا القيصرى وغيره ثم قتل هو وغاف اسماعيل باشا أن يناله مثل ذلك ، فبشّ في وجوههم واتهمى الأمر .

هذا ما كان من الخطر والخطأ الذى وقع فيه المسلمون فى هذه الأيام الأخيرة غير معتبرين بالتاريخ المتقدم ، فلم يتعلموا بما فعله الأجانب عن البلاد فى الأندلس وغيرها ، فوقعوا فى الأهوال والشور وهم يجهلون التاريخ ، ويجهلون قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض » وغيرها من الآيات ، أليس هذه الآية ظهر أثرها فى أم الاسلام فى كل حين كما ظهر أثر الآية التى نحن بسددها وهى : « أذهبتم طيبانكم الخ » .

الأمم الاسلامية جميعها متشابهة

ومن العجب أن الأمة المصرية بعد أيام محمد على باشا حذت حذو الدول الاسلامية القديمة ، فكان فيها الاسراف والتبذير ، والقناء والتجر والغزل ، فهى مختصرة من الدول الأندلسية والدولة العباسية ، ولقد كان من أسباب دخول الانجليز مصر تلك الديون التى ارتكبتها الحكومة المصرية بعد مؤسس الدولة المرحوم محمد على باشا ، وقد أخذت انكلترا وفرتها تنافسان فى استغلال مصر ووضع اليد عليها ، وقد شجعهما على ذلك ظهور اسماعيل باشا بمظهر من لا يحسب حسابا للعواقب ، فقد كان فى اصلاحاته كما يقول البارون دى مالموسى « كالبانى الذى أراد أن يبنى بيتا يكلفه مالا طاقه له به ، فرفهن الأرض وتقدمت له الشركات الاوروية بالمال علما منها بأنها ستضع يدها على الملك يوم يهزم المدين عن سداد دينه »

ولاريب أنهم كانوا يعبرون اسماعيل باشا المال بأغش أنواع الربا ، وقد وضع كاتب انكلبرى (سيموركى) فى سنة ١٨٨٢ ان مصر كانت دفعت لغاية هذا العام جميع دينها الحقيقى (أى المبلغ المستعار حقيقى) بفائدة ٦ فى المئة ، ومع ذلك فقد ظلت مثقلة بدين رسمى لا يقل عن التسعين مليون جنيه . كان أصحاب الأموال يعلمون انهم يخاطرون بأموالهم ، وكان اسراف اسماعيل باشا نذيرا لهم ، فكان عليهم أن يحملوا تبعه عملهم ، ولكن (روتشلد وأو بنهايم) وغيرهما من أصحاب رموس الأموال كانوا على اتصال برجال السياسة فى انكلترا وفرنسا فوجدت الحكومتان فى عجز الحكومة المصرية عن سداد ديونها وسيلة (لم تعرف من قبل) لتدخلهما تدخلا فعليا منذ سنة ١٨٧٦ بحجة اصلاح المالية والادارة وما إلى ذلك من إنشاء صندوق الدين وتعيين مراقبين ماليين وموظفين أجانب كانوا يعملون فى الحقيقة على تحويل الدين المالى إلى دين سياسى ، وكانت انكلترا تحول دون حل المسألة حلاماليا ، وتطالب بوضع يدها على الادارة المصرية ضمانا للدائنين ، فأرسلت إلى مصر بعثات مختلفة تتدكل منها بسوء ادارة اسماعيل باشا وتطلب كلما سنحت الفرصة إرسال أخصائين سياسيين فى زى ماليين لاصلاح الامور من جديد وايقاف الحاكم المسبقت عند حده .

وقد كان المصريون يشكون حقا من حكومة اسماعيل باشا المطلقة التى كانت ترهقهم بضرائبها وأحكامها الجائرة ، فلما تدخل الأجانب فى شئون البلاد الداخلية واختلت الادارة أكثر من ذى قبل ، ووضعت نية القوم

فلق المصريون على مستقبلهم . انتهى — وجاء في صفحة ٥٥ وما بعدها من الكتاب المذكور ما يأتي :

سرّ مكنون

وفي ١١ رجب سنة ١٢٩٦ هجرية سافر الخديوي السابق اسماعيل باشا من القاهرة إلى الاسكندرية حيث أقتله الباخزة « المحروسة » إلى نابولي (نفرمن نفور ايطاليا) وكانت معه أوراق مالية « بون » بمبلغ ثلاثة عشر مليوناً من الجنيهات كما صرح بذلك ابنه الخديوي توفيق باشا بحضور خيري باشا رئيس الديوان الخديوي والشيخ عبد الرحمن الاياري إمام المعية في أثناء تناول طعام الافطار على المائة الخديوية في شهر رمضان سنة ١٢٩٦ هجرية إذ قال : « ياليتني ترك للحكومة ولوستة ملايين لاصلاح شأنها » . ولما وصل الخديوي اسماعيل باشا المعزول إلى محطة مصر وقف الخديوي توفيق باشا مودعاً والده وعيناه مغرورقتان بالدموع ، فضمه والده ، ثم قال له : « لقد اقتضت إرادة سلطاننا المعظم أن تكون بأعز البنين خديوي مصر ، فأوصيك بأخوتك وسائر آل برّا . واعلم أني مسافر ، وبودّي لو استطعت قبل ذلك أن أزيل بعض المصاعب التي أخاف أن توجب لك الارتباك ، على أني واثق بحزمك وعزمك ، فاتبع رأي ذوي شوراك ، وكن أسعد حالاً من أيك » . وكان من أشدّ المناظر تأثيراً في النفوس منظر العبدان والحواري وهم يودعون سيدهم وسيداتهم بأدمع مزجت بدماء القلوب ، ويرفعون أصواتهم بالبكاء حتى كادت تزهق أرواحهم حزناً وغماً ، ثم سار القطار الخصوصي حتى وصل إلى الاسكندرية . انتهى ما أوردته من الكتاب المذكور هذا ولقد سمعت أن عالماً ألمانيا ألف كتاباً وترجم إلى العربية بعنوان « تدهور مصر بسبب الدين » ولكن لم أطلع عليه . هذه نسخة من حياة أم الاسلام قديماً وحديثاً . فقال صاحبي : وماذا تريد من أم الاسلام المستقبلية ؟ فقلت : أم الاسلام للمستقبلية ستكون غير الأمم الاسلامية الماضية . هذه الأمم التي بعدنا سيدرس رؤسائهم ما كتبناه في كتبنا وفي هذا التفسير ، وما كتبه الكاتبون في زماننا هذا وهو زمن النهضة الحقيقية الاسلامية ، وسيكون ما كتبناه هنا من أقوى الأسباب لاستكناه علم التاريخ تحتصن به جماعة في كل دولة اسلامية ، ويتباحثون ويستخرجون نتائج وعلى مقتضاها يعملون في السياسة فلا يفرطون مثقال ذرة في التاريخ ، وتكون هناك جماعات جماعات في سائر العلوم والصناعات . هذا كله سيتم ولن يكون غيره ، وسيكون للمسلمين خليفة ينتخبه الأمراء من بينهم لمدة معينة خمس سنين أو عشر سنين أو نحو ذلك ولا يراهي في ذلك إلا قوله تعالى : « وزاده بسطة في العلم والجسم » فمن كان من أمراء الاسلام أقوى جيشاً وهو وأتمه أغزر علماً من الأمراء الآخرين فهو حتماً الذي يجب أن يكون خليفة . أنا أكتب هذا وأنا موقن بما سيكون في المسلمين من آثار ما كتبناه وكتبه الكرام الكاتبون في الاسلام .

فلما سمع ذلك صاحبي . قال : بالله زدني إيضاحاً في بعض ما تقدمت ، فياليت شعري ان المناسبة بين علم التاريخ من حيث الاجال والتفصيل ، وبين نظام هذا العالم كله من حيث الاجال والتفصيل أيضاً لا تزال غير مفهومة عندي . فقلت : الأمر سهل ، إن أم الاسلام قد اعتراهم الوهن والضعف والجهل في القرون الماضية ، فأحاطت بهم الأم من كل جانب ، وذاقوا طعم الذلة والهون والتفريق والشر المقيم . فقال نعم . فقلت : وأنت تعلم أن سبب ذلك إنما هو الاهمال والانغماس في الشهوات . قال نعم . فقلت : اذا نظرنا في تاريخهم من هذه الوجهة وحدها فإنا نفرق في بحر من الشبهات والحطال لا نخرج لنا منه ، فنصبح غرقى فيه صرعى الأوهام ، لأننا نضيع زماننا في الجزئيات ونذر الكليات ، وتصفح تاريخ زيد وعمرو من ملوك الاسلام ويقف نظرنا عند هذه الجزئيات ونقول : لقد ضل فلان وجهل فلان ، فبرد آخر علينا ويقول : إن التاريخ

فيه الفسـ والسمين ، ويحتج بذلك ، ويضع زمانا في أمور جزئية لاتفيدنا ، ونعيش في جدال أبد الآبدين ودهر الدهارين . فأما إذا نظرنا نظرا كليا ، وبمحتنا في الداء العام الذي عمّ الأمة كلها وتوارثوه جيلا بعد جيل من غير وقوف عند الجزئيات فاننا بذلك ننقذ من بعدنا من الضلال كما فعلنا في هذا التفسير ، وهذا نظير العقائد فان كل امرئ في الأرض على أي دين متى فكر بعقله وأخذ بوجه فكره إلى شقاء زيد وسعادة عمرو ، وأن ثوب الناسك أحرق ، وأن بيت هذه الجوز خـ سقفه عليها ، وأن هذا الطفل مات أبواه ولا عائل له ، وأن هذا الرجل له ابن واحد مات ، أما غيره فله أبناء كثيرون فلم يموتوا ، فهذه الجزئيات يضلّ المفكر فيها لأنه نظر نظرا جزئيا ، فأما الحكماء والمفكرون من جميع الأمم وهم ساداتها ، فهؤلاء هم العارفون الذين أدركوا حقائق الوجود ، وأيقنوا بالعدل والصدق والنظام ، فهؤلاء الحكماء في العقائد نظير أولئك المؤرخين الذين نظروا نظرا كليا في علم التاريخ كما قدّمناه .

هنالك قال صاحبي العلامة وهو محاورني : هل لذلك نظير فيما نشاهده ؟ فقلت : نعم نحن نمرّ عليه صباحا ومساء ونحن غافلون كما قال تعالى : « وانكم لعمرون عليهم مسحين وبالليل أفلاتقلون » والحقيقة التي لامناس منها أن العوالم التي نراها أمامنا وخلفنا وفوقنا وتحتنا مشحونة بالعلم ونحن عنها غافلون . انظر إلى شجرة السنط . فقال يا هجيا ! أشجرة السنط تفهمنا أن في التاريخ نعمة قوم مفكرين ، وجهل قوم غافلين ، فقلت إى وربى أنه لحق . فقال :

أنم بردّ جواب ما أنا سائل * عنه فنار العلم ذات تشعع

فقلت : ألم أقدم في هذا التفسير أن ورق شجر السنط لضعفه المتناهي حبه العناية الإلهية بشوك يحافظ عليه ، فهذا الشوك منفعته هي المحافظة على الورق الضعيف ، ومعلوم أن الورقة هي الرئة التي بها يتنفس النبات ، فإذا لم تسعف العناية الإلهية ذلك الورق الضعيف بالشوك للمحافظة عليه مات شجر السنط إذ لارئة له والرئة بها يدخل مافى الهواء الجوى من المواد النافعة لجميع الشجر ، فإذا نظرنا في تاريخ المسلمين إلى قصة النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وعليّ ، ومن نحاهم من كل من كان عادلا من المسلمين رأينا ذلك قليلا جدا في جانب الملوك المستبدين الظالمين الذي تقدم تاريخهم وتبذيرهم واسرافهم وطوهم وغزهم وجوارهمهم وغلماهم ومباينهم وما أشبه ذلك ، فهؤلاء الآجرون أشبه بالشوك في شجرة السنط ، والأولون لقتلهم أشبه بورقة السنط ، فإذا رأينا أمة الاسلام مضى لهم نحو ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن ، وفي أكثر هذه المدة أذلم ملوك وأمراء ووزراء وظلمهم ، قلنا إن هؤلاء أشبه بالشوك التي تشوك المسلمين كلما أرادوا قطع تلك الأوراق الاسلامية التي بها نحيا أمتنا ، وماهى أوراقها تلك إلا سيرة الخلفاء الراشدين ونور النبوة .

إن ما تقدم من سير الملوك الاسلاميين الذين أسرفوا أحدث في الأمة ذلا كما يحدث شوك السنط لمن أقدم على قطع ورقه ألما ، فإذا رأينا الأمم الاسلامية اليوم قد أجمعت على إحياء السنة النبوية وعلى الاشادة بذكر عمر وعليّ وعثمان وأبي بكر ومن نحاهم ، فما ذلك إلا لما أحست بالآلام الشوك الذي نبت في جسم الأمة فأذلم وألمها وحركها إلى المحافظة على مابه حياتها وهوان ينهجوا نهج أبي بكر وعمر مثلا ويعرضوا عن بعدهم وإذا كنا نرى شجر السنط ينجو نموا عنيما ويكون قويا متينا بما أعطى من الورق ومن الشوك المحافظ عليه ، فهكذا هذه الأمة بما أصابها من الذل والهوان من أمم الفرنجة ، وكان ذلك بسبب الملوك المسرفين ، ستحي ذكرى رسول الله ﷺ وذكرى العادلين من أمته وتقطع الصلة التي تصلها بغيرهم ، وستقوى قوة متينة كما قوى شجر السنط ، والفضل في قوته راجع لمائة الشوك المحافظ لورقه الذي هو السبب في نمائه وقوته ، فهذه الأمم الاسلامية ربما تعيش عشرات الآلاف من السنين أو مئات الآلاف منها ، ويكون الفضل في طول بقائها وسعادتها

راجعا إلى الخطأ الذي وقع فيه الأمويون والعباسيون والأندلسيون والمصريون وغيرهم ، فإن ذلك الجرح الدامي الذي أصاب أمتنا أخذ يندمل اليوم باجتماع المسلمين واتحادهم ، وستبقى ذكراهم إلى آخر الدهر ، فكما قويت وارتفعت شجرة السنط بقوة ومثانة شوكتها هكذا ستقوى وترتفع أم الاسلام بقوة ومثانة التبصرة والذكرى الناجمة من سوء سلوك ملوك الاسلام وأمرائهم السابقين إلا المصلحين منهم النافعين .

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : جلّ الله وجلّ العلم ، أيكون شجر السنط أمامنا صباحا ومساء ونحن عنه غافلون ، إن في نفس السنط الممثل به لحكما عالية عجيبة ، وأعجب منها أن تكون مثلا لعلم تاريخ المسلمين الله أكبر ، الله أكبر ، والله إن الأمم الاسلامية المسكينة قد أذن الله لها بالرفعة والسعادة ، ولعمري كيف يطلع على هذا المسلمون ولا يرتقون ، والله لو أن أم الاسلام ألقي إليهم هذا العلم قبل الآن لكانوا على غير ما هم عليه الآن ، ولكن الله أراد أن يخلق في أم الاسلام خلقا جديدا وهذا أوانه والله خير الناسرين ، فقلت : أنا موقن بما تقول ، وانه سيظهر في هذا الزمان الذي يفشرفيه التفسير وفي الزمان الذي بعده رجال لم يحلم بهم التاريخ ، ويكونون قدوة الأمم الاسلامية ، وستبقى هذه الآراء وما هو خير منها عشرات القرون ومئاتها ، وأنا لذلك مطمئن وبه موقن ، والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .

فقال صاحبي : فهل تضرب لي مثلا آخر للفضلة المستحكمة في النفوس غير مثل شجرة السنط . فقلت : كل ما تراه أشبه بمثل السنط المذكور مثلا .

اتى في بعض ليالى هذا الشهر وهو شهر أغسطس سنة ١٩٣١ وهو الذي أكتب فيه هذا المقال كنت أستيقظ قبل الفجر ، لتعاطي طعام السحور ، والنظر في السماء فوقنا ، وأنا فوق سقف المنزل الذي جرت عادتي في الصيف أن يكون نومي ليلا فيه ، فإذا كنت أرى ؟ كنت أرى ثلاث طبقات فوق : طبقة السحاب الذي طبق الآفاق ، وطبقة الهواء الذي يعوم فيه السحاب ، وطبقة النجوم التي لا يعرف عددها ، ومنها مجرتنا التي شمسا فيها ، وشموسها لاتنقص عن عشرة آلاف مليون شمس . فهذه الطبقات أخذت أنظر إليها وأقول : يارباه ، هجبا لأهل الأرض ! يتقاتلون ويختصمون ، ويحقدون على متاع قليل وهم لا يعقلون هذه النعم التي تحيط بهم من مال وبنين وممالك إن هي إلا ثمرات لهذا السحاب ولهذا الهواء وهذه الشمس « وفي السماء رزقكم وما توعدون » .

فهذه الغفلة الشاملة لنوع الانسان تشبه الغفلة الشاملة لأمم الاسلام المتأخرة قبلنا عن تاريخ أسلافهم ، فلم يكن ملوك العثمانيين ليفسكروا فيما حلّ بأهل الأندلس قبلهم والعباسيين من أن الجند كانوا يتكلمون بالملوك ولم يفكروا أن الفرنجة هم الذين أدخلوا الترف والنعيم في بلاد الأندلس فكان سببا لخربائها وهكذا أهل الأندلس المتأخرون لم يعتبروا بسوق المتقدمين منهم ، وهكذا المصريون أيام الثورة العرابية لم يفتنوا للتاريخ ودخل البشرور ديارهم ، وفعالوا في الأبناء من تحقير الاسلام في قلوبهم مثل ما فعل الباطن ودوقات أوروبا في بلاد الأندلس أيام مالك بن عباد كما قدمناه ، إذن لافرق بين جهل الأمم الانسانية بالنعم التي تحيط بهم كما قدمنا من نعم الهواء والنجوم والسحاب وبين جهل متأخرى المسلمين بالغفلة المستحكمة في أمراء الاسلام جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قرن ، وهم غافلون .

ولا جرم أن هذه النعم المذكورة المنصبة على أمتنا السابقة ستصبح اليوم نعمة لنا بالاعتبار .

خطاب المؤلف ربه

في ليالى شهر أغسطس سنة ١٩٣١

يا الله : ما أجلّ حكمتك ، وأعظم نعمتك ، أنت التي جعلت الشقاء نعما ، والنذل عزا ، والبلاء رخاء ،

سبحانك اللهم وبحمدك ، لولا نعمة الغفلة المستحكمة في النوع الانساني طلك العالمون ، أنت أنعمت بنم لاحصرها ، وهذه النعم الباهرة ، والآيات الظاهرة ، لم تختص بها الشمس والأقمار والأرضين ، فإن العظيم في رحمتك كالحقير ، تدور الشمس ، وتدور القمر ، وتدور الأرض ، فتراك أيضا تجعل في الجوهر الفرد ، وفي الذرة التي لا تراها العيون قطعا كهربائية سالبة تدور حول أخرى موجبة نحو ستة آلاف مليون مليون صرة في الثانية ، وهي نور كما أن الشمس نور .

نرى نعمك في الخلة ، وفي الذبابة ، وفي النحلة ، كما تراها في القمر ، وفي الأرض ، وفي الشمس ، بل اننا نعقل من الرجفات في هذه الحشرات ما لا يستقصى من الرجفات ، ولا تدر على عتق ، فإهذه العيون اللاتي تعدّ بالثلاث في النمل ، والتي تعدّ بالآلاف في الذباب ، وما هذه الحكم البديعة التي تجلت في صنائع العنكبوت ؟ إذن حارفكرنا في العظيم كما حارف الحقير ، إذن لاحقير في هذا الوجود ، وإذا غلب عن أكثر الناس هذا الجمال ، وجهلوا الحكم المحيطة بهم ، فهكذا غلب عن أم الاسلام السابقة الاعتبار بما أحاط بأبائهم في التاريخ ، وقد آن أوان الاستبصار والاعتبار والازدجار والازدهار والاستبشار .

عمت النعم نوع الانسان ، وغمرهم الجهل والسيان ، الرجفات نعمة ، والغفلة عنها قنمة ، لو عرف الناس هذه النعم ولم يذللهم عنها ما أحاط بهم من المرض والقلة والحروب لماتوا طربا ، لأنهم يرون رحما لاحد لرحمته وجماله وجهه واكرامه ، فهذه الغفلة التي سببتها المصائب كانت سببا في بقاء نوع الانسان ، هكذا غفلة الأمم الاسلامية السابقة عن الاعتبار بالتاريخ أصبحت اليوم نعمة علينا لتبقى بذكرها أم وأم بعدنا ، أليس هذا هو ما يقوله الأطباء : « إن الحى تشفى من داء القولنج » وهو معنى قول الشاعر :

من يعتصم بأوله العرش يحفظه * فهو الحكيم يداوى الداء بالداء

فداء انحطاط المسلمين داوينا بالاعتبار بداء التخاذل للأمم البائدة والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين

ذكر المؤلف نعم الله عليه

وهو يخاطب ربه وهو ناظر إلى السماء قبل الفجر

يا الله عرفت الآن ما كان يخيل لى زمن الشباب ، اللهم إني أحمدك جدا كثيرا ، وأشكرك شكرا جزيل ، لقد كنت اذا قفلت من القاهرة إلى قريقتنا كفرعوض الله حجلازى أجد فى نفسى ميلا قويا إلى الخلو والتباعد عن القرية كل ليلة ، فأجلس وحدى فى أحد الحقول المجاورة لقريقتنا ، وأرى أنى خيل إلى :

(١) الدول والممالك دولة دولة وهم فى مواكبهم البهجة ، وعلى خيولهم المطهمة ، وفى أعيادهم العظيمة

وهم يختالون اختيالا .

(٢) وكأنى أشاهد جميع من عاشوا من تلك الأمم إجمالا ، وكأنهم مشاهدون لى هم يتوارون ويقوم

غيرهم مقامهم ، وهكذا جيلا بعد جيل ، ودولة بعد دولة .

(٣) وهذا كان يدنى فى كل ليلة والناس نيام .

(٤) لقد فهمت خيال الشباب اليوم فى زمن المشيب .

تبين لى اليوم أن هذه النفس مستعدة من زمن الشباب أن تستعرض الأمم الغابرة أمة أمة وتلقى نظرة عليها وتقول : أيها المسلمون : ليس علم التاريخ علم استظهار ، بل هو علم اعتبار ، فليمتحن المسلمون بعدنا التاريخ على نحو ما امتحناه ، وهذا مبدأ أسنائه ، وعلى من بعدنا البناء والتعمير والكمال ، والحمد لله

رب العالمين . كتب عصر الأربعاء ١٢ أغسطس سنة ١٩٣١

حمد المؤلف لربه

اللهم لك الحمد على العلم وعلى الحكمة ، لك الحمد على انك أوتيت بصائرنا ، وأصبح ما كان مجلًا من العلم في كتبنا السابقة مفصلاً في هذا الكتاب ، فقد جاء في كتابي « التاج المرصع » مانصه :

« فن هذا ترى أن الرؤساء والمرؤسين مشولون عن أهمهم ، وهذا معنى مسألة الانتخاب والشورى ومجلس النواب وهكذا ، وفي آية أخرى : « ولوترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين » الإيمان هو المعرفة والعلم بالله وبغيره من المخلوقات دني أو دنيوي فإن هذا معناه في اللغة « قال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون » فكأنه يقول ما جعلت الأغلال في أعناقهم في الآخرة إلا وقد وضعتها في أعناقهم في الدنيا فقلت أيديهم وعقولهم بالجهل وذلوا لاستبداد الرؤساء وقلدهم وانكسروا على ما لديهم من السطوة وظنوها مناط العلم جازاهم الله في الآخرة وجعلهم جهلاء معذنين محقرين لجهلهم في الدنيا وتبرأ الرءوساء من المرؤسين كما يحصل في الدنيا عند استبداد الحاكمين على المحكومين ووقوع العذاب عليهم ، فتراهم يتبرءون ويقول الضعفاء جهلنا بكم علينا وتدبيركم الخيل في الليل والنهار لتتق لكم الرئاسة وحدكم وتدعوننا في جهلنا نرسف في قيود الليل والجهل ، وترسلوا علينا غاشية من سحب الجهل المزجة بعواصف المكر المدبرة بأيدي استبدادكم وظلمكم « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » « أولم يهدطهم كم أهلكتنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك آيات أفلا يسمعون » . أمرنا أن ننظر آثار الأمم ، ونحفر الآثار ، ونقرأ الأحجار ، ولم يكفه ذلك حتى قال إن في ذلك آيات أي علوما وآدابا وأخلاقا ثم قال « أفلا يسمعون » ما خطه الأولون ، وزيره الأقدمون ، في مطمورات الأرض « ولقد كتبنا في الزبور من بعد ذلك أن الأرض يرثها عبادي الصالحون » وعد ببقاء الأمم النافعة الصالحة في الأرض كما وعد باهلاك الأمم التي لا تنفع لعمارتها « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » ولقد قمتنا في هذه الآية أنه صلى الله عليه وسلم أرسل كتابه إلى الملوك بهذا الوضع كما في البخاري ، وفسر الرابعية بسن السن وتشرية الشرائع ، تغاطب النبي صلى الله عليه وسلم الملوك بالصيغة النياية ، ونبذ الاستبدادية ، ولذلك نرى العلماء يعتبرون عندنا الاجماع من الأدلة الشرعية فكأن القرآن إذ ظهر في الشرق ظهرت ثمرته في الغرب ، فكأن الشرق إلى الآن لم يستيقظ من غفلته ، فسبحان مقسم العقول والحظوظ ، أكثر قصص القرآن وردت للعمران ، وسيرد عليك عند التفصيل قصة فرعون وموسى وما كان من إذلال بني اسرائيل واستكبار فرعون وقومه وتكوين دولة جديدة من الأمة الصغيرة في الشرق من سوريا وهم بنو اسرائيل « ونريد أن نمنح على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » يشير إلى أن الضعيف متى صبر أضحى ذا شوكة الخ وترى يوسف وقصة عاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط وقوم نوح وقصة آدم وخلافته في الأرض ، وكل منها له قسط من العمران ، فعاد أهلكتوا بظفانهم ، وثمود باقتراثهم ، وقوم شعيب بتطيف الكيل ، وقوم لوط باللواط ، فقلّ النسل ، وقوم نوح هلكوا لأنهم لا يصلحون لعمارة الأرض وقصة آدم تشير إلى أنه وبنيه خلفاء الله في أرضه ، متساوون في الحقوق ، ولتقتصر على هذا القدر من الكتاب وهاك ماورد في السنة من جل تريك علامات دنق أجل الأمة وسقوط الدولة ، فأخبر صلى الله عليه وسلم أن أسافل الناس اذا علوا على الحكومة سقطت الأمة وتقلص ظلها ، وعبر عنه بتناول رعاة الابل في البنيان ، وقال أيضا :

إن الرجال إذا كثروا من الاسراف واقتناء الجوارى كان علامة على دنو زوال الأمة من الوجود ، وعرفه بأن تلد الأمة ربها أي سيدها ، وفي هذا القول معنيان مصطحبان : كثرة النساء ، والاسراف بينهما ، واختلاط الأجناس ، فاذا اتخذ الرجال الاماء وهن من أمة أخرى جرى اللسان واختلط الجنس وضع كيان الأمة ، وسقطت من شايخ مجدها ، ورفيع قدرها ، وزالت وحدتها ، كما ذكره العلامة (سبنسر) الفيلسوف الانجليزي للفيلسوف الياباني ، إذ سأله عن اليابانيين أينزوجون من الاورويين ؟ قال كلا ، لئلا يختلط الجنس ولا يحفظ السكان ، ولا يلتئم الزوجان ، وعمله بعلة صحية ، ونحن نعلل بالصحة والاجتماع معا ، والحديث في البخاري : « كان رسول الله ﷺ بارزا للناس فأنام رجل فقال ما الايمان ؟ فقال الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالبعث . قال : ما الاسلام ؟ قال : الاسلام أن تعبد الله ولا تشرك به ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان وتحج البيت الحرام . قال : ما الاحسان ؟ قال : الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فإنه براك . قال : ما الساعة ؟ قال : ما السئول عنها بأعلم من السائل ، وسأخبرك عن أسرارها اذا ولدت الأسماء ربها ، واذا تطول رعاة الابل البهم في البنيان في خمس لا يعلمها إلا الله ، ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام . الآية) ثم أدبر فقال ردوه فلم يروا شيئا فقال هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم » وعبر عن المعنى السابق بما هو أوضح في حديث آخر . قال : « اذا أضيئت الأمانة فانتظر الساعة » ، وفي حديث : « إن من أسرار الساعة أن يقل العلم ، ويكثر الجهل ، ويظهر الزنا ، وتكثر النساء ، ويقل الرجال حتى يكون للخمسين امرأة القيم الواحد » ، وفي حديث : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى اذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤساء جهلاء ، فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا » اهـ

وأشراط الساعة هنا المراد بها الصغرى وهي الدلالة على خراب أمة من الأمم ، أو قبيلة ، أو قرية ، ولا ريب أن الزنا يقلّ النسل ، وظهور الجهل من أشدّ العوامل في التخريب ، وارتفاع الأسافل بارتقاء المناصب ، بلا استحقاق يورث ضياع الأمة ، وقلة الرجال بالحروب وكثرة النساء داعيان لتغير الأمة وزوالها كما حصل في زماننا فقد قتل التعاليم ، الرجال حتى لم يبق إلا الجائز والنساء في كثير من القبائل ، ولم تكن تجد لنحو خمسين امرأة إلا شيئا أوصيا واحدا ، وهكذا اختلط العشائر ، فهذا كله من أمارات زوال الأمة من الوجود كما عليه علماء العمران في زماننا . انتهى من كتابي التاج المرصع .

بالت شعري كيف يعرف أذكياء المسلمين بعدنا تفصيل ما أجملناه في « التاج المرصع » حتى يصبريقنا عندهم إلا بما نقلناه هنا ، ألت ترى فيما تقدم كيف اضطربت دولة الاسلام لما ولدت الأمة ربها فأصبنا نرى الخيزران وهي جارية أما للرسيد وللهادي ، وكم من جوار اشترت بالمال ، وأصبحت أمهات للخلفاء . يا هجبا ! أليس هذا الحديث الوارد في البخاري إنذارا لأمة الاسلام أن يقفوا استيلاء الإمام ، غفل المسلمون عن هذا وجهلوا مقاصد النبوة ، لافرق فيهم بين العباسي والأموي والشيبي والتركي والأندلسي ، كل هؤلاء تراهم فيما مرّ بك من هذا الكتاب سواسية في جهل مقاصد النبوة ، وهاهوذا جاء الفيلسوف (سبنسر) يقول بمنع ذلك خيفة الفساد .

لك الحمد اللهم على نعمة العلم ، وعلى نعمة الفهم ، وعلى فضل التوفيق والانعام بالالهام . هذه صحيفة الأمم الاسلامية منشورة بيننا واهمة جليلة ظاهرة . صحائف منشورة ، وكتب مسطورة ، وضع فيها اتباع الخلف للسلف ، والأول للآخر .

اللهم أنت مالك الملك حكمت على هذا الانسان أن يكون موثقا في أغلال التقليد ، مقيدا في أمفاد

من حديد ، شابهت قلوب أوائله قلوب أواخره ، واستنّ المتأخرون سنن المتقدمين ، وسار الأبناء على سنن الآباء فأحاطت بهم النذر ، وأهلكتهم الأمم ، فهم في ديارهم صرعى ، كأنهم أمجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية ، طمّ الجهل وعمّ ، واستحوذ على العقول فأصمها ، وعلى الأمم فأرداها ، فبنا للجهالة ، ونصا للصغار والمهانة ، ألم يكن فيهم منذرون ؟ أفلم يكونوا يعقلون ؟

غشيتهم الغواشي ، وأخذوا بالأقدام والنواصي ، فطاحوا طحين الرسي وهم غافلون . سمعوا أحاديث الاماء ، وانهم بلدن سادتهم ، وأن ذلك من علامات الانحطاط والتدهور والهلاك ، فجعلوا أصابعهم في آذانهم واستكبروا استكبارا ، وسمعوا أن رعاة الشياه اذا تطاولوا في البنيان مزقوا شرّ مزق وأصبوا صرعى هالكين ، سمعوا ذلك فغأغنى عنهم ما كانوا يسمعون ، ولأنفادهم ما كانوا يقرءون ، فهأنت ذا ترى مبانيهم الشامخة ، وقصورهم العالية ، وبذخهم واسرافهم ، فغأغنى عنهم ما كانوا يبنون ، ولاحفظ مدنهم ما كانوا يصنعون .

يا الله أنت الوكيل ، أنت الحفيظ ، أنت العليم ، أنت المنتقم . دبر الخلفاء الراشدون الامور بالشورى والعدل وزهدوا في المظم والملبس ، وجعلوا أنفسهم خلفاء الله والناس أبناءهم « تخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات » فلقوا غيا ، طاح مجدهم في الجوارى الحسان ، واقامة البنيان ، والتغالى في الزخرف والزينة ، خاق بهم ما كانوا به يستهزئون .

تعالى العباسيون والأندلسيون والعثمانيون والمصريون المتأخرون بعد محمد على باشا في القرن الماضي ، تغالى هؤلاء في البذخ والاسراف ، واقامة المباني ، والتفاخر بأمل دول أوروبا بارياء وسمعة ، فأضاعوا الأموال فهل مانعتهم حصونهم من الله ، وهل مانعهم اسرافهم وريائهم واخذانهم واخوانهم والمتعلقون لهم . كلا . بل أناهم الله من حيث لم يحسبوا ، وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي أعدائهم ، كل ذلك حصل في مصر في زماننا كما حصل في الأندلس والدولة العباسية وغيرهم .

اللهم اننا نعلم أن خلفاء الدولة العباسية وان كانوا هم الذين رفعوا شأن الأمم الاسلامية حينما فأن توارثهم الخليفة كما يورث المتاع أودى بتلك الأمم وأضاعها ، وفرق شملها ، وأذاقها لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

ارتفاع الدولة

فأما ارتفاع شأن الأمم الاسلامية بالدولة العباسية ، فذلك ما يقوله العلامة (سديوالقرنسي) في تاريخه المسمى « خلاصة تاريخ العرب » فقد جاء فيه في صفحة ١١١ وما بعدها ما نصه :

« كان للعباسية ديوانان : ديوان وارد وصادر أموال المملكة ، وديوان النظر في مصالح الرعية وأحكام الدولة ، يصدق على الأحكام الصادرة من الخلفاء ، ثم استبدلوا الأول بأربعة دواوين لمراتب العسكر والخراج وتولية أرباب الوظائف الصغار ومقابلة الحساب وتعديله ، ثم اتخذوا حاجبا يدخل سفراء الملوك إلى الخليفة ويحكم في القضايا المهمة عند رفعها إلى الخلفاء ليربهم من النظر فيها ، واتخذوا وزيرا ينظر في القضايا قبل تبهم الحكم فيها ، ثم جددوا خراجا على أراضي المسلمين وكذا اليهود والنصارى مع جزية مقدارها من الفنى ثمانية وأربعون درهما ، والمتوسط أربعة وعشرون ، والفقير انا عشر سوى ما يرد عن عوائد الجمارك واستخراج المعادن واجارة أراضي وارث من لاوارث له وغير ذلك .

بلغ وارد المملكة سنة في زمن الرشيد أربعة ملايين وأربعمائة وعشرين ألف دينار ومائتين واثنين وسبعين مليوناً وثلثمائة وخمسة آلاف وثمانمائة درهم ، والدينار إذ ذاك يساوى مثقالا أو اثني عشر فرنكا إلى ثلاثة عشر

والدرهم يساوي ستة دنانق ، وكل ستة دراهم تساوي سبعة مثاقيل .

الأعمال العامة والادارة زمن العباسية

لما كانت عليه مالية العباسية من حسن الانتظام شرعوا في أعمال مهمة ، فرتبوا ببغداد ديوان ضبط يمنع عدوان بعض الناس على بعض ، ويحفظ الأملاك لأربابها ، ونظموا عسائين يطوفون ليلا لمنع السرقة ، ورأوا عرب البادية عادوا بعد انقطاع الحروب إلى العيشة في البيداء مع التهب والسلب ، فرتبوا لقافلة الحج أميرا يحفظها ، ورتبوا أوقافا لاهياء المساجد والمدارس ، وبنى الهادي في الحرب المتمد من بغداد إلى مكة خانات وصهاريج تلجأ إليها الحجاج والقوافل من الحر والعطش ، ورتب بين الحجاز واليمن من الخيل والجمال بريدا يوصل الأخبار إليها كما رتب معاوية بن أبي سفيان بين بنادر المملكة العربية سعاة لذلك .

وابتكر المهدي تولية محاسب يؤتمن على الضبط والربط البلدي يطوف بالأسواق حينما بعد حين بجنود ينفذ بهم أوامر ديوان الضبطية ، ويحقق أوزان ومكاييل البياعين ، فإن وجد مخالفا أذبه فوراً أمام حانوته ، وقد جمعت العباسية ما يبغداد من الدفاتر المشتملة على أوامر أسلافهم ليرجعوا إليها ، وبالجملة قد أبدوا أولاً الحمية في الحروب ثم عدلوا عنها إلى تحقيق العز والرفاهية لمملكتهم حيث أخذوا يحرّضون الناس على استعمال أذهانهم في الامور النافعة حتى وصلوا سريراً إلى درجة عليا في التمدن ، وتقدموا على اليونان في التجارة والصنائع والفنون الأدبية وغيرها التي ظن اليونان أن لاسابق لهم فيها .

الفلاحة والصنائع زمن العباسية

استخرجت العباسية معادن الحديد في خراسان ، والرصاص في كرمان ، ونسجوا الأقمشة في مدائن العراق والشام لاسيا الموصل وحلب ودمشق ، واستخرجوا القار والنفط ، وطينة الأواني الصينية ، ورخام طوريس ، والملح الاندراي ، والكبريت . وأظهر ذوا الفنون الميكانيكية تقدمات يشهد بها ما بعثه الرشيد إلى شرمانيه ملك الفرنسيس من الساعة الكبيرة الدقاقة التي نجح منها أهل ديوانه ولم يمكنهم معرفة كيفية تركيب عدتها ومع ذلك لم يكن في عصر العباسية أهم من صناعة الفلاحة التي بمهارتهم فيها أظهروا حزايا فوا كه الفرس وأزهار اقليم مازندران .

الفنون الأدبية والصناعية زمن العباسية

كان فنا النقش والحفر متقدمين لدى العرب الجاهلية الصائمين التصاور الانسانية والتمثيلات الالهية حتى جاء القرآن الكريم بمنعهما ، فوفقا عن التقدم حتى اشتغل بهما العباسية في غير تلك التصاور فتقدموا فيهما كفنّي الموسيقى والعمارة ، فقد بنوا مباني فاخرة ببغداد والبصرة والموصل والرقه وسمرقند ، وشغفوا مع ذلك بالعلوم الأدبية ، فأحضروا من القسطنطينية أحسن الكتب اليونانية ، وترجموها إلى العربية ، وقصوا ببغداد مدرسة « السن » لتربية المترجمين تحت نظارة طبيب نسطوري ، ورتبوا خمسة عشر ألف دينار لمدرسة يتعلم بها مجتازا ستة آلاف تلميذ من الفقراء والأغنياء ، وأنشأوا كتباً خانات رخصوا الدخول فيها لمن أراد ، فانتشرت اللغة العربية في سائر جهات آسيا حتى تكلموا بها بدلا عن لغتهم ، واعتاد المأمون ومن اقتدى به بعده حضور الدروس العامة التي يلقيها المدرسون ، وأطلعوا شمس العلوم الرياضية ، وبنوا أرصادا بها آلات مجيبة للاستكشاف الفلكي ، ومستشفيات يمتحن فيها من أراد أن يوظف عدة امتحانات ومعامل كيمياء لاستكشاف النباتات ، إلا أنهم وقعوا في ضلالات بتصديقهم بمظنوناتهم التنجيم ، وبالمسائل النظرية المتعلقة بعلم كيمياء الفضة

والذهب المسماة بالصنعة الالهية وعلم جابر ، لكنها ساعدتهم على التقدم في علوم مكتسبة بالمشاهدة .
ومكثت المدرسة البغدادية على رونقها الباهر نحو مائتي سنة تقريبا ، فكان العباسيون في ذلك أسعد حفا
من شرمانيه الذي أراد أن ينقذ مملكته من الخسونة والجهالة بتنوير عقولهم بأعلم من في عصره من الفرنج
فان ذلك عدم بعد هلاكه .

فخامة العباسية

لاستحواذ العباسيين على أموال كثيرة مع عدم جيوش دائمة ينفقون عليها أبدوا من الزينة والزخرفة
أهبط المناظر ، ومنحوا منحاً وافرة ، وعملوا أعمالاً فاخرة ، نثروا الذهب في قصورهم وبساتينهم ومساجدهم
وأفق المهدى في حجه ستة ملايين من الدينار ، وصرفت زبيدة زوجة الرشيد مليوناً وسبعمئة ألف دينار
على حفر مجرى يوصل إلى مكة المياه من الجبال المجاورة لها ، وكان لباسها من الديباج المبطن بالسمور ، أو
الأقشة المنسوجة بخيطان الفضة ، ونعالها مزركشة باللاتي الثمينة ، وفرق المأمون في يوم أربعمئة ألف
دينار ، ونصب في مجلسه عند قدوم سفير اليونان شجرة ذهب حاملة لؤلؤاً على هيئة الفخار ورب مقترعا به
سهام أكثر من مائتي شخص يأخذ كل منهم سهمه فيجد به أرضاً جسيمة مع ما يلزم لزراعتها من العبيد ،
ويقال : كان بقصره ثمانية وثلاثون ألف بساط ، منها اثنا عشر ألفاً وخمسمئة مزركشة بالذهب ، وبه أيضاً
سبعة آلاف خصي ، منها ثلاثة آلاف من الزنج ، وسبعمئة خفير ، وعساكر تحمي الحواشي الخارجة عنه ،
ووضع المعتصم أساس سامراً قرب بغداد على أرض أعلاها بمصاريف هائلة ، وبنى بها إسطبلات نسع على
ما قيل مائة ألف جواد ، ولما بلغه العباسية من الفخامة وقوة الشوكة بعث شرمانيه إلى هرون هدايا بصمى
النصارى الذاهبين إلى بيت المقدس ، فأجابه إلى ما طلب ، وبعث له أقشة نفيسة ، وعطرا ، وخشبا ذكيا ،
وفيلا ، وخيمة عظيمة على هيئة خيام العرب ، ثم بعث الساعة الدقاقة السالفة . انتهى

انحطاط الدولة العباسية

فأما انحطاط الدولة العباسية فما ذلك إلا بسبب توارث الملك والتنازع عليه ، ولو كانت الخلافة بالشورى لم
يحصل شيء من ذلك ، ولقد قتمنا كيف قتل عشرة من الخلفاء ، وتزيد الآن ما يقوله الاستاذ سديو المتقدم
في كتابه وهذا نصه :

« لقد أحيطت بغداد بالولايات المستقلة من ابتداء هذا الزمن الذي استمر فيه القتل في القواد والوزراء
والملوك المستقلين بالحكم ، وكذا الخلفاء ، فقد قتل من التسعة والخمسين خليفة ثمانية وثلاثون ، وعدّوا
بالجوع ، وأدمان السجن ، أو الرمي في وعاء كبير مملوء نلجا ، ولذا خرج القاهر من السجن مفقوء العينين عليه
نياب بالية يسأل الناس على أبواب المساجد ، وتقلب على الراضى ضابط العساكر التركمانية ، وتصرفوا كما
شاموا في سائر فروع المملكة ، فاخترع منصب امارة الأمراء ، وأعطاه ابن رائق ، فتولى قيادة الجيوش ،
وخزينة المملكة ، وسائر أمور الرعية ، وقرن اسمه باسم الخليفة في الخطبة ، وما زال متصرفاً بالمملكة حتى حنق
منه جندي يسمى « ياقم » فحاصر بغداد وقبض على الراضى سنة أربعين وتسعمائة ميلادية ، وألزمه أن
يولي امارة الأمراء ، فولاه وحكم حتى مات في خلافة المتقي سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة ميلادية اه

اللهم لك المشتكى . اللهم أنت ربّ العباد ، أنت الحكيم ، أنت الذي علمتنا تاريخ أسلافنا ، لنجعلك

نموزبا لنا : لأنك تريد رقي أم الاسلام ، وأم الأرض ، ولن يقوم المجد إلا على أساس ، وهل الأساس إلا ما قام به عمر رضى الله عنه ومن معه من الخلفاء الراشدين ؟ وهل ينبع الناس بمدنا الخلفاء الراشدين اتباعا تاما إلا اذا علموا أن الأم التي هجرت طريقهم ، ونالقت سنهم هالكون ، فهنا نجدان وطريقان محمدان طريق الخير سنة الخلفاء الراشدين ، وطريق الشر سنة الخلفاء الذين ليسوا براشدين ، بل هم قوم لقبائلهم متعصبون .

يارباه هانغن أولاء الآن قدرنا أن نفهم بعض الفهم كلامك في كتابك الكريم ، رباه عرفنا ومعرفتنا قد أثبتنا التاريخ ، أثبت التاريخ أن التتم في الدنيا ذل ، وأن القناطير المنقطرة من الذهب والفضة ذل ، هاهوذا أثبت التاريخ بالأرقام والأعداد والناس شرقا وغربا غافلون ، هاهم أولاء الخلفاء قتلوا تقيلا وسملت أعينهم ، وأخذ بعضهم يسأل الناس على أبواب المساجد ، وكان أحدهم يملك القناطير المنقطرة ، بل المرأة من نساء الخلفاء ربما تملك الملايين من الدنانير ، واذا كنا نرى المأمون في وليمة عرسه لبوران إذ ترف إلى يامر بالنقود فتصب بين السباطين وترفع حتى تكون فوق الموائد ، ويؤمر القوم أن يأخذوه لأنفسهم وهو عشرات ألوف ألوف ، أفليس ذلك يشبه مال قارون المذكور في القرآن ، ذلك الكتاب الذي ذكر تلك القصة ليشرح إلى ما يحصل في البلاد الاسلامية ، وقد حصل فضلا ، نقود وجواهر تنكأ وتجتمع اجتماع مال قارون ، والكازون هم أنفسهم يقتلون تقيلا ، وتسلم أعينهم ، ويسأل بعضهم الناس على أبواب المساجد ، أليس هذا يشابه ما حصل لقارون ، إذ قال له العلماء لانفرح بالمال والزينة ، ففرح نخسف به وبماله الأرض ، فأصبح الذين تمنوا مكانه وهو في زيفته يحمدون ربهم على أنه نجاهم من الزينة والزخرف وكثرة المال . هذا هو بعض أسرار القرآن ، هاهي ذه قصص القرآن فسرنا التاريخ ، لهذا أنزل القرآن ، أنزل أقوالهم ظهر أفعالا ، أليس هذا هو قوله تعالى : « فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرم من ، وأما اذا ما ابتلاه فقد ربه عليه رزقه فيقول ربى أهانن ، كلا بل لا تكرمون اليتيم الخ »

سبحانك اللهم وبحمدك ، أسمعتنا كلامك بدم التتم ، وأرىنا التاريخ فأثبت هذا الذم أن المسلمين اذا نبذوا التاريخ ظهريا كما هو حاصل الآن فليسوا خيرا ما أخرجت للناس ، لأنهم لا يفهمون حقائق القرآن إلا بالتاريخ ، إن جيل المسلمين بعدنا خير من جيلنا ، لأن التاريخ والفلسفة والقرآن ستتحذ في عقولهم ويخرج جيل جديد لم يحلم به أهل الأرض ، ويكون خلفاؤهم بالشورى ، وحكامهم جميعا بالشورى ، والمال موزع على مستحقه ، فلا اسراف ولا ظلم ، ويكون المسلمون كالجسد الواحد .

سينظر بعدنا المسلمون ما كتبناه وكتبه غيرنا ، ويقولون : نحن رأينا الطريقين ، وقرأنا الترسين ، وهدينا النجدين ، فلنتهج سنن الخلفاء الراشدين ، ولنجعل الخلافة بالشورى ، ولا نخصها بأمة ما ، ولا بقبيلة ما ، ولا بقبيلة ما ، وسنجعل الخليفة فينا أقرب في أخلاقه إلى أخلاق عمر ، وأخلاق الخلفاء الراشدين الآخرين واذا مات الخليفة أقمنا آخر بالشورى ، وراعينا قوته العقلية والعلمية ، وقوة جيشه ، فأما مراعاة الأنساب ، فهذه تصيب وتخطئ ، وهي ضلال مبين ، اللهم إلا اذا توافرت الشروط وقامت الحجج فإن ذلك لا مانع منه ، والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .

ثم يقولون : إن من قبلنا ظلمهم الملوك ، نخشوا بأسهم ، وخافوا بطشهم ، فلم يؤدبهم ، ولم يهذبهم ، فهلك الملوك منهم والسوقة أجمعون . إن الأمة كلها أشبه بجسم واحد فاذا فسد عضو تداعت له سائر الأعضاء إن الله امتحن أسلافنا بظلم ملوكهم فلما لم يقومهم سلط عليهم أمما آخرين ، وقد جعل ذلك درسا لنا فنصن عن أمراتنا مسئولون ، لا نضرب كما ضرب آباؤنا ، لا نظلم اليوم في بلاد الاسلام ، نحن أصبحنا نفهم آية : « واذا تصاحبون في التاريخ يقول الضعفاء للذين استكبروا الخ » وتبين لنا بها أن المحكوم مسئول عن حاكمه

وأن الشورى هي القانون العام في بلاد الاسلام ، فنحن مسئولون عن سير مملكتنا .
كيف تكون النبوة المحمدية المبنية على الأساس القوي قد قامت من قبلها عقول راجحة ، ونفوس قوية ،
برهنت على أن تملك العقارضار بالملوك وبالرعية ، فهذا سقراط يقول : « إن الملوك والأمراء والجند إذا ملكوا
عقارا أصبوا ذنبا جاعلين آكلين ، بدل أن يكونوا كلابا حارسين ، ، وكيف جهل القائمون بالأمر هذه
الحكم النبوية ، فهاهوذا اليوم ظهر أن العقل وافق الوحي ، فليكن أبنائنا خيرا من آبائنا ، لأنهم يجمعون
بين النقل والعقل فيكون ذلك يقينا عندهم لا مجرد إيمان .

هاهم أولاء خلفاء الاسلام وملوكهم المتأخرون قد بنوا القصور ، وزخرفوا الدور ، ألم ترفها مرة بك أن
هؤلاء الذين بنوا وشيدوا وأسرفوا هم الذين سقطوا وذهب ملكهم ، أنا لست أقول أننا لا نبني . كلا . ولكني
أقول نراعي العقل والأحوال ، ولا نكون مسرفين .

فهاهي هذه بلاد الحجاز في زماننا ، وبلاد اليمن ، وبلاد نجد ، ليست عندهم حصون كحصوننا في مصر ،
ولازخرف كزخرف بلادنا ، ولا قلاع كقلعتنا ، ولا ثغور كثغور بلادنا ، ولكنهم مستقلون ، ونحن في مصر من
الاستقلال محرومون ، ألا ترى أن ذلك مصداق للنبوة ، وأن الاسراف في البنين ، وفي الجوارى والقصور
والدور ، والزخرف هو المضعف للأمة ، والمخرب للعمران ، صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم انظر إلى البصرة والكوفة ، هما من المدن الاسلامية التي اختطها العرب لأنفسهم ، وكانوا قبل الاسلام
أهل ماشية وخيام وخيل ، يكرهون الاقامة ضمن الأسوار ، وينفرون من الانحصار في المدن ، فلما تأيد
الاسلام واجتمع العرب على فتح الأمصار في العراق والشام ومصر ، كانوا في بادئ الرأي إذا ساروا إلى غزو
أوقف اصطحبوا نساءهم وعبائهم ، فإذا فتحوا بلدا أقاموا في ضواحيه بخيامهم وأخيبتهم وهو معسكرهم ،
وكان عمر بن الخطاب يشترط على جنده المقيمين في الأمصار أن لا يقيموا في مكان يحول الماء فيه بينهم وبينه
حتى إذا أراد أن يركب راحلته إليهم ركب ، كذلك فعل عمرو بن العاص في الفسطاط وسعد بن أبي وقاص في
الكوفة والبصرة وكانت كلهما مضارب لجند العرب الفاتحين يعبرون عنها بالرابطة أو المعسكر ، فاذا طال بهم المقام اختلطوا
الأسواق وبنوا المنازل والقصور ، ذلك كان شأنهم في صدر الاسلام فبنوا البصرة والكوفة على هذه الصورة
على أنهم ظلوا نازعين إلى البسداوة بعد تحطيط البصرة لأول عهدها ، فبنوا مسجدها ودار إمارتها
بالقصب ، فكانوا إذا غزوا نزعوا ذلك القصب وحفظوه حتى يعودوا من الغزو فيعيدوا بناءها كما كان ،
واعتبر ذلك بالكوفة أيضا .

فأول من عمر البصرة والكوفة الفاتحون وأهلهم ، ثم اتسعت الفتوح الاسلامية شرقا وغربا ورسخت
دولة المسلمين حتى نزح العرب بأهلهم وخيلهم إلى تمام السعة العيش في البلاد العامرة من مملكتهم الجديدة
وهم يختارون أقربها إلى البادية بلدهم القديم ، فالبصرة والكوفة أوفى البلاد لهم لأنهما على الحدود بين
جزيرتهم والشام والعراق . انتهى

اللهم إنك أنت الملمم ، أنت المنعم ، أنعمت على بالتوفيق ، وأيدتني ، وشرحت صدري ، وقد أوضحت
للأمة الاسلامية بعدنا هذا المقام أشد إيضاح ، فلك الحمد والنعمة والملك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جددك ،
ولإله غيرك ، وأنت رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، انتهى الكلام على الفصل الأول الخاص بآية « أذهبتم
طيبانكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها الخ » فلنشرع في الفصل الثاني في الكلام على قوله تعالى « واذكر
أنا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف » فأقول مستعينا بالله :

الفصل الثاني في قوله تعالى : واذكر أفعالهم إذ أنذروهم بالأحقاف

وبيان مساكنهم ، وخریطة بلادهم ، وما أشبه ذلك

لعلّ الكلام في عاد يحملنا على الرجوع إلى مجموع الأمم العربية في أقدم الأزمنة فنقول : يقال ان سكان وادي النيل القدماء كانوا من الشعوب الحامية نسبة لحام ، وسكان ما بين النهرين دجلة والفرات كانوا من الشعوب الطورانية . أما الساميون فهم كانوا بين وادي مصر ووادي العراق . ويقال إن الساميين دخلوا مصر في عصور قديمة جدا قبل التاريخ أيام العصر الحديدي ، وهؤلاء الساميون أدخلوا صناعة الحديد بمصر . ثم إن الساميين في الأزمان المتأخرة هجم جماعة منهم على بابل وآخرون على مصر ، فالذين هجموا على بابل ابتداء حكمهم من سنة ٢٤٦٠ ق.م وانهى سنة ٢٠٨١ ق.م وأول هؤلاء سامواي وسادسهم جورابي المشهور . أما الذين هجموا على مصر دولة (الناسو) الهيكسوس من سنة ٢٢١٤ ق.م إلى سنة ١٧٠٣ ق.م فهؤلاء الناسو أي الرعاة واخوانهم الذين هجموا على العراق كانت لهم نهضة تشبه النهضة العربية الاسلامية من بعض الوجوه ، وهذه النهضة كما ترى قبل يومنا هذا بنحو أربعة آلاف سنة والذي يهمننا من هاتين الدولتين العربيتين المصرية والبابلية أن نفتقل من الكلام عليهما إلى الكلام على عاد التي نحن بسدد الكلام عليها .

ياسبحان الله : أنا يوما توجهت إلى دار الآثار المصرية التي فيها أسلحة وملابس وحلى قدماء المصريين فكنت أجد العجب مما أرى ! فإن السيوف والرماح والحلى هي هي بعينها ما نراه اليوم في جزيرة العرب ، ثم اننا نسمع في القرآن أن هذه الأمم لهم أبنية ومصانع ، وأن نمود نحتت من الجبال بيوتا ، وهذه الأعمال بعينها هي التي يعملها قدماء المصريين .

فهل لك أن أقصّ عليك ما خاطبنا به المرحوم أحمد بك كمال وهو أكبر عالم أثري في بلادنا المصرية ، بل في بلاد الاسلام . فقال صاحبي : إن حديثه تقم في هذا التفسير ، فأشر إليه اشارة فقط . فقلت : حقا انه قال : انه وجد مكتوبا على حائط الدبر البحري في أيام الأسرة الثامنة عشرة مانصه : « إن المصريين لما كثروا خرج منهم جماعة إلى بلاد شمال افريقيا ، وجماعة إلى بلاد العرب . وقال لنا معاشر مدرسي اللغة العربية : أنا أرى أن عادا ونمود هم الذين نزحوا إلى بلاد العرب . فقلت أنا والمرحوم حفني بك ناصف نحن لا مانع يمنعنا من القول بهذا ، ولقد دهشنا لما أثبت لنا بكتابه أن اللغة الهبروغليفية وهي المصرية القديمة عربية دخلها التحريف ، بل هي أوسع من العربية ، وألف كتابا في ذلك ضخما ، وقرأ كثيرا منه لنا .

فهذا كله يؤيد ما قلنا أن الساميين هم الذين نزحوا إلى مصر من قبل التاريخ ، فلنرجع إلى ما نحن بسدده من أمر عاد فنقول : إن عمالقة العراق لما خرجوا منها ، وعمالقة مصر أيضا لما خرجوا منها تفرقوا في جزيرة العرب ، وهؤلاء منهم العرب البائدة مثل عاد ونمود وطسم وجديس ، فأما عاد فانها تعرف بأنها (عاد إرم) إرم اسم للقبيلة ، فيقولون عاد إرم ونمود إرم ، والقبائل البائدة كلها من نسل (إرم) ويعرفون بالأرمان ، ويؤيد ذلك أن اليونانيين ذكروا في جلة قبائل اليمن حوالي تاريخ الميلاد قبيلة يكتبونها بلسانهم ADRAMITAI وقد ينادر إلى الذهن أن المراد بها « حضرموت » ولكن هذه يكتبونها باليونانية XADRAMOTITAI وباللاتينية CHATRAMOTITAI وقد أوردوا اللفظين معا ، فلأرادوا قبيلة واحدة لما ذكروها معا ، فلأرجح أن ADRAMITAI يراد بها العادرميون أو العادريون .

والعرب يضربون المثل بقدم عاد ويريدون انها أقدم من العمالقة ، ولا سبيل إلى تحقيق ذلك لأن ما ذكروه عنها محشو بالمبالغات والحرافات كقولهم : إن طول الرجل منهم ٧٠ ذراعا إلى مائة ذراع ، ورأس

أحدهم كالنبة العظيمة ، وعينه تفرخ بها السباع ، ولم يذكروا من ملوكها إلا بضعة أولهم عاد قالوا انه عاش ١٢٠٠ سنة ، وانه تزوج ألف امرأة ، وولد له أربعة آلاف ولد ذكر لصلبه ، واعتدل بعضهم فجعل عمره ٣٠٠ سنة ، ولاتخولوه هذه الخرافة من حقيقة ، فالظاهر أن العرب كانوا يسمعون بقدم هذه الأمة ولا يعرفون من ملوكها إلا نفرا قليلا ، فجعلوا أعمالهم طويلة لتسع ذلك القدم ، وترتب على طول أعمالهم تعدد الزوجات .

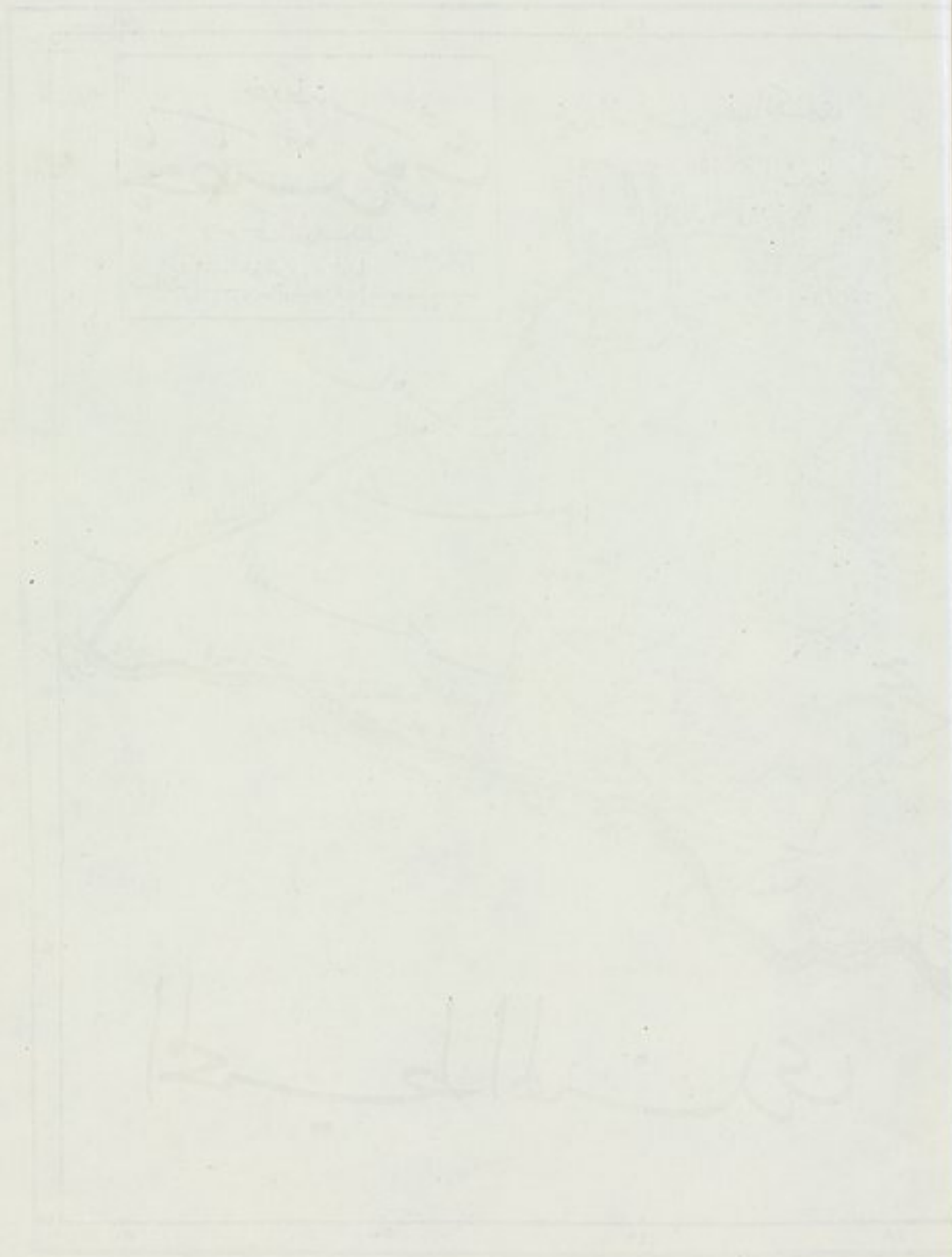
وعثر النقبون في آثار بلاد العرب على تنف من بقايا كثير من الدول القديمة ، وعرفوا كثيرا من أحوالهم إلا عادا فانهم لم يروا لها ذكرا . على أن العرب تعودوا اذا رأوا أثلا قديمة عليها نقوش لا يعرفون صاحبها أن يسموها « عادية » .

وجاء في معجم ياقوت الحموي بمادة جش قوله : « جش إرم جبل عند آجا أحد جبلي طي » ، أملس الأعلى ، سهل ترعاه الإبل والحجر ، كثير الكلا ، وفي ذروته مساكن لعاد إرم ، فيه صور منحوتة في الصخر . وقال في مادة صير : « والصير جبل باجا في ديار طي » كهوف شبه البيوت « ولعل بين تلك النقوش وهذه البيوت نسبة ، فعسى أن يوفق الرواد إلى كشفها وقراءتها كما قرءوا مثلها في حوران والعلاء ومدائن صالح وتيماء واليمن انتهى . ملخصا من كتاب تاريخ العرب قبل الاسلام

هذا آخر ما عرفه علماء زماننا في التاريخ ، فهل لك أيها الأخ أن أقص عليك أنباء عجيبه ، ذلك أن زماننا هذا تقاربت فيه الأمم ، وامتدت الطرق ، وسهل السفر ، وأنا لا ينسني لي في هذا التفسير أن أكتب من أفواه الرجال ، نقيب الواحد لا ثقة به ، ولكن جاء صديق من متخري جي الأزهر فأسمعني كلاما سمعته من كثير غيره ، ولكنني لم أرد أن أكتب عن أحد شيئا ، فقال لي هو انه زار قبر نبي الله هود وسمع بقبر نبي الله صالح في تلك البلاد . فقلت له انظر هذه الخريطة (انظرها بعد هذه الصفحة) وقد كان أهداها لي بعض الفضلاء من بيت السقاف المشهور ، فلما نظرتها ورأى مكان قبر هود . قال : هذه الخريطة حق . ولقد رأيت في قبر نبي الله هود نقوشا بعيني رأسي لا أعرف أنا ولا غيري منها شيئا ، فاذا رحل بعض علماء الآثار إلى تلك البلاد والوصول إليها سهل ، فان ذلك يفتح بابا للعلم واسعا ، فعسى أن يقوم أرباب العلم بهذا ليرفعوا النقاب عن وجه التاريخ اه

فانظر إلى العجب العجيب ! وكيف نرى قبر هود عليه السلام في واد قريب من قبر صالح عليه السلام ، وانظر كيف نرى وادي المسيلة الذي فيه قبر هود متصلا بوادي سر الذي فيه قبر صالح ، وكيف نسمع أنهم في تلك البلاد يشدون الرحال لزيارة قبري النبيين كما يزور أهل بلادنا قبر السيد أحمد البدوي رضي الله تعالى عنه





٤٨

٤٩

٥٠

٥١

خريطة
حضرت هوت
وسولطان الى عدن
مقياس الرسم ١:١٠٠٠٠٠
اسطوانات [----- طرقة القوافل. ٥ المدة] [--- مجاري المياه. ٥ القوي]

١٧

١٦

١٥

١٤

١٣



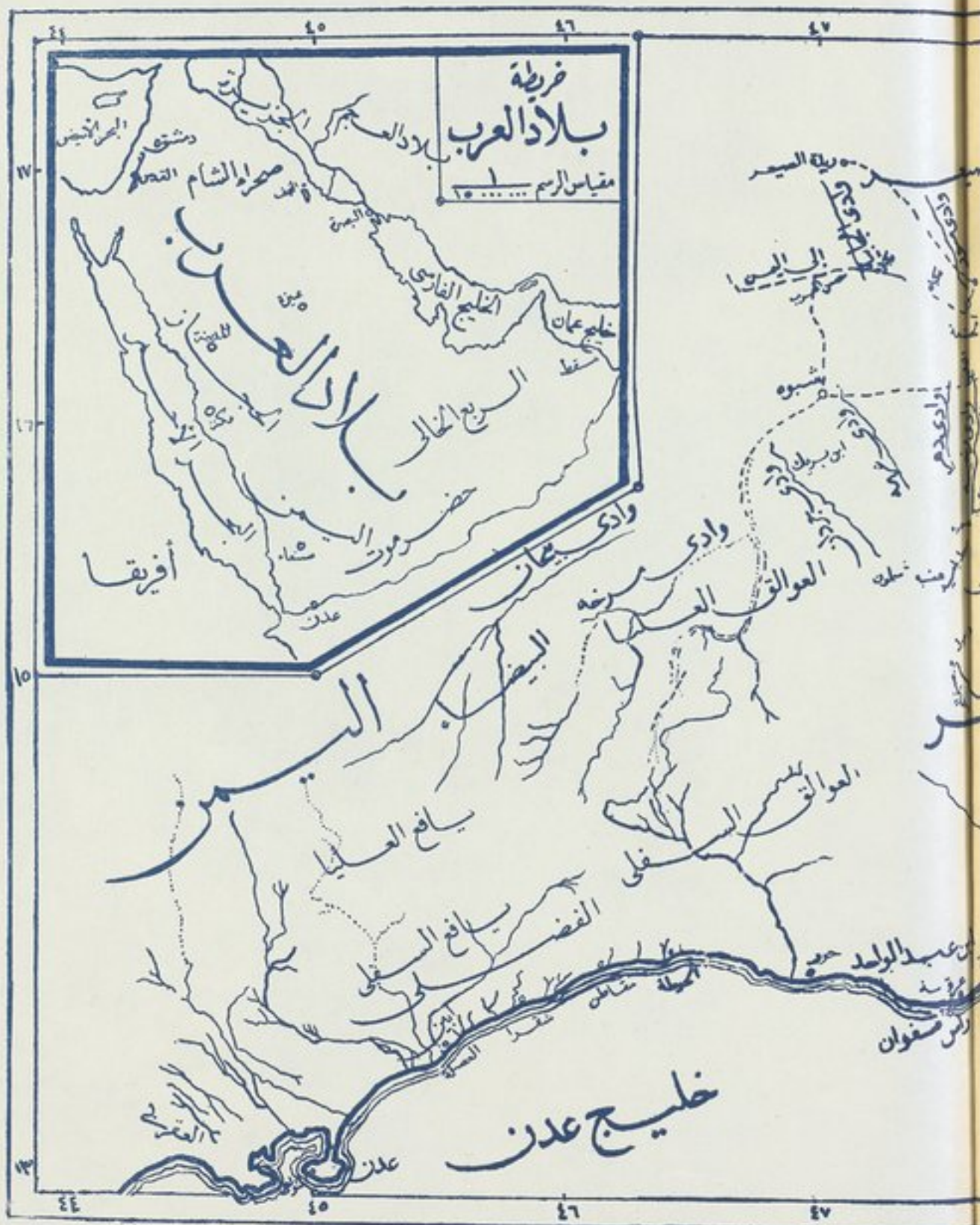
المحيط الهندي

٤٨

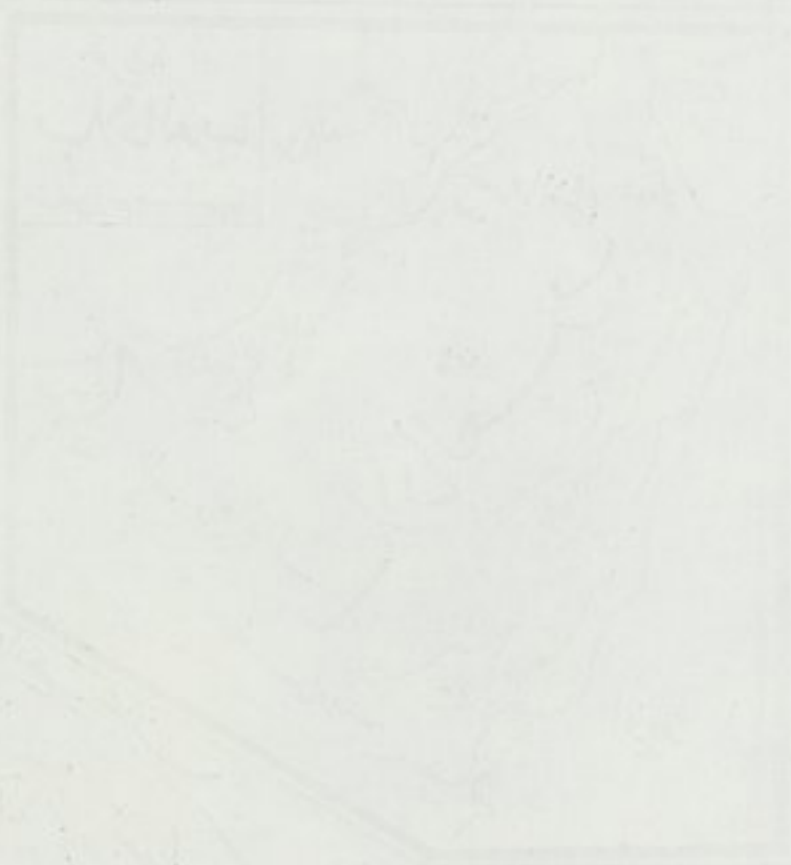
٤٩

٥٠

٥١



تمت في المطبعه المطبوعه في بيروت في سنة 1300



هذه هي الخريطة التي رسمها أهل البلاد بأنفسهم ، وهم أعلم ببلادهم ،
وليس بمجيب أن نسمع في التاريخ أن مما كان سببا في نفي العلامة « ابن رشد »
أنه لما سمع أحد جلسائه يقول : هذه ريح صرصر طائفة ، كالتى أهلكت عادا
قال على الفور ، وهل ثبتت قبيلة عاد حتى ثبتت هلاكها بل ريح . أقول ليس
هذا بمجيب ؟ لأن اللواصة كانت عسيرة جدا ، وإذا صح ما في هذه الخريطة
فانه يؤيد الرأى القائل : إن ثمود كانت في الجهة التى فيها عاد على هذا تكون
مدائن صالح من البلاد التى كانت تدخل تحت حكمهم

هذا وأنا نحمد الله عزّ وجلّ إذ هيا اليوم للمسلمين أسباب الرقى ، ومن
ذلك أن راسم هذه الخريطة « السيد أحمد بن عبد الله السقاف » قد أخذته الحمية
الشريفة والنخوة العربية ، وأنف أن نكون تابعين للأمم ، فرسم هذه الخريطة
وجعلها مواثقة للواقع بشهادة أهل البلاد .

ألهم ألم الشبان أن يذروا ذلك النوم العميق الذى وقع فيه أسلافنا للتأخرون ،
وأن يبذلوا الجهد ، ويقوموا بنصيبتهم من العمل
إن الله عزّ وجلّ كما فرّق للنافع على الأرض فرّق اللواهب على أفراد نوع
الانسان ، ولن يعطى الأمم ما فى أرضها من منافعها ، ولا ما فى هوائها وما فيها من
عجائب إلا إذا برزت كنوز عقول أبناء البلاد جميعها ، وهذه الكنوز لن نعتز
عليها إلا بالتعليم ، والتعليم هو الذى يفتح لكل عقل نوع اللواهب التى كنت فيه
وهذه اللواهب المختلفة موازية للمنافع المختلفة فى أنواع الأرض وللواء والهواء
والله هو الولىّ الحيد .

تذكرة

إن صديقنا الاستاذ الشيخ محمد منصور أحد علماء شيين القناطر هو الذى أشرت له آتفا ، وانه زار قبر هود عليه السلام ، ولم يكن ورد لى منه خطاب فى هذا المعنى ، ولما كتبت ما تقدم ورد خطابه وقد جاء فيه بعد الديباجة مانسه بالحرف الواحد :

« وأما مسألة سيدنا هود وسيدنا صالح عليهما الصلاة والسلام فهناك حديثهما : « فى اليوم الثامن عشر من شهر جمادى الثانية سنة ١٣٤٥ هجرية خرجت بصحبة فقيد الشرق والاسلام السيد محمد بن عقيل الحضرمى وابن عمه السيد أحمد بن عمر السرى الشهير لادارة التعليم بحضرموت ، وهى بلاد الأحقاف الوارد ذكرها فى القرآن الكريم ، وقد وصلنا إليها فى اليوم السادس من شهر شعبان لتلك السنة المذكورة ، وحينما وصلنا إليها وجدنا البلاد فى هياج وحركة غير عادية ، ونظرا لأنى غريب عن البلاد رأيت عدم الاسراع بالسؤال عن سبب هذه الحركة ، ولم ألبث إلا يسيرا حتى حضر عندى فى الجناح المصعد لسكنائى من سراى أحمد بن عمر الفخمة السيد أحمد بن عمر نفسه ، وعرض علىّ التوجه لزيارة قبر سيدنا هود عليه السلام ، فعلت حيثئذ السرّ فى هذه الحركة ، وباستمرار حديثى مع حضرة السيد تبين لى أن البلاد من أقصاها إلى أقصاها تتوجه إلى شعب هود عليه السلام فى اليوم العاشر من شهر شعبان كل سنة لأداء هذه الزيارة ، واليلة الختامية لهذه الزيارة هى ليلة النصف من شهر شعبان ، وطسم هناك مراسيم اعتادها السادة العلويون بحضرموت ، وهناك بقبر هود عليه السلام صخرة عظيمة جدا يسمونها الناقة ، وفى صباح ليلة النصف من شعبان يبكرون قافلين إلى بلادهم ، واعتقاد أن هذا قبر هود عليه السلام متواتر عن سكان البلاد قبل الاسلام ، وكذا هناك قبر سيدنا صالح عليه السلام ، وهو مشهور شهرة قبر هود ، غير أن اعتناء أهالى البلاد بزيارة سيدنا صالح أقلّ من اعتنائها بزيارة هود .

هذا ما يتعلق بوجود هذين القبرين ببلاد حضرموت التى هى بلاد الأحقاف ، إنى رأيت ما تقدم بعينى رأسى وشاهدته مع مئات الاثوف من أهالى البلاد ، وإذا كان هناك شكّ فى أن بلاد العرب بلدة تسمى « مكة » توارث الناس علمها جيلا بعد جيل جاهلية واسلاما ، فليصحّ أن يوجد من يشكّ فى أن بلاد الأحقاف التى هى حضرموت قبرى هود وصالح عليهما الصلاة والسلام .

محمد منصور

تحريرا فى ٢٧ أغسطس سنة ١٩٣١ م

م تفسير سورة الأحقاف

تفسير سورة محمد صلى الله عليه وسلم

(هي مدنية)

إلاية : وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكتناهم فلانصر لهم
فنزلت في الطريق أثناء الهجرة

آياتها ٣٨ - نزلت بعد الحديد

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَءَامَنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ * ذَلِكَ
بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ
لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ * فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَنتَحْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا
الْوَسْمَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ
وَلَكِن لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ
وَيُضِلُّعُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنصَرُوا لِلَّهِ
يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصْلَ أَعْمَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ * إِنْ اللَّهُ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى
لَهُمْ * وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلَكَنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ
لَهُمْ * أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ * مَثَلُ
الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ
مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ

رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ
 حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ
 عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ * وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَوَسَّعَتْهُمْ تَقْوَاهُمْ * فَهَلْ
 يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ *
 فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيَاكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ
 وَمَثْوَاكُمْ * وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ
 فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ
 لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَاوَ صَدَقُوا اللَّهُ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ * فَهَلْ
 عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ
 فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ * أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا * إِنَّ الَّذِينَ
 أُرْتَدُوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ * ذَلِكَ
 بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنَطِينَكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ *
 فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا
 مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ
 يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَمَعَرَفْتَهُمْ بِسْمَائِهِمْ وَلَتَعْرِفْنَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ
 يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ *
 إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ
 يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْجِطُ أَعْمَالَهُمْ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا
 تُبْغِلُوا أَعْمَالَكُمْ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ
 اللَّهُ لَهُمْ * فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكُمُ أَعْمَالَكُمْ *
 إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ
 أَمْوَالَكُمْ * إِنْ يَسْتَلْكُمْ مَوَالِيكُمْ فَاخْتَفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ * هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ

تُدْعُونَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَخْشَىٰ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ
الْفَنِي وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ *

هذه السورة تسمان

﴿ القسم الأول ﴾ في تفسير البسمة .

﴿ القسم الثاني ﴾ في تفسير السورة كلها .

القسم الأول في تفسير البسمة

كتب قبيل جريوم الاثني وفي صباح يوم الثلاثاء ٢٣ و ٢٤ مارس سنة ١٩٣١ م
قبيل جريوم الاثني بنحو ساعتين استيقظت وأنا أفكر في البسمة في أول سورة محمد ﷺ وأقول
في نفسي : إن هذه السورة تمت بصلة إلى سورة التوبة ، فكلاهما فيها القتال ، وإذا كانت التوبة تركت فيها
البسمة فهذه تقرب منها ، فذلك تركت فيها البسمة ، وهذه فيها أكثر من عشرين آية خواها الغضب لا الرحمة
(١) على الكافرين الصادقين عن سبيل الله حكم عليهم بالضلال .

(٢) التابعين للباطل .

(٣) وقد أمر المؤمنون بضرب أعناقهم إذا لقوهم .

(٤) وهكذا حكم الله عليهم بالتعس وضلال الأعمال .

(٥) ووصفهم بكراهية الدين المحبطة للأعمال .

(٦) وذكروهم بهلاك من قبلهم .

(٧) وتبرأ من موالاتهم .

(٨) وجعلهم في مرتبة الأنعام ، ونهايتهم جهنم .

(٩) وهم لانصير لهم من عذاب الله .

(١٠) وهم قد طبع الله على قلوبهم .

(١١) وهتدهم بيوم القيامة وعذاب النار .

(١٢) وحكم عليهم باللعنة والسمم والمعى .

(١٣) وأن قلوبهم عليها أقطاها .

(١٤) وأنهم تابعون للشيطان .

(١٥) وهم خائنون بالولون الأعداء .

(١٦) وإذا ماتوا ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم .

(١٧) لأنهم يكرهون رضوان الله ويتبعون ما أسخطه .

(١٨) وهكذا وصف قلوبهم بالمرض .

(١٩) وأعمالهم تحبط .

(٢٠) وإذا ماتوا فلامغفرة لهم .

وهكذا ، فهذه السورة مع قلة آياتها مشحونة بالغضب ، فأين الرحمة فيها حتى تبتدأ بالبسمة ؟

وبينا أنا أفكر في هذه المعاني إذ خيل إليّ أني خارج القاهرة في جوّ فسيح والنسمات تهبّ وكأني بناموسين
تتكلمان كما يتكلم الناس فيما بينهم ، واحدى الناموسين اسمها « باسا » والثانية اسمها « ساسا »

ذكري أيام الصبا في الحقل

وكيف كنت أفهم أصوات الناموس إذ ذاك

ولما أخذنا تتكلمان لم أكن لأمير كلامهما ، ولأفهم خطابهما ، ولكن في أثناء ذلك تذكرت ما اتفق
لي وأنا طفل ، إذ كنت أذهب مع والدي إلى الحقل وفيه الفرة ليلا ، وأسمع أصوات الناموس ، وكان يخيل
إليّ إذ ذاك معان غامضة محزنة ، ملخصها أن هذه الدنيا غامضة لا يفهمها عقلي ، ولا أدري أسرارها ، ولا
عجائبها ، ولا أعرف لها آخر ، وهذه المعاني كانت تخطرنى فعلا من امتداد أصوات الناموس وهو امتداد محزن
في تلك الظلمات ، فهذا الامتداد الذي لا آخر له مع كونه محزنا غير شارح للصدور كان يحدث في قلبي حزنا ،
وهذا الحزن ينصرف إليّ أني أجهل آخر هذا العالم وأسارره .

خواتمى فى أصوات الناموس الآن

فلما تذكرت ما جال بخاطري أيام الصبا عند سماع أصوات الناموس قلت في نفسي : عسى أن يكون
ما أقفل علىّ في الصبا عند سماع أصوات هذا الناموس يفتح علىّ الآن ، ولا جرم أن الله علم أحد ابني
آدم بما بعث له غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يدفن أخاه ، فاسمّ هذا الخاطر لى حتى سمعت (باسا)
تقول لساسا بلسان فصيح واضح : فلنعلم هذا الشيخ حتى يكون لنا ثواب ما نعلمه :

تفسير آية : وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض بنير ما فسرت به سابقاً

فقلت ساسا : وهل أنت دابة الأرض التي يرسلها الله للناس إذا وقع القول عليهم فتكلمهم أن الناس
كانوا لا يؤمنون بآيات الله . فقلت باسا : أنت كبرين علىّ رأى وتسخرين منى ، فلا تكن أنا ومثلى من دواب
الأرض معلّات لهذا الشيخ ، وليكن هونا قلا عنا ، ولتتضح الحقائق الآن لأولى الألباب ، أظنّين أن الكتب
السموية يكتبني فيها بظواهر ألفاظها ، هل فهمت معنى قوله تعالى : « تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا
لا يوقنون » وكيف يكون الايقان ؟ وأيّ إيقان يأتي من أجل دابة تتكلم وتكتب على وجه الكافر كافر
وعلى وجه المؤمن مؤمن ، أليست هذه من خوارق العادات ، أولم يتذكر المسلمون قصة سحرة فرعون إذ
سجدوا لما عرفوا علما لموسى فوق علم السحر فأبطله ، فأما بنو إسرائيل فإن خوارق العادات التي ظهرت
على يد موسى كفروا بها لما رأوا عجل السامري ، وهل ذكرت هذه القصة في القرآن إلا لأجل أن يفهم
المسلمون (الذين منهم هذا الشيخ الذي نحن نعلمه الآن وهو ينشره لهم) آية : « وما منعنا أن نرسل بالآيات
إلا أن كذب بها الأولون ، وآتينا نوحا الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا » .

فإذا كانت ناقة نوح وأمثالها لا ترسل إلا تخويفا ، وإذا كان آخر الأنبياء قبيل له : « أولم يكفهم أنا
أزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكري لقوم يؤمنون » ، فهل بعد هذا كله نظنين أن
اليقين الذي عبرت الدابة الناس بعدم اتصافهم به يأتي لهم بمجرد نطقها ؟ وهل هي إلا من خوارق العادات
المرسلات للتخويف ؟ وهل يكون اليقين إلا بالتعقل الذي يفهم من آية : « وفي خلقكم وما يبث من دابة
آيات لقوم يوقنون » ، فدراسة عجائب كل دابة مبثوثة في الأرض هي التي بها يكون اليقين ، أما نطق دابة
مثل ومثلك أمام هذا الشيخ وأمام جميع الناس في صحوهم (لا في الحال البرزخية كما هي الحال الآن مع هذا

الشيخ فان هذه ليست من المجائب) فليست تورث اليقين بل تكون آية يؤمن بها الناس ، ولا يقين إلا بالتحقق والفهم ، وعليه تكون الآية لها ظاهرها ورمزها ، فهي كناية ، والكناية لفظ أطلق وأريد به لازم معناه ، فظاهرها أن دابة تنطق في آخر الزمان ، وهذا الظاهر لا غبار عليه ولا إنكار له ، وباطنها هو الحقيقة وهو الوقوف على أسرار التكوين لاسباب في عالم الحيوان والانسان المشار اليه في أكثر آيات القرآن وفي السجود إذ يقول المصلي : « سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره الخ » ، فدراسة هذه المجائب في جسم الانسان والحيوان هي التي تورث اليقين ، وهذا معنى « واسجد واقرب » بخلاف ذكر الركوع فليس فيه إلا خشوع السمع والبصر والمخ ، وليس فيه التعرض لخلق هذه الأعضاء ، فالراكم عابد ، والساجد مفكر موقن اذا أدرك وعلم ما يقوله ، وهذا هو الذي تقوله دابة الأرض « ان الناس كانوا باياتنا لا يوقنون » وهذا نظير قول نصيب يمدح عبد العزيز :

لعبد العزيز على قومه * وغيرهم نعم غامر
فبابك أرحب أبوابهم * ودارك مأهولة عامره

إلى أن قال :

وكلبك آنس بالزائر * من من الأم بالابنة الزائر

فهنا مدح نصيب عبد العزيز بأن كلبه أكثر إنسانا بزائري عبد العزيز من إنسان الأم بابتها التي هي أحب الناس إليها حين تزورها ، وهذا المعنى ليس مقصودا لأنه لا قيمة له ، ولكن القيمة راجعة لما يلزمه ، وذلك انه يلزم من ذلك أن الكلب الذي اعتاد أن ينبح كل طارق قد اعتاد الزائرين فكف عن النباح ، بل زاد على ذلك أنه أنس بهم ، ومقتضى ذلك كله الوصف بالكرم ، إذن المعنى الظاهري غير مقصود والمعنى الكنائي هو المقصود ، وهذا تجده في جميع الكنايات ، فليكن هكذا في القرآن وهو أفصح من كلام العرب ، فيقال إن وجود دابة في آخر الزمان تكلم الناس لآمانع منه كما لآمانع يمنع من وجود كلب لعبد العزيز يأنس بالزائرين ، ولكن المعنى المقصود ليس وجود الدابة كما ان المعنى المقصود في كلام نصيب ليس وجود الكلب الذي يأنس بالزائرين ، بل المقصود أن يكون هناك يقين للناس بدراسة العلوم العقلية (كما كان المقصود في كلام نصيب الوصف بالكرم) ومن أهمها علم كل دابة في الأرض ودراستها ، فهذه هي التي تشد إليها الرجال .

فلما سمعت هذا القول وأنا مغشى على عجب كل العجب ! ولم أجد حجة أرد بها هذا الكلام عن نفسي لأني اذا قلت من أنكر الدابة ربما فسق أو كفر يكون الجواب لا إنكار بل الباب مفتوح لها ولا مانع من كلامها : وان قلت نكتفي بنطق الدابة في آخر الزمان ونؤمن بذلك ونسكت أجد أن ذكر الايقان في الآية يمنعني من ذلك ، ولكني قلت في نفسي ان هذه المحاوره الجيبية ترد على أنا لأني ذكرت في كتاب الأرواح (و ذكرت نظيره عند تفسير هذه الآية في سورة النمل) أن هذه الآية تشير إلى علم الأرواح ، وجعلت ذلك مجازا وانشرح صدرى لذلك ، فان الأرواح الآن قد خاطبت الناس ، فهي أشبه بدابة ظهرت من الأرض كلمت الناس ، وأطلت هناك في هذا المعنى . فهذا الذي قالته الناموستان الآن يفاير ما كتبت سابقا ، وهذا والله أحق بالقرآن مما كتبت في تفسير الآية هناك ، فأكدت أتم هذا الخاطري سمعت ساسا تقول لباسا أنظنين أن هذا الشيخ بأنس بكلامك كما أنس كلب عبد العزيز بالزائرين . فقالت : نعم يأنس به ويسره . فقالت : انه فسر الآية بغير ذلك . فقالت : « وفوق كل ذي علم عليم » ، ففي هذه الليلة جاء له فتوح أكمل ونفسه قبيل الفتوح ، وهل للعلم آخر ؟ فقالت ساسا لباسا : ماذا تقولين فيما يروى أن الدابة تكتب على

وجه الكافر كافر وعلى وجه المؤمن مؤمن (أوكاروى) . فقالت باسا : هذا أمر اليوم ظاهر ، إن هذا الزمان قد ظهرت فيه هذه البوادر ، إن الذين يدرسون هذه العلوم قسمان : قسم يدرسه ويريد معرفة الحقائق وعنده ذكاء ، فهؤلاء يصلون لليقين . والقسم الآخر يدرسه لأجل نيل الشهادة غسب ويكتفى بالظواهر ، ولما كانت الأم اليوم تعشق الحربة ظهر القسم الأول أمام الثاني بأنه موقن مصدق بعقله ، والقسم الآخر منكر لأنه لم يصل للحقائق ، والقسمان الآن يظهران مافى نفوسهما أمام الناس ، فالأول قد كتب على وجهه مؤمن ، والثاني قد كتب عليه كافر ، وهذه الكتابة كتابة واضحة معنوية بحيث إن الرجل اليوم يجلس مع كثير من متعلمي هذه العلوم فيجدهم لا يعقلون لها نتيجة إلا الشهادة التي أخذوها من المدارس ، والذي أوقعهم في ذلك الدراسة الظاهرة ، لأنها توجب الشك ، وإذا جلس مع من تعمقوا في الدراسة يبرهنهم موقنين والسبب هو نفس علم الطبيعة ، وأهمها الدواب ، وهذا هو قوله تعالى : « يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين » ، فإذا كان القرآن يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وهو كلام الله فهكذا فعل الله وهو الطبيعة بها الضلال لقوم والهدى لآخرين ، وظهور الضلال والهدى للناس اليوم أوضح من الكتابة على الوجوه . فقالت ساسا لباسا : ما الذي نأمر به هذا الشيخ حتى يقوم من مجلسنا هذا بفائدة نامة في معنى الرحمة العاتمة في بسم الله الرحمن الرحيم ، لأنه إلى الآن لم يصل للمقصود ، ذلك لأنه يفكر في معنى الرحمة ويريد تطبيقها على مافى السورة من القتال والكفر الخ .

وهذه المقدمات كلها نتيجتها أمر واحد وهو أن كلام الدواب أمثالا لنبى آدم ليس المقصود منه إلا معرفة الحقائق ، ولكن أين هي الحقائق التي يأخذها الناس منا على يد هذا الشيخ المائل أمامنا . فقالت باسا : أولا ليبين هل الموت عدل ؟ ثانيا ليدرس أمثالا من الحشرات ، ثالثا ليفكر في تراكم القاذورات في المادة وفي الأخلاق ، ثم ثالثا معا : نودعك الله وطارتنا ، فما كادنا تطيران حتى زالت غشيتي ورجعت إلى حسي ، ومن عجب أن هذه كلها لم تتجاوز ٢٠ ثانية . وهنا رأيت نفسى مغمورة في النور ، مبهجة ، منسرحة ، ونجحت لى معان كانت مغبوة مغطاة على عقلى ، وكأن هذه الجملة التي نطقت بها (باسا) كشفت الغطاء عن عقلى ، وأحسست بتجليات لم أنل نظيرها فيما سبق .

فلأوضح ما خطر لى الآن في (ثلاثة فصول : الفصل الأول) في بيان هل الموت عدل ؟ (الفصل الثاني) في دراسة بعض الحشرات (الفصل الثالث) في دراسة تراكم القاذورات المادية التي بسببها تخفق الحشرات الضارات بالانسان ، وفي تراكم القاذورات الخلقية كالقوة الغضبية في الانسان التي باحرافها تصبح شجى في خلق الانسان وضرا كالحقد والحسد اللذين بهما يكون القتل والفنك بالنفوس الانسانية بالحرب كفتك الحشرات بها بأنواع الحى والطاعون الخ .

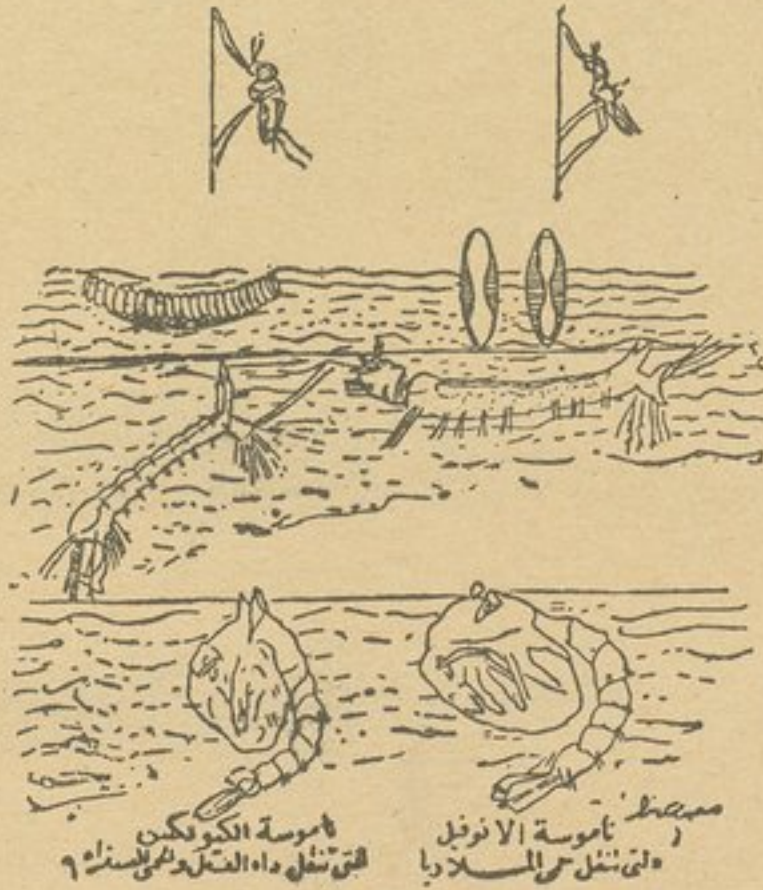
الفصل الأول في بيان « هل الموت عدل ؟ »

لقد ثبت في الحكمة أن الموت رحمة وعدل ، والدليل على ذلك أن الناس إذا عاشوا على الأرض آلاف آلاف السنين هم ودوابهم ونباتهم فن أين يأكلون ؟ وإذا أكلوا الموجود فأين خلود الحى ؟ وإذا أجزنا أن يحتل نظام الملك فيخلد الانسان ، فأما الحيوان والنبات فيكونان كما نراهما اليوم ، فهل تسع الأرض بنى آدم ألف سنة فقط فضلا عن آلاف الآلاف ، وذلك كله فضلا عن الخلود لوصح للأحياء لكان ذلك بخلا في الطبيعة وقصورا لأن تعاقب الأجيال في الحياة أكثر كرما ورحمة مما لو كان جبل واحد باقيا إلى الأبد ، إذن الموت عدل ورحمة ، والخلود في الأرض جور بسحبه قلة الرحمة . انتهى الفصل الأول .

الفصل الثاني في دراسة بعض الحشرات

كما خلق الله الماء في الأرض لحياة الحيوان وهكذا النبات وغيرهما خلق النضب في نحو الانسان ليدافع به من يهلكه ، فهو إذن للمحافظة عليه ، فأما الماء والنبات فانهما خلقا ليعيش بهما الحيوان ، وهذا الخلق الانساني اذا انحرف عن الجادة كما نراه في العرب الجاهلية الأولى بأن يكون لاضابطله فانه يكون سببا في التفرق والانعلال وتكون هذه القوة سببا في إهلاك الأمم بدل أن تكون للمحافظة عليها ، فهذا أشبه بتعفن المواد الأرضية ، فتكون القاذورات والمزابل والأوساخ ، فيخلق في كل ذلك حشرات تتكون في تلك القاذورات وفي البرك والمستنقعات ، وهذه الحشرات توجب الهلاك والموت الزوأم ، وهذا واضح فيما تقدم في هذا التفسير ، فهنا حشرات تعيش على القاذورات أصبحت سبب إعدام الحيوان بعد أن كانت نفس المادة عند اعتدالها سبب الحياة ، كما أن الأخلاق السبعية المنحرفة عن الجادة بالطمع والحقد والحسد أصبحت سبب هلاك الأمم وذهاب العمران . ومن أمثلة الحشرات الناموس والبراغيث (انظر شكل ٤١ وشكل ٤٢)

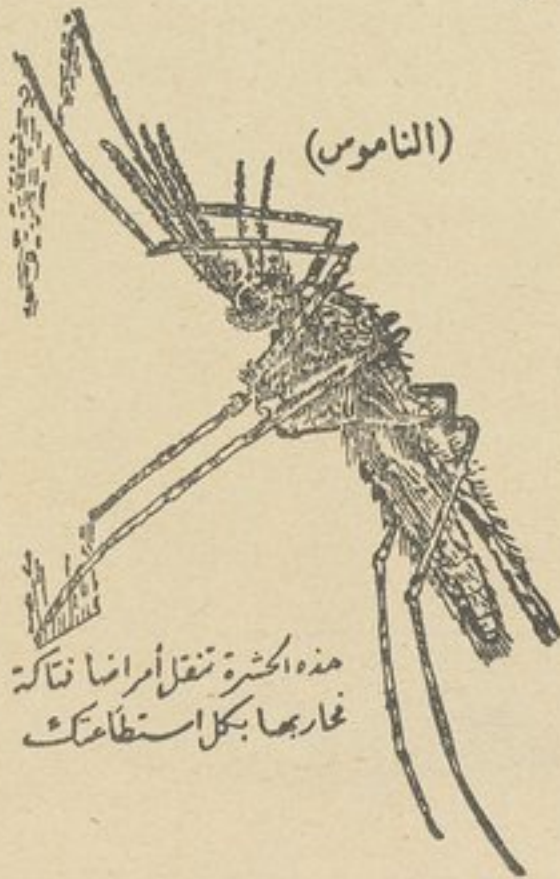
الكلام على الناموس



شكل ٤١ - شكل بين حياة الناموسة في أطوارها المختلفة

تاريخ حياة البعوضة « الناموسة » (١)

تضع الأنثى بيضها فوق سطح المياه الراكدة كالبرك والآبار ، والأوعية التي تحتوى على مياه لا تتغير ، وبعد يومين أو ثلاثة أيام تفقس هذه البويضة علقمة (دودة صغيرة) تعيش مدة أسبوع على الأقل في الماء ثم يتغير شكلها جملة مرات إلى أن تصير (شرنقة) وأخيراً تخرج منها البعوضة (الناموسة) . وتكفي مدة ثمانية أو عشرة أيام في جوف حار كجوف القطر المصري من تاريخ وضع البويضة لتكوين بعوضة (ناموسة) كاملة . والناموسة تبيض جملة مرات مدة حياتها ، وفي كل مرة تضع مئات من البويضات ، وزد على ذلك أن الأنثى تبيض بعد تمام تكوينها بعشرة أيام فقط ، فتصور العدد الهائل لفريبة ناموسة واحدة ، خصوصا إذا علمت أن الناموسة تعيش عدة شهور .



(شكل ٤٢)

الأمراض التي تنقلها البعوضة (الناموسة)

المالاريا ، جى الذنج ، داء الفيل ، الحمى الصفراء ، كيفية نقل العدوى عند ما تلدغ الناموسة شخصا مصابا بأحد هذه الأمراض تمتص جزءا من دمه ومعها جرثومة المرض التي يتم نموها في جسمها ، فكل شخص تلدغه بعد ذلك تلقحه ببعض هذه الجراثيم فيصاب بالمرض ، فهي بذلك تنقل المرض من شخص واحد إلى عدة أشخاص ، وجميع هذه الأمراض الخطيرة لا تنقل إلا بواسطة أنواع من الناموس ، وهناك أنواع متعددة من الناموس تنقل الأمراض المختلفة .

(١) هذه الحشرات اسمها الناموس وبصلحة الصحة التي قلنا عنها هذا الموضوع كله نسميها بعوض وهو خطأ

كيف نتقي شرّ البعوض (الناموس)

إذا وجدت في جهة يكثر فيها الناموس فاتبع النصائح الآتية :

- (١) أبذل كل الجهد في عدم تمكين الناموس من الدخول في منزلك بتغطية جميع النوافذ والشبابيك بسلك أوقاش رفيع .
- (٢) من الضروري أن تنام داخل ناموسية مع وضع أطراف الناموسية تحت الفراش بإحكام .
- (٣) وجه كل عنابتك لاعداد جميع الناموس الذي يدخل منزلك .
- (٤) لا تترك مياهها راكدة في براميل ، أو أزيار ، أو أواني أخرى دون تغييرها مرتين على الأقل كل أسبوع .
- (٥) إذا لم يمكنك حفظ نفسك من لدغ الناموس فن الضروري لوقايتك من الإصابة بالملايا أن تأخذ حبوب الكينين قبل الغروب وبالليل حسب إرشاد الطبيب .

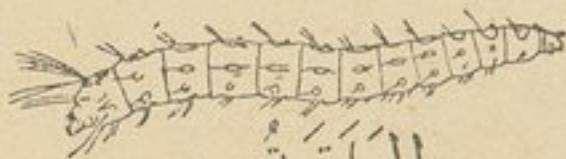
ماذا تفعل لو أصبت بالملايا

- (١) إذا أصبت بقشعريرة ، أو حجي ، فاعرض نفسك على الطبيب في الحال .
- (٢) وبعد شفائك من الحجي يجب أن تستمر على تعاطي الكينين لمدة ثلاثة أشهر على الأقل بالمقادير التي يقررها الطبيب .
- (٣) اتبع الإرشادات المذكورة سابقا لكيلا تمكن الناموس من نقل العدوى للآخرين .

الكلام على البرغوث



البرغوث



العقّة

(شكل ٤٣)

البرغوث

يختلف البرغوث عن بقية الحشرات الطفيلية كالبق والقمل بأنه منبسط من الجنب ، وهو على عدة أنواع بعضها يعيش على دم الحيوانات ذوات الثدي ، والبعض الآخر على دم الطيور .

تاريخ حياته

بيض الأتي بويضات صغيرة بيضاوية الشكل وتقس في مدة من يومين إلى عشرة أيام علقه (دودة صغيرة) بيضاء اللون ومغطاة بشعر قصير يساعدها على الحركة ، وتعيش هذه العلقه في القاذورات على المواد العضوية الموجودة بها ، وبعدها تنسج هذه العلقه شرقة حوطا وتغير إلى يرقة ، ومن اليرقة تتكوّن الحشرة النائمة . وتمكث هذه الحشرة بعد نكسها داخل الشرقة مدة طويلة حتى تشعر بحركة حوطا فتقفز من شرقتها .

طبائع البرغوث

يجد البرغوث صعوبة في المشي على الأسطح اللساة ، ولذلك يتحرك عليها بالقفز ، ومن طبائعه أنه يكره ضوء الشمس ، ويفضل المعيشة في الأجزاء الدافئة ، وله قدرة عظيمة على القفز ، وقد شوهد يقفز إلى مسافة ١٨ سنتيمترا ، ولو كانت للإنسان هذه القدرة بالنسبة لجسمه لأمكن لشخص طوله ١٨٠ سنتيمترا أن يقفز ٢٧٤ مترا تقريبا . ويختلف البرغوث في معيشته باختلاف أنواعه ، فالبعض لا يعيش إلا على نوع واحد من الحيوانات ، وبعضها ينتقل من حيوان إلى آخر ، والبعض لا يترك الحيوان الذي يعيش عليه ، والبعض الآخر لا يعلق بالحيوان إلا عند ما يحتاج إلى غذاء .

البرغوث والأمراض

البرغوث ينقل الطاعون بواسطة لدغاته ، وقد وجد أخيرا أن طريقة نقله لهذا المرض هي كالآتي :

(١) عند ما يلدغ البرغوث شخصا مصابا بالطاعون يمتص جزءا من دمه ومعها ميكروبات هذا المرض فتتكاثر هذه الميكروبات وتتكاثر في معدة البرغوث ، وينسد طرفها المعوي ، فإذا مالدغ البرغوث شخصا سليما تقايا جزءا مما في معدته وبه الميكروبات داخل جسم الشخص فيصاب بالمرض .

(٢) فضلا عن ذلك فإن الميكروبات التي في أمعاء البرغوث يخرج بعضها في إفرازه ، فعند حك الجلد وقت لدغته يسبب الشخص في تلقيح نفسه بواسطة هذه الإفرازات .

ومعلوم أن الطاعون من أشد الأمراض خطرا فتسكا بالناس ، وهو على ثلاثة أنواع : —

(١) الطاعون الدملي .

(٢) الطاعون التسمي .

(٣) الطاعون الرئوي .

وأعراض هذا المرض ارتفاع شديد في درجة الحرارة تصحبه آلام في الرأس والأطراف وانهاك شديد للقرى ، وتقرعينا المريض ، ويفطى لسانه بطبقة بيضاء ، ثم تجف هذه الطبقة وتصبح قائمة اللون ، وكذلك تتكوّن هذه الطبقة على الأسنان والشفيتين والأف ، ويزداد ضعف المريض في أيام قلائل ، وقد ينتهي المرض بموته غالبا بين اليوم الثالث والخامس من ابتداءه . وفي ثلاثة أرباع الحالات تظهر أعراض المرض بتضخم في إحدى الغدد كالفرد الموجودة بين الفخذ والبطن من الأمام ، أو الرقبة ، أو تحت الأبط ، وهذا النوع يسمى بالطاعون الدملي .

أما في الطاعون التسمي فلا يظهر هذا التضخم في الغدد ، وقد ينتهي الطاعون الدملي أو التسمي بإصابة الرئة بـميكروب الطاعون فينشأ عن ذلك الطاعون الرئوي ، وهذا النوع الأخير شديد الخطر جدا ، ولا ينجو منه أحد تقريبا متى أصيب به ، وهو ينتقل من شخص إلى آخر مباشرة بواسطة الرذاذ الذي يتطاير في الهواء متى سعل المصاب أو بهق ، وترى في الجدول التالي بعض إحصاءات عن إصابات الطاعون في ست السنوات الأخيرة :

السنة	عدد الاصابات	عدد الوفيات	نسبة الوفيات إلى الاصابات في المائة
١٩٢٢	٤٨٧	٢٢٨	٤٧
١٩٢٣	١٥١٩	٧٢٥	٤٩
١٩٢٤	٣٧٣	١٩٣	٥٢
١٩٢٥	١٣٨	٧٧	٥٤
١٩٢٦	١٥٤	٧٣	٤٩
١٩٢٧	٧٨	٣٥	٤٤

ومن هذا البيان يتضح أن متوسط نسبة الوفيات إلى الاصابات في السنوات المذكورة هي ٤٩ في المائة أي ان عدد الوفيات كان نصف عدد الاصابات تقريبا ، وهذه نسبة عالية جدا تشهد بخطورة هذا المرض وشدة فتكه .

طرق إبادة البرغوث

- (١) حافظ على النظافة التامة في المنزل بكفنه وغسل أرضيته جيدا فان بويضات البرغوث توضع وتفقس في القاذورات وتعيش عليها .
 - (٢) سد جميع الشقوق الموجودة في أرضية الغرف ، فان سقوط القاذورات فيها يجعلها بؤرة يتوالد فيها البرغوث .
 - (٣) احترس من وجود الحيوانات الأليفة كالسلااب والقطط داخل المنزل ، فانها تحمل البرغوث ، وإذا كان لابد من وجودها فيجب تنظيفها جيدا على النوم وورش على جسمها مسحوق النفتالين بكثرة .
 - (٤) اعمل على إبادة الفيران لأنها تنقل إليك البرغوث .
 - (٥) لاتجعل بمنزلك أو بجواره محلات لتربية الطيور ، أو اصطبلات ، لأن البرغوث يتوالد فيها بكثرة .
 - (٦) ضع كمية من مسحوق النفتالين داخل دواليب الملابس .
 - (٧) لاتضع سريرك ملامقا للحائط ، ولا تترك الغطاء يتدلى إلى الأرض ، وادهن أرجل السرير بزيت اليوكالبتوس ، وورش مقدارا منه أيضا بين المراتب .
 - (٨) اعمل على إبادة البرغوث برش المزيج الآتي في الأماكن التي يكثر بها بعد كنفها :
 ١٠٠ مقدار من زيت البنزول (الغاز)
 ١٥ مقدارا من الماء .
 ٣ مقدار من الصابون السائل .
- ويحضّر هذا المزيج بطريقة مخصوصة ، ويمكن طلبه جاهزا من مصلحة الصحة . وبهذا تم الكلام على الفصل الثاني في دراسة حشرتي التاموس والبرغوث والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثالث

في تراكم القاذورات المادية والحلقية

وهذا الفصل هو المقصود

اعلم أيها الذكي أن في عالم الانسان قوة غضبية تقدم شرحها ، وهي لم تخلق فيه إلا ليحافظ بها على حياته وكيانه وشرفه ، فاذا حاد عن الصراط استعملها في الاضرار بغيره ، ومن أعجب العجب أننا نجد هنا قاعدة واحدة لا يحصى عنها ، ولا تفسر لها ، وهي ان الخبير سواء أكلن في المعنويات ، أو في الماديات ، اذا انحرف عن الجادة تحوّل إلى شرّ ، فلما والهواء والمادة الأرضية ، وحرارة الشمس ، كل هذه اذا اعتدلت كانت سبب الحياة ، واذا لم تعتدل كانت سبب الهلاك . ومن ذلك جميع القاذورات والبرك والمستنقعات ، فهذه كانت سبب انحراف هذه المواد عن الصراط السويّ ، فهي لو تركت وشأنها تملأ الجوّ عفونة فيهلك الانسان والحيوان ، ونظير ذلك في أخلاق الانسان اذا تركت قوّته الغضبية وشأنها كانت سببا في إهلاك الناس بعضهم بعضا كما في الأمم الوحشية والعرب الجاهلية الأولى .

فهذه هي القاعدة ، إن مابه الصلاح من الامور المادية ومن الامور المعنوية عند انحرافه يكون به الفساد وهناك قاعدة أخرى . وهو أن هذا الذي به الفساد يمكن تحويله إلى صلاح بتلطف وحسن صنعة ، ولتلك (مثالان : المثال الأول في الامور المادية) وذلك أن العفونات والقاذورات خلقت فيها الحشرات كالناموس والبراغيث وغيرها من الحشرات ليتحوّل الشرّ الذي في تلك المواد إلى أجسام حية يقلّ شرّها ، فبدل أن يكون الجوّ كله متعفنا فيهلك الانسان والحيوان بحصر الهلاك في أحياء عندهم استعداد خاص :

- (١) للاريا ، وحى الذنج ، وداء الفيل ، والحمل الصفراء مثلا بسبب الناموس .
- (٢) أوللطاعون الدملي ، والطاعون التسمي ، والطاعون الرئوي مثلا بسبب الفيران .
- (٣) أولمرض الدفتريا بسبب حيوان دقيق خاص بها .
- (٤) أولمرض الرهقان (الانكلستوما) بسبب حيوان دقيق جدا ، فيكون ألم فوق المعدة وقدرم في الجسم ، وآلام في الرأس ، وضربات في القلب .
- (٥) أوللحمى التيفودية ، أو الكوليرا ، أو الرمد الصديدي ، أو الاسهال في الاطفال ، والدوسنطاريا ، وذلك بسبب الذباب ، وقد تكون الحمى التيفودية وحدها بسبب الميكروب الذي يكون في جسم المصاب بهذه الحمى ويفرز مع البول أثناء المرض ، فاذا وصل ذلك إلى ماء أو غيره ولوّث به نبات مثلا انتقل منه إلى أناس آخرين .
- (٦) أوللطاعون ، أوداء (الاسبروكينا) المصحوب بالبرقان والنزيف ، أو المرض بالودودة المحيطية ، أو بالديدان المعوية ، أوللحمى المتسببة عن عضّ القار ، كل ذلك بسبب الفيران .
- (٧) أوللتدري ، أو السلّ ، وذلك بسبب ميكروب خاص يكون في ألبان البقر المريضة بالتدري ، وفي المواد البلغمية التي يصفقها المرضى بهذا الداء وهكذا .

فهذه الأمراض كلها الناجمة عن الفيران والبراغيث والذباب والناموس والميكروبات جاءت تلطيفا وتهذيبا للهلاك العام ، والوباء الشامل ، إن رطوبات الأرض لو بقيت فيها ولم تصبح في أجسام هذه الحشرات لمات الأحياء ، فأما هذه الأحياء فانها حصرت الهلاك في قوم مختصين وتركت بقية الانسان والحيوان .

فهذه الجنود المجددة من الحشرات إن هم إلا شرطة وجند من جنود الله ، بسببهم ينظف الجوّ ، وبسببهم يقذ النفوس الضعيفة من هذه الأرض فيخرجون منها لأنهم مستعدون لذلك كما تحبس الحكومات كل من يضرّ بالصلحة العامة . وبهذا انتهى المثال الأول .

﴿ المثال الثاني في الامور المعنوية ﴾

جلّ الله الذي جعل الامور المادية أمثلة ونظائر للامور المعنوية ، وبهذا سهل علينا العلم ، سبحانه اللهم إن الطبيب وعلماء الحيوان لا يهتمهم إلا ما يختص بعلومهم ، فالأول لاعلاقة له إلا بصحة الأجسام فتكون دراسته هذه الحشرات وغيرها راجعة إلى ما يخص الأجسام صحة ومرضاً ، والثاني لا يهتم إلا بالأوصاف الخاصة لكل حيوان وبه يمتاز عما سواه ، ولكن نحن الآن في الدراسة العامة والنظام البديع الجليل ، نظرنا أعمّ وفكرنا لا يقف في منطقة واحدة ، اننا نفسر كتاب الله ، وكتاب الله عام وملكه واسع ، إذن تكون دائرة أبحاثنا عامة ، فبحمدك اللهم على نعمة العلم ، ونعمة الحكمة ، ونعمة الفهم .

هاهي هذه المواد العفنة المشاهدة تمهلك الحرث والنسل ، وهانحن أولاد نراك حوّلها بالحشرات إلى إصلاح الحقّ بقدر الامكان ، وحصرت الضرر في طوائف خاصة عندهم استعداد لذلك المرض ، ذلك لأنه ثبت في الفصل الأول أن الموت لا بد منه لكل حيّ ، إذ لو لم يكن موت لكان ذلك خطلاً وبخلاً ووقوفاً بالمادة في عمل واحد وهي تصلح لآلاف آلاف من الأعمال ، واذا ثبت أن الموت لا بد منه وجب أن ننظر فيه أبهجم على الأحياء بلا استعداد ، أم يأتي لهم بالتدريج ، والعقل يقضى أن التدريج أفضل الطرق وذلك هو الحاصل بتلك الأمراض التي سببتها تلك الحشرات والميكروبات أي الحيوانات الدقيقة . إذن الضرر في المواد العفنة حوّل إلى جنود من الحشرات وغيرها تحدث أمراضاً في أناس مستعدين لذلك وهذا حكمة مجيبة أيضاً ، فلننظر في الامور المعنوية فاننا نجد ما مثل الامور المادية سواء بسواء ، أم تر أن الأخلاق السبعة السائدة في أمم العرب في الصحراء أيام الجاهلية جاء الاسلام حوّل ذلك الشرّ إلى خير ، حرّضهم على الجهاد ، وذلك الجهاد لاحداث أم تكون متفقه المشارب في صلاتها ، وفي صيامها ، وفي حجها ، وغير ذلك ، فهناك أناس وقفوا في وجوههم وصدّوهم عن نشر الدين وهم الكفار فأمر الله بقتلهم . إذن الشرّ الذي حصل بطغيان القوة السبعة في العرب الجاهلية حوّل إلى الخير باحداث أمة تكون على مشرب واحد ، وبعد أن كان القتل يحدث بلا نظام صار هنا ذلك القتل بنظام ، بحيث لا يتعدى الذين يقاومون الاصلاح بالسلام العام (دين الاسلام)

إذن ضرر الأخلاق السبعة الفضيحة انحصرت في فئة مستعدة للهلاك وهم الكافرون كما انحصر ضرر المواد القذرة في أناس مخصوصين وهم المستعدون للأمراض المختلفة .

نحمدك اللهم على نعمة العلم ، بهذا عرفنا معنى : « بسم الله الرحمن الرحيم » في أول ﴿سورة محمد﴾ صلى الله عليه وسلم ، فالسورة وان كان فيها القتل وضرب الرقاب ، والنمّ والقشيع على قوم مختصين ، فهذا القتل نعمة ، فليس كل قتل مذموماً ، بل هذا القتل ممدوح ، ذلك لأنه أولاً ثبت أن الموت لا بد منه والا كان نظام العالم فاسداً . ثانياً ان الأمراض المختلفة إنما وجدت لتكون مقدمات للموت ، وهي موجبات للاستعداد له ولرقيّ عقول بعلم الطب ، ولارقيّ للطب إلا برقيّ العلوم الطبيعية كلها . ثالثاً : إن هذه الأمراض الناشئة من الحشرات اللاتي عاشت على القاذورات ضررها أقلّ من الضرر الذي يحدث لو تركت القاذورات بلا حشرات فيها ، فهناك يكون موت كل حيوان وانسان . رابعاً : إن الأخلاق السبعة لو تركت وشأنها عمّ ضررها . خامساً : إن هذه الأخلاق بسبب الدين انحصرت ضررها في أقوام يستحقون الهلاك لأنهم يسارعون إلى مقاومة السلام العام ، إذن ما ذكر في السورة من القتل وذم الكافرين من أنواع الرجعات ، وهذا معنى قوله تعالى في أول السورة « بسم الله الرحمن الرحيم » وهذا من أسرار أن سورة الفتح جاءت في الترتيب عقب سورة محمد ﷺ لأن الفتح ليس فتح مكة غيب ، بل هو الفتح العام بنشر المعارف والعلوم والاسلام ، ألا ترى أن العالم الانساني لم يخط هذه الخطوات إلا بعد انتشار الاسلام ، فبه هجم المسلمون على أوروبا من جهة الأندلس أولاً ومن جهة القسطنطينية آخراً ، فاستيقظ القوم وارتقوا بالعلوم والمعارف ، وهكذا الحروب

الصليبية فتحت عيونهم للعلوم والبرق ، وبهذا انتشر البخار والبرق وصار الناس كأنهم في قرية واحدة الآن كل ذلك سرّ الفتح الآتي في السورة بعدها .

نور على نور

اللهم إني أحمدك وأشكرك على نعمة العلم ، بيدك الميزان في الدنيا والآخرة ، تخفض وترفع : في صباح يوم الأربعاء في التاريخ المذكور ما كتبت في هذه المقالات هذه الجملة : « ومن طبائع البرغوث انه يكره ضوء الشمس ، ويفضل المعيشة في الأجزاء الدافئة » ، أقول : ما كتبت أقرؤها حتى تجلت لي أم الاسلام قديما وحديثا ، تجلت لي بهيئة علمية حكيمية سياسية .

سبحانك اللهم وبمحمدك ، هذه الجملة أنارت لي السبيل « وأشرق الأرض بنور ربها » ، الله عز وجل هو الحكيم العليم ، هو الذي خلق الشمس وأرسل ضوءها إلينا ، إني لما قرأت هذه الجملة خيلت لي أضواء الشمس كأنها منتشرة صباحا بالشكل الجليل المقبول البديع ، انتشر هذا الضوء فإذا جرى ؟ أصلح أحوال الحيوان ، ولكن البرغوث توارى عنها ، فإذا يقول البرغوث حين يتوارى عن الشمس ؟ يقول : « أيها الناس الأحياء في هذه الأرض ، أنا جند من جنود ربكم ، هو الذي خلقني لأعيش في الظلام ، لماذا ؟ لأنه علم أن هذا الانسان لا يأكل إلا إذا آله الجوع ، ولا يقرب الأتى إلا إذا آله الشبق ، ولا يتحرك حركة إلا بسبب يقوم بنفسه ، وعلم أن الناس يجهلون النعم العاتمة كنعمة الشمس ، ونعمة الشمس تحفظ صحة الناس والحيوان فبعض الناس لا يتعرّضون لها ، فلذلك أمرني الله أن من ترك الشمس من الناس وبناء عندي ولم يعترض لها أفضل له الطاعون الدملي ، والطاعون التسمي ، والطاعون الرئوي ، إن الله أمرني أن أعيش في الظلمة حتى ألدغ وأضرم من جهل ضوء الشمس ومنافعها » اه

هذا ما يقوله البرغوث قولا علما ، وأنا أقول : إن هذا اللرس أعطاني فكرة عامة في سياسة أم الاسلام ذلك ان الشمس شمان : الشمس المحسوسة ، وشمس العلوم ، وخطأ في الشمس المحسوسة أسهل ألف مرة من خطأ في الشمس العلمية ، لأن الحسيات أقل قيمة من المعنويات آلاف آلاف المرات ، فهناك أمثلة لذلك : (أولا) كانت أمي المصرية قبل نحو مائة سنة أمة محكومة بالترك ، وقد بقيت حافظة أخلاقها البدوية النظرية والاسلامية ولكنهم جهلاء لأن الترك لا يعلمون الأمم ، فلما جاء لهم محمد علي باشا وجددهم نحو مليونين من النفوس ، ففتح لهم بلاد العرب ، وجعل لمصر مجدا ، ذلك أنه وجد في الأمة النخوة والشرف والاباء ، (وبعبارة أخرى) وجد فيهم الشمس المعنوية وهي الأخلاق الفطرية (ثانيا) ان أوروبا لما وجدته أبقظت أم العرب خافت أن يرجع الاسلام لسابق عهده بالعرب ، فيجرف أوروبا مرة أخرى ، فخذت شوكته وحصرته في مصر ، وانحصر الارتقاء في الامور المادية ، ودخلت العلوم من أوروبا مع المفاسد ، فزاد عدد المصريين اليوم حتى بلغ ١٤ مليونا أي ما يقرب من أضعاف عددهم لما دخل محمد علي باشا ، فالتبس المعنوية الأديسية اختفت عن كثير من طبقة التعلين ، وبهم لا يغيرهم تمكن الأجانب من البلاد سياسة وتجارة وفسوقا وخرا ومدنية للناس ، فلا ترى متعلما إلا وهو مغمور في محال الأجانب ، فإذا كنا اليوم أضعافنا أيام محمد علي باشا وقد طفت براغيث الأمم علينا ، فما ذلك إلا لاختفائنا عن شمس الفضائل التي اصف بها آباؤنا منذ قرن وان لم يكونوا على علم كلهمي عمنا اليوم ، إذن القاعدة واحدة ، من اختفوا عن الشمس المحسوسة فلم تظهر ثيابهم وأما كنهم يصابون بأمراض البراغيث ، وهكذا من أصيبوا بمرض الجهل أو الفسوق يصابون ببراغيث الأمم الأرضية .

خيال المؤلف

إن الله تجلى فوق عرشه على الأمم في الدنيا قبل الآخرة ، وهو الآن يعاقب المقصرين قبل يوم الدين ، تجلى الله على الأمم كلها الآن ، وجميع قصص القرآن تشهد أن العذاب يقع على الأمم في الدنيا قبل الآخرة ، ألا ترى إلى قوله تعالى : « أغرقوا فادخلوا ناراً » فالغرق عذاب دنيوى .

هذه أم العرب التى أنا منهم وهم يقرؤون هذا الكتاب هم يعلمون أن أجدادهم نشروا الدين والعلم ، ولكن آباءهم تركوا العلوم ، وتركوا المواهب فى الأرض وفى السماء ، فإذا فعل الله بهم ؟ اختصهم وحدهم بدخول التليان طرابلس وأرتيره ، وبدخول الانجليز مصر وفلسطين والعراق والجزائر ومراكش وتونس وسوريا ، وبدخول الاسبانيين مراكش ، وذلك على قاعدة ضوء الشمس والبراغيث فان القاعدة لا تتغير والله واحد ونظامه واحد ، مع ان اليابان والصين استقلتا ، والترك والفرس كذلك ، والمند اليوم قائمة على ساق وقدم لطلب الاستقلال ، فلم تبق أمة مقسمة بين الهول إلا أمة العرب ، وما ذلك إلا للجهل الذى عم بلاد الاسلام .

هذا البحر الميت فى بلاد فلسطين ، ذلك الذى جهله الترك الذين كانوا يحكمون البلاد ، وجهله العرب المحكومون ، وما كانوا يظنون أن هذا البحر المنصف بالموت يكون مصدرا لحياة أم ، ألا قاتل الله الجهالة العمياء ، يا الله أنك عدل وحكيم ، نام المسلمون وجهلوا نم بلادهم فإذا جزأهم إلا أن تملك أرضهم لغربهم ، لقد شرط الانجليز على الشركة التى أعطتها استخراج الثروة من البحر الميت أن تعطىها بعد عشرين أى سنة ١٩٤٠ م (١٠٠٠٠٠) طن من البوتاس التى ، ثم بعد ذلك يستخرجون فى كل سنة (٥٠٠٠٠٠) طن ، وهذا البحر ٧٠ ميلا فى الطول ، وعشرة أميال فى العرض ، وعمقه ١٣١٠ أقدام ، فهو أوطأ عن سطح البحر الأبيض بألفين وستمائة قدم وقدمين ، وقد ارتفع مائة من سنة ١٨٨٣ إلى سنة ١٩٣٠ م (٢٨٠) قدما ، ويقتررون البوتاس فيه بمقدار (٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠) طنا من البوتاس ، و٩٨٠ ألف طن من المغنيزيا ، و١١٩٠٠٠ ألف طن من كلورات الصودا ، و٢٢٠ ألف مليون طن من كلورات المغنيزيا ، وستة آلاف مليون طن من كلورات الكلس ، ولقد دهش الجنرال اللنبي حين استحوز على هذا البحر إذ قال جلته المأثورة : « حقا هذه هى مروج الذهب ، وهى تقدر بنحو ١٠ مليون مليون و٢٠٠ ألف مليون دولارا ، وهذا يعادل ٣٠٠ مرة من قيمة مجموع ديون بريطانيا العظمى كلها فى الحرب للولاية المتحدة ، ومن عجب أن المهندسين الألمان قرروا أنه اذا أحدث نفق بين البحر الأبيض وبين نهر الأردن وهذه لها علاقة بأمر البحر الميت ، لأن نهر الأردن تصب فيه ، ومتى صب فى البحر الأبيض وتحوّل عن البحر الميت يمكن استخراج قوة كهربائية منه تعادل مليون يمكن توزيعها لادارة دولاب الأعمال فى كل وقت فى فلسطين وسوريا وتركيا أيضا . ومن هذا القبيل :

مشروع القطارة بالقطر المصرى

جاء فى جريدة الاهرام يوم ٢٣ مارس سنة ١٩٣١ م ما نصه : « إن القطارة موضع منخفض فى الجزء الشمالى من صحراء ليبيا فى منتصف المسافة بين وادى النيل والحدود الغربية ، ويبلغ متوسط عمقه ٦٠ مترا ، وأوطأ نقطة فيه منخفض عن سطح البحر ١٣٤ مترا وهى أوطأ نقطة كشفت حتى الآن فى قارة افريقيا ، وهذا الكشف ظهر سنة ١٩٢٧ م ومن أعجب العجائب أن نفس انخفاض هذا المكان عن سطح البحر الأبيض المتوسط يعتبرثرة عظيمة لمصر وهى بلد اسلامية والذى كشفها رجل انجليزى يسمى الدكتور

(بول) مدير مساحة الصحارى ، فهذه الأرض تريد الحكومة المضربة الآن ببلادنا أن تحفر نفقا يمر به المياه من البحر الأبيض إلى القطارة والماء هنا ينزل في ذلك البحر بسرعة شديدة ، وهذه البحيرة دائمة التبخير فكلما صب فيها ماء ارتفع بالتبخير ويكون ذلك بحساب دقيق فيستمر جرى الماء ، وهذا الجرى المنحدر السريع الانحدار يولد قوة كهربائية عظيمة مع بقاء منسوب الماء على حال واحدة ، وجعل منسوب سطح البحيرة خمسين تحت الصفر ، فأذن يتولد قوة مقدارها ١٨٠ ألف كيلو واط عند مخرج المحطة وتريد الحكومة أن تحفر في العشرين كيلومترا المجاورة لشاطئ البحر ترعة عادية تحفر في الأرض الجيرية ، ثم ندخل المياه في نفق طوله (٤٥) كيلومترا ، وقطره (١٧) مترا حتى نصل إلى المنخفض ، ويقول رجال الحكومة : إن الوجه البحرى لا يستعمل أكثر من (١٨٠) ألف كيلو واط ، واقترحوا أن يجعل هناك ثلاثة أنفاق : أولا نفق (٦٠) ألف كيلو واط ، ثم في سنة ١٣٧٠ بين نفق ثان لنحو (٦٠) ألف كيلو واط أخرى ، وفي بداية القرن الحادى عشر يبدأ في النفق الثالث ، والنفق الأول يحتاج إلى (١٧) مليونا ونصف مليون جنيه .

فشروع القطارة بالقطر المصرى أمر كان مخبوا ، وهل يظهره إلا العلم ، والفرنجية هم الذين كشفوه ، فواجب على المسلمين أن يكونوا قدوة في البحث لاسعاد الأمم ، لا أن يعيشوا ذبولا للام التي تعلمت من آباؤهم ، إن الانسان كله مسئول عن السعادة العامة ، والعلم هو الذى يقوم باسعادها في الدنيا والآخرة اهـ

هذه بعض النعم التي كانت مخبوة في بلاد الاسلام والمسلمون يجهلونها ، فقال الله للأمم حولها : أيتها الأمم : افتحى بلاد العرب ، وخذى نعمى ، انهم قوم جهلاء ، والله ليس هذا خاصا بفسطين ، إن بلاد نجد والحجاز وبلاد اليمن وغيرها مملوءة بكنوز أكثر من هذه ، ولكن جهل هذه الأمم هو الذى أوجب عقابها على ما فرطت كما يمرض الانسان بالجحى ، أو الجدرى ، وهو لا يدري سبب المرض ، فالأمم الاسلامية لا يفرطها الجهل كما لا يفرط لمرض الجهل بسبب علته . اللهم إن عذاب الدنيا بالجهل وعذاب الآخرة بالجهل .

ومن هذا القبيل أن مصلحة الصحة المصرية أعلنت عند كتابة هذه الأسطر يوم ٢٤ مارس سنة ١٩٣١ في جريدة الاهرام أن عدد المصابين بالبلهارسيا في مصر ، وهو مرض البول يبلغون نحو ٧٠ في المائة من مجموع السكان أى نحو ١٠ مليون نسمة ، وأن عدد المصابين بالانكاستوما وتمايين البطن يبلغون نصف سكان القطر المصرى ، وأن الذين لم يصابوا بتلك الأمراض سدس مجموع السكان ، فهل هؤلاء المرضى في بلادنا منع الله المرض عنهم لجهلهم قانون الصحة . كلا . هكذا في أمور السياسة ، فإذا جهل أبناء العرب منافع بلادهم ، وما خزن الله فيهم من القوى والقدر فإن الله سريع الحساب ، يعاقبهم اليوم في الدنيا بقهرهم وذلمهم ، وإذا وقفت الأمم العربية وغير العربية جامدة أمام حكامها إذا لم يصلحوا للحكم ولم يستخرجوا من أرضهم كنوزها ، ولا من عقولهم قواها المنزونة ، ولم ينشطوا الأمم في قواها الحيوية ، وتركوا هؤلاء الحكام فلم ينسحوهم فإن الله عز وجل يذل الحكوميين والحاكمين ، لأنه لا يفرط الجهل ، وهناك لا ينفع الحكوميين أن يقولوا : « ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل » ، فيقول الله لهم : « كلامكم مسئولون ، أنسيتم الأمراض تدخل الأبدان وإن جهل المرضى ، أنسيتم عقولكم ، أنسيتم أن لى جندا أسلطهم على كل جاهل بنعمتى أيها المسلمون » .

وفي اعتقادي أن المسلمين عموما وأبناء العرب سيبهضون نهضة لم يسمح بها الدهر قريبا ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم . كتب يوم الأربعاء ٢٥ مارس سنة ١٩٣١ م - والى هاتم الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة والحمد لله رب العالمين .

القسم الثاني في تقسيم السورة

هذه السورة ثلاثة مقاصد

﴿ المقصد الأول ﴾ في وصف الكافر والمؤمن من أول السورة الى قوله تعالى : « كذلك يضرب الله للناس أمثالهم » .

﴿ المقصد الثاني ﴾ في جزاء التسمين في الدنيا والآخرة من خذلان ونصر، ونار وجنة ، من قوله تعالى « فاذا لقيتم الذين كفروا » الى قوله تعالى : « والله يعلم متقلبكم ومثواكم » .

﴿ المقصد الثالث ﴾ وعيد وتهديد للمنافقين والمرتدين من قوله تعالى : « ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة » الى آخر السورة .

التفسير اللفظي للسورة كلها

المقصد الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(الذين كفروا وصتوا عن سبيل الله) صرفوا الناس عن الدخول في الاسلام ، وهذا يستلزم أنهم هم امتنعوا عن الدخول فيه (أضلّ أعمالهم) أبطلها سواء أكانت تلك الأعمال حسنة كصلة الأرحام واطعام الطعام ، وعمارة المسجد الحرام ، أم كانت سيئة كالكيّد لرسول الله ﷺ والصدّة عن سبيل الله ، فالأولى يبطل ثوابها ، والثانية يبطل أثرها ، ويمحو نتائجها ، وهكذا كل من قام عملاً شريفاً صادقاً فإن ما له الخذلان كما يقال في العصر الحاضر: « من كان مع الحقيقة أوضدها قواها ، فالعارض لها كالتنصر لأنه بالمعارضة يزيد المنتصرين لها قوة ، فالحق هو الغالب ولكن في العاقبة » وقد ظهر ذلك في كثير من الدول ، فالروس والفرس والأفغان والترك ، وبلاد بولونيا وهكذا ، كل هذه الأمم كانت مستعبدة فأخرجها الله من الذل إلى العزّ وذلك بسبر رجالها والعاقبة للصابرين ، كل بحسبه (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) من المهاجرين والأنصار ، وأهل الكتاب المؤمنين وغيرهم ، وخصص القرآن المنزل على محمد ﷺ بالذكر تعظيماً لشأن القرآن ، ودلالة على أنه لا يتمّ الايمان إلا به فقال (وآمنوا بما نزل على محمد) وإنما خصه بالذكر لأنه ناسخ الأديان كلها ، ولا يرد عليه نسخ ، وهذا قوله (وهو الحق من ربهم) وقوله (كفر عنهم سيئاتهم) خبر الذين آمنوا أي سترها بالايمان وعملهم الصالح (وأصلح بهم) حالهم في الدين والدنيا بالتوفيق والتأييد كما جعل أعمال الكافرين ضالة ضائعة ليس لها من يقبلها ويثب عليها كالضالة من الإبل ، ثم علل ما تقدم من ضلال الأولين ، واصلاح حال الآخرين ، بقاعدة عامة تبرهن على ذلك فقال (ذلك) المذكور من الاضلال واصلاح البال (بأن) أي بسبب ان (الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم) يقول الله : إنما أضلت الكافرين ، وأصلحت حال المؤمنين ، لأن هذين الفريقين جريا على القاعدة العامة وهي ان الحق منصور ، والباطل مخذول ، تلك قاعدة عامّة في الدين والدنيا ، فالصناعات المحكّمة إنما قبلها الناس وأثرى أهلها ، لأنها جارية على النسق الحق ، والطريق المستقيم ، والقواعد العلمية الصادقة ، وهكذا الزراعة المتقنة ، والتجارة الجيدة ، والسياسة المحكّمة ، كل من هذه تصحّ نتائجها ، وتصدق ثمراتها ، فأما الصناعات المرذولة ، والتجارات المزجاة بضائعها ، والأعمال المهملات ، فلن يكون نصيبها إلا الضياع والبوار ، لأن الباطل لا يثبت له ، والحق هو الثابت ، والله هو الحق فينصر الحق ، ولما كان المسلمون في هذه العصور

مهملين لمدينهم وصناعاتهم وهم عالة على أوروبا في حربهم وسياساتهم وتجاراتهم ، ضلّ سعيهم ، فأصبوا تابعين لأوروبا سياسة وتجارة وامارة إلا من استيقظوا فانبغوا الحق والصدق ، ونشطوا كأهل الأناضول والفرس والأفغان فأولئك الذين نهبوا وعرفوا الحقائق ، قلموا من نومتهم ، ونفضوا غبار النمل ، وأخذوا يستنبطون الحيل لاحتراز المجد ، وارتقاء البلاد ، والقاعدة واحدة ، فان العلم الصحيح ، والدين الصحيح ، والصناعات الصحيحة ، والآراء الساذقة ، نتائجها السعادة ، وبضدها تميز الأشياء . انظر أيها التكي ، انظر كيف كانت هذه القاعدة عامة ، انظر كيف كانت كما تقدم في قوله تعالى : « ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء الخ » ، وقوله : « ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجثت من فوق الأرض ما لها من قرار » . انظر كيف جعلها الله مثلا ، انظر كيف جعل كلمة التوحيد وكلمة الكفر كشجرة النخل وشجرة الخنظل ، وثبات أحدهما وعدم ثبات الأخرى أي ان القاعدة واحدة في الماديات والمعنويات ، أي لا فرق بين معقول ومشاهد في الضلال والثبات ، وانظر كيف يقول هنا (كذلك) أي مثل ذلك الضرب (يضرب الله للناس أمثالهم) بأن جعل اتباع الباطل مثلا لعمل الكفار ، والاضلال مثلا لخبيثهم ، واتباع الحق مثلا للمؤمنين ، وتكفير السبائت مثلا لغوزهم ، إن شأن القرآن أن يبين مزايا المقام الذي فيه ذكرى عامة ، وموعظة تامة ، وهذا المقام من أجلها وأعظمها ، ضرب المثل بالباطل وبالخطيئة كضرب المثل بالنخل والخنظل في سورة أخرى كل ذلك يرمى لغرض واحد ، ومقصد تام ، ألا وهو الثبات وعدم الثبات (وبعبارة أخرى) ان الله خلق السموات والأرض بالحق ، على قوانين ثابتة منظمة ، فكل ما قرب من الحق كان باقيا ، وكل ما ابتعد عنه كان هالكا على مقدار بعده ، فرجال الجذ والنشاط مؤيدون ، ورجال الكسل والتواكل مخذولون ، والمحققون في كل شيء محبوبون منصورون ، وبضدها تميز الأشياء .

لطيفة

تذكر مامرّ عليك في (سورة آل عمران) من ضرب أمثال خمسة من مخلوط المعدني ، وكيف كان خلط المعدن بنظام جيد فائدة تامة ، فالتحاس الأجر إذا صهر جزءان منه مع جزء من الحارصين تكون مخلوط معدني صلب هو التحاس الأصفر سهل الصنع لونه الصفرة ، هكذا الرصاص لا يصلح لحروف الطبع إلا إذا خلط معه الأنثيمون بنسب خاصة ، والمدافع لا يمكن صنعها من التحاس وحده ، فإذا خلط معه القصدير بنسب معلومة حصل من الخالوط « البروز » وهو الذي تصنع منه المدافع . فهذه بعض الأمثلة على الحق وهو بعض الحق العام . قال الله تعالى : « خلق السموات والأرض بالحق » وهو النظام التام والقوانين الصادقة وضدها الباطل ، فعلم الهندسة التي بها صنع اهرام الجيزة ببلادنا المصرية على مقتضى دائرة الأرض حول الشمس حق مما به قامت السموات والأرض ، ولكنه لا يكون كالحق الأعظم وهو قوانين السيارات والثواب ونظام السموس والأقمار ، فان تلك القوانين بها ثبتت تلك العوالم ودامت ، أما قوانين الأعمال الصناعية الأرضية فانها تدوم على نسبة كمالها ، وكل كمال في الأرض له أثره ، فالجمال في الوجوه ، وفي الأشجار ، وفي الأزهار الذي هو عبارة عن التجانس والتشاكل والنسب الصادقة يحصل أثره في الرائين ، ويكون الأثر في النفوس على مقدار الحقائق العلمية في الجليل من زهر وشجر وانسان ، وهكذا بقاء الأهرام المصنوع على نسب هندسية فلكية يكون على مقتضى ما وصل إليه العلم في التحقيق ، وهكذا كل بناء ، وكل صناعة ، ولذلك ترى المباني التي صانها جاهل لا تدوم بل تنقض ، ومثل ما رأيت في المشاهدات تكون الامور المعقولة ، انظر إلى دين الاسلام كيف دام ١٣٥٠ سنة وهو باق لم يتزلزل ، ذلك لأنه هو الحق ، والحق يبق ، فإذا بقيت الكواكب لثباتها على الحق ، وإذا بقي الهرم لبنائه على الحق وإذا ثبت المدفع لصنعه على النسبة الحقة ، هكذا

تبت القرآن ثلاثة عشر قرنا ونصف إلى الآن وإلى يوم القيامة على مقتضى حقيقته . هذا هو معنى قوله تعالى :
 « ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم » ثم أبان ذلك فقال :
 « كذلك يضرب الله للناس أمثالهم » أي يبين أحوالهم . انتهى المقصد الأول من السورة .

المقصد الثاني

قال تعالى (فإذا لقيتم الذين كفروا) في المحاربة (فضرب الرقاب) أي فاضربوا الرقاب ضرباً بالأن الرأس من أشرف أعضاء البدن فإذا أدين عن البدن كان أسرع إلى الموت والهلاك بخلاف غيره (حتى إذا أتختتموه) أكثرهم قتلهم وأغلظتموه من التخين وهو الغليظ (فشدوا الوثاق) فأسروهم واحفظوهم ، والوثاق بالفتح والكسر ما يوثق به (فإما منا بعد وإما فداء) أي فلما تمنون منا أو تفقدون فداء ، أي أنكم تحبسون بعد الأسر بين المنق والاطلاق ، وبين أخذ الفداء ، قاله كراجر الحرف المكلف إذا أسر بجير الامام فيه بين القتل والمنق والفداء والاسترقاق ، والفداء إما بمال أو بأسارى المسلمين ، وهذا من ذهب الحسن وعطاء وأكثر الصحابة والعلماء والثوري والشافعي وأحمد واسحق . وقال أبو حنيفة : إن الآية منسوخة فلا فداء بمال ولا بغيره عنده خيفة أن يعودوا حرباً للمسلمين . ثم ذكر غاية المجموع من الشد والمنق والفداء فقال (حتى تضع الحرب أوزارها) آلتها وأقالها التي لا تقوم إلا بها كالسلاح والكراع ، أي حتى لا يبقى إلا مسلم أو مسلم ، أي هذه الأحكام جارية فيهم حتى لا يكون حرب مع المشركين بزوال شوكتهم ، أو ينزل عيسى ابن مريم ، فتزال الشوكه أو تنزل عيسى ابن مريم فلا حرب ولا أسر ولا قتال ، ولقد تقدم في هذا التفسير أن كتابنا المنزل على نبينا صلى الله عليه وسلم يخبرنا انه سيكون هناك يوم تجتمع فيه الأمم كلها على حال واحدة ويكون بينهم مودة فر بما قرب ذلك الوقت ، وربما كانت الأمم اليوم مستعدة له ، ألا ترى إلى المدافع والطائرات والقاذورات الخفاقة والمعوية ، كل تلك المهلكات ، ولقد علمنا أن أهل ألمانيا اليوم قد اخترعوا من المهلكات ما لا تصدقه العقول كأضواء ينصبونها فتصيب أهل لندن فتحرق بلاد الانجليز في يوم ما والأنوار في نفس برلين والله أعلم ، كل ذلك إفراط في الاهلاك ، ويقال ان ألمانيا عندها غاز لو أطلقت في الجو لجعل الهواء كله مسموما فيموت أهل الأرض قاطبة ، ويموتون هم معه ، وكل هذه أقارب لا يدري مدى صحتها ، ولكن لا بد من بلانار فاللخص من هذا كله أن الأمم قد أفرطت في المهلكات ، وربما كان ذلك سيعود بالإفراط في السلم ، لأن الشيء متى زاد عن حده انقلب إلى ضده ، وربما كان هذا السلام أن يكون لكل أمة أعمال خاصة ، ومجموع الأمم تكون لها جمعية تدبر شؤون المجموع ، والطائرات والبرق (التلغراف) والمسرة (التليفون) تجري بينهم لا يمتنع شرقي عن غربي ، ولا غربي عن شرقي ، وتكون الأمم كلها أمة واحدة ، نظماً وحياة ، كما ذكره الفارابي في كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » وكما ذكرته في كتابي « ابن الانسان » الذي سترى ملخصه إن شاء الله في (سورة الحجرات) قريباً بقلم الاستاذ ستلانه الطلياني في مجلته باللغة الإيطالية وهو مترجم بالعربية لتعلم أن العقول في الأرض تتناهم ، مع انه لاصلة بيني وبين أي انسان في أوروبا . وسترى أن السلم يفسده كثير من العقلاء ، ولقد حدث في ألمانيا مذهب البشافية أي الأكثرية ، وانشر هذا المذهب في روسيا ، وهذا المذهب يقال انه يجعل الناس كلا في عمله الخاص به ، والمجموع مسخر للمجموع ، والتفصيل في الكتب لا يسعه هذا الكتاب ، وربما كان ذلك مقدمة لمذاهب أخرى تكون متفحة مهذبة تجعل الناس كلهم اخواناً ، وإذا كان المسلمون هم البادئين به كان أفضل لأنهم شهداء الله على خلقه ، فيكون العالم كله إما مسلمين أو مسلمين ، أي ليس بيننا وبينهم حرب ، ولا ضرب ، ولا قتال ، فعلى المسلمين أن يجتهدوا ليصلوا لتلك اليوم الذي لا ينزل عيسى إلا وقد استعدت الناس له ، ومستحيل أن ينزل عيسى على قوم مجرمين ، فعلى

المسلمين أن يستكملوا العلم والعمل ، والعدة الحسية والمعنوية ليرقوا نفوسهم والأمم حولهم ، ويقودوها إلى السلام العام ، هذا بعض أسرار كتابنا المقدس .

إن كتاب « أين الانسان » ظهر لى قريبا انه كله تفسير لآية الحجرات الآتية ، فاجب للقرآن واجب ألف مرة لهذه السورة التي ذكر فيها أن الحرب تضع أوزارها بعد ما تقدم قريبا في (سورة الدخان) والدخان هو الذي ظهر في الحرب الحاضرة ، إنك تجب الآن وستجب ثم تجب انى في هذا التفسير في بحر من الجب اومن القرآن ، وما أدري ماذا يكون أثره الجباب ، وانى أوقن أنه يكون من أسباب سرعة الارتقاء للمسلمين . ثم إن الأمم مادامت لم تصل إلى تلك الدرجة فعلى المسلمين أن يكونوا أقوى الأمم في العلوم والصناعات ، ذلك هو الذي سيكون في مستقبل الزمان بعد انتشار هذا التفسير وأمثاله من مؤلفات المسلمين في الشرق والغرب والله هو الولي الحميد .

ثم اعلم أن الله جعل للسلم فوائد وللحرب فوائد ، فالأمم مادامت في حال الطفولة عقولها أشبه بعقول شاب مرهق لم يبلغ الحلم بحيث لا يزال يقاتل الصبيان ويشاجرهم ويوقع الأذى بهم وهم يزيدون أذى فانها لاتزال في حرب كأهل أوروبا اليوم وأهل الشرق ، فهذه الأمم حكم الله عليها بالحرب لتقوى الأبدان وترقى الصناعات وتموالأمم فان الحرب تشرح الصدور ، وتوقظ الشعوب ، وتفتح المغلق ، وتيسر العسير ، كما يقوله علماء الألمان ، وكما قاله أرسطاطاليس للاسكندر : « إن الراحة للأمم مضرّة بهم » ولذلك يقولون : « اذا أردت رقى أمة فاجعلها تخوض الحروب ، فذلك يفتح لها باب السعادة ، والأمم النائمة على فراش الراحة الوثير معرّضة للزوال والهلاك » ، كل ذلك والأمم في حال الطفولة ، فأما اذا كملت أخلاقها ومواهبها فان نتائج السلم عندهم كتناجح الحرب عند من قبلهم ، فكما يفرح الرجل في الأمم الحاضرة بغلبة الأعداء ، وشفاء الغليل ، ويجمع الرجال والسلاح والكرام ، هكذا سيكون فرح الأمم بمساعدة غيرها ، وانشرح الصدور بظهور أم جديدة تكافح معهم في الحياة مساويا لفرح من قبلهم بالغلبة والانتصار على سواهم ، ويكون كل فرد في الأمم المستقبلية أشبه بالأب يجرى ويكدهج لمساعدة أولاده ، وهذا الكدهج يحدث فيه فرحا أشد من فرح المنتصر في ميادين القتال .

الأمم اليوم نصف كاملة تسمى لاسعاد أنفسها واهلاك غيرها ، وسيأتى وقت تسعى فيه لاسعاد الجميع ويكون الفرح أشد من الفرح بهزيمة الأعداء ، ويكون جيع الناس كالأمهات والآباء ، والى هذين الحالين الانسانين أشار الله هنا ، فإلى حال الكمال أشار بقوله « حتى تضع الحرب أوزارها » والى حال النقص المشاهدة في الأمم والى حكمته . قال : الأمر (ذلك ولو يشاء الله لانصر منهم) أى لانتقم منهم بالاستئصال (ولكن) أمرهم بالقتال (ليبلوا بعضكم ببعض) أى ليبالوا المؤمنين بالكافرين بأن يجاهدوهم فتقوى أبدانهم ، وتصح نفوسهم وترقى عقولهم ، وتنظم مدنهم ، وتعد كلتهم ، ويجتمع شملهم ، بما يرون من اتحاد عدوهم فيوجب اتحادهم وترقى الزراعة والتجارة والصناعة ، وأحوال الأمة ، والقضاء ، وجيع العلوم ، إذ لا يتم حوب ولاغلبة إلا بها وهكذا أعداؤهم يرتقون في أمور الدنيا فتعظم المدن ويختلطون بالمسلمين فيقرمون كتبهم ويعرفون أحوالهم وهذا رقى للنوع الانسانى ، ثم الضعيف من الطرفين هالك ، ويكون الرقى دائما ، هذا كله في حال النقص أما في حال الكمال فذلك حين يكون الناس كلهم كأسرة واحدة وحالمهم أرقى من حال هؤلاء الناقصين ، ثم أخذ يبين درجات الفريقين من حيث نتائج أعمالهم في الآخرة فقال في فريق المؤمنين المجاهدين (والذين قاتلوا في سبيل الله) أى جاهدوا (فلن يضل أعمالهم) فلن يضيعها (سهيهم) إلى الثواب أو يثبت هدايتهم (ويصلح بهم) يرضى خصماءهم ، وقبل أعمالهم (ويدخلهم الجنة) في الآخرة ويجعلها طيبة الرائحة بحيث يطيبها لهم ويجعل لكل واحد جنة منفردة منفردة عن الأخرى بحيث تكون محددة معينة ويهديه إليها

بحيث لا يضل في طلبها ، وذلك كله في الآخرة ، أما في الدنيا فإنه يصفها لهم بالوصف الذي يشوقهم إليها ،
 ففي الدنيا وصف مشوق لها ، وفي الآخرة طيب الرائحة والهداية إليها وتحديدها ، هذه المعاني الأربعة كلها
 حاصلة وقد فسر بكل واحد منها قوله تعالى (ويدخلهم الجنة عرفها لهم) فعرّفها تحتل المعاني المتقدمة ،
 ولا جرم أن لكل امرئ في الحياة عملا خاصا يستوجب حالا في الآخرة لا يتعداه كما يستوجب كل من نال
 شهادة في علم أو صناعة حالا توازي شهادته في الحياة الدنيا والنظام الصرائي ، فإذا مات الانسان وضع في مركزه
 وضعا طبيعيا لا تكلف فيه ، فيكون الناس في الآخرة أشبه بأنواع السمك في البحر المالح وأنواع الطير في جوف
 السماء ، فكما أن الطير في الجوف لكل من أنواعه درجة في العلو لا يتعداها ، هكذا لكل من الصالحين درجة
 في الآخرة لا يتعداها ، بل يجد نفسه مقهورا على البقاء فيها ، وكما أن السمك منه ما هو قرب سطح الماء ،
 ومنه ما وجد تحت سطح الماء بمائة قامة ، أو ألف ، أو آلاف كما تقدم في هذا التفسير ، فهكذا أهل السعير ،
 « ولكل درجات مما عملوا » ، وعلى هذا يكون التعريف هنا بمعنى التحديد والتمييز والاهتداء إليها اه
 وقرئ « والذين قتلوا » بالبناء للجهد أي استشهدوا ، وهذا جزء المجاهدين في الآخرة ، أما جزاؤهم في الدنيا فهو
 في قوله (يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله) ان تنصروا دينه ورسوله (ينصركم) على عدوكم (ويثبت أقدامكم)
 في القيام بحقوق الاسلام ، ومجاهدة الكفار ، هذا جزء فريق المجاهدين ، وأعقبه بجزء الكافرين فقال
 (والذين كفروا) مبتدأ (ه) تعسوا (تعسوا لهم) كما قيل للمجاهدين بنسبت أقدامهم ، قيل للكافرين تعسا
 يقال للعاثر تعسا اذا دعوا عليه ولم يريدوا قيامه ، وضده لعا اذا دعوا له وأرادوا قيامه ، فإذا ثبت المجاهد في
 الحرب عثر الكافر وسقط ولم يقم من سقطته ، وقوله : (وأضل أعمالهم) مقابل لقوله في فريق المجاهدين
 « فلن يضل أعمالهم » وبين سبب ذلك فقال (ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله) وهو القرآن ، وقد تقدم في
 أول السورة أنه الحق من ربهم ، ومن لم يتبع الحق الذي قامت عليه السموات والأرض لم يثبت بل يسقط
 ويقال له تعسا ، لأن الذي يبنى على الحقائق دائم لا يزول ، والذي يبنى على غير الحق زائل ، لزوال أسه وعدم
 نيابته ، وقوله (فأحبط) الله (أعمالهم) مرتب على ما قبله ، وتكراره للاشعار بذلك الترتب ، والاحباط
 الابطال ، فكل ما عملوه باطل مع عدم الايمان الذي هو الأُس ، ثم ان المشاهدات المحسة لها آثار في النفوس
 وتنتج عند ذوى العقول اذا تدبروا فيها واعتبروا ، فلذلك أمرهم الله بالنظر في أحوال الأمم السابقة ومشاهدة
 آثارها فقال (أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) من الأمم الماضية والقرون
 الخالية الكافرة ، وكأنه يقال : ماذا كان عاقبتهم ؟ فأجاب (دمر الله عليهم) يقال دمره أهل كة ، ودمر عليه
 اذا أهلك ما يختص به أي أهلك الله عليهم ما يختص بهم من مال وولد ونفس ، واذا رأوا ذلك في الأمم السابقة
 أفلا يعقلون أن ما جاز على أحد المثلين جاز على الآخر ، فبطريق القياس التمثيلي يقال : ان الكافرين بمحمد
 صلى الله عليه وسلم يحصل لهم ما حصل للأمم قبلهم ، وهذا قوله (وللکافرين أمثالها) أي ولهم فوضع الظاهر
 موضع المضمرة أي لهم أمثال تلك العاقبة ، أو العقوبة والمهلكة ، ثم أتى بسبب ما تقدم كله من عاقبة الفريقين
 فقال (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا) أي ناصرهم على أعدائهم (وأن الكافرين لا مولى لهم) فيدفع
 عنهم العذاب ، وأما قوله تعالى « ثم ردنا إلى الله مولاهم الحق » فعناه المالك ، وإنما كان الله مولى الذين
 آمنوا لما تقدم أول السورة من أنهم آمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم ، ومعلوم أن الله هو الحق وأنه
 خلق السموات والأرض بالحق ، فرجع الأمر إلى القاعدة العامة أن الحق هو الموجب للنصر لأنه ثابت ومنه
 جميع القواعد العلمية والصناعية لأنها مؤسسة على نظام الله الذي قامت به السموات والأرض والاسلام لما
 كان حقا عاش وبقى في زمن عزه وزمن ضعفه دلالة على أنه حق والحق له البقاء ، ومن هذا القاعدة العامة
 في الدنيا وهي ان الأمة التي اتحدت وجهتها ونظمت أعمالها تكون منصوره ، وقد ينصر الأقلون اذا كانوا

أشدّ احكاماً ، واذا تساوت الطائفتان في الاحكام والعلم والعمل غلبت أكثرهما عدداً ، إن الله جعل نظام العالم توحيد الوجهة ، فالأم التي وحدت وجهتها وانتظمت قلب من هي أقلّ منها في ذلك ، كل ذلك من قوله تعالى : « خلق السموات والأرض بالحق » ، ولما كان المسلمون في أول أمرهم أكثر اعتماداً وأسرع إلى نشر الفضائل غلبوا مع قلتهم الأمم العظيمة ، فلما قسموا المال هزمتهم أقلّ الأمم ، ولما انتظمت دول أوروبا وكثر اتحادها غلبوا المسلمين ، لأنهم لم يقوموا بالحق كما يجب ، فالإسلام حقّ ولكن نظام العالم الذي خلقنا فيه نجح دراسته ، فاذا أغفلناه فقد أغفلنا ما يطلبه الحقّ وهو القرآن ، إذن تغلبنا الأمم ، هذا هو الحكمة في قول الله تعالى « وهو الحقّ من ربهم » فالحقّ من ربهم عنوان لذلك كله ، ولما جاء دور ارتقاء المسلمين وخاضوا غمار الحرب في هذا الزمان نصرُوا في كل مكان ، في الأناضول ، في الفرس ، في مراكش ، في الأفغان ، في الحجاز (إن الله بدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار والذين كفروا يجمعون) في الدنيا بشهواتها ولذاتها (ويأكلون كما تأكل الأنعام) فليس لهم همة خارجة عن بطونهم وفروجهم وهم ساهون لاهون عميراد بهم في غد ، فكما تأكل الأنعام في معاقبها ومسارحها وهي غافلة عما هي بسدده من النحر والنجب كذلك هؤلاء يأكلون ويتلذذون وهم غافلون عن عذاب النار ، وهذا قوله (والنار مشوى لهم) منزل ومقام (وكأين من قرية هي أشدّ قوة من قريتك التي أخرجتك) أي أخرجك أهلها (أهلكناهم) بأنواع العذاب (فلانصرطهم) يدفع عنهم (أفمن كان على بينة من ربه) حجة من عنده ظلية كالقرآن ، أو عقلية بنور العقل كالنبيّ والمؤمنين (كن زين له سوء عمله) بالشرك والمعاصي (واتبعوا أهواءهم) في ذلك ، والمراد كفار مكة الذين زين لهم الشيطان شركهم وضلالهم ، واللفظ يعمهم وغيرهم (مثل الجنة) صفة الجنة الجيبة (التي وعد المتقون) أي فيها قصصنا عليك صفتها الجيبة ، نخب مثل محذوف وهو الجار والمجرور ، ثم استأنف بشرح المثل فقال (فيها أنهار من ماء غير آسن) يقال أسن الماء أسنا إذا تغير طعمه وريحه (وأنهار من لبن لم يتغير طعمه) كما تتغير ألوان الدنيا إلى الجوضة وغيرها (وأنهار من خمر لذة) تأثيث لذة وهو اللذيذ (للشاربين) أي ما هو إلا التلذذ الخالص ليس معه ذهاب عقل ، ولا صداع ، ولا آفة من آفات الخمر (وأنهار من عسل مصفى) لم يخالطه الشمع وفضلات النحل ولم يمت فيه بعض نحله كعسل الدنيا بل هو خالص من جميع الشوائب ، وفي ذلك تمثيل لأشربة في الجنة لذيذة مجردة من كل تنقيص وقص مع استمرارها وكثرتها (ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم) وفي أعراب « مثل الجنة » وجه آخر وهو أن يعرب مبتدأ خبره قوله (كن هو خالد في النار وسقوا ماء حيا) حارا شديدا الحرارة (فقطع أمعاءهم) وهو في معنى الاستفهام الانكاري كقوله « أفمن كان على بينة من ربه » أي أمثل الجنة التي وعد المتقون كمثل جزاء من هو خالد في النار ؟ كلا . ليس مثله ، وكأنه قيل ليس من هو على بينة من ربه كما يقع هواء ؟ وكما لا تستوى الجنة والنار لا يستوى ذوا البرهان وذو الهوى (ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا) بعد أن ذكر المؤمنين وجناتهم والكافرين ونارهم ذكر طائفة المنافقين الذين هم كالمؤمنين من وجهه والكافرين من وجهه فقال انهم يستمعون إليك فاذا خرجوا من مجلسك وقد تهاوتوا بما سمعوا منك قالوا لأولى العلم من الصحابة ماذا قال الساعة على جهة الاستهزاء وآنفا من أنف الشيء لما تقدم منه مستطرا من العضو المعروف وهو ظرف بمعنى وقتا مؤنثفا ، ويقال اتنتفت الأمر أي ابتدأته (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتباعوا أهواءهم) * قال مقاتل : كان صلى الله عليه وسلم يخطب ويعيب المنافقين ، فاذا خرجوا من المسجد سألو عبد الله بن مسعود استهزاء : ماذا قال محمد صلى الله عليه وسلم ؟ قال ابن عباس وقد سئلت فيمن سئل (والذين اهتدوا) بالآيمان واستماع القرآن (زادهم) الله (هدى) أي بصيرة وعلمنا وشرح صدورهم (وآتاهم تقواهم) أعانهم عليها ، أو آتاهم جزاءها

(فهل ينظرون إلا الساعة) أى ينتظرون (أن تأتيهم) أى آياتها وهذا بدل اشتغال من الساعة (بغثة) جفأة (فقد جاء أشراطها) علاماتها وهو مبعث النبي ﷺ ، وانشقاق القمر كما قال بعض المفسرين ، والسخان ، وقطع الأرحام ، وقلة الكرام ، وكثرة اللثام (فأتى لهم إذا جاءتهم الساعة وهما في ذكراهم) أى فأتى لهم ذكراهم إذا جاءتهم الساعة وهما في ذكراهم (فأتى لهم إذا جاءتهم الساعة وهما في ذكراهم) أى فأتى لهم ذكراهم إذا جاءتهم الساعة وهما في ذكراهم (فأعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك) أى إذا علمت سعادة المؤمنين ، وعذاب الكافرين ، فأثبت على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية ، واصلاح حال النفس باستكمالها وهضمها بالاستغفار من الذنب — ولا معنى لذنوب الأنبياء إلا أن يتركوا ما هو أفضل أو أولى — وتوجيهها إلى الاستغفار للأتباع قال الله (وللمؤمنين وللمؤمنات) أى لذنوبهم (والله يعلم متقلبكم ومثواكم) أى متصرفكم ومنشركم في الدنيا ، ومصيركم إلى الجنة أو إلى النار في الآخرة ، فاتقوا الله واستغفروه . وسئل سفيان بن عيينة عن فضل العلم فقال : ألم نسمع قوله تعالى : فأعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك ، فأمر بالعمل بعد العلم . انتهى التفسير اللفظي للمقصد الثاني من السورة

لطائف هذا المقصد

- (١) في قوله تعالى : أفلم يسيرا في الأرض الخ
- (٢) » » » : والذين كفروا يجمعون ويأكلون كما تأكل الأنعام وللنار مشوى لهم .
- (٣) » » » : مثل الجنة التي وعد المتقون الخ
- (٤) » » » : فقد جاء أشراطها

اللطيفة الأولى

في قوله تعالى : « أفلم يسيرا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم فدمرناهم عليهم وللكافرين أمثالها »

جاء القرآن والأمة العربية غافلة عن النظر في الآثار البائدة ، والأمم الهالكة ، فكانوا يمرّون وهم معرضون ، ويسافرون صيفا وشتاء وهم غافلون ، فبعثهم القرآن من مرقدهم ، وقاموا بنو بتهم في نظام الجنس البشرى . يقول الله : أغفلوا فلم يسيرا في الأرض فينظروا ، غيرهم بالغفلة ، وبكنهم على ترك السير في الأرض المسحوب بنظر العواقب المترتبة على الاعمال والغفلة ، وحفرهم أن يسيرهم ما أصاب الأمم قبلهم ، وقد جاء في أول السورة أن القرآن هو الحق من ربنا ، وفي آية أخرى : خلق الله السموات والأرض بالحق ، فكانه يقول لهم : انظروا في الأمم البائدة ، فكل أمة خالفت نظامنا ، وجهلت صنفا ، وحادت عن صراطنا ، وأذقتها المصاعب ، وجعلتها عبرة للعبرين ، هكذا كان السابقون ، وهكذا يكون اللاحقون فياليت شعري أى عذر لمسلمي العصر الحاضر ، وأى ذنب أقعدهم ، وأى مصيبة حلت برؤسهم ؟ ناموا ولم ينظروا ، لم ينظروا أهل أوروبا وأمريكا ، لم ينظروا كيف حلّ الخراب بساحات الأندلس المسلمين لما بطروا النعم ، لم ينظروا قصور الملوك المسلمين وآثارهم في قرطبة وباقي بلاد الأندلس ، فإذا أمر الله آباءنا أن ينظروا في آثار غيرهم من الأمم البائدة فنحن مأمورون أن ننظر في آثار الأمم الإسلامية الهالكة بذنوبهم وجهلهم ، وكأن الله يقول : أفلم ينظروا أهل مصر وتونس والجزائر ومراكش وأبناء الشام والعراق والحجاز ، أفلم ينظروا ملحق بالأندلس المسلمين كيف انكبوا على مصنوعات الفرنجة وملابسهم وخمرهم فأذقناهم عذاب الحزى في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشدّ وأحرزى وهم لا ينصرون .

لقد حقر أبناء العرب في الأندلس مجد آبائهم وعاداتهم ودينهم في أواخر أيام عزّهم ، وكرعوا من خمر

الاسبانيين وتعلموا على أسانذتهم فأتحلت عرى قوميتهم ، فساء صباح المنذرين ، وحل بهم ماحلّ بالمضيين ،
 وأنسوا بالافرنج ، فأصبوا صعيذا حامدين كما تقدم قريبا في سورة الأحقاف
 أفلا يعتبر المسلمون في مصر والشام وبلاد شمال افريقيا عموما كيف لا يحاول بعضهم الأكل إلا في مطاعمهم
 ولا الفزل إلا مع نسائهم ، ولا الملابس إلا من منسوجهم ، فلئن لم ينتهوا عما يفضلون ليدنقن النكال ، وليحلن
 بهم ماحلّ بالأندلسيين . أقول : ومن عجب أن التعاليم الاسلامية اليوم مغيرة وجهتها ، وبليت شعري أنام
 علماء الاسلام ؟ أجهل حكماؤهم أمثال هذه الآيات ؟ لماذا لم ينهوا الشعوب الاسلامية ؟ لماذا لم يوقظوها ؟
 لماذا ناموا على الأحكام الفقهية ، وجهلوا الحقائق الكونية ، نعم تنبه من المسلمين قوم ولكن ذلك ليس
 من تعاليم القرآن المهجورة ، بل من تعاليم الفرنجة المسطورة ، فاستيقظ أهل الأناضول ولكن بالتعاليم الافرنجية
 تنبهوا وحظروا أن يتكلم في الرسميات أحد إلا باللغة الوطنية ، وأن لا يكتب إلا بها على عكس ما فعل
 الأنديلسيون في أواخر أيامهم إذ كانوا يحاكون الفرنجة محاكاة ، فذلوا لهم خاضعين ، وخضعوا لهم صاغرين .
 تم الكلام على اللطيفة الأولى والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : والذين كفروا يجمعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم

الانسان امتاز عن الحيوان بالعقل والفكر ، فحتى عطل تلك القوى التي امتاز بها حلّ به السمار في الدنيا
 والآخرة ، فأما في الدنيا فبالصغار والذلة ، وأما في الآخرة فبنار جهنم وبئس القرار ، ومن درس هذا التفسير
 في السور الماضية أدرك هذا المقصد في مواضع كثيرة فلاحاجة للإطالة ، وإنما أقول : إن المسلمين في القرون
 الأخيرة ناموا على وساد الراحة ، ونسوا أن لهم عقولا ، وأن لهم ديننا ، فأذلتهم الفرنجة ، وخضعوا لهم
 صاغرين . ومن موجبات العقل النظر في الأمم المهالكة وأسباب هلاكها ، ولقد جاء في اللطيفة المتقدمة
 الحث على النظر في الأمم البائدة ، والأجيال المهالكة ، وأنهم هلكوا بكفرهم ، وأن هذا قانون عام . وإذا
 كان القرآن يأمر بالنظر في الأمم المهالكة لنعبر بها فهو من باب أولى يأمر بالنظر في الأمم الحية لتقلدها ،
 ونعمل عملها ، إذا وافق شرعنا ، فحق على المسلمين أن لا يذروا علما إلا درسوه ، ولا صناعة إلا أحاطوا بها
 وعليهم أن يرسلوا من عندهم جماعات يجوسون خلال الأمم في أوروبا وأمريكا واليابان ، ويدرسوا أحوالها ،
 وينشروا أسباب رقيها ، ويتلافوا النقص الحاصل في بلاد الاسلام . ليكن ذلك وليدرسوا لغات الأمم وأخلاقها
 وعلومها ، وليكن في كل علم وكل فن وكل لغة اختصاصيون يقومون بالواجبات ، كل ذلك من قوله تعالى
 « أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمي الأبصار ولكن
 تعمي القلوب التي في الصدور » ومن قوله تعالى : « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين
 من قبلهم دمر الله عليهم » وقلنا ومن باب أولى فينظروا كيف كان عاقبة الذين هم معاصرون لهم كيف أنهم
 الله عليهم وأيدهم بالانحاد والعلم والنجدين أمثالها ، هذا هو الدين الحق لا تلك التعاليم
 الناقصة ، المستوثة ، الجاهلة ، الخاطئة في أكثر ديار الاسلام حتى حق القول هل أكثرنا ، فيقال في الغافلين :
 « يجمعون ويأكلون كما تأكل الأنعام » فأصبح أكثر المسلمين تحت رعاية الاوروبيين ، يتركونهم في الحقل
 يصلون ، ويحبون منهم الضرائب ، ويذرونهم في الجهالة العمياء يجمعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ،
 فلا هم يدرسون ، ولا قرآن يعقلون ، ولا حكمة يزارلون ، ولقد آن أن يعز الله قوما ذلوا ، ويسعد قوما شقوا
 والله هو الولي الحميد . انتهت اللطيفة الثانية

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : مثل الجنة التي وعد المتقون

لقد تقدم الكلام على الجنة والنار في ﴿ البقرة ﴾ و ﴿ آل عمران ﴾ وغيرها وأسهبنا في الكلام هناك ، والذي ينبغي أن نذكره هنا ما يناسب هذه الآية ، ان الله شرح الجنة شرحا يسر النفوس في ﴿ سورة الواقعة ﴾ وغيرها ، فذكر الجنات والحريز والحور العين والأنهار مما هو معلوم مشهور وأكثر من ذلك لأن أكثر الأمم عوام ، فاذا ماتوا لا يجدون لهم لذة إلا فيما عرفوه في الحياة الدنيا ، فيدخلون الجنة ، وينالون ما يشتهون ، كما يقال : « أريت الجنة فاذا أكثر أهلها البله ، وعليون لأولى الأبواب » ، والمراد بالبله أولئك الذين لم يرتفع نظرهم إلى سماء الجلال والكمال والحكمة والنظام ، فأما المفكرون فهم الذين ينظرون وجه ربهم لما عشقوا جلاله في هذه الدنيا ، فيكون نورهم الذي اقتبسوه في الدنيا ونظرهم الحكيم هو الذي يهديهم يوم القيامة إلى النظر إلى وجه ربهم الكريم ، فوصف الجنة بالحور العين والأنهار لأن أكثر الأمة ، وخطب الطبقة المتوسطة التي لاهى بالغة النهاية في الحكمة ، ولاهى باقية مع الطبقة الجاهلة بمثل هذه الآية فقال « مثل الجنة » فجعل الأنهار من اللبن والعسل والخمر أمثالا ، وفي آية أخرى : « فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » . وفي الحديث : « في الجنة مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ولا جرم أن هذا أصرح من هذه الآية ، وتبين الحقائق عالية ، وهي تلك المراتب السامية للمفكرين وأهل الحكمة ، وفي آية أخرى : « وفيها ما تشتهي الأفس وتلذ الأعين » وهذا جامع للذات العوام ، والذات الخواص ، والذات المتوسطين ، وإذا كنا نرى هذه الدنيا قد جمعت لذات البهائم في المروج ولذات الملوك الفاتحين والقواد الماهرين ، ولذات الحكماء والعلماء المفكرين الذين يعرضون عن الماديات اعراضا ، ويفرحون بما في نفوسهم من الحكمة ، ولا يطلبون به بدلا ، أفلا نقول إن الجنة تكون كذلك ، بل هي أجل وأبهج في هذه المراتب . إن الله سبحانه الناس على حسب ما كانوا في الدنيا ، فالبهائم والجهلة لا يفرحون إلا بما كانوا فيه ، وأرباب الحكمة لا يفرحون إلا بما كانوا فيه ، وليس من المعقول أن رجلا عشق الحكمة وفيها ثم مات ويجازى بالانهماك في المادة أي انه ينزل في الجنة درجات . كلا . فاذا عشق الحكمة والعلم ولاقه ربه فهو لاجل صائر إلى ما اشتاق إليه . قال عليه الصلاة والسلام لسائله عن الساعة : « أنت مع من أحببت »

الكلام على الأنهار التي في الجنة

وسيحان وجيحان ، والقرات ، والنيل

في حديث مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « سيحان وجيحان والقرات والنيل كل من أنهار الجنة ، قال الشيخ عجي الدين النووي في شرح مسلم : سيحان وجيحان غير سيحون وجيحون ، فأما سيحان وجيحان فهما في بلاد الأرمن ، فالأول نهر أدنه ، والثاني نهر المصبه ، وهما نهران كبيران جدا أكبرهما جيحان ، اه

أقول : واعلم أن الأرض التي نساكنها فيها الخير وفيها الشر ، والخير المحض في الجنة ، والشر المحض في جهنم ، ولما كانت هذه الأنهار الأربعة متمحضة للخير ، وهي منبع حياة كثير من الأمم أشبهت الجنة من حيث الحياة والنعيم والخيرات ، وهذا وارد في كلام العرب . قال الشاعر :

أوحشية العينين أين لك الأهل * أبالحزن حلوا أم محلهم السهل
قفي خبرينا ما طعمت وما لذى * شربت ومن أين استقل بك الرحل
وأية أرض أخرجتك فاني * أراك من الفردوس ان فتنش الأصل

فإن علامات الجنان مبنية على عليك وأن الشكل يشبه الشكل
فانظر كيف قال الشاعر : « فأتى أراك من الفردوس » مع انه يصل قطعاً أنها مخلوقة في الأرض ، ثم
علل ذلك بعلمتين : علامت الجنان ، وتشابه الأشكال ، فهكذا هنا يقال : إن هيئة هذه الأنهار أشبه بأنهار
الجنان من حيث الخيرات وإن كان الفرق شامعاً . انتهت اللطيفة الثالثة .

اللطيفة الرابعة

في قوله تعالى : فقد جاء أشراطها
قد تقدم الكلام على أشراط الساعة في أواخر سورة الأنعام

المقصد الثالث

قال تعالى (ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة) أي هلا أنزلت سورة في امر الجهاد (فإذا أنزلت سورة
محكمة) مبنية لاتشابه فيها (وذكريها القتال) أي الأمر به (رأيت الذين في قلوبهم مرض) ضعف وفاق
(ينظرون إليك) شزراً وكراهية للجهاد وجبنا عن لقاء العدو (نظر المغشى عليه من الموت) أي كما ينظر
الشخص ببصره عند معاينة الموت (فأولى لهم) فويل لهم وهودعاء عليهم بأن يلهم المكروه ، وأولى من
ولى على وزن أفعل (طاعة وقول معروف) أي يقولون طاعة الخ (فإذا عزم الأمر) أي فإذا دنا الوقت
خالف المناقون وكذبوا فيما وعدوا به (فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم) أي لكان الصدق خيراً الخ (فهل
عسيتم ان توليتهم) أي أعرضتم عن سماع القرآن وفارقتهم أحكامه ، أو توليتهم أمور الناس وتأسرتم عليهم (أن
تفسدوا في الأرض) أي أن تعودوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الفساد في الأرض بالمعصية والبنى ،
وسفك الدم ، وترجعوا إلى الفرقة بعد ما جمعكم الله بالاسلام (وتقطعوا أرحامكم) أي فهل عسيتم أن تفسدوا
في الأرض وتقطعوا أرحامكم ان توليتهم عن الاسلام أو توليتهم أمور الناس ، وقد تم هذا كله . قال قتادة :
« كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله تعالى ؟ ألم يفسكوا النعم الحرام ، وقطعوا الأرحام ، وعصوا
الرحمن » ، وفي حديث البخارى ومسلم قال صلى الله عليه وسلم : « إن الرحم شجنة من الرحمن فقال الله تعالى من
وصلك وصلته ، ومن قطعك قطعته » ، وفي رواية أخرى نحو ذلك ، ثم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
اقرموا ان شئتم فهل عسيتم ان توليتهم ان تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ، أولئك الذين لعنهم الله
فأصمهم وأعمى أبصارهم ، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها اه

وقوله (أولئك الذين لعنهم الله) الاشارة إلى المذكورين وانما لعنهم لفسادهم وقطعهم الأرحام (فأصمهم)
عن استماع الحق (وأعمى أبصارهم) فلا يهتدون إلى سبيله (أفلا يتدبرون القرآن) يتصفحونه وما فيه من
المواعظ حتى لا يجسروا على المعاصي (أم على قلوب أقفالها) لا يصل إليها ذكر ولا ينكشف لها أمر ، واعلم
أن هذه الآية جاءت ردعاً لقسمين من الناس : (١) الذين تولوا عن الايمان ورجعوا إلى الكفر ، والذين تولوا
عن القرآن وهم مؤمنون (٢) ومن يتولون أمور الناس ، فقوله توليتهم سواء أكان بمعنى التولى عن الدين
أو عن أحكام القرآن ، أو تولى أحكام الناس مسحوباً بقطع الأرحام ، والافساد في الأرض يترتب عليه وعيد
شديد ، وعذاب أليم ، فذكر اللعنة والصمم والعمى ، وانهم لا يتدبرون القرآن ، أو أن على قلوبهم أقفالاً . كل
ذلك وعيد شديد وذم لمن انصفوا بهذه الأوصاف التي جاءت في هذا المقام ، فالوعيد كما يكون على الكافر
المرتد عن الاسلام يكون على من قطع الأرحام وأفسد في الأرض ظمناً لتولية أحكام الرعية ، أو لاعراضه عن
كتاب الله ، ولقد استفاض ذلك الذنب في المسلمين قروناً ، فالآية تليح بأنهم سيقعون في هذا الذنب في

الاسلام ، ولقد تقطعت الأرحام في الثورة الاموية والعباسية ، وقاتل كل فريق منهم الآخر ، ولا يزال ذلك جاريا لآن ، بل الأمة الاسلامية اليوم يضرب بها المثل في التقاطع والتدابير والتناحر والتشاجر لأجل الولاية وتري ملوك الاسلام ، وشيوخ الطرق ، وبعض آل البيت ، كل يحارب الآخر لاقتصد سوى التسلط على الناس ولقد سمعنا أن ابني الأب الواحد في مراكش قاتل كل منهما الآخر على مرأى ومشهد من فرنسا ، فكان ذلك سببا لوضع يدها على البلاد . كل ذلك داخل في قوله تعالى : « فهل عسيب ان توليتم الخ » هذا وسيكون شأن الاسلام في المستقبل غيره اليوم ، وسيقوم الخلف فيقرمون علوم الأمم ، ويفهمون مثل هذا القول ، ويقرون تلك الرئاسات التي أسسها محمد الآباء ، بل يتدبرون القرآن ، وتزول الأقفال من على القلوب ، وتفتح الأبصار والبصائر ويسمعون القول ، واذن يجعلون الأمر شوري فيما بينهم ، ولا يولون إلا من أجمع عليه الشعب ، أما الامارات التي جرت في الاسلام سابقا فهي امارات أغلبها كاذبة خاطئة جاهلة ، أوقعت المسلمين في أشد النكبات ، هذا هو المفهوم من قوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفاصا » فان الناس اذا جعلوا الرؤساء تبع الأنساب كانت الأمة رهن الجالس على كرسي الحكم ، فان كان عاقلا عقلا ، وان كان أحمق خرب البلاد ، وتكون الأمة كأنها آلات صماء وعلى قلوبها الأقفال ، فاذا عقلت وفهمت وك الأكفاء ، ولم تبال بالأنساب ، هذا هو غوى هذا المقام ، ثم خص المرتدين بقويات بينها بقوله (إن الذين ارتدوا على أدبارهم) إلى ما كانوا عليه من الكفر (من بعد ما تبين لهم الهدى) بالدلائل الواضحات ، والمهجرات الظاهرات (الشيطان سؤل لهم) سهل لهم اقرار الكبار ، ومعنى السؤل الاستثناء (وأمل لهم) ومد لهم في الآمال (ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله) أي قال المنافقون لليهود الذين كفروا (سنطيعكم في بعض الأمر) أي في بعض ما تأمرون كالتمود عن الجهاد والتظاهر على الرسول (والله يعلم أسرارهم) كقولهم هذا الذي أفشاء الله عليهم (فكيف اذا توفتهم الملائكة) فكيف يعملون ويحتالون حينئذ اذا قبضتهم الملائكة حال كونهم (يضربون وجوههم وأدبارهم) بمقامع من حديد (ذلك) الضرب والعقوبة (بأنهم اتبعوا ما أسخط الله) أي ترك الجهاد مع رسول الله ﷺ (وكرهوا رضوانه) أي كرهوا ما فيه رضوان الله عز وجل (فأحبط أعمالهم) التي عملوها من أعمال البر لأنها لم تكن لله ولا بأمره (أم حسب الذين في قلوبهم مرض) شك وفاق وهم المنافقون (أن لن يخرج الله أضعافهم) أي يظهر أضعافهم على المؤمنين فيبدبها حتى يعرف المؤمنون ثقافتهم ، والضعف الحقد الشديد (ولونشاء لأريناكمهم) لعرفناكم بدلائل تعرفهم بأعيانهم (فلعرفتمهم يسأهم) بعلامتهم وهو أن يسلمهم الله بعلامة يعلمون بها ، وعن أس رضي الله عنه : ماخفي على رسول الله ﷺ بعد هذه الآية أحد من المنافقين كان يعرفهم بسبأهم ، واللام في قوله « فلعرفتمهم » داخلة في جواب لو كالتي في « لأريناكمهم » ثم قال (و) الله (تعرفتمهم في لحن القول) أي أسلوبه ولما لته إلى جهة تعرفه ونورية أي وتعرفون المنافقين بالمحمد فيا عرضون به من القول من تهجين أمرك وأمر المسلمين وتضيحه والاستهزاء به ، فكان بعد هذا لا يتكلم منافق عند النبي ﷺ إلا عرفه بقوله ، ويستدل بضعوى كلامه على فساد باطنه وثقافة ، وذلك لأن الناس مجبولون على أن تنطلق ألسنتهم بما وقر في أنفسهم واستقر فيها من المعاني فتظهرها فلتات اللسان ، وكما أن العين تظهر ما كنه الجنان من حب وبغض ولون الوجه بين ماخفي من الحياء والتعجب والبشر والحزن والغضب ، هكذا اللسان تأتي على طرفه فلتات تبين تلك الخبائت النفسية ، هذا طريق علم الخلق ، أما علم الله تعالى فقد ذكره بقوله (والله يعلم أعمالكم) فيجازيكم على حسب قصدكم فان الأعمال بالنيات (ولنولينكم) بالأمر بالجهاد ، وسائر التكليف الشاقة (حتى نعلم الجاهدين منكم والصابرين) على مشاقها أي حتى تميز الجاهد للصابر من غيره ، ويسئين أمره (ونبأوا

أخباركم) أى ما يخبر به عن أعمالكم فيظهر حسنها وقبحها (إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى) أى من بعد ما تبين لهم أدلة الهدى وصدق الرسول ﷺ وهم قريظة والنضير والطعمون يوم بدر (لن يضرنا الله شيئا) وإنما يضرّون أنفسهم والله منزّه عن ذلك (وسيجب أعمالهم) ثواب حسنات أعمالهم ، أو مكابدهم التى نسبوها للشاقة المذكورة ، وستكون عاقبتها قتل بعضهم وجلاء البعض الآخر عن الأوطان (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم) أى كما أبطل هؤلاء أعمالهم بكفر ، أو نفاق ، أو عجب ، أو رياء ، أو بغض الرسول وعداوته ومخالفته ، يقول الله : يا أيها الذين آمنوا بمحمد والقرآن أطيعوا الله فيما أمركم من الفرائض والصدقة ، وأطيعوا الرسول فيما أمركم من السنة والفرز والجهاد ، ولا تبطلوا أعمالكم بالرياء الخ (إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار) كأصحاب قلب بدر (فلن يغفر الله لهم) فأما من مات وهو مؤمن مع كثرة ذنوبه فبسي الله أن يغفره (فلاتهنوا) فلا تضعفوا (وتدعوا إلى السلم) ولاندعوا إلى الصلح خورا وتذلا (وأتم الاعلون) الغالبون لهم ، والعالون عليهم (والله معكم) ناصركم (ولن يترك أعمالكم) ولن ينقصكم أجرا أعمالكم ، يقال وترت الرجل اذا قتلت قريبا له ، أو جيبا مثلا فأفردته عنه (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو) لا ثبات لها (وان تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم) ثواب إيمانكم وتقواكم (ولا يسألكم أموالكم) جيع أموالكم بل يقتصر على جزء يسير كربع العشر ، أو العشر ، أو شاة من الأربعمائة إلى آخر ما فى الزكاة (إن يسألكمها فيصكم) فيجهدكم بطلب الكل واللاحاح كاللحاق المبالغة وبلوغ الغاية (تبخلوا) فلا تعطوا (ويخرج أضعافكم) ويضغفكم على رسول الله ﷺ (ها أتم هؤلاء) ها للتفسيه ، وأولاء اسم موصول بمعنى الذين صلته (تدعون لتنفقوا فى سبيل الله) كالفرز والزكاة (فمنكم من يبخل) أى منكم قوم يبخلون (ومن يبخل) بالصدقة وأداء الفريضة (فإنما يبخل عن نفسه) أى يبخل عليها كأن الله يقول : لو أنكم سئتم إعطاء أموالكم كلها لبخلتن بها ، ولكرهنتم النبي ، والدليل على ذلك أنكم أتم الذين تدعون للنفقة فى سبيل الله وهى المنافع العاتقة ومع ذلك يمتنع بعضكم ، فإذا كانت هذه حالكم والمطلوب منكم العشر ، أو ربع العشر ، أو شاة من الأربعمائة ، أو شاة من كل مائة شاة ، فما بالك لو كنتم مطالبين بالمال كله ، ومع ذلك فمن يبخل فأنما نتيجة البخل عاتقة عليه (والله الغنى وأتم الفقراء) وإنما هو الذى نظم ملكه فيجعل قوما للثنافة العاتقة ، هكذا قضى نظامه أن لا يدع الأرض وعباده فيها بدون مرشدين قائمين بالأمر يبذلون مالهم وجاههم وأنفسهم ، فإذا كنا أرسلنا محمدا ﷺ إليكم لتكونوا للناس هداة ، وظهر منكم أنكم غير قائمين بالأمر لنقص فى استعدادكم ، ولسبق علمنا القديم قلنا هذا الدين إلى أم أخرى يقومون به ويسودون عليكم لأنهم أصلح له منكم ، وهذا قوله (وان تولوا يستبدل قوما غيركم) أى يقيم مقامكم قوما آخرين (ثم لا يكونوا أمثالكم) فى التولى والزهد فى الايمان وهذا راجع لقوله تعالى : « فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم » فهنا أوضح المقام « وان تولوا يستبدل قوما » خيرا منكم فى القيام بهذا الأمر ، وهذه من معجزات القرآن ، ألا ترى أن أمة العرب الذين خوطبوا بهذا القول هم هم الذين اقتتلوا على الخلافة ، فأولا بنو أمية قاتلوا آل البيت وشردهم ، ثم جاء العباسيون والفرس معهم فقاتلوا أبناء عمهم فأهلكوا بنى أمية وشردهم كل مشرد ، ولما تولى بنو العباس أخذوا يقتلون أبناء الحسن والحسين رضى الله عنهما ، وهذا هو بعينه تقطيع الأرحام ، فلما استفحل الظلم وأخشوا فى تقطيع الأرحام سلبهم الله الملك ونقله إلى الفرس تارة والتركة أخرى ، وذلك أيام ملك بنى العباس ، فكان بنو العباس ملوكا لفظا ، والفرس ، أو الترك ملوكا معنى ، حتى قال الشاعر فى أحد خلفائهم فى القرون الأولى :

خليفة فى قصص * بين وصيف وبغا

يقول ما قالا له * كما تقول البيضا

فكان لهذا الخليفة مملوكان : أحدهما اسمه « وصيف » ، والثاني اسمه « بفا » وهو نحت أمرها وكانوا يقتلون الخليفة ، ويجعلون آخر مكانه ، ونارة يسمون عيني الخليفة وهكذا ، ولما ضعف أمر الفرس والترك الأولين سلط الله التتار فهبطوا على الدول الاسلامية فأفنوها ، وخربوا الديار ، وأزالوا ملك العباسيين والفرس ، وملكوا هم بلاد الاسلام ، ثم أسلموا هم أنفسهم وتولوا أمر الاسلام . وقد تقدم مطولا قريبا ولقد كان الترك قائلين بأمر الاسلام ثم تغيرت الحال وحكومتهم الآن مسلعة قوية ولكن تزعم أنها لا دين لها ، وهكذا ترى الفرس والأفغان كل هذه حكومات قائمة الآن اسلامية ، أمامة العرب فانها في مصر وفي الشام وفي العراق ، وفي بلاد الغرب طرابلس وتونس والجزائر ومراكش ليس بينهم جامعة ، أما الترك فهم اليوم يبحثون عن جامعة جنسية لغوية ، فأما أبناء العرب ونحن أهل مصر منهم فليس بينهم جامعة لأنهم لم يتعلموا تعليما صحيحا يؤهلهم للاجتماع ، ولذلك ترى الله استبدل بنا نحن أبناء العرب قوما غيرنا ، وليسوا مثلنا ، بل هم أرقى مدينة وسياسة ، حافظوا على أوطانهم ودياناتهم ، ولذلك نجد الفريجة في بلادنا جاتين ، وعلى دورنا حارسين ، وفي رغد عيشنا متمتعين ، وستبدل الحال ويرجع الأمر إلى أصله ويرقى أبناء العرب رقيا لانظير له في قديم الزمان . هذا ملخص معنى قوله « يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » .

هذا هو الأصل في الاستبدال ، فإذا سمعت قول الكلبي هم كئندة والنخع من عرب اليمن ، أو سمعت قول الحسن انهم الهجم ، أو سمعت قول عكرمة انهم فارس والروم ، وإذا سمعت أن النبي صلى الله عليه وسلم ضرب على منكب سلمان الفارسي ثم قال هذا وأصحابه ، وإذا سمعت ما روى عنه صلى الله عليه وسلم إذ قال : « لو كان الإيمان منوطا بالتريا لتناول رجال من فارس »

إذا سمعت هذا كله فاعلم أنه قد تم ، وقد تم ما هو أكثر منه ، فقد قام الترك بدورهم ، وأما الروم فلم يقوموا بدورهم في الاسلام إلى الآن ، وقد عرفت سر ذلك الاستبدال ، فإذا علم الله أن المسلمين لا يصلحون لقامة العدل في الأرض ، ولا هم صالحون لنظام المدن ، ولا هم قائلون بإدارة حركة العالم الانساني ، ولا هم آباء لعباده يعلمونهم ويكونون خلفاء الله عليهم أذلهم وأبادهم ، وسلط عليهم أما أخرى قاتلهم ، وقد تعنتق الاسلام كما جرى أيام جنكيزخان الذي زحف على بلاد الاسلام في أواخر القرن السادس الهجري ، والسبب هو المذكور في ﴿ سورة الكهف ﴾ إذ قتل المسلمون التجار الواردين من بلاده ، وكان معهم مال عظيم ، وذلك بإشارة التجار المسلمين الذين حقدوا على أولئك التجار الأغنياء ، فصام جنكيزخان ثلاثة أيام لم يذق فيها طعاما ، وتضرع إلى ربه ، وهو من عباد النار ، أي يتقرب لله بالنار ، وقال : يا الله أردت عمارة بلادك فتاومني المسلمون ، وقتلوا رجالى . واستعان بالله تعالى ، وقام لحرب المسلمين ، فنصره الله عليهم ، وسلط الله التتار على أمة الاسلام ، وذهبت دولة الأمة العربية إلى الآن ، وكان الملك إذ ذاك قطب أرسلان ، وبعد نحو قرنين أسلم التتار ، وقاموا بأمر الاسلام في جهات كثيرة من الأرض ، ولا يدري إلا الله من ذا من الأمم سيقوم بهذا الدين بعد هذا الزمان ، فآية الاستبدال تقرأ ولا نسخ لها ، والله هو المنزل وهو المغير اه

لطائف عامة للسورة كلها

وهي سبع لطائف

- (١) اللطيفة الأولى في قوله تعالى : الذين كفروا وصتوا عن سبيل الله أضل أعمالهم . إلى قوله : كذلك يضرب الله للناس أمثالهم .
- (٢) في قوله تعالى : « حتى تضع الحرب أوزارها .

(٣) في قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . إلى قوله تعالى : فأحبط أعمالهم .

(٤) في قوله تعالى : « أفلم يسيرا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » إلى قوله : « وللكافرين أمثالها » .

(٥) في قوله تعالى : « فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فتداهيهم فإني لهم إذا جاءتهم ذكراهم »

(٦) في قوله تعالى : فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم

(٧) في قوله تعالى : « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أركانكم » .

اللطيفة الأولى في قوله تعالى : الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أصل أعمالهم إلى قوله : كذلك يضرب الله للناس أمثالهم

مقتضى هذه الآية أن الذين كفروا فضل أعمالهم ، والمؤمنون تصلح حالهم ، وهل لنا مصداق لهذه الآية أ كبر مما شهد به العلامة (لوثرود استودارد) العالم الاجتهادي الأمريكي في كتابه « حاضر العالم الاسلامي » الجزء الثاني إذ يقول تحت عنوان : « سيطرة الغرب على الشرق » ماملخصه : « إن العالم الاسلامي أخذ في التفتت السريع الآن » وضرب أمثالا لذلك لا محمل لذكرها هنا ، وسند ذلك كله مطولا إن شاء الله في « سورة الحجرات » عند الكلام على قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنتى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » . وهناك سيكون الكلام في أربع مقالات : المقالة الأولى في قوله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا الخ » فنذكر هناك كيف تناكر المسلمون بعد عصر الصحابة واقتتل الأمويون والعباسيون وغيرهم ، ونذكر هناك أن أعمالهم تخالف هذه الآية على خط مستقيم ، وكل ذلك إنما جاء من الاستبداد وترك الشورى ، والشورى لا يراعى فيها للخلافة إلا الأصلح ، والمقالة الثانية في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم » إلى قوله : « تواب رحيم » وفي هذا كلام في تفصيل الأخلاق الشخصية ، المقالة الثالثة في قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنتى الخ » وفيها الكلام على معاملة أوروبا لأهل الشرق الآن . المقالة الرابعة في الكلام على هذه الآية أيضا ورأى الفنى نشرته في الشرق والغرب في السلام العلم .

اللطيفة الثانية في قوله تعالى : حتى تضع الحرب أوزارها

لقد تقدم تفسير هذه الآيات ، وأن الحرب تنقطع إذا لم يبق في الأرض إلا مسلم أو مسلم ، وأذا نزل عيسى ابن مريم ، واعلم أن هذا للزمان هو زمان الانقلاب ، فترى الأمم تلهج دائما بالسلام العام ، ونزع السلاح ، وقامت البلشفية ، وأزالت أكثر الملكية ، وجعلت الأمة كأسرة واحدة ، ولكن أعمالها مجهولة لدينا ، فاعلم أن هذه الحركات البلشفية وغيرها لن تقف اليوم ولا بد من بقاء هذه الآراء ونحوها وتبدلها حتى يأتي يوم ترتقي فيه أمة الاسلام ، وتلقى دولها في الهداء وتقول : يا محجبا ! إن أوروبا تقول : السلام السلام « ليس بعنك فادرجي » بأوروبا أنا قائمة مقام نبي آخر الزمان الذي قال الله فيه : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، ولقد رحم الله العالم به أيلم طفولته ، ففرج العالم الانساني رجة أطارت نومه ، وتقلبت الدول والممالك ، وها هو ذا الزمان قد دار دورته ، وتحولت حاله وصار العصر عصر العلم ، والعلم هو مقتضى ديننا فلنتم بالأمر ، ولنكن أرقى الأمم علما وصناعة وجيوشا ، ولنتم أمة العرب بنصيبها من العلم والمدنية ، ولنترق ،

ولتصد شعوبها من طنجة إلى العراق ، وتضم أطرافها إلى مملكة واحدة كما تقدم شرحه مطوّلاً في ﴿سورة آل عمران﴾ عند قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله » فارجع إليه إن شئت تجد طريق اتحاد العرب أولاً مع بعضهم ، ثم اتحادهم مع الترك الذين سبقوهم في هذه المزية وكذا غيرهم ، ثم يقوم المسلمون بعد ذلك بدورهم المهم ويقولون فلنكن رحمة للعالمين ، وليكن السلام في العالم ، فلنهد طرقه حتى نستمد الأمم لاشراق الروح العيسوية ، فيصير العالم اخواناً ، واذن لا يكون حرب ولا ضرب ، ولا جزية ، بل يكون العالم الانساني كأسرة واحدة ، كل يقوم بما يخصه من الأعمال الانسانية وهو خادم للمجموع .

بهذا وحده نستحق أن يقال فينا : « لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » وتكون نسبتنا إلى الأمم كنسبة نبينا ﷺ إلينا ، فكأننا مبعوثون للأمم ، والمبعوث يكون كريماً وحكيماً وعليماً وشجاعاً ومقداماً ، وبهذا أيضاً يظهر قوله تعالى : « ليطهروا على الدين كله » فأما نحن الآن فلانستحق وصفاً من هذه الأوصاف ، بل نحن عالة على الأمم ، فإذا قام المسلمون الحاضرون بمبادئ هذا العلم فيها ونعمت والا فإن الله يقول : « وان تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » فأرى أنه لا بد أن تقوم أمة بهذا العمل لانصرها الآن اذا نكص المسلمون الحاضرون على أعقابهم ، وبقوا في الجهالة يتسكعون ، وفي جهنم الذل والاستعباد يسجرون . هذا وقد تكلمت في هذا الموضوع في سور كثيرة ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » والذين كفروا فتصالحوا وأصل أعمالهم »

وأعظم ما نستشهد به على معنى هذه الآية في زماننا ما جاء في كتاب المؤلف المذكور لكتابه حاضر العالم الاسلامي إذ قال في صفحة ٧١ وما بعدها في الجزء الثاني ما ملخصه (وسياتي في سورة الحجرات) « إن العرب في بلادهم ، والترك في الأناضول ، والفرس في بلادهم ، وأهل الهند ، كل هؤلاء مجتنون للرقى ، وأوروبا راحلة عنهم سريعاً لا محالة » .

اللطيفة الرابعة

في قوله تعالى : « أفلم يسبروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » الخ مقتضى هذه الآية أن معرفة أحوال الأمم قديماً وحديثاً من أهم ما تضي به الأمم الاسلامية ، ولقد كان من صنع الأوروبيين في بلادنا انهم يمنعون الحقائق العلمية الواضحة ، ويعلمون الناس قشورها لئلا يعرفوا الحقائق ولكن الله غالب على أمره ، ولا تطيل في هذا المقام ، فهذا التفسير جله لا يوضح هذه الحقيقة .

اللطيفة الخامسة

في قوله تعالى : فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فتجاء أشراتها الخ جاء في الحديث من رواية البخاري : « اذا ضيعت الأمانة ، فانتظر الساعة ، قال : وكيف إضاعتها ؟ قال اذا وسد الأمر إلى غير أهله » . وفي رواية أخرى في البخاري ومسلم : « إن من أشرط الساعة أن يتقارب الزمان ، وينقص العلم ، ويثبت الجهل » . وفي رواية أخرى : « وبشر بالخراب وبفساد الزنا ، وبذهاب الرجال ، وبقى النساء » . وجاء أن من أشرطها انشقاق القمر ، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأنت إذا نظرت في هذه كلها علمت أنها هي الأسباب في خراب الأمم ، فإن الأمر إذا وسد لغير أهله بأن أسند إلى من لا يصلح له كما اتفق للملوك الترك إذ جعلوا خلفاء الاسلام من أسرة مخصوصة ، فكان ذلك سببا في ضعف الدولة ، فلذلك أخذها الفرنجة ، فلما تولى الشعب الحكم بنفسه طردوا الفرنجة ، فالتصفت هذه الأحاديث التي هي من علامات الساعة الكبرى بجدها من حيث علم الاجتماع دلالات على قيام الساعة الصغرى وهي خراب الدول ، فبني رأيت أمة من الأمم الاسلامية أقامت عليها رئيسا جاهلا يتولى أمرهم ، وتركوا له التفكير أوفشا بينهم ما يضر بنظام الدولة من ظهور الفتن ، وقص العلم ، وظهور الشح ، والقتل ، ورفع العلم ، وظهور الجهل إلى آخر ما في الأحاديث فإن ذلك كله مؤذن بخرابهم ، وضياح دولهم ، ولما فشا ذلك في أمتنا المصرية دخل الانجليز بلادنا وهكذا بلاد أخرى ، فكل علامات الساعة المذكورة تكون منذرات بهلاك الدولة التي تقع فيها ، وهذه المنذرات في الأمم تتلاحق آلافا وآلافا من السنين ، والأمم تموت دولة بعد دولة حتى إذا اقتطعت سلسلة الأمم ، ووقعت الواقعة ، هنالك تقوم القيامة ، ويكون العرض العام الأخرى بعد انتهاء أعمار الأمم .

وقوله تعالى : « واستغفر لذنوبك الخ » جاء في حديث البخاري عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة » . وفي رواية : « أكثر من سبعين مرة » . وفي حديث مسلم : « إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر في اليوم مائة مرة » . وفي رواية أيضا : « توبوا إلى ربكم فوالله إني لأتوب إلى ربّي عز وجل مائة مرة في اليوم » اهـ

ذكر بعض سرّ هذه الأحاديث

اعلم أن الذين اصطفاهم الله من الناس لهداية الخلق لا يقبل الناس على أقوالهم إلا لما فيها من النور الإلهي والاشراق القلبي ، فهؤلاء في أول أمرهم يكونون عاكفين على العبادة والتأمل والخلاوة ، فإذا كملت نفوسهم وقاموا بالدعوة والارشاد فإن لم يدم الامداد لهم من الله وقفت دعوتهم ولم تم ، فلاحكيم مرشد ، ولا علم له قبول ، ولا ولي إلا وهم متجهون إلى وجهة الحق أثناء الدعوة ، فلوائهم غفلوا عن الوجهة الإلهية إبان الدعوة لهجرهم الناس ، لموت وجدانهم ، وضعف نفوسهم ، مع أنهم فصحاء ، بقاء حكام ، أما الأنبياء فأمرهم فوق هؤلاء ، ومع ذلك هم ملزمون بالتوجه إلى الله دائما ليديم الامداد السرّي ، فإياك أن تظن أنك وأنت تعلم الناس وترشدهم تنال من نفوسهم مطلبك إلا إذا كانت نفسك متجهة لله في أكثر الأوقات وإذا كان الله تعالى يقول لرسوله ﷺ « فاسجد واقترب » ويقول « فإذا فرغت » أي من عمالك « فانصب » أي في العبادة « وإلى ربك فارغب » فما بالك وأنت لست ببنّي . إذا فهمت هذا فهمت قوله صلى الله عليه وسلم : « إنه ليغان على قلبي » أي يفتني عليه ، وذلك أنه وهو في الفزوات وفي حل مشكلات القضايا ، والفصل بين الناس ، وتعليم الأمة ، لا يجد متسعا فيه يذكر الله تعالى ، وقد علمت أنه لا بد له من الاستمداد ، ولا امداد إلا بصلة ، والبصلة بين العبد والرب الذكر والاستغفار ، فبني ذكر الله العبد حصلت البصلة بينهما ، فيكون الامداد ، وبه ينجع الارشاد ، ويقب المرشد سامعوه ، فإذا استغفر الله في اليوم مائة مرة ، أو سبعين مرة ، أو أكثر أو أقل ، فأنما ذلك لربط الصلة حتى يستمر الامداد ، فإذا سمع المسلم قوله صلى الله عليه وسلم : « توبوا إلى ربكم فوالله إني لأتوب إليه الخ » فبراد منه هذا المعنى أي انه يجب بقاء الصلة بين العبد والرب بالاستغفار أو الذكر ، أو التفكير في جماله وصنعتة أو نحو ذلك حتى يديم الامداد ، فإن الانسان مادام يزاول الأعمال سواء أكانت دينية أم دنيوية فإن ذكر الله أكبر ، فليفرغ إليه في أوقات الصلوات الخمس وغيرها ليديم الامداد والقبول . وبهذا سمّ الكلام على اللطيفة الخامسة في قوله تعالى : فهل ينظرون إلا الساعة ، إلى قوله : متقلبكم ومنواكم والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة السادسة

في قوله تعالى : فاعلم أنه لا إله إلا الله الخ

اعلم أن هذه الآية عليها ألفت كتب الحكمة بحذفها من أقدم التاريخ إلى الآن ، وقد رأيت أن أقدم اليك أيها الذكي في هذا المقام عنوان فلسفة الأمم اجالا وهي رسالتنا المسماة « مرآة الفلسفة » وهي التي أشرنا إليها غير مرة فيما تقدم من التفسير . وهذا نصها :

رسالة مرآة الفلسفة

بسم الله الرحمن الرحيم

في يوم من أيام شهر رمضان المعظم سنة ١٣٤٧ هـ قابلني طائفة من طلبة مدرسة « دارالعلوم » بالمنزل وأخذوا يلقون عليّ أسئلة في الفلسفة . وما قاله أوسطهم لي : إن في الشرق اليوم حركة علمية ، وهاهوذا ناهض بدرس العلوم على اختلاف أنواعها ، والفنون على تنوع أصنافها ، والعقول استيقظت من سباتها ، وقامت من رقبتها ، وأخذت تبحث في الآراء والبيانات القديمة والحديثة :

وكل يدعي وصلا ليلي * ويلي لا تقرّ لهم بذاكا

فها نحن أولاء جئنا إليك قاصدين أن تبين لنا على وجه الاختصار مقاصد الفلاسفة العاتمة بحيث يكون ذلك المختصر جامعا لمجمل ماعنوه ، وأهمّ مآرأه ، ليكون نموذجا لدراستها في مظانها ، ولتطمئن النفوس إلى الحقائق ، لأن العقول في الشرق الناهض الآن تفرقت وجهتها ، واختلفت آراؤها ، في أصل العالم ، وفي أمر الروح والمادة والعقل ، وماذا قال الأولون في هذا ؟ ولا بد من الالمام بهذه الأصول التي هي أسس العلوم كلها لأن العلوم الجزئية من النبات والحيوان ، وتشريح الانسان ، والطب ، والفلك ، ونحوها من سائر العلوم الطبيعية والرياضية كلها تحتاج إلى علم يكون لها بمثابة الرأس من الجسد . فقلت : هذه مباحث العالم أجمع وكيف أجمع علوم الأمم كلها . ذلك يعوزه مكاتب الأمم كلها شرقا وغربا ، ولا طاقة لأمة فضلا عن فرد واحد بجمع العلوم كلها وتلخيصها ! فقال : أنا ما طلبت إلا إجمال ما اطلعتم أتم عليه ، لا كل علوم الأمم ، وزريد فوق ذلك أن يتجلى لنا رأيك في الوجود ، ونجاربك الخاصة ، وما هو أقرب إلى الحق من المذاهب . فقال آخر

ومرآة المنجم وهي صغرى * تزيه كل عامرة وقفر

فقال آخر : إن الوجه من الجسم يدل على ما فيه من قوة وضعف ، وجال وقبح ، وصحة ومرض . فقلت : سأجيئكم بعد ثلاثة أيام إن شاء الله تعالى . ولما مضت المدة حضروا وطالبوني بانجاز ما وعدت . فقلت : إن هذا الموضوع فكرت فيه فرأيت أنه يشتمل على (مقدمة وباين : الباب الأول) في ذكر مذاهب الطبيعيين والدهريين من اليونان والسوفسطائية ومنهم العنيدية والعنادية واللاأدرية ، ثم أقفي على آثارهم بذكر مذهب (انكساغورس) الذي ارتقى عن أهل السفطة باثبات صانع للعالم ولكن لا عمل له ، ثم أذكر مذهب (سقراط) الذي أثبت صانعا للعالم يحيط به علما ، ثم مذهب أفلاطون الذي قال بذلك وبالمثل الأفلاطونية ثم أقفي بمذهب (أرسطاطاليس) الذي لا يعتبر المثل الأفلاطونية موجودة ، وإنما يعول على المادة وصورتها والمعول عليه عنده هي الصورة الخ كما سترأه إن شاء الله تعالى وهكذا مذاهب الاسكندرانيين وعلماء الانجيليين والألمان وغيرهم ان شاء الله تعالى (الباب الثاني) في تقسيم العلوم جميعها بحيث يمكن حصرها أصولا وفروعا فيخرج القارى من هذين الموضوعين واقفا على صفحة من تاريخ العقول البشرية في الفلسفة ، وعلى

صفحة من نفس الوجود المقسم إلى علوم ، إذ لكل حصة من العالم قسطها من العلوم ، كالنبات والحيوان والفلك الخ . فقال أوسطهم : فلتعلم علينا المقدمة الآن ثم البابين ، وأقترح أن نسمى الرسالة «مرآة الفلسفة» فأقره الجمع ، وهناك شرعت ألقى عليهم هذه الرسالة مبتدئا بالمقدمة : (١)

مقدمة رسالة مرآة الفلسفة

هنا أربع قواعد :

- (١) إن جسم الانسان من العوالم الأرضية .
 - (٢) وأن الضوء الذي بشرق عليه وعلى كل حيوان ونبات لثقوه آت من الكواكب العلوية كالشمس
 - (٣) والضوء الواصل لكل حي هو ما يطيقه ويناسبه .
 - (٤) وأيضا هو نافع له .
- فهذه القواعد الأربع ظاهرة في كل مخلوق ، فكل مخلوق على الأرض إنما هو جسم اشتق من جسم أكبر منه ، وضوؤه سماوي ، آت من ضوء علم ، وهذا الضوء على مقداره ، وهو نافع له ، وعلى مقتضى هذه القواعد الأربع ننظر في قوة الناطقة وقول : لكل امرئ نفس ناطقة :
- (٥) هي من عالم عقلي أكبر منها كما كانت أجسامنا من عالم أرضي أكبر منها ، وكما اشتقت أرضنا من عالم أكبر منها .
 - (٦) وهذا العالم العقلي سماوي لا أرضي ، بدليل أن الضوء في القاعدة الثانية من اسماء ، فإذا كانت الأرض قد احتاجت إلى عوالم السماء في أحسن الضوءين وهو الحسي وهو النور ولم تقدر على الاتيان به من نفسها فهي عن الضوء المنزوي وهي النفس الناطقة أعمى ، إذن النفس الناطقة ذات الآثار الباهرة آتية من عوالم أرقى والطف من عوالم الأرض ، إذن في الوجود عقل عام يستمد منه كل موجود ما يناسبه من الإدراك ، فاحساس النبات ، وغرائز الحيوان ، وعقل الانسان كلها منه ، وكما انها جميعها تستضيء بالشمس ، هكذا يستضيء باطنها بالعقل العام الذي يدرك بالبعائر لا بالابصار
 - (٧) وهذه النفس الناطقة هي للناسبة لهذا الجسم لا يطبق أعظم منها .
 - (٨) وغرائز هذه الروح مقترنة بمقدار منافع الجسم وحاجته .
- فهذه أربع قواعد في مقابلة الأربعة الأولى بالقياس عليها . فقال قائل منهم : إذن هذا برهان تمثيلي . فقلت نعم ، ولست ونحن في هذه الأرض بقادرين على برهان عقلي أرقى منه . فقال : ماذا بعد ذلك ؟ فقلت :

(٩) هذه القوة الناطقة لا قوة لها على أن تدرك ما فوق طاقتها وهو كل معقول ومعالم . فقال : ما الدليل على ذلك ؟ فقلت : لأنها محصورة في مقدار صغير من المواد الأرضية ، وأن الأرض صغيرة بالنسبة للشمس ، والشمس ومجموعتها قطعة من بحر من بحار الجمرية ، والجمرية لا قدر لها بالنسبة للأجرام الأخرى ، وبالنسبة أرضنا اذا صغرت بحيث تكون جوهرا فردا إلى العالم المقدر وجوده إلا كنسبة الجوهرة الفرد إلى ألف مليون أرض ، إذن كيف تدرك القوة الناطقة المحصورة في جزء صغير من الأرض ملاحظه من الوجود .

(١٠) فقال لي : أيهما أصل في الوجود ؟ القوة الناطقة أم المادة ؟ فقلت : إن العاقبة وصغار العلماء يظنون أن المادة هي الأصل ، ولكن البرهان يثبت أن القوة الناطقة هي أصل الوجود . ذلك أننا نرى هذه المادة لما بحثنا القدماء قالوا انهم لم يعرفوا إلا صفاتها وهي ست وثلاثون صفة تعرف في فن

(١) تذكرة : لقد ذكرت الباب الثاني في سورة لقمان فلانعيده هنا فيها سيأتي

المقولات وهي عشرة موضحة في كتابي « بهجة العلوم » في الفلسفة العربية ، وموازمتها بالعلوم الحديثة (تحت الطبع الآن) . فالثقل والخفة ، والحرارة والبرودة ، والحلاوة والعذوبة ، واللوعة والمرارة ، وخبث الرائحة وطيبها ، وأصوات الحيوان والانسان ، وكلامه وموسيقاه وصور الأشياء وألوانها وأحجامها ، وقرنها وبسرها .

هذه عشرون صفة من ست وثلاثين للمادة اكتفينا بها عن بقيها ، لم يعرف الناس من المادة إلا أمثال هذه وهي لم تخرج عن كونها أعراضا ، فإذا اعتبرنا الثقل في قطعة من الحديد وقلنا هذا دليل على وجود المادة ، فهذا الثقل يزول اذا جيناها فسال ، مم أحيناه فصار بخارا ، فأين الثقل إذن ؟ وهكذا بقية الصفات ، هذا بحث المتقدمين ، فهم قالوا أنها لا وجود لها ، أو وجودها ضعيف كإسباتي إيضاحه في السلام على أرسطو ، ولما بحثها المتأخرون ساروا على نهج غير ذلك النهج ووصلوا إلى نفس النتيجة ، ذلك أنهم قالوا : إن هذه المادة ترجع إلى العناصر التي تبلغ نحو ٨١ والعناصر ترجع إلى جواهر فردة ، والجواهر الفرد راجع إلى نقط ضوئية ، والنقط الضوئية تدور سالبها حول موجبتها ستة آلاف مليون مليون مرة في الثانية مثلا وباختلاف أعداد تلك النقط الضوئية واختلاف حركاتها تختلف العناصر ، ومن العناصر ركب هذا الوجود كله من سموات وأرضين . إذن كل ما تراه إن هو إلا أضواء كهربائية تدخلت أمام حواسنا فصارت على هذا النمط الذي ألفناه إذن لامادة عند القدماء : ولا مادة عند المحدثين ، وإنما هي أمر خيالي راجع إلى عرض هوضوء ، والضوء حركة ، والحركة قوة ، إذن هذا العالم قوة عظيمة لاغير ، هذا ما يراه الحكماء قديما وحديثا في عالم المادة ، فلننظر إذن في القوة الناطقة (أولا) اتنا نرى أننا اذا رأينا صورة ما في وقت ما ، وكانت بهيمة جميلة ، ثم مرت عشرات السنين ، فالتنا نرى تلك الصورة الشابة قد صارت شيخخة محدودة الظهر ، فإذا رجعنا إلى نفوسنا وجدنا نفس الصورة الأولى لا تزال في ألواح قفوسنا ، وهي باقية لم تتغير ، ولم تسط عليها عاديات الدهور : فهي ثابتة ثابت رضوى والاهرام بالجيزة ، إذن الصور تثبت في القوة الناطقة ، ولاتثبت في المادة ، وهذا يؤيد ما تقدمت : « ان المادة عرض كثير التغير » — (ثانيا) ان الصور التي ترسم على اللوحات في علنا الأرضي أشبه بالصور المرسومة في خيالنا ، لأنها صور رسمت في المادة الأثيرية التي هي أثبت من عالم المادة والمادة الأثيرية أقرب إلى النفس الناطقة ، لذلك تدوم هذه الصورة الشمسية في لوحات التصوير مع سرعة تغير الصورة المرسومة في المادة ، إذن عالم الأثير ، وعالم النفوس الناطقة أصل في الوجود ، فأما المادة فليست أصلا فيه ، بل هي فرع ، فهي قوة ، أو هي عرض ، فأما النفس الناطقة فهي أصل ، وهي جوهر . وعليه يكون الناس مخطئين في مشاهداتهم ، فهم كما ظنوا الأرض ساكنة ، والشمس دائرة ، وجاء العلم فكسب الأمر عليهم ، هكذا هم أخطئوا في ظنهم أن الموجود هي الأجسام ، فأما الأرواح والنفوس فهي أعراض زائفة ، إذن العلم في واد ، والجهال في واد .

(١١) : معرفة العقل العام بواسطة معرفة النفس

ان الناس عرفوا عوالم السماء والكواكب بواسطة معرفة العناصر الأرضية ، هكذا فليعرف العقل العام في الوجود بمعرفة النفوس الناطقة ، وبيانه أن هذه الأجسام البسيطة الأرضية كل جسم منها له ضوء مخصوص وكل ضوء منها له خواص تخصه . وذلك بخطوط سود تتخلل ذلك الضوء ، وباختلاف تلك الخطوط السود المتخللة ذلك الضوء تختلف العناصر ، بهذا علم الناس اليوم ماذا في الشمس والكواكب والسيارات من العناصر عند ما عرفوا اختلاف الألوان الواردة من تلك الكواكب ورأوا العناصر فيها عنصرا عنصرا فوجدوها هي العناصر الأرضية كالحديد والنحاس والاكسجين وغيرها ، هكذا بالقياس عليه نعرف العقل العام بمعرفة قفوسنا .

نحن حكمنا الآن بوجود نفوسنا ، وأنها أحقّ بالوجود ، وأنها جوهر ، وأنها أصل والمادة فرع لثبات الأولى وعدم ثبات الثانية ، فهنا نقول إن هذه النفس الناطقة كما قمتنا في القاعدة الخامسة مستمدة من نفس أكبر منها ، والتي هي أكبر منها مشتقة مما فوقها ، وهكذا نشاهد أجسامنا المشتقات من أرضنا المشتقة من شمسنا الخ وهذا العالم العقلي عالم أعمّ من عالم الأجسام ، وإذا كنا نرى عالم الأجسام لا يكاد العقل يتصوّره نهاية ، فأولى بهذا التعميم أصل الوجود وهو العقل العام ، إذن قطع بأنه عظيم المقدار وهو عالم العلم إلى ما لاحد له ، ثم إن أنفسنا مستمدة منه استمداد النفس من الهواء ، واستمداد أجسامنا من الأرض ، وشربة الماء من الماء المحيط بالكرة الأرضية ، المتطاير بخاره في الجوّ ، النازل في الأنهار ، المأخوذة منها تلك الشربة ، فنفسنا الناطقة أشبه بشربة الماء المأخوذة من مخزن الماء العظيم ، وأشبه بالنفس (بالتفتح) المأخوذة من مخزن عظيم وهو الهواء ، وأشبه بأجسامنا المشتقة من مخزن الأجسام وهي الأرض ، ثم إن هذا العقل الكلي الذي خالطه نفوسنا وهي فرع منه كما أنّ الماء الذي نشربه فرع من الماء العام يدلنا على موجود لاحد له هو أصل وجوده ، وإنما كان دليلا عليه لأنه ليس من العقول أن يكون أصل هذا العالم المتغير ملابسا للتغير مثله ، فهذا العقل العام الذي لاحد له تفرّعت منه جداول ، فهو أشبه ببهارنا وهوائنا ، إذن فليكن هذا العقل العام الذي هو أحقّ بالوجود مستمداً من موجود هو أصل وجوده قياسا على أن ضوء الشمس منبعث من الشمس ، ضوء الشمس كما قسنا عليه معرفة العقل العام نستفيد منه فائدة أعظم ، وهي كما أنّ هذا الضوء وجوده مستمد من غيره ، هكذا وجود العقل العام مستمد من غيره ، وكما أنّ ضوء الشمس مستمد من الشمس هكذا العقل العام مستمد من أصل الوجود وهوائه . وحينئذ ننظر هل هذا الذي سميناه أصل الوجود (وإنه هو الموجود الحقيقي الذي منه كان العقل الأول العام الذي اشتقت منه كل العقول والادراكات) قد وجد بعد العدم ، أو سيكون معدوما بعد الوجود ، وهل علمه عام الى ما لا ينهائي ، فالجواب على هذا واضح وهو أنه إذا أثبتنا وعلمنا أن نفوسنا هي أصل في الوجود ، وهي جوهر ، وأن العقل العام المتصلة هي به أحقّ باسم الجوهر وباسم الوجود من المادة التي لم تخل من كونها عرضاً أوقوة ، فالذي هو مصدر هذا الوجود هو الموجود الحقيقي ، فالوجود أصل والعدم لا نعرفه .

نحن لا نعرف إلا الوجود ، فالوجود هو الأصل ، والعدم هو الذي يحتاج إلى دليل ، فاذا قيل لنا كيف وجد الله ؟ نقول يجب أن نعكس السؤال ، لأن هذا السؤال إنما يرد إذا كان العدم أصلاً ، لكننا نعلم أن الوجود أصل ، لأننا لا نتكسر وجود نفوسنا المتصلة بعقل عام موجود مستمد وجوده من أصله وهو الله ، فالوجود أصل ، والعدم يحتاج إلى دليل ، فالعدم كلمة لا أصل لها ، وإنما هذا الانسان ظنّ أن تغير الأجسام وتفرّقها عدم ، فبرى أجسام النبات والانسان والحيوان تتفرّق بعد الاجتماع فيقول قد أعدمت وبرأها اجتمعت بعد الافتراق فيقول هاهي هذه موجودة ، وهذا خطأ ، بل هو اجتماع وافتراق لا غير ، والوجود مصاحب لها ، فالعدم كلمة وهمية لاحظها الانسان في العالم أمامه من صفات له لا من وجود وعدم ، حتى ان العلماء اليوم وقد قالوا ان المادة تنعدم كأمثال (جوستاف ليبون) قالوا ان انعدامها ما هو إلا رجوعها الى عالم الأثير ، أو رجوعها للقوة ، والأثير موجود ، والقوة موجودة ، إذن أين العدم ؟ فاذا كان هذا حاصل في العالم الذي نشاهد وهو فرع فبالأولى يكون ذلك الحكم في أصل الوجود ، فهو لا عدم يسبقه ولا عدم يلحقه ، وكما أنّ الفكر الانساني قد أخطأ في ظنه أن الأرض ثابتة والشمس متحركة حولها ، وأخطأ في قوله : ان النفس الناطقة فرع عن وجود المادة ، هكذا منا أخطأ في ظنه أن العدم هو الأصل والوجود طارئ فاحتاج الى دليل على عدم العدم ، وهل نحتاج الاصول الثابتة الى دليل !

(١٢) كيف كان خلق هذا العقل العام

فقال أحدهم : كيف كان خلق هذا العقل العام ؟ وكيف كان خلق هذا العالم ؟ فقلت له : قدمت لك في المسألة التاسعة أن هذه القوة الناطقة جاءت لتربية هذا الجسم فكيف تعدو طورها ؟ فقال : ولكن عقولنا لا تقتأ نسال ، والأنبيا والحكماء كلهم أثبتوا تعاليمهم في ذلك . فقلت له : ليس عندنا إلا نموذج نفوسنا ، فاذا فكرنا فيها عرفنا بقدر طاقتنا « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » . قال : هذا حق . فقلت له : ننظر إلى نفوسنا ، أليست تنخيل صوراً وأشكالاً ؟ قال بلى ، هي دائماً التخيل . قلت : أفعدمية هذه الصور أم هي موجودة ؟ قال : بل هي معدومة . قلت : كلابل هي موجودة . فقال : ما الدليل على ذلك ؟ فقلت : اتنا اذا تصوّرنا في أذهاننا صور البساتين ثم اصطفينا صورة منها ، وزرعنا بستاناً على هيئتها ، فاتنا إذ ذاك نكون قد اهتدينا بهدى هذه الصورة ، لأننا نظمنا بستاننا على مقتضاها . قال بلى . قلت : فهل المعدوم ينتج الموجود ؟ قال : كلا . قلت : إذن هذا الخيال الذي في ذهننا موجود لامعدوم بدليل أثره ، فكل ماله أثر موجود فهو موجود . قال نعم هذا حق . فقلت : فاذا كانت هذه النفس الناطقة قد صوّرت فيها صور السموات والأرض وهذه الصور قد أثبتنا لها اسم الوجود ، ولكن لم ترتق في الوجود إلى أن تراها حواسنا كما رأت الصفات ، أو القوى التي سميناها مادة ، فبالأولى الذي عرفناه أصل الوجود يبرز عالم السموات والأرضين كما أبرزناها نحن وتكون نسبة هذه العوالم التي أبرزها في الظهور إلى العوالم التي أبرزناها في خيالنا كنسبته إلى نفوسنا الناطقة ، فعلى مقدار ضالة نفوسنا كان ظهور خيالنا ، وعلى مقدار عظمتة هو وجلاله أبرز ما صنعه فكان مشاهداً للعيون ، دائم الثقلب ، ظاهراً ، باهراً ، جيلاً . إذن نفوسنا هي النموذج الذي نعرف به الإله وبه نعرف خلق العالم ، واذن هنا فتحت لنا أبواب العلم على مصراعها .

فقال أحدهم : إذن كيف يكون العالم حادثاً مع قدم الله تعالى ؟ فقلت : ألم أقل لك ان باب العلم فتح على مصراعها ، الاجابة على ذلك سهلة مما تقدم ، فأقول لك أنت الآن تحضر في ذهنك السموات والأرض إحضاراً وجودياً . قال نعم أحضرها . قلت : أفديم هذا أم حادث ؟ قال بل حادث . قلت : ويمكنك تكرار هذا العمل . قال نعم . قلت : هل هذا العمل وتكراره قديم ؟ قال كلا : والله والحمد لله ، ما أجل هذه البراهين إذن العالم الانساني بعد هذه المباحث سيدخل في جنة عرضها السموات والأرض من المعارف والعلوم ويرتقي في المعلومات كما يرتقي في المحسوسات . قلت : فاذا سمعت أن العوالم الأرضية والسماوية سبقتها عوالم أخرى ، وستعقبها عوالم بعد فئتها ، فهذا كله مقيس على خيالنا . فقال : يقولون ولكن الوجود لا يكون من العدم ولا بد من مادة اشتقت منها هذه العوالم كلها ، وكيف يشتق الوجود من العدم ؟ فقلت له : ألم أقل لك ان أبواب العلم فتحت على مصراعها ، فهل الصور التي في خيالك احتاجت إلى مادة صوّرت منها . قال لا ولكن نفس مصدرها فقط . قلت : كذا السموات والأرض رجعت إلى موجد هذا الوجود ، واذا قلنا ان المادة لا وجود لها ، بل الموجود معان وصفات فكيف تحتاج هي لمادة تصدر منها وتشتق ، ثم قلت : وهذا هو السبب في أن كل دين ، وكل نحلة تحمّض على الرجوع إلى العقول ، وترك الشهوات ، والتنزّه عن الدنيا ، وهذا من سرّ التسبيح ، فالمتدين يسبح أى ينزه الله عن الحوادث ليكون ذلك التذكير باعثاً له على التنصّي عن العوالم التي سميت مادة ، وعلى مقدار اجتهاده بخلص ، ولا يرى الله إلا بعد التخلص من الوهم الذي استولى عليه بهذه المادة المحيطة به ، فيتزبه نفسه عن التقائص يقرب بمن تنزه عن العالم ، وبمعرفة نظامه يحبه فيحمده ، وفوق ذلك يكبره ، فهذا هو السرّ في التسبيح والتحميد والتكبير في السينات .

اذا عرفت هذا عرفت معنى : « إنما قولنا لشيء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون » فجعل خلق العالم

كنطقنا بالكلام ، وهذا حق لأننا تصور الوجود كله بمجرد خطوره ببالنا ، ومنى سمعنا اسم قصر أو شجرة أو بستان حالنا نحن به في نفوسنا ، فهو يحصل عندنا بمجرد نطقنا أو نطق غيرنا ، هكذا العالم بالنسبة لله ، هذا معنى : « إنما أمره الخ » وهذا هو تحقيقه ، فإنا نشاهد في نفوسنا نظيره ، غاية الأمر أن وجود الصور عندنا ونحن متخيلوها قصير الأمد في ثانية ثم يزول ، ووجود الأجسام تطول مدته ، فللمادة موجودة مئات الآلاف من السنين بادي الرأي ، والصور الخيالية ذاهبة حالا من خيالنا وان خزنت في خزان النفس ، ولكن ليس اسم الوجود خاصا بما طالت مدته ، فلجرادة التي لا يحول عليها الحول موجودة ، والقيل والغراب موجودان ، فطول الأجل وقصره لا يؤثران في الوجود كما أن الاحساس بالحواس الخمس وعدمه لا يؤثران في وجود ولا عدم ، وخضراء الدمن التي تطلع في الغدوات ، وتصير هنيئا في الضحى ، وقد أزهرت في تلك المدة ولها بزر ، ثم تخرج في اليوم الثاني كالسيوم الأول موجودة كوجود النحلة التي تبش عشرات السنين . وبهذه القواعد التي قررتها عرفنا بمقدار طاقتنا وجود الله ، وعرفنا المادة .

بيان الملائكة ، والأرواح الأرضية

وأنا تعرف من هذا الدليل

قال أرسطهم : إن هذا المبحث قد عرفنا كما أشرت أنت فيما تقدم علما كان محبوا ، يقولون : « من عرف نفسه عرف ربه » ، وجاء في كتاب « راجا يوقا » الهندي الذي قرأته بالانجليزية أن المدار على علم النفس ، فالتفكير مبدأ العلوم كلها ، إذن معرفة نفوسنا عرفنا ربنا ، وإذا كان الأمر كذلك فإني أقول : لنسرف في البحث إلى الأمام . قلت سر . فقال : إن نفوسنا هي التي عرفتنا ما تقدم ، وأرسلتنا إلى الله كما أن ضوء الشمس أوصلنا إلى معرفة قرصها وهكذا ، أفلا نقول أيضا أن الكواكب كلها والشمس والهواء والماء والأرضين والنرات والميكروبات والحشرات ، كل واحد منها فيه قوة عاقلة مستمدة من مصدر الوجود العالم (وبعبارة أخرى) أفلا نقول أن العقل العام الذي امتد منه فرع إلى أجسامنا قد امتد منه فروع إلى كل كوكب ، وكل شمس ، وكل أرض ، وكل ذرة ، وكل حجر ، وكل نام ، وكل جامد . وهذا الفرع الذي امتد منه هو الذي يعطي الجاد خواصه وتلاصقه ، والمعدن خواصه ، والنبات نفسه التامية ، والحيوان نفسه المدركة والانسان نفسه الناطقة ، وكل هذه جداول من التهر المستمد من البحر ، فإذا رأينا النرات البيضاء في دماننا تساعد الجراء في الدفاع عن أجسامنا أثناء الطاعون فتجنبدل من الحيوانات الطاعونية آلافا في ساحات ميادين القتال (في الطحال والكبد والقلب وهكذا) فإنا نقول إذ ذاك هذه نفوس صغيرة مستمدة من العقل الكلي الذي له التصرف في المادة كلها ، ولذلك نرى نظاما مدهشا يدل على الوحدة الحقيقية للبدأ الأصلي . فقلت إن هذا المبحث يدل عليه أن جميع النباتات وعلما الأرواح يذكرون الملائكة ويأمرون بالرياضة والصيام وبالصلاة ، وفي الاسلام وجوب الايمان بالملائكة واليوم الآخر ، لم هذا كله ؟ كل هذه الحقائق صادقة ، وبهذا البرهان أمكننا أن نعرف عوالم وعوالم عقلية مشاكلة للعالم المحسوس ، وهي في توزعها وتنوعها مشاكلة للعالم المشاهد ، وبهذا تنحل مشاكلة كثيرة أمام الانسانية ، ويفهم المسلمون خاصة بقولهم بعد النقل آية « وأن عليكم لحافظين كراما كاتبين » وأمثالها من الآيات التي تعد بالعشرات .

الكشف الحديث والقديم

والرؤى الصادقة

ثم قلت : وتنحل أيضا بهذه البراهين مشاكلة كثيرة كأمر الكشف ، إن الكشف يرجع إلى فكرة

خطرت لانسان فتدبرها ثم أخذ يبعثها ، ثم تظهر وتنفع الناس ، فما ذلك إلا لأن هذه النفوس الانسانية متصلة بعوالم اتصال الماء الذى نشربه بالمياه حولنا ، والهواء الذى نستشقه بالهواء حولنا ، والضوء الذى يترسبنا بضوء الشمس ، فهذه النفوس الجزئية التى ظهرت فى اجسامنا تأتى لها آراء من النفوس المحيطة بها إحاطة الهواء بأجسامنا ، فتارة تكون كهائه ، وتارة تكون رؤيا ، وتارة تكون كشفا لأمر نافع كالكهرباء ، والدليل على ذلك أن الذين كشفوا أكثر المخترعات لم يكونوا أنعم أهل زمانهم ، ولأعظم مفكرهم ، بل إن نفوسهم باتصالها واستعدادها لأمر خاص ، استمدت تلك الفكرة من العقل العام الذى يشمل هذه الكائنات كلها ، وهذا العقل العام لا يحصره مكان ، ولا يحويه زمان ، وبرهانه أنه لا دليل على حصره ، ولا وقوفه عند حد خاص ، وعليه يكون الخلاء وراء الكواكب ليس يخلو من امتداد هذا العقل العام الممتد من الله إليه .

فلما سمع الطلاب ذلك . قال أوسطهم : الآن عرفنا الأرواح الصغيرة والكبيرة ، وما نلا ذلك كله ، وأنه يعرف بمعرفة النفس : أى اننا لما عرفنا وجود نفوسنا قاننا ذلك إلى معرفة عقل عام ، وإلى معرفة مبدأ لتلك العقل العام ، وهو الله سبحانه ، وعرفنا أن الوجود هو الأصل ، والعدم هو الذى يحتاج إلى دليل ، وعرفنا ملائكة تعدادها وكثرتها على حسب تعداد وكثرة الموجودات المتجزئة الخاصة ، وأكثر من ذلك ، وأن الجاذبية والتمزق والتلاصق ، وما أشبه ذلك ، كلها نتائج تلك النفس الكلية ، أو العقل الكلى ، الذى كان سبب معرفتنا به معرفة نفوسنا ، ولكي لا أرى ذلك برهانا قطعيا . فقلت : انه برهان استقرائى ، أى اننا بالاستقراء علمنا أن كل ما اشتملنا عليه نحن من جسم وتنفس وضوء فانه متصل بما هو أعظم منه من جنسه ، فهذا دليل استقرائى ، وقياس الاستقراء وان لم يكن دليلا قطعيا له منزلة شريفة فى العلم فى عصرنا الحاضر . فقال : ولكنى أريد ازدياد المعرفة بالله نفسه ، ثم بعد ذلك تذكر آراء الأمم قديما وحديثا .

معرفة الله وعرض آراء علماء اليونان والمسلمين وأوروبا على هذه النظرية

فقلت : أما معرفة الله وان كانت تقدمت فانى أريد القول فيها تبينا . اعلم أن هذه النفوس الناطقة فيما لم نرها فانى إلى اليوم لم أربعنى إلا بأجساما ، أما النفوس فانى لم أرها . قال نعم ؟ قلت والذى رأيت حركات وسكنات وأعمال ، فاستدللت بذلك على وجودها ، إذن وجود الانسان ووجود الحيوان ، أى وجود نفس صديقك ورفيقك وخيلك لم تعلم إلا بأثارها ، هكذا وجود الله ، لافرق بين الاستدلال على الله والاستدلال على وجود روح صديقك ، ولكننا لم نجد امرأة شككت فى وجود زوجها ، ولا أمنا شككت فى وجود ابنها ، ولا صديقا اشكته فى وجود صديقه ، بل كلهم يقولون هم موجودون بداهة كوجود الشمس فى رابعة النهار . هكذا وجود الله ، ولكن وجود الله كثرت الدلائل عليه ، فإذا كانت براهين وجود الله لانهاية لها ، وبراهين وجود صديقك محدودة أصبح العقل البشرى كالأعمى وكالدهوش أمام اتفاق الأدلة وكثرتها فى أحدهما وهو موقن بسبب حصر الأدلة وقتلها فى الثانى ، وذلك لأن كثرة الأنوار تكاد تعمي الأبصار ، هكذا كثرة أنوار الدليل تكاد تعمي البصيرة ، لذلك احتاج الانسان إلى إقامة الدليل على وجود ما كان فى غاية الوضوح للبصيرة حتى أعماها فاضطر إلى البحث من جديد . لهذا كان لا بد فى معرفة الله تعالى من دليل ، وهذا هو السبب فى استدلال الناس على وجود الله وتأليف الكتب ، ولعل هذا يكفيك فى هذا المقام . انتهت المقدمة والمجد لله رب العالمين .

الباب الأول في ذكر مذاهب الطبيعيين الخ

اعلم أن هذا الانسان ونسبته إلى هذا العالم ومباحثه أشبه بزاوية منفرجة ، ففي أولها عند رأسها حاسة اللمس ، ويليه حاسة الذوق ، فالشم ، فالسمع ، فالبصر ، فالعقل ، ولكل منها درجة في رقيه ، ويقابل الانسان في كل درجة من درجات إدراكه حيوان في مرتبته ، وهكذا يقابله في الحكماء طبقات مختلفات الطبيعيين والدهريون والسوفسطائيون وانكساغورس والإلهيون . انظر مايلي :

(العقل) : يدرك الكليات ، وله خمس قوى ، كل منها له مدركات تخصه مثل الحس المشترك والخيال والفكرة ، والتأكرة ، والحافظة ، وبه يشبه الانسان الملك ، ويقابله مذهب أفلاطون وأرسطاطاليس اللذين إليهما والى سقراط ترجع جميع المذاهب بعد ذلك عند اليونان وعند علماء الاسكندرية ، وعند المسلمين ، وعند القرنيحة كاستري إضاحه قريبا إن شاء الله (البصر) : به يعرف الشكل ، والحجم ، والسطح ، واللون ، والقرب والبعد ، والنور والظلمة . ويقابل به حيوانا ذا خمس حواس مثل ذوات الأربع ، وبه يقابل مذهب سقراط واليه ترجع المعرفة بالله تعالى وأنه محيط بالعالم مدبره .

(السمع) : به يعرف الانسان صوت الانسان والحيوان والجناد موسيقيا وأغنيو موسيقى ، وبه يقابل حيوانا ذا أربع حواس مثل الخلد (يفتح الخلاء واللام) الذي يعيش في الظلمة دائما ، فيكون أعمى ، وهذا مقابل للمذهب (انكساغورس) بأثينا سنة ٤٢٧ ق.م يقول : « إن أول موجود هو العقل ، وهو أي العقل مفاير للمادة ، وهو المحرك لها ، ولكن لا يعمل له بعد ذلك » .

(الشم) : وبه يعرف الانسان الخبيث والطيب من الروائح ، وبه يشبه حيوانا ذا ثلاث حواس ، وبه يشبه علماء السوفسطائية إذ قالوا : « لا علم ولا حقيقة » مثل (بروتاغورس) القائل : العلم باعتبار ما عند الانسان وان خالف غيره ، ومثل غورغياس إذ يقول : لا علم مطلقا بل هي ادراكات وقتية ، ومثل (بيرون) الذي يشك في كل شيء ، وهم العنودية والعنادية واللاأدرية بالترتيب .

(الذوق) : وبه تعرف الحلاوة ، والمرارة ، والحرافة ، والمالحة ، والعذوبة ، وهكذا ، وبه يشبه الانسان حيوانا ذا حاستين كبعض الود على الشجر ، ويشبه به الانسان مذهب الدهريين مثل (ديموقراطيس) وقد جمع آراء من قبله ، وقال : « الطبيعة قديمة ، وكذا الدهر » والمادة عنده مركبة من أجزاء لا تنجزأ .

(اللمس) : وبه يعرف الانسان ثقلا وخفة ، وحرارة وبرودة وهكذا ، وبه يشبه حيوانا ذا حاسة واحدة كالبرودة ، وبه يشبه الطبيعيين مثل تاليس المالمطي إذ قال : « الأصل في الوجود الماء » ، ومثل (أنكيمانيس) سنة ٥٢٨ ق.م إذ قال : « إن أصل الوجود الهواء » وهكذا .

(الانسان) :

فقال أحد الطلبة لما رأى هذا الجدول : هذا جدول أشبه بالقرص ، فنحن نريد التفصيل ، ويظهر أن تفصيله يفهمنا هذه الدنيا في عصرنا ، فاننا نحن الآن في زمان انتشار العلم ونظام المدنية ، وقد رأينا علماء من

الشرق في زماننا تلقوا علومنا من أوروبا ، وأتوا بأراء متباينة ، فهذا يشك في الدين ، وهذا يؤمن بالله ، ويكفر بالأنبياء ، وهذا لا يرى غير المادة وهكذا ، فإذا اطلع الناس على جميع المذاهب الفلسفية حكموا على كل قائل بالدرجة التي وصل إليها . فقلت : حبا وكرامة ، سأشرح هنا بالتفصيل ما وصل إليه العلم قديما وحديثا إلى وقتنا الحاضر في أمر الله والعالم ، فأما الاختراعات والفنون فأمرها بين أيدي عموم الأمم .

ثم قلت : اعلموا أيها الفضلاء أن الله تعالى عامل الأمم جميعها معاملة الفرد الواحد ، وأقرب الأمم التي ظهر علم فلاسفتها هي اليونان ، إن الأمم اليونانية ومن قبلهم ومن بعدهم كلهم كانت لهم ديانات ، والعاملة لا يشكون فيها ، وإنما الذي يهمنا أن نذكر مباحث الفلاسفة الذين جعلوا العقل إمامهم ولم يتقيدوا بالتقليد ، وإنما أردنا أن نذكر مباحثهم ، لأن الله يقول : « وقل الحمد لله سيريكم آياته » ويقول : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » وهذه الإراءة تكون بالحس وبالعقل ، إذن فلنجعل هذه الرسالة معرضا لامتحان آراء الفلاسفة والحكماء ، ونعرضها على ما قررناه في النظريات السابقة هنا في هذا المقام ، ونعرف إلى أي مدى وصل النوع الانساني في عقله ، ومتى عرفنا ذلك ووقفنا على الحقيقة حينئذ نقول : « أيها الشرقيون أكلوا ما نصته الانسانية ، وقوموا بخدمتها ، وجدوا لاسعادها ، ولا تكونوا من الغافلين » . فقالوا جميعا : هذا حسن جدا . فقلت : يعلمنا الله بهذه المباحث كيف نرتقي في التعليم .

الدرجة الأولى : حاسة اللمس في الانسان ومذهب الطبيعيين

لما خلق الله الطفل جعله يشعر بما حوله من حرارة وبرودة ، وثقل وخفة ، ونعومة وخشونة ، هكذا حصل في الأم ، فإن تلبس الماطي المتقدم ذكره وانكسبنايس وأنكسمندر ، وأوظم قل : « أصل الوجود الماء » ، وثانيهم قل : « أصله الهواء » ، وثالثهم قل : « أصل الوجود مادة لاصورة لها معينة دائمة التحرك » ، ومن معهم قالوا : « نحن ليس عندنا إلا الماء ، والهواء ، والنار ، والأرض ، أو المادة العمومية ، فلما أن يكون الماء هو الأصل وقد جد فصار أرضا ، وألطف فصار هواء ، وأما أن يكون الأصل هو الهواء فلما تكاثف صار ماء ، ثم لما تكاثف الماء صار أرضا ، وهكذا قالوا في النار وكذلك في الأرض ، فهؤلاء في الانسانية يشبهون الطفل وهو في أول أدوار حياته ، وهذه الدرجة في حاسة اللمس ، وفي الفلسفة الحسية تشبه حياة الدودة ، فليس لها حاسة إلا اللمس ، ومثلها العلق وغيرهما ، فالطفل في أول أمره كالودودة وكالفلاسفة الطبيعيين .

الدرجة الثانية في الانسان : درجة حاسة الذوق

هي أرق مما قبلها : وبعض الدود الذي يشاهد على سوق النبات له حاستان ، فهو أرق مما له حاسة واحدة ، والذوق أرق من اللمس ، لأن له اختيار الأغذية المنمية للأجسام ، ويشبه الطفل في هذه الدرجة علماء الدهريين ، وهؤلاء يقولون : لادين ، ولا رب ، ولا رسول ، ولا كتاب ، ولا ميعاد الخ ، وذلك أن الانسان لم يزل ولن يزال والدهردائر ، لا أول له ولا آخر ، ولقد قال هذا القول يعقوبي في تاريخه المجلد الأول صفحة ١٦٨ ومثله الغزالي في المنقذ من الضلال ، وسهام زنادقة ، وقد نقل آراءهما العلامة سفتلانه الطلياني في زماننا ، ووازنها بما في كتاب (سنيقليوس) في كتابه « السماء والعالم » فوجد أن هذا القول نقله هذا العالم عن (أناذقليس) وهو أن العالم لم يحدته أحد إلاه ولا بشر ، بل كان أبدا انتهى وهكذا نقل عن أرسطاماليس في المقالة الثالثة من كتاب السماء والعالم مانصه : « أما من ذهب إلى قول (أناذقليس) و (ديموقراطيس) فإنه قال : إن الأركان لم تحدث باستحالة بعضها إلى بعض ، بل لحدثت إلا

في الظاهر فانها موجودة على حدتها فتفترق بعد الاجتماع » انتهى
ونقل عنه في كتاب « الكون والفساد » في المقالة الأولى ، ونقل عن ديوتانس في تاريخ الحكماء
مثل ذلك ، ثم قال العلامة سئلانه المذكور ان هذا القول مطابق فضلا فضلا لما ذكره اليعقوبي .

الدرجة الثالثة للانسان الفرد أن تكون له حاسة الشم

وهي أرقى من سابقتها ، لأنها تحدثه عما بعد عنه ، وتأتي له بأخبار المشمومات التي لاتلامسه ، وهذا
هو الآتي في قوله : « ولما كان الانسان العام في ارتقائه يجب أن تكون له حاسة أرقى من حواس الدهريين
والطبيعيين ، هنالك خلق له ديمقراطيس فقال بالجزء الذي لا يتجزأ ، ومعنى هذا أنه قدر أن يتحرك إلى البعث
فأخذ يبحث في أجزاء المادة التي اكتفى سابقوه بالنظر الى ظاهرها ، فهو يرجع المادة إلى أجزاء تفترق
وتجتمع ، إذن هذا أخذ مذاهب من قبله وأراد تلطيفها وتوحيدها ، وتوحيدها لا يتم إلا بإرجاعها إلى الأجزاء
التي لا يمكن تحليلها ، فبدل أن كان الأصل دائريين الماء والهواء الخ يرجع إلى أصل واحد وهو الأجزاء العاتية
الأزلية الأبدية ، وهذا المذهب اقتبس منه الأشاعرة الجزء الذي لا يتجزأ ، وأخذ منه ابراهيم النظام (بتشديد
الظاء) من متكلمي المعتزلة القول بالكمون ، وأخذ منه الطبيعيون والملاحدة قولهم بانكار البارئ تعالى
ووحدة الوجود ، ويقول الاستاذ سئلانه المذكور : « ومن طابق قول ديمقراطيس بما عليه الطبيعيون من
الفلاسفة في عصرنا هذا لم يجد فرقا بين القولين ، ولم يرتفونا إلا في العبارة ، أما المعنى فلا . ثم قال : والحق
أن من اقتصر على الطبيعيات ولم يقل بغير المحسوسات لا يسعه إلا اقتفاء آثارهم ، والتجلى بشعائرهم ، مع
أن من تبصر في عواقب الامور تحقق أن مثل هذا الرأي في كل زمان لا يفضي إلا لانكار الحقائق ، وهدم
دعائم العقل ، كيف لا ومن قال انه ليس في الوجود إلا المحسوس ، ولا شيء سواه ، كيف يمكن له أن يحكم
بالوجود ؟ قال : وقد أصاب المحقق ناصر الدين الطوسي في شرح المفصل حيث قال نقلا عن أرسطاطاليس وغيره
« الحس إدراك فقط ، والحكم تأليف بين مدركات بالحس أو بغير الحس ، وليس من شأن الحس التأليف
الحكمي ، لأنه ادراك فقط ، فلا شيء من الأحكام محسوس أصلا ، فاذن كل ما هو محسوس لا يمكن أن يوصف
من كونه محسوسا بكونه يقينيا ، أو غير يقيني ، أو حقا ، أو باطلا ، أو صوابا ، أو غلطا ، فان هذه الأوصاف من
لواحق الأحكام » انتهى كلامه .

قال : وهو واضح بمن تحقق ماهية الحس وانه قاصر بالضرورة على خصوص المدرك لا يتعداه . إلى أن
قال : فكل فلسفة مقصورة على مجرد الحس لا يكون مثلها حينئذ إلا الشك في الحقائق كما وقع في اليونان
في أثناء القرن الرابع قبل المسيح .

الدرجة الرابعة للانسان

حال الطفل وحال الحيوان الذي يستعمل أربع حواس أعلاها السمع

فهو أرقى ، وقد أمكنه أن يتسع مدى إدراكه لما هو أبعد من المشمومات مثل حيوان الخلد (بفتح
الخاء واللام) الذي يعيش في الظلمات ، فهذا لا يرى النور ، ولا النجوم ، هكذا الأعمى من نوع الانسان
لابرامسا ، فهو إذن في حال أقل مما بعده ، وأوسع مما قبله ، إذن خلق الله في الانسانية الكبرى طبقة
أرقى وهي :

السوفسطائية

قال اليعقوبي في تاريخه (مجلد ١) صفحة ١٦٦ مانصه : « السوفسطائية : وتفسر هذا الاسم باليونانية

(المغالطة) وبالمرية (التناقضية) يقولون: «لاعلم ولا معلوم» الى آخر كلامه، وقد تعقبه الاستاذ سفلانه وخطأه، فقال: «السوفسطائية باليونانية معلوم والحكمة، أو طالبو الحكمة»، وصوب كلام الشريف المرتضى في الاتحاف (مجلد ٩) صفحة ٤١٨ إذ قال: «السوفسطائية طائفة من حكماء اليونان ينكرون حقائق الأشياء، ويزعمون أنه ليس هنا ماهيات مختلفة، وحقائق متميزة فضلا عن انصافها بالوجود، بل كلها أوهام لأصل لها، وسوفسطاء كلمة يونانية معناها طالب الحكمة» انتهى كلام الشريف الذي نقله الاستاذ (سفلانه). ثم قال الاستاذ المذكور: «والحاصل أن السوفسطائية قوم اتخذوا الفلسفة حرفة كانوا يجتازون المدن والأقطار، يدعون القدرة على كل علم، وعلى تعليمه أيضا في أقرب وقت، مع أنهم أجمعوا أنه لا علم في الحقيقة ولا حكمة. وأن قصارى ما يدركه الانسان من الوجود على فرض وجوده هو ما يدركه بحواسه الخمس، ولما كان الإدراك الحسي مما يختلف بين الناس من انسان لآخر، بل وفي الانسان الواحد باختلاف الأوقات والصحة والمرض، ومع ذلك يتغير تغيرا مستمرا، لزم من ذلك أنه لاحق ولا باطل، ولا خير ولا شر، بل كل ذلك مما نواطأ الناس عليه، ليستقيم به معاشهم، ويكفي بعضهم شره بعض، وهو في نفسه أمر ليس بوجود طباعا». ثم قال: «وبعد إجماعهم على هذه الأصول قد اختلفوا، فذهب:

(١) — (بروتاغورس) إلى أن ما ظهر لكل واحد حقا فهو حق بالنسبة إليه. فقال: إن الانسان مقياس الأمور في وجودها وفي عدم وجودها، أي ما رآه كل واحد موجودا فهو عنده موجود، وما رآه معدوما فهو بالقياس إليه معدوم، ولا يتعدى الحكم إلى غيره.

(٢) — وذهبت طائفة أخرى اشتهرت باسم (غورغياس) إلى أنه لما كانت الأشياء في حكم التغير الدائم كان الانسان غير متمكن من ادراك الحق بوجه، وغاية ما يقدر عليه أن يقتصر على ما يدركه في كل آن من ظواهر الأشياء لا يتعدى حكمه فيها الى ما يدركه في آن آخر، ولا يقول بوجود شيء ألبتة، إذ حقيقة الأشياء على فرض وجودها معا لا طاقة للبشر عليه. قال: والمذهب الأول عند العرب يسمى «مذهب العندية» والمذهب الثاني «العنادية». قال: وقد ألحقوا بهما مذهباً آخر ولكنه ليس من السوفسطائية في شيء، وهو مذهب (بيرون) كان معاصرا للاسكندر الرومي، ذهب الى الشك المطلق، وهو الامسك عن الجزم بشيء أحق هوأم باطل. قال: ويسميه العرب بمذهب (اللاأدرية). قال: واليه أشار نصير الدين الطوسي في حاشيته على المحصل صفحة ٢٣ وذكر ما يقرب مما تقدم فلا تطيل به.

فهنا خرج أهل البحث من انحصار أفكارهم في الماء، أو الهواء، أو أجزاء المادة (وبعبارة أخرى) ان هذه الطبقة وهم السوفسطائية أشبه بالجنين خرج من بطن أمه، فإذا كان من قبلهم قد حبسوا في العناصر من ماء وهواء ونار وأرض، أو في أجزاء تلك العناصر خرج هؤلاء من ذلك السجن المادي، وقالوا: نحن لا نتقيد ببقيد ما، فهؤلاء أشبه بحاسة السمع وهم أشبه بطبقة الانسان، وقد انضمت حاسة السمع الى الحواس السابقة. ثم قال: هذه هي فلسفة اليونان في أواخر دهرها الأول، وهو منتصف القرن الرابع قبل المسيح من التردد والارتباك بين مذاهب الطبيعيين، ومشاعبات السوفسطائية، وأخذ يدحض هذا المذهب. وما قال: «وقد قيل ان الشك يهدم نفسه»، وذكر حكاية ديوجانس السكبي انه حضر مجلس بعض السوفسطائية فسمعه ينكر الحركة ويكثر البراهين على عدم وجودها فلم يجبه (ديوجانس) بحرف، وأخذ يمشي في المجلس ويضرب بعصاه الأرض اشعارا منه بأن مثل هذا القول المنكر للظواهر لا يحتاج في نقضه الى بيان. ثم نقل عن المتكلمين المسلمين في كتبهم: ان هؤلاء الشاكين لا ينبغي مناظرتهم بل احراقهم بالنار حتى يحسوها فيعرفوا ما كانوا ينكرون فيمكن التسكّم معهم. قاله الامام الرازي في المحصل، والشيخ التفتازاني في شرح

العقيدة الفلسفية . انتهى كلام الاستاذ سنتلانه .

ثم إنى هنا لابد لي أن أقول لكم أيها الأذكياء كلام الاستاذ (سنتلانه) بنصه وفصه ، لأنه فيلسوف أوروبي ، ليكون ذلك زجرا لهؤلاء المتعلمين في الشرق ، الذين يرجع بعضهم من أوروبا وهم إما دهبرون وأما طبيعويون ، وأما سوفسطائية . وهم يجهلون ما عند أسانذتهم من العلم ، فيرجعون وهم غافلون . قال مانصه بالحرف الواحد : « أما القول بالطبيعة وأن لا شيء غيرها ، فهو لا يرضى العاقل المتبصر » كأنه يقول : نعم لأنزع في كون الطبيعة والحركة من أصل الموجودات ، وإنما توقفت في كيفية صدور الفعل منها ، فلولم يكن هناك إلا مادة تتحرك من الأبد إلى الأبد ، فمن أين حصل لهذا العالم النظام العجيب ، والترتيب الغريب ، التي حارت فيه العقول ، وقصرت عن إدراكها الفعول ، كيف ينسب ذلك إلى الاتفاق والمصادفة ، ومجرد البحث ؟ ليت شعري كيف بقيت على تألفها ، وكيف تجددت على نمط واحد المرة بعد المرة ، وقد شهدت المعاينة بأن حركات أجزاء لانهاية لها ولا محرك لا تنفضي إلا إلى غاية الالتباس وعدم القياس ، هذا لعمرى كمثل من وضع حروف المهجم في ظرف أوفى صندوق ، ثم جعل يحركها يوما بعد يوم طمعا منه أنها تتألف من تلقاء نفسها ، فيتركب منها قصيدة بليغة ، أو رسالة عميقة في المنطق ، أو كتاب في الهندسة دقيق ، أليس هذا من السفه المبين ؟ فانه لو دام على تحريكها السنين والدهور ما حصل من كده إلا على حروف ، فكيف يتصور حدوث هذا الموجود بما هو عليه من الاتقان والاحكام وتطابق الأجزاء وعجيب مناسبة بعضها إلى بعض من حركات اتفافية في خلاء لانهاية له .

قال أرسطاطاليس في كتاب سمع الكيان : « إن كل نظام يدل على وجود العقل ، فضلا عن هذا ان ما حصل اتفاقا لا يحصل إلا مرة واحدة ، ولا يتكرر ، ولا يسوغ بناء حكم عقلي عليه ، ولا يقبل القياس بخلاف ما شهدت به التجربة في عالمان الثبوت ، ولولا هذا ما أمكن إنشاء علم من العلوم الرياضية والطبيعية . هذا وإذا فرضنا وجود مجرد الطبيعة ولا شيء سواها فمن أين هذه القوة العقلية التي يجدها كل واحد من نفسه ، وهي مع ما فيها من الهجز والتصور من أظهر التواحد على وجود ما يخالف مجرد المادة في هذا العالم ، ولا سبيل من المادة إلى الأفعال العقلية لما بينهما من المغايرة الأصلية ، فوجود مثل هذه القوة يستدعي وجود جوهر عقلي يجانسها ويمثلها ويكون مركزا لها .

ثم قال : وهل من المحتمل أن ما نشعر به من تصور المقولات ، والكشف عن الكيان ، وتفريق القضايا وتركيب القياسات لم يكن في نفس الأمر إلا من اصطكاك جزء من المادة بجزء آخر ، وهل يسوغ في العقل أن ما ضمنته عقولنا من الأبحاث الدقيقة ، والمأخذ العميقة ، كالمنطق والرياضيات والإلهيات ، وما فتنت به القلوب من الشعر الرائق ، والمطرب من الألحان ، وسحر البيان ، أصله من تلك الأجزاء كانبعاث النار من اصطكاك حجر بحجر ، وذلك في خصوص النار ، إذ ليس بين مادة النار ومادة الحجر فرق كبير ، وإنما ليت شعري ما النسبة بين الحجارة والعقل ؟ فإذا كانت المادة غير قادرة أن تكون علة لنفسها ، فمن باب أولى وأخرى أنها لا تكون علة لما هو أعلى منها مكانا وأهم شأنًا في درجات الوجود والا لكان الأخص أصلا لما هو أرفع ، وهذا مما يستبعد العقل ، وتألفه الفطرة السليمة » انتهى كلام الاستاذ سنتلانه مع تغيير يسير جدا . هنالك سم اليونانيون من هذه الحيرة ، فلا العناصر كالماء ، ولا الهواء أصل الوجود ، ولا الجزء الذي لا يتجزأ ولا مذهب الشك ، أو العنادية ، أو العنادية تفتي فتبلا عن معرفة الحقائق ، فظهرت طائفة أخرى وهم :

شيعة فيثاغورس

هذه الشيعة ظهرت في أثناء القرن الخامس قبل المسيح ، فتوطنت المستعمرات اليونانية في إيطاليا ،

واسمها « شيعة فيثاغورس »

هذه الشيعة يقول رئيسهم : « إن كل شيء أصله العدد فما من شيء إلا وفيه للقياس والعدد حظ » ولهم عناية بالعلوم الرياضية ، ولاسيما الهندسة والحساب ، فأصل ما في هذا العالم هو العدد . وقد دحض العلامة سنبلان الطلياني كل ما يعزى إلى فيثاغورس من المبالغات في كتب أسلافنا العرب . وقال : لم يثبت إلا هذه الفكرة عنه .

ثم ظهر بعده (أنباذوقلس) فقال : « إن هناك قوى محرّكة للمادة غير المادة سهاها بالمحبة والعداوة ، فيأخذة تتصل الأشياء ، وبالعدوان تتفرّق »

فهذان المذهبان عدلان عن مذاهب اليونانيين الأولى ، فالفيثاغوريون عرفوا النظام الهندسي والعددي في العالم ، ولاجرم أن هذا لا يكون إلا نتيجة لعقل يضبط الحساب ، ولكن لم يقولوا بالعقل ، ولكن هؤلاء أرقى من السوفسطائية ، وأنباذوقلس لاحظ شيئا سهاها المحبة والعداوة للاتحاد والتفرّق ، فانظر ماذا جرى : ظهر أنكساغورث . قال الاستاذ سنبلان : وكان في أواسط القرن الخامس ق . م بمدينة أثينا سنة ٤٢٧ أشار إليه أرسطاطاليس بمقالة أولى من كتاب « مابعد الطبيعة » فقال بعد حكاية الأقدمين مانصه : « ثم نبغ بعد ذلك رجل فقال : « إن العقل هو مبدأ الوجود ، فكان كالصاحي فيما بين قوم سكارى لا يفقهون » اه قال : « والحق أنه منذ ذلك العصر نشأت الفلسفة اليونانية نشأة جديدة ، فهي كالطفل اذا قوى وانسع نطاق عقده وجاء بتصوّر المبادئ بعد ما كان في المحسوسات مغمورا ، ولم يخف على مؤرّخي العرب هذا الفرق بين الدور الأول والدور الثاني . فقال القفطي في تاريخ الحكماء مانصه : « وكانت هذه الفلسفة أي الطبيعة شائعة في اليونان الى ما قبل زمان أرسطاطاليس بمائة سنة » ذكر هذا أرسطاطاليس في كتاب الحيوان فقال : « لما كان منذ مائة سنة ، وذلك منذ زمن سقراط مال الناس عن الفلسفة الطبيعية إلى الفلسفة المدنية والفلسفة المدنية هي فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس » انتهى كلامه .

فاذا راجعنا كتاب الحيوان الذي أشار إليه القفطي وجدناه مطابقا لما ذكره : فهما وجدتم في الكتب العربية ذكر الفلسفة المدنية فافهموا انها فلسفة الإلهيات التي أنشأها سقراط وأفلاطون ، وانها مغايرة لما سبقها من الفلسفة الطبيعية ، وفلسفة الدهرية .

وحاصل قول أنكساغورث أن المبدأ الأول في الموجودات هو العقل وهو جوهر بسيط مفارق للمادة موجود بنفسه ، وهو أصل نظام العالم ، والمحرك الأول للمادة . قال : كان العقل أولا والمادة على غاية من الاضطراب والالتباس فأثر العقل فيها وجعلها تركيبا محكما ، وذلك أنه صدرت منه حركة إلى جزء من تلك المادة فتولدت من تلك الحركة حركة أخرى فتجاوزت إلى ما جاورها من المادة فتولدت من هذه الثانية حركة أخرى فتجاوزت مثل الثانية إلى ما جاورها وهلم جرا إلى غير نهاية . قال : فبموجب هذه الحركات المتولدة بعضها من بعض انتظم العالم وتألقت أجزاءه من غير أن يكون للعقل في ذلك دخل ولا تأثير . فأورد بعض الحاضرين على هذه المقالة الشبهة . فقال : « انني قرأت في كتاب الشهرستاني « الملل والنحل » عند ذكر فلاسفة اليونان ما ملخصه : « الحكماء السبعة الذين هم أساطين الحكمة هم طاليس المالمطي وأنكساغورث وانكسيانيس وفيثاغورث وسقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس ، وتبعهم جماعة من الحكماء مثل فلوطرخيس وبقراط وديمقراطيس والشعراء والنسك ، وانما يدور كلامهم في الفلسفة على ذكر وحدانية الباري تعالى واحاطته علما بالكائنات كيف هي ، وفي الابداع ، وتكوين العالم ، وأن المبادئ الأولى ما هي ؟ وكه هي ، وأن المبدأ ما هو ؟ ومتى هو ؟ انتهى

ثم ذكر طاليس فقال : إنه هو أول من تفلسف في المالمطية . قال : « إن للعالم مبدعا لا تدرك صفته

العقول من جهة جوهرية ، وانما يدرك من جهة آثاره ، وهو الذي لا يعرف اسمه فضلا عن هويته « الى آخر ما قاله ، وقد أتى بمثله ما ذكر في حق أنكسيانس . قال : إن مذهبه أن البارى تعالى أزل لا أول له ولا آخر ، هو مبدأ الأشياء وهكذا ، وهو قريب من كلام علماء التوحيد في الاسلام . ثم نقل عن أنكسيانس أيضا أن أول المبدعات من العوالم هو الهواء ، ومنه تكوّن جميع مافي العالم . ثم قال في صفحة ٢٦٠ ما يأتي « انه نزل العنصر منزلة القلم الأول ، والعقل بمنزلة اللوح القابل لنقش الصور ، ورب الموجودات على ذلك الترتيب ، وهو أيضا من مشكاة النبوة اقتبس ، وبعبارة القوم النيس . ثم قال : إن أنباذوقلس كان في زمن داود عليه السلام مضى اليه وتلقى عنه ، وقال في حق فيثاغورث أيضا انه كان في زمن سليمان عليه السلام ، وانه أخذ الحكمة من معدن النبوة ، ثم ان اليعقوبى في المجلد الأول صفحة ١٣٤ قال في حق فيثاغورث انه أول من نطق بالأعداد والحساب والهندسة ووضع الألحان . وكان في زمان ملك يقال له « أغسطس » وهرب منه ، وتبعه ، فركب فيثاغورث البحر حتى صار إلى هيكل في جزيرة ، فأحرقه عليه الملك الجبار .

هذا كلام المؤرخين ، وأنت تقول لنا غير ذلك ، تقول ان طاليس المالمطى يقول : « أصل العالم هو الماء » وليس يعتقد بوجود للعالم سواء ، وأن أنكسيانس يقول إن أصله الهواء ، ولا يعتقد في الإله أيضا . ومثله أنكسيمندر إذ يقول : « إن العالم مادة لأصورة لها معينة ، فهي دائمة التحرك ، تتغير تارة وترجع إلى أصلها أخرى » ، وقلت : ان ديموقراطيس لا يعتقد بالاله ، بل يقول بالجزء الذي لا يتجزأ ، وهو أصل العالم ، ومنه وجد . وقلت : ان فيثاغورث لم يذكر إلا الأعداد ، ولم يحم حول الاوهية ، وهكذا أنباذوقلس فانه أرجع العالم للحجة والكراهة ، فهذا كلامك ، وذلك كلام المؤرخين ، فأى القولين نصدق ؟ أفوك أم أقوال اليعقوبى والشهرستانى في (الملل والنحل) ؟ فقلت : إن هذه التي ذكرتها أيها النكي قد ذكرها بنفسها وذكر قريبا منها الاستاذ سنلانه الطليانى المذكور ، وهذا الرجل أقرب إلى علماء اليونان منا . ولما نقل هذه الأقوال نقاها وأثبت بالدليل استحالة بعض ما جاء فيها بمثل أن فيثاغورس كان بينه وبين أغسطس أكثر من ٤٥٠ سنة ، وكل ما ذكر من التوحيد والمعرفة قال إنه لا أصل له ، وعليه يكون ماقلناه الآن هو لب الفلسفة ، وانها ارتقت حالا بعد حال حتى وصلت إلى سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس وهؤلاء هم الذين لهم السلطان العلمى في العالم الغربى والشرقى كما بيناه .

ثم قلت : قد وصلنا في الكلام إلى رأى أنكساغورث القائل : « إن المبدأ الأول في الموجودات هو العقل ، ولكن لم يجعل لهذا العقل عملا إلا في أول الخلق ثم يترك العوالم وشأنها ، فكان ذلك مما حرض سقراط على إنشاء مذهبه .

مذهب سقراط

قال : قال سقراط في بعض المحاورات الأفلاطونية المشهورة « بفيدون » ما ترجمته لكم حرفيا : إنى لما كنت حديث السن كنت مولعا بالبحث عن الطبيعيات وأسبابها وأصولها ، والقوى المحركة لها ، فكنت لا أرتضى قول الطبيعيين في ذلك ، ولم أجد قولا آخر يقاومه ، فبقيت محيرا مذبذب الرأى لأدرى ماأعتمده ، وبينما أنا هكذا ذكرلى بعض أجبائى أن هناك كتابا منسوبوا إلى أنكساغورث صرح فيه بأن أصل الوجود العقل ، فسررت من ذلك سرورا عظيما ، وبأدرت الى اقتناء الكتاب لأطالعه بشوق وأسرعته في مطالعته فلم ألبث إلا وقد تبدل سرورى أسفا ، وأملى يأسا ، لما رأيت هذا الرجل بعد نصبه العقل منبعا للموجودات تركه في زاوية الخمول بطلا ، وركن في شرح الموجودات الى تولد الحركات بعضها عن بعض إلى غير ذلك من الأسباب الطبيعية مما ليس فيه للعقل تأثير ، وذلك مثل من جعل آلة وصانعا ، ثم قال : إن الآلة تستغنى

عن الصانع ، وانها قادرة على إتمام ما أعدت له من تلقاء نفسها . ليت شعري ما الحاجة حينئذ إلى الصانع اذا كانت الآلة نفسها كافية ! فتركت الكتاب ، ورجعت أبحث عما يقوم لي مقام ماساءتي ففقدته في كلام أنكساغورث . انتهى كلام أفلاطون حاكيا عن سقراط ، ومنه يفهم ما حمل سقراط في الحياض عن كلام أنكساغورث وانكار مذهبه .

قال سقراط في محاوره أخرى حكاه عنه تلميذه « أكانوفون » في كتاب التذاكير : « لا تنكروا بها الحبيب أن روحك التي في جسديك تنصرف فيه كما شئت ، فعليك أن تعتقد أن العقل هو أصل الأشياء والمنصرف فيها كما شاء . » انتهى كلامه .

وقال أفلاطون في محاوره أخرى من المحاورات الأفلاطونية : « أوليس من الظاهر أن المستعمل لآلة هو غير الآلة التي يديرها ويباشرها ، على ذلك يجري القياس في الأسباب الطبيعية ، فانها كآلة بيد الصانع الأول وهو العقل ينصرف فيها كيف شاء في قضاء مراده ، ولزم من ذلك أن المهم في العمدة في معرفة الموجودات عليها العقلية لاما هو مسخرها من الأسباب المادية ، فان الصانع العاقل لا يخل شيئا إلا لفرض ولا يصنع شيئا إلا لعلة ، فامن موجود إلا وله على رأى سقراط فائدة قد وضع لأجلها ، ومصلحة هي الغاية المقصودة من تركيبه ، يتأتى للعاقل أن يتوصل إليها في الأغلب ، إذ هي صادرة عن عاقل . » هذا كله كلام الاستاذ سقلانه الطلياني نقلته من كتابه مع حذف يسيرا بخل بالمعنى .

وهاك محاوره أخرى لسقراط نقلتها من الكتاب المذكور هذا نصها منتخبات من تذاكير أكونوفون منها في الفصل الأول من الكتاب الأول . قال اكانوفون :

« إنى أريد أن أحكي هنا ماجرى بمحضرى من الكلام بين سقراط وأرسطو ديموس الملقب بالصغير ، وقد جرى بنا سياق الحديث إلى ذكر الإله ، وكان سقراط قد علم من أرسطو ديموس أنه لا يقرب القرابين ويستحرق صنعة الكهانة ، ويسخر ممن يعنى بالعبادة . فقال : أفي الناس من يجيبك براعته في الصنعة ؟ فقال نعم ، الشعراء والمصورون ، من كان منهم أروع من غيره . فقال سقراط : أيما عندك أرفع شأنا ، أمن يصنع التماثيل العارية عن الحركة والعقل ، أمن يصور الأشباح الحية المتحركة ؟ فقال من يصنع الصور الحية اللهم إلا اذا كانت تلك الصور من عمل المصادفة والاتفاق لامن عمل العقل . قال سقراط : اذا فرضنا أشياء لا يظهر المقصود منها ، وأشياء أخرى بينة القصد والمنفعة ، فما قولك في تلك الأشياء ، ما هي عندك من فعل العقل ، وما هي من فعل الاتفاق ؟ قال : لاشك أن ما ظهر قصده ومنفعته من فعل العقل . قال سقراط : أولست ترى أن صانع الانسان في أول نشأته جعل له الآلات والحس لما في تلك الآلات من المنفعة الظاهرة فأعطاه البصر والأذنين ليبصر ويسمع ما يكون لعيشه صادقا ، وما فائدة الروائح لولم يكن لنا الخياشيم ، وكيف ندرك المطاعم ونفرق بين المرّ والحلو والمزلول لم يكن لنا لسان نذوق به . إن بصرنا معرض للآفات ، وأوليس ترى كيف اعتفت القفرة الالهية بذلك فجعلت الأجفان له كالأبواب لتمنع ما يصبب البصر ، وجعلت الأشفاق كالناخل لتقيها من أضرار الرياح ، فما قولك في آلة السمع وهي تقبل جميع الأصوات ولا تمتلي أبدا ، أما رأيت الحيوان كيف رتب أسنانها المتدمة وأعدت لقطع الأشياء فتلقبها إلى الأضراس فتدقها دقا ، فاذا تأملت في ترتيب ذلك أيمكن لك أن تشك هل هي من فعل الاتفاق أو العقل . قال أرسطو ديموس : نعم اذا تفكرنا في ذلك لانك في أنها من فعل صانع حكيم كثير العناية بمصنوعاته . قال سقراط : اعتبر ما فعل في الذكور من حب التناسل ، وفي الإناث من الحنين إلى بניהا ، وما هو مغروس في كل حيوان من الشوق إلى الحياة والنفور من الموت ، أليس ذلك من عناية صانع قد أراد بقاء مصنوعاته ! فاذا تحققت وجود العقل فيك فكيف تظن أن لا وجود للعقل فيها هو خارج عنك مع انك اذا تفكرت في الأرض وانساعها ، وقست ذلك

بجسدك فقد تحققت أنه ليس لك من الأرض إلا أخس جزء وأقله ، وكذلك الرطوبة التي منها تركيب جسدك فانها ليست من مجموع الرطوبة إلا أصغر جزء ، وكذلك بقية مافي جسدك فكيف تظن أنك منفرد وتستبد بالعقل دون بقية العالم على سعة ورحبه ، وأن هذه المصنوعات التي لا تدخل تحت الحصر ، وهذا النظام الغريب الحاصل فيها إنما نشأ عن عدم العقل . قال لا والله وإنما لا أرى أصحاب هذه الجباب كما أشاهد أصحاب التماثيل والصور المصنوعة في عالمنا هذا . قال سقراط : إنك لا ترى نفسك المدبرة لبدنك ، فعلى هذا كان ينبغي لك أن تقول ان أفعالك صادرة عن اتفاق ومصادفة لاعن عقل . قال : انى لا استصغر اللاهوت وإنما أراها تجلّ على أن تكون محتاجة لعبادتي . قال : فاذا كانت لا تجل عن العناية بك كان من الواجب أن تحترمها . ثم قال : اعلم أيها الحبيب ان نفسك تدبر جسدك مادامت مقارنة إياه ، فعليك أن تعتقد أن الحكمة الموجودة في العالم تدبر كل شيء كما شامت ، أنظن أن بصرك يقدر على إدراك ما بعد عنك على مسافة بعيدة ، وأن بصير الاله لا يقدر على أن يحيط بجميع مافي العالم . انتهى ملخصا منقولاً عن الاستاذ سفلانه ويناسب هذه المحاوره التي بين طيباوس وسقراط التي ذكرها أفلاطون . قال طيباوس : يا سقراط ، لتذكر الآن السبب الذي حل منظم هذا العالم على تنظيمه ، فأقول : إنه كان جوادا ، والجواد لا يدخله نوع من أنواع البخل ، فاراد أن تكون جميع الأشياء حسنة على قدر الامكان ، فمن ذهب في بيان سبب تكوين العالم إلى هذا الرأي وهو رأى الحكماء ، فقد يكون على الصواب والسداد ، ثم كان مراد الاله أن يكون كل شيء خيرا ولا شيء شرّ على قدر امكانه ، فأخذ جميع الأشياء المرثية وهي حينئذ مضطربة تتحرك بلا نظام ولا ترتيب فجعل النظام فيها بدل ما كان من الاضطراب .

ثم بعد كلام طويل بين تصوير الأبدان من العناصر على يد الله وتصوير الآلات المختلفة من البصر والسمع وغيره . قال : « إن البصر نازعه الإله في داخل العين ، فمن تلاقيه بالنار الموجودة في الخارج يتولد الابصار » وبسط القول في منح البصر وبيان منافعه . قال : « إن فائدة البصر على ما أرى أنه لو لم تكن لنا القدرة على ادراك الشمس ما كنا نتمكن من الكلام على السماء والعالم ، إذ من مراقبة اليوم والليل وتحول الأشهر والأعوام حصل لنا العلم بالأعداد والشعور بالزمان ، وحدث فينا الشوق لمعرفة الطبيعة والعالم ، فنه نشأت الفلسفة وهي أفض ما أنعم الله به على الناس » .

ثم قال : « إن الاله لم يقصد من إيجاده البصرينا إلا أن يمكننا من تأمل دوران العقل في السماء لنستفيد منها تقويم دوران عقولنا ، وتنظيمه على نسق ما نراه في السماء من ترتيب العقل في دوراته إذ هو وذلك طبيعة واحدة » انتهى كلامه .

وجاء في الفصل الخامس من الكتاب الرابع من المذاكرت ما يأتي : « كان سقراط كثيرا العناية بتدريب أصحابه على العمل فضلا عن تعليمهم أصول الفضائل ، وكان يعتقد أن العفة أصل كل خير ، فكان دائم المواظبة عليها ، يكرّر ذكرها في محاوراته ، ومن ذلك ماجرى بينه وبين (أوتوديمس) . قال سقراط : أوليس ترى يا حبيبي أن الحرية من أفض الأشياء للذوات وللذن . قال : هي عندي أفضل الخيرات وأنفسها . قال : فاذا سخر الانسان نفسه للشهوات حتى صار لها كالعبد مقيدا عن اتیان الفضائل أتراه حرا ؟ قال أرى أن لا أعبد منه . قال : كأنك ترى أن الحرية هي القدرة على فعل ما هو حسن ، والعبودية أن يسلط الانسان على نفسه ما يسلبه تلك القدرة . قال نعم ، وكأنك ترى أن من عدم العفة كان من الرقيق . قال : انه والعبد على حدّ سواء ولا جور . قال : هل ترى أن عبد الشهوات ممنوع عن الخير فقط ، أوليس هو مجبوراً على اتیان الشرّ أيضا ؟ قال نعم . قال : انه لمنوع عن الخير مجبور على الشرّ لا محالة . قال : وما ترى فيمن ينهى عن الخير ويأمر بالشرّ ؟ قال : إن شرّ الأرباب هو . قال : وما شرّ العبودية ؟ قال شرّ العبودية ما سخرت لشرّ الأرباب

قال سقراط : فلاشك حينئذ أن من اتبع شهواته إنما هو مسخر لشرّ عودية ، وليس ترى أن الانهماك في الشهوات يبعد الانسان عن الحكمة ، ويحمّله على قبضها ، فباله مشغول بطلب اللذات عن الأشغال المفيدة وهو مجبور على اختيار الشرّ مع علمه الفرق بينه وبين الخير ، فبسط الكلام في منافع العفة ومفاسد عدمها ، حتى قال : « إنّ عديم العفة لا يبلغ ولا الغرض المقصود منه وهو اللذة ، لأن صاحب الشهوات لا يصبر على الجوع والعطش والسهر وغيرها التي هي سبب التناؤنا بالأكل والشرب والنوم ، اذا أمسكنا عنها تكلفنا العفة وصاحب الشهوات لا ينال من ذلك ولا أصغر جزء . قال : فالعفة إذن سبب علمنا بالخير ، وتعاطي ما به يصحّ البدن ، ويستقيم تدبير المنزل ، ويقدر المرء على مساعدة أحبائه ، ووطنه ، ومبارزة أعدائه . كل ذلك من العفة » انتهى

ولخص كلامه بأن قال : « لافرق عندي بين الحيوان والانسان المنهمك في اللذات ، كيف يميز من الحيوان من لم يقصد من الامور إلا ألذها ، لا أحسنها ، لا يتأتى اختبار أحسن الأشياء إلا لمن تكلف العفة ، فقدّر بذلك على تمييز الأجناس جنسا جنسا قولاً وفعلاً ، وعلى اختيار الحسن منه ، والامسك عن خلافه .

عناية سقراط بالتعريف والحد

كان سقراط شديد العناية بالتعريف والحدّ ومعرفة حقيقة الأشياء بحيث يجرّدها من العوارض الشخصية فالانسان مثلا عند تعريفه يقطع النظر فيه عن أمثال القصر والطول ، والذكورة والانوثة ، وهكذا ، وما بقي بعد ذلك فهو : هوية الانسان ، وحقيقته ، وجوهره ، الذي يقوم به وجوده . قال : فإذا أدرك الباحث هذا الحدّ من بحثه لم يبق له ما يطلبه ، وقد ظفر بالمعنى العقلي الذي به يتصور الانسان ، وهو جوهر الانسان شيء واحد ، وهنا أخذ سقراط يبحث في نفس الانسان وأخلاقه من الصبر والشجاعة والحياة والعفة الخ معتقدا بأن لاشيء أهمّ للانسان وأجدى عليه من تحسين سيرته ، وتهذيب ضميره ، وأن ذلك أكثر حاجة من اقتناء العلم ، فان من اقتنى علما كثيرا وقلبه بالهوى مشغول ، ونفسه دنينة مغمورة في الطبيعة كان كالبناه على غير عماد ، لا يحصل له من تبعه إلا مزيد العناء ، ولكن تلاميذ سقراط استعملوا أساليب أستاذهم في البحث في الالهيات ، وأشهرهم :

أفلاطون

ولد سنة ٤٢٧ ق.م — ومات سنة ٣٤٧ ق.م

لقد نقل الاستاذ (سنتلانه) كلام أفلاطون فقال مانسه : « قال أفلاطون في المقالة الخامسة من كتاب النواميس : ينبغي لمح الحكمة أن يعنى أولا باستنباط العلل المعقولة ، ثم منها ينتقل إلى ما يتحرك بنوع حركة ضرورية ، يعنى بذلك الطبيعيات ، وقال : إن العلم الحقيقي الذي هو مطمح العقلاء ، ومطلب الحكماء ، لا يكون مبناه إلا الوجود الحق ، فالوجود الحق هو في نفس الأمر الغاية المقصودة من العلم والحكمة ، فكيف السبيل إليه ؟ قال : لا يتأتى الوصول إلى مثل هذا العلم مادام الانسان منغمسا مغمورا في المحسوسات مقصورا عليها إذ « الهولي » أى العنصر الأول الذي منه تكوّنت الموجودات الطبيعية دائم التغير والسيلان عسير الإدراك ، والعرفان لا يستقرّ طرفه عين ، يقبل جميع الصور ، ولا يثبت على صورة ، فلا يحسن والحالة هذه اطلاق اسم الوجود عليها ، ولا اطلاق اسم العلم على ما يتعلق به من الإدراك ، والحال أنه يستحيل تعيين ماهيته ، ولا التعبير عنه ، فهو للوجود الحق بمثابة الظلام إلى النور ، فلو بقي الانسان محصورا في هذا الطور من الوجود ما تمكن من معرفة العالم ، ولامن معرفة نفسه بشيء ، وغاية ما يناله هوشى شبه بالعلم قد سماه

أفلاطون بالظن وبالوهم هولاء كالحيال للجسد ، يختلف باختلاف الأوقات ويسيل معه سيلان المادّة لا يثبت صاحبه على يقين ألبتة .

هذا شأن علم السوفسطائية ، وكل علم لم يكن له أساس إلا الحس ، لأن الحس يتغير ويتغيره تختلف القضايا والأحكام العقلية . قال : فلا بد من أن يكون في العالم شيء لا يغيره التغيير ، ولا تظنراً عليه الاستحالة والفساد ، والا فلا علم ولا يقين ولا حكم بشيء ، إذ العلم مانع بالحق ، والحق مطابقة الصورة المرتسمة في ذهننا بالجوهر الموجود في الخارج ، فلو لم يكن هناك جوهر ثابت بسيط غير قابل للتغيير ما أمكن العلم بشيء . قال أفلاطون في المحاوراة المترجمة (بنيانيتوس) : « كيف يتصور أن يحصل الإنسان على الحق مالم يكن له حصوله على الحقيقة » انتهى .

فلزم من ذلك أنه يوجد وراء المحسوسات صور قائمة وجواهر دائمة تتعلق بها علمنا ، وهي للحسوسات بمثابة الشبح للحيال قدسهاها أفلاطون بالمعاني ، وتعرف عند العرب بالمثل الأفلاطونية ، وهو جمع مثال وباليونانية (بواديكا) قد استعملها أفلاطون أيضا . قال الشهرستاني في صفحة ٢٨٣ بحكي عنه ، أي عن أفلاطون انه أثبت لكل موجود مشخص في العالم الحسي مثالا موجودا مشخصا في العالم العقلي ، يسمى ذلك المثل الأفلاطونية . انتهى

قال أفلاطون : ما من شيء في هذا العالم إلا وله في العالم العقلي معنى يقابله هو عماد وجوده ومنبع حياته وأصل حركته ، وموضوع علمنا به ، فالإنسان مثلا والحيوان من كل ما ثبت نوعه ، واستقر وجوده له بخلاف الأمور الطارئة له في العالم العلوي مثال بسيط مجرد عن القشور العادية والظواهر الحسية مفارق للمادّة قائم بنفسه ، فهما حينئذ عالمان متقابلان متطابقان : عالم الحس والشهادة ، وعالم العقل واليقين . فعالم الحس فيه من النوات المفردة الناقصة المتغيرة ما يقابله في عالم العقل من كليات المعاني الكاملة الثابتة وهي التي بها يصح تثبيت معرفتنا بالوجود ، وهذه القاعدة الأفلاطونية مما ينبغي فهمها لمن أراد فهم أقرال حكماء الاسلام ، قد أشار إلى ذلك ابن سينا في بعض رسائله حيث قال : « فالحيوان الواحد لا يحصل واحدا وقد تقدمه معنى الوحدة التي بها صار واحدا ولولاه لم يصح وجوده ، فاذن هو الأشرف الأبسط الأول ، وهذه صورة العقل » اه
قال الامام الرازي في « مفاتيح الغيب » في المجلد الرابع صفحة ٧٣٧ مانصه : « مذهب حكماء الاسلام أن الموجودات الغائبة عن الحواس علل ، أو كالعلل للموجودات المحسوسات ، وعندهم أن العلم بالعلّة علة للعلم بالمعلول ، فوجب كون العلم بالغيب سابقا على العلم بالشهادة ، فهذا السبب أينما جاء هذا الكلام في القرآن كان الغيب مقدّما على الشهادة ، فهذا كما علمتم هو مذهب أفلاطون بعينه ، فاذا قيل : علمنا ماهو الموجود؟ وما هو اليقين؟ وما هي المعاني؟ فما الطريق إليه؟ قال أفلاطون : « إن المعاني تنكشف للبصيرة دون مشاركة الحس ، فاذا تجرّدت النفس عن العلائق الطبيعية ، وانحازت إلى جوهرها صفا بصرها فأدركت تلك الجواهر وذلك لأن النفس كانت في العالم العقلي بصفة معان قائمة وجواهر مجردة عن المادّة فأهبطت إلى هذا العالم حتى تدرك الجزئيات ، وتستفيد ما ليس لها من ذاتها بواسطة القوى الحسية . قال : وقد كنا أدركنا حينئذ المعاني العقلية في أول الفطرة قبل الهبوط الى هذا العالم السفلي ، فاذا شرعت في التعلم فكأنها أفاق من نومها وفتحت بصرها ، وتذكرت ما رآته في حياتها السابقة ، فاذا واطبت على ذلك ولم تكسل حصل العلم شيئا فشيئا وما هو في نفس الأمر إلا رجوع النفس إلى جوهرها واتصالها بعالمها الذي منه هبطت واليه تعود ، ومنه قول أفلاطون في تعريف العلم انه اتصال جوهرنا العاقل بالجواهر المعقولة التي في الوجود . وقال أفلاطون في المقالة الخامسة من كتاب النواميس : « إن محب الحكمة دائم النزوع إلى الوجود ، معرض عن الأفراد والظواهر ساعيا في البحث عن الماهيات العقلية ، لكي يتصل بجوهره العقلي بما في الأشياء من الجواهر المعقولة

فيتحد بها لما بينهما من المناكحة والمجانسة فتولد من اتصالها المعرفة واليقين ، فما العلم في نفس الأمر إلا تذكر النفس حالها السابقة التي كانت عليها قبل الوجود البشري ، وما قد تشاهده في تلك الحياة السابقة ، فهو أشبه شيء بالولادة ، والنفس أشبه ما يكون بالمرأة الحبلية ، تلتقي حملها وتبرز ما كان في قواها كامنا ، وفي جوهرها باطنا .

ومن ذلك أخذ الامام الغزالي في أصل النفس قوله في الرسالة اللدنية صفحة ٢٤٠ : « العلم مركوزة في أصل النفس بالقوة كاليد في الأرض ، والجوهر في قعر البحر ، أوفى قلب المعدن ، والتعلم هو طلب خروج ذلك الشيء من القوة إلى الفعل » .

ثم قال في صفحة ٣٤٠ مانصه : « وليس التعلم إلا الرجوع النفس إلى جوهرها وإخراج ما في ضميرها إلى الفعل » اهـ

وقد رأينا علما يمرض بمرض خاص كالرأس والصدر تعرض نفسه عن جميع العلوم ، وينسى معلوماته ، وتلبس عليه ، فإذا صحّ وعاد الشفاء إليه بزول النسيان عنه ، وترجع النفس إلى معلوماتها ، فتذكر ما قد نسيته في أيام المرض العارض ، فعلما أن العلوم ما نسيته وإنما نسيته ، فاشتغال النفس بالتعلم هو إزالة المرض العارض عن جوهر النفس لتعود إلى ما علمت في أول الفطرة . انتهى كلامه .

فهذه وأمثالها مما يوجد في كتاب الاحياء للغزالي ، وفي التفسير للامام الرازي ، وفي مصنفات محيي الدين ابن العربي وغيره من المتصوفين بقطع النظر عن فلاسفة الاسلام هي أفكار أفلاطونية محضة ، وتجدها مبسوطه في المحاورات الأفلاطونية ، لاسيما في المحاوره المترجمة (بنيانينوس) وفي الفيديون : « قال الاستاذ سفلانه للطلبة : كان بودي أن نطالع شيئا منها لوساعد الوقت » ثم قال في محاضرة أخرى ناقلا عن أفلاطون « قد يصعب في عالمنا الحسيّ العروج إلى المعاني على صفاتها الأصليّة وهي في الأشياء الحسية كالخيال في الماء السكر ، فمن أراد أن يدرك المعاني فعليه أن يجرد الأشياء عن قشورها المادية وظواهرها المتغيرة حتى يصير شيئا فثبتا إلى ما في أصلها إلى الجوهر الثابت المعقول ، فقد جاز بذلك على حقيقة الشيء وجوهره المطابق لصفاء الموجود في العالم العقلي ، وهذا كما علمتم مذهب سقراط اقتبسه عنه أفلاطون وجعله أساسا للطبقات ، قال : فإذا عرج من المحسوسات إلى المعاني ، وروض فكره فيها كشف من المعاني علما غريب البهاء والكمال اندرجت فيه المعاني بعضها تحت بعض كما يندرج في عقولنا ما هو أخصّ فيها هو أعمّ ، فيصعد من الصورة العامة إلى ما هو أعمّ منها وجودا وأرفع شأنًا وكالا إلى أن تتحد جميع تلك المعاني في ذات الاله قدّس وتعالى (أقول : هذه عبارة الاستاذ سفلانه التي نقلها عن أفلاطون وهي موهمة لا تجوز في عرف الديانات) وهو ما سماه أفلاطون بالخبر المحض ، وبالكمال المطلق ، وبالوجود المطلق ، وبمعنى المعاني أيضا ، فالمعاني كأنها أفكاره ، (أقول : وهذه العبارة لا تجوز عند أهل الديانات) وصفاته ومجموعها حكمته التي أوجد بها العالم ودره وأخرجه من الظلام والاختلاط إلى النور والنظام والترتيب ، وقد اتضح بذلك أن العالم في قبضة الخبر المحض وأنه مامن شيء إلا وله مصلحة هي المقصودة من وجوده ، وهذا هو الركن المهم في الطبيعيات عن أفلاطون ، ولا يمكن لنا أن نخوض فيها الآن ، ثم قال : وبه تعلق أيضا ما قاله في الأخلاق . قال أفلاطون : فمن أدرك تلك المعاني وتحقق ما هي عليه من الكمال والجمال استصغر دنياه وما فيها ، واستحقق ما شفقت به نفوس العاقبة من حب الحياة وجمع المال ، والتوسع في المكاسب ، والانهماك في اللذات الحيوانية ، وتشوق هو إلى الرجوع إلى وطنه ومنشئه ، ليس الانسان كما ذكرنا إلا روحا أي معنى من المعاني قد تعلقت نفسه بيدن هو لها كالسجن المظلم فإذا أفاقت بتأثير العلم لم يكن حرصها واجتهادها إلا على التخلص من هذا الرباط والخروج إلى عالمها الروحاني فلم يبق إلا تنقية نفسه ، وتزكية ضميره ، وصقل قلبه من الرعونات ، لكي يكون مستعدا للاتصال بتلك

الجواهر الصافية . قال : هذا شأن كل من كانت نفسه على الفطرة أو قرينة منها لتزايد العلم فيها ، وما ازداد الانسان علما إلا وقد ازداد إلى تلك المعاني قر باورغبة ، وعن الظواهر الفانية إعراضا ونفورا ، فإذا كملت حكمة الرجل ونمّ عروجه من معنى إلى معنى كان آخر أمره الاتصال بالعالم الروحاني ، وفيه تمام الحكمة ، وكال السعادة الأبدية التي ليس بعدها سعادة ولا حكمة إلا ما اختص به الاله تعالى دون غيره لا يشاركه فيه أحد ، ويلزم من ذلك أن المعرفة ومكارم الأخلاق لا يفترقان ، وهذه من الاصول المهمة عند أفلاطون ، عليه تأسس مذهب في الأخلاق . قال : ان العقل لا يختار ما هو أضر وأدنى وهو يعلم أن هناك ما هو أرفع وأصلح ، فإذا وقع ذلك منه لا يكون إلا للجهل بما هو أصلح ، أو عدم رسوخ العلم ، أو ضعف اليقين ، فكل من ارتكب الذنب والظلم والنشر ، ومن انهمك في اللذات الحيوانية ، ومن أفرغ عمره في طلب الدنيا لا يطلق عليه اسم مذهب ولا يجرم إذ لا ذنب باختيار وعلم ، والحق أنه لا يعلم إذ اختار ما هو أخص رتبة ، وأقل بقاء ، وأضر عاقبة ، وترك ما هو أعم نفعا ، وأثبت بقاء ، فهو إذن بالرجة والعذر والتعليم أحق منه بالعقوبة .

ثم قال الاستاذ سنتلناه للطلبة : عرفتم تتابع المذاهب ، وكيف كانت مذاهب الأولين الطبيعية ولا عماد لهم إلا الحسن ، حتى لم يكن للعقول عندهم رسم ولا ذكر ، فانقلب بعد سقراط وأفلاطون الأمر بالكلية ، فصارت الطبيعة تبعاً والعقل متبوعاً ، والطبيعة الموجودة آثاراً والعقل مؤثراً ، ولم يبق للهيمولي فعل ولا وظيفة في العالم إلا من حيث القابلية والانفعال ، وانحصر الموجود والتأثير في العالم في العقل والنفس الانساني وهو من ذلك العالم ، وترقى العقل الانساني الى الاعتراف بوجود الاله وتدييره للعالم وأنه خير محض ، فمن تبصر في هذا الفرق العظيم ، وتصفح الرسائل الأفلاطونية ، وعلم ما بها من متانة الحكمة ، ودقة الأفكار ، وجزالة اللفظ لم يسعه أن ينكر ما لهذه الفلسفة من علو المقام الذي اجتمعت عليه الأوائل والأواخر ، فمن تأمل التاريخ رأى الفلسفة الأفلاطونية سارية في أفكار الأمم منذ نشأتها سرعان الدم في بدن الانسان ، منها أخذ أرسطاطاليس ، ثم الاسكندر يون ، نصيبا وافرا من أصولهم ، ومنها أخذ الاطليون من النصارى أمهات أقوالهم في النفس الانسانية وبقائها بعد الموت حتى امتزجت باعتقادهم امتزاج العرق باللحم ، ومنها أخذ جم غفير من المعتزلة كثرامة وأبي هاشم وغيرهما من حكماء الاسلام أقوالهم ، ومنها اقتبس فلاسفة القرون المتوسطة من النصارى واليهود كما أخذ منها البعض من فلاسفة ألمانيا في القرن السابق ، ولا زالوا منها يقتدون . فمثل هذه الفلسفة التي علا صيتها بين الأمم ، وأثرت في أفكارها مما يستدعي من كل طالب الحكمة طول التأمل ومزيد العناية . انتهى ما قاله الاستاذ سنتلناه بالحرف .

وانما نقلت هذا الكلام برمته لأني وجدته أشبه بمجزئة لنبينا محمد ﷺ فهذا القول آخر ما وصل اليه العقل الانساني ولم يزد عليه أحد كما سأز بده ايضاحا بعد ، وهو آخر سلسلة علوم الأوائل ونهايتها ، ومع ذلك جاء بما هو أعلى منه القرآن ، فهذا عجب أن تحجب نهاية الحكمة على لسان من لم يقرأ حرفا واحدا ، ولم يتعلم ، وهو أمر عجيب وغريب !

فقال بعض الطلبة لي : ما إجمال ماضى من آراء الفلاسفة ؟ قلت : ان الغاية المطلوبة من الفلسفة هو العلم اليقيني ، ولا يقين فيما يطرأ عليه التغير ولا ثبوت له ، فهو الى العدم أقرب منه الى الوجود ، وهذه حال الطبيعة ، فاذن لا تخلو الحال من أحد أمرين : إما أن لا يتمكن الانسان من العلم ، وهذا رأى السوفسطائية وكل من أنكر الحقائق ، وإما أن يكون وراء الطبيعة ما لا ندركه حواسنا من الجواهر الثابتة التي لا يتطرق اليها التغير وتكون موضع العلم اليقيني ، وهذا ما جعل أفلاطون على اثبات ماسماه بالمعاني وهي جواهر مجردة عن المادة مفارقة للطبيعة الحسية تفيدنا العلم اذا تعلق بها عقلا . فقال : فلذا جرى بعد ذلك ؟ قلت :

آراء أرسطاطاليس

هناك قال أرسطاطاليس تلميذه : أنا لا أنزع في أن موضوع الفلسفة هو الوجود ، ولا أنزع في أن المحسوسات الطبيعية ليست من الوجود في شيء فلا يمكن اتخاذها أساسا لمعرفة ، ولا أنزع في أن العلم لا يتعلق إلا بالكليات لا بالظاهر والأفراد ، كل ذلك سلمناه ، ولكن أنزع في قول أستاذه : « إن الكليات التي تعلق بها العلم إنما هي جواهر قائمة بنفسها مفارقة للمادة ، فكيف تكون الكليات قائمة بنفسها مفارقة للمادة ، وهي في الوقت نفسه مؤثرة فيها ، فهنا لا تخلو الحال من أحد أمرين : إما أنها مفارقة لا اتصال لها بالأفراد كالإنسانية القائمة لا اتصال لها بزيد وعمرو ، فكيف إذن أثرت في الأفراد الوجود وهي مفارقة لهم وأما أنها مقارنة والمقارن المتحرك المتغير متغير ، فأين الثبات والديموم الذي امتازت به تلك الكليات ثم أين المفارقة ؟ إذن كلام أفلاطون عندي مشكل ، فانه أثبت مفارقة الكليات لأفراد الموجود منها وأثبت تأثيرها فيها ، إذن المقارن مقارن ان التأثير بغير المقارن غير ممكن (يقول مؤلف هذه الرسالة : هذا القول في عصرنا منقوض فتأثير المقارن حاصل الآن على بعد) ثم كيف يكون جوهر الشيء مفارقا لما هو جوهره ، وكيف ينطبق الجوهر الواحد على زيد وعمرو الخ ، ثم ان مازعمه أفلاطون من أنه منطبع في الأفراد انطباع الصورة في المرآة كلام تشبيهي تمثيلي والمثال غير الحقيقة ، إذن هو أثبت علمين : عالم العقل ، وعالم الحس ، ولم يبين وجه الاتصال بينهما . فقال أحد الطلبة لى : فإذا فعل أرسطاطاليس إذن ؟ قلت قال ان أساس العلم شيء نراه بأبصارنا ، ونحس بحواسنا ، وهو الصورة ، ذلك أن العالم الذي نراه هو عبارة عن مادة ، ولكن هذه المادة إنما هي أمر عدمي (وبعبارة أخرى) هي مجرد استعداد أو إمكان ، وهذا الاستعداد أو الإمكان أو العدمي تعين لنا وظهر لنا بالصورة ، فاننا نفرق بين صورة الكرسي والشباك والباب والسقف وجميعها من الخشب ، فالخشب المشترك بين هذه الأربعة نسميه مادة لها ، والأشكال التي رأيناها من المقادير طولا وعرضا وعمقا ولونا وما أشبهها نسميه صورة ، فهذا التمثيل جعلناه تفهيم للمادة العامة ، والصورة العامة ، والمادة أو الهولي العامة لا وجود لها إلا بالصورة وهي في نفسها إمكان محض ، فاننا قطما رأينا مادة إلا وهي متميزة بصورة ، أما المادة وحدها فلم نجدها ، فاننا نرى كوكبا وشمسا وقرا وحيوانا وأرضا ، ولم نرهولي بغير صورة ، فالصورة هي التي تعلق بها العلم وهي موجودة نشاهدها ، أما الكليات والجواهر العقلية فوجودها ذهني لا خارجي ، فكيف يتعلق بها العلم ؟ فالعلم إذن يتعلق بالصورة فينزع العقل الكليات من تلك الصور ، فيرى أفرادا في الوجود ككفرس وإنسان وحصان فيقول حيوان ، ويرى حيوانا وإنسانا ونباتا فيقول نام ، وهكذا ، فهذا هو موضوع العلم منه انتزع العقل الكليات ، لا أن الكليات هي أصل العلم ، بل هي فرع عن الأفراد الخارجة المحسوسة فهي الثابتة .

فقال بعض الطلبة : فما تفرع على هذين المذهبين ؟ قلت : تفرع عليهما في الاسلام الخلاف بين الأشاعرة والمعتزلة كما يقوله الاستاذ ستلانه ، فاذا سمعت الأشاعرة يقولون : « إن وجود الشيء عين ماهيته » فهذا هو عين قول أرسطاطاليس ، واذا سمعت المعتزلة وفلاسفة الاسلام يقولون : « ان الوجود غير الماهية » وأثبتوا اسم الوجود لما يتصور في العقل ولما يمكن وجوده وهو نفسه معدوم . قال الاستاذ ستلانه : وما هذا إلا رجوع إلى مذهب أفلاطون .

ثم قال أرسطاطاليس : « إن المادة والصورة لا يميز بينهما إلا باعتبار العقل ، وفي الحقيقة لا ينفك أحدهما عن الآخر ، فللمادة توجد بدون صورة ، ولا للصورة خالية عن المادة » انتهى

وقال أرسطاطاليس أيضا : « فهنا أمران : مادة وصورة ، ولما كانت المادة تخلع صورة وتلبس أخرى كان هناك أمر ثالث لا بد منه ملازم لها وهو ما نسميه :

الحركة

فالمادة أبدا منتقلة من صورة إلى صورة ، وهذا الانتقال نسميه حركة من مكان إلى مكان ، أو من جوهر إلى جوهر آخر ، أو من كمية إلى كمية ، هذا قوله ، ومعناه أن الغذاء إذا صار في الحيوان جسم سبع مثلا ، والطفل إذا نما سنة فسنة ، والإنسان إذا سار من مكان إلى مكان . فهذه كلها نسميها حركات فالأولى حركات جوهر إلى جوهر ، والثانية نسميها حركات في الكمية ، والثالثة نسميها حركات في المكان . قال :

الطبيعة

هي مجموع الثلاثة : المادة ، والصورة ، والحركة . قال أرسطاطاليس : إن المادة دائمة النزوع والتشوق إلى الوجود لانزال تشتاق إلى الاتصال بالصورة حتى تستكمل بها ذاتها ، فإذا بلغت من الصورة درجة ما فلا زالت تشتاق إلى ما فوقها ، فهي أولا مادة كادت أن تكون عارية من الصورة خالية من الأوصاف والتعيينات الفعلية ، ثم ترتقي فتصير معدنا ، ثم ترتقي فتصير شيئا متوسطا بين المعدن والنبات ، ثم تصير نباتا فتلتحق بها النفس النباتية ، وآخر درجة منها شيء متوسط بين النبات والحيوان ، ثم تصير حيوانا فتلتحق به النفس الحيوانية ، وآخر درجة منها شيء متوسط بين طبيعة الحيوان وطبيعة البشر ، ثم يصير إنسانا فتلتحق بمادته القوة العقلية وهي نور إلهي يأتيه من خارج مما فوق الإنسان من الجواهر المفارقة والنفس المجردة ، فهي كالسلسلة ارتبطت كل حلقة بالأخرى ، وكالدراج نابع بعضها بعنا إلى أعلى المنزل . ثم قال : ومن تبصر في هذا الارتقاء العجيب تحقق أنه مامن خطوة تخطوها الطبيعة إلا وقد خلعت شيئا من أوصافها العادية وقشورها الدنية ، وازدادت صفاء ونورا واتحادا وبسطا إلى أن نسل إلى صفات العقل ، فهو ارتقاء من القوة المحضة إلى العقل المحض ، ومن المادة المجردة إلى العقل الصرف ، والكل متوجه لا محالة إلى الخير المحض ، وهو الغاية المقصودة من الطبيعة .

وقال أرسطاطاليس أيضا : « إن العالم مثل المنزل الواحد ، فيه أبواب وأحرار وعبيد وبهائم ، جمعهم صاحب المنزل في محل واحد ، ورتب لكل منهم وظيفة خاصة وخطة معلومة لا يتجاوزها حتى يحصل بتعاونهم مصلحة الجميع ، أو هو كالجيش الواحد اجتمع تحت اذن أميره اختلفت فيه المراتب والخطط ، واتحد الكل بكلمة الأمير . قال : وبدون هذا الأمير لا يستقيم وجود الجيش ولا تنظيم حركته . قال : فأرأيته في العالم من تناسب الحركات واتحادها يلجئنا إلى الاعتراف بوجود هذا الأمير ، وهو الإله ، وهو مبدأ الحركات ، وهو غير متحرك » .

فهذه آراء أرسطاطاليس ، وما تقدم قبله من آراء سبقته ، هي آخر ما وصل إليه العقل الإنساني إلى عصرنا الحاضر ، وليس هناك فلسفة غير ما تقدمت ، فكل ما نسمعه في بلادنا المصرية وبلاد الشرق وبلاد أوروبا في عصرنا لا يخرج عما سمعته الآن .

فقال أحد الطلبة : هذه رسالة فلسفية ، والفلسفة لا تعتمد إلا على دليل ، فما دليلك على أن العالم كله شرقا وغربا لم يخرج عن الآراء المتقدمة من أيام تاليس إلى أيام أرسطاطاليس ؟ نقلت له : قال الأستاذ سفلانه الطلياني : « انك إذا أردت أن تفهم الفلسفة حق الفهم فلا بد لك من معرفة آراء الأقدمين ، إذ الفلسفة وسائر العلوم كلهم يكون طفلا ثم يشب ثم يصير كهلا وهو شخص واحد ، وكالسلسلة كل حلقة منها

ارتبطت بالأخرى حتى لا يمكن حلها من غير أن يفسد الجميع ، فمن لم يقف على أقوال القدماء حتى الوقوف لا يمكن من استنباط آراء المعاصرين ، ولامن سبب اتخاذهم رأيا دون رأي ، ولا ما آلت إليه الفلسفة في حالها الراهنة .

قال (باكون) الفيلسوف الانجليزي : « إن التاريخ للعلوم كالبصر لجسد الانسان ، به يبصر ما تقدم وما بين يديه ، لكي يعلم الناحية التي يبنى له أن يقصدها » انتهى كلامه .

ثم انه لا يخفى أن المسائل الفلسفية لا تتغير بتغير الزمان ، وهي الآن على ما كانت عليه في القرون الماضية من البحث عن ماهية الوجود ، ووجود الاله ، وجوهر النفس ، وكيفية اتصالها بالبدن ، وادراكها بالحواس ، وما هي حق المعرفة والميزان الذي به يقاس حقيقتها . فهذه المسائل وأمثالها التي اشتملت عليها الفلسفة لم تختلف باختلاف الأجيال ، أنظن أنا محسن الجواب أكثر مما كان يحسنه أفلاطون وأرسطو ، لا والله أنا لو قدرنا على ذلك لقدرنا على الانصاف بصفات الالهية ، وشتان ما بين البعوضة والفيل ، فلوراجعت هر بارت سبنر مثلا لوحدته يعترف في كتابه المرسوم بالاصول الأولية بأن الأوليات في الفلسفة مما لا طاقة للبشر عليها وأن لاسبقية لنا على الأقدمين إلا في المسائل الجزئية ، والمباحث الفرعية ، دون ما بهما حلها من اشكالات الاصول ، فالمسائل باقية والجواب يختلف ، وكل جيل أخذ سبب من تقدمه بخطوات خطوات وبؤخر أخرى وبيننا وبين الغلبة المقصودة بون بعيد يكاد لا يتصوره عقل البشر فضلا عن أن يتخطاه ، ذلك سر الله لا يحيط به إلا هو .

ثم قال الاستاذ (سنلانه) : « فلا يفرحك أيها الحبيب شقشقة المتفلسفين ، وأنست إلى الفلاسفة تجدد كلا منهم متبعا رأيا من آراء من تقدم ، يوافقه تارة ويخالفه أخرى إلى أن ينتهي النسق إلى فلاسفة اليونان ، ولهم حق السبق وفضيلة التمهيد .

فقال بعض الطلبة : حقا يقال : « إن كنت ناقلا فالصحة ، أو مدمعا فالدليل » وهأنت ذاصح نقلت فلاسبيل إلى المعارضة ، ولكني هنا أريد أن أعرف تفصيل ما أجله من نقلت عنهما فانهما يقولان ان الآراء كلها في عصرنا ترجع الى علماء اليونان (وبعبارة أخرى) ان السلسلة المتقدمة التي ذكرتها لا بعدوها مذهب من المذاهب في الشرق والغرب الآن ، فأرجو أن تذكر لنا أمثلة على ذلك حتى يصح لدينا أن الآراء لا تعدو تلك السلسلة الفلسفية المبتدئة بتالس المنتهية بأرسطاطاليس .

فقلت : مثال ذلك أنه ظهر في أواخر القرن السابع عشر في إنجلترا الفيلسوف الانجليزي (جون لوك) وكان يقول : « إن المعرفة سببها الاختباو والبحث ، ولا سبيل الى البحث بغير الحواس ، والحواس توصل مافي المادة من المعاني الى النفس ، فالمادة أصل والامور العقلية فرع ، فههنا ثلاثة أشياء : مادة ، وعقل ، وحواس . فالحواس خدام ينقلون صور المادة الى نفوسنا ، فالمادة هي الأصل والمحور ، والحواس خدامها ، وللأداة الأثر الفعال ، والفلسفة ترجع الى المادة لاغير ، أليس هذا الرأي يرجع الى آراء الفلاسفة الأتوين اليونانيين الذين قالوا : « إن العالم يرجع الى المادة من هواء أو ماء أو جزء لا يتجزأ » . فقال نعم هـ احق فقلت : ثم جاء بعده :

باركلي

فقال : إن قول (لوك) ثبت من نفسه أن المادة ليس لها وجود مستقل ، وانما هي موجودة ، لأن حواسنا تشعر بها ، فإذا لم تكن الحواس لم تكن المادة ، فكان هذا المذهب راجعا الى مذهب أفلاطون تقريبا ، لأنه جعل المادة تابعة للحواس ، ومعلوم أن الحواس تابعة للنفس . وأفلاطون يقول : لا وجود إلا بالامور العقلية ، ولا علم يتعلق إلا بها . ثم جاء :

هيوم

وألف رسالة عنوانها « الطبيعة البشرية » جرى فيها (باركلي) في نفي وجود المادّة المستقل ، ثم أثبت بنفس هذه الطريقة أن العقل ليس له وجود مستقل ، ولاجرم أن هذا ينحونحوالسوفسطائية الذين لا يثبتون علما . ثم جاء :

الأستاذ كانت الألماني

وألف كتابه « تحليل العقل المجرد » ووضع فلسفته الكالية ، وأثبت أن المدار على العقل ، وأنه أصل المعارف والعلوم ، فجعل للعقل وللنفس الشأن الأول في هذه الحياة ، وأخذت ألمانيا كلها تهتم بما وراء الطبيعة وتبعه أمثال (شالر) ، و (غوته) ، و (هغل) عنه (بنهوفن) قوله : « إن عييتي في الحياة هما القبة الزرقاء ترصعها الكواكب » و « التاموس الأدبي في نفس الانسان » ، وتبعه (شلنغ) و (هيجل) و (شوبنهاور) وكان كتابه « تحليل العقل المجرد » كان تمهيدا لآراء شوبنهاور ونيشيه وبرغش ووليم جيس ، ولا يزال نظامه الفلسفي قائما ، لأن العلم الحديث في اشخاص ييرسون وبوانكاري أثبت أن الحقيقة والمادّة والطبيعة ونواميسها كلها مما يستنبطه العقل ولا وجود لها إلا بوجوده ، فكان أكلي النصر عقد لكانت وفلسفته ففازا على المادّة والاحاد اه

فقال بعض الطلبة : ولأى المذاهب يرجع هذا ؟ فقلت : هو أقرب إلى قول أفلاطون وقد تقدم قريبا فقال آخرون الطلبة : زيد جدولا بين ماتتكم كله . فقلت : هذا جدول يعرف مذاهب الفلاسفة ومراتبهم في العلم قديما وحديثا بحيث يرد كل مذهب إليه ، وقد تقدمت بعضه ولكننا نذكر ماتتكم وما يبنى عليه ، وهذا فانه

(١) هؤلاء هم الطبيعيون ، هم يشبهون الجنين ، والود في الطين ، أوفى بطن الحيوان ، أو حاسة اللس .

(٢) هؤلاء دهريون ، هم يشبهون الطفل وحيوانا له حاستان

(٣) هم سوفسطائية ، يشبهون الشاب ، وحيوانا ذا ثلاث حواس .

(٤) هؤلاء يشبهون البالغ وحيوانا ذا أربعة حواس وهو الخلد (بالفتح) في الظلمة

(٥) هؤلاء يشبهون الفتى ، وحيوانا ذا خمس حواس كالأنعام .

(٦) هؤلاء إلهيون ، يشبهون الشيخ الكامل وملكا من ملائكة السماء .

(١) تاليس الماطلي : عنده أصل العالم الماء
انكسيمايس : عنده أصل العالم الهواء
انكسيمندر : عنده أصل العالم مادة
لا صورة لها .

(٢) ديموقراطيس . أنباذوقلس : أصل العالم عندهم الجزء الذي لا يتجزأ وهو دائم أبدا

(٣) بروتاغورس . غورغاروس . يرون شيعتهم عندية . عنادية . لأدرية

(٤) وبعدهم فيثاغورس يقول : الأصل العدد ، وأنباذوقلس يقول : الأصل المحبة والكراهة .

(٥) أنكساغورث يقول : أصل العالم عقل نظمه .

(٦) سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطاطاليس

(١) جون لوك : مادي يشبه تاليس الماطلي وهو انجليزي .

(٢) داورين يتبع الدهريين ، والملاحدون في مصر وفي الشرق أشبهوا مذهب الدهريين

(٣) هيوم يشبه سوفسطائية ، وكذلك بعض المتعلمين في أوروبا ومصر وبلاد الشرق الذين يشكون ولم يفتوا على الحقائق لوقوفهم على الظواهر وجهلهم بالفلسفة .

(٦) باركلي ، وكانت الألماني يشبهان أفلاطون ، وكذلك : سبسر ، وجون لوك ، وأوليفر لودج .

ومن العجب أن علماء الشرق والغرب يرجعون في هذا المقام الى نقطة واحدة هي مركز الاتصال ، فلقد قرأت في كتاب « راجايوتا » الذي ألقاه في سنة ١٨٩٥ سنة ١٨٩٦ بهيئة محاضرات الاستاذ (سوامي فيشكندا) بعنوان « الفلسفة اليوجية » في مدينة نيويورك بالولايات المتحدة ، وهو ترجمه عن الهندية ، يقول بالانجليزية التي ترجمتها هنا الى العربية ما يأتي :

« إن المذاهب ثلاثة : وهي مذهب السنخ ، ومذهب اليوجي ، ومذهب الفيدا . أما مذهب السنخ فانه لا يفكر في إله خالق للعالم ، وأما مذهب اليوجي فانه يقول : « إن العالم له إله ولكنه مختص بالعلم فقط ، وأما العمل فليس له » . وأما مذهب الفيدا فانه يقول : كلا . إن هذه العوالم منظمة موسيقية وهذا النظام الجليل شاهد عدل على إله نظمه بعلمه وأحكمه بقدرته ، إن هذا العالم المشاهد من كواكب وشموس وعناصر ونبات وحيوان الخ لا يمكن أن تصدر إلا عن ارادة ، أما المذهبان السابقان فهما لا يزالان بخالق للعالم ، ومعنى هذا أن اليوجيين لا يريدون أن يثيروا مسألة خلق العالم بل هم يتجنبونها ، يقول : ولكنهم عرفوا الله بطريقة أخرى غريبة ، وهما هي ذه : « قالوا إن علمنا قاصر على مالانهاية له ولاجرم أن العالم فيه ماله نهاية زمانا ومكانا وما لانهاية له فيها ، وقد وجدت على الأرض عقولنا فعرفت ماله نهاية وما لانهاية له ، فعقولنا لا تعرفه ، وإذا ظهر في الوجود أن ماله نهاية عرفته عقولنا ، فلاجرم أن هناك عقولنا لا تعرف مالانهاية له وهو الله » وقالوا أيضا : « هو معلم المعلمين علم الأولين والآخريين ، والا فمن أين جاء لهذه العقول علمها ، ويستحيل على المادة أن تحدث علما ، إن علمنا ثابتة في نفوسنا ولكنها صادرة عن علم معلم آخر ، فوظيفة الاله عندهم علم ملاحظه ، وتعليم جميع الناس علومهم ، لأن المادة عمياء جاهلة ، والجاهل لا يعطى علما » انتهى

هذا ما ترجمته لك من هذا الكتاب ، وفي الكتاب طول فاقصرت لك على المفيد ، وهنا أقول لك : اللهم اني لبي عجب ! إن عقول الشرقيين وعقول الغربيين رجعت الى رأى واحد ، فاذا رأيت تاليس ومن بعده من الدهريين والطبيين لاجود عندهم إلا للمادة ، ورأيت فيثاغورس لا يقول إلا بالعدد ، فهؤلاء في مقابلة علماء السنخ في الهند الذين لا يفكرون في خالق العالم ، واذا رأينا أنكساغورس يقول : « إن للعالم إله ، ولكنه لا يعمل فيه شيئا » فهو نظير مذهب اليوجي ، واذا رأينا سقراط يقول : « الله يعلم العالم ويدبره » فهذا بعينه هو مذهب الفيدا ، وهو الكتاب المقدس عند الهنود ، واذا رأينا كتاب الفيدا قد استدلت بالنظام الموسيقي في المادة فهو نفس الدليل الذي قاله سقراط سواء بسواء ، وقد شرحه سقراط فيما تقدم لك شرحا وافيا فهنا اتحد الماديون في أوروبا ، والروحانيون في الشرق ، وغاية الأمر أن العقول تنتقل من طور إلى طور حتى تصل الى الحقيقة ، واذا رأينا أفلاطون يقول : « ان هناك مثلا أخذنا العلم عنها » فهذه مذهب اليوجيين في الهند يقول هذا القول بنصه وقصه ، فيقول : « ان علمنا لا يكون من المادة بل هو من الله » وكيف يأخذ العقل عن الحجر ، ولقد سمعتم الاستاذ ستلانه التلياني فيما نقلته لكم في هذه الرسالة يقول : « إن فلسفة أفلاطون هي التي سرت في جميع الأمم ، فالنصارى والمسلمون وأمم أخرى قد سرت فيهم سر بيان الروح في الجسد ، وأن ألمانيا اليوم متأثرة بها عن عالمها الاستاذ « كانت » انتهى .

إذن العالم الانساني كله سار من طرق مختلفة في عصرنا هذا نفسه إلى نقطة واحدة ، فاليونان اتبها إلى العقول والله فوقها ، وأهل أوروبا بشهادة ستلانه وسبنسر ، وكانت الأمانى رجعت إلى هذه النقطة بنفسها . إذن كل أولئك الذين جهلوا هذه الحقيقة لا يزالون في الطريق حتى يصلوا ، فالمسألة مسألة الزمن لا غير وبهذه الرسالة قد وقفنا على حقائق ثابتة مؤيدة بالعلم والدليل والحكمة .

أيهما الأصل العدم أم الوجود ؟

بل من العجيب أن نفس هذه الآراء شرقاً وغرباً، ونهاية الفلسفة في الأمم الشرقية والغربية قد بما وحدتها توضح لنا ما قلناه سابقاً وهو: هل الأصل هو العدم ؟ أو هو الوجود ؟ فنقول تأييداً لما سبق: إذا رجع الروحيون في الهند إلى قوة فوق القوى تمدهم بالعلم عند اليوجي، وتنظم العالم أيضاً في النيدا، وإذا رجع أفلاطون إلى المثل الأفلاطونية، فذلك كله لا أول له، ولا جرم أن هذا وجود لا عدم، إذن الوجود أصل، بل إن نفس الدهريين مثل (ديموقراطيس) يقولون: «إن المادة لا أول لها» فالوجود أصل عندهم. فهذه الأمم في أثناء بحثها أثبتت أن الأصل هو الوجود، فإن كانوا في طريق البحث كالدهريين والطبيعيين قالوا هو المادة، وإن انتهوا فيه قالوا هو العقل، أو هو الله، إذن الأصل هو الوجود كما قدمناه، والعدم يحتاج إلى دليل (راجع ما تقدم في هذه الرسالة).

تذكرة في أمر الديانات والفلسفة

إذن ظهر أن سرّ الفلسفة عند أمم الشرق والغرب يرمن لها بنظرات الخليل، إذ أيقن لما نظر الكوكب فالتقير فالشمس، ثم انتهى إلى الله، فهؤلاء اليونانيون قالوا بالماء وبالطواء الخ ثم بالجزء الذي لا يتجزأ ثم رجعوا إلى ما وراء المادة أيام سقراط وأفلاطون، وهؤلاء أهل الهند من السنخ، والبوجيين، وأتباع النيدا وقفوا عند المادة، ثم قالوا باله يعلم ولا عمل له، ثم باله عالم قادر، إذن قصة الخليل تشبه نظرات الأمم من حيث ترتيبها مبدأ ونهاية، ولما كان الخليل في بلاد العراق كان مبدأ نظره في الكواكب، وأهل أوروبا كان نظره في المادة، وأهل الهند في الأرواح، فكأن بلاد الشرق الأدنى كانت وسطاً بين المادية والروحية، لأن النظر متوجه للنور، وأهل الهند أقرب إلى الروح، وأوروبا نظرت في نفس المادة الجافة، ولكن النهاية واحدة وهو الله. انتهى

هذا، ثم إن المشائين تابعون لأرسطاطاليس وبعدهم الرواقيون الذين يجمعون بين رأي أفلاطون وأرسطاطاليس، ويقولون: «إن في المادة قوة عقلية».

فقال آخر من الطلبة: قد فهمنا هذا الجدول، وقول سينسر: «إن المتأخرين يرجعون في آرائهم إلى أقوال اليونان، وهذه الأمثلة كافية في ذلك، وأدركنا اتفاق علماء الشرق والغرب في أصول العلم. إذن هؤلاء المتعلمون من المصريين والعراقيين والسوريين والترك لم يخرجوا عن هذه الأقوال. قلت نعم بل لا يمكن لأن الآراء التي نقلتها لك عن اليونان لا يخرج عنها قول، فإذا سمعت أن تركيا، أو مصر، أو أفريقيا عنده رأي مادي أو إلحادي، فأعلم أنه يرجع إما إلى قول ديموقراطيس بالجزء الذي لا يتجزأ، ولما إلى قول السوفسطائيين الذين لا يعترفون بحقيقة فيقولون بالعندية أو العنادية أو اللادرية، فتري الرجل منهم يقول: «المعلومات لكل امرئ على حسب ما عنده» وهذا هو الرأي الأغلب عند المدعين العلم من الشرقيين، أو يقول: «لاحقيقة أبدا».

ولقد علمت فيما تقدمت أن الفلسفة كطفل شبّ فصار كهلاً فشيخاً، فأكثر المتعلمين نصف تعليم في الشرق لا يعرفون من الفلسفة إلا المباحث الأولى التي لا تحتاج إلى نصب ولا تعب فما عليه إلا أن يقول: هذه أمور لا قيمة لها، ومعنى هذا أنه لا قيمة لهذه العلوم والمباحث، فهو أشبه بالسوفسطائية كما تقدمت.

فقال طالب آخر: أريد أن أعرف ماذا حصل بعد أرسطاطاليس من المذاهب، وما اسم شيعة أفلاطون وما اسم شيعة أرسطاطاليس ؟ فقلت: أما اسم شيعة أرسطاطاليس فهم المشامون، وأما اسم شيعة أفلاطون

فهم أهل أكاديميا ، وهو اسم بستان بأثينا ، كان فيه اجتماعهم للدرس والتعليم ، وهذا قول سنطانه ، فهو يقول في أسلافنا أنهم أخطأوا في تسمية أصحاب أفلاطون باسم المشائين .

أما الذي حصل بعد أرسطاطاليس فهو أن مارده على أستاذه قابله بنظيره تلاميذه فقالوا له : إن المادة عندك امكان محض ، أو عدم ، فكيف يكون للعدم اشتياق ؟ وكيف نشاق المادة وهي لا وجود لها عندك ؟ إن هذا كلام أشبه بكلام الشعراء خيالي محض ، والفلسفة تطلب الحقائق لا الخيالات ، بل إذا سلمنا أن لها وجودا ضعيفا كان للعالم أصلان : مادة ، وصورة ، ففسر التوفيق بينهما ، والمقصود من الفلسفة حصر الوجود في أصل واحد ، ثم انهم قالوا له إن أفلاطون لم يقدر على إيجاد الصلة بين عالم المثال وعالم المادة ، وأنت اعترفت بالاله وبالمادة ولم تقدر أن تربينا وجه تصرف الاله في المادة بكلام واضح ، وهذه هي شيعة (ثاوفرسطس) و(استراتون) وهم متأخرو المشائين ، فهؤلاء عجزوا عن إتمام المباحث الالهية التي ابتدأها أستاذهم أرسطاطاليس ، وتوغلوا في المباحث الطبيعية ، ففهم من اعتنى بعلم النبات وهو ثاوفرسطس ، ومنهم من اشتغل بالتشريح وبالبحث عن طبيعة المعادن وهو استراتون ، ومنهم من قال : « انه لا بقاء للنفس بعد الموت ، لأنها ناشئة من اعتدال المزاج كما تنشأ الألمان من مناسبة الأوتار ، فإذا انحلت المزاج واضمحلت النفس وهم شيعة أرسطاطاليس وغيره من الشيعة الأرسطاطالية ، وهذا ينطبق على ما قاله الامام الغزالي في « المتخذ من الضلال » إذ قال مافيه بعد ما ذكر الدهريين من الفلاسفة : « الصنف الثاني وهم قوم أكثر مباحثهم عن عالم الطبيعة ، وعن عجائب الحيوان والنبات ، وأكثروا الخوض في علم تشريح أعضاء الحيوان فرأوا فيها من عجائب صنع القدرة الالهية وبدائع حكمة الله ما اضطروا معه الى الاعتراف بقادر حكيم مطلع على غاية الامور ومقاصدها ، ولا يطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء مطالع لإحصل له هذا العلم الضروري لكمال تدير الباني لبنية الحيوان ، لاسيما بنية الانسان ، إلا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة ظهر عندهم لا اعتدال المزاج تأثير عظيم في قوام قوى الحيوان : فظنوا أن القوة العاقلة من الانسان تابعة لمزاجه أيضا وانها تبطل ببطان مزاجه ، ثم اذا انعدم لا يعقل » انتهى . قال الاستاذ سنطانه : فهؤلاء الجماعة هم شيعة (ثاوفرسطس) .

هنالك قال قائل منهم : إذن الفلسفة بعد أرسطاطاليس أخذت ترجع القهقري . قلت نعم ترك القوم علم الالهيات واقتصروا على علم الطبيعة ، ولكنهم لم يرجعوا الى السوفسطائية ، ولا إلى من قبلهم ، بل اعترفوا بالاله وجهلوا البحث فيه ولهم الحق ، وبعضهم أنكروا بقاء النفس ، لكن مذهب أفلاطون جعل للنفس محل الأول ، فقال : ثم ماذا جاء من المذاهب . قلت : مذهب أصحاب الرواق ، وهم منسوبون إلى رواق كانوا يجتمعون فيه بمدينة أثينا ، ويسمون أيضا أهل المظالم ، فهؤلاء يقولون على ما يقول سنطانه : « إن هذه المادة لا تقوم ولا تبقى إلا اذا كانت فيها قوة أطف منها تمسك أجزاءها وتضبطها وترتبط بعضها ببعض ، وهذه القوة نوع قوة عقلية مصدرها ماهو أعلى منها وألطف من النفوس ، ومصدر الجميع القوة الالهية التي سموها بالعقل وهو عندهم الإله المفارق للمادة ، وقد أبدع في العالم قوة سارية فيه ، امتزجت به امتزاج الدم بأثر الأعضاء ، وبسريان تلك القوة في العالم المحسوس حصلت الحياة والحركة والحس والعقل في الموجودات كل على حسب رتبته من الوجود ، ومن ذلك ما نشاهده في العالم من النظام والترتيب ، وما نشعر به من مناسبة الحركات ، ومنافع الأعضاء ، وأثار العقل ، والعالم من أعلاه الى أدناه علة ومعلول ، لامصادفة فيه ، وكله مقتر بالحكمة الالهية ، فالنور الالهى السارى في العوالم كلها أشبه بالنار في الخشب وللانسان منه حظ عظيم ، ولا يقربه من ربه إلا الأخلاق ، فعمل الأخلاق عندهم هو أهم العلوم . قالوا : الفلسفة بستان سياحه المنطق ، والطبيعيات

أشجاره ونباته ، ومحامد الأخلاق ثمراته ، والحكيم من جمع بين العلم والعمل . فهنا مقلمان لاناك لهما ، مقام أصحاب الحكمة ، فلاناس إلا الحكماء ، ومن اقتنى أثرهم ، وتشبه بأخلاقهم . ومقام عوام الخلق ، فمن لاعلم له ولاعمل فهو ممن لا يعتد بهم ، وهم في الأرض كالأنعام ، وليس هناك مقام ثالث ، ولا واسطة بين المستقيم والمعوج ، فلما أن يكون الانسان مستقيماً أى حكماً ، وأما أن يكون معوجاً أى غير حكيم .

يقول الاستاذ سنلانه : « إن ملخص مذاهب اليونان يرجع إلى ما يأتي : إما أن يقال : إن الوجود هو هذا المحسوس ، وأما أن يقال هو المعقول لا المحسوس ، وأما أن يقال هو المحسوس المعقول معا ، وليس هناك أمر رابع ، فأول بحثهم كان مقصوراً على المادة يتمسكون ماهية هذا الوجود المحسوس » .

ثم برز سقراط وأفلاطون فأبانا ما بين العقل والمادة من التمييز ، فانقلبت المسألة الى التوفيق بين المادة والعقل واتصالهما ، وتأثير كل منهما في وجود العالم . فقال أفلاطون : الجوهر العقلي هو الاصل في الوجود ، ووجود المادة أمر قريب من العدم المحض ، ثم بالغ في التفريق بينهما حتى كأنه لا اتصال بينهما . ثم ظهر أرسطاطاليس فضيق على أستاذه ، وقال : إن الوصول من العالم العلوي الى السفلي لا يتأتى بطريق أستاذه أفلاطون ، وأن اتصال العقل بالمادة حاصل في الأفراد ، ولكن لما حاول الارتقاء من عالم الشهادة إلى عالم الغيب ، وإلى العقل الالهي زلت قدمه ووقع فيها كان يحذر منه ، إذ يحجز عن ذلك فلم يبق إلا التمسك بأحد قولين : فلما أن يقال المادة هي الأصل الوحيد ولا شيء سواها ، وهو قول أبيقورس ودهرية عصره ، أو القول بوحدة العقل والمادة ، وهو قول أهل الرواق ، أقول : وهو يجمع بين رأيي أفلاطون ، وأرسطاطاليس .

وبعد ذلك لا نجد من القرن الثالث قبل المسيح إلى آخر القرن الثاني بعده غير المذاهب القديمة ، والحكماء ما بين شاك في الحقائق ، وأدهري لا يقول بغير المادة ، أو رواق يقول بوحدة المادة والعقل ، أو مشائي متفرغ للطبيعات .

شعبة الاسكندرانيين

ويعرفون باسم المذهب الأفلاطوني الحديث

أنشأ بها « مونيوس سكاس » أي الجمال ، فهو في أول حياته كان حمالاً ، وكان نصرانياً ، ثم رجع الى وثنية اليونان ، ولد سنة ١٧٥ بعد الميلاد ، ومات سنة ٢٤٢ ب.م وتلميذه أفلاطون توفى سنة ٢٦٩ بعد الميلاد ، وتلميذ أفلاطون بروقيروس ، ويشتهر في الكتب باسم فرفور بوس ، ولد بصور الشام سنة ٢٣٣ بعد الميلاد ، وتوفى سنة ٣٠٤ ب.م فهو لاهوت ومن بعدهم يسمون الفرع الاسكندري ، وجاء بعدهم (بيليخوس) ومن تبعه ، ويسمون الفرع الشامي اشارة الى مولد (بيليخوس) إذ كان باحدى بلدان الشام وتوفى سنة ٣٣٠ ب.م ، ثم سريانوس وبرقلس ومن تبعه ، ويسمون الفرع الأثيني ، لأن دار التعليم إذ ذاك قد انتقلت الى أثينا ، وولد برقلس سنة ٤١١ ب.م وتوفى سنة ٤٨٥ ب.م . قال : « ان مذهب الاسكندرانيين آخر المذاهب المعتبرة في الفلسفة اليونانية ، وهو من أحكمها أصولاً ، وأوسعها دائرة ، وأوفهمها طريقة ، جمعوا بين المذاهب المتقدمة ، فألفوا بينها بأن أخذوا السليم منها ، ورفضوا السقيم ، وتمسكوا كل ما فيها من الخلل والشبه حتى كان مذهبهم كخلاصة أفكار اليونان منذ بداية فلسفتهم ، وعمدة كلامهم . قالوا إن أفلاطون وأرسطاطاليس لم يكن بينهما خلاف في الاصول ألبيته ، وإنما اختلفوا في أساليب البحث ، فن فهم مقاصد كل منهما وسبر معناه لم يتوقف في الاعتراف بذلك .

قال سلفيوس في تفسير كتاب المقولات لأرسطو : « اذا ظهر الخلاف بين أرسطاطاليس وأفلاطون ، فالتاعدة أن لا تقف عند ظاهر المعنى ، ولا تعتقد بوجود الخلاف بين الحكيميين ، بل ينبغي لك أن تستقصى

معناها فتجدهما متفقين لاجمالة .

قال الاستاذ سنتلانه : « إن هذا الرأي بنى عليه أبونصر الفارابي رسالته الموسومة (بالجمع بين رأى الحكيمين أفلاطون وأرسطاطاليس) وهي مطبوعة في مجموعة رسائل ، تقع فيها مواضع الخلاف المدعى وجوده بينهما فصلا فصلا ، وقد أصاب وأجاد في كثير مما قاله الاسكندر برون ، إن هذا الوفاق ليس بمقصود على أفلاطون وأرسطو ، بل انه يجمع سائر الفلاسفة ، فمن راجع تاريخ الفلسفة العتيقة تحقق أن الفلاسفة بأسرهم على كلمة واحدة ، جميعين في المهمات لاتراهم يختلفون إلا في الجزئيات والفروع .

تلك حكمة الأوائل تداولوها غابرا عن سالف من بداية الاجتماع الانساني ، اشتركت فيه الفرس والبراهمة والكلدان والعبريانيون ومصر واليونان ، كيف لا والعقل الانساني جوهر واحد لا يتغير باختلاف الأقاليم والأعصار ، وأصل كل حكمة الإطام الاطبي ، فينبغي للحكيم والحالة هذه أن لا يلقى قولاً من الأقوال ، بل عليه أن يأخذ على حق معناه وحقيقة جوابه يجده مطابقاً للأصول ، فإذا تحقق الخلاف ولم يكن وجه للتأويل ، فالرجع إلى مذهب أفلاطون إذ هو الأقرب للحكمة الأولية .

وهنا أفاض الاستاذ سنتلانه في آراء علماء الاسكندرية إلى أن قال ناقلنا عنهم : إن هذا الخلاف لا يستلزم إلا اذا فكر الانسان في نفسه فانه يرى أن روحه متصرف في بدنه ، ومع ذلك هي جوهر لطيف مفارق للمادة الخ وهكذا ضربوا المثل لله بالشمس ، وأن حرارتها وضوؤها ينبعثان الى أقصى أطراف العالم ، وهكذا السراج يضيء البيت ويقتبس من نوره مئات السرج ، وهو لا ينقص ولا يفيض ، والصوت يؤثر في سمع القوم وهو لا ينقسم مع كثرة المستمعين ، وهكذا العلم يرسم في أذهان المستمعين ، ولا ينقص ذلك من علم العالم شيئاً ، إذن الله واحد لا يتجزأ مع تكثير ما يصدر عنه من الآثار ، والقدرة اذا بلغت أشدها لاتبقى معطلة ، فلا يد من روز آمارها .

ثم قال : إن الشهورستاني نسب هذا القول خطأ الى أرسطاطاليس ، وهو في الحقيقة من مذاهب الاسكندريين ، وأبان أن كتاب (أنولوجيا) الذي هو أول ما نقل الى العربية في القرن الثالث الهجري ، وفيه أمثال هذه الآراء قد نبه علماء الاسلام الى أرسطاطاليس وهو في الحقيقة جملة منتخبات من الكتاب الرابع والخامس والسادس من إلهيات أفلوطين نقل من السرياني الى العربية بدليل انه مقسم الى (ميامير) وهي كلمة سريانية معناها المقالة ، ومعنى (أنولوجيا) قول على الربوبية .

فقال بعض الطلبة : لقد عرفنا الآن صور الآراء في العصور الأولى أيام اليونان وأيام الاسكندريين في المدة التي قبل المسيح والتي بعده ، فتريد الآن أن تبين لنا أولاً كيف اتصلت الفلسفة العربية بالأمة الاسلامية أي كيف نقلت من علماء الاسكندرية الى علماء الاسلام ، وثانياً تريد رأيك أنت في هذا الخلاف الذي بين حكام اليونان وإن كان علماء الاسكندرية قد تعرضوا للجمع بين الأقوال المتقاربة . فقلت : أما نقل الفلسفة اليونانية الى العربية فان لها طرقاً شتى منها ما تقدم ذكره هنا ، وهو أنهم نقلوا كتاب أفلوطين الذي ذكرته لكم سابقاً بعد المسيح من السريانية : أي ان السريان كانوا نقلوه الى لغتهم ثم نقل الكتاب الى العربية وهناك طرق أخرى لا يسع المقام ذكرها ، ولكن أذكر لكم ما قصه الفيلسوف الكبير الفارابي إذ قال ماضيه بالحرف الواحد من كتاب عيون الأنبياء : « إن أمر الفلسفة اشتهر في أيام ملوك اليونانيين وبعد وفاة أرسطاطاليس بالاسكندرية الى آخر أيام المرأة ، وانه لما توفي بقي التعليم بحاله فيها الى أن ملك ثلاثة عشر ملكاً ، وتوالى في مدة ملكهم من معلمى الفلسفة اثنا عشر معلماً أحدهم المعروف بأندرونيقوس ، وكان آخر هؤلاء الملوك « المرأة » فظلمها أغسطس الملك من أهل رومه ، وقتلها واستحوذ على الملك ، فلما استقر له نظر في خزائن الكتب ، فوجد فيها نسخاً لكتب أرسطاطاليس قد نسخت في أيامه وأيام ثاوفرسطس ،

ووجد المدين والفلاسفة قد عملوا كتباً في المعاني التي عمل فيها أرسطو، فأمر أن تفسخ تلك الكتب التي كانت نسخت في أيام أرسطو وتلاميذه، وأن يكون التعليم منها، وأن ينصرف عن الباقي وحكم أندرونيقوس في تدبير ذلك، وأمره أن يفسخ نسخاً يحملها معه إلى رومه، ونسخاً يبقها في موضع التعليم بالاسكندرية، وأمره أن يستخلف معلماً يقوم مقامه بالاسكندرية، ويسير معه إلى رومه، فصار التعليم في موضعين، وجرى الأمر على ذلك إلى أن جاءت النصرانية فبطل التعليم من رومه وبقى بالاسكندرية إلى أن نظر ملك النصرانية في ذلك، واجتمعت الأساقفة، وتشاوروا فيما يترك من هذا التعليم وما يبطل، فأرأوا أن يعلم من كتب المنطق إلى آخر الأشكال الوجودية، ولا يعلم ما بعده، لأنهم رأوا أن في ذلك ضرراً على النصرانية، وأن فيما أطلقوا تعليمه ما يستعان به على نصرة دينهم، فبقى الظاهر من التعليم هذا المقدار، وما ينظر فيه من الباقي مستورا إلى أن كان الإسلام بعده بمدة طويلة، فانتقل التعليم من الاسكندرية إلى أنطاكية وبقى بها زمناً طويلاً إلى أن بقي معلم واحد فتعلم منه رجلان ومعهما الكتب، فكان أحدهما من أهل حران، والآخر من أهل مرو. فأما الذي من أهل مرو فتعلم منه رجلان: أحدهما إبراهيم المروزي، والآخر يوحنا ابن جيلان، وتعلم من العراقي اسراييل الأسقف وقويري، وسارا إلى بغداد، فتشاغل إبراهيم بالدين، وأخذ قويري في التعليم، وأما يوحنا بن جيلان فإنه تشاغل أيضاً بدينه وانحصر إبراهيم المروزي إلى بغداد فأقلم بها، وتعلم من المروزي متى بن يونان، وكان الذي يتعلم في ذلك الوقت إلى آخر الأشكال الوجودية، وقال أبو نصر الفارابي عن نفسه أنه تعلم من يوحنا بن جيلان إلى آخر كتاب البرهان، وكان يسمى ما بعد الأشكال الوجودية الجزء الذي لا يقرأ إلى أن قرئ ذلك وصار الرسم بعد ذلك حيث صار الأمر إلى معلم المسلمين أن يقرأ من الأشكال الوجودية إلى حيث قدر الانسان أن يقرأ. فقال أبو نصر: انه قرأ إلى آخر كتاب البرهان اه

فلما سمع ذلك الطلبة. قال بعضهم: لقد تلججت صدورنا لهذا البيان فنحن الآن نود أن تبين رأيك في الخلاف المتقدم في أصل العالم والمادة الذي شجر بين أفلاطون وأرسطاطاليس. فقلت: إن هذا الخلاف إنما يصح على الطريقة التي أبرزها هذان الحكميان للناس، فهناك تشعبت الآراء، واختلفت الطرق، واحتاج النوع الانساني إلى علماء يجمعون بين الآراء، ويوحدون الصفوف كالذي نقلته لكم عن علماء الاسكندرية فلا أعيد.

فقال قائل منهم: ولكن هذا الرأي الذي جمعوا به بين الآراء المختلفة وإن كان جيلاً وانحاز لاتزال الشبه تحوم حوله، فإن هذا كله ماهو إلتشبيه، والتشبيه لا يعطى برهانا، ولا يؤدي إلى الحقيقة، فإن ضوء الشمس والسراج ونحوهما، ماهي إلا أمثال. فقلت: لقد قدمت لكم مافي المقدمة من التواعد في مبدأ العالم والمادة ما لا يتوجه عليه هذا الاعتراض ولا الشكوك، وهذا هو الذي هداني الله إليه فأدرسوه وفكروا فيه، فهو لا يتوجه عليه ما توجه على أفلاطون وعلى سقراط، والعلوم الحديثة قرّبت البعيد، وسهلت الطرق، فطرق العلم اليوم أقرب إلى أن تكون معبدة سهلة، وقد تبين بدراسة المادة والصورة أن هذا العالم كله يرجع إلى نقط ضوئية. فقالوا بحب: الافاضة في هذا الموضوع؟

بحث عام في المادة والصوت في الهواء

مم نفس الهواء، مم الضوء، في الأثير، مم العناصر المادية

فقلت: أنا قدمت لكم أن آراء المتقدمين والمتأخرين أجمعت أن المادة وجودها إما ضعيف، وإما هي معدومة، وما الموجود على حسب الرأي العام في الأمم الآن إلا هطنورية سريرة الحركة تنوعت إلى ضوء

وحرارة وكهرباء وماء ومعادن الخ .

إن الهواء إذا اهتز في الثانية الواحدة ٣٣ مرة نتج عنه أدنى الأصوات بحيث تتمكن آذاننا من سماعه ، فإذا زادت الاهتزازات بحيث تبلغ ٧٦ ألف مرة في الثانية ، فهو أعلى صوت يمكن أن يؤثر في عصب أسماعنا ، إذن الحركات الهوائية التي تقل عن ٣٣ مرة في الثانية والتي تزيد عن ٧٦ ألف مرة في الثانية لانسمع بها ، وهذا حتى ، لأن الريح العاصف إذا اشتدت فإنا لانسمع صوتها ، إذ ترى الأشجار تنكاد تلمس الأرض ونحن لانسمع لها صوتا ، لأن الأذن لانسمع ما زاد على الحد المتقزم ، وأكثر الناس لا يعلمون .

بحث في مادة الهواء

إن نتيجة الامتحانات التي أقامها العلامة « ويليام كروكس » أمام الأكاديمية العلمية في باريس ذلك على أن أقن الآلات المفرغة للهواء لانكفي لافراغ الهواء أو أي غاز آخر من إناء محكم السد ، بل لابد من بقاء أرقليل ، وقد فرغ هو الهواء من كرة زجاجية قطرها ١٣ سنتيمترا ولم يبق فيها إلا جزءا واحدا من مليون ، ومع ذلك كان عدد ذرات ذلك الجزء الزهيد من الهواء يبلغ مليون مليون مليون .
قال : وإذا أردنا ادخال الذرات الهوائية التي أخرجناها بحيث يدخل في كل ثانية بواسطة فتحة خاصة مائة ألف ذرة في الثانية الواحدة احتجنا إلى سبعمائة مليون سنة ليحلا هذا الفراغ ثانيا ، وهذه المدة تكون قد انطقت فيها شمسا وطلحت أرضنا ، فهذا عرفنا الصوت وعرفنا جرم الهواء ، فلنشرع في :

مبحث الضوء

فنقول : لقد استقر رأي العلماء اليوم على أن أعيننا لا ترى الاهتزازات في الأثير التي تقل عن أربعمائة مليون مليون في الثانية الواحدة ، والتي تزيد على ٧٩٠ مليون مليون في الثانية الواحدة ، إذن الصوت حركات والضوء حركات ، فأقل العددين للون الحمر ، وأكبرهما للون البنفسجي ، وبقية الألوان بين هذين اللونين ، وقد أدرك العلماء الآن أن الطيف الشمسي يمتد إلى ما وراء البنفسجي ، ولكن لا ندركه العين كالاندرك الأذن لما زاد من الحركات عما حدد لحاسة السمع ، إذن المسألة كلها في الصوت والضوء ترجع لكمية الحركات لاغير ، والانسان عبارة عن جهاز معد لا يدرك ما يناسبه من ذلك ، ومحروم مما عده .

العناصر المادية

فأما العناصر المادية فما هي إلا حركات في الأثير كالحركات التي ظهر بها الصوت في الهواء ، والحركات التي ظهر بها الضوء في الأثير ، غاية الأمر أن الحركات كلما كانت أشد سرعة كانت أغلظ حجما ، وكلما كانت أقل كانت أظف ، فترى العناصر الأرضية ما هي إلا نقط ضوئية تهتز في الثانية الواحدة أضعاف مائه من الحركات التي أحدثت الضوء ، فإذا رأينا الضوء قد نشأ من اهتزازات تبلغ في الثانية الواحدة ٤٠٠ مليون مليون فان العناصر المادية تنشأ من اهتزاز الأثير ستة آلاف مليون مليون مرة فأكثر أو أقل في الثانية الواحدة كما تراه مفصلا في تفسير سورة النور عند آية : « الله نور السموات والأرض الخ » وقد تبين هناك أن قطرة الماء تبلغ ذراتها ملايين الملايين ، وأن بين تلك الذرات خلاء يساوي الخلاء الذي بين السماء والأرض والنجوم والشموس . إذن هذه العوالم ما هي إلا حركات ، فإذا اشتدت كانت من العناصر ، وإذا ضعفت كانت ضوءا منظورا . إذن العناصر ضوء متجدد لاغير ، وهذا الضوء المنكاف متخلخل جدا ، فالمادة كلها مجوفة تجويفات عظيمة وأصولها الحركات في عالم لا يعرفه إلا بآثاره ، هذه هي المادة فكيف تكون

أثبت كما تقدم أن العلم محجز عن تفريفه ، بل بقي منه مقدار عظيم يعد بالملايين من الثورات ، فهذا نظير ما في نفوسنا من الكسر الدائر ، فهذا مثل فهمهم . فالمادة التي أماننا عند تجزئتها تشابه ما ركز في نفوسنا من العلوم العديدة التي لانهاية لها في التجزئة .

مسألان من علم الميقات

وهنا أفضل مسألين من علم الميقات (المسألة الأولى) السنين الكبيسة والبسيطة (المسألة الثانية) الخسوف والكسوف .

المسألة الأولى : السنين الكبيسة والبسيطة

إن السنين القمرية لها سبعة أدوار ، كل دور ٣٠ سنة ، ومجموعها ٢١٠ سنة ، وهذا هو الدور الكبير والدور الصغير منه ١١ سنة مركبة كل منها من ٣٥٥ يوما ، وتسمى سنة كبيسة ، ومنها ٩ سنين كل منها مركبة من ٣٥٤ يوما وتسمى سنة بسيطة ، فكل دور من الأدوار الصغيرة هذا حكمه ، وهذه الأدوار لا تتغير فتكون إذن أشبه بالكسر الدائر المتقدم في عدد $\frac{1}{4}$ والسنة الكبيسة في كل دور هي ٢٠٥ و ٧ و ١٠ و ١٣ و ١٥ و ١٨ و ٢١ و ٢٤ و ٢٦ و ٢٩ وهذه الأعداد في الكبيسة تكون في كل دور وبقية الأعداد بسيطة .

المسألة الثانية : الخسوف والكسوف

إن في كل ١٨ سنة و ١١ يوما يحصل ٧٠ خسوفا وكسوفا ، منها ٢٩ خسوفا و ٤١ كسوفا ، وكل خسوف وكل كسوف في كل دور لا يتغير ، فهي إذن مثل السنين الكبيسة والبسيطة ، فهذان الثلاثان يشبهان $\frac{1}{4}$ المتقدمة التي رأينا لها أدوارا منظمة في نفوسنا .

بهجة جميلة و خلاصة هذا المقام

إن نفوسنا مشتملة على أعداد وعلوم ، وتلك الأعداد والعلوم كامنة فيها ثابتة ، أما المادة فلا ثابت لها ولادوام ، والليل على ثبات العلوم في نفوسنا أن الكسر الدائر والكسر غير الدائر متى عرفه الانسان وجدته محبوا في النفس كأنه كثر كان مخفيا ، ثم يجد عدم تناهي التجزئة في المادة التي لا ثابت لها ، فهي دائما مضطربة وهي أشبه بما نراه في أرضنا من عدم تناهي التجزئة في الكسر الدائر المتقدم ، وإذا نظرنا إلى عدم الوقوف على آخر الكواكب في العدد فهو نظير ما نحن به في عقولنا من عدم انتهاء للأعداد المركبة من الواحد فلا الواحد في نفوسنا وقفنا على أجزاءه ، ولا العدد المركب من تكرار هذا الواحد وقفنا على نهايته ، إذن نفوسنا اصل للمادة وهي مستممة من نفوس أكبر منها أصل لها والجميع راجعون لله كما جاء في القواعد التي في مقدمة هذه الرسالة ، إن نفوسنا شابهت المادة من جهة وخالفها من جهة أخرى ، فهي ثابتة من حيث حفظ صور العلوم فيها ، مضطربة من حيث حركتها الفسكرية التي لانهاية في النوم ولا في اليقظة ، فهي كبحر عظيم ، ساكن الماء ، مضطرب الأمواج دائما ، أما المادة فهي كلهب النار .

إن من العجب أن تلك الحركات التي برزت في الأثير وكان منها النور والهواء ، وجميع العناصر قد ظهرت فيها أدوار منظمة لسورناها في الأفلاك كأدوار الخسوف والكسوف المتقدمة ، وأدوار السنين الكبيسة والبسيطة فهذه الأدوار الحادثة في المادة تشبه الأدوار العديدة في الكسر الدائر ، وهذا مركوز في نفوسنا ، إن نواميس العناصر ونواميس الضوء والحرارة كلها مقدرات عديدة ونفوسنا منطوية عليها ، وستكشف لنا إذا جاوزنا هذه الظلمة الجسمية ، وأن ما نراه في المادة المتفرعة من الجواهر العقلية من النظام يشوحننا إلى النظام المحبوه

في نفوسنا ، وليس بيننا وبينه إلا مفارقة المادة ، ومتى فارقناها وصلنا الى سعادتنا وخرجنا من هذه العوالم المضطربة ، وهأنذا الآن أقول قد أجبتنا بهذا البيان عن الأسئلة الأربعة المتقدمة ، فثبت النفوس صار سلمها به ثبات معلوماتها ، والعلم هو نفس المعلوم بخلاف المادة المضطربة ، وهذا هو السؤال الأول ، وأما قولكم كيف نعقل وحدة الخالق مع انه يعلم ما لا يفتأه كثرة ، فجوابة أن نفوسنا كما قدّمنا تعلم العدد وتعلم الكسر ولا نهاية لها ، ومع ذلك لا يقول أحدنا ان نفسى متعددة بل يقول هي واحدة ، وأما قولكم كيف يعلم الله ما لا نهاية له مع ان عقولنا لا ندرك ذلك فكيف نعتقد ما لا ندركه ؟ فهذا أيضا مدفوع ، فنحن ندرك الكسر المائل المتقدم ، وندرك أدوار الحسوف والكسوف ، وأدوار السنين الكبيسة والبسيطة ، ونعلم أن تلك الأدوار جميعها لانهاية لها إجمالا ، ولكن عقولنا تشهد أن الله يعلمها تفضيلا ، وليس الحادث كالقديم . وأما جواب السؤال الرابع وهو اذا كانت المادة أشبه بالعدوم ، أو هي معدومة ، فإذن علام نجد ونجهد ونخترع وننظم المدن فالأولى تركها ، فهذا السؤال يحتاج إلى الإفاضة في الاجابة عنه : فاعلموا أيها الأذكياء أن وقوفنا على هذه الحقائق ، ووثوقنا بها يدفعنا للعمل والرقى والاسراع فيهما بقدر طاقتنا ، ولى على ذلك شاهدان : الشاهد الأول نفس أفلطون الذى أذاع هذه الفكرة في العالم فانه أنف جمهوريته في نظام الأمم وسياستها وحكوماتها وتربية الجيوش ، والأمراء ، وعلم الأخلاق ، وقد أجمع المحققون أن هذا الكتاب ليس له نظير من هذا القبيل قبله ولا بعده ، وقد تقدم انه أثر في كل الأمم ، والسبب في ذلك أن الانسان متى أيقن بأن نفسه قريبة من خالق العالم يشعر بفرح ونشاط ومسرّة لانظيرها ، ويرى أنه خليفة له ، فيريد أن يرضيه ويتحجب إليه بل يرى فوق ذلك أنه أب للناس حوله وهم أبناؤه ، تستدعنايته بالانسانية ، ويرى من واجبه أيضا أن يكون دائم العمل والفكر مشاركة لما رأى من الابداع الغريب والنظام المدهش في العالم الذى شعرت به حواسه ، ويعلم أنه انما أبدعت له هذه العوالم ليدرسها ويخترن على العلم فيها ، فهي أشبه بلوح الصبيان في المكتب ، وكأنه هو صبي يتعلم ، والسي اذا لم يتقن قراءة اللوح لم يفز بعد في بقية حياته بالسعادة المترتبة على ذلك ، كذلك هؤلاء مع علمهم بأن هذا العالم وجوده خيال يعتقدون اعتقادا جازما بأنه لوح لهم يقرءونه ، وبه وحده ويدرسته يعدون حالا وما آلا ، فهم من جهة يدرسون هذا اللوح ، ومن جهة أخرى يزهدون في اللذات التى تحول بينهم وبين تلك الدراسة ويميزون بين الزهد في الحطام والزهد في العلم والبراسة ، فالجهال الذين يظنون أنهم صالحون يزهدون في دراسة لوح هذه الدنيا ، فهؤلاء غافلون مغرورون ، والحكام يحرمون على ادراك حقائق هذا الوجود مع زهدهم في لذاته التى كلها وقتية لادائمة ، هذه هي الحقيقة التى لاسرية فيها تقوم يعقلون . الشاهد الثانى : الأنبياء والمرسلون فما من نبى إلا وزهد الناس في الدنيا وزهد هو فيها ومع ذلك نجد المرسلين منهم لاكثرهم دول وممالك ، ونراهم يحرمون على العلم بالوحى وبالعقل على تعليم أنهم ، فما ذلك إلا لأنهم جعلوا هذه المادة لوحا يقرءونه ، وأعرضوا عما فيها من اللذات ، وانتظروا لقاء ربهم فرحين مستبشرين وآثارهم دائمة ، فهذه الطائفة أرقى من سابقتها وهم هداة الأمم وزهدهم في الدنيا هو الذى أعانهم على تنظيمها واعدادها للحياة كالأباء يحرمون على تربية الأبناء ، ويمتنعونهم بكل ما يلزم للحياة ، هذا هو الصراط المستقيم ، هذه هي الحقيقة الواضحة الجليلة التى استبشرت بها نفسى واطمأنت إليها وفرحت بها ، ولوشئت الآن أن أدرج في هذه الرسالة فوائد الكتب المقدسة كالقرآن والانجيل والنوراة للملأت بها مجلدا من الآيات والسير الشريفة ، ولكن هذه الرسالة راجعة للعقل ، والحكمة خاصة لانتخص بدين ولا مذهب ولا نعمة ، بل عامة للناس ، يقرءونها بعقولهم ويدرسونها .

فقال قائل من الطلبة : بقيت لى مسألة . فقلت : ما هي ؟ فقال : أريد إيضاح ما تقدمت في المقدمة من حيث العالم المشاهد واستنتاج عالم الغيب منه فوق ما تقدمت ؟ فقلت : ذكرت لكم فيما تقدمت أن جسمى مشتق

من العوالم الأرضية ، وأن الضوء المحيط به آت من العوالم السهوية ، وأن الأرض اذا عجزت عن الضوء الحسى فهى عن الضوء للمعنوى وهى العقول أعجز ، وتكون النتيجة أن العقول مركزها ومركز النفوس فى عالم غير المادّة ، وكأ أن جسمى جاء من عالم كبير وهو العالم المادى المجانس له هكذا عطفى جاء من عالم عطفى بجانس له قياسا على جسمى . قال نعم تقدّم هذا . قلت : وأنا الآن أزيد بيانا ، لندرس الحواس والتنفس والشرب والغذاء فى الجسم ، الانسان يتنفس من الهواء ، ويتغذى بالطعام ، كما ان جسمه من الأرض وما حوطا ، ويشرب من الماء وهو يحيط بالأرض ، فهنا أربعة أمثلة : جسمى ، وغذائى ، وشربى ، وتنفسى (والأغذية مخلوقة فوق الأرض) فهذه الأربعة كل منها مشتق من مخزن كبير من جنسه . قالوا جميعا نعم . قلت : والحواس الخمس هذا حكمها ، فكما كان الجسم من جرم هذه الأرض وما عليها ، وغذائى من أغذية عليها ، وشربى من ماء يحيط بها ، ونفسى من هواء يحيط بهما ، والضوء الذى يحيط بالجميع آت من عوالم سهوية ، هكذا لما كانت :

- (١) حاسة اللمس التى تعرف الحرارة والبرودة والنعومة والخشونة قد أحاطت بها عوالم من جنس ما يحتاجه .
- (٢) وحاسة السمع التى تعرف الحلو والمرّ والملح قد أحاطت بها عوالم كثيرة من جنس ما يحسن به .
- (٣) وحاسة الشم أحاطت بها المشومات التى تمدّها .
- (٤) وحاسة السمع أحاطت بها ككرة الهواء التى تؤدى إليها الأصوات .
- (٥) وحاسة البصر أحاطت بها عوالم النور التى تمدّها بالضوء فيكون الابصار ، هكذا كانت نفوسنا لها عوالم تحيط بها من جنسها .

جسمى (١) وغذائى (٢) وشربى (٣) ونفسى (٤) والنور الذى أهتدى به (٥) وحاسة لمسى (٦) وحاسة ذوقى (٧) وحاسة شمى (٨) وحاسة سمى (٩) وحاسة بصرى (١٠) . كل هذه تستمد من عالم يحيط بها بجانس لها ، فهذا الاستقراء يلبجنا أن نقول لاحتمال أن روحى ونفسى وعطفى يحيط بها عوالم مماثلة لها عاقلة روحية نفسية تستمد منها ، وهذه النفوس والأرواح لها مرجع وأصل ، وهو الذى يسميه الناس والديانات « الله » كما أن الضوء المحيط بجسمى له أصل وهو قرص الشمس ، فالتة هو أصل العالم .

فهذا العالم المشاهد منقوشة صورته فى عقول أبرزته كاتقاس الأعداد المتقدمة فى عقولنا فتبرزها فى الخارج على مقتضى ما نشاهد ، والذى عرفنا تلك العقول اتصال نفوسنا بها واستمدادها منها كاستمدادنا الماء من النهر والمطر ، وما ابراز تلك العقول ما كمن فيها من تلك الصور فى الخارج إلا كما يبرازنا نحن ما كمن فى نفوسنا من المعانى بالطق باللسان ، واخراج الكلمات من الخارج الصوتية ، وهذا الموضوع كله هو معنى : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » وفى السماء رزقكم وما توعدون » فورب السماء والأرض إنه لحقّ مثل ما أنكم تنطقون » فعبّر بنطقنا ولم يعبر بأعمالنا التى تصدر عما ركزنى نفوسنا من المعانى كالنطق لأن النطق سريع سهل ، فصنع الله للعالم ، وصنع العقول التى تسمى ملائكة يبرعنه تعلينا لنا بنطقنا الذى يبرز ما كمن فى عقولنا ، فبهذا عرفنا العالم الذى يسمى ملائكة ، وعرفنا أن له مبدأ وهو الله ، وعرفنا أن تلك العقول التى سميناها ملائكة تدبرشون هذا العالم كما تدبر نحن منازلنا ، وعرفنا أن نفوسنا سترجع إلى تلك العوالم بعد موتنا كما أن أجسامنا ترجع إلى عوالمها التى خلقت منها ، فهذه مجامع العلم والحكمة ، وهذه هى التى حيرت العقول ، وأذلت الفحول ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم

فقال آخر : ما المادّة التى خلق منها العالم ، فقلت اذا احتجت أنت إلى مادّة فى نفسك لتكون فيها صور ذهنية احتاج العالم إلى مادّة ، وهذا هو الذى تقدّم فى هذه الرسالة انه قد حلّ الاشكال الوارد على أفلاطون فى نظرية المثل الأفلاطونية .

برهان بقاء النفس من العلوم الطبيعية والفلكية

فلما سمع الطلبة ذلك ، وكان في يوم الثلاثاء ٢٦ مارس سنة ١٩٢٩ م مساء . قال قائلهم معبرا عن جمعهم : إن أسلوبك في هذه المحاورات معنا أسلوب جليل يخلب الأبواب ظاهره ، ولكننا لما رجعنا إلى أنفسنا ألفينا أنفسنا معك تشبه (سقراط) مع (أنكساغورس) ، أو تشبه (أرسطاطاليس) مع (أفلاطون) أو المشائين مع (أرسطاطاليس) فكما أن سقراط لما قرأ كلام أنكساغورس بعد موته وجدته غير مجرد ولا نافع في وصف العقل ، وهكذا أرسطاطاليس اعترض على أفلاطون إذ لم يبين وجه ارتباط المثل التي ذكرها بالعوالم المشاهدة ، وهكذا المشامون بعد (أرسطاطاليس) قالوا إن أستاذهم وقع فيما وقع فيه أستاذه ، إذ لم يبين (أرسطاطاليس) وجه تأثير خالق العالم في المادة ، ولا وجه العلاقة بين الخالق والمخلوق ، هكذا نحن نرد عليك بنفس ما قلت ، وتنقض كلامك في حياتك ، ذلك أنك قلت في أول محاوراتنا معك إن الدليل على أن النفس الناطقة من عالم غير العالم الأرضي أنها أشبهت الضوء ، فكما أن الضوء قد عجزت الأرض عن أن تمدنا به فهي عن الضوء المعنوي أعجز ، إذن نفوسنا من عالم علوي لطيف ألطف من الضوء . فقلت نعم أنا قلت ذلك أولا وآخرا . فقال قائلهم : ونحن الآن نقول مستدلين بطريقتك على عدم بقاء النفس ، فنقول : كما أن ضوء الشمس يفتي فناء لامرء له عند غروبها ، هكذا أرواحنا بعد موتنا لابقاء لها ، فما أجسامنا إلا كالأرض ، وما أرواحنا إلا كضوء الشمس ، فلو كان لأرواحنا بقاء بعد موتنا لكان لضوء الشمس بعد غروبها بقاء في أرضنا ، ولكن ضوء الشمس يعدم حالا عند غروبها ، إذن يكون العدم حتما عند موتنا ، وهذا قياس منطقي لا يقبل المعارضة ولا الجدال على حسب طريقتك التي اخترتها واكتفيت بها ، إذن أصبحت محاورتك معنا معطية لنا اليقين بعدم النفس عند الموت بعد أن كان عندنا شبه برهان على بقائها قبل هذه المحاوره ، قالنا إذن يؤمنون إيماننا كإيمان الجاهل ، فأما البرهان فلا . قلت لهم : أظنتم أنكم فائزون في استدلالكم ، صادقة براهينكم ؟ قالوا نعم ونحن بذلك موقنون . قلت فاسمعوا : إن نفس هذا البرهان يثبت بقاءها ، فلنبحث ضوء الشمس المذكور : إن أرضنا في استضاءتها أشبه بالمستحم في النهر لاغير ، وماضوء الشمس إلا كماء النهر والرياح الجارية ، إن الماء يجري من خط الاستواء في النيل إلى البحر الأبيض والهواء تحركه الحرارة فيمر على الأشجار والمزارع فيحركها وينفض عنها الغبار ويمر إلى جهات أخرى من العالم ، وضوء الشمس يجري منها ساريا في العوالم لا يقف كما لا يقف ماء النيل بعد مروره على بلادنا ، فكما يزعم الذي لا تدبر عنده أن الريح الهابطة عليه وهو في مزهقته قد فثيت ، ويزعم المستحم في النهر وشارب الماء أن الماء الذي مر به أو شربه قد فني وما فني وإنما هو سائر في طريقه بحيث يجري ماء النهر حتى يصل إلى البحر بالنسبة للمستحم في النيل وينزل في الجسم فيختلط بالدم ، ثم ينزل بولا أو عرقا من الجسم ، ثم ينزل على الأرض فيتحول إلى بخار يرجع إلى الجو ولا يفني ، هكذا ضوء الشمس الذي يمر بأرضنا هو باق ولا يفني كما بقي الهواء وكما بقي الماء سواء بسواء ، ألا ترون رعاكم الله أن علماء الفلك يقولون : قد كشفنا سديما جديدا ، ووجدنا ضوء قد سافر في الجومائة مليون سنة ، وهذا آخر ما كشفوه . أفلاترون انهم الآن في أمريكا قد ابتدعوا منظارا ، وهم الآن يصنعون ، قطره ٢٠٠ بوصة ، وهم يتوقعون أنهم سيرون به كواكب قد جاء نورها من أجرامها منذ مائة ألف مليون سنة ، إن الدكتور شابلي الأمريكي مدير مرصد (جامعة هارفرد) الأمريكية من أشهر علماء الفلك ، نشرت عنه إحدى المجلات الأمريكية أن نظامنا الشمسي مع المجرة التي هو منها عبارة عن كرة واحدة . فكما أن أرضنا تدور كل ٢٤ ساعة دورة هكذا هذه المجرة ونظامنا الشمسي الذي هو ذرة واحدة في ثلاثمائة مليون سنة ، ويجري في الثانية الواحدة ٢٠٠ ميل ، ويقول : إن مركز

هذه المجرّة هونقطة اتصال العقرب والحية بالرامي ، وهذه النقطة تبعد عن الأرض خمسين ألف سنة نورية ، فالنور المنبعث منها ونراه في الأرض الآن خرج من تلك النقطة منذ خمسين ألف سنة نورية ، إذن النور لم يعدم وهو باق تلك المدة ، وهذه المسافة للنور قليلة فإن العلماء يرون الآن نجوما انبعث النور منها منذ مئات الملايين ، فاذا كان هذا قول علماء الفلك فعناه أن الضوء لايفنى إلى أمد عظيم ولم يجدوا دليلا على انعدامه ، فاذا رأينا الضوء لايزال جاريا مائة ألف مليون سنة ، ولاندرى متى يفنى فإن نفوسنا التي هي أطف وأبسط من الضوء ، إذن تعيش هذه المدة وتعيش إلى الأبد ، بل لادليل على فناها ،

ومن أراد اعتقاد فناها فليأت بدليل على فناء الضوء الذي هو أطف منها وأبسط ، وقد أجمع علماء الفلك انهم يرونه بعد مئات ألوف الملايين من السنين ، إن هذا القول بدلنا على أن عالم الأثيرالذي يجري فيه الضوء ليس كعالمنا ، أولاترون اننا نرى الصكرة فتراها تجري ثم تقف ولكن جرى النور خالف ذلك ، فهو يجري ولايقف ولاينقطع ، إذن حركات النور في الأثير تخالف حركات الأجسام الأرضية ، فالنور لم يثبت عدمه إلى الآن بل هو ينتقل من عالم إلى عالم ، ونورشمسنا من تلك الأنوار ، وما أرضنا إلا أشبه بالمستحم في النهر كما قلت ، فاذا غربت الشمس فعناه أن أرضنا كانت غارقة في ضوء الشمس فخرجت من ذلك النهر ، فكما أن خروج المستحم من النهر لايدل على انعدام ماء النهر ، هكذا خروج أرضنا من بحر ضوء الشمس عند الغروب لايدل على فناء النور ، بل النور باق ، وهو يجري ، ويتقبله أحياء في عوالم أخرى وبيحثونه ويستخرجون منه عناصرالشمس كما نستخرج نحن عناصرها وعناصرالنجوم من ضوءها . إذن ردكم على برهاني وقولكم إن كلامي يشعر بفناء النفس قد رجع إليكم وهو أقوى مما كان وأدل على بقاء النفس بعد الموت ، بل يزيد ثباتا وقوة بأن النفس بعد الموت قد حملت معها جميع أعمالها وهي تحاسب عليها غير منقوصة ، أفلاترون أن علماء الفلك يستخرجون من الضوء حقائق الكواكب بتحليله فيعرفون تركيب كل كوكب ، أفليس هذا كسألة الحساب سواء بسواء لايبضغ منه مثقال ذرة كما لم يضر من الضوء مثقال ذرة من تركيب الكوكب ، بل يرى علماء الفلك بمنظرهم حقائق الكواكب وما فيها من العناصر عنصرا عنصرا ويحكمون على أبعادها ، فالضوء يعرف الأبعاد ويعرف كل عنصر في الكوكب مهما تباعدت أقطاره وامتدت مسافته . إذن الروح باقية وأعمالها معها لايبضغ منها مثقال ذرة ، فضاء الكواكب يقول بلسان حاله : « ولايحجزون إلا ماكنتم تعملون » .

فقال الجليح : الحمد لله ، هذا برهان لامطمع في نقضه . فقلت : الحمد لله رب العالمين ، وبهذا تم الكلام على الباب الأول من « رسالة امرأة الفيلسفة » . وأما الباب الثاني فقد تقدم في « سورة لقمان » فلاحاجة لتذكره هنا (فارجع إليه هناك إن شئت) — انتهت اللطيفة السادسة في قوله تعالى : « فاعلم أنه لا إله إلا الله الح » والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة السابعة

في قوله تعالى : فهل عسيتم ان توليتم ان تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم انظر الى تقطيع الأرحام في الأمم العربية للتناحر والقتال والتدمير ، لماذا كل هذا ؟ للخلافة والشهوات النفسية ، ويظهر لي أن هذا القرآن الذي نزل بالشورى وحفظ العلاتق بين العشائر والأقارب لم يأخذ مجراه عند الأمم العربية أسلافنا ، ولم تستعد له تمام الاستعداد ، فما كادت شمس النبوة تغرب وتظهر نجوم العلم في ظلمات السياسة العربية الحالكة حتى رأينا العباسيين والأمويين وغيرهم يتقاتلون ويتناحرون ويدبرون المكائد ويعشون الجواسيس لأجل الخلافة ، فزالت دولهم ، ونكست أعلامهم ، وخرّ عليهم السقف من

فوقهم ، وبات دولهم بالوبال .

الانتظر إلى ما سأذكره في (سورة الحجرات) إن شاء الله من تلك المكائد المنصوبة ، والحيل المحبوكة والمظالم المركومة ، والجدود العائرة ، والأعمال البائرة .

وكيف ترى أبا جعفر المنصور قد انصرفت همه إلى عصبية العرب ففرقتها وأخذ يفدر بمن يؤمنهم وينصب الشباك لاصطياد الرجال وقتلهم ، والتفريق بينهم ، وكيف ترى « قثم » بن العباس بن عبيد الله بن عباس وهو شيخ العباسيين وكبيرهم بأمر غلامه أن يستفتيه على مرأى ومسمع من أهل اليمن وسادات مضر أيهما أفضل وهو يجاوبه أن مضر أفضل من أهل اليمن ، فقامت الفتنة بين القيلتين على قدم وساق ، وتفرقتوا شفر مندر ، ولما قدم المهدي بن المنصور من خراسان ، قال له قثم : اعبربابك المهدي الجانب الآخر من بغداد واجعل معه قطعة من جيشك فلا يتحدون فتضرب بعضهم ببعض عند الحاجة ، وهكذا لما كانت أم الأمين عريية وأم المأمون فارسية صار العرب حزبا للأول والفرس حزبا للثاني وضرب الآخرون الأولين ، وقد تروى المأمون في حجر البرامكة وسعوا له في ولاية العهد والفضل بن الربيع سعى في تأييد الأمين وحمله على نقض بيعة أخيه ، ونصر الخراسانيون ابن أختهم المأمون بتدبير الفضل بن سهل ، وكان العرب من الجند العباسي قد أنهكتهم الحضارة والترف وتبدوا بسياسة التقسيم فلم يستطيعوا دفاعا ، هنالك أخرج الخراسانيون الخلافة من العرب وسلموها إلى المأمون كما أخرجوها قلا من بني أمية وسلموها إلى أجداده ، وزاد الطين بلة ما حصل في أيام المعتصم الذي تولى الخلافة سنة ٢١٨ هـ وقد جمع حوله الأتراك والفرانجة ، وضرب العرب الضربة القاضية ، إذ قطع العطاء عنهم ، وانحط شأن العرب من ذلك الحين ، وضعدوا الولايات فتمكن الفرس من الدولة ، وهنالك قام مرداويج في أصفهان سنة ٣٢٢ هـ يريد أن يأخذ بغداد وينقل الدولة إلى الفرس فلم يفلح ، ولكن نفوذ الفرس استحك ، وفي أيام المأمون ومن بعده تظاهر الشعوب بالاطعان في العرب والمأمون يقرهم منه ، ومنهم سهل بن هارون قيم بيت الحكمة ، وكان شديد التعصب على العرب ، وأبو عبيدة الزاربه المشهور ، وعلان الشعوب .

وللدولة العباسية عصران : عصر ارتفاع من سنة ١٣٢ هـ إلى سنة ٢١٨ هـ وعصر تدهور يشهد بخلافة المعتصم وينقضي باقتضاء الدولة العباسية ، إن عصر بني أمية كان للعرب فيه السيادة التامة ، وكانوا يظلمون غيرهم من القبط والنبط والروم والسرمان والسكندان والفرس والترك والسودان ، ومن أسلم من هؤلاء يأخذون أرضه ومنزله ، ويلزم بأن يحارب معهم لأنه مسلم ، ولكنهم لا يساونونهم بأنفسهم ، بل يخرجونهم مشاة بلا رزق ولا فيء ، فأثر ذلك في نفوسهم فكثرت الحوارج ، ولما قام الدعاء من آل البيت العلويين والعباسيين نصرهم الخراسانيون ، واتخذ الخلفاء أمهات أولادهم من الفرس ، فكان هؤلاء الأبناء شديدي الميل إلى الفرس ، ولقد أراد المنصور أن يستغنى عن الحرمين الشريفين بالقبة الخضراء التي بناها ببغداد ، لتقوم مقام الكعبة ، فكانت هذه سبب مبايعة محمد بن عبد الله من آل علي كرم الله وجهه بفتوى مالك رضى الله عنه وهكذا الأندلسيون قطعوا الدعاء لبني العباس إذ ذلك ، فاجتهد المنصور في قتل محمد بن عبد الله بعد أن علم أن مافعله من المخالفة لا يجدي نفعاً .

وبالجملة ان الجامعة الاسلامية كانت في عصر الراشدين عريية ، وكان غرضهم الأول نشر الاسلام في الأرض بدفعهم إلى ذلك اعتقادهم المتين بصدق الرسالة ، وأن الله يدعوهم إلى ذلك ، فلما تولوا بنو أمية استعاضوا عن ذلك الاعتقاد بطلب المال ، وتحول الغرض إلى السلطة الزمنية السياسية ، وظلت الجامعة العربية متينة ، وفي عصر العباسيين استبدلوا الأعاجم بالعصبية العربية ، واحتاجوا في اصطناعهم أو استخدامهم إلى المال ، وانخرطوا هم في سلكهم بواسطة الأمهات ، ثم أصبح الأعاجم من الفرس والترك والديلم والصغد والفرانجة

وغيرهم يتسابقون إلى الاستئثار بالنفوذ بواسطة المال .

ثم إن المأمون لما مات سنة ٢١٨ هجرية أفضت الخلافة إلى أخيه المعتصم بالله ، وكانت أمه تزكية الأصل من بلاد الصغد في تركستان ، فشب محبا للأتراك ، وكان قد أصبح لا يأمن الفرس على نفسه بعد أن قتلوا أخاه الأمين ، وهي أول مظاهر جراتهم على الخلفاء ، ولم يكن له من الجهة الأخرى قوة في جند العرب لما يعلوه من ضعفهم بعد مسامهم إياه العباسيون من الإذلال ، وزد على ذلك أن أخاه المأمون أوصاه عند دنو أجله بمحاربتهم ، فلم ير له غنى عن اقتناء من ينصره غير الفرس والعرب ، وكانت الفتوح الإسلامية قد أدركت ما وراء النهر ، وكان العمال هناك يبعثون الهدايا إلى بلاط الخلفاء ، وفي جللتها صبيان الأتراك والفراغة فهان عليه اقتناؤهم لانصال نسب أمه بهم ، فاشتري منهم ألوفاً ، اشتري بعضهم بالمال والبعض الآخر آناه على سبيل الهدية ، وتكاثروا حتى بلغ عددهم ثمانية عشر ألفاً ، فضالت بهم بغداد ، وضجر البغداديون من سوء نصرتهم ، فابتنى لهم مدينة سمرقاً ، وأقامهم فيها ، وأطلق لهم الأرزاق ، وجند منهم الجنود ، ولاريب أنهم كانوا عوناً له في تأييد سلطانه ، والفوز في حروبه ، ضد أعدائه من الروم والترك ، ولكنهم كانوا من الجهة الأخرى سبيلاً إلى تهتير الدولة العباسية بما كان من مطامعهم في الأموال واستئثارهم بالنفوذ حتى أصبحت الدولة وبيت مالها وخلفاؤها عرضة لأغراضهم . انتهى من كتاب « تاريخ التمدن الإسلامي »

هذا كله تقطيع للأرحام لأجل الخلافة ، ولو كانت الخلافة بالشورى ما انتطح فيها عنزان ، ولا قتل الحسين ابن عليّ كرم الله وجهه جند عبيد الله بن زياد أمير الكوفة في كربلاء يوم عاشوراء سنة ٦١ هجرية ، ومن تقطيع الأرحام المذكور في الآية قيام المختار بن أبي عبيد الله الثقفي بالكوفة مطالباً بدم الحسين لا يتراز الأموال ، لا لوجه الله تعالى داعياً إلى بيعته محمد ابن الحنفية أخى الحسين من أبيه ، ومحمد ابن الحنفية علم عدم صدقه فلم يكن راضياً عن عمله ، فدعا الى عبد الله بن الزبير وعلم عدم صدقه ، فأرسل أخاه مصعباً فقتله ، لولا حب المال المغربي بقطع الأرحام لم يبذل بنو أمية جهدهم في قتل دعاة العلوية ، ولا قتل هشام بن عبد الملك أبا هاشم بن محمد ابن الحنفية بأن دس إليه من قتله بالسّم في اللبن ، لأن فرقة الكيسانية كانت تدعو إليه بعد أبيه وهو راجع إلى المدينة ، فعهد بالخلافة قبل موته إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وهذا عهد إلى ابنه ابراهيم الامام ، لولا الطمع في المال والشهوات لم يطلب ابراهيم الامام البيعة في خراسان باسم آل محمد إيهاماً لهم فرضوا بذلك موقنين أنها ستكون في العلويين لاني العباسيين ، ولكن العباسيون استبدوا بالملك وقتلوا العلويين قتيلاً ، كل ذلك تقطيع للأرحام مصداقاً للآية .

بايع أبو العباس السفاح وأخوه أبو جعفر المنصور سراً النفس الزكية من ذرية الحسن رضى الله عنه ، لقد كان العباسيون والعلويون يطالبون معا بزوال بني أمية ، وكانوا أصدقاء ، فلما استتب الأمر للعباسيين غدروا بأبناء عمهم ، لولا أن الخلافة أصبحت لفرض المال لاغير لم يبيع ابراهيم الامام لأبي مسلم الخراساني أن يقتل الناس بمجرّد التهمة فبلغ من قتلهم ٦٠٠٠٠٠ نفس قتلوا صبراً بدون حرب ولم يسلطه على مضر ويقول له انهم هم العدو القريب الدار ولم يقل له اقتل من شككت فيه ، وان استطلعت ألداع بخراسان من يتكلم بالعربية فأصل ، وأبما غلام بلغ خمسة أشبار واتهمته فاقتله .

بالت شعري : لم هذا كله ؟ أليس ذلك لترك الشورى ، ولحب المال وجمعه ، لولا حب المال لم يقتل أبو مسلم جماعة من كبار الشيعة ، وفيهم جماعة من النقباء ، وكبار الدعاة ، ومن هؤلاء الكبار أبو سلمة الخلال الذي نصر الدعوة العباسية بماله كما نصرها أبو مسلم بسيفه ، فهذا لما اتهمه السفاح في قتل الخلافة للعلويين واستشاراً مسلم في قتله قتلوه وقتلوا عماله في الأطراف وهكذا فعلوا بسليمان بن كثير وهو شيخ جليل من أكبر دعاة العباسيين ، غاية الأمر أنه اتهم بميله للعلويين ، فقد بلغ أبا مسلم عنه مثل ما بلغه عن أبي سلمة ،

فأحضره ، فقال له : أتعلم قول الامام لى : « من اتهمته فاقتله » . قال نعم . قال فاني قد اتهمتك ، تغاف سلمان ، فقال : ناشدتك الله ، قال لاناشدني فأنت منطوع على الفس ، وأمر بضرب عنقه ، وهكذا الكرماني وأولاده وغيرهم .

هنالك سمّ الناس سفك السماء حتى أن أبا مسلم إذا طلب رجلا أوصى وتكفن وتحنط ، ولقد ثار لأجل ذلك بعض الأمراء من شيعة بني العباس وصاح : ما على هذا اتبعنا آل محمد أن تسفك السماء ، وأن يعمل بغير الحق ، فتبعه ٣٠٠٠٠ رجل فقتلهم كلهم أبو مسلم بجنوده ، أليس هذا هو معنى الآية : « فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم » ، أليس هؤلاء يصدق عليهم وصف العمى والسم في قوله تعالى : « أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » وان لم يكونوا كفارا . أوليس قتل أبي مسلم بأمر ابراهيم الامام للعلاويين وللشيعة ، ولكل عربي ، ولكل غلام بلغ خمسة أشبار من العرب هو نفس تقطيع الأرحام في الآية ، لماذا هذا ؟ لئلا والله ، لئلا والله ، فأين بيعة السفاح والمنصور للعلاويين ، أوليس من المؤلم أن يبكي كبار العلويين على بني أمية من شدة ماذاقوا من بني العباس ، ويقول محمد بن عبد الله : « ما بنوا العباس إلا أقلّ خوفا لله من بني أمية ، وأن الحجة على بني العباس أوجب منها عليهم »

أفلا نعرف بهذا معنى قوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » فأين القرآن إذن . بأي كتاب أم بآية سنة . يقتل الناس بالتهمة ! أليس هذا يخالف القرآن على خط مستقيم ، وسرى إن شاء الله في (سورة الحجرات) بقية هذا الموضوع من قتل العلويين وبقية العباسيين ، وقتل أبي مسلم نفسه وغير ذلك ، ولأكتف بما ذكرته في (سورة الشورى) وفي (سورة الأحقاف) ليعلم المسلمون بعدنا أن هذا ملك لاخلاق ، وأن الخلافة الاسلامية ليست على هذا النمط ، وأن هؤلاء لم يتبعوا القرآن ، ولكن الذين بعدنا سيقروا ما كتبناه ، ويعلمون أن اتباعهم في ذلك غرور وجهل ، فيجب أن تكون الخلافة بالشورى ، وأن يكون الخليفة تابعا لمجلس الشورى ، ويحرم عليه أن يعمل عملا ، أو يأخذ مالا ، أو يتصرف إلا بالشورى ، هذه هي الخلافة الاسلامية ، ولو كان هؤلاء الخلفاء مقيدين بالشورى كعمر وعليّ وأبي بكر لم يفعلوا ذلك كله ولم يقطعوا أرحامهم ، لأن المال الذي طمعوا فيه ليسوا أسرار في أدخاره وحوزة ، والله هو الوليّ الحميد والى هنا تمّ الكلام على اللطيفة السابعة في قوله تعالى : « فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم » وبها تمّ تفسير سورة محمد صلى الله عليه وسلم والحمد لله رب العالمين .

(تمّ بحمد الله تعالى وحسن توفيقه الجزء الحادى والعشرون من كتاب « الجواهر » في تفسير القرآن الكريم ، ويليه الجزء الثانى والعشرون ، وأوله تفسير سورة الفتح)



فهرست

الجزء الحادى والعشرين

من كتاب الجواهر فى تفسير القرآن الكريم

صحيفة

- ٢ ﴿سورة الدخان﴾ مكتوبة بالحرف الكبير مشكلة .
- ٤ تفسير البسملة ، و بيان آراء أفلاطون وأرسطاطاليس والرواقسين وبارتلمى والاستاذ كانت فى علم الأخلاق ، وأن سقراط يقول بصانع العالم بدليل أثبت من دليل الاستاذ كانت الألماني الذى جعل دليله راجعا لعلم الأخلاق ، أما أرسطاطاليس فهو أنزل منهما فى ذلك ، ومؤلف هذا التفسير أتى يرهان أكمل من الجميع ، وأبان أن لكل حاسة عالما يتصل بها مناسبا لها كاللس بالنسبة للمعوسات والعقل وهو أعلاها بالنسبة للعقول من الملائكة وصانع العالم
- ٦ امتحان نفس المؤلف بالسراء والضراء ، أما السراء فاليقين الذى لاسعادة توازيه فى الأرض ، وبالبهجة بهذه المجرمات والسدم الجيلة ، وأما الضراء فذلك أن المؤلف حدث له حادثتان : إحداهما داخلية وثانيتها خارجية ، فكر فى نفسه أن المسرة التى فى قلبه لو بقيت هلكت نفسه ، فهذا التعم الداخلى نعمة ، فأما التعم الخارجى فهو أيضا باب للنعمة . ذلك أنه ركب فى عربة مع الناس إلى بلدة شيبين القناطر ، ففيل له والناس حوله أنه ارتقى فوق سلم إلى السماء ، ورأى هناك نورا ونهرا وقصورا فيها حور مقصورات ، وهنا خيل له أن انسانا يقول له : « هذه السلام اشارة إلى درجات الطفل فى نموه ، وهناك درجات لتخوه فى الرحم ، ودرجات أخرى فى ارتقائه فى الحياة ، والنهر هى الرحمة العاتية ، وأما الحور فى ذلك الخيال الدينوى فماهى إلا أمثلة للرحمة وللحب وللإبداع بخلاف الحور فى الآخرة فهى حقائق » . وبينما هذه المعانى تتخالج قلب مؤلف التفسير كانت مشاكله الخارجية تحل بأسهل ما يكون مصداقا لقوله تعالى : « نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة »
- ١٠ صورة السلم الذى تخيله المؤلف ، وفيه الصعود والنزول ، وفيه ١١ درجة ، وفوقها الحب والعلم والرحمة والجمال ، وهذه الأربعة توحيها الحشرة المرسومة فى صفحة ١١ فهناك دقة الصنع وهى رحيمة إذ تنظم بيضا ، وهما ذكر كلام الشيخ الدباغ إذ أبان أن نور النبوة غير نور الولاية
- ١٣ التفسير اللفظى للسورة كلها
- ١٤ الاعتبار بأمر فرعون
- ١٥ رجوع إلى مشركى مكة ، تخويف مشركى مكة بأن قوم تبع (بتشديد الباء) أقوى منهم فهلكوا
- ١٦ ذكر البرهان العقلى على البعث بعد الانفاة بالموعظة
- ١٧ وصف العذاب لأهل النار . وصف أهل الجنة
- ١٨ لطيفة فى قوله تعالى : « إنا أنزلناه فى ليلة مباركة » تذكروا المؤلف ما كان من نعمة الله عليه إذ كتب رسالة قبل الحرب الكبرى بعشرين بوقظ الأمم الاسلامية للمستقبل ويقول : « إن الحرب القادمة يخاف منها وفيها هلاك للمسلمين » وسبب ذلك سؤال شاب قازانى وقد ظهرت الحوادث مؤيدة لتلك الرسالة اللطيفة الثانية ، وفيها بيان أن عقول الشرقيين راقية ، ومنها أنبياء وحكماء ، فإنامة هذه العقول ذنوب عظيمة ، وهذا الذل فى الشرق عقاب عليها ، وهذه ذنوب سلبية . وهناك ذنوب قلبية كالخسد

والكبر الخ ، والقسم الثالث من الذنوب ذنوب جسمية ، وعقاب القسم الأول الجهل ، وقلة العلوم ، وعقاب القسم الثاني المنازعات الداخلية ، وعقاب القسم الثالث بأيدي القضاة في الذنوب المعروفة ، وبالأعراض والعلل في ذنوب لاضابطها كالانهماك في شراء البضائع الأجنبية ، فهذا يساعده ذنوب القسم الأول لقلة الصناعات في البلاد ، وهذا يشبرله : « يوم تبطش الخ »

٢١ ومن العذاب إرسال الدخان ، وهودخان الجوع ، ودخان الغبار ، ودخان قبل قيام الساعة وهو محسوس وكل شر غالب يسمى دخانا . كيف كان الدخان عذابا ، وكيف ظهر الدخان في حرب الألمان وهو من أشرط الساعة ، ولكن ذلك بمعنى غير ما يفهم أكثر الناس

٢٣ الرسالة القزانية ، وبيان المؤلف للطلاب القازاني ، ان هذا الموقف رهيب ، وكيف يستغنى مثله فقال له : هل العلماء المتقدمون آمنوا ما عليهم ؟ أم يحق لنا نحن أن نضكر ، ويقول المؤلف : كيف أحكم في سادة مدحهم مؤرخو الأفرنج بأنهم هم المعلمون لفلاسفة أوروبا ، وقد ترجوا كتب الأمم حولهم ، ثم خلف من بعدهم خلف تنازعوا في فروع الفقه وتركوا جميع العلوم ، ثم جاءت طاقة فأخذت تدم هؤلاء المذنبين بترك العلوم كالغزالي وابن رشد ، وهؤلاء جاء قوم بعدهم فبنذروهم وكفروهم .

٢٥ أضع الإسلام ملك وقيمه وصوفي اذا كانوا جميعا منحرفين ، إن الله يقول : « إن الله فائق الحب والتوى » بدون سؤال لعنايته تعالى بنا ، ولكنه لم يجب عن الامور الجزئية كالخمر والبسر واليتامى إلا بعد السؤال .

٢٦ يقول الله : « قل سبروا في الأرض » والسبر تعوزه اللغات ، إن الله أوعد للمسلمين الجاهلين بقوله : « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا الخ » وقد تم ذلك كله ، وهنا أئذ المؤلف المسلمين وذلك قبل الحرب الكبرى بعشر سنين ، يقول : « إني أرى كأن الأساطيل الهوائية في السماء ترمى الناس بنار ودخان » وقد تم ذلك ، وهنا ذكر المؤلف الطيارات في الجوق والضباب القاتل

٢٨ صورتان لطيارة زبلن ، وصورة الجنود يشدون الحبال ، وصورة المنطاد بعد نزوله ، وبيان أن المنطاد سافر من ألمانيا إلى أفريقيا في ٢٤ ساعة

٣٠ الدخان والضباب وآثارهما في أم زماننا ، وأن الدخان سلاح الحرب المقبلة ، وحض التريك الذي استخرجته ألمانيا من الهواء أطال مدة الحرب ، لأنها صنعت به الدممرات ، ومن العجب أن هذه الدممرات بعد الحرب أصبحت نافعة في أحوال الحياة العادية ، اخترع الأميركيون غازا اذا أتى من الطيارة يقتل آلافا من الناس ، واذا أقيمت ست قتال منه على عاصمة من العواصم أبادت جميع سكانها تكاثف الضباب في انكلترا ، وأهلك في البلجيك ٩٠ نفا ، وهو ضباب لم تدخل فيه عناصر من غيره ، وجاء تلفراف من برلين أن نضاليا الضباب ١٣٠ شخصا غير المرضى ، هذا بعض مججزات القرآن في إزال سورة باسم الدخان ، وظهرت حقايقه الآن .

٣٢ محاوره سقراط مع أرسطو وديموس أحدا صحابه في تفسير : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لالعين » وبيان أن من يصنع التماثيل العاقلة المتحركة أبرع ممن يصنع التماثيل الحجرية مثلا بلا حركة ولا احساس وكيف شك أرسطو ديموس في صانع الصور العاقلة ، لأنه لا يراه ، ولكن يرى صانع التماثيل المعروفة وكيف رد سقراط عليه بأن روحك لا تراها ، ولكنك لا تنسرها ، واذا كان هذا الصانع قد أمداك بالحياة واتقان الصنع والابداع فهو أيضا يطلب منك العبادة لأنه لم يتجاف عن خلقك وأنت ضعيف جد ضعيف ، وهنا أخذنا يبحثان في قسلة الانسان نفسه وهل يجوز ؟ وأظهر سقراط تحريمه ، وبرهن

على أن الفيلسوف لا يكره الموت ، لأنه يعطى نفسه الحرية في التفكير الذي يشغله عنه هذا البدن ،
ونفسه أعلى من أن تحب الذات .

٣٤ إن الفيلسوف مختص بالاجتهاد في النصل بين نفسه وجسده ، وهل يعرف الجمال والعدل والخير إلا
بواسطة الروح وحدها بعد الموت ، والله هو الذي يخلصنا لنصل إلى هذه السعادة العلية ، والله قد
أذن بسفري الآن بفعل السم ، وإذا كان الفيلسوف يضيع حياته في انفراد روحه عن جسده وقتنا
فوقنا ، أفليس من المحقق أنه يفرح بالموت ، لأنه يبعد عن هذا الجسم العائق عن العلم ، ثم استدل
على بقاء النفس بأن الحياة بعدها موت فلا بد من حياة بعد الموت ، لأن الضد يتبع ضده ، وأيضا
العلم نعرفه بالتعلم ، ولولم تكن لنا حياة سابقة في هذه العالوم لم ندرك هذه العالوم ، وأيضا المساواة والجمال
والعدل لا وجود لها هنا فلا بد أنها معروفة لنا سابقا ، وأيضا النفس بسيطة والبسيط لا ينحل ، فإذن
هي باقية ، وأيضا النفس آمرة للبدن ، إذن هي إلهية ، فليست قابلة للزوال فإن صفت رجعت إلى
الوجود الحق ، فكانت عنده في مقعد صدق ، وإذا كانت مدنسة فأنها تلحق بعالم الجبر والخنازير براخ ،
والمؤلف يرى أن هذا انحراف عن الاسلام فبرده بشدة ، ثم أبطل سقراط قولهم : « إن النفس للبدن
كالألحان لآلة الموسيقى ، وأنها نتيجة تكافؤ العناصر واعتدالها في المزاج ، وأنها بعد طول الحياة
المستقبله تضي » وهذا الابطال بحجج : مثل أن العلم لا يتصور إلا بمعلومات سابقة ، إذن النفس
ليست نتيجة تكافؤ المزاج ، وأيضا لو كانت تابعة المزاج في البدن لم تكن آمرة له ، وأيضا الأشياء
المحسوسة لا تكون إلا بوضع معان غير محسوسة أزلية وهي لا تقبل النقيض ، وأيضا تفاوت النفوس
عظيم جدا ، فهو جوهرى وتفاوت الألحان عرضى فهمى لا تتفاوت إلا في القوة والضعف ، أما النفوس
فتفاوتها آت من حيث انها نفوس لاغير ، وأيضا لو كان الموت نهاية كل شيء لكان ذلك لفائدة الأشرار
وهو خلاف العدل

٣٧ (الجزهرة الثانية) وفيها حكاية الشاب اليهودي التلعيز في إحدى الكليات بانكثرا إذ قتل نفسه ليلا
لماسمع من الاستاذ أن الانسان بالموت يحظى بالسعادة . خاتمة المقال في مجزات القرآن في سورة السنان
٣٨ تذييل لسورة السنان بذكر مقال المتر رابنوم ، يقول : « إن وضع مدفع على أحد جانبي نهر
النيل مع استعمال الغازات الخائفة يكفي لإهلاك الأمة المصرية »

٣٩ (سورة الجانية) مكتوبة بالحرف الكبير مشكلة
٤١ تفسير البسملة ، نظر المؤلف في جسمه إذا هو عجيب ، يدها مطلقتان ، ورجلاه على الأرض ، وعقله
موافق لاطلاق يديه ، والحيوان لم ينل ذلك فكانت غرائزه على مقدار ما نال من الأعضاء ، ارتقى
عن الحيوان فنال بمقدار رقيه ولكنه لم يصل للكواكب ، ولم يخترق الأرض ، فهو إذن محبوس .
ومع هذا الحبس يرتفع عقله إلى السموات العلاء ، لولم يحبس لكانت حياته باطلة ، لأنه لا يدرس شيئا
بل يطلق سراجه في الكواكب العظيمة فلا يعقلها ، إذن هو محبوس في مدرسة لاغير ، وهذا من حكمة
تباعد الكواكب في السموات ، الضدان الخير والشر جعل لرقى أرواحنا ، نحن الآن في حال تشبه
جهنم ، لا أنها جهنم ، الدول الظالمة والمظلمة معذبتان ، والأولى يصبح الظلم في رجالها عادة فتسقط
بعد حين ، وهذا هوسر الإيمان بالقدر خيره وشره من الله ، وهذا معنى : « تزييل الكتاب من الله
العزير الحكيم » فالعزة بقهرنا والرجة برقى أرواحنا ، والعزة والحكمة في آخر السورة كالتي في أولها
وبهذا نفهم معنى الرحمن الرحيم في البسملة ، فإذا لم يعرف الناس ما كتبناه فكيف يقولون انه رحمن

٤٤ رحيم إلا إذا أصبح الشقاء نفسه قسما من أقسام الرحمة ، وهذا سرّ أصبح اليوم ظاهرا فليعرفه الناس
وهنا أخذ المؤلف يطبق أقوال المصلي في صلواته على ما ذكر الله خلق الشمس وبضوئها انتفع كل
حيوان ونبات ، وهذا الضوء حرمة الناس بسبب جهلهم بالتقليد الاعمى من اكتثار الملابس عليهم
المانعة ضوء الشمس أن يلقى أجسامهم فتقلّ سعادتهم ويكثر شقاؤهم ان الله عامل الملوك والامراء
والاغنياء غالبا معاملةتنا للصبان فهو يكثر لهم الملابس والماء كل ، فيحجبون عن الشمس وتفسر
الأبدان فتقلّ السعادة ويقصر العمر ، وهذا هو أجرهم على حفظ بلادهم . التقليد الاعمى قتل
الانسانية

٤٥ ان بعض الأمم الشرقية فضلا عن اسرافها في مأكلاها وملبسها تسرف في شراء المتاجر الأجنبية
فيلحقها النذل المدنى فوق النذل البدنى . ان حاسة اللمس تعرف ماحولها وكل حاسة أرقى مما قبلها
والعقل فوق الجميع وله هو عالم عقلى يتصل به ، كما أن العين تتصل بعالم النور . اذن هنا رجتان عامتان :
رجة الشمس والناس جهاولها ، ورجة العقل العام الذى استمدت منه عقولنا كما استمدت أعيننا
النور من ضوء الشمس العام فى العالم ، وهاتان الرجتان مذكورتان فى البسملة

٤٦ التفسير اللفظى لهذه السورة

٤٩ الاعتبار والتأسى بقصص بنى إسرائيل

٥٢ لطائف هذه السورة ست : اللطيفة الأولى فى آية « ان فى السموات والارض آيات للمؤمنين »
وفى هذه عشر مسائل عن مقدار محيط الكرة الأرضية ونصف القطر وسرعة الحركة الأرضية ووزن
الهواء الجوى وارتفاعه وهكذا ، والاجابة عليها ، وهكذا الكلام على حجم الشمس وبعدها ، وفى
أى درجة من درجات العرض يصير أطول نهار ٢٤ ساعة ، والليل معدوم

٥٤ كيف قصر المسلمون فى هذه العلوم وعصوا علماءهم . وههنا ذكر أقوال العلامة الرازى ، اذ وصف
فقهاء الاسلام فى زمانه بالفضلة اذ يقولون ليس فى القرآن الا أحكام الفقه ، وقتهم أنه ليس فى القرآن سورة
طويلة للأحكام وفيه سور كثيرة سما السور المكية ليس فيها الادلائل التوحيد ، والنبوة والبعث
والقيامة

٥٥ الكلام على اختلاف الليل والنهار وشرح جدول فى صفحة ٥٧ فيه زيادة ونقص النهار والليل
بالسرجات ومصطلح القبط والسريان والروم . مثلا الشمس تدخل فى برج الميزان يوم ١٤ توت تقريبا
وتوت يدخل فى ٢٩ آب من شهور السريان ، وهو يدخل يوم ٣١ من أغسطس من شهور الروم ،
وذلك فى منزلة الشرطين التى تطلع فى فجر ٢٣ برمودة ، ثم الكلام على تصرف الرياح . فكما أن للشمس
حسابا فى الشهور المختلفة باختلاف الأمم ولها أيام طويلة وقصيرة هكذا لها عمل فى الرياح ، ومعلوم أن
زوايا انعكاس الضوء تكون منفرجة كلما ارتفعنا الى أعلى ، وعند الطبقة الباردة يبرد البخار فيكون
سحبا فطرا ، والهواء متى وصل الى أعلى سار جهة الشمال وجهة الجنوب ويحل محل غيره ، فالرياح
تهب فى الجنوب والشمال فتكون أنواع الرياح من الموسمية والتجارية ، والضدية ونسيم البر والبحر
وما أشبه ذلك وكل هذه ترجع الى الحرارة والبرودة
أسباب كثرة المطر :

(١) وصول البخار الى الطبقة الباردة :

(٢) ومقابلة الهواء الجبال :

(٣) والرياح الضدية تأتي من الجهات الحارة الى الباردة :

(٤) والرياح الموسمية :

بهذا يفهم المسلم معنى العزة ، والحكمة فبالعزة قهر الهواء والماء فتصرف فيهما بالحرارة والبرودة ،
وبالحكمة ساط الشمس عليهما فتقرب وتبعد بنظام لتنتج نافعة ، فهذه هي الحكمة :

٦٠ بهجة العرفان ، في جزائر المرجان ، وأن المؤلف بينما كان يفكر في الحساب الجيب الذي سيذكره
في سورة الرحمن في قوله تعالى الشمس والقمر بحسبان من عجائب الجنر والتربيع وحساب الأوقات
من حيث نظامها وبدانها وان استعملها الجهال في الأمور التافهة الحقة بيننا هو يفكر في ذلك اذ
وقعت في يده مجلة انجليزية ، وفيها رسوم أنواع المرجان التي لم تظهر الا في هذا الزمان ، فأصبح قلبه
في جنة العلوم الرياضية ، وعينه في جنة المناظر المرجانية ، فقلب سعيد بالحكمة ، والعين قريرة بالمنظر
الجليلة ، هنا تناول المؤلف المجلة وترجم ما فيها من عجائب المرجان ورسم صورها تفسيرا لقوله تعالى « الله
الذي سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره الخ » وفيها عجائب مثل صبور السمك العائش حول
سلاسل الصخور المرجانية في البحار ، وسمك النعل المنقوش وصورته في صفحة ٦٢ وبيض سمك
النعل المنقوش ، وله صورتان في صفحة ٦٣ ، وفي صفحة ٦٤ صورة قطعة من الجزائر المرجانية ، وفي
صفحة ٦٥ ثلاث صور مرجانية منها ما يشبه الورق أو يشبه السلاسل الصخرية ، أو يشبه النباتات
القطرية ، وفي صفحة ٦٦ و ٦٧ صور المرجان المشدود بخيط ومرجان موريبور ومرجان مثل
الشبكة ومرجان الكوب ، وفي صفحة ٦٨ و ٦٩ و ٧٠ و ٧١ صور مرجان المحيط الهندي ومرجان
كوب البحر ، وكأس بحري من المرجان ، وأنايب بحرية مصنوعة من المرجان ، وحصير البحر الذي
كان أول أمر كتب عنه داروين ، ومرجان الكونزيان الحي ، وفي صفحة ٧٢ الى ٧٤ صور
مستعمرة المرجان في البحر الهندي ، وشقائق البحر فوق الصخور ، وسلاسل الصخور المرجانية في
جزيرة (داكو) والجزيرة البركانية

٧٥ ههنا أتى المؤلف بآيات تناسب هذه المناظر ، ثم أتى بأمر خاص يناسب زماننا فقال : ان الله يقول
« ولكل قوم هاد » فلكل جيل أناس يخصصون له دابته من أنبياء ، وعلماء ، وأئمة الاسلامية ،
لها هداة كل بحسب زمانه ، وأم الاسلام أشبه بهذا الجنين في هذا الغلاف ، قد أحاطت بقولهم
الخرافات ، فأهداه فيها يفكرون في اخراج أمهم من الخرافات المحيطة بهم ، فهؤلاء الهداة فيها أشبه
بالتغيير الكيمائي الذي حدث في هذه البيضة الذي به يكون خروج الجنين منها ، لافرق بين الأمة
والجنين ، فكلامه هاد ، فلجنين التغيير الكيمائي ، وللأمة حكما يخرجونها من الظلمات الى النور :

٧٦ « المعاني المجسمة في الحقل » بت ليلة ٢١ ابريل سنة ١٩٣١ بقرية كفر الباشا ، وأخذت أفكر
عند تعاطي الطعام في معنى الجوع ومعنى الشبع ، وأن ههنا قائدين وسائقا ، فالسائق هو الجوع ، والقائدان
لذة الطعام والمرض مع تعاطي الدواء وأن الله فصل مع الانسان ما يفعله الانسان مع دابة نافرته منه
وفي الطريق عند الرجوع لمحت زينة على صدر امرأة محمّل جرة فذكرني ذلك أن جمال الانسان
محدود من جهات ثلاث ، وجمال النجوم ونحوها ، وجمال المرجان لاحدله ، وثمرات كل جمال على
مقتضاه ، فالنجوم والمرجان ونحوها بها يستخرج من القوى ما لاحدله ، والعلم لاحدله كما أن ذلك الجمال
لاحدله ، ولما كان جمال الانسان محدودا كانت منه ذرية محدودة

٧٧ اللطيفة الرابعة : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات الخ » وبيان أن كل ألم نعمة لأنه منذر اذن

- انتفى الشر في الارض لأن كل شر فهو لأجل خير ، ومن عجب أن الغزالي يقول : « ان كل عذاب ماهو النتيجة مقدمات كما أن المرض نتيجة اهمال في طعام أو شراب » ويقول (إسبنسر) : « ان في الطبيعة عقابا منظما محكما فان قلت المخالفة قلّ الاثم وبالعكس كمن يختبئ بشجرة »
- ٧٨ انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ، وههنا بيان علماء الأرواح وأن العوالم كل له مقام معلوم كالسمك في البحر والدواب في البر والطير في الجو ، ويقولون ان أرضنا عالم خشن والأثير حوها لطيف ، وأثيرها بالنسبة لاثير حول عالم غيرها خشن ، وليس يصد الانسان عن الرقى الى العوالم العليا اللطيفة الاذاته وغلظتها : ثم علماء الأرواح يقولون : ان فكر الانسان يؤثر في غيره وغيره يؤثر فيه وأفكار الناس أشبه بالآلات موسيقية كلما كانت أكثر وأضبط وأوفق كانت آثارها جميلة وبالعكس .
- ٨٠ اللطيفة السادسة فقه المدرب السموات ورب الأرض الخ ، وفي هذه الآية تربية العوالم والكبرياء فيها وان الله غالبها وهو مع ذلك حكيم ، وههنا أخذ المؤلف بذكر أقوال المصلي في صلته ويطبقها على هذه العوالم العالوية والسفلية .
- ٨١ ان كل جيل في أرضنا منشؤه الشمس وجودا وظهورا ، فلتكن الشمس وجودا وظهورا عن ذات قدسية ، وهذه قرّة العين في الصلاة : ان الصنعة الجميلة لصانع أرضي تشوق الناس الى صانعها ، ومنى رأوه اكتفوا به .
- ٨٢ ﴿ نور النبوة وبهجة العلم ﴾ في حديث « جعلت قرّة عيني في الصلاة » الارض ذرة بالنسبة للشمس ، والشمس ذرة بالنسبة لبعض كواكب الجوزاء البالغة قدر الشمس ٢٥ مليون مرة ، والعالم لا تعرف له نهاية . والله حكيم لا يعطى الانسان العلم الا بمقدار ، لذلك كثرت الاصنام في الارض التي نسبتها الى الحقيقة كنسبة الجلد المنفوخ الى ولد البقرة وهي لا تدرّ الا اذا رأته : عظم الله ، وتنزل الناس الى الاوثان ونحوها .
- ٨٣ قصة الخليل وبنينا صلى الله عليه وسلم
(١) الاصنام - كسر الخليل (٢) نظر في النجوم (٣) وصل الى الله ، هذه حال أهل الارض : ضلال فعولم فوصول أو (١) شهوات أرضية (٢) فعولم (٣) فوصول
كسر الخليل الاصنام ، ومحمد صلى الله عليه وسلم انتقل من حب النساء بفته الى أن جعلت قرّة عينه في الصلاة ، الخليل كسر الاصنام وارتقى الى العالم ثم وصل ، والنبي ﷺ كان حب النساء مقدمة مباشرة لحب الله ، فهو كسر الاصنام كما كسر الخليل ، وكسر الشهوة أيضا ووصل ، وهذا عجب
- ٨٤ « فقه الحد » الخ أيضا . نظام الأغذية في الارض . آثار صفات الله واصلة اليها وتلك الآثار تنقلب فينا بحسب طباعتنا نحن كما ينقلب الماء في الخنظل مرّا ، وفي الفاكهة حلوا . والعرق في الانسان من نفس الماء العام ، ولكنه يكون بحسب أمرجتنا كما اتفق لي أنا إذ كنت آكل اللحم نارة وأتركة أخرى فانصف العرق بالضدين باعتبار الحالين . فلا عجب اذا كانت آثار نعم الله تنقلب فينا نحن وسوسة للشياطين فننصف بالحسد والمقد الخ ، وذلك من كبريائه وعزته ، ولذلك لا يرى ولكن ذلك ليس لمنع منه بل لضعف قابلية المخلوق ، فعدم رؤيته له رحمة منه فكبرياؤه مصحوبة بالحكمة ، وما نعرفه من العلم الضئيل حاصل بسفلة التربية : لو أن الأشجار أعلنت الناس بما فيها بلا نعب منهم لكان ذلك خطلا : فآله متكبر ورحيم ومهرب .
- ٨٦ الآثار العالوية : بها نفهم الآية ، وصفات الكبرياء ، والعزة مع التربية . ألا ترى الى الجبال والبراكين

والجم والتلال والزلازل نار بركان (ديبلي) ، وتكون له رأس ، وهكذا أكثر الجبال تحدث بعد البراكين ، وهل البراكين إلا نعمة . ألم يشتر الأسميكيون بركانا في المكسيك بليون جنيه لاستخراج الكبريت منه ، جبال وبراكين تخرج للناس نعمة ، وأي نعمة أعظم من نعم الجبال .

٨٨ (الفصل الثالث) في تعليم الأنبياء الخ : وان الله على إذ يحصر خطابه للناس في طائفة ، وبإيجاد الطرق الثلاث في المخاطبة : كان حلما ، والكبرياء في السموات والارض غير العلو على الأنبياء : فلتفهم هذه الحكمة . رأى المؤلف جنازة شارع زين العابدين ، والنساء خلفها يبكين : فقال النوع الانساني لما منع العلم جهل بقاء الروح . فبكي والبكاء لجهله لاغير .

٩٠ (الفصل الرابع) في تربية النفس بالكبرياء والعزة ، وههنا طريقة دالتون تناسب نظام الله المتقدم ، وهذه الطريقة تجعل التلميذ مسئولاً عن عمله والمدرس يلاحظه وهو يفعل مايشاء في معمله أو كتابه والمدرس يفهمه ماأغلق عليه ، وفي أول النهار يدرس التلاميذ وحدهم ، وفي آخره يرشدهم المدرسون .

٩٣ (الفصل الخامس) في أن سياسة الأمم كعالم الطبيعة اذا أكل الانسان فوق الشبع أو طعمها ضارا فهو المسئول اذا مرض ، هكذا الأمم اذا حكمها المترفون من أبناء الملوك وهم غير صالحين للحكم فهم المسئولون ، فأين الشورى إذن ، اذا عمّ الترف قل العلم ، وبظلة العلم تضعج الأمة ولما ترف المسلمون أذلم الله ببيدهم حكموهم ثم بأعدائهم ، وحجة الملوك في أن الملك بالوراثه من غير أهلية حكم ابليس بفضل النار على التراب ، وكما جهل المسلمون سابقا السياسة جهلوا العلوم . الانحطاط يكون بالجهل واحتلال الاجانب وأوطها أهمهما . الأمة الحرة كالأسد والنمر ، والذليلة كالبقير والغنم .

٩٥ (الكلام على الاندلس) وكيف كان العرب متى كانوا في حال سلم أخذوا يقباضون ويتقاتلون كالنار تأكل بعضها ، ان لم تجدد ماتأكله ومن ذلك أنهم كافتوا البربر على جهادهم معهم بالايذاء والاحتقار . استقلال الأمويين بالاندلس : دام ملك الأمويين بالاندلس (٣٠٠) سنة ، ولها أدوار ثلاثة : دور التأسيس : ثم عصر الفوضى : ثم عصر ملوك الطوائف : الملوك منهم عبد الرحمن الداخل . فهشام . فالحكم . فعبد الرحمن الثاني الذي شغلته النساء والمظاهر الخارجية فعمت الفوضى فمحمد ابنه الذي ولاه الخصيان والموالي وكرهه الناس ، وهناك انفصلت أقاليم واستقلت : ثم ولي ابنه المنذر ولم يدم ، وبعده أخوه عبد الله فعمت الفوضى جدا وتفرقت الأمة شيعة ، وبعده حفيده عبد الرحمن الناصر ، وهذا كان عصره ذهبيا وأرجع المجد وحفظ الملك وقاتل المسيحيين : ثم تنافس أعقاب الناصر هذا على الخلافة ثم كان انتقال النفوذ الى الوزراء وظهور بني حوّد ثم الانفصال من المملكة ثانيا ، وبالجملة ان العرب أذلم الانغماس في الشهوات والانقسام ولم يزالوا كذلك حتى أزالهم فرديناند وإزابلا .

٩٨ فته الحمد الخ أيضا : يجب المؤلف من قصة موسى مع فرعون وأنها موازنة لقصة العوالم الارضية وبيانه (١) انه أتى في التابوت (٢) والتابوت ألقاه الى الساحل (٣) فأخذته العدو (٤) وقيل لأمة لا تخاف الخ (٥) وقتله القبطي (٦) وأعماله مع السحرة (٧) ونجاحه : (١) تحدث زلازل (٢) فيكون الخوف والذعر (٣) فتكون أراض زراعية (٤) ومنافع الكبريت (٥) وجزائر (٦) وجبال ، وهذابيعه تعلم دالتون ، وهو بينه العزة والكبرياء مع الرحمة والحكمة والتربية ، وهذا تفسير لاسماء الله في الآية (١) كبرياء الله وعزته وتربيته للمؤلف . انه قد عاهد الله أن يؤلف للمسلمين متى تعلم ولم يجحد وهو مدرس الاصبح الجمعة للتأليف فأخذ يؤلف فيه ، ولكنه ترك التأليف

يوم جعة فتألمه رجل يعرفه وذهب ليشتري هجلا والمؤلف معه ، اذن الله عاقبه بالنوحه لمحل البهائم فله الكبرياء والعزة ولكنه بريه (٢) لما عزمتم على التأليف أحاطت في المزججات والنوازل ولكنني قلت في نفي : انني شديد الحياء وأنا أترسرع ، فآله بهذه المصائب يعلمني الثبات ليدوم التأليف ، وقد وجدت معونات كثيرة من الله عز وجل (٣) حديث السمكتين اذ قالت احداهما للأخرى لماذا أرى بني آدم أكرم منا ، ان البحر يعلو فوقنا مئات الأمتار ، ولكن هؤلاء ليس فوقهم من الهواء الا ما لا يزيد على عشرة أمتار : فكيف هذا : فقالت الثانية لتجتمع ولتدع الله أن يخفف عنا : فأجاب الله الدعاء بأن أرسل من البحر بخارا في الجو . فقالت الأولى : ان هذا البخار لا يقلل ماء البحر . فقالت الثانية : اصبري ولا تنجلي ، فصار البخار سحابة مطرا ، ومنه ما صار تلجافوق الجبال ، وهذا الثلج يتخذ له طريقا في الأودية ، ويدفع بعضه بعضا ، ويكسر معه من الجبال حجارة وصخورا : ثم ينزل الى البحر في جهة اليابان وغيرها ، وهذه الحجارة تصبح مأوى للسمك : هذا ملخص حديث السمكتين ، وفي أثناء ذلك ترى شكل ٢٥ صفحة ١٠٣ : تشقق الصخور بسبب التغيرات ، وشكل ٢٦ واد ناشئ من سقوط مفارة جبيرة ، وشكل ٢٧ مقطع رأسي في جانب الجبل فيه بئر ، وشكل ٢٨ الآبار الارتوازية ، وشكل ٢٩ صفحة ١٠٥ منظر بئر ارتوازي ، وشكل ٣٠ واد عميق ضيق ، وشكل ٣١ تحول الهضبة الى أودية ، وشكل ٣٢ هضبة حديثة ، وشكل ٣٣ الحفر الوعائية بسويسره ، وشكل ٣٤ أسباب وجود الشلالات ، شكل ٣٥ منعطفات نهر المسيسيبي ، شكل ٣٦ تكوين سهل الفيضان : المطر والبرد والثلج : التلاجات وخطر الثلج ، شكل ٣٧ صفحة ١١٠ صورة الطرف الأدنى من الجرف الثلجي في الرون ، شكل ٣٨ زيادة سرعة النهر الجليدي ، شكل ٣٩ صقل الثلج للصخور . نذكرة في قوله تعالى « وما أنزل الله من السماء من ماء » ، والكلام على القيمة الغذائية للأكولات ، وان السعر اللازم للكيولوجرام في اليوم ٢٨ لمن في الفراش ، و ٣٢ للجالس ، و ٣٣ لشغل بسيط ، و ٤٠ لشغل متوسط ، و ٤٨ لشغل صعب الخ .

١١٧ ﴿ تفسير سورة الأحقاف ﴾ . كتابة السورة مشكلة بالحرف الكبير

١١٩ تفسير البسملة ، نجلت الرحمة في السورة بالعزة والحكمة والصبر ، ومدح النبي برّ والديه ، وذمّ من عصاهما واطهار حكمه عاقبة ، وهي أن الانهماك في الشهوات يورث الخزي ، ويدخل ضمن هذه القاعدة

الدول الأموية والعباسية والأندلسية والمصرية الخ

١٢٠ بيان أن في السورة ستة مقاصد

١٢١ التفسير اللفظي

١٢٢ معارضات النبوة والاجابة عنها

١٢٣ أهل الاستقامة الذين وحدوا الخ

١٢٤ « واذكروا أنا عاد » الخ

١٢٥ الكلام على الجنّ وسماعهم القرآن

١٢٦ « فاصبر كما صبر أولوا العزم الخ »

في هذه السورة خمس لطائف ، اللطيفة الأولى في آية : « أذهبتم طيباتكم الخ » وذكر حديث الربيع ابن زياد مع عمرو رضي الله عنه ، وحديث البخاري : « إن مما أخاف عليكم الخ » وفيه أن إكثار المال

- يكون سبب هلاك الأمم
الكلام على الجن ، وأن الأرواح في الدنيا إما ملهمة ، وإما واقعة في الوسواس ، وهناك أرواح تحيط بنا
من كل جانب تساعدنا وتنفعنا
- ١٢٩ موازنة بين علماء الاسلام وعلماء أوروبا في هذا المقام ، وآية : « أولم يروا أن الله الذي خلق السموات
والأرض الخ »
- ١٣١ هنا مبحثان : مبحث اتباع الشهوات وترك الصحة طلاك الفرد ، ومبحث التبذير في الأموال هلاك
الأم والأول تقدم في سور كثيرة ، والثاني كذلك
- ١٣٢ ولكن نذكر هنا محاورة بين سقراط وغلوكون ، ويان أنه لا يجوز أن يخوف الشعب من الموت ،
ولا يجوز أن يكون في الشعر ما يوجب الفسوق ، بل يكون بسيطاً ، وكذلك الموسيقى ، وهكذا الطعام
يكون بسيطاً ، وهكذا يكون هناك تمرين الأعضاء بالجناساتك ، فالموسيقى البسيطة لصفاء الروح ، والتمرين
للجسم ، فيحصل الاتزان ، والحكام يجب أن يكونوا منتخبين من هؤلاء الجنود المثقفين ، ويجب
مراقبة الشعراء فلا يسمعون الشعب سباجة وسفالة فلا يفسد الحكام وهم لا يشعرون ، ويجب اظهار
مخائب الجبال ليورث الصلاح في قلوب الحكام
- ١٣٤ ثم أخذ يذم السكر والاكتار من الطعام ، وذم الأمم التي تحتاج إلى كثرة الأطباء ، أو القضاة ، فنظام
الطعام يعني عن الطيب ، وبساطة الموسيقى تضي عن القضاة ، والناس ذهب وفضة ونحاس ، فليكن
كل في موضعه . ويجب أن يكون للحكام خيام لا يبيتون لئلا يسيروا ذئاباً جائعة ، ويجب أن تكون
سعادتهم سهاوية لا أرضية ، وأخذ يذم التهمين في الطعام والشراب وهم لا يفهمون أن الطيب وأدويته
لا تزيدهم إلا هلاكاً كما لا يفهم رجال السياسة إذا ظلموا إلا التملق
- ١٣٦ وليس يجوز أن يحكم الأمم إلا الفلاسفة المفرمون بالحكمة ، ومن عجب أن سقراط قبل النوبة بألف
سنة ، ثم كانت أكثر تعالجه موافقة لها ، وهذا الفيلسوف قد صرح (اسبنسر) وغيره أن فلاسفة
أوروبا بالنسبة له أطفال
- ١٣٧ وههنا نذكر عصر الخلفاء الراشدين من سنة ١١ إلى سنة ٤١ وفي هذا العصر كان الصحابة حالم
من الأمة حال الأم مع أبنائها ، فهم يتبرون من المال ويفرقونه على الناس ، ولا ينفقون على عيالهم
منه شيئاً ، فعمرو وعلي وأبو بكر كلهم تغالوا في الزهد ، وفي عصر الأمويين شاع التبذير في الدولة ، ويقال
إن سيدنا عثمان نفسه مات وعنده ١٥٠ ألف دينار الخ
- ١٣٨ وقد كان عمر يحرّم على جند المسلمين أن يملكوا أرضاً لئلا يكسبوا عن الجهاد ، ولكن المسلمين بعد
ذلك رجعوا إلى أخلاق الروم والفرس في حوز المال ، وقصة أبي ذرّ الغفاري في ذم كثر المال مع
معاوية وعثمان رضي الله عنه معلومة إذ نفاه إلى الربذة حتى مات ، وكانت هذه من أسباب قتل عثمان
رضي الله عنه
- ١٤١ الاسراف في أيام بني أمية ، وكيف أراد عمر بن عبد العزيز أن يرد المظالم إلى أهلها ، فجبجباوا بقتله
بالسم ، فلما مات رجع الظلم أكثر مما كان وزاد ، وقد انغمس خلفاء بني أمية في الترف وقد بولون
العامل بأشارة جارية ، ثم أخفوا يستكثرون من الصنائع والموالي الخ
- ١٤٣ دولة بني العباس واسرافها
- ١٤٤ حتى أنه كان لنسأهم ثروة فقد كانت الخبزران أمّ الرشيد ملكها أكثر من مال (روكفلر) في زماننا

- وهكذا أم محمد الواثق وأم المستعين
 ١٤٥ وأكثرها من الجوارى والغلمان
 ١٤٧ الوزراء كانت ثروتهم كثرات الخلفاء ، إن الخاقاني وزير المقنن ولي في يوم واحد ١٩ واليا على
 الكوفة ، وقد انقسم الوزراء في الترف والنعيم في دولة بني العباس وبلاد الأندلس والفاطميين ،
 وأول وزراء الفاطميين كان عنده أقطاع في الشام دخلها ٣٠٠٠٠٠ دينار في السنة ، وخلف ما قيمته
 ٤٠٠٠٠٠ دينار
 ١٥٠ المدينة كانت محصورة في المدن عند الخلفاء ومن خالطهم
 ١٥١ الفلاحون يسمون بالأجرة ، ومنهم من لم ير الدينار طول عمره ، وبين ذلك حكاية ابن طولون مع
 الصياد وابنه إذ أعطاه ٢٠ دينارا فأت من الفرح الخ
 ١٥٢ وههنا ذكر المؤلف جمال العلم في زماننا ، وأن الفلسفة والتاريخ والدين أصبحت كلها علما واحدا ولم
 يكن ذلك قبل الآن ، ويان هيئة عمر مرضى الله عنه مع عماله وأنه كان يجتهد في حفظ السولة بالمواصلات
 وعماله يريدون أن يوسعوها شرقا وغربا
 ١٥٣ كثرة الأسرى والأرقاء ، وقد غنم موسى بن نصير ٣٠٠٠٠٠ رأس من السبي ، وقس على ذلك
 الكلام على معاملة الأسرى
 ١٥٤ كان للخلفاء عناية بفك الأسرى . بيان أصناف الأرقاء ، وأنهم اذا كثروا عند أحد اتخذهم جندا ،
 وقد يتخذون زينة للمجالس
 ١٥٥ الكلام على الخصيان وأن الروس الذين كانوا يسمون السلاف والسرب والبوهيم والسلطات نزلوا شمال
 البحر الاسود ونهر الطونة ، ثم توغلوا في أوروبا ، وحاربوا السكسون والهنون وغيرهم ، وكانوا يؤخذون
 أسرى عن طريق فرنسا فاسبانيا فصرفوا الشام ، وهناك راجت تجارتهم عند المسلمين وهم من الجرمان
 (ألمانيا والسلاف) ولا يزال الجرمن وجورجيا يبيعون أولادهم إلى الآن ، وسلاف هي كلمة معناها عبد
 عند الانجليز وغيرهم
 ١٥٦ خصاء بعض الأرقاء : كان هناك في فردون بمقاطعة اللورين بفرنسا معمل لخصاء الأطفال من هؤلاء
 ويموت بعضهم ، وكان ملوك الفرنج يهدونهم إلى المسلمين ، وقد كان للجوارى شأن عظيم ، فكان
 الناس يقدمونهم هدايا لجمال ، أولصوت ، أو نحو ذلك
 ١٥٧ سليمان بن عبد الملك يذم الغناء ، ويرى انه فتح باب الزنا ، وقد أمر بأن يخصى المثلثون بالمدينة .
 ١٥٨ القيرة ، اللباس ، مباني العباسيين : دار الشجرة بناها المقنن وفيها شجرة من ذهب وفضة لها ١٨
 غصنا ، لها فروع مكاله بالجواهر الخ . قصر الزهراء بقرطبة للخليفة الناصر . الزاهرة للنصور بن أبي عامر
 ١٦١ قصر الحمراء ، وأمثاله وهو بقرطبة محفوظ للآن . مباني آل طولون بمصر . مباني الفاطميين كالقصر
 الشرقي والغربي ، وهذا الأخير أفضقوا عليه ٢٠٠٠٠٠ دينار
 ١٦٣ مباني الأيوبيين ، والمماليك . الثروة والرخاء ثروة الخلفاء ، وأهلهم
 ١٦٤ البنخ في الألبسة
 ١٦٥ الأثاث ، والرياش عند العباسيين . الفرش والأثاث عند الفاطميين . آثمان الجوارى ، وقد كانت
 الزلفاء قديمت بمليون درهم أي (٧٠٠٠٠٠) دينار . مبلغ السخاء على العموم
 ١٦٨ سخاء البرامكة ، وههنا حكاية الرجل الذي كان يكي في خرائب البرامكة ، وكيف أعطوه مالا لاصته

- وضياعاً ثم آذاه عمال العباسيين ، فرد المأمون على الرجل أمواله
- ١٦٩ التهنك
- ١٧٠ شكل المجلس واحتفالات الاعراس
- ١٧١ استقبال الوفود
- ١٧٢ عقاب الأمراء المسلمين بجملهم في نفس الحياة الدنيا قبل الآخرة . ذكر ماجاء في «مروج الذهب» من قتل المتوكل والمتنصر بالله بعد المتوكل والمستعين والمعتز
- ١٧٥ ثم قتل المعتد على الله العباسي ، والمعتض بالله بعد المعتد ، والمقتدر بالله . والقاهر بالله ، والمتقي لله والمستكني
- ١٧٧ ذكر المهتدي بالله العباسي الذي أراد أن يقتني آثار أبي بكر وعمر فقتله جنده الترك ظلماً ، ولما تحققوا صلاحه وزهده بكوا عليه
- ١٧٨ إن الأمم الاسلامية بعد العصور الاولى اتبعوا خطوات الأمم التي حكموها فسقا وظلماً
- ١٧٩ يجب أن نمتحن التاريخ امتحاناً تاماً ، ونحرم من الشعر كل ما يضر بأمنا كعصا أقوال المعري ، وأقوال الشعراء الفزليين ، ونحرم دخول كل صورة في السبنا تدعو الى الفسوق ، ويجب أن نترك محال الفرنجة ، ونعمم التعليم للرجال والنساء الخ
- ١٨٠ براق بن عمار اتفق مع الأذفونش على أن يخدموا أمة العرب بمعاهدة حرية الدين ، والتجارة والتعليم وتم ذلك وامتلات البلاد بالخر والفسوق والمبشرين ، والبابا نفسه ينفق على ذلك من جيبه الخاص ، ولعب المدرسون بعقول التلاميذ . قسيس يخص شبان المسلمين بشرب الخمر الذي عصره من عنب قرطبة . عدد المبشرين بالأندلس (١٠٠٠) ، كشف حصين بن جعفر قائد في بلنسية ان ابن ذي النون وزير عدي يريد تسليم البلاد للفرنجة ، وتم ذلك قبل أن يبلغ الحصين ذلك لعدي وافضحت الأبرار ، وقتل (١٣) ألفاً للدفاع عن العرض و(٣٠) ألفاً للمحافظة على الدين
- ١٨٣ وبراقي بن عمار الخائن قتل أيضاً ، وقد وعد البابا جندي بن حمودا أن يكون ملك الاسلام بالأندلس فأخذ جيشه ليحارب قرطبة فدخل الروم بلدته اشيلية ، ثم قتله هو ، اعتراض على المؤلف وأنه يضر القرآن بالتاريخ الشكوك فيه ، وإجابته على ذلك بأن النظر في التاريخ من حيث الاجال والنظر فيه من حيث التفصيل خطأ ، فنحن وإن كنا لانصدق أن أمثال هارون الرشيد يتوغل في اللذات فنحن مع هذا نأخذ باجال التاريخ كله ونبنى مستقبلنا عليه فلانسرف كما يسرفون ، ولا نقصف كما يقصفون ، ومماثل التاريخ الاكمل النظر في هذا العالم كله ، فهو من حيث التفصيل ضلال ، ومن حيث لاجال حكمة وعلم ، ونحن اذا نبذنا العبرة بالتاريخ كنا أسوأ أمة ، واذا كان الانجليز قد اتفقوا بتاريخنا عند احتلال مصر ، وعند احتلال الهند فلماذا لانفتخ نحن به ان الناس اذا لم يعولوا الاعلى اليقين ، وتركوا الظن عطلت تجارتهم وبارت أرضهم الخ ، ولم يكن لعلم الفقه وجود ، وطاحت الأمم فلانظام لها ولا مقام
- ١٨٦ ان المسلمين قد نسوا درس الاندلس ، هاهي هذه الأمة المصرية أيام اسماعيل باشا لم يتفطن عظمائها الى مكيدة قائد الجيش المصري ، وهو امريكي في حرب الحبشة ، وقد اتفق مع النجاشي على اهلاك جيشنا ، ثم علم بذلك الخديوي فسكت لحوف الفتنة
- ١٨٧ الأمم الاسلامية كلها متشابهة ، وقد تدخلت الأمة الانجليزية والفرنسية في احوال مصر لأجل الدين

- والقصد احتلال البلا وقد تمّ والمصريون جلاؤنا ليس هو عليهم كما قال أحد العلماء الاوروبيين ، وقد أخذ الخديوي معه أوراقا مالية بنحو (١٣) مليوناً من الجنيهات
- ١٨٩ وما مثل تاريخ الأمم الاسلامية الا كمثل شجر السنط ، ورقه هو الذي يمثل : رثة الحيوان أشبه بأخبار عمر وعلى ، وشوكه أشبه بسوق الملوك وجهلهم : فاذا أراد الناس أن ينسوا قصة العصر الأول شاكنهم تواريخ المتأخرين من الملوك .
- ١٩٠ اني نظرت ليلا في السماء فرأيت هواء وسحابا وكواكب غفل الناس عنها وعن إبداع عيون الحشرات وعجائب نظامها كغفلة أم الاسلام عن تاريخ أسلافهم وهم لا يتعظون .
- ١٩١ يتذكر المؤلف أيام الشباب ، وهو يحضر في نفسه الأمم أمة أمة إجمالا ، وهنّ يذهبن الواحدة تلو الأخرى : فهذه الآن في هذا التفسير يجمع آراء الأمم ، وقد أخذ يمتحن تاريخها وسيتبعه المسلمون بعدنا في ذلك الامتحان بما هو أدق وأضع .
- ١٩٢ ان الرؤساء والمرؤسين مسئولون عن أفعالهم ، والسلاسل التي ستوضع في عناق الكافرين في الآخرة هاهي هذه الآن موضوعة في أعناقهم في الدنيا بشكل بسيط .
- ١٩٣ من أشرار الساعة : أن تلد الأمة ربها ، وهذا يقرب مما فعله خلفاء العباسيين : فان أمتهم الأولاد جاء تفرق الدولة على أيديهم ، وهذه مجزة للنبوّة ، ووافق على ذلك سبنسر الانجليزي .
- ١٩٤ للدولة العباسية محاسن كلها مسار ، وكان لهم درواجن وحجاب والجزية محدودة الخ .
- ١٩٥ الأعمال العامة والادارة في الدولة العباسية مثل ديوان الضبط ببغداد ، وصهاريج القوافل في الطريق الخ ونظام العلوم والصناعات والفنون الأدبية والصناعية والمساكن الخ .
- ١٩٦ والكلام على غفائهم وعلى انحطاطهم .
- ١٩٧ وهل تفهم كلام الله الا بمثل هذا التاريخ : ان الاموال كثرت عندهم كأموال قارون ، وظهروا في زينتهم ثم ذلوا وقتلوا أكثرهم .
- ١٩٧ ما حصل لقارون ، وسينتفع بهذا التاريخ المسلمون ، ان الشورى هي القانون الحق : فهل أغنى عن المسلمين أيام انحطاطهم مبانيهم وزخارفهم : كلا بل أخذها أعداؤهم .
- ١٩٩ في الفصل الثاني « واذكر أفعال عاد » ، وبيان أن العرب كانوا في العراق ومصر قبل الميلاد بنحو أربعة آلاف سنة ثم رجعوا الى الجزيرة : فكان منهم عاد إرم وعمود إرم ، وقد كتب اسم عاد اليونانيون حوالي زمن الميلاد كما كتبوا حضرموت ، وللعرب خرافات في أمة عاد ، ولم يعثر النقبون على اسم عاد الى الآن ، وجاء في بعض القواميس ذكر عاد إرم .
- ٢٠٠ ملحق خريطة تلك البلاد وفيها قبر هود وصالح عليهما السلام .
- ٢٠٣ سورة محمد صلى الله عليه وسلم : السورة كلها مكتوبة بالحرف الكبير .
- ٢٠٥ في السورة ٢٠ آية فيها الغضب على الكافرين : فكيف تبدأ بالبسملة ، وفيها الرحمة ، والجواب على ذلك : يتقدمه الكلام على أيام الصبا : إذ كنت أسمع أصوات الناموس بهيئة محزنة ، وهأنذا اليوم أسمع في عالم الخيال ناموسين تفسر إحداهما آية دابة الأرض بأنها على حقيقتها ، ولكنها رمز الى الوقوف على حقائق هذا الوجود ، ومنه الحيوان ، وابتداء الاجابة بالبرهان على أن الموت عدل
- ٢٢٥ ﴿ اللطيفة الأولى ﴾ في قوله تعالى : « أفلم يسيرا في الأرض » في هذه اللطيفة بيان أن آباءنا العرب القدماء قبل النبوّة كانوا لا يعتبرون بالأمم البائدة حولهم ، ثم رأينا المتأخرين من المسلمين بالأندلس

وأمر الاسلام فسقوا فهلكوا ، فلماذا لا يعتبر المسلمون الحاليون بحال تلك الأمم .
 ﴿ اللطيفة الثانية ﴾ في آية : « والذين كفروا يجمعون الحُج » وفيه بيان أن الانسان امتاز عن الحيوان بالعقل ، فحتى أنامه هلك في الدنيا والآخرة ، وفيه حث على درس جميع العلوم
 ﴿ اللطيفة الثالثة ﴾ فيها وصف الجنة ، وأنها للعامة تذكّر بالأوصاف المشهورة ، وللخاصة بالأمثال ، وخاصة الخاصة بما هو أرقى بأن يحشر كل مع من يميل إليه ، وهو هنا استشهد بأشعار العرب

٢٢٨ تفسير : « ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة الحُج » وهذا تفسير لفظي

٢٣٠ « وان تتولوا يسبدل قوما غيركم الحُج » وأن الأمويين والعباسيين اقتتلوا على الخلافة ، وهو تقطيع

للأرحام ، فانتقل الحكم للفرس تارة ، ولترك أخرى ، وللتار كذلك ، ثم للعثمانيين الحُج

٢٣٢ لطيفة في آية : « الذين كفروا وصتوا عن سبيل الله » وبيان أن هذا المقام سيذكر فيه مقال من

كتاب « حاضر العالم الاسلامي » في أول سورة الحجرات ، وفي آية : « حتى تضع الحرب أوزارها »

وأن هذه الآية تشير إلى السلام العام ، وأن المسلمين هم أولى بذلك ، فليقوموا برفق أنفسهم ، ثم

ليكونوا رسل السلام العام في الأرض لأنهم رحمة للعالمين ، وههنا الكلام على أشراف الساعة ، وأن

النبي ظهر منها يراد به هلاك أم بعلامات خاصة ، وذكر سر حديث : « إنه ليغان على قلبي » وأن

كل واعظ ومرشد لا يتم له ذلك إلا بصلة بين قلبه وبين ربه والا انقطع الامداد الذي يسلم منه

إلى الناس .

٢٣٥ « فاعلم أنه لا إله إلا الله » والكلام على رسالة امرأة الفيلسفة ، وأن بعض طلبة دار العلوم سألوني

عن مقال في الفيلسفة واني جعلت ذلك في مقدمة وبايين ، والباب الثاني تقدم في سورة لقمان والمقدمة بها

(١٠) قواعد ملخصها يرجع الى قياس العقول الانسانية التي تهدي الانسان بأضواء الشمس للشرق

على جسمه ، وكما أن الجسم من الارض والضوء يشرق عليه وهو على مقدار الجسم ، وينفخه فهكذا

العقل من عقل أكبر منه ، وهو من غير الأرض كضوء الشمس وهو على قدر الانسان ، ونافع له

ولا يعرف ما فوق طاقته وهو أصل الوجود لأنه يحفظ الصورة فأما المادة فانها لا تحفظها لتقبلها بل المادة

لا وجود لها عند القدماء وعند المحدثين لانها لم تظهر للقدماء الا بصفتها وهي عند المتأخرين قط

ضوئية ، وباختلاف حركاتها يكون اختلاف الأجسام والصور في أنفسنا دائمة بخلافها في المادة إذن

الأصل نفوسنا والمادة فرع لها إذن الناس إخطأوا في ظنهم أن المادة أصل كأخطأوا في قولهم أن

الشمس تدور حول الأرض . معرفة العقل العام بواسطة معرفة النفس ، إن الناس عرفوا عناصر

الكواكب بأضوائها المشابهة لأضواء العناصر الأرضية ، هكذا فلنعرف العقول المحيطة بالعالم من

معرفة عقولنا فكما أن أجسامنا من الأرض ، ونفسنا (بالفتح) من الهواء ، وشربة الماء من البحر

حولنا فهكذا عقولنا من عالم عقلي يحيط بنا واذا كان الضوء مستمدا من الشمس فليكن هكذا

عقولنا مستمدا من إله خلق العالم ، وهذا الموجود الذي هو سبب وجود العقول العامة لا يجوز أن

أن نبحث عن سبب وجوده لان هذا يقال اذا كان العدم هو الأصل ، والحق أن الوجود هو الأصل

أما العدم فاعلم هو كلمة جوفاء لم يعرفها الانسان وإنما نجده قد أخطأ في فهمها إذظن أن تفرق أجزاء

الحيوان والنبات عدم ولاعدم ألبتة وإنما هذا كله تفریق كما أن ظهور حيوان جمع ولاوجود

جديد وإذقلنا المادة تعدم أو معدمة فليس هذا معناه العدم لانها ترجع الى الأثير أو القوة والقوة

والأثير موجودان إذن الانسان غلط أيضا في ظنه ان العدم أصل

٢٣٩ كيف كان خلق هذا العالم ، ان العالم لا يحتاج الى مادة يخلق منها (أولاً) ان المادة نفسها تظهر أنها لا وجود لها فكيف تحتاج الى مادة (ثانياً) ان خيالنا موجود لانه يكون سبباً لظهور صور في المادة على مقتضاه وما كان سبب الوجود لا يكون معدوماً (ثالثاً) ان هذه الصور الخيالية الموجودة سريرة الزوال وهي ضعيفة لا تراها الحواس (رابعاً) أن العوالم المحيطة بنا ظهرت برادة الله كما ظهرت خيالنا برادتنا ، ونسبة ظهورها وبقائها الى ضعف وزوال صور خيالنا كنسبة عظمة الله الى ضعفنا وبهذا نعرف « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » لأن الكلام يحدث في عقولنا وجود المتكلم به والعقل العام المحيط بالعالم تستمد منه جداول الى كل جاد ونبات وحيوان وكل عالم ، وتكون تلك الجداول العقلية مختلفة باختلاف تلك الاجسام اه

٢٤١ معرفة الله وعرض آراء علماء اليونان والمسلمين وأوروبا على هذه النظرية : أنت لا تعرف وجود صديقك ، ولا وجود ابنك إلا بما يبدو من أعماله ، ولم تر روحه مطلقاً ولا تشك في ذلك الوجود ، والله تدل عليه كل حركة وعمل في العالم ، فبراهينه أعظم ، ولكن لكثرتها جعلت العقل كالمدهوش فكان من الناس من وصل إلى العقل الكامل صرف ربه بعقله ، فيكون الانسان كالملاك وكذهب أفلاطون ومن معه ، ومنهم من كان أدنى فصار كالبصر كذهب سقراط ، والحيوان ذى الأربع . مذهب أنكساغورس مثل الخلد (بفتح الحاء واللام) الذى يعيش في الظلمة ، وأول موجود عنده العقل ، ومذهب السوفسطائية كحاسة الشم ، وحيوان ذى ثلاث حواس ، وديموقريطس يقول بقدوم الطبيعة وهو كحاسة النوق ، أنكسيانس كحاسة اللمس ، ثم ان السوفسطائية هم العنيدية وأستاذهم بروتاغورس ، وعنادية وأستاذهم غورغياس ، ويلحق بهم اللاأدرية يقعون بيرون ، وههنا ذكر (ديوجانس) الكلبى الذى استاء من تعريف الانسان بغير الحقيقة .

٢٤٦ ليس من المعقول أن تكون العلوم المنظمة والعقول البديعة والشعر وهذا الجمال ناشئاً عن اصطكاك حجر بحجر . كلا . وكيف تخرج قصائد وعلوم من تحريك حروف الهجاء في صندوق ، فهذا مستحيل ويوافق هذا قول أرسطاطاليس وغيره . شيعة فيثاغورس

٢٤٧ آراء فيثاغورس وأنباذوقلس ، فالأول يقول : الأصل العدد ، والثانى يقول : المحبة والعداوة أصل الوجود ، وحكاية نبوغ أنكساغورس ، وأن العالم نشأ عن عقل حركة وتزكك .

بيان آراء الشهرستاني في (الملل والنحل) ، وأنه يقول في هؤلاء الفلاسفة انهم أشبه بعلماء الاسلام يوحدون ، والرد عليه بأن هذا غير صحيح وهذه التواريخ فيها خطأ : مثل أن فيثاغورس كان في زمن أغسطس مع أن بينهما ٤٥٠ سنة وغير ذلك .

حكاية سقراط وانه لما كان حديث السن أغرم بالمباحث العقلية ومعرفة الله فسمع بمذهب أنكساغورس ففرح ، ولكن وجدته يقصر عمل الله على مجرد العلم فقط ولا عمل له ، وكيف برهن سقراط بانتظام السمع والبصر وغيرهما وأن لهما غاية تامة على مدبر ، وهذا النظام يفرق بينه وبين صانع لا يفعل ذلك وبيان أن البصر أعظم نعمة لأنه رأى السماء والكواكب فهو المحرك للفلسفة وهي أجل النعم ، وبيان أن الله اذا كانت عناية بالانسان تامة فلماذا لا يتجه إليه بالعبادة ؟

٢٥١ وسقراط يعنى بالتعريف والحد ، ويرى أن الأخلاق وتهذيبها أجدى على الانسان من المعرفة ، وبيان أن أفلاطون لا يجعل اسم الوجود ينطلق على المشاهدات ، بل على أمثلة لما نشاهده لها في المشاهدات

من آثاره ، فأما ما نراه فليس معلوما بل هو أشبه بالمظنون ، لأنه لا نبات له ، وما لا نبات له لا يتعلق به العلم والانسان كان يعرف الحقائق قبل وروده إلى هذا العالم ، وبالتعلم يرجع إلى حاله الأولى شيئا فشيئا فيتذكر ما نسي ، وهذه قائلها أيضا الفزالي والرازي وابن عربي ، وهذه كلها آراء أفلاطون بنصها وفيها فهي مثل ما جاء في (فيدون) وغيرها ، ومتى عرف الانسان الحقائق احتقر هذه الدنيا احتقارا تاما ، وسقراط يقول في الأخلاق : « إن الناس يركبون الذنوب لجهلهم مغبتها ، أضعف علمهم ، وهو حق ورأى أفلاطون امتزج بأرواح الاسكندرانيين والإيطيين من النصارى والمعتزلة وفلاسفة ألمانيا وبعض أوروبا ، ويقول المؤلف : إن هذه الآراء مجيزة لدينا صلى الله عليه وسلم لأنها ظهرت قبل وجوده ، وجاء هو بأهم منها .

٢٥٥ يقول أرسطاطاليس : إن آراء أفلاطون منقوضة ، فكيف يكون المفارق للمادة مؤثرا فيها ، وكيف ينطبق السكلي الواحد على أفراد كثيرة وجعله منطبقا بضرب مثل ليس برهانا . المادة والصورة والحركة هذه الثلاثة هي الطبيعة ، ولا انفصال بين المادة والصورة إلا في العقل ، ثم إن الطبيعة ترتقي من أدنى جماد إلى أعظم انسان ، وبيان أن ما تقدم هو آخر ما وصل إليه العقل الانساني ، والاعتراض على ذلك بأنه لا دليل عليه ، واجابة المؤلف بذكر أن الفلسفة كطفل ظهر فترعرع .

٢٥٧ فلاسفة أوروبا بالسوا شيئا بالنسبة لفلاسفة اليونان : آراء (باكون) الانجليزي في تاريخ العلوم ، رأى (جون لوك) يقول : المادة هي الأصل ، رأى (باركلي) يقول : « إن الأصل النفوس وحواسها » ٢٥٨ كانت الألمانية وكتابه تحليل العقل المجرد ، وألمانيا كلها تتبعه ، وأمثال شلر وغوته الخ . درجات الفلاسفة وهي : أقلهم تاليس ، وأعلام سقراط ومن معه ، والدرجات الست أولها الطبيعيون وآخرها الاطليون وبينهما السوفسطائية ونحوهم ، وههنا قاعدة ، ويدخل ضمنها كل متعلم في الشرق والغرب يوضع كل في درجة من هذه الست

٢٥٩ مذاهب السخ واليوجي وكتاب الفيدا : هذه الثلاثة نظامها كنظام فلاسفة اليونان : المادة ، ثم إليه يعلم ثم إليه يعمل ، فالناس كلهم يرجعون لنقطة واحدة

٢٦٠ الوجود أصل ، قصة الخليل ، نموذج النظام ، الفلاسفة وتاريخهم

٢٦١ أرسطاطاليس رد على أفلاطون فرد عليه أيضا تلاميذه وقالوا له أنه يرد عليك ما أوردته على أستاذك فلذلك جاء بعده أبيقور وشيعة ، فاستمسكوا بالمادة وأهل الرواق ، فقالوا : المادة متحدة مع العقل والمشاهدون تفرغوا لعلم الطبيعة . شيعة الاسكندر بين : أولهم مونيوس سكاس ، ومنهم الفرع الاسكندري والفرع الشامي ، والفرع الأثيني ، وأهم المذاهب كلها مذهب أهل الاسكندرية .

٢٦٣ إن الفارابي جمع بين رأى الحكيمين كما فعل ذلك أهل الاسكندرية ، وهذه الحكمة أجمع عليها فلاسفة الشرق والغرب . قصة الفارابي وكيف تعلم الفلسفة ، وكيف انتقلت إليه من الفرع الاسكندري إلى آخره

٢٦٤ بحث عام في المادة والصوت في الهواء ، بحث في مادة الهواء ، مبحث الشوه ، العناصر المادية ، وأن المادة كلها عبارة عن قطضونية اختلفت باختلافها كما وكيفا .

٢٦٦ نبات العالم العقلي ، وبيان أن عقولنا تفهم الكسر الذي لانهاية له ، فالواحد لانهاية لأجزائه ، ولا لمكرراته ، والأعداد والعلوم غذاء للأرواح ، والعلم والعالم والمعلم متحدات .

٢٦٨ السنين الكيية والبيطة ، والنسوف والكسوف ، وأن الأدوار هي بعينها مشبهة أدوار الكسر .
 ٢٦٩ بيان أن الانسان هيكل بمدّه عالم الضوء والهواء والموسمات ، المادّة لا يعوزها أصل تستخرج منه كما
 أن صورنا الذهنية لا تحتاج الى أصل وهي خالدة كما أننا نرى الضوء يجري من أبعاد لاحد لها ولا ينعدم
 ٢٧١ ﴿ اللطيفة السابعة ﴾ : فهل عسيتم ان توليتم الخ و بيان أن العباسيين والأمويين رجعوا إلى عصية
 الجاهلية ، وأن المنصور قتل العلويين ، والمأمون قتل الأمين وقرب الفرس ، والمعتصم قرب الترك
 وانحطت الدولة ثم زالت ، كل هذا تقطيع للأرحام

(تمت الفهرست)



تقریظ

حضرة صاحب العزة حاج الحرمين الشريفين الأمير الای

حسین بك محمد مصطفى

الحنفی الشاذلی حفظه الله تعالى آمین

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

الحمد لله الذي تجلى على قلوب أصفیائه بلطائف العرفان ، وخصهم من بين عباده بخصائص الاحسان ، فاستضاءت أفئدتهم بأشعة أنواره الأنسية ، وانجلت ضمائرهم بأنوار تجلياته القدسية ، والصلاة والسلام على واسطة عقد الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه الزهر الأعلام ، نجوم الهدى ومصابيح الظلام .

وبعد فلما كان كلام الله المجید ، الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) مدارس سعادة الدنيا والدين ، والسراج المنير لهداية العالمين ، الى الحق المبين ، وكان تأسيس قواعد الاسلام ، واستنباط الحلال والحرام ، انما هو على تفسيره وتأويله ، وبيان إجماله وتفصيله ، وكان علماء الأمة الأعلام ، عليهم رجة الملك العلم ، قد كتبوا ودرّسوا في هذا الشأن ، بحسب طاقة الانسان ، تصانيف جيدة ، وتفسير مقبولة مفيدة ، بين مطول ومختصر ، جزاهم الله عن الأمة الاسلامية الجزاء الأوفر . وكانت تفسير المحققين المؤيدة بالنقل الصحيح ، والمؤولة بالفكر الصائب الرجیح ، جامعة لجل الاحكام الدينية والدينية ، كافلة للسعادة السرمدية ، وهي في غابة البسط والبيان .

ظل المسلمون غافلين عما هو أعظم من أسرار العلوم القرآنية ، وبيان سنن الله في الكائنات الأرضية والسموية . حتى ظهر لنا هذا التفسير المسمى

الجواهر في تفسير القرآن الكريم

الذي تصفحناه وفهمناه ، فوجدناه تفسيرا وبيضا للفظ والمبنى ، جزيل الفحوى والمعنى ، مع مزج بدیع رائق ، وتلويح لطيف في تناسب الآيات ، وتلميح شريف الى الدقائق . كاشفا عن حقائق الحكم والمعارف ، التي يعترف بها كل عاقل وعارف .

صفحاته جنات فهم عالية ، قطوفها للقاصدين دانية ، لاتسمع فيها لاغية القصاص ، بل تحت كل فقرة منها غبطة للعوام والخواص ، وحكمة لأرباب الاختصاص .

فهذه الوجوه الباهرة ، قد فاق التفاسير السائرة ، إلا أنه كان مطروحا في زاوية النسيان ،
في غفلة المسلمين بالعلوم الشائعة ، وما يحويه القرآن الكريم من المعاني الرائعة .

فألم الله عبده الصالح الولي (طنطاوي جوهرى) بعد أن وفقه الله ورسوله صلى الله
عليه وسلم لاظهار ما كان خافيا عن حقيقة ما يحويه القرآن ، من العلوم والحكم الجليلة
العظيمة ، المبشرة بارتقاء الدين الاسلامي ، وإنارة عقول المسلمين . وانا نحمد الله على هذه المنة
الربانية والحمد لله رب العالمين ،

وقد أظهر لنا فضيلة الأستاذ المؤلف ما أدركه من العلوم وأسرار القرآن ، وهي أنوار لاحت
جواهرها وفواصلها ، وان ما برز منه الى الظهور في تفسيره ، هو من مكامن خزائن الأسرار فقد
أظهر بدرا ساطعا في رائعة النهار ، الا وهو التفسير الشريف الذي عزت عن النظر والأفكار ،
واستخرجه مؤلفه بصفاء باطنه من خزائن الأسرار ، فكان روضة زاهية الأزهار ، وجنة تجري
من تحتها الأنهار .

فلهذا سماه (تفسير الجواهر) للواردات الإلهية ، وصار كما قال مطابقا اسمه معناه ، وسالما
عن اعتراض معناه ، ولاغرو فؤلفه العارف بالله العالم العلامة فيلسوف الاسلام الأستاذ الحكيم
[الشيخ طنطاوي جوهرى] المصري الأزهرى المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم
بوزارة المعارف العمومية سابقا

ولقد أبرز في تفسيره ما خفي من أسرار القرآن ، وألقى الجواهر للتلقط ، مناديا بكل
احسان ، أكرم الله مثواه ، وأعطاه ماتمناه ، من نعيم الدارين .

وأصبح كتابه الشريف الذي انبسطت فيه البشرية للأمة المحمدية الاسلامية ، مطبوعا
بهمم على الطم ، [الشيخ مصطفى الباني الحلبي وأولاده] ، فزاهم الله خير الجزاء ، لما قاموا به
لخدمة الدين بنشر هذا التفسير ، الذي هو فاتح المتقلبات ، وحلال المشكلات .

فلمسلمين عامة ، ومواطنينا السودانين خاصة ، قول : لقد جاءكم تفسير كريم ، عليه
آثار القبول ، وأنوار الفتح . فبادروا الى تأمل معانيه ، ففي كل سطر منه قبس من أسرار
العلوم ، وإشارة الى سنن الله في الكائنات ، وإبداع آياته في خلق الأرض والسموات .

وفي ذلك فليتنافس المتنافسون . والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا
وسيدنا محمد أشرف خلق الله ، وخير المرسلين ، وعلى آله وأزواجه وذريته وأصحابه وأنصاره
وأمنه أجمعين آمين .

الأميرالاي

أم درمان [سودان]

حسين محمد مصطفى

في ١٢ سبتمبر سنة ١٩٣١ م

موافق ٢٩ ربيع الثاني سنة ١٣٥٠ هـ

الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

لشمس علي عجاب شيخ المآثر وأغراب الألباء أباهراً

تأليف

الأستاذ الحكيم شيخ طنطاوى جوهرى

الدرسن بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقاً
متع الله السنين بحياة آمين

الجزء الثاني والعشرون

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ - رقم ١٧١

حقوق الطبع محفوظة

طبع مطبعة

مصطفى الباقى الخلبى وأولاده بمصر

مباشرة محمد أمين عمران

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الفتح

(هي مدنية)

نزلت في الطريق عند الانصراف من الحديبية

آياتها ٢٩ - نزلت بعد الجمعة

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ
عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا * هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ
السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَاللَّهُ جُنُودَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ
اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا * وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ
وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السُّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَغَضِبَ

اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُنشِرًا وَنَذِيرًا * لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
 وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ
 اللَّهُ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ
 فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا * سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا
 فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسِّنْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ
 أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نِعْمًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ
 يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ أَنْ لَنْ
 وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا * وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا *
 وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا *
 سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِتَأْخُذُواهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ
 اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ
 إِلَّا قَلِيلًا * قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْرَةٌ إِلَى قَوْمِ أُولَى بِأْسٍ شَدِيدٍ ثَقُلَتْ أُولُهُمْ
 أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ
 عَذَابًا أَلِيمًا * لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ
 يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَئُذِبْهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ *
 لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ
 السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا *
 وَعَدَّكُمْ اللَّهُ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ
 وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ
 أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا * وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْيَارَ
 ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا

* وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَنكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَفْعَلُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبِكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَرَىٰ أُولَآءَ لَعَدَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ وَالزَّمِيمَةَ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا * لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَكُنِيَ بِاللَّهِ شَهِيدًا * مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا مَسْجُدًا يَتَتَفَعُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْطَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا *

هذه السورة أربعة أقسام

(القسم الأول) في تفسير البسملة

(القسم الثاني) فيما بشر الله به نبيه بالفتح ، واعزاز دينه ، ووعده المؤمنين ، ووعده الكافرين والمنافقين من أول السورة إلى قوله « فسيؤتبه أجرا عظيما » .

(القسم الثالث) في ذم الخلفين من عرب أسلم وجهينة ، ومنبنة ، وغفار ، وزجرهم ، وفي رضوان الله على المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ ووعدهم بالنصر في الدنيا ، وبالجنة في الآخرة ، من قوله تعالى : « سيقول لك المخلفون من الأعراب » إلى قوله : « وكان الله بكل شيء عليما » .

(القسم الرابع) في البشرى بتحقيق رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين ، وأن ذلك يكون ، وقد تم ذلك الخبر في العام القابل ، وفي وصف النبي صلى الله عليه وسلم والذين معه بالرحمة والشفقة ، وأنهم كزرع يجلب الزرع ، من قوله تعالى : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق » إلى آخر السورة .

القسم الأول في تفسير البسملة

اعلم أيها الذكي أن الرحمة على قسمين : رحمة عامة ، ورحمة خاصة . فالعوالم العلوية والسفلية والهواء والماء والأثير والنور رحمة عامة ، فأما الصحة والعقل والملك وما أشبه ذلك فهي رحمة خاصة ، ولقد جعل الله لكل امرئ في أرضنا سرّاً خاصاً بينه وبين ربه ، فانه يجعل لكل انسان مطالب خاصة تواتي مزاجه ، ومتى قضاها الله له فانه يحمدّه عليها جدا كثيرا ، وهذه المطالب عددها بعدد الأشخاص الانسانية في الأرض ، وكل امرئ مطلبه على مقدار همته ، ضعة ورفعة ، ونقصا وشرقا ، فهل أحدثك عما فتح الله به عليّ وعلى أمنا الاسلامية ، وكيف كان ذلك سرّاً بيني وبينه تعالى ؟ وكيف انجبت همتي نحو ذلك الأمر ؟ وكيف أجاب الله دعائي ، أنا أعترف وأقرّ وأشهد المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، أنني دعوت الله بما سأذكره ، وأن الله أجاب دعائي وحققه فعلا ، وذلك الدعاء كان موجهاً لتنم الخاصة كما هوشأن الناس جميعا ، تعلمت القرآن في مكتب صغير لا علم فيه ولا فهم ، وانما هو الحفظ المجرّد ، نظرت أبناء عمي يسافرون إلى الجامع الأزهر ، أحببت أن أتعلّم ، احترق فؤادي على العلم ، أحسنّ والدي بذلك ، أرسلني إلى الأزهر ، درست العلوم اللسانية والفقهية ونحوها ، لم يشف ذلك غلتي ، كنت في أثناء عطلتي أفكر وأنا في منزعجتنا في القمح والقطن والحشائش نهارا ، والنجم والسماء ليلا ، وفي آثار الاول التي خلفها قدماء المصريين ، أصوم نهارا ، أصلي ليلا ، أضرع إلى الله أن يعلمني ، أنا جاهل جدّ جاهل ، حضرت دروس التفسير ، ولكن يشتدّ دعائي دائماً ، أطلب من صاحب هذه النجوم والشمس والقمر أن يعلمني عجائب هذه الدنيا ، وسرّ كل أفلاكها ، ونظام زرعها ، وكيف يكون ارتقاء أم الاسلام .

هذا دأبي ، وهذا هو السرّ الخاص بيني وبين الله عزّ وجل ، وهو الذي كان يهمني ، يهمني أن أقف على نظام هذا الوجود ، وعلى سرّ تأخر المسلمين ، وعلى حقائق دين الاسلام ، وكيف يرتقي المسلمون ؟ وما السبيل لتلك ؟ إن هذا المقام واضح في كتابي « التاج المرصع » وهذا إجمال ما هناك . لم يكفني ظواهر العلوم ، ولا سبيل لديّ إلا الدعاء ، فأخذت أدعو الله كل حين أن أعرف ما تقدم ، فانتظمت في سلك طلبة دار العلوم وهنا كانت دهشتي ، فإن ما كنت أدرسه بنفسي مجلّا من النظر في الكواكب ليلا ، وفي المزارع والهواء والضوء نهارا هو عينه الذي يدرس في المدارس النظامية : حساب وهندسة وجبر وفلك وطبيعة وكيمياء ، وكنت واضعا نصب عينيّ دائماً رقيّ أم الاسلام ومعرفة الله تعالى بعقولنا معاشر بني آدم ، وكنت لا أبالي بالعلو والعلامة ، بل كانت كل أميتي المعرفة وأن أكون مجهولاً لا يعابني ، فان تقسى تقرّر فيها أن سعادتها في العلم ، أما الاعظام وبعد الصبب فانها لا تبعأ به . وقد كنت أرى أنني أجهل الناس وأضعف الطلبة .

كان مدرس الانشاء هو المرحوم الشيخ أحمد مفتاح وقد عرضت أوراق امتحان الانشاء على المرحوم الشيخ محمود العالم الذي عين بمتحننا من الوزارة آخر سنة من سني الدراسة ، ولقد كانت دهشتي عظيمة عند ما قابلني المرحوم الاستاذ الشيخ أحمد مفتاح وقال لي : إن الشيخ محمود العالم لما قرأ موضوعك (وهو اكتب خطاب تهنئة وتعزية) قال : إن هذا الموضوع منقول من الكتب القديمة ، فليس في مصر الآن من يكتب هذا . قال : فأحضرت له ما كنت تكتبه أنت طول السنة من الانشاء فقتنع بذلك وأعطاك عمرة ١٩ من عشرين ، وقد كنت أنا لا أزيدك عن ١٨ فقلت له : يجب ! أنا كنت أظن أن هذه العمرة أنت تعطيتها لي لجرّد شهرتي في اللغة العربية ، لا للانشاء ، لأنني لا أعتقده انشاء ، فجب ! وقال : كلا . أنا أعطيتك العمرة على نفس الانشاء .

وانما ذكرت هذه الحادثة لأبين مقدار انهامي لنفسي وعدم تقني بها ، وأنا لست أقول ان هذه صفة

محمودة . كلا . بل هي مذمومة لانها تكون سببا في تعطيل المواهب الإلهية ، ولكنني أقرّ الحقيقة في ذاتها .
ولقد ذكرت في هذا التفسير وفي غيره مرارا وتكرارا أني قبل أن أعرف هذه العلوم عاهدت الله أنه اذا
علمني الحقائق على مقدار طائفي لأؤلفن كتباً يفتخ بها الشبان الذين يشاققون لما أشتاق إليه ، ولا يعذبون كما
كما عذبت في الوصول إلى الحقائق .

فلما أن وظفت في الحكومة بعد الخروج من المدرسة ، وصرت مدرّسا ، أخذت نفسي تطالبي بالوفاء
بمهدا ، ولقد عرفت فأين التأليف ؟ فألفت كتاب « جواهر العلوم » و « ميزان الجواهر » بادي ذي بدء
وهناك كانت حوادث منزلية أزججتني ولكن لم يكن ليؤثر شيء على نفسي من حيث التأليف ، ثم توالت التأليف
والنشر فألفت « جمال العالم » و « النظام والاسلام » و « نظام العالم والأمم » و « التاج المرصع » وغيرها
من الكتب والرسائل ، وهأنذا الآن أكتب في تفسير القرآن الذي انتشر في أقطار الاسلام ، وترد على الرسائل
من تلك الأقطار النائية . ولقد قرأه وقرأ الكتب قبله اخواننا المسلمون في شمالي افريقيا والسودان والشام
وبلاد اليمن وحضرموت ويران وبلاد جاوه وما حولها وعموم (اندونيسيا) ويدخل فيها سومطره وغيرها
وهكذا بلاد التركستان الروسية والتركستان الشرقية التي عاصمتها كاشغر . ولعمرك لم يكن لي دور بخلدني ،
أو يخطر لي ، وأنا على شاطئ نهر أني الأخضر بالقرب من قريننا كفر عوض الله حجازي بالشرقية وأنا أبحث عن
حشرة ودوية صغيرة تكون ذات خطوط منتظمة تعرفني أن في العالم نظاما وجمالا وبهجة ، وقد عثرت
فعل على حشرة عليها خيطان : أبيض ناصع ، وأحمر قان ، وقد انتظمتها بهيئة هندسية ، ودهشت للنظام والجمال وقلت
ههنا مبدأ نظام . أقول ما كان ليخطر لي أن ما قطع مؤادي ، وأفض مضجعي ، وأطارنومي ، وأسهر جنيتي ،
وأطال لي لي لأجله سامرت النجوم ، وحالفت الوجوم ، وبايغت العموم . سيصل يوما ما إلى الشبان في أقطار
الأرض ، ويدرسه العربي والأندونوسي والهندي والصيني ، ويقدم من نفس « كاشغر » أحد شبانها ويقول
لي في هذا الشهر وهو شهر يونيو سنة ١٩٣١ م ما نصه : « لقد أفض الفكر مضجعي ، وأطارنومي ، وصرت
أغدو وأروح بين الأشجار للزهرة والحدائق النضرة المحيطة بقرانا إلى امتداد ثلاثة أيام ، وفيها الروح والريحان
والازهار والأثمار . كل ذلك نهرا ، فاذا جن الليل على وأرخي سدوله ، أخذت أسامر النجوم ، وأطارد
الهموم ، فلا النجوم تحادثني ، ولا الهموم تزالني . وأسأل الله . أقول له : رباه : ماهذه النجوم الثواقب ؟
وماهذه الجباب ! أسيرها نظام ؟ ومابراهينها ؟ وماهذه البدائع .

« رباه : أنا جاهل جدّ جاهل . أنا مستغيث بك فأغثني . وجاهل فعليني . واذا طلع النهار أخذت أسامر
الازهار على الأشجار ، وأقول : أينها الازهار : ما أخبرك ؟ وما جالك ؟ وما جانيك ؟ ثم أقول : أينها الأشجار
كليني كيف نظامك ؟ وما عناصرك ؟ وكيف كان نموك ؟ وما هذا الترتيب الذي أراه في أوراقك ؟ فلا أسمع
جوابا ، وأنشد :

لقد أسمعت إذ ناديت حيا * ولكن لاحياة لمن تنادي

« ولما اشتد على الوجد ، وزاد الهيام ، طفت اذا جنّ الليل أربط جسمي بحبل في وتد نافذ في حائط
وأبكي حتى الصباح ، ودمت على ذلك ليالي ، وذلك من شدة اليأس من أساندي إذ كنت أسأل أحدهم هذه
الأسئلة فيقول : هذا فعل الله ، ولما كثرت السؤال طفقوا يشيرون أني مجنون ، فلم يكن لي محيص من
ذلك البكاء والعيول في خلوق والتظاهر بالسوي أمام الناس . قال : وبعد ازدياد اليأس وقع كتاب « التاج
المرصع » في يدي ، أعاره لي أحد الأصدقاء ، فوجدت أسلوبا لم أعهده ، وأخذت أقرؤه ، فألقيته بصف
حالا هي نفس حالي ، ونفسا كانت محترقة كنفسي ومحرومة ، مما يشني غليلها ، فطالعتة بلهف مدة ثلاثة
أشهر ، فزالت حيرتي ، وحرك وجددي للسفر خارج بلادتي ، كما حرك وجدان ثلاثين شابا مثلي ، فاسفرنا إلى

(كابل) وقد استصحبت « التاج المرصع » معي ولم أخبر بسفري من أعاره لي ، فلما وصلت إلى (كابل) ببلاد الأفغان وجدت فيها نسخا كثيرة منه ، فأرسلت الكتاب لمعيه لي وأعلمته بسفري ، وهأنذا اليوم قد تعلمت في مدارس تركيا ، وملت شهادة ، وقرأت اللغة الفرنسية ، وقد سافرت بعثتان أخريان إلى الأقطار الشرقية والغربية بعد أن عرفوا هذه الحقائق وقرأوا كتب المصريين ، ومنها كتاب « الجواهر » في تفسير القرآن الكريم المنشور حديثا ، فسألته : أقرأه باللغة العربية ؟ فقال نعم . فقلت : هو مترجم بلغتك التركية فأطلعته عليها فدهش وقال : هذه لغة راقية ولكني لم أطلع عليها لأن قبصر الروس ما كان لي يجعل بيننا وبين اخواننا في القازان وغيرها مواصلة .

ثم قال : « اتنا بكتبك قد أصبحنا نوقن أن ما كان كفرا عند أسلافنا هو نفس الواجب المقرب إلى الله تعالى » انتهى

هذه هي الرحمة التي أردت أن أذكرها في تفسير البسملة في أول سورة الفتح ، وأليس من العجب أني لم أوفق إلى تمام هذا الموضوع فأعرف خبر آخر بلاد الاسلام إلا عند تفسير سورة الفتح ، وأرى كتابي « القرآن والعلوم العصرية » بعيني مترجما إلى لغة الملايو ، وأليس مما يوجب على إعلان شكري لله وحده وتقديسه ، والقيام به ، وإفراغ الجهد في طاعته أن يكون انتشار هذه الفكرة هو غاية مطلبي ، ثم يتم ذلك المطلب وأنا حي وأعلم به ، وهو هو الفتح الخاص الاسلامي ، وهذا هو النصر والفتح المبين في زماننا ، وقد قدمنا أن الرحمة عامة وخاصة ، فالعامة تفصلها جميع العلوم ، والخاصة بنا وبالأمم الاسلامية هي ما ذكرته الآن وقد قدمت أن كل امرئ بينه وبين ربه أمر خاص ، فهذا هو الامر الخاص الذي اشتد طغي عليه ، وقد نلت ، وهل لي بعده مطلب ؟ هو آخر مطلبي ، هو نهاية مقصدي ، الحمد لله فلا قرأ ما جاء في الذكر الحكيم على لسان ابراهيم عليه السلام : « الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسما عيل واسحق إن ربي لسميع الدعاء » كتب صباح يوم الأحد ٥ يوليو سنة ١٩٣١ م

تذكرة

لقد تقدم في سورة محمد ﷺ في تفسير البسملة أن قتال الكافرين المذكور فيها توطئة لفتح البلاد ونشر العلوم ، فأتم الاسلام لم يكن الفتح لهم خاصا بمكة ، إن الاسلام انتشر في أقاليم المعمورة ولا يزال ينتشر بل هو الآن ينتشر في أمريكا وفي أوروبا ، إنما المهم المدهش أن الفتح يشمل الفتح العلمي ، والعلم المنتشر في الكرة الأرضية الآن باجماع علماء العالم قاطبة سببه دين الاسلام ، فالمسلمون حركوا الأمم وإن كان المحركون لهم قد ناموا قبل هذه الأيام .

إن أوروبا هجمت على الشرق فحملوا دين المسيح بدل الوثنية عندهم ، وبعد قرون جاء الاسلام فأقصاهم وأرجعهم إلى بلادهم ، فهجموا على الشرق ككرة أخرى بالحروب الصليبية ، فحملوا معهم المدنية الاسلامية والعلوم المنشورة فيها ، ثم هاهم أولاء يهجمون على الشرق ككرة أخرى اليوم ، وهاهوذا الشرق أخذ يعدد عدته ، وستكون نهضة الأمم كلها بسبب الشرق والعقول المنزورة فيه التي ستساعد على الرقي المنتظر فلنظام الخالي سببه فتح الاسلام المبين ، والنظام المستقبل سيكون بمساعدة المسلمين . أفلا سمعك ما جاء في مقال جاء في جريدة الاهرام بتلخيص ٢٤ مارس سنة ١٩٣١ م فقد جاء فيها تحت العنوان التالي مانصه :

العالم بعد خمسين سنة

العلماء يقنبون

نيويورك في ١٥ مارس (لمراسل الأهرام الخاص) : العلماء هم أنبياء هذا الزمان ، وأنا أعني العلماء العاملين ، لأولئك الذين يسطرون للقراء أقوالا لا هم يفهمونها ولا الذين يقرءونها ، يعرف المطلع على تاريخ تدرج العمران ، ورقى الانسان ، كيف فتح الناس الكفرة ، وذللوا صعابها ، ومهدوا عقباتها ، وأخضعوا وحوشها ، وحولوا آجامها إلى جنات غناء ، واستأصلوا معظم ما كان ينابها من الأوبئة ، وكيف تغلب العقل البشرى على القوى الطبيعية فأرغمها على خدمته ، والعمل بإشارته ، وألجم البخار والبرق والغاز وقام بأعمال كثيرة كانت معدودة من المستحيلات ، فما الذى بقى وراء ستار الغيب من مدهشات العلم وعجائبه ؟ وما الذى سيقدم عليه التبوغ البشرى من الغرائب الشبيهة بالعجائب . لنسمع جواب أنبياء العلم فان فيما أخلصه من أقوالهم ما يرد غلة التائق إلى معرفة ماسيكون ، إنهم يستنبون بالماضى لاختراق ظلمات المستقبل ومعرفة ماسيتم فيه من نتاج الأدمغة المفكرة .

يقول قائلهم : إن الملايين منا يتذكرون الخمسين سنة الماضية ، وآبأؤهم بدورهم يتذكرون الخمسين سنة التى قبلها ، فلما تم عام التى ورامنا قد كانت مسرحا لانتقال كبير فى حالة العالم وطرائق المعيشة فيه ، فانقضت أيام المركبة الخشبية التى تجرّها الجياد ، وجاء زمان القطارات الحديدية ، والسفن البخارية ، واخترع التلفون فقترب الأبعاد والمسافات ، وتلا ذلك التليفون والتلغراف اللاسلكيان ، ورفعت الطائرات أهل هذا الزمان من الغبراء إلى الأجواء ، فقهرت ناموس الجاذبية ، وحلت السيارة محل الجواد فى شوارع المدن والطرق ، وخففت الكهرباء أعباء أعمال النساء ، فتولت عنهن الكسوف والغسل ، وادارة آلة الخياطة ، وتنظيف المنازل وأوجدت الحرارة للدفع ، وبردت الهواء الحار بمراوحها ، وأنارت المنازل والشوارع والطرق المؤدية إلى البلدان ، ونابت عن الناس فى فتح الابواب للزائرين ، وأدارت الآلات على اختلافها ، وجرت القطارات والمركبات العمومية ، وتولت فوق هذا كله قتل المحكوم عليهم بالموت .

وفى المائة سنة التى انقضت نالت النساء حق الاقتراع والمشاركة فى إدارة الحكومة ، وتعدت الأمم بعضها من بعض ، فنسى لها الاجتماع معا بسهولة للتفاهم بشأن الاعمال والمناجروالشؤون السياسية كما كان يفعل الأفراد فى البلد الواحد ، وكان الناس من مضى خمسين سنة ينظرون الى الغنى صاحب المليون ريال بعين الإعجاب ، أما اليوم فالذى يبلغ دخله السنوى مليوناً واحدا لا يبتعد من الاغنياء ، وفى أمريكا اليوم رجل له دخل أسبوعى يزيد على مليون ريال ، وهنرى فورد صانع السيارات المعروفة باسمه يدفع للحكومة ضريبة على دخله السنوى تزيد على العشرين مليون ريال ، كان الناس من قبل يتعاملون بالملايين واليوم يتعاملون بالبلايين ، وبعد أن تنتهى حكومة الولايات المتحدة من منح الهبات المالية للجنود الذين شوهوا فى الحرب الأخيرة تكون قد أنفقت خمسة وسبعين بليون ريال ، والدول الأوروبية مدينة لها بمبلغ أحد عشر بليون ريال ، مما يؤيد ماقلناه من أن مقادير الغنى قد تغيرت وتعاظم أمر الثروات بحيث ان الذين كانوا يحسبون ثروتهم بالملايين أصبحوا فى هذا الزمان يمتنونها بالبلايين ، وصار البليون المقياس المعول عليه فى المعاملات الدولية كانت الخمسون سنة الماضية أعوام أعمال كبيرة أنشأها طوائف من الناس متحدون معا ، ولكن الفرد من الناس لم يكبر عما كان عليه ، ولا صار أهنا عبثا وأسعد حالا ، فهو من هذا القبيل كالفطرة من الاوقيانوس العظيم لانزبد فى الكبر على أية قطرة ماء فى أصغر وعاء ، وهكذا الناس فاهم لايزالون كائنات بشرية صغيرة ، قطرات فى أوقيانوس المجموع المدرك الحساس المعروف باسم الجنس البشرى ، الاوقيانوس يكبر ويتعاظم فى

الانساع والقوة ، إلا أن القطرات التي تؤلفه لا يطرأ عليها تغيير في ذاتها ، فكيف يتمكن الفرد من أن يكون أعظم مما هو وأن تكون حياته كاملة من كل وجه ؟ ذلك هو السؤال الذي لم يستطع الخسوف سنة الماضية بل الألوف من الأجيال الذاهبة الاجابة عليه : كشف الانسان الراديو في الأرض والعناصر والمعادن المختلفة والقوت الطبيعية التي لم يكن لأسلافه بها علم ، ولكنه من حيث اصلاح نفسه لم يأت بسوى القليل ، وقد يكون ما قبل صحيحا من أن متوسط الذكاء بين الاجناس العليا من المتسدنين هو اليوم أقل منه بين أهل أدينا منذ ألفين وخمسمائة عام مضت ، فن الوجهة العلمية والوجهة الفنية الاولية من حيث الخلق والابداع والاحاطة بما يحيط بنا من الأشياء المنظورة الكائنة عند اقدمنا إلى المجرى في السماء قد ارتقينا وأحسننا عملا ولكننا كأفراد لم نتقدم إلا قليلا ، ولا أحرزنا من التحسن إلا اليسير التافه .

فما الذي يحىء في الخمسين سنة التالية سبتكمون أيامئذ عن الفحم الحجري الذي قد ، وعن آبار الزيت التي نصب معينها . وهكذا قبل أن ينفد الفحم والزيت يكون الناس قد تمكنوا من تقييد المد والجزر أوقوة الشمس وكشفوا نيرانا مخبوءة في جوف الارض على مسافة أميال من موطن أقدامنا ، وعندئذ يهزمون بما كان يفعله أسلافهم .

والعلماء على يقين من أنه قبل أن يبلغ أحداث اليوم الشيخوخة تكون الأسفار الطويلة عبر الأوقيانوس وحول العالم في الطيارات ، فيتناول الزاكب فيها طعام العشاء في باريس ، وطعام الغداء في نيويورك ، ولقد كان من غرائب الأيام التي اتفقت أن يناسب الشخص الموجود في أعلى طبقات المخزن مع آخر في أسفله بواسطة الأنبوب الذي ابتدع لتلك القصد ، ثم جاء التليفون فتناسج الناس به بين البنيات والمدن والبلدان المختلفة على مسافات سحيقة .

والناس اليوم يستخدمون اللاسلكي لنقل الاصوات إلى الأبعاد الشاسعة ، فسمع أوبرا نيويورك في لندن وباريس والصين ، وفي الهند والعراق بوضوح وجلاء كما يسمعون أهل نيويورك ، ويقبل أندهاش الفكر البشري بتلك الاكتشافات والاختراعات بعد انقضاء الاسبوع الواحد على وجودها ، فلابد أن أحد بها بل يوجه اهتمامه لشيء جديد يكون أعجب وأغرب ، جاريا في ذلك على الاعتقاد الذي أصبح جزءا من طبيعته بأن كل شيء ممكن ، وفي الأعوام القليلة المقبلة ستضع آلة على صندوق الراديو في منزلك فترى كالمثلين في الملاعب والخطباء على المنابر وتسمع أصواتهم .

ذلك ما ستقوم به الكهروباة التي لا تفهمها إلا بما يبدو منها ، فهي قد قامت مقام الانسان في أعمال كثيرة تطبخ ، وتنكس المنازل ، وتكوى الملابس ، وتدق الحجات في الشتاء ، وتبردها بالمرح في الصيف ، وتصنع لك الجليد والمركبات المختلفة ، وتسيرها ، وتدفئها في الشتاء ، وتبرد هواءها في الصيف ، وتفتح أبوابها للخارجيين والداخلين الذي أغنى الشركات عن ملايين العمال . ومثل ذلك تفعل في المعامل على اختلافها ، وتبعث بالرسائل إلى أقاصى المعمورة ، وهي التي تمكنك من مخاطبة البعيد عنك بالتليفون السلكي واللاسلكي . وسيقبل اهتمام الناس في المستقبل بنفقات الفحم لاقاء البرد لأن نور الشمس الذي يلحمه العلم يجعل الهواء معتدل البرودة ، أو حارا مقبولا ، وذلك بواسطة مراكز للقوة تبقى معتدل الحرارة عند نقطة معلومة محتلة من البرد والحرا سنة بطولها .

ويقول أحد العلماء في كتاب عنوانه « المستقبل » مانصه : « إن هذه السنوات ليست أضغاث أحلام بل هي مبنية على درس النورة التي يسير عليها التمدن الذي لا يلبث حاملا معه الجنس البشري إلى حيث يكون كما خلق ليكون ، فن مضي ثلاثين عاما كان التلغراف اللاسلكي مقتصر على أذرع معدودة ، أما اليوم فإنه يساعدنا على إيصال هزات الكهروباة إلى أقاصى الأرض ، وإلى القمر أيضا ، فما الذي نقوله إذن

عن الغد .

وبعد دورة قصيرة من الزمان نقص أرجاء السماء بمواكب هوائية ضخمة ، وتكون سرية الطيران فتجتاز الاوقيانوس بنحو الساعة من الوقت ، ولا يكون ثم خطر من الاصطدام ، لأن العلم سيبتدع مايساعد المركب الهوائي على الشعور بدقته من مركب أخرى ولو في الظلام الدامس أو الضباب الكثيف ، وقد يصل بنا العلم الى عهد نستغنى فيه عن مولدات القوة في مواكب الهواء ، فستمد قوتها من الهواء الذي تسير فيه وتساعد الأشعة الكهر بائية الانسان في مستقبل الأيام على تحويل الأمطار إلى الصحارى والبلدان القليلة أو العديمة المطر ، فتحولها إلى جنات نضرة عظيمة الاقبال ، زاهرة بمحصولات لاخطر لنا اليوم ببال . وتكون الكهربية العامل الأكبر على إنماء المزروعات بحرارتها ، ويرتقى فن الجراحة إلى أرفع الدرجات ، بحيث يتمكن الجراح من جعل الوجه الشنيع جيلا ، وتكون الاعمال الجراحية في المستقبل قبل الولادة ، فتجعل تقاسيم وجه الطفل كما يراد أن تكون ، لأنه من الظلم أن يكون قبح صورة أحد الناس عثرة في سبيل نجاحه ، فأمثال هذه المشوهات يستأصل في أول العمر أو قبل الولادة ، ويصير أمر تحديد النسل من الامور الضرورية ومن لزوميات التقدم ، فلا يسمح يومئذ إلا لعدد معلوم من الناس في الاكثار من البنين ، هؤلاء تختارهم الحكومات بالطرق العلمية ، وتساعدهم ماليا ، وذلك لأن الارض تصبح مكتظة بالسكان بحيث يصير من الضروري تحديد عدد المواليد بخلاف ما هي الحال الآن ، بلد الفرد مايشاء من الأولاد سواء قدر على تربيتهم واعالتهم أو قصر في ذلك ، وتصبح الامومة وظيفة شريفة تسيطر عليها الحكومة وتقوم بالنفقات .

ولكن هذه الحالة لا تطول كثيرا ، فقد يعمدون يومئذ إلى توليد الاطفال في معامل الكيمياء بطريقة علمية بحيث وعلى قدر الحاجة لسد الفراغ الذي يحدثه الموت ، ولا يزال أمانا حسبا يعتقد عظماء العلم مائة مليون سنة للقيام بأعمال أخرى عديدة تجز عقولنا القاصرة عن الاحاطة بها ، فسوف يتمكن من مناجاة السيارات العليا المنتشرة في ذلك الفضاء الذي لاحد له لأن الكون منها مأهول بأناس عاملين مفكرين .

فالأثير الذي يشمل كل فضاء هو الذي يحمل رسائلنا إليها كما يحملها في أرضنا من قارة إلى أخرى ، فلو نفا انسان من مضي خمس وعشرين سنة عن امكان ابتداء الطيران والتحليق بها في الجؤ من مكان إلى آخر ، أو عن البرق اللاسلكي ، وقال : إن الخليل أو المنشد الذي يتكلم ، أريغني في نيويورك يكون مسموعا بوضوح في أقصى الأرض لزجوه في مأوى الجانين ، ولكن ما الفائدة من التخمين أو التنبؤ ؟ انه لم يعط لنا أن نعرف ماذا سيكون ؟ انتهى الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة والحمد لله رب العالمين .

القسم الثاني من السورة

التفسير اللفظي للسورة كلها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسير في بعض أسفاره وعمر بن الخطاب كان يسير معه ليلا ، فسأله عمر عن شيء فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه . فقال عمر : نكثت أملك يا عمر ، كررت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ، كل ذلك لا يجيبك ، قال عمر : فحركت بعيرى حتى تقدمت أمام الناس ، وخشيت أن ينزل في القرآن ، فما لبثت أن سمعت صارخا بصرخ في ، فقات : لقد خشيت أن يكون نزل في قرآن ، فحث رسول الله ﷺ ، فسلمت عليه ، فقال : لقد أنزل على الليلة سورة لم أحب إلى مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » .

وروى الترمذى أن ذلك كان وهو راجع من الحديبية ، قوله عز وجل (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) أى إنا قضينا وحكمنا لك فتحا مبينا ظاهرا ، أى فتح مكة وما قبلها كفتح خيبر وفدك وصلح الحديبية وما بعدها كفتح فارس والروم وسائر البلاد . وهذا التفسير جمع سائر الأقوال ، فإذا قال البراء تعدون أتم الفتح فتح مكة ، ولقد كان فتح مكة فتحا ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية ، وذكر أن الحديبية بئر قد نزحوها ولم يتركوا فيها قطرة ، وكانوا أربع عشرة مائة ، فلما نوحى ﷺ وتضمن ودعا وصب فيها سقتهم وسقت ركابهم وماشيئهم ، وإذا قال مجاهد أنه فتح خيبر ، وإذا قال غيرهما هو فتح فارس والروم وسائر البلاد فهذا كله داخل فيما قلناه ، ويكون فتح مكة أظهرها وأشهرها ، وما قبله مقدمة له ، وما بعده تابع له ، مرتب عليه . واعلم أن لكل عامل في عمله نهاية ينتهيها ، وثمرة يجتنيها ، فنهاية الزرع إدراكه ، ونهاية الشجر أثماره ونضجه ، وثمرة ذلك الاتقاع بحب الزرع وثمر الشجر ، هكذا النبوة لها نهاية مطلوبة في الحياة الدنيا وثمرة تنبع هذه النهاية ، فنهاية أمر النبوة أن تلتئم وحدة أمة من الأمم ، ويجتمع شملها ، ويتم نظامها ، ولن يكون ذلك إلا بعد دعوة مستفيضة وجهاد علمي وعلمي وقاتل ، وجمع المجاهدين على العدو ، ومضى أموا عملهم ، وأقعدوا المستضعفين ، وحجوا البيضة ، وأدخلوا رجالا في الدين كرها ، ثم بالتدريج يدخلون طوعا . فإذا تم ذلك فقد انتظم أمر النبوة وأدى واجبها ، وهذا نهاية ما على الرسل ، واذن يستوجبون ثمراتها وهي :

- (١) مغفرة ما فرط منهم مما يعد ذنوبا بالنسبة لتمامهم .
- (٢) واجتماع الملك مع النبوة بعد أن كانت النبوة وحدها .
- (٣) والهداية إلى الصراط المستقيم في تبليغ الرسالة ، وإقامة مراسم الرياسة .
- (٤) والنصر الذي فيه عز ومنعة .

فهذه الثمرات الأربعة مرتبة على تمام أمر النبوة والجهاد فيها ، وهكذا كل مجاهد بعد تمام جهاده ينال الثمر على مقتضى المقدمات ، فالفتح المذكور المترتب عليه ما ذكر رمز إلى الأعمال التي استوجبت من أول ما نزل الوحي إلى تمام الأمر ، فهذه ترتب عليها هذه الأربعة ، كأن الله يقول : يا محمد ، لقد بلغت الرسالة ونصبت في العمل ، وجاهدت بلسانك ، وبسيفك ، وجعت الرجال والكراع والسلاح ، ونلظفت وأغلظت وأخلصت في عمالك ، وفعلت كل ما قدرت عليه حتى تم الأمر الذي نذبتك له فقتل ثمرات ذلك العمل ، فقوله (ليغفر لك الله) متعلق بفتحنا ، وقوله (ما تقدم من ذنبك وما تأخر) أى جميع ما فرط منك مما يصح أن يسمى ذنبا من طبقته وان كان عند غيرك لا يسمى ذنبا لأن حسنات الأبرار سيئات المقرين ، أو ما تقدم قبل النبوة وما تأخر عنها (ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما) وينصرك الله نصرا عزيزا) قد عرفت معناها وأنها مرتبة على الفتح ، لأن من دانت له الرقاب ، وخضعت له النفوس ، وعزّفت له النعمة . ولما كان ذلك في رضا الله هدى صراط الرئاسة ، ونصر نصرا فيه عز ومنعة ، لأن أسبابه حاضرة . ولما كان فتح البلاد والنصر على الأعداء بالنبي صلى الله عليه وسلم وبيجاد المؤمنين معه وقد فرغ من الكلام عليه شرع يذكر ما للمؤمنين من منزلة ، فقال : (هو الذي أنزل السكينة) الثبات والطمأنينة والوقار (في قلوب المؤمنين) ويلزم من ذلك ثبات الأقدام عند اللقاء ، وكما كان الفتح للامور الأربعة المنتم بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هكذا كانت الطمأنينة في قلوب المؤمنين (ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم) أى يقينا مع يقينهم برسوخ العقيدة وطمئنان النفس عليها ، ولاجرم أن الله عز وجل هو الذي دبر أمر العالم فسلط الأجناد في الأمم للقتال والجهادة ، فهو الذي دبرها بعلمه ونظمها بحكمته ، فهو الذي يجاهدون للحق ، وهؤلاء يقانلون للباطل ، وإنما دبر ذلك ليعرف المؤمنون نعمة الله ويشكروها فيدخلوا الجنة ، ويعذب الكفار والمنافقين لما ثبتوا على الباطل ، فينال كل نتيجة ما جنه ، وهذا هو قوله تعالى (ولله جنود السموات والأرض) يسلط بعضها على

بعض كما سلب كلا من المؤمنين والكافرين على الآخر (وكان الله عليهما) بالمصالح واستعداد النفوس (حكيمًا) فيما قضاه ودبره (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم) يغطيها ولا يظهرها (وكان ذلك) الإدخال والتكفير (عند الله فوزًا عظيمًا) لانه انتهى ما يراد من منفعة مجلوبة ومضرة مدفوعة (ويصذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) عطف على يدخل (الظانين بالله ظن السوء) ظن الامر السوء فيقولون في أنفسهم : لا ينصر الله رسوله ولا المؤمنين (عليهم دائرة السوء) أي دائرة ما يظنون ويتر بصونه بالمؤمنين لا يتخطاهم (وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرًا) أي جهنم ، واعلم أنه كما كان الفتح قد ترتب عليه أمور أربعة للنبي ﷺ هكذا فاز المؤمنون بأمر أربعة : الوفاق ، وازدياد الايمان ، ودخول الجنات ، وتكفير السيئات . وهكذا الكفار لهم أربعة : العذاب ، والغضب ، واللعنة ، وجهنم . وقوله (ولله جنود السموات والارض وكان الله عزيزًا حكيمًا) يشير إلى أن من هؤلاء الأجناد من هم في جهنم ليلزموا الكفار لتعذيبهم وهم خزنة النار كما أن ذكر الأجناد فيما تقدم يشير للائسكة الرحمة الذين يكونون مع المؤمنين لادخالهم الجنة ، ولما كان المقام مقام قهر ذكر العزة والغلبة ، ولما كان سبحانه لا يفعل إلا على مقتضى الاستعداد ذكر الحكمة ، ولما أتم الكلام على مالكل من الاعمال والثمرات المرتبات عليها أعقبه بما يمّم النبي ﷺ والمؤمنين فقال (إنا أرسلناك شاهداً على أمتك (ومبشراً ونذيراً) لأجل الطاعة والمعصية ، ولما كان خطابه صلى الله عليه وسلم منزلاً منزلة خطابهم خاطبهم قائلاً (لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه) وتقووه بتقوية دينه ورسوله (وتوقروه) وتعظموه (وتسبحوه) وتزهوه أوصلوا له (بكرة وأصيلاً) غدوة وعشيا ، والمعنى دائماً ، ثم ذكر بيعة الحديبية وهي قرية صغيرة بينها وبين مكة أقل من مرحلة ، سميت يثر هناك كما تقدم ذكرها ، وكان المبايعون ألفاً وأربعمائة ، بايعوه على أن لا يفترّوا ، ومنهم من بايع على الموت . فقال : (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) لأنه المقصود بالبيعة حال كونهم (بإذنه فوق أيديهم) أي نصرته إياهم أعلى وأقوى من نصرته إياه ، يقال اليد لفلان ، أي الغلبة والنصرة والقوة ، أو يد الرسول صلى الله عليه وسلم التي هي فوق أيديهم كأنها يد الله ، والله منزّه عن الاجسام وصفاتها ، أي ان عقد الميثاق مع رسول الله ﷺ كعقده مع الله عز وجل من غير تفاوت بينهما كقوله تعالى : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » (فن نكت قائماً بنكت على نفسه) يعني فن نكض العهد الذي عقده مع النبي ﷺ ونكت البيعة فان وبال ذلك وضرره يرجع إليه ولا يضر إلا نفسه (ومن أوفى بما عاهد عليه الله) أي من البيعة (فسيؤتيه أجراً عظيماً) أي في الآخرة وهو الجنة ، وهذه البيعة بيعة الرضوان . انتهى القسم الثاني من السورة والحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث من السورة

قال تعالى (سيقول لك المخلفون من الأعراب) وهم أسلم وجهينة ومزينة وغفار ، فهؤلاء لما استغزّهم رسول الله ﷺ عام الحديبية تخلفوا واعتلوا بالشغل بأموالهم وأهليهم ، وفي الحقيقة هم ضعاف العقيدة خائفون من مقاتلة قريش ان صدّوهم ، ومقول القول (شغلنا أموالنا وأهلنا) إذ لم يكن لنا من يقوم بأشغالهم (فاستغفرنا) من الله على التخلف (يقولون بألسنتهم مالبس في قلوبهم) أي هم كاذبون في اعتذارهم غير جادّين في طلب الاستغفار (قل فن يلك لكم من الله شيئاً) أي فن يمنعكم من قضائه (إن أراد بكم ضرراً) أي سوءاً (أو أراد بكم نفعاً) ذلك أن القوم ظنوا أن التخلف يدفع عنهم الضرر ، أو يجلب لهم النفع بالسلامة لهم في أنفسهم وأموالهم ، فأخبرهم الله أنه إن أراد شيئاً من ذلك لم يقدر أحد على دفعه (بل كان الله بما تعملون خبيراً) فيعلم اظهركم الاعتذار ، وطلب الاستغفار ، واخفاءكم النفاق (بل ظننتم

أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبدا) أى ظننتم أن العدو يهلكهم فلا يرجعون إلى أهلهم (وزين ذلك في قلوبكم) فتمكن فيها ، أى زين الشيطان ذلك فيها (وظننتم ظن السوء) أى وظننتم أن الله يخلف وعده إذ قالوا : ان محمدا وأصحابه أكلة^(١) رأس . يريدون بذلك قلتهم فلا يرجعون فأبى نذوبون معهم ! انظروا ما يكون من أمرهم ؟ (وكنتم قوما بورا) يعنى وصرتم بسبب ذلك الظن الفاسد قوما بأثرين هالكين (ومن لم يؤمن بالله ورسوله فاما أعتدنا للكافرين سعيوا) أى فانا أعتدنا لهم فيه وضع الظاهر موضع المضمر لتسجيل الكفر على من لم يجمع بين الإيمان بالله والإيمان بالرسول (وبنق ملك السموات والأرض) يدبره كيف يشاء (يفقر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما) وذلك لأن رحمة سبقت غضبه ، فالغفرة والرحمة من الله بالأصالة ، أما التعذيب كادخال الكافرين السعير فذلك لأحوال طرأت على النفوس البشرية ، وهنا لا مجال للاطالة ، فى المقام مالا يجوز أن يقال (سيقول المخلفون) وهم المذكورون (إذا انطلقتم إلى معانم لتأخذوها) أى معانم خيبر ، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم رجع من الحديدية فى ذى الحجة من سنة ست ، وقيل سنة خمس وهو الأصح ، وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل المحرم ، ثم غزا خيبر بمن شهد الحديدية ففتحها ، وغنم أموالا كثيرة فخصها بهم ، ومقول القول (ذرونا نبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله) أى أن يغيروه لأنه وعد أهل الحديدية أن يعوضهم عن معانم مكة معانم خيبر (قل لن تبعونا) معنى النبي هنا النهى (كذلك قال الله من قبل) من قبل تهيئتهم للخروج إلى خيبر (فسيقولون بل نحسدوننا) أن نشارككم فى الغنائم (بل كانوا لا يفقهون) لا يفهمون (إلا قليلا) إلا فهما قليلا وهو فطنتهم لامور الدنيا والاضراب الأول رد منهم ، والثانى رد الله لانباتهم الحسد وانباته جهلهم بامور الدين (قل لاخلفين من الأعراب) وهم المتقدمون (ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون) وهل هم بنو حنيفة ؟ أوهم أهل اليمامة أصحاب مسيلة الكذاب الذين دعا إلى قتالهم أبو بكر ، أوهم أهل فارس إذ دعا عمر إلى قتالهم ، أو غيرهم ، فاذا كان الأول كان أحد الأمرين : إما المقاتلة ، وإما الاسلام ، ولا تقبل الجزية من بنى حنيفة ، ولا من جيع أهل الردة ، وان كان الثانى يكون المراد بالاسلام ما يشمل الاقبياد بقبول الجزية منهم ، وهذا دليل على صحة امامة الشيخين ، الأثرى إلى قوله تعالى (فان تطيعوا) من دعاكم إلى القتال المذكور (بؤنكم الله أجرا حسنا وان تنولوا كاتولنم من قبل يعذبكم عذابا أليما) فى الآخرة ، أى وان تنولوا عن التوحيد والتوبة والاجابة إلى قتال مسيلة الكذاب أو الفرس الخ ، ولما كان هذا الوعيد الشديد على المتخلفين يشمل من هم معذورون حقيقة أردفه بقوله (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج) فهو لاهج عليهم فى التخلف عن الغزو ، فهم مستنون من المتخلفين لعذرهم بعاياتهم (ومن يطع الله ورسوله فى الجهاد وغيره) بدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتولّى يعذبه عذابا أليما) فى الآخرة .

بيعة الرضوان وهى بيعة الشجرة

سبب هذه البيعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا خراش بن أمية الخزاعى حين نزل الحديدية فبعشه إلى قريش بمكة وحمله على جل يقال له الثعلب ليبلغ أشرافهم عنه ماجاء له ، ففعلوا جل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأرادوا قتله فنعتهم الأحابيش ، فغلبوا سبيله حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب لبيعه إلى مكة فذكر له أنه ليس من قومه أحد بمكة يدافع عنه ، فأرسل عثمان بن عفان ، وأرسله إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وانما جاء زائرا

لهذا البيت معظمًا لحرمته ، ففرج عثمان إلى مكة ، فلقية أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة ، فجعله في جواره حتى فرغ من رسالته لعظماء قريش ، ثم احتبسوه عندهم ، فشاع بين المسلمين أن عثمان بن عفان قتل ، فقال رسول الله ﷺ : لا تبرح حتى تنابز القوم ، ودعا الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، وهي سورة ، فبايعه القوم إلا جَدَّ ابن قيس الأنصاري ، اختفى تحت بطن بعيره ، وهذه الشجرة لما أراد أصحاب رسول الله ﷺ أن يعلوها بعد ذلك كثر اختلافهم ، فلما اشتبهت عليهم وصار كل واحد يشير إلى شجرة ، قال عمر : « سبروا ذهب الشجرة » ، وقال ابن عمر : ما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها وكانت رجة من الله تعالى ، وهذا قوله تعالى (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم) من الاخلاص (فأزل السكينة عليهم) الطمأنينة وسكون النفس (وأتابهم فتحا قريبا) فتح خيبر غلب انصرافهم (ومغانم كثيرة يأخذونها) هي مغانم خيبر وهي أرض ذات عقار وأموال ، قسمها عليهم (وكان الله عزيزا) منيعا فلا يغالب (حكيمًا) فيما يحكم به فلا يعارض (وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها) هي ما أصابوه مع النبي صلى الله عليه وسلم وبعده إلى يوم القيامة (فجعل لكم هذه المغانم أى مغانم خيبر (وكف أذى الناس عنكم) يعنى أذى أهل خيبر وحلفائهم من أسد وغطفان حين جاؤا لنصرتهم ، فغذف الله الرعب في قلوبهم فانصرفوا ، يقول الله : فجعل لكم هذه المغانم لتنتفعوا بها (ولتكون) هذه الكفة أو الغنيمة (آية للمؤمنين) أمارة يعرفون بها (ثلاثة أمور : الأول) صدق الرسول صلى الله عليه وسلم (الثاني) أنهم في حياطة الله وحراسته في مشهدهم ومغيبيهم (الثالث) أن يعرف المؤمنون الذين بعد العصر الأول أن ما وهب الله للصحابة من حراستهم وحفظهم وعطائهم يكون لهم مثله (ويهديكم صراطا مستقيما) وهو آئنة فضل الله والتوكل عليه بعد اتقان العمل ، ثم عطفت على لفظ هذه قوله (وأخرى لم تقدروا عليها) أى وعدكم الله فتح بلدة أخرى لم تقدروا عليها (قد أحاط الله بها) أى حفظها لكم حتى فتحوها ، ومنعها من غيركم حتى تأخذوها ، وسيفتحها الله لكم كفارس والروم الذين كان العرب خولا لهم ، ثم أقدرهم عليها بجزء الاسلام وغيرهما من كل فتوح في الاسلام (وكان الله على كل شيء قديرا) قدرته شاملة للمكنات جميعها (ولولا أنلكم الذين كفروا) من أهل مكة ولم يصلحوا ، أو من حلفاء أهل خيبر وهم أسد وغطفان (لولوا الأدبار) أى لانهمزوا (ثم لا يجدون وليا) يحرسهم (ولا نصيرا) ينصرهم من الله (سنة الله التي قد دخلت من قبل) أى سن الله غلبه أنبيائه سنة ، وهو قوله : « لأغلبن أنا ورسلى » (ولن تجد لسنة الله تبديلا) تغييرا (وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم) ذلك أن عكرمة بن أبي جهل خرج في خصامة إلى الحديبية ، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد على جند فهزمهم حتى أدخلهم حيطان مكة ثم عاد ، فهذا معنى قوله (يبطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم) وقوله (وكان الله بما تعملون) من مقاتلتهم والكفة عنهم (بصيرا) فيجازيهم عليه (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى) أى ما يهدى إلى الكعبة ، أى صدوكم وصدتوا الهدى (معكوبا أن يبلغ محله) أى حال كونه محبوسا أن يبلغ مكانه الذى يحل فيه نحره وهو منى مكانه المعهود . وقال الحنفية : مكانه الذى يحل فيه نحره أى يجب ، فالنحر محل هديه الحرم عندهم فى منى . ويتوون غيرهم : ينحدر حيث أحصر ، وقد نحر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث أحصر (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم) لم تعرفوهم بأعيانهم لا اختلاطهم بالمشركين (أن تطوهم) أى توقفوا بهم وتبيدوهم بالقتل (فتصيبكم منهم معرفة بغير علم) أى لئم وذنب وعتب هلكم فيقول المشركون : قتلوا أهل دينهم ، يقول الله : لولا أن قتلوا رجلا مؤمنا ونساء مؤمنات لاعلم لكم بهم فيلزمكم العار والإثم لأذنا لكم فى دخول مكة ، ولكن حال بينكم وبين دخولها ذلك السبب ولقد كان الكفة ومنع التعذيب والقتل عن أهل مكة (ليدخل الله فى رحمته من يشاء) أى ليدخل الله فى

دين الاسلام من يشاء من أهل مكة بعد الصلح وقبل دخولها ، وليصون المؤمنين منهم عن الأذى (لوتز يلو) لوفرتقوا وتميز بعضهم من بعض بحيث انفصل المؤمنون في مكة عن الكافرين (لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما) بالقتل والسبي (إذ جعل) أى حين جعل ، ظرف لعذبنا (الذين كفروا في قلوبهم الحية) الأفة (حية الجاهلية) التي تمنع إذعان الحق (فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) أى الثبات والوقار ، وذلك ما روى أنه عليه الصلاة والسلام لما هم بقتالهم بعثوا سهيل بن عمرو ، وحو يطب بن عبد العزى ، ومكرز بن حفص ليسألوه أن يرجع في عامه على أن نخلى له قریش مكة من القابل ثلاثة أيام . فأجابهم وكتبوا بينهم كتابا ، فقال عليه الصلاة والسلام لعلى رضى الله عنه : اكتب باسم الله الرحمن الرحيم ، فقالوا لانعرف هذا اكتب باسمك اللهم ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : اكتب هذا ماصالح رسول الله أهل مكة . فقالوا : لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت وما قاتلناك ، اكتب هذا ماصالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة ، فقال ﷺ : اكتب ما يريدون ، فهم المؤمنون أن يأبوا ذلك ويبطشوا بهم ، فأزل الله الكينة عليهم ، فتوقروا وتحملوا (وألزمهم كلمة التقوى) أى الثبات والوفاء بالعهد (وكانوا أحق بها) من غيرهم (وأهلها) أى كانوا أهلها في علم الله ، إذ اختارهم لدينه ، وصحبه نبيه ، وهم أهل الخير والصلاح (وكان الله بكل شئ عليما) من أمر الكفار والمؤمنين فيجازى كلا بعمله . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثالث من السورة والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذا القسم

- (١) في قوله تعالى : قل للمخلفين من الأعراب استدعون إلى قوم أولى بأس شديد .
- (٢) في قوله تعالى : ليس على الأعمى حرج الخ .
- (٣) في قوله تعالى : ولتكون آية للمؤمنين .
- (٤) في قوله تعالى : سنة الله التي قد خلت من قبل الخ

اللطيفة الأولى

في قوله تعالى : قل للمخلفين من الأعراب استدعون إلى قوم أولى بأس شديد الخ

اعلم أن هؤلاء المخلفين قد حرموا من الغزوة التي فيها غنائم بعد ما تحلفوا ، وقبل لهم ترصوا حرموا قوم شداد ، جارية على القاعدة العامة في سنن الله تعالى طبا وتهديبا .

انظر إلى علماء الطب ، فانهم اذا رأوا مريضا قد اشتدت به الآلام الناجمة من البرد ألزموه تعاطى الأغذية الحارة ، أو من الحر ألزموه تعاطى ما هو بارد ، وكذا في الرطوبة واليبوسة ، ويقولون لمن هو كثير النسيان : اجلس في حمام حار ، وخذ في الحفظ والقراءة ، فان رأيت أنك قد أسرع حفظك ، فاعلم أن النسيان من البرودة ، واذا رأيت أن الحفظ قد أبطأ فاعلم أن النسيان من الحرارة ، فمضى السبب فاستعمل ما يضاده فان كان السبب الحرارة فكل الأغذية الباردة ، وان كان السبب البرودة فكل الأغذية الحارة ، وهكذا يقول علماء الأخلاق : « من رأى نفسه كثير الغضب فليزمن نفسه الجلوس مع من يؤذيه مرة بعد أخرى ، وليتعلم الصبر على أذاه ، فان لم يجد من يؤذيه فليسلط هو انسانا بأجر من عنده أن يقوم بشتمه في ملا من الناس ، ثم ليتصبر على ذلك حتى يتعلم التحمل ويتحمل ، واذا رأى انه قد أصبح بليدا بحيث لا يؤثر فيه قول من يفضبه ، ولا من يؤذيه فليتر الجية في نفسه بالأشعار وقراءة كتب الحاسة حتى تقف النفس في الوسط بين التهور والبلادة ، وهكذا من رأى نفسه كثير الكلام فليتعود الصمت مرارا حتى يعرف أن نفسه لا تنطق

إلا عند الحاجة .

وبالاجمال هذا هو السنن الذي سنه الله أن يدارى المرض بضده حتى يرجع المريض للاعتدال في الجسم وفي العقل ، وذلك عينه هو الذي نراه في الشمس ، فانها تاتي علينا أشعة الصيف فتكون حرارة ، وأشعة الشتاء فتكون برودة ، وأشعة الربيع والخريف فتكون متوسطة ، فرجع الأمر إلى الاعتدال ، لأن الحار والبارد يتساقتان ولا يبقى إلا الاعتدال . كل هذا يؤخذ من هذه القصة ، إذ أنهم لما تخلفوا عن السفر وحموا من الغنيمه في غزوة خيبر ، أزموا أن يكونوا في غزوة فيها قوم أولو بأس شديد ، والقتال شاق ، فهم كالبرودين يلزمون الطعام الحار ، وكالبليد تستثار فيه الهمة والنشاط والحية . انتهت اللطيفة الأولى .

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : ليس على الأعمى حرج الخ

اعلم أن هذه الآية لا يراد بها أن تكون قاصرة الحكم على مسألة أصحاب العاهات ، إذ يستثنون من المتخلفين المذمومين ، إن هذا المقام مقام الاستعداد : فينظر المسلمون في أمر الأمة جميعها ، وليجعلوا كلا فيما استعد له ، جعل الله في زمن النبوة الأمة ثلاثة أقسام : النساء لأعمال المنازل ونحوها ، والأقوياء من الرجال للحرب ، وأصحاب المناهات عفا عنهم فلا يجاهدون ، لماذا ؟ لأنهم لا يصلحون لذلك ، ولعمري إن هذا فتح باب لاشعال نار الرقى والاسعاد في الأمة ، فليفتح الباب على مصراعيه ، وليقل إن الله أنزل في القرآن هذا لتنظر نظرة عامة ، ولنقل الأمة كلها في جهاد دائم ، ليس الجهاد قاصرا على ضرب السيوف ، واعداد الجنود ، ورفع البنود . كلا . ثم كلا . فلكل فرد من الأمة منزلة لا بد أن يوضع فيها ، فالزراع في مزرعته يجاهد ، لأنه يرسل الخنطة لصفوف المجاهدين ، والتاجر ، وصانع الأسلحة ، والحاكم والقاضي والشرطي والخفير ، كل هؤلاء أعوان المحاربين ، وسائق قطار السكة الحديدية ، وحارس المرسية (التلفون) ، وصانع الطائرات ، فكل هؤلاء مجاهدون ، فليجعل كل فيما هو أهل له ، وإذا نفي الله الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض فليس معنى هذا أنهم يعافون من كل شيء . كلا . أنهم لم يقدروا على دخول الصف ومقابلة العدو ولكن الأعمى إذا كان من القادرين على الخطابة والحث على الجهاد فليزيم بذلك ، والأعرج إذا كان قادرا على عمل كأن يكون عند آلة البرق (التلغراف) فليزيم بذلك ، والمريض يجب على الحكومة معالجته ، ومتى شفي توجه إلى ما خلق له ، والمقصود أن هذه الآية تفتح الباب لوضع كل امرئ فيما استعد له ولا يكون ذلك إلا بتعليم الأمة كلها تعليما عاما وادخال بعض الصناعات في المدارس الابتدائية حتى تظهر مواهب الأطفال فيوضعوا فيما خلقوا له ، كما نقلته لك في (آل عمران) عن أهل أمريكا ، وهذا المعنى يؤخذ من قوله تعالى « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » وقوله : « لا تكلف نفس إلا وسعها » فارجع إلى التفصيل في (سورة البقرة) وقيل للأمة لاتعطوا مواهب الأمة ، بل نبهوا جميع الشعب ، وأيقظوا فيه المواهب الكامنة حتى تستخرجوا منها الآثار النافعة ، ولاسعادة للأمة إلا بهذا ، والله هو الولي الحميد . انتهت اللطيفة الثانية .

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : ولتكون آية للؤمنين

اعلم أن هذا سر مصون ، وجوهر مكنون ، وحكمة عالية ، ومنهج شريف ، وكبريت أحمر ، وماس بهيج ، ودرّ نضيد ، وكنز مدفون ، أراد الله اظهاره لأمة الاسلام ، حتى تسبقظ من رقدتها ، وتقوم من غفلتها ، وترجع عن حوبتها ، وتنفض غبار الكسل ، وتحيي ما مات من الأمل ، وتحيي ثمار الحكمة التي حفظها

الله لم في الكتاب ليفهمها أولو الأبواب بعدنا فيقولون : ياليت شعري : أي آية للمؤمنين هنا في هذا الزمان إذا كان الله كف أيدي أهل مكة عن المؤمنين ، وكف أيدي المؤمنين عن أهل مكة ، ومجمل لهم مقام في خير ، فأى آية لنا الآن نحن في هذا الزمان ؟ ذلك زمان مضى وانقضى ، وأمرطواه الزمان في سجل النسيان فكيف يكون آية لنا ! اللهم إلاما يكون آية على صدق النبوة وصدق النبوة عندنا لا يحتاج لبرهان ، لأننا أخذناه جيلا عن جيل ، وقوما عن قوم ، فلسنا نحتاج إلى براهين جديدة ، على أن صدق النبوة ليس هو كل شيء عندنا في الدين ، بل المهم نتأمله ، فن صدق بالانبياء وبالقرآن وببقي ساكتا لا يحرك ساكتا فأى فرق بينه وبين الكافر إلا الاعتقاد ، والاعتقاد بلا عمل شجر بلا ثمر ، وأرض بلا زرع .

إذا سمعت هذا من أهل زمانك ، أو قرأته في هذا المقام ، فأجب عنه وقل : إن الله عز وجل جعل أهم خواص الانسان أمرين : الأول العلم والشوق إليه ، وحب الحكمة والغرام بها والولوع ، والثاني نفع الناس وإرشادهم ، فهذان هما الخلقان الشريفان اللذان تخلق الله بهما ، فهو عليم ، وهو رحيم وحكيم ، ومن تخلق بأخلاق الله فإن الله عز وجل يكون معه ، وإذا كان مغرما بمنفعة الناس ، وأحب رقيهم وسعادتهم على شريطة أن يكون أهلا لذلك ، فإن الله وملائكته يكونون معه ، ويرى العون من الله في غدوه ورواحه ، وبالتفطن يرى من العناية والمساعدة ما لا يحيط به بيان .

أقول هذا وأذكرك بحديث : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع » وبمباروي « إن طالب العلم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر » أوامعنا ، وبآية : « والذين جاهدوا فينا لهديتهم سبنا وإن الله لمع المحسنين » ، فالجهاد يشمل الجهاد العلمي ، والجهاد العملي ، والاحسان يشملهما ، فهو احسان بالعلم واحسان بالعمل .

واعجب أيها الذكي كيف تقول بعض الارواح لما حضرت وسألوها في أوروبا : أي شيء رقينا اذا امتنا ؟ فأجابت : أمران هما المحبوبان : الأول الفلاسفة ، أي حب العلم والحكمة ، والثاني حب الناس ، فمن انصف بهذين الوصفين كان محل نظر الله وملائكته ، وكان الله معه ، وازداد علما على مدى الزمان ، وخزان الله العلمية لا تنفذ . كل هذا من سر هذه الآية : « ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما » وهو الثقة بفضل الله تعالى ، انظر كيف جعل الله هذه الغنائم الخيرية التي وعد الله المؤمنين بها آية لنا ، وثباتا على الأعمال والعلوم . انظر كيف نام المسلمون ، وجهلوا هذه العلوم . انظر كيف كان العالم كالجاهل في تناسي هذه العلوم القرآنية . انظر كيف ملا الله الأرض بالعلم وأخلى منه أمة الاسلام الحاضرة لإلا قليلا . انظر رعاك الله وقل لي غنائم خيبر يجزينا الله بها ويقول انها آية لكم ، وهداية للثبات على الأعمال ، ثم يصم المسلمون آذانهم وينامون نوما عميقا ، حتى قل من بينهم من يحب المجموع ، وقل من يحب العلم لذات العلم ، فأما بعد هذا الزمان فسيكثر فيهم العاشقون للعلوم ، ويكثر المحبون لأمة الاسلام ، بل ليجع العالم الانساني الذي نحن جعلنا رجة له ، بل رجة لكل حي من انسان وحيوان ، لأننا قأمون مقام نبينا المرسل رجة للعالمين من الانسان والحيوان والجن الذين لم يتخلقوا بالأخلاق الجيدة فيقلدون الصالحين منا والعلماء فينا .

جهاد الفرد وجهاد الجيش

لعلك تقول : أي الآيات تراها اليوم في هذا الزمان اذا نحن أخلصنا في أعمالنا فيساعدنا الله كما ساعد المؤمنين بغنائم خيبر ، إن ذلك كان ورسول الله ﷺ بينهم ورجة الله نزلت عليهم ، وأخبر النبي بذلك ، وتم ما أخبر به ، وصدق الله وعده فعلا ، فأى غزوات الآن نكون فيها ؟ وأي منح نعطها ، وعلما بانلقاها ؟

ولانبيّ بيننا اليوم . والكرامة للأنبياء ومن مع الأنبياء ، أما نحن فلسنا أهلا لذلك .
أقول : إن هذه الآراء هي السبب الأكبر في موت المسلمين موتا أدبيا وحريريا وماليا واقتصاديا وسياسيا
وهي الدلالة على الجهل بالله ، ونظامه ، ورحته ، وحكمته الشاملة ، وآياته الواصلة ، ومجانيه المدهشة .
إن الله دائم الجود ، واسع العطاء ، لم يخص العلماء ، ولا الأنبياء ، ولا الحكماء ، ولا الانسان ، بل عمم
العطاء حتى لأحق ذرة من الحيوان المسماة ميكروبا ، فأعطاها أشرف الأجسام ، وهي أجسام الانسان ،
تأكل فيه لحما طريا ، وتشرب شرابا أحر شهيا ، وترتع وتلعب وهي آمنة مطمئنة ، فإذا أعطى الله أجسام
أشرف لمخلوقات وهو الانسان لأقل الحيوانات قدرا ، وقال لها كلّي واشربي وقرّي عينا في أشرف مخلوق
على الارض ، فما بالك بالانسان وهو أشرف حيوان على الارض ، فهل بذره الله يتخبط في الدنيا لا يفرق
بين من يريد نفع العموم ومن يريد شهوة نفسه . كلا والله . فلقد جرت بنا مقول فرأينا العجب العجيب !
وتعلم أن جهاد الفرد في الحياة العلمية والعملية أشق من جهاد الجيش الكبير ، والمعاونة الإلهية تكون
على العمل الفردي أقوى من المعاونة التي تعطى للجيش الكبير الصادق ، وبرهانه أن نقول : إن الفرد منا
وهو يجتد في العلم مخلصا فيه ، وفي منافع النوع الانساني اذا كان أهلا لذلك ، يلاقى مشاق لا يلاقها الجيش
في غزواته ، أي انه اذا كانت الصعاب التي يلاقها الجيش توازي في صعوبتها ما يلاقه الفرد المجتد مضاعفة بعدد
أفراده كان الجيش في مشقة لا تطاق ، فاذا رأيت الله عز وجل يساعد أصحاب النبي ﷺ ويعطيهم غنائم
خير ، لأنه يعلم أن هذا الجهاد سيعقبه نشر العلم ، وحفظ الأمن ، وأن ما يضلونه مع الكفار أشبه بالسكنى في
جسم الانسانية ، وبعد هذا السكنى سيكون الشفاء التام . وعلموا هذا كله من طريق النبوة ، فاعلم أن الفرد
الواحد المجاهد يقع في مشقات لا عدد لها اذا كان مجاهدا للجموع ، وتكون المعاونة له من الله على مقدار
ما يصيبه من المشقات ، فيكون العالم في علمه ، والمنظم للأمة الساعى في رقبها ، واقعين في مصاعب ومشاق
عظيمة ، ويكون عون الله لهم مضاعفا على مقدار مشاقهم ، إن شئت فقرأ قوله تعالى : « إنا نصره فقد
نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله
سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم » .
وأنت تعلم أن نصره وهو في الغار أعجب من نصره وهو في بدر ، أو أحد ، أو حنين ، يقود جيشا عظيما ،
اذا عرفت ذلك فاعلم أن حالك أنت اليوم وأنت تعلم العلم ، أو تحرص على رقي امتك الاسلامية لا تخرج عن
هذه الحال لأن الله معنا أينما كنا ، وما أرسل الأنبياء إلا ليكونوا قدوة لنا ونورا ، فاذا نصرني وهو وحيد
ليس معه إلا أبو بكر ، جرب أنت كما اتفق لي ، لاسيا أثناء هذا التفسير ، فقد رأيت العجائب في هذه
الحياة ، ووقعت في مشا كل مدطمة ، ولكن جاءت الطائف الله أسرع من البرق ، فأوقفت الشر بل أزالته ،
وتكررت ذلك مرارا أثناء هذا التفسير ، سواء أكان ذلك في الامور الدنيوية أو المسائل العلمية . ومن عجب
أن بعض المسائل أكون في حاجة إليها ، والآية تتطلبها ، فلا تمضي دقائق حتى أعثر في الطريق على ما يفهمني
المطلوب ، وأذ كرمرة أتى كنت سائرا في شارع خربت بالقاهرة بالقرب من مشهد السيدة زينب رضی الله عنها
وأنا أفكر في آية : « إن في خلق السموات والأرض إلى آخره ، ووجدت أن الفلك في البحار لا بد من استيفاء
الكلام عليها ، فالذي يسيرها إما الهواء وإما البخار ، فخطر بيالي أن الكهرباء أيضا لا بد من أن يكون لها
في ذلك عمل ، ولكن لا يمكن أن أكتب ذلك إلا اذا اطلعت عليه ، فحدثتني نفسي أن عادة الله لا بد أن تتم
معى ، واتى قريبا أجد فهمها ، فما سرت بضع دقائق حتى وصلت إلى ميدان السيدة زينب ، فوجدت رجلا
معه مجلة لا أتذكر اسمها . فقلت أرنيها ؟ ففتحتها فرأيت في الصفحة التي وقعت تحت نظري في سطر من
أوسطها هذه المسألة بنصها ، بحيث أن نظري لم يقع إلا عليها ، ولم تفتح إلا هذه الصفحة أول ماتولتها ،

فاشترتها منه وقلت الجملة التي في المجلة الخاصة بالكهرباء التي بها تسيب السفن ، فانظرها في سورة البقرة ، فانك تجدها في تفسير الآية ، وتجد الجملة منقولة بحروفها ، لأنني لست من علماء هذا الفن ، هذه مسألة واحدة وواقعة من وقائع كثيرة أثناء تأليف هذا الكتاب ، وانما ذكرت لك هذا لتعلم اني أكتب عن يقين ، وأن النور الفاضل من الله محيط بنا من كل جانب ، وانما نحن الذين نحرم أنفسنا منه فيشقى الجاهل به ، فاذا أعان الله رسوله وهو في الغار جاداً في رقيّ أمته فليس معنى هذا أنه يتركك وأنت مقتف أثره . كلا والله ، بل لم ينزل هذا القرآن إلا لأجل هدايتك ، بمثل هذا تعرف النبوة وصدقها ، وبمثل هذا فليترق المسلمون .

فليجد العلماء في تفهيم الناس هذه الحقائق ، فلعمري كيف يقول الله « ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً » . أليس ذلك ليكون نبراساً لنا فنعلم أن الله مؤيد للعاملين في أعمالهم الجزئية ونفكر في تلك الاطّاعات السريّة التي يحسّ بها الانسان في نفسه ، وتلك المساعدات الوقتية التي تحصل لنا عند جدنا في المنافع العائمة ، وحينئذ لا يحصى لنا عن الثبات في أعمالنا والمثابرة فنفوز كما فاز الأولون ، ونحظى بما حظي به المتقدمون ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

تذكرة

في موازنة آيات الأحكام بآيات الأعمال الاخرى

فاذا سمعت السادة الحنفية ، والسادة الشافعية ، يدققون النظر ، ويحققون الفكر ، في آية : « حتى يبلغ الهدى محله » فيقول قوم ان الحرم هو الذي يذبح فيه الهدى ، ويقول قوم . كلا . فلينحر المحصر حيث أحصر كما تقدم مع أن الخطب فيه سهل ، فبالك بمثل هذا المقام الذي يقول الله فيه : « ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً » . يجعل الله غنائم خبير آية لنا ، وهداية لسبنا ، وطريقاً لوصولنا ، ولم يقل في الهدى شيئاً من ذلك ، بل قال : « لن ينال الله لحومها ولادماؤها ولكن يناله التقوى منكم » . فانظر كيف أرجع الأمر في الذبائح سواء أكانت في منى ، أم في الحديبية ، أم في غيرها لأمر واحد وهو التقوى ، وانما هذه وسائل لها ، فان بذل المال معناه اتبرى من المال ثلاثاً يعاقب بالقلوب فيوقعها في شرك هذه الحياة الدنيا . فاذا كان علماؤنا هكذا يدققون في الوسائل فما بالك بالمقاصد مثل ما نحن فيه . لقد كان أئمة الفقه كمالك ، والشافعي ، وأبي حنيفة ، وأحمد بن حنبل ، وزيد رضي الله عنهم وأمثالهم يدققون في الأحوال النفسية عملاً ، ولم يكن عندهم الزمن الكافي ليكتبوا هذا للناس ، فتركوه للأجيال المقبلة ، وكأنهم يقولون : هانحن أولاء دققنا في مقدمات الأعمال ، فعليكم النظر فيما لا يحتاج إلى بحث شديد كبخشنا وهي المقاصد ، ولينتم الآخرون ماركة الأولون ، فاذا نحن أفهمنا كم دقيقات الامور فعلموا الناس أنتم الامور التي هي أروضح كقوله تعالى : « إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور » وكقوله : « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » وكقوله « وان الله لمع المحسنين » وكقوله « إن الله مع الصابرين » وكقوله هنا « ولتكون آية للمؤمنين » .

إن الله يساعد المؤمن المجاهد في نفسه أكثر مما يساعد الجيوش في الجهاد ، ألم ترى قوله صلى الله عليه وسلم : « رجعتنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس » ، جهاد النفس جعل أشد من جهاد العدو فيكون العون فيه أعظم ، لأن الجندي في الجيش معه اخوانه ، وليس مع الفرد في نفسه إلا الله كما تقدم في آية الغار : « إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » .

دفع وهم

إياك أن يمر بخاطرك أن هذا القول ونحوه معناه أنه لن يصيبك هم في الحياة . كلا . إذا جاء هذا الخاطر فاعلم أنه خاطركاذب . يقول المسلم إذا خربه أمر : كيف أقع في هذه الشدائد ؟ ألتست مسلماً ؟ أليس الله بكاف عبده ؟ أليس الله يساعدي ؟ أليس الله يساعدي ؟ أليس الله يساعدي ؟ وأنا أهل لذلك ، وأنا مخلص ، فعمل هذا يقال : إذا ظننت أنه لن يصيبك أذى ، فأنت واهم ، بل هذه الطبقة يكون همها أعظم ، وحملها أثقل ، وعملها أشق ، ويكون العون على قدر المشقة ، ولن يرتقي امرؤ قط إلا بما زاول من الأعمال ، وما قاسى من المشاق . وهذه الفكرة في الإسلام هي التي قعدت بالهمم ، وأورثتهم الخمول ، فيقول الرجل : ألسنا مسلمين ؟ فلماذا ساء الله الفرقة علينا ؟ أليس النبي شفيعاً لنا ؟ أليس الله مع الصابرين ؟ أليس الله ينصر من ينصره ؟ ونحن نتصر الله فلماذا لا ينصرنا ؟ وهذا كله كلام لم ينطبق على حقيقة الواقع الذي عليه المسلمون ؟ فلنجدال بالتي هي أحسن في نقطة الشفاعة ونقول : أيها المسلم : أليس النبي شفيعاً ؟ فيقول بلى فتقول أليس العالم شفيعاً ؟ يقول بلى ، تقول أليس الشهيد شفيعاً ؟ يقول بلى ، تقول : النبي والعالم والشهيد إذا ظهروا في بلد أيكونون سبب كسلها ، أم يكونون سبب نشاطها ؟ فيقول بل سبب نشاطها للأعمال ، تقول لماذا ؟ فيقول لأن العلوم الدينية وعلوم العلماء وتقدم الشهيد نفسه لله كل ذلك يحدث في الناس استعداداً للعمل ، تقول فإذا رأينا الذين مع العالم ومع الشهيد ومع النبي قد كسلوا فما شأنهم ؟ فليس له إلا أن يجيب : ليس لهم حظ من السعادة ، بل هم أكثر عذاباً ممن لم يكن عندهم عالم ولا نبي ولا شهيد لأنهم رأوا طريق الرشاد فلم يتبعوه ، وعرفوا الحق ولم ينهجوه .

تقول : هذا المثل منطبق على بعض المسلمين ، يرون نبينا ﷺ وأصحابه يتجشمون المشاق في الحر والبرد ، ويلاقون الأعداء في الجبال ، ويقدمون رقابهم للقتل . كل ذلك والمسلمون ناعمون ، ثم يظنون أن الشفاعة معناها أن يكسل الإنسان ويعطى الحبز مجاناً ، فاذن الشفاعة لها معنى غير هذا ، فليعملوا كما رأوا في السلف الصالح ، واذن يلحقون بهم ، فأما كونهم يلحقون بهم وهم ناعمون فهذا غير معقول ولا مقبول ، إذ يصير هكذا : كل عالم في بلده يكون سبباً لكسلها ، وكل نبي يكون سبباً لكسل أمته ، فتكون الآية معكوسة ، والعقول مقلوبة ضائعة . ومعلوم أن الله لم يخلقنا إلا ليهذبنا ويرقينا ، والتهذيب والترقية أعمال لا كسل ، فإذا قال : « ولينصرن الله من ينصره » فليكن المسلم ناصراً للفضيلة ، مفكراً مطعماً ، حريصاً على العلم ، وليكن المسلمون جادين مفكرين .

فرحم الله امرأً أهدى إلى الناس ما كتبناه في هذا التفسير ، وأعطاهم ما يقبلون منه . ورحم الله امرأً نشر هذه الأقوال بين المسلمين . ورحم الله المؤمن النافع للمسلمين . انتهت اللطيفة الثالثة .

اللطيفة الرابعة في قوله تعالى : سنة الله التي قد دخلت من قبل

هذا المعنى يقوى المعنى الذي سبق في اللطيفة الثالثة ، وملخصه تقوية قلبك أن تكون مرقياً لنفسك علياً ، ولأمتك مادياً وأديباً ، والله يكون معك ، وأن هذه سنة قديمة في الأنبياء وأتباعهم العلماء ، والله ولي المؤمنين .

فصل في إيضاح الكلام على بيعة الرضوان

روى أن مكرز بن حفص لما أشرف على النبي ﷺ وصحبه كأنفتم قال ﷺ هذا مكرز وهو رجل فاجر فجعل يكلم النبي ﷺ فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو فقال ﷺ قد سهل لكم من أمركم ،

ولما قال ﷺ لعليّ - إني رسول الله قال لا والله لا أمحوك أبدا قال فأرنيه فأراه إياه ففجأه النبي صلى الله عليه وسلم بيده وكتب بهذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله على ثلاثة أشياء : على أن من أتاه من المشركين ردّه إليهم ، ومن أتاهم من المسلمين لم يردّوه ، وعلى أن يدخلها من قابل ويقيم ثلاثة أيام ولا يدخلها بجلبان السلاح والسيوف والقوس ونحوه ، فقالوا يا رسول الله أتكتب هذا ؟ قال نعم ، انه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجا ومخرجا . انتهى القسم الثالث من السورة .

القسم الرابع من السورة

رأى عليه الصلاة والسلام في المنام وهو بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أنه يدخل المسجد الحرام هو وأصحابه آمنين ويحلقون رموسهم ، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا وحسبوا أنهم داخلوا مكة عامهم ذلك ، فلما انصرفوا ولم يدخلوا شقّ عليهم ذلك ، وقال المنافقون : أين رؤياه التي رآها ؟ فأنزل الله هذه الآية ودخلوا في العام المقبل . ومما روى أن عمر بن الخطاب . قال : أتيت النبي ﷺ فقلت أليست نبيّ الله حقا ؟ قال بلى . قلت ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال بلى . قلت أليس قتلتنا في الجنة وقتلهم في النار ؟ قال بلى . قلت فلم تعطى الدنيا في ديننا إذن . قال اني رسول الله وليست أعصيه وهو ناصري ، قلت أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال بلى ، فأخبرتك انك تأتيه العام ؟ قلت لا . قال فانك آتية وتطوف به . قال فأنت يا أبا بكر ، قلت يا أبا بكر : أليس هذا نبيّ الله حقا ؟ قال بلى . قلت ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال بلى . قلت فلم تعطى الدنيا في ديننا . قال أيها الرجل : انه رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس يعصى ربه ، وهو ناصره ، فاستمسك بعززه ، فوائه انه على الحق ، قلت : أليس كان يحدثنا انه سيأتي البيت ويطوف به ؟ قال بلى ، فأخبرك انه آتية العام . قلت لا . قال فانك تأتيه وتطوف به ، وهذا قوله تعالى (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق) أي صدقه فيما رأى وفي كونه حصوله صدقا ملتبسا بالحق أي بالحكمة البالغة لأن فيه ابتلاء لتمييز المؤمن الخالص من المنافق ، والله (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله) حال كونكم (آمنين) علق بالمشيئة تعليلا للعناد أن يلزموا الأدب فلا يحكموا على مستقبل لاعلم لهم به (محلفين رومكم ومقصرين) أي محلقا بعضهم ومقصرا آخرون (لانتخافون) جملة حالية مؤكدة (فعمل ما تعلموا) من الحكمة في تأخير ذلك (فجعل من دون ذلك) أي من دون دخولكم المسجد أو فتح مكة (فتحا قريبا) هو فتح خير ، ليستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر الوعود ، وقد تقدم شرح ذلك شرحا وافيا (هو الذي أرسل رسوله بالهدى) أي ملتبسا به (ودين الحق) أي ودين الاسلام (ليظهره على الدين كله) ليعليه على جنس الدين كله بنسخ الديانات واطهار فساد العقائد الزائغات وبسليط المسلمين على أهل الأديان في الأزمان الغابرة ، وبالقيام بأمر الكرة الأرضية والمحافظة على نظام الأمم ، والقيام بأمر الموازنة بينهم ، وتعليم النافسين في الأزمان المستقبلية إذ تسبح الأرض كلها كأسرة واحدة ، ويكون المسلمون هم الآخذون بيد الأمم ، وذلك في أيام عيسى التي هي رمز للسلام العام في الأمم ، ويكون المسلمون يدهم مفتاح هذا السلام كما أشرنا إليه في السورة السابقة إذ يتضام العرب بعضهم مع بعض وهم والترك وبقية الأمم الاسلامية المتناخضة الديار كما أوضحته في ﴿ سورة آل عمران ﴾ عند قوله تعالى « ألم تر إلى الذين أتوا نصيبا من الكتاب » وذلك بأن تعلم أبناء العرب في شمال إفريقيا والشام والعراق والحجاز العلوم الابتدائية والثانوية والعالية ، وبذلك يعرفون قدراتهم ولعنتهم ودينهم وعوائدهم فيتحدون ولوطال الزمان ، ثم يتحدثون مع الترك وغيرهم لجامعة الدين والجوار ، وانهم أمم شرقية : هم يأخذون بيد المسلمين في سائر الأقطار ، ثم

يعلمون الدول انهم يريدون السلام العام بين الأمم بعد أن يكون جيشهم أقوى الجيوش ، وكلهم أعلى الكلام ،
مهما هناك هناك يقال انهم « خير أمة أخرجت للناس » . وهناك هناك يقال « ليظهره على الدين كله » وهناك
هناك يقال : إن المسلمين رجة للعالمين تحقيقا لقوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

فايك أن يقول لك فقيه ابن الجهاد ؟ فلتجبه بما في السورة السابقة عند الكلام على آية : « حتى تضع
الحرب أوزارها » . وقيل له : فليكن جيش المسلمين أقوى الجيوش وهم الآن في وسط الكرة الأرضية ، واذن
يحفظون الموازنة ، ولا يكون في الأرض إلا مسلم أو مسلم ، فالأمم كلها تسلمهم وربما أصبحت الأرض كلها
حكومات متحدة والمسلمون يكونون هم القاعين بأمر هذا الاتحاد وهذا زمانه ، وليس يكون نزول المسيح
إلا بعد هذه المقدمات ، فلو أنه نزل بغير ذلك لم يمكن تغيير طباع الناس في عدد الأصابع من السنين ، فنزول
المسيح إنما يكون لأمة قد أشرقت أنوارها ، وحسنت طباعها ، وبدوم ذلك النظام الآفا والآفا من السنين ،
ويقال لأهل الأرض إذن انهم على منهج المسيح ، والقائم بأمرهم أمة الاسلام ، وهما إذا قد ينت هذا في
سور كثيرة . ولما كان هذا وعدا لا بد من تحقيقه أعقبه بقوله (وكنت بالله شهيدا) على أن ما وعدته كائن ،
وعلى أنه رسول الله ﷺ ثم أخذ يبين ذلك فقال (محمد رسول الله والذين معه) أي أصحابه المؤمنون ،
والمعطوف والمعطوف عليه مبتدأ خبرهما (أشداء على الكفار رحماء بينهم) أي يغلظون على من خالف دينهم
ويتراحون فيما بينهم كقوله : « أدلة على المؤمنين أعزّة على الكافرين » ، (تراهم ركعا سجدا) لأنهم
مشغولون بالصلاة في أكثر أوقاتهم (يتقون فضلا من الله ورضوانا) الثواب والرضا (سيأهم في وجوههم
من أثر السجود) أي السمة التي تحدث في جباههم من كثرة السجود ، يقال سامه إذا أعلمه ، وكأن
المنافقين يعرفون بسيماهم كما جاء في السورة السابقة : « فلترفضهم بسيماهم ولترفضهم في لحن القول » هكذا
هنا ، فلا شقيا علامات تظهر في وجوههم وسحتهم وهيئاتهم . كما أوصى العلامة ابن خلدون في مقدمته ،
هكذا الفضلاء ، ولكن العقول التي تفهم ذلك نادرة أوقلية . واعلم أن كل ما يفعله الانسان أو يتصوره يؤثر
في ظاهر جسمه أثرا ، ولكن الفطن تتفاوت في تعرف ذلك تفاوتا كثيرا ، وسيماهم التي في وجوههم هي السمات
الحسن والخشوع والتواضع والسجبة (ذلك) أي المذكور (مثلهم) صفتهم (في التوراة) وعليه وقف
(ومثلهم في الانجيل) مبتدأ خبره (كزرع أخرج شطأه) فراخه ، يقال أشطأ الزرع إذا أفرخ (فأزره)
فأعانه وشدّ أزره وقواه ، ومنه تقوية أبي بكر للنبي ﷺ فهو أول من آمن به وخرج معه على أعداء الله
(فاستغلف) فتقوى ، هكذا تقوى رسول الله ﷺ بمال عثمان مشلا على الغزو والجهاد ونحوه (فاستوى
على سوقه) جمع ساق : أي على أصوله ، ومثاله اظهار أمر النبي ﷺ في قریش بنحوه على بن أبي طالب
وعمر (يجب الزرع) بكثافته وقوته . يقال : « مكتوب في الانجيل انه سيخرج قوم يثبتون نبات الزرع ،
بأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » ، ومعنى يجب الزرع هنا : أي يجيع المؤمنين ، ولقد نمام الله
وأكثرهم واستورا وغلبوا (ليغيظهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مقفرة وأجرا عظيما)
وقوله « منهم » بيان للذين آمنوا . واعلم أن مثل التوراة الذي تضمن الرجة على الأولياء والسدة على
الأعداء يستلزم كثرة العدد والرقى لأن المتراجين متحابون فيعظم شأنهم ، فإذا اتحدوا لاجتماعهم على العبادات
من ركوع وسجود واتصافهم بأوصاف الرجة والسدة في مواضعها فذلك يدعو إلى رقيهم تدريجا كالزرع ،
وكان هذه المعاني التي تضمنها المتلان متلاحقة متسلسلة ، فكأن التوراة لما كان أقدم من الانجيل وأسا له
ذكر فيه مبدأ مابه القوة والكمال ، وكان الانجيل لما كان بعد التوراة ذكر فيه ما يترتب على ذلك الأس-
وهو النماء والقوة والعزة وظهور الثمرات . ولما كان التوراة كتاب أحكام وشرائع نسب إليه المثل الذي هو
من جنس شرائعه كالسجود والركوع والاعمال الخلقية في مواضعها ، ولما كان الانجيل كتاب ارتقاء

للعواطف ، وبث الفضائل ، واستخراج القوى الكامنة في النفوس ناسب أن يذكر في مثله الزرع ونماؤه .
 وبروي في حديث وصف المؤمنين مامعناه : « ان أناجيلهم قلوبهم »
 هذه أوصاف الأمة الاسلامية ، فانظر لها الآن وتأمل في تماثلها وجهلها الفاضح ، حتى أصبحت مثلا
 مضروبا للخمول والجهالة الجماء ، وسيدل الحال ، ويحسن المآل ، ويحضر الزرع ، ولما كان هذا المثل
 المضروب بالزرع في هذه السورة يحدث في نفوسنا بأسا من ارتقاء المسلمين ، لانه يقال : هانحن أولاء اليوم
 أبناء أمة الاسلام وهذا المثل ينطبق على آباءنا الأولين ، أما نحن فإتينا أصبحنا زرعاً هسبنا نذروه الرياح فكيف
 يجتمع عصفه وتبته ، وقد مضى زمانه ، وذهب ابانه ، ويستدل القائل بما هو حاصل اليوم وتقرؤه في الجرائد
 من التخاذل والتناهد والتباعد بين المسلمين ، حتى أصبحوا عند الفرنجية كالخدم والعييد ، ألم تر إلى ما جاء في
 الجرائد أثناء تأليف هذا التفسير يوم الثلاثاء ٢٣ يونيو سنة ١٩٢٥ م أي قبل كتابة هذه الأسطر بيوم
 واحد مانصه :

« باريس في ٢٢ يونيو — تلقت جريدة الطان تلعرافا من مراسلها في مدينة فاس قال فيه ان مولاي
 يوسف سلطان المغرب الأقصى أعرب للرشاليوني عن رغبته في إصدار منشور ينكر فيه أعمال عبدالكريم
 الماسية بالوحدة الدينية ويقول ان عبدالكريم لا يملك الصفات اللازمة لحكم المسلمين ، وبالنظر إلى تحرش
 الأمير عبدالكريم الذي أعلن انه يريد الاحتفال بعيد الأنصحي في فاس قرر مولاي يوسف ردا على ذلك أن
 يبق في فاس ليحتفل بالعيد احتفالا عظيما » اه

هذا هو التلغراف المرسل المذاع عن مولاي يوسف ، فانظر أيها الذكي كيف أصبح المسلمون العوبة في
 أيدي الفرنجية ، وانظر هذه المنجزات ، الأمير عبدالكريم قام لتحرير بلاد مراكش وطرد الفرنجية منها ،
 والفرنجية يصطادون أناسا يجعلونهم ملوكا ثم يأمردهم فيذيعون أوامر لأوائك الذين يناوئون الفرنجية ، هذا
 المثل الذي يتصف به بعض المسلمين اليوم وان كان فريق عظيم منهم قد استيقظ كالترك والفرس والأفغان
 هذا هو المثل السوء الذي يمثله المسلمون اليوم ، لاسيما اخواننا أبناء العرب ، وذلك للجهالة العمياء ،
 والنوم والعمى ، فاذا تبدى لك هذا فاعلم ان الله قد علم ذلك قبل أن يخلقك ، وقال : « ولانكونوا كالذين
 أنثوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » اعلموا ان الله يحيي الأرض
 بعد موتها » فتعقيب آية قسوة القلب والفسق باحياء الأرض بعد موتها إشارة إلى ما هو مقرر في سنة الله
 أن الشيء متى وصل إلى نهايته انقلب إلى ضده ، فالأمة الاسلامية اليوم وصلت إلى مآزاه ، وبعد هذا الموت
 الحياة ، فاذا كان المسلمون صاروا اليوم هسبنا نذروه الرياح فإتته يقول : « اعلموا ان الله يحيي الارض بعد
 موتها » فلئن مات بعض المسلمين اليوم فإن الحياة بعد الموت ، وسيظهرهم الله على الأمم ويبدسون علومها
 ويقومون بأمر ربهم ، هذا هو الذي سيكون ، والله هو الأول والآخر والى الله ترجع الامور .

اللطائف العامة للسورة كلها

اعلم أيها الأخ الذكي أن هذه اللطائف لم ترد بخاطري إلا عند الطبع ، واللطائف المتقدمة إنما كانت أيام
 التأليف منذ بضع سنين ، وهالك بيانها :

- (١) في قوله تعالى : إنا فتحنا لك فتحا مبينا .
- (٢) في قوله تعالى : هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم .
- (٣) في قوله تعالى : والله جنود السموات والأرض وكان الله عليهما حكيما .
- (٤) في قوله تعالى : هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق الآية .

اللطيفة الأولى في قوله تعالى : إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً

هذا ما فتح الله به على يوم الثلاثاء ١٤ يوليو سنة ١٩٣١ م : —

(١) اعلم أن الأرض ثلاثة أقسام : أرض سبخة ، وأرض حجرية ، وأرض طيبة صالحة للزراعة . فالأولى يقع عليها المطر فلا تحفظ الماء ولا تثبت ما ينفع الناس ، والثانية تحفظ الماء لغيرها ولكن لا تنفع به ، والثالثة يثبت فيها النبات وينتفع به الناس . فهذه الثلاثة اتفقت بالماء ونفعت الناس بثمارها ، فكان منها الحقول والنبات والأشجار والأثمار والأزهار والجمال .

الله أكبر : إن عقول أهل الأرض مقسمة أقساماً تضارع هذه الثلاثة (ترى أصول هذا الموضوع في حديث البخاري : إنما مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم الخ) إذن من شرط النفوس المتفعة بالعلم النافعة لغيرها أن لا تشبه الأرض الحجرية ، ولا الأرض السبخة . واعلم أن جميع الذنوب والآثام التي تقترفها النفوس الانسانية لن يتم لها ذلك إلا إذا كانت فيها هي أنفسها جرائم الفساد وأصول سوء الأخلاق ، فكما أن الأرض التي ليست سبخة وليست حجرية ، بل هي أرض طيبة يثبت فيها الشجر والكلأ ويمتع نفعها ، لأنه ليس هناك من مانع يمنع ظهور تلك الأشجار والنباتات فيها ، هكذا النفوس الانسانية النيرة المضبوطة التي لم تدنس أصل فطرتها بنقص تقبل العلم ، فهي أشبه بشمس والعلوم فيها كنوزها ، وما الاستعداد للذنوب إلا النقص التي تفتقر عليها النفوس في مبدأ أمرها .

(٢) إن هذه الأرض الطيبة التي ظهرت فيها الحقائق والحقول يأتي إليها الناس من كل حدب ليفتقروا بثمرها ، ويوالون الخدمة فيها .

(٣) ثم يأخذون ثمراتها ويطوفون بها في البر والبحر للبيع بعد أن يكونوا قد انتفعوا بما يسد حاجاتهم منها .

(٤) ولا جرم أن هذه الأرض تختص بأقبال الناس عليها والانصراف عن الأرض الحجرية والأرض السبخة إذ لا ثمرة فيهما .

إذا فهمت هذا فانظر في آيتنا التي نحن بسددها واعلم أن الفتوح في حقيقته إنما هو فتوح العلم وكشف الحقائق ، فهذا هو الفتح الحقيقي ، فان الأرض ومن عليها والسموات والأرضون كلها فانية ، وكل ما على الأرض لا قيمة له بالنسبة للعلم لأن العلم باق والعوالم فانية ، فالنفوس الشريفة لن تفرح قط إلا بانكشاف الحقائق وانوقوف على الأسرار ، أما ما عدا ذلك فإما هي ظواهر ، والظواهر يجزى بها الجهال .

ولا جرم أن الفتح العلمي وانكشاف الحقائق للنبي صلى الله عليه وسلم له أصل واحد وثلاث نتائج ، أما الأصل الذي لا بد منه فهو صفاء النفس وخلوصها من الجرائم الموجبة للذنوب ، إن صفاء النفوس وخلوصها من تلك الجرائم المؤهلة للذنوب هو الأهم الأتم والأولى بالعناية الإلهية من التجاني عن اقتراف الذنوب ، فما مثل النفوس في الذنوب إلا كمثل الأجسام في الأمراض ، وأن خير الأطباء من يأمرهم المرضى بالمحافظة على الصحة حتى لا يقعوا في الأمراض ، فهؤلاء هم الأطباء الحقيقيون .

ولقد تقسم هذا في (سورة الشعراء) وفي (سورة فاطر) وفي (سورة الحجر) وفي (سورة الأعراف) فقد بينت هناك الطريقة المثلى التي بها يكون الجسم صحيحاً لا يفتوره مرض إلا قليلاً ، فأما أكثر الأطباء في هذه الأرض فأنهم في شغل بمعالجة الأمراض ، وليس من عملهم أن يقولوا للأصحاء احتسبوا من الأمراض بالابتعاد عما يضرهم ، فهذا ليس من أعمالهم إلا قليلاً ، إن خير الطب ما كان راجعاً إلى أصل اليقظة لحفظ صحتها حتى لا يفتورها المرض ، وأكثر الأطباء يعالجون ظواهر الأمراض ، ولا يصلون إلى أصل

الجرائم والاحوال التي كانت سبب المرض ، هكذا النفوس الانسانية لها ذنوب باستعداد لها . وخير ما تعالج به هذه النفوس أن تصفى من أصل فطرتها من جرائم الذنوب ، لا أنها تعالج ذنبا ذنبا ، وكلما وقع ذنب يفر لها كما يفعل أكثر اطباء في أرضنا ، إذ يعالجون كل ذنب على حدته ويذرون وراءهم أصل الجسم فلا يعالجون عنه شيئا .

ولاجرم أن الله عز وجل لا يعامل نبيه في اصلاح نفسه معاملة أكثر اطباء في أرضنا ، بل يعامله معاملة الطبيب الحقيقي الذي يخلص الجسم من جرائم الامراض ، فيها هنا تجلي لنا وظهور ظهور الشمس في رابعة النهار ، إن غفران الذنوب ليس معناه انها تقع ثم تمحى ، فهذا ليس كإلما السكالم أن نفسه صلى الله عليه وسلم خلقت كما خلقت الكواكب والنجوم مشرقة لا أنها كالطين يعثر بها الظلام ، وهذا الصفاء يجعلها قابلة لانكشاف الحقائق ، فاذا سمعنا الله عز وجل يقول : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » عرفنا أن هذا معناه استئصال الذنوب بأصل النطرة كالجوهرة في صدفها لا يعثر بها قذى .

هذا هو الذي فتح الله به على في معنى : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » فلتخص المعنى اما كشفنا لك الحقائق كسفا ميينا لتتصف بأربعة أمور : —

(١) أمر مبدئي وهو صفاء نفسك وجاها بحيث لا تستعد لذنب متقدم ولا لذنب متأخر ، وكيف تستعد له وهي كالجوهرة ، أو كالشمس لا يقبلان الظلام .

(٣) وثلاثة أمور تكون نتائج ﴿ الأول منها ﴾ أن تتم النعمة عليك في الدنيا والآخرة ، وذلك بأن تكون نفسك راضية مرضية في الدنيا والآخرة ، وتلقى الله وتراه ، وتقر عينك باسعاد من اتبعك في الدنيا والآخرة ﴿ الثاني منها ﴾ أن ينشر نور نبوتك في الأرض في أيامك وبعد مفارقتك الأرض ، وهذه النعمة مغايرة للأولى ، فالأولى راجعة لرضا نفسه وبهجتها ولقاء ربها ، واتباعها في الدنيا والآخرة ، وهذه الثانية راجعة لاسعاد الأمم وهدايتهم لأقوم طريق مستمدين من هدايته ﷺ فهذه راجعة للعمل وما قبلها راجعة لبهجة النفس ﴿ الثالث ﴾ علو هذا الدين على غيره وظهور حقايقه لمن درسه بحيث تطمئن له القلوب ، وهذا هو النصر العزيز .

واعلم أن فتح مكة ، أو صلح الحديبية ، أو فتوح بلاد الاسلام بعده ﷺ أو غيره كل ذلك آثار للفتح العلمي والكشف الإلهي ، فكشف العلوم له صلى الله عليه وسلم أشبه بنهر ولهذا النهر آثار كثيرة ، هكذا آثار انكشاف الحقائق له صلى الله عليه وسلم ، فمما فتح مكة لأنها من نتائج التعاليم ، والتعاليم الدينية أثر من آثار انكشاف الحقائق له ، وهكذا صلح الحديبية وهكذا فتح بلاد الاسلام شرقا وغربا ، كل ذلك فروع لأصل واحد ، والأصل الواحد هو انكشاف الحقائق له صلى الله عليه وسلم الذي هو النعمة الكبرى والكوثر الفاضل ، وعين الحقيقة ، وماسوى ذلك نتائج له ، وهذا الرأي الذي اطلعت على مبادئه من كلام الشيخ الدباغ أصل جميع الأقوال كلها .

آثار الفتح النبوي في زماننا هذا

هل لك أن أحدنك أيها الأئمة بما جاشت به النفس اليوم بما اطلعت عليه مما فتح الله به على أمتنا الاسلامية فتحا ميينا ، وذلك الفتح من آثار الفتح النبوي .

اعلم أن أمم الاسلام أيام النبوة وبعدها بتليل فتحت البلاد شرقا وغربا ، وملأت الدنيا نورا وعلماء ، ثم أخذت تضمحل وتزوي ، ذلك أنها أولا كان أمرهم شوري بينهم ، ولكن لما اتبعوا أهواءهم ، وجعلوا الملك بحسب الوراثه لا بمقتضى الاستعداد نامت الأمم الاسلامية مئات من السنين نوما عميقا عقابا لهم وزجرا

فلما جاء جيلنا الحاضر وعرف الحقائق ، وأخذ يتأدّب بما أذبه الله ، رجع عما فعله الآباء من الفرور والجهالة والظلم شيئا فشيئا ، وأخذ الاسلام يظهر قليلا قليلا حتى أفرّت أم الفرنجة بذلك ، فهل لك أن تسمع ما قاله الاستاذ (لوثراب استودارد) الامريكى مؤلف كتاب « حاضر العالم الاسلامى » فقد جاء فى الجزء الثانى منه تحت العنوان الآتى مانصه :

سيطرة الغرب على الشرق

سيطرة الغرب على الشرق هي القوة الهائلة الشاغلة مكانا خطيرا فى تطوّر الشرق فى هذا العصر ، وبسبب هذه السيطرة ما برحت لواقع المؤثرات الغربية تبت وتنتشر ، لابل تندفق على كل بلاد ، وتطمو على كل رقعة ، حتى غدا التغرّب^(١) من أكبر عوامل التبديل والانتقال فى العالم الاسلامى ، حتى وفى الشعوب الاسيوية والافريقية غير المسلمة ، وسنسط الكلام فى موضع قريب من هذا الكتاب على مبلغ ما كان للسيطرة الاوروبية من التأثير الشديد فى تطوّر مختلف الشعوب الهندية غير المسلمة ، ولكن الاحتراز ، الاحتراز أن يؤخذ من هذا أن السيطرة الاوروبية هي السبب والعامل فى جميع هذه الاستحالات والانتقالات الحديثة فى العالم الاسلامى ، فقد سبق لنا الكلام مبسوطا ، مينا فيه كيف ان عناصر المزاج الاسلامى ما افسكت طيلة القرن الأخير بفعل بعضها ببعض انفعالا شديدا ، فيدثر منها ما يدثر ، ويستجدّ فيها ما يستجدّ ، وتلاشى قوى وتتولد أخرى ، وذلك جميعه على ما نقيم من الوزن لما هو متدفق من العوامل الغربية الطارئة من خارج ، إنما هو بعد ذاته تجدد قائم فى الباطن ، فعليه بالغ كل البلوغ من طبائع ذلك المزاج وعناصره مما لانسدوحة لسنة الفسوء والتجدد عنه ، وعلى ذلك فما هو واقع مشهود فى العالم الاسلامى اليوم من التبديل والتحوّل والتطوّر يجب أن لا يعتبر مجرد محاكاة للغرب وتشبه به غسب ، بل إنما ذلك هو نتيجة تفاعل العناصر تفاعلا مكثورا لشيء جديد ، وهو الأخذ عن الغرب أخذا مفرغا فى بوتقة شرقية وفى قالب اسلامى ، ويجب فوق ذلك أن لا يغيب عن الأذهان أن الشعوب الاسيوية التى يتألف منها سواد المسلمين ليست كما يقول بعضهم شعوبا متدلية منحطة كزنوج افريقية والجزائر الاسترالية ، بل انها لذات حضارة بدية حية منذ القرون الخوالى ، حضارة هي نتاج اسلامى صرف ، متكوّن من صنع المسلمين ونمات جهودهم ، ومتى ما أخذنا نعتبر ما قد استطاعته هذه الشعوب الاسلامية من تنبيد المعالى وفروع ذروات المجد فيها مضى أمنا الحطّل بقولنا الآن اننا نسين خلال هذا الغيان الهائل فى العالم الاسلامى تجردا حقيقيا صحيحا رائعا ، ولاغرابة فى ذلك ان عاد الاسلام يستعيد من عزّه الغابر وعلاء السالف ، وهذا تاريخه المجيد شاهد له على ما كان عليه المسلمون قبالا من الحضارة والعمران .

إن سيطرة الغرب الحديثة على الشرق لامتثل لها فى التاريخ من حيث العظمة والخطورة والمدى والمجال فما كان لليونان ورومية من قبل من السيطرة المحدودة النطاق على بعض من العالم لا يعدّ بالاضافة إلى سيطرة الغرب اليوم شيئا مذكورا ، والغريب فى حديث هذه السيطرة الغربية انها بنت نخسة عقود من السنين لا أكثر ، بدأ سيلها يتدفق على الشرق منذ نحو منتصف القرن التاسع عشر ، ومنذ ذلك الحين لم تزل

(١) مرادنا بالتغرّب التخلّق بأخلاق الفرنجة ، والتشبه بهم ، وأخذ أخذهم ، فى طراز المعيشة وأساليب الحياة ، ويشمل ذلك المحسوس ، كاستعمال صنوف الأدوات والمستحدثات ، والمعنى كاقبّاس الافكار والآراء الاجتماعية والسياسية ، والتغرّب خبر كلمة عربية رأيناها لتعريب اللفظة الانكليزية المذكورة

— (المغرب)

وسائلها وأسبابها تنتشر وتعم ، ذلك كالطرق والمسالك الحديدية والبرق والكتب والمصحف والمجلات ، وكشروع جديد الآراء والأفكار المتوالية الازدياد في كل مصر شرقي ، وباتت السفن التجارية تمخر عباب بحور الشرق ، وترسو في كل نهر من نهوره ، وطفقت التجارة تمتد ناشرة وفر البضاعات والأرزاق الغربية في كل بقعة من بقاع الشرق ، فتلا ذلك تغير الحال تغيرا سريعا ، فالأمم والشعوب التي ظلت حتى منتصف القرن الحادي ثمانين القرنين التي كرتت من قبل ، غدت اليوم تقرأ الصحف ، وتركب القطار الكهربي في مفاها ومراحها ، وانسخت العادات والأفكار والتقاليد الشرقية القديمة انسانا كاد يكون تاما ، وتبدلت صور الحياة وأساليبها تبدلا كبيرا ، وسنفضل الكلام في الفصول التالية على ماهية سيطرة الغرب على العالم الاسلامي من جميع وجوهها ، باعطين الكلام في هذا الفصل تمهيدا لما سيحجى .

إلى أن قال : « ظلت روح العداء للغرب طيلة القرن الماضي تشتد في مكان ومكان على تفاوت ، ولما كانت عوامل التعصب ورد الفعل كاتنة على الدوام ، فما برح الكره للغرب شائعا عميما . بيد أنه (على توالي الأيام) صار موقف بعض الطبقات من الأمم الشرقية يقبل ويغير على مقتضى الزمان والمكان ، وقد كان الأحرار المسلمون في بادئ الأمر يتقبلون المؤثرات الغربية أحسن قبول ، وقد أسلفنا الكلام في الفصل الأول من هذا الكتاب : كيف اعتزم المسلمون الأحرار اتخاذ القواعد التي جرى عليها الغرب في تقدمه وارتقائه ، وجعلها أساسا للقيام بما أنشؤوه من الإصلاح الاسلامي باعتبار جهته : الدينية ، والمدنية . فقد جهد ساسة تركية الأحرار الذين كانوا يدبرون شؤون المملكة في الربع الأخير من القرن الماضي جهدا كبيرا للقيام بالإصلاح في السلطنة العثمانية ، وجهد أحرار غيرهم مثل جهدهم في الأقطار الاسلامية الأخرى في سبيل الغاية عينها ، وخبر مثال لنا على هذا هو ما بذله القائد خير الدين باشا في سبيل اصلاح تونس ، وإلى القارئ الكريم لباب الخبر : إن هذا القائد المقدم ، الجركسي الأصل قد استطاع أن يكسب ثقة مولاه الباي ، ويمكّن عنده تمكنا كبيرا ، فاستوزره وسلم إليه مقاليد الامور ، وفي سنة ١٨٦٠ قام خير الدين باشا بسياحة إلى أوروبا ، فطاف في ممالكها ، وشاهد مورعمرانها وحضارتها ، وعاد شديد التأثر من بواهر الغرب وبجانبه وإذا اقتنع بتفوق أوروبا وسيادتها شاء من صميم قلبه أن ينقل إلى تونس من الغرب الخطط والمناهج والأساليب والآراء مستعينا بها لانهاض البلاد واسعادها ، واعتقد أن هذا العمل سهل القيام به قيما يتلاه تجتهد تونس في عهد قريب ، ولم يكن خير الدين بغيبا للغرب ، غير أنه قد أيقن كل الايقان بالخطر المقبل النازل الذي سيحيق بالعالم الاسلامي ، خطر السيطرة والاستعمار متدققين من الغرب اذا تواتت الممالك الاسلامية في الإصلاح الصحيح ، فراح خير الدين يبتغي شديد الابتغاء ، وملء صدره الوطنية الصادقة ، وكله عزم أكيد أن يسوق أهل بلاده ، وبني قومه في طريق التجدد والعلا والارتقاء ، ليلفوا من ذلك مستوى تستطيع عنده تونس أن تحمي كيانها ، وتقوم بالنياد عن حياض حريتها واستقلالها ، واقتنع الباي كل الاقتناع بأراء خير الدين وخطط مشروعاته ، ففوض إليه تنظيم شؤون البلاد ، وأطلق يده لاتعلوها يد في القيام بضروب الإصلاح ، فظلت خير الدين حقبة من الزمن يجهد ما استطاع في هذا السبيل ، منذلا جميع مآلقيه من المقاومة من قبل الموظفين الرجعيين ، غير أن منيته عاجلته باكرا ، فانتقل إلى جوار ربه ، تاركا مشروعاته الكبرى دون الانجاز ، فلم يمض على وفاته أكثر من عشرين سنة حتى جاءت فرنسا فبسطت سيطرتها على تونس ، وكانت خدمة خير الدين لبلاده على كل حال عظيمة جليلة ، منها أنه ألف كتابا قيما موسوما « بأقرب المسالك في معرفة أحوال الأمم والممالك » (١) استنهض فيه هم أبناء بلاده ، واستفزهم إلى التجدد والترقي ،

(١) يوجد شيء من النقص في تاريخ المرحوم خير الدين باشا التونسي الذي كان من أوائل المصلحين

وحذرهم من سوء عقبى التواني ، فكان لكتابه هذا أعظم تأثير في نفوس الاحرار ورجال الاحزاب الوطنية في الشرق الأدنى عامة ، وافريقية الشمالية خاصة ، حيث كاد الكتاب يقدس عند أهل تونس والجزائر ، إذ كان باعثا قويا على استيقاظ العصبية الجنسية ، ففيه استصرخ خير الدين ببنى قومه لتحطيم الأغلال القديمة ، وبسط لهم ضرورة الافلاج عن الافتخار الفارغ بمجد الماضي ، افتخارا بالفاحد القعود بهم عن استئناف طلب العلا طريفا ، ودعاهم للوقوف على مآل العالم الغربي من وسائل التقدم وذرائع العمران . وبما أكده في كتابه هذا أن ارتقاء أوروبا وحضارتها في هذا العصر ليسا نازلين عليها عفوا بلانصب ، ولاهما منحة جادت بها الطبيعة لأسباب دينية ، بل هما ثمرة التقدم في الفنون والعلوم ، واكتناه أسرارها اكتناها توفرت معه وسائل الثراء باستخراج كنوز الارض ، واحياء الصناعة والزراعة والتجارة . وجمع هذا إنما هو نتيجة استقرار أسمرين وسيادتهما في آفاق الممالك الغربية لثالث لهما : العدل والحريّة . وقد كان العالم الاسلامي في الاجيال الماضية عالم التقدم والنجاح والعمران ، لأنه كان في محبوبة من الحريّة ، سالكا سبل الترقى والنجاح ، ثم أفلت شموسه فأخذ يتخبط في الدجنات . وما زال هكذا حتى أخذ الآن يستعيد من روحه التي كانت فيه من قبل ، روح الحريّة والعمل والارتقاء .

ثم قال : « وقد اشتدت روح العداة للقرب واشتعلت نارها أيما اشتعال منذ أول القرن الحالي . قل أحد عظماء المسلمين قبيل الحرب العامة في هذا الصدد : « إن هذه الدواهي التي دهنتنا ، والنوازل التي تزلت بالعالم الاسلامي خلال العشر السنوات الأخيرة ، قد جذبت في أعماق جميع المسلمين عواطف التآخي والتواني الاسلامي ، من حيث أشعلت صدورنا مقنا وكرها وعداء للبعاة المعتدين علينا » .

إلى أن قال : « بقيت الحقيقة الثابتة ، يجب أن تقال : إن سيطرة الغرب السياسية على الشرق وان طال أمدها ما طال ، وتبدلت صورها وأشكالها ما تبدلت هي قائمة على أساس متداعي الاركان ، متضعع الجوانب سريع التقوض والتزلزل ، وما دام المستلطون الغربيون في الشرق فهم فيه أجناب غرباء ، قد يلقون من الشعوب الشرقية شيئا من الاحتمال والاحترام الآخذين بالتناقص ، ولكنهم لن يلقوا شيئا من الود والمحبة والاخلاص ، ولاغرابة في الأمر ما ظلت منزلتهم أبدا . منزللة الدخيل الغريب ، المعقوت المكروه ، زد على هذا يجب بالضرورة أن يأخذ الحكم الغربي والسيطرة الغربية يقناقصان ويتقلصان ظلا ، ويخفان وطأة بازدياد تقدم الشعوب الشرقية واتساع نطاقها في الارتقاء . ولايزن عن البال أن الذي كان عند أهل جيل سالف داعية للرضا والارتياح قد غدا عند أهل الجيل التالي سببا لتجهم والنقمة والاضطراب فيبتغون تبديله والانتقال إلى ما هو خير منه وأفضل ، هذا هو من أسباب الانقلاب السريع في الشرق .

الاسلاميين في القرن الماضي ، وكتابه « أقوم المسالك » هو من خبرة مألّف لكسرقبود الجود الصارّ القاتل ، وحطم سلاسل التقليد الأعجمي المنهى عنه في الشرع ، وايقاظ المسلمين إلى أنهم ان لم يبادروا إلى التسليح بالعلوم والصناعات العصرية دهمهم خطر السقوط العاجل ، فجاءت دعوة خير الدين متأخرة ، إذ كان تكالب أوروبا شديدا ، وضربها وحيا ، وسبب الاسلام لا يزال عميقا ، فتمّ جميع ماتكهن به خير الدين ، ولما استولت فرنسا على تونس رحل خير الدين إلى الاستانة ، وولاه السلطان عبد الجيد الصدارة العظمى ، منتدبا إياه لاصلاح المملكة إلا أنه لم يعمل برأيه ، فاتمى الامر بإقالته ، وبقي في الاستانة إلى أن توفي وذلك في نحو سنة ١٨٩٠ وخلف طاهر بك ، وهو من الأدهاء الافاضل ، وصالح باشا الداماد الذي شنقه الاتحاديون بتهمة انه دبر مؤامرة لقتل الرحوم محمود شوكت باشا ، وتشفع به السلطان ساكن الجنان محمدا الخامس لديهم ، لكونه زوج ابنة أخيه أي صهر الأسرة المالكة ، فلم تثر شفاعته ، ولخير الدين باشا أيضا ولد اسمه محمدا بك ، وهو وأخوه طاهر الآن بتونس اه

(شكيب أرسلان)

« على أن السيطرة السياسية الأوروبية على الشرقين قد شرعت تهيى ، وأخذت أوصالها تتفكك ، و بناؤها يتداعى ، وضعفها الكامن فيها يبدو مزدا ، وفسادها يظهر . جميع ذلك منذ الحرب الروسية اليابانية ، فقد كان لتلك الحرب في نفوس المشاركة قاطبة من التأثير المعنوي الشديد ما لا يستطيع وصفه ، ولا يعلم حدّه ، وقد ظلّ الشرق حتى ذلك اليوم لا حول له ولا قوة حيال أوروبا المعتدية عليه ، وكان كثير من الشرقيين حتى عهد تلك الحرب يقولون بأن لامناص لبني أوطانهم من الخضوع لسيطرة الغرب المسلحة خضوعا مشموما ، غير انه لما دمرت دولة أسيوية دولة أوروبية من الطراز الأوّل ، وخضدت شوكتها ، ودقت عنقها دقا ، كان لتلك دوىّ هائل ووقع عظيم في كل جانب من جوانب المشارق ، وورقة من رفاقها ، فبادت آسيا وأفر يقيا من أقصاهما إلى أقصاهما طربا ، وجرت في عروقهما نشوة الظفر وحيا النصر ، وعدوا الانتصار الياباني الجببية العظمى ، والآية الكبرى : وصف مبشرا سكتلندي ما كان لهذا النصر المين من شديد التأثير في نفوس سكان الهند الشمالية حيث كان مقامه فقال : « قد اهتزّت الهند الشمالية فرحا وابتهاجا ، وترنحت ترنج التمل الجدلان ، وبات القرويون فضلا عن أهل المدن والخواضر يرّدون أحاديث النصر الياباني في حلقات مجالسهم ومجتمعاتهم و برتلونها تريليا ، طوافين الليل كله حول المعابد والهايا كل ، وقد قال لى أحد شيوخهم في تلك الغضون : « لم تتاق الهند نأ طابت له نفسها مثل هذا النبا الياباني منذ الثورة الهندية ، وأخبرني قنصل عثماني أقام طويلا في آسيا الغربية أن الأهالي في داخل البلاد تركوا جميع أعمالهم ، وجعلوا لا يهتمون بأمر سوى ارتقاب الأنباء اليابانية وتلقبها والتهليل واقامة محافل الأفراح لها ، أجيل : مادت آسيا من أقصاهما إلى أقصاهما ، واقلبت هجعة القرون استيقاظا ، فاستيقظت الحياة ثانية في الشرق تواقفة لمغامرة الأهوال في سبيل بقائها ، وهبت آسيا هبة أخرى لتسطر لها في التاريخ ذكرا جديدا ونبا حديثا . »

وبما لا يحتاج إلى برهان أن الحرب الروسية اليابانية لم تكن الخالفة المبدعة لهذه الروح الجديدة في الشرق ، الروح الممتدة أصولها إلى أبعاد الأزمنة الخالية ، والمصاحبة لجميع الأدوار والصور حتى اليوم ، بل ان الحرب هذه إنما كانت وسيلة عارضة لاعة في نفة آسيا وأفر يقيا نفة الاعتزاز ، فراحتا منذ سنة ١٩٠٤ تجدان جد الواثق بنفسه ، الساعى في مطلب أمر لا يولوى على شيء دونه ، وبسبب هذه الحرب طفقت الأفكار التي كانت تتمخض في أدمغة الملايين من أهل الشرق تتمخضا لم يشعر به من قبل تمام الشعور ، نخرج من عالم القوة إلى عالم الفعل ، فدلّ جميع ذلك دلالة واضحة لا يسع مكابرا انكارها على اختصار الأسباب والعوامل ، وتهبو العلل لا يبتاق قوى جديدة في الشرق ، هي حركات التجدد الكبير والاقبال العظيم .

أضف إلى ما تقدم أن هذا الشعور والاستيقاظ قد أثرا تأثيرا عميقا في قضية الشرق وتطورها إزاء سلسلة حملات الاعتداء الأوروي التي استؤنفت منذ ذلك الحين استئنفا شديدا ، ومن الغريب العجيب أنه بعيد أن ظفر الشرق الأقصى في رد عادية الاعتداء الأوروي عليه ذلك الظفر الكبير ، لسرعان ما أخذت حملات الاعتداء الأوروي تتوالى على الشرقين الأدنى والأوسط تمزّقهما بمخالب الوحشية والبربرية شمرّ مزّق ، وقد وصفنا فيما تقدم من الكلام تلك الزارة الهائلة التي زارها العالم الاسلامى مناسك الوحدة المعنوية ، مترابط العروة الأدبية الفريدة المثال ، عند ما أنشأت السياسة الأوروية الحديثة تنقلب غاية في الجشع والنهم فذلك جدير بنا الآن أن نعلم علما صحيحا مبلغ ما كان لظفر اليابان من عظيم التأثير في هذه الحالة الحديثة الظهور الجببية في جميع الأقطار الشرقية ، من المعلوم أن الشأن الخطير الذي مثله الساسة الغربيون الغلاة أصحاب مذهب الفتح والنوسع الاستعماري بين سنة ١٩٠٤ و ١٩١٤ م إنما كان في دروع صيب . قال أرمينوس فامباري بعد غزوة ايطالية لظرابلس الغرب قولاً سيديدا : « كلما اتسع نطاق قوة منسطة الغرب

في العالم القديم (الشرق) ازدادت رابطة الوحدة وثيقة ، وعودة التضامن والمصالح المتبادلة إحصاءاً بين الأمم والشعوب الآسيوية على اختلافها ، ورسخت روح التعصب على أوروبا والبغضاء لها ، وتوغلت عوامل ذلك في قرارات صدور المشاركة أيما توغل ، أمن العدل والحصافة في شيء ، ياترى أن نرى نار العداوة تزداد تأريثاً وإيقاداً بسبب هذه الحملات العدوانية المحضنة التي ما أنزل الله بها من سلطان ، وأن نستجمل العالمين الشرقي والغربي للاشتباك في فضائل هائل ، ومعهم رافع ، وأن ننثف سما زعافاً في برعم الحضارة الآسيوية الجديدة ، هذا البرعم الذي أخذ يتفتح عن أكامه في أقطار المشرق كافة ؟ .

وقال في صفحة ٥١ وما بعدها مانسه : « وقد سبق لنا في مواضع تقدمت فأبنا كيف ظهر العرب يشتعلون بنار الإسلام فأنشأوا خلافة منيعة الجوانب قائمة في عهدتها الأول على أساس الشورى والشرعية الدينية ، وأوضحنا أيضاً كيف طرأ الاستبداد على الدول ، ثم أخذ ينتشر حتى طبق غالب العالم الإسلامي ، وكيف انقلبت الخلافة الشرعية الشورية ملكاً عضواً ، وسلطنة استبدادية مطلقة ، وكيف أخذ العرب (عشاق الحرية والاستقلال) يعودون أدرأجهم إلى الصحراء غضاباً متجهمين ، وكيف تلاشت الحرية السياسية والدينية ، وعفت آثارها ، غير أنه على كل هذا بقي معظم ذكريات خلافة الراشدين والمعتزلة الحرة ، حية في زوايا الأدمغة ، وألواح الذاكرة ، مستعدة استعداداً طبيعياً غريباً للظهور ثانياً . بسبب ذلك ظلت بلاد العرب حوض حرية يزود عنه كل عربي في ذبذبات قروح الأبطال بالسلاح والأرواح والسماء ، وهناك في شبه الجزيرة لم يبرح العرب عرباً والإسلام إسلاماً ، فمن ترى يستطيع أن يتعاضى عن القول الذي قاله صاحب الرسالة : « إنما المؤمنون أخوة » و « المسلمون أحرار » وعمما هو مدون في صحف التاريخ الإسلامي في غرر أبناء صدر الإسلام المحجوب المعروف « بزمن السعادة » . أولم يظلم المسلمون الأحرار ، النازعون زعنة الاستقلال ، حتى في أشد الليالي حلكاً ، يرددون عالياً خطبة الخليفة الأول أبي بكر رضي الله عنه التي خطبها في العرب بعد مبايعته بالخلافة : « قد وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فإذا استقمتم فأعينوني ، وإذا زغت فقوموني » . فالإسلام في عهده الأول إنما كان شمس الحرية مشرقة وهاجة ، وديننا تجلت فيه المنازع الحرة الشريفة ، وليس ما طرأ على العالم الإسلامي فيما بعد من الوهن والتدلي بمحاجب عن المنصف جوهر الإسلام وحقيقة صفاته ، فالشرعية الإسلامية كما قال العلامة لبسار : « إنما هي ديموقراطية شوروية ، جوهرها وأصلها ، وعدو شديد للاستبداد » . وقد أجل قامباري هذه الحقيقة في شأن الإسلام بقوله : « ليس الإسلام ولا تعاليمه السبب المفضي بأسيا الغربية إلى هذه الحالة المشهودة من التضعف واختلال الشؤون ، ولكن السبب كل السبب في ذلك إنما هو استبداد أمراء المسلمين وحكامهم الذين التوا عن الصراط المستقيم والسبيل السوي ، وتسكبوا عن طريق صاحب الرسالة وخلفائه الراشدين ، فأخذوا في انتحال التأويل القرآنية انحصالاً منطبقاً على أغراضهم الاستبدادية ، وتشدوا في الدين تشدداً باطلاً برى منه الإسلام (١) ، وناصروا المذاهب الشورية

(١) من أكبر المسئولين عن انحطاط الإسلام أمام الله والناس هم هذه الطبقة التي يقال لها العلماء ، فانهم إلا النادر منهم اتخذوا الدين مصيدةً للعالم ، وجعلوا دينهم التزلف إلى الأمراء بتسوية جميع موبقاتهم بالادلة الشرعية والافتاء عليها من الدين ، وقلموا أي أحد الملوك أو الأمراء المستبددين عملاً منكرًا إلا أتوا له من الآيات والأحاديث بما يثبتون له به مشروعية ذلك العمل بصرف الآيات الكريمة عن معناها ، وتحريف الكلم عن مواضعه ، ورواية الضعاف والموضوعات إلى غير ذلك من الاستشهادات التي يتوخون بها الزلف والجائزة ، وما زالوا يتنادون في غيهم هذا (والمسلمون غاضون النظر عن لعيم هذا) حتى صاروا يتقربون بهذه الأشياء نفسها إلى الحكومات غير المسلمة في المسائل التي فيها خراب الإسلام وهلاكه ، فكلمنا سقطت ملكة إسلامية في يد دولة أجنبية ، أو نهضت أمة إسلامية لدفع دولة عادية عليها من الأجانب ، وجدت الدولة

والاصول الحرة العدا ، فقصوا على جميع ذلك قضاء ، خالوا دون بزوغ فجر النهضة الاسلامية (١) .
وقد اُتينا في الفصل الأول من هذا الكتاب كيف ظهر الاستبداد الشرقى ، ثم أخذ يتعاظم حتى بلغ منتهاه
في القرن التاسع عشر ، و بسطنا الكلام على أن اليقظة الاسلامية لم يكن أمرها مقصورا على الاصلاح الدينى
فحسب ، بل تناولت الاصلاح السياسى أيضا ورامت تخليص العالم الاسلامى بأسره من استبداد أمرائه وملوكه
وسلاطينه المسفة الظلمة ، وتقول الآن : انه بينما كان الاصلاح السياسى الحركى سائرا مسيره على اتساع فى
الحركة والانفجار . فاذا بتيار سياسى جديد قد هب عليه من جوار أوروبا ، فاعترض سيده وقام فى وجهه ،
وكان أهل الفكر والرأى من المسلمين وقد أيقنوا بحال تضعف الشرق الاسلامى ونشأت أمره حيال تقم
أورو با وشدة حولها وبأسها ، طفقوا يسعون وراء الاصلاح ، متذرعين بأنجز الذرائع للوصول اليه ، واذا
راموا صدق المسعى ، وابتغوا التجدد الحقيقى فلم يغرب عن باهم أن بلوى الشرق الاسلامى إنما غالبا مستقر
فى حكوماته المنحطة التاعسة الواهنة العظم ، وشارك الأمراء الحكام أهل الفكر وطلاب الاصلاح فى هذا ،
وكلمهم أجمعوا على وجوب انتهاج المناهج والأساليب السياسية الغربية ، واكتناه أساليبها ، والوقوف على
جميع أسرارها ، هذا اذا كان مرادهم حقا انتشال الممالك الاسلامية من وهدة انحطاطها ، وتنجيتها من شر
المهالك ، ثم سوقها فى سبيل التقدم والارتقاء ، وقد كان السلطان العثمانى محمود الثانى فى تركيا ومحمد على فى
مصر خير مثالين ظهرا بالطرز الجديد من سلاطين الشرق وأمرائه ، وكلاهما كان حكمه فى أوائل القرن
التاسع عشر .

غير أنه ليس منهما من أراد أن يمنح رعيته الحرية الدستورية ، أو أن يربأ بنفسه عن امتطاء الحكم
المطلق فيخرج عنه إلى الحكم المقيد ، بل عول كل منهما على أن يظل الحاكم المطلق بحيث يكون فيه
وسطا بين حالة المستبدين العاديين الاوروبيين ، والمستبدى الشرقىين ، وكان قصد هذين الحاكمين الكبيرين
طالبى التقدم والتهوؤ ، تنظيم الحكومة فى الجيش والخدمة المدنية والقضاء وغير ذلك ، تنظيمها صحيفا خاليا
من المفسدة والعيب : كما يتسنى للحكومة هذه أن تسير (بنفسها وفعل نظامها) سيرا مطردا كسيرا الحكومات
الغربية ، لا أن تظل كناية عن طوائف من الموظفين ، والعمال لا يعرفون شيئا من رقابة النظام ، ولا يقومون
بواجب الاخشية العقاب .

وتاب محمود الثانى ، ومحمد على ، ومن عاونهما على ذلك من الأمراء على انتهاج منهج هذه السياسة

الاجنبية من هؤلاء العلماء أسرع الخادمين لأغراضها ، المقتين من الكتاب والسنة بزعمهم على مقتضى أهوائها ،
وحسبك أن عددا عديدا من علماء سورية أفتوا أثناء الحرب العاتمة بينى الشريف حسين أمير مكة تقربا
إلى جمال باشا قائد سورية يومئذ ، فلما فازت دول الحلفاء فى الحرب ، واحتلوا سورية ، بايعت هذه الفئة
نفسها الشريف حسين الذى كان عندها من قبل باغيا خارجا على الخليفة ، ثم لما دخل الفرنسيون الشام
نقضت أيديها ثانية من صاحب الحجاز ، وجعلت تفتى بحسب هوى فرنسا ، وعدت الملك حسين اجنبيا .
أكثر هؤلاء العلماء برز منهم هذا التلون ، وكلما عاتبهم الانسان على هذا التذبذب أجابوه : « إنما هذه
تقية نبتى بها النجاة من الظلام » ، والصحيح أن عندهم غير مقبول ، وأن عملهم هذا مخالف للشرع ،
مناف للكتاب والسنة ، وأن دعواهم مداراة الظلام هى باطلة ، بل هم باعة ضامر ، ورواد سفاسف ، وطلاب
وظائف . هذا يريد أن يكون قاضيا ، وذاك مفتيا ، وذاك رئيس علماء ، ومنهم من يقبض أجرة امضائه نقدا
دراهم معدودة ، ولانعلم إلى متى يصبر أهل سورية عن تأديب هؤلاء الجهلاء العميين ، وينظرون إلى العزائم
لا إلى العمائم اه

(شكيب أرسلان)

(١) سنة ١٩٠٦

الرشيدة الحديثة ، غير انه على الجملة كانت ثمرات هذا الاصلاح الذي بدى بعاليه وظاهره قبل اساسه وباطنه غير مرضية ولا داعية للارتياح ، ولاجرم فانه قد كان في استطاعة السلطان أو الأمير ابتداء القسلاع ، وانشاء الدوائر والحفظ الحكومية على الطراز الأوروبي ، وحشدتها بالجند ورجال الوظائف والأحكام المترين بأزياء غربية ، غير انه لم يكن بالمستطاع الاتيان بنتيجة مثل تلك التي تأتي بها الحكومات الغربية ، لأن معظم هؤلاء الموظفين المتظاهرين بصفة أبناء الغرب يكادون في الواقع لا يعلمون شيئا من أسرار تقدم الغرب وارتقائه ، وأسباب حضارته وعمرانه ، فلذلك كانوا محجزة عن القيام بالأعمال على الطريقة الغربية الصحيحة لأنه ليس فيهم الكثير الكافي من روح الاقدام والمضي في العمل ، ولا هم يقبلون من أنفسهم على اتباع نظم وأساليب عملية لم يفقهوها ، ولا ألفوها ، بل كانوا يحملون نفوسهم على مؤالفة الأعمال الاملاحة عن فتور وتراخ ، وخير ما كانوا يعرفونه ويقومون به هو الطاعة العمياء لأمر مولاهم وسلطانهم ، هكذا كانت الحالة في بدء الأمر . بيد انه على توالي الأيام أخذت القوى العسكرية تنتظم معنى ومادة على تدريج مستمر حتى غلت بعد مدة من الزمان على جانب من الكفاية والجدارة الحديثين ، وأما الخدمة المدنية فكان نصيبها من الاصلاح الحديث قليلا ، فظل أمرها مقصورا على اكتساب المظاهر الغربية من خارج لانها لم تتل كثيرا من أسرار المعاصرة والحجة التي هي شرط لازم في حال كل حكومة منظمة راقية .

أضف إلى هذا أنه في غضون ذلك طفق المصلحون الجدد الذين يختلفون مذهباً وطرازاً عن سبق ذكرهم يقومون أحزاباً مؤلفة ، وغايتهم إنما هي اقتباس جميع الابتكارات السياسية الغربية كالنظم الدستورية وحكم الشورى ومجالس النواب وغير ذلك مما بانت تتطلبه الحياة السياسية الحديثة بطبيعة الحال ، وكان عدد هؤلاء يزداد ازديادا متواليا من التهذبة الأحرار المشبعين أفكارا وآراء غربية ، اقتبسوا بعضها بمطالعة الكتب والنشرات والصحف والمجلات المتزايدة الانتشار ، وبعضها الآخر تلقوه بأسباب التعلم والتهديب في المعاهد العلمية المنشأة على الطراز الغربي ، وما كاد يكون الربع الأخير من القرن التاسع عشر حتى نشأت الأحزاب السياسية في تركيا نشوءا محسوسا ، وفي سنة ١٨٧٦ هبت الأحزاب الحرة هذه ورفعت صوتها عاليا ، وأكرهت السلطان الضعيف على منح الدستور . انتهى ما أردته من كتاب « حاضر العالم الاسلامي » هذا أيها الذكي مارقر في صدرى في تفسير قوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » وهذه صورة ملخص هذا المقام : —

(أولا) ويتم نعمته عليك ، وهي رضى الله عنهم ورضوا عنه
(ثانيا) الهداية العلمية النبوية التي استمدت منها الأمة إلى هذا الزمان ، وهي قوله ويهديك صراطا مستقيما
(ثالثا) التصريح وهذا الدين باطلجة على سائر الأديان ، وهو : « وينصرك الله نصرا عزيزا »

انكشاف الحقائق وبتفرع عليه

اشراق النفس وهو
أس انكشاف الحقائق

« ليفعل لك الله ما تقدم من
ذنبك وما تأخر »
ينتج منها

بهجة هذا المقال

مسامرة النجوم ، في عجائب العلوم

استيقظت قبيل الفجر ليلة الثلاثاء العاشرة من شهر نوفمبر سنة ١٩٣١ م - الموافقة سنة ١٣٥٠ هـ وقد قدمت « سورة الفتح » للطبع ، وأنا مفكر في عجائبها ، دهن من بدائعها ، إذ سنحت لي سانحة ، من نظرات النجوم ، في حالك الليل البهيم ، فأشرقت نفسي إشراقها ، وأخذ الخاطر يبدو بعد الخاطر ، ونما الفكر حتى صار قويا ، ويستمر نحو حتى تخيلت أممي بشرا سويا ، جسمه من النور ، وأنا إذ ذاك بين اليقظة والنوم ، إذ صرت في عالم الخيال ، بعيدا عن الحس ، مصروفا عن عالم الأجسام ، فأخذ يحاورني وهو يقول : لقد لمحتك تنظر الكواكب الآن ، وأنت تفسر القرآن ، فحضرت لمعوتك ، ومثلت لافادتك . لقد فسرت الفتح بالكشف العلمي ، وجعلت ذلك أشبه بشجرة ذات أغصان ، جذورها المغفرة والبراءة من الذنوب ، وصفاء النفوس ، وساقها انكشاف الحقائق ، وفروعها الاستقامة بالأخلاق ، والنصر المبين والرضوان أولا أحدثك الساعة في هذا المقام حديثا ، تكميلا لمقائك ، وتعلما للقرآن : إن هذا المثل الذي ضربته وهي الشجرة ينقصه تبيان أهم ، وتعليم أهم . فقلت في نفسي متجيبا : من أين أقبل هذا الخيال ؟ ولعل خواطرننا إذا نمت وعظمت تجسمت أمامنا ، والافهذه الخواطر لا تخرج عن تفكيري ، ولا تحود عن تفكيري ، فما كاد الخاطر يتردد في نفسي حتى أخذ يقول : إني أتيت إليك من الثريا في السماء ، لأنك في أكثر الليالي تنظر إلى النجوم ، وتجب من محاسنها ، فصار ذلك من أسباب اقتراني منك ، واسعادى لك ، وحديثي معك ، إن انكشاف الحقائق الذي ذكرته وما ترتب عليه من الفروع المذكورة يعوزه من العلم نوعان : أولا تطابق آراء الأمم الحاضرة عليه ، ليكون تفسير القرآن في زمانكم ملائما لعلوم أمتكم حتى تقبل على علومهم الموافقة للإسلام نفوس الأمم الاسلامية ، وحتى يكون من المعجزات والآيات البينات في زمانكم ، وكما قال علماءكم « ان القرآن لا تنفى عجائبه ، ولا تنقض غرائبه ، وتبدوله في كل زمان حكم طريفة ، وبدائع حديثة ، لتزداد معجزاته ، ويزداد أنس العلماء به » - (ثانيا) تطبيق أحوال الأمم الاسلامية الماضية بعد العصر الأول ، وكيف حصل اختلاطها ، وازداد اختباطها ، وأقبل هرمها ، وأدبر شبابها ، وحلك ليلها ، لما عميت عن اكتناه السر المكنون ، واتباع طريقه الرسوم .

فقلت : أيها السيد الجليل الجليل : إن في قولك لنورا ، وفي حديثك لنا ، فأفدني رجك الله عما وصفت ، وأخبرني عما أفدت . فقال : أما تطبيق آراء الأمم حولكم فأنا أقوله لك مترجما بالحرف مما كتبه الغربيون في التعاليم للتلاميذهم ، إذ يصطفون من العلم زبده ، ويجعلون تلك الخلاصات في كتب المطالعة ، وهما هي ذه قطعة لخص فيها القوم مقاصد التعليم في جميع الأمم ، وفي كل زمان ومكان ، والكتاب الآن بين يديك وهو من الكتب التي يدرسها التلاميذ في المدارس الثانوية ، فهناك قطعة من الكتاب منقولة من كتاب (مان ذي ماستر بيس) تأليف الاستاذ (كلوج) وهذه القطعة من مخزانات الترجمة ، فهأنا إذا أترجمها لك

مقاصد التعليم

« إن مقاصد التعليم لا تعدو أن تكون معدة المرء أن يستخرج جميع مواهبه في الحياة : يجب أن يكون تعليم الانسان الذي يزاول الأعمال الجسمية معدا له أن يكون كفتا لها جديرا باستثمار ما هو بسدده من الأعمال الانسانية ومرافق الحياة خير استثمار . إن نظام التعليم يقوم على ثلاث دعائم وهي : دعامة العقل ،

ودعامة الأدب ، ودعامة الجسم . وكل نظام تعليمي خلا من أحد هذه الدعائم الثلاث فإنه لا محالة مضمحل لا بقاء له ولا نفع فيه لنوع الانسان ﴿ مثال ذلك ﴾ : إذا علمنا الصبي صناعة كالنجارة ، أو علما كالمهندسة ولكننا لم نمنّ فيه قوة حب الخير العلم ، فيحب الصدق ، والاخلاص ، وطهارة الضمير ، والصلاح ، والعدل وصدق القول ، وحب المنفعة للناس ، ومعاشرتهم بالحسنى ، فإنا إذ ذاك نكون قد أعطينا سلاحا ماضيا به يصبح ماهرا في إحداث الشعب ، ويكون خطرا على المجتمع الذي تربى فيه ، وهكذا إذا برع في العلوم ، وتهذبت نفسه وملكها ، وصار من البررة الأخيار ، فإن كان في العلم فهم من أعظم الحكماء ، وإن كان في الأخلاق فهو على سنن الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين ، ولكننا أغفلنا تربية جسمه ، ولم نقو عضلاته ، ولم نحسن تغذيته بما يناسبه ، ولم نحمله مما يكون ضررا عليه ، فإن هذا يعوزه قوة طبيعية ، وأخرى حيوية ، ليتوصل بهما إلى منافع الحياة والتمتع بها ، ويعوزه جسم حديدي هو بلاصرا في أشد الحاجة إليه ليخاطربه ويجاهد في معترك الحياة . انتهى

ثم قال : فهل لك أن أحدثك عن تطبيقها على الآية . فقلت : إني إلى ذلك واثق . فقال : أنت حينما كتبت الجدول الذي رسمته في ملخص الآية وجدت أنه هو نفسه هذه المقالة ، لذلك حضرت إليك ، فالفكرة العلمية من القوى الثلاث يشار إليها بانكشاف الحقائق في الآية ، والقوة البدنية يشار إليها بالنصر على الأعداء : « وينصرك الله نصرا عزيزا » ، إذ لا يكون إلا بقوة البدن (في الفزوات) ، والقوة الأدبية الأخلاقية يشار إليها بقوله : « ويهديك صراطا مستقيما » . إذن خلاصة تعليم الأمم المحيطة بكم اليوم هي نفس هذه الآية ، فقوة الجسم ، وقوة العلم ، وقوة الأدب ، هي المعول عليها في زمانكم .

ثم ضرب مثلا ، فقال : إن الأمم الإسلامية أشبه بجسم واحد رأسه في زمن النبوة ، ورجلاه في الأزمان المتأخرة ، فهذا الجسم الإسلامي قد أعطى القوة الجسمية بدليل غزواتهم ، وأعطى القوة الأدبية بدليل نظام ممالكهم ، وأعطى القوة العلمية وهي الدين والعلوم فعاثوا إلى حين . ثم أخذ هذا الجسم يضعف شيئا فشيئا ، وأخلاقه تنحط ، وعلمه ينقص . وههنا آن أن أذكر :

تطبيق الآية الثاني على الأمم الإسلامية

إن هذا الجسم الإسلامي أخذ يرجع القهقري شيئا فشيئا ، فانظر كيف يقول ابن خلدون في مقدمته ما خلاصته : « ان هنا أصرا أصليا وله فردع ، أما الأصل فهو الدين ، فاذا رأيت أمة أو أسرة تحب أهل الصلاح والتقوى والدين ، وتفرم بذلك ، فإن هذه الخصلة يقبها فردعها ، وهي الأخلاق الفاضلة من العطف والشفقة ومساعدة الهجزة الضعاف ، والفقراء ، والعدل . ويقع ذلك سياسة الأمم ، وحفظ الدولة ، ونظام البلاد ، وهذا قانون لا ناقض له ، فاذا رأيت قبيلة أخذ يرجع القهقري في سياسته ، فابحث في أخلاقه ، فانك تجد العطف والشفقة والرحمة والعدل قد أقل نجدها ، ثم ارجع وراء ذلك تجد العقيدة الدينية أخذت في الانحلال ، وأصبح القوم ينظرون إلى الدين نظرهم إلى أمور غير مجدية ، فلا يحبون الصالحين ، ولا هم لهم يعظون . إذا علمت هذا فانظر كيف يقول : « إن المسلمين لما قاموا فاتحين بالدين ، واستمسكوا به ، بقي ملكهم ، فلما خلعوا ربقته ، تقلص ملكهم ، وذهبت ريبهم ، وأصبحوا حميدا حامدين » ، قال الكلام على الدين ، ومع العلم طبعا هو القوة العلمية ، والكلام على رحمة الضعفاء والعدل إلى آخر ما تقدم هو القوة الأدبية ، فأما القوة الجسمية فإن لها شأنا آخر ، وهو كلام النبوة ، وذكرته أنت في ﴿ سورة النمل ﴾ عند الكلام على آية : « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة » مع آية : « فلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » إلى آخره .

فهناك أولا حديث : « إن أخوف ما أناف عليكم ما يفتح عليكم من زينة الدنيا » الخ وذكرت هناك أن بقية الحديث في (سورة الأتفال) إذ صرح ﷺ بأن الغنم وفتوح البلدان وإن كان خيرا للنفس الصالحة فإنه يكون شرًا للنفس الفاسقة الجاهلة ، فإن نفس الغنم تكون سببا للترف والنعيم ، ثم يعقبه القل (ثانيا) قال ﷺ : « كيف بكم إذا غدا أحدكم في حلة وراح في أخرى ، ووضعت بين يديه الصفحة ورفعت الأخرى ، وسترم بيوتكم كما تثر الكعبة ، قالوا يا رسول الله : نحن يومئذ خير منا اليوم نسكني المؤونة وتفرغ للعبادة ، فقال بل أتم خير منكم يومئذ » اهـ

إذن الترف والنعيم الحاصلان من فتوح البلدان يضعفان الأبدان ، والأبدان هي الدعامة الثالثة . إذن الدعائم الثلاث للتعليم في كلام علماء أوربا نظير الدعائم الثلاث في آية الفتح ، وصدق تطبيقها فعلا على الأمم الاسلامية ، فهم أولا كانوا أقوياء علما وأدبا وجسما ، فدام ملكهم ، فلما وقموا في الترف ضعفت الأجسام وذهبت الآداب ، وقل الدين ، فذهب الملك .

إذن ظهور هذه المعاني اليوم مجزة القرآن في هذا الزمان ، وقبل أن أختتم حديثي معك أيها الجوهري أقول لك : إن قوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » الخ ضرب له مثلا بقول القائل : « يا فلان : إن الله أهلك الصلاة لتنظف بدنك ، وتناجي ربك ، ولينشرح صدرك » ، فالوضوء من شروط الصلاة يتقدمها ، والآخرة في نفس الصلاة وبعدها ، هكذا هنا المغفرة أي عدم وقوع الذنب متقدم على الفتح كالوضوء ، والبقية مصاحبة أو متأخرة عن الفتح كسألة الصلاة المتقدمة ، فإن المناجاة فيها ، وانشرح الصدر فيها وبعدها ، ثم إن الاستقامة ، والنصر ، وانكشاف الحقائق المقابلات لأعمدة العلم الثلاثة في كلام الأمم المعاصرة لكم تكون نتيجة السعادة في الدنيا والآخرة ، وهو المعبر عنه في الآية بقوله : « وليتم نعمته عليكم » وهي الرضوان ، والرضا هو تمام السعادة اهـ

فما كاد يتم حديثه حتى أفتت من غشيتي ، واستيقظت من سني ، وفتحت عيني إذا نور الفجر مشرق والمؤذن يقول : « سحى على العلاء ، سحى على الفلاح » ، فكنت ماوعيت ، وقلت : الحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الثلاثاء ١٠ نوفمبر ١٩٣١ م .

تذكرة

ثم بعد ما كتبت ما تقدم ، واسترحت قليلا ، أجلت فيه النظر ، وأخذت أقرأ النقلة الانجليزية ، وإذا بالترجمة هي عينها ، غايبة الأمر أنها أوضح من الأصل الانجليزي بضرب بعض الأمثال ، ثم أخذت أفكر في الأهمية الثلاثة المتقدمة ، وجمال فكرى في مباني الاسلام الحسن ، فماذا وجدت ؟ وجدت أن الصلاة أقوال وأفعال مفتحة بالتكبير محتمة بالفلسيم ، ووجدت أن هذه الأفعال وما مائلها من السبق والرمى ، المشروعين في الاسلام ، المقويين للأبدان وعضلاتها ، متروكات منذ قرون ، لجهل الأمم الجهمية (التي قامت بدين الاسلام بعد الحرب) بمقاصد هذا الدين ، حتى إما أيام دراستنا بالأزهر كنا نقرأ « السبق والرمى » ولا نعمل بهما اتباعا لأسلافنا ، وجهلا بديننا ، ووجدت الحج والصيام كلاهما من مقويات الأبدان كالصلاة ، فالحج فيه كثير من الحركات ، والصيام فيه تصفية الجسم من العفونات ، اقرأ هذا النقام في أول (سورة العنكبوت) تجد ما للصيام الطبي من الفوائد ، وهو الذي شرع ما يقرب منه دين الاسلام ، وقد قال رئيس أطبائنا بمصر في خطبته السنوية في الثقافة العلمية في هذه السنة : « ان الحيوانات لها أيام تصوم فيها إذا مرضت » والناس غفلوا عن ذلك ، انظر ذلك في الكتاب السنوي الثاني الذي أصدره المجمع المصري للثقافة العلمية سنة ١٩٣١ م أي هذه السنة .

المسلمون يصلون ، ويصومون ، ويحجون ، ولكن اذا عرفوا فوائد تلك الحركات لم يحصل تهاون فيها ولم ترك كثيرا من أهل العلم في بلادنا تاركين للصلاة جهلا بمقاصدها ، وغفلة عن حقاقتها .
فهذه مجامع التربية الجسمية في ديننا ، وهي إحدى الدعائم . يقول علماء التربية حديثا : « ليس المدار في حركات الجسم على رفع الأثقال ، بل المدار على مقدار الحركات ، ويجب تحريك كل عضومرات كافية ليحصل المقصود » ولقد جعلوا خبر الرياضات رياضة المشي ، لأنها تحرك جميع الأعضاء ، ولما طبقها بعض علماء التربية المسلمين على حركات الصلاة دهشوا وقلوا : قيام ، فرقع يدين عند الاحرام ، فركوع مع رفع اليدين ، فرقع الرأس مع تحريك اليدين ، فسجود ، فجلوس ، فسجود آخر ، فقيام ، ثم جلوس للشهد ، ثم تعاد الحركات فتكرّر .

هذا أعظم نموذج للتمرينات الجسمية ، هذا ما سمعته من علماء التربية في زماننا ، ولكنني ليس أملئ نص الكتاب ، ومتى وقع في يدي الكتاب بهذا النص أثبتة إن طالت الحياة .

مسامرتان : المسامرة الأولى

حدثني تاجر يبيع الخشب بالرج ، كنا نشتره منه لسواقى مزرعتنا بتلك الجهة . قال : لقد جاءني سيدة ألمانية لبعض الأعمال التجارية ، فرأيتي أنوضأ وأصلى ، فسألني ما هذا ؟ فقلت صلاتنا ، وشرحت لها ذلك شرحا كافيا في الصلوات الخمس ، فأظهرت الدهش وقالت : إذن أتم لامعرضون . فلما قصت على القصص . قال : وما السر في قولها ؟ قلت : هذه سيدة متعلمة في بلادها ، وهم يدرسون علم التربية البدنية والحركات المصلحة للأجسام ، فهي منشعبة بذلك ، وبأن غسل الأعضاء في أكثر أوقات النهار ضرورة لازالة ماعلق بالجسم من الفترات المؤذيات الموجبات للأمراض . فلما رأته ذلك أدهشها اننا قوم جهلاء ، فعل هذا ونحن عنه غافلون ، وبهذا لا تفر بنا الأمراض . انتهت المسامرة الأولى .

المسامرة الثانية

كنت جالسا في بلدة المرج أيضا عند الضابط الذي هناك ، وكان هناك بعض أعيان البلاد ، وقد دار الحديث بينهم على امرأة ألمانية أيضا ، لأن لها بعض المشاكل القضائية التي أوجبت معرفتهم بها . فهاك حديثها : « قالوا إن فلانا (سموه باسمه) من بلدة كذا في مديرية القليوبية ، وقد سافر إلى ألمانيا ، وتزوج هذه الفتاة ، وحضرت معه ، فلما رأته أباه وأمه الجوز بن يتوضآن ويصليان . قالت لهما : ما الخبر ؟ فقسا عليها قصص الاسلام وقواعده ، فأسلعت حالا ، ودارمت على الصلاة ، وقالت : هذا خير دين ، هذا دين عجب ! فأما زوجها فانه بقي على حاله أي هو مسلم لا يصلى .

نظرتي في أمم الاسلام المستقبلية

إن أمم الاسلام المستقبلية سيقومون هذا وأمثاله ، وحتى يسارعون إلى قراءة تلك العلوم ، وستكون صلواتهم غير صلاة آبائهم في العصور الأخيرة ، فهم لا يدخلون فيمن قال الله فيهم : « واذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى » وانما لا يكسلون لأنه فتح لهم باب المعرفة ، فأدركوا سر الحركات ، فهم إذ ذاك يصلون بمحض المحبة لا بالخوف ، كما يفعل أكثر المسلمين في الأعصر الأخيرة ، ويقولون إذ ذاك : اذا كنا نحن المسلمين نستعمل حركات الجسم المشابهة لحركات الصلاة ، اختيارا منا لا خوفا ، وذلك لأجل صحتنا ، فليكن ذلك الاختيار والقيام بالحركات المذكورة في الصلاة أولى ، لأن فيها تقوية الجسم ، وهذه إحدى الدعائم الثلاث في التربية العامة ، وفيها تذكرو علم الأخلاق والمحبة العامة (طلب الهداية والاستقامة) في الفائدة ، وفيها

الدعاة الثالثة ، وهي ذكرى تثقيف العقول بالحمد لله رب العالمين ، وبذكر المصلى في سجوده وركوعه السمع والبصر ومخائليهما ، وفي ذكره السموات والأرض في أول افتتاح الصلاة وهكذا .
وسيقولون أيضا : إن العلم سيجعل عبادتنا لله مبنية على المحبة لآعلى الخوف ، والعبادة على سبيل المحبة هي المجدبة النافعة ، أما عبادة الخوف فانها أدنى منها مراتب ودرجات . إن الانسان اذا أكل الطعام وهو مقتنع بفوائده ازداد صحة ، وكل عمل يعمل المرء وهو راغب فيه يكون أكمل وأعظم وأدوم ، وهذه هي الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر .

يقول المسلمون بعدنا : إن آباءنا لما ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، ونسوا ما ذكروا به أخذوا يدرسون القرآن بلا عقل ، فلا علم ، ولا تهذيب ، ولا قوة جسمية ، لذلك ذهب ملكهم ، وزال سلطانهم ، وهانحن الآن في مبدأ حياة اسلامية جديدة تجتد ما هدمه الأولون ، فمن ذلك هذه المسامرة الثالثة :

المسامرة الثالثة

لما اطلع على ما تقدم صاحبي الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير . قال : لقد عولت على أن أصل الفتح إنما هو الفتح العلمي ، وجعلت الفتح العملي بالسيف تابعا ، وهذا حسن : فأرجو أن تزيد المقام أيضا بمثال معروف تنهأ به النفوس وتهش له . فقلت : ألم يكفك أفعال رسول الله ﷺ كما تقدم . ألم يكن قوله وتعليمه قبل نشر سلطان الاسلام ؟ قال بلى : قلت : كفاك ذلك . فقال : ولكن أريد مثلا يكون قريب المتناول : لان النبي ﷺ ينظر اليه الناس نظرة يشتم منها أنهم يقولون نحن لسنا مثله : فهو مؤيد بالوحي والقوة : أما نحن فلا ، فإذا أبيت بمثال غيره يكون ذلك أقوم قبلا ، وأهدى سبيلا ، وأحسن مثلا ، وأقرب مثلا ، فقلت : ان أم الاسلام ما حفظت ملكها الا بالعلم : فلما زاد علمهم زاد ملكهم . فقال : هذا كلام عام . فقلت : ان مسلمي الهند كانوا هم أصحاب الأمر والنهي في البلاد الى نحو القرن الثامن عشر ، ولكنهم كانوا جهلاء : فلما احتل الانجليز البلاد وحرار بهم غلبوهم فأصبحوا ضعفاء في البلاد لاجل طم ولاقوة : فلو كان عندهم علم لم يسلب منهم الملك : فقدم الفتح العلمي هو الذي أورت زوال ملكهم . قال : وهذا أيضا كلام اجالي . فقلت : إذن فلا سمعك ماجاء في تاريخ تأسيس كلية عليكره ، فان ذلك يكفيك . فقال : حدثني رعاك الله حديثها . فقلت : ان السيد أحمد خان مؤسس جامعة عليكرة أخذ يقدم الفتح العلمي لينتقل منه الى الفتح العملي كما فعل ﷺ . فقال : أرجو إيضاح المقام . فقلت :

جامعة عليكره ، وعملها العظيم في الهند

ألقى الاستاذ غفر الدين أحمد مسجل جامعة عليكره محاضرة نفيسة في هذا الموضوع على جمع كبير في جمعية الشبان المسلمين ونحن نترجمها (١) فهياأتني :

حضرة الرئيس ، حضرات الاعضاء ، أيها السادة ،

إني أشكر الله على أن أتاح لي فرصة التكلم الليلة الى رجال الحاضر وسادة المستقبل . وآسف إذ لا أستطيع الكلام بلغتكم العربية التي هي أيضا لغتي : لكن لو كنتم مكاننا في الهند ، وكنت أنا مكانكم لاعتذرتم الى كما أعتذر اليكم . على أنه لا داعي لأن أعتذر عن موضوع المحاضرة فقد اخترت موضوعا يحبه المسلمون في الهند ، وأرجو أن تكونوا ممن يحبونه . ذلك الموضوع هو عليكره . وهو اسم أرجو أن يكون معروفا لكم فاننا في الهند نعرف الأزهر ، وقد كدت أقبل الأزهر حين ذهبت لزيارته . وفي الهند من

(١) مبنية على مذكريات أخذت أثناء الالتقاء :

قبل عليكره :

ان عظمة عليكره تقوم على شيئين : الأول أنها أعطت الهند المثل العليا في التربية التي لا بد منها لمن يريد أن يعيش ، والثاني وهو أهمها أنه لولا عليكره لما كان في الهند اليوم مسلمون تسمعون عنهم ، ويسمع لهم . كان يكون هناك مسلمون : لكن مسلمون لا يأبه أحد بهم ولا يقيم لهم في شئون الهند وزن . أما اليوم فان المسلمين - وان فقدوا في الهند حكاما ، وان كانوا أقلية في الهند - فان لهم منزلة فيها لا يستحي مسلم أن يذكرهم أو يذكرها . ذلك بفضل جامعة عليكرة التي هي أهم ما يملك المسلمون في الهند بعد أن فقدوا الحكم . وستكونون أقدر على تبيين صدق هذا القول اذا عرفتم شيئا عن حال التربية في الهند قبل عليكرة :

كان المسلمون حكام الهند قبل أن يذهب الانجليز هناك ، وكانوا حكام الهند لما ذهب الانجليز هناك للتجارة . وقد مكث الانجليز في الهند تجارا نحو ٤٠٠ سنة انتشرت فيها التربية الحديثة ، ولكن بين غير المسلمين ، لأن المسلمين اتكأوا على أنهم هم الحكام وظنوا أن لا حاجة بهم الى تعلم العلوم التي تنفع التاجر والصانع وما اليهما من طلاب الرزق أو طلاب القوة : لأن القوة كانت بأيديهم والحكم كان لهم . هذا طبعا خطأ كبير لكنه خطأ وقع فيه المسلمون : فلما فقدوا حكم الهند في القرن الثامن عشر وزلوا الى مرتبة المحكوم الذي لا بد له من الجهاد في الحياة ، وجدوا أنفسهم لا يحسنون من طرق الجهاد في الحياة شيئا . كانوا يحسنون طريقا واحدا هو طريق الحرب : فلما غلبوا في الحرب وزال الملك عنهم وجدوا أثر ذلك في أنفسهم ، ولا عجب ، وانسدت في وجوههم السبل ، وزلوا الى درك من القلة سمعيق ، لكن كان لا يزال بأيديهم بقية من زودة ورتوها من أيام الحكم فعاشوا عليها وان لم يحسنوا تيمتها : حتى قامت فتنة الهند في القرن التاسع عشر ، وهي فتنة كبيرة كان غرضها التخلص من حكم الأجنبي في الهند : لكنها لم تنجح لان الذين قاموا بها لم يكونوا أكفاء لها ، وكان عاقبة الفشل فيها أن أزل العقاب بكل من كان له فيها يد ، ولم تكن هناك أسرة مسلحة الا وكان لها في تلك الفتنة يد ، فكانت النتيجة أنه لم يبق أسرة مسلحة الا ونكبت في نفسها أوفى ما لها ، وزال عن كثر من المسلمين حتى تلك البقية من الثروة التي كانوا من قبل يعيشون بها فأصبحوا في حالة من التذلة والضعف والجهل بأمور الحياة لا يدرون معها كيف يعيشون وصاروا مهذبين بالفناء الاجتماعي ، عندئذ فيض الله لهم رجلا من أكرمهم بيتا وأكرمهم قلبا وأوسعهم عقلا وأبعدهم همة : هو السيد أحمد خان جاء من بيت مجد ، فقد كان أبوه رئيس وزراء ، وكان جده رئيس وزراء : لكن تلك الاحداث قد نزلت به ككل نزلت بغيره ، واضطرت الى العدل فلم يفت ذلك في عضده ولم يذهله عن أن ينظر لنفسه ولقومه :

نظر السيد أحمد خان فوجد أن الداء هو أن المسلمين لم يعلموا أنفسهم حين كانوا حكاما ، واذن فالسواء هو أن يتعلموا الآن إذ صاروا سوقة :

شعر السيد أحمد في سنة ١٨٦٥ أن لا بد للمسلمين من أن يسلكوا طريق التربية العلمية ان كانوا يريدون أن يحتفظوا بوجودهم وألا يفنوا في غيرهم ، ولاتسكني التربية العلمية وحدها : بل لا بد من أن يحافظوا مع ذلك على ثقافتهم الاسلامية وآدابهم ، ومن أين لهم الجمع بين التربية العلمية والثقافة الاسلامية ، ومعاهد التربية الحديثة في الهند كلها معاهد غير اسلامية : عندئذ أيقن أن لا بد للمسلمين من جامعة علمية اسلامية ، وأجمع العزم على أن يؤسسها لهم ، لكن كيف والصعوبات في سبيله كثيرة ؟ هناك مثلا صعوبة المال فان الجامعة لا تقوم الا على مال كثير ، وهناك صعوبة اللغة ، فان اللغة الأردية لغة المسلمين لم تكن لغة علم للسبب الذي ذكرت لكم ، وكان الوقت أضيق من أن يتسع للتفكير في ترجمة أرفى مصطلحات :

لان الخطر كان عظيما قريبا ، وكان لابد للنجاة منه من عمل حاسم سريع . قلب السيد أحمد خان الامر على وجهه فرأى أن ليس لمشكلة المال حل الا التدرج ، يبدأ بمدرسة ولو في كوخ ويترقى بها كلما ترقى وسائمه حتى تصير كلية ، ويترقى بهذه حتى تصير جامعة . أما مشكلة اللغة فلم يكن لها حل الا أن يتخذ اللغة الأوروبية العامة في الهند لغة لمدرسته أيضا ، ولكلته بعد اذا صارت المدرسة كلية ، ولجامعته اذا صارت الكلية جامعة ، اذ عندئذ يمكن أن تتفرغ الجهود لاكتساب العلوم والفنون الميسورة في تلك اللغة ، لكن اتخاذه اللغة الانجليزية لغة للتعليم في مدرسته يعرضه لسخط طائفة الملايين المسلمين ، وعامة المسلمين هم طوع هذه الطائفة : أي طائفة شيوخ الدين بين المسلمين في الهند . ومن الطبيعي أن يكره المسلمون شيونا وغير شيوخ ، لغة الذين أذلهم وسلبوهم المالك وصبروهم الى ماصاروا اليه ، وأن يسخطوا على من يريد ادخال تلك اللغة في أي معهد اسلامي ، فضلا عن جعلها لغة التعليم فيه ، لكن لابد مما ليس منه بد ، فقد كان ذلك هو الطريق الوحيد للنجاة من الفناء ، واذا سخط الشيوخ في الأول فسيديكون اذا تبينت لهم حقيقة الموقف أن الداء عضال يحتاج الى دواء قد يكون السكتي ، وسبحمدون في الآخر من أعد لهم الدواء وان سخطوا عليه في الأول ، هكذا فكر ذلك الرجل الفذ السيد أحمد خان ، وهكذا قرر ، فأسس مدرسة في بضعة أكواخ عدد طلبتها نحو اثني عشر ، وميزانيتها حوالي ٤٠٠ جنيه ، ولغتها الانجليزية ، واثارت عليه تاثرة الشيوخ ، تاثرة كثير منهم ، فان هناك شيونا وشيونا . ففي الشيوخ رجال تعولم الجباه إجلالا عن استحقاق ، ولكن فيهم أيضا من لا يتجاوز نظرهم حاضرهم ، ولا يحكمون الا عاطفتهم مع غلث في هذا التحكيم ، وهؤلاء اتق منهم السيد أحمد خان أذى كثيرا ، ولكنه كان متوقفا ذلك ، وموطنا النفس على تحمله ، لانه كان يعلم أن خيره وخيرهم ، ومستقبله ومستقبلهم ، بل مستقبل الاسلام نفسه متوقف على المضي فما استخار الله فيه وعزم عليه :

هكذا يا حضرات الاخوان : بدأت جامعة عليكرة ، والآن هي من أكبر الجامعات في الهند بميزانيتها

٦٠٠٠٠ جنيه ، وطلبها ٢٢٠٠ طالب :

أسس السيد أحمد خان جامعة عليكرة سنة ١٨٧٥ وفي سنة ١٨٨٢ أي بعد سبع سنوات فقط من تأسيس عليكرة ، ألفت حكومة الهند لجنة تبحث مسألة التربية في الهند ، فكان رأيها الورد في تقريرها أنه « اذا اتبع في الهند مثل عليكرة فستحل مشكلة التربية الوطنية في الهند » . فعليكرة كانت الرائد الذي شق للهند طريق التربية الوطنية ، والذي أعطى الهند فكرتها عن التربية القومية : قال السيد أحمد خان ، ان مناهج التعليم والسياسة العامة في التعليم والتربية ، يجب أن تكون بيد جامعة أو جامعات أهلية لا بيد الحكومة ، لكن لابد لمثل جامعة عليكرة الأهلية الاسلامية من الانتفاع بتجارب الجامعات التي سبقها ان كانت تريد أن تحقق الغرض الذي أسست له . وغير المسلمين اتفقوا بتجارب الجامعات الأوروبية فلماذا لا يتفجع المسلمون بذلك أيضا في تحقيق أغراضهم الاسلامية ؟ عندئذ رأى السيد أحمد خان أن يسافر ليزور جامعتي كبرديج واكسفورد ليرى نظامهما بعينه ويختار منه الصالح . ذهب ومعه ابنه القاضي الكبير السيد محمود ، وهو أول من تولى القضاء من الهنود ، ودرس المسألة هناك عن كسب فوجد بعد الدرس والثفكير : أن مجرد مرور الامتحانات لا يستحق أن يكون مثلا أعلى للطلاب ، وان مجرد منح الدرجات لا يصح أن يكون غاية عليا للجامعة : لكن تربية الخلق ، تربية الشخصية . تكوين الرجال هو الذي ينبغي أن يكون الغرض والغاية . وقرّر رأيه إذن على أن يجعل غاية جامعة عليكرة تكوين الرجال وتخرج القادة : أي تربية النشء الصالح من المسلمين وتحويلهم الى رجال ينهضون بأعباء الأمة الاسلامية في الهند ، ثم تخرج قادة يستطيعون أن يحسنوا قيادة الهنود المسلمين . هذا كان أهم ما ينقص المسلمين في الهند ،

وقرر رأى السيد أحمد خان على أن يجعل غاية جامعة عليكرة سد هذا النقص . لكن تكوين الرجال القادة يصعب جدا إذا كان الطالب يفقد خارج الجامعة ما يكسب داخلها ، أو بالأحرى إذا كانت جامعة تلك هي غايتها لا تشرف على الناشئ الا في جزء من يومه وتترك الباقي للظروف والمصادفات ، فقرر رأى على أن تكون الجامعة داخلية يعيش الطالب فيها كما يعيش في بيته ، ويعيش بين أسانذتها كما يعيش بين أهله ، وأقرب السيد أحمد من كبردج واكسفورد نظامهما في ذلك ، واستعان بطائفة من كبار أهل العلم والتربية أمثال السيرالى (١) والمستر توماس أرنولد (٢) من الأفرنج ، والدكتور نظير أحمد (٣) ، وشبلى النعماني (٤) وخوجه أطاف حسين حالي (٥) فجاء بهم الى عليكرة . وأسس فيها الحياة التعاونية التي يعيش الطالب فيها بين أسانذته في الجامعة كما يعيش بين ذويه يعلمونه في ساعات العمل ويهذبونه في ساعات اللعب وينصحونه من قريب ويلاحظونه من بعيد قاصدين في ذلك كله الى أن يجعلوا منه رجلا يحسن الجهاد في الحياة . ومن الطبيعي أن لا يقدر على نفقات هذه التربية اجالا الا أبناء الخواص من المسلمين أى أبناء الطبقة الوسطى على الأقل ، أما الفقراء فالنايغ منهم يستطيع دائما أن يحصل من الجوائز المالية على ما يمكنه من القيام بنفقة تلك التربية . وليست ننقها من الفداحة على ما قد يسبق الى النفس أول الأمر فانها تبلغ خمسة جنيهات في الشهر وهو مبلغ ليس في الحقيقة كبير إذا قيس بمثله في مثلها من الجامعات

والحياة الرياضية الجامعية كانت أيضا مما اقتبسها مؤسس جامعة عليكرة من الحياة الجامعية في أوروبا . فالألعاب الرياضية المختلفة تلعب فيها . ولا تنسوا ان ذلك كان شيئا جديدا في حياة الجامعات في الهند في القرن التاسع عشر ، وقد تفوقت عليكرة على الخصوص في لعبة الكريكت وظل فريقها خبير فريق في الهند لمدة طويلة

فأتم زون باحضرات السادة أن جامعة عليكرة لم تهمل ركنا واحدا من أركان التربية ، فهي تقوم على التربية العقلية في أوقات العمل ، وعلى التربية البدنية في أوقات اللعب ، وعلى التربية الخلقية في جميع الاوقات . ترون انها بذلك كله قد أعطت الهند مشلا عاليا في التربية القومية ، ونجحت المسلمين من الأندثار المحقق الذي كان يهددهم بما بصرتهم به من أمور الحياة وبما خرجت لهم من قادة وكوفت لهم من رجال . وليس من رجل مسلم له مقام أو كلة مسموعة في الهند الا وكان طالبا في عليكرة أو متصلا بها بطريق ما . فالرحوم مولانا محمد علي كان من طلبتها ومولانا شوكت علي من طلبتها ، وهذا المحاضر الفقير من طلبتها وهي لا تجدد بين المسلمين رجلا ذامواها الا وتعهدهت وانتفعت بمواهبه بأن تختاره رفيقا لها . مثلا أوتنتخبه عضوا في مجلس شيوخها الذي هو مجلس ادارتها أرمشرفا على ماليتها ، فالقاضي السيد محمود ابن السيد أحمد خان ، أو بالأحرى ابن السير السيد أحمد خان ، قد منح لقب سير اعترافا بخدماته للعلم بتأسيسه تلك الجامعة ، هو من شيوخها والسيد حسين بلجمي عماد الملك هو من المشرفين عليها بفضل الله ، وبحسن الاخلاص في سبيله نجح ذلك العمل العظيم ولعلكم الآن أقدر على ادراك صدق ما قلت لكم في أول كلامي

(١) كان أستاذ اللغة الانجليزية في اكسفورد (٢) المستشرق الشهور صاحب تاريخ انتشار الاسلام وقد صار بعد سير توماس أرنولد وقد زار مصر منذ عام وأتى فيها محاضراته في الفن الاسلامي ثم توفي بعدها بقليل (٣) كان رحمه الله من أكبر الكتاب في الهند ومن أول من جاهد في سبيل تربية الفتاة الهندية المسلحة كتب كثيرا من الروايات بالأردية

(٤) كان رحمه الله أكبر عمدة في تاريخ المهديين في الهند ، وهو مؤسس دار المصنفين في الهند وما يتبعها من دور التعليم والثقافة :

(٥) كان رحمه الله أكبر شاعر قومي في القرن التاسع عشر

من انه لولا عليكرة لما كان اليوم في الهند مسلمون . انكم خارج الهند لاندركون كيف كان بشر المسلمون بعد أن خرج حكم الهند من أيديهم . ونحن الآن نعرف أن المسلمين كانوا يكونون اليوم في الهند خداما أذلة لولم يقبض الله لهم ذلك الرجل الذي أسس تلك الاكواخ التي صارت بعد كليات (١) ثم صارت بعد جامعة (٢) ان المسلمين أقل عددا من الهندوس لكنهم استطاعوا بفضل الله وحسن توفيقه أن يحتفظوا بوجودهم وأن يكون لهم قول مسموع في شئون الهند وفي شئون التربية في الهند .

لكن السير سيد أحمد كان يرى بتلك الجامعة الى ما هو أبعد من ذلك . كان يرجو أن تصير يوما ما منار العلم والتربية في الشرق الاسلامي كله . كان يرجو أن يكون مثلها كمثل الشجرة الطيبة المذكورة في القرآن « أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين باذن ربها » وكان يرى الى أن تكون رسول العلم والمعرفة والتسلح في الشرق تسير فيه وياحدى يديها الفلسفة وبالآخرى العلم الحديث وعلى رأسها تاج لا إله الا الله محمد رسول الله ، تدعو المسلمين الى المجد وتشق لهم طريق العز وتبصرهم بالحياة ، فقد كان رحمه الله كما ذكرت من قبل لا يرى أن الجامعة بعدد طلبتها ولا بما تمنح من درجات ولكن بما توسع من دائرة العلم وتنقص من دائرة الجهل بما تقوم به من أبحاث وما تنشر من ثقافة حقة فذلك الرجل الذي لقبته صحافة لندن لما توفي سنة ١٨٩٨ بنبي التربية كان يريد بتلك الجامعة أن يؤسس مركزا علميا تنتشر منه الثقافة العلمية الاسلامية في الشرق الاسلامي كله . وقد تحقق من حلم السير سيد أحمد شيء كثير ، فان الكوخ قد صار الآن جامعة ثابتة لكن بقيت مسألة التوسع أي التوسع في الجامعة حتى تصير ذلك المركز الثقافي الاسلامي العالم ، والعقبة القائمة اليوم في سبيل هذا التوسع هي المال ، فقد كانت جامعة عليكرة في صميمها جامعة فنون الى الآن يدرس فيها من الصلوات مالا يحتاج الى مال كثير مثل الرياضة . وليس معنى ذلك أن العلوم لا تدرس فيها ففيها يدرس من العلوم الطبيعية والكيمياء والرياضة والنبات والحيوان لكن جامعة عليكرة ممتازة في الفنون وتر يد أيضا أن تمتاز في العلوم ، وهذا يحتاج الى توسيع كبير في المعامل والمعامل كبيرة النفقة تحتاج الى المال والمسلمون اليوم لبسوا من أهل الفنى الذى يجعلهم يستطيعون أن يمدوا عليكرة بالست مائة ألف التى تحتاجها من الجنيهات طهه الغاية (٣) لكن على رأس عليكرة اليوم رجل من خير المسلمين وأبعدهم هممة (٤) هو الدكتور سيد راس مسعود (٥) أو نواب مسعود يار جنك كما يلقبونه تكريما وهو حفيد السير سيد أحمد خان وابن السيد محمود وقد استطاع في سنة ونصف أن يدبر لها ثلاثين لكا من الرويات أو نحو ٢٠٠٠٠٠ ر جنية

لكن عليكرة على ما هي عليه ورغم حاجتها هذه الى التوسع شيء عظيم . هي على ما هي عليه تستحق أن يؤمها من الطلبة المصريين طلاب الفنون الادبية على الأقل فلماذا لا تؤمونها ؟

ليس في هذا دعوة خطيرة الى الجامعة الاسلامية انما هذا كلام بسيط يصحح أن يقوله أى مسلم فان المسلم يجب أن يعرف أخاه المسلم . واذا كان الهنود يأتون الى مصر الى الأزهر ؟ فلماذا لا يأتى المصريون الى الهند الى عليكره ، انكم اذا أتيتم عليكره ستجدون شيئا لا تجدونه في مصر . ان في مصر جامعة حقا ، ولكن اسمحوالى أن أقول انها جامعة حديثة والجامعة لا تنفع نفعها الا اذا كان لها تقاليد صحيحة

(١) أسست أول كلية حوالى سنة ١٨٨٠

(٢) فى سنة ١٩٢٠

(٣) هذا مبلغ كبير ولكنه يناسب ما يرى اليه الرجال الكبار القائمون بامر جامعة عليكرة

(٤) هو وكيل الجامعة اما مدرها فهو نواب بهو بال

(٥) حامل درجة الشرف فى التاريخ وخرج لندن فى المحاماة ودكتور فى القانون

ثابتة والتقاليد الصحيحة الثابتة لا تتكون ولا تقوم الا في سنين كثيرة وقدمت على جامعة عليكره هذه السنون الكثيرة وقام فيها كل ما ينفع المسلم من التقاليد الثابتة الصحيحة تقاليد تجمع بين الثقافتين : الثقافة الاسلامية التي قامت على القرون والثقافة الحديثة التي جاء بها العلم الحديث ؟ فلماذا لا يأتي اليها المسلمون من مصر بدلا من أن يذهبوا الى أوروبا في طاب ما تستطيع عليكره أن تمدهم به ؟ انى أرجوان يفعلوا بعد اليوم . وأرجو على كل حال أن لانفسوا عليكره وأن تكبروا ذكرى عليكره فهي التي نجت الاسلام في الهند وهي التي جعلت من المسلمين في الهند قوما أعزة وأمة مهيبة بعد أن كادوا يكونون أخلاطا عبيدا ولست أجد أدلى في وقد فرغت من المحاضرة في عليكره وعملها العظيم في الهند من أن أسألكم أن تقرأوا الفاتحة لروح مؤسسها وأن تسألوا الله المعونة والتوفيق لحفيده القائم على رأسها اليوم . تمت اللطيفة الأولى في قوله تعالى « انا فتحنا لك فتحا مبينا »

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم اعلم أن عصر الصحابة رضوان الله عليهم كان عصر أنوار نبوية ، واشراق نور النبوة عليهم كان يلقى الطمأنينة في قلوبهم ، وفي كل يوم يزدادون منها بما يرون من مشاهدة الآيات الإلهية ، ظاهرة على يد حضرة الرسول ﷺ ولا جرم أن الله عز وجل معنا أينما كنا « وهو معكم أينما كنتم » وهو الذي ملأ السموات والأرض بجنود تظهر الجباب على أيديها ، وفي كل يوم تظهر للمفكرين في هذه الدنيا أنوار وأنوار ، فالسلم اليوم يزداد إيمانه بنور النبوة الموروث ، وبجباب أمم الاسلام من حيث اجتماعها اليوم بعد التفرق وانتشار الدين في أقطار المسكونة بلا حرب ولا ضرب ، ولادولة تحميه ، ولا خوف من أحد ، فهذه كلها تزيد المؤمن إيمانا ، بل إن حال انتشار الاسلام اليوم يضاهي حال انتشاره أيام النبوة ، فهذا وحده يزيد الإيمان ، فأما المفكرون والحكماء فانهم يزيدون فوق ذلك إيمانا بما يدرسون من الجباب كالتي جاءت في هذا التفسير ، واذا كانت سكينة بني اسرائيل وطمأنينتهم أيام طالوت ، إذ التابوت الذي انتهت منهم أعداؤهم ، وكان فيه بعض مخلفات موسى عليه السلام ، قد رجع إليهم فكانت هذه من أمارات صدق النبوة والوحى للموسى الذي وصل إليهم عن علمائهم ، فهذه لا تورث إلا التصديق المبني على الظواهر من خوارق العادات وما يشبهها ، وهذه مقدمة للباحث الحكيم التي هي أرسخ قديما ، وأعلى في السكينة كعبا ، فهكذا هنا كانت السكينة في قلوب المؤمنين أولا بما يرون من مجاب النبوة وغرائبها في كل زمان بالمشاهدة ، أو بقراءة الآثار ، ثم يزدادون سكينة وطمأنينة بجباب الحكم الإلهية التي لا حد لها ولانهاية كالتي في هذا التفسير .

مسامرة

اعلم أن مثل المسلم الذي لا علم عنده بهذه الدنيا كمثل الطبيب الذي أكسب على التطيب والجراحة ومداواة المرضى ، ونسى المسكين صحة جسمه ، فانتابته الأمراض ، وأحاطت به مهلكات القوى ، وقواطع الحياة ، وانهاك أعضائه ، فقرأ مصفرا الوجه ، خائر القوى ، ضعيفا ، هزيبا ، حامدا .
وسبب ذلك أن علم الطب قسمان : قسم هو علم صحة الأبدان وتديريها ، والمحافظة عليها ، وانعاش قواها ، باستنشاق الهواء النقي ، والتمارين العضلي ، وأفضله باجماع أطباء زماننا المشي في الهواء النقي مع كثرة استنشاق الهواء في الحلاء ، والجلوس في الشمس ، معرى الجسد في بعض الأوقات ، سائر العورة والرأس ، محافظة عليها ، وأكل ما لم يطبخ من الخضر ، وأكل الفاكهة ، وهكذا مما سبق في هذا التفسير ، وما يأتي قريبا ،

وهذا أفضل القسمين .

القسم الثاني : هو قسم المداواة ، وهذا يقوم به الطبيب ، فإذا أهمل الانسان صحة جسمه بترك علم تلك القوانين فإنه يقع في المرض ، فيلتقاء الطبيب العالم بالأمراض الباطنية ، أو بالجراحة ، أو بمرض العين ، أو الأذن والأنف وهكذا . فأكثر أطباء زماننا هم من القسم الثاني ، ينسون القسم الأول ويهيمون بالثاني ، لأنه هو الذي به يكون الربح والسكب والثروة والغنى ، فينسون أنفسهم وهم غافلون ، ومثل هؤلاء علماء الدين في كل أمة من أمم الأرض ، فهم غالبا كالقسم الثاني من الأطباء في زماننا ، فهم دائما لا يبرفون إلا ما كان من الأحكام الظاهرة المقابلة للأدوية ، فكما أن الطبيب في القسم الثاني يقول للمريض : خذ الملح الانجليزي ، أو الصودا ، أو المغنيسيا ، أو ملح القواكه ، لاسهال المعدة ، ولا يذكره قط بالهواء النقي ، ولا بنوع الماء كل التي يجب أن يتعاطاها ولا يحظر بياله ذلك : فهو كالمرضع والناثحة المأجورين ، فهذه ترضع ولاتبالي بالرضيع ، وهذه تبكي وليس في قلبها أدنى حزن على الفقيد ، هكذا عالم الدين غالبا لا هم له إلا أن يحرص أقواله في نواقض الوضوء وأحوال الحيض والنفاس ، وما أشبه ذلك ، ولا يرفع عينه العاتمة إلى السماء ، ولا يشرح لهم شيئا من عجائب الطبيعة ، لأنه هكذا تعلم ، وهكذا يعلم ، فهو عن العلم بالله محبوب ، وعلى الأعمال الظاهرة مكب ، وأمنة تعيش بالعمل وتفضل عن العلم أي العلم بالله وبجانب صنعه ، مثلها كمثل الخمل في مساكنها طامعات عاملات ناصبات جاهلات . إن دين الاسلام علم وعمل : المسلم هو الذي يقرأ في افتتاح كل صلاة : « إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » فهو يقرأها ، فإن كان من المفكرين أخذ بطريق الاعتبار والتفهم انه يكون ممن قال الله فيهم : « يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين واجعلنا للمتقين إماما » والامامة الحققة لاتكون للقلد الغافل ، وإنما الامامة تكون للمفكر الذي يدرس النبوة وعلاؤها ، وهجائب الحكمة الإلهية ، دراسة محقق ، فيزداد إيمانه كل صباح ، وكل مساء ، إذ يوجه وجهه للذي فطر السموات والأرض ، حتى يرى ما يدهش عقله ، ويجب من هذه الدنيا التي تظهر لنا عابسة وهي في الحقيقة باسمة ، وينظر في آثار الله فيجد ظواهرها مملوءة بشوك القناد ، وعند التحقيق لاشوك ولاقناد ، ورحمة الله تنجلي ، والجمال يهر عقولا وعقولا ، وإن آيت إلا الاضاح ، لتسكن نفسك أيها الأخ ، فاعجب مما تراه قريبا في اللطيفة التي بعد هذه من دعابيل وقروح في أجسامنا وحى ، فنحن ننظر إليها نظرة المسكين المتألم الذي أصابه الضر ، ولكن علم الطب (كما سيتضح لك قريبا بأجلى بيان) يقول لك : كلا . وهل العمل إلا قلعة بناها جنود الله القائمة في جسمك ؟ وهي ذوات حياة حقيقية وعقل ، ولما بنت هذه القلعة المخروطية الشكل حصرت فيها المكروبات الداخلة فأهلكتهم وأفتتهم ، فكان القبح والصديد رم الأموات من الفريقين : الفريق الوطني ، والفريق المهاجم ، ويقول : إن الحمى تقرب من هذا ، فإن الناس لما جهلوا الحام الشمسي ، والحام البخاري ، أو حام الماء الساخن والمشى والفمريات العضلية (وكل واحد من هذه يذهب بالعضونات من الجسم) .

أقول لما جهلوا ذلك ، وهو دواؤهم الوحيد ، قال الله لهم : أنا رحيم بكم يا عبادي ، أرحمكم بالحمى فأسلط جنودي التي في أجسامكم وهي الكرات البيضاء على جنودي للهاجة ، وهي الحيوانات النرية التي تحمل في أجسامها السم وتفرغه في أجسامكم فيحوى الوطيس والقنا تفرع القنا وموج المايا مثلالم ، فيقع كثير من الفريقين صرعى وتكون الاشلاء منهما هو الصدبد كما تقدم ، وهذه جنود الله في أجسامنا المقابلات لجنوده في خارجها ، سأشرحها شرحا وافيا في اللطيفة الآتية ، ولكن أذكر هنا نبذة منها توطئة لما يأتي واجبالا له ، فأذكر على سبيل التمثيل الأسد والفهر ونحوهما ، فهذا الأسد من جند الله التي أعدها لاحداث الحياة تارة ولإحداث الهلاك أخرى ، فهي لتربيتها سبب الحياة ، وللفريسة سبب الهلاك ، ولن ترضع اللبوة

سبلها ، أو تنقض على فريستها إلا بما وقر في نفسها من رحمة في الأول واملأك للثاني . إذن هنا مجمل ما سأذكره هناك بهذا المثال ، فهنا جيش معنوى نورى وظلماني : أى الرحمة والعذاب ، فهذان الجيشان المعنويان مقدمتان للجيشين الحسين وهما جيش الآساد حين التحفن على ذريتها ، وحين اقتراسها للقطباء والأرانب ، فهذا مثل جنود الله في الأرض والسموات .

جسم الأمة كجسم الانسان

اعلم أنه لافرق بين جسم الانسان وجسم الأمة ، فاذا جهل المسلمون علوم الأمم ، ونسوا الوحدة العاتية كما عصى الجاهل الغافل عن اصلاح جسمه ، وترك قوانين الصحة ، فان الله عز وجل هو الرحيم بهم ، فسلط عليهم الأمم من بين أيديهم ومن خلفهم إذ قال لهم : « أيها الأمم هبوا من رقدتكم ، وحاربوا المسلمين ، وادخلوا خلال ديارهم ، لأنى أريد إيقاظهم من طريق الشدة ، لأنهم نسوا ، ونسوا أنفسهم بطريق اللين كما نسى الغافل عن جسمه باستعمال الحمام الشمسى ، والنشى في الهواء الطلق ، وأكل الفواكه ، والخضر ، فرجته بالحى ورجته بالأورام ، لأنى أنا رحيم ، ورجتى وسعت كل شىء ، فأنا أرحم الأشخاص ، وأرحم الأمم وان كانوا جميعا يجهلون أنى أرحمهم حين تنابهم الآلام .

خطاب المؤلف لأمم الاسلام

يا المسلمون : هذه والله هي ازدياد الايمان ، بل هذه هي السعادة ، هذا زمان الحكمة والعلم ، هذا هو الزمان الذى قال الله فيه : « سترهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » وهو الذى قال الله فيه أيضا : « سأوريك آياتى فلانستجبون » وقال فيه : « وقال الحمد لله سيريك آياته فتعرفونها » وبهذا وأمثلة ففهم قوله تعالى : « كتب ربكم على نفسه الرحمة » فكيف نوقن بهذه الرحمة إلا بالدراسة ! درسنا ياربنا وفهمنا ، فهمنا أن إيلامك لنا لمنفعتنا ، رحم الله أستاذى (الشيخ حسن الطويل) ، فهو أول من لفت نظرى إلى هذه المعاني ، فانه لما عرض فى الدرس اسم الله الجبار المنتقم الخ ، قال يافلان : هذه الألفاظ بحسب الظاهر فقط والافلا انتقام ولاغيره ، لأنه منزه عن الغضب كما هو معلوم ، ولكن هذه أفعال رحمة سميت بأسماء مما نعرفها .

وأقول الآن : الله أكبر : بهذا نفهم سرا من أسرار القرآن ، ألا وهو قوله تعالى : « إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن » فهذا عجب أن يكون رحاما وهو معذب ! فبالعلوم اليوم ظهرت بعض أسرار القرآن وعجائبه . اللهم لك الحمد على نعمة العلم .

فلما اطلع صاحبي على هذا . قال : هذا جمال وكال وحكمة وعلم ، ولكنى أريد أن تفهمنى عنوان هذه المقالة ، فانك سميت « مسامرة » ، فأين المسامرة ؟ فقلت : إن ما تقدم إنما هو مقدمة لتلك المسامرة وان هي إلا نبراس لهذا المقام . فقال : إذن حدثنى حتى يتم المقام . فقلت : أعرف طبييا نطاسيا شهيرا ببلادنا المصرية ، فهو فى الحكومة المصرية من الأطباء المشهورين ، وله فى منزله عيادة خاصة ، وهذا الطبيب لى به علاقة ، وهو أنه كان تلميذى بالمدرسة الحديوية فى اللغة العربية قبل أن يدرس علم الطب ، وهذا الطبيب قابلته منذ ستة أشهر فى عيادته ، فرأيت ضيفا هز يلا نحيفا ، فأزججنى مارأيت ! ووجهت إليه اللوم الكثير على ترك صحته التى بها يقدر على مداواة المرضى ، فأخذ يقول لى ان أصدقائى يأتوننى فى وقت فراغى فلا أقدر على ردهم وترك إجابتهم ، فشددت عليه التذكير ، وقلت له : لا بد من النظام ، ولا بد من مراعاة صحتك مراعاة نامة ، وقلت له انى بعد مدة لا بد سأتك عن ذلك كله ، فهجيت إذ قابلته منذ ثلاثة أيام فى هذا الشهر اكتوبر

سنة ١٩٣١ م وهو قومي البدن نشط، فسلم عليّ وبادرنى بقوله : هذه نصيحتك ، وأشهد على ذلك طيبا كان معه ، وقال : ألسنتى أرفض العمل في وقت رياضتى ؟ فقال نعم ، فسرتت من ذلك كثيرا وانشرح صدري ، وليس هذا بأول من تصديت له من الطبقة المتعلمة من اخواني المصريين . وبما قلته له في هذه المقابلة : إذن عملت « بالهايجين » كما قلت « بالمدرسين » والأولى كلمة معناها علم الصحة ، والثانية كلمة تدل على علم المداواة . فقال نعم .

وهذه المسامرة هي المنطبقة تمام المطابقة كما قدمنا آنفا على حال المسلمين الذين لا يعرفون إلا علم الفقه فهؤلاء الآن يقينا قد قاموا من رفدتهم ، واستيقظوا من غفلتهم ، وقرءوا العلوم ، وأنا أجد الله عز وجل إذ أن الأزهر الذي تعلمت فيه خطأ خطوات في هذه السبيل ، وهكذا بقية بلاد الاسلام ، وهذا التفسير من مقويات تلك الحركة في عالم الاسلام ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

فقال صاحبي : حسن هذا المثال ، وجليل هذا التنظير ، ولكنني أريد أن تربط موضوع السكينة كله بقوله تعالى « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » ، فهل في هذه السكينة فتح ؟ وأى أنواع الفتح هو ؟ فقلت : حيالك الله : أنا ذكرت لك أن الجنود أربعة أقسام : منوية وحسية ، وكل منهما جنود للاهلاك وجنود للإحياء ، ولا جرم أنه صلى الله عليه وسلم قد فتح الله عليه فتحا علميا باظهار الحقائق له ، فأفاض على الناس بما يحتملون فهنا جيش معنوي نوراني تبعه جيش حسي وهم الغزاة المجاهدون . ثم إن ما فتح الله به الآن من العلوم لنا نحن الأمة الاسلامية مثل ما اتضح في هذا التفسير وفي غيره من بواهر الجانِب إن هو إلا أنوار المعرفة وبها تطمئن قلوب وقلوب وتسكن للحقائق كسألة الأمراض التي جعلت لمصالحنا لا لإبذائنا ، فهذه حقائق وانحة لم تكن لتعلم للموم إلا في زماننا ، أما قبل ذلك فانها كانت خاصة بأناس اصطفاهم الله ولم يبيحوا للناس بعلمهم لأن الناس لم يكونوا مستعدين ، وهذه جيوش علمية نورية تتبعها جيوش اسلامية حقيقية لقيادة أهل هذه الأرض من أم الاسلام ، لأنهم خير أمة أخرجت للناس ، ومتى كان اجتماعهم مبينا على ظهور الحقائق لهم كالشمس في رابعة النهار ، فانهم لاجرم تكون قيادتهم لأنفسهم وللأمم أكمل وأتم ، واذن يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر . إذن الفتح العلمي في زماننا كالذي ظهر في هذا التفسير من مضمون قوله تعالى في أول السورة : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » ، « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الثانية والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : ولله جنود السموات والأرض وكان الله علما حكما اللهم إني أجدك جدا يوافي نعمك ، ويكافئ مزيديك ، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أنفيت على نفسك ، جل وجهك ، وعز جاهك ، لا إله إلا أنت ، وكيف يكون للعالم إله غيرك ونحن ننظر ففري كلامك في كتابك كفة لك في خلقك ، وذاك خلقت من كل شيء زوجين : الذكر والأنثى ، والسلب والموجب ، والغالب والمغلوب والعالم والجاهل ، والحي والميت ، والذكر والأنثى ، وهكذا ، لم نجد لهذه القاعدة شاردة وشاذة ، بل هي مطردة أوليس من العجب أن غزوات النبوة كغزوة الفتح وغيرها من الغزوات ، وجب حروب هذا العالم الانساني لها نظائر في أجسامنا .

يا سبحان الله : إن الله يقول هنا : ليس جنودكم في غزوة الفتح وغيرها هم جندي وحدهم . كلا . بل لي جنود في السموات وجنود في الأرض ، أدبرهم بعلمي ، وأنظمتهم بحكمتي ، وكل هؤلاء قائلون بما عليهم وعملهم نافع لحياتكم وحياتكم غيركم ، فكما أنكم جئتم إلى هذه الأرض ومعكم نبيكم ، نحاربون الكفار الجاهل

المفسدين في الأرض ، الذين لم تكن لهم جامعة تجمعهم ، ولارابطة تربطهم ، بل هم قوم مشتتون ، فبعضهم تبع بلاد الفرس والأكاسرة ، وبعضهم تبع بلاد الروم والقيصرية ، فارتبم هذه الأمم بارشاد نبيكم وتر بدون ادخالهم في جامعكم الاسلامية ، فتصبح الأمم كلها جسما واحدا صحيحا ، فهكذا كان فعلى في أجسامكم ، إن جسم الانسان متيناس للجسم العام للانسانية كلها ، فالكرات البيضاء في الجسم ومامها من جنود الجسم كلها تقايل وتحارب أعداء هذا الجسم ، وتفتصر عليها وتقاتلها ، والا فلاجسم للبشر ، ولا حياة له ولا بقاء . وماكدت أصل لهذا المقام حتى حضر صاحبي العلامة الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير . فقال هذا حسن جدا ، ولكنه كلام غامض ، إن المحاربين في الأرض لهم آلات وقلاع وأعمال عجيبه ، وأبن الكرات البيضاء المذكورة ، وأبن الحرب المشهورة بين الأمم ؟ فقلت له : حياك الله وبياك ، إن الحرب في جسم الانسان تشابه الحرب التي تراها بين الأمم سواء بسواء ، والتنوع الانساني لايزال في حرب وضرب حتى يصبح أمة واحدة ، ويصبح كله كتلة واحدة ، يحارب الطبيعة المحيطة به ، لينال منفعتها ، فلغزوات المحمدية فتح باب لرقى الأمم ، والناس الآن يحاربون حريين : حرب مع أنفسهم ، وحرب مع الطبيعة ، والغزوات الاسلامية مبدأ لازالة العناصر الضارة بالجسم الانساني كما تغزو الكرات البيضاء واللقاوية وغيرها الحيوانات الطارئة على الجسم الضارة به ، حتى اذا لم يبق في الانسان شقى ولا أئيم أصبحت الانسانية كلها جسما واحدا تحارب الطبيعة حولها باذن ربها ، فكأنها إذذاك في زمن السلم العام الذي بشره القرآن في سورة القتال المتقدمة ، بلعمة واحدة تتلع غيرها ، ولكن هذا الغير ليس من جنسها .

حينئذ قال صاحبي : أنا الآن أصبحت في عجب ! كلامك جميل ، وبيانك بديع ، به عرفنا أن الله جنودا بطريق السمع ، وأنت فصلت بعضها وهي التي في الجسم البشري ، ولكن القرآن كتاب عربي مبين وكلامك وان كان حسنا فيه التباس من وجهين : الأول أن هذه الجنود التي في جسم الانسان لم تبتين بالفصيل حركات كرها وفرها ، وغدوها ورواحها ، وأسلمحتها ومحاصرتها ، وقلاعها وثكناتها ، وانهمزماها وانتصارها ، وخنادقها ، وسمومها القتالة . الثاني : انك ذكرت البلعمة واللقاوية ، فهذه كلمات ليست عربية والقرآن سهل فاذا لم يكن التفسير أسهل من القرآن فانه لا يكون تفسيرا ، بل تعبيرا ، وقد عهدناك فيما سبق من هذا التفسير تذكرا سهلا على الناس فهمه ، وعظم نفعه ، فقلت له : أيها العزيز ، انني لم أذكر الحرب والضرب والجهاد ، ولا البلعمة واللقاوية إلا وقد أعددت لها عدتها ، وأحضرت معي مقالا أذكره في هذا المقام . فقال : ان كان من مقالك فأنت لست من علماء التشريح ، وان كان من مقال غيرك من علماء التشريح فانهم لا يقدرون أن يصفوا حرب المكروبات والكرات البيضاء وصفا ينطبق على الحروب المعلومة لنا حتى يخرج قارى التفسير من المقال وقد أيقن بأن الله جنودا غير جسد الانسان ، يشاهد كرها وفرها . فقلت : انك حصرت الكلام في مقامين ، وهذا الحصر منقوض بمقام ثالث . فقال بينه لي ؟ فقلت : إن الكلام لطبيب مصرى ، وهو الذي وصف تلك الأوصاف التي ذكرتها بعينها في المجمع المصرى للثقافة العامة سنة ١٩٣١ أى سنة طبع هذه السورة ، وهذا عجب ! وهو معجزة جديدة للقرآن ، وكيف لا يكون معجزة والناس عاشوا وماتوا وهم يقرمون : « والله جنود السموات والأرض » ولكن أكثرهم لا يعرفون كيف تكون تلك الجنود ، وكيف غزواتها ؟ حتى ظهرت الآن فيما ستره من قول ذلك الطبيب . فقال : إذن تكون تلك الجنود الإلهية أيضا مساعدة على فهم : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » ومساعدة على فهم قوله تعالى : « ما خلقكم ولا بشكم إلا كنفس واحدة » ففي النفس الواحدة يحصل ما يحصل في جميع نوع الانسان ، فأرجو أن أسمع أولا خلاصة المحاضرة التي ألقاها الطبيب . ثانيا نفس المحاضرة . قلت : أما الخلاصة فهي أننا نرى الجسم الانساني عبارة عن مدينة حصينة ، يحيط بها سور متين ، وهذا السور تحاصره جيوش تعد

بالآلاف الآلاف من الأعداء ، تريد دخوله لتعيش عيشة هنيئة كما يريد الأوروبيون أن يعيشوا عيشة هنيئة في بلاد الاسلام بظلمها وارهاقها واذلالها ، ولا نجد لها تلك الجيوش بابا تدخل منه إلا المنافذ المفتوحة كالقلم فتدخل منه ، وهناك تصل إلى المعدة ، والمعدة فيها عصير معد لا هلاك تلك الحشرات ، وهذا العصير يهضم الطعام ، ويقتل تلك الميكروبات ، ولكن إذا أسرع الغذاء في الانزلاق من المعدة وجرى إلى الامعاء فان تلك الميكروبات لا تموت ، ولكن تسير إلى الامعاء ، لأن مدة إقامتها في المعدة لا تكفي لآبادتها ، وقطع جراثيمها ، وهذه ماتت كاد تصل إلى الامعاء حتى تلاقى حتمها ، لأنها لا تجد هناك الاكسوجين الذي لا تعيش إلا به ، ولأن الجنود المجنسة من الميكروبات الصالحة تستحوذ على الغذاء ، فهنا خط دفاع أول وهو الجلد ، وخط دفاع ثان وهو العصير المعدى ، وخط دفاع ثالث وهو الامعاء المهلكة لهذه الأعداء ، فهذه الأعداء الداخلات في الجسم أشبه بالأمم الأوروبية لما اجتمعت كلها لإهلاك الأمة التركية وقتلها ، وتبديد شملها ، وقطع دابرها ، وكنم أنفاسها وإبادتها من الوجود ، فلم تتعد السواحل ، ولكن لما أرادت التوغل في البلاد بما أرسلت من عساكر اليونان من جهة ، والفرنسيين من جهة أخرى هلكوا ذبحا وقطيعا شديدا ، ورجعوا بجثثهم حين هلكوا هذه الجنود من الميكروبات لما دخلت الجسم ولم يهلكها العصير المعدى أهلكتها الامعاء بقلة الميرة الواصلة إليها وبجسبها في مكان مظلم لا هواء فيه فقطع أنفاسها فهلكت ولات حين مناص .

هذا ما كان من جهة الجيوش الجرارة الواصلة من الفم ، فاذا وصلت من طريق آخر وتكاثرت كأن وصلت بطريق جرح أو نحوه وتكاثرت بأى طريق كان فانها تتوغل في الجسم ، وتفتك بالخلايا الجسمية ، وتقطعها تقطيعا ، وتتغذى بالمواد الغذائية التي في الجسم ، فهناك يصل الخبر إلى بقية أجزاء الجسم ، فتأتي الجيوش من أطراف المملكة ، وتحاصر المكان ، وتقتل ما فيه من الميكروبات ، وهنا تكون القتل من الجيوش المهاجمة ، والجيوش المدافعة ، والخلايا التي وقعت في ساحة القتال ، فهذه كلها تصبح مادة سائلة صفراء يبنذها الجسم إلى الخارج ، وهذه العملية تراها في أمثال الدم ، فهو في أثناء حصار الجنود الجسمية للجنود المهاجمة من الميكروبات يبدأ نموه ، فاذا وقعت الواقعة ، وانتهت المعركة ، فهناك تكون المادة السائلة ، وهو القيح ، وهناك تقوم الجيوش الوطنية بعملية تجفيف الجرح وتنظيم المكان بعد أن تفتح الجلد بأن تأكل منه جزءا فيخرج القيح ، وهو رمم الأعداء ومن معهم ، هذه حال هذه المواقع الحربية .

ومن عجب أن الانسان اذا شاكته شوكة في يده مثلا أحس بعد مدة قصيرة أن هناك تحت إبطه وربما فما هو ذلك الورم ؟ وهل ذلك الورم إلا نكتة من نكتات الجنود الوطنية في الجسم التي اجتمعت لتهاجم الجيوش الجرارة التي اجتمعت لتطاردهم الأعداء الزاحفين على هذه المملكة من ذلك الجرح ، وقد يحصل للمريض حتى بسبب تعفن الأخلاط في الجسم ، وهذه الحمى إنما جعلت في الجسم لأن الأخلاط المتعفنة يعوزها حرارة ترتفع لتخلص منها وتدفع شرها ، ولو أن المريض كان من ذوى الإرادة القوية فلم يكثر من الطعام ، أو أكثر منه ولكنه جعل الجسم مترنا بما يفعله من التمزيقات العضلية ، أو المشى في الخلاء ، أو الجلوس في ضوء الشمس مع الاحتراس ، كما هو موضح في أول (سورة بونس) ، أو استحم بالبخار ، أو بلقاء الساخن أى بالكهرباء .

أقول : لو فعل المريض أحد هذه الأعمال لم يقع في الحمى ، فهنا حتى ودماغ وقروح وأورام غيرها ، فهذه كلها لم تكن في الجسم لا يذء الانسان ، بل لاصلاح جسمه ، وما هذه الآلام إلا مذكرات ، فهي سعادة لاشقاء ، ونعمة لا قيمة .

فلما سمع ذلك صاحبي . قال : أهذا نوع الكلام الذي يقوله ذلك الطبيب المصري في خطبته الآتى ذكرها ؟ قلت نعم ، ولكن الذي له إنما هي عناصر الموضوع ، فأما بناؤه فأنما هو من هيئة سير التفسير

ونظامه . فقال : أحب أن أسمع خطبته إذن بنصها . فقلت : سيأتي ذكرها قريبا إن شاء الله

إيضاح مختصر لجنود الله في الأرض

من قوله تعالى : ولله جنود السموات والأرض

وذلك ما قرأته في كتاب الترجمة في المدارس الثانوية ، ذلك أن الدم عبارة عن سائل لالون له ، وهذا السائل يحتوي على جراثيم صغيرة كثيرة يسمونها الخلايا ، وهذه الخلايا قسما : قسم أحمر وقسم أبيض ، وكلا القسمين في غاية الصغر ، حتى أننا لو أخذنا قطرة دم صغيرة (وهي لا تكون أكثر من جزء من ٣٠ ألفا من البوصة المربعة) وحللناها لوجدنا ما فيها من الخلايا الحمراء تبلغ خمسة ملايين خلية ، وما فيها من الخلايا البيضاء (٩) آلاف خلية ، ولا جرم أن القطرة المذكورة المحتوية على هذا العدد العظيم لا تعدو أن تكون قدر سن الإبرة لا غير ، فإذا كان هذا العدد العظيم لهذا المقدار فكيف في تلك الأبطال الكبيرة من أعداد هذه الخلايا ، ثم إن وظيفة الخلايا الحمراء تنقسم إلى قسمين : قسم هو جلب المصالح ، وقسم هو درء المفاسد ، فهي من الجهة الأولى أشبه بالعتالين والسيالين ، وأصحاب العربات والسيارات الذين يتلقون الواردات إلى المدينة ، وينقلونها إلى أطراف المملكة ، ومن الجهة الثانية أشبه بالزبالين والكناسين ورجال مصلحة البحري بمصر أولئك الذين يصرفون ما ينزل من البراز والمواد الضارة في مواسير تدفعه إلى الخارج دفعا للضرر عن السكان ، فهذه الخلايا الحمراء هكذا تصنع فهي تستقبل مادة الحياة السارية في الهواء المسماة بالأكسوجين فتحملها من الرئتين وتجري بها لتوصلها ، وتوزعها على أطراف المملكة بالسواء ، وهكذا متى فعلت ذلك رأت بقايا حاصلتها من الأنسجة بعد تفاعلها ضارا إبقاؤها بالجسم ، فهذه الخلايا الحمراء تحملها وترجع بها جارية جريا حثيثا حتى توصلها إلى الرئة وتعطيها للهواء الجوى ، فيقبلها وينبذها خارج الجسم ، ففرض أمر ذلك في المرأة إذا تنفسنا أمامها ، فيكون هناك مادة خفية على الزجاج تمنع رؤية صورنا ، وهذه المادة الفخمية هي التي نشأت من احتراق المواد الغذائية في الأنسجة ، فهذا كله أشبه بما تفعل في مدتنا من استقبال النافع ونبذ الضار . هذا ما كان من أمر الخلايا الحمراء ، وهي أيضا تعطى الدم لون الحمرة أما الخلايا البيضاء فإن منفعتها أشبه بالجنود المجتدة في المدن ، المدافعين عن البلاد ، الساكني السلاح ، الشجعان الجحاجيح ، الأمانيل العظام . فهؤلاء إذا وردت جيوش قتالة من الخارج ، وما أكثرها في الجوى ، وما أسرع وصولها إلى أجسامنا ، فإن هذه الجيوش البيضاء تقاها ، وتحمي حتى الديار ، وتحامي عن السكان ، وتحفظ البيضة ، وتقاوم الأبطال ، وبيان ذلك أنها تصطف صفوفها ، وتهجم على الجيوش القادمة ، وتحترق أجسامها ، وتكتم أنفاسها ، فتحترق أو تلقى عليها السم فتتموت ، هذا فعل الخلايا الحمراء والخلايا البيضاء .

فلما اطلع صاحبي على ذلك . قال : هذا قول جميل ، لاسيما أنه يقيني لأنك ترجمته من كتاب محترم في المدارس ، فليس يعقل أن يكون فيه خطأ ما ، ولكنني أريد أن أرى ذلك بعيني فليس الخبر كالعيان ، لأنني لو رأيت ذلك بعيني لكان ذلك من مضمون قوله تعالى : «سأوريكم آياتي فلا تستعجلون» وقوله أيضا : «ولتعلمن نبأه بعد حين» وقوله : «وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها» . فقلت أما إذا أردت ذلك فهناك نص ما قاله الدكتور ، وهو ما جاء في الكتاب السنوي الثاني للجمعية المصرية للثقافة العلمية ، فقد جاء فيه تحت العنوان التالي ما يأتي : —

المركة اليومية في الجسم البشرى

الوقاية الطبيعية للجسم

مقدمة . العدوى والمرض . المناعة . الميكروب وقوة أمراضه . العداء بين الجسم والميكروب . الميكروب في داخل الجسم . الخلايا البالغة . الحرب بين الميكروب والخلايا . الوقاية النوعية . الخلاصة

سادنى : لانزع في أن الأمراض المعدية من أهم الأخطار التي يتعرض لها جسم الانسان في حياته ، وتتأثر بها صحته وهي كما يعرفها كاسم تنشأ عن فعل كائنات حية دنيئة من مملكتى الحيوان والنبات ، ويطلق عليها الأطباء اسم الميكروبات ، وهذه الكائنات موجودة في كل مكان ، وفي جميع الأوساط التي تحيط بنا ، انها تعيش في الأرض ، وفي الماء ، وفي الهواء ، وعلى الأغشية المخاطية المبطنة لتجاويف البدن ، وخصوصا في الامعاء التي تعج بمختلف أنواعها ، وكذلك خارج الجسم على سطح الجلد .

وليست كل الميكروبات خطيرة على الانسان ، فبعضها لا يدخل إلى الجسم وهو على قيد الحياة ولكنه يتخطى حواجزه الطبيعية بعد الوفاة ، ويتكاثر في رفاته حتى يحوله إلى تراب ، ولكن بعضا منها يكبرن خطرا على الانسان ، وهو على قيد الحياة ، إذ يمكنه أن يخترق موانع الجسم وينفذ إلى داخله فينمو ويتكاثر على حساب المواد الغذائية الموجودة فيه ، على أنه ليس من الصعب أن تختب تلك الضيوف الثقيلة بالابتعاد عن مواطنها ، أو بإبادةها بواسطة التطهير أو التبخير ، أو بعزل الأصحاء عن المرضى ، ومهما يكن من أمر بعضها الذي لا يمكن تجنبه نظرا إلى وجوده في داخلنا أو حولنا ، فان لدينا من ظاهرات الوقاية الطبيعية ما يحول دون العدوى .

العدوى والمرض

ولكى يمكننا الوقوف على سر هذه الوقاية الطبيعية يجب علينا أن نعرف أولا ما هي العدوى ؟ فالعدوى هي عبارة عن الظاهرة التي تنشأ عن دخول الكائنات الحية الدنيئة في الجسم ، أما المرض نفسه أى إصابة الجسم بالعدوى فهو ما ينشأ عن وجود هذه الكائنات بذاتها ، وما تحدثه من نقت سموها فيه ، سواء أ كانت هذه السموم نتيجة إفرار هذه الكائنات مدة حياتها في الجسم ، أم نتيجة انحلال مادتها بعد موتها ، لذلك يجب أن نفرق بين العدوى في حد ذاتها وبين المرض ، أى بين دخول الميكروبات في أنسجة الجسم وبين إصابة الجسم من تأثير سموم هذه الميكروبات ، وتختلف الميكروبات باختلاف درجة سميتها ، فالميكروبات القليلة السموم يجب عليها أولا أن تتكاثر وتتوالد بدرجة كبيرة حتى يمكنها أن تؤثر على الجسم البشرى ، أما الميكروبات السامة جدا ، فان القليل منها يكفي للتأثير على الجسم ، ففي العدوى بالمرض الفمحي مثلا كثيرا ما ترى أن دماء الحيوانات المصابة بالحى ملأى بميكروبات المرض دون أن يظهر على الحيوان أى أعراض ، كذلك في ملاريا الطيور ، فكثيرا ما نلاحظ أن أغلب كريات الدم تحمل طفيليات المرض ، في حين أن الطير لا تبدو عليها أعراض المرض ، غير أننا نلاحظ من ناحية أخرى أن في مرض الكزاز ، أو التيتانوس الناشئ عن عدوى الجروح يكون عدد الميكروبات التي يمكن العثور عليها في بؤرة الإصابة قليلا جدا ، مع أن أعراض المرض تكون شديدة وقاسية لأبلغ حد .

أعود فألخص هذه الحقائق ، وهي أنه لا يكفي دخول الميكروبات في الجسم ، بل يجب أن تكون للميكروبات درجة سمية مخصوصة حتى يمكن للعدوى إحداث المرض ، أما الميكروبات القليلة السمية فانها تعاض عن هذا النقص بشدة توالدها في الجسم ، أو بما نسميه فوعتها .

أما الجسم البشري فإنه لسكى يمكنه أن يقاوم الميكروبات المرضية يجب عليه أن يبقى نفسه باحدى الطريقتين الآتيتين : — (أولا) أن يقاوم دخول الميكروبات فيه (ثانيا) أن يبقى نفسه سمومها ، أو يبطل مفعولها ، أو يجعل نموها عسيرا ، إذا هجز عن مقاومة دخولها .
فالعُدوى وظاهرة التسمم من جانب الميكروبات ، والمقاومة ، وإبطال سمومها من جانب الجسم هي العوامل التي يترتب عليها ظهور المرض ، أو عدم ظهوره ، وقد تكفى مقاومة الجسم للعُدوى إلا أن هناك ما يساعدها في مهمتها ألا وهي المناعة .

المناعة

وهذه المناعة إما طبيعية وراثية ، أو جنسية ، أو مناعة فردية . فالحيوانات ليست كلها عرضة للأمراض بدرجة واحدة ، فمثلا الأمراض الطفحية التي تصيب الانسان كالخصبة والحجى القرمزية لا تصيب باقي الحيوانات كذلك بعض أمراض الحيوان كالطاعون البقري ، أو كوليرا الخنازير ، فلها لا تصيب الانسان ولكنها تصيب الحيوان ، وذلك لأن أنواع الحيوانات تمتاز بمناعة خاصة ، وهذا النوع هو الذي يطلق عليه اسم المناعة الطبيعية الوراثية ضد بعض الأمراض ، كذلك هناك ما يسمى بمناعة الأجناس ، فمثلا الحجى القرمزية لا تصيب الأجناس ذوى البشرة السوداء إلا نادرا بخلاف الجنس الأبيض فهو شديد الاستعداد للعُدوى بهذا المرض ، وكما أن للأُنوع والأجناس أحيانا مناعة ، كذلك توجد لبعض الأفراد مناعة ضد بعض الأمراض وكلنا نعرفها ونشاهدها يوميا ، فن منكم لا بد كرسنة ١٩١٩ م لما انتشرت الانفلوزا الخبيثة التي أطلق عليها اسم « الحجى الاسبانيولية » وكيف انها كانت تصيب بعض أفراد في بيت واحد ، وتترك البعض الآخر رغما عن تعرضهم للرض واتصالهم المباشر بالصابين به ، ومن منكم لا يشاهد في أولاده أو أقربائه أن بعضا من الأطفال يصاب بالسعال الديكي ، أو الجدري الكاذب ، والبعض الآخر يبقى سائما رغم تعرضه للعُدوى بميكروبات هذه الأنواع .

بيد أن هذه المناعة للأفراد ، والتي نسميها المناعة الفردية ليست مطلقة كما هو الحال في مناعة الأنواع والأجناس ، بل هي مناعة نسبية قد تختلف باختلاف الظروف والطوارئ ، أو بعبارة أخرى انها مناعة تتوقف على الاستعداد الشخصي للرض ، أو وقوة مقاومته له ، تلك المقاومة التي تتأثر بعوامل خارجية كثيرة كالتعرض لدرجة الحرارة ، أو لتأثير الجوع ، أو التعب . هذا في الجسم البشري ، ولتعد بعدئذ إلى ناحية الميكروب :

الميكروب وقوة أمراضه

وكما أن الجسم له استهدافه ومقاومته كذلك الميكروب له أيضا استهدافه ومقاومته ، فبعض الميكروبات لا يمكنها أن تتكاثر في جسم الحيوان لعدم ملاءمة حرارته الطبيعية لنموها مثلا كالميكروبات المرض الفحوى ، فانها لا تتكاثر في جسم الدجاج ، أو الضفادع ، لارتفاع درجة الحرارة في جسم الأولى وانخفاضها في جسم الثانية ، ولكنها تنمو وتتكاثر اذا خفضت درجة الحرارة في الأولى بفقس أرجلها في الماء البارد ، ورنعت الحرارة في الثانية بوضعها في أفران التفرج ، كذلك سلالات الميكروبات تختلف فيما بينها من حيث قوة أمراضها ، فهي قد تضعف في حداثها اذا عاشت في ظروف غير مناسبة لها ، وقد تزيد اذا لامها الوسط الذي تعيش فيه إلى غير ذلك مما لا يريد أن نتعرض له في كلامنا الآن خشية أن يطول بنا البحث ونبعد عن موضوعنا ، وانما أردت فقط أن أبين لكم ماهية العُدوى وما يتبعها من عوامل ومؤثرات . ودعوني الآن أن أنتقل بكم إلى موضوع محاضرتي هذه وهو شرح تلك العداوة الكامنة بين الجسم والميكروب :

العداوة بين الجسم والميكروب

الجسم والميكروب يحكم تنازع البقاء عدواناً لدودان ، كل يطلب الحياة لنفسه دون غيره ، مهما كان ذلك من عناء أو تضحية ، وهو لا يتعفف في سبيل ذلك أن يفرغ مافي جعبته من قوة لآبادة الآخر ، كلاهما يتسلح بما وهبته الطبيعة من وسائل القتال أو المقاومة لكي يفوز بالنصر في آخر الأمر ، تلك سنة حياتهما كما هو الحال مع باقي أمم العالم سواء بسواء .

والجسم الانساني يشبه في تكوينه وترتيبه ونظامه لإحدى ممالك العالم ، لأنه مكون من خلايا أشبه بالكائنات الحية ، فلا حرج علينا إذن إذا استعملنا اصطلاح « مملكة الجسم البشري » عند الكلام على دفاع الجسم ضد العدوى ، وكما أن لكل مملكة حدودها الطبيعية من جبال وسواحل بحرية وجيوش تعباً ، ووسائل متنوعة لصد العدو ، أو الفتك به ، كذلك مملكة الجسم لها حدودها الطبيعية التي تفصلها عن عالم الكائنات الأخرى ، ولها وسائلها في الكفاح والقتال ، فالحدود الطبيعية في مملكة الجسم هي الجلد مع ما ينبع من البشرة القرنية ، والغدد الشحمية ، والغشاء المخاطي الذي يبطن التجاويف الأنفية والحلقية ، والمسالك الرئوية ، والقناة الهضمية .

فالجلد هو ذلك السور الذي يشبه في أهميته ما كان لسور « بكيين » بالصين من أهمية في صد غارات الأعداء عليها ، بل هو الدرع الذي تنساقط تحته قنابل العدو عاجزة عن تخطيه ، ونحن إذا خصنا تلك الطبقة التي تغطي وتحمي كل جزء في جسم الانسان ، وجدنا على سطحها أنواعاً لاتحصى من الميكروبات . منها العاطلة . ومنها المرضية كيميكروبات النقيح الصديدي ، وهذه الميكروبات وغيرها من الميكروبات الخبيثة (كيميكروب الدرر أو الكزاز) لا يمكنها أن تنفذ من ذلك الدرع القوي طالما لا يوجد فيه أية ثغرة تنسرب منها إلى داخل البدن ، وهذه القوة الدفاعية الخاصة بالجلد ليست قوة ميكانيكية حسب ، بل هي تتوقف أيضاً على بعض عوامل أخرى تنصل بها ، فهناك مثلاً العرق المعروف بمحوضته التي لاتلأم حياة الميكروبات وخصوصاً الميكروبات المرضية ، وهناك حركة التجديد المستمر في الطبقات السطحية للجلد حيث يقذف هذه الأجزاء أولاً بأول ، فيزيل باستمرار ما يجمع عليه من كائنات حية ، خصوصاً إذا ساعدناه في أداء مهمته بإتباع ما وصلنا إليه من تعاليم النظافة والتجميل ، فأعطيناه حقه من الغسيل والاستحمام .

الميكروب في داخل الجسم

وليت الأمر يقتصر على ذلك ، فإن جسم الانسان أو الحيوان وهو ينفس أويأكل أو يشرب يجتذب إلى داخله هذه الأعداء ، عند ما تكون معلقة في الهواء ، أو منبثة في الغذاء ، أو سابحة في المشرروبات . (وبعبارة أخرى) تنصل هذه الميكروبات مباشرة بالغشاء المخاطي للقم والحلق والمعدة والامعاء وأعضاء التنفس ، ولو أن الغشاء المخاطي بطبيعته أقل مقاومة لهجوم الميكروبات من الجلد إلا أنه يمتاز عنه بأن به مادة مخاطية يفرزها ، وهذه المادة اللزجة التي كثيراً ما نعاينها أنفنا لها مهمة جلية في قنص الميكروبات كما يقنص ورق الصمغ الذباب ، ثم بعد قنصها تطردها إلى خارج الجسم بواسطة العطس ، أو البصق ، أو السعال ، أو المخط ، ولشيء آيين لكم شأن هذه المواد المخاطية في طرد الأجسام الغريبة إلى الخارج أذكر لكم أن العلامة (هيس) لاحظ أن العامل الذي يشتغل عشر ساعات يومياً في الأسمنت يستنشق في السنة ما يقدر بـ ٣٠٠ جرام من هذا التراب ، فإذا استمر في عمله هذا عشرين عاماً يجب أن يكون قد استنشق نحو

سته كيلوجرامات من الأسمت أودعت في جوفه كلها ، اللهم إلا اذا تخلص منها بواسطة العطس أو البق كما ذكرنا ، وعلى هذا القياس يمكنكم أن تمشوروا للقدر الكبير من الأجسام الغريبة التي يمكن أن يتخلص منها الجسم بواسطة أغشيته المخاطية وعملها العجيب . وليست وظيفة الغشاء المخاطي وظيفة ميكانيكية ، بل ان له أيضا قوة خاصة في إبادة الميكروبات ، فقد دللنا الاختبارات على أن مخاط الأنف ، ودموع العينين ، لها هذه القوة ، لاحتوائها على نوع من الجائر ، تسمى الجائر المحلّة « ليزوزيمات » تذيب وتحلّ الميكروبات فتقتلها اذا ما اختلطت بها ، ورغمنا من وجود هذين الجائزين : المخاط والجائر ، فقد تصل الميكروبات مع ذلك إلى القصبة الهوائية وشعبها ، ولكنها لا تبلغ إلى الرئة نظرا لوجود خط آخر من خطوط الدفاع يقف حائلا في طريقها ، ذلك الحائل هو الأهداب الموجودة على سطح الغشاء المخاطي لهذا الجزء من الجهاز التنفسي ذات الحركة الدائمة من أسفل إلى أعلى أي إلى جهة الفم ، طاردة بذلك كل ما يكون قد بلغها من أجسام غريبة ، أو كائنات مؤذية . أما اذا دخلت الميكروبات مع الأكل إلى المعدة فاتتها تلتقي هناك بالعصير المعدي الذي يحتوي حامض ايدروكلوريك بنسبة ١ إلى ٢ في الألف ، وتلك النسبة كافية غالبا لقتل الميكروبات المرضية ، غير أنه يعوق عمل هذا الحامض (أولا) إن الميكروبات تكون غالبا مغطاة بمجزيئات الطعام التي تحول بينها وبينه (وثانيا) ان المعدة قد تكون سريعة العمل في اخراج ما بها إلى الامعاء ، فتمرّ الميكروبات بها سراعا قبل أن تقع تحت تأثير عصيرها المطهر ، ولشي أثبت لحضراتكم قوة العصير المعدي في قتل الميكروبات أذكر تلك التجربة المشهورة في تاريخ علم البكتريا التي قام بها العلامة (بيتينكوف) وتلميذه (ايمريخ) التي أرادا بها أن يثبتا تأثير جراثيم الكوليرا على معدة سليمة وأخرى مريضة ، فتناول أولهما عدة سنتيمترات مكعبة من مزرعة الميكروبات في المرق ، أي أنه تناول آلاف الملايين من الميكروبات ومع ذلك لم تظهر عليه أي أعراض مرضية مطلقا ، أما تلميذه الذي لم تكن معدته صحيحة كعدة أستاذة فانه أصيب بكوليرا حقيقية ، وكاد باقي حنقه ، وهذا يدلّكم على المهمة الخطيرة لهذا العصير .

بقي أن نعرف ما يحدث اذا ما وصلت ميكروبات الأمراض إلى الامعاء ؟ وهنا أيضا نجد نفسها أمام عقبات وتهدد حياتها عدة أخطار ، فأولا عدم ملاءمة الجرح هناك لمعيشتها ، ففي الامعاء لا يوجد غاز الاكسوجين ، وهو ذلك العنصر الحيوي لغالبية الميكروبات المرضية والتي لا يمكنها أن تعيش بدونه ، وثانيا التزاحم الذي نلاقه من الميكروبات الحيدة التي تنحيا وتعيش في هذا الجزء من الجسم ، ففي الامعاء يعيش دائما ميكروب هادي* وديع سالم يسمى (ميكروب القولون) يعيش من فضلات التغذية كما أنه يقوم بدور ليس بالضئيل في عملية الهضم ، وهذا الميكروب يحكم حيويته بحرم الميكروبات المرضية من غذائها ، فيحرمها بالتالي سبيل الحياة . بل هو يعمل أكثر من ذلك ، لأنه يمنعها من النمو والتكاثر بما يفرزه من مستحضات وفضلات . إن هذه الحقائق التي ذكرتها إن هي إلا صورة من الموانع الطبيعية التي تقي مملكة الجسم البشري ، ولكن الخطر الحقيقي يحدث اذا ما اخترق العدو الحدود ووطأت قدمه أرض هذه المملكة ، هل يسلم أهل البلاد ويلقون سلاحهم أمامه يا ترى ؟ أم هناك أسلحة أخرى يدافعون بها عن كيانهم وحياتهم ؟ ذلك ما سأرضعه لحضراتكم فيما يجيء من الكلام :

الخلايا البالمة

إن الجسم البشري ككل الكائنات الحية ، يخضع لقوانين الطبيعة ، وكل كائن حي يعمل لحلّ وهضم كل ما يدخل إليه من مواد عضوية أو غير عضوية ، وذلك بواسطة عملية الهضم وتحويل هذه المواد الغريبة إلى أخرى تدخل في تركيبه أو بنيانه ، هذه العملية تشاهد في أبسط صورها في الحيوانات المركبة من خلية

واحدة ، وهي التي نسميها « الاميبا » فهذه الاميبات تزحف بواسطة أرجل تطلق عليها « الأرجل الكاذبة » لتجد في البحث عن غذائها المكوّن من الميكروبات والطحالب ، فتأخذها في داخلها وتهضمها . ولما كانت عملية الاغذاء هذه قاصرة على الالتهام فالبلع ، فقد أطلقنا عليها اسم الخلايا البالعة ، أو البلعمات ، كما اننا أطلقنا على هذه العملية اسم « البلعمة » .

وليست عملية البلعمة قاصرة فقط على هذه الحيوانات الدنيئة ، بل يكاد يكون في كل حيوان بعض من الخلايا مازال محافظا على هذه الخاصية ، فثلا توجد في جسم الانسان خلايا الدم البيضاء ، والخلايا المبطننة لتجاويف البطن والسدر والأوعية الدموية والليمفاوية ، وهي خلايا لها قدرة على التهام وبلع الأجسام الغريبة وهضمها . أما وقد عرفنا أنه يوجد بالجسم خلايا لها قوّة بلع المواد الغريبة عنه ، فلنعد الآن إلى نقطة دخول الميكروبات إلى الجسم .

دعونا إذن تصوّر أن واحدا منا قد وخزته إبرة ، فإذا كانت الابرة نظيفة فإن الانسان يشعر فقط بالألم الوقتي ، ومن ثم يلتئم الجرح ، وينتهي الأمر ، ولكن الحال تختلف اذا كانت ملوثة تحمل بعض الميكروبات التي قدر لها أن تنفذ من الجلد داخل البدن ، فلو كانت هذه من الميكروبات العاطلة الرمامة التي تتغذى على المتخلفات النباتية ، أو الحيوانية طان الأمر ، لأنها تموت أو تتحلل بواسطة خلايا الجسم الحية ، أما لو كانت هذه الميكروبات المرضية التي تسدّق الدم وتسمّره ، وتعرّف حلاوة ما يحتويه البدن من محاسن الغذاء فاستطابته ، وتعنتت عن غيره من الطعام ، نقول لو كانت كذلك لكان لها شأن آخر ، إذ لا يمكن لخلايا الجسم أن تتخلص منها بسهولة ، لأنها تتميز عن تلك بسمومها التي تهاجم بها الخلايا فتعطّلها وتشاها عن القيام بواجبها .

الحرب بين الميكروب والخلايا

وصل بنا الحديث إلى أن الميكروبات ، وهي أعداء الجسم قد تمكنت من اختراق الحواجز الأمامية والاستقرار في الجسم ، ولم يبق أمام قوّة الدفاع وهي الخلايا إلا أن تمنشق حسامها ، وتخوض غمار حرب ضروس لا رحمة فيها ولا شفقة ، حرب للحياة أو للموت ، لا تختلف في معدّاتها وآلاتها عن حرب الجيوش البشرية كما أن جنودها لا تنقصهم آيات البطولة والتضحية ، والآن اسمحوالى أن أروى لكم قصتها كما نراها تحت الميكروسكوب :

تدخل الميكروبات مملكة الجسم ، فتجد نفسها في أرض جديدة غريبة عنها ، فتجمع أمرها ، وتلم شملها ، ثم تسلط على الخلايا المجاورة لها تبرز منها غذاءها ، ثم تنسكتر على طريقها بالانطلاق إلى اثنتين ثم أربع وهمّ جراً ، وبعد ذلك الاستعداد لتبديء في هجوها ، فتنتف من أجسامها سما قاتلا ترمى به أفراد المنطقة التي احتلتها ، واذ ذاك لا نستطيع الخلايا أن تقف مكتوفة اليدين ، بل تعتمد على الفور إلى الدفاع عن نفسها ، فتقنف عليها سيلان المصل الدموي ، يهوّن من فعل هذا السم ، ويخفف من حدته ، ثم تنجلى المعركة الأولى عن قتلى وأشلاء من خلايا الجسم ، ثم تتحلل هذه الأشياء إلى عناصرها الأولية كما يتحلل كل شيء عند مماته ، وتحملها مياه الوطن إلى كل جهة من جهاتها كأنها نذير بالخطر الذي يهدّده ، وبالكارثة التي حلت به ، ولانلبث أن نرى الحماة تخرج من معانلها ، وما تلك الحماة ؟ وما هؤلاء الجنود ؟ إلا الخلايا البيضاء ، أو البلعمات التي ذكرناها ، والتي يقع عليها عبء الدفاع عن أرض الوطن ، إذ لا يمضي زمن طويل حتى تمتد الأوردة الشعرية فتزبد كمية الدم صوب المنطقة المصابة ، وعند ما تصل البلعمات السابحة في مجرى الدم إلى تلك المنطقة تنتقل إليها وتدخل ميدان القتال زاحفة كما تزحف الاميبا ، فرادى في أول الأمر ، ثم

جماعات بالثبات وباللوف ، وعندئذ تصبح الحرب سجلا ، فايكروبات تنفث سمومها ، والجسم يعرقل عملها بسيل من المصل ، فتنتفخ المنطقة المصابة وتحمّر ، وذلك ما تعرفونه بالالتهاب ، ثم تقترب البلعمات رويدا رويدا من العدو ، وتأتيه من أمامه ومن خلفه ، ومن الجناحين ، وتحوطه من كل النواحي ، ثم يأتيها المدد من آن لآخر ، فتزداد عددا ، وتشتد حصارا عليه ، ثم تبني سورا منيعا حوله يفصله عن باقي الجسم ، والى هنا تكون قد انتهت المناوشات والمناورات ، وتبتدىء بعدئذ المجزرة البشرية ، فتتقدم كل بلعمة إلى الميكروب الذي أمامها تطبق عليه بجسدها حتى تبتلعه في جوهرها لتقلبه ، وقد ينجح الكثير من هذه البلعمات في قتاله وقد يموت البعض شهيد الواجب ، ولكن العدو لا يستسلم لليأس ، ولا يسلم بسهولة ، بل يعود إلى تنظيم صفوفه من جديد بعد أن يملأها بمحاربين آخرين ، بدل العشرة مائة ، وبدل المائة ألفا ، هذا من ناحية الميكروب ، أما من ناحية الخلايا فانها أيضا تصلها النجدة والمدد ، وتستأنف المعركة من جديد على أقصى ما يكون من الشدة ، ولكن إلى متى تستمر فرق الجيوش بعضها أمام بعض تتطاحن وتتقاتل : بل إلى متى تنحمل المملكة هذه الحرب ؟ لا يمكن أن تستمر الحال طويلا ، واذن لامندوحة عن التعبئة العامة لكل محارب ، وكل من يمكنه حمل السلاح .

الآن نهرع كل بلعمات الهم إلى القتال على جناح السرعة ، ويخرج الرديف منهم والمخزون في مستودعات الطحال ونخاع العظام إلى ميدان القتال ، وهنا نسمع دقات ناقوس الخطر « الجسم في حنى »
لقد حشد الجسم الآن آخر رجل في تكفاته للقيام بأخر مجهود ، فاما نصر ، واما هزيمة ، وهل يتم له النصر ؟ من يدري ربما كان كذلك ، لأن العدو وان كان قد زاد عددا إلا أنه لم يتوغل كثيرا في أرض الوطن ، بل أصبح محاصرا في مكانه ، واذا كانت مملكة الجسم قد جرت حرب الخنادق ولم تقلح فيها كثيرا فلم يبق بد من تغيير خطة الحرب كما يفعل كل قائد ماهر في مثل هذه الأحوال .

الآن تبتدىء المملكة في تضحية جزء منها لكي يسلم المجموع ، ومن ثم يقع تنفيذ هذه المهمة على عاتق البلعمات أيضا ، فهي تبتدىء في اتلاف النسبج المصاب أولا بقتل الخلايا وثانيا بضمها وتحويها إلى عسيده سائلة ، فينشأ عنه تجويف يملؤه بهذا السائل ، أو تعلمون ماهو هذا التجويف ؟ هو الخراج الذي يظهر في موضع حصار الميكروبات ، والسائل هو ذلك الصديد الأضر المكوّن من أنسجة مهضومة ، وآلاف من البلعمات وملايين من الميكروبات ، ثم يأخذ هذا الخراج في الازدياد ، وكلما ازداد حجما كلما صار أليّن وأميع حتى اذا لمس أحسن الانسان بترجيع السائل فيه ، وليت عمل البلعمات يقف عند هذا الحد بل انها تتجه صوب الجلد فتلتفه وتهضمه من أسفل حتى ترقق طبقته وتحدث ثغرة فيه فيندفع الصديد إلى الخارج ومعها الميكروبات .

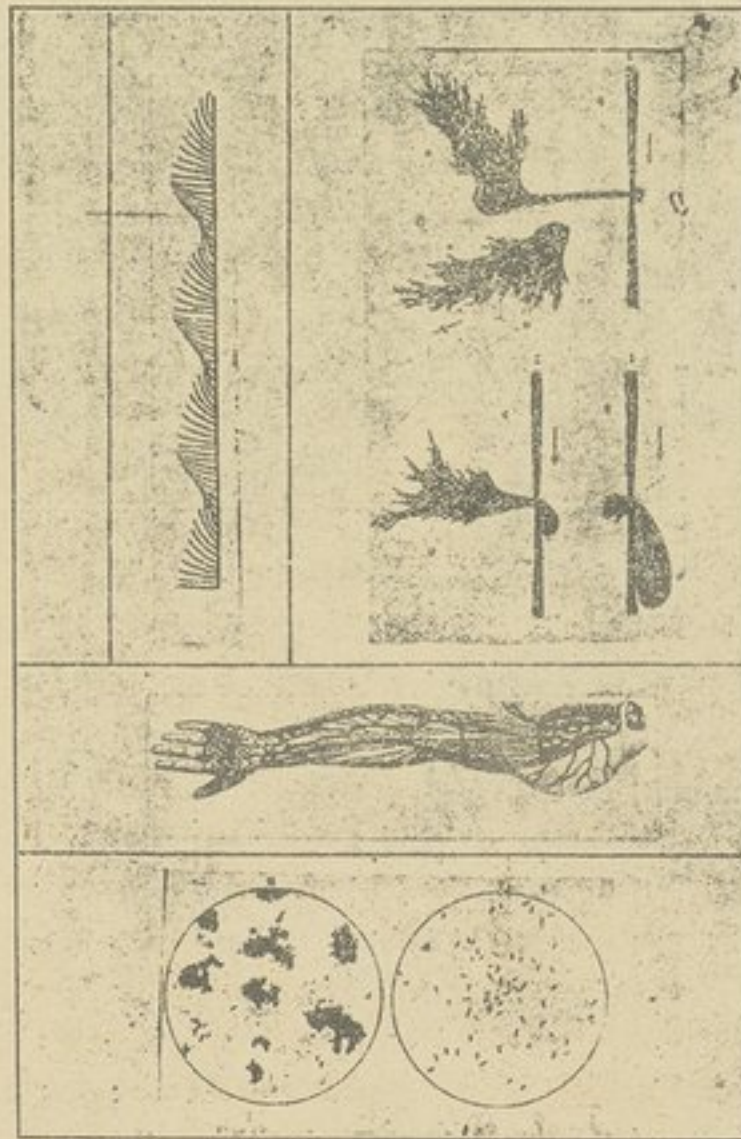
الآن والآن فقط قد طرد العدو خارج المملكة بعد معركة حامية كان النصر فيها غالبا ، لقد كفها ثمنا غالبا وتضحيات في أفرادها ، ولكن يهون كل ذلك مادامت المملكة قد أقنعت ، وهنا يهدأ بال الجسم على مصبره وكيانه ولكن البلعمات هؤلاء الجاه الأشداء لا يهدأ لهن بال وفي الجسم جراح فيعمدن إلى عملية الاندمال لأنهن أبناء المملكة البررة وعدتها في الحوادث والملمات ، ويجب عليهن أن يطهرن ميدان القتال من جثث أعدائها ، ومن أشلاء مواطنيها ، حتى يمكن للجلد أن يتجدد ويسد الثغرة ، ويكون ذلك بأحداث ندبة تبقى على عمر السنين والأعوام كمنصب نذكارى يبنى بمكان المعركة والنصر الذي فاز به الجسم ضد أعدائه المغيرين .

سادنى : عند ما وصفت لكم المعركة الأولى قلت لكم : ان البلعمات تقترب رويدا رويدا من العدو ، وتأتيه من أمامه ومن خلفه ، ومن الجناحين ، وتحوطه من كل النواحي ، وتحاصره إلى أن تبني من نفسها

سورا منيعا حوله ، يفصله عن باقي الجسم ، ولكنه قد يحدث أن يكون العدو من شدة البأس والقوة ما يمكنه من أن يحطم جزءا من هذا السور وتفسد بعض جنوده داخل المملكة ، فما العمل إذن ؟ هل تتركه المملكة يفسد في أحشائها فيبعث في البلاد فسادا يودي بحياة كل من يقابله في طريقه من الأحياء ؟ أم هل اتخذت المملكة أهبتها مثل تلك الكوارث ؟ نعم انها لم تكن غافلة عن ذلك منذ نشأتها ، لأن في داخليتها حصونا وقلاعاً ملاءى بالجيوش على أتم استعداد لمثل هذا اليوم العسير ، وتلك الحصون والقلاع هي الغدد الليمفاوية ، فإذا ما اخترق العدو جوانبها الطبيعية ، وتخطى خط الدفاع الأول فان مجارى الليمفا تحملها إليها فيلحق حتفه فيها ، وذلك لأنها عبارة عن نكات ملاءى بالبلععات المقاتلة .

وبوضع لك أيها الذكي ما تقدم ما تراه في هذه الصفحة في (شكل ١ و ٢) فانظره ترى الجب الجب ا

وهالك صورته :



عين — — حركة الأهداب التوجيهية . (عت) : شكل البلمبات لدى خروجها من الأوعية الشعرية
وسط : الغدد والجاري الليمفاوية — يسار : تجميع الميكروبات بواسطة اللزونات



(شكل ٢)

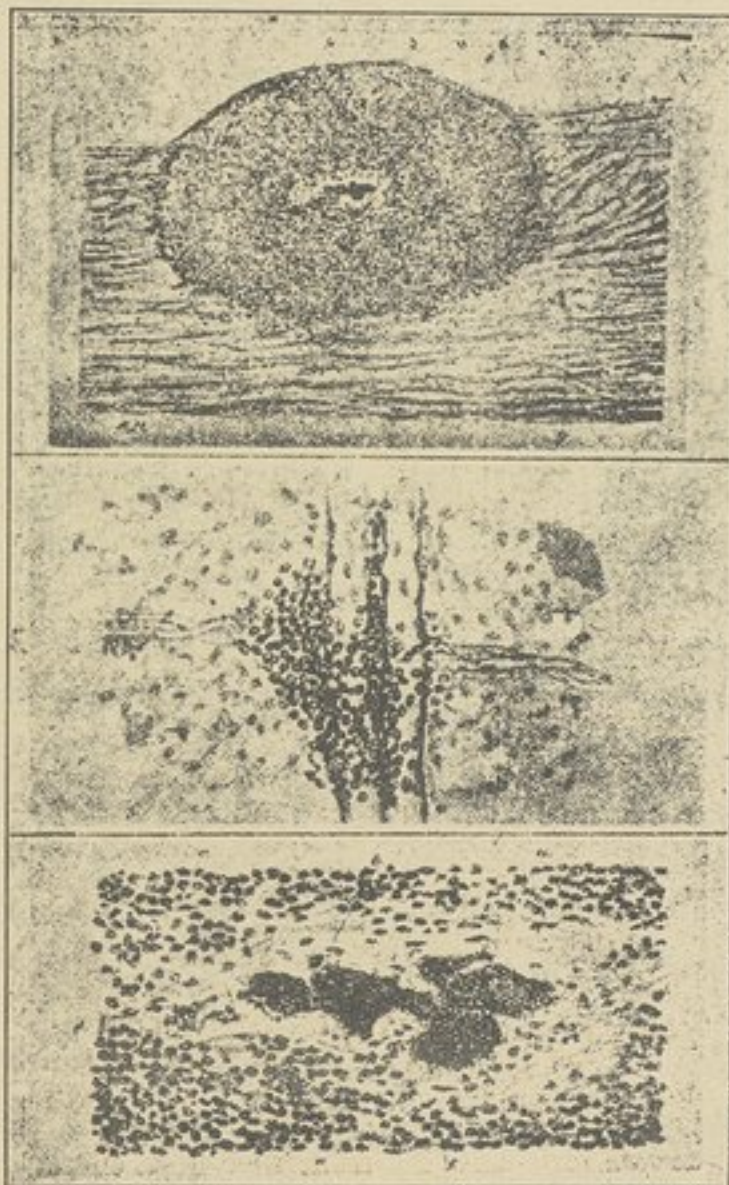
- فوق : تمدد الأوعية وابتداء انتقال البلعمات إلى المنطقة المطلوبة .
 وسط : شكل الأميبا .
 تحت : الخلايا الهدبية المبطننة لتقصبه الهوائية .

ولسكى أقرب ذلك إلى التفهم أقول : إن أغلبكم يعلم أنه عند حدوث بعض الجروح في اليد ، أو النزاع ، ينشأ عن ذلك ورم صغير مؤلم تحت الأبط ، وما ذلك الورم الصغير إلا عبارة عن غدد لمخفاوية تنهي نفسها للدفاع عن الجسم فتملأه بالبلعيمات التي تقف في سبيل الميكروبات المعيرة عليه .

ولكن قد يحدث أن العدو بفضل قوته وضعف مقاوميه قد يتخطى أيضا خط الدفاع الثاني كما يحدث أحيانا في الحروب العادية ، أى أن القلاع (أى الغدد الليمفاوية) لا تقوى على صد غارات الأعداء المهاجمة فإذا يكون العمل بعد أن أصبح العدو الآن حرا طليقا في حركاته ، لا جنود أمامه مقاتله ، ولا حصون ترفقه ؟ بل هو ينساب في البلاد ، سائرا في طرقها الرئيسية ، أى في الأوعية الدموية ، ملتصقا بالغذاء والحياة لينمو ويتكاثر فيها ، إذن الويل ثم الويل لهذه المملكة البائسة التي تصبح فترى أن في كل زاوية من زواياها ، وفي كل مقاطعة من مقاطعاتها أجنينا يذيقها الهلاك والردى .

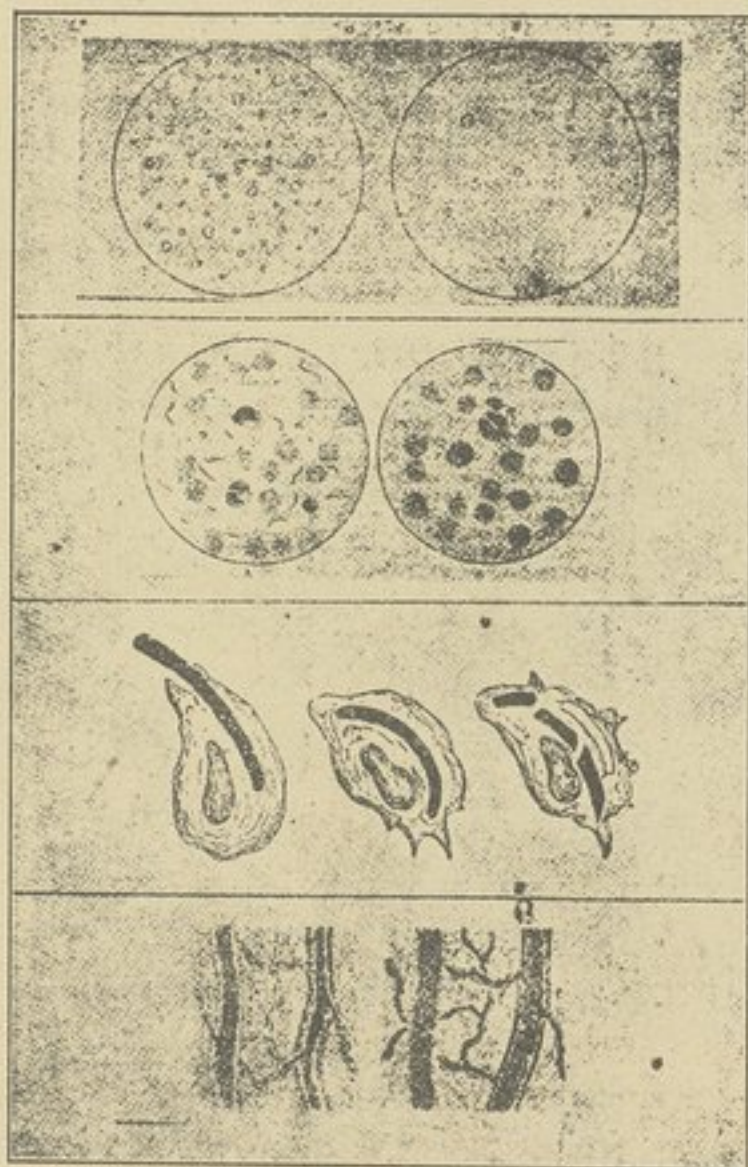
وإذا كان هذا هو الحال في ممالك الأمم فليس هو كذلك في مملكة الجسم البشرى القوية المنظمة ، وما ذلك إلا لأنه لم ينضب بعد معين دفاعها ، وما زالت تحتفظ بوسائل أخرى للدفاع ، إن في دمها الذي يجري من فة رأسها إلى أخمص قدمها ، ومن طرفها الأيمن إلى طرفها الأيسر من الوسائل ما هو أشد قوة وأكثر فعلا من الوسائل الأخرى التي شاهدناها إلى الآن ، وهذه الوسائل المدخرة للأيام العصيبة أى عند ما يتسمم الدم وتفسخ الزيران فيه . قلت انهم ، والأحرى بنا أن نقول مصال الدم أى ذلك الجزء المانع منه الذي يمكن فصله بعد تخرجه من الجلطة الدموية ، إن هذا المصل الذي يحتوي على مواد مهلكة تبديد الميكروبات سماها العلامة (بوخغر) الذي كان أول مكتشف لها ، والتي يمكن أن يعبر عنها بالعربية « بالمواد الداحرة » وبالطبع لا يمكننا مشاهدة عملية قتل الميكروبات كما نشاهد ظاهرة البلعيمات تحت الميكروسكوب ، ولكن يمكن تتبعها بواسطة التجربة ، وذلك أنه إذا أخذنا جزءا من المصل الدموي ، وأضفنا إليه قليلا من الميكروبات الحية ، ثم أخذنا من هذا الخليط نماذج في فترات متعددة وزرعناها على البيئات الملائمة لنمحوها الميكروبات رأينا أن عدد الميكروبات النامية على المسنبت يقل شيئا فشيئا حتى ينتهي الأمر إلى عدم العثور عليها ، لأنها تكون قد ماتت وأبيدت من جراء تأثير المصل عليها ، كذلك توجد في المصل مواد أخرى أقل فعلا من المواد الداحرة ، فهي لانهلك الميكروبات وقتلها ، ولكنها تسهل حركتها فقط ، وتجمعهما على بعضها كتلاكتلا مانعة إياها من المرح داخل البدن ، وفي الوقت نفسه تسهل للبلعيمات إلتهاهما وتدميرها ، هذه المواد هي التي اكتشفها كل من « جروربر » و « درهلم » ويطلق عليها اسم « الاجلوتينات » أو « الملزقات » سادنى : إلى هنا قد وصل بنا البحث إلى أن وقاية الجسم ضد غارات الميكروبات هي وقاية خلوية خلطية ، أى انها وقاية تستند إلى فعل الخلايا الأكلة ، أو البلعيمات ، وإلى أخلاط البدن ، أو المصل الدموي . (وترى في الشكاين الآتين في الصفحتين التاليتين وهما شكل ٣ و ٤ ما يوضح لك هذا المقام) . ببقى أن تحدث قليلا عن الوقاية النوعية ،





(شكل ٣)

- فوق : اتجاه البلعمات نحو الجلد لضممه .
 وسط : خروج البلعمات إلى ميدان القتال .
 تحت : البلعمات تحاصر الميكروبات .



(شكل ٤)

- فوق : إبادة الميكروبات بالمواد الداخرة .
 تحته : إتهام البلعمات لليمكروبات .
 تحته : إتهام البلعمات لليمكروبات .
 تحت : البلعمات لدى خروجها من الأوعية الشعرية .

الوقاية النوعية

إن البدن لا يقف حيال العدوى عند حد الاستعانة بوسائله الطبيعية في مكافحتها ، بل هو قادر أيضا على تجديد ما فقد من المواد الواقية ومن البلعمات المسكخة التي تكون قد سقطت في ساحة القتال أثناء الدفاع ولكن عملية التجديد هذه لا تقف عند حد الاستعاضة بحسب ، بل انها تنزع في العادة إلى التعويض المفرط ، وانه لمن أعجب النظم في الكائنات الحية ما نشاهده فيها عند مقاومتها للعدوى كيف انها تتعلم أن تقاوم بنوع خاص صنف هذه العدوى ، فمثلا اذا كانت العدوى حى تيفودية وجه البدن كل قواه إلى تحضير المواد الواقية ضد ميكروب التيفود ، وان كانت العدوى كوليبرا مثلا قام البدن بتحضير المواد الواقية ضد ضيات الهيضة الأسيوية وهكذا دواليك أى أن الوقاية تصبح كما يعبر عنها وقاية نوعية .

سادنى : لقد حاولت أن أبسط لكم اليوم بطريقة سهلة كيف يحافظ الجسم على كيبانه من غارات الميكروبات وسمومها ، ولست أخفى عنكم انها محارلة ناقصة ، إذ يضيق في المجال لوذكرت لكم كل الحقائق التي أظهرتها الأبحاث العويصة ، والتجارب العلمية ، التي أجريت في السنوات الأخيرة على مقاومة الجسم للأمراض ، ولكن يكفي أن تعلموا أن البدن يدافع بنفسه عن نفسه .

الخلاصة

والخلاصة أننا حقا مديونون إلى مقاومة وقدرة خلايا الجسم ، وبالحرى إلى الخلايا الأكلة (البلعمات) في الدفاع ضد الميكروبات وسمومها القتالة ، وهذه الخلايا لا تقوم بعملها الجليل الذي وصفناه إلا لأن تلك هي وظيفتها التي اختصت بها بين أفراد مملكة الجسم البشرى ، ولولا هذه الاداة الواقية لاندثرت البشرية منذ زمن طويل .

ولقد عرفتم الآن كيف أن الجسم يبني في حياته اليومية الملايين من الميكروبات دون أن نشعر بذلك ودون أن يعلن عن نفسه ، أو يفتخر بعمله ، انه في حرب صباح مساء مع أعدائه ، مضحيا بالآلاف من أفراد في سبيل الحياة ، واكننى أشعر أنكم تنسألون فيما بينكم قائلين : اذا كان الأمر كذلك فلماذا إذن تحدث الأمراض المعدية بكثرة ؟ ولماذا نقتاب الانسان الأوبئة بين حين وآخر ؟ والجواب على ذلك هو أنه في بعض الأحيان يكون هجوم الميكروبات بشدة وقسوة بحيث يخر الجسم فريسة أمامها قبل أن تأتبه النجدة من جنوده ، على أنه اذا كان هناك سبب آخر يجب أن تعرفوه وتتحذروا الحيلة له فذلك السبب هو تقصير الجنود ، ونقص مهمات الدفاع والكفاح ، والمعروف أن نقص وسائل الدفاع يكرن عادة في الممالك الضعيفة . وكذلك الحال في مملكة الجسم الضعيفة فان وسائل الدفاع لديها تكون أيضا ناقصة ، وأولنا لاحظون أن نسبة الأمراض المعدية أكثر بين الفقراء منها بين الأغنياء ، ولم ذلك ؟ أليس لأن أفراد هذه الطبقة هم بكل أسف ضعاف في تركيب بنيتهم ، ضعاف في أجسامهم ، لسكنائهم في المنازل الضيقة التي لا تتخللها الشمس ولا الهواء ، ضعاف بغذائهم القليل الضئيل ، ضعاف بتعبهم ونصيبهم في الأعمال الشاقة المضنية التي يجب أن يقوموا بها لكسب معاشهم ، فاذا عرفنا ذلك ، أصبح لزاما علينا أن تقوى أجسامنا ، ونزيد في مكانة أبداننا كي نعطي جنوده القوة والنشاط للكفاح والدفاع .

فالى العمل بنظام ، والى الراحة بقسط وافر ، والى الخلاء حيث الشمس والهواء ، والى الرياضة البدنية حسب مقتضيات المزاج .

إننا بهذه الوسائل نكون حقا قد فطنا بالواجب علينا نحو أجسامنا ، وهياناها للدفاع عن أعضائها . انتهى ما أردته من المجلة المذكورة والحمد لله رب العالمين .

فلما سمع صاحبي هذا القول أعجب به أيما إعجاب وقال : لله درّ هذا الطيب الخطيب ، لقد أجاد وأفاد وأبدع في تصوير هيئة الجسم والجنود المجنّدة فيه مما لم يسبق له فيها أعلم نظير ، ولكن لما كانت آية : « ولله جنود السموات والأرض » غير خاصة بجسم الانسان ، بل ان الآية عامة ، وقد فتح الله الباب بهذا القول أحيت أن تسمعي قولاً عاماً به ففهم كيف تكون تلك الجنود المجنّدة في السموات والأرض بقدر الامكان . فقلت :

فصل في جنود الأحياء والامانة ، أو الظلمة والنور

- (١) جنود الكهرباء السالبة والموجبة .
- (٢) وجند الجوامد ، والسوائل ، والغازات ، والنيرون ، والمياه .
- (٣) وجند الميكروبات التي للأحياء ، والتي للامانة .
- (٤) وجند الأغذية والسموم للأحياء والامانة .
- (٥) وجند الحشرات ، والطيور ، والهوام ، والبهائم ، والأنعام ، إحياء وإماتة .
- (٦) وجند النوع الانساني إحياء وإماتة .
- (٧) وتبين أن نوعي الجنود المذكورين يكونان ماديين ومعنويين ، فهنا أربعة أنواع من الجنود
- (٨) تبين جنود الامانة في أم الاسلام التي مزقت شملهم مادية ومعنوية قبل زماننا .
- (٩) وجنود إحيائها في هذا الزمان بقسميها : معنوية ومادية .

مسامرة

فقال : حدثني رعاك الله عن هذه الجنود كلها ، فان هذا فتح لباب العلم وجمال الحكمة ، ولم يكن ليخطر لي أن الأمر يسع حتى يصل إلى هذا الحد ، وأن في الأضواء والنيرون والمياه جنوداً ، ففعلت في الأمر أسراراً وأنواراً .

الكهرباء السالبة والموجبة

فقلت : اعلم أيديك الله بنصره ، وأعزك باعزازه ، ان هذه المادة التي نعيش فيها (كما تقدم في سورة النور عند آية : الله نور السموات والأرض) لا وجود لها : فهذه الشمس والأقمار والسيارات والثوابت والأرضون وما عليها من الأحياء والجمادات ، كل هذه لا وجود لها ، وما هي إلا ذرات ضوئية ، أبدعتها الحكمة الالهية ، فكان منها السالبة ، ومنها الموجبة ، هذا خبر هذه الدنيا ، وهذا أول الوجود المادي وآخره ، وليس لعماء عصرنا علم فوق هذا ، فهذه العوالم كلها ظواهر لهذه الأنوار سالبة وموجبة (انظر معنى السالب والموجب في « سورة الرعد » فهناك شرح هذا الموضوع شرحاً وافياً عند آية : هو الذي يربكم البرق الخ) ولا يقرب هذا لنا إلا مانعه في نفوسنا .

الله أكبر : نحن نحسن في أنفسنا بصور ، وهذه الصور لامادة لها ، وهي تظهر فيها ولا يطلع عليها أحد إلا نحن في مخيلاتنا (وأنت قرأت هذا المقام في « سورة القتال » عند آية : « فاعلم أنه لا إله إلا الله » في رسالة « مرآة الفلسفة » وهذا المقام هو الذي به أمكن الخروج من الورطة التي وقع فيها أم وأمم عن قبلنا من أيام سقراط وأفلاطون إلى الآن ، وهذا هو المخرج الذي فتحه الله للإنسانية للخروج من مأزقها الفلسفي) فهذه الصور التي نحسن بها في نفوسنا بلامادة تصور فيها تسهل لنا تصور ما يقوله علماء عصرنا : « إن أصل المادة إنما هو الكهرباء السالبة والموجبة ، فاذا كان الانسان يحسن في نفسه بصور لامادة لها

فليس بجيب أن يرى أن هذه الدنيا كلها مكتوبة من كهرباء تشتمل على سالبة وموجبة ، وبالكهرباء السالبة وبالكهرباء الموجبة كانت هذه الدنيا كلها ، فلماذا لهذا الوجود العظيم الذي اخترعه صانع الكون كما لامادة للسور التي نحس بها في نفوسنا ، والتي عليها مدار حياتنا كلها وسعادتنا وشقائنا في حياتنا .

خطاب الله عز وجل للعوالم

ولم أجد قولاً جامعاً لما أريده في هذا المقام مما ألقاه الله بطريق الإلهام على أحد الصالحين الملازمين لقراءة هذا التفسير ولذكر الله ليلاً ونهاراً ، حضر عندي منذ أيام وقال لي : بينما أنا أذكر الله ليلاً إذ خيل لي كأن الله عز وجل يخاطب العوالم مبتدئاً بالكهرباء الأولى وهو يقول : أيتها الكهرباء ، أنت من آثار نوري فلتسرعي في حركاتك اسرعا حثيثاً ، ولتكن حركاتك في الثانية الواحدة من ٤٠٠ مليون مليون مرة إلى ٧٠٠ مليون مليون مرة ، ولتكن بهذه الحركات أنواع الأنوار الشمسية من الأحمر إلى البنفسجي ، ولتكن هناك سبعة ألوان ، ولتكن مزاجاً واحداً ، وهيئة واحدة ، فظهر للحيوان نوراً للشمس ظاهراً للعالمين .

إطاعة الكهرباء والأنوار لربها

فدارت الكهرباء كما أمرها الله ، وكانت منها الأنوار الشمسية والقمرية والكوكبية .

خطاب الله للأنوار أن تكون أسرع فتكون منها الغازات والسوائل والجمادات

ثم خاطب الله الكهرباء فقال : ها أنت ذه قد أنيت طائفة وامتلئت أمرى ، فهذه أول خطوة من خطوات مخلوقاتي ، ألقاسمي : جدتي السبر مسرعة ، ولتكن لك في الثانية الواحدة نحو ستة آلاف مليون مليون حركة ، فليكن منك الهواء والماء والأرض والأشجار وكل نبات وكل حيوان ، ستظهر بين أيتها الكهرباء لعون الناس والحيوان بهيئات مختلفات ، يحسونها فيقولون : هذا غاز ، وهذا سائل ، وهذا صلب ، وفي الحقيقة لا غاز ولا سائل ولا صلب ، ماهذه إلا أضواء كهربائية اختلفت سرعة حركاتها فاختلفت أفعالها فسميت حجراً وشجراً وماء وهواء ، هذا أول الأمر وآخره ، وفي الحقيقة لا شيء ولا مادة ، وما هي إلا حركات في عالم لا ترونه ، وهذه الحركات متنوعات ، ولهذا التنوع نتائج عجيبات . أيتها الهواء : ليكن فيك جند للإحياء وجند للإماتة فإذا اشتدت عواصفك وقواصفك فأنت إذن جند الهلاك ، تهدم القصور والدور ، وتقتلع الأشجار ، وإذا كنت خالصة من الأعراض المؤذية من البرد الشديد ، والحر الشديد ، فأنت راحة للعالمين . وأنت أيتها الماء : قم بمنافع عبادي ، وكن حياة كل حي ، وإذا أصابك عارض مما ذكرناه فأنت من جند الإبادة والهلاك ، وهكذا قال الله لكل حجر وشجر ونبات وحيوان : إنكن جميعاً تكونون جنودى في حصول الحياة كما تكونون جنودى في إحداث الممات . أيتها المخلوقات اسمي .

هناك صرخت تلك المخلوقات مرة واحدة وقت : رباه . لم لم تكن جند الحياة لحسب ؟ ولم جعلتنا للضدين ؟ فقال لها : أيتها المخلوقات : إنكن لاتعلمن ما أعلم ، أنتن من المادة ، والمادة ضيقة العطن ، قليلة القطن ، لاتسع كل ما أعلم من الصور والأجيال والأحوال ، فعلمى يسع من الصور ما لاتحتمله مادنتكم كما تفهمه عقولكم ، فأنا إذا جعلتكم جند الرحمة والحياة فقط لم يكن موت ، فيكون بخل في العطية ، ويكون العالم المادى جيلاً واحداً يبقى آلاف الآلاف من السنين ، وملايين الملايين من القرون والأحقاب ، فأى بخل أقطع من هذا ؟ فلما مجزت مادنتكم عن أن تسع هذه الصور كلها ، ولم تتحمل إلا صورة بعد صورة

نلطفت فيها وقدرت الموت والحياة ، وأنفذت جندين : جندا للاحياء ، و جندا للإبادة ، لتسع المادة ما تحتمله من صور الاحياء بقدر الامكان ، فما كم أولاء يا عبادى :

(١) هذه الذرات الصغيرات اللاتي تعيش وتتكاثر فى الأرض وتتوالد بلا حسد ولا عمد ، وتفتت المواد الأرضية التي تصبغ غذاء للنبات ، فهذه المادة نبات فطرى يعمل لحياة النبات المعلوم فهذه جنود نباتية أعدتها للحياة .

(٢) وهناك جنود أخرى من هذا النوع تتكاثر فى المواد المتخمرة نعدّها للفساد وللهلاك (وهذا تقدم شرحه فى بعض أجزاء هذا التفسير)

(٣) ثم انه لا طير ولا دابة ولا حشرة إلا ولها عطف على أبنائها ، فهى تبنى العش ، وتعلم الفرخ ، أو ترضعه اللبن إلى آخر ما هنالك ، فهذه بهذا الاعتبار جند الحياة .

(٤) ولا أسد ، ولا نمر ، ولا فهد ، ولا وحش ، ولا صقر ، ولا شاهين ، إلا وجعلت حياتها موقوفة على أكل الأرانب ، والغزلان ، وجميع آكلات الحشائش من الحيوان . فهذه من هذه الناحية جنود الاهلاك .

(٥) ومن جنود الاهلاك الجراد الذى يسطو على المزارع فى كلها فيجوع الانسان ويموت .

(٦) ومنها الخمل المحاربة لخل آخر فتهلكه بلاشفقة ولارحمة فى جميع الأزمان .

(٧) أنا سلطت العنكبوت على الذباب إذ تضلّاه بشبكاتها اللطيفات .

(٨) وسلطت طيور (العنز) على الجراد فيكون لها طعاما سائغا نافعا للآكلات (مذكور فى سورة آل عمران عند قوله تعالى : بيدك الخبز الحج)

(٩) وأطمت بنى آدم أن يأكلوا السمك ، والطير ، والأنعام ، كل هؤلاء جيوش الامانة والاعدام .

(١٠) كل هذه القاتلات المهلكات عاطقات على أبنائها ، وفلذة أكبادها ، فهى جنود السموات والأرض ، جنود الاحياء ، و جنود الاهلاك .

(١١) وهناك جنود لى فى نوع الانسان ، وهذه منها الخير ومنها الشر .

(١٢) أنا أوحيت إلى الأنبياء أن يعلموا عبادى العلم والدين ، وأمرت بعضهم أن يستعمل السيف أحيانا ، وأمرت خاتم الأنبياء أن يكون له جنود معنوية ، و جنود حسية ، فالأولى هى المواعظ والحكم ، والمجادلة بالتي هى أحسن ، والثانية هى الجنود المجددة بالسيف والسنان ، والضرب والطعان ، وأمرته أن لا يستعمل الجنود الحسية المادية الجرمانية إلا بعد أن يرسل الجنود المعنوية النورية ، فتكون تلك الجنود لاهلاك العاصيين ، ولحماية الطيعين ، فالجنود النورية العلية ، والجنود الحسية المادية الانسانية تكون لاختافة الضالين ، واطمئنان المهتدين .

(١٣) هنالك ظهر فى الوجود أمة اسلامية عظيمة ، لها كيان خاص ، وحياة منتظمة ، كأنها هيكل إنسان حى ، هى أمة كفرد ، هم كالجسد الواحد .

(١٤) ولكنى عدل رحيم حكيم ، وقد سبق انى قلت لكم : ان حكمتى قضت أن هذه المادة يجب أن تسع الصور المختلفة ، فاذا أقيمت هذا الهيكل الاسلامى بلا تغير مستمر فيه كان ذلك خطا فى النظام ، فلا بد من التغير والتبدل ، لتحتمل المادة الأرضية جميع الأوضاع الممكنة .

(١٥) هنالك سلطت الشياطين على قلوب ملوك الأمويين ، والعباسيين ، والاشعديين ، والطورولونيين والسلاجوقيين ، والأندلسيين ، والزياريين ، والغزنويين ، والحمدانيين ، والفاطميين ، والمماليك البرية والبحرية ، والعثمانيين وغيرهم ، فوسوسوا إلى كثير منهم بالاسراف فى المطاعم والملابس

والنساء والظلم والقتل ، وسلطتهم أيضا على رجال من أهل العلم ، فأخذوا يتذفون في الأمم الاسلامية مقالات تحض على افتراق الكلمة ، وتشعب الرأي ، وذلك بتأويل الآيات ، ووضع الأحاديث ، والجدل والمناظرة ، فكانت (٧٣) فرقة ، وكل فرقة أصبحت فرقا ، كل يدعى أنه هو الأئمة بالدين وسواء في ضلال مبين ، ها أناذبا عبادى صنعت في هيكل الأمم الاسلامية مافعلته في هيكل الحيوان ، هيكل الحيوان تنحل أجزاءه ، وتتفرق أعضاؤه ، ولكن عناصر جسمه باقيات في الهواء والماء والتراب ، هكذا أم الاسلام باقيات ولكنها متفرقات ، فلا زالت تبعثر وتتناثر قليلا قليلا ، فزالت الدولة الأموية ، ثم العباسية ، ثم الدول الأخرى ، واستقلت كل جزء حتى عصرنا الحاضر إذ أصبح الاسلام قطعا متناثرة ، وأجزاء منبوذة ، وقد التهمت الأمم التهاما ، كما هي شأن الفريسة في الصحراء (قبل سنين أما الآن فانها آخذة في الالتئام)

(١٦) أوعزت إلى دولة الروس أن كونى حجر عترة في طرقي العثمانيين ، وحرار الصين ، واقعدى بلاد الشرق بالمرصاد ، فتوغلت فرنسا وانكلترا في بلاد الاسلام ، ومنزقتها بمزقة شاملا لترجع إلى عناصرها الأولية كما يرجع النبات والحيوان عند هلاكه .

(١٧) ثم كانت الحرب الكبرى ، فقلت لأوروبا كفى عن الشرق والشرقيين ، فقد جاء دورهم ، وهم سيكونون أنفع للعالم منكم أجمعين .

(١٨) فياروسيا دعى النصرانية التي خنقت الاسلام خنقا ، وكونى شيوعية بلشفية ، ولتقم بجانبك تركيا الجديدة والصين والعراق والأفغان ويران ، فقم بالشرق ، وكف بالغرب ، واستعظي بأمة الاسلام : هذا دوركم أيها المسلمون ، قوموا من رقدتكم ، رقدتم قرونا فاستيقظوا قرونا ، أتم اليوم جيوش للأحياء وللاهلك ، وفيكم جيوش المعنوية النورية والحسية الجرمانية ، وكفى بانكلترا ، وبارنسا ، وباريطاليا عن ظلم عبادى المسلمين ، قد انتهى دوركم أجمعين .

(١٩) ثم أوعزت إلى جميع المسلمين في الهند والصين والأفغان و بلاد جاوه والملايو وشمال افريقيا وجميع آسيا وأوروبا أن اتحدوا وكونوا بيدا واحدة ، وكونوا خير الأمم أجمعين ، وفي نفس الوقت قلت : أيها الفرنسيون : اجمعوا عود المسلمين في مراكش ، وابلوهم بالشر ، وأتم باطليان اصنعوا شرا في طرابلس ، لأنى أريد بشركم ارتقاء واتحاد أم الاسلام (وههنا قال الاستاذ الصالح لى : فما كادت الأتقان تفلان بعض الشر في زماننا حتى قام المسلمون على بكرة أبيهم في سوريا والهند وبلاد جاره يقاطعون بضائع الأمتين ، ويحرمون مدارسهم ، ههنا ظهر في الاسلام عالم جديد لم يكن معروفا من قبل ، ههنا ظهرت أمته وهى التى ستكون كما قال الله فيها : « كتمت خبر أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » . هذه أمة لم نعرفها من قبل إلا قليلا ، أمة كانت متقاطعة متدايرة (إلا فى العصر النبوى وما يقرب منه) ، أمة هاجمها الصليبيون أيام صلاح الدين ، فلم يبق في وجوههم إلا بعضها ، أما الباقون فانهم تخلفوا عنها في شمال افريقيا وفي غيرها ، أما اليوم فان الحوادث المزيجات جمعت كلتهم ، وسيكون لهذا في القريب العاجل شأن عجيب) . انتهى كلام الصالح المتخلل خطاب الله الخيالى له .

(٢٠) ثم يقول سبحانه : وألهمت رجالا ورجالا في بلاد الاسلام أن ينصحوا بل الشعب ، وجعلتهم جنودا معنوية نورية ، فتفتح معاقل القلوب ، وتحتل النفوس ، وتهزم جنود الشياطين وتطاردهم ، وتقتل عروشهم ، وتهزم جوعهم ، فتقضى على النعرات القديمة ، المفترقات للكلمة ، فلا تبقى تلك السفاسف ، ولا تلك السموم الفتاكة الممزقة لهيكل هذه الأمة بأنواع المثبطات الموانس ،

والبدع ، والاختياز للفرق المتشعبة ، والطوائف المتفرقة ، فلن يضير هذه الأمة بعد اليوم اختلاف المذاهب والشيع ، وتفرق الأهواء بطرق الصوفية ، وتنازع الرئاسات ، فان نور العلم سيعمهم أجمعين و يرون أن هذا التنوع والاختلاف ليسا في أصل الدين ، بل هما في عوارض عرضت عليه من خارجه لا من داخله ، فيلتزمون ويتحدون اتحادا جوهريا ، وان اختلفوا اختلافا عرضيا ، وهم يتقون .

(٢١) ومن جنود الأنوار تلكم العلوم التي بها تدرس هذه العوالم المحيطة بالناس في الأرض وفي السماء فهي هي الرابطة الجامع للأمم على وجه الأرض ، ولأمة الاسلام ، وبها لا يغيرها يدرك المسلمون سرّ التسبيح والتحميد والتكبير ، ويفهمون سرّ الأحاديث الواردة في فضائلها ، والأقوال الواردة عن الأخيار في محاسنها ، وكيف تكون سبحان الله ملء الميزان ومنتهى العلم ؟ وكيف يكون التسبيح والتحميد غراس الجنة ؟ وما هذه الرموز والأعاجيب ؟ لن يعرف المسلمون تزييه الله في أفعاله الذي يقتضيه التسبيح إلا بإدراك بعض أسرار الطبيعة ، فإذا علم المسلم علما ليس بالظن أن القروح والسمائل (فيما تقدم قريبا) وأن الحى وأمثالها لم تخلق في الانسان إلا لاسعاده ، ولولم تكن تلك الآلام قضى عليه ، فانه هناك يفهم ماهو التسبيح ، وهناك يفهم كيف كان ذلك التسبيح غراس الجنة ، لأنه لاسعاده في دنيا ، ولا في آخرة ، إلا بالاطمئنان وادراك الحكمة في خلق هذا العالم ، فإذا رأى الانسان أنه محوط بعالم كله تنازع ، وكله مصادمات وأمراض وبلاء وموت وذلّ وهلاك ، فانه لا يهنأ له بال ، ولا يستقر له حال ، بل هو في عالم مزعزع الأمن ، لانتنة فيه ، بل عالم كله نقص وشين ، فلا أمان فيه ولا اطمئنان ، وهنا قال ذلك الصالح : (فلا تكن أنا صحيح الجسم ، كثير الخبرات ، تفقد على النعم من كل جانب ، ولكنني أجد الناس حولي يموتون ويمرضون ، والحشرات تموت ، والبهائم والطيور ، وكل لكل عدو ، فاني إذ ذاك لا يستقر لي قرار . فإذا أدرك العقل أمثال هذه الأسرار التي ظهرت في هذا الكتاب وفي أمثاله ، فانه يصبح في نفس هذه الدنيا وقد ابتدأت سعادته ، واليه الاشارة بقوله تعالى : «دعواهم فيها سبحانك اللهم» وصرّح بالحقيقة الناصعة فقال : «وتحيتهم فيها سلام» وفي آية أخرى قال : «إن المتقين في مقام أمين» وفي أخرى : «سلام قولاً من رب رحيم» .

هذه هي الأسرار التي في الاسلام ، وفي آية أخرى يقول : «والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فتم عقبي الدار» .

لاسلام ولا أمان إلا بالوقوف على الحقائق كالتى في هذا التفسير ، ولن يكون سلام في بلاد الاسلام إلا بجنود الله المجنّدة المعنوية النورية التي تمتلك بجنود الجهل الخيمة على عقول القرون الاسلامية المتشاكسة فنقطع دابرها ، وتقلّ جوعها ، وتلك الجنود إنما هي الحكمة التي يقذفها الله في قلوب المصلحين شرقا وغربا ومنهم قرّاء هذا التفسير الذين سيكون منهم ملههون وهم مفلحون ناصحون اه

فلما سمع صاحبى ما قصته عليه من تلك الخطرات الخطرات لذلك الصالح . قال : هذا كلام حسن ، ولكن من ذا الذي يدعى أن الله يخاطبه في زماننا ؟ وكيف تنقل خطابا عن صالح يدعى ذلك ؟ فقلت : انه لم يقل إلا أنه خيال ، ولكن هذا الخيال مبنى على العقل . فقال : ولكن فيه مبالغة في أمر المسلمين وانهم الآن ارتقوا ارتقاء عظيما . هذا ما يفيد هذا المقال . فقلت : سترى في اللطائف الآتية في كلام (لوثرود استودارد) ان الأمم الاسلامية ارتقت اليوم طفرة ، وقد نفّضت غبار الكسل واستيقظت ، وضرب الأمثال ، وأتى بما لا حد له من ضروب الحجج في مقالات متتابعات ستفضح اتصاحا تاما فيها ستره إن شاء الله تعالى كما

قلته لك . فقال : ولكن ما بالنار ترى بعض الأمم الاوروبية تضغط ضغطا شديدا على المسلمين . قلت : ألم يتضح لك في هذا المقال انضامنا انما ذلك الضغط انما هو لابقاظ الأمم الاسلامية كما تقدم في ذلك الخطاب الخيالي ، ألم تعلم أن الجيوش المعنوية النورية العلية هجمت على قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها فهذبت وتفحمت ، ونبتت الشرور وملأتها بالخيرات .

جيوش النور عمت بلاد الاسلام الآن ، وستفتح ما بقي من حصون الجهالة ، وتفتح المعازل والقلاع ، وستحتل كل ثكنة ، وكل حصن ، وكل معقل في بلاد الاسلام ، وماضط الاوروبيين على أمثال مرا كوش وتونس والجزائر وطرابلس وغيرها إلا كما تنكأ الميكروبات في الجسم ، فيكون دمل فقيح فيصح الجسم أذكا تكون حتى وهي لم تخفق إلا لصحة الجسم ونظافته وسعادته ، لا لإضعافه وأهائه ، لاشر في الأرض إلا لخبر كما لم تكن الحى إلا لصحة البدن (كما تقدم قريبا) . وهاهي ذه جيوش النور تفزو القلوب الاسلامية فتصلحها ، وتبعها جيوش الدول فتفزو الأمم الظلمة أولا بالاعراض عن المعاملة ، ثم تستقل وتعلم بين الأمم أجمعين ، فليس الضغط ولا الظلم الواقع على الأمم الاسلامية إلا أشبه بعمليات جراحية يجعلها الله لها بابا للشفاء كما جعل الحى والأورام أبوابا لصلاح الجسم ، إن العلم اليوم كشف الحقائق ، إن هذا هو الزمان الذى ظهر فيه معنى : « سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » .

إذا أيدت أمة من الوجود فذلك لأنها لامعنى لبقائها إلا أن تذلل وتخضع كما يموت الانسان اذا لم يصلح للبقاء في الحياة ، واذا أذلت الأعداء فذلك لتذكيرها فتصلح شأنها .

إن العلوم اليوم قد فتحت أبواب الحقائق على مصراعها « لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب » وما عرفنا من الحقائق القليلة دلنا على بقاياها ، فأى فرق بين الموت وبين الجرح والحى ، فإذا كان الجرح لصلاح البدن فهكذا الموت لصلاح الروح وخلصها من أدران البدن كما خلس البدن من المؤذيات ، وشفاؤها بزوالها كما شفى المريض بخروج الصديد والدم من بدنه بالقرح لأن البدن الضعيف قرح النفس ، وكشفاء الأمة من تفرق شملها ، وتشتت جمعها ، بدخول الأعداء بلادها ، فيكون الرقى بلسا لجراحها ، وظلمهم فيها ، وعسفهم لها ، ما هي إلا عمليات جراحية أرادها الله لهم للصلاح ، وهذه كلها جنود الله عز وجل : « ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليا حكيما » .

فلما سمع صاحبى ذلك . قال : صف لى جنود النور إتماما لتفسير الآية ؟ قلت : جنود النور مسموعة ومنظورة ومعقولة ، فكل مخلوق في أرض أو سما له صورة تراها العيون ، فتكون في الخيال ، فيفهمها العقل فتكون علما لأولى الألباب ، وهذه الصور المتخلوقة في السموات والأرض أبدعت بعلم وإرادة وقبرة كما هو معلوم ، وللانسان لسان وشفقان وحلق والصوت يتردد بينها ، وله عقل وإرادة ومعان في نفسه ، فهو يخرج تلك المعانى بهيئة أصوات تكون حروفا فكلمات ، فهذه الكلمات تعبر عن هذه الصور كلها وتسمعها الأذن كما رأت العين صور الموجودات ، والعقل يتقبلها على علانها ، ويبحثها كما يبحث المبصرات ، فهذه ان جيشان من جيوش النور وهي جيوش الاسماع والابصار ، فكما أخذ النور الصور من الجامد والسائل والغاز فأوصلها إلى العيون هكذا أخذ الهواء الألفاظ التى فيه الواردة من ضغط اللسان والشفقين والحلق وأوصلها إلى الآذان ، وهناك جنود عقلية وهي المعلومات المنتجة في العلوم جميعها من رياضية وطبيعية وإلهية ، فكلمها جنود عقلية لاحسية ، منبرة ، جبيلة ، لاندع شيئا من الجهالة إلا جعلته كالريم ، وقد كثرت اليوم في بلاد الاسلام وكما رأينا أن المادّة تختلف اختلافا في صورها لاحد لمرآة ، هكذا الصور اللفظية التى أظهرها اللسان وما حوله من الأعضاء لاحد لمدادها ، تنوع في المادّة وتنوع في الكلام ، المادّة الجميلة برعت وأبدعت في الافصاح عن مكنون الجمال الالهى وكلامه النفسى الذى لاحرف له ولا صوت ، فالأشجار تحدثنا ، والأزهار تؤنسنا ،

والنجوم ندهشنا ، والجبال نتعشنا ، وكل ذلك آثار لذلك الجمال والكمال ، ما العالم لإسركات ، فان كان في الأثير فهو المادة ، وان كان في الهواء فهو الكلام ، الصور المادية لا تكون إلا بدوران الأفلاك والليل والنهار والصور اللفظية لن تكون إلا بلسان وشفة وحلق ، ويتدرد الصوت بالشهيق والزفير بين الخلق والشقيتين ، فهنا تنوع ، حروف ، فكلمات ، بجم ، فأمثال وخطب ومواظ على مقتضى تصور العقول .

تفتن في صور المادة وتفتن في صور الألفاظ

أحدث الناس بصفاء نفوسهم قصصا وروايات ، وأودعوا فيها حكما وعلمًا ، تقليدا لتلك الحكمة العالية المبسدة في المادة جمالا وجمالا ، جمال المادة لحياة المتعلمين ، وجمال الكلام لهداية الانسان ، للصور المنظورة ملاينها من المنفعة والجمال ، أو السطوة والاذلال ، وللصور اللفظية ملاحظته من الهداية والاضلال جنود جراحة : تتردد الشمس في أبراجها ، والقمر والكواكب في منازلها ، فتكون صور الموجودات ، ويتدرد الصوت بين المخارج كالحاء في الرحمن الرحيم والحد ، والعين في العالمين في ﴿سورة الفاتحة﴾ ، والعين في المغضوب عليهم ، والهمزة في إياك ، والهاء في الله ، وهذه حروف خلقية (وهذه حروف خلقية) وبين اللام والبدال والميم وغيرها من حروف شفوية أو نحوها فتكون تلك الحروف ، وتكون تلك الكلمات : كما تتردد النهار والليل ، والصيف والشتاء ، فتكون تلك مخلوقات .

عجب الجنود لفظية ، وأخرى نورية ، وثالثة عقلية ، وكلها بالحركات ، واختلافها باختلاف أفعالها ، وانضقت الغايات ، إن للصوت لدولة وصوله كما ان للطبيعة دولة وصوله .

هاهوذا الزمان الذي ظهرت فيه صولة اللسان وجنود الرحمة لأمة الاسلام ، ناموا أجيالا وأجيالا ، وكانوا في القرون الأخيرة أطفالا وجهالا ، إلا حكماءهم وعلماءهم العظماء الذين كانوا غير آمنين ، أما اليوم فانهم أخذوا يصولون ويجولون ، ويؤلفون وينصحون ، ولقد امتدت صولة القلم النائب عن اللسان بالكتابة وانتشرت الكتب ، وأسرع المسلمون للترحيب بجنود العلم ، جنود النور ، وأخذ المصلحون يضربون لهم الأمثال ، فهبوا من رقبتهم وبشوا بعنا جديدا من أجداتهم وهم مجتدون .

فقال صاحبى : إن هذه المعاني غريبة عن هذا الموضوع ، ولكنها دخلت فيه بهيئة أنها من عناصرها فأرجو أن تبين لي كيف خطرت لك هذه المعاني ؟ وفي أى وقت ؟ قلت : هذه المعاني خطرت لي أمس (يوم السبت ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٣١ م) فاني كنت في مزدرعتنا بالرج ، وبينما أنا راجع وقد جرت عادتي أن أكون في ذهابي وإيابي ماشيا على قدمي ، وذلك ربما يبلغ ١٢ كيلو أو أكثر . ويكون الذهاب والاياب في يوم واحد غالبا ، أوفي يومين إذا بت هناك ، فبينما أنا راجع إذ نظرت مزرعة (ذرة شامية) ضحى وألقيت تحتها حشائش تبلغ الترع ارتفاعا ، لها زهرجيل ، وقرور طويلة دقيقة ، وذلك الزهر ذلون أبيض ، يميل للزرقة ، ولها قليل من الرائحة العطرية ، وتلك الحشائش تنزع ذات اليمين وذات الشمال ، تحت أعواد الذرة المائسات القدود ، الجر الشعور ، اللاتي تتدلى على «المطر» وهو الذي يسميه العامة الكوز ، وهو الذي فيه الحب ، فأعجبني ذلك المنظر ، وكأنتي لم أرهذه الجانب إلا ذلك الوقت ، وبينما هذه المناظر آخذة بمجامع عقلي من طريق البصر ، اذا طنين الذباب ، وغوير الأعشاب ، يطربني من قبل السمع ، فهناك طرب فوقه طرب ، والفلاحون يغدون ويروحون حولي ولاهم يفكرون ، فأخضت بعض تلك الحشائش ، وسألت الفلاحين عن اسمها ؟ فقالوا : هذه لم ترها إلا منذ سنتين اثنتين ، ولا تعرف لها اسما ، وهنالك تذكرت حادثة حدثت لي أيام أن دخلت مدرسة «دارالعلوم» ، فبينما أنا مع التلامذة في السنة الاولى ، ولاعهدي

إلا بالأزهر وبالحقول ، وقد أنست بها وبجماها ، إذا بالمدرسة تصطفي من التلامذة ثلاثة وأنا منهم لنكون مع المرحوم أستاذنا (الشيخ حسن الطويل) في الاوبرا الخديوية ، لأن الخديوي توفيق باشا سيكون فيها تلك الليلة ، وهذه أول مرة رأيت فيها التمثيل ، فرأيت إذ ذاك عجا مافوقه عجب ! غيراني لأنصوره ، ولكن لما فتشت في نفسي عن الجمال الذي كنت أحس به في الحقول ، وطنين الحشرات ، وتمايل الأغصان ، ومنظر النجوم ، ألفت أن ذلك التمثيل الطبيعي في الحقول كان أبهر عند نفسي وأجل ، وخيل لي أن هذا رفقه عند نفسي كرتبة الجمال الصناعي بالنسبة للجمال الطبيعي ، وصرت أتعجب من نفسي كيف كان ذلك حكمها ، فهذه هي الفكرة التي خطرت لي عند مشاهدة ذلك النبات في الذرة أمس نحي ، ثم خطرت لي أيضا ما تقدم من صور المادة وصور الألفاظ وجنودها ، وأن الأمم التي لانهب عقول مصلحتها لإحداث الصور اللفظية لاصلاح شأنها لاجياة لها ، فخدمت الله على ذلك ، وقلت : ها هوذا هذا الكتاب جند من الجنود النورية والحمد لله رب العالمين .

فقال صاحبي : الموضوع طال فهل تسمح لي بتلخيصه ليتصوره الأذكياء . فقلت نعم :

- (١) نحن في ﴿سورة الفتح﴾ والله قد فتح للنبي صلى الله عليه وسلم فتحا مبينا .
- (٢) هذا الفتح بجنود انسانية مسلحة .
- (٣) ومعلوم أن زمن النبوة ينقضي والباقي إنما هو الدرس والفهم ، فأخذ الله سبحانه يفهم المسلمين ماهي الجنود ؟

(٤) فذكر أن الجند ليس خاصا بالجنود التي ترونها . كلا .

(٥) ففي السموات جنود وفي الأرض جنود .

(٦) ومن جنود الأرض الميكروبات التي تقتحم جسم الانسان فتمرضه أو تهلكه ، وجنود أخرى في نفس الجسم تطاردها في كل أطراف مملكة الجسم .

(٧) وهناك تكون قلاع ، وحصون ، وحرب ، وخنادق ، وتعبئة الجنود ، إذن هذه من جنود الله المذكورة ، إذن هذا درس عام لخاص بزمان النبوة يدرس على مدى الزمان .

(٨) وهناك قسمت الجنود أربعة أقسام : حسية ومعنوية ، فالحسية لإهلاك الاعداء نارة ، ولإبقاء الأولياء نارة أخرى ، وهذا ظاهر في النمل والجراد والاسود والنور والسباع والانسان ، ومن الجيوش المعنوية أيضا إصلاح وفساد ، فالاصلاح بالأقوال الجليية ، والافساد بالقاء الفتن والفضال والافتراء ، فالأولى جنود نورانية ، والثانية جنود ظلمانية .

(٩) وبيان أن هذه الجيوش كلها من صور تحدثها أضواء الكواكب ، فتنتطع في الأبصار ، فتدركها البصائر فتعقلها وتحدث لها نتائج ، أو من ألفاظ تحدثها الشفتان واللسان والحلق والحنك إلى آخر ما في علم التجويد وفن القراءات ، أو من نفس العقل واستنتاجه ، فهذه كلها جنود مبصرات أو مسموعات أو معقولات .

(١٠) وأن الأمم الاسلامية اليوم قد أمدها الله بجنود نورية ، منشؤها العقل ، ومصورها اللسان والشفتان الخ .

(١١) وينوب عنها الكتب المنشورة اليوم في بلاد الاسلام مما أقسم الله بها فقال : «ورق منشور»

(١٢) وهذه الجنود النورية بعثها الله في بلاد الاسلام لتظهرها بما يشبه العمليات الجراحية في أجسام الانسان ، وذلك بضغط الأمم عليهم واذلالهم ، فهذه الجنود العلمية أشبه بالميكروبات في جسم الانسان الواحد الخي إذ تسطو على الميكروبات القاتلة فتغلبها وتطردها من الجسم على هيئة

قيح وصديد ، وذلك هو الحاصل الآن في بلاد الاسلام ، فان العلم المنتشر اليوم فيها يطرد عدوين :
عدواً معنوياً ظلمانيا وهي الخرافات والجهالات والضلالات ، وعدواً حسيباً جرمانياً مادياً وهم الأمم
الاوروبية ، وهذه الأمم لن تبقي في أمة ظهر فيها نور العرفان .

(١٣) ولما سألتك عن هذه المعاني الأخبيرة متى خطرت لك ؟ ذكرت لي أنها خطرت لك لما كنت
راجعاً من مزرعتكم وأنت متوجه إلى المريج ، وانك إذ ذاك أبهجك منظر الحشائش التي لم تعرف
لها اسماً تحت الذرة ، ووازنت بين ابتهاجك بمنظر الطبيعة ومنظر الصور المتحركة ، وذكرت
حادثتك في ذلك أيام دخول « دارالعلوم » .

هذا بجمل ما تقدم . فقلت : لله درك ، لقد تلخصت فأجبت وأحسنت . فقال الحمد لله رب العالمين ، ثم قال
لي : ولكن لا يزال لهذا المقام بقايا . فقلت : وما هي . فقال : إن الجنود النورية يعوزها إبطاح أتم ، وعلم
أجل ، وحكمة أعم . فقلت : إن الجنود النورية على قسمين : أولهما الجنود النورية الحسية ، وثانيهما
الجنود النورية العقلية ، والقسم الثاني أحق باسم الجنود من القسم الأول . فقال : حدثني رعاك الله عنهما ؟
فقلت : لأقدم مقدمة فأقول :

الناس أضياف ربهم في هذه المادة يحرسهم بجنوده

فقال : إن هذا العنوان غريب جمع بين الضيافة والحراسة بالجنود ، فقلت إن لهذا سبباً ، إني أمس
في ليلة السبت التي هي آخر شهر أكتوبر سنة ١٩٣١ كنت في مزرعتنا وقد جرى حديث الضيافة وجاء
حديث حاتم الطائي مع مخطوبته (ماريه بنت عفر) وهي من بنات ملوك اليمن ومعه النبيبي والنايفة ،
فهؤلاء الثلاثة لما خطبوا لأنفسهم قالت لهم : سأزوج أكرمكم وأشعركم ، فانصرفوا ثم لبست ملابس مجوز
ومررت عليهم في ديارهم ، وكل منهم قد ذبح ناقة له ، وأخذت تستجد بهم ، فأعطاهم حاتم أحسن ما في الناقة
وأعطاهم الآخرا ذبلي الناقين ، فلما حضر الثلاثة عندها بعد ثلاثة أيام ، أتوا لها بالهدايا ، ووضعت الطعام
أمامهم ، وجد كل منهم أن ما أمامه هو الذي أعطاه لامرأة شمطاء (هي نفسها) ففجّل الرجلان من فعلهما
فأما حاتم فإنه رمى ما أمامهما من الطعام وأعطاهما بما أمامه ، وقال كل منهما شعره قبل الطعام ، وكان
شعر حاتم الأبيات المشهورة وهي :

أماويّ ان المال غاد ورائح * ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماويّ إني لا أقول لسائل * اذا جاء يوماً حلّ في مالي التذر
أماويّ ان يصبح صداى بقفرة * من الأرض لأماء لدى ولاخر
تريّ أن ما أنفقت لم يك ضرّتي * وأن يدي مما بخلت به صفر
انقد علم الأقوام لو أن حاتم * أراد تراء المال كان له وفر

فأما أشعار الآخرين فإنها كانت كلها تغرا على هذا النحو ، وما فرغوا من الطعام حتى قام الرجلان وبقى
حاتم وتزوجها . انتهت الحكاية في المسامرة ليلة أمس .

انتقال نفسي بعد ذلك الى الضيافة الإلهية

وما أتممت هذه المسامرة حتى أخذت نفسي تفكر في هذه الدنيا : الله أكبر : نظرت النخل ليلاً أمام
القرية عند مزرعتنا والقمر في السماء ، وهناك طلالي وقلت في نفسي : عجبا لربنا ! الناس يفرحون ويمرحون
ويحبون ربهم إذا قدم لهم طعاماً ، وأوقد لهم مصباحاً ، ومنعهم فراشاً ، ويضمضون أعينهم عن كل جهل

في الأرض وبها ونعمة ، وينسون الجمال العام في الأرض والسموات ، وهم غافلون ساهون لاهون عن رب دارهم الكبرى ، وقناديله المعلقة في السماء ، وأصناف الأشجار والأزهار والأنهار والبحار الواسعات ، حقا « إن الانسان لظالم كفار » .

يمدح رجلا أجلسه في دار ضيقة محصورة ، وأعطاه بعض طعام وغطاء ، وقد جهل الدار الواسعة ، وهي الأرض والعطاء الأكبر وهو السماء ، والمائدة الواسعة ، وهي هذه المزارع والأشجار والأزهار ذات الرائحة العطرة الجميلة المنظر ، والأنعام ، والقناديل المضيئة ، المشرقة ليلا ونهارا ، فياليت شعري أين الثريا وأين الفانوس وأين الشمعة ، اللهم إنك حبست هذه الأرواح في الأجسام ففعلت عن جمالك .

الجنود صنفان ، ولا حصر لأفرادها

ولئن كان لرب الدار خدم وحشم وحرّاس ، فهم قوم محصورون ، ولكن للدار الواسعة ، وهي هذه الدنيا حرّاس لا حصر لهم ، وهم قسبان : قسم هي الأنوار المشرقات المحسوسات ، ذات البهجة والأنوار ، وقسم هي العقول الكبيرة والصغيرة ، وأنواع الاطعام والفرائز .

عجا ياربنا ! أرضنا فيها أنوار جزئية : في شمع العسل ، والبتروك ، والغاز المستخرج من الفحم ، وأنوار الزيت المستخرج من الزيتون ، وبذرة القطن ، والسسم ، والقرطم وأصراهما ، وأنوار الكهروبا . سبحانك اللهم وبمحمدك : ماهذه الأنوار ؟ هي لنا هداية ، لولاها لكان في الأرض عيانا لا ترى شيئا ، فهذه الأنوار جنودك الهادية لنا بمساعدة أبصارنا لطرقتنا وأعمالنا ، وهذه الجنود لا حصر لها ولها قائد أعظم وهي الشمس ، لولا الشمس لم يكن شمع العسل ، إذ لولاها لم يكن مطر ولا سحب ولا رياح ، فلانبات يحمل زهرا ، ولا نخل يشار منه العسل فيأكله فيصبر عسلا ، ولولاها لم يكن زيت يستخرج من القرطم والسسم والزيتون ، إذ لاشجر فلا زيت ، ولولاها لم يكن غاز الاستباح الذي خزن منذ مئات الالوف من السنين ، خزنته الشمس في الأشجار بأشعتها فاستخرجه الناس الآن .

الله أكبر : الشمس قائد ، وجميع الأنوار على الأرض جنود ، للشمس ضوء فيه سبعة أضواء : وهي الأحمر والبرتقالي والأصفر والأخضر والأزرق والنيلي والبنفسجي ، وهذه كلها تصبغ لونا واحدا ، وهو التور المعروف ، وهذه الألوان بعينها تراها في جميع أنوارنا التي نوقدها .

الله أكبر : الجنود الحسية التي تكفل هدايتنا في الحياة الدنيا وهي الأنوار مشتقة من قائدها الأعظم وهي الشمس ، وهذا الصنف من الجنود مثال لما هو أعلى منه وهي :

الجنود المعنوية العقلية

جلّ الله : أبان لنا جنودا تراها بأعيننا ، وأظهر لنا أنها مشتقات من قائدها الأعظم ، ثم وهب لنا عقولا وهي الجديرة باسم الجنود ، هي التي تستحق الاعظام والاجلال ، فلئن هددتنا الأنوار إلى سبل الحياة فما ذلك إلا بواسطة عيوننا ، وهل لعيوننا عمل إذا لم تكن لنا نفوس وعقول لكل انسان ، وكل حيوان طيق عقول تدبرها ، وتقوم بأودها ، وتصور حياتها ، وتحفظ كيانها . فلنمثلة عقل ، وللناموسة ، وللنصرار ، بل للخلية الواحدة من خلايا الجسم ، وللخلايا الأولية التي تعيش في الماء الآسن ، ولا يشنها إلا أن ينقطع عنها الغذاء ، أو يأكلها الأعداء ، فكل هذه لها عقول على مقدار ما تحتاجه . قال الشاعر :

سقى الله أرضا يعلم الضبّ أنها * بعيد عن الآفات طيبة البقل
بنى بيته فيها على رأس قنة * وكل امرئ في حرفة العيش ذوعقل

هذا قول العربي الجاهلي ، وهو نفس ما قرره علماء النفس في عصرنا الحاضر إذ قالوا : « كل قوة إدراكية في حيوان أيا كان فهي عقل ، سواء أكان ذلك الحيوان انسانا أم حشرات ، أم طيرا ، أم ميكروبا » كل ذلك يسمى عقلا ، وهذا الاطلاق نفسه قاله الشيخ الخواص ، وندد على الناس في جهلهم أن للحيوان عقولا ، إذن الصوفية المسلمون نطقوا قديما بما أتى به العلم الحديث .

الله أكبر : هذه العقول الانسانية ، والعقول الحيوانية ، التي لا يحددها العدد ، ولا يحيط بها حد ، هي جنود الله في أرضنا ، جنود وأى جنود ، جنود تهندس المباني والمساكن والقلاع والحصون ، جنود تهندس أقراص العسل ، وتظهر سجع العنكبوت ، وآجام الآساد ، وأعشاش الطيور ، وحيل الثعالب ، وكرت هاو فرتها ، وحيلها في جلب قوتها : وتدير الحرب والضرب ، في حرب النمل ، وترتيب الجيوش الخفية ، وبناء المدائن المتقنة لحشرة الأرض .

الله أكبر : هذه جنود الله ، اللهم أنت الحكيم ، أنت العليم ، خلقت هذه الجنود العقلية فينا نحن بني آدم وحيواناتنا ودوابنا .

جنود العقول الانسانية والحيوانية

وما يوازيها من جنود الأنوار السماوية

لك يا الله جنود عقولنا ، وعقول الحيوانات في أرضنا ، أنت هديتها بإدراكها بواسطة عيونها الناظرات بأضواء الكواكب ، وأضواء السرج الأرضية ، عقول جزئية ، أو جنود أرضية ، استخرجت الأنوار الأرضية فاستعملتها ، استخرج الانسان من الشمع نورا ، ومن الغاز المستخرج من الفحم ضوءا ، وهكذا من البترول والكهرباء . جنود عاقلة استعانت بجنود محبوسة وهي التي استخرجتها . يا الله عجب لنا ! تعيط بنا أنوار الشمس ونحن لانحمد عليها ، فهي مفسية ، فأخذت تذكرنا بالظلام ؟ ونحكم علينا أن نستخرج من الأرض نورا نستضيء به ، عقولنا اضطرت لاستخراج النور من مواد الأرض ، جزئي استخرج جزئيا ، وهذه الأضواء مشتقات من أضواء الشمس ، أضواء الشمس مركبة من ألوان سبعة ، وهذه مثلها ، لولا الشمس لم تكن أنوار هذه المواد الأرضية ، لأنها سببها .

الاستدلال بالعقول الأرضية الجزئية على العقول الكلية السماوية

وهل يجوز في العقول الانسانية أن يستند الضوء الجزئي إلى ضوء كلي ويكون مشتقا منه ؟ (أى ان أضواء القناديل الأرضية مشتقات من ضوء الشمس في السماء) ثم يكون الضوء المنعوى العقلي مستقلا غير مشتق من عقل أكبر منه ، وهل تكون هناك شمس هي أصل لأنواع الأضواء الأرضية المحبوسة ، ثم لاتكون هناك عقول كلية منها تستمد هذه العقول الصغيرة علامها وإلهاماتها ، هذا لا يكون ، قضى العقل أن للعقول الأرضية حيوانية وانسانية عقولا أكبر منها هي مناط استمدادها ، ومبادة آرائها ، ونسبة عقولنا إلى تلك العقول الكلية كنسبة ضوء المصباح إلى الشمس ، ونسبة آراء عقولنا إلى آراء تلك العقول الكبيرة كنسبة ضياء الشمعة إلى ضياء الشمس .

هذا برهان صادق لا خطأ فيه ، يرجع للقضايا البديهية ، والمعلومات الأولية ، غاية الامر أن النوع الانساني اليوم نوع حيواني ، غافل عن هذه الامور العالية ، جاهل بما حوله ، اللهم إلا انه غارق في الامور العملية ، كأن يطير في الجو ، وبهلك المدن ، ويخرب البلاد ، الناس اليوم في أرضنا أطفال جهال ، عيونهم مقفلة ، لا يحسون بما حولهم ، إن عناصر عقولنا هي عناصر العقول الكبيرة ، كما أن عناصر الضوء في الكهرومغناطيسية هي نفس عناصر ضوء الشمس ، وهي الألوان السبعة . وإذا كان في ضوء البترول السبعة الألوان

المعروفة ، ونظيره ضوء الشمس الذي هو أصله ، فهكذا عقولنا فيها ذاكرة وحافظة ومفكرة وخيال وحس مشترك وهكذا ، فهذه كلها عناصر عقولنا تحلل إليها وترجع لها بعد تحليلها ، هكذا تلك العقول الكبيرة ، لا بد أنها تكون لها ذاكرة وحافظة الخج منها استمدت عقولنا هذه العناصر ، ويختلف الأبر والأصغرى عناصرهما بحسب صغرهما وكبرهما ونوع علمهما وأحوالهما ، وما هذا إلا مجرد تشبيه لا يطبق تطبيقاً تاماً ، لأننا نجهل أحوال الأرواح المجردة .

النتيجة صادقة لمقدمات أولية محسوسة

إن المقدمات محسوسة ، فضاء الشمس ، وضوء نحو البترول نراها ونحللها ، وعقولنا وعناصرها التي منها تكونت نحس بها ، فهذه أشبه بمقدمات منطقية اثنتان محسوستان وواحدة معقولة بالوجدان ولم يبق إلا الرابع وهو نتيجة الثلاثة ، وما ذلك الرابع إلا العقول الكبيرة ، فإذا كانت عقولنا لا تفتتح بضوء أرضي إلا إذا استخرجته بظلمتها ، وما نستخرجه تفتتح به ، هكذا تلك العقول الكبيرة التي منها اشتقت عقولنا تدبر حركات الشمس في عالم الأثير حتى تستكمل وتقوى وتضيء وهي التي تسخرها بإذن الله في إيجاد ما أراد الله في هذه العوالم الأرضية بالحركات المنظمة ، كما أننا نحن نصنع طعامنا مثلاً على ضوء الكهر باه والبترول الخج .

عقول كبيرة تنشئ شمساً كبيرة ، وعقول صغيرة تصنع منازل وما كل وشمعا وعسلا ونسيج عنكبوت ، عقول كبيرة تفتتح عقولا صغيرة ، فالأولى للسماوات ، والثانية لأهل الأرض ، شمس عظيمة مصنوعة ومدارة بواسطة تلك العقول الكبيرة تشتق منها أجسام نورية أرضية لأعمال صغيرة أرضية ، أضواء الشمس الكبيرة مشابهة لأضواء المواد الأرضية المضبوطة ، عقولنا الصغيرة عرفنا عناصرها ومركباتها ، فهكذا يجب أن نقول في العقول الكبيرة التي تدبر الشمس ، إن عقولنا على منوالها والاختلاف غالباً يكون بالكيمياء ، كما أن الاختلاف كذلك في ضوء الشمس وضوء البترول .

نتيجة هذا القول تفسير آية : ولله جنود السموات والأرض

وآيات كثيرة في القرآن

بهذا وبهذا وحده فهم : « ولله جنود السموات والأرض » . الله أكبر : عطف جنود الأرض على جنود السموات ، لأن الثواني مشتقات من الأوائل ، وتالله إني في أثناء هذه المباحث العقلية ما كان ليخيل لي أن في هذا العطف سره العجيب ، فتم الله جنود السموات على جنود الأرض ليفتح لنا بذلك باباً كان مغلقاً على أكثر الناس : ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

جنود الأرض مشتقات من جنود السماء ، لذلك قدم المشتق منه على المشتق ، وهذه عجائب من أسرار القرآن : فنته جنود في السموات ، وهي التي نسبها ملائكة ، نعم علماء الأرواح قلوباً نفس هذا القول ، وتقدم ما نقلته في هذا التفسير مراراً أن الاستاذ (أوليفر لودج) يقول : « إن هنا عوالم روحية تحيط بنا نسبتنا إليها كنسبة عقول النمل إلى عقولنا ، وهي تهتم بأمرنا ، وهي تحافظ علينا » .

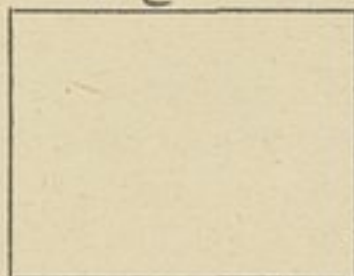
إيه أيها المسلمون ، إيه أيها المسلمون ، هذا هو كتاب ربكم ، كتاب ربكم نفس العلم الحديث ، إذن هذا القرآن جاء لأمر بعدنا ، نعم هو كلام الله ، وكلام الله أنزل لعباده المساكين في الأرض ، أليس من عجيب أن يقول هذا القول علماء الأرواح في زماننا ، ثم يقوم البرهان الحسي الذي ذكرناه عليه ، نراه في نفس

القرآن ، نسمع الله يقول لنا : أنا لى جنود فى السموات ولى جنود فى الأرض ، فبأخذها أكثر من قبلنا أخذنا مجرداً من البحث ، ومن عرف من آياتنا منها شيئاً كتبه خوفاً من العاقبة .

هاهوذا أيها المسلمون وضع الدين ، القرآن نزل لفهم ماحولنا ومايحيط بنا والحمد لله رب العالمين .
فقال صاحبي : إن أصل سؤالى لك إنما كان موجهاً لايضاح الأنواع الحسية والمعنوية ، فكيف حضرت هذه البراهين فى ذهنك ، وهل كانت هذه فى ذاكرتك ؟ فقلت نعم . فقال : وكيف ذلك ؟ فقلت : إن أمرنا ليجب ! لم تسألنى سؤالاً إلا كان جوابه منظماً فى نفسى قبل أن تسألنى ، فكأن هناك بين روى وروحك وسائل أو رسائل بها تعلم روى مااستوجهه أنت إليها ، فترتب السؤال والجواب أولاً ، حتى اذا سألتنى كان العلم حاضراً فى النفس . قل : أنا لا أفهم هذا ؟ فقلت : أريد بهذا القول انك قبل أن تسألنى مثلاً فى هذه المرة كنت متوجهاً إلى ناحية الأزهر ، ونفس هذه المسائل كنت كأنى أطلعها أمامى فى صحيفة وكأنى أقرؤها فيها ، أنا أمشى والناس حولى ، ولكن هذه المعانى وأنا فى شوارع القاهرة كانت أمام مخيلتى ، وهذه صورتها :

(عقل) سماوى يصنع ويدبر (الشمس)

رعى يشفق منها



رعى يشفق منها

(عقل) أرضى به يستخرج سراج ينتفع به

هذا ملخص ماضى كله ، كنت كأنى أطلعها فى صحيفة أمامى ، فلما سألتنى أخذت لك ماطلعته هذه هى الحقيقة ، وليست هذه الصحيفة أمام عينى ، بل هى فى مخيلتى ، ومتى كتبت ماطلعت ووضعت فى الورق تذهب تلك الصحيفة من خيالى ولارجع لها بل أنساها ، واذا أردت استرجاعها صعب على ذلك .
فبالت شعري : ماهذه المعانى ، وماعذه الصحيفة إلا أنها من عوالم تحيط بنا ونفوسنا متصلة بها وهى التى رسمت لنا هذه الخطط ، غاية الأمر أنها لا تعطى العلوم إلا على مقدار استعداد الأشخاص والأمم ، وما تعطيه لنا من العلم الآن قد استعدت له أمننا الحالية ، وعقولنا الانسانية ، وبها فهمنا آية : « ولله جنود السموات والأرض » وقد قسمنا الجنود إلى مهلكة ومحياة ، ولاجرم أن قوله فى الآية الأولى : « وكان الله عليها حكماً » إنما كان ذلك عند ذكر جنود المؤمنين المجاهدين ، ولكن لما قال : « ولله جنود السموات والأرض » وكان الله عزيراً حكماً كما قدمنا كانت العزة مناسبة لجنود النار التى أعدت للتعذيب ، إذن التقسيم الذى قسمناه للجنود من مقاصد القرآن ، فنفس الآية لوحت لتسمى الجنود ، جنود ذكرت معها العزة ، وجنود لم تذكر معها بل ذكر العلم ، وهذا المقام به تفهم : « والمدبرات أمراً » وتفهم : « وإن عليكم لحافظين » كما كانين « يعلمون ما يفعلون » ، وتفهم : « ان كل نفس لما عليها حافظ » ، وتفهم : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » ، وتفهم : « فاقسمات أمراً » ، وتفهم كيف أمرنا أن نؤمن بالله وملائكته إلى آخره ، وتفهم : « إن الله وملائكته يصلون على النبي » ، وتفهم : « شهد الله أنه لا إله إلا هو

والملائكة وأولوا العلم « فعتظ أولى العلم على الملائكة لأنهم كالمختصرين منهم ، وهذا يجب أن يكون ما ذكرناه هنا (من العقول الكبيرة السماوية والعقول الصغيرة الأرضية إنما هي آثار العناية الربانية والله معلم الملائكة وهؤلاء يفيضون الاطام والعلم على الناس والحيوان بأمر ربهم ، فآلة علم العلم ، والملاك يتلقى منه الخ) هو الذي جعله الآية في ثلاث كلمات .

ملخص ما تقدم وما بينى عليه

- (١) الله أكبر : في الجسم جنود هي الميكروبات السامة الداخلة فيه ، والخلايا التي في الجسم المدافعة عنه ، فهذان صفان من الجنود : جند مهاجم ، وجند مدافع .
 - (٢) وفي العالم المشاهد مثل ما في الجسم جنود مسلمة تحارب جنودا كافرة .
 - (٣) في العالم كله عوامل الحدوث ، وعوامل الفناء ، فهما جندان كجندى الجسم وجندى الانسان .
 - (٤) ورد أن قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن ، وأن ما يوصل إلى القلب إما لمة من الشيطان وإما إطام من الملك . إذن هما جيشان أيضا مرسلان للنفوس كالجيشين المرسلين للأجسام ، فإذا جاء الشرع بالنوع الأول فقد جاء علم الطب بالثاني أشبه بضرب مثل للأول .
 - (٥) جيشا النور والظلمة ، والحر والبرد ، كل يعقب الآخر وينظره بجيوش الجسم المحسوسة وما تبعها
 - (٦) جنود النور الكبرى من الكواكب وجنود النور الصغرى التي يصنعها الانسان فيما تقدم كجنود العقول الكبرى وهي الملائكة وجنود عقول الانسان والحيوان في الأرض .
- هذا ما فتح الله به في فهم قوله تعالى : « وثقه جنود السموات والأرض وكان الله عليهما حكيما » .
وقوله : وثقه جنود السموات والأرض وكان الله عزيزا حكيما . كتب بعد جبريوم الثلاثاء ٣ نوفمبر سنة ١٩٣١

لما اطلع على ما تقدم صديقي العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير . قال : لقد اطلعت على حديث للمهاتمغاغندي ، فوجدت به ما يشبه أن يكون ذبلا لهذا المقام ، فانه ذكر أمرين : حبا وخوفا ، ولينا وشدة ، وجعلهما محور كلامه ، أفلا تلحق هذه الصفات بالجنود . فقلت : حدثني بما قاله غاندي . فقال هالك ماجاه في جريدة الاهرام بتاريخ ١٧ اكتوبر سنة ١٩٣١ م وهذا نصه :

غاندي يصف رحلته

في المياه المصرية

المقاومة بالاعنف

قال المهاتمغاغندي في مقالة نشرتها له جريدة الهند الفتاة ما يأتي : « من محاسن الصدق أن الحديث بعد صلاة المساء دار على مسألة « المقاومة من غير عنف » وأتيح لأصدقائنا المصريين الذين ركبوا البخارة من السويس فرصة سماع شيء عن هذا الموضوع ، ولأرى بأسا في إعادة بعض ما قلته بهذه المناسبة : اننا بأعمالنا اليومية نقارم بعضنا بعضا من غير عنف ، وقد تفعل ذلك بعلم منا أو بغير علم ، وكل الجمعيات الصالحة قائمة على قاعدة اجتناب العنف ، وقد تبين لي أن الحياة مطردة الوجدان على الرغم من انها محوطة بعوامل الهدم والهلاك ، وهذا دليل على وجود ناموس أسمى من ناموس الهدم والتدمير ، ولا يمكن لجمعية حسنة النظام أن تكون قريصة من الفهم إلا اذا كانت تحت ذلك الناموس ومن غيره لاقية للحياة ، فان كان هذا هو ناموس الحياة كان حتما علينا أن نطبقه على حياتنا اليومية ، فحينما تقع الاحتكاكات ، وحينما نلتقي

بخصم ، علينا أن نغلبه بالتي هي أحسن ، وبهذه الكيفية الساذجة طبقت هذا الناموس على حياتي ، ولست أعنى أن جميع مشاكلي قد حلت ، ولكنني وجدت أن ناموس المحبة قد أدى إلى تحقيق الغاية بطريقة لن تتاح بناموس الهدم والعداء . وقد قنا في الهند بتطبيق هذا الناموس عيانا في أعظم مجال مستطاع ، ولست أدعى أن روح اجتناب العنف قد دبت في قلوب ثلثمائة مليون نفس من سكان الهند ، ولكنني أدعى انها تفلغت في النفوس أكثر من أية رسالة أودعوة وفي وقت وجيز لا يكاد يصدق ، ولم نكن كلنا نحن الهنود سواسية في اعتناق هذا المذهب ، بل كان لدى أغلبية كبيرة بمثابة ضرب من ضروب السياسة ، ومع هذا أودّ منكم أن تبينوا هل لم تتقدم الهند تقمعا عجيبا ظاهرا تحت حياية « المقاومة من غير عنف » ونفوذها العظيم الشأن ؟ »

وقلت ردّا على سؤال آخر : « إن الحصول على حالة عقلية للتمسك بمذهب المقاومة من غير عنف يتطلب الشيء الكثير من العناء والتدريب ، ويجب أن يكون بمثابة نظام نسير عليه في حياتنا اليومية وان كنا لانجد من نفسنا رغبة فيه فنقضى حياة كحياة الجندي ، ولكنني أوافق على رأي القائلين : انه ان لم يكن اعتناق هذا المذهب من صميم القلب والعقيدة النامة كان أشبه بقناع خارجي يضرب صاحبه وبالآخرين أيضا ، ولا يصل المرء إلى مرحلة الكمال في هذا المبدأ إلا متى خضع له جسما وعقلا ، وسار بموجبه قولاً وفعلًا ، ولكن المسألة هي دائما مسألة كفاح عقلي عظيم ، ليس لأني غير مطبوع على الغضب ولكنني أنجح في كل مرّة تقريبا أن أملك نفسي وأضبط عواظني ، ومهما تكن النتيجة فاني أشعر على السواء بكفاح يتنازعني لاتباع مبدأ اجتناب العنف بمحض إرادتي و بلا انقطاع ، وهذا النضال يزيد المرء قوة للظفر ، فالمقاومة من غير عنف سلاح القوي ، أما الضعيف اذا لجأ إليها كانت لديه بمثابة رياء ، فالخوف والمحبة على طرفي قبيض فالحبة لا تبالي عند ما تعطى ، ولا تدقق فيما تأخذ بدلا من العطاء ، المحبة تكافح العالم كما تكافح نفسها وفي النهاية تصير صاحبة السيادة على كل شعور ، وقد دلني الاختبار اليومي كما دلّ المشتغلين معي أن كل مسألة يمكن أن تحلّ اذا اعتزمنا أن نجعل ناموس الحقّ واجتناب العنف هما في نظري وجهها عملة واحدة (كذا) أما اذا كان الجنس البشري يتبع ناموس المحبة من حيث بدرى فلست أدري ، ولكن هذا لا يجب أن يشغل بالنا ، فهذا الناموس يسرى كناموس الجاذبية ، سواء أقبلناه أم لم قبله ، ومثلما يستطيع المتبحر في العلوم أن يأتي بالجنائب بتطبيق الناموس الطبيعيّ من عدّة وجوه ، كذلك الرجل الذي يطبق ناموس المحبة بدقة علمية يمكنه أن يأتي بجنائب أعظم ، لأن قوى المحبة واجتناب العنف هي أعجب كثيرا وأدهى من قوى الطبيعة كالكهرباء مثلا ، فالرجل الذي اكتشف المحبة وأرشدنا إليها هو في مذهبي أعظم من أعظم العلماء . على أن استكشافنا فيها لم يبلغ المدى الكافي لينسئ للجميع أن يشهدوا مفعولها ومبلغ تأثيرها ، هذا على كل حال هو الهنديان ، أو الهوس الذي أعمل مدفوعا به ، ولكنني أصرّح اني كلما توغلت في تطبيق هذا الناموس ازداد شعوري بمباهج الحياة ، ومباهج مشروع هذا الكون الأعظم ، وهو يعطيني سلاما وطمأنينة ويفسر لي خفايا الطبيعة بكيفية لا يسعني وصفها . انتهى

فلما أتمّ حديثه . قلت له : أما الشدة واللين ، والحب والخوف ، فانها من جنود الله ، لأنها من الجنود المعنوية وهي داخلة فيما تقدم . فقال : أنا إلى الآن لم أفهم ما معنى قول غاندي :

(١) إن الحياة مطردة الوجدان على الرغم من أنها محوطة بعوامل الهدم والهلاك ، ثم يقول : إن

الجميعة يجب عليها أن تسعى لنيل هذه الغاية ، فكيف يكون هدم الجنود الهلاك ، ثم يكون

الحب سائدا ، فأين هذا الحب إذن في هذه الدنيا ؟

(٢) وكيف يقول إن الحب له السيادة في العالم مع ان العالم كله شقاء وهلاك وتدمير الخ .

(٣) ثم كيف يقول : إن ناموس المحبة يعطيني سلاحا وطمأنينة ويفسرلى خفايا الطبيعة ، فما هذا التفسير؟
والطبيعة كلها شرّ وبلاء . وأنا اذا سألتك عن هذا فما خرجت عن منطوق الآية ، لأن الآية فيها
أن لله جنود السموات والأرض ، ومن جنوده هذه الجنود المهلكة التي يقو لها غاندى ، فأين
الحب السائد إذن في الأرض ؟ ولاحب ولاسلام ولاأمان في الأرض .

فقلت : قبل أن أجيب عن أسئلتك الثلاثة أشرح نقطة هامة : وهي الحب والخوف ، وهذا محب أن
ينطق بها عالم بوذى لم يدرس الاسلام حقّ دراسته ، ورد في الآثار : « نعم العبد صهيب ، لو لم يخف الله لم
يعصه » أى ان صهيبا رجل محبّ لله ، فهو يعبد حبا له ، لاخوفا منه ، والعبادة الصادرة عن محبة للعبود
هي الجديرة أن تسمى عبادة ، والمحبون أرقى من الخائفين ، قال تعالى : « بحبهم وبمحبتهم » ، فالحب هو
السعادة الحقيقية ، أما الخوف فأنما يجاء به لمن لايفقهون الجمال في هذا الوجود ، فهم يخوفون من العقاب
والأثم ان لم يكن فيها حكماء عاشقون لاصنع العالم ، مفرمون برقى عباده ، فأنما تكون آيلة للسقوط ، فالحب
الذي يشرحه غاندى هو أصل من الاصول العالية في الاسلام . هذا ما أردت ذكره أولا :

(١) أما الجواب عن السؤال الأول فأقول : إن الانسان بنظره إلى هذا العالم نظرا سطحيا يراه كله
هدما واهلاكا وتبديدا وقتلا وحربا وخسفا وزلزلة الخ هذا بحسب ما يظهر لنا ، ولكن المفكرون هم الذين
يعتقدون الحب العالم ، ولن ينسى لاسمى أن يعرف الحب العالم إلا بدرس الطبيعة دراسة تامة ، فهناك هنالك
يعرف أن هذا العالم كله أشبه بجسم واحد وفيه كرات لا يحصرها العدّ ، وهي كلها في تغير مستمر وحركة
متصلة ، تدار بجنود لانراها كما تدار أجسامنا بأرواحنا ، فالاحتراق في أجسامنا وتبدل صفاتنا رقى لأرواحنا
كما ان قلب عوامل العوالم كلها رقى لنفوس تديرها ، ونفس الاهلاك والتدمير مقدّمة للتجديد ، وكل ذلك
ارتقاء للنفوس المدبرات العاملات بالحب والعشق لاالخوف وحده ، وهذا العالم كله تتخلله جاذبية من أقصاه إلى
أقصاه ، فهي أشبه برسول المحبة ، أوعامل من عواملها

(٢) أما جواب السؤال الثاني ، وهو أن الحب له السيادة في العالم مع ان العالم كله تديره فانه مترتب
على جواب السؤال الأول وظاهر منه .

(٣) أما الجواب عن سؤال الثالث ، وهو أن ناموس المحبة يعطى سلاما وطمأنينة ويفسرلى خفايا
الطبيعة ، فهل بعد ماينته لك بيان ، أليس ما ذكرته من الاجال في الحب العالم ينطبق على جميع الطبيعة :
شمس يتبعها سيارات تجرى وراها أقمار ، أليس ذلك كله محبة ؟ هل الأرض تجرى حول الشمس إلا بما
نسميه جاذبية ؟ أليست أشبه بأثر من آثار المحبة ، فالعوالم والكواكب متجاذبة مرتبطة ، وأى حب بعد
هذا ! فلذا اضمحلّ نبات أروحيان فان ذلك للمحبة أيضا ، فإذا كان نبات ينفع بورقه أو ثمره الخ ثم يحلل إلى
عناصره ويرجع إلى المعمل العام في الأرض فيكون خلقا آخر ينفع به الانسان والحيوان ، فانه لولا المحبة
الدائمة السائدة في العالم لبقى المشيم على حاله لم يحلل فلم يكن خلقا آخر فلان تكون الفائدة ، فتكرار الهدم
والتجديد تكرار للنافع ، والهدم والتخريب تابعان للحركة العامة ، والحركة لا تكون إلا بالشوق ، والشوق
مصاحب للحب ، فالعالم كله في حركة ، والحركة للجاذبية ، والجاذبية محبة ، وبالحرركات تنجد الثمرات ، فالحب
هو نظام العالم والحمد لله رب العالمين . كتب ظهر يوم الخميس ٥ نوفمبر سنة ١٩٣١ م

فقال صاحبي ، هذا حسن وواضح ، وبقى عندي سؤال واحد ، وهو انه اذا كانت المحبة من جنود
الله التي في السموات والأرض والخوف قبضها وهما يقسمان القلوب ، فقلوب العامة للخوف ، والخاصة
للمحبة ، وهذان الجندان بهما انتظام العالم ، فهذا صار واضحاً ، ولكنى أريد أن أفهم موازنة المهاتم غاندى
بين المحبة في النوع الانساني وبين الجاذبية في الذرات ، وأن الذرات المادّية أطاعت ربها ، وأن الانسان

قد عصيه ، فكيف يكون هذا ؟ فقلت : إن النوع الانساني مفطور على صفات كثيرة ، ومنها صفة المحبة والفرام بالاجتماع ، والعطف العام غريزة كامنة فيه ، انك ترى النرة الواحدة التي لانراها قد أجمع العلماء قاطبة على أنها مركبة من قط كهر بائية بعدد معلوم (تقدم شرحه في سورة النور عند آية : الله نور السموات والأرض) سالها يدور حول موجهها في الثانية الواحدة (٦) آلاف مليون مليون مرة ، ولاجرم أن سرعة الحركة وانطلاقها ، وعدم توقفها ، ودوام ذلك النظام أبدا وأمدا سرمدا ، وراه قوة معنوية أعطته هذه الصفات ودوامها ، فلنسم تلك القوة محبة ، لأن الحركات عند الحيوان جميعها لاتكون إلا لمحبة ، فخرى صفار الحيوان لأتمهاتها ، واسراع الأمهات بالعطف نحو أبنائها ، والسير في القلوات للبحث عن الغذاء ، والجرى هربا من عدو مفاجئ ، كل ذلك حركات ناشتات عن :

(١) حب الصفار لأتمهاتها .

(٢) أوجب الأمهات لصفارها .

(٣) أوجب الغذاء الذي أوجبه الجوع .

(٤) أوجب البقاء ، ودوام الحياة الذي تعرض للفاجأة بالهلاك بسبب العدو المفاجئ .

فإذا كانت الحركات التي نعرفها كلها صادرات لأجل محبة ، هكذا فلننقس ما لانعلم على ما نعلم ولنسمها حبا ، وهذا الحب يوجب ما يضارع حب عطف الانسان على الانسان بظفرته ، فانك لن ترى شرقيا ولا غربيا على أى دين كان ، أو أمة ، أو محلة ، إلا وله شفقة ورحمة وعطف على الأطفال الباكين ، أو الفقراء الشاكين ، أو المساكين البائسين ، بل عطفه على الانسان تجاوزه إلى الحيوان ، فله عطف عليه عظيم .

الحركات المنتظمة في كهارب الذرات المسرعات جريا ، المنبعثات المتعدت على قيام هيكل الذرة الواحدة اللواتي منها أنتجت هذه العوالم كلها فصارت شموسا وأرضين لانعرف عددها كلها : قد أنتجت حيوانات لاحصرها تعيش بالمحبة ، وحفظ النرية ، والألفة العائمة ، فهذه الحركات المنتظمة في الذرة رأينا من نتائجها الأولى حركات الكواكب والشموس المنتظمة انتظام حركات الذرات ، ثم انتهى الأمر بعطف وغرام في الحيوان ، فإذا تحول في الحركات الأولى إلا ان جالها ونظامها ، وأنوارها المشرقات ، المكظومات المضغوطات المتداخلات لم تنتج إلا عن حب عظيم وراهها : أى ان هناك عقولا عظيمة تتقدحبة وغراما لاحد له وعظما ، وهذه المحبات كانت نتائجها في آخر الأمر محبات عرفناها في الحيوان ، فهي كما تكون الشجرة من حبة فتنتج حبة أيضا ، أما هذا الانسان الذي هو أرقى من الحيوان فانه خلق من هذه المحبة أيضا ولكن اعترضتها عوائق ، وأحيطت بموانع ، وغشت عليها غواش ، فهو أرواح تعدد بالملايين ، أرادت أن تنقسم الأرزاق والمنافع والأرض ، فضلت في العدل ، ووقعت في الحيرة ، حدث التحاسد والتباغض ، أصل العقول الانسانية انها مفطورة على المحبة ، وهذا شائع ذائع ، يسره عطف الأم والأب على النرية ، وعطف كل انسان على كل طفل وكل ضعيف ، ولكن العقبات الكثيرات غشت على تلك المحبة فسترتها وغطتها فكان التحاسد والحقد ، وغلب الشر وخيم على العقول فنامت المحبة تتر بص الفرس ، ومتى رأتها وقفت الانسان عليها واستخرجها من قلبه ظهرت فأنارت وجه الأرض ، كما ان العلماء في ألمانيا وغيرها يبحثون عن مكنون النرة ومخبوء ما فيها من القوى المكنونة فيها حتى اذا ظهرت أراحت الناس في أعمالهم الدنيوية ، ولكن هذه الذرة وقواها وان كانت هي أصل خلقنا ليس استخراج ما فيها من القوى كافيا لرقى الانسانية بل هذا رقى مادى لا غير ، وبعد ظهور هذه القوى يبقى الانسان على ما هو عليه ، فهو طماع حسود حقود جهول طفل غبي بعضه لبعض عدو (وهذا قوله تعالى : « قتل الانسان ما أكفره » وقوله : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا »

فالعوالم كلها من الذرة إلى الأرض إلى الشمس تجري بنظام وعملها متقن ، فهي لم تفسر الأمانة ولم تخن فيها ، فأما هذا الانسان فإنه خان الأمانة ولم يحم بحققها لظلمه وجهله ، انظر تفسير الآية في « سورة الأحزاب » والمعنى الثاني المذكور هناك .

فأما كشف ما في النفوس الانسانية من المحبات فإن هذا اذا انبعث منها وخرجت كرة أخرى بعد غيوبتها عنه تصبغ الانسانية كلها أشبه بشمس واحدة ، أو ذرة واحدة ، وكل نفس من النفوس الانسانية تكون أشبه بكهرب واحد من كهارب تلك الذرة المسرعات في جريهن ، وهذا الاسراع في الجري أنتج ذرة كاملة هكذا هذه النفوس الانسانية الأرضية متى أسرع في حركاتها العقلية والعلمية إلى غرض واحد ، وهدف واحد ، ومقصد واحد ، وهي المصلحة العامة ، فانها لا جرم تأتي إذ ذاك بنتائجها الحقة ، ويكون عالم الانسان إذ ذاك عظيماً ، وقوته لاتضارعها قوة ، وتكون نتائج هذه النفوس في انتظام حركاتها أبعد مدى ، وأرفع مقاماً ، وأكثر منافع من انتظام حركات كهارب الذرة الواحدة ، وفرق ما بين حركات كهارب وحركات أرواح ، لأن حركات الأرواح الانسانية المنتظمة التي تسرع إلى غرض واحد وهي الخير العام للانسانية ترجع إلى مقاصد العلل الأولى وهي عالم الملائكة « المدبرات أمراً » لا إلى نتائجها المادية البحتة . هذا هو السر في قول المهاتما غاندي : « إن الذي يكشف سر المحبة العامة أجدر بالاجلال من كل مخترع ومبتدع » وذلك لأن كل اختراع وابتداع في عصرنا فهو راجع لنفس المادة والنفوس باقية على ما هي عليه ، عليها غواشى التحاسد والطمع الذي يغطي المحبة كما تغطي غواشى المادة من صلابة وبرودة ونحوها ما تحتها من الأنوار التي منها تركيبت بحركات وراءها .

إن النفوس الانسانية يجب أن تكون كنفس واحدة ، وهذا هو تفسير ما يقوله المهاتما غاندي ، وهذا القول نفسه تفسير لقوله تعالى : « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » . ألم تر أن عدد الانسان مهما كثر على الأرض آلاف الملايين من الأولين والآخرين فإنه كله بالنسبة للعوالم من شمس ومجرات أقل من جزء لا يتجزأ ، فاذا جعلناه كله أشبه بذرة واحدة مركبة من كهارب لم يك تشبيها بعيداً ، وهو نفسه تفسير لقوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة » لأن هذه فطرتهم وهي « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله » وإذا كان خلق الله لا يغير فأنما يكون التغيير في الظواهر فحصل هناك التحاسد والتخاصم كما حصل في الأرض بعد انفصالها من الشمس اختلاف أجزاءها سيولة وصلابة وأحوالاً لا حصر لها ، فلما اختصم الناس أرسل لهم علماء وأنبياء وحكام ليعلموهم ، لأنهم لم يبقوا على فطرتهم ، فلما علموهم أخذ تابعو الأنبياء يختلفون ، فكل أتباع نبي مختلفون فيما بينهم ، وبين أتباع كل نبي والآخر اختلاف أشد وأوسع مدى ، وهذا قوله تعالى بعدما تقدم « فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

وقصارى الأمر أن حال الأمم اليوم هو الاختلاف والاختلاف عارض على المحبة ، وعقلاء الأرض يرون أنه يجب عليهم أن يرشدوا النوع الانساني أن يرجع إلى فطرتهم ، وفطرتهم هي المحبة العامة ، وهذه هي الغاية من خلقنا في هذه الأرض ، فغاية هذه التربية الأرضية التي أرسل لها الأنبياء وخلق الحكماء أن يصل هذا الانسان إلى فطرتهم الأولى ، وكل محاولة حارها أنبياؤنا وحكماؤنا إنما كان القصد منها أن يصل إلى هذه الغاية ، وما بمنالم نصل إليها فنحن نعيش على هذه الأرض في غاية النلة في أنفسنا وفي دولتنا سواء أ كنا أقوياء أم كنا ضعفاء .

فليجهد المسلمون بعد في قراءة جميع العلوم ، وحوز جميع الصناعات ، وليضارعوا الأمم ، ثم ليقودوهم

إلى السلام العام بقوتهم وعلمهم ، ولهذا الفتح العلمي العام أرسل نبينا صلى الله عليه وسلم ، فلئن فتحت مكة وفتحت فارس والروم ، ولئن رجع المسلمون الآن بمجددون قواهم لازالة الخطر عن أنفسهم فهذا مبادئ ولكن غايتها ما ذكرناه وهو الحب العام .

كان النبي صلى الله عليه وسلم يريد أن يجعل الناس أمة واحدة تحت راية الاسلام ، فاول آباؤنا الأولون ذلك ففشلوا أخيرا ، لان النوع الانساني لم يكن يحتمل ذلك ، فلنقم نحن الآن بما علينا ، ولنفكر في إسعاد الأمم كلها ، ولكن لن يتسنى لنا ذلك إلا بعد أن نقرأ كل علوم الأمم وندرسهم هم أنفسهم ، وبعد ذلك تقوم بدورنا ، ولكن هذا الدور ليس معناه اننا نحارب الأمم . كلا . بل نكون أقوى قهر على مدافعهم ونكون أقوى منهم ثم نعطف عليهم ونجعل الانسانية كلها أمة واحدة رجوعا إلى قوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة » .

فعلينا نحن المسلمين أن نكشف السر المصون المخبوء في عقول الانسانية وهي المحبة العامة ، إن حالنا الآن أشبه بحال النبي ﷺ وأصحابه وهم في مكة يقودون أنفسهم أولا ، وستأتي حال أخرى أرقى من هذه أشبه بحال الهجرة إلى المدينة وهي آية لاريب فيها .

إذن ظهر الآن معنى كلام « المهاتماندي » وتعليق عليه بأنه علينا نحن المسلمين أن نكشف هذا السر ، فهو يقول : « إن كشف هذا السر أحسن من كل مخترع » وانما كان كشف هذا السر علينا لأننا أهل له ، أولا لأن نبينا ﷺ رحمة للعالمين ، ثانيا لأننا وسط بين الشرق والغرب في ديارنا ، فنكشف أوروبا أن تهجم على الشرق الأقصى أوعلينا ، ونكشف الشرق الأقصى أن يهجم علينا أوعلى أوروبا . إذن علينا كشف سر المحبة لاعلى غيرنا . إذن يجب على المسلمين أن ينشطوا من الآن لهذا الكشف ، فيجتدوا في العلوم كلها من الآن .

إن جنكيزخان منذ بضعة قرون هو والترالذين معه أوغلاوا في بلادنا أولا وفي بلاد أوروبا ثانيا ، فهذا هجوم من الشرق على الغرب وامتنعه أخيرا إلا المصريون عند حلب ، وهام أولاء رجال التتار قبل المسيح بقرون هجموا على أوروبا فكان منهم تلك الأم الممجيبة التي كانت تحيط بدولة الرومان فأهلكتها وأتتجت أخيرا هؤلاء الاوروبيين الحاليين ، فنحن اليوم نريد أن نكشف سر المحبة لنزيل هذه الهجمات عن الانسانية ونوجهها لغرض واحد وهو النفع العام ، نحن جنود الله ، بل أعظم جنوده في الأرض ، فلنقم للعمل كما قام آباؤنا له ، ولكن خير أمة أخرجت للناس ، نأمر بالمعروف وننهي عن المنكر ، وهذا هو المقصود من قراءة ﴿ سورة الفتح ﴾ وفهمها وفهم كوننا خير أمة أخرجت للناس ، وقد ألفت كتاب « ابن الانسان » وستقرأ ملخصه قريبا في ﴿ سورة الحجرات ﴾ وفيه مبادئ الطرق التي بها انتظام الانسانية كلها ، وقد أحبه حكماء أوروبا ، وارتاحوا له ، وهذا من مبادئ اكتشاف سر المحبة العامة في النوع الانساني ، فليقرأه المسلمون بعدنا ، وليتمموا ما ابتدأناه حتى نكون خير أمة أخرجت للناس ، وحتى نكون نحن الذين نكشف السر الذي طلب المهاتماندي كشفه .

والى هنا تم الكلام على اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « ولله جنود السموات والأرض » والحمد لله رب العالمين . كتب ضحى يوم ٨ نوفمبر سنة ١٩٣١ م



اللطيفة الرابعة

في قوله تعالى « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق » ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً ينتفون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً

في هذه اللطيفة أربع جواهر

- الجوهرة الأولى في قوله تعالى : ليظهره على الدين كله .
- الجوهرة الثانية في قوله تعالى : رحاء بينهم .
- الجوهرة الثالثة في قوله تعالى : تراهم ركعاً سجداً .
- الجوهرة الرابعة في قوله تعالى : كزرع أخرج شطأه الخ .

الجوهرة الأولى في قوله تعالى : ليظهره على الدين كله

مسامرة بيني وبين صديق العلامة الذي اعتاد مناقشتي في هذا التفسير

اطلع على هذا العنوان فقال : لقد مضى أمثال هذا في سور كثيرة ، وذكرت عموم الرسالة وشرحتها شرحاً وافياً . فقلت نعم ، ولكنني الآن اطلعت على ما لم يكن ليدور بخلدني . فما أجمل أن أذكره ليطلع عليه المسلمون بعدنا . فقال وما هو ؟ قلت لأفتمم لك مقدمة فأقول : إن العلم الجزئي ضار ولكن العلم الكلي هو النافع . فقال : أنا لأدري ماذا تريد ؟ فقلت : إذا رأينا عالماً نبغ في الفلك ، أوفى الهندسة ، أوفى جميع الرياضيات ، أوفى العلوم الطبيعية ، أوفى فرع منها كعلم الحيوان ، أوفى العلوم اللسانية ، أوفى فرع منها مثل علم البديع ، هل تقبل شهادته في نظام هذه الدنيا ومجانيها ؟ وتقبل حكمه ، ونعته حكماً ؟ قال . كلا . قلت حسن فما تقول أيها الحبيب في أمر أم الإسلام ؟ أنقبل قول أي قائل كان ؟ أم نبحث عن من يعتد بقوله عن أحاط بالأمر الإسلامية علماً من حيث أخبارها . فقال : أما أنا فلم أفهم ما تريدون ؟ فقلت : هاهوذا الاستاذ (لوثروب استودارد) العالم الأمريكي الذي لم يعتقد دين الإسلام قد نشر كتابه « حاضر العالم الإسلامي » وقرأه أهل الغرب والشرق ، أفليس يكون هذا حجة إذا وصف الإسلام من حيث أن الرجل يحيط علماً بمجالات المسائل ودقاتها . فقال : أما هذا فكلامه مقبول إذا كان على هذا النقط لأنه إذا صح . هذا كان حازماً لشرطين : أحدهما انه عالم بالحوادث . الثاني انه غير متهم ، لأنه غير مسلم . فقلت حسن ، إذن أسمعك الآن قوله الذي يفيد معنى هذه الآية وهاهوذا قال في صفحة ١٣ وما بعدها في الجزء الأول من الكتاب المذكور مانصه :

« إن نشر الرسالة المحمدية لم يقم به رجال التبشير وحدهم ، ولا قصر الأمر عليهم دون سواهم ، هكذا ، بل شاركهم فيه جماعات عديدة من السياح والتجار والحجاج ، على اختلاف الأجناس . ولا يؤخذ من هذا انه لم يقم في المسلمين مبشرون ارتشفوا كوثوس الحمام في سبيل الدعوة الإسلامية ، فعديد المبشرين الذين هم على هذا الطراز كثير ، وذلك ظاهر بين في أمر الطرق الدينية مما لا يحتاج إلى برهان ، بل أي دليل أقطع من المبشرين السنوسيين ، الحس الغير الذين خرجتهم زوايا الصحراء وهم يستدون بالالوف المؤلفة ،

وما انفسكوا يجوبون كل بلاد وثنية ، مبشرين بالوحدانية ، داعين إلى الاسلام ، وهذه الأعمال التي قام بها المبشرون المسلمون في غرب افريقيا وأوسطها خلال القرن التاسع عشر إلى اليوم للجبية من الجباب الكبرى وقد اعترف عدد كبير من الغربيين بهذا الأمر . فقد قال أحد الانجليز في هذا الصدد منذ عشرين سنة : « إن الاسلام ليفوز في أواسط أفريقية فوزا عظيما ، حيث الوثنية تختفي من أمامه اختفاء الظلام من فلق الصباح ، وحيث الدعوة النصرانية بانت كأنها خرافة من الخرافات » .

وقال مبشر روستنتي فرنسي : « مابرح الاسلام يسير بقوة منذ نشوئه حتى اليوم ، فلم يعثر في سبيله إلا القليل ، وما زال يسير في جهات الأرض حتى بلغ قلب أفريقية ، مذلا أشق المصاعب ، ومجتازا أشد المصاعب ، غير واهن العزم ، فالاسلام حقا لا يهرب في سبيله شيئا ، وهو لا ينظر إلى النصرانية منازعته الشديدة نظرة المقت والازدراء ، فلهدا هو حقيق بالظفر والنصر ، إذ بينما كان النصارى يعملون بفتح افريقية في نومهم ، فتح المسلمون جميع بقاع القارة في يقظتهم ، وأما السبيل الذي يسير فيه الاسلام جنوبا في افريقية فهو من الرائع العريب ، منذ عدة سنوات عثرت الحكومة الانكليزية على غير متوقع ، على أن المبشرين المسلمين مخترقون « نياسلندة » دعاة إلى الرسالة المحمدية ، وبعد البحث والاستقصاء ، واذا كاه العيون ، وجدت تلك الحكومة أن المبشرين إنما هم من عرب زنجبار ، وقد بدأوا عملهم هذا منذ سنة ١٩٠٠ م وانه بعد مضي عقد من السنين على شروعهم في جهاد التبشير ، كانت كل قرية في جنوب « نياسلندة » قد أسلمت وفيها مسجد ، ومدرسة اسلامية ، ومعلمون مسلمون ، ومع أن هذه الدعوة كانت كما هو ظاهر من أمرها وسيلة شديدة لتضعف سلطة المستعمرين وسيطرتهم فلم تجسر الحكومة الانكليزية على مقاومتها خيفة ازدياد انتشارها في الأقطار الأخرى » .

ويقول بعض المفكرين الغربيين في هذا العصر : « انه لا يمضي مدة طويلة منذ اليوم حتى يرى الاسلام قد اجتاز (زمباري) وانتشر في جنوب أفريقية انتشارا عاما فيطبق القارة بأسرها ، وليس ظفر الاسلام في أفريقية مقصورا على الوثنية غصب ، بل على النصرانية الافريقية كذلك ، إذ ترى الآن الذين تنصروا في غرب افريقية على يد المبشرين الفريجة يتناقصون عددا تناقصا فاحشا ، وذلك لارتداد غالبهم عن النصرانية ودخولهم في الاسلام . زد على ذلك أن النصرانية في الحبشة ، إنما باتت في خطر شديد من جراء سيول الاسلام الطامية ، من بعدما كانت فيما مضى سدا منيعا في وجه الاسلام ، والغريب في هذا كل الغرابة أن الأعباش أنفسهم غدوا اليوم يدخلون في الاسلام أفواجا متلاحقة ، لاعلى يد فتوح حربية ، بل فتوح سلمية دينية » .

وقال أحد الثقات الغربيين حديثا : « منذ خمسين إلى ستين سنة خلت كنت ترى قبائل الأعباش العديدة لا يكاد يرى فيها مسلم واحد ، أما اليوم فغالب هذه القبائل هم مسلمون مؤمنون بالرسالة المحمدية » . وربما كان ظفر الاسلام في افريقية اليوم أعظم ظفر لاقاء المبشرون المسلمون حديثا ، بيد أن هذا ليس جميع الظفر الاسلامي ، بل هناك غيره مثله في سائر أنحاء العالم ، وقد أتينا في الفصل السابق من هذا الكتاب على ذكر حركة الأحرار السياسية في بلاد التر الروسية ، بحيث بقي علينا الكلام على النهضة الدينية الجبية التي رافقت تلك اليقظة التثريية ، كان الترماربحوا منذ عهد بعيد في الحكم الروسي ، وقد جهدت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية أعظم الجهد لتنصيرهم ، فأدركت في بعض المواضع بعض النجاح الذي لا يذكر ، غير أنه لما انتشرت اليقظة الاسلامية العامة ، ووصل ما وصل منها إلى بلاد التر في أوائل القرن التاسع عشر ، هب التر للحال يستردون إخوانهم المنتصرين إلى الاسلام . فلم يمض غير اليسير من الزمن حتى عاد جميع هؤلاء فانتحلوا دين الرسالة ، على جميع ما بذلته الكنيسة الأرثوذكسية من العناء الأشق : ولجأت إليه من

مختلف الذرائع والوسائل لتحول دون ذلك ، فلم تلق شيئا من النجاح بالرغم مما اتخذته الحكومة الروسية من أحكام الجزاء والعقاب ، ووسائل القهر والاكراه ، على أن المبشرين المسلمين التزلم بقصروا أمرهم على هذا ، بل شرعوا في نشر الاسلام في القبائل التركية الفنلندية الأتية المقيمة في الشمال من بلاد النثر ، غير مباينين بمقاومة حكام الروس لهم ولو لاقوا من وراء ذلك من الهول ما لاقوا » انتهى .
فلما سمع ذلك صاحبي . قال : حسن والله ، هذا معنى ظهوره على الدين كله ، وهذا أمر عجب كيف ينتشر الاسلام في تلك البلاد التي يحكمها الفرنجة وهم أخوف الناس وأكثرهم عدواة للاسلام . انتهى الكلام على الجوهرة الأولى في قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » والحمد لله رب العالمين .

الجوهرة الثانية في قوله تعالى : أشداه على الكفار رحماء بينهم

في هذه الجوهرة فصول

الفصل الأول في قوله تعالى : أشداه على الكفار

وبيان أن هذه الشدة أحسن بها أهل أوروبا في زماننا بعد الحرب الكبرى

فانظر ماجاء في هامش ذلك الكتاب بقلم الأمير شكيب أرسلان ، إذ أبان أن الدول الأوروبية التي ترعد خوفا من البلشفيك ، خافت ان هي استعانت بالمسلمين عليهم أن يهلكوها مصداقا لهذه الآية ، وهذا نصه بالحرف الواحد :

« قد نشر العالم الاجتماعي الكبير (غويظليمو فريبدو) مقالة في جريدة (الايلاوستراسيون) عنوانها « أوروبا وآسيا » بين فيها أن الحرب العامة أحدثت انقلابات متناقضة ، فباعدت وقرّبت بين القارات ، وأنه من العادة اذا خرجت سلطنة عظيمة ظافرة من حرب من الحروب ، ازدادت هيبتها وانبسط سلطانها عن ذي قبل ، والحال أنه بعد أن خرجت انكلترا ظافرة من أكبر حرب في الدنيا ، ثارت في وجهها أفغانستان والمندم مصر ، وبعد أن كانت تركية اضمحلت سنة ١٩١٨ عادت فنهضت وردت انكلترا وحليفاتها على أعقابهن ، وكذلك الصين بالرغم من الثورة التي تمزق أحشاءها ، نطلب استرداد البلاد التي احتلت منها وعدم مسّ شيء من استقلالها ، فآسيا تقوم على أوروبا على حين هي آخذة بمبادئ أوروبا وليست تأخذ من أوروبا وأمريكا أسلحة خشب ، بل بمبادئ وأفكارا تقاثلها بها . قال : وسبب ذلك هو انهيار الدولة الروسية فان أوروبا كانت سنة ١٩١٤ كتلة متحدة متينة متماسكة بالرغم من جميع المناظرات والمناهضات التي كانت بين أجزائها ، فقد كانت السلطنة الروسية والسلطنة الانكليزية متناظرتين في آسيا ، ولكن من جهة أخرى كنت ترى كل واحدة منهما شاذة إزرا الأخرى ، وكانت أوروبا بأجمعها تستفيد من الرعب الذي تلقيه الروسية في قلب آسيا ، فسقوط السلطنة الروسية كان مبدءا خلاص آسيا ، وقد أشارت جريدة الطان بتاريخ (٨) حزيران سنة ١٩٢٣ إلى مقالة (فريبدو) هذه وأيدت رأيه من جهة كون انهيار الروسية هو الذي كان مبدءا تحرير آسيا ، وهذا عين ماورد في مقالة (روجرلابون) التي عرّ بناها عن مجلة باريز ، وكان أحد الروس اقترح علينا سنة ١٩١٩ نشر مقالة في جريدة روسية تصدر في برلين ، غرّرتنا في ذلك الوقت له مقالة نبين بها الأسباب الداعية إلى الاتحاد بين الروس والشرقيين وتلقون سياسة الروسية الماضية التي كانت عبارة عن قهر الشرق وملاشاة الدولة العثمانية لفائدة الدول الغربية ، فكان جعل الحسائر بالمال والرجال على الروسية ، ومعظم الفوائد لانكلترا وفرنسا ، لأنه من المحقق لولا ثقل حمل الروسية على ظهر العثمانيين ، وكونهم أصبحوا من عدواة الروس ، بحالة لا يملكون معها قبضا ولا بسطا ، لما كان يمكن فرنسا الاستيلاء على الجزائر ، ولا على

تونس ، ولا إيطاليا دخول طرابلس ، ولا انكترا احتلال مصر والسودان ، بل كانت الدولة العثمانية بأمنها ناحية الروسية تقدر على حماية هذه البلدان لاسيما في بداية الأمر ، فالروسيا هي التي كانت سبب سقوط الشرق وواسطة تقسيمه بين الدول الاستعمارية ، وتحول الحكومة القيصرية إلى البلشفية هو الذي مكن اليوم الشرق من أن يتنفس : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » فهذا المعنى كنت أوضحته قبل أن ابتدأ الكتاب الاوروبون يبنهون إليه .

ثم ان هناك جملة وردت في كلام العلامة (فريدو) فيها معنى كبير ينبغي أن ينم النظر فيه جميع الشرقيين الا وهو قوله : « إن روسيا وانكترا مع تناظرهما وتنافسهما في الشرق كانت كل منهما شاذة إزرا الأخرى » ومعنى ذلك أن روسيا كانت تقم أظفار الأتراك والفرس والصينيين ، فبملاشاة قوتهم أصبحوا لا يقدرّون على إغائة الهنود والأفغان والمصريين والعرب الذين مدت يدها إليهم انكترا بالبطش والغصب ، وكذلك انكترا باستيلائها على هؤلاء قد عطلت منهم كل قوة حربية ، فأصبحوا لا يقدرّون أن يؤبدوا الدولة العثمانية ولا الدولة الفارسية ولا تركستان ولا الصين بشيء ، فكانت كل من روسيا وانكترا قد شدت إحداهما إزر الأخرى بطبيعة الحال ، وكان بينهما تضامن وان لم يكن جرى عليه تواطؤ من قبل فهو جار بالفعل ، ومن الامور التي تؤيد هذا وقوع هذا التضامن بدون تواطؤ ، ليس بين أوروبا والروسيا القيصرية لحسب ، بل بين أوروبا والروسيا البلشفية نفسها مع شدة العداوة التي بين الفريقين ، فان الدول الغربية أثارّت على البولشفيك الأمبرال كولوشان والجنرال دنيكين والجنرال بودينيش والجنرال فرانجل ، والمملكة البولونية ، وحاولت إثارة الأرمن والكرج ، وكل قوم ترجو فيهم النهضة لقتال الحكومة البلشفية التي ترى فيها الخطر الأعظم على كيان الهيئة الاجتماعية الأوروبية ، وقد بذت انكترا وفرنسا في تسليح هذه الأقوام وسوقهم على روسيا مئات الملايين ، ولاتزالان إلى هذه الساعة تترصدان الفرص وتربصان بالبولشفيك الدوائر . لكن قد حذرت هاتان الدولتان كل الحذر من أن تحرك على البولشفيك قوة إسلامية ، فعرض بعضهم الرأي بالاتفاق مع تركيا وتسليحها وسوقها على روسيا من جهة القوقاس حيث ينضم إلى الترك هناك الكرج والطاغستانيون والتر ، فلم يقبل الحلفاء هذا الرأي أصلا ، ولاراق لهم أن تسليح الجهم ، ولا الأفغان ، ولا بخاري ولاخيوة ، ولا فرغانة ، ولا غيرها من تركستان ، ولارمى البولشفيك بهذه القوات كلها ، وماذا إلا لأنهم يرون الخطر الاسلامي أعظم من الخطر البولشفي مهما كان الخطر البولشفي عظيما .

ومن الأدلة البارزة على ذلك أنه لما نفي المرحوم أنورباشا من البولشفيكين ، ورحم موسكو سنة ١٩٢١ إلى باطوم ، ومنها انسل إلى بخاري ، وأثار نورة تركستان الهائلة التي حشد البولشفيكين فيالق جرارة لقمعها ، لم يفكر أحد بأوروبا في إمداد أنور على البولشفيك ، بل عند ماسقط أنور شهيدا في أوائل أغسطس سنة ١٩٢٢ فرح بقتله الحلفاء ، ولم تحف الجرائد الانكليزية سرورها . وفي هذا مقنع لمن يبقى عنده شيء من الريب في شدة تضامن أوروبا بازاء الشرق . انتهى الكلام على الفصل الأوّل والجوهرة الثانية فيه والحمد لله رب العالمين

شكيب أرسلان

الفصل الثاني في تحف المسلمين لتلك الشدة

وظهور المصلحين منهم لايقاد نارها

ولأذكر مصلحا منهم على سبيل المثال وهو الاستاذ المرحوم جمال الدين الأفغاني الذي نشر مبادئ الحرية وكان حرا على الملوك السنبدّين ، ولأجعل الكلام فيه في مبحثين :

المبحث الأوّل في عداوته للسنبدّين

جاء في هامش كتاب « حاضر العالم الاسلامي » المذكور بقلم نفس الأمير شكيب أرسلان مانصه :
 في أحد الأيام قدم على جمال الدين الأفغاني رجل من الحجم ، باني المذهب ، اسمه رضا آقا خان ،
 صادف أنه وجد مع جمال الدين في حبس واحد في قزوين عند ما اعتقله الشاه ، فصلت بينهما محبة أكيدة ،
 ثم تفارقا عند ما أخرج جمال الدين من الحبس ونفي إلى بغداد ، ثم أخلى سبيل رضا آقا هذا ، ولما بلغه مجيء
 السيد إلى الاستانة جاء يزوره فيها ، فسرت به السيد كثيرا ، وكان دائما بمحادثه ، ويتكلمان على شقاء الأمة
 الإيرانية بسوء ادارة سلطانها ناصر الدين . فقال رضا آقا خان يوما انه هو مستعد أن يضحي نفسه لتخليص
 أمته . فقال له جمال الدين : ان كان كذلك فأذهب وافعل ، فذهب رضا آقا خان ، وبعد أشهر بينا
 ناصر الدين شاه في جامع عبدالعظيم في طهران إذ دنا منه هذا الرجل وقطعه غيلة وقال له : بدى از جمال الدين
 أى خذها من يد جمال الدين ، ووردت الأخبار إلى الاستانة وتحدث بها الناس كما لا يخفى ، فأبدى السيد
 جمال الدين مزيد سروره بهذا الخبر وشرع يقول : « قد تحقق الآن أن الأمة الفارسية لم تمت وانما أمة لم
 تقطع منها الآمال ، لأن الأمة التي يقوم من أبنائها من يأخذ بثأرها ويفتك بالطاغى الذي على رأسها ، لا
 تكون قد فقدت جوائيم الحياة » .

وكلاما من هذا القبيل كان يردده ، ثم لما ورد من مجلة « الايلاستراسيون » التصويرية الفرنسية
 وفيها صورة القاتل رضا آقا خان مصالوبا معلقا والناس ينظرون من حوله هتف : علو في الحياة وفي الممات .
 وقال : انظروا كيف علقوه عاليا عليهم حتى يكون ذلك رمزا إلى أنهم كلهم كانوا من دونه ، وكان الجواسيس
 ينقلون إلى السلطان كل كلمة يفوه بها السيد ، فلم يشك عبد الجيد في كون قتل الشاه كان بسبب جمال الدين
 وانه مازال وراء الشاه حتى أنزله في قبره كما قال : ومن الغريب أن الشاه بعد أن خلى سراح جمال الدين ،
 وذهب هذا إلى أوروبا بلغ الشاه أن المترجم كان يسي في تدير مكيدة مع بعض الإيرانيين لخلع الشاه أولقته
 فندم جدا على افلاته ، ويقال انه هو الذي بعث إلى السلطان عبد الجيد يرجونه استقدام جمال الدين إليه
 ووضعه تحت المراقبة أمانا من شر غوائله ، فاستقدمه السلطان بكتاب من قلم أبي الهدى ، ولما بلغ الاستانة
 أمر بالمبالغة في بره وإكرامه ، ليلهي عن عداوة شاه الحجم ، فكان من ذلك ما كان ، ولا يمنع حذر من
 قدر . فلما تحقق السلطان كيفية قتل الشاه غضب غضبا شديدا ، وأمر بتشديد المراقبة على المترجم ، ومنع
 أى أحد من الاختلاط به إلا بإرادة سلطانية ، فأصبح السيد في قصره محبوسا ، وكانت الحكومة الإيرانية
 شرعت في تحقيق حادثة القتل ، فثبت لديها إغراء جمال الدين لرضا آقا خان بالاشتراك مع شخص فارسي
 آخر اسمه رضا آقا خان أيضا ، وشخص بغدادى اسمه الشيخ ابراهيم ، فطلبت الدولة الإيرانية من الباب العالي
 تسليمها هؤلاء الثلاثة ، فالسلطان عبد الجيد أبى تسليم جمال الدين ، ولكن الشخصين الآخرين بلفظي أنه
 جرى تسليمهما ، وقتلا في إيران بحجة اشتراكهما بالمؤامرة ، ثم ان التصديق بلغ حده على المترجم حتى
 أرسل إلى « فيس موريس » مستشار سفارة إنجلترا يلتمس منه إيصاله إلى باخرة يخرج بها من الاستانة ،
 فحضر « فيس موريس » إليه وتعهد له بما طلب ، واذ ذاك بلغ السلطان الخبر ، فأرسل إليه أحد حجابيه
 يستعطف خاطره باسم الاسلام أن لا يرضى بمس كرامة الخليفة إلى هذا الحد ، ولا يلتمس حياية دولة أجنبية ،
 فنارت في أنفه حية الاسلام ، وبعد أن كان زم حقايبه للسفر . قال لفيس موريس : انه عدل عن السفر ،
 ومهما كان فليكن ، ولكن المراقبة كانت لم تزل باقية ، وكل من أراد أن يشاهده فلا بد له من إذن خاص ،
 وبعد أشهر من هذه الحادثة ظهر في حنكه مرض السرطان واشتد عليه ، وصدرت الإرادة السنية بإجراء
 عملية جراحية ، يتولاها قبور زاده اسكندر باشا ، كبير جراحى القصر السلطاني ، وكان هذا مقربا جدا إلى
 الحضرة السلطانية ، فأجرى له العملية فلم تنجح ، وما لبث إلا أياما فلائلا حتى فاضت روحه ، رحمه الله

وعنى عنه . والى هنا تم الكلام على المبحث الأول من الفصل الثاني والحمد لله رب العالمين .
المبحث الثاني من الفصل الثاني في صفاته وفعالته

وهاك ما جاء بقلم الأمير شكيب أرسلان في هامش الكتاب المذكور أيضا وهذا نصه : —
ولد السيد جمال الدين الأفغاني في مطلع القرن التاسع عشر في « أسد آباد » بالقرب من همدان في بلاد فارس ، وهو أفغاني الأرومة لافارسي ، يتحدر نسبا ، كما يدل لقب سيادته على هذا ، من العرة النبوية الطاهرة ، ويحجى في عروقه اسم العربي المبعث الكريم .

كان جمال الدين سيد النافعين الحكماء ، وأمير الخطباء البلغاء ، وداهية من أعظم الداهية ، دامغ الحجية ، قاطع البرهان ، ثبت الجنان ، متوقد العزم ، شديد المهابة ، كأن في ناسوته أسرار المغناطيسية ، فلهذا كان المنهاج الذي نهجه عظيما ، وكانت سيرته كبيرة ، فبلغ من علو المنزلة في المسلمين ما قل أن يبلغ مثله سواء ، وكان سائحا جوبا ، طاف العالم الاسلامي قطرا قطرا ، وجال غربي أوروبا بلدا بلدا ، فاكتسب من هذه السياحات الكبرى ، ومن الاطلاع العميق . والتبصر الواسع ، في سير العالم والأمم ، علما راسخا ، واكتنه أسرار خفية ، واستنبط غوامض كثيرة ، فأعانه ذلك عونا كبيرا على القيام بجلال الأعمال التي قام بها ، وكان جمال الدين يعامل سجيته وطبعه وخلقه ، داعيا مسلما كبيرا ، فكأنه على وفور استعداده ومواهبه إنما خلقه الله في المسلمين لنشر الدعوة حسب ، فأتقادت له نفوسهم ، وطافت متعاقدة من حوله قلوبهم ، فليس هناك من قطر من الأقطار الاسلامية وطئت أرضه قدما جمال الدين إلا وكانت فيه ثورة فكرية اجتماعية ، لا تحبو نارها ، ولا يقبّد أنوارها ، وكان يختلف عن السنوسي منهاجا ، فجمال انكب على السياسة وشؤونها وذلك على علوم الدين وترقيتها ، غير أن السيد جمال الدين الأفغاني كان أول مسلم يقن بخطور السيطرة الغربية المنتشرة في الشرق الاسلامي ، وتمثل عواقبها فيما اذا طال عهدا ، وامتدت حياتها ، ورسخت في تربة الشرق وأدرك شؤم المستقبل ، وما سينزل بساحة الاسلام والمسلمين من النائية الكبرى ، اذا لبث الشرق الاسلامي على حال مثل حاله التي كان عليها ، فهدب جمال يضحي بنفسه ، ويفنى حياته ، في سبيل إيقاظ العالم الاسلامي وانهار بسوء العقبي ، ومدعوه إلى اعداد ذرائع الدفاع لساعة يصبح فيها التغيير ، فلما اشتهر شأن جمال الدين خشيت الحكومات الاستعمارية أمره ، وحسبت له ألف حساب ، ففتته بحجة أنه هائج المسلمين ، ولم تحض دولة جبالا وتضطهده مثل ماخافته واضطهده الدولة البريطانية ، فسجنته في الهند مدة ، ثم أطلقت سراحه ، وجاء إلى مصر حوالي سنة ١٨٨٠ وكانت له يد في الثورة العرابية التي أوقدت نارها في وجه الغربيين ، فلما احتل الانجليز مصر سنة ١٨٨٢ نفوا جبالا للحال ، فزابل مصر وأنشأ يسبح في مختلف البلدان حتى وصل إلى القسطنطينية ، فالتقاء عبد الحميد بطل الجامعة الاسلامية بالبرّة والكرامة ، وقرّبه منه ، ورفع منزلته ، فسحرجال السلطان الداهية بتوقد ذاته ونفسه الكبيرة ، فقلده السلطان رئاسة العمل في سبيل الدعوة للجامعة الاسلامية ، ويفلب أن ماناله السلطان عبد الحميد من النجاح في سياسته في سبيل الجامعة الاسلامية إنما كان على يد جمال الدين ، المتوقد الهمة ، المشتعل العزم ، والتحق جمال الدين بالرفيق الأعلى سنة ١٨٩٦ شيخا وعاملا كبيرا في سبيل النهضة الاسلامية حتى النفس الأخير من أنفاسه ، وهاك ملخص تعاليم جمال الدين : —

« العالم الافرنجي على اختلاف أئمة وشعوبه عرقا وجنسية ، هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم وللإسلام على الخصوص ، بجميع الدول النصرانية متحدة معا على ذلك الممالك الاسلامية ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، الروح الصليبية لم تبرح كامنة في صدور النصراني ككون النار في الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة في قلوبهم حتى اليوم كما كانت في قلب بطرس الناسك من قبل ، فالنصرانية لم يزل التعصب

مستقرًا في عناصرها ، متغلغلا في أحشائها ، و متمشيا في كل عرق من عروقها ، وهي أبدا ناظرة إلى الاسلام
 نظرة العدا ، والحق ، والتعصب الديني المقوت . وحقيقة هذا الأمر وتديجته واقعتان في كثير من الشؤون
 الخطيرة والمواضع الكبرى ، حيث القوانين والشرائع الدولية لم تعامل فيها الأمم الاسلامية مستوية مع الأمم
 النصرانية ، فتتحلل الدول النصرانية أعدارا لها في كرها وهجومها وعدوانها على الممالك الاسلامية وأذلالها
 واكراهها بقولها : « إن الممالك الاسلامية هذه إنما هي من الانحطاط والتدلي بحيث لا يستطيع أن تكون
 قوامة على شؤون نفسها بنفسها » وفوق جيع هذا فهذه الدول النصرانية عينها لم تفتأ تعمل هذا من ناحية
 وتندرج بألوف النرائع من نواح أخرى ، حتى بالحرب والحديد والنار . للقضاء على كل حركة حارها المسلمون
 في بلادهم وديارهم في سبيل الاصلاح والنهضة ، جميع الشعوب النصرانية بجمعة متفقة على عدا الاسلام ،
 وروح هذا العدا متمثلة بجهد جميع هذه الشعوب ، جهدا خفيا مستترا متواليا لسحق الاسلام سحقا ،
 تأخذ النصرانية شواعر كل مسلم ، وآماله ، ورغباته ، التي تجول في صدره ، ثم تمثلها بصور الهزء والسخرية
 والعبث والازدراء ، فان ما يدعوه الفرنجة عندنا في الشرق نعتبا مذموما محرما ، هو عندهم في بلادهم
 وأوطانهم العصبية الجنسية المباركة ، والقومية المقدسة ، والوطنية المعبودة ، وأن ما يدعونه عندهم في الغرب
 إبادة النفس ، والشتم ، والشرف الوطني ، والعزة القومية ، يعتدونه في الشرق غلوا مكروها ، وافراطا في
 حب الوطن ضارًا ، ومقتا ، وشناة للأجنبي الغربي .

جميع هذا يوضح أن العالم الاسلامي يجب عليه أن يتحد اتحادا دفاعيا عاما ، مستمسك الأطراف وثيق
 العرى ، ليستطيع بذلك الزياد عن كيانه ، ووقاية نفسه من الفناء المقبل . وللوصول إلى هذه الغاية الكبرى
 إنما يجب عليه اكتناء أسباب تقدم الغرب ، والوقوف على تفوقه وقدرته « انتهى الكلام على الفصل الثاني
 والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثالث

في شدة المسلمين على الكفار في زماننا هذا وبعض آثاره

في هذا الفصل مبحثان

المبحث الأول في بيان تآزر المسلمين فعلا

جاء في كتاب «حاضر العالم الاسلامي» المذكور مانسه : « في سنة ١٩١١ أغارت ايطاليا معتدية على طرابلس
 الغرب الافريقية التابعة للدولة العثمانية على غير ما علة سوى الاستعمار ، وفي سنة ١٩١٢ م تألبت الدول
 البلقانية النصرانية ، وأوقدت نار الحرب على تركيا ، غسرت تركيا في هذه الحرب جميع أملاكها الاوروبية ،
 فلم يبق من جميع ما كان لها في أوروبا غير القسطنطينية معرضة لخطر الغارات عليها ، ومهددة شر تهديد ،
 وفي تلك الفسوز انتقت انكلترا وروسيا على خنق الثورة الفارسية ، وكانت فرنسا على أثر معضلة «أغادير»
 تحرق الأرم ، فعضت على مراكش بالنواجذ ، وأنفذت فيها الخبال ، وهكذا في خلال سنتين توالى الحلات
 الاوروبية تترى على العالم الاسلامي ، حلات العدوان والاعتداء المحض ، فزقت ما كان باقيا منه حتى ذلك
 العهد سلما شر مزق ، فزل ذلك على الأمم الاسلامية قاطبة نزول الصاعقة ، يصم الآذان دويها ، فأخذ
 العالم الاسلامي في المشرق والمغرب يقوم ويقعد مشتتلا غضبا وحنقا ، فعادت الجامعة الاسلامية إلى سابق
 حالها تجرى تجرى سريعا ، وقد تحقق للمسلمين الآن ما كان ينبغي به على انقطاع دعاة الجامعة الاسلامية منذ
 خمسين سنة . الحرب الصليبية الجديدة لذلك الممالك الاسلامية دكا ، وصدق جميع ما كان يذيعه جمال الدين
 الأفغاني الحكيم العظيم ، وأخذت نتائج الجامعة الاسلامية بتدنى ، ففي طرابلس الغرب انبرى الترك والعرب
 يقاتلون جنبا إلى جنب بروح محببة تبعثها فيهم دعوة الجامعة الاسلامية من بعد ما كانوا قبيل ذلك على حال

من الازرار والتنافر شديدة ، فلقى المعتدون الطليان أمامهم مقاومة مستبسلين ، مل صدورهم ضرم من التعصب لا يطفأ ، ضرم بزیده العالم الاسلامی وقیدا مما حل ساسة الغرب على الجزع والارتباك شديدا ، فأخذوا يتساهلون في الخطب الكبير ، وفي الذی عساه أن ينفجر انفجارا علما في مشرق العالم الاسلامی ومغربہ . فقال غبريال هانوتو ، وهو وزير فرنسی من وزراء الخابجية السابقين : « بالله لماذا وجدت إيطاليا طرابلس غير المحصنة كوكر الزناير الساعة ؟ أفليس لأنها لا تحارب تركيا وحدها بل العالم الاسلامی أجمع ، فأيطاليا جنت على نفسها وعلينا جناية لا يعلم غير الله عاقبتها ومتهاها » . ولم يكن خنق انكسرتا وروسيا لثورة إيران ومحق فرنسا لاستقلال مراكش بأقل استنارة للعالم الاسلامی من حرب طرابلس ، فزادت نار الغضب احتدما ، غير أنه لما نشبت الحرب البلقانية ، طفح الكيل وبلت الروح التراقي ، فبات المسلمون من الصين حتى الكونغو يرقبون أبناء الحرب ونتيجتها ، وقولهم على آخر من جبر القضا ، فلما طير البرق نبأ الكارثة التركية في البلقان أجفل العالم الاسلامی للخطب أيما اجفال ، وبلت صرخاته عنان السماء ، فقال أحد مسلمي الهند في نداء وجهه إلى بني قومه : « بوقد ملك اليونان نار حروب صليبية جديدة ، ويستنصر وزراء بريطانيا تعصب النصرانية على الاسلام ، ويأتمر وزراء روسيا في بطرسبرج لرفع الصليب وشكك على قبة مسجد « آجيا صوفيا » فاليوم هم يأترون وينشاررون في هذا الخطب ، وغدا يفعلون مثل ذلك للاستيلاء على مسجد عمر بن الخطاب (المسجد الأقصى في بيت المقدس) . أيها المؤمنون الاخوة : اتعدوا وكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، فان الواجب المقدس ليدعو كل مؤمن بالله ورسوله أن ينضم إلى أخيه المؤمن تحت لواء الخليفة أمير المؤمنين ، ويجاهد في سبيل الترد عن حياض الاسلام والمسلمين » وقال أحد زعماء المسلمين في الهند مخاطبا الدولة البريطانية : « اتنا ننادى الحكومة البريطانية بمل أفواهنا أن تفلح عن سياستها العدائية لتركيا ، إنقاذ لانفجار بركان المئات من ملايين المسلمين ، انفجار اجمر البلاد عظيما » ، وأعجب ما بدا أن أخذ المسلمون بوجهون النداء نلو النداء لغير المسلمين من شعوب آسيا ، يدعونها إلى التنازر والاتحاد لزاء الغرب المعتدى ، فكان هذا الأمر وایم الحق غريبا في بابه لم يسبق له مثيل منذ نشوء الاسلام ، فان محمدا وقد جاء بالقرآن مصداقا للتوراة والانجيل وقال انه خاتم الأنبياء والمرسلين ، بعث الله من قبله موسى وعيسى ، أمر المسلمين باحترام النصارى واليهود ، وسماهم « أهل الكتاب » تمييزا لهم عن عبدة الأوثان ، وقد اتبع المسلمون ما أمرهم به نبيهم حتى هذا العهد الأخير ، فما كانوا يظنوا يوما بمبغضين النصارى بفضهم للوثنيين من البراهمة والبوذيين والكشوشيين سبين أهل الشرق الأقصى . بيد أن هذه الحال شرعت تنقلب وتتحول منذ الحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٤ إذ ظفرت اليابان الدولة الشرقية الوثنية (الكافرة) على دولة غربية نصرانية ، ودقت عنقها دقا ، فهب غلب المسلمين يتهجون لانتصار اليابان هنا ابتهاجا ملؤه للفخر الشرق والجماسة الاسلامية ، وتمنى كثير من رجال الجامعة الاسلامية ودعائها لو يتحل أبطال اليابان الاسلام وشرع في تحقيق هذا الأمر العظيم ، والتفت وسائل التقرب من اليابان ، ثم أنشئت العلاقات معها ، وأنشئت الصحف العديدة لنشر الدعوة ، واختبر المبشرون للقيام بهذا المشروع الاسلامی الكبير ، فأرشد السلطان وفدا إلى اليابان على بارجة حربية ، وأخذ العالم الاسلامی بسبب ذلك يلهم بحديث إسلام اليابان ، وينقل الأنباء في هذا الصدد ، ويتباحث فيه ، ويحبذه أشد التحييد . قالت صحيفة مصرية سنة ١٩٠٦ : « إن بريطانيا العظمى وفي حكمها ستون مليونا من المسلمين لتخشى كل الخشية أمر اسلام اليابان ، الأمر العظيم الذي اذا كان تغير مجرى السياسة الاسلامية العاقبة تغيرا كبيرا » . وقال شيخ من شيوخ مسلمي الصين : « إذا شامت اليابان أن تدرك منزلة لم تدرك مثلها دولة فيما مضى وأرادت أن ترفع شأن آسيا على شأن القارات فلا يتم لها ذلك بنة إلا باتجاهها الاسلام دينا » .

فاستقبلت اليابان وفد المسلمين استقبالا جليلا ، وأحلته محل الرعاية والاكرام . بيد أنها لم تكشف عن رغبة في السخول في دين الرسالة ، وكانت النتيجة أن وضع أساس للعلاقات الودية الحية بين الشعوب المسلمة والشعوب غير المسلمة في آسيا ، ومما زاد في ذلك القرب أن أخذت عرى الولاة تتوثق بسبب الحرب البلقانية وما تجلجلى فيها وما حوّلها من المطامع الاستعمارية الهائلة ، ويمكن العلم بحالة شعور المسلمين ومبلغ ما آلت إليه من الاضطراب والاهتياج يومئذ بالوقوف على الصرخات الندائية المتوالية التي أخذ المسلمون يوجهونها نحو الهندويين (الهندوس) .

ومثال من ذلك نداء عظيم الخطر والشأن ، موسوم برسالة الشرق جاء فيه ما يأتي : « ياروح الشرق : ألهي من مرقدك ، وادفني عن الشرق هذا الطوفان الغربي ، طوفان عدوان الفرنجة وبقيهم واعتدائهم ، يا أبناء هندستان : كونوا لنا عوناً ونصراً بحكمكم ، شدوا أزرنا بحضارتكم وتهذيبكم ، كونوا لنا نصراء بقوتكم ، قوة الهندويين أبائكم وأجدادكم ، دعوا قوة الأرواح الكامنة في قمم جبال هملايا تذبثق فقد حان لها وحق من أوجدتها الانبثاق ، املؤا الجؤ بصلواتكم إلى إله الحرب لينصر الحق على القوة الفاشمة ، ويزهق الباطل : إن الباطل كان زهوقاً ، وارفعوا أصوات دعواتكم ، وفي هياكل ربوات آلهتكم أن تهلك جيوش الأعداء المعتدين » .

فن تدبر هذا المآل الذي آلت إليه حالة المسلمين ، ولا سيما تقرّبهم من الكفرة ، وتوثيق عرى الولاة بينهم وبينهم ، لا يسعه إلا تكبير هذا الأمر وتعظيمه ، والتعجب والاستعراب ! ولم يكن هذا التبدل الهائل مقصورا على مسلمي الهند وحدهم ، بل شمل أيضا مسلمي الصين ، فقد قالت صحيفة اسلامية من صحف تركستان الصينية ، تدعو إلى اتحاد الصينيين قاطبة اتحادا وطنيا منيعا للوقوف في وجه الغرب المعتدي ما يأتي : « إن أوروبا قد بلغت من الطغيان والجور مبلغا لا حد له ، فهي لا تنفك تنازعنا على حوتنا التي هي أقدس شيء لدينا ، وأوروبا ضربتنا الضربة القاضية إذا لم يستنصر بعضنا بعضا ، ونهب في يوم آت هبة المدافعين عن الأوطان دفاع الأبطال » . وفي الدور الأول من أدوار الثورة الصينية ، خلع مسلمو الصين عنهم رداء العزلة ، واصطفوا إلى جانب أبناء بلادهم البوذيين والكنفوشوسيين يقاثلون معهم مستقبلين في سبيل الوطن ، وقد أتى الدكتور (سن - بات - سن) الزعيم الجمهوري الكبير على مسلمي الصين بقوله : « إن الصينيين لن ينسوا أبدا نصراخوانهم المسلمين لهم في سبيل تأييد نظام البلاد واستقلالها وحريتها » فلما نشبت الحرب الكونية العظمى كان العالم الاسلامي أجمع مضطربا اضطرابا عميقا ، ومحتدما حثقا على الغرب المعتدي ، وشاعرا بضرورة اتحاده اتحادا مكينا ، وساعيا جدا السعى لعقد المحالفات بينه وبين غيره من الدول الآسيوية ليتسنى له بذلك القيام بجهاده المنوي في سبيل التحرر من ربة الغرب . انتهى الكلام على الأول ، والحمد لله رب العالمين .

المبحث الثاني في أن أوروبا نفسها بافغارها صدور المسلمين جعلت كلنهم على الشدة عليهم جاء في كتاب حاضر العالم الاسلامي أيضا ما يأتي : « قام ساسة الخلفاء خلال الحرب مئات المرات ينشرون التصريحات الرسمية أن الغاية الكبرى الوحيدة في هذه الحرب الدموية المحيضة الفعار إنما هو إنشاء نظام عالمي حديث قائم البنيان على مكارم الأخلاق ، والأسس الصحيحة ، والقواعد الشريفة ، كإعانة حقوق الأمم المستضعفة ، واطلاق الحرية لجميع الشعوب والأمم في اختيار حكمتها ، وتقرير مصيرها ، وامتلاك مقدراتها فداعت هذه التصريحات في الشرق أيما ذبوع ، واختزنتها الأمم الشرقية ، لا بل حفظتها عن ظهر قلبها ، وأخذت ترتلها ترتيلا ، فلما وجد الشرق أن الصلح لم يبين على شيء من تلك القواعد والأسس الصحيحة ، ولا على مقتضى مئات التصريحات المحفوظة ، بل على المعاهدات المقطوعة بين الدول بعضها مع بعض سرا

وخفاء معاهدات الجشع الاستعماري والحكم والفتح ، أخذ يستخدم غضبا ، ويكبر نوازل الجور والبنى ، ويعظم سوم هذا الخسف والنذل ، فأخذت مراحل العداء تشتد علينا في كل صقع من أصقاع الشرق ، فاكفهر الجوق ، وقصفت الرعود ، منذرة بأهوال الصواعق ، ولم يكن هذا بالحادث للمستغرب ! إذ قد سبق للكثير من الخبراء العقلاء الغربيين الراسخين علما بالأمور الشرقية ، فأندروا الدول الغربية المرّة تلو المرّة قبل انقضاء « مؤتمر فرساييل » بسوء العقبى الواقعة في الشرق ، وانفجار عظيم لا بد منه . من هؤلاء المنذرين (ليون كابتاي دوق سرمونيته) وهو ثقة من ثقات الطليان في شئون العالم الاسلامي ، فقد قال في سنة ١٩١٩ في جلة حديث له ذكر في نتيجة الحرب العاتمة في الشرق : « إن الحرب الكونية العظمى قد هزّت شجرة الحضارة الشرقية ، فاهترزت اهتزازا بلغ أقصى الجذور في التربة ، وبعثت فيها روحا عجيبية ، إن الشرق أجمع من الصين حتى أقصى سواحل البحر المتوسط ليميد ميدانا عنيفا ، ففي كل رقعة وبلد ترى نار العداء للغرب مشبوبة ، ففي مراكش الفتنة ، وفي الجزائر الثورة ، وفي طرابلس الغرب عواصف الاضطراب والهياج ، وفي مصر ، وبلاد العرب ، وليبيا ، وسائر الأقطار الاسلامية ، الحركات الوطنية القومية الكبرى ، جميعها متماثلة الصفة العاتمة ، وموحدة الغاية ، تملك العالم الشرقي الاسلامي بعضه بعض ، ومناهضته للحضارة الغربية ما استطاع إلى ذلك سبيلا » انتهى الكلام على المبحث الثاني من الفصل الثالث

الفصل الرابع

في الكلام على الجامعة الاسلامية ، وهل الشدة المذكورة في الآية لاتزال محتملة في هذا

الزمان بعد أن أذاع السلطان عبدالحميد الجهاد العام فلم يفلح

وأن ساسة أوروبا يشهدون بأن الجامعة الاسلامية اليوم أشد منها في كل زمان ، وليس نداء السلطان المذكور شرعيا في نظر المسلمين :

جاء في كتاب حاضر العالم الاسلامي مانصه : « قد هاج تيار الجامعة الاسلامية هياجا هائلا ، وثار ثورانا عجيبا في هذه الآونة الأخيرة ، والباعث على هذا إنما هو الارهاق الغربي ، المتوالي الشدة والزيادة منذ الزمن البعيد ، ثم كانت الحرب العظمى فاستثارت من الجامعة الاسلامية مالم يستمر من قبل ، ثم ولى الصلح الحرب وهو الصلح الذي سبق لنا فأبنا قواعد ، وأركان الفاسدة ، وما دهم العالم الاسلامي بسببه من التوازل والفواجع ، ولا يعزبن عن البال أن الجامعة الاسلامية على مختلف حالاتها وتطوراتها يجب أن لا تعتبر أنها حركة سياسية دفاعية محمولة على الغرب ، ردّا لاعتدائه ، ودفعاً لجوره غلب ، بل ان منشأها الأصلي هو المشاعر النفسانية الوجدانية العميقة في المسلمين لصيانة الوحدة وتوثيق عرى الجامعة العامة ، تلك الجامعة التي قلنا فيها قبلا انها بين المسلم والمسلم أقوى منها حقا بين النصراني والنصراني ، فان هذه الجامعة ليست دينية فقط ، بل انها بحقيقة المعنى والمراد اجتماعية خلقية تهذيبية ، وأن الفوانين والقواعد التي تتألف منها وتقوم عليها حياة الأسرة الاسلامية على مختلف العادات والأقاليم لا تتغير في موضع عنها في موضع آخر في جميع المعمور الاسلامي . قال السير موريسون : « إن الحق الذي لا يمارى فيه أن الاسلام أكثر من معتقد ديني ، إنما هو نظام اجتماعي تام الجهاز ، هو حضارة كاملة النسيج ، لها فلسفتها وتهذيبها وفنونها ، وقد انقضى ما انقضى من العهد الذي مابرح فيه الاسلام والنصرانية على نضال ونزاع ، فما عرى وهن جانبا من جوانب الاسلام قط ، بل ما أنفك على الدوام يشتد بعضه مع بعض ، متماسكا متعاضدا ، حتى صار وحدة جامعة نامية نمو الجسم العضوي سائرا سيره بفعل نظامه الذاتي المستقر فيه . فالمسلمون تربط بعضهم ببعض روابط هذه الحضارة رباطا وثيقا لا انفصام له ، وباعتبار هذا المعنى فان الجامعة الاسلامية إنما هي عامة قائمة البناء في جميع العالم الاسلامي حتى ان المسلمين الأحرار على ما يجسدون من الآراء الغربية التي بردون شرعتها من حيث

لابرتاحون إلى دعوة الجامعة الإسلامية السياسية لتمشيها على الطرق الرجوعية يعتقدون كل الاعتقاد في وجوب الوحدة الإسلامية الشاملة المبنية على أصول الحرية وقواعدها . قال إمام حرّ من أئمة زعماء المسلمين في الهند ، وهو أغاخان مايبأني : « إن هناك جامعة إسلامية حقة صريحة ، ينضم إلى لوأها الحرّ كل مسلم مؤمن مخلص ، أعنى بذلك الرابطة الروحانية الوجدانية ، والوحدة الجامعة بين أتباع صاحب الرسالة الإسلامية ، فهذه الوحدة الإسلامية الروحانية التهذيبية ، يجب أن تتهد فتتجدد أبدا ، لأنها عند أتباع النبي أسّ الحياة وجوهر النفس » . فإذا كان هذا شعور المسلمين الأحرار الواقفين حقّ الوقوف على حضارة الغرب وتقدمه ورفقه وعمرانه ، والقائلين بوجوب الاقتباس منه والأخذ عنه ، فما أشدّ شعور سواد المسلمين وهم الجاهلون الرجعيون المتعصبون ؟ أضف إلى هذا ما هو معروف في عاتق المسلمين من الشنأة لاعتداء الغرب وحضارته ، الشنأة التي ليس منشؤها في كل موضع سيطرة الغرب السياسية ، بل لمجرد الافراط والغلوّ في التعصب . وقد كان للحوادث السياسية في العالم الإسلامي خلال العقد الأخير تأثير كبير في هذا الافراط والغلوّ ، فالتعب التعصب اتهاها بالغا الحدّ ، تدفعه دوافع سياسية خلقية دينية ، وتجمعه صفة واحدة متناهة متكئة في نفس كل مسلم ، فباتت السلم العاتمة في المعمور الانساني مهتدة من ناحية العالم الإسلامي ، هذا هو الواقع الذي يجب علينا أن نعترف به ، وأن لا نخذع نفوسنا فنستفسر شأن هذه الحالة العصبية اليوم ، وما يحتمل أن ينجم عنها من المخاطر الكبرى في القد القريب ، وعلى ذلك ليس من إصابة الحقيقة في شيء . أن يقال ان تركيا قد سبق لها فدعت المسلمين واستصرختهم إلى حرب عاتمة ، وحاولت جهدها اقتداح زند الجهاد للمقدّس سنة ١٩١٤ نزولا على أمر ألمانيا ، فلم يكن هناك الابراء المراد فذهب الاقتداح باطلا ، بل كان دليلا على أن الجهاد الحقيقي في العالم الإسلامي بات ضربا من المحال ، إن من حله الوهم على هذا فهو على خطل شديد ، إذ أن الجهاد لممكن أبدا كل الامكان . قال ضابط ألماني ، كان من أركان الحرب في الجيش التركي خلال الحرب العامة قولا صريحا ، وهو : « إن الجهاد الذي أعلنته تركيا قد حبط حبوطا ، لأنه في الواقع لم يكن جهادا بحقيقة معنى الجهاد عند المسلمين » . وقد سبق لنا فأبنا كيف هبّ قادة المسلمين خارج تركيا ، فأخذوا يستهجنون دخولها في الحرب ، وبسطنا ما ذهب إليه هؤلاء القادة من الخطط والأعمال ، فلسلة الاعتداءات القرية الآخذ بعضها برقاب بعض منذ القديم حتى انتهاء الحرب العامة وتقرر الصلح على الأسس والأركان التي ذكرنا صفاتها الفاسدة ، تقريرا كان من شأنه أن بات العالم الإسلامي أجمع خاضعا خضوع الذل والخنوع للسيطرة القرية ، جميع هذا أثار قلوب المسلمين ، فهبوا هبوب العاصفة ، تقنلع كل شيء في سبيلها ، أضف إلى ما تقدم أن الأهب المادية ما برحت تزداد وتستوفى . وقد سبق للسفشرق الكبير العلامة أرمينيوس قباري الخبير حقّ الخبرة بشؤون العالم الإسلامي ، فأبذر الغرب أنذارا منذ أكثر من عشرين سنة ، قال فيه : « إن السياسة الاستعمارية التهمة لإنما هي السبب في نشوء المخاطر العظمى في الشرق » واليك بعض ما جاء في مقاله الذي نشره سنة ١٨٩٨ - : « إن الخطر الباعث على حرب كونية عامة يزداد في الشرق ازديادا عظيما على توالي الأيام ، ولا يقب عن البال أن روح العداة والمقاومة قد اشتتت ، والصدور وغرت ، والحفاظ اقتدت ، أعنى بذلك أن الشعور بالوحدة العامة والجامعة الرابطة قد صار شعورا عاما ناميا منتشرا في جميع الشعوب الإسلامية ، وقد كان من المساعد على ذلك الوسائل الحديثة للنقل والتواء . فباتت الحالة اليوم غيرها منذ عشرين سنة إلى عشرين سنة . وليس من المستغرب أن تقدم على تفيه الصليبيين في أواخر القرن التاسع عشر إلى المنزلة العالية التي أدركتها الصحافة الإسلامية اليوم من الخطورة والشأن ، وإلى عام انتشارها في آسيا وأفريقيا ، وما لعظاتها البليغات ، وانذاراتها الموقظات ، من التأثير الشديد في نفوس قارئها المسلمين ، فللصحف الوطنية السيارة والدورية في تركيا والهند وفرنس وأواسط آسيا وجاوه ومصر والجزائر مفعول عظيم

إذ كل ما فتكر فيه أوروبا ، وتقرره ، وتقوم على انفاذه على ما ينافى المصلحة الاسلامية ، تنتشر أنباؤه في جميع هذه الأقطار بسرعة البرق ، وتحمل التوافل هذه الأنباء إلى كل جهة شاسعة ، وصوب سحيق في الرقاع الاسلامية ، حتى إلى قلب الصين وخط الاستواء ، حيث يهب المسلمون لتلقى مثل هذه الأنباء معظمين مكبرين فالسرارة التي تستطير من مجمع من مجامعنا ، أواد من أديتنا ، أو وليمة من ولأئنا ، فما تزال في مستطارها ومسبحها في الفضاء حتى تجوب أفاصي العالم الاسلامي فتقع وقوع الرعد القاصف وما نشره صحيفة « ترجمان » في القريم مثلا تردده صحيفة « اقدام » في القسطنطينية وبرون صدام عظيم في صحيفة « الحوادث الاسلامية » في كلكتا في الهند ، فالجامعة الاسلامية اليوم مسترخية العرى بعض الأسترخاء ، غير أن اعتداء الغرب على غير اقطاع ، وعصفه المتوالي يزداد اشتدادا على الدوام ، سيحملان على استجماع هذه العرى بعضها إلى بعض فتتماسك وترتبط فتصير الجامعة الاسلامية كالبنيان المرصوص منيع الأركان ، فيتوقع حينئذ من وراء ذلك حرب عالمية مشبوبة في أنحاء المعمور لا تبقى ولا تذر .

منذ نشر فامباري انذاره هذا حتى اليوم ، ما برح الأمر يتفاقم والنهرة الاسلامية تنور في وجه السيطرة الغربية ، وقد زاد في هذا زيادة كبيرة النهضة القومية والحركات الوطنية الاسلامية التي كانت تكاد لا تعرف في القرن الماضي ، وهي قد أصبحت اليوم على أتم ما يكون من النظام والكفاية من أسباب الذبوع والدعاية ، ولنا مثال على هذا وهو صحف الدعوة للجامعة الاسلامية وهي التي أشار إليها فامباري ، فقد تعاضدت تعاضدا غيبر مسبوق المثل ، ففي سنة ١٩٠٠ م لم يكن في العالم الاسلامي أكثر من مئتي صحيفة دعوية ، فبلغ هذا العدد سنة ١٩٠٦ حد الخمسة مئة صحيفة ، وأر في سنة ١٩١٤ على الألف صحيفة ، فالمسلمون يرحبون في بلادهم بأسباب النقل والتواصل مثل البرد والبرق والقطارات الحديدية ، وغير ذلك مما يساعد على تطير الأنباء ونقل الأخبار ، وكل بلاد من بلاد المسلمين هي على اتصال دائم مع سائر البلدان الاسلامية إما نوا على يد الرسل والسعاة والحجيج والسياح والتجار والبرد ، وإما على يد الصحف الاسلامية والكتب والنشرات والمجلات ، ففي القاهرة ترى صحف بغداد وطهران وبشوار ، وفي البصرة وبومباي ترى صحف القسطنطينية ، وفي الحمرة وكر بلاه وبورت سعيد ترى صحف كلكتا ، وأما الوسائل الكبرى للدعاية في سبيل الجامعة الاسلامية فهي الطرق الدينية التي سبق لنا الكلام عليها ، وهي حقا كالسيل الطامى فانها ما أدركت أمة مسلمة إلا استولت على مشاعرها وقلوبها ، وسيرتها سهلة الاتياد إلى تعاليمها ، وترى دعاة هذه الطرق يقومون بوظائفهم على أساليب عديدة غريبة ، فهم يجوبون الأقطار بألوف الأزياء المتشكرة تجارا ووعاظا ومترشدين وعلماء ، وطلبة وأطباء ، وعملة ومقاولين ، وفقراء ومساكين ، حتى ومشعوذين ودجالين ، وحيثما وصلوا ترى المسلمين قد تسارعوا لاستقبالهم على الرحب والسعة ، وأخفوهم عن عيون رقباء الحكومات الاستعمارية .

زد على جميع هذا أن ساد اليوم في العالم الاسلامي سيادة الاعتقاد الذي يؤيده الأحرار والفضلاء والمحافظةون وسائر الأحزاب معا ، أن المسلمين اليوم هم في دور النهضة والانتقال والتجدد يستردون مجدهم الاسلامي الفاتح ، ويستعيدون عزهم التليد . قال السرنيودر موريسون : « ليس من مسلم يعتقد أن الحضارة الاسلامية فانية ، أو غير متجددة مترقية ، إنما يعتقد أن قد عرمتها قهقري قصيرة غضب ، فقصر المسلمون أمرهم على التطوق في الاشادة بمجد الجدود ، وتمصبوا في ذلك ، وغالوا شديدا ، ولكن أمرهم هذا ما كان ليختلف في صفته عن الحال التي كانت سائدة أوروبا في خلال القرون الوسطى ، يوم كان ديجور الجهل مطبقا جميع البلاد النصرانية ، يعتقد المسلم اليوم أن العالم الاسلامي سائر في طريق استئناف الارتقاء يأخذ عن الغرب ما يزيد في استحثته ، ويبعث فيه عزما و نشاطا ، فتطورت الحياة تطورا نبئت

دلائله في كل قطر اسلامي» (١).

فإذا كان دعاة الجامعة الاسلامية يجهرون بمثل هذه الآراء ، ويصرخون تلك الصرخات في مفتتح هذا القرن ، وقد جاءت الحرب العاتمة مصداقا لما جهروا به السنين الطوال ، فلا جرم أن قويت شوكة الجامعة واتسع لها المجال فاشتدت قوة واندفاعا ، أضف إلى هذا أن الغرب قد انقلب بعد الحرب العظمى ضعيف المنه ، واهن القوة المادية وهنا كبيرا ، ثم جاء الصلح مبينا على أركانه الباطلة ، وطفق الخلاف ينشب بين الغالبين بعضهم مع بعض نشوبا قوض مكانهم تقويضا وقضى القضاء الأخير على منزلتهم في عيون الشرقيين ، وقد كان من شأن النزاع والمشاادة بين كل من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا في الشرق أن يساعد المسلمين مساعدة جلية على زيادة تساهدهم وتماسك بعضهم مع بعض . فاشتد إيقانهم بادراك المبتلى ، ثم إن هذا التعادى الذي قام به الحلفاء في الشرق قد سبب اضطرابا سياسيا عظيما في الغرب ، فبعد التباين واتسعت فرجة الخلاف .

قال أحد كتاب الفرنسيين في الآونة الحديثة ينذر أوروبا انذارا شديدا : « إن العالم الاسلامي بات لا يعترف بحدود أملاكنا الاستعمارية ، والعاقيل الذي يريد اعتبار الحقيقة لا يجهن من ذلك أقل عجب مادامت الدعوة الكبرى التي نشرها ورفع علمها جبال الدين في المسلمين تسير سيرا دراكا » .
وأى شيء أدل على هياج الاسلام ، وغليان مراحل حقه من ذلك الثوران الهائل الذي يقوم به السبعون مليونا من المسلمين في الهند ، احتجاجا على تجزئة المملكة العثمانية ؟ والأمر الأخطر أن هذا الثوران الاسلامي ليس مقصورا على الهند فحسب ، بل انه شامل العمور الاسلامي ، وعلى ذلك فلم يقال (السر تيودر موريسون) بانذاره :

« لقد حان وأيم الحق للأمة البريطانية أن تعتبر وتسدر خطورة ما هو جار في الشرق ، فان العالم الاسلامي أجمع ليعج غضبا ، ويحتدم حنقا ، من جراء تجزئة تركيا ، وما هذه اللوامع النارية التي تسدو في كابل والقاهرة إلا البرق الذي تتلوه الرعود القواصف فالسواعق المزلزلة ، إنى قد أفتت في الهند أكثر من ثلاثين سنة عرفت في خلالها المسلمين حق المعرفة ، وأرى من الواجب على الآن أن أنذر أمتي البريطانية بشرت عقي هذا الثوران الاسلامي الناشئ عن تجزئة تركيا التجزئة المنوية ، فان ساسة مؤتمر فرسايل قد خالوا تركيا في الأناضول منقطعة عن سائر العالم الاسلامي ، فليس من شعب يفضب لها ، ولا من أمة تقارع عليها فها أسوأ هذا الخيال الباطل ، والوهم القاتل ! فن شاء البرهان فلينظر إلى هذه الوفود الاسلامية العديدة الحائلة بين ظهرائنا في لندن كأنها الاله لا يسطلى به ، فالسلسون قاطبة في الهند من بشوارحتي أركوت قأمون قاعدون لما يرونه قد حل بساحة تركيا والمسلمين ، حتى باتت النساء المسلمات يعولن اعوالا شديدا ، ويكيين حالة الاسلام بكاء الأمهات أطفاهن ، وترى التجار وهم أبعد طبقات الأمة عن مزاوله الشؤون السياسية يفرون من حوائثهم ومتاجرهم خفافا إلى حيث ينظمون رقائع الاحتجاج ويطيرونها بالبرق إلى أنحاء العالم وترى الطوائف العديدة من رجال الدين المنقشين ، المتشددين ، المضروب بهم المثل في شدة اقطاعهم عن جارى الحوادث في العالم يخرجون من المساجد مواكب مواكب ليشاركوا في القيام بالظواهرات والاحتجاجات ، وأغرب ما في الحالة أن الأسرار قد أخذوا ينظمون أكثر فأكثر في عداد رجال الجامعة الاسلامية ويؤيدونها بما استطاعوا من القوة والحول ، على اعتقادهم بوجوب الأخذ عن الغرب واقتباس الآراء والأفكار منه ، وذهابهم مذهباً مخالفا لفلاة الجامعة الاسلامية ، وأرباب الطرق الرجوعية ، والحامل كل

(١) ذكر المؤلف في هذا الموضع كلاما مقتبسا من كتاب « بقظة الشعوب الاسلامية في القرن الرابع

عشر للهجرة » لمؤلفه يحيى صديقي ، أضربنا عن ترجمته .

الحامل لهم على ذلك هو اشتداد الضغط والعنف الأوروبي ، فهم إزاء هذا الخطب الكبير يسعون في ردة
بمؤالة الأحزاب الأخرى والتحالف معها ولو إلى حين مع علمهم أن الأحزاب الوطنية المغالية وأحزاب الجامعة
الإسلامية إذا أثارت حرباً عامة باسم الجهاد ، فمن شأن هذه الحرب أن تفتح غورا بعيد المهوى بين الشرق
والغرب ، وتقضى على تلك العوالم والمؤثرات السارية من هذا إلى ذلك وهي التي ترى اليوم دابة في كل عرق
من عروق العالم الإسلامي ، باعثة فيه القوة والعزم ، ومع علمهم أيضا أن حرباً كهذه تشعل نار التعصب
الرجوعية في المعمور الإسلامي ، ذلك التعصب الذي إذا عاد فاقده أو هن حركة الإصلاح الحديث في الإسلام
إيماناً شديداً فأخرها مدة مديدة . ولعلّ الذي عرف حتى اليوم من ثوران للإسلام لا يعدّ أكثر من مقامة
لما سيحدث في السنين المقبلة ، ولنا دليل على هذا ظهور الدعوتين العظيمتين للإصلاح الديني في الإسلام
اصلاحاً ضاربا إلى التعصب ، أما الأولى فهي دعوة الإخوان التي نشأت منذ نحو عشرين سنة في نجد قلب
بلاد العرب وهي الوهاية عينها التي كانت نشأت منذ مئتي سنة خلت ، وهذه الوهاية الحديثة ما برحت تنتشر
انتشاراً سريعاً حتى طبقت كل نجد ، وعلى رأسها زعيم صحراء بلاد العرب الكبير ، أعني به ابن السعود ،
خليفة سعود الذي كان رأس الدعوة الوهاية منذ مئة سنة ، وأما الإخوان الجدد فعلى تعصب شديد منقطع
النظير ، وخطتهم هي حلم الوهاية القديم من الإصلاح الديني العام في العالم الإسلامي ، وأما الأخرى فهي
الدعوة السلفية التي نشأت في الهند منشأ يشابه دعوة الإخوان في نجد ، غير أنها قد انتشرت في هذه السنين
الأخيرة انتشاراً عمّ كل رقعة إسلامية ، وغرضها كغرض الوهاية من حيث الإصلاح المزيج بروح التعصب
وغالب أتباعها من حلقات الدراويش . هذه هي الحالة التي مع ما نطوى عليه من مختلف العوامل المبسطة
الذكر تنخر نخرًا متغلغلا في سلم الشرق » انتهى ما أردته من كتاب « حاضر العالم الإسلامي » والحمد لله
رب العالمين .

نجد على نور

انتشار الإسلام في أوروبا وأمريكا في زماننا

وذكر حادتين اثنتين

من ذلك حادثة أمريكي أسلم ، وحادثة فرنسي عظيم أسلم أيضا ، وهما قصتهما ، فأما الحادثة الأولى فهي
ما جاء في مجلة « جمعية الشبان المسلمين » سنة ١٣٤٩ هجرية وهذا نصه :

كيف أسلم ؟

ترجمة المحاضرة القيمة التي ألقاها بالانكليزية الاستاذ محمد أفندي عز الدين لوما كس الأمريكي الذي
أسلم ، بدار جمعية الشبان المسلمين في ربيع الأول سنة ١٣٤٩ هجرية — ترجمها عبد الجيد ساي بيومي
بكلية الحقوق .

بسم الله الرحمن الرحيم

جوهر الإسلام

الإسلام في جوهره قوة وقدرة من الخالق ، وأن الله سبحانه وتعالى زيادة على وحدانيته وأبديته هو
الموجود أزلا ، والموجود لكل موجود : « لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي
يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات
والأرض ولا يشوده حفظهما وهو لعلّ العظيم » .

بين روح الاسلام والاله الواحد الأحد صلة وثيقة العرى لا انفصام لها ، فهو الذي يخرج الانسان من الظلمات إلى النور حيث يجد في ضياء الاسلام أول قبس يشع نوره من القرآن الكريم .
 بسم الله الرحمن الرحيم : ففي كلمة الرحمن يشعر المؤمن أن الله تعالى هو الاله الواحد الذي يسبغ على عباده النعم في الحياة الدنيا والحياة الأخرى ، وأن المسلم اسلاما راسخا يعترف لخلقه في صلواته الخس بالرضا والنعماء ، وأما كلمة الرحيم فتدلنا أن الله تعالى يشمل برحمته جميع الخلائق ، سواء في ذلك المؤمن والكافر ، لأنه سبحانه وتعالى يعلم قبل أن يخلق الكافر أنه سيكفر ، وأنه لولا لفظ الرحيم لما سمح للكافر أن يكون حيا يرزق في الوجود الانساني ، فمن هنا نرى حقيقة لا يدانيها الشك أن هذا التور الأعظم وهو نور الاله إنما هو الشفقة والرحمة ، ولذا نجد أن الله الرحيم لا يبيت عبسى ابن مريم من جوار خطايا هذا العالم الذي .
 إن روح الدين الاسلامي الحنيف تعلمنا أن الله لم يخلق شيئا عظيم النفع جليل القدر لأجل أن يرد إليه نارة أخرى ، وأن تقرب إليه القرايين على سبيل التضحية مقابل اقرار الانسان لفسكرات والآثام ومثل هذا كما يأخذ الانسان من أحد جيوبه مبلغا من المال ثم يضعه في أحد جيوبه الأخرى .

أما الآية الأخرى من الكتاب الكريم وهي : « الحمد لله رب العالمين » فتعلمنا أن الحمد في مجموعها وكليتها مرجعها إلى الله مالك الملك ، والمحيط علمه بكل شيء . وأما الآية الرابعة فتدلنا على أن الله تعالى مالك يوم الدين ، لأنه هو المستنتى من الحساب : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » .
 لقد أوحى الله سبحانه وتعالى إلى سيدنا محمد ﷺ روح الاسلام الذي جعله يجهر بالقول في تعاليم الشريعة السمحة للذين يقرءون ويكتبون من المسلمين ، ومن هنا نعلم أن من يوحى إليه الله بتعاليمه وأحكامه لابد وأن يكون منزها ومفضلا عن الناس كافة ، فسلام الرحيم على نبينا محمد صلوات الله عليه وعليه بركات الايمان واليقين .

ولقد نفذت روح الاسلام من محمد رسول المسلمين إلى الهداة والمصلحين أمثال عمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد ، وأن هذه الروح القوية الأثر هي التي حدثت النبي ﷺ إلى الهجرة من مكة إلى المدينة بينما كان أعداؤه من المشركين يجتهدون في البحث عنه ليذيقوه ريب المنون ، ومن الغريب أن أعداء النبي صلى الله عليه وسلم لم يقنعوا أنفسهم بترك مكة ، بل تعقبوه في هجرته ، وهناك ضربوا على زله سياجا من الحيطه لأجل القبض عليه ، ولكن روح الاسلام الدفينة في الأعماق ألهته بأن يتناول قبضة من تراب ويتذفها عليهم ، فأخذتهم سنة من النوم تمكن النبي ﷺ من النجاة منهم في الصحراء حيث اختفى في غار هناك ، ولاقتل إن اختفاه في الغار يحول دون هلاكه وحرقه ، ولكن الاسلام ومافي ثناياه من روحانية وقوة جعل الحمام يبيض على باب الغار ، ولما أفاق أعداء النبي ﷺ من غشيانهم تعقبوا أثره إلى الغار مدهوشين وأخذتهم هواجس الظن لعلمهم أن النبي ﷺ لا يمكن بأى حال أن يكون في الغار ! فمن يريد أن يؤمن بوحدانية الله فعليه أن يشاهد بسهولة يد الله المحركة للكائنات من غير أن تبصرها العين المجردة ، وبخاصة عند ما أحيطت حياة النبي ﷺ من يد العدوان برعاية الطير الذي اندفع إلى حياة محمد ﷺ بيد الاله الخافية عن الأبصار .

متى وكيف اتصل الاسلام بقلبي وهداني سواء السبيل ؟

ولدت مسيحيا ، ومسقط رأسي الولايات المتحدة ، حيث لادين هناك خلاف المسيحية ، وحيث لا يعثر في تلك الجهة على أى نوع من أنواع الأدب التي تقود إلى الدين الاسلامي القيم ، بل إلى هذا الضوء اللامع ، والضياء الساطع ، إلى القوة التي يرمز إليها بروح الاسلام ، وهناك لا يزالون يعلمون الناس أن المسلمين عبدة أوثان ، ولكن (ولله الحمد) في عام ١٩١٧ ميلادية اعترفتي مشاعر نفسانية دخيلة ، حركت قلبي ، ودفعت

إرادتي إلى اجتياز خمسمائة ميل ، لأقنات من فضلات موائد المسلمين ، ولأخذ من أدبيات روح الدين الاسلامي بنصيب .

لقد كنت قبل الدخول في الاسلام والتشيع من هذا الدين : مدمنا على تعاطي الخمر ، لاهيا بالألعاب الاجتماعية ، أما اليوم فتركت هذه الامور ظهريا ، ولاعلم لي بالدافع الذي حركني لترك هذه الطغيبات ، ولكنني أقول وأجزم القول بأنتي (أنا) وأنكلم هنا بلفظة الاسلام ان الروح الدينية الاسلامية هي التي أوحت إليّ بهذا الخبر ، ولقد شعرت في نفسي بأنتي على استعداد للخدمة في الكنيسة ، ولكنني إزاء ذلك وجدت أن ما استقرت في نفسي كان يتنافر مع أوضاع الدين المسيحي وتعاليمه ، فانتظرت خارج الكنيسة ولم أندج في سدتها ريثما يفتق دين أحسن من هذا الدين الذي كانت الكنائس في الولايات المتحدة سائرة على منواله ، سالكة سبيله وخطاه .

عام ١٩٢٦ في مدينة شيكاغو انقشع الغشاء عن عيني عند ما ابتدأت في مطالعات آداب الاسلام الحقة ، وأن جوهر هذا الدين حركة دكتورا هنديا يدعى ميليك بمدينة لاهور بمقاطعة البنجاب بالهند أن يكتب في مجلته قواعد الدين الاسلامي الخمس التي تعتبر الأركان الأولية الأساسية الجوهرية للاسلام ، وهالك نصها : -

(أولا) : كلمة أشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله .

(ثانيا) : الصلاة : على كل مسلم عريق في إيمانه أن يؤدي الصلوات الخمس يوميا بعد الطهارة والوضوء بالماء النقي الطاهر كي تنبى أرواحنا ، وأجسامنا ، وقلوبنا تقية طاهرة قبل الوقوف أمام الله

(ثالثا) : الصوم : وهي فريضة صيام شهر رمضان من كل سنة حتى تقف بأنفسنا على ألم الحرمان من الغذاء ، وتأخذنا قشعيرة الشفقة ، وحساسة الرحمة على المعوزين من أبناء السبيل والفقراء بمن يتضورون جوعا ، وبذلك نجني من قوة الاسلام وضوذه على الأرواح لإيماننا ثابت الدعائم لا تحركه هزات الأباطيل .

(رابعا) : الحج : وهو فرض على كل مسلم بملك القيام بأداء مناسك الحج في مكة ، وحيث يستشعر المؤمن بالعظمة الربانية ، ويشاهد البيت ، ومقام ابراهيم ، وكل الأعمال الجليلة التي أودعها الله بمكة .

(خامسا) : الزكاة : وهي فريضة من البسر بمكان ، فاذا كان المسلم مولعا باقتناء المال وكثره ، أي أنه كان حائزا للنصاب الشرعي الذي فرضه الله على المسلم ، ومع هذا لم يدفع حق الله المفروض عليه سنويا فقد باء بخسران من الله عظيم ، وحلت عليه الضلالة من بارئته .

هذه الأركان الخمسة التي انطبعت في شخصي الضعيف ، وامتزجت بنفسى امتزاجا قويا شديد الالتحام من روح الاسلام جعلتني أدين بالعبودية لإله واحد لا ثلاثة آلهة كما يقول دعاة المسيحية . انتهى

محمد عز الدين : الخادم المطيع للاسلام

المعرب : عبد المجيد سامي بيومي

هذه هي الحادثة الأولى ، وأما الحادثة الثانية فهي أيضا ماجاء في مجلة « جمعية الشبان المسلمين » تحت

العنوان الآتي في الصفحة التالية ونصه :



« لكم دينكم ولي دين »

من كتاب الحج إلى بيت الله الحرام

تأليف الحاج ناصرالدين دينه والحاج سليمان بن ابراهيم

الحاج ناصرالدين دينه هو المستشرق الفرنسي المصوّر المشهور ، أول من قدمه لقراء العربية في مصر وعرف المسلمين الشرقيين به الاستاذ راشد بك رستم بتعريبه رسالة « أشعة خاصة بنور الاسلام » التي وضعها ذلك الفرنسي المسلم الكبير . وفي سنة ١٣٤٧ هجرية وسنة ١٩٢٩ م لم يقعد به كبرسه عن تأدية فريضة الحج برفقة صديقه الحاج سليمان بن ابراهيم الجزائري ، وبعد عودتهما وضعا مذكراتهما التي دونتا فيها رحلتها إلى الأقطار الحجازية المباركة ، وبعد وفاة ناصرالدين في ديسمبر سنة ١٩٢٩ م تولت مكتبة (هاشيت) الشهيرة بباريس طبع ونشر تلك المذكرات بجاهات كتابا وافيا ، يشتمل على مقدمة وسبعة فصول وخاتمة وملحق ذي فصلين ، تقع جميعا في أكثر من مائتي صفحة ، وقد حلاها السيد ناصرالدين بثمان صور من صنع يده ، مثل صورة الكعبة المكرمة ، والحرم الشريف ، ومنظر الحج بعرفات ، وصلاة المغرب حول الكعبة ، وجبل النور الذي تلقى عنده الرسول الأمين الوحي عند نزوله أول مرة ، وجيهها آية في فن التصوير . وقد رأيت أن أعرب لحضرات قراء مجلنتنا الزاهرة خاتمة هذا الكتاب لما ورد فيها من أمور حرجوية جدير بالمسلمين أن يقننوها إليها لعل لهم فيها عظة وذكرى .

لقد استرعت أنظارنا بصفة خاصة أثناء رحلتنا أمور ثلاثة على جانب من الأهمية بالنسبة للمستقبل وهي :
﴿ أولا ﴾ قوة الحياة الكامنة في اللغة العربية **﴿ وثانيا ﴾** قوة العقيدة الاسلامية **﴿ وثالثا ﴾** إصرار أوروبا في عداوتها للإسلام إصرارا ظاهرا أو مستترا :

أولاً : قوة الحياة الكامنة في اللغة العربية

اتخذ بعض اللاتينيين ديدنا لهم إظهار اللغة العربية الفصحى بمظهر لغة مينة وغير مفهومة عند ثلاثة أرباع المتكلمين بها من العرب ، أما لغة الكلام فهي في نظر هؤلاء اللاتينيين عبارة عن لهجات عامية لا ارتباط بينها ومصيرها القضاء بعد زمن قليل : ولكن حسب الانسان أن يذهب إلى الشرق ، إلى مصر ، أو سوريا ، ليتجلى له البرهان القاطع على أن اللغة العربية التي وثدت قبل أن يحين أجلها هي على عكس ما يذهبون إليه لغة حية بكل ما في الحياة من قوة ، لدرجة أن جميع الأجانب المقيمين في هذه الأصقاع لا يجدون مفرا من تعلمها ، والا حيل بينهم وبين القيام بتصرف أمورهم ، وفي مكة على وجه التخصيص يشاهد الانسان أكبر مظهر من مظاهر حياة اللغة العربية ، فان لغة الكلام هناك تكاد تكون الفصحى بعينها ، ومن السهل أن يفهمها جميع الناطقين بالصاد في جميع الأقطار . أما الاختلاف الواقع بين اللهجات المتعددة فعديم الأهمية لأنه لا يحول دون تفاهم المراكشيين والسوريين واليمنيين وغيرهم فيما بينهم اذا جمعهم الظروف في مكان واحد والعناء الوحيد الذي يلاقيه المتكلم ينحصر في اللهجة المصرية بسبب اختلاف النطق بحرفي الجيم والقاف ، وهناك الألوف من اللجج الأعاجم (غير العرب) الذين يقبلون على تعلم اللغة العربية بشغف زائد ليتسنى لهم قراءة القرآن واستيعاب معانيه ، والكثيرون منهم يقدرون على التعبير بها من غير ما خطأ بالرغم من سقم نطقهم ، ولقد تسنى لنا محادثة بعض الجاويين ، والهنود ، والفارسيين ، والخراسانيين ، وأهالي البوسنة والأتراك ، والالبانيين ، وأهل القوقاز ، والسفغال ، والسودان ، من غير أن تصادفنا صعوبة تذكر .

أما العرب والبدو من سكان الحجاز ونجد فقد تولتنا الدهشة من الشبه الكبير بينهم وبين بدو صحراء

أفريقيا الشمالية في تعبيراتهم ونفقاتهم وأفكارهم . واللغة العربية الفصحى تشابه في الواقع اللغة الفرنسية ، وهي مثلها لغة حية ، وتتفق وإياها في طريق التعبير والاداء ، أما اللغة العامية فلا تختلف طبعاتها عن بعضها بأكثر من اختلاف لغة فلاحى شمال فرنسا عن لغة فلاحى جنوبها ، ويجد الانسان في دراسة تلك اللغة الجبية ميزة خاصة بها ، فانها (من بين جميع اللغات القديمة) اللغة الوحيدة التي لا تزال حية للآن ، ولو عاد اليوم أحد معاصرى النبي ﷺ لما وجد أية صعوبة في التفاهم مع جميع الناطقين بالضاد ، على حين أنه لو عاد أحد معاصرى قيصر لما تأنى له إلا أن يتكلم مع بعض الأساتذة المدرسين ، ومع ذلك فن المشكوك فيه أن يقضى له أن يفهمهم كل الفهم ، كما أن أحد معاصرى (فرنسا الأولى) لو عاد لوجد صعوبة تامة في التخاطب مع فرنسي اليوم .

وآداب اللغة العربية (دون آداب اللغات الحية) أقلها انتشارا ، لأنها أدق على الفهم ، ولأن الموجود منها بين أبنينا مترجما إلى اللغات الأوروبية معظمه محشو بالأخطاء وعلى جانب من السخافة المزرية ، وفي الواقع لأجل الالمام بآداب اللغة العربية وتفهمها للتعبير يجب أن لا يكون المترجم لها ممن درسوا اللغة العربية حتى دراستها حسب ، بل يجب أن يكون شاعرا ، وأن يكون ممن عاشوا بين ظهراى العرب المسلمين وعاشروهم مدة طويلة ، فأمثال هؤلاء يجدون في آداب العربية كنوزا متخوة قل أن يوجد لها نظير في جاهلها ونوعها ، ولغة العربية ميزة أخرى ، وهي انها منشرة في أقطار واسعة تمتد من شواطئ الاطلانطيق إلى بلاد فارس وخليج العجم ، ومن شواطئ البحر المتوسط إلى بلاد السودان ، وكثيرا ما يقابل الانسان جماعات كبيرة من المسلمين يتكلمون العربية في الأقطار الواسعة الواقعة بين بلاد فارس والهند وشواطئ المحيط الهادى ، وان في دراسة اللغة العربية فوائد لا تنكر لاسيا للفرنسيين ، بل هي أكبر أهمية من دراسة اللغة اليونانية القديمة واللاتينية ، وتعادل دراسة اللغتين : الانكليزية والألمانية ، ويجب أن تدرس في جميع المدارس الثانوية في فرنسا والجزائر وتونس والمغرب الأقصى .

ثانياً : قوة العقيدة الاسلامية

وقف القراء فيما أوردناه في هذا الكتاب على مقدار قوة العقيدة الاسلامية الهائلة ، ولذلك لاجابة بنا إلى تكرار ما رأيناه من المعجزات التي تجلت لنا من جراء فعل هذه العقيدة بالنفوس ولكن من باب التذليل على عظيمة هذه القوة تقطف فيما يلي بعض الفقرات الواردة في الكتاب الذى وضعه القس (زويمر) والذي أنى فيه على شرح انتشار الاسلام أيقظته المهن التي نزلت به منذ الحرب الكبرى . قال : « منذ سنة ١٩٠٥ عاد خسون ألفا من الروسيين الذين كانوا ينسمون بأسماء مسيحية إلى حظيرة الاسلام (صفحة ٢١٠) وأن السودان الواسع الأرجاء بسكاهه البالغين ٥٠ مليوناً من النفوس ، وقبيلة هاوسا الكبيرة ، وقبائل بلاد النيجر ، والشاطئ الذهبى ، أسلم الكيرون منهم ، بل هم على وشك أن يصيروا جميعا مسلمين ، ولا ريب أن الموج يرتفع قهرا دون أن يلقى مقاومة (صفحة ٢٣٥) وفي البنغال (مقاطعة من مقاطعات الهند) أسلم أكثر من ١٠ ملايين نفس ، وكذلك في برمانيا (بجوار الهند) زاد عدد المسلمين بنسبة الثلث في عشرين سنة (١) وأخيرا ثبت هنا ما فات زويمرا أن يذكره ، وهو أنه يوجد في جميع أنحاء أوروبا وأمريكا من اعتنقوا الاسلام ، وإذا كان هذا الأمر لا يزال قليل الأهمية بالنظر لقلّة عدد المعتنقين (وان كان عددهم لا بأس به) فانه ذو أهمية كبرى نظرا لمركز هؤلاء المعتنقين الذين ينتمون إلى الطبقات الراقية المتعلقة ، ونذكر منهم على سبيل المثال (اللورد هيدلى) الانكليزى ، وصديقنا المأسوف عليه المرحوم كريستيان شرفيس أحد تلاميذ

(١) انظر كتاب « الاسلام » تأليف س . و . زويمر

أوغست كومت ، وأديب من أديباء فرنسا المهدودين ، وفيلسوف من فلاسفتها المشهورين .
 ولو كان الاسلام الحقيقى معروفا في أوروبا لكان من المحتمل أن ينال (أكثر من أى دين آخر) من العطف والتأييد من جراء روح التندين التي نجمت عن الحرب الكبرى ، فإنه والحق يقال يلامم جميع ميول معتقيه على اختلاف مشاربهم فهو (ببساطته المتناهية كما يذهب إليه المعتزلة ، وباشتماله على روح التصوف كما يذهب إليه أهل الصوفية) يهدى علماء أوروبا وآسيا إلى الطريق المستقيم ، ويجدون فيه تعزية وسلاوى من غير أن يحول بينهم وبين حريتهم التامة في آرائهم وأفكارهم ، كما أنه هدى وتعزية لزوج السودان الذين ينزعهم من أحضان أوهامهم الوثنية ، ويرقى بروح ذلك التاجر الانكليزى رجل العمل الذى يعتبر الوقت من ذهب كما يرقى بروح الفيلسوف المندين ، ويسمو بنفس الشرقى المفكر ذى التأملات والخيال ، كما يسمو بنفس الغربى الشغوف بالفن والشعر ، بل هو يسحر لب الطيب العصرى بما قرره من الوضوء المتكرر كل يوم ، وبما فى الصلاة من حركات منتظمة ، تفيد الجسم والروح معا ، وفى وسع حرك الفكر (وهو ليس ملحدا حتما) أن يعتبر أن الوحى الاسلامى عمل من أعمال تلك القوة الخفية التي نسميها (الاهام) وأن يعتقد به من غير أية صعوبة بما أنه لا يحتوى على أسرار خفية لا يسيفها العقل .

ثالثاً : عداوة أوروبا للإسلام

إن الكثيرين من القراء يعترضون على ملاحظتنا الخاصة بعداوة أوروبا للإسلام ، فإن هذا الشعور السبى لا وجود له فى الحقيقة عند عامة الأوروبيين ، بل هناك الكثيرون من غواة الفن وعشاق السياحة يشعرون بعطف خالص على الاسلام والمحجوب كبير بذلك الدين الجذاب الذى أتى بآيات الإعجاز .
 ولكن مما يؤسف له أن أوروبا متمسكة بتقاليد سياسية يرجع تاريخها إلى عهد الحروب الصليبية ولم تحدد عنها للآن ، وكلما همت بنسيانها قام فى الحال أعداء الاسلام أمثال (غلاستون) و (كرومر) و (بلفور) ومطران كنتربرورى والمبشرين من جميع المذاهب فى وجهها ، لسدها والعودة بها إلى تلك التقاليد العدائية (وهنا استعرض المؤلفان بعض الحوادث السياسية مما لا يجمله القراء ومما يخرج بنا عن الخطة التي ارتسمتها المجلة لنفسها ، ولذلك لم نبدأ من إغفال ما ذكرناه فى هذا الصدد) .

كراهية الاسلام تحت ستار العلم

جرت العادة عند ما يدرس أحد العلماء موضوعا من المواضيع أن يشغف به كل الشغف ، ويرى جميع المحاسن مجتمعة فيه ، وما يزال عاقفا بأذهاننا ما كان يديه أحد أسانذتنا من الجاسة والإعجاب بأشعار فرجيل التي كان يحتم علينا استظهارها ، وكذا الجاسة التي كان يظهرها أحد علماء التاريخ الطبيعى عند ما يقع نظره على الديدان الموجودة فى أحشاء كلب ميت .
 ولا يوجد لهذه القاعدة سوى استثناء واحد ، والاسلام هو فى هذه المرة أيضا محور هذا الاستثناء ، وفى الواقع توجد اليوم جماعة من المستشرقين لاغرض لهم من دراسة اللغة العربية والبحث فى الدين الاسلامى سوى تشويهها والظعن فيها . انتهى ماجاء فى « مجلة جمعية الشبان المسلمين » وبهذا تم الكلام على الجوهرة الأولى فى قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » والحمد لله رب العالمين .

الجوهرة الثانية في قوله تعالى : رحماء بينهم

مع قوله تعالى في سورة الحجرات الآتية بعد هذه : إنما المؤمنون إخوة

وفيها فصلان : الفصل الأول

جاء في مقدمة كتاب « حاضر العالم الاسلامي » للعالم الأمريكي (لوثروب ستودارد) ملخص ما يوضح معنى : « رحماء بينهم » ومعنى : « إنما المؤمنون إخوة » وذلك بتدوين تاريخ الرسالة المحمدية ، وبيان أخلاق العرب القدماء وتفرقتهم ، والنصارى وخرافاتهم ، والقيصرة وظلمهم ، والأكاسرة واستبدادهم ، وكيف جاء الاسلام جمع هذه الأمم على الاخوة الاسلامية ، ثم أبان أيضا كيف أصاب هذه الاخوة ماشقت شملها ، وفترق جمعها ، وذلك بحب الاستبداد بالخلافة والرجوع إلى العصبية الجاهلية في الأمم العربية ، فتبع ذلك أن استبدت الترك الجفافة الغلاظ بالأمم الاسلامية فتفرق الجمع ورجع الاسلام القهقري ، واستعرت نيران الخلاف بين الفرق المتباينة الاسلامية ، ولما كثرت الظلم ، واشتد الحيف وازداد ، وبلغ السيل الزبي ، امتدت نيرانه إلى النصرانية ، فضيق الترك المسلمون عليها الخناق ، في غدوها ورواحها للحجج ، فكانت الحروب الصليبية ، ولولا أخلاق الترك لم تكن هذه الحروب .

ولقد أصيب الاسلام في الشرق بالمغول وعلى رأسهم جنكيزخان ، وأصيب في الغرب في بلاد الأندلس بتفرق كلمة العرب ، فزالت السولتان الشرقية والغربية ، وهناك ظهر الترك العثمانيون فلكوا أقطار الاسلام كلها بعد أن أقمرت أعظم ديار الاسلام أيام المغول ، وخرت بغداد ، وبلاد العراق ، ثم إن أوروبا أخذت تستيقظ إذ ذاك فهجمت على بلاد الاسلام واقسمتها ، فقام المسلمون اليوم وعرفوا الحقائق ، فاستيقظوا من سباتهم العميق ورجعوا الآن إلى آية : « رحماء بينهم » وآية : « إنما المؤمنون إخوة » .

هذا ملخص المقدمة التي كتبها مؤلف « حاضر العالم الاسلامي » الأمريكي ، كل ذلك قصصته على صاحبي العلامة الذي بحادثتي في هذا التفسير . فقال : هذا كلام جميل في الرحمة والاخوة الاسلامية ، والله انه نور على نور ، وكيف لا يكون ذلك والكتاب « أولاً » حديث العهد « ثانياً » ان كاتبه أمريكي نصراني « ثالثاً » إن فيه ملخص تاريخ النبوة وملوك الاسلام « رابعاً » ان الاخوة الاسلامية التي جاءت في هذه الآية ظهرت في أول تاريخ الاسلام ورجعت نظهر الآن كرة أخرى لاسعاد أهل الأرض ، والله إن هذا التفسير لو لم يكن فيه سوى هذا المقال لكفى ، بل لو لم يكن للنبي العربي مجزة سوى هذه لكفت ، بل لو لم يكن للمسلمين الحاليين فبراس وسلاوة ومنعة وعزة سوى هذه الآراء لكفتهم في رقبهم ، فإذا أنت قلت نفس هذه المقالة لتسمعها الأمم الاسلامية المنبثة في أقطار المسكونة ، فانك حقا تلهب في قلوبهم نار المحاسة الأخوية والمحبة الاسلامية ، وتسرع في رقبهم بها ، ويعلمون ما هم عليه من اليقظة والقوة ، وتذهب تلك الوسواس والخوف والتشاؤم واليأس ، ويحل في القلوب نور التفاؤل والتقدم والسعادة والفلاح . فقلت : جاء في الكتاب المذكور في المجلد الأول تحت عنوان « تمهيد للمؤلف » مانسه :

إن العالم الاسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، قد تغلفت فيه عوامل الانقلاب أبعد متغافل ، واثبتت في عروقه فواعل التبدل أوسع منبت ، حتى كمل اختباره ، وتم استعداده ، فراح يجتاز هذا الدور الخطير في التحول ، توأر القوى إلى ملاحظه ، فاذا ما سرتحت بصرك نحو العالم الاسلامي رقعة رقعة ، من مراكش حتى الصين ، ومن تركستان إلى الكونغو ، رأيت ال ٣٠٠٠٠٠٠ من المسلمين قد ثارت نفوسهم مشتدة الحركة والانفعال ، نازعة إلى كل ضرب جديد من ضروب الآراء والافكار ، والمطامح والآمال ، وأن عضي هذا الانقلاب الشامل لعظيمة جدا ، وستتأثر بنتائجها العميمة أم الأرض جمعاء ، والله الأمر من قبل

ومن بعد .

على أن العامل الأكبر في هذا الانقلاب هو الحرب العامة ، ولكن منشأه براه المستقصى أقدم عهد وأبعد أصلا ، إذ أن بذوره قد أقيت في ترب العالم الاسلامي قبل الحرب الكبرى بمائة سنة بل أكثر ، ومنذ ذلك الحين درجت هذه البذور تنمو مزداة الاستعداد والقوة الحيوية ، نموًا مستسرًا المنهج ، بطيء الحركة في أول العهد ، ثم على التوالي صار أوضح سبيلا وأوسع انتشارا ، وما زال الانقلاب الاسلامي على مسراه هذا حتى أدركته الحرب العامة التي قد تضعع منها الكيان ، فكانت عامل الثورة جأة في المعمور الاسلامي فطفق بثور وبهتاج منتقلا من حال إلى حال ، مريدًا الجوق بقام السحب ، لا يسمع فيه السامع إلا القواصف . وان وصف هذا الانقلاب العجيب ، ودور التحول العظيم ، وما لإيهما من مختلف الأسباب والعلل والنتائج هو غرضنا الذي قد ابتغيناه من اخراج هذا الكتاب للناس ، وقد كنا في ذلك من الذين يصورون الشيء كاملا تاما ، فأتيينا على بيان كل صور الانقلاب من دينية وتمهيدية وسياسية واقتصادية واجتماعية ، وفي كل من هذه تناولنا الكلام على سببها وتكوّنها ، ونشوتها وترقيتها ، وعمومها وانتشارها ، وصفاتها وحالاتها ، وما فيها من قوة انسياق وعامل ، أضف إلى هذا أننا لم نغفل لإيضاح ما في بعض المواضع من الاختلاف بسبب الاقليم والبيئة ، من حيث أننا قد بسطنا تلك المضارعة العامة والصفة الكلية ، بما هو مصاحب لجميع الحركات على اختلافها مصاحبة دالة على ماهتهاك من وحدة متونة في هذا الانقلاب الاسلامي .

إن موضوع الكتاب وان كان مختصا بالعالم الاسلامي في المقام الأول ، غير انه تناول الكلام على غير المسلمين كالعناصر الهندوية (الهندوس) في الهند وسواهم استيفاء للغرض من جميع الوجوه التي لها صلة بالموضوع ، لذلك جعل الكلام كافيا وافيا في شأن الشرقيين الأدنى والأوسط ، أما الشرق الأقصى فلم نتناول الكلام في أحواله مباشرة ، ولكننا قد أشرنا إلى ما هو مشاهد من الشبه والمماثلة بينه وبين العالم الاسلامي في المساجرات العنمة إشارة يفتني للقارئ أن يقيم لها وزنا اه
ولنشرع الآن في ذكر مقدمة الكتاب المذكور ، فقد جاء فيه تحت العنوان التالي مانصه : -

نشوء الاسلام وارتقاؤه وانحطاطه

يفنى البرايا ويأتي الوقت مختلفا * ليخرج الدهر تاريخا من الرمم

كاد يكون نبأ نشوء الاسلام النبأ الأعجب الذي دون في تاريخ الانسان ، ظهر الاسلام في أمة كانت من قبل ذلك العهد متضعضة الكيان ، و بلاد منحطة الشأن ، فلم يمض على ظهوره عشرة عقود حتى انتشر في نصف الأرض ، ممزقا بممالك عالية النرى ، مترامية الأطراف ، وهادما أديانا قديمة كرت عليها الحقب والأجيال ، ومغيرا ما بنفوس الأمم والأقوام ، وبانيا علما حديثا متراسا الأركان ، هو عالم الاسلام .
كلما زدنا استقصاء باحثين في سرّ تقدم الاسلام وتعاليمه ، زادنا ذلك العجب العجيب بهرا ، فارتدنا عنه بأطراف حاسرة ، عرفنا أن سائر الأديان العظمى إنما نشأت ثم أنشأت تسير في سبيلها سيرا بطيئا ، ملاقية كل صعب ، حتى كان أن قبض الله لكل دين منها ما أراد له من ملك ناصر وسلطان قاهر انتحل ذلك الدين ، ثم أخذ في تأييده والدّب عنه ، حتى رسخت أركانه ، ومنعت جوانبه ، بطل النصرانية قسطنطين ، والبودية اسوكا ، والمزدكية قيا كسرو ، كل منهم جبار أبد دينه الذي انتحل بهما استطاع من القوة والأيد ، إنعالميس الأمر كذلك في الاسلام ، الاسلام الذي نشأ في بلاد صحراوية ، نجوب فيا فيها شتى القبائل الرحالة التي لم تكن من قبل ربيعة المسكنة والمنزلة في التاريخ ، فليسرعان ما شرع يتدفق وينتشر وتوسع رقعة في جهات الأرض ، مجتازا أفصح الخطوب وأصعب العقبات ، دون أن يكون له من الأمم الأخرى عون يذكر ولا أزر

مشدود ، وعلى شدة هذه المكارة فقد نصر الاسلام نصرا مبينا عجيبا ، إذ لم يكذب يمضي على ظهوره أكثر من قرنين حتى باتت راية الاسلام خفاقة من « البيرينيس » حتى « جلایا » ومن صحارى أواسط آسيا حتى صحارى أواسط افريقيا .

كان لنصر الاسلام هذا النصر الخارق عوامل ساعدت عليه ، أكبرها أخلاق العرب ، وماهية تعاليم صاحب الرسالة وشريعته ، والحالة العاقمة التي كان عليها المشرق المعاصر في ذلك العهد ، إن العرب وإن كان ماضيهم مابرح منذ عهد متناول في القدم حتى عصر الرسالة ماضيا غير مشرق باهر ، فقد كانوا أمة استودعت فيها قوة عجيبة ، تلك القوة الكامنة التي بدأت منذ نشوء الاسلام تظهر جليلة إلى عالم الوجود ، فقد ظلت بلاد العرب أجيالا طويلا من قبل محمد ، مباءة يشتد فيها تزخار القوى الحيوية ، وجيشان العوامل الروحانية ، كيف لا وكان العرب قد فاقوا آباءهم وأجدادهم إيفالا في الشرك والوثنية ، واقضى عليهم وهم على هذه الحالة عهد ليس بالقليل حتى استجالت عناصر أمرجنهم من شدة ذلك كله فصاروا تواقين بفعل غرائزهم وأخلاقهم إلى تبديل حالهم ، وتحسين شأنهم ، هكذا كانت حالهم العقلية والنفسانية حالة الاستحالة الكبرى والانتقال العظيم ، والاستجداد الكبير ، لما صاح فيهم نفي الاسلام ، ان محمدا وهو عربي من العرب ، وروح قومه متجسدة ، ونفسهم متجسمة ، استطاع وهو يبشر بالوحدانية تبشيرا عاريا عن زخارف الطقوس والأباطيل أن يستثير حق الاستتارة من نفوس العرب العبرة الدنيوية ، وهي العبرة الكامنة متمكنة على الدوام في كل شعب من الشعوب السامية ، وإذهب العرب لنصرة دعوة ابن عبد الله ، من بعد ما ذهبت من صدورهم الاحن المزمته ، والعداوات الشديدة التي كان من شأنها من قبل التهاج بحولهم وقوتهم ، وانضم بعضهم إلى بعض كالبنيان الموصول تحت لواء الرسالة في رأسه نور للناس وهدى للعالمين ، أخذوا يتدفقون تدفق السيل من صحراهم في شبه الجزيرة ليفتحوا بلاد الإله الأحد الفرد الصمد .

أجل ، هب الاسلام من شبه الجزيرة هبوب العاصف الزعزع ، فلاق في سبيله جوارا روحانيا خاليا ، في ذلك العهد كانت كاتنا ملكتي فارس وبيزنطية باديتين للعيان كأنهما اللحاء الجاف فارق عوده لانقوفيه ولا حياة ، وكان الدين في كل من هاتين المملكتين صاردينا يزرى عليه ويسخر منه ، أماني فارس فقد كان دين المزدكية القديم قد انحط انحطاطا كبيرا حتى أصبح بحوسية باطلة وصناعة خداعة بين أيدي المواظدة يظلمون به الخلق ويضطهدونهم بكل قسوة ، ففكره الناس ذلك الدين في الباطن كرها شديدا ، ومقتوه مقتا عظيما .

وأما في القسم الشرقي من المملكة الرومانية ، وهو مملكة بيزنطية فقد ألبس الدين فيها لباسا غير لباسه الأول فاستحال إلى الأباطيل الشركية وانتشرت فيه الأوهام والخزعبلات التي كان يقوم بها علماء الدين اليونانيون ذوو العقول السخيفة والآراء الفاسدة ، ففقدت النصرانية عبنا وسخرية ، وعلى الجملة فقد كانت البدع والشذلات قد مزقت المزدكية الفارسية والنصرانية البيزنطية شرا ممزقا ، وبذرت في كل منها بذور الاضطهادات الهمجية ، والعداوات الوحشية ، فنمت تلك البذور نموا هائلا ، ولا يعزبن عن البال أنه كان على رأس كل من بيزنطية وفارس سلطان مسند قاهر ، وملك عات أرهق الرعية إرهاقا لا قبل لأمة باستمال مثله ، فمات كل عاطفة من عواطف حب الوطن والاخلاص للدولة ، زد على جميع ذلك أن هاتين المملكتين كانتا على حال من الضعف شديدة بعيد حرب طاحنة ، التظت نيرانها بينهما ، خرجت كلاهما منها مفتوتا في عضدها ، منهوكة قواها .

هكذا كانت حالة العالم لما غشيه طوفان الاسلام ، وعلى هذا الاعتبار فإن العاقبة التي رآها العالم بعيد ذلك كانت مما لا بد منه ولا منتدح عنه ، وجب ماني الأمر أن كتائب المملكة الرومانية الشرقية ومتمردة

فارس ، كانت من قبل خواضة حرب فتاكة ، لم تقوآآن على صد حملة الحملين عليهما من أمة الصحراء المتعصبة ، فسقطت أمام الفاتحين العرب سقوط التلاشي والاعياء ، فلهذا لم يدافع المغلوبون عن أوطانهم حسا أبطلا ، بل ان هذه الأمم التي كانت حتى الفتح الاسلامي مدقوقة العنق من جانب ملوكها ، قبلت الفاتحين مستسلمة ، فقام عديد أرباب البدع يتهللون فرحا وسرورا لنجاتهم من نير المضطهدين المقوتين ، ولم يمض سوى اليسير من الزمن حتى كان السواد الأعظم من هذه الأمم المغلوبة قد دخل في دين النبي العربي أفواجا ، إثارا له بجدته وسنابته على ذنك الدينين اللذين صارا غاية في الانحطاط والتسدى ، وقد عرف العرب بدورهم كيف يستدنى الحكم ويوثق السلطان حتى دانت لهم أمور الملك واستقرت نقطة دائرتها في أيديهم ، فالعرب لم يكونوا قط أمة تحب إراقة الدماء ، وترغب في الاستلاب والتدمير ، بل كانوا على الضد من ذلك ، أمة موهوبة جليل الأخلاق والسجايا ، تواقفة إلى ارتشاف العلوم ، محسنة في اعتبارهم التهذيب تلك النعم التي قد انتهت إليها من الحضارات السالفة ، واذ شاع بين الغالبين والمغلوبين التزاوج ووحدة المعتقد ، كان اختلاط بعضهم ببعض سريعا ، وعن هذا الاختلاط نشأت حضارة جديدة ، الحضارة العربية وهي جاع متجدد التهذيب اليوناني والروماني والفارسي ، ذلك الجاع الذي نفخ فيه العرب روحا جديدة ، فنضروأزهر ، وألفوا بين عناصره ومواده بالعقريّة العربية والروح الاسلامية ، فاتحد وتماسك بعضه ببعض فاشرق وعلا علوا كبيرا ، وقد سارت الممالك الاسلامية طيلة القرون الثلاثة الأولى من تاريخها (٦٥٠ - ١٠٠٠ م) أحسن سير ، فكانت أكثر ممالك الدنيا حضارة ورفيا ، وتقدما وعمرانا ، مرصعة الأقطار بجواهر المدن الزاهرة ، والخواضر العامرة ، والمساجد الفخمة ، والجامعات العلمية المنظمة ، وفيها مجموع حكمة القدماء ومخترن علومهم ، يشعان اشعاعا باهرا ، طيلة هذه القرون الثلاثة ما انفك الشرق الاسلامي يضيء على الغرب النصراني نورا ، ثم غابت كواكبه ، وأفلت أنجمه ، حتى أدركته لياليه السوداء ، وأجياله المظلمة ، لم يكده يستهل القرن العاشر حتى تبدت الظواهر الواضحة تدل على حينونة العهد الذي أخذت فيه الحضارة العربية في الانحطاط ، وما كانت تلك الظواهر لتكذب فيما دلت عليه ، غير أن تلك الحضارة إنما كانت في أوائل عهد الانحطاط تهبط دركة دركة ، وعلى هذه الحال المستمرة ، وانقضاء العصر العربي منذ القرن العاشر فقد دامت الحضارة العربية جلدة تنزع حياتها من مخالب الفناء انتزاعا ، وسابقة للغرب النصراني حتى حلول النازلة الكبرى التي حلت بساحتها في القرن الثالث عشر ، وكانت الأسباب في انحطاط الحضارة الاسلامية جمة أشدها أن روح الشقاق القديمة الأصل ، تلك الروح التي كانت على الدوام آفة سياسية تنخر في جسم الدولة عادت فظهرت إذ نشأ التنازع على امارة المؤمنين ، وهذا التنازع قد أفضى إلى فتن دموية ، وهذه الفتن وما فيها من حوادث الاغتتيال وسلب الأرواح قد أفنت تلك الحرارة التي عرفت في صدر الاسلام ، فقام مقام الأبطال الاول ، مثل أبي بكر وعمر ، حاملي لواء الاسلام الأولين ، أمراء دنيويون ، اتخذوا الخلافة وسيلة للعجور والظلم ، والتباهي بمتاع الدنيا وأعراضها ، وكانت الخلافة في المدينة في الحجاز ، ثم نقلت إلى دمشق في سورية ، ثم إلى بغداد في العراق ، أما في الحجاز فلم يكن النبي ولا الاستبداد هناك مستطاعا ، لأن عرب الصحراء الأشداء ، أهل الاستقلال والحرية ليس من شأنهم الخضوع لحاكم قاهر ، ولا الاتقياد لأمر مرهق ، وقد أوصاهم النبي بالحرية والشورى فقال لهم قولوا مينا : « إنما المؤمنون إخوة » وقد كانت الخلافة في الحجاز شورية قائمة على قواعد الاسلام الصحيحة وأركانها ، فالأمة هي التي اختارت أبا بكر وعمر وولت كلا منهما عليها خليفة ، وكلاهما كان ينزل على رأى الأمة وحكمها ، وذلك على مقتضى الشريعة التي أوحى الله بها إلى نبيه محمد وهي القرآن الكريم . وأما في دمشق ، ولاسما في بغداد ، فقد تحولت الأحوال ، وتبدلت الامور ، ولايجب من ذلك والعرب الصرحاء الأفتحاح ، الجارى في عروقهم الدم العربي البحت ،

الدم المتحتر إليهم من أصلاب أبناء الجزيرة ، إنما كانوا فئة قليلة في أفواج الناس ، وطوائف الخلق الذين لا عدد لهم من أهل الشام وفارس وغيرهم من سائر المغلوبين المنتحلين الاسلام - حينئذ ، فامتزج دم الغالب بدم المغلوب ، وجع الاسلام بين الأجناس المختلفة والنحل المتنوعة ، ولما كانت جميع هذه الشعوب المغلوبة قد سئمت الذل من ملوكها السابقين ، فعادت بسبب ذلك لا تقوى على احتمال الإرهاق والصبر على المحنة ، لحدثان مادانت خاضعة مضافة للخلفاء المسلمين الذين أخذوا على التوالي يصطنعون ويستكفون من هذه الرعايا عمالا وحاشية ، وبالتالي جندا لحراسة سياج الملك والذب عن حياض الدولة ، وما زال الأمر هكذا حتى عرا الملك العربي معاوية من النوائب ، فأخذ ظل سلطان العرب ، وقد ولى غرر أيامهم يتقلص إلى الصحراء ، وأنشأت حكومتهم تنقلب إلى مطية من مطايا الاستبداد الشرقي ، ولما نقلت الخلافة إلى بغداد بقيام دولة بني العباس (٧٥٠ م) ازدادت كلمة الفرس نفوذا ، وامتد شأنهم وسلطانهم إلى كل زاوية من زوايا الدولة ، وما الخليفة الأعظم هرون الرشيد بطل ألف ليلة وليلة إلا الملك العربي على شاكهة ملوك الفرس مثل قياكسرو وكسرى أنوشروان ، خلافا كل الخلاف لما كان عليه أبو بكر وعمر ، وفي بغداد كما في غيرها من سائر حواضر المملكة الاسلامية كان الاستبداد مقوضا لأركان الدولة إنما تقويض ، ففسدا خلفاء النبي وهم على هذه الحال طغاة موسوسين ، والأعيب بين أبدى الخطايا ، لا يستطيعون القيام بعد بعبء من أعباء السلطان ، ولا القيادة بزمام من أزمة المملكة الاسلامية .

ما انفكت المملكة تهبط وتتهقر حتى تنظمت أو صالها ، وتفككت أجزاءها ، وسلبت منها ، فصارت الوحدة السياسية مما لا يستطيع دوامه لافتقار الدولة إلى قواد محنكين ، ولعفاء ذلك المزاج الاسلامي الصافي الجامع لسجاياء عرب الصحراء الاول ، وقبيل ظهور الاسلام كان أهل كل مصر من الأمصار التي انتشر فيها ظلم أو كاسرة الفرس وقياصرة الروم ، يزرعون منزعا قوميا ويحاولون نهضة وطنية ، فجاء الفتح الاسلامي طاميا قاضيا على جميع هذه المنازعات ، أما الآن والمملكة الاسلامية محتضرة في النزاع فأني يستطيع المجرى بمثل ما جرى به في صدر الاسلام ؟ استطاع الاسلام أن يجعل الملايين من الخلق على اختلاف عناصرهم وأمزجتهم ومعتقداتهم ينتحلون الرسالة المحمدية دينا ، ولكنه لم يستطع أن يجعل هذه الملايين إلى صورة إسلامية متساكة البنيان ثابتة الصبغة ، فاعترض الازدراد شجا ، وساء الهضم فسامت نديجته ، دعا محمد العرب فلبوا دعوته حقا ، لأنه إنما أتاهم بكتاب وآيات وآراء مما كانت عقولهم وطبائعهم مستعدة بالفطرة لقبوله أحسن قبول ، وناداهم مستغزا لفرمتهم وحيثهم ، وهم اخوان نحوه سجية وخلقا ، فاستجابوا نداءه طائعين ، فلما دخلت شعوب مختلفة غير عربية في الاسلام ، أخذ كل شعب من هذه الشعوب يفسر بموحى غريزته رسالة النبي على ما يلائم منازعه الشعبية ، ومبولة التقليدية الخاصة ، ويوافق روح التهذيب الذي كان عليه ، فنتج عن جميع ذلك أن الاسلام الحقيقي الذي شاهده العالم في أول منشئه قد اعوجج والتوى ، ولنا أجلى دليل على هذا ما حدث في بلاد فارس حيث استعالت الوجدانية التي نادى بها محمد إلى مذهب الشيعة ، فبات أهل فارس الشيعة على صلات واهية تكاد لا تربطهم بعالم السنة الاسلامي ، واستعالت الوجدانية أيضا عند البربر سكان البلاد المغربية الافريقية وغيرهم إلى حال عبت معها الأولياء ، وحدث مثل هذا عند المسلمين في الهند ، على أن جميع ذلك لما شدد النبي في تحريمه والنهي عنه نهيا قاطعا .

وما كفي ما حدث من الاختلافات الدينية ، وما أصاب صورة الرسالة النبوية ، حتى عمت البلوى بأن منى الاسلام تجزق الوحدة السياسية ، والانشقاقات الزمنية ، فأول ما حدث من هذا النوع كان في أوائل عهد السولة إذ فر أحد المضطهدين من بني أمية إلى الأندلس حيث أنشأ في قرطبة خلافة مناقسة لتلك التي في بغداد ، فاعترف مسلمو الأندلس قاطبة بهذه الخلافة حتى وراثة شمال افريقية ، ومن بعد ذلك بعهد أنشئت

خلافة أخرى في مصر هي الخلافة الفاطمية وخلفاؤها متحذرون على ما زعموا من فاطمة بنت الرسول ، أما الخلفاء العباسيون في بغداد فإبرحوها يهبطون دركات الانحطاط ، ويفقدون من دولتهم وسلطانهم حتى صاروا بعد مدة من الزمن عبيدا مطاوع بين أيدي الترك ، العنصر الغريب الداخل عليهم .

وقبل أن نشرع في بيان كيفية انتقال النبوة من أيدي العرب المهجنة ذوى الدم المزيج إلى أيدي الترك وخطورة ذلك عظيمة في تاريخ الإسلام نؤثر أن نقول كلمة في أسباب انحطاط التهذيب والمدارك العقلية عند العرب ، ذلك الانحطاط الذي رافقه تمزق الوحدة السياسية في جميع الأدوار الأخيرة من العصر العربي .

كان العرب في عصر صاحب الرسالة أمة كريمة الأخلاق ، سليمة الطباع ، نيرة السجايا ، مقادير يركبون كل صعب ، تحركهم روح الرسالة بغاية غاياتها ، وتبعث فيهم عزيمة شديدا وغيرة متوقفة ، كانوا أشداء العصبية الدينية ، وهي العصبية المعروفة في كل جيل من الأجيال السامية ، وعلى شدة هذه العصبية فانهم لم يكونوا فيها على غير هدى ، بل كانوا مستبصرين يستنبطون بنور العقل وهدايته ، وتمسكين تمسكا شديدا بمعتقدات دينهم وأركانها وأصوله ، غير أن دينهم هذا إنما كان دينا سهل الاكتناء والمآخذ وانحما جليا ، كان جوهر تعاليم محمد الوحداية مع السنة المعلومة ، فالاعتقاد بكل الاعتقاد بأن لا إله إلا الله وبأن محمدا رسوله من لدنه كما أنزل في القرآن ، والقيام بالفرائض المسنونة المعينة ، كالصلاة واليوم والحج ، إنما هذا حسب هو جملة الأركان التي تألف منها الإسلام الذي كان عليه العرب يوم أصدوا في الأرض يفتحون العالم الشرق .

فالإسلام وهو هذا الدين البين الصريح ما كان ليقيد عقل العربي ويلقي عليه سجوفا فوق سجوف والعربي كان قد أدرك حالا ثار فيه جدّه ، واشتعلت فيه غيرة ، فبات توافقا إلى اقتباس العلوم واجتناء ثمراتها والتبسط في شؤون الحياة وتوفير أحوالها ، والتكليف على حديث مقتضياتها والمخروج بها عما ألفه أزمانا في فيافي الصحراء وكشبانها ، لهذا لما نشر العرب فتوحهم ، ومدوا سلطانهم على الأقطار الأجنبية لم يقصروا نفوسهم على التمتع بالتم المادية واستلذاذ الترف ورغاء العيش حسب ، بل عكفوا جاذبين على ترقية الفنون والعلوم والآداب وآراء الحضارات القديمة ، فنشأ عن جميع هذا الجد والترقيات أن أخرج للناس تهذيب عربي سام فأضاءت العقول وازدهرت ازدهارا كان نغز الحضارة العربية ، وواسطة فلادتها ، ودرّة تاجها ، وكان ربح من الزمن كانت فيه هذه الحضارة بشرقة الشمس ، يافعة النمار ، وارفة الظلال ، فسادت الحرية العقلية ، وابتكرت الآراء والأفكار العلمية ، ووضعت القواعد والاصول واستنبطت الأحكام ، بيد أن هذا لم يكن من صنع العرب وحدهم ، بل شاركهم فيه كثير ممن كانوا متظالين ظل دولتهم من النصارى واليهود والفرس الذين كانوا في عهد ملوكهم قبل الفتح الإسلامي بذوقون الأمرين ويسامون خسفا شديدا في سبيل آرائهم ومعتقداتهم الدينية التي كانوا يخالفون فيها النصرانية البرنظية والمجوسية الفارسية . على أنه كان لهذا العصر الزاهر حدّ وقف عنده ، ثم عرا شمس كسوف فظلام مطبق ، فظهرت فرق رجعية ، فما برحت تستقوى وتناهض غيرها من الفرق الحرة حتى تغلبت عليها ، ثم أنشأت تسود سيادة شديدة ممتدة ، واتقضت الأيام التي قامت فيها الفرق الحرة المعروفة على العموم بالمعتزلة مستمكة بلباب الإسلام وجوهره الصحيح ، وذاهبة إلى أن العقل إنما هو مقياس كل شيء ، وقامت الآن الفرق الخلافية المحافظة من بعدها ذاهبة إلى أن النقل والسنة إنما هما مقياس كل شيء ، وأخذ من على هذا المذهب وفيهم كثير من النصارى الذين دخلوا في الإسلام وكانت أمزجتهم ما برحت مشربة روح دينهم البرنظي القديم يفسرون القرآن الكريم ويؤوّلونه ثم يؤلفون بين هذا التفسير والتأويل وبين السنة التي نقلتها الصحابة عن النبي ، وأوغلوا في ذلك إغالا بعيدا فنتج عن ذلك أن أصيب الإسلام بمثل ما أصيبت به النصرانية في الأجيال المظلمة من تلبس الدين عقائد غير عقائده ، ونسب الآراء الدينية الخافة إليه وهو براء منها ، فلاغرو إذا اشتد الخلاف واتسعت شقته وطال

عهد بين الذين اعتصموا بالسنة والنقل فقاوسا عليهما وبين الذين جعلوا العقل نفسه مقياسا لكل شيء ، وأذ قد انتهى الحال بالاسلام إلى مثل هذا فالغلبة الأخيرة إنما باتت متوقعة وهي غلبة عقيدة السنة والنقل على العقل ، وفي الواقع فإن تاريخ السنة والتقاليد في كل بلد من بلاد الشرق إنما هو تاريخ السير نحو أديار الاستبداد وعواقبه المشثومة ، كانت قد تبدلت في سماء الشرق سحج سوداء قاتمة ، فلما أشرفت عليها شمس الاسلام الأولى من الصحراء حقبة من الزمن مزقتها وبدتها ، وكيف لا تضمحل تلك السحج وقد سادت الحرية العقلية والفكرية ، غير أنه بعد اقتضاء هذا الدور دور النور والحرية ، عادت الغياوة والعقائد والأوهام تملأ فضاء الشرق وتستولى على عقول أبنائه ، وبما ساعد على ذلك استحالة الخلافة الاسلامية من الشورى السياسية الصحيحة إلى الاستتار فالاستبداد .

فلما رسخ الاستبداد في الدولة وجازأفقها بعيدا أخذت آثار ذلك تبدو جلية في موضع موضع والاستبداد بطبائعه هو عدو الحرية وقائلها أينما وجدت ، سواء أكانت حرية العقل والفكر أم حرية العمل ، وكان بعض الخلفاء من بني أمية في دمشق ، وقد استهوهم مذهب المعتزلة في بدء الأمر يوسعون في حرية الفكر ويرتاحون إليها ، ولكن لما أخذت روح المعتزلة تظهر بمظاهر السياسة أجبفوا منها أيما أجبفوا وأضرموا لها القضاء عليها ، فالمعتزلة حقالم تقصر أمرها على الآراء الفلسفية حسب بل تحطت ذلك فأنشأت نرفع عقيرتها منادية بالرجوع إلى حكم مثل حكم الخلفاء الراشدين ، يوم كان أمير المؤمنين ينتخب للإمارة انتخابا ولا يرثها وراثته وهو منقاد لرأي الأمة ، ونازل على حكمها وشوراها ، وقام الخوارج وهم من قلب شبه الجزيرة ومن أشد العرب عصبية يؤيدون تراثهم من حرية الصحراء ويؤدون عنه وينادون بتوسيع نطاقه غير معترفين بسلطة الخليفة ، ولا مبالين بهيبة أمير المؤمنين . وذاهبين في السلطة إلى أبعد من الحكم الجمهوري نفسه ، ففسأ عن ذلك أن الخلفاء أخذوا يستنون أتباع الفرق المحافظة ويقرّبونهم منهم ويعتضدون بهم ويقصون عنهم الفرق الحرة كالمعتزلة ويشددون عليها التكبر ويستعينون بالمشايخين لهم من العرب الهجناه ويشدون بهم أزرهم ، مؤثرهم على العرب الصرحاء من شبه الجزيرة ، حتى باتت الحكومة في الدولة العباسية حكومة دينية مسندة فرسخت عقائد الدين ملبسة لباس التقاليد وقررت حدودها ، واضطهد أتباع مذاهب المعتزلة وقتلوا نقتيلا وما كاد يكون القرن الثاني عشر من التاريخ المسيحي حتى أمحت كل معالم الحضارة العربية وقوضت أركانها ، وجفت كل عنصر من عناصر الحياة فيها ، وقضى على كل فكر مبتكر ، ورأى مبتدع ، وعاد لا يسمع صوت من أصوات المعتزلة ، ولا يرى لأحد منهم أثر ، وهجع العقل الاسلامي هجعته الطويلة ، وما زال مغرقا فيها حتى استفاق اليوم استفاقته الكبرى مدعورا .

في أوائل القرن الحادي عشر م تجسم انحطاط الحضارة العربية تجسما تاما ، وبعد أن اختفت الروح العربية الأولى التي هبت من الصحراء هبوبها العجيب ، أخذ العرب الهجناه يرون ملكهم السياسي يذهب من أيديهم إلى أيدي غيرهم من الدخلاء ، وكان هؤلاء الدخلاء الوارثون للدولة العربية هم الترك ، والترك هم العرق الغربي من الجبل الطوراني . جيل القبائل الرحالة التي كانت منذ عهد لا يعرف أوله تجوب انجاد أواسط آسيا وشرقها ، ولما كان العرب يفتحون فارس تحاكت قوادهم وجنودهم بالترك الرحالة ، وهؤلاء عهدئذ يعوجون المغازر محاولين جوار حدود فارس الشمالية الشرقية ، غير أن العرب وهم في إبان سلطانهم يخشع غالب قطبين الأرض لتكر خلفائهم ما كانوا ليرهبوا الترك أو يحسبوا لهم حسابا ، بل رأوا في الترك نفعا لهم ، والترك قوم عرفوا بالجهلاء والقسوة ، لا يحسنون شيئا أكثر من طاعة أمرهم والقتال كالمجانين ، فلهذا ما كان الخلفاء لينفروا منهم في أول الأمر ، بل أخذوا يستأجرون منهم جندا من الطراز الأول لا عزاز الجيش والندود عن ذمار الدولة ، ويستكثرون منهم بطانة وحرسا .

قلنا ان العرب ما كانوا ليرهبوا الترك في أول الأمر ، ولكن لما وهن عظم الخلافة وذهبت ريحها تحوّلت الحال فألت غير مائل ، إذ تمكن الترك المستأجرون من الحلول في كل موضع قوى من مواضع الدولة ولاسيما في الجيش العربي ، فأنشأوا يتصرفون تصرف السيد الأمر والحاكم المطاع ، ففتحوا أبواب التخوم العربية الشرقية ، ومهدوا السبيل تمهيدا لأبناء جنسهم ، فأخذ هؤلاء يتدققون كاللوح وعلى رهوس لمواقفهم قواد أمراء ، وطفقوا يعيشون في البلاد أحرارا أتى شاموا ، ويقومون حيث طاب لهم المقام ، ويجوسون خلال الديار ، ويسلبون وينهبون ، ويفجعون ويفتكون .

ولما شرع الترك بدخولهم في الدولة كانوا يقبلون سريعا على الدخول في الاسلام أيضا . بيد أن الاسلام لم يدمث من جفائهم ، ولم يقوم من أودهم كثيرا ، ومعنى ما جئنا نعتبر شأن هؤلاء الترك السخلاء يجب علينا أن نفرق بينهم وبين الترك العثمانيين المعاصرين سكان القسطنطينية وآسية الصغرى ، فان الترك العثمانيين اليوم إنما يجرى في عروقهم دم مزيج بعضه أوروبي وبعضه الآخر اسيوي غربى ، ويخالط مزاجهم عنصر غربى وعنصر شرقى عربى ، فهم والحالة هذه يختلفون اختلافا كبيرا ، تهذبا وخلقا ، عن آباءهم وأجدادهم الأولين وعلى هذا كله فان العثمانيين المتأخرين ما برحت فيهم السيم الطورانية الحشنة التي تميزها ترك قفقاسيا المعروفين بالتركان عمن سواهم من الترك المقيمين في غربى آسية ، فكيف كان التركي القديم بطباعه وسجاياه ترى ؟ إنما كان في المقام الأول جنديا مجربا ، ومقاتلا بسلا ، وهو لم يكن في ذلك العهد ذا فكر ثاقب ، وعقل مبتكر بل كان فيه شيء من حب الاطلاع والاستشفاف ، فلم يقتبس غير القليل من الآراء العسكرية في شؤون القتال ، فالطاعة العمياء مالم الطاعة العمياء وقاتل الاستبسال لحسب ، مما جيع ما كان عليه التركي يوم تقدم ليتناول قيادة الاسلام من الخليفة العربى المضعف الواهن العظم .

حقا مادهى الاسلام وسائر العالم معا مثل هذه الداهية ، ومازل بالحضارة العربية مثل هذه النازلة ، وكفى الاسلام انه دان لحكم أمة متعصبة مغالية جافة جاسية ، لم يكن الرقى مستطابا في ظل دولتها ، فبات ضرابا من ضروب المستحيل . أجل : لا ينكر أن الاسلام قد اعتز بقوة حربية كبيرة جديدة ، ولكن قد سىء التصرف بهذه القوة حتى جنت على الاسلام جنائبات هائلة ، وجرحته جروحا كبيرة ، فبات نزيفا يتقهقر سريعا ، وأول عمل قام به الترك الزاحفون هوا كبتساحهم آسية الصغرى واستيلاؤهم على بيت المقدس في أواخر القرن الحادى عشر م . غير أن جانبنا من آسية الصغرى ما برح حتى اليوم قسما من العالم النصرانى ، ولما أخذ سيل الفتح العربى يتدفق في القرن السابع م من شبه الجزيرة ، فإيزال يطمو على سورية حتى بلغ جبال طوروس فصدمه الروم هناك إذ استجمعت الأمبراطورية الرومانية الشرقية من قواها ما استجمعت واستطاعت أن توقف الفتح العربى عند حد عند تلك الجبال على عناء وتعب شديدين ، أما الآن فاجتاز الترك الحدود البيزنطية ودوخوا آسية الصغرى تدويحا ، وأخذوا يهددون القسطنطينية وهى الحصن الشرقى الحريز للنصرانية ، وكان بيت المقدس في أيدى المسلمين منذ الفتح العربى (٦٣٧ م) وكان الخليفة عمر يرحى حرمة الأماكن المقدسة النصرانية بما رعاية ، وقد سار خلفاؤه من بعده على آثاره ، فلاضيقوا على النصرانى ، ولانالوا بمساءة طوائف الحجج الوافدين كل عام إلى بيت المقدس من كل فجج من أجاج العالم النصرانى . بيد أن الترك بعد فتحهم البلاد لم يجروا على مثل ما جرى عليه العرب من قبلهم ، فالترك لما كانوا لا يرون لذة في غير السلب وكره غير المسلمين أخذوا يستلبون الأماكن المقدسة ويمتنون حرمة النصرانى ويحولون دون الحجج فبات مستحيلا .

فاكتساح آسية الصغرى والاستيلاء على بيت المقدس معا إنما نزلوا الصاعقة على النصرانية فقامت لهذا الخطب وقعت ، وطفقت أوروبا تميد من أقصاها إلى أقصاها مشتعلة بغضا دينيا ومحمدمة غضيا وحققا ،

وقام أولف مؤلفة مثل بطرس الناسك يلهبون الصدور نارا دينية ويحضون على حيازة بيت المقدس وقبر المسيح حتى جنّ الغرب النصراني جنونه الكبير، والتهب الغيرة الدينية في كل جوارحه وعرق من عرقه، وغشى التعصب على أبصاره، فهب يبعث البعث الصليبية، والمجاهل الجرارة دراكا لقتال الشرق الاسلامي في سبيل الصليب .

فداهية الترك ونازلة الحروب المقدسة الصليبية كانتا شرّ طعنة طعن بها صدر العالم وسببا دائما في سوء العلاقات بين الشرق والغرب . ففي سنة ١٠٠٠ م كانت العلاقات النصرانية الاسلامية أخذت تستقيم وتسير سيرا منبثا بالكف عن العداء ومبشرا بازدياد تحسن الحال وخير المسير، وكانت الأحقاد التي ثارت على أثر تدفق الاسلام على حال التلاشي والاضمحلال، وظهر عهدئذ أن الحدود الجغرافية بين عالم الاسلام وعالم النصرانية كادت تستقر فليس أي الفريقين يطمع بعد في الخروج على الآخر، ولم يبق ثمة أمر من أمور النزاع شأنه خطير وكبير غير الأندلس، حيث كان هناك مصطدم الاسلام والنصرانية المصطدم الأخير، بل على كل كانت الأندلس إذ ذاك قد باتت تعدّ حدّا فاصلا بين العالمين، وعلى الجملة فقد كانت علامّ ازدياد الوثام والطمأنينة بين الاسلام والنصرانية متجلية واضحة، وناحية منحى جيدا، فلو قدر هذه الحال أن تستمر وتسير بحيث يسكن كل عالم إلى أخيه لسكانت أنت بنعمة من النعم الكبرى الباقية على الحضارة والانسانية، فالعالم الاسلامي كان ما برح حتى ذلك الأوان سابقا لأوروبا الغربية سبعا بعيدا، وفائقا عليها علما وتهديبا . بيد أن الحضارة العربية كان قد أخذ الكمد والكف يدوان عليها في الحين الذي طفقت فيه نفس الغرب النصراني نجيش ونهمته تشتد للافلات من ربي جهله، والخروج من ظلمته وبربريته، فأى خبر كان أعظم من ذلك الخبر الذي كان يرجى من الوّد الوليد الذي ظهر في القرن الحادي عشرم، بين الشرق والغرب فيما لوقيض له النموّ أمدا بعيدا؟ بل ترى أي نفع كان أجلّ من تقارض العالمين بعضهما البعض العون واقسام السراء والضراء؟ .

أجل : لو كان ذلك لكان به نجاة كبيرة ولسكانت الحضارة العربية الاندلسية وفيها علوم اليونان والرومان قد أيقظت نهضتنا من مرقدتها قبل استيقاظها بعهد طويل، ولسكانت روح الغرب التي تمثت في جوارحه في الأجيال الوسطى، تلك الروح الجبارة هبت فتناوت الشرق وتقلقت في أحشائه متقلقلها في الغرب، فتجت الحضارة الاسلامية من متخبطها ومتعثرها في ذلك الحلك الداجي الذي طال عهده .

غير انه ما كان ذلك ليكون فقد اختفى العربي الدم الحلقى، اللين العريكة، وجاء من بعده التركي المتعصب المحسن القاسى، فعاد الاسلام يشب ويهتاج، ولكن شتان بين اهتياجه الأول بالأمس واهتياجه اليوم، أما بالأمس فقد كانت تحرك العرب روح الرسالة وفضائلها ومثلها العليا، وأما اليوم فما يحرك الترك إنما هو روح الطمع والفتك وحافز الاستيلاء والغصب، ومن ذلك الحين بدأ العراك يشتد، وتارة تقدر بين الدولة التركية والحضارة الغربية التي كان نشوءها مرجوا لها عهدئذ، ودام هذا العراك قرونا، وما كانت الحروب الصليبية سوى ردّ الغارة على الترك الذين أخذوا منذ ذلك العهد يوالون غاراتهم على النصرانية برهة ستائة سنة، حتى صدموا الصدمة الكبرى عند أسوار « فينا » سنة ١٦٨٣ م وقد كان من الطبيعي أن تأصل العداء، واستحكمت الشاة، واستقرّ التعصب بين الاسلام والنصرانية مما ما برحت جرائه حية، وسموم نماره نامية حتى الآن، وهذا النضال الذي تتلو أنباءه في صحف الأخبار اليوم، النضال القائم بين مصطفي كمال ومقاتلته الوطنيين وبين اليونان في آسية الصغرى إنما هو حلقة من سلسلة حروب بين الاسلام والنصرانية، حلقتها الأولى كانت في فلسطين بين الترك والصليبيين منذ ثمانمائة سنة، وحلقتها الأخيرة إلى اليوم هي هذه الحرب بين الترك واليونان في أغوار الأناضول وأنجادها .

وليس من غرضنا في هذا الكتاب أن نبحث في تاريخ الحروب التي قامت بين الترك والنصرانية إنما
 ما يجب حفظه في البال أن تلك الحروب ظلت إلى اليوم عداة مزمنة ، وعلّة دائمة بين الشرق والغرب .
 أما الشرق الاسلامي فقد قدر له بعد أن دارت الأيام بمحضارته العربية وحنا عنقه للنير التركي الثقيل أن
 يلاقى فوق ذلك أهوالا أشد وأفدح ، منهالة عليه كغيرها من الجبل الطوراني ، ففي أواخر القرن الثاني عشر
 هبت العروق الشرقية من الجبل الطوراني ، ملتفة ملتزمة حول بعضها بعضا ، مكوّنة وحدة دامت مدة ،
 وعلى رأسها زعيم جبار عات هو « جنكيزخان » . اتخذ هذا الطاغية (الطاغية الذي لا يقبل) لقباً له وطفق
 بزحف ناهبا العالم نهبا ، فاكتمسح في أول أمره الصين الشمالية وأنزل بها هولا شديدا ، ثم اتجه غربا زاحفا
 مدمرا ، وناهبا مخزبا ، فرأى العالم من بلائه ما لم ير مثله من عات قبله ، هذا هو النهوض الذي نهضه المغول
 في ذلك العهد ، وهذا اسمهم ما برح حتى اليوم إذا ماجرى على الألسنة وجفت له القلوب واقتشعرت منه
 الأبدان ، زحف جنكيزخان بكتائب من الجند لا تحصى ، مستصعبا مهرة المهندسين الصينيين لصنع البارود
 في تخريب المدن والحصون ، فكان وفرسانه سيلا جارفا ، وناارا آكاة ، وأعظم بلاء حلّ بالبشرية ، لم تكن
 غاية المغول الفتح والاستيطان ، حتى ولا الغنم ولا الاستلاب غسب ، بل هراقة السماء ، وتصذيب الأرواح ،
 ودرس البلاد وملاشاة العمران ، فذبحوا الشعوب تذييحا ، ودكوا المدن دكا ، بحيث لم تنج بلاد حلت فيها
 المغول من الهول ، وكان شأنهم في قطر شأنهم في سائر الأقطار .

ومات « جنكيزخان » بعد بضع سنوات من زحفه هذا فقام خلفاؤه من بعده واتهبوا نهجه في الزحف
 وتعميم النازلة ، فالمغول حقا طعنوا الاسلام والنصرانية معا طعنة خارقة ، إذ حاق بأقطار شرقي أوروبا مثل
 ماحاق بغيرها من الأقطار الآسيوية ، وتلك آثار الهول المغولي في روسيا ما برحت شاهدة على بربرية المغول
 وهمجيتهم . غير أن الهول الذي نزل بالعالم الاسلامي كان أشد منه في العالم النصراني ، فالمغول بزحفهم على
 روسيا لم يجاوزوا تخوم بولندا قط فنجت بذلك أوروبا الغربية ، لكن ما أريد لأوروبا الغربية من النجاة
 لم يرد مثله لجانب من العالم الاسلامي ، إن العاصفة المغولية بهبوبها من الشمال الشرقي في آسيا استطاعت أن
 تطبق العالم طرا من الهند حتى مصر ، مقتلعة جارفة كل شيء في سبيلها ، وقد كانت فارس وهي إذ ذاك
 ما برحت منهب الكتائب التركية تحاول النجاة بمحضارنها الوليدة فدعمتها الجوارف المغولية غاشية ماحقة ،
 فتلاشت قوة فارس وتضعف كيائها أيما تضعف ، ثم تقدم المغول نحو العراق ليعطوا بغداد مدينة الحضارة
 والتهذيب نصيبها من الهول ، وكانت بغداد عهدئذ قد ذهب الكثير الزاهر من عزّها ومجدها ، فدوت نضارتها
 من بعد هرون الرشيد ، وتنسكر الدهر لتلك المليون من السكان ، بيد أن بغداد على كل هذا كانت ما برحت
 مدينة عظيمة من أمتهات المدن الكبرى ، فيها كرمى الخلافة ، ومركز الحضارة العربية ، فاقترض عليها المغول
 سنة ١٢٥٨ م وأعملوا فيها أيدي التخريب والتدمير فذبحوا أهلها تذييحا وكادوا يمحونها محوا من على
 وجه الأرض ، على أن هذا لم يكن جميع البلاء ، كانت بغداد عاصمة العراق ، وكانت ما برحت في العراق
 سدود الري العجيبة من بحر التاريخ تمثل مهارة بنائها الأولين وقدرتهم ، ونقى البلاد من مهابة أعاصير
 الصحراء ، فكانت العراق على السوام وفيها هذه السدود الكبرى جنة الأرض دهرى العالم ، وقد تعاقب
 الفاتحون الكثر في البلاد دورا بعد دور ، وعصرا بعد عصر ، فكان من شأن كل فاتح أن يبقى على هذه
 السدود ، لا بل يعظم شأنها وشأن بناتها ، ويعتبر كل الاعتبار قدر نفعها وخيرها للبلاد ، فلما غشي المغول
 العراق سرعان ما قوضوا هذه السدود تقو أيضا بحيث لم يبقوا منها سحرا على آخر ، فغفت أقدم حضارة عرفها
 العالم ، وخرّب مهد التهذيب البشري ، ومحييت آثار أعمال جدت في سبيلها البشرية طيلة ثمانية آلاف سنة
 على الأقل ، نفوت العراق خواءها هذا المشهود حتى اليوم ، وباتت مرتدية حلة من الجفاف المحرق ومنشأ

لأبوثة الجي المنتشرة متى ما كان فيضان ، يسكن قراها الحقيبة أقوام من الفلاحين ، ويجوب رحابها رحالة من البدو ، يرعون ماشيتهم أرضا كانت من قبل منابت الحضارة والنهذيب ، فالنازلة التي حلت ببغداد إنما كانت ضربة قاضية على الحضارة العربية ولاسيما في الشرق ، وكانت هذه الحضارة قد أصيبت من قبل نازلة المغول بضربة أخرى في الغرب وهي نازلة الأندلس العربية ، وموج ذلك أن الاسلام بعد انتشاره في جميع افريقية الشمالية جاز البحر وطبق اسبانيا من أقصاها إلى أقصاها ، تخفت فيها أعلامه ، وأشرقت شموسه ، وازدهرت الحضارة العربية الاسلامية الأندلسية ازدهارا كد لا يرى مثله في أي قطر آخر من الأقطار الاسلامية الشرقية ، وكانت قرطبة عاصمة الأندلس ، وفيها كرمي الخلافة الغربية ، فبلغت هذه العاصمة من العظمة والمجد مبلغا كبيرا ، حتى لعلمها كانت تفوق بغداد عينا رقا وحضارة ، وقد عاش ملك العرب في الأندلس قرونا عديدة ملكا زاهرا آمنا والعرب حاصرون للتصاري في الكور الجبلية الشمالية من البلاد ، فلما بدأ سلطان العرب يضعف وبني وقوتهم تهن أخذ التصاري يدفنون المسلمين جنوبا مستردين منهم البلاد كورة فكورة ، وكانت معركة (لانا فادي طولوزة) سنة ١٢١٣ م تخضت فيها شوكة العرب ، وقت في عضدهم فتا كبيرا ، ثم من بعد ذلك صارت تتوالى انتصارات التصاري على غير عياء حتى سقطت قرطبة في أيدي المستردين من نصارى اسبانيا المتعصبين ، فبادر هؤلاء إلى استئصال شأفة الحضارة العربية الأندلسية على نحو ما كان يقوم به المغول عندئذ في الشرق ، فذهبت الأندلس من أيدي المسلمين ، فلم يبق لهم من جميع ذلك الملك الذي كان زاهرا سوى رقعة صغيرة واقعة في الطرف الجنوبي من البلاد وهي غرناطة التي بقيت في حوزة المسلمين حتى استكشاف كولبوس اماركة ، ثم بعد ذلك طردوا منها ، فاختفت على الأثر معالم الحضارة العربية في الغرب .

وكان الشرق الاسلامي مازال يشقى وتتوالى عليه فجائع المغول وأهوالهم ، وأمامنا الآن آخر داهية من دواهيهم ، وهي زحف تيمورلنك في أوائل القرن الخامس عشر ، ففي هذا العهد كان المغول الاول الغربيون قد صاروا مسلمين ، غير أن الاسلام لم يذهب بالكثير من وحسبتهم وبربريتهم ، واقتنى تيمورلنك آثار جنكيزخان في تذييع الخلائق وتدمير البلاد ، فما كانت نفسه تغتبط بشيء اغتباطها بمنظر الاهرام من جاجم البشر ، وأي هرم أكبر من ذلك الذي شيده تيمورلنك من سبعين ألف ججمة بعد تخريبه مدينة أصفهان في بلاد فارس واقتضى عهد المغول الهائل في الشرق الاسلامي ، ثم جاء الترك بدورهم زاحفين .

الترك العثمانيون هم من أصل القبائل التركية العديدة التي جاءت آسيا الصغرى من بعد سقوط المملكة الرومانية البيزنطية ، وغالب الفضل في تشييد المجد الذي شيده ، وعزّاهم الذي بنوه ، إنما هو عائد إلى عديد سلاطينهم الذين كانت لهم الغلبة على سائر القبائل المجاورة ، فاستطاعوا بذلك أن يوحدوا جميع القوى التركية العظيمة ، ثم طفت فتوحاتهم تمتد شرقا وغربا ، وفي سنة ١٤٥٣ م ذلك الترك صرح الأمبراطورية البيزنطية دكا ، وفتحوا القسطنطينية ، وخلال قرن تال فتحوا الشرق الاسلامي من فارس حتى مراكش ، ودوخوا شبه جزيرة البلقان من أقصاها إلى أقصاها ، وتغلغلوا في أحشاء هنغاريا حتى بلغوا أسوار (فيينا) واستطاع الترك العثمانيون ما لم يستطعه أبناء عمهم المغول من قبلهم ، فبنوا مملكة منيعة الأركان ، غير أن ملكهم هذا كان فيه جلف وبربرية ، وذلك إنما كان لبعدهم عن روح النهذيب والتنقيف ، فانهم لم يراعوا في شيء براعتهم في فنون القتال ، بل كانوا فيها من أشهر الأمم وأشدّها قوّة وبأسا ومراسا ، ولما كانوا في إبان مجدهم وسلطانهم كانت خيالتهم ورجالتهم من أفضل طراز الجيوش التي شهدتها العالم ، فأرعبوا بها أوروبا برعبا شديدا ، وفي هذا العهد كانت أوروبا قد بدأت تسقيظ ونسير سير التقدم الصحيح ونشئ حضارة متدرجة مدارج الرقي والثبات ، وبينما كان الشرق الاسلامي يئن من الأهوال المغولية والفتوح التركية كان الغرب

النصراني يشعل مصابيح النهضة ، وبعد أسباب استكشاف اماركة وطريق الهند ، ذلك الاستكشاف الخطير الشأن ، العظيم النتائج مما لا يخفى على أحد ، وما يزيد خطورة هي الحالة التي كانت عليها أوروبا في ذلك العهد ، فانه لما كان كولمبوس وفاسكادي غاما يقومان بأسفارهما البحرية قبيل ختام القرن الخامس عشر كانت الحضارة الغربية محاصرة في نطاق ضيق لا تجوز دائرته القسم الغربي من أوروبا الوسطى وهي إذ ذاك في أكره يوم من أيام نضالها وجلادها مع البربرية الطورانية ، كانت روسيا تمزقها سنابك خيول التتروالمغول وكان الترك وهم ثملون بشوكتهم الحربية ، يغيرون منتصرين من الجنوب الشرقي ، مهددين قلب أوروبا شره تهديد ، هكذا كانت البربرية الطورانية مطبقة آسيا وشمال أفريقيا وشرقي أوروبا يوم كانت الحضارة الغربية وهي طفلة في المهدي تستقبل حكم القضاء النازل إياها وأما عليها ، وعلى الجبهة فقد كانت الحضارة الغربية تنازع في سبيل بقائها أشد منازعة ، مولية ظهرها السور العظيم (سورالوقيانوس) فلذلك لانكاد نستطيع أن نتصور حتى التصور كيف واجه أجدادنا الاوقيانوس ، وشرعوا يمحرون عيابه في تلك الليلة الظلماء ، والفترة العصبية من الأجيال الوسطى ، لاجرم ، كانت أوروبا في تلك الحفصة إنما تذود عن بقائها بجميع ما كان فيها من قوة وبأس ، وترد عنها غاشية البربرية الآسيوية ، وماهى إلا ليلة ونحهاها فاذا بليل الخطر الاسيوي وقد انجلى ، وبالاوقيانوس بات طريقا آمنة ، فصارت أوروبا من بعد ذلك سيدة البحار ثم سيدة العالم بأسره .

قضى الأمر ودارت الأقدار بالشرق والغرب أعظم دورة عرفها الانسان ، فبعد أن ركبت أوروبا متن البحار صارت تستهزى بجبايرة آسيا وعتاتها ، وكانت من قبل بردح ترى النصر عليهم أبعد مثلا من الجوزاء ثم أخذت موارد الثروة تفيض على أوروبا من وراء البحار ، فانقد نشاط القارة واشتعلت قوتها ، ولا يجيب من ذلك وأوروبا قد كشفت القناع عن ابيكار بلدان ، فأخذت تستورد منها خبرات لانقاد لها ، غذاء طبييا لحياتها وصناعاتها ، فباتت والشرق شتان ما هما ، فأى موارد كانت للشرق الاسلامي الحرب المهشم إزاء اماركة الجنوبية والشمالية وجزائر الهند ؟ هكذا دبت الحياة ديبها الهائل في الحضارة الغربية ، فانتفضت وهبت من مرقدتها ، وأخذت تخطو إلى الأمام خطوات الجبايرة ، محطمة أغلال أجيالها الوسطى تحطما ، وقابضة على طلائم العلوم ، جادة نحو العصور الحديثة .

وعلى كل هذا فقد ظل الشرق الاسلامي جامدا ساكنا ، ملتفا بخلقان الحضارة العربية التي طال على خواتمها الأمد ، وتمسكها في ديجور الظلام ، ولم يكن ذلك جميع شقائه حتى تضعفت قوته الحربية وبلغت حد التلاشى ، فوهن عظم الترك بعد السدة ، واستغرقوا في انحطاطهم فصاروا لا يستطيعون بحارة أوروبا اختراعا وارتقاء ، ولا تحسبن فن من فنون القتال ، وقد كرت حجب كان الغرب فيها يقاتل بعضه بعضا قتالا عنيفا ، فلم يستطع الحملة على الشرق ، فعلت منزلة اسم العثمانيين علوا كبيرا ، بيد أنه لما أغار الترك على أسوار فينا سنة ١٦٨٣ م فردوا على أعقابهم خاسرين ، أيقنت أوروبا حينئذ أن هناك إنما كان منقلب قوة المملكة العثمانية ، فأخذت العثمانيين يعثر ونجمهم بأقل ، ومنذ ذلك الحين شرع الغرب يكر على المملكة العثمانية السكرتة بعد الأخرى ، منتاشا منها ما استطاع ، ولولم تؤرث نار الحسد بين بعض الدول الغربية بعضا فتطمع كل دولة فيما طمعت فيه غيرها ، أعنى لولم تختلف هذه الدول في اقتسام الغنيمة لمزقت الأمبراطورية العثمانية شره ممزق منذ عهد عهد .

ثم توالى الأيام على العالم الاسلامي وهو حاج لا يستيقظ حتى كان القرن التاسع عشر ، فتعملل في مهجمه مستنقلا وطأة الغرب ، وفي خلال القرن الثامن عشر كانت الدول الغربية تحمل على جوانب العالم الاسلامي وتضع لها الأقطار في شرقي أوروبا وجزائر الهند ، وأما جل العالم الاسلامي ومعهلمه من مراكش حتى

أواسط آسيا فقد ترك وشأنه ، فما كان ليُعتبر قدر هذه الفترة السانحة ، بل ظلّ مستغرقاً في هججته مستهزئاً بكفرة أوروبا ، راضياً مسلماً أن شقاه إنعماهو بمشيئة من الله ، لا يقيم لرقّ أوروبا وزناً ، ولا يحسب لسننسلطانها حساباً ، هكذا كانت حالة العالم الاسلامي لما استيقظ استيقاظه في مطلع القرن التاسع عشر فاذا بأوروبا تقف بازائه مجنونة بثورتها الصناعية ، مدججة بأسلحة العلم الحديث ومجانب الاختراع ، وبين يديها الفاشمتين الطبيعة مسخرة مفضوحة أسرارها وآلات حربية جهنمية لم يحلم أحد من البشر بمثلها من قبل ، فكانت النتيجة المتوقعة لما شرعت حملات أوروبا تفشى الشرق الاسلامي أخذت أقطاره تسقط الواحد تلو الآخر في أيدي الخاملين عليه ، فلم يمض غير اليسير من الزمن حتى كانت دول أوروبا الكبرى قد اقتسمت جميع العالم الاسلامي ، فاستولت بريطانيا على الهند ومصر ، وعبرت روسيا القوقاس و بسطت سلطانها على أواسط آسيا ، وفتحت فرنسا شمالي أفريقيا ، وقامت سائر الدول الأوروبية غير الكبرى واستولت بدورها على الأقطار الصغيرة الباقية من الغنيمة الاسلامية ، ومازالت الحالة هكذا حتى جاءت الحرب الكونية العظمى ، فكانت شاهداً على آخر دور من أدوار إذلال الشرق الغرب ، ولما وضعت شروط المعاهدات بعيد أن وضعت الحرب العائمة أوزارها قضى على كيان الدولة العثمانية ، فلم تبق من بعد ذلك دولة اسلامية مستقلة استقلالاً صحيحاً ، فتمّ اخضاع العالم الاسلامي ، ولكن على القوطاس !

أجل ، تمّ ذلك على القوطاس غصب ، والسبب في ذلك أنه لما ظهرت سيطرة الغرب على الشرق هذا المظهر القاهر اسرعان ما هبت عليها عواصف شديدة عجيبية لم يسمع بمثلها من قبل ، كان الشرق الاسلامي طيلة هذه المئات من السنين التي كرت عليه وهو حان عنقه للغرب تنطوّر قواه الباطنية تطورا عظيماً وينفعل بعضها ببعض انفعالا كبيراً حتى آن الأوان فانفجر البركان فكان منفجره هائلاً .

وهذا المدّ ، مد بحر المطامع الغربية الضامى قد غالى في إيلام الشرق مغلاة شديدة ، فتحرك الشرق الجامد الساكن أخيراً ، ودار الشرق الاسلامي حول نفسه ، فرأى تعاسة حاله وماهو حالّ بساحته ، فأخذت نفسه مجيش وقضطرب ، ومشاعره تهتاج وتنبعث ، وقواه ثور ثوراناً عجيباً بلغ أقصى أعماقه ، واستيقظت روح الاسلام في كل رقعة من رقع العالم الاسلامي ، فهبّ الـ ٢٥٠.٠٠٠.٠٠٠ من أتباع النبي محمد من مراكز حتى الصين . ومن تركستان حتى الكونغو ، هبوب العاصفة الزعزع لا يعرف مستقرتها قذح الزناد في صحراء شبه الجزيرة ، مهد الاسلام ثم أخذ الشرر يتطاير إلى كل جانب من جوانب العالم الاسلامي ، إذ في الصحراء هذه نشأت الدعوة الوهابية في مطلع القرن التاسع عشر وهي دعوة الإصلاح الاسلامي ، ثم كان من أمرها أن ترقّت واتسعت حتى بلغت في نطاقها دور النهضة الاسلامية ، ثم عرفت بالتالي بالجامعة الاسلامية ، ولم تكن عوامل هذه التبدلات والتحوّلات في العالم الاسلامي مقصورة على تلك العوامل الداخلية المنبعثة عنه غصب ، بل إن هناك عوامل وآراء وعقائد ومذاهب سياسية واجتماعية ما انفكت تندفق من الغرب على الشرق ، وجيعةا يثّ في الشرق الاسلامي روح الاستيقاظ والثوران : من ذلك عقائد الحكومة النيابية والعصبة الجنسية ، والعلوم العملية ، وحقوق العمال ، حتى وأكثر من ذلك كحقوق المرأة ، والاشتراكية والبلشفية .

ثوران العالم الاسلامي هذا الثوران ، وشدة التضييق الأوروبي الضارب فيه ومن حوله على غير انقطاع ولاحد يزيدان في هيجانه فيشعلان في روح الحركة والعمل ، إن الحرب الكونية العظمى قد أنتت بجباب عظيمة ، وأرت مالم بر من قبل ، فأنشأ الاسلام يمد ويضطرب ويتمخض وتمخضاً شديداً ، منتقلاً من حال حاضر إلى آخر مقبل ، ومجتازاً دوراً غايته تجدد عالم اسلامي حديث ، وليان كيفية هذا الانتقال والتجدد اللذين سترى ثمارهما في عالم اسلام المستقبل قد وضعنا هذا الكتاب . انتهى ما أردته من كتاب « حاضر

العالم الاسلامي » وبهذا تم الكلام على الفصل الأول والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثاني

في قوله تعالى : « رجاء بينهم » أيضا

اعلم أن الرجعة بين الأمم الاسلامية اليوم قد تجلت بأجلى مظاهرها ، ولكننا نحن في ديارنا لانقدر أن نصفها ، ولكن القادر على وصفها رجل قد أعطى صفتين : أولا التفرغ للاطلاع . ثانيا عدم التحيز ، وهاتان الصفتان قد ثبتتا في صاحب كتاب « حاضر العالم الاسلامي » ولأثقل لك من الجزء الثاني من كتابه فصولا :

الفصل الأول

في أن انكترا وفرنسا كانتا جاهلتين حال تركيا والعالم الاسلامي إبان الحرب الكبرى ، ولكن إيطاليا كانت تعرف الحقيقة فتركتهما . وهذا نص ما جاء في الكتاب المذكور :

« جرت الامور في تركيا بحارها التي سبق لنيتي رئيس الوزارة الإيطالية فتنبأ عنها ، فأكره رجال الحلفاء . وهم حينئذ سادة القسطنطينية السلطان على تعيين وزارة مصافية ، ففعل السلطان ذلك ، فشجعت الوزارة حركة « مصطفي كمال » ورجاله العصاة ، وأوفدت وفدا اختيار أعضاؤه اختيارا إلى مؤتمر « سان ريمو » في فرنسا حيث وقعوا بالرضا والتسليم المعاهدة التي أعدها الحلفاء الذين استطاعوا بذلك « تأييد مراءهم » على قصاصات الورق لاغير ، وما كان ذلك الأمر الغريب لأن كل انسان فيه مسكة من العقل يتيقن أن جميع هذه الصفقة التي رام الحلفاء عقدها إنما هي ضرب من الخبل والجنون وأن كل فرد من أفراد الحكومة « المصافية » من السلطان حتى أحقر الكتبة ما هو إلا كمصطفي كمال يتلهب غيرة ووطنية ، وأن العاصمة التركية الحقيقية إنما باتت أنقره لا القسطنطينية ، وأن قوة الحلفاء لاتتجاوز في الواقع غاية مراءحي مدافعهم ، أما مصطفي كمال فقد قال في شأن معاهدة سيفر (معاهدة صلح تلك) : « اني مستعد لقتال العالم بأسره مشرقا ومغربا ، فباتت الحلفاء في مأزق حرج لا ريب فيه ، ولا سيما من بعد ما أصبحت كلمة الحلفاء تدل على بريطانيا وفرنسا لاغير ، أما إيطاليا فلم تشترك في إلقاء دلوها في الدلاء ، بل فعلت كما قال (نيق) : ولم ترسل جنديا واحدا ولم تدفع ليرة واحدة » لذلك لم تستطع فرنسا ولا بريطانيا حشد الجنود السكافية لسحق مصطفي كمال في الحين الذي تسكبدان فيه نفقة مائتي ألف جندي (٢٠٠.٠٠٠) لتسكين الحال في الأقطار العربية الهامجة وغيرها ، وما كان سحق القوة الكاليسية بالأمر السهل ، إذ قترأركان الحرب الفرنسيون الجيش المقتضى لذلك (٣٠٠.٠٠٠) مقاتل تام العدة ، على أنه قد بقي في أيدي الحلفاء سلاح آخر هو اليونان ، فتتقم فزيولس رئيس الوزارة اليونانية وأخذ على نفسه خضد شوكة الترك ودق عنقهم ، وذلك على شريطة أن تنال اليونان في مقابلة عملها هذا امتيازات كبيرة في مناطق آسيا الصغرى ، فقبل ذلك منه ، وبعد حين نزل جيش يوناني إلى برّ أزمير عدده (١٠٠.٠٠٠) مقاتل ، غير أن هذا الجيش قد لقي الخيبة والفشل إذ أن المائة ألف مقاتل على كثرتها كانت أشبه بالفتاه ، واجتنب مصطفي كمال الاشتباك في معارك فاصلة ولكنه نابر على مضايقتهم ، وإيقاع الحيف بهم ، بالحرب غير النظامية كما كان شأنه مع الفرنسيين في كيليكية في الطرف الآخر من الميدان ، فتوغل اليونانيون في البلاد توغلا فاحشا ، وتورطوا تورطاً شديدا ، كاد يقضى عليهم على بكرة أبيهم ، فازدادت القضية التركية إعضالا واشكالا ، وعلى ماظهر أن فزيولس ظلّ يبتني نزال الترك والمضي معهم في الحرب ، وذلك بصفة كونه المنتدب الثاني من قبل الحلفاء ، لكن الشعب اليوناني أتى عليه ذلك لأن اليونان ما برحوا منذ سنة ١٩١٢ يخوضون غمار الحرب من ميدان إلى آخر حتى نهكت قواهم أشدّ النهك ، فرأوا الاستراحة ولوقليلا ، فلما كانت انتخابات تشرين الثاني (نوفمبر) أسقطوا فزيولس

بنحو ٩٩٠٠٠٠ صوت إزاء ١٠٠٠٠٠ صوت ، ثم دعوا ملكهم قسطنطين الذي كان الحلفاء قد دخلوه منذ ثلاث سنوات ليعود فينبوا العرش ، فكانت النتيجة الصافية أن اليونان باتت كإيطاليا خارجة عن أرباب الصفقة ، أما الملك قسطنطين فقد استأنف القتال مع الترك من تلقاء نفسه . فكان عمل اليونان هذا العمل مناقضا لتلك الموقف الذي وقفوه في عهد فريولوس ، وعلى الجبهة فإن الحلفاء باءوا بالخسران ، فردّ كيدهم في نحورهم ، وسقطوا دون أمنيتهم التي حسبوها من الهبات الهينات .

في ذلك الحين كان مصطفى كمال يجهد ليس لتوحيد قوته وسلطته في آسيا الصغرى فقط ، بل لاكتساب أحلاف له في الخارج ، ففي المقام الأول كان ينشئ علاقات وثيقة مع العرب الأمر الذي قد يبدو لأول وهلة من الغرابة بمكان ، إذ يرى أن العرب والترك هما العدوان بعضهم لبعض ينقلب من العداوة المرة إلى الصداقة الحلوة ، ولكن ذلك ليس في الواقع بالغريب ألبتة ، لأن السياسة الفرنسية البريطانية هي التي قد خلقت هذه الأعبوبة ، وأنت بهذه الحارقة ، والسبب الذي من أجله عاد الاتفاق بين العرب والترك قد جلاه لورانس المعروف « بروح الثورة العربية » - حقّ الجلاء ، فقد قال بعد فراغه من الخدمة العسكرية في بيان نشره في الصحف البريطانية : « إن العرب قد ثاروا في وجه الترك خلال الحرب العاتية ، ليس لأن الحكومة التركية كانت فاسدة فسادا شديدا ، بل أنهم ابتغوا نيل الحرية ، وراموا إدراك الاستقلال فلم يخوضوا المعركة لكي يستبدلوا سادة بسادة كأن يخوضوا لبريطانيا أو فرنسا . كلا . بل لكي ينشئوا لهم دولة عربية ، على أن هذه الحقيقة قد أفرغها أحد زعماء العرب وهو قائد من قادة النهضة الوطنية المشتغلين بالقضية العربية في قالب آيين عن القصد ، وأفصح عن الغرض ، وذلك في مقال نشره في صحيفة فرنسية راديكالية جاء فيه ما يأتي .

« ينبغي لفرنسا وبريطانيا أن تعلموا علم اليقين أن العرب إنما هم للترك اخوان في الدين توحدوا وياهم توحدوا سياسيا قرونا عديدة بحيث هم لا يرغبون ألبتة في الانشقاق عن اخوانهم المؤمنين ، وشركائهم المساعدين ، الذين هم وياهم كانوا في الحروب الخالصة يقاتلون العدو جنبا لجنب وصفا إلى صف انشقاقا ليس من ورائه سوى خضوع أعناقهم لنيرو دولة أوروبية مهما كان شكل سلطان الحكم الذي تنقلده هذه الدولة فلذلك أي جدوى ياترى من القول الذي يقوله المسيو ملبران : لم يدر في خلدنا قط أن نعتدى بوجه من الوجوه على استقلال الأمة العربية ، فليس أحد من العرب اليوم يمكن إضلاله بمثل هذا التوبيه وأخذ به بمثل هذا الخداع ان الهدنة وقعت على حسب الشروط والمبادئ التي أعلنها الرئيس ولسن ، ولكن لما تضععت ألمانيا ونضعع أحلافها معها دبست شروط الهدنة وعهودها كما دبست الأربع عشرة مادة بالأقدام ، على أن النسك الذي أصاب العهود المقطوعة للعرب قطعاً جزماً لازماً في منحهم الاستقلال التام ، تلك العهود المكررة المؤكدة عشرات من المرات قد حمل العرب والترك على الاتفاق من جديد واستنشف الإخاء بحيث لم تمض إلا أشهر معدودات حتى تمّ ذلك بين الأمتين ، قد نستطيع فرنسا بحفظها جيشاً مؤلفاً من ١٥٠٠٠٠ ألف جندي في سورية ، ونسكبها انفاق البسلايين من الفرنكات أن تخضع عرب سورية إلى ميقات ، بيد أن ذلك ليس جميع ما في الأمر ، ولا الضامن لسلامة العقبي ، لحدود سورية مترامية إلى ما يليها من البلاد التي قطنها عرب وكرد وترك ، ويمتد إلى الصحراء الكبيرة ، فاذا ما شرعت فرنسا في قتال الأربعة ملايين من عرب سورية لم يبق ذلك مقصوراً على قتال هؤلاء غصب بل يقاوم قتال عدوّ عدده أكثر من ١٥٠٠٠٠٠٠ مليون عرب في منششرين في جميع الأقطار الشرقية من القبائل المسلحة الشديدة الشكيمة ، الصلبة القناة ، هذا ما عدا الأمم الإسلامية الأخرى المجتمعة معهم في الوحدة المترامة الإسلامية ، والحامل على جميع ذلك إنما هو ارهاق الحلفاء وتوالي ضرباتهم الساحقة على غير رجعة ، فان قال قائل : إن في هذا غلوا فما عليه إلا أن يواقع الحقائق موافقة وبراها عن كتب مستبصراً مستنصفاً ، ولكن

لعمرى أى نفع يرجى من الندم ولات ساعة مندم بعد أن تجرى السماء فى الأفطار العربية أنهرها وغدرانا .
وفى الواقع بانث الأدلة على الوفاق التركى العربى مشهودة جلية فى مواضع عديدة ، غير أن هذا الوفاق
اقاضى بمعاونة هؤلاء هؤلاء لم يعترف به علنا من جانب مصطفى كمال ولا من جانب الملك فيصل الذى أزل
من عرشه ، وجاء من بعد خروجه من دمشق إلى ايطاليا حيث طفق يوالى القيام بمناقشات سياسية ، مع هذا
فقد اصطفت العرب مع الترك جنبا إلى جنب فى كيليكية وقاتلوا الفرنسيين العدو المشترك ، واشترك الترك
والكرد مع العرب السوريين فى إيقاد الفتن السورية التى ظلت تشب فى موضع موضع ، وأما ما كان لمصطفى
كمال من اليد فى إشعال الثورة العراقية على البريطانيين فظاهر ظهورا يفنى عن البيان . انتهى

الفصل الثانى فيما يقوله ساسة أوروبا وعلمائها

من أن الاسلام دين الحرّية ، وأن المسلمين أوّل الأمم فى الحرّية من أى صنف كانوا
قال اللجنة الثمّة أرمينيوس فليمبارى : « كان الاسلام وما برح الدين الفائق سائر أديان العالم شورى
وديموقراطية ، الدين الذى هو على السوام مصدر الحرّية وينبوع العدل وشرعة السواء ، فان كان العالم قد
شهد حقا منذ أوّل عهد العمران البشرى إلى اليوم حكومة شورى دستورية فهى لعمرى حكومة الخلفاء
الراشدين » اه

وقال محقق انكليزى كبير خبير فى شؤون الشرق الأدنى : « إن بلاد العرب التى يضرب فيها البدو
الرحل هى البلاد الثمّة فى العالم المشتلة على صحيح الديموقراطية والشورى ، فالعرب فيها أبدا سادة ، سحرهم
يزودون عن سياجها بشفارسىوفهم ، ومهيج أكبادهم ، وشبه الجزيرة هومنت الحرّية ، فلا تعيش فيها نبتة
الاستبداد » انتهى

وقال العلامة ليبيار فى شأن ثورة تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨ م : « قال بعضهم إن تركيا لم تكن على
استعداد لنجيا الحياة الدستورية النيابية بعد الثورة ، إنما ذلك وهم شديد ، فقد كان لتركيا مران سابق
على الحياة الدستورية وكانت تواقفة إلى إنشاء الحكومة النيابية ، وعلى جانب كبير من الاستعداد لذلك .
أجل مم أجل ، إن النظم الشرعية والمدنية التى كانت عليها تركيا إنما هى أفضل أسس يشيد عليه الحكم
النيابى ، كان محمد صاحب الرسالة الاسلامية يجعل الحكم شورى بينه وبين صحابته ، وقد جرى العلماء
المسلمون وهم أقطاب الدين ، وقادة الشرع الشريف على هذا النهج ، وما برحوا هكذا حتى اليوم يتشاورون
ويسترنى بعضهم بعضا فى شؤون مصالح المسلمين ، فالشريعة الاسلامية هى ديموقراطية وشورية بطبائعها
وجوهرها ، وعدو شديد للاستبداد ، وباعتبارها شريعة أساسية ، فمن شأنها إذن أن تمكن الشعوب
الاسلامية كافة حتى أبعدها إغراقا فى التمدل من إدراك معنى الشورى والدستور والنظام النيابى » .

م بين العلامة ليبيار فى موضع آخر أن السلاطين القدماء كان لهم « ديوان » وهو مجلس يضم أركان
الدولة والوزراء وأصحاب الخطط العليا والمناصب الكبرى يجتمعون فيه على مقتضى نظام فى مواقيت معلومة
لمناقشة السلطان فى شؤون الدولة وامداده بالمشورة الحكيمة ، وقد ظلت الحال هكذا أمدا طويلا حتى أنشئ
فى العهد الأخير مجلسان : الأوّل يعرف بمجلس الدولة ، والآخر بمجلس الوزراء ، زد على هذا فقد أنشئ
مجلس نواب مرتين : الأولى فى سنة ١٨٧٧ م والأخرى فى ١٨٧٨ م ومع أن هذين المجلسين لم يعيشا
طويلا إذ قضى عليهما الاستبداد الجيدى ، فقد كانا على كل حال من سوابق المران القانونى والمراس الشرعية
على نظام الدستور والحكم النيابى .

وختم العلامة المذكور كلامه بقوله : « فلذلك يجب أن لا يعتبر اعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ م

أمرا مستحدثا مما لم يسبق له مثيل في بلاد اسلامية ، بل يجب اعتباره من النظام الاسلامي للألوف ، كان من قبل على ماهيته هذه ، ولكن خرج به الآن إلى نطاق واسع وبجمال أرحب » انتهى

الفصل الثالث

في أن أوروبا شورية في بلادها مستبدة في غير بلادها
وأهل الشرق والمسلمون لابد فائزون

جاء في كتاب « حاضر العالم الاسلامي » ما يأتي : « وقد أجاد (ايونل كرتس) الكاتب الانكليزي الذائع الصيت أيضا إجادة في جلاء هذا القول وتصريحه في كلام له في شأن الهند بين فيه أن التعليم والتهديب والتميرات والخيرات التي جاء بها الحكم البريطاني ليست بكافية بذاتها لإعداد أهل الهند إعدادا صحيحا للقيام بأعباء الحكومة النيابية ، بل الأمر على ضد من هذا ، فالتعليم والتهديب ينقلبان خطرا كبيرا وبلية لإعجائية مالم يقترنا بمنح الهنود أزمة شؤونهم السياسية وتبعثها شيئا فشيئا ، إن الشعب مهما كان مهذبا راقيا لن يستطيع المران على فن الحكومة الذاتية إلا في حيز الخبرة الحقيقية المحسوسة والمباشرة الفعلية لافي حيز النظر والتصور والخيال . قد يقول بعضهم إن لجوج في طلي الهنود بينت فيه أنه يجب علينا الشروع في نقل السلطة شيئا فشيئا نقلا صحيحا لاغش فيه من عائق الحكومة البريطانية إلى عائق حكومة الشعب ، وأنه يجب على موظفي الحكومة البريطانية في تلك البلاد أن يقوموا بكل مساعدة ممكنة وعون مستطاع ومشورة صادقة للحكومة الجديدة التي تطلب منهم هذا بحق ، نعم يجب عليهم أن يسدوا كل حسنة إلى هذه الحكومة الفتية ، وأن يعطفوا عليها عطف الأم الحنون على وليدها وفلذة كبدها ، لا تعطف الظائر المأجورة التي سواء عندها أعاش الرضيع أم مات ، وإذا ما أريد حقا تعليم هذه الحكومة الجديدة فن الحكم الذاتي ، وجب أن تكون حرة من كل جانب لامطلقة من ناحية ومصفدة بالأغلال من ناحية أخرى ، فإن لم يكن هذا فليس من سبيل إذن لهذه الحكومة الفتية لأن تشرحق الشعور بأنها مسؤولة لدى الشعب الذي هو من ورائها ، حتى ولا الشعب بمستطاع على هذه الحال أن يعلم ويوقن أنه هو المالك لنفسه من ضرر ونفع ، هذا ليجلبه وذلك ليدرأ عنه ، نعم إن السبيل شاقا ولكن الشعب الذي يدني بمل إرادته حكما ذاتيا لا يفتنى له الوصول إلى غرضه السامي وغايته الكبيرة إلا في الجهاد قائما أبدا ، واجتياز طريق الصعاب التي تشق عندها الأنفس وتركب الأهوال ، وربما إلى عهد طويل حتى يستطيع بعد جميع هذا أن يذوق طعم الاستقلال الصحيح ، ويعلم ماهيته فيطلب منه المزيد ، وكلما وفر نصيبه منه ازدادت عزته حتى تستقر فيه ملكة السيادة على نفسه . إننا نغزرا كثيرا بما جلبته بريطانيا العظمى إلى الهند من الخير والنفع من إنشاء النظام ونديته ، وحل أهل البلاد على العلم بأن الحكومة المنتظمة ما أعظم شأنها وأخطار مكاتها في عمران البلاد ، غير أني على كل هذا لا أعتقد أن النظام الذي أنشأناه وتمشينا عليه حتى اليوم يظل صالحا بعد دون أن يتقلب إلى مجلبة الضرر على أخلاق الشعب كما كان مجلبة الخير من قبل . يجب علينا وقد حان لنا أن نشرع في تأدية هذه الأمانة الكبرى إلى أهل الهند أصحاب البلاد من بعد ما حملناها على عواقنا حقبة ليست بالقليلة ، تأدية مشفوعة بالصدق والاخلاص . يجب أن يكثر سواد الهنود في دواوين الحكومة من حيث يجب علينا أن نقوى ساعدتهم ، ونزيد حوطمهم ، ونعلى من منزلتهم ، وذلك لا يتم إلا إذا مكناهم من التمرن على الواجبات التي تنقل إلى نطاقهم نقلا مزدادا ، لأن مران الشعب على الحكومة الفاتية ليس أمره كأمر الطلبة الذين يتلقون العلوم النظرية جلوسا على المقاعد . لاوصول إلى الغاية التي بينها حديثنا وزير الهند إلا بركوب المشقة ومعاناة الصعب في سبيل وعرة ، الأمر الذي يجب علينا العلم به حتى العلم ، ذلك أننا قد استطعنا

الوصول إلى هذا الدور الحالى من مهمتنا في الهند بعد العناء الكبير والالتناء إلى هذه الحال انتها. ملتئما كل الالتئام مع ما هو معروف لنا من التقاليد ، وما بقى أمامنا من القيام بالمهمة فأمر واجب علينا خدمة لتاريخنا ولو كان في ذلك بذل لكل عزيز لدينا وتضحية حتى لنفوسنا .

إن كلمات المستركرس الأخيرة يقين معها ما هو واقع اليوم في الهند كما في سائر الأقطار الشرقية ، أن الحرب العثة قد ألهبت العصبية الجنسية الشرقية حتى تركتها لظى شديدا من حيث أوهنت السيطرة الغربية وزلزلتها شرّ زلزال ، فغدا مقبض أوروبا على الشرق مسترخيا استرخاء متواليا يدل على قرب الزوال ، وسواء كانت للعاقبة من بعد ذلك خيرا أم شرا ، فنقلص الظلّ أمر واقع لامرّد له ولامدافع ، مما يدل على أنه لن ينقضى منذ اليوم جيل بل عقد من السنين حتى يفدو غالب الدول الاسلامية في الشرقين : الأدنى والأوسط متمتعا بالحكم الذاتي وربما بالاستقلال التام لا عيب فيه ، أما التساؤل أنسى هذه الشعوب التي ستصبح حرة اغتتمل الفرصة فتعود تتعرض معائر الاستبداد والفوضى ، أو تصبح حقا عالية الجبين في إنشاء الحكومات الدستورية للنظمة الثابتة فتنبعث هذه في طريق التقدم والارتقاء ، فذلك أمر سيكشفه المستقبل ، وإذ قد بينا لغاية الآن العوامل المختلفة العاملة في أفق تطور السياسة ، سالبها وموجبها ، ندع القضية مستافة في مجراها الطبيعي بهذه العوامل ، مراقبين قلبها المستمر في هذا الدور دور التحول ، وننقل للكلام على العصبية الجنسية .

الفصل الرابع

في هياج العالم الاسلامى

قال المؤلف المذكور في صفحة ٨٩ وما بعدها مافيه : « كان العالم الاسلامى (قبل أن أخذ يصطدم بالغرب النصرانى الاصطدام الأكبر خلال القرن التاسع عشر) هاجعا هجعته التي قد تقدم الكلام عليها بعيدا من التنبه القومى وثورة العصبية الجنسية ، وكان غالبه منقسما إلى امارات متناثرة ، ولكنها قوية المراس شديدة الشكيمة ، وأن ما كان في نفوس قطينه وساكنه من العاطفة الوطنية إنما كان متجها نحو السلالات الحاكمة على نحو الحالة التي كان عليها سلاطين الترك العثمانيين ، غير أنه كانت مظاهر العزة القومية ومبادئ الشمم والإباء جلية في غالب العناصر كالأمة العربية (أمة الرسالة) إذ في العرب كانت أسباب العصبية الجنسية على بيان في الظهور وقوة في الانفعال والحمو ولكنها كانت متفرقة وغير منتظمة تنظيما كافلا لانتلاف المزاج الذي تشدوبه العصبية عاملة فعالة ، أما الشعب الاسلامى الفذ الذي كان حقا يتمشى في عروقه ما يفتنى لنا تسميته بروح العصبية الجنسية الصحيحة ، فهو الشعب الفارسى حبيب بلاده ، وعاشق موطنه القديم ، وأما سائر الشعوب الاسلامية فقد كانت على شيء من مبادئ الشعور الوطنى واليقظة الجنسية والروح النزاعة إلى الوحدة والنضامن ، وكانت هذه الروح مستعدة بأسبابها للارتقاء والانساع حتى تبلغ دور العمل الصحيح والحركة المؤثرة . على أن في الأمر اعتبار آخر ، ان الاسلام قد نهى في مواضع عديدة عن العصبية ، فلما انتهت الشعوب الاسلامية إلى هذا العصر عصر العصبية الجنسية ، بات الفرض الذي يفرضه الاسلام على المؤمنين أن يكونوا إخوة متضامنين متساوين لافرق بين عربهم وبين عجمهم ، وأنصحت الغاية السياسية المقصودة في الاسلام من وحدته الامامة الكبرى ، أو الشورى الشرعية العائمة أمرا مقاوما بطبيعة الدور والزمن بسبب إنشاء القوميات المستقلة والعصبيات المتمايزة في الملة الاسلامية كما كانت الحال في مبدأ عصر النهضة في أوروبا إذ كانت النهضة القومية في مطلع ذلك العصر تصطدم اصطداما عنيفا بالعقائد الدينية الشائعة ، والآراء الدائرة حول وحدة البابوية والمملكة الرومانية المقدسة . »

وقال أيضا في صفحة ١٣١ وما بعدها من الجزء الثاني مانسه : « غدت الحياة السياسية في أقطار شمال أفريقيا المختلفة العناصر والاصول حياة اضطراب تعثر بها الانشقاقات والانقسامات ، وكانت مراكش وما برحت أكثر الأقطار الافريقية الشمالية وحدة والتثاما ، وثيانا في مجموعها السياسي ، مع أن سلطة السلطان النافذة حتى النفاذ لم تمتد قط يوما إلى الجبال التي تنفطها القبائل المختلفة ، وأما الممالك المعروفة بالممالك البربرية (الجزائر وتونس وطرابلس) فقد كانت أكبر قليلا من الثغور البحرية بمتدة على طول السواحل ، وأما البلاد الوراثة فقد كانت متمتعة بالاستقلال البدوي التام ، على هذه البلاد المتبيلة طفق الفتح الفرنسي يتدفق فبدأ غامرا الجزائر سنة ١٨٣٠ حتى انتهى بمراكش اليوم ، إن فرنسا قد أرخت على البلاد سكونا ، وكنيتها نظاما ونجحها ماديا ، غير أن هذه المنافع والفوائد التي أتت بها السيادة الاوروية في هذه الأقطار الافريقية كما في غيرها من الأقطار الشرقية قد كان من شأنها أن خلقت نوعا حديثا من الوحدة والتضامن والتفاسك بين أهل البلاد حتى غدوا جميعا على مستوى متماثل في الاجماع على شناعة الفاتح الأوروي ، وعلى نيل الملمح العام الذي يضمحون إليه وهو الاستقلال والتمتع بالحكم الذاتي معزل عن السيادة الأجنبية بته ، لذلك قد شهد العالم خلال الجيل الماضي نشوء « الجزائر الفتاة » و « تونس الفتاة » وفيهما الأحزاب السياسية يقودها رجال فرنسيون من أهل العلم والنهذب للتشبعين كل التشبع بعقائد الحكم الذاتي والحريية . أما المنحة الذي تتجهه هذه الأقوام في نهضتها فهو بقاءته أميل إلى إنشاء الوحدة الافريقية الشمالية الكبرى مم إلى الجامعة الاسلامية العامة كما تقدم الكلام على هذا منه إلى إنشاء أمة تونسية أو جزائرية منفصلة عن غيرها من سائر الأمم الاسلامية ، ولا يعزبن عن البال أن جميع هذه الشعوب والأمم إنما هي على صلات شديدة وروابط متواتقة تواتقا كبيرا مع السنوسي ، تلك الصلات والروابط التي قد أسلفنا الكلام عليها في قسم الجامعة الاسلامية . »

معجزة جديدة لم تعرف من قبل

مقالا بديعا يظهر لنا بوضوح حديث : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا »
 ويفهمنا حقا معنى : « رجاء بينهم » والحق يقال ان هذه « معجزة اسلامية ،
 فلوليل لأوروبا اذا جهلت هذا

قال أيضا في صفحة ١٥٠ وما بعدها مانسه : « مما لا ريب فيه أن الحرب العامة قد هاجت الجامعة العربية هياجا شديدا ، وبعثت فيها قوة كبيرة ، ولا سيما بما قصت به الحرب من إنشاء مملكة عربية مستقلة في الحجاز ، مدلية بحقوق لها في سورية والعراق ، وقد غمر الشعوب العربية المختلفة طوفان من الهياج والاضطراب ، والمهرج والمرج هنا وهناك . وثارت تطالب الاستقلال ، متطلعة نحو إسقاط السيادة الأجنبية ومحوها محو انما ، وهي السيادة البريطانية والفرنسية والايطالية المنتشرة في مصر وسورية والعراق وطرابلس الغرب وسائر الأقطار العربية ، وقد استغرق الهياج هذه البلدان جميعها استفراقا جعل تلك العاية الكبرى المتوخاة من الجامعة العربية وان كانت لم تبرح عابلا شديدا غير ظاهرة كما كانت من قبل في صدر البرامح التي في أيدي رجال العرب القامئين بالنهضات القومية الوطنية ، الذائدين عن حوض العصية الحفنية العربية . زد على ذلك أن الجامعة العربية مشنبكة النسيج (كما قلنا قبلا) بمبدأين عامين شاملين ، لا يختصان بعنصرية أو جنسية دون أخرى ، وهما مبدأ الجامعة الاسلامية وجامعة العصبية الحفنية الاسلامية ، ولعل هذا المبدأ الأخير يبدولنا نحن الغربيين موضوع التناقض الغريب من حيث هو ليس كذلك عند الشرقيين ، إن الشرق وان استمسك جهده بمبادئنا وأفكارنا في الحفنية والوطنية ، واتحل ما اتحل من عقائدنا فيها ، فهذه المبادئ والأفكار والعقائد اذا انتقلت إلى الشرق نشرتها العقول الشرقية الملائى بصنف آخر

من المبادئ والعقائد الرامية إلى الوحدة الإسلامية وتآخي جميع المؤمنين على اختلاف الأقسام والفرق بحيث نشأ عن ذلك التلبس الجامع بين القديم والجديد ، وحصل التلون المختلف إلى حد غدا عنده المسلمون متى ما استعمالوا الكلمات التي نستعملها نحن مثل « الجنسية » و « الجنس » ذهبوا في فهم معنيهما مذهباً مختلفاً لمذاهبنا ، وقس على هذه الاختلافات والفروق التي بيننا وبين الشرقيين ما هو شائع في أفق جميع المبادئ والعقائد السياسية ، كذلك مثلاً كلمة « الدولة » فإن الدولة الإسلامية التي يصح اتخاذها مثلاً للمقارنة ليست كالدولة الغربية المشتمل بتحديداتها على وحدة معينة من الناس وأرض يسكنونها مقررة الحدود وسلطان ممارس نافذ تمام النفاذ في كل مكان داخل حدود الدولة ، بل إن الدولة في الشرق الإسلامي إنما هي كناية عن كتلة قلت أم كثرت ، غير مستقرة الشكل ولا النصاب ، ولا منتظمة التركيب ، لها نواة مركزية هي مصدر السلطة المنبثقة منها انبعاثاً مشتملاً على معنى الاستقلال المبهم التحديد ، تعثره آفات الفوضى ويشوبه الاختلال ، ومن المعلوم أن غالب الدول الإسلامية ما برحت منذ نصف قرن تجتد في تنظيم حكوماتها ، وإصلاح شؤونها ، وسائر أحوالها ، ناسجة في ذلك على منوال الدول الغربية ، غير أن المنازع التقليدية لم تبرح حية مشهودة المثل كما في أفغانستان حيث إن القبائل التي عند الحدود الهندية الشمالية الغربية ، وهي قبائل أفغانية متمسكة استقلالاً عملياً صحيحاً ، كانت تقوم من تلقاء نفسها في المدة بعد الأخرى بشن غارات عنيفة على الانكليز ، غارات حروب استطاع أمير أفغانستان أن يتصل من تبعها تنصلاً انقطع عنده دهاء الانكليز ، والأمر كذلك في الجنسية عند المسلمين ليست الولادة في البلاد ، ولا التجنس على الأصول الرسمية شرطاً لمن يريد أن يكون فرداً من أفراد أمة إسلامية في قطر من الأقطار متمتعاً بحق التمتع بحقوق الجنسية الإسلامية ، فوطن المسلم هو العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، لذلك يستطيع الهاياط أمة بلاد إسلامية أن ينال للعالم أي وقت شاء حقوق الوطني المكرم ذي المقام والمثلة بين ظهرائي القوم ، فالعبارة : « مصر للمصريين » مثلاً لا تعني ذلك المعنى بعينه الذي تصوّره نحن في الجارى المعتاد ، فإذا ما أقام مسلم جزائريّ أودمشتي في القاهرة فليس هناك من حائل يحول دون نصرته وسلاكه واعتباره « مصرياً وطنياً حراً » بصحيح المعنى والعبارة ، والسبب في ذلك أن من منازع الإسلام على الدوام صيانة الوحدة بين المسلمين ، الوحدة الدينية والجغرافية الإقليمية ، جميع الأقطار والممالك والبلدان الإسلامية معروفة عند المسلمين « بدار الإسلام » (ضدها دار الحرب) وهي المواطن التي قاطنها مسلمون يجب عليهم باعتبارهم أمة واحدة متحدة الذب عن سياجها والنياد عن حياضها ، وهذا هو السبب في أننا نرى أنه كلما أصاب اعتداء أجنبيّ طرفاً من العالم الإسلامي هاج الطرف الآخر واضطرب وقام وقعد على غير أن يكون هناك اشتراك في المصلحة المادية يحمله على ذلك كأنما المعمور الإسلامي جسم واحد باعتلال عضو منه تتأثر وتعتل سائر الأعضاء ، ترانا بعد جميع ما تقدم نستطيع أن نفهم كم هناك من المفكرين من المسلمين .

وقال في صفحة ١٥٤ وما بعدها مانصه : « ولعمري الحق ليس من الغرابة في شيء أن نرى الشرق وقد ارتوت نفوس شعوبه وأممه بضروب من المطامح القومية والآمال الاستقلالية التي هاجتها الحرب الكونية أعظم هياج فسيرتها ناراً ذات لهب أن ينقلب بسبب خاتمة الحرب التي نزلت عليه ويلا عجمياً وبلاء شاملاً ، مرجلاً شديد الغليان قواراً ، وبركاناً ثائراً : من المعلوم البين أنه قد كان من المستطاع عقد مصالحت سليمة من النقائص والمشايخ ، وذلك بالجري على السياسة الصحيحة الشريفة النسيج ، السوية النهج ، لكن مؤتمر فرسايل السلمى كان وباللأسف الشديد متجرداً عن كل سياسة رشيدة ، وتسوية حكيمة ، وحصافة في الرأي ، ونظر بالعواقب ، فنجم عن ذلك أن تلك التسويات الفاسدة التي وضعها هذا المؤتمر قد حبطت شرّ حبوط ، ليس في ضمان السلم لأوروبا بحسب بل كان من شأنه إماطة اللثام ورفع الحجاب عن موقف الغرب

الحقيقي إزاء الشرق ، ذلك الموقف الرائع الذي عاد فظهرت فيه تلك الروح التي عرفت قبل الحرب ، روح التوسع الأبراطوري والجنح الاستعماري ، روح استلاب الشعوب وارهاقها ، واتهاب ما بين أيديها وداخلها واستنزاف دماؤها ، وشدة الأخذقة على ماحول رقباتها ، زد على هذا أن الحلفاء الظافرين طفقت بصائرهم نعمة أشد العمة ، غير معتبرين شيئا من التطورات النفسانية الهائلة التي حدثت في الأمم الشرقية من جراء الحرب فلم يلبجثوا إلى تبديل موقفهم بأفضل منه على ما تقتضيه الحال المستجدة ، وإلى انتهاج نهج سياسي خبير من ذلك الذي اتجهوه قبلا ، بل ظلوا على المضي في معاملة الشرق بالخفة والازدراء ، كأنهم يحسبون أن الحرب العظمى التي أن من فدح عبثها الثقلان ، ومادت من شدة وطأتها وكابوسها هذه السيرة الأرضية ما كانت سوى مساجلة ومناوشة ، وأن آسيا ما برحت ذلك الجبار المستغرق في هجمته كما كان منذ قرن خلا .

أجل ، شرع الحلفاء يستهنزون بما كانوا قد نشروه خلال الحرب من أنواع التصريحات التي قرعوا بها أسماع الشعوب مئات من المرات ، وضمنوا بها قواعد الحرية وأساس العدل ، وأقبلوا يخلفون بوعودهم التي قطعوها لشعوب الشرق الأدنى في تقرير المصير خلال المعمان الأكبر ، وطفقوا يفشرون على الملاءمة من المعاهدات السرية (المعقودة بين بعض وبعض منهم في الحين الذي كانوا فيه بصرا حون بالنياد عن الحرية وتقرير المصير) وأرادوا بمقتضاها تقسيم الأبراطورية العثمانية ، إشباعا لشههم الكلي ونهمتهم الوحشية ، ممتنين شرا امتنان إرادة أهالي البلاد ورضيتهم فيما يشتهون أن يكونوا عليه من الحكومة ، وكان مؤتمر فرساي كشافا عن واقع المقاصد السبئية والأغراض الخبيثة التي انطوى عليها الحلفاء ، إذ تجلى ذلك بتلك الطريقة الخداعة التي التزم جانبها المؤتمر في رفضه قبول وفد إيران الذي أوفدته حكومته لبسط القضية الإيرانية (وإيران كانت ما برحت مستقلة استقلالاً اسمياً ظاهراً) فكان من الأمر أن حل المؤتمر الوفد على البقاء في باريس مدة جعل يعلله خلالها بالسراب الذي يراه المسافر فيحسبه ماء بينما كانت الحكومة البريطانية تشد الخناق على عنق حكومة الشاه في طهران إلى أن أكرهتها إكراهها على إبرام اتفاق بانت إيران كلها بمقتضاه بلادا محمية في كنف الأبراطورية البريطانية ، وأما المصريون (الذين كان دأبهم وديبتهم على الدوام تزجية الاحتجاجات على الحياة التي أعلنتها بريطانيا منفردة من تلقاء نفسها في مصر سنة ١٩١٤) فقد أوفدوا إلى باريس وفدا لبسط قضيتهم ، فرفض مؤتمر فرساي الاصاخة لأقوال الوفد ، بل أفهم رجاله أن المؤتمر إنما يعتبر الحماية البريطانية في مصر أمرا قضى وحكما أبرم ، فنجم عن جميع ذلك ماعدت نتيجة من نتائج الحرب وهو أن السيطرة الأوروبية على الشرقيين : الأدنى والأوسط قد شدت أطناها ، وتوطدت عمدها ، واتسعت آفاقها ، من حيث كان يجب تهوين خطب الاستعمار وتضييق ظله .

بيان أن فرنسا وانكلترا بعثتا الحمية في نفوس العرب

فأحرق الأمتين نار ثورتهم

وقال في صفحة ١٧٢ وما بعدها من الكتاب المذكور مانصه : « من المعلوم أن هذه الخدعة الكبرى التي قامت بها بريطانيا وفرنسا على مسرح المسكر من وراء الستار لم يكن للعرب علم بها ، ولا وقفوا عليها بل أبرمت خفية عنهم من حيث ان بريطانيا جهدت كبير الجهد ، وبذلت غاية المستطاع طياح الآمال الاستقلالية في صدور العرب واثارة العصبية والمطامع القومية في نفوسهم ، فكان ذلك خبير وسيلة ، وأنجع ذريعة ، لاستئثار نخوتهم في الثورة فجعلوا يسارعون إلى مجال الحرب ، وينبعثون إلى مقابلة الترك وخضد شوكتهم وأنفذت الحكومة البريطانية إلى العرب عددا من نخبة الضباط المختارين أشهرهم الأميرالاي لورانس التي

الفتى اللوذعى النابه الشأن ، الذى ما أسرع مانال من نفاذ السكامة والسلطة على أمراء العرب وزعمائهم
 عمالحد له ولاغاية حتى دعى « ررح الثورة العربية » لكن هؤلاء الضباط الأكفاء العارفون بشؤون العرب
 والمعروفون بميلهم إليهم وعطفهم عليهم ، إنما قد اختبروا ليقوموا بما اتدبوا إليه من حيث لم يكونوا هم
 أنفسهم قد وقفوا ولا اطلعوا على المعاهدات السرية التى عقدت خفية عن العرب ، وكان القصد من ذلك فى
 الواقع أن لا يعرف هؤلاء المستبشرين فتور ولا انكسار ، ولا يئلم وفؤوم للعرب بينما هم يستثيرونهم عنهم
 ويستوقدونهم نارالقتال ، وكان القواد البريطانيون لا ينفكون عن تزجيسة الوعود للعرب مودعة فى
 المنشورات والتصريحات التى كانوا يذيعونها آخذوا بعضها برقاب بعض ، ثم تمت خاتمة هذه الرواية عند نهاية
 الحرب فأصدرت الحكومتان البريطانية والفرنسية مشتركين معا منشورا أذاعته فى جميع الأقطار العربية
 جاء فيه ما يأتى : « إن الغاية التى من أجلها خاضت فرنسا وبريطانيا فى معمعان الحرب فى الشرق ، الحرب التى
 أنارتها على العالم المطامع الألمانية هى أن تضمننا لجميع الشعوب التى طال عليها عهد الجور من الترك تحريرهم
 من الاستعباد محررا تاما باقيا ، وأن تنشأ حكومات وادارات وطنية تستمد سلطانها من رغبات الشعب
 وارادته المطلقة دون منازع » فلم يلبث أن برح الخفاء ، وانجلى المستور ، وبان الصبح لذى عينين ، فتبدلت
 الحال غير الحال ، عند ما وضعت الحرب أوزارها ، ورجعت السيوف إلى أغمادها ، ومزق العدوسر بمزق
 وانتهت الرواية ، وأرخى الستار ، الستار الذى تبدت حقائق نيات الخلفاء ومقاصدهم منقوشة فيه تشا جليا ،
 فقرأها العرب وعلخوا الأسرار ، ووقفوا على بواطن الأمور ، بعد أن أخذوا بظواهرها ، وظهرت الجنود
 الفرنسية تحتل شاطىء سورية ، وعلم العرب حق العلم كيف خدعوا وختلوا ، وغشوا ، فذعروا وأجفلوا ،
 وقاموا وقعدوا ، وأرغوا وأزبدوا ، واشتعل غضبهم ، وهاجت هاشجات الثورة فى نفوسهم . ولولأهل الحصافة
 والرؤية من زعمائهم ، ولا سيما الأمير فيصل نجل شريف مكة المكرمة ، الأمير الذى برهن حق البرهان على
 فائق كفايته لقيادة الرجال والقتال فى الحروب ، والذى استطاع الآن أن ينزل من بنى قومه منزلة لا ينزع
 فيها من النفاذ وعزة السلطان لربما انفجر بركان العرب وتطير من جمه ما أظ البالد جميعها ، لكن فيصلا
 كان يعرف مبلغ قوة الخلفاء العسكرية ، فأيقن أن ركوب الحرب معهم إنما هو سركب خشن ، وغاية فى
 الاستهداف والمخاطرة ولا سيما فى آونة مثل تلك الآونة ، واذ أدرك حق الإدراك قوة العرب المنوية والأدبية
 فى ذلك الموقف الذى كانوا فيه طلب من أبناء قومه وبلاده أن يقوموا بسط القضية العربية والدفاع عنها لدى
 مؤتمر السلم الذى كان على وشك الانعقاد ، فقام بهذا الأمر راجيا تنجية البلاد من يوم عصيب ، فظلت الأقطار
 العربية خلال سنة ١٩١٩ هادئة ، ولكن هدوء الانتظار على ارتياب ، والتارتحت الرماد ، والأمير فيصل
 بسط لدى مؤتمر السلم قضيته ببلاغة معنى وفصيح منطق بحفت بموقفه الوظار ، لكنه لقي خيبة فى المسعى ،
 إذ اشتمل عهد عصبة الأمم على بيان دال على الرفق والعطف وذلك أن الأقسام المعلومة التى كانت من قبل
 فى الحكم التركى ، وقد بلغت من الارتقاء مستوى يستطاع عنده الاعتراف بكيانها إنما مستقلة استقلال معلقا
 عليها أن تتلقى المشورة والمساعدة الادارية من دولة منتدبة حتى يأتى يوم تصبح فيه هذه الأقسام قادرة على
 السير بنفسها فيطلق حبلها إذ ذاك على غاربها . ثم فقاه العرب معنى الانتداب واكتسبوا ماهيته وسره ،
 وقد كان من شأن لويد جورج أن يجود ببعض العبارات المنمقة والجل الراقية مثل قوله : « إن العرب قد
 ونوا حقا بعهودهم ، وبروا بوعودهم ، لبريطانيا العظمى ، فيجب علينا إذن أن تقابل الاحسان بمثله فتفى
 بعهودنا ونبر بوعودنا لهم » غير أن العرب كانوا قد قرروا المعاهدات السرية واطلعوا عليها فبان من العتب
 والأفن بعد محاولة اصطيادهم بالأشراك والأحاييل مرة أخرى ، إذ عاد الختل من الترائع الباطلة ، وأمسى
 الخداع من الوسائل الكاذبة ، وبالتالى علم العرب علما مكينا أنه يجب عليهم الاعتماد على نفوسهم وقوة

سواعدهم ، ومساعدتهم ومجاهديهم ، وذلك إما في مجال السياسة ، وإما في مجال الحرب . انتهى ما أردته من كتاب « حاضر العالم الاسلامي » والحمد لله رب العالمين .

نظرة عامة في هذه المقالات

تلك المقالات المنقولة من ذلك الكتاب الذي حرره رجل عالم أمريكي نظر نظرة عامة في الاسلام : « إن أكثر المسلمين يعيشون ويموتون ولاهم يذكرهم ، يعيش المسلم غالبا وهو يجهل تركيب أعضائه وجاها ونظام العالم المحيط به ويجهل تركيب جسم الأمة الاسلامية التي هو عضو منها وأن كاتب هذه السطور أحد المسلمين الساكنين الذين يجهلون نظام أم الاسلام ، وما أفتح الجهل وما أفضعه ، أفليس من المؤلم أن نجهل ونحن في مصر (المشهورة بالعلم) بلاد الاسلام وما حصل فيها ؟ ثم يأتي رجل نصراني قد درس هو وقومه بلادهم وعرفوها ، ثم أخذ يدرس أم الاسلام ، وأنا الساعة أقل عنه ، فكيف نفهم معاشر المسلمين قوله تعالى : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى والهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » ، ما هو هذا الظهور ؟ وما معناه ؟ ثم نفهمه الآن بقول رجل بعيد عن الفرض لأنه ليس مسلما ، فإذا يقول ؟ يقول فيما قدّمناه :

(١) « إن أحد المبشرين الانجليز منذ (٢٠) سنة يقول : إن الدعوة النصرانية باتت خرافة من الخرافات .

(٢) ويقول : إن مبشرا بروتستانتيا يقول : « إن الاسلام يسير في سبيله منذ بدايته إلى اليوم فلم يعثر في سبيله إلا القليل ، وهولايمت المسيحية ، فلذلك فاز فوزا ميّنا ، النصرى يحملون بفتح أفريقيا في القدم وفتحها المسلمون في العلانية .

(٣) ويقول : « إن نيوز بلانده مبشروها من عرب وتجار ابتدوا ذلك منذ (١٩٠٠) سنة) وبعد عشرين سنة أصبح في كل قرية مسجد ، ومدرسة اسلامية ، ومعلمون مسلمون ، الانجليز عجزوا عن مقاومتهم .

(٤) ويقول بعض المفكرين الغربيين بعده بمدة قليلة : « من الآن يجتاز الاسلام زمبابوى وينتشر في جنوب أفريقيا فيطبق القارة بأسرها » .

(٥) ويقول : « الاسلام بهجم على المسيحية كما هجم على الوثنية ، إذ أصبح الذين تنصروا في غرب أفريقيا على يد المبشرين يدخلون الاسلام ، بل الحبشة أيضا تسلّم بعد أن كانت سخدا منيعا »

(٦) « منذ خمسين سنة ما كنت ترى في الأحباش مسلما واحدا ، أما الآن فغالبيهم مسلمون »

(٧) « ظفر الاسلام اليوم في أفريقيا عظيم » .

(٨) « إن التتار بعد أن ظلم الروس بعض المسلمين وانصروهم هبوا فأرجعوا اخوانهم جميعا للاسلام في القرن التاسع عشر لما استيقظ المسلمون .

(٩) ومقال العالم (فريدر) ملخصه أن الحرب العاقمة لم تصبح ظفرا لأوروبا ، بل صارت ظفرا للشرق وأشار إلى قيام الصين والأفغان والهند ومصر ، وأن روسيا التي كانت سبب إذلال فرنسا وانكلترا للشرق قد أصبحت بعد الحرب الكبرى نصيرته ، أقول : وملخص هذا كله قوله تعالى هنا : « ليظهره على الدين كله » ، فبينما الاسلام ينتشر في أفريقيا شرقا وغربا إذا آسيا بزول الكابوس الذي كتم أنفاسها فاتعش الاسلام .

(١٠) ويقول : « ظلم أوروبا أوقد نار الجامعة الاسلامية ، ومثاله ما حصل في طرابلس من اجتماع الترك والعرب على مناوأة الطليان .

- (١١) ويقول : « الحرب البلقانية زادت تقارب المسلمين » .
 (١٢) « إن مصطفي كمال بعد أن مزقت الدولة العثمانية غلب أوروبا كلها ، وقال لهم : أنا أحارب العالم كله ففاز ، وهذا نصر للإسلام » .
 (١٣) وافق العرب والترك سرا ، وحاربا معا في كيليكية ، وإن كانوا لم يظهرها ذلك .
 (١٤) ويقول أرمينوس : « إن الدين الاسلامي هو الدين الفائق سائر أديان العالم شوري وديموقراطية إلى آخره » . أليست هذه الجلة من حجة ثقة عند أوروبا بأجمعها هو نفسه معنى قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » ، وهذا عجب يارباه ! أعيش في مصر بلادى ، وأجد كثيرا من الطبقة المتعلمة لا يصلون الصلاة المفروضة احتقارا للدين بسبب انتشار المشركين بيننا ، ثم أسمع هذا العلامة في أوروبا يقول : « إن هذا الدين يفوق أديان العالم » أليس أمثال هذا القول وما تقدمه أكبر مجزة للقرآن في هذا الزمان .

- (١٥) ثم يقول أيضا : « إن جزيرة العرب - حفظت الاسلام والحريه الخ » .
 (١٦) ملخص كلام المستر (كرتس) : « أن أوروبا لن تبقى طويلا في الشرق ، ولا يمضى جيل بل عقد من السنين حتى تصير الدول الاسلامية متمتعه بالحكم الذاتي » .

هذه زبدة مستخلصة من هذه المقالات عرضتها عليك حتى يحضرنى عقلاكم أيها الذي منظر العالم الاسلامي الجيب ويظهر لي أنك متعجب من هذه الأخبار ! وراها غريبة عليك كحالي حينما كنت أقرؤها ، نفذها جلية خالصة ، فأنت الآن تقرؤها واخوانك المسلمون في أقطار الأرض يقرؤونها ، وهل بعد هذه الأخبار يبقى ذلك لأمة الاسلام ؟ كلا . ثم كلا . أنا أكتب هذا وقد ظهرت لي أمة الاسلام شرقا وغربا كأنهم في خيالي قدر بطنهم رابطة الاخوية العامة كما قال تعالى « إنما المؤمنون إخوة » ولقد ظهرت الآن ظهورا واضحا .

خطاب المؤلف

أيها المسلمون : أتم سادة هذه الأرض ، أتم الظاهرون فيها . أيها المسلمون : أوروبا نحن علمناها وهامى ذه تظهر علمها لنا نغفوه . أيها المسلمون : أتم رجاء ، واعلموا أن الأمم سنبليغ رشدها ، فكونوا أتم القدوة ، وانثروا السلام ، وهل تنثرون السلام وأتم ضعفاء ؟ ستكونون أقوياء فتهاجمكم الأمم لقوتكم ، وتحبكم لرحمتكم . إياكم أن تكونوا كأوروبا الشرهة الظالمة ، بل كونوا رحمة للعالمين .

أيها المسلمون : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » عجي لأمة الاسلام ، ولدين الاسلام ! هذا الدين الذي نزل من السماء نورا مشرقا ، وما كاد يصل إلى الأرض ويسير قليلا حتى امتزج بالظلام ، وأول هذا الظلام الاختلاف والشجار الذي وقع بين عظماء الأمة لأجل الخلافة ، فتشاجر الأمويون والعباسيون والعلويون أمدا طويلا . ثم ذهبت الدولة كأمس الدابر ، وبقي العلم والكن في الوقت الذي فيه كانت تحتضر المملكة العباسية أخذ العلم يرجع القهقري ، فرأينا الحكمة نامت نوما عميقا ، وفي بلاد الأندلس وشمال أفريقيا نبي ابن رشد ، وبات الذي يقرأ الحكمة مذموما مدحورا ، فهرب العلم من وجه المسلمين إلى أوروبا وهاهوذا يرجع إلينا ثانيا .

إن المسلمين اليوم أرقى منهم في كل زمان بعد عصر الصحابة والتابعين

وكيف لا يكونون أرقى من السابقين في ألف السنة الماضية ، وهم اليوم يقبلون كل علم وكل حكمة ، اللهم لك الحمد ، ولك الشكر ، ولك النعمة ، أنت النعم المتفضل ، أنت تحفظ الجليل والحقير والكبير والصغير

يا الله : نراك جعلت الجوهر الفرد مملوا من القوى المدخرة التي لو أطلقت منه لنفعت العالم كله ، براك رحمت الخلة وأعطيتها أعينا تعد بالمشات ، والذبابه أعينا تعد بالألوف ، وأبدعت هذه العيون كما أبدعت عين الانسان ونظمتها تنظما بديعا تقدم بعضه ، وسيأتي قريبا ما هو أجل ، فهل بعد هذا وبعد ما جاءنا من الأخبار عن أم الاسلام يدخل في قلوبنا وهم أوشك أنك ترك هذه الأم ، فهل الذي يرعى تلك الحشرة الحقيرة لا يرعى هذه الأم الكبيرة ؟ إنك ترمي المسلمين ، إن وعدك حقّ وصدق ، هاهذا القرآن ظهرت معجزاته ، هاهم أولاء المسلمون متحفزون ، أليس من أعجب العجب أن يختفى العلم بعد نبي ابن رشد بالأندلس فيظهر في الشرق وفي الغرب رجال عظامه ، فيظهرون باسم الصوفية ويزتمون العلم المشهور ، ويعلمون الناس بقدر إمكانهم كعبي الدين بن عربي رحمه الله وأمثاله ، ونرى نفس ذلك العصر يظهر فيه السيد الرفاعي الكبير ، والسيد عبد القادر الجيلاني ، والسيد أحمد البدوي رضي الله عنهم أجمعين الذي تحتفل الأمة المصرية بمولده الآن (جداى الثانية سنة ١٣٤٩ هـ) وهو من ذرية السيد محمد الباقر بن علي زين العابدين ابن الحسن بن علي رضي الله عنهم أجمعين ، وقد ولد في فاس (سنة ٥٩٦ هـ) وتوفي بطنطا ببلادنا المصرية ، فالسيد أحمد البدوي قد اجتمع بالجيلاني والرفاعي في بلاد العراق ، أفليس من عجب أن نرى القرن السابع يظهر فيه ابن الفارض ، والرفاعي ، والفسوي ، والسيد أحمد البدوي ، وابن عربي ؟ فهذه ثمان قرون مضت ، وهؤلاء لهم القدح المعلى في الاسلام ، فإذا جرى اذن ؟ أصبحوا هم وأصبح كثير غيرهم لهم عجائب وغرائب وكرامات لم تنقل عن رسول الله ﷺ ولا عن أصحابه ، فهؤلاء الصلحاء العظامه أصبحوا بعد موتهم قبلة الأمة ، لماذا ؟ لأن كراماتهم لا نظير لها ، فمنهم من يأتي بالأسرى ، ومنهم من يحيى الموتى وهكذا ، فتلقى العامة ذلك بالقبول ، وسارت الأمة أجيالا وهي فرحة برهبها ، لأن جلاله وحكمته تظهر بخوارق العادات التي يظنون أنها أعظم مظهر للالوهية ، وسجوا عن جلاله الحقيقى ، وهي عجائب السموات والأرض ، ونظام هذا العالم .

إن كل نفس توافقه إلى الجلال ، والجمال التكويني إنما هي عجائب السموات والأرض بالعلوم ، فلما طمست البصائر ، ونامت الأمة ، حوّلت عقولها إلى أكاذيب وخرافات تفرح بها الصبيان .
فيا عجباً ! رباه : دين يفتد نبذا ، ولا يعرف الناس إلا خرافات منسوبة إليه ، ثم يبقى إلى زماننا هذا ، ثم نراه ينتشر انتشارا مدهشا ، أليس هذا أيضا من العجب اثم نرى ما نكتبه الآن في التفسير مقبولا مع اتنى لم آل جهدا في مزج الفلسفة به والمسلمون يتقبلونها ، هاأتم أولاء أقبلتم على زمان العلم « هاؤم اقرموا كتابيه » ، أنا أحمد الله عز وجل إذ جعل هذا الكتاب فاتحة خير لأمة الاسلام التي تمطشت للعلم ، ولا يحصى لها منه ، بعد أن أحاطت بها أوروبا ، ورأت مخترعاتها وعلومها ، فاسلام بلا عمل لابقاء لأهله بعد زماننا ، والمسلمون في المستقبل حقا هم « خير أمة أخرجت للناس » .

لقد قرأت في الاحياء ما يفيد أن الامام الغزالي كان يخاطب أهل زمانه كما يخاطب نحن الآن الأطفال ، لا كما أخاطب أنا المسلمين الآن ، فانه لما أراد أن يفهم علماء زمانه أن الأسباب تترتب عليها المسببات لم يأت بمثال إلا بالوضوء والفصل ، لأنه رأى أن فقهاء زمانه كانوا لا يفهمون إلا بالفقه . وقال هو أيضا : إن ترتيب أجزاء كتاب الاحياء قد جعله هو على ترتيب كتب علم الفقه ليكون ذلك أنسا للفقهاء .

أما نحن الآن فاننا نخاطب أمة استيقظت ، وعقولها ارتقت ، ونفوسها علت ، نحن الآن نخاطب المسلمين علماءهم وعقائهم ، خطابا صريحا ، ونقل لهم عن الفرنجة الحق فيقبلون ، ولقد قال الامام الغزالي رحمه الله تعالى : « إن المسلم الذي لا يقبل العلم إلا عن مسلم ، وينبذ اذا كان عن غيره أشبه بمن قتم له الماء في محجم الحجام وهو مفسول نفايف فلم يقبله بحجة انه كان فيه دم ، فهكذا هؤلاء الأغبياء من المسلمين الذين

لا يقبلون الحقائق اذا وردت عن الكفار .

فأما نحن في زماننا فلسنا في حاجة إلى ضرب هذه الأمثال ، لأن أمتنا اليوم قد بلغت الحال التي بها تستحق أن تتولى زمام العلوم ، وهل بعد البيان بيان ! هاأنذا أعين حال المسلمين بما يرد من جيع الأقطار أنهم بكل علم مفرمون ، اللهم لك الحمد إذ خلقتنا في زمان النهضة ، وصرفت عنا السوء ، وعلمتنا ، وأنعمت علينا بالقبول ، أنت خير الناصرين ، أنت الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين .

فصل في ذكر مثال واحد لرحمة المسلمين لغير أمم الاسلام من رجال العصور المتأخرة لأنهم رحمة للعالمين

فلما سمع ذلك صديقي العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير . قال : كل ما تقدم حسن وجليل ، ولكنني أريد الساعة أن تذكر لي خبرا عن عظيم من عظماء الاسلام كان نعمة على أمم غير المسلمين ، على شرط أن لا يكون من أمثال عمر وأبي بكر ، ومن معهما من الخلفاء الراشدين ، ولا من غيرهم من المشهورين في سائر الأقطار ، ليكون ذلك مثالا لرحمة المسلم لغير المسلم ، لأن ظاهر الآية : « رحما بينهم » ربما يطلق بعض الناس أن رحمة المسلم خاصة بالمسلمين . فقلت : إن المسلم رحيم بالمسلم وبالذمي ، وبكل معاهد ومؤمن ، فالذمي له مالنا ، وعليه ما علينا ، ونحن لا نحارب ، ولا نغادي إلا من حاربنا ، وهم الذين في دار الحرب ، أما المثال الذي تريده فهو ماجا . في هامش كتاب « حاضر العالم الاسلامي » المذكور بقلم الأمير شكيب أرسلان في الجزء الأول ، ولتختتم به الكلام في هذه الآية تحت عنوان « السيد الأجل » فقد اطلعوا في بنان على تاريخ محرر في سنة ١٦٨٤ يقال فيه انه لما زحف جنكيزخان إلى الغرب جاء السيد الأجل عمر بألف فارس وقدم له الطاعة فأكرمه وجعله من بطانته (١٢٠٦ - ١٢٢٩) ولما آل الأمر إلى السلطان أوغوناي (١٢٣٠ - ١٢٤٢) ولاء ثلاث ولايات وهي : (فونغ ، تسينغ ، بون ناي) ثم استدعاه إلى باكين ، وعهد إليه بمنصب عال ، ثم لما تولى السلطان نانفو (١٢٥١ - ١٢٥٩) عهد إليه بادارة ستة نظارات بالاشتراك مع (تاؤل هوان) ثم جعله مديرا عاما لمقاطعة (يان كينغ) فأحسن الادارة جدا ، فعهد إليه بنظارة الاستخبارات ثم لما زحف السلطان إلى بلاد (تسوتشوان) جعله ناظرا لبيرة العسكرية ، فقام بها أحسن قيام ، فلما تولى السلطان (قويلاي) أعطاه رتبة الوزارة ، وجعله عضوا في مجلس أمانة السر لأعلى ، وكان كلما تقلد عملا ظهرت فيه فضائله ، وحاز رضا السلطنة ، وسنة ١٢٧٤ تقدم إليه السلطان في أن يقبل ولاية بنان ، وكانت أحوالها مختلفة ، وكان أهل بنان شديدي الفجورة والجهل ، فلما ذهب إلى هناك وجد القيادة في يد أمير من بيت السلطنة ، نذاف هذا منه وأراد أن يجازبه الجبل ، إلا أن السيد الأجل بحكمته وحسن سياسته استماله إليه وصبره صديقا ، وكانت تلك الولاية في غاية الانحطاط والبلاد خرابا ، فنشر السيد الأجل العلم وبنى المدارس واعتنى بتهديب الأخلاق ، وكذلك وجه همه إلى عمارة الأرضين ، فهدى الطرق ، وبنى المعابر والجسور والسدود لأجل المياه مما نلاني به خطر التحط ، فكانت بعض الأنهار تطنى على الأراضي فتذهب بها زروع الفلاحين فجعل لها حواجز تقي من ضرر الطغيان ، وكانت أراضي أخرى تعطش في الصيف من قلة المياه ، فبنى خزانات وحيضا احتياطا من جراء العطش ، وأزال المغارم والمظالم ، وأبطل السخرة ، وشيد ملاجئ للأيتام والحجزة ، وخفف المكوس ، وأحدث نموذجات زراعية يحتذى على مثالها ، وحفر الآبار ، وأقام الأسواق ، وأدخل في طاعة الدولة ما لا يبعد ولا يحصى من الأقوام ، وأثناء وجوده في تلك الولاية عمر مساجد للاسلام ، ولكنه شيد أيضا هيكل لكوتوفوشيبوس ولبوذا ، وكانت ولايته تضم عشرين مقاطعة ، فيحدها من الشرق سونغ ، ومن الغرب بيرمانيه ، ومن الشمال التبت ، ومن الجنوب آنام ، وبحسن سياسة السيد الأجل خضع ملوك التونكين وآنام لسلطان الصين .

ومن نوادر حكمته أن ملك لوبان ثار على السلطنة ، فصدر الأمر للسيد الأجلّ بالزحف إليه ، فلما سار بالجيش رآه اللبس حزينا كثيرا ، فسأله عن سبب كآبته فلجاب : لست كشيالكوفي ذاهبا إلى الحرب ، بل لكوفي أنصورتكم كثيرا سهلكون في هذه الملحمة بدون ذنب اقترفوه وانهم سيقتلون وينهبون أناسا كثيرين موادعين لا ذنب لهم أيضا ، ولما وصل إلى مكان الثورة أرسل إلى الثوار يعرض عليهم التسليم ، فلبثوا ثلاثة أيام لا يجارون ، فهاج العسكر ، وطلب القواد الاذن بالهجوم ، فلم يأذن لهم ، بل راجع رئيس الثوار في أمر التسليم ، فأظهر الطاعة ولكنه لم يسلم البلدة ، فوثب رؤساء الجند على البلدة ، فغضب السيد الأجلّ ، واستدعاهم وقال لهم : إن ابن السماء أمرني أن أتولى بلاد ينان ، وأحكم فيها بالعدل والأمان ، لا بالقتل والعدوان ، فلا أرضى أن تهاجوا البلد ، مادام الثأرون وعدوا بالطاعة ، فإن أيتهم إلا سفك الدماء فزأؤكم القتل ، ثم أوثق الضباط الذين أرادوا الهجوم خلافا لأمره ، فلما سمع الثوار بما حصل جاءوا وسألوا ، وسكنت البلاد ، وأطاعت عن بكرة أيها . وكان سائر العمال يقتدون بسيرة السيد الأجلّ ويتباهون بأعماله ، فأمنت السواحل ، واستراحت الرعية ، وساد العدل ، وقاضت الخيرات ، وعمرت البلاد ، وصار يقال هنيئا لبلاد ينان ، أما آثاره في الزراعة فلا تزال بقاياها إلى الآن ، وأن كثيرا مما بناه من الجسور لا يزال قائما إلى يومنا هذا . وكانت بلاد (تساوثيان) تظني عليها الأنهر ، فتتحول إلى بحيرة ، فحفر السيد الأجلّ نهرا حدر إليه تلك المياه كلها ، فصرفها عن الأراضي التي كان الماء يفرها من قبل ، وحفر نورا كثيرة ، وخلجا لسقيا البقاع المحتاجة إلى الري ، وجعل يريدا مؤلفا من ٣٦٠ فارسا وحراسا بقدرهم يسهرون على السدود بحيث إذا حصل فتق في أحدها أسرعت البرد بأخبار الحكومة ، فجمعت الحكومة الأهالي ، ونهضوا لرتق الفتق .

ومات السيد الأجلّ رحمه الله سنة ١٣٧٩ فكان له مائتم عمّ الصين بأسرها ، وبكاه أهل ينان كما يبكي الأولاد أباهم ، وعمّ الحداد البلاد المجاورة إلى بلاد (سونغ) و(نبت) وغيرها ، وذبحت القرابين في البلاط السلطاني ، وخلف خمسة أولاد و ١٩ حفيدا ، فكان خلفه في الامارة ابنه ، ثم ابن ابنه ، وتداول أحفاده الامارة ، وكانوا جميعا أعضاء للسلطنة .

وفي أيام دولة (مينغ) راجع السلطان (ناي تسوكا هوانغ تي) (١٣٦٨-١٣٩٩) تراجم وزراء الدولة السابقة ، فلم يجد بينهم في الحكمة والعدل والرفق بالرعية ، ووفرة آثار العمران ، مثل السيد الأجلّ ، فأمر بتسجيل سيرته في كتاب خاص بقيد المآثر اسمه (بن تشه شو) وأن يدرس هذا الكتاب للطلبة وينشر في المملكة ، وقد ثبت هذا السلطان لقب السيد الأجلّ ، وهو « الأمير الأمين المحسن » وأمر ببناء هياكل فيها القرابين عن روحه ، سنة ١٤٠٥ صدر أمر الحكومة الصينية بتأليف سيرة للسيد الأجلّ بقلم (تشينغ هو) . ويوجد في بلاد ينان هيكل باسم الأمير (هيان يانغ) وهو لقب السيد الأجلّ عند الصينيين . ولا تزال أعقاب السيد الأجلّ إلى اليوم ، وأسرته معروفة منذ سنة ٨٥٠ انتهى ما أردته من كتاب « حاضر العالم الاسلامي » وبهذا تم الكلام على قوله تعالى : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا » محمد رسول الله والذين معه أشدّاء على الكفار رجاء بينهم . كتب ظهر يوم الاثنين ١٩ اكتوبر سنة ١٩٣١ م والحمد لله رب العالمين .



الجوهرة الثالثة في قوله تعالى : تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا

سبأهم في وجوههم من أثر السجود

اعلم أيها الذكي أن هذا الانسان فوق الأرض المخلوق من الطين في الأعم الأكثر ، هام على وجهه ، جاهل لا يدري لم خلق ؟

الله أكبر : إن الانسان يشبه ماشع وذاع في زماننا ، من أن الجواهر الفردة والذرات الدقيقة أصبحت الآن موضع عناية علماء الألمان خصوصا وعلماء العالم عموما ، إذ يقولون ان فيها قوى كامنة ، وتلك القوى المحبوة يعوزها أعمال عظيمة حتى يمكن استخراجها ، ذلك أن كل مادة فانها مكتونة من مواد كهربائية سالبة وموجبة وهي مكبوسة مكتسمة مضغوطة ، فأصغر المادة الذي لا يرى إذا أزلنا ضغطه وخرجت القوى السكامة فيه غيرت لنا معالم الحياة ، لأنها قوى لاحد لها ، وقد تقدم هذا كثيرا .

أقول اذا كانت هذه حال الذرات التي لا تراها في الطين والتراب والماء . الله أكبر : فكيف تكون حال هذا الانسان إذن ؟ الانسان نهاية الابداع في أرضنا هذه ، فإذا كانت هذه حال الذرات التي منها تركيب علنا ، فكيف يكون حال الانسان الذي هو نهاية الابداع ؟

الانسان يشبه هذه الذرة ، فهو يهيم على وجهه ، ويعيش كالحيوان منبوذ كالذرة . والجوهر الفرد ولكن يستخرج قواه أناس منه محبوبون على صفات خاصة به خرجوا من هذا الطور الطبيعي وأيقظوه إلى استخراج ما كمن فيه من القوى ، ولذلك تجد الرجل المهذب الراقى بوسى أو بتعليم يقدر أن يؤثر في نوع الانسان كله بأرائه وأفكاره ، ومن أوليات هذه الوجهة التي أتى بها الأنبياء الصلاة والركوع والسجود فإن هذا الانسان الذي يعاشر السباع والطيور والأنعام يقف ويقول : « وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض الخ » وهذا عجب ! الجوهر الفرد قواه مادية باستخراجها برفعا ماديا ، ولكن هذه النفس الانسانية باستخراج ما فيها من القوى ترجع إلى أصل هذا الوجود وهو الله ، فنحاطبه قائلين : « إياك نعبد وإياك نستعين » .

ياهيأ هذا الانسان المركب من ذرات أرضية وما حوطا بركع ويقول : « اللهم لك ركعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت الخ » ، ويقول : « سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره » .

هذا الانسان الصغير الجسم الضئيل يعاشر الحيوان ، يقف ويخاطب خالق هذا العالم كله وطبقاته التي لم يعرف الناس لها حدا إلى الآن ، وفيها شمس بعدونها بالآلاف الملايين وبعضها كما في الجوزاء أكبر من شمسنا (٢٥) مليون مرة ، وضوء شمسنا بالنسبة لها أمر صغير . سبحان الله : أهذا الانسان هو الذي يخاطب خالق هذه العوالم كلها ، ثم هو نفسه الذي يفكر في الشرق والغرب ، وفي أعلى وفي أسفل ، في ثانية واحدة نعم الانسان هذا وصفه ، وهذه حاله ، أيقظه الأنبياء وهذبوه وربوه ، وغاية الأمر أن الديانات قديما كانت تنزل على الناس بمقتضى استعدادهم ، وكل دين أرقى مما قبله ، ولما جاء ديننا رفع تلك الشبهات والخرافات ، لأن الله يريد أمما أرقى من السابقة موحدتين صادقين ، وقد أمر جميع الأمم أن تتحد به ، وما من دين إلا وقد أمر متبعيه بالصلاة والتوجه لله ، ألم ترى إلى غاندى المصلح الهندي الشهير ، فانظر كيف يصف الصلاة في دينه البوذى الذي نزل به بوذا قبل نزول المسيح عليه السلام ، وكيف نراه يوقن بالصلاة ونفعها ، أما لا أقول ان هذا الدين لم يفسخ . كلا . هو منسوخ بديننا وإنما الذي بهمني أن أقوله ان وجود الصلاة إلى الآن في دين البوذية ، وعلان غاندى أن الصلاة نافعة معجزة لديننا وديننا ، لأن الله يقول : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى ابراهيم واسماعيل الخ » ويقول : « ولقد وصبنا

الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله» ، ويقول : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا باذن الله . »
 فإذا أسمعتك ما قاله المهاتماغاندى فى الصلاة فأتى أسمعتك مجهزة ، أسمعتك شيئا لم تألفه ، أنت تعرف أن اليهود والنصارى لهم صلوات وان كانت منسوخة بصلاواتنا ، ولكنك فى الغالب لم تسمع اذا كنت بعيدا عن ديار الهند أن هناك صلوات وان كانت منسوخة يتلوها قوم وينتفعون بها ، لأن الله رب الناس ورب الحيوان ، أما كون الدين منسوخا فشيء آخر ، واذا كان المهاتماغاندى ينتفع بالصلاة ، فكيف يكون المسلم إذن ؟ وهذا نص ما قاله بالحرف الواحد . جاء فى جريدة الاهرام يوم ٢٥ اكتوبر سنة ١٩٣١ تحت العنوان التالى مانصه :

الصلاة فى نظر المهاتماغاندى

وقع نظرى على أحد أعداد جريدة « الهند الفتاة » الصادرة أخيرا وفيها فذلكت مختصرة عن رأى المهاتماغاندى فى الصلاة فرأيت ترجتها لى أشرك اخواننا (الشبان بالاخص) فى أراء ذلك الرجل العظيم خصوصا أن الكثير منهم ينظر الى الصلاة نظرة استهزاء وسخرية ويعتبر التمسك بها نوعا من الجود قال المهاتما من ضمن أحاديثه على ظهر الباخرة « راجونانا » :

« وربما كانت مسرتى عندما أقوم لصلاة المساء تفوق ما أشعر به من الغبطة والمفرز دائر ييدى . ويشترك معى فى صلاة المساء جميع أصدقائى من هندوس ومسلمين وبارسيين وسيخ أمانى صلاة الصباح المبكرة فلا يشترك معى منهم الا القليل ، ولقد سألتى صديق مسلم عن الصلاة وما أراد منى أن أعطيه وصفا نظريا ولكنه سألتى عما شعرت به نحوها من تجارب عملية ولقد رافقتى سؤاله هذا كثيرا وليس غريبا على أن أصرح على رموس الأَشهاد بأنه لم يكن لى سبيل إلى النجاة إلا بسبب الصلاة كما أتى لأنكر الناس أتى لولم أكن أصلى لكنت تضمنى الآن إحدى دور المجاذيب . ولقد أتى على حين من الدهر كثير ما لقيته فيه من مرارة العيش ومن اليأس الوقتى الذى رمانى فيه بعض الجاهل ولكن ما كان أسرع نهوضى من يأسى وقنوطى ببركة صلاتى وقنوتى .

لم تكن الصلاة فيما مضى جزءا لازما من حياتى ولكنها أنت بفت الضرورة حينما وجدت أتى لن أكون سعيدا بدونها وكلما زاد اعتقاد الناس فى الله زادت رغبتهم فى الصلاة . ولربما اكون قد بدأت حياة الاخلاص ولكن قد أتى على نور من الله حينما بدأت أشعر بان لزوم الصلاة للروح أكثر من لزوم الاكل للجسم : لان مرض الجسم يحتاج إلى الحية لى يصح ولكن كلنا يعلم أنه لا يوجد حية من الصلاة لى تصح الروح ، وفى حين أن النخمة ربما أتى لنا من كثرة الأكل فاننا لانجد نخمة صلاة للروح

ولقد ترك لنا ثلاثة رجال عظماء وأعنى بهم بودا ، وعيسى ، ومحمد ، اعترافا بأنهم لم يروا سعادة الحياة الاعلى ضوء مصباح الصلاة كما أن ملايين من الهندوس والمسيحيين والمسلمين الاتقياء لا يجدون لهم سلامى إلا فى الصلاة وقد يعدهم البعض كذابين ، ولكنى كباحث عن الحقيقة المحيطة أحب أن أو من بهذا الكذب لأنى وجدت أن نتيجة تصديق له كانت عماد نجاحى ، ومع أتى لا أستبشر خيرا من الحق السياسى ولا أرى فى أفضه إلا بأسا فأتى دائما فى غاية الاطمئنان والأمان لدرجة أن الكثيرين صاروا يحسدوننى على اطمئنانى هذا ، وما كل ذلك الامن الصلاة .

أتى لست رجل تعاليم راقية ولا فلسفة عميقة ولكنى بكل خضوع بكننى أن أدعى بأنى رجل صلاة ولست مع كل هذا أعلن كبير أهمية على الطريقة التى بها تؤدى الصلاة فالنتيجة فى النهاية واحدة .

بقيت مسألة صعبة ، وهي أن البعض لا يعتقدون بوجود إله لا يمكنني أن أقول لهذا البعض إلا أن يرى بتلك العلوم التي تربك عقله عرض الحائط ويسلم بأننا بنى البشر ما أوتينا من العلم الا قليلا فلندرس هذه المسألة بعقل طفل صغير وفي الحقيقة اننا أصغر حتى من الذرة لأن الذرة المتناهية في الصغر تطيع قوانين الطبيعة من شد وجذب وسقوط وارتفاع ، ولكننا بنى الانسان في كبرياء جهلنا وحقه آمالنا ومجرفة صلفنا تقف وجها لوجه ضد هذه القوانين ونسكرها . وما دمت قد سلعت بوجود إله وكنت به من المؤمنين فاني لأرى ما يمنعك لحظة واحدة عن الصلاة ولا أقبل فلسفة من يدعى بان مجرد حياتنا في الدنيا هي نوع من العبادة ، وعلى ذلك لا لزوم للصلاة لأن الأنبياء أنفسهم وقد كانوا على اتصال دائم بالروح العلوي كانوا يقومون بالصلاة ويجددون إيمانهم كل يوم ، فما أولانا بنى البشر بأن نصلى ونتضرع إلى الله يوميا ونجدد إيماننا . إني أيها الاخوان ضامن لكم بعد ذلك خلوا بالكم من كل ما يمكن أن يسبب له أقل تعاسة أو أدنى شقاء . انتهى بتصرف .

١ . حلبي مطر

(إستاذ علوم من جامعة منستر)

فضل الله على الناس

إن الله ذو فضل على الناس ، الناس محبوسون في الأرض ، أنا لا أدري كيف كان هذا الانسان قبل أن ينزل إلى الأرض وإنما أنا أصف الانسان الساعة بما وقر في نفسي ، فأقول :

اني الآن موقن إيقانانا بأن صانع هذا العالم لا حد لرحمته ، رحمة وعدل وحكمة وجمال وبهاء وابداع في الصنع ، لا يسع من يقرأ هذا التفسير وما فيه من العلوم إلا أن يقول ذلك ويعتقده ، وابست تعقل نفس بعد هذا أن يكون وجود الناس في الأرض لقصد التعذيب . كلا . فكل عذاب لم يرد به إلا السعادة ، هذا لا أشك فيه ، فهو يقين (نعم هناك ماهو فوق علمي وطاقتي ، ولا يتسنى لي معرفته ، بل أسلم به ، وأؤمن به وهو عذاب الكفار الدائم ، فهذا آمنة به ، ولو أننا عرفنا سره لكننا من عالم أرقى من عالمنا ، فكفانا ما عرفنا الآن ، ونكل أمر الباقي إلى الله ، حتى يطلعنا على السر بعد الموت ان استحققتاه) .

فاذا كان هذا هو اليقين عندي ، فاني أبني عليه ما يأتي . فأقول : لعل أرواح الناس كانت قبل نزولها إلى الأرض غيبية جاهلة بتفصيل العوالم ، وان كانت تعرف الكليات فعملها تحيط بالكليات وتجهل الجزئيات فبعث الله فيها غريزة حب المادة وعشقها فأنحدرت إليها وانغمست فيها وحبست . ومن عجب أن يكون هذا السجن الأرضي أشبه بستان جيل ، وهو أعظم سجن وأبدعه ، وهو يعطينا درسا كأنه يقول لنا : أنا سجنكم في الأرض لأعلمكم ، أرسلت أنبياء وحكاما وعلماء ، وأنزلت ماء ، وأمرتكم بالطهارة والصلاة لتكملوا ، ووضعت فيكم غرائز الطعام ، والشراب ، واللباس ، والحرب ، والعداوات ، ليكون ذلك كله مهمازاً يدفعكم إلى العلم والعمل ، وهذا كله هو الرقي والسعادة ، وأوعزت إلى علماء اسبارطه باليونان أن يمزجوا الصبيان من الصغر على تحمل الضرب ، فيشبون على الشجاعة ، وأوعزت إلى بعض قبائل السودان أن يضربوا الشاب أمام الفتيات ضربا موجعا قاسيا فلا يصرخ ، فيستحق أن يتزوج الفتاة لشجاعته ، وألهمت بعض القبائل أن لا يتزوج الشاب فتاة فيها إلا اذا قتل سبعا ، أو نمرا ، أو نحو ذلك ، كل ذلك لاستخراج ما كمن في نفوسكم من العجائب والقوى الكامنة ، فلا شجاعة إلا بالتحمل ، ولا أنوار للنفوس إلا بالصلوات والحكمة والعلم .

أنتم يا أهل الأرض مسجونون ، ولكن الذي سجنكم حكيم ، ولم يرد من السجن ذلكم ، بل أراد استخراج كنوز نفوسكم ورفيها واسعادها .

وقد وضع لكم في الأرض أشجارا وأزهارا وأنهارا وجبالا وأودية وبحارا لتكون هذه مكملات لكم ، تارة بالنصب والتعب في استخراج ما بطن فيها ، وتارة بتعاطي ما فيها من الأغذية والأدوية والثمار ، وكل هذا تكميل لكم ، واستخراج لقواكم ، وخبر السجون ماجع بين الحبس والعمل والطهارة ، انظر ما كتبناه في ﴿سورة البقرة﴾ عند قوله تعالى : « إن الله يحب المتطهرين » ، وكيف يقول (بقام الانجليزية) في كتابه « أصول القوانين » : « إن النظافة والاستمرار في العمل يقللان الجرائم ، والطهارة في الشريعة الاسلامية من محاسنها ، فلن ترى نظيفا عاملا إلا وهو بعيد عن الجرائم ، قليل الأوزار » .
وازن أيها الذكي بين أدنى الحيوان ، وهي تلك الخلايا الصغيرة التي تعيش في الماء ، ولا تموت مطلقا إلا بعدو يفاجئها ، أو باقطاع غذائها ، وكيف تعيش دهورا ودهورا لولا الطوارئ ، كيف كانت حياتها ضئيلة من حيث الارتقاء ، وفيها طبعها أرواح ضئيلة ، ثم انظر إلى الحيوانات التي هي أرقى منها وأرقى إلى أن تصل إلى الانسان فتجد علما وحكمة ورقيا وشجاعة وقربا إلى الله بالصلاة حتى يقول الله في المسلمين : « تراهم ركعوا سجدا ينتعون فضلا من الله ورضوانا » انتهى الكلام على الجوهرة الثالثة ، والحمد لله رب العالمين كتب صباح يوم الخميس ٥ نوفمبر سنة ١٩٣١ م .

الجوهرة الرابعة

في قوله تعالى : « كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار »

صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده . لك الحمد اللهم ولك الشكر ، ما أعظم نعمك ، إن هذا الزمان هو الذي اشتد فيه ظهور المعجزات ، معجزات النبوة المحمدية ، كيف لا ، ألم أذكر في السور الأولى من هذا التفسير أن الفرنسيين انقضوا على بلاد سوريا ففتكوا بأهلها فتكاذروا بها وقتلوا القوم تقيلا . ألم أقل في ﴿سورة آل عمران﴾ عند قوله تعالى : « ألم ترأى الذين أتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم » . الآيات ، إن هذه الآيات إنما نزلت لأجل رقيتنا نحن أبناء المسلمين عموما ، والعرب خصوصا ، وقلت ان (الم) في أول السورة تشير إلى هذه القصة المبتدأة بهذه الحروف (الم) وأن اليهود لما اتكفوا على شفاعته آبائهم ، وعلى تخفيف العذاب عنهم يوم القيامة ذهب ملكهم ، وملك المسلمون بلادهم ، وقلت إن المسلمين اليوم قد دخل عليهم من الخرافات والجهل في الدين ما أزال نخوتهم ، وفرق جمعهم ، وأبفت هناك أن أبناء العرب من بحر الظلمات ، وهو المحيط الاطلانطيقي ، وبلاد السودان إلى بلاد العراق والموصل وما بينهما متفرقون مع أن بلادهم متلاصقة وتفرقهم إنما جاء من الجهل المحيط بهم ومن بعض الشيوخ المخرفين والرؤساء المفرورين السجالين وما أكثرهم في بلاد الاسلام ، هذا نموذج لما قلته هناك من أسرار (الم) التي نزلت لايقاظنا نحن الآن ، لأننا نحن الذين حبسنا أي الأرض ، ونحن في حاجة إلى الهداية ، فهدايتنا جاء بعضها عن طريق هذا الرمز الجيب ، كنت أقول هذا هناك وأنا واثق برقي هذه الأمة ، ولكن لم يكن ليخطر لي أن هذا الرقي أصبح قاب قوسين . كلا . أنا كنت واثقا برقي المسلمين عموما وأبناء العرب خصوصا ولكن هل كان يدور بخلدني أني أعيش حتى أقرأ ما سئمه أيها الذكي الآن ؟ بل هل كان بهجس في خاطري ، أو تحذرتي نفسي بأن ما سئمه الآن يحصل ونفس هذا التفسير لا يزال يطبع . كلا . لم يكن ذلك بخلدني ، ولكن زماننا هذا زمان انقلاب في كل شيء . انقلاب في الشرق ، وانقلاب في الغرب حتى أقرأ اليوم في جريدة الاهرام أثناء طبع هذه السورة يوم ٤ نوفمبر

سنة ١٩٣١ تحت عنوان « العراق وعصبة الأمم » وهذا نصه :
 « جنيف في ٢ نوفمبر (روتر) قال السرفرنسيس همفرز المنسوب السامي البريطاني في العراق أمام لجنة
 الانتداب : « في أيديكم منفتح الباب الذي لابد طهه البلاد الفتية من المرور فيه إلى البلوغ التام والتحرير
 الكامل ، فأسألكم أن تفتحوا هذا الباب . وقال أيضا : ان العراق برهنت على أنها أهل للقبول في مجمع
 الأمم المتعددة الراقية » . انتهى . وعلفت الجريدة على هذا التلغراف بمقال هذا نصه :

العراق وعصبة الأمم

بعد إلغاء الانتداب ، ومستقبل الحالة في سورية

خطب السرفرنسيس همفرز المنسوب السامي البريطاني في العراق أمس أمام لجنة الانتدابات الدائمة
 في جنيف مؤيدا طلب انضمام العراق الى عصبة الأمم بعبارة مؤثرة .
 والذي نعرفه أن مسألة انضمام العراق الى العصبة في السنة المقبلة قد بت نهائيا بين الدول وأنه لم يبق
 لتقريرها رسميا الا بعض معاملات شكلية لانتور في الموضوع ، وانضمام العراق الى العصبة يعني إلغاء
 الانتداب الذي فرض عليها في مؤتمر سان ريمو فرضا . وقد رفضته منذ إعلانه وتمسكت بهذا الرفض الى
 النهاية . ولم تشأ انجلترا أن تضيف الى مشاكلها الكثيرة في تلك البلاد مشكلة أخرى بمحاولة اكرامها
 على الاعتراف رسميا بالانتداب ، بل جعلت لعلاقتها معها على أساس المعاهدات المعقودة في سنة ١٩٢١ ثم
 في سنتي ١٩٢٦ و ١٩٢٨ . وقد كفلت لنفسها في هذه المعاهدات الاشراف على المصالح المشوكة عنها
 لدى عصبة الأمم بصفتها دولة منتدبة ، ومكنت العراق في الوقت نفسه من عدم الاعتراف بالانتداب وعدم
 التقيد بنصوصه وأحكامه ، فكانت دولة منتدبة على العراق في نظر عصبة الأمم ودولة مخالفة له في نظر حكومة
 بغداد . على أن الشعب العراقي الذي رفض الانتداب رسميا لم يسعه القبول به ضمنا تحت ستار المعاهدات ،
 فكان دائما يطالب بتعديل ما يراه ماسا باستقلاله ، من موادها وكانت معظم الوزارات التي نالت في دست
 الحكم تستطدم بالانجليز من جراء ذلك فتفوز ببعض الشيء أحيانا وتفشل أحيانا الى أن وقع الاصطدام
 الأخير مع وزارة المرحوم عبد المحسن السعدون ، وهو الاصطدام الذي أدى الى اتحاره بعد ما بددت
 الآمال التي عقدها على حسن نيتهم وشعر بقوة ضغط الشعب عليه وضياع مركزه لدى الوطنيين من أبنائه .
 ووقع اصطدام آخر أثاره الهاشمي باشا وزير المالية في عهد وزارة ناجي باشا السويدي . وبلغت
 الأزمة حينئذ أقصى حد من التعقد حتى خيل الى الجمهور أن الملك سيحجز عن تأليف وزارة جديدة .
 ودارت مباحثات خطيرة في تلك الأثناء حلت جلالة على الاقتناع بأنه أصبح في الامكان الوصول الى
 اتفاق مع الانجليز ، فأقنع نوري باشا السعيد بذلك وعهد اليه في تأليف وزارة اشترك فيها بعض الوطنيين
 المتطرفين ، وأسفرت المفاوضات التي قامت بها وزارة نوري باشا السعيد عن عقد معاهدة تنص على الجلاء
 والاستقلال ، ولانتي لانجلترا من مظاهر السيطرة غير ثلاثة مطارات اثنان منها غرب في الفرات والثالث في
 جهات البصرة . ولم تقابل هذه المعاهدة على ما فيها من مزايا لا يستهان بها بارتياح اللقمان الوطنية لطول
 مدتها من جهة ، ولأن العراقيين يريدون استقلالا خالصا من كل شائبة من جهة أخرى .
 وقد أبدت انجلترا طلب العراق الانضمام الى عصبة الأمم ، وأعلنت أنه أصبح في حالة من الرقي لا يحتاج
 معها الى إرشاد دولة منتدبة . وسيدخل العراق العصبة في السنة القادمة على أساس المساواة التامة مع الدول
 المشتركة فيها ومن دون أقل قيد أو تحفظ يتعلق بالأقليات أو غيرها ، سوى القيود التي تنص عليها المعاهدات
 العامة ، كما صرح جلالة الملك فيصل لمنسوب الاطرام في أثناء مروره أخيرا بالاسكندرية .

ومتى دخلت العراق عصبة الأمم وخطت هذه الخطوة الواسعة في طريق استقلالها . تعذر إبقاء البلاد المجاورة لها ، والتي هي أقرب الى الحضارة منها تحت الانتداب . وهذا ما أدركته فرنسا وصرح به مندوبها أخيرا في عصبة الأمم . فالطريق الذي سار عليه العراق سنسبر عليه سوريا أيضا إذ لا يمكن أن يقبل السوريون - كما قال ممثل فرنسا لدى لجنة الانتدابات - بنظام أبعد عن الاستقلال من نظام العراق ، مع كونهم لا يقلون عن العراقيين علما وحضارة وخبرة في شؤون الحكم .

وخلاصة القول : أن دخول العراق عصبة الأمم سيكون فاتحة دور جديد في تاريخ الشرق الأدنى ومقدمة لانتخابات سياسية خطيرة قد تكون في مصلحته ومصلحة السلم . انتهى ماجاء في جريدة الاهرام أقول : هل كان يخطر لي وأنا حتى أرزق ، ونفس هذا التفسير يطبع أن أسمع أن العراق وسوريا على أبواب الاستقلال . اللهم انك أنت الواسع المغفرة ، الحكيم العليم العدل ، أعدت إلى الشرق شرفه وكراله وعزته بعد أن أدبته ور بينه بالنوازل والمحن ، إن كتاب (بالتشديد) زماننا المسلمين خصوصا والشرقيين عموما من أسعد الكتاب (بالتشديد) في الأرض ، لأنهم يرون ما يدعون اليه من الرقي قريب المال ، سريع الحصول ، والله هو الولي الجيد . انتهى الكلام على الجوهرة الرابعة والحمد لله رب العالمين .

الفتح الاسلامي في زماننا

وآثار النبوة المحمدية في نهضة الشرق الأقصى

لك الحمد اللهم على نعمة العلم والحكمة ، وعلى الفتح المبين ، اللهم إنك أنت الفتح العليم ، المحسن المهيمن ، الجليل الرحيم . تالله لم يكن ليخطر لي في الخيال ، ولا في الأمانى ، ولا في الأحلام ، أن أقف في حياتي قبل أن أموت على ما سمعت به الآن عن بلاد الاسلام من الفتح الاسلامي المبين ، حقا إن هذا زمان الفتح المبين ، الذي يباهي الفتح المبين أيام النبوة ، وأيام عصر الصحابة والتابعين ، نعم هو حق ، هو حق وصدق مبين ، كيف لا وقد كنت قبل اليوم أظن في نفسي أن هذا التفسير بما تقرؤه أم قراءة جديدة بعد موتي ، وتوربه في وجه الجهالة العمياء ، فتطمس معالمها ، وترهق روحها ، وتجعلها في خبر كان .

كنت أقول ذلك أشبه بالأمانى والأحلام ، ومعلوم أن الأمانى والأحلام تضليل ، ولكن ماذا حدث ؟ اليوم ، حدث ما لا عين رأت ولا أذن سمعت إلا نادرا ، ولا خطر على قلب كثير من المؤلفين ، حدث ما ذكرته في تفسير البسملة في أول هذه السورة من حضور الشاب التركستاني الذي قص علي أخبارا ونشرها في الجرائد فوق ما كتبت في أول السورة ، هذا الشاب اليوم أرى في شهر ديسمبر سنة ١٩٣١ م قد قبل في كلية الآداب في علم الفلسفة في الجامعة المصرية ، فإذا يقول ؟ يقول : لقد فتحت مدارس في بلادنا التركستان الصينية ، ودرست فيها العلوم الحديثة ، وأنا درست فيها ، وأن السبب في ذلك انقشار كتاب « نظام العالم والأمم » و « التاج المرصع » ، ومثل بلادنا بلاد الصين ومسلموها نحو (٧٠) مليونا ، وبعض أهل اليابان أسلموا ، واتصلوا باخوانهم في التركستان والصين ، وأسلم أهل اليابان بسبب رجل من بلاد التتار أحضر لهم « التاج المرصع » مترجما (انظر مقالة تحت عنوان معلومات جديدة في المقطم يوم ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣١) أ كتب هذا الآن ذا كرا نعم الله عز وجل ، أ كتبه وأنادهش أن بعض الكتب التي سبقته ونشرت قبله قد أدت الغرض المقصود الذي كنت أرجوه منه بعد مفارقتي هذه الدار .

إن هذه الأخبار فيها معان سامية ، ومرام شريفة ، وأسرارها ما بعدها فتح سريع ، وخطوات واسعة ، اتصل المسلمون اتصالا لم يهدوه ، وانتشر الاسلام انتشارا غربيا لم يهدوه ، واتصل الافريقي بالاندنوسى ، والجزارى والسومطرى ، والصيني والياباني ، والافغانى والهندي والتركستاني ، والتتارى والقازاني . اتصل

المسلمون ، اتصلوا اتصالاً لم يسهده .

هذا من آثار : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » فرحم الله الشيخ الدباغ لأنه هو الذي قرأت عنه أن الفتح معناه الفتح العلمي ، ذلك الفتح الذي نشر أيام النبوة في سائر الأقطار ، ثم أصبحت بقايا العلم الإسلامي أشبه ببقايا الماء الآسن في البرك والمستنقعات ، ثم كانت الحركة العلمية الحاضرة ، فانبعث المسلمون ونفضوا غبار القل ، وغادروا الكسل ، وأخذوا يجتهدون مجدداً مضى ، وعزاً قضى ، وسعادة أدبرت وملكاذهب ، وأخذنا نسمع باقترابهم وتواصلهم ، فنته الحمد وله المنه .

أكتب هذا وسيقرؤه شبان هم يعبشون الآن معنا في هذه الحياة الدنيا وهم مفكرون ، وآخرون لا يزالون صبيانا ، وآخرون هم أجنة في بطون أمتهم ، وآخرون هم في ظهور أصلاب آبائهم . كل هؤلاء وهؤلاء سيقرءون ما كتبناه الآن أو يسمعون به فيبعث في قلوبهم من الحياة العلمية الإسلامية مالا أعلمه أناروا أكثر المسلمين الحاليين ، وسيحدث ذلك في قلوبهم شعوراً قويا يحملهم على ركوب الطيارات التي أنا الآن وأنا أكتب هذا في صباح يوم الأربعاء يوم ٩ ديسمبر سنة ١٩٣١ بعد الفجر ، كأني أراهم فوق طياراتهم راكبين من بلاد التركستان الصينية ، أو البلاد اليابانية ، أو البلاد الصينية ، وقد وصلوا بها إلى البلاد المراكشية والجزائرية والتونسية وهم يحلقون فوق رموس إخوانهم المسلمين ، وقد قابلوهم بالتصفيق والفرح المين ، هذا هو الذي أتخيله الآن ، كأنه حقيقة أراها بعيني ، ولقد أطمعني ماتحقق من انتشار ما أكتبه وذبوعه في بلاد الإسلام أن هذه الحقيقة قد قرب وقتها ، وأظلم زمانها ، وأقبل حينها : « وتعلمن نبأ بعد حين » وهكذا يقابل المصري والسوري والمراكشي والطرابلسي جيل شبان الشرق الأقصى بمثل ، فيركبون طياراتهم ، ويردون إليهم الزيارة قاصدين الأفغان والتركستان والسين واليابان والهند وإيران وبلاد الترك وغيرها من بلاد الإسلام . كل هذا خيال اليوم وحقيقة الغد « ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا » .

ومالي أذهب بعيدا ، إن زماننا زمان انقلاب إسلامي عجيب أفيينا نجبرني هذا الشاب التركستاني الياقة الذي يجيد أربع لغات ، وهولم يتجاوز الثانية والعشرين بما ذكرت عن الشرق الأقصى ، ونسمع أذني هذه الأخبار السارة الجيبة ، إذا بالجرائد والأخبار تأتي سراعاً بأخبار مدهشة ، ذلك أن المسلمين اجتمعوا في مؤتمر إسلامي عام في القدس في ٧ ديسمبر سنة ١٩٣١ وتلقت رئاسة المؤتمر بركات التأييد من الملك علي بن الحسين والأمير عبدالله أمير شرق الأردن ، والامام يحيى عامل اليمن ، وخدم بمصر السابق ، وقد حضر للمؤتمر مندوبو البوسنة والهرسك واليوغسلاف والصرب ، وكانوا يكررون مزاراً « الله أكبر ، الله أكبر » عند ذكر أسمائهم والحضور نحو (٢٠) ألفاً . ثم اشتغل المؤتمر بتأليف لجانه الفرعية ، فقرّر أن يجري تأليف اللجان الآتية : —

- (١) لجنة المحافظة على الأماكن المقدسة والبراق .
- (٢) لجنة الثقافة الإسلامية وجامعة المسجد الأقصى .
- (٣) لجنة سكة حديد الحجاز .
- (٤) لجنة الاقتراحات .
- (٥) لجنة العناية والنشر .
- (٦) لجنة الوعظ والارشاد .
- (٧) لجنة المالية والتنظيم .
- (٨) لجنة القانون الأساسي .

هذا ماجاء في الجرائد المصرية يوم ٨ ديسمبر سنة ١٩٣١ أثناء طبع هذه السورة .

اللهم إنا نحمدك ونشكرك ، أحكمت صنعك ، وأجدت تدبيرك ، وجعلت تفسير هذه السورة موافقا في زمان طبعه لحادثة حضور الشاب التركستاني إلى البلاد المصرية بحمل لنا نبأ بلاده ، ولحادثة المؤتمر الذي هو الآن منعقد في فلسطين ، وقد حضره مندوبون من أكثر أقطار الاسلام .

اللهم إن هذا هو النصر المبين ، وهو عينه الفتح الاسلامي . اللهم إن المسلمين اليوم أشبه بالمسلمين أيام النبوة قبيل الهجرة ، ففتحهم الآن فتح علمي سلمي تعليمي ، وسيعقبه قريبا الفتح السياسي العظيم ، وسيكون المسلمون سياج النظام العام ، ورحمة العدل والرحمة لسائر الأمم والأجناس ، وسيكونون « خير أمة أخرجت للناس » يحملون السلام العام لأهل الأرض ، لأن فتحهم فتح علمي ، والأمة الآن سيكون فتحها فتحا علميا ، لأن الناس اليوم يسمعون ويعقلون ، والى هنا تم الكلام على (سورة الفتح) والمحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الأربعاء ٩ ديسمبر سنة ١٩٣١ م



تفسير سورة الحجرات

(هي مدنية)

آياتها ١٨ - نزلت بعد المجادلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ؕ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ
بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ ؕ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ
عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ؕ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ
الَّذِينَ يَنَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ
إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ؕ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ
فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ * وَأَعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولٌ
اللَّهُ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَسَىٰ لَكُمْ الْفُتُورُ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي
قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضَلَّآ مِّنَ
اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَإِن طَافْتَانِ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ أَقْتَلُوا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن
بَقِيَ أَحَدُهُمَا عَلَىٰ الْآخَرِ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَنَّىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا
بَيْنَهُمَا بِالْمَدْلِ وَقَسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ
أَخَوَيْكُمْ ؕ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرَكُم مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ
أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِّن نِّسَاءِ عَسَىٰ أَن يَكُونَ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ
وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا
وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا
اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ

شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ * قَالَتِ الْأَعْرَابُ
 ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا
 بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمْ
 الصَّادِقُونَ * قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهُ بِيَدَيْكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ
 بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ
 عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *

هذه السورة ثلاثة أقسام

﴿ القسم الأول ﴾ في تصبر البسملة .

﴿ القسم الثاني ﴾ في آداب المؤمنين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أول السورة إلى قوله تعالى

« والله غفور رحيم » .

﴿ القسم الثالث ﴾ في آداب المؤمنين بعضهم مع بعض من قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم

فاسق بنياً فتبينوا » إلى آخر السورة .

القسم الأول في تفسير البسملة

بسم الله الرحمن الرحيم

جرت عادة الشعراء أن يبدؤوا قصائدهم بالفرام ، ليكون ذلك داعية لاستماع القائل ما بعده ، يصف جمال
 المرأة ومحاسنها ، فيصني السامعون للشاعر ، ثم ينتقل بهم إلى المدح ، فالاستجداء ، فيخرج بالجوارز السنية ،
 والهيئات الذهبية ، ولقد تقدم أن الخلفاء الراشدين منعوا ذلك ، أما القرآن فإن براعته استهله البسملة ،
 والبسملة تصف الله بالرحمة ، رحمة هي مصدر جمال الرجال والنساء ، وجمال النجوم والجيال والشجر والسواب
 وما جمال الفتيات الساحر إلا أثر من آثار الرحمة ، ولكنه جمال يهيج الشهوات ، والشهوات غريزية في
 الناس ، فليست في حاجة إلى ما يهيجها ، والأمم اليوم في حاجة إلى إثارة ما كمن من صفات الكمال في الناس
 وفي آثار الرحمة من الجمال ملاحظه .

ولقد شرح الله الرحمة فجعل لها سورة بأكلها ، فقال : « الرحمن علم القرآن الخ » ، إذن سورة
 الرحمن الآتية من مفصلات الرحمة في البسملة كإقدماتنا في غير هذا المكان ، فصلت الرحمة هناك تفصيلاً وانحفاً ،
 وفي ﴿ سورة الفتح ﴾ قبل هذه السورة جعلت أصول الرحمة هناك الفتح وهو انكشاف الحقائق الذي ترتب
 عليه كل فتح في الإسلام ، فإذا قيل في ﴿ سورة الرحمن ﴾ : « الرحمن علم القرآن » ففي ﴿ سورة الفتح ﴾
 يقال : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » ، وعلى هذا الفتح دانت أمم وأمم ، وفتحت بلاد وبلاد ، أما الرحمة
 في هذه السورة ، فأنما هي الرحمة العملية ، أي رحمة الفضائل والأخلاق :

- (١) أدب مع النبي صلى الله عليه وسلم وعدم رفع الصوت عنده .
- (٢) وعدم الإصغاء إلى نقل الكلام حتى يحق الحق ويبطل الباطل .
- (٣) والصلح بين الطائفتين .
- (٤) واحترام الاخوة الاسلامية .
- (٥) واجتناب الاستهزاء والسخرية ، وكل فعل يؤذى الاخوان .
- (٦) وترك المز .
- (٧) والتناوب بالألقاب ، والسباب .
- (٨) واجتناب كثير من الظن .
- (٩) والتجسس .
- (١٠) وترك الغيبة ونحو ذلك .
- (١١) ثم التعارف .
- (١٢) والايمان بالبرهان واليقين .

ولما أتممت هذا المقال ، جاء صاحبي الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير ، فقال : كأنك فهمت أن الرجة هنا موجهة إلى ماني السورة وهي المطالب الثانية عشرة . فقلت : أن الرجة عامة ، وههنا جاءت هذه المطالب تذكراً بها ، وأمثلة لها ، وهذه من المطالب التي نقلت عن سيدنا علي كرم الله وجهه ورضي عنه إذ قال : « لو شئت لأدقرت سبعين بعيراً في تفسير البسملة » أوامعناه فهو من نحو هذا الباب دخوله ، ومن هذه الناحية وجهته ، وبها وصوله ، وإن كان له علم فوق ما عرفناه وحكمة فوق ما ألفناه ، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله . فقال : إنك قد جعلت أكثر السور على هذا النحو ، فانك قد فسرت البسملة في أكثر السور بالمطالب التي فيها ، فجعلت تلك المطالب مثلاً للرجة كما هنا ، ولكن يخيل لي أن في هذه السورة طرائف مستحدثة ، وبدائع مستحسنة ، ولكن لأجد في لساني قدرة على التحرير والتصوير ، ولا في جنائي قوة على التقدير والتفكير . فقلت نعم ههنا معان شريفة ، ودقائق منيفة ، ولطائف بديعة ، وعوارف رفيعة ، وجواهر مكتونة ، وطرائف مصونة ، وطرائق مسنونة . انظر رعاك الله إلى هذه الآيات ، ففيها آداب الأمم ، وأحوال اجتماعها وتعارفها ، بحيث لا يكون هناك اختلاف ، ولا اضطراب ، ولا غيبة ، ولا غيبة ، ولا حرب ولا جدال .

وههنا يبدو للخواطر سؤال ، فيقال : إن الله هو الرحمن الرحيم ، ومن أجل الرجحات أن لا يجعل في النوع الانساني هذه المثالب ، وأن يخلصهم من تلك الشوائب ، حتى لا يعوزهم النصح القرآنية ، ولا الزواجر الاسلامية ، وهذا السؤال يعوزه بحث هام ، وتنقيب عن مصادر هذه العوالم ومواردها ، وأدائها وآخرها ، حتى نفهم الرجحات ، ونعرف هاتيك الآيات اليبينات .

اعلم أهلك الله الحكمة ، وجنتك الزلل ، وأما عنك الفوائل ، وألبسك ثوب الوقار ، أن ما نراه من هذا الوجود الذي اختلط فيه الخبيث والطيب ، والحسن والقبيح ، ان هو إلا حركات في خيال هذه الأكران وخطرات فيه كالأوهام .

لقد علمت أيها الأخ الذكي مما مر بك في ﴿ سورة النور ﴾ أن الجواهر الفردة والقررات التي وصل إليها التحليل ليست هي بمادة ، وما هذه المسماة بالمادة إلا نقط كهربائية يجري سالبها حول موجبها ، أما نحو ستة آلاف ملايين الملايين ، وأما أقل ، وأما أكثر ، فإن كانت أقل ، فلتسكن الأنوار والأصوات ، وإن كانت أكثر فلتسكن الأجمام الصلبة ، والأجسام الثقيلة ، ولقد مر هذا غير مرة في هذا التفسير .

سبحانك اللهم وبمحمدك ، أنت القدوس ، جليل جليل ، لا إله إلا أنت ، ان علمك إلا حركات ، فما هذه الحركات ؟ هي حركات في أثير ، وما هو الأثير ؟ وما المحرك لها في ذلك الأثير ؟ إلى هنا وقفت عقول الأمم في زماننا ، وصفوا الأثير بأنه عالم لو جسم لكان أثقل من الحديد أضعافا مضاعفة ، انظر هذا المقام في أول ﴿ سورة الصافات ﴾ ولكنه لا يحجم له ، ولا يحس به ولا يرى ، ونحن نقول إذن هو كخيالنا .

الله أكبر : إن في خيالنا الحركات ، وتلك الحركات لها وجود حقا ، ولكن حركات خيالنا تتأرجحها معقولات لها نتائج في خارج أجسامنا وأعمالنا في رقى مدننا ، ونظام أخلاقنا ، إذن هي موجودة وحركات العوالم موجودة ، وجود مافي أذهاننا ضعيف ، وجود مافي الخارج قوى ، فالأول سريع الزوال ، والثاني نراه آمادا طويلة ، ولكن الأصل هو الحركات على كل تقدير ، فلندم الأشجار والجبال والنجوم ، ولتعض دهورا ودهورا ، ثم تفتى ، ولكنها معدومة أوفى حكم المعدومة ، فهذا الجبل الذى نراه ، والحجر الذى فيه ، والشمس والقمر ، والشجر والذباب ، كلهن حركات وأضواء متراكبات ، ظهرت للعيون بهيئات مختلفات ، ولكن العلم يقول . كلا . ثم كلا . أينها العيون ، أينها الأسماع ، لا وجود ، لا وجود ، كل هذا حركات ، والمحرك لانراه ، له وجود كامل ، وهونام الرحمة ، ومن رحته انه أراد أن يصورنى هذه الجاهل أرواحا ويلهمها علما ، ونحبه ويحبها ، فاذا يصنع ؟ صنع هذه الحركات ، فأبرز بها نور الكهرباء ، فضغطة ، فتراكم وازدحم وانحصر انحصارا شديدا في الذرات والجواهر الفردة ، وبهذا التراكم أصبح مشاهدا محسوسا ، وما عوالمنا إلتنوع وتجدد ، واختلاف في الصور والأشكال ، وإذا كان أصل العوالم سالب الكهرباء وموجبها ، فهكذا نشأت كلها على هذا النمط ، سماء وأرض ، وجاد وحيوان ، أعلى وأسفل ، حى وميت ، أسود وأبيض ، رفيع ووضيع ، كافر ومؤمن ، عالم وجاهل ، مالوك وسوقه ، ذكى وبليد . وهناك تفاعل وتفاعل ، فهذا التفاعل به دوام الوجود وترقى هذه الصور تعيش الأرواح الحيوانية ، وهي لاهياة لها إلا بهذه الصور التى مبدؤها تلك الحركات ، وأقرب شىء إلينا ماسمى في ﴿ سورة الفتح ﴾ من أن فى كل قطرة كسن الابرة لاتزيد على جزء من عشرين ألف جزء من البوصة المربعة خمسة ملايين خلية جراه بها يحمر الدم ، وهي عاملة ناصبة جاهدة ، وتسعة آلاف خلية بيضاء هي المدافعة عن المملكة الجسمية ، لتحافظ عليها من الذرات الداخلات فى الجسم لاهلاكه ، إذن أرواحنا لارتقاء لها إلتانى جو مشبع بالعراك والخلاف ، والاشفاك ، والاختلاط ، والاختلاج ، وكل أم يتبعها ولدها ، فاذا كان هذا هو الأصل البعيد والأصل القريب ، والأخير يشبه الأول فهكذا تكون هذه النفوس ، فبها تكون العداوات والشحناء ، والحسد والبغضاء ، كما تكون المحبة والولاء والشوق بالوجدان .

هذه طبائع عوالمنا ما هي إلا حركات ، والحركات متضادات ، وبغير هذا لا وجود للمادة ، والمادة فيها تربي الأرواح ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ ان وجود العالم وجود ناقص والانسان تبع للناقص مستمد منه نأيج عنه ، والنتائج على مقتضى المقدمات ، ولقد قدمنا أن الله رحيم ، ومن أجل رحمانه أنه يخلق خلقا من روحه هو وهي النفوس الانسانية ، وهذه النفوس أيضا ناقصة ، ولا يكال لها إلا بالتطور والتشكيل ، والتطور والتشكيل إنما يكونا فى المادة ، والمادة ناقصة ، فاذا كان هذا طبع الوجود الناقص ، طبعه التناقض ، فلم تبقى إلا مرتبة واحدة وهي تصفية هذه الأخلط ، وإزالة هذه النقايس ، لذلك أنزل الأنبياء والحكمة فى الأرض ، فأعطوا الناس دروس المحبة والمودة والموعظة الحسنة ، ومنها هذه السورة ، فآله (وان كان رحيمًا) لا يخلق المستحيل ، ومن المستحيل أن تخلق أرواحنا كاملة ، كما كان من المستحيل أن يكون للمادة وجود أولى ، فاذا كان أصل الوجود المادى معدوما فالكمال معدوم من باب أولى ، فن الرحمة انتهاج خطة ارتقاء الأتس فى مدارج الكمال ، وهذا هو الذى جاء فى ﴿ سورة الحجرات ﴾ .

إن ارتقاء النفوس البشرية لاسبيل له إلا التدرج نحو الكمال ، فليكون الناس في أول حياتهم كلاسود شراسة وكالأنعام شرهة ، فليرفعهم العلم إلى درجات الملائكة الكرام ، والوجود الكامل لغير صانع العالم مستحيل
 يقول القائل : لم خلق الله نفوسنا ناقصة ثم هو يكملها ، وهلا خلقها كاملة من أول وهلة ؟ معناه لم يكن كل
 انسان أصلاً للوجود (وبعبارة أخرى) لم يكن كل انسان إلهًا إذ لا كمال إلا له ، فإذا خلقنا نحن كاملين
 فعنا اننا آلهة ، وهذه هي الحقيقة ، كل ما عدا صانع العالم أصله العدم والوجود طارئ عليه وهو لا يقبل
 من الوجود الطارئ إلا قليلاً قليلاً حتى يصل للكمال الذي يليق به (وبعبارة أخرى أيضاً) يصل
 إلى مرتبة لا يتعداها ، وغيره يصل إلى أقل أو أكثر منه ، هذه هي الحقيقة ، وهذا هو جواب أصل السؤال

جمال في جمال

يخيل لي وأنا أكتب هذا الموضوع أن كل ذرات الوجود مشرقات ، وانها تفتحت أكامها ، وازدهرت
 فأشرقت الأنوار المحبوبة فيها التي يحاول علماء الألمان وروسيا استخراجها للاتفاف بها في الأعمال ، وكأنها
 كلها الآن مضيئة .

الله أكبر : نعم كلها موسيقى ، ألم تر أن حركاتها منتظمة ، ألم تر أن حركاتها في النور تكون من أربعمائة
 مليون مليون في الثانية إلى ٧٠٠ مليون مليون فيها ، أي من ابتداء لون الحرة إلى انتهاء لون البنفسجي .
 جميل والله هذه المناظر ، حركات تعد بالملايين في الثانية في ذرات لاحصر لعددتها ، قد حجت روسي عنها ،
 روسي التي تعيش في وسط هذه الأنوار وهذه الحركات ، روسي المسكينة المحبوبة المنوعة عن أن تسمع تلك
 الحركات وتناهد تلك الأنوار ، نعم سبحها الله ، سبحها عن ذلك الجمال وعن تلك الأنوار رحة منه بروسي ،
 لأنها لو سمعت تلك الموسيقى ، أورات تلك الأنوار ، وشاهدت أساليبها في الحديد والنحاس والرصاص والماء
 والهواء والجمال ، وشاهدت أفانينها المختلفة ، وضروبها الجميلات ، وسمعت تلك الأغاني ، وأنواع الموسيقى ،
 وضروب اللحن الشجية لنابت من اللذة ، ولطكت من وفرة الجمال ، أنا الآن أعيش في جمال منظور ،
 وجمال مسموع ، ولكنني عنه محجوب ، رحة من الله في .

ومن رحته بالحيوان أيضا انه غشى على عقله ، وعلى بصره ، وعلى سمعه ، وشغله بتحصيل قوته ،
 ومطاردة عدوه ، ولولا ذلك لتناهد تلك الأنوار ، ولتدل من جمال الأصوات في موسيقى النرات . ألم تر أن
 الجمال تبهم عند سماعها للغباء ، وأن الحيتان في البحار العظيمة تصطاد بالآلات المطربات الشجيات النغمات ،
 إذن الجمال محجوب عند كل حيوان كما هو محجوب عند الانسان ، فكان احتجاباه عنه رحة به ، والا طلك
 الأولون والآخرون .

النرات مركبات من جمال وباختلاف حركاتها وتنوع صورها كان هذا الوجود ، المملوء بالمتناقضات
 المؤلمات المؤذبات ، من الحر والبرد ، والحلو والمر ، والخيف والطيب ، ولكن أصل الوجود غلب عليه
 وهو الجمال ، ألا ترى إلى الشجرات المزهرات ، والشموس الطالعات ، ألم تركيب ترى صباحا قطرات الندى
 على الورق وهي أشبه بقطع المس الجيلات ، ألم تركيب يستبين لك منظر نسيج العنكبوت ، وقد جلله الندى
 بهيئة خيمة من الجواهر البديعة والمس المشرق البهيج ، غلب الجمال على ظواهر الطبيعة بعد أن ظهرت بظهور
 الغضوب الشموس ، لأنها تريد أن ترجع إلى أصلها ، وتظهر أصل جمالها ، فإذا غاب عنا تنوع حركات
 الكهرباء في النرات من حيث جمال ألوان أضوائها ، وبهجة موسيقاها ، فوالله لم يغف عن عيوننا مشاهدة
 باهر جمالها في الليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس ، فالجمال باق وان أحاطت به المؤلمات والمزجيات ،
 والاسان يتناهد ذلك ، والعناية الإلهية تريد أن ترقبه ، فإذا تصنع ؟ خلقت فيه قوى متضادة ، وألته

بالحسد والحقد والعداوات والحروب ، وقالت أيها المسلمون : حاربوا كل من يؤذيكتم وأتم تشيرون دعوة الاسلام ، وياعلماء الألمان والرومان والروسيا وجيع أوروبا اخترعوا المهلكات ، وابتدعوا ماتشاهون من المنذريات ، واشغلوا نفوسكم بذلك حتى تغيب عقولكم عما أمامكم من الجبال الذي يتم على أصل الجبال ، وهذه الشواغل تعيشون أمدا مقترا ، ولوأن الجبال غلب عقولكم مما تشاهدون ولم تشبه شواحب الحسد والطمع والمباراة والمنافسة هلكتكم ولصرتم في خبر كان .

وهذه الزمجات جعلت رياضة لكم ، ليكون الكمال الوارد إليكم قليلا قليلا بقدر ما تسمح به قواكم فتسببطونه استغباطا في أثناء مجادلاتكم . كما ان خبر الما كل في صحة أبدانكم ما كان غير مركز فتأخذ منه الخلايا حظها قليلا قليلا . فأما الأغذية المركزة فانها تغطي على الجسم شر طفيان ، فتكون فيه بشور وقروح وأمراض .

إن كل ما أخذ بلاتعب ونصب ، فهو عند من ناله مرضى منبوذ ، لاتعبه نفسه التفاتا ، ولا له عندها منزلة ، فكل مبذول مطروح ، وأحب شيء إلى الانسان مامع .

فلما سمع صاحبي ذلك وهو شديد الاصغاء إلى . قال : إن هذا لون آخر من ألوان العلم ، وصورة محبرة ، ونعمة ونعيم ، وحكمة من الله الحكيم العليم ، لم يرد على غمطها درس فيما درسناه ، ولم نر لها شيئا فيها قرأناه . فقلت : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات . انتهى الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة ، والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الخميس ١٢ نوفمبر سنة ١٩٣١ م

القسم الثاني من السورة

التفسير اللفظي للسورة كلها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قبل البدء في تفسير هذا القسم ، نذكر صلة هذه السورة بما قبلها ، فنقول : ﴿ سورة الفتح ﴾ قد ذكرت بعد القتال ، لمناسبة أن الأولى كالقدمة ، والثانية كالنتيجة ، إذ الفتح إنما يكون بعد القتال . أما هذه السورة فهي أشبه بما يعقب الفتح ، فإن الأمة اذا جاهدت ثم فتح عليها والنبي ﷺ بينهم وقد استتب الأمر ، فاذن يجب أن توضع القواعد التي تكون بين النبي ﷺ وأصحابه ، وكيف يعاملونه ؟ وما الآداب التي يكونون عليها ؟ فانهم اذا كانوا في الأمثال المضروبة في التوراة والانجيل قد تراخوا فيما بينهم وسجدوا وركعوا وعبدوا ، ثم نموا وعظموا ، وقوّوه ، وغاظوا الكفار ، فليكن البحث بعد ذلك في طريق المعاملة بينه وبينهم ، ثم كيف يعامل بعضهم بعضا ؟ فهذا هو ملخص السورة وترتيبها ونسقتها مع ما قبلها ، ولنشرع في تفسير الألفاظ ، فنقول : قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) أي لا تتقدموا ، من قولهم : مقدمة الجيش لتقدمهم ، ان حقيقة قولهم جلست بين يدي فلان أن تجلس بين الجهتين السامنتين ليمينه وشماله قريبا منه ، فسميت الجهتان يدين مجازا للجواررة ، ومعنى لا تتقدموا بين يديه ، لا تفعلا أمرا من الامور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة ، وهذا على سبيل الاستعارة التمثيلية صور المعقول بصورة المحسوس ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ لا تقطعوا أمرا دون أن يحكم به ، وفي ذكر الله معه تعظيم له صلى الله عليه وسلم ، والمقصود من هذا المعنى الاتقياد لأوامره ونواهيه فلا يجادلون بقول أوفضل قبل أن يقوله صلى الله عليه وسلم ، أو قبل أن يفعله . فلا يذبجون يوم عيد الأنهي قبل ذبحه ، فان الذبح بعد الصلاة ، ولا يصوم أحد يوم الشك وقد نهى عنه ، ولا ترفع الأصوات عنده كاحصل من الشيخين ، إذ اختلفا في أمر

فارتفعت أصواتها بحضرتة لما قدم وفد من بني تميم ، وهذه أمثلة قد أسند لكل منها أنه سبب نزول الآية وهي عامة شاملة لا تخص ما ذكر (واتقوا الله) في التقديم ومخالفة الحكم (إن الله سميع) لأقوالكم ورفع أصواتكم عنده (عليه) بما تعملون ، ولما كان ثابت بن قيس بن شماس جهورى الصوت ، وفي أذنه وقر ، كان يتأذى رسول الله ﷺ بصوته ، فنزل فيه وفي أمثاله قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) إذا كلمتموه ، فإذا نطق ونطقتم فعليكم أن لا تلبغوا بأصواتكم وراء الحد الذي يبلغه بصوته ، وإذا كلمتموه وهو صامت فليأتم أن تلبغوا به الجهر الدائر بينكم ، وأن تقولوا يا محمد يا أحد ، بل خاطبوه بالنبوة مع الكينة والتعظيم : وهذا قوله تعالى (ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض) في الأمر من المتقدمين خشية (أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) ففي الرفع والجهر استخفاف قد يؤدي إلى الكفر المحبط إذا ضم إليه قصد الإهانة وعدم المبالاة ، ولما نزلت هذه الآية تخلف ثابت بن قيس ، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال يا رسول الله : لقد أنزلت هذه الآية ، وأتى رجل جهير الصوت ، فأخاف أن يكون عملي قد حبط فقال عليه الصلاة والسلام : لست هناك ، انك تبيض بخير وتموت بخير ، وانك في أهل الجنة . فقال : رضيت بشري رسول الله ﷺ لا أرفع صوتي على رسول الله ﷺ أبدا . فانزل الله تعالى (إن الذين يعضون أصواتهم عند رسول الله) مراعاة للأدب (أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) أى ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الشاقة حتى ظهرت تلك القلوب وصفت بما كابدت من الصبر على المشاق ، وقال عمر رضي الله عنه : أذهب الشهوات عنها ، والامتحان اختبار يبلغ (لم مغفرة) لذنوبهم (وأجر عظيم) لفضيهم وسائر طاعاتهم :

(١) ويروي أن رسول الله ﷺ أخبر ثابتا بأنه سيقتل في سبيل الله ، فلما كان يوم اليمامة في حرب مسلحة قتل ، وكان عليه درع فرأه رجل من الصحابة بعد موته في المنام . فقال له : إن فلانا رجلا من المسلمين نزع درعي فذهب به وهو في ناحية من العسكر عند فرس يستن في رطيله ، وقد وضع على درعي برمتة فأت خالد بن الوليد ، فأخبره حتى يسترد درعي ، وأت أبابكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقل له ان عليّ دينا حتى يقضيه عني ، وفلان من رفيق عتيق ، فأخبر الرجل خالدا ، فوجد الدرع والفرس على ما وصفه فاسترد الدرع ، وأخبر خالد أبابكر بتلك الرؤيا ، فأجاز أبو بكر وصيته ، قال مالك بن أنس : لا أعلم وصية أجزت بعد موت صاحبها إلا هذه .

(٢) ولما نزلت الآية الأولى كان أبو بكر لا يكلم رسول الله ﷺ إلا كاخى الدرار ، وما حدثت عمر النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك ، فسمع النبي ﷺ كلامه حتى يستفهمة مما يخفص صوته ، لذلك مدحهم الله بفض الصوت عند رسول الله ﷺ . ثم ان العرب كانوا يعاملون النبي ﷺ على عادتهم فيما بينهم

(١) لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية إلى بني العنبر ، وجاءوا بعيالهم سبايا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان رئيس السرية عيينة بن حصن الفزاري ، جاء بعد ذلك رجالهم يقدون الدراري ، فقدموا وقت الظهيرة ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائل في أهله ، فجعلوا ينادون يا محمد اخرج إلينا ، حتى أيقظوه من نومه ، فخرج إليهم ، وأعتق نصف الدراري ، وقبل فداء النصف الثاني .

(٢) وأيضا لما جاء عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، والزبرقان بن بدر وأفدين على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبعين رجلا من بني تميم وقت الظهيرة ، وهو راقد نادوه : وقولوا يا محمد اخرج إلينا ، وذلك للفاخرة كما هو معلوم في فن الأدب والحديث ، لذلك ولأمثاله نزل قوله تعالى : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات) من خارجها سواء أكان من خلفها أم من قدامها ، والحجيرة قلععة أرض محجورة بمحاطة

والمراد حجرات نسائه صلى الله عليه وسلم (أكثرهم لا يعقلون) لأن العقل يقتضى حسن الأدب ومراعاة الحشمة ، لاسيما لمن كان فى منصب النبوة (ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان) الصبر (خيرا لهم) من الاستهجال لمأفاه من الأدب (والله غفور رحيم) لأنه اقتصر على النصح والتقرع طولاء المسيئين للأدب .
وبهذا تم الكلام على القسم الثانى من السورة ، والمجد لله رب العالمين .

القسم الثالث من السورة

روى انه صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة بن أبى معيط إلى بنى المصطلق ، وكانت بينه وبينهم احنة فى الجاهلية ، فلما شارف ديارهم ركبوا مستقبلين إليه ، فحسبهم مقاتليه ، فرجع وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : قد ارتدوا ، ومنعوا الزكاة ، فبعث خالد بن الوليد فوجدهم يصلون ، فسلموا إليه الصدقات ورجع فنزل : (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ) أى بأى نبأ (فتبينوا) فتوقفوا فيه ، وتطلبوا بيان الأمر وانكشف الحقيقة ، ولا تعتمدوا قول الفاسق ، فإن من لا يبالي بالفسق لا يبالي بالكذب الذى هو نوع منه .
والفسوق الخروج من الشىء ، يقال فسقت الرطبة عن قشرها ، وفى مقلوبها فسقت البيضة إذا كسرتها وأخرجت ما فيها ، وأيضا فسقت الشىء إذا أخرجه من يد مالكه مقتسبا له ، ويستعمل فى الخروج عن القصد بركوب الكبائر ، وقوله « فتبينوا » فى قراءة أخرى « فتثبتوا » ، والتثبت والتبين متقاربان ، وهما طلب البيان ، يقول فتثبتوا كراهة (أن تصيبوا قوما بجهالة) أى كراهة إصابتكم قوما جاهلين بحالهم (فتصبحوا) فتصبهوا . (على ما فعلتم نادمين) مفتين غما لازما ، متمنين أنه لم يقع ، فقوله فاسق على هذا هو الوليد بن عقبة ، وأنت ترى أن الفسوق خروج عن الحق ، وهل كان الوليد كذلك ؟ إن الوليد أخطأ فى ظنه فليس فاسقا ، فالأولى والأحق أن يراد العموم أى أى فاسق ، والتقييد بالفاسق يدل على قبول خبر الواحد العدل ، إذ لو توقفنا فى خبره لسوينا بينه وبين الفاسق ، ونحلا التخصيص من الفائدة (واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم) المعنى أن فيكم رسول الله على حال يجب تغييرها وهى انكم تريدون أن يطيع رأيكم فى الحوادث ، ولو فعل ذلك لعنتم ، أى لو وقعتم فى العنت ، وهو الجهد والهلاك ، وكان هذا يشير إلى الرواية السابقة على ما قبل ان بعض المؤمنين زينوا له صلى الله عليه وسلم الإيقاع بين المصطلق وتصديق قول الوليد ، وأن بعضهم كانوا يتصونون ، ويزعمهم جدهم فى التقوى عن الجسارة على ذلك ، وهم الذين استنأهم بقوله (ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان) فحبهم للإيمان إلى آخره جعلهم على ذلك لما سمعوا قول الوليد (أولئك هم الراشدون) أى أولئك المستنون هم الذين أصابوا الطريق السوى ، وعن أبى نضرة ، قال : قرأ أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه « واعلموا أن فيكم رسول الله » إلى قوله « حبب إليكم الإيمان » قال هذا نبيكم يوحى إليه وخيار أئمتكم لو أطاعهم فى كثير من الأمر لعنتوا فكيف بكم اليوم ؟ أخرجه الترمذى وصححه ، وقوله (فضلا من الله ونعمة) أى حبب إليكم الإيمان فضلا الخ مفعول لأجله (والله عليم) بأحوال المؤمنين وما بينهم من التمايز (حكيم) يفضل وينعم بالتوفيق على الافصال (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) فقتلوا (فأصلحوا بينهما) بالنصح والدعاء إلى حكم الله (فان بفت إحداهما على الأخرى) تعدت عليها (فقتلوا) التى تبني حتى تقىء إلى أمر الله) ترجع إلى حكمه ، أو ما أمر به (فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل) بفصل ما بينهما على ما حكم الله (وأقسطوا) وأعدلوا فى كل الامور (إن الله يحب المقسطين) يحمد فعلهم بحسن الجزاء ، نزلت فى قتال حدث بين الأوس والخزرج فى عهد رسول الله ﷺ بالسيف والتعال ، ولما نزلت قرأها صلى الله عليه وسلم ، فأصلحوا وكف بعضهم عن بعض ، وهذا دلالة انه يجب معاونة من نبى عليه بعد

تقديم التصح والسي في المصالحة ، وأيضا الباغي مؤمن وإذا قبض عن الحرب ترك ، لأنه فاه إلى أمر الله
(إنما المؤمنون إخوة) لأنهم منسبون إلى أصل واحد وهو الإيمان الموجب للحياة الأبدية (فأصلحوا بين
أخويكم) إذا اختلفا واقتتلا ، ذلك ان الإيمان قد عقد الاخوة بين المؤمنين ، فهي كأخوة النسب أو أحق
وقد جرت العادة أنه اذا حصل مثل ذلك بين الأخوين في النسب فانهم يجتهدون في رفعه بالصلح ، فالأخوة
في الدين أحق بذلك ووضع الظاهر موضع المضمرة في أخويكم مضافا إلى الأمورين للبالغ في التقرير والتخصيص
(واقفوا الله) في مخالفة حكمه والاهمال فيه (لعلمكم تزجون) على تقواكم (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر
قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن) أي لا يسخر بعض
المؤمنين والمؤمنات من بعض ، إذ قد يكون المسخور منه خيرا عند الله من السائر ، والقوم مختص بالرجال
وهو جمع قوم كزائر وزور ، ويقال أيضا انه مصدر نعت به فتشاع في الجمع (ولا تلهوا أنفسكم) أي ولا يعب
بعضكم بعضا ، فإن المؤمنين كنفس واحدة ، ويصح أن يقال ولا تلهوا ما تلهون به ومن فعل ذلك فكأنما
لمز نفسه ، والزلزاعن باللسان (ولا تنازروا بالألقاب) ولا يدع بعضكم بعضا بلقب السوء ، فإن التبرع بلبق
السوء عرفا (بش الاسم الفسوق بعد الإيمان) الاسم هنا الذكر من قولهم طاراسمه في الناس بالكرم ،
أو بالوهم ، أي بش الذكر المرتفع للمؤمنين أن يذكروا بالفسوق بعد دخولهم الإيمان واشتجارهم به . يقال ان
الآية نزلت في صفة بنت حبي رضي الله عنها أنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : ان النساء يقطن لى
« يهودية بنت يهوديين » . فقال لها : هلا قلت ان أبى هارون وعمى موسى وزوجى محمد (ومن لم يقب)
عما نهى عنه (فأولئك هم الظالمون) حيث وضعوا العصيان موضع الطاعة (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا
كثيرا من الظن) كونوا منه على جانب ، فليتأمل المؤمن وليحفظ حتى يعلم أمن الأمور العملية ذلك الظن
فيجب اتباعه ؟ أم من حسن الظن بالله فكذلك ؟ أم في الأليات والنبوت حيث يخالفه الدليل القاطع ؟
فيحرم اتباعه ، أم هو ظن سوء بالمؤمنين فكذلك ؟ أم هو في الأمور المعاشية فيباح (إن بعض الظن إثم)
أي ذنب كالثالث والرابع فيما تقدم (ولا تجسسوا) ولا تبحثوا عن عورات المسلمين من الجسس ، وفيه معنى الطلب
كالتجسس ، وفي قراءة بالخاء من الحسن الذي هو أثر الجسس ، كما يقال للجواس الجواس . وفي الحديث :
« لا تتبعوا عورات المسلمين فإن من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته » يروى
أن سلمان الفارسي كان مع رجلين موسرين وهم مسافرون للجهاد ، فقالا له يوما : انطلق فاطلب لنا طعاما
فانطلق إلى أسامة بن زيد بأمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو خازن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يجد
عنده طعاما ، فأخبرهما ، ثم أرسلاه إلى طائفة من الصحابة فلم يجد ، فأخذا يتجسسان هل عند أسامة
ما أمر لهما رسول الله ﷺ فلما جاء إلى رسول الله ﷺ قال : مالي أرى خضرة اللحم في أفواهكما
قالا والله يارسول الله ما تناولنا يوما لحما . فقال : ظلتما تأكلان لحم سلمان وأسامة فنزلت هذه الآية (ولا
يقب بعضكم بعضا) ولا يذكر بعضكم بعضا بالسوء في غيبته ، والغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه ، فإن كان
فيه فقد اغتبتة ، وإن لم يكن فيه فقد بهته (أيحبه أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا) هذا تمثيل وتصوير
لما يناله المغتاب من عرض أخيه على أخص وجه ، والمبالغة في الآية ظاهرة في الاستفهام التقريرى واسناد
الفعل إلى أحدكم ، وجعل المأكل لحمه أنا وهذا الأخ ميت ، وعن قتادة : « كما تكره ان وجدت جيفة
مدودة أن تأكل منها كذلك فأكراه لحم أخيك وهو حي » (فكرهتموه) أي ان صح ذلك وعرض عليكم
هذا فقد كرهتموه ، ولا يمكنكم إنكار كراهته (واقفوا الله) بترك ما أمرم باجتنابه ، والتدم على ما وجد منكم
منه ، فاذا اتقيتم تقبل الله توبتكم ، وأنتم عليكم ثواب المؤمنين الثائبين (إن الله تواب رحيم) يا أيها
الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى من آدم وحواء فكيف يفتاب بعضكم بعضا ؟ وكيف يسخر بعضكم من

بعض وتنازرون الخ (وجعلناكم شعوبا وقبائل) الشعب الجع العظيم المنتسبون إلى أصل واحد ، وهو يجمع القبائل والقبيلة تجمع العماثر ، فالبطون ، فالأنفاذ ، فالفضائل . نفريمة شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة وقصى بطن ، وهاشم نخذ ، وعباس فصيلة (لتعارفوا) ليعرف بعضكم بعضا لا للتفاخر ولا للحرب واللمز والنز والسخرية ، وظن السوء بالأخ في الدين (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فبالتقوى من العلم والأخلاق والأعمال الشريفة تنفاضل النفوس بالأنسب ، فمن أراد الشرف فليتمسه منها . قال عليه الصلاة والسلام : « من سره أن يكون أكرم الناس فليتنق الله » . وقال عليه الصلاة والسلام : « يا أيها الناس إنما الناس رجلان : مؤمن تقي كريم على الله ، وفاجر شقي هين على الله » . (إن الله عليم) كرم القلوب وتقواها (خير) بيوأطنكم * روى أن نرا من بني أسد قدموا المدينة في سنة جدية ، وأظهروا الشهادتين ، وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أتيناك بالأقتال والعيال ، ولم نقاتك كما قاتلك بنوفلان ، بر بدون الصدقة ويمنون ، قتل : (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا) إذ الإيمان تصديق مع ثقة وطمأنينة قلب ولم يحصل لكم والالما منتم على الرسول بالاسلام وترك المقاتلة (ولكن قولوا أسلمنا) فإن الاسلام اتياد ودخول في السلم ، وإظهار الشهادتين ، وترك المحاربة يشعر به (ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) أى ولكن قولوا أسلمنا ، والحال انه لم توطئ قلوبكم ألسنتكم بعد . (وان تطيعوا الله ورسوله) بالاخلاص وترك النفاق (لا يلبسكم من أعمالكم) لا ينقصكم من أجورها (شيثا) يقال لات يلبث اذا نقص (إن الله غفور) لما فرط من المطيعين (رحيم) بالفضل عليهم (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) لم يشكوا ، يقال رابه فارتاب (وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله) في طاعته ، والمجاهدة بقسميها تصلح للعبادات المالية والبدنية (أولئك هم الصادقون) الذين صدقوا في إيمانهم (قل أنعمون الله بدينكم) أى أنجبونه بقولكم آمنا (والله يعلم مافى السموات ومافى الأرض والله بكل شىء عليم) لا يخفى عليه خافية (يمنون عليك أن أسلموا) أى يعدون اسلامهم عليك منه وهى النعمة الثقيلة من المن (قل لا تمنوا على اسلامكم) أى باسلامكم منصوب على نزع الخافض (بل الله بمنّ عليكم أن هداكم للإيمان) على ما زعمتم مع ان الهداية لا تستلزم الاهتداء (إن كنتم صادقين) فى ادعاء الإيمان فله المنة عليكم ، وهذه الجملة جواب ان (إن الله يعلم غيب السموات والأرض) ما غاب فيهما (والله بصير بما تعملون) فى سرهم واعلانكم ، فكيف يخفى مافى ضمائرهم . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثالث من السورة والحمد لله رب العالمين .

خاتمة فى مباحث هذه السورة

مباحث هذه السورة قسمان : قسم بين النبي ﷺ والأمة ، وقسم يخص الأمة ، والثانى إما تحلية بترك الرذائل ، وإما تحلية بالفضائل ، والقسم الأول هو : —

- (١) لا يقدم المؤمنون على أمر من الامور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة .
- (٢) التهيّب والاجلال له .
- (٣) لا يتجاوز صوتهم صوته .
- (٤) تكون أصواتهم أخفض من صوته دلالة على الترحيب ومراعاة للأدب .
- (٥) لا يخاطبون باسمه وكنيته كما يخاطب بعضهم بعضا ، بل يخاطبونه بالنبي والرسول .
- (٦) من خفضوا أصواتهم عند رسول الله ، كما كان يفعل عمر وأبو بكر وثابت رضى الله عنهم ، امتحن قلوبهم للتقوى وخلعت بالاختبار كما يمتحن الذهب بالنار ليخرج خالصه .

(٧) بنو العنبر الذين نادوه من وراء الحجرات ، وهكذا عيينة بن حصن ومن معه من وفد بني تميم إذ قالوا وقت الظهر وهو راقد : يا محمد اخرج إلينا أكثرهم لا يعقلون .

(٨) الصبر خير لهم حتى تخرج وتكلمهم .

(٩) ذمّ للمنّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإيمان ، وأنّ المنّ إنما يكون لله إذ هداهم إلى الإيمان إن صحت لهم الهداية .

وهذه المسائل التسع فتح باب المعاملة ذوى العلم وخفض الصوت عندهم ، واحترامهم لشيخوخة العلم والفضلاء في الإسلام .

القسم الثاني في التخلية بترك الرذائل

(١) لا نسمع كلام الفاسق بل نثبت لتظهر الحقيقة وإلا وقعنا في فتنة جهلا ، وندمنا غما .

(٢) تقبل كلام العدل ، وهو يوجب الفان لا اليقين .

(٣) إذا اجتمعت طائفة لهم قوة ومنعة ، فامتنعوا عن طاعة الامام العادل بتأويل محتمل ، ونصبوا

لهم إماما ، فالحكم فيهم أن يبعث إليهم الامام ويدعوهم إلى طاعته ، فإن أظهروا مظلة أزالها

عنهم ، وإن لم يذكروا مظلة وأصرّوا على البني قاتلهم الامام حتى يفيثوا إلى طاعته ، ثم إن

هؤلاء لا يتبع مدبرهم ، ولا يقتل أسيرهم ، ولا يذف على جريحهم ، أى لا يجهز عليه . وأتى على

عليه السلام يوم صفين بأسير ، فقال : « لا أقتك صبرا إني أخاف الله رب العالمين » ثم انه

لاضمان في نفس أموال على إحدى الطائفتين ، فأما اذا كان البغاة فشة قليلة لامنعة لها ، أولم

يكن لهم تأويل ، أولم ينصبوا إماما ، فلا يتعرض لهم اذالم ينصبوا قتالا ولم يتعرضوا للمسلمين ، فإن

فعلوا ذلك فهم كقطع الطريق في الحكم . هذا ملخص ما جاء عن الأئمة في قتال الباغيين .

أما الآية التي نحن بسددها ، فالكلام عليها أعم ، فليصلح المسلمون بين المتقاتلين قلوبا أو كثرها

فإن بقت إحدى الطائفتين ، فلتقاتل الباغية ، ومتى قامت فليكن الصلح بالعدل .

(٤) العدل في كل الامور .

(٥) شقّ الله المسلمين وحضهم على المصلح بين اخوانهم ، وحبب إليهم ذلك بذكر الاخوة وتكرارها

(٦) تقوى الله وعدم مخالفة أحكامه ليرجعهم بتلك التقوى .

(٧) ترك السخرية ، فلا يسخر رجل برجل ، ولا امرأة بامرأة .

(٨) ربما يكون المسخور منه خيرا من الساخر ، كما كان الأنبياء ؛ سخر منهم الجهال ثم يعلنهم كما

حصل لنوح عليه السلام : « إن تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون » .

(٩) لا يكن لزم من المؤمن للمؤمن ، وهو الطعن والضرب باللسان ، واذا عاب المؤمن المؤمن فكأنما

عاب نفسه ، واذا فعل الانسان ما يستحقّ به الجز بأن عرّض نفسه لذلك ، بسبب الوقوف مواقف

التهم مثلا ، فكأنما لزم نفسه وعابها ، وأيضا اذا عاب الانسان غيره كان ذلك حاملا لذلك على

عيبه فكأنه عاب نفسه .

(١٠) لا يكن تنازير بالألقاب ، فاذا عمل الرجل سيئات ثم تاب عنها ، فإن الله نهى أن يعير بما سلف

من عمله ، وأيضا لا يقول المؤمن لأخيه : يا فاسق ، يا منافق ، يا كافر ، يا جاحل ، يا خنزير ،

وهكذا كل ما يكرهه للنادى به ، أو يفيد ذمّ له ، فأما الألقاب التي صارت كالأعلام : كالأعمش ،

والأعرج ، فلا بأس بها .

(١١) النهى عن ظن السوء بالمسلم مع التكلم به كما قال سفيان وغيره لم يقيد بذلك ، وعن سوء الظن بالله .

(١٢) لا يبحث المسلم عن العيوب المستورة ، ولا يتبع عورات الناس ، حتى لا يظهر ماستره الله . يقال : « نظر ابن عمر يوما إلى الكعبة ، فقال : ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك » .

(١٣) لا يذكر بعض المؤمنين بعضا بالسوء في غيبته ، روى أن عائشة ، قالت : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم : حسبك من صفة كذا وكذا : أى قصيرة . فقال : لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته ، أى خالطته مخالطة يتغير بها طعمه وريحه ، لشدة نيتها وقبحها . وقال ميمون بن سيار : بينا أنا نائم إذا بجيفة زنجي وقائل يقول : كل يا عبد الله . قلت : وما آكل ؟ قال : كل بما اغتبت عبد فلان . قلت : والله ما ذكرت فيه خيرا ولا شرا . قال : ولكنك استمعت ورضيت فكان ميمون لا يغتاب أحدا ، ولا يدع أحدا يغتاب أحدا عنده .

(١٤) تقوى الله في أمر الغيبة ، وفي جميع المنهيات .

هذه هي النخيلة عن النقايس المذكورة في هذه السورة ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث : التحلية بالفضائل

(١) إن الناس مخلوقون من ذكر وأنثى ، ثم كانوا شعوبا وقبائل ليتعارفوا ، فيكون الناس على هذا كأغصان الشجرة وأوراقها وأزهارها وأثمارها ، فإنها كلها متصلة متحدة : مجتمع على أصل واحد ، وكما أنه لا فضل لورقة على ورقة في الشجرة ، إلا بما امتازت به ، ولا فضل لزهرة على ورقة ، ولا لثمر على زهرة إلا بما فضلت به الزهرة وفضلت به الثمرة ، هكذا لا فضل لأحد من الناس على آخر إلا بالتقوى ، فالأتقياء كالأزهار والأثمار ، وغيرهم أقل . من ذلك ، يقال إن ثابت بن قيس لم يفسح له رجل في المجلس ، فقال فيه (ابن فلانة) ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : من الذاكر فلانة ؟ قال ثابت : أنبا رسول الله . قال انظر في وجوه القوم ، فنظر ، فقال : ما رأيت يانبا ؟ قال رأيت أبيض وأحمر وأسود . قال : إنك لا تفضلهم إلا بالدين والتقوى ، فنزلت في ثابت هذه الآية ، ونزل في النبي لم يفسح له : « يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس الخ »

(٢) قيل لما كان يوم فتح مكة أمر رسول الله ﷺ بلالا حتى علا على ظهر الكعبة وأذن ، فقال عتاب بن أسيد بن القيس : الحمد لله الذي قبض أبى ولم ير هذا اليوم ، وقال الحرث بن هشام : أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا ، وقال سهل بن عمرو : ان يكره الله شيئا ينبره ، وقال أبو سفيان : لا أقول شيئا ، أخاف أن يخبره رب السماء ، فنزل جبريل فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قالوا ، وسألهم عما قالوا فأقرتوا ، فأرسل الله هذه الآية ، وزجرهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال ، والأزراء بالفقر ، لأنهم متساوون في النسب ، فلا تفاخر لبعض على بعض ، لسكونهم أبناء رجل واحد وامرأة واحدة ، وفي البخارى لما سئل : « أى الناس أكرم ، قال : أكرمهم عند الله أتقاهم ، فلا زالوا يدققون في السؤال حتى قل في العرب : تغيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا أى تعلموا » . وعن ابن عمر أن النبي ﷺ طاف يوم الفتح على راحته يسلم الأركان بمحجته ، فلما خرج لم يجد مناخا ، فنزل على أبدى الرجال ، ثم قام فغلبهم

حمد الله وأثنى عليه ، وقال الحمد لله الذي أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتكبرها ، يا أيها الناس :
 إن الناس رجلان : برّ تقى كريم على الله ، وفاجر شقى هين على الله ، ثم تلا : « يا أيها الناس
 إما خلقناكم من ذكر وأنثى الخ » ، ثم قال : أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .
 قوله المحجن : عصا محنية الرأس كالصولجان ، وقوله عيبة الجاهلية أي كبرها ونفراها اه

تذييل السورة

اعلم أن ترك الرذائل المذكورة مقتم على التحلية بفضائل الائتلاف ، ولذلك قدم في السورة على
 تعارف بني آدم ، فأولنا تعظيم الرسول ، وقبول قوله ، ثم الآداب العتقة بين الناس ، ثم يكون اتحادهم بالتعارف
 وبالبحث والعلم ، وهذا هو المقصود الأعظم . ألا تعجب من هذا المقام ! ألا تعجب كيف يؤذن بلال على ظهر
 الكعبة وأبناء العرب واقفون ! أنظر إلى هذا نجده رمزاً إلى اتحاد نوع الانسان كله كأنه يقول : ليس الاسلام
 كاليهودية ، إن اليهودية جعلت ديننا خاصاً بجنس واحد وهم بنو اسرائيل ، أما دين الاسلام فلا أبيض ولا
 أحر ، ولا عربي ولا عجمي ، بل الناس فيه سواء ، أنظر أيها النكبي للأمم الحاضرة ، أنظر إلى أمريكا التي مدحت
 اتحادها لك سابقاً ، ودمت الأمم الاسلامية الحاضرة لجهلها وتقاطعها ، أنظر أليس البيض هناك يحقرون أن
 يكونوا مع السود في مركبة واحدة في القطار ، ذلك مجرد اللون ، انظر كيف سبقونا في العلم والأخلاق ،
 ولكن لا تزال فيهم تلك النقيصة المزرية ، وهي اعتبار اللون فارقاً ، انظر كيف يؤذن بلال على ظهر الكعبة
 والعرب الذين هم أهلها واقفون ، انظر : ان ذلك ناطق بأن هذا الدين هو الذي سيجمع الأمم جمعاً حقيقياً
 لاجتماعها صناعياً ، فليجد النوع الانساني ، فالأمم الاسلامية التي بعدنا ستفهم هذا ، وستقرأ كل العلوم والصناعات
 وتجد وتحوز الحكمة ، واذن يهودون أهل الأرض . انظر كيف يقول صلى الله عليه وسلم : « خيارهم في
 الجاهلية خيارهم في الاسلام إذا فقهوا » ولم يقيد التفقه بعلم خاص ، يريد إذا علموا كل ما يجب علمه في أحوال
 الدنيا والآخرة ، ولا جرم أن العرب الذين قال الله فيهم ذلك هم نحن أبناء مصر وطرابلس وتونس والجزائر
 ومراكش وسوريا واليمن ونجد والحجاز وحضرموت والبحرين والعراق والموصل والسودان فهؤلاء خيارهم
 في الجاهلية خيارهم في الاسلام على شرط العلم الذي لم يقيد به إلا بعض الفقهاء بلاسقى ، فهل نحن الآن خيار
 الأمم ؟ أقول نعم على شريطة العلم الذي يلزم للأمة في دينها ودنياها ، ولكننا الآن لسنا خيار الأمم ، لأننا
 جهلاء ، والمخرج من هذا الجهل أن يقوم أهل العلم ببحث هذه الأمم المتجاوزة على العلم كما شرحت في سورة
 ﴿ آل عمران ﴾ فيدرسون العلم في المدارس الابتدائية والثانوية والعالية ، واذن يتعارفون ، لأنهم تقاطعوا
 بالجهالة الكتعا . فصاروا أمماً عجمية متفرقة منشاكسة ، فإذا عرفوا وتعلموا جميع العلوم التي درستها أوروبا
 واليابان وأمريكا وزادوا عليها ، ثم اتحدوا مع اخوانهم الترك والفرس والأفغان ، وسائر أمم الاسلام ، فاذن
 يكون خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام ، وهذا الذي أقوله الآن سيكون بعد نشر هذا التفسير وغيره
 وسيعرف أبناء العرب ذلك ، ويعملون به قريباً ، وسيكون قرآء هذا التفسير قاندي تلك الحركة من أمم
 الاسلام . انتهى صباح يوم الجمعة ٢٦ يونيو سنة ١٩٢٥ م



لطائف هذه السورة

اللطفية الأولى

في قوله تعالى : أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى

اعلم أيها الذكي أن هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ، ولم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السورة للطبع :

في هذا الشهر وهو شهر نوفمبر سنة ١٩٣١ منذ أيام كنت سائرا إلى جهة المنيل لمجرد الرياضة حيث النسيم عليل ، والحق جليل ، والدنيا مشرقة ، والنيل جار ، والأشجار مزهورات ، والزروع نضرات ، إذا بامرأة صريضة ، تمشي وهي عرجاء صفراء ، قد ازداد ضعفها ، ونحل جسمها ، فخطر لي أن هذه لا تطلب للزوج ، ولا يرغبها الأزواج ، وما كان أسرع الخاطر إذ ذاك إلى إرخاء العنان ، والخوض في المعمعان ، والعروج إلى طرائف المعاني ، والوصول إلى درجات المعالي .

هنالك هنالك أخذ العقل يقول : الناس جميعا في الأرض يمتحنون ، لا يطلب الرجل امرأة لزوجها إلا بعد أن يأنس بجملها ، ويرتاح لخلها ، ويسره مرآها ، ويروقه مبدؤها ومنتهاها ، نعم هذا نوع من الامتحان ، امتحان في الجمال ، امتحان في الأخلاق ، امتحان في القوة الجسمية والقوى العقلية ، فالمشوهة الخلقية ، والقيحة الوجه ، والسبئية الخلق ، والغيبة العقل ، لا يرغبها أحد من الرجال إذا أيقنوا بذلك ، ولكن النقص فاش ، والظهور على أشكالها تقع ، والكمال درجات .

فيا عجباً لظفرة فائرة ، وخلسة ماضية ، أحضرت علما وحكمة ، وأفادت نورا وفهما . القبح ذكر بالجمال والمرض أذكرنا بالصحة والكمال .

خلال ثلاث يحد في طلبها الانسان : خلة الصحة في الجسم ، وخلة انظام الخلق ، وخلة الكمال في تفكير العقل . هذه هي الخلال الثلاث الالتي قدمنها في (سورة الفتح) وكانت من آيات الله في زماننا ، إذ كانت هذه الثلاث هي كما قدمننا الفتح العلي : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » والأخلاق الجبيلة « ويهديك صراطا مستقيما » وينصرك الله نصرا عزيزا . ومن مقدمات هذا قوة الأبدان ، وهذه الثلاثة هي مقاصد العلم في زماننا كما ترجمته لك من أقوال علماء زماننا .

أفلا تنجب الآن ! ترى الله يقول لنا في هذه السورة : « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » ولا جرم أن هذا الامتحان يرجع إلى علم الأخلاق من حيث تطبيقه عملا وهو إحدى الدعائم الثلاث ، إذن دعائم الحياة الثلاثة هو ذا الامتحان حصل في أحدها ، فالله امتحن قلوب طائفة زمن النبوة ، ولا جرم أن امتحان القلوب أعمض من امتحان الأجسام . الحياة كلها امتحان ، امتحن الله قلوب بعض المؤمنين بالتقوى ليعلمنا الامتحان في الأعمدة الثلاثة ، لأنه إذا امتحن فيما أعمض ، فالامتحان فيما هو أسهل من باب أولى . وصرح بالامتحان في سورة أخرى سماها باسم « المتحنة » فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فان علمتموهن مؤمنات فلا تزجوهن إلى الكفار لانهن حلن لهم ولا هم يحلون لهن » إذن الله امتحن قلوب قوم بالتقوى ، وأمرنا يوما ما أن نمتحن النساء المهاجرات فالأعلم يمتحن من هو دورنه ، والرجل أعلم من المرأة ، فهو يمتحنها فيعلم إيمانها .

كل هذه الأوليات الدينية تفتح لنا أبواب الامتحان ، فلنمتحن كل شيء في هذه الدنيا ، وإذا امتحنا عقل الانسان فامتحن جسمه وأخلاقه وامتحان كل صغير وكبير في هذا الوجود من باب أولى ، ومن ترك

الاختبار والامتحان ، وعاش عائلة على المجموع لم يفكر وهو يتحمل على تفكير غيره وامتحانه فأنما هو طفل
يقوم برية المحسنون .

يمتحن الطيب المريض إما بحس نبضه بحاسة اللمس ، وإما بسمع عدد الضربات ، وشدة رضعها
بسمعه ، وإما بمشاهدة البول في القارورة بحاسة بصره ، وبمشاهدة لسانه أنظف أم عليه طبقة نغشيه ،
هكذا علينا أن نمتحن ما نبشر من أعمالنا من جميع وجوهه ، ومن الطرق المختلفة : من اتكلم على غريزته
فهو أشبه بالحيوان ، والغريزة يجزئها ظاهر الامور ، ألم تر إلى الفرائض يرى النار فيتجه إليها فيحترق ، وإلى
الذباب يقع في العسل فيموت ، هكذا غرائزنا إذا وقفتنا عندها أخذت بنا في أحوالنا وأشد الأزمات ، فنهره
رائع الجمال وغتر به ، أودته جهالته ، وأحاطت به خطيئته ، وقامت بحمله قيامته ، فظواهر الجمال ، لا تفي
عن دقائق الأعمال ، وزخرف الظواهر وزينتها تغتر الجاهلين ، وتفتد بالعاجزين ، وتودى بالعاقبين ، وهالك
جوهره نفيسة ، وزهرة جميلة ، أختتم بها هذا المثل ، وهي ما قرأته في كتاب « مسرات الحياة » للورد أفبيري
للولودسنه (١٨٣١ المتوفى سنة ١٩١٣) تحت عنوان « الرجل الكامل » قال : « ما تلك الصفات التي نتوخاها
في الرجل الكامل في هذه الحياة ؟ وما هي المزايا حتى يتمتع بها العصامي العبقري ويمتاز عن سواه ؟ ثم أجاب
قائلا : هي أولا العقل الرزين المصون ، ثانيا العواطف الشريفة كالمرودة ، والاحسان ، والحب العام ، والكرم
ومكارم الأخلاق ، وثالثا صدق النظر في قضايا العقل والتثبت في أحكامه ، ورابعا قوة بدنية تصون هذه الخلال
وتحفظها من الزوال ، وتساعد على تنفيذها في المجتمع العام ، وإذا لم يكن العقل رزينا صائب الحكم أسرع
في حكمه ، فكان الخطأ حليفه ، والألم نصيبه ، وقد أحاطت به المصيبة ، وإذا لم تكن العواطف نبيلة ،
والأخلاق شريفة ، والنفوس عفيفة ، فإن الانسان يكون عبدا لنفسه ، واقفعا عند حسه ، جاهلا بحب جنسه ،
بعيدا عن الأنس به . وإذا لم يكن الجسم حديديا والأعصاب قوية متينة ، فإن عمله يكون ضئيلا ، ونفعه
قليل ، وحرمانه طويلا ، لا يذكي نارا ، ولا يدفع عارا ، ولا ينفع جارا . وإذا كان القصد نبلا ، والنية حسنة ،
ولكن قوة الحكم عاجزة عن إدراك الحقائق ، متعثرة الأذيال ، غيبية عمياء ، فإن ضررها يكون أكثر من
نفعها ، وخطؤها أكثر من الصواب .

قال تكبري : « نحن نمدح الرجل فنقول هو عبقري ، هو كامل ، كيف يكون هذا الكمال ؟ أيكون
بالشرف ؟ أم يكون بالظرف واللفظ ؟ أم يكون بالشجاعة والاقدام ؟ أم يكون بالعقل ؟ أم يكون باجتماع
هذه الأوصاف كلها فيه ؟ وظهور أثرها على يديه ، بأسلوب تصحبه الرقة واللفظ والشفقة والعطف والحنان ،
إن الرجل الكامل يجمع ذلك كله ويفوقه هو أند من الكبريت الأحمر ، وأعز من بيض الانوق ، هو أبعد
مما نظن . إن الملوك يقدرون أن يعطوا الناس ألقاب الشرف ، وصفات الاعظام والكمال . ولكنهم لن ينسني
لم تمنح نفس الكمال ، فهم يمنحون الأقوال بحسب ، وكل منا ينسني له أن يكون كاملا نبلا متى أردنا » انتهت
ترجمة تلك القطعة من ذلك الكتاب .

فما سمع صاحبي ذلك . قال : هذه القطعة الانجليزية تشبه نظيرتها في « سورة الفتح » وغاية الأمر
انها هناك بجملة وهنا أشبه بتفريع عليها ، ولكن خطرت لي هنا سؤال وهو : اذا كان الامتحان مشروعاً شرعياً
الله وقد أمر المسلمين وقتاً ما أن يمتحنوا المهاجرات في حال خاصة ، وهو نفسه امتحن قلوب رجال للتقوى
أفلا نفكر نحن في المسألة المشهورة الاجتماعية ، وهي ان الزوجين يمتحنان عند الزواج ، أمهما صحيفتان أم
مرضان ؟ فقلت : هذا حسن ولكنه بسورة الممتحنة أليق ، فانتظره هناك في تفسيرها إن شاء الله تعالى .
وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » والحمد لله
رب العالمين . كتب صباح يوم الخميس ١٢ نوفمبر سنة ١٩٣١ م

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » إلى قوله : « إن الله عليم خبير » وفي هذه اللطيفة (أربع مقالات : المقالة الأولى) في قوله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بقت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبنى حتى تفيء إلى أمر الله فان قامت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المتسطين » إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون »

يأمر الله المسلمين أن يصلحوا بين أي طائفتين من المسلمين اقتتلوا ، وليكن الصلح بالعدل ، فلا يتعصب لمن كان من غير أمته ، كما لا يجوز للإنسان أن يشهد لأبيه ، أو أخيه ، أو لفتى ، أو لفقير الخ كما تقدم في (سورة النساء) .

فاذا بقت طائفة ولم تقبل الصلح فليقاتلها المسلمون ، ومتى رجعت الباغية فليكن الصلح بالعدل ، ولم يقتصر على الصلح بين المسلمين ، بل جعلهم إخوة ، ثم أمر المسلمين بالتقوى ، وهذا يعقبه الرحمة العامة ، والرحمة هنا في الأرض الأمن والسعادة ، والعز والسود ، وعظمة الأمم الاسلامية ،

هذه يارب أوامرك ، ولقد علمنا علما يقينا أن نبينا صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين كانوا على هذه الشريطة ، ولكن الخلفاء الأمويون والعباسيون لم يتقوا الله في أمر الخلافة وان كانوا في حكم الرعية غالبا عادلين . عصى المسلمون أمر الله وتعصبوا لقبائلهم وأنسبهم . لم يرض عمر رضى الله عنه أن تساق الخلافة إلى ابنه عبدالله بن عمر ، لماذا ؟ لأن الأمر شورى بين المسلمين ، أما ان يأتي خليفة فيقول : إن الخلافة لابني فهنا ليس له ، بل هو حرام عليه ، لأن المسلمين ليسوا قطع غنم يورثون ، فأين الشورى ؟ وأن آية : « وان طائفتان الخ » وآية : « إنما المؤمنون إخوة » ؟ ولقد جاء في كتاب « تاريخ المتمدن الاسلامي » في صفحة ١٠٦ وما بعدها من الجزء الرابع ما يأتي :

« ظهر بنو أمية وتسلطوا واستبدوا ، وآل علي بن أبي طالب يطالبون بالخلافة ، ويسعون في إدراكها ، وأول من طلبها بعد علي ابنه الحسن ، ثم تنازل عنها لمعاوية سنة ٤١ هجرية ، ففضب أشياخ العلويين في الكوفة من تنازله وهاجوا ، وأمير الكوفة يومئذ زياد بن أبيه الداعية الشهير ، فشدد في اتحاد الثورة ، وقتل جماعة من أشياخ علي ، فيهم حجر بن عدى وأصحابه ، فتربص العلويون ينتظرون موت معاوية لعل انتخاب الأمة يقع على واحد من أبناء علي فترجع الخلافة إلى أهل البيت ، ولم يخطر لهم أن يبايع معاوية لابنه ، فلما علموا ببيعة تموا عليه ، وزادهم نقمة ما علموه من تهتكه وقصفه ، واشتغاله بالصيد عن أمور الخلافة . ومن قول عبد الله بن هشام السلولي في ذلك :

خشبنا الفيظ حتى لو شربنا * دماء بني أمية ما روينا

لقد ضاعت رصيتكم وأنتم * تصيدون الأراب غافلينا (١)

وكان أوجه العلويين يومئذ الحسين بن علي ، فلما مات معاوية سنة ٦٠ هجرية وتولى ابنه يزيد أبي الحسين أن يبايعه ، على أن أكثر الذين بايعوه من أهل التقوى عدوا ببعثهم خرقا لحرمة الدين (٢) وكان الحسين في المدينة ، فلما طلبوا منه أن يبايع يزيد فر إلى مكة وأكثر شيمته في الكوفة ، فكتبوا إليه وحرصوه على القدوم إليهم لينصروه ، فأطاعهم ، ولما اقترب من الكوفة قعدوا عن نصرته ، وبعث إليه أمير الكوفة يومئذ عبيد الله بن زياد جندا حاربه ، فدافع عن نفسه وأهله حتى قتل قتلته المشهورة في

كربلاء يوم عاشوراء من سنة ٦١ هجرية ، ثم ندم الشيعة على قعودهم عن مناصرتهم ، فخرجوا بعد وفاة يزيد ويعة مروان بن الحكم سنة ٦٤ هجرية يطالبون بدمه ، وسموا أنفسهم « التوابين » وأمير الكوفة لا يزال عبيد الله بن زياد فأخرجوه منها ، ولولا عليهم رجلا منهم ، فقتل ابن زياد عليه ، فنهض المختار بن أبي عبيد الثقفي ، وهو من جلة الذين طمعوا بالسيادة لابتزاز الأموال في أثناء تلك الفوضى واختلال الأحوال ، وكان المختار على الهمة ، جاء الكوفة يطالب بدم الحسين ، ويدعو إلى بيعة محمد بن الحنفية أخى الحسين من أبيه ، فتبعه على ذلك جماعة من الشيعة سماهم « شرطة الله » وزحف على ابن زياد فهزمه وقتله ، وقتل أكثر قتلة الحسين ، ولكن محمد بن الحنفية لم يكن راضيا بتلك الدعوة ، فبعث إلى المختار يتبرأ منه ، فقول المختار دعوتيه إلى عبد الله بن الزبير ، وكان عبد الله قد نهض عند نهوض الحسين ، لأن أباه الزبير بن العوام كان من جلة الطامعين بالخلافة بعد مقتل عثمان كما تقدم ، وأقام عبد الله في مكة يدعو إلى نفسه ، على أن المختار لم يخلص النية في دعوتيه لأحد ، لأنه إنما كان يريد لها لنفسه ، فلما علم ابن الزبير بفرضه بعث أخاه مصعبا على العراق فحارب المختار وقتله سنة ٦٧ هجرية . أما الشيعة العلوية فانقسمت بعد مقتل الحسين إلى فرقتين : إحداهما تقول ان الحق بالخلافة لولد علي من فاطمة بنت النبي ، والأخرى تقول بتحويلها بعد الحسن والحسين إلى أخيهما محمد بن الحنفية وهي الفرق الكيسانية ، وأكثرهما ظهورا وتصديا للفرقة الأولى ، فبايعوا بعد الحسين ابنه عليا المعروف بزین العابدين ، وتسلسلت الخلافة بعده في أعقابها حتى صار الأئمة ١٢ إماما وهم : علي ، والحسن ، والحسين ، وزين العابدين ، ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق ، وموسى الكاظم ، وعلي الرضا ، ومحمد التقي ، وعلي النقي ، وحسن العسكري ، ومحمد المهدي . وتفرع من الشيعة العلوية أيضا فرق أخرى بايعت غير واحد من أعقاب علي كالزيدية نسبة إلى زيد بن علي بن الحسين ، والاسماعيلية نسبة إلى اسماعيل بن جعفر الصادق ، وفرق أخرى لا محل لتذكرها . وكان بنو أمية إذا سمعوا بظهور أحد دعاة العلوية بذلوا جهدهم في قتله ، فقتلوا بعضهم وسموا البعض الآخر ، وصلبوا آخرين فأصبح دعاة الشيعة يفترون خوف الفتك بهم ، فلاقى العلويون في أيام بني أمية ضنكا شديدا ، وكادوا يهلكون جوعا ، وأصبح هم أحدهم قوت عياله ، حتى تولى خالد القسري عامل بني أمية المتوفى سنة ١٢٦ هجرية ، فأعطاهم الأموال ورفق بهم ، فعادوا إلى طلب الخلافة (١) وخالد هذا غريب الأخلاق ، فمع كونه من عمال بني أمية ، فقد كان ينصر العلويين ، ويستعمل أهل الذمة كما تقدم . انتهى ما أردته من كتاب « تاريخ المختار الاسلامي » والحمد لله رب العالمين .

هذه حال المسلمين بعد العصر الأول ، فأين الصلح ، وأين الحق ، وأين الشورى ؟ معاوية أمر الناس بالمبايعة بالخلافة لابنه ، كيف هذا وأين الشورى ! تربص العلويون موت معاوية ، ولهم الحق لأن الأمر شورى ، ولكنه أمر بمبايعة يزيد ، إذن لا شورى ، إذن هو ملك عضوض ، إذن القرآن لم يعملوا به ، ثم هؤلاء الشيعة العلوية بعد مقتل الحسين رضوا الله عنه اختلفوا ، فالكيسانية ساقوها إلى محمد بن الحنفية ، وغيرهم جعلوها في ولد الحسين رضي الله عنه حتى صارت الخلافة إلى محمد المهدي ابن حسن العسكري وهم ١٢ إماما ثم كانت فرقة الاسماعيلية وغيرهم ، وكل طائفة تعتقد أن إمامها معصوم ، وهذا ورب العرش هو الارتباك . هذه أمور لا توافق القرآن ، بل هي اعتقادات أضرت بالمسلمين .

أيها المسلمون : الشورى بينكم والصلح ، أيجوز في ديننا أن نسمع أن طوائف من المسلمين تكفر غيرهم مجرد شبهة ! « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

(١) ابن الأثير ١٢٩ ج ٥

الشيعة العباسية والعلوية

لو كان الأمر شورى بين المسلمين كنص القرآن ، وكفعل أصحاب النبي ﷺ واجماع الصحابة رضوان الله عليهم ، أى لو فعل المسلمون بدليلين يقينين ، وهما نص الكتاب ، ودليل الاجماع ، لم تكن هناك شيعة عباسية وعلوية يطالبان بالملك ، بل كان أولو الرأي يجتمعون ويقررون الخلافة لمن حاز صفاتها ، ولكن المسلمون هربوا من ذلك خيفة ظهور الحقائق ، فالتجأوا إلى العصبية وأبدوها بالسيف .

ظلم بنو أمية العباسيين والعلويين ، وقطعوا رحمتهم ، فإذا جرى بعد ذلك ؟ اتعد الفريقان ، ودبروا المكائد ، لتيل الخلافة سرًا ، وهما معا من بني هاشم أعداء بني أمية من أيام جاهليتهم ، وباع السفاح والمنصور محمد بن عبد الله بن حسن المثنى ابن الحسن بن علي الملقب بالنفس الزكية لتقدمه عليهم في الفضل ، فالأمر إذن شورى بين الرهطين ، وهذا حسن جدا ، سارت دعوة العباسيين في بلاد الفرس وغيرها وسكت العلويون لأن العباسيين بايعوهم ومنهم السفاح والمنصور . وأمر إبراهيم الامام العباسي أبا مسلم الخراساني وهو رئيس شيعتهم أن يقتل كل من يشك فيه ، وقتل مروان بن محمد إبراهيم الامام ، فانتقلت الامامة إلى اخوة الامام المقتول ، والعلويون وأنصارهم لا يعترضون ، لأن عدوهم لا يزال حيا ودولته قائمة ، ولما سقطت دولة الأمويين غدر المنصور بالعلويين ، وقتلهم قتيلا ، ومنهم صاحب البيعة محمد بن عبد الله .

اللهم ليس هؤلاء على سفن القرآن ، استبدت الأمويون بالخلافة ، وتركوا الشورى ، وحاربهم العباسيون ، والأمويون بطاردونهم ، ففازوا ، فيكون الغدر والقتل ، فأين الآية ، وأين الشورى ، وأين القرآن ؟ اللهم إنك عظيم وعلى ، أنت تعلم ضعف أهل هذه الأرض ، وأنهم ضعاف لم يصلوا إلى الكمال ، ولذلك حبستهم في هذه الأرض ، والمجوسون قد اعتادت الحكومات أن ترسل لهم قوما يعظونهم في السجون ، ولكن تغلب عليهم طباعهم ، فهؤلاء غلبت عليهم طباعهم ، ورجعوا إلى الجاهلية في الخلافة ، أما في حفظ الدولة فلا

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : هذه أمور عظيمة حدثني بالتفصيل في هذا المقام ، فالاجال لا يفي عن التفصيل . فقلت يا صاح إن أردت إلا الافصاح ، فاسمع ما جاء في الجزء الرابع من كتاب « تاريخ المتمدن الاسلامي » في صفحة ١٠٨ وما بعدها تحت عنوان « الشيعة العباسية » وهذائمه :

« وكان في جملة المطالبين بالخلافة من أقرباء النبي صلى الله عليه وسلم بنو العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ، لكنهم كانوا لا يتصدون لطلبها ، والأمويون في إبان دولتهم ، وانما كانوا يدعون إلى أنفسهم سرًا ، وكان العلويون والعباسيون في أيام ضيقهم واضطهادهم يتقاربون ، لأنهم من بني هاشم ، وكلا الرهطين أعداء بني أمية من قبل الاسلام ، والمضطهدون يتقاربون في أي حال .

وظلّ العباسيون يسترون في دعوتهم وهم مقيمون في الحيمة من أعمال البلقاء بالشام حتى ضعف شان بني أمية ، فهموا بالتهوض ، واتفق في أثناء ذلك أن الفرقة الكيسانية دعاة ابن الحنفية صارت دعوتها بعده إلى ابنه أبي هاشم ، وكان أبو هاشم هذا يفد على خلفاء بني أمية من المدينة إلى الشام فيمرّ في أثناء الطريق بالحيمة ، ففي بعض وفداته على هشام بن عبد الملك آنس هشام منه فصاحة وقوة ورياسة مع علمه بطبوعه في الخلافة ، فنفقه ، ففسس إليه في أثناء رجوعه إلى المدينة رجلا سمه في لبن ، فشر أبو هاشم بالسهم وهو في بعض الطريق ، فخرج إلى الحيمة ، وصاحب الدعوة العباسية يومئذ محمد بن علي بن عبد الله بن عباس فقل عندده ، ولما أحسن بدتو الأجل خاف ضياع البيعة وهو بعيد عن أهله ، فأوصى إلى محمد المذكور بالخلافة بعده ، وكان معه جماعة من شيعته سلمهم إليه وأوصاه بهم ، فلما مات أبو هاشم تهوس محمد بالخلافة وأيقن بالنجاح ، لأنه اكتسب حزب الكيسانية جميعا ، فأخذ في بثّ الدعاة سرًا ، ثم توفي وقد أوصى

بالخلافة بعده إلى ابنه إبراهيم وعرف بالامام ، فأخذ إبراهيم الامام في بثّ دعائه ، وبدأ بخراسان لوثوقه بأهلها أكثر من سائر أهل الأمصار ، ولأن الشيعة الكيسانية أكثرهم في خراسان والعراق وقد نصرها العلويين سراراً ، فبعث إليهم دعاة الكيسانية الذين كانوا مع أبي هاشم وأوصاهم أن يطلبوا بيعة الناس باسم « آل محمد » أي أهل النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يعين العلويين ولا العباسيين ، وكان الخراسانيون قد ملوا الدولة الأموية ، فهان عليهم أن يبايعوا آل محمد ، وهم يحسبون الأمر يكون مشتركاً بين العباسيين والعلويين ، وتوفى إبراهيم الامام في أثناء ذلك إلى أبي مسلم الخراساني القائد الجليل فأنتم أمرهم وسلم لهم الدولة كما هو مشهور .

بيعة المنصور للعلوية ونكثه

وكان بنو هاشم العلويون والعباسيون لما رأوا اختلال أمر بني أمية اجتمعوا بمكة وفيهم أعيان بني هاشم علويهم وعباسيهم ، وتداولوا في قرب انحلال دولة الأمويين ، وفي من يخلفهم من آل البيت ، وكان في جملة الخصور أبو العباس السفاح وأخوه عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس وهو أبو جعفر المنصور وغيرهما من آل العباس ، فأجمع رأيهم على مبايعة أوجه العلويين يومئذ وهو محمد بن عبدالله بن حسن المثنى ابن الحسن ابن علي الملقب بالنفس الزكية ، فبايعوه لتقدمه فيهم ، ولما علموه له من الفضل عليهم ، وبايعه أبو جعفر المنصور في جلنتهم (١) ولعل هذه المبايعة هي التي أسكنت العلويين عن طلب الخلافة في أثناء انتشار دعاة العباسيين في طلبها كأنهم انفقوا أن تكون الخلافة مشتركة في أهل البيت ، لأن العباسيين كانوا يطلبون بيعة الناس باسم « آل محمد » وليس باسم الامام إبراهيم أو غيره من بني العباس .

أما دعاة الشيعة العلوية الذين كانوا يدعون للعلويين في العراق وفارس وخراسان قبل انتقال البيعة إلى العباسيين فقد رضوا بذلك الانتقال غير متحيزين ، وفي جلنتهم أبو سلمة الخلال المثري الفارسي الشهير ، وكان يقيم في حمام أعين بضواحي الكوفة ، وكان شديد التمسك بدعوة العلويين ، وقد بذل ماله وجاهه في سبيل نشرها ، فلما سمع بانتقال البيعة إلى بني العباس كظم وتر بص يرى ما يقول الناس ، ثم علم أن إبراهيم الامام عين أبا مسلم وأرسله إلى خراسان معه الوصية المشهورة « من اتهمته فاقبله » ، وقد أطاعه النقباء فأطاعه أبو سلمة في جلنتهم ، وهو يتوقع أن تكون البيعة شورى بين الشيعتين (٢) ولما بلغه أن مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية قتل إبراهيم الامام أضمر الرجوع إلى الدعوة العلوية (٣) ثم جاءه اخوة الامام ، وفيهم أبو العباس السفاح وأخوته وسائر أهل بيته ، وقد انتقلت البيعة إلى أبي العباس المذكور ، فأثرتهم أبو سلمة عنده ، ورأى نفسه عاجزاً عن نقل البيعة ، فسكت ، فبقيت لآل العباس ، وكان أبو مسلم وسائر النقباء والقواديجار بنو عساكر الأمويين في خراسان وفارس والعراق ، فلما غلبوهم وملكوا خراسان وما يليها جاءوا العراق وبايعوا أبا العباس ، فسكت العلويون خوفاً على أنفسهم من ذلك التيار العظيم ، وهم يتوقعون مع ذلك أن تكون الخلافة شورى بين الرهطين ، وعلم العباسيون بما كان يضمه أبو سلمة من نقل الخلافة إلى العلويين ، فشكوه إلى أبي مسلم سرّاً ، فندس إليه رجلاً قتل بالكوفة غيلة ، وأشاعوا أن بعض الخوارج قتلوه ، وقد قتلوا كثيرين غيره ممن شكوا في إخلاصهم حتى تم الأمر لهم .

أما آل الحسن بن علي الذين كانوا قد بايعوا أحدهم محمد بن عبدالله في المدينة ، وبايعه معهم سائر بني هاشم ، ومنهم أبو جعفر المنصور ، فلما علموا بذهاب دولة بني أمية ومبايعة أبي العباس السفاح سنة ١٣٢ جاءوا إليه

(١) ابن خلدون ٣ ج ٤ ولبن الأثير ٢٤٣ ج ٥ والفخرى ١٤٧

(٢) الترحج بعد الشدة ١٢٠ ج ٢ (٣) المسعودي ١٥٠ ج ٢

في الكوفة يطالبونه ببيعتهم ، فاسترضاهم أبو العباس بالأموال ، وقطع لهم القطناع ، وكان في جلة القادمين إليه عبد الله بن الحسن والد صاحب البيعة ، فأكرم السفاح وقادته ، وعرض عليه ما يرضاه من المال ، وقال له : احتكم عليّ ، فقال عبد الله بألف درهم فاني لم أرها قط ، ولم يكن هذا المال موجودا عند السفاح ، فاستقرضه له من رجل صيرني اسمه ابن أبي مقرن ودفعه إليه ، واتفق وعبد الله المذكور عند السفاح أن بعض الناس جاءه بالجواهر التي كانت عساكر العباسيين قد اغتتمتها من مروان بن محمد ، فجعل السفاح يقبل الجواهر بين يديه وعبد الله ينظر إليها ويبيكي ، فسأله عن السبب ، فقال : « هذا عند بنات مروان ، ومارأت بنات عمك مثله قط » فجاب به ، ثم أمر الصيرفي أن يبتاعه منه ، فابتاعه بثمانين ألف دينار (نحو مليون درهم) وأمر أبو العباس بكرام عبد الله وازاله على الرحب والسعة ، وهو يتوجس عما في ضميره ، فبث عليه العيون ، فآنس عنده طمعا ، فزاده عطاء ، فعاد عبد الله إلى المدينة متغلبا بالأموال ، ففرقتها في أهلها ، وكانوا أهل فاقة ، فلما رأوا تلك الأموال سرّوا .

وأما عبد الله فإزال مضرا المطالبة بالخلافة لابنه (١) على ما تمت المبايعة عليه ، والعباسيون يخافون ذلك ، والسفاح يسترضيه وسائر أهل الأموال كما رأيت ، فلما توفي السفاح سنة ١٣٦ هجرية خلفه أخوه أبو جعفر المنصور ، وكان رجلا شديد البطش لا يبالي بما يرتكبه في سبيل تأييد سلطانه ، فسكن همه قبل كل شيء أن يتحقق ما في نفس بني الحسن في المدينة ، لأن لهم في عنقه بيعة ، فبث عليهم العيون ، وأراد اختبارهم ، فبث بعطاء أهل المدينة على جاري العادة من قبل ، وكتب إلى عامله فيها : « أعط الناس في أيديهم ولا تبعث إلى أحد بعطائه ، وتفقد بني هاشم ومن تخلف منهم عن الحضور ، وتحفظ بمحمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن » ففعل العامل ذلك ، فلم يتخلف عن العطاء إلا محمد وإبراهيم المذكوران ، فسكتب إليه بذلك ، فتحقق المنصور أنهما بنو بيان القيام عليه وقد سكتا في أثناء خلافة أخيه ، لأنه كان يكرهما ، ويفدق الأموال عليهما ، والمنصور لا يرى ذلك ، فلما رأوا تضييقه عزموا على الخروج ، فبثوا الدعاء في خراسان وغيرها يدعون شيعتهم إلى بيعتهم ، فلم أبو جعفر بذلك ، فبث من يقبض على كتبهم في الطريق واحتال في استطلاع أسرارهم ، وأراد استقدام ابني عبد الله ، وكتب إليه يستقدمه بهما ، فأنكر عبد الله أنه يعرف مقرهما ، فأصبح هم المنصور التخلص منهما ومن سائر طلاب الخلافة من العلويين ، وخصوصا بني الحسن وهم يقيمون في المدينة ، فبث إلى عامله فيها أن يقبض عليهم جميعا ، ثم أمره أن ينقلهم إلى العراق فنقلهم وهم مثلون بالقيود ، والأغلال في أرجلهم وأعناقهم ، وقد حملهم على حامل بغير وطاء ولكن ليس فيهم محمد ولا إبراهيم ابنا عبد الله لاستقرارهما ، فإمروا ببني الحسن وعندهم بضعة عشرة رجلا ، فأمر المنصور بقتلهم فقتلوا إلا بضعة قليلة . أما محمد بن عبد الله صاحب البيعة ، فلم يقع في الفخ ، فبث المنصور إلى عامله في المدينة يشتد في طلبه ، فلم ير محمد بدا من القيام ، فظهر بالدعوة ، فبايعه أهل المدينة بعد أن استفتوا إمامهم مالك بن أنس ، فأفتاهم بالخروج معه . فقالوا : « إن في أعناقنا بيعة لأبي جعفر » . فقال : انكم بايعتموه مكرهين ، وأن بيعة محمد بن عبد الله أصح منها ، لأنها انعقدت قبلها (٢) . وكان أبو حنيفة أيضا على هذا الرأي يقول بفضل محمد هذا ويحتج إلى حقه ، فحفظ لهما المنصور هذا القول ، فنأذت إليهما المحنة بسبب ذلك ، فلما تمكن من محمد وقتله سنة ١٤٥ هجرية أصبح من أكبر المضطهدين لهما فضرب مالكا على الفتيا في طلاق المكروه وحبس أبا حنيفة على القضاء كما هو مشهور . وكان لسكت المنصور ببيعة محمد بن عبد الله تأثير عظيم في أذهان العلويين ، لأنها جاءتهم بغتة ، وكانوا يظنون ذلك لا يسدر من أهل البيت ، كما صدر من بني أمية فتحسروا على أيام بني أمية وتمنوا رجوعها .

(١) العقد المرید ٢٧ ج ٣ (٢) ابن الأثير ٢٥١ ج ٥ وابن خلدون ٣ ج ٤

ذكروا عن محمد بن عبد الله في أثناء قيامه على المنصور أنه سمع شاعرا يرثي بني أمية ، فبكي فقال له
عمه : أتبكي على بني أمية وأنت تريد بيتي العباس ما تريد . فقال له : يا عم لقد كنا نقمنا على بني أمية ما قمنا
فما بنو العباس إلا أقلّ خوفاً لله منهم ، وأن الحجة على بني العباس أوجب منها عليهم ، ولقد كان للقوم أخلاق
ومكارم وفواضل لبست لأبي جعفر (١) .

سياسة العباسيين في تأييد سلطتهم القتل على النعمة

قد رأيت فيما تقدم أن بني العباس قاموا يدعون إلى أنفسهم وهم بين خطرين عظيمين : الأول أن
يجاروا بني أمية ويتغلبوا على أحزابهم . والثاني أن يأمنوا جانب العلويين في مسابقتهم إلى الخلافة . وكانت
الحوادث قد علمتهم أن الدولة لا تقوم بالدين والتقوى فقط كما قامت في عصر الراشدين ، وكما أرادها بنوعلي ،
وأن العلويين إنما هجروا عن نيلها لاعتقادهم في دعوتهم على شرف نسبهم ، وصدق تدينهم ، وأن معاوية لم
يفلب إلا بالدهاء والحيلة ، وأن عبد الملك لم يستطع استبقاها إلا بالفتك وشدة البطش ، فلما انتقلت البيعة
من العلويين إلى العباسيين بمبايعة أبي هاشم بن محمد بن الحنفية لمحمد بن علي العباسي كما تقدم ، ثم أفضت
بعده إلى ابنه إبراهيم الامام ، وتوفى هذا إلى أبي مسلم الخراساني ، ورأى فيه الشدة والدهاء جعله قائدا على
قبائمه ودعائه ، وأوصاه وصية هي محور سياسة العباسيين في تأييد دولتهم هذا نصها :

« انك رجل منا أهل بيت ، احفظ وصيتي ، انظر إلى هذا الخبيث من اليمن ، فالزمهم ، واسكن بين
أظهرهم ، فان الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم ، واتهم ربيعة في أمرهم ، وأما مضر فاتهم العدو القريب الدار
واقتل من شككت فيه ، وإن استطعت أن لا ندع بخراسان من يسلك بالعربية فافعل ، وأما غلام بلغ
خسة أشبار واتهمته فاقتله » (٢)

فخرج أبو مسلم من عند الامام إبراهيم بهذه الوصية ، وقد عمل بها ، وعول عليها ، فكان يقتل كل من
اتهمه ، أو شك فيه ، فبلغ عدد الذين قتلهم في سبيل هذه الدعوة ٦٠٠٠٠٠ نفس قتلوا صبورا (٣) بدون
حرب في بضعة سنين ، وفي جانبهم جماعة من كبار الشيعة ، وفيهم غير واحد من جلة النقباء وكبار الدعاة كأبي
سلمة الخلال الذي نصر الدعوة العباسية بماله كما نصرها أبو مسلم بسيفه ، وكان يقال له وزير آل محمد كما يقال
لأبي مسلم أمير آل محمد ، فالحال استشار السفاح أبا مسلم بشأنه ، واتهمه بنقل الخلافة إلى العلويين أشار أبو مسلم
بقتله ، وقتلوا عماله على الأطراف ، وفصل نحو ذلك أيضا بسليمان بن كثير ، وهو من أكبر دعاة
السولة العباسية قبله وكان شيخا جليلا يدخر وسعا في نصرة تلك الدعوة ، فبعد قتل أبي سلمة بلغ أبا مسلم
عنه مثل ما بلغه عن أبي سلمة ، فأحضره إليه ، وقال له : « أنحفظ قول الامام لي من اتهمته فاقتله ؟ » قال
نعم ، قال : فاني قد اتهمتك ، نفاق سليمان ، وقال : أنا شددك الله ، قال : لا تناشدني فأنت منطوق على غش
الامام ، وأمر بضرب عنقه (٤) ناهيك بمن قتلهم من غير الشيعة وفيهم الأمراء والقواد ، قتل بعضهم بالحيلة
والبعض الآخر بالفدر ، ومنهم الكرماني وأولاده وكبار رجاله (٥) وغيرهم بشر كثير حتى سئم الناس فعله وملوا
سفك الدماء ، وأصبح المسلمون حتى رجاله لا يدعى أحدهم إلى مقابلته الا أوصى وتكفن وتحنط ، وثار من
ذلك بعض الأمراء من شيعة بني العباس ، وصاح في رجاله : « ما على هذا اتبعنا آل محمد أن تسفك الدماء
وأن يعمل بغير الحق » فتبعه على رأيه أكثر من ٣٠٠٠٠٠ رجل فوجه إليهم أبو مسلم جندا قاتلهم وقتلهم .

- | | | |
|------------------------|------------------------|------------------------|
| (١) الأغاني ١٠٦ ج ١٠ | (٢) ابن الأثير ١٦٥ ج ٥ | (٣) ابن الأثير ٢٢٧ ج ٥ |
| (٤) ابن الأثير ٢٠٨ ج ٥ | (٥) ابن الأثير ١٨٣ ج ٥ | |

المنصور والدولة العباسية

فهذا وأمثاله مهد أبو مسلم الخلافة لبني العباس فساعدهم أولا على إخراجها من بني أمية إلى أهل البيت ولم يكتف ببيعة أبي العباس ، وقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، ولكنه حرضهم على قتل من بقي من بني أمية بالأغراء أو التخويف على السنة الشعراء ، ويقال انه هو الذي أوعز إلى سديف الشاعر مولى بني هاشم أن يقول ذلك الشعر في مجلس السفاح وفيه سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وكان السفاح قد آمنه وأكرمه وأمن سائر بني أمية ، فيقال ان سديفا دخل يوما على السفاح وعنده سليمان بن هشام ، فأشاد سديف قوله :

لا يفرتك ما ترى من رجال * إن تحت الضلوع داء دويا

فضع السيف وارفع السوط حتى * لا ترى فوق ظهرها أمويا

فأثر السفاح ، وأمر سليمان فقتل ، ودخل شاعر آخر ، فقال شعرا آخر ، وكان عند السفاح نحو سبعين من رجال بني أمية ، وقتلهم ، وبسطوا النطوع على جثثهم ، فأكلوا الطعام وهم يسمعون أنين بعضهم حتى ماتوا جميعا (١) . وقيل في كيفية قتلهم غير ذلك ، وأن الذي قتلهم عبد الله بن علي عم السفاح ، وهو مشهور بكرهه لبني أمية ، وشدة قنمته عليهم ، ولكن لا خلاف في أنهم قتلوا غدرا سنة ١٣٣ هـ جرية وهم آمنون كما قتل الأمراء المماليك بمصر في أوائل القرن الماضي . والغالب أن أبا مسلم أوعز إلى العباسيين بقتلهم لئلا يقفوا في سبيل دولتهم ، فأشار إلى سديف أن يجرّهم على ذلك بشعره ، ولم يقل سديف ذلك حبا لبني العباس بل كرها لبني أمية ، وانتقاما لآل علي ، لأنه من الشيعة العلوية ، وهو يظن الخلافة شورى بين الشيعة ، فلما رأى المنصور استقل بها بعد ذلك نعم على العباسيين ، وهجأهم بأشعار بلغ خبرها المنصور فكتب إلى عامله أن يأخذ سديفا فيدفنه حيا ، ففعل (٢) .

وبعد أن قتل العباسيون من كان في قبضتهم من الأمويين عمدوا إلى استئصال شأنتهم من سائر البلاد ولم ينج منهم إلا قليلون ، أهمهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، ففرّ إلى القرب ، وأسس دولة بني أمية بالأندلس كما سيأتي ، وتولى استئصال شأفة الأمويين من بني العباس عبد الله بن علي ، فبالغ في ذلك حتى نبش قبورهم ، ومثل بجثثهم ، انتقاما لما فعلوه قبلا بالأئمة من آل علي ، وخصوصا زيد بن زين العابدين ، فاستخرج جثة هشام بن عبد الملك من قبره ، وهو لم يبل ، فضر به ثمانين سوطا ، ثم أحرقه (٣) .

وبعد أن تخلص المنصور من الأمويين لم يتخرب أبو مسلم وسعا في تخلص الدولة له من أقربائه آل العباس أنفسهم ، وفي جثثهم عبد الله بن علي المتقدم ذكره ، وقد طمع بالخلافة ، فخاربه بأمر المنصور ، وغلبه ، وقبض على ماني عسكره من الفئام والأسلحة ، فأراد المنصور أن يوجه همه إلى بني الحسن منافسيه في الخلافة ، فاشتغل خاطره بأبي مسلم ، وأصبح خائفه على سلطانه بعد ما بلغ إليه من النفوذ والشهرة والدالة ، ولم يكن همه إلا قتله ليتفرغ للعلويين ، فاتفقوا بأنه ينوي إحراج الملك منهم ، فاستحقّ القتل عملا بوصية الامام . وكان المنصور قد خاف أبا مسلم وعزم على قتله من عهد خلافة أخيه أبي العباس ، ولكن أبا العباس لم يرد الأقدام على ذلك ، فلما مات السفاح وخلفه المنصور صمم على قتله ، ولكنه استخدمه في حرب عمه عبدالله بن علي ، فضرب عدويه أحدهما بالآخر ، فأيهما قتل صاحبه انقرد فيسهل على المنصور قتله ، فلما فرغ أبو مسلم من حرب عبدالله بن علي احتال المنصور في استقدامه إليه من خراسان في حديث طويل ، وأدخله عليه دخول الزائر الأمين ، وقد أكن له أناسا بالسلاح وراء السترة ، فأخذ سيفه منه وحادثه ، وتدرّج

(١) الفخرى ١٣٤ والعقد الفريد ٢٧٩ ج ٢ (٢) العقد الفريد ٣٢ ج ٣

(٣) ابن خلكان ٢٠٥ ج ٢

من العتاب إلى التوبيخ حتى إذا أزفت الساعة صفق المنصور ، ففرج السكامنون بأسلحتهم وقتلوه سنة ١٣٧ هجرية ، فأمر به فلفوه بالبساط ، ثم دعا بعض رجال خاصته ، وشاورهم في قتله ، ولم يقل لهم انه قتله ، فقال له أحدهم : « ان كنت قد أخذت من رأسه شعرة فاقتله ثم اقله » فأشار المنصور الى البساط فلما رأى أبا مسلم فيه وتحقق موته قال : « عدّ هذا اليوم أول يوم من خلافتك » (١)

ولما فرغ المنصور من أبي مسلم لبث يتوقع ما يبدو من رجاله الخراسانية لعلهم انه ارتكب بقتله خطرا عظيما فما علم أن ثار عليه جماعة منهم يعرفون بالراوندية وكادوا يفتكون به لولم يدافع عنه معن بن زائدة . فقتل الراوندية جميعا ولكنه أصبح لا يأتين على نفسه من مثل هذه الثورة فبنى مدينة بغداد بشكل حصين يقيه غائلة ذلك عند الحاجة : ثم عمد الى تخليص الخلافة من آل علي فغارب محمد بن عبد الله وقتله . ثم رأى من آل العباس من ينازعه عليها ، منهم عمه عبد الله وكان أبو مسلم قد غلبه ، ولكنه لم يتمكن من قتله فأحتال المنصور في استقدامه بأمان بعث اليه مع ولديه بغاه فخبسه عنده . ثم علم سرا ان ابن عمه عيسى بن موسى ينوي الخروج عن طاعته ، وكان واليا على الكوفة . فتجاهل وبعث اليه ، وقد دبر أمرا كتبه عن رجال بطائه : فلما جاء عيسى استقبله المنصور بالترحاب والاكرام ثم أخرج من مكان في حضرته من الحاشية واستبقاه وحده وأقبل عليه . وقال : « يا ابن العم إلى مطلعك على أمر لا أجد غيرك من أهله ولا أرى سواك مساعدا لي على حل ثقله فهل أنت في موضع ظني بك وعامل ما فيه بقاء نعمتك التي هي منوطة ببقاء ملكي » فقال له عيسى : « أنا عبد أمير المؤمنين ونضى طوع أمره ونهيه » فقال المنصور : « ان عمي وعمك عبد الله قد فسدت بطائته واعتمد على ما بعضه يبيع دمه ، وفي قتله صلاح ملكتنا فخذ اليك واقتله سرا » فأطاعه عيسى فسلم اليه عمه فغضى به الى الكوفة . وأضمر المنصور أن ابن عمه عيسى اذا قتل عمه عبد الله أزمه القصاص وسلمه الى أعمامه إخوة عبد الله ليقتلوه به فيكون قد استراح من الأئيين معا . أما عيسى فكأنه شك في نية المنصور ، والناس يومئذ يتهم بعضهم بعضا خوفا من وصية الامام : فاستشار بعض ذوي مشورته فذخروه من عاقبة ذلك فخبس عمه ولم يقتله . ولما طلبه المنصور منه دفعه اليه حيا فقتله في بيت جعل أساسه على الملح (٢) .

وأمثله ما أتاه المنصور من الدهاء والفتك في تأسيس دولته كثيرة . وكان يعطى الأمان ثم ينكث كما رأيت فعله بعمه عبد الله وكما فعل بابن هبيرة عامل بني أمية على واسط لما برع السفاح ، وأرسل أخاه المنصور لمحاربتهم : فخرت السفراء بينهما وانفقا على أن يدخل ابن هبيرة في أمان بني العباس : فكتب له المنصور أمانا ظل ابن هبيرة أربعين ليلة وهو يشاور فيه العلماء حتى تحقق صحته ورضى به فبعثه الى أبي جعفر فأنتفذه أبو جعفر الى أبي العباس فأمره بأمانه . وكان رأى أبي جعفر في بادئ الأمر أن يفي بما أعطاه ، ولكن أبا مسلم (وكان لا يزال حيا) أشار على السفاح أن يقتله قائلا « ان الطريق السهل إذا أقيت فيه الحجارة فسدت . لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة » فبعد ان جاء ابن هبيرة الى أبي جعفر مستأمانا غدر به وقتله (٣) لانه اتهمه مما اتهم أبا مسلم وقتله بعد ان أمنه كما رأيت ، وشاع نكث الأمان والغدر عن المنصور وتحدثت به الناس : فلما قام محمد بن عبد الله العلوي في المدينة نفاه للمنصور كما تقدم فبعث اليه يعرض عليه الأمان ويعدده خيرا فأجابته محمد : « أي أمان تعطيني أمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبد الله أم أمان أبي مسلم » (٤)

وظل المنصور وأبو مسلم قهرا لمن جاء بعدهما بالدهاء والفتك . على أنهم لم يكونوا يبطشون أو يفتكون

(١) السعدي ١٦٧ ج ٢ (٢) المستطرف ٦٣ ج ١ . وابن الأثير ٢٥٧ ج ٥

(٣) ابن خلكان ٢٧٩ ج ٢ (٤) ابن الأثير ٢٥٤ ج ٥

الافى من نازعهم على الخلافة فهذا يقتلونه على الشك . أما أحكامهم فيها خلا ذلك ففي نهاية العدل والرفق كما سيأتى . أما من كان فى نفسه مطمع فى الخلافة أو ما يتعلق بها فحكمه حكم المجرمين : فكل من يطلب الخلافة لنفسه أو يسمى فيها لأحد كانت حياته فى خطر فإذا دعى لاثول بين يدي الخليفة اغتسل وتحنط استعدادا للموت .

وكان المنصور أيضا قدوة لعبد الرحمن بن معاوية مؤسس دولة بنى أمية فى الأندلس وقد فرّ من العراق فالتجأ الى المغرب خوفا من القتل فنصره رجاله ، وخصوصا مولى له اسمه بدرسى فى تأييد سلطانه مثل سعى أبى مسلم فى الدولة العباسية ، فلما استتب له الأمر سلبه كل نعمة وسجنه : ثم أقصاه حتى مات وفعل نحو ذلك فى رؤساء الأحزاب الذين نصره ، وسيأتى الكلام على ذلك .

واشتهر فتنك العباسيين بالذين ينصرونهم فى تأييد دولتهم حتى صار الخلفاء أنفسهم يشيرون الى ذلك اذا أعوزهم الاستدلال به . فالأمين لما رأى طاهر بن الحسين يتفانى فى نصرة أخيه المأمون وقد تولى قيادة جند الخراسانيين وغلب على جند الأمين وكاد يذبح بدولته كتب الأمين اليه : « بسم الله الرحمن الرحيم اعلم انه ما قام لنا منذ قنا قائم بحقنا وكان جزاؤه الا السيف فانظر لنفسك أو دع (١) » وفى الواقع ان المأمون لما استتب له الامر فى الخلافة بسيف طاهر المذكور عمل على قتله بحجة مثل حجة المنصور بقتل أبى مسلم فأهدى له خادما كان رباة وأمره أن يسمه ففعل (٢) . اهـ ماأردته من كتاب التاريخ المحدث الاسلامى والحمد لله رب العالمين .

فانظر أعزك الله أيها الذكى فى هذه الأم الاسلامية ، وكيف :

- (١) يأمر هشام بن عبد الملك سرا بقتل (أبى هاشم) ابن محمد بن الحنفية الذى تدعوه الفرقة الكيسانية
- (٢) ثم إن أبى هاشم لما أحس بالموت أوصى بالخلافة لمحمد بن على بن عبد الله بن عباس .
- (٣) ولما تولى ابنه ابراهيم الامام أصبح ما كان يأمر به كأنه كتاب منزل ، وكيف يأمر أبى مسلم بقتل كل من يتردد فيه ، وكيف يقتل ٦٠٠٠٠٠ غدرا فى منازلهم وفى طرقهم ، والله حرم القتل ا فهل يباح القتل لأجل الملك ؟ فأين الشورى ؟ وأين آية : « وان طائفتان الخ » .
- (٤) وكيف بايع العباسيون باسم آل محمد ، ثم استبدوا بالملك وقتلوا العلويين ، بأى كتاب ؟ أم بأية سنة ؟ وبأى عقل ؟

(٥) وكيف يقتل أبو سلمة الحلال المترى الشهير غفرا وظلما التمسك بالعلويين ؟

(٦) وههنا أمر عظيم حل بالأمة ، هذا عبد الله بن الحسن والد صاحب البيعة جاء الى السفاح الذى اغتصب الملك من ابنه فأكرمه وعرض عليه المال فأعطاه ألف ألف درهم ، وفى نفس الوقت حضرت جواهر نهبها عسكر العباسيين من مروان بن محمد ، فلما رأها عبد الله أخذ ينظر إليها ويبيكى الى آخر ما تقدم من أنه بكي لأن هذا كان عند بنات مروان ، ومارأت بنات عمك مثله قط ، وأعطاه تلك الجواهر . هذه الحكاية وحدها ان صحت تدل على تغير الأخلاق فى بعض آل البيت ، ذلك لأن عصر النبوة كان عصر زهد ! فهاهنا البكاء ، وما هذا التحيب ؟ إن أخلاق الأمة إذ ذاك تغيرت ، لأن الأمة نسبت أخلاق النبوة ، وأنس الناس بالترف والتعم ، وبيت النبوة الذى هو النور المشرق فى الأمة أيضا أحاطت ببعض حجراته الظلمة ، النبى ﷺ وأبو بكر وعلى وغيرهم يحرقون المال ، وقاطعة رضى الله عنها تطلقن على الرضى ، ثم انا نسمع أن عبد الله يبكي

لجواهر و يفرح بالمال ، ذلك تغير عظيم في أخلاق الأمة حتى سرى إلى بعض رجال بيت النبوة ،
تغيرت أخلاق الأمة ، فبعد أن كان الخليفة حارسا لمال الأمة كعمر رضى الله عنه أصبح مترافعا
كالعباسيين والأمويين ، واشترأت لهذا أعناق العلويين . هذا كله لأن الخلافة بعد أن كانت عفيفة
عن مال الأمة أصبحت شرهة على مالها ، وطلبت لذلك ، وكل من وصل إليها اعتبرها غنيمة له ،
وما أقبح هذا الجهل بأمة الاسلام !

(٧) ثم كيف نرى أبا جعفر المنصور يبعث في طلب بني الحسن الذين كانوا نصرائه بالأمس ، وكيف يقتلهم
جميعا بعد أن أحضرهم مثقلين بالقيود والأغلال ؟ وكيف يضرب مالكاً على فتواه في طلاق
المكروه ؟ وكيف حبس أبا حنيفة ؟ ذلك لأنهما أفتيا بأنبيعة محمد بن عبد الله مهيجة ولابيعة
للمنصور ، ثم كيف يقتل من كان هو مبايعا له بالأمس من آل بيت النبوة ؟ .

(٨) اللهم انك أنت المهيمن العليم الحكيم ، أمر ابراهيم الامام بإذلال العرب على يد أبي مسلم الخراساني
فقتل منهم مئات الالوف في منازلهم ، حرمة الله الملك إذ قتل الأمويون ، تولى أخوه السفاح بعده
فلم يشفق على بني أمية لما تم له النصر ، وأهلك التوم ، فلم يدم له الملك ، ومات ولاذكر لعقبه .
فتولى أبو جعفر المنصور ، فأوقع بالطائفتين العلويين من ناحية وأطربه العباسيين من جهة أخرى ،
وقتل أبا مسلم . كل ذلك مخالف للقرآن وللعقل ، ونولى الخلافة ذريته فلم تطل المدة حتى رأينا ما يأتى :

(٩) اختلف الأمين والمأمون ، ولكل أنصار ، فأنصار الأول العرب ، لأن أمه زبيدة حفيدة المنصور
وأنصار الثاني الفرس ، لأن أمه فارسية ، وكان في خراسان بين أخواله وشيعته فنصره الخراسانيون
كما نصروا أجداده ، إن الفرس هم الذين أقاموا هذه الدولة ، ولهذا حرقوا العرب بعد أن كان
بنو أمية رافعي شأنهم ، وههنا زاد امتهان العرب ، فالدولة عربية ظاهرا فارسية حقيقة ، فلما مات
المأمون سنة ٢١٨ تولى الخلافة أخوه المعتصم ، وأمته تركية من بلاد (السغد) في تركستان ،
فشب محبا للأتراك ، وصار لا يأمن الفرس على نفسه بعد أن قتلوا أثناء الأمين ، وهى أول مظاهر
جرأتهم على الخلفاء ، ولم يكن له نقة بجند العرب ، لأن العباسيين أذلّوهم فضعفوا واستكانوا ،
ومن الدهش أن أخاه المأمون أوصاه بمحاربة العرب ، ولذلك منعوا من أعمال الدولة ، وآخر
عربي تولى عملا عن عتبة بن اسحق الضبي سنة ٢٣٨ هجرية ، ولقد أراد المعتصم كما زهد في
رجال العرب أن يزهد في بلادهم ، فبنى سامرا بالقرب من بغداد ، وأقام فيها جنده ، وأنشأ فيها
لعبة ، وجعل حوطا طواقا ، واتخذ بني وعرفات ، غر بذلك أسرا كانوا معه لما طلبوا الحج خشية
أن يفارقوه ، فصار بذلك لفظ عربي مرادفا لأحقر الأوصاف عندهم . ومن قولهم : « العرب بمنزلة
الكب اطرح له كسرة واضرب رأسه » . وقولهم : « لا يصلح أحد من العرب إلا أن يكون
معه نبيّ ينصره الله به » وأصبح الأسراء والوزراء وسائر رجال الدولة من الفرس والترک والديلم
وغيرهم ، وصار الخلفاء يؤبدون مناصبهم بالأجناد وبذل المال ، وقلت العناية بالعرب وأحزابهم ،
وهذا سرّ انك تسمع ابن طولون والاشيد والمماليك البرية والبحرية كانوا يحكمون مصر ،
وذلك هي السنة التي سنّها العباسيون من التجائم إلى غير العرب وانحيازهم إليهم ، ناهيك ما فعله
المنصور ، إذ أمر رجاله أن يلبسوا القلائس الفارسية الطويلة ، تدعم بعيدان من داخلها بدل
العمائم ، أو يعمتوا فوقها بعمامة صغيرة ، وأن يعلقوا السيوف في أوساطهم ، وأن يكون اللباس
الاسود عاما فيهم ، وهو شعار العباسيين كما كان البياض شعار الأمويين ، فلا بد للداخل على الخليفة
العباسي من لبس جبة سوداء يسمونها « السواد » تغطي سائر ألبستهم ، والبسهم المنصور دراريع

كتب على ظهورها : « فسيكفيكم الله وهو السميع العليم » وبعث إلى عماله في سائر الأقطار أن يأمر دوارجاهم بمثل ذلك .

نتيجة أعمال الأمويين والعباسيين في الاسلام

نحن الآن أيها الذكي لم نكتب هذا جبا في التاريخ ، إن التاريخ لامعنى له إلا الاعتبار والذكرى والناسى والله يقول : « أولم يهد للذين برنون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » تلك القرى نقص عليك من أنبائها ، الآيات .

الله أكبر : نحن الآن في تفسير آية : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » الآيات التي تأمر بالصلح أولاً والائتاء ثانياً ، ولكننا لما قرأنا تاريخ أسلافنا ، ألقيناهم بعد العصر الأول هجروا الشورى بتاتا ، ورجعوا إلى عادة الجاهلية الأولى ماطفة بالاسلام . فلما فعلوا ذلك أخذوا يتخذون غير العرب لاذلال العرب .

الله أكبر : إن الغنم بالفرم ، أذل العباسيون العرب ، لماذا ؟ لأجل الخلافة ، ولم ذلك ؟ لأن الخلافة تعطهم الحرية في الأموال والدولة ، واسكنها لو كانت تلك الخلافة خلافة صادقة بحيث لا يتصرف الخليفة في مال ولا في حال إلا بالشورى ، لم يتناحروا ولم يتقاتلوا عليها ولم يبك عبد الله من ذرية الحسن رضى الله عنه أمام السفاح لأجل الجواهر والمال ، لبس العباسيون ملابس الفرس ، هجروا العرب أمر انعتصم بالأيام أخذوا من العطاء فماذا جرى ؟ أصبح أولئك الخلفاء تحت امره الفرس تارة والترك أخرى ، قتلوا من الملوك العباسيين ٣٨ من ٥٩ خليفة ، وبعضهم سملوا عينيه ، وأصبح يسأل الناس على أبواب المساجد (اقرأ هذا المقام موضعها في ﴿سورة الأحقاف﴾ عند آية « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » فهناك ترى كيف قتل باغر التركي المتوكل وهو في حال سكر ، وكيف قتل غيره وغيره) .

إذن بنو العباس استعانوا بغير العرب لاذلال العرب ، فصاروا هم أول من أذلم الفرس والترك . كل ذلك لترك الشورى ، ونسيان القرآن ، وانباع العصبية الجاهلية ، يتعصب العباسيون ؟ لمن يتعصبون ؟ لأجل المال لاغير والسلطان ، فتكون النتيجة الوبال على الذرية . إن ماضعه العباسيون مع العرب بق أثره إلى الآن ، ألم تركيب حدثنا التاريخ بالممالك البرية والبحرية وبالأمه العثمانية التي أذلت المصريين وأكثر بلاد العرب ، ذلك لأن الأمم العربية ذهبت غالباً عصبيتهم فناموا ولم يظهر فيهم نابغون بذكرتهم مجدهم مثل من ظهوروا اليوم فناموا نوما عميقا . إن ما فعله العباسيون سرى في بعض أمراء الأندلس ، فانهم كانوا يستعينون بحيرانهم من الفرنجة على اهلاك المسلمين . وانظر إلى قصة برّاق في ﴿سورة الأحقاف﴾ أيضا في الآية المذكورة . وكيف كان يقابل بابا رومة ودوق فينيزيا وبارونات أوروبا . وكيف جاء بوعد من البابا أمير أشبيلية (جندل بن حوّد) انه هو الذى يكون أميراً على بلاد الأندلس على شرط أن يغير على قرطبة ليخضع لشوكة المسلمين ، ففعل بهذه الوصية ، وأغار على قرطبة ، فكان الفرنجة في نفس الوقت مغيرين على أشبيلية ، وفضحوا البكر والمرأة بحضرة أيها وزوجها ، وقتل ٣٠ ألف لأجل المحافظة على العرض ، ومثاهم وأكثر منهم لأجل المحافظة على الدين ، كل ذلك وجندل بن حوّد مغرور بوعد البابا وبارونات أوروبا ودوق فينيزيا ، وقد خاب ظنه ، فانهم قتلوه في قرطبة غدرا بعد أن ساعدتهم في إذلال المسلمين ، أما عسكره فانهم رجعوا فوجدوا أشبيلية مدينتهم قاعا صفصفا ، وقابلهم عسكر الفرنجة بالقتل والاهلاك ، نطلبوا الأمان .

هذا مثل واحد مما ذكرته هناك في ﴿سورة الأحقاف﴾ عند آية : « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا » إلى آخره .

الله أكبر : إذن أم الاسلام بعد أزمان النبوة قد خالفوا كتاب الله تعالى وسنة نبيه واجماع الأمة .
الله أكبر : إذن بعض ما نحن فيه الآن نتأجج ما كان من آياتنا . اللهم إني أجدك جدا كثيرا على نعمة
العلم ، وعلى أن وفقتني للإمام بما حصل لأمتنا حتى يكون ذلك نبراسا لمن بعدنا ، فنكون أرقى حالا مما نحن
عليه الآن .

اللهم اننا نحن الآن مغمورون في بحار من الجهالة ورثناها عن بعض أسلافنا الغابرين . هاهم أولاء
بعض شيوخ الطرق في زماننا ، منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ، يحملون الرايات ، ويتخذون النقباء ،
ويعطون العهود ، ويطوفون بالبلاد ، لماذا هذا ؟ هم لا يعلمون سر ذلك ، ولكن سره أظهره التاريخ
كان العباسيون والعلويون يفعلون ذلك لما فاتتهم الخلافة ، وكان أبو مسلم الخرساني تحت امرته نقيب بني العباس
وهذه العهود والمريدين والتلاميذ استرجعوا الخلافة ، فتسكوا بمن هم أحق منهم وهم العلويون ،
ذهبت الدولة العربية ، ولكننا لانزال نرى النقباء والتلاميذ في جميع بلاد الاسلام ، وهؤلاء وان كانوا يريدون
التقوى والصالح كان أمرهم فيها مضى راجعا لطلب الخلافة كما ترى في دولة الفاطميين بمصر ، وحسن بن
الصباح ببلاد الفرس في قلعة الموت . هذه فكرة عامة ، وصورة مصغرة ترىنا حالهم لتنظر في مستقبل بلاد
الاسلام .

اعتراض على المؤلف

فلما اطلع صديقي العلامة على هذا ، ودرسه حتى دراسته . قال : ما أجل هذا البيان ، اننا كثيرا ماقرأنا
التاريخ ، ودرسنا القرآن وتفسيره ، ولكن تطبيق التاريخ على القرآن نادر عند آباؤنا السابقين ، فأما أجدادنا
على نعمة العلم وانتظام التاريخ مع آي القرآن . ولكن هنا نبدي لى سؤال ؟ وهوانك بهذا البيان قد كسرت
قلوبا صحيحة ، ونفوسا بريئة ، فانه بناء على هذا البيان يكون مجدنا القديم ضائعا ، إذن تلر بخنا أسود وآؤما
ظالمون جهلاء ، إن هذا القول يقبض القلب ويتكسر الرأس ، ثم انك نقلت عن الفرنجة الذين لا يرجي منهم
مودة للمسلمين مدح هؤلاء الملوك فكيف تجمع بين النعم والمدح ، وهل العقول تقبل الضدين ؟ يا سبحان الله :
إذن جميع المدح إنما هو تظاهر من المادحين ، لأن ماقرأته الآن في هذا المقام ظاهر من التاريخ فهو لاشك فيه إذن
المدح هو المشكوك فيه . فقلت له : أيها الصديق ان المدح والقدح كلاهما حق . فقال : وكيف ذلك ؟ قلت :
لقد قدمت في هذا التفسير في (سورة سبأ) وغيرها أن الأمة أشبه بطفل ، وكل قرن في حياتها يعتبر سنة واحدة
في حياته ، إذن الأمة اليوم كمرهق في السنة الرابعة عشرة ، ولكنها اليوم أدركت البلوغ قبل ١٥ سنة كما
يدرك الشاب بالاحتلام قبل السن ، والدليل على ذلك انها اليوم تقبل العلم والحكمة المشورة بعد أن كانت
لاقبلها ، ولاتعرف لها وزنا ولاطعما .

إن الطفل في أول أيامه يصيبه التخبط والجهالة ، لاسيما اذا كان يتيما ، وهذه الأمة لما فقدت الخلفاء
الراشدين بعد النبي ﷺ أخذ المسلمون يتخبطون في دبحور الظلام ، ونسبت الأمة الشورى ، لأن الشورى
إنما تكون بين البالغين ، فأصبحت الأمة كمرهق بصوالجة تلقفها الأمويون فالعباسيون فالأمراء الخارجون
عليهم وأمراء الأندلس ، ثم دالت الدولة ، ولكن بقيت الذكرى والذكرى تنفع المؤمنين .

ان ما نناق لآياتنا هو الأس الذي نبني عليه نظام مدينتنا ، وكيف نتجه للشورى ونحرص عليها ، ونصطفى
الأمراء ورؤساء الجمهوريات إلا اذا رأينا عبر الدهر في آياتنا الأولين ، والذي معنا أن نسير على الطريق المستقيم
إنما هو الجهل بالتاريخ وبخطاه وآلامه وبالشرع نفسه ، أما الآن فقد عرفنا الحقائق ، وأن آباءنا كانوا في زمان لم
ينفج فيه العقل الاسلامي في أمر الخلافة والحكومات فشردوا كل مشرد ، وباهوا وأصبحوا ذكري للأكبرين

هذه ذكرى لنا ، واقعد عرفنا اليوم والمعرفة أساس العمل ، فهنا سائق للحكومة المنظمة وقائد ، أما السائق فهى الآلام التى حلت بآبائنا الأولين ، وأما القائد فهو ما نراه من الحكومات المنظمة فى بلاد أوروبا وأمريكا واليابان وغيرهما ، وهؤلاء لم يكن لهم نظراء قبل ظهور نبينا العربى عليه الصلاة والسلام ، هذا ما كان من أمر الحكومات العام .

النظام العام فى الاسلام

فأما فيما عدا ذلك من النظام العام فكانت دولهم أعدل دول الأرض ، وقد بقى ملك العباسيين إلى القرن السادس وملك الأندلس إلى القرن التاسع ، فهذه حكومات كان العدل هو الغالب فيها ، وظهر فى تلك الممالك العلماء والحكماء والشعراء والمهندسون ، وجميع من يحتاج إليهم العمران ، بل هم قدوة أوروبا وحاملو لواء العلم فى العالمين .

هاهوذا الشرع والمذاهب والقرآن باقيه محفوظة ، ها هوذا القرآن والشريعة باقيا لم تسهما يد الحدثن فلم يقدر المنصور أن يمنع الحج بقبته التى بناها لتكون مطاف الحج ببغداد ، ولا المعتصم لما جعل فى سامرا مناسك الحج ولاغيرهما ، فهامى ذه مناسك الحج والقرآن باقيا ، وهل منزقت تلك الفرق المتشاكسة وهى اثنتان وسبعون فرقة دين الاسلام ؟ كلا ، بل منزقت وحفظ الاسلام .

أشرق دين الاسلام فى العرب وانتشر فى الأقطار ، وتنتقلت رئاسته من العرب إلى الفرس إلى الترك إلى أمراء فى سائر الأقطار ، هذه سنة الله فى خلقه ، تنتقل الشمس فى أبراجها والقمر فى منازلها ، والمادة فى صور الجاد والحيوان ، إن المادة خلق الله والدين لله وهو القائل : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » فهذا هو العدل وحسن النظام .

إن المسلمين فى المستقبل غير المسلمين الماضين ، فهؤلاء يسلم لهم الدين والعلم والحكمة والاعتبار بالتاريخ وسيكون الأمراء والملوك والخلفاء آباء للأمم الاسلامية ، لاذنابا يفترون المسلمين ، وسيكون أمرهم شورى بينهم . المسلمون السابقون كانوا خير أمة أخرجت للناس فى زمانهم ، ذلك أن دولهم كانت خيرا من دولتى الفرس والروم ، ولما ضعف أمرهم ارتقى النظام فى ممالك أوروبا ، فنحن الآن لا نكون خيرا من دولتى الفرس إلا إذا اعتدلتنا فى الخلافة والامارة ، وكان أمراءنا أشبه قوم أبى بكر وعمر وعثمان والنبي صلى الله عليه وسلم . هذا من حيث النظام العام فى المملكة ، فأما الأفراد فانهم سيعلمون ما نقوله فى هذا التفسير ، ويعملون به عن اعتقاد وإخلاص وصدق ويقين ، وذلك ما قررناه ثبات المرات من أن القيام بأى عمل من أعمال الأمة لنظامها فرض من فروض الكفليات ، فهو من جهة عمل نافع للأمة ومن جهة أخرى سعادة للره فى الآخرة بل يقول إمام الحرمين وغيره إن ذلك أفضل من فرض العين لأن القائم بهذا العمل دفع الخرج عن بقية أمة الاسلام . وأمة هذا اعتقادها ويقينها لا جرم تكون خيرا من دولتى الفرس ، فإذا كانت الأمم يعمل أفرادها للجهاد والمال مثلا فهنا أمة الاسلام يعملون الأعمال العامة تقربا لله تعالى ، فيكونون أرقى من جميع الأمم . هذه هى أمة الاسلام فى مستقبل الزمان . انتهى



جمال العلم . وفرد الحكمة . وأزهار الحدائق العلمية . وبهجة القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحانك اللهم وبمحمدك ، أنت المنعم المتفضل الحكيم ، معلم الحكمة ، وملهم كل حشرة ودابة وانسان
وملك كريم .

بينما كنت أكتب في مغالة في سورة (ق) في بيان جمال العلم وبهجة الحكمة وأسرار اليقين في معنى
(الم) في قوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بيناها وزيناها وما لها من فروج * والأرض
مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » وقد
استبان بعض أسرار (الم) وأن هذه الحروف في سورة (ق) لها صلة وثيقة بها في أول (سورة البقرة)
وانها فيها مفتاح فتحت به أسرار في زماننا كانت مغلقة الأبواب ، وأن الشبان في عصرنا وفيما بعد عصرنا
سيفتحون بهذه الحروف خزائن كانت مغلقة على القرون المتأخرة في أم الاسلام الذين أغرقتهم مطامع آبائهم
في أحوال هذه الحياة ، ومطامع الأمم الذين يحيطون بهم ، نألمتهم عما يحيط بهم من العلوم كالفلك وعلم
النبات والحيوان ، فخرجنائهم في الأرض حائرين لا يدري أين توجه ؟ فألقينا هذه المفاتيح التي أعدها الله
لزماننا ، فيأنس بها الشبان الأذكياء ، فينالون منها ما يريدون ، ويضارعون الأمم المحيطة بهم ، بل يكونون
أرقى الأمم ، لأنهم إذ ذاك يكون ما يعملون لديناهم هو عين ما يقربهم إلى ربهم ، وهذه مزينة لم يسبقها
سابق ، ولن يلحقها لاحق ، وقد فصلت هناك المقام تفصيلا ، واستبان من قراءة التاريخ في ابن خلكان
وغيره أن ملوك المسلمين تداولوا هذه الحروف فيما بينهم وجعلوها رموزا في الكتابات الرسمية ، فأدّت الغرض
الشريف ، وحقت دعاء ، وحفظت ممالك ، ولكن لم يفضّ ختام تلك الأسرار من الوجهة الإلهية والنظام
الاجتماعي إلا في زماننا أي عند الحاجة إليها كما استعملها أولئك الملوك في أغراضهم السياسية ، تمهيدا لما
زاولناه في هذا التفسير من المناهج الشريفة ، والمقاصد النبيلة ، واسعاد الأمم ، وإثارة الهمم ، وطمس معالم
التفرق والانحلال ، وتشديد حصون الوثام ، ورفع بنود الارتقاء والاتحاد ، واستباق الخبرات في سواء
السيبل .

أقول : بينما أنا أكتب ذلك إذ حضر صديقي العلامة الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير . فقال : ما أجل
ما وصفت ، وما أحسن ما صنعت ، ولكنني أذكرك بما أبنت في (سورة الحجرات) من تفرق والانحلال ،
واختباط واختلال ، وهتان وضلال ، وجهل ووبال ، في المعالكة الاسلامية ، وما أحبط بها من كل ضرر وبلية ،
فقد ذكرت أنهم كانوا في غيهم يلعبون ، وهم في كل واد يهيمون ، ويقولون ما لا يفعلون .

فما كادت شمس القذات المحمدية تقرب من سماء الوجود ، وتلاها الشفق بعد الغروب في أزمان أبي بكر
وعمر وعثمان وعليّ ، حتى عسعس الليل ، وعبس الدهر ، وكبح وجه الزمان و بسر ، وأصبحت الخلافة
ملكاً عضواً ، لافرق فيها بين الأمويين والعباسيين والفرس والترك والأندلسيين ، وكل دولة إسلامية هذا
شأنها وذلك دأبها ، ولما كان هذا التفسير لم يقصد به مجرد إرشاد الأمم ، وإثارة الهمم ، بل أريد به ما فوق
ذلك من إظهار الحكم الإلهية ، والنظم الحكيمية ، وآثار العجائب الربانية ، أليست هذه الأمم المختلة النظام ؟
في حكوماتها ، الشاردات في عُيها وشرها ، خلقا خلقه الله بيده ، فليكن تبيان الحكمة في ذلك الاضطراب
بعد النظام ، والملك بعد الخلافة .

إن النفس تواقفة إلى مناظر أزهار الحكمة في رياضها ، وإلى ثمار العلم في حدائقها ، حتى تطمئن إلى
حقائق التكوين ، وبدائع الابداع ، إن الأمم التي وقفت عند ظواهر التشريع ، ولم تعرف السر المصون ،

ولا الجوهر المكنون ، في النظام العام تسمى وتصبح وهي خاملة ، وتصبح ديارها فيما بعد خاوية على عروشها ، وبثرتها معطلة وقصرها غير مشيد . إن القاصرين على ظواهر التشريع مثلهم كمثل « شجرة خيشة اجثت من فوق الأرض ما لها من قرار » ، والذين أدركوا سر النظام مثلهم كمثل « شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها » ، فالأولى كشجرة الحنظل ، والثانية كشجرة النخل . إذا تقرّر هذا فأنا أرجو أن تبين لنا ما السر ؟ ما هذا الخلاف ؟ والتفرّق والانحلال بعد العصر الأوّل ، وكيف ينزل دين من السماء عظيم ، يزلزل الأرض زلزالا شديدا ، ثم يرفع الانسانية أجيالا ، ثم يختمني وراء الحجاب ، وتلبس الأرض رداء الحداد عليه ، وتلبس الانسانية ثوبا قشيبا من مدينة حديثة ، وحاملو هذا الدين ناثمون هاثمون . فأنا أود أن تشرح لنا هذا المقام ليتحد التشريع مع التكوين ، وتلتئم الحقائق مع الظواهر ، والعقائد مع الفروع ، وهذا به ارتقاء الأمم وسعادتها إلى حين ؟ .

فلما أتت ذلك ، قلت له : لقد أجدت في صوغ عبارات السؤال واصطفتيتها بصفاء نفس وجودة قريحة ، حتى تجلت بيضاء تقية للقارئ . فاعلم أيديك الله بالفهم ، وأهلك الحكمة ، وأثار بصيرتك بالعلم ، أن آية (ق) التي ذكرتها : « أفلم ينظروا إلى السماء الخ » فيها الجواب عما تقول . فقال : وكيف كان ذلك ؟ فقلت : إن فيها ذكر النبات ، والنبات أنواع مختلفات ، ولكم من نبات قد خفيت منافعه حيننا عن البصائر ثم ظهرت جأة إلى الوجود كما حصل في زماننا هذا ، فإن امرأة أفرنجية في مصر نشرت (قبل أواخر سنة ١٩٣١ الفرنجية أي قبل ثلاثة أشهر من كتابة هذا الموضوع) في الجرائد المصرية أنها جرّبت الرجل المسماة « البقلة الحقاء » وهي كثيرة في بلادنا المصرية تقول انها جرّبتها إذ شربت ماءها بعد أن عصرتها وقد كانت مريضة بالسكر وكان السكر ٦٠ في المائة ، فأخذ يقلّ حتى شفيت تماما . وما كادت تعلن هذا في الجرائد حتى صنعت آلات لعصر الرجل ، وبيعت للناس ، وأخذ المرضى يفعلون ذلك رجاء الشفاء .

هذا هو الذي تمّ في أيام كتابة هذا الموضوع في بلادنا المصرية ، وانما ضربت هذا المثل المفيد في علم الصحة بتجربة امرأة أرادت الخير للناس إلا لأجعله نظير ما في القرآن من العلوم ، فالله نزل من السماء بقول الله ، ونظام الزرع بفعل الله ، فاذا رأينا نظامه الذي صنعه يسديه تخفى أسراره على نوع الانسان . ينظر الأشجار والزرع ولا يفقه منها إلا قليلا ، ويسم الزهر في وجوه الناظرين وهو يقول : انظروا إلى جمالي ولكن ما أوتيتم من علمي إلا قليلا ، فهكذا يسمع الناس الكلام الموحى به ، ويتهجون بيلافته ، ان كانوا من الأمم العربية ، أو باحترامه وتقديسه ان كانوا من غير الأمم العربية ، ثم يسمعون خطاب الوحي : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ويسمعون أيضا : « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم » فنوع الانسان على الأرض ليس مقياسا لنظام الطبيعة المنظورة ، ولان نظام الكتب السماوية المسموعة ، لأن السمع والبصر ليسا يقدران على الحكم في قول بليغ ، ولا نظام زهر بديع ، بل الحاكم العقل الانساني ، والعقل الانساني مغموس في جأة الطين ، فهو يعطى من العلم بقدر كما اتفق لهذه المرأة الافرنجية في « البقلة الحقاء » وكما يلقي من الفكر لأناس يعيشون في زماننا وبعده لإدراك بعض أسرار الآيات القرآنية كالفانيج الآتي ذكرها في سورة (ق) كما قدّمناه .

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : أنا أقارضك الشاء ، فأنت أنبتت على تنميق السؤال وإضاحه ، وأما كذلك بدوري أنني تناء مستطابا على الاجابة ، ولكنها ليست بكافية ، وانما علمتنا مسألة طبية جاءت للتظهير والتشبيه ، ولكن المهم أن ندرك سر اختلاف الأمم الاسلامية التي سبقتنا وقد أوصحتها ، ماسر هذا الاختلاف وهذا الخلود الطويل ؟ وما حكمته التكوينية ؟ ولم أستفد من هذا الجواب إلا أن بعض أولى الألباب يلقى إليهم فهم أمور في الاسلام كما أتى إلى هذه المرأة في الطب .

وملخصه أن أم الإسلام المتأخرة ضعى على عقول كثيرين أكابرها فغاب عنهم كثير من الحقائق ، وبعضها أخذ يظهر الآن ، أى أن السر كل السر إنما هو الاستعداد ، فالاستعداد إذا وقف عند حد محدود بما أحيط به من غرائض الظلم داخلا وخارجا يقف عن الفهم ، إذن الدين فيه السر المصون ، والجواهر المكنون ، والصراف المستقيم ، ولكن العقول لم تهتد إليه ، وستهدى الآن وتنظم دول الإسلام . هذا شرح ما أجلته ، فإذن سرّ النظم هنا أن الفضائل (وإن كانت موجودة فعلا) لا تعطى إلا لمن يستحقها ، فهذا الجواب مع تقاسمه مجمل لا يشقى الغليل . قلت : حياك الله ويحك ، فإن آيت بإصاح إلا الإفصاح ، فهذا إذا أتى عليك التنصیل بعد الاجال .

اللهم منك الحول ، ومنك القوة ، اعلم أيها الأخ الوامق للحكمة ، الفرح بها ، المستعد لفهمها ، أن الناس إذا لم يفهموا المحسوسات لا يدركون المعقولات ، ومن يحجز عن فهم ما أدركته الأبصار فهو عن ادراك ما وراءها أعمى ، ومن كثرت مدركاته البصرية وكل محسوس وعقلها بربوبية كثرت ما وراءها من علومه الحكمية . فلا شرح الآن لك أيها الذكي خمسة أنواع من العلوم :

- (١) نظام النبات .
- (٢) نظام الفلسفة العام .
- (٣) نظام الحكومات كحكومتنا المصرية اليوم .
- (٤) نظام الديانات العام .
- (٥) النظم المجمل للمذاهب الإسلامية .

وكل مأسأفصله في هذا المقام فهمته مما فتح بفتح : « أقلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج * والأرض ممددناها وألقينا فيها رواسي وأبنتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » .

فهذا الذى ذكرته الآن هو تقس هذه التبصرة وهو الذكرى ، فإنا إذا فكرنا في أمر النبات وجدناه مجمل هذه المشاكل كلها . والنبات منظور ، وهذا المنظور مجمل لنا مشاكل المسموع والمقول . فقال : إن ما تذكره الآن أشبه بالألفاظ ، والتعريف يجب أن يكون أوضح من المعرف ، فأين الإيضاح هنا ؟ قلت : خلق الانسان من مجمل . وهنا خمسة فصول :

الفصل الأول في النبات

إن في النبات فاكهة وجبا وخضرا للإنسان ، وفيه حشائش وتين للحيوان ، وفيه أغذية لأدنى الحشرات ولكل حيوان ، وكل في الأرض من فضلات نباتية وحيوانية عفنة قدرة يعيش عليها أدنى الحيوان من علق ودود ونحوها من المخلوقات ، إذن النبات يفتدى أشرف حيوان يكاد يلتحق بالملأ الأعلى وهو الإنسان وأخس حيوان يكاد يلتحق بالطين اللزب وهو الدود ، وبينهما درجات لا يكاد يحصرها العد ، وكل حزب بما لديهم فرحوس ، فلا الدود يبني فوق مالهيه ، ولا الانسان ينزل عما أمده به ، فهذه الحيوانات انقسمت النبات وأكثته ، وكل يسي لطلب رزقه فيما استعد له وله خالق ، وهو معرض عما وراء ذلك ، وهو بذلك فرح سعيد ولم نجد من هذه الأنواع من الحيوان أحدا يلقي نظرة عميقة على جميع النبات إلا بعض خواص الانسان .

الفصل الثاني في نظام الفلسفة العام

قلنا في الفصل السابق ان الدود قد يعيش في فضلات النبات والانسان يأكل منه ، وأنها هما وما

بينهما من أنواع الحيوان مقتسمات أنواع النبات ، وقلنا ان هذا الانسان وحده هو الذي فكر ففلاسفته في النظام العام لهذا النبات . إن المفكرين في النبات أيضا ، أي المذكور في حيز (الم) في (سورة ق) (وهي الحروف التي هي مفتاح من مفاتيح العلوم الآتي إيضاحها هناك) يكونون فرقا شتى ، فمنهم من يبحث في خشب الصناعة ، ومنهم من يبحث في شيرجه وزيته للأكل ، أو حبه للتجارة ، أو منافعه للطب ، إلى غير ذلك من مباحث لا يستطاع حصرها إلا في مجلدات ، وإذا رغبنا طرفنا إلى ما فوق ذلك وجدنا هذا النبات إن هو إلا نوع واحد من أنواع الوجود ، ولكل نوع علماء اختصوا به كما رأيت لكل طائفة من النبات حيوانات خاصة تتعاطاه وتقتضى به ، فقوم للنظر في عموم النبات من حيث تكوينه ونسبته إلى الحيوان ، وقوم يدرسون نفس علم الحيوان ونسبته إلى النبات ، وآخرون يدرسون علم المعادن ، وآخرون يدرسون الطبائع العائمة للعوامل كالمغناطيس والضوء والكهرباء والحرارة والصوت ، وهذه طبائع عامة لا تختص بقسم من أقسام الطبيعة ، وهذا كله في العالم الأرضي ، وهناك طوائف يرتفع بعضها إلى العلويات ويكونون فرقا شتى ، وأعلامهم من ينظرون نظرا كليا في تركيب النجوم والشموس والأقمار والسيارات والأرضين وذوات الأذنان والمجرات والسمم ويحصرون العوامل حصرا عاما . وآخرون فوق ذلك يحصرون العالم العلوي والسفلي بعد أن يكونوا قد أحكموا العلوم الرياضية بقدر طاقتهم ويفكرون في النظام العام . هذه نظرات أكبر الفلاسفة في الدنيا الذين مثلهم بالنسبة لأصحاب العلوم الجزئية في العوالم السبوية والأرضية كنسبة نوع الانسان بالنسبة للحيوانات الأرضية التي قاسمتها الأغذية في مخلوقات النباتية ، فكما كان البود مشاركا للانسان والحشرات وغيرها في اقسام الأغذية النباتية ، واختص الانسان بالبحث العام في النبات ، هكذا المفكرون في الأمم اقتسموا النظر في العوالم العلوية والسفلية ، واختص أكبر الحكماء بالنظر العام في العوالم كلها ، وانتقلوا منها على جهة اليقين والمسرات والبهجة إلى صانع العالم ، وتعلقوا بالصانع ونسوا الصنعة وراهم ، وقرروا : « وأن إلى ربك المنتهى » .

إذا فهمت هذا أيها الصديق فقس عليه نظام الحكومات ، وأضرب لها مثلا نظام حكومتنا المصرية ، لأنه أقرب إلينا في التمثيل ، وهذه الأمثال كلها جعلناها مقدمة لما يزيد بها الأخ الذكي من إدراك السر في التناقض والاختلال والاختلاف الواقعات في القرون الاسلامية الخالية حتى تلتئم العقائد والنظام العام مع التشريع الظاهري كما طلبته أيها الأخ العليم ، فهذا تفصيل الكلام على :

الفصل الثالث : نظام حكومتنا المصرية

- إن حكومتنا المصرية تراها مكوّنة من :
- (١) قرية لها عمدة ومشايخ وخبراء .
 - (٢) مركز مكوّن من قرى .
 - (٣) مديرية مكوّنة من مهاكز .
 - (٤) فوزارة الداخلية المسكوّنة من مدريات .
 - (٥) فالوزارة العامة المسكوّنة من وزارات ، وهذه الوزارة فيها وزارات مثل الداخلية والخارجية والحفائية والأشغال والزراعة والمالية ، وفيها مصالح كثيرة ، كل هذه تبع للوزارة العامة ، وكل جماعة في وزارة مكبون على عملهم ، لا يعرفون إلا قليلا عن عمل غيرهم في الوزارات والمصالح الأخرى كما لا يعرف حيوان البرّ عن حيوان البحر إلا قليلا ، وكما لا يعرف عالم الحيوان الأرضي عن عالم الكواكب إلا قليلا .

(٦) وفوق هذه الوزارة القوّة العليا التي تولى تلك الوزارات التي تستند إلى رجال دارالنبابة الذين تصطفهم الأمة للقيام بتجليلها .

فأنت ترى أيها الذكي أن كل طائفة تقوم بعملها وتعرض حماسها ، وإذا خالفت ذلك اختلّ النظام كما تنقسم أنواع الحيوان من أقلها وهو البود مثلا إلى أعلاها وهو الانسان أصناف النبات ، ولكن فريق واحد يكون نظره عاما في الأمة كلها وهو القوّة التي تنظر في شؤون الوزارات كلها ولا تهتمّ بجزئيات الأعمال بل أعمالها عامة ، وليس لها أن تنزل عن الكليات كما اختص نوع الانسان دون سائر الحيوان بالنظر العام في النبات المشترك بينه وبين الحيوان ، وكما اختص الحكيم العظيم في نوع الانسان بالنظر العام في الوجود وإن شاركه غيره في النظر في الجزئيات العلمية ، وقس على حكومتنا المصرية حكومات العالم المتحضر فهذا مثال له بجم ، وهذا توضيح وشرح لما بعده وهو نظام البيانات العام في الأرض .

الفصل الرابع في نظام البيانات العام في الأرض

اعلم أن في الأرض من أنواع البيانات ما يختلف باختلاف العقول والأفهام اختلافاً كاختلاف أنواع النبات باختلاف أصناف الحيوان في التغذية والارتفاع ، فكما رأينا من بقايا النبات المتعفن المنبؤ في الأرض والبرك والمستنقعات ما يتعاطاه البود وأخص أنواع الحشرات والعلق ، ورأينا منه ما هو فاكهة وحب لنوع الانسان الذي يكاد بعضه يكون من نوع الملائكة الكرام ، هكذا ترى من البيانات ما تنزل إلى دركات الانحطاط لغباوة معتقيه وانهم في نوع الانسان أشبه بالبود في نوع الحيوان ، فأعوزهم ذلك إلى دين يواتهم ويسد حاجاتهم ، ويكون ذلك الدين على قدرهم لا يتجاوز ما قبله نفوسهم ، وتمتلي به أقدسهم ، وهم به فرحون .

ومثال ذلك ما ستره في ﴿سورة البينة﴾ في الجزء الأخير من القرآن ، إذ ترى هناك في حديث رئيس البعثة الأزهرية الميضية أن عدد البيانات في تلك البلاد خسون دينا ، وعدد السكان (٤٠٠) مليون انسان ومن البيانات عبادة الجمال والنور والنار والسواب المختلفة ، وكذلك ترى في تفسير نص تلك السورة أن في الحبشة من يعبدون الأشجار ويقدمون لها ، وبعضهم يقدمون الطبيعة ويعبدونها ، وترى الذين يعبدون الأشجار يقومون حولها في كل عام ، ويقومون بواجبهم الديني ، وكيفية ذلك أن يدهنوا جذوعها بالسمن ويقفون حولها وهم يرقصون ، ويفنون مختلف الأغاني ، ويقصد أهالي قبيلة (لادرمون) بعض الجهات التي تكثر فيها الأشجار ، وينادولون حولها بعض المشروبات ، كاللبن وشرب العسل وغيرها .

هذا أقل من كل من بيانات هذا الانسان . ماهذه البيانات المختلفة في عالم الانسان إلا نماذج مطابقت لمختلف العقول والعواطف والأميال على النحو الذي اختلفت فيه أغذية الحيوان في النبات من دود يتعاطى القاذورات ، ومعه حشرات كذلك ، إلى أنعام تأكل الأب ، إلى الانسان يتعاطى الفاكهة والحب ، وما مثل دين الاسلام إلا كمثل النوع الانساني فيما مثلنا ، إذ نظر نظرة عامة في جميع النبات فبحثه وفكر فيه إلا كمثل حكماء الأمم الذين نظروا نظرة عامة في أنواع العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية وجدوا فيها ، فالتخذوا كليا من الجزئيات وكلا من الأجزاء ، ونظروا نظرة عامة وتوجهوا به إلى صانع العالم ، وأخذوا يشوقون الأمم إلى الوحدة العامة ، والنظام العام ، وإلى صانع ذلك النظام ، وهذا هو مقصود دين الاسلام ، فهو لا يمحصر المتدين في مصنوع من المصنوعات وإن كان في كل مصنوع سر من أسرار البريية ، ولكن دين الاسلام يقول : « فأينا تولوا وتم وجه الله » ، فهذا دين عام يعوزه مفكرون يقومون به من نوع الانسان ، تكون نسبتهم إلى هذا النوع الانساني كنسبة الانسان إلى الحيوان من حيث النظر في أمر النبات من حيث عمومها لا من حيث اقسام أصناف الحيوان لأصنافه المختلفة تغذية وتمتعها وحبا ، بل يكون نظره عاما لمنفعة العموم ، وإذا ظهر هذا السر المكنون في هذه الفصول الأربعة فقد وصلنا إلى المقصود من هذا المقال وهو :

الفصل الخامس في النظام المجلد للمذاهب الاسلامية

لاجرم أنك أيها التكي بأذن النفاة لما مضى تعرف سر المذاهب الاسلامية التي بدراستها نصل إلى مقصودنا من هذا المقال ، فما هذه المذاهب الاسلامية ؟ هي الخفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، ومذاهب الشيعة المختلفة ، والزيدية ، والاباضية ، و فرق مختلفات متفرقت ، وكل امرئ اتبع مذهبا من هذه المذاهب أكب على عمله ، مخلصا فيه ، واثقا به متقربا إلى الله ، قائما بعمله على الوجه الذي أراه الله له ، فترى الشافعي مكبا على قراءة الكتب المقررة مثلا في الجامع الأزهر ، كإبن قاسم ، وكتاب الخطيب الشربيني على متن أبي شجاع ، والتحرير ، والنهج ، وأمثاله ، وقس على ذلك بقية المذاهب ، وكل هذه مستخرجات من الكتاب والسنة والاجماع والقياس ، وتراهم يستدلون بالأحاديث المتنوعة والأدلة المختلفة ، وكل طائفة تتبع أقوال أئمتها وإن خالفوا أقوال غيرهم في الفروع التي لا ضرر فيها على الأصول ، وبدوام ذلك أجيالا وقرونا أصبح كل مذهب كأنه عقيدة راسخة ، وإن كانوا يتوارثون عن الآباء والأجداد ، احترام المذاهب الأخرى كإبراهيم عن كابر ، لاجرم أن هذه المذاهب ليست إلا جزئيات لهذا الدين السكلي ، فبينما ترى الشافعي والحنبلي والزيدى والامامى ونحوهم يدرسون شروط الصلاة وأركانها ، وواقض الوضوء ، وأركان الحج ، والبيع الصحيح والفاقد والطلاق والرجعة ، والدعاوى والبيئات ، والشركة والاجارة ونحوها .

تراهم لا يذكرون ، ولن يذكروا ، بل لن يخطر بأذهانهم النظام العام لهذا الدين الاسلامي الذي جاء لا تقاذ الانسانية كلها من شر الملوك الظالمين ، والمسلطين القاهرين ، ذلك أن كل فريق من هؤلاء المتعلمين القاصين لا يعدون أن يكون مثله كمثل عمدة فرية من قرى مصر ، أو شيخ من مشايخها ، أو مأمور من مأموري المراكز المصرية ، أو مدير من المديرين ، أو وزير من الوزراء ، ولا جرم أن كل واحد من هؤلاء ليس له أن يتجاوز وظيفته في الحكومة المصرية ، هكذا هؤلاء العلماء قد وضعوا في مراكز خاصة فعليهم أن يقوموا بها حق القيام ، وليس من حقهم عادة أن ينظروا نظرة عامة في الأحوال العامة للأمة الاسلامية فيكونوا في أم الاسلام أشبه بالقوة المدبرة في الحكومة المصرية التي تولى الوزراء ، وتعلم كل ذى حق حقه ، وتنتظر نظرة عامة في المسائل المصرية ، أو يكونوا أشبه بالإنسان في مثل النبات ، إذ يختص من بين الحيوان بنظرة عامة لنظام النبات ، أو كمثل دين الاسلام إذ جاء لنظرة عامة في جميع الكائنات ، هكذا كانت ولا تزال أحوال أم الاسلام إلى وقتنا هذا ، ولا عيب على الناس في ذلك ، فللوم على حنفي ولا شافعي ولا زيدى ولا مالكي في هذا القصور ، لأنه قصور موروث من أيام أن اضطرت الأمة اضطرابا شديدا ، وزلزلت زلزالها ، وقال المسلمون : ما لهذه الأمة ما لها ، فرجعت الأمة إلى بعض جاهليتها ، وأحيت مآمات من عوائد العصبية والنسب وارجاع الخلافة للأنسب وحدها ، وأخذ الأموي ينادى العباسي ، والعباسي ينادى العلوي ، وينادي جميع هؤلاء الأمم الأخرى من ترك وفرس وكرد متقلبين .

وكل يدعى وصلا ليلي * ولبلى لا تقر لهم هذا كما

أزل الله هذا الدين على محمد صلى الله عليه وسلم وقال : « وإن طافتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بقت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبتى الخ » . وقال : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنتى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

هذه المزية هي التي قامت بها النبوة خير قيام ، فما كاد عصر النبوة وأيام الصحابة بعدها تمر حتى عصفت عامفة الأنساب ، ورويت لها الأحاديث ، وقامت الضجة ، واهجيا ! ليست الخلافة للمال ، وكل خليفة يجمع المال ولا يكون كأبي بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم ، فهو ليس خليفة ، لأن هذا ليس على طريقة ديننا ،

شرب الخلفاء الحجر ، لبسوا الحرير ، كثروا المال ، هل هذه خلافة ؟ صدق رسول الله ، فهي ملك عضوض
لاحجب اذا رأينا أبا حنيفة يضرب ، ومالك يهان ويؤذى ، واستمرّ اذلال العلماء في أعصار خلت ، ولم
يكد أحد يرفع بصره إلى النظر في الأمر العام الذي أعدّه هذا التفسير حتى يزجّ في السجن ويؤذى ويهان
ودامت الأمة على ذلك أجيالا وأجيالا ، وأرباب المذاهب في أعمالهم دائبون مخلصون إذ لا يخلص لهم ولا
منفذ إلى المستوى الأعلى الذي فيه ينظرون نظرة عامة في دين الاسلام ، وكانوا كلما جاء المسلمين عالم بما
لا تهوى أنفسهم استكبروا فخر يقا كذبوا وفرقا يقتلون ، ومنهم من كان يكتب ما شرحناه الآن تحت ستار
التصوّف ، وآرنة تحت ستار الفقه كما ترى منه شذرات في كتب الفقه في المذاهب الاسلامية المختلفة لأمر الاسلام ،
ذلك هو الحاصل في أم الاسلام إلى هذا اليوم .

نظرات حكماء الاسلام الذين أعدّهم الله للمسلمين بعد ظهور هذا التفسير

إن هؤلاء الذين منهم من هم اليوم أحياء يدرسون ، ومنهم من هم في بطون الأمهات ، أوفى ظهور
الآباء ، هؤلاء سيكونون مستنيرين بالنور الإلهي ، وذلك بدراسة العلوم المحيطة بنا في الأرض وفي السماء ،
وهؤلاء تشرق نفوسهم بالأنوار الالهية ، لأن هذه العجائب معلومة نورا إلهيا ، وبالبحث فيها يزدادون قوى
وعلما وحكمة ، وتشرق عقولهم ، فهؤلاء بعد تلك الدراسة ينظرون في دين الاسلام فيقولون : ماهذه المذاهب
إلا أتوار جزئية لدين كلي ، وهذا الدين السكلي يعوزه حكماء يذكرون فيه فيكونون للمذاهب المختلفة أشبه
بالإنسان المختصّ بالنظر العام في النبات مع مشاركته للحيوان في التغذية بالنباتات ، وكالقوة الحكومية
المستمدة من نواب الأمة ومجلس الشيوخ ، والأعيان التي تخصص لكل وزير عمله ، والحكيم الذي ينظر
للعالم كلها نظرة عامة ، وقد شارك علماء الحيوان والنبات والفلك الخ وارتقى عليهم ، وكدين الاسلام الذي
جاء ومقصده عام لا يتقيد بشجر ولا بحجر ولا بكعبة : « فأينما تولوا فثم وجه الله » . فهذه الطائفة هي
التي تجعل لأمر الاسلام وحدة عامة للعالم كله ، لأن هؤلاء يقولون للمسلمين : « أيها المسلمون : إن الخلافة
والرئاسة ليست للمال ، إن هذا خطأ محض وجهل فاضح ، ليس هذا ديننا : قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو
إلا ذكرى للعالمين . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا . وإذا كان الطعام رغيغ لمسكين
يحتاج إلى اخلاص بلا جزاء ولا شكور كما ترى نور الشمس يصل إلى أهل الأرض ، هكذا يجب أن يكون
خليفة المسلمين ، فان كان غير ذلك فهو كاذب ، الخليفة ليس هو ذلك المترف المنعم . كلا . فاما أن يكون
كأبي بكر وعمر وعليّ وعثمان ، واما لا ، نحن لانطلب خليفة محجبا ولا منعما ، إن هذه جهالة أعظم الجهالات
هنالك نهد كل ما بناه الآباء من الخلاف والشجار الذي شجر بينهم وهم كانوا مجتهدين فيه ، فلهم جميعا
أجر فيما اختلفوا فيه ، لأنهم كانوا فيه مخلصين ، وكل منهم كان يعتقد أن الحق في جانبه ، ولا يكف الله نسا
إلا وسعها ، ذلك هو تحقيق الحق ، وهذا هو الجواب عما سألتني عنه أيها الصديق ، فهذه الأمم الاسلامية لما
كانت في مبدأ أمرها لم تطق صبرا على الأخلاق الشريفة النبوية والعمرية والبكرية والمعلوية والعثمانية ،
فرجعت التهقري درجة فدرجة ، فلما علم الله منهم ذلك ، وأهم لا يحملون الامانة كما أدت إليهم ، ولا يتورعون
عن ذلك سلب الله على العرب الفرس فدخلوا بينهم والترك وغيرهم ، وقال : أيها الأمم : إن العرب قد أخلوا
بشروط النبوة فادخلوا معهم وفرّقوا جمعهم ، لأنهم لم يجعلوا الخلافة بالشورى ، بل جعلوها للعصبة ، فإذا
كان الأمر كذلك فاني أذنت للأمر أن يزاحمهم « جزاء وفاقا » ، فدخل الفرس فزاحمهم ، ودخل الترك
كذلك ، ثم استبقوا بهم ، ذلك هو العدل الاطلي ، وهانحن أولاء الآن وأنا أكتب هذا وأنا من النسب العربي
الصميم ، أقول هذا هو التاريخ الاسلامي مجملا ، وهذا كان شأننا ، وهؤلاء الحكماء الآتون بعدنا سيصلحون

ما أفسده الزمان ، وأتى به الحدثنان ، وسيقولون للأئم الإسلامية كفى كفى :

ماضيات والمؤمل غيب * ولك الساعة التي أنت فيها

فقال صديقي بعد ذلك : هذا حسن وكيف بقي هذا إلى هذا الزمان ، وهذه نيف ١٣٣ قرنا ، وهي زمان طويل ، فلماذا تأخر هذا الإصلاح إلى هذا الزمان ؟ فقلت : أيها العزيز : اعلم أن هذا العالم فيه أمران اثنان أحدهما يصل في ثانيهما ، فالعامل هو العقل العام المسلط على ثانيهما وهي المادة التي ملهى إلا حركات في خيال الكون المسمى بالأثير ، وانعاسميناه خيالا لأنه يشبه خيالنا نحن ، فخيالنا نحن فيه بقوة عاقلة منظمة والحركات في الأثير المنبث في هذا القضاء الذي عبرنا عنه بالخيال هي هذه للمادة ، فالمادة بجميع حركات منظمات يتصرف فيها عقل ، وأظهر هذه المادة الشمس والأقمار والنجوم الثوابت والسيارات ، تشرق الشمس على الآفاق فيكون نبات ، وهذا النبات يأخذ في النمو أمدا على مقدار ماحدد له ، وبعد نضبه وتعبه يظهر فيه أزهار جيلة تحكي أنوار المشرقات وتستمد منها الضوء ، بل تنجعه للشمس عند طلوعها وعند مغيبها اتجاهها ، هكذا تلك العقول الكلية المدبرة لعولمنا الأرضية تربي عقولا جزئية في أرضنا كالعقول الإسلامية ، ولكن زهر تلك العقول لا يأتي إلا في حينه ، ولن يتعدى طوره ، تقديمًا وتأخيرًا ، فإذا رأينا أنما الإسلامية اليوم قد بزغ فيها جزا الإصلاح ، وأخذت أزهار العقول الإسلامية في نباتها نضبه للآل فهذا هو التلموس العام ، فلازهر لشجر إلا بعد حين يناسبه ، وهذا المين لم يمض له إلا ١٣٣ يوما من أيام الله الصغرى وهي القرون بعد أن استعدت الأمة لظهوره مصلحين هم أزهارها كما لم يزهر النبات إلا بعد استكمال قواه في أمده المعلوم .

هذا جواب ما سألتني عنه أيها الأخ في أمر أم الإسلام من حيث خلاف الأولين وشجارهم ، والتفلة المستحكمة ، ثم البقطة الحديثة ، ثم الإصلاح الذي بزغ بجره ، بما حكمته الله في ذلك ؟ وما سنن النظام ؟ فقال : لم أكن والله لأتوقع هذا الكشف والايضاح ، ولم يكن ليخطر لي أن أنال هذا الفتح المين ، ولكن مانوع التعاليم التي تخص بها طائفة المصلحين في أم الإسلام ؟ فقلت :

بهجة وجمال في ذكر التعاليم الخاصة بالمصلحين من حكماء الإسلام في مستقبل الزمان

اعلم أيها الصديقي أن هذه الطائفة في أم الإسلام مثلها كمثل من ذكرناهم في الأمتة السابقة ، بل كل ما سأفوه الآن يستج مما قرره لك الآن ، فهم كالمالك الذين يستندون على الشورى بالنسبة لوزرائهم ، وكالحكماء الكبار بالنسبة لعلماء العلوم الجزئية ، وكالأنبياء بالنسبة للمجتهدين كأبي حنيفة والشافعي ، ومجتهدى الشيعة وهكذا ، وكالانسان بالنسبة للحيوان في مثال الاغذية النباتية والنظرة العامة فيها ، فهؤلاء علومهم تكون موجهة للكليات كما تزي في القرآن : إن القرآن والنبوات موجهان للامور العامة ، ولو أن النبوة اختصت بجانب دون جانب من العلوم لم تكن نبوة ، بل هذا الاختصاص لطوائف يخلقون تابعين للنبوة ، ولقد جاء في كتاب « الاتقان ، في علوم القرآن » في الجزء الثاني في صفحة ١٧٦ وما بعدها مانصه : — « قال ابن تيمية في كتاب ألفه في هذا النوع : يجب أن يعلم أن النبي ﷺ بين لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه ، فقوله تعالى : « لتبين للناس ما نزل إليهم » يتناول هذا وهذا ، وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرءون القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا ، ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة . وقال أنس : كان الرجل اذا قرأ البقرة وآل عمران جده في أعيننا (رواه أحمد في مسنده) وأقام ابن عمر على حفظ البقرة ثمان سنين (أخرجه

في الموطأ) وذلك أن الله قال : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته » وقال : « أفلا يتدبرون القرآن » وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن ، وأيضا فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابا في فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشروونه ، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم ، وبه نجاتهم وسعادتهم ، وقيام دينهم وديناهم ؟ ولهذا كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلا جدا ، وهو وإن كان بين التابعين أكثر منه بين الصحابة فهو قليل بالنسبة إلى من بعدهم ، ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة ، وربما تكلموا في بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال ، والخلاف بين السلف في التفسير قليل ، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع ، لا اختلاف تضاد ، وذلك صنفان : أحدهما أن يعبر واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى كتفسيرهم الصراط المستقيم بعض بالقرآن أي اتباعه ، وبعض بالاسلام ، فالقولان متفقان ، لأن دين الاسلام هو اتباع القرآن ، ولكن كل منهما نبه على وصف غير الوصف الآخر ، كما أن لفظ صراط يشعر بوصف ثالث ، وكذلك قول من قال هو السنة والجماعة ، وقول من قال : هو طريق العبودية ، وقول من قال : هو طاعة الله ورسوله ، وأمثال ذلك ، فهؤلاء كلهم أشاروا إلى ذات واحدة ، ولكن وصفها كل منهم بصفة من صفاتها . الثاني : أن يذكروا كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتبنيه المستمع على النوع ، لاعلى سبيل الحد المطابق للحدود في عمومته وخصوصه ، مثاله ما نقل في قوله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا » الآية ، فنعلم أن الظالم لنفسه يتناول المضيق للواجبات ، والمتنهد للمحرمات . والمقتصد يتناول فاعل الواجبات ، وتارك المحرمات ، والسابق يدخل فيه من سبق فتقرب بالحسنات مع الواجبات ، فالتقصدون أصحاب اليمين والسابقون السابقون أولئك المقربون ، ثم إن كلا منهم يذكروا هذا في نوع من أنواع الطاعات كقول الفاضل : السابق الذي يصلي في أول الوقت ، والمقتصد الذي يصلي في أثنائه ، والظالم لنفسه الذي يؤخر العصر إلى الاصفرار ، أو يقول : السابق المحسن بالصدقة مع الزكاة ، والمقتصد الذي يؤدي الزكاة المفروضة فقط ، والظالم مانع الزكاة ، انتهى ما أردته من كتاب « الاتقان ، في علوم القرآن » والحمد لله رب العالمين .

وقد أطال في ذلك صاحب الاتقان ، ونحن نكتفي بهذه الشفرة استدلالا على ما أردناه وهو أن هذه الطائفة آراؤها عامة موجبة لاسعاد المجموع بما هو عام ، فأما الفروع فلها شأن آخر ، إذن سلف الأمة الذين شادوا مجدها لم يكن نظرهم محصورا في الجزئيات كما هو شأن جميع المذاهب الاسلامية في العصر المتأخر ، فانهم أفرغوا جهدهم في استقصاء الفروع ، ونسى أكثرهم النظام العام الذي كان بينه النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه في تعليمهم ، أفليس هذا من العجب ! أوليس من العجب أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل كما قدمناه هنا قريبا ، ويقولون : « تعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا » ، وقد كانوا يبقون مدة في حفظ السورة ، وانظر كيف يقول أنس : « كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جده في أعيننا » ، وكيف يقيم ابن عمر على حفظ البقرة ثمان سنين ، وكيف يقول صاحب كتاب الاتقان : « إن كتب الطب والحساب تشرح وتفهم فكيف بكتاب الله تعالى ؟ » .

عجب وألف عجب يلرب ! إذن ما جاء في هذا التفسير موافق ومناصب لما كان عليه الصدر الأول ، إذن هذه سنة اسلامية جيلة ، فاجد الله على العلم والحكمة ، إذن الفكرة العامة وحب العلم ، وحب الله ، وحب الأمة ، تتأخر هذا القرآن ، وهو المقاصد العامة التي يبثها هؤلاء المصلحون الآن في أمم الاسلام .

آراء (جون راسكن)

المولود سنة ١٨١٩ المتوفى سنة ١٩٠٠

أفلا نهج أيها الذكي من علماء أوروبا : أولئك الذين شربوا من مناهل علوم أباتنا كيف يقولون ، هذا ، راسكن يقول في قطعة تحت عنوان « التعليم الحقيقي »
 « ان التعليم سواء أ كان لأدنى الطبقات أو أعلاها لا عبء فيه بما كثر منه أو قل على شريطة أن يكون مغريا للتعلم على الاكباب على العلم ، وأن يعرف كيف يدبر حركة أعماله ويتقنها الخ » اه .
 وأوضح منه وأصرح وأنسب لموضوعنا قول غيره تحت عنوان « تعليم الأطفال »
 « ان مقاصد التعليم الهامة تنحصر في توجيه همه المتعلم الى الاكباب على القراءة والفهم » ثم قال :
 « كما أننا لا نتعاطى جميع ما يعوزنا من الطعام طول النهار وقت الصباح ، هكذا لا نحمل أذهاننا مشاق تحصيل جميع العلوم في صباح الحياة وأول العمر : بل العمر كله زمان مهيب لتحصيل العلوم ، ومن ذا الذي يعد الطالب لذلك ، ويحدث في قلبه غراما وعشقا لتحصيل أمد الحياة الا الاساتذة المعلمون والمدرسون الصادقون الخ » .

فهذان الرأيان مجمعان على أن الغرام بالتحصيل ، والولوع بالعلوم هو الذي يبعث في الأمم رجالا يكونون مصايح يضيئونها ، وقناديل ينيرون سبلها ، وكواكب في دجنات الظلمات ، وحناس دهر النهار ، مع معرفة ما يعملون ، وادراك كنه مايزاولون .

ضرب مثل لحكام الأمم الاسلامية في المستقبل يمسوب النحل

(١) قال فاضرب لي مثل هؤلاء المصلحين في أم الاسلام بعدنا الذين يصلحون ماأفسدته يد الأيام وحوادث الدهر ، ويعلمون أم الاسلام كيف يصلحون بين طائفتين من المؤمنين اقتتلوا ؟ وكيف يقومون بالعمل بآية « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأتى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » ويصرفونهم عما وقع فيه أبائهم من الشجار على الخلافة والامارة ، وان ذلك إنما جعله الله تجربة يحترس من مثلها الابناء فلا تكون الممالك المتحدة ولا اليابان ولا الصين ولا ألمانيا أولى منهم بالاتحاد والاجتماع وترك الشجار على عرض الدنيا الزائل ، وان كان للآباء في ذلك تأويل ، وهم جميعا ناجون ، الخاطئ منهم في اجتهاده ، ومن هو على صراط مستقيم .

(٢) ثم ماعلامة هؤلاء المصلحين : فقلت . انما مثل هؤلاء الذين يأتون بعدنا من حكام أم الاسلام كمثل الخشرم : فقال ؟ وما الخشرم : فقلت . يمسوب النحل وهي الملكة التي تقود الآلاف المؤلفة من النحل في الخلية ، فقال : وما المناسبة بين المشبه والمشبه به : فقلت لعلك اطلمت في خلايا النحل على تلك الاشكال المسدسات المنتظمة اللثيمات المجتمعة معا . قال نعم اطلمت ، فقلت وهناك ترى من تلك الاشكال المصنوعة من الشمع ماملئ عسلا ، ومنها ما جعل منزلا ليبيض النحل ير في فيصيرد كورا للنحل أو يصير نحلا عاملة (انظر هذا المقام في سورة النحل ، والاشكال هناك مرسومة موضحة) وهناك أيضا ترى منازل أخرى ممتازة بيضاء وهي قليلة بالنسبة لغيرها ، فهذه البيوت تربي فيها تلك الملكات أو العاسيب أو الخشارم ، فترى الملكة تأمر أن تقضى التربية العاملة والذكور بصل معتاد : أما العاسيب الصغار فانك ترى عسلهن أنقى وأجل وأصنى : قد اصطفاه النحل من مواد خاصة حتى تخرج العاسيب أو الملكات ذوات أجسام أقوى وغرائز أصنى فتدبر

الخلية كلها وتكون حفاظا ونورا للجميع هذا في المثل به : أما الذي ضربنا له هذا المثل ، وهم المسلمون في أمم الاسلام المستقبلية فانهم طائفة نسبتهم في القلة الى أمم الاسلام كغلبة العباسيين الى الآلاف المؤلفة في الخلية الواحدة ، وهذه العباسيين عند بلوغهن سنا معلومة يتقاتلن ومن غلب فهو القائم بنظام هذه الدولة النحلية الصغيرة ، وهذه الطائفة الاسلامية التي ضربنا لها هذا المثل يقرءون من العلوم أجلها ويضربون في كل علم بسهم ، وتكون تلك العلوم أغذية لنفوسهم كما اغتذت الملكات النحلية بأنواع ما يجناه النحل من رحيق الزهر الجليل ، وهذا التشبيه حق ، فان العلوم زهرات هذه الدنيا وعمراتها ، والرحيق المختوم المنجوه في تلك الزهرات هو محاسن نظام هذه الدنيا الجليل ، وحب صافع العالم ، وحب الامم الانسانية ، وارتقاء النفس عن السفاسف وشوق النفوس ، وعشقها للانسانية ، وريقها وسعادتها ، فهذا هو الرحيق المختوم المنجوه في زهرات هذه الدنيا ، وزهرات هذه الدنيا : هي العلوم والمعارف .

فما مثل العلماء المتقدين في الامم الذين أغرموا بعلوم اللغات كعلوم اللغة العربية الاثني عشر ، وعلوم اللغات الأخرى ، أو بعلوم خاصة من رياضية أو طبيعية أو فرع من فروعها أو صناعة من الصناعات المتفرعة عليها أو بعلوم القانون في أي أمة من الامم أو بعلوم ظواهر دين من الديانات . أقول ما مثل هؤلاء الاكمل النحل العاملة في خلايا النحل الاثني تثار عند رؤيتها « وما لنا الاله مقام معلوم » فلكل منها عمل خاص ، وأعمال الخلية موزعة عليها توزيعا عادلا ، والملكة رباط الجميع ، فهؤلاء النحلات كلهن اتقمن أعمال الملكة ، وغذاؤهن وهن أجنة ليس من العسل المصني : فهذا الغذاء غير المصني في الصغر مناسب لأعمالها عند ادراكها : فالعمل فرعي والغذاء غير مصني : أما اليسوب فغذاؤها مصني ، وعملها عام للجميع .

فاذا رأينا علماء اللغة أو الفقه أو الرياضيات أو صناعة من الصناعات ، فان هؤلاء كالنحل القائمات بأعمالهن في الخلية ، واذا رأينا المرمين بالحكمة العاشقين للعلم الذين يلمون بجميع أطراف هذه العلوم ويختصون هم بالمثل الأعلى قلنا هؤلاء هم حكام هذه الأمة القائمون بتدبيرها بعدنا ، المجتهدون في اصلاحها : هذا جواب سؤالك الأول .

أما علاماتهم فأقول : ان لهم « علامتين : العلامة الأولى » تؤخذ من الجواب الأول ، فهم المرمون بجمال هذه الدنيا من العلويات والسفليات ، العاشقون لكل علم ولكل فن ، المسكبون على صفوة العلوم المحبون لصانع العالم وعباده الواطون بأمر الاسلام أن ترقى .

« العلامة الثانية » أن الناس يصغفون اليهم ، ويميلون الي كلامهم ويستمعون لهم ، وتقبل القلوب عليهم ، ويميل العقلاء بأقوالهم وآرائهم بشوق وتوق : فهاتان هما علامتان . فقال : حسن ولكن أي الكتب يقرؤها الانسان حتى ينال هذه الدرجة الرفيعة ؟ فقلت : السموات والأرضون والبحار والأنهار والسحب والجبال ، هذه هي الكتب التي يقرءونها ، وكتاب الله الدال على ذلك . فقال : هذا أجل ان هذه للتذكورات مبدولة للناس جميعا ولكن أ كثر الناس لا يعلمون .

فقلت : فان أردت يا صالح إلا التخصيص فاني أقول : إن هذا التفسير وما يماثله من الكتب العامة لمؤلفي الاسلام في زماننا وفيما قبله منارح تنبت فيها وتزهر عقول وعقول ، والاستعداد هو الذي به يتناز الجيد من الرديء ، والخيث من الطيب ، والسابق والمقتصد ، والاول والآخو ، « وربك يخلق ما يشاء ويختر ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون . وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون » فاذا رأيت أبا الصديق أمثال الخلفاء الراشدين وسداد حكمهم وبارع حكمتهم وما أنوارهم ذكاء وفضة ، حتى قال بعض حكماء أوروبا في عصرنا وقتلنا عنهم ذلك في هذا التفسير : انهم كانوا أذكى من قياصرة الروم وأكاسرة

الفرس في زمانهم ، فإذ ذلك الامن التعاليم التي كانوا يتلقونها من النبوة عند تلاوة الآيات القرآنية كما تقدم وأنهم كانوا لا يحفظون شيئا حتى يفهموا حقائقه ، وما هي هذه الحقائق ؟ هي التي ظهر لنا نتائجها في أعمالهم وأقوالهم يحوطون أمهم والأهم الخاضعة لهم بعبادتهم ورحمتهم ، لأنهم فهموا معنى آية « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » فصاروا هم رحمة للعالمين ، وللمسلمين وحدهم ، فمع عدلهم وفهموا أن الغنائم لم تكن لأجل شهواتهم بل كانت لإصلاح المجموع : فلذلك نبذوا النعم ظهريا ورضوا بالخبز الذي لم يدخل وتركوا عرض الحياة الدنيا وهكذا ، وهذا نموذج لصفوة العلوم التي يصطفها أئمة المسلمين بعدنا الذين يكون مثلهم في أمم الاسلام كمثل الانسان في نوع الحيوان أو كمثل دين الاسلام بالنسبة لسائر الديانات بل هو عليهم . فهؤلاء المصلحون بعدنا تكون وجهتهم المصلحة العلمية وقيادة مجموع الأمة يحترمونها المناهبة كلها ويحبون العلوم كلها ويكونون للمسلمين أباء ، فاذا رأوا الشافية والخفية والمالكية والحنبلية والشيعية والزيدية والاباضية وأمثالهم مكين على فروع زاولوها ، وأحدث تلفظوها وعاشوا على ذلك وماتوا فليقرروهم وليغرمواهم بجمال العوالم ، وحب المجموع الاسلامي ، وحب الله عز وجل ، وتوجيه هم المسلمين الى المثل الأعلى .

ذلك أيها الأخ جواب ما سألتني عنه . فقال : بقي لي سؤال واحد ، وأنا لك شاكر . فقلت : وأنا إن شاء الله مجيب . فقال : من أين أنت لك هذه الاجابات مع أنك قبل أن أتى السؤال عليك لم يكن لك به علم . فقلت : ان الاجابات أحسن بها في قلبي وقت السؤال فيشرح صدري للإجابة فأجيب . فقال : وهل كل ما يشرح صدرك له يكون علما . فقلت : ذلك له ميزان . فقال : وما هو ذلك الميزان . فقلت : الميزان هو الدين أولا ، والعقل ثانيا ، والنظر لحاجة الأمم الاسلامية ثالثا ، فان وافقها فهو حق ، وان خالف الدين أو العقل أولم يكن له دخل فيما يحتاج اليه المسلمون لم يكن خيرا جواب فلا أجيب به . فقال : لقد أظلت عليك بالأسئلة ، ولقد أفدت خيرا فإفادته ، فأنا أجد الله على هذه النعم . فقلت : « ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون » . انتهى ظهر يوم الثلاثاء ٥ يناير سنة ١٩٣٣ م النصف الثاني من شهر شعبان سنة ١٣٥٠ هجرية .

نور على نور

في أخلاق عصر النبوة ، وفي الخلافة الاسلامية ، وفي فروع الدولة العباسية المنفصلة

عنها ، وفي جميع الممالك الاسلامية من عصر النبوة الى الآن .

حضر صاحب العلامة الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير في اليوم التالي لكتابة هذا المقال : وقال .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله الكرام . أما بعد : فاني اليوم أريد منك أن تبين لي أمرين ، قد أشكلا عليّ فيما تقدم : لما أولمنا فانك ذكرت في الأمر السادس عند تعليقك على أعمال الدولة العباسية أن عبد الله بن الحسن والد صاحب البيعة جاء الى السفاح الذي اغتصب الملك من ابنه فأكرمه وعرض عليه المال فأعطاه ألف ألف درهم الخ ، وأن ذلك يدل على أن أخلاق بعض آل بيت النبوة قد تغيرت في القرن الثاني بعد القرن الأول ، وأن الترف صار مرغوبا فيه بعد أن كان مبتعدا عنه ، فأرجو أن تذكر لي شذرة من أخلاق رجال العصر الأول ليكون تذكرا وتبصرة . فقلت : أذكر أن المغيرة (كما ذكرته في بعض هذا التفسير) لما قال له رسم القائد الفارسي في أثناء واقعة القادسية « انكم تموتون فيما تطلبون » فقال المغيرة « يدخل من قتل منا الجنة ومن قتل منكم النار ، ويظهر من بقي منا

على من بقي منكم » وكقول عبادة بن الصامت للقوقس صاحب مصر . لما خوفه بجوع الروم وانهم لن يقدروا عليهم وهم محاصرون حصن بابل : فقال عبادة .

« يا هذا لا تفرّج نفسك ولا أصحابك . أما ماتخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم ، وأنا لا تقوى عليهم ، فلعمري ما هذا الذي تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه . وان كان ما قلتم حقا فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم وأشدّ لحرصنا عليهم . لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه ان قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته ، وما شيء أقرّ لاعتينا ولا أحب لنا من ذلك ، واتنا منكم حينئذ لعلي لإحدى الحسينين أما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم أو غنيمة الآخرة ان تظفرتم بنا ، ولانها أحب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا . وان الله عز وجل قال لنا في كتابه « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » وما منا رجل الا ويدعور به صباحا ومساءً أن يرزقه الشهادة ، وأن لا يرده الى بلده ولا الى أرضه ولا الى أهله وولده . وليس لأحد منا همّ فيما خلفه ، وقد استودع كل منا ربه أهله وولده . وانما همنا أماننا . وأما قولك : اننا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن في أوسع السعة : ولو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأقتنا أكثر مما نحن عليه » اهـ

فلما سمع صاحبي ذلك قال كفا في ما ذكرت في الأمر الأول . نحن الآن في تفسير آية « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوها بينهما » . هاهو ذا الخلاف المستحكم بين المسلمين في العصور الأولى مائل أماننا ، فأرايك أنت في الخلافة ؟ قلت : رأيت ذكرته في بعض أجزاء هذا التفسير . فقال أريد أن تصرح به هنا لأن هذا مقامه قلت قد كتبت في مجلة « المعرفة » في شهر يناير سنة ١٩٣٢ فقال أرجو انبائه هنا مأخوذاً من خوى ما هنا ، قلت قد جاء فيها تحت العنوان الآتي ما يأتي ، وهذا نصه :

آراء خطيرة في الخلافة الاسلامية

مبحث الخلافة الاسلامية مبحث مهم من المباحث العلمية الاسلامية ، وكل علم لا يعرف الناس أدوار تاريخه يكونون في دراستهم له ، وأحكامهم فيه أشبه شئ بمن يبنى بيته على شفا جرف هار ، ومن يستمن ذا ورم وينفخ في غير ضرم .

إن الخلافة الاسلامية في الأعصر الغابرة لعبت دورا عظيما مهما ، وشغلت أم الاسلام قاطبة ، وفتروا فيها فرقا شتى وأحزابا متباينة ، وينشأ الناشئون من الأبناء على ما عودهم الآباء . وينشأ ناشيء الفتيان منا * على ما كان عوده أبوه

وكل حزب بما لديهم فرحون ، وهل ينسني لطفل تربي على مذهب خاص في أمر الخلافة أن يفكر في القرآن وفي الاجماع ؟ بل يظل على عقيدته حافظا لطريقته لا يتعداها ، جامدا عليها لا يتخطاها . إن أكثر نوع الانسان في الأرض مقلدون ، جدت الفرائح وتعارضت الظنون ، ووقفت الحركة العلمية الاصلاحية في جميع الشؤون ، حتى إذا قرعت القارعة ، وأصابت الصاعقة ، وأحاطت بنا الأمم « وهم من كل حدب ينسلون » أذاقونا سوء العذاب ونحن غافلون . فتعالوا أيها المسلمون أنزل عليكم نبا الخلافة ، وأبد رأيا بجمل يقبل التفصيل والتحوير .

إن أمر الخلافة لن يستقر قراره ويتم الرأي فيه الا بالبحث في أحوال الخلفاء السابقين والوقوف على أعمالهم حتى نستنتج نتائج منها ، ثم نعتبر بما فعله أسلافنا ، ونبنى على ذلك الأساس عملا بقوله تعالى : « فاعتبروا يا أولى الأبصار » وقوله تعالى « أفلم يهد للذين يرثون الارض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » .

إن الخلافة إذا كانت مقيدة بالشورى ، وجهة للمصلحة العامة بأخلاص ، تصبح خدمة عامة لا ينتطح في أمرها عزان ، ولا يرثها الأبناء عن الآباء ، فإن كانت غير ذلك كانت أداة سوء تنقادها في أيدي الجهال وتأتي أن ينالها الأبطال . توفي رسول الله ﷺ وخلفه أبو بكر فصر فثمان فعلى رضي الله عنهم . درسنا بحل أخلاق الخلفاء الراشدين فلم نجد أبا بكر وصى بها لابنه ، واستنكر عمر قول من طلبها لابنه عبد الله ، ثم لم تر أحدا منهم استنكر من الأموال وانبع الشهوات ، ذلك شأن الخلافة في الاسلام . إن أمر الخلافة شورى بين السلمين « وشاورهم في الأمر » « وأمرهم شورى بينهم » هذا هو الصراط المستقيم .

مصى عصر الراشدين ، وتولاها الأمويون وأولهم معاوية فاستبدوا بالأمر فقاومهم بنو هاشم ففتك بهم الأمويون فتكا ذريعا ، ثم اشتد العباسيون والعلويون في مقارمة الأمويين ، وساعدهم شيعتهم الفارسيون وبطلهم أبو مسلم الخراساني ، وأكثروا من موضوعات الاحاديث ، وما كاد الأمر يتم للعباسيين حتى قبلوا ظهر الجن للعلويين وقتلوا بهم فتكا ذريعا ، وقتل المنصور محمد بن عبدالله ، وهو الخليفة الحقيقي صاحب البيعة الصحيحة .

هنالك أصبح الخليفة العباسي بعد تشريد الأمويين يقتل العلويين باليمين وأبناء عمه العباسيين بالشمال بل كثيرا ما كانوا يقتلون شيعتهم غدرا كأبي مسلم الخراساني وجعفر البرمكي وغيرها كثير . ولقد تعالى العباسيون في إذلال العرب كما تعالى بنو أمية في إعلاء شأنهم على غيرهم ، ومقاله ابراهيم الامام لابي مسلم « من تردت في أمره فاقتله » وحرضه على قتل العرب فقتل منهم ٦٠٠ ألف رجل غدرا وهم آمنون . مات الرشيد وخلفه الأمين والمأمون وأمّ الأول عريية ، وأمّ الثاني فارسية فنصر الفرس ابن أختهم وشردوا العرب كل مشرد وأذلّوهم ومنعهم المعتصم العطاء . ولما كانت أمّ المعتصم تركية من بلاد الصفد أصبح مغرما بالترك غير واثق بالعرب ولا بالفرس أجمعين .

هناك أصبحت الخلافة في العباسيين اسما بلا معنى ، وتنازع القواد من غير العرب الرئاسة وصار الخلفاء آلات صماء في أيديهم فقتلوا منهم ٣٨ من ٥٩ وسلموا أعين بعضهم حتى زالت الدولة على أيدي التتار ، وكل ما حصل للعباسيين تم نظيره في الأندلس ، وقد كانوا يستغيثون بحيراتهم من الاسبان على اخوانهم ، فبهلك الفريقان ، فر بما كانوا يقتلون المستجير بهم غدرا كما حصل لجندل بن حود أمير أشبيلية اذ وعده البابا ودوق فينيزيا وبعض دوقات أوروبا أن يكون ملك الأندلس كلها اذا ساعدهم في فتح قرطبة فبرّ بوعده لم يقتلوه غدرا وخربوا أشبيلية .

هذه شذرة من تاريخ الخلافة وما يتبعها من الامارات في الاسلام . وكان ذلك كله عقابا على ترك الشورى المنصوص عليها في القرآن . والذي أراه :

(أولا) — أنه يجب على كل أمة « عريية أو غير عريية » أن تعمم التعليم للذكور والإناث بقدر الامكان .
(ثانيا) — يجتمع أمراء الاسلام المفوضون من أمهم في أمر الخلافة ، ليقنخوا أميرا منهم لها ، على شريطة ألا يرث أمرا الا بمشورتهم : من صلح أو حرب أو غيرهما كما كان يفعل الخلفاء .

(ثالثا) — أن يكون الانتخاب لسنين محددة أولدة الحياة ، فاذا انقضت المدة في الأول أومات في الثاني فليقتنخوا سواء بالشورى ، فاذا أعيد انتخابه في الحالة الأولى قلد ذلك .

(رابعا) — يجب أن يراعى في الخليفة أمران مهمان وهما (١) أن يكون جيشه أقوى جيوش الامراء (٢) أن يكون أهل مملكته أعلم من سائر الأمصار ، ولا يكون للنسب فضل إلا في الترجيح اذا تعارض أميران واستوفيا مآذركناه . ونستأنس للشرطين المذكورين بقوله تعالى « وزاده بسطة في العلم والجسم » .

(خامسا) - كل أمير تسيطر عليه دولة أجنبية لاحق له في تولي أمر الخلافة ، لأن رأيه تابع لرأى من فوقه ، وهذا صار بالساميين .

(سادسا) - اذا تعذر الاجتماع في هذا الزمان «لضعف أو افتراق كلمة» فليترص المسلمون الوقت المناسب . فأما الخلافة الضعيفة التي يتولاها من لا يحوز هذه الثقة ، فما هي الا شبكة صائدين ، وخيلة محتالين ، فهل المسلمون عقار يتناوله الابناء عن الآباء ؟ كلا ، إنهم خير أمة أخرجت للناس ، وهم شهداء عليهم فليكونوا بالاولى خلفائهم مصطفين ولهم مشيرين وعلى أعمالهم شاهدين ولا عوجاجهم مقومين . هذا ما أراه في شأن الخلافة وفوق كل ذي علم عليم . هذا هو ما كتبت في مجلة المعرفة ، والحمد لله رب العالمين . فلما سمع صاحبي هذه المقالة قال : حسن هذا الرأي ، ولقد ذكرت فيه : أن الدولة العباسية اضمحلت وضعفت واستبد بها عمالها ، فهل من سبيل الى معرفة الفروع التي تفرعت لها تلك الدولة أيام ضعفها ؟ فقلت نعم جاء في الجزء الاول من تاريخ التمدن الاسلامي ما يأتي :

وجعلت سلطة الخلفاء تنقلص حتى وسعها السواديين الفرات ودجلة . ولم يكده يدخل القرن الرابع للهجرة حتى انحصرت سلطتهم في مدينة بغداد ، واليك فروع المملكة الاسلامية على عهد الراضي بالله في الربع الاول من القرن الرابع للهجرة :

الولايات	حكماها
البصرة	في يد ابن رائق
خوزستان	» البريدي
فارس	» عماد الدين بن بويه
كرمان	» أنى علي محمد بن الياس
الري وأصفهان والجيل	» ركن الدولة بن بويه وغيره
الموصل وديار بكر ومضرب بيعة	» بنى جندان
مصر والشام	» الاخشيدي
خراسان وما وراء النهر	» السامانية
طبرستان وجرجان	» الديلي
البحرين والجمامة	» القرامطة

استبداد الجنود والخدم

ومعازاد الامر استفحالا أن الخدم والاجناد أصبحوا مطلق الايدي في قصور الخلفاء يستبدون في أعمالها ويسومون الخلفاء صنوف الاهانة وأنواع العذاب . كما فصل جند المغاربة والأتراك في المعز سنة ٢٥٥ هـ لما خلعه لأنه قصر في عطايتهم . فانهم دخلوا حجرتهم وجروه برجله الى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه وأوقفوه في الشمس . فكان يرفع رجلا ويضع الاخرى لشدة الحر . وبقى بعضهم يلقمه ، وهو يتقى بيده وأدخلوه حجرة وأحضروا ابن أبي الشوارب القاضي وجاعة فاشهدوهم على خلعه ثم سلوه الى من يعذبه ومنعوه الطعام والشراب ثلاثة أيام . ثم ادخلوه سردابا وجصوه عليه فمات (١) . ومع كل ما لحق الخلفاء من التذل والضعف لم يخطر للفارس ولا للأتراك ولا لغربهم من غير عرب قر يش أن ينزعوا الخلافة من أعناق بني العباس . فما زالت الخلافة العباسية في بغداد حتى جاءها التتر من مفازة الصين فافتتحوها وقتلوا خليفاتها

(١) ابن الأثير ٧٧ ج ٧

سنة ٦٥٦ هـ ففر من بني من أهله إلى مصر والتجأوا إلى سلاطينها المماليك فأزلوهم على الرحب والسعة إلى أن فتح السلطان سليم العثماني مصر سنة ٩٢٣ هـ فأخذ الخلافة منهم . وبلغ عدد الخلفاء العباسيين جيها نيفا وخمسين خليفة منهم ٣٧ في العراق ، وأولم السفاح وآخرهم المستعصم والباقون في مصر . فلما سمع صاحب ذلك قال ما أحسن التفصيل بعد الاجال ، ولو أننا وقفنا على مجمل الدول الإسلامية من أول عصر النبوة إلى الآن : لكان ذلك أشد جلالا وكلاما . فنلتهاك جدولاً يبين ذلك وهذا نفسه .

جدول الدول الإسلامية منذ ظهور الإسلام إلى الآن

اسم الدولة	كرسى ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هجرية	سنة انقضاءها هـ
الخلفاء الراشدين	مكة	٠٤	٠١١	٠٤٠
الدولة الأموية بالشام	دمشق	١٤	٠٤١	١٣٢
العباسية	بغداد	٣٧	١٣٢	٦٥٦
الأموية بالاندلس	قرطبة (الاندلس)	١٩	١٣٨	٤٢٢
المجوبية	مالقة	٠٩	٤٠٧	٤٤٩
»	الجزيرة	٠٢	٤٣١	٤٥٠
العبادية	اشيلية	٠٣	٤١٤	٤٨٤
الزيرية	غرناطة	٠٥	٤٠٣	٤٨٣
الجهورية	قرطبة	٠٣	٤٢٤	٤٦١
ذوالنونية	طليطلة	٠٣	٤٢٧	٤٧٨
العامة	بلنسية	٠٧	٤١٣	٤٧٨
التوجيبية	سرقوسة	٠٩	٤١٠	٥٣٦
ملوك دانية	دانية	٠٢	٤٠٨	٤٦٨
النصرية	غرناطة	٢١	٦٢٩	٨٩٧
الادارسة	مراكش (افريقيا)	١٠	١٧٢	٣٧٥
الاغالبة	تونس وغيرها	١١	١٨٤	٢٩٦
الزيرية	»	٠٨	٣٦٣	٥٤٣
بنو حجاج	جزائر الغرب	٠٩	٣٩٨	٥٤٧
المرابطون	مراكش وغيرها	٠٦	٤٤٨	٥٤١
الموحدون	شمال إفريقيا	١٣	٥٢٤	٦٦٧
بنو حفص	تونس	٢٢	٦٢٥	٩٤١
بنو زيان	جزائر الغرب	١٠	٦٣٣	٧٩٦
بنو مرين	مراكش	٣٥	٥٩١	٩٧٥
الشرقاء	»	٢٨	٩٥١	لازل
الطرلونية	القطائع (مصر)	٠٥	٢٥٤	٢٩٢
الاشيدية	الفسطاط (مصر)	٠٥	٣٢٣	٣٥٨

اسم الدولة	كرسى ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هـ	سنة انقضاها هـ
الفاطمية	القبروان والقاهرة . مصر	١٤	٢٩٧	٥٦٧
الايوبية (١)	القاهرة (مصر)	٠٩	٥٦٤	٦٤٨
المماليك البحرية	»	٢٧	٦٤٨	٧٩٢
» الشراكسة	»	٢٣	٧٨٤	٩٢٢
العائلة الخديوية	»	٠٧	١٢٢٠	لا تزال
الزيادية	زيد (اليمين)	٠٩	٢٠٤	٤٠٩
اليعقوبية	صنعاء الخ	٠٩	٢٤٧	٣٤٥
النجاحية	زيد	٠٨	٤١٢	٥٥٣
الصليحية	صنعاء	٠٣	٤٢٩	٤٩٥
الهمدانية	»	٠٨	٤٩٢	٥٦٩
المهديية	زيد	٠٣	٥٥٤	٥٦٩
الزيرية	عدن	٠٨	٤٧٦	٥٦٩
الرسولية	اليمين	١٧	٦٢٦	٨٥٨
الطاهرية	»	٠٤	٨٥٠	٩٢٣
الأئمة الرسية	صعدة	١٧	٢٨٠	٧٠٠
أئمة صنعاء	صنعاء	٠٠	١٠٠٠	لا تزال
الجدانية	الموصل الخ (سوريا)	٠٩	٣١٧	٣٩٤
المرداسية	حلب	٠٧	٤١٤	٤٧٢
العقيلية	الموصل وغيرها	٠٧	٣٨٦	٤٨٩
المروانية	ديار بكر	٠٥	٣٨٠	٤٨٩
المزيرية	الحلة	٠٨	٤٠٣	٥٤٥
الدلفية	كرديستان (فارس)	٠٥	٢١٠	٢٨٥
الساجية	أذربيجان	٠٤	٢٦٦	٣١٨
العلوية (الزيديية)	طبرستان	٠٤	٢٥٠	٣١٦
الطاهرية	خراسان	٠٥	٢٠٥	٢٥٩
الصفارية	فارس (فارس)	٠٣	٢٥٤	٢٩٠
السامانية	تركستان وفارس	١٠	٢٦١	٣٨٩
خانات ايلك	تركستان	٢٤	٣٢٠	٥٦٠
الزيرية	جرجان	٠٦	٣١٦	٤٣٤
الحسنوية	كرديستان	٠٣	٣٤٨	٤٠٦
بنويوية	العراق وغيرها	٢٠	٣٢٠	٤٤٧

(١) لهذه الدولة فروع كثيرة حكمت مدات متفاوتة في دمشق وحلب وبين النهرين وجاه ص وبلاد العرب وعددهم كلهم ٣٧ سلطانا

اسم الدولة	كرسى ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هـ	سنة انقضاءها هجرية
الكاكويهية	کردستان	٠٢	٣٩٨	٤٤٣
السلجقة وفروعهم	جنوبي آسيا	٥١	٤٢٩	٧٠٠
المانشندية	سيواس وغيرها	٠٥	٤٩٠	٥٦٠
الانابكة البوريون	دمشق	٠٦	٤٩٧	٥٤٩
» الزنجيون	سوريا وبين النهرين	٢٠	٥٢١	٦٤٨
» البكتجينيون	ار بلا وغيرها	٠٣	٥٣٩	٦٣٠
الارتقية	ديار بكر	٢٥	٤٩٥	٧١٢
شاهات ارمينية	أرمينية	٠٨	٤٩٣	٦٠٤
انابكة اذربيجان	اذر بيجان	٠٥	٥٣١	٦٢٢
السفريه	فارس	٠٩	٥٤٣	٦٨٦
المزارسية	لورستان	١٤	٥٤٣	٧٤٠
شاهات خوارزم	خوارزم	٠٨	٤٧٠	٦٢٨
الغانات القتلغية	كرمان	٠٨	٦١٩	٧٠٣ (١)
آل عثمان	الاستانة العلية وغيرها	٣٥	٦٩٩	لا تزال
خانات المغول	زقارية وغيرها	٣٤	٦٠٣	١٠٤٣
مغول الفرس	فارس	١٧	٦٥٤	٧٥٠
خانات العشار الذهبية	قاراختاي	٤٠	٦٢١	٩٠٧
» القرم	القرم	٤٦	٨٢٣	١١٩٧
» جاغتاي	تركستان	٢٦	٦٢٤	٧٦٠
الجيلاريون	العراق وغيرها	٠٦	٧٣٦	٨١٤
المظفريون	فارس وکردستان	٠٦	٧١٣	٧٩٥
السربداريون	خراسان	١٢	٧٣٧	٧٨٣
السكرتيون	هراة	٠٨	٦٤٣	٧٩١
القراقبوليون	اذر بيجان وغيرها	٠٥	٧٨٠	٨٧٤
اق قيونليون	»	١٢	٧٨٠	٩٠٨
شاهات الجيم	ايران وغيرها	٣١	٩٠٧	لا تزال (٢)
النيموريون	تركستان والتتر	١١	٧٧١	٦٠٦
الشيبيانيون	»	١٩	٩٠٦	١٠٠٧
المنجيون	»	٠٦	١٢٠٠	١٢٨٤
خانات خيوا	»	٣٥	٠٩٢١	١٢٨٩
» خوقند	»	١٧	١١١٢	١٢٩٣
الجانيون	استراخان	١١	١٠٠٧	١٢٠٠
الغزويون	افغانستان وبنجاب	٢٢	٣٥١	٥٨٢
الغوريون	» وهندستان	٢٠	٥٤٣	٦١٢

(١) قد أسقطها مصطلح كمال باشا، وصارت الآن جمهورية (٢) سقطت أيضا في عصرنا

اسم الدولة	كرسى ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هجرية	سنة انقضاءها هجرية
سلاطين دهلي	هندستان	٣٨	٦٠٢	٩٦٢
ملوك البنغال وحكامها	البنغال (الهند)	٥٥	٥٩٩	٩٨٤
« جانپور الشرقيون	» جانپور	٠٦	٧٩٦	٩٠٥
« مالوا	» مالوا	٠٧	٨٠٤	٩٢٧
« بجزرات	» بجزرات	١٤	٧٩٩	٩٨٠
ملوك خانديش	خانديش (الهند)	١٢	٨٠١	١٠٠٨
البهمنية	» الدكن	١٨	٧٤٨	٩٣٣
الشاهات العمادية	» برار	٠٥	٨٩٠	٩٨٠
» النظامية	» أحمد نجر	١٠	٨٩٦	١٠٠٤
» بريد	» بيدر	٠٧	٨٩٧	١٠١٨
» العادلية	» ييجابور	٠٨	٨٩٥	١٠٩٧
» القطبية	» كولكندا	٠٧	٩١٨	١٠٩٨
امبراطور والمغول	» هندستان	٢٦	٩٣٢	١٢٧٥
امراء افغانستان	افغانستان	١٥	١١٦٠	لا تزال (١)

وخلاصة ذلك ان الهول الاسلامية التي ظهرت من اول الاسلام الى الآن نيف ومائة دولة عدد رؤسائها نحو ١٢٠٠ رئيس فيهم الخلفاء والسلاطين والملوك والامراء والاتبكة والاشييدية والخديويون والشرفاء والبايات والدايات وغيرهم . من العرب والفرس والأتراك والشراكية والاكراد والهنود والتتر والمغول والافغان وغيرهم . ومن عواصمهم المدينة والكوفة والشام وبغداد ومصر والقبروان وقرطبة والاسطانة وصنعا وعمان ودهلي وغيرها . انتهى ما أردته من كتاب تاريخ التمدن الاسلامي والحمد لله رب العالمين

بهجة الجمال في تاريخ الأمم الإسلامية

في جواب اعتراض على المؤلف في هذا المقام

حضر صديقي العالم الذي اعتاد مسامرتي في هذا التفسير . فقال : يخيل لي أن هذا المقام قد خرج عن دائرة التفسير خروجا يؤدي إلى أن يحسب الانسان نفسه في تباه المعارف ومفاوز العلوم ، أو كأنه غريب في وسط هذا المعمان العلمي ، فأبن آية : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بقت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبني حتى تقيء إلى أمر الله » من هذه الدول المتشاكسة ، والأحوال المتناقضة التي لا حد لها ولا نهاية ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أنت بما صنعت هنا خرجت عن دائرة المفسرين جميعا فانهم قليلا ما يتطرقون إلى مثل هذه المشاكل والشاجرات والحوادث علما منهم بأن كلام الله لم ينزل لمشاكل هذه الامور ، هونور ، والنور غير الظلمات .

فقلت : حياك الله أيها الأخ ، أنا أعلم انك تعبر بهذا عن آراء كثير من اخواني المسلمين شرقا وغربا ، وهذا القول أثار في نفسي آثارا جميلة صالحة :

وحرك وجدى بعد ما كان نائما * برأى الضحى مشفوفة بالترجم

فلوقبل مبكها بكيت صباية * بسعدى شفت النفس قبل التنتم

(١) سقطت وآخرها أمان الله خان

ولكن بكت ليلى فهيج لي البكا * بكاهها فقلت الفضل للتعلم
أذكرتني بقول ابن الفارض :

أجد الملامة في هواك لذيذة * حبا لذكرك فليلني اللوم
إن ملامتك أيها الصديق إغراء :

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء * وداوئي بالتي كانت هي الداء
صفراء لا تنزل الأحران ساحتها * إن مسها ضجر مسته سرء

فلاسمع صاحبي ذلك . قال : أخذت في النزول بدل الاجابة ، وذكرت الخمر المذمومة طبا وشرعا . فقلت :
« وتلك الأمثال نضربها للناس لعلمهم يتذكرون » ، هاجت بلابل شوقى للباحث الجميلة ، والآيت البدئية ،
في هذا الوجود وحكمته ، والعلم وردهته .
أيها الأخ الذكي : سأحدثك الساعة مجيبا عن اعتراضك بما يثلج صدرك ويشرح به ، ويصلح بالك ،
فأجعله في ثمانية فصول :

- (١) في النظر في عالم الحيوان .
- (٢) وفي بروز الانسانية من وسط معامع الهيجاء الثائرة في الشهوات البهيمية ، والسطوة السبعية ،
وتسلطها على القوتين ، والاعتدال فيهما .
- (٣) وأن هذه النظرات العلمية ظهرت على لسان (كوفيشيوس) الفيلسوف الصيني في القرون الأولى
- (٤) ثم قفاه (سقراط) في جمهوريته وفتحها نحو آخر في سياسة الأمم ، وهما في النتيجة متآخيان
متقاربان ، وإن لم يعرف أحدهما أخاه ، لتباعد الديار ، واقطاع الأخبار .
- (٥) ثم تطبيق علوم تلك الأمم البائدة على الأمم الاسلامية في القرون الأولى ، وكيف تطوّروا في
سياستهم على مقتضى ما ذكره (سقراط) فكان أوائلهم على المنهج الأتم ، وتنزل الأبناء عن سنن
الآباء دركة فدركة إلى أن انحطوا إلى أسنل سافلين في سياساتهم .
- (٦) ثم تبيان أن ذلك لم يخلقه الله سدى ، بل جعله بصائر ونور لنا نحن المسلمين في هذا العصر الذي
جاء كالفصل بين أمدين متناقضين : أمد مضى بحوادثه وتجاربه التي جعلت سلام يصعد عليها
الجبل الخالي والجبل المقبل إلى قه السعادة والهناء .
- (٧) ثم بيان أن تجارب الآباء وحوادثهم لم تظهر آثارها أكل إلا في زماننا هذا ، لأن الله يريد أهما
تكون في سعادة وحبور .
- (٨) ثم تبيان نعمة الله علينا وعلى الناس بالعلم والعرفان في هذا الزمان .

الفصل الأول : نظرتي في عالم الحيوان

اللهم ان نورك مشرق علينا ، في كل حين شمس تشرق ، وقر يضي ، وكواكب تزين ، ومجرات
كثيرات الشموس ، وسدم بعيدات الأمكنة ، طويلات الأزمنة ، من حيث وصول أنوارها إلينا .
رباه : جل صنعك ، بهرت حكمتك . رباه : خلقتنا في وسط هذا النور والجمال ، وجعلت فينا قوى
تحتنا على أعمال لنا نحن ، فماذا وجدنا ؟ وجدناك يارباه بعثت في الحيوان نشاطا بقوى ثابتة فيه سميناها
« القوى الشهوية » ، تلك القوى حركته لطلب القوت ، وطلب النسل ، وعاش في هناء وحبور ، رأيناك
منحته غرائز ، تلك الغرائز تكفلت بحفظ الفرد ، وحفظ النوع ، وحفظ السعادة الزوجية ، في مقابلة أحوالنا

المنزلية ، وحفظ الجماعات في مقابلة أحوالنا السياسية .

هذه ياربي حال الحيوان الذي يحيط بنا ، أنت الغام بثأته ، فالنور الذي يحيط بنا من كل جانب وتراه عيوننا قد أعطى الحيوان في داخله قوى تضيء له طرق الحياة ، مشابهات من حيث حقائقها له مشابهة مما . إن الحيوان بنوره الداخلي الموازي لنور الكواكب الخارجى من حيث الهداية قد كفاه أمر السعادة الشخصية المنزلية والسياسية ، ولكننا من جهة أخرى وجدنا أموراً عجيبية ، وجدنا قوى الغضب في كواسر الحيوان أغرته أن يسطو على أمثال الفزلان والأرانب من آكلات الحشائش . تسطو الكواسر من الطير على بفاثها ، والسباع والنمور والوحوش على ذوات الطلف والحافر وغيرها ، مجزرة هائلة ، وميدان واسع للقتل والفتك والنهش ، بينما نرى كل نوع من حشرات ، أو طير ، أو زواحف ، أو كواسر ، مسوقاً بفرزته للتعاطف والتوادد والتراحم ، بالعواطف تعارضت واتجهت إلى اتجاه الأهلاك والتدمير والتعصير والخوف والعداوة والعدوان ، ملحمة مجزرة مهلكة ، جنازات تبعها جناز ، ونحايا وراها نحايا ، في وسط هذه المعامع والمجازر برز خلق جديد .

الفصل الثاني في ظهور الانسان بين أنواع الحيوان

ظهر بين هاتيك المجازر والمعامع خلق جديد هو الانسان ، وماهو ؟ هو حيوان اجتمعت فيه القوة الغضبية مع القوة الشهوية ، فهو سيع وغزال ونمر وأرنب وذئب وطاووس ، هو جعاع كل حيوان ، فظهر التضارب في أخلاقه ، والخلط في أفعاله ، كما كان بين الأسد والشاة والنمر والغزال ، ولكننا رأينا له حالا ثالثة سميناها «عقلا» عقلت القوة الأسيديّة أن تطفى ، والقوة الشهوية أن تحيد عن الصراط السوى ، وهنالك كان الظن أن يكون هذا الانسان معتدلا ، ولكن * ماكل مايمتنى المرء يدركه * فالتنا رأينا المجازر والمذابح والغارات التي تشنها الآساد على الفزلان ، تفعل مثلها وأشد منها الأمم القوية مع الضعيفة ، ومن المنجمل أن الكواسر من الطير ، والقوانك من السباع لها العذرى الفتك بآكلات الحشائش ، فأما الانسان فإنه حيوان زاد في شره عن كل حيوان ، فهو يفبر على غيره لياكل من تعب وعرق جبينه ، ليكون الغنم له والغرم على غيره بلاعلة إلا طغيانه . ولاسبب إلا جهله وخطئه للمين .

هذه صفات أكثر نوع الانسان ، ولقد ارتقت عن هؤلاء طائفة منهم فقالوا : قف أيها الانسان قف ، أين عقلك ؟ انك لغوى ميين ، نحن ننزلنا عن الحيوان شرفا ، ونزلنا دركات في طرق العماية ، ألسنا أشرف منه قدرا ، ألسنا أرفع منه مرتبة ؟ أفلا نكون نحن بررة أقياء ، فعلينا أن نجعل المجموع مساعدا للمجموع فلنقم بالقسط ، ولنترك لكل امرئ ما كسب ، بل لنزهد نحن فيما في أيدي غيرنا ، ولنسكن آباء رجاء للناس ، هذه مزيقتنا لاغير ، لقد علمنا مما جربنا أن الله سريع الحساب ، وبهذا نزل الكتاب ، ألم تروا أيها الناس أن الانسان اذا أكل فوق طاقته ، فإنه يتحمل تبعه جهله ، ويعطى الدواء المر الكريه ، فيكون الغنم بالغرم ، أليست البطنة تذهب الفطنة . بل ألم يظهر في علم الطب حديثا أن كل ما كول قد طبخناه نقص من مادة الحياة فيه مقدار عظيم ، وما لا يطبخ يعطى قوة الحياة لنا كاملة ، إذن أيها الناس نحن غافلون ، اتباع اللذات والشهوات له رد فعل ، فأنه سريع الحساب لنا في نفس الحياة فضلا عما بعدها ، وأيضا اذا توغلنا في اللذات وجدنا قوانا ضعفت ، وكل جيل يكون أضعف مما قبله ، والعاقبة مخزبة موقعة في الدمار والهلاك فهذه الطائفة من نوع الانسان قالت . كلا . فلتكن حكومات ، وليكن نظام ، فانظر :

الفصل الثالث فيما نقل عن كونشفيوم الفيلسوف الصيني العظيم

بقلم الكاتب الأمريكي (ول. دورانت) مؤلف قصة « الفلسفة وعصور الفلسفة » وقد ذكر أسماء ١٢ عظيماً اختارهم من بين عظماء التاريخ مثل :

- (١) إن التقويم المصري عمر عليه قد ألف سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد وهذا من عجائب العلم .
- (٢) ومثل بوذا المتوفى سنة ٥٤٢ ق. م .
- (٣) ومثل كونفشيوس المتوفى سنة ٣٧٨ ق. م .
- (٤) ومثل سقراط المتوفى سنة ٣٩٩ ق. م .
- (٥) ومثل قيصر المتوفى سنة ٤٤ بعد الميلاد .
- (٦) ومثل المسيح .
- (٧) ومثل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم المتوفى سنة ٦٣٢ ب. م .
- (٨) ومثل روجر بيكن المتوفى سنة ١٢٩٤ ب. م . الذي يدعون انه أول من استعمل البارود (١)
- (٩) ومثل غوتنبرج المتوفى سنة ١٤٥٤ ب. م مخترع المطبعة .
- (١٠) ومثل كولبوس كاشف أمريكا سنة ١٤٩٢ ب. م .
- (١١) ومثل (جيمز واط) مخترع الآلة البخارية سنة ١٧٦٩ م .
- (١٢) الثورة الفرنسية .

هذه هي الحوادث التي اختارها ذلك الكاتب الأمريكي التي يعدها بحسب نظره هوانها أعظم ما أثر في العالم الانساني ، وأنا الآن لست أريد إلا سيرة كونفشيوس الفيلسوف الصيني الذي عاصر سقراط ولم يكن بينهما معرفة ولا مواصلة ، فهل لك أن أحدثك عن أولهما ، ثم أحدثك عن ثانيهما ؟ أحدثك عن أولهما في هذا الفصل ؟ لماذا ، أحدثك عنه ، لأنه شرح المسألة التي أنا الساعة بطريق حلها ، مسألة نظام هذه الدنيا ، هذه الدنيا الجميلة في نظر الفيلسوف ، المرتبة الموحشة في نظر الجاهلين .

الله أكبر : أنت كبير ، أنت عظيم ، محبينا يارب لهذا الابداع ! عجبتنا يارب لابداعك ! تعاليت وارتفعت عنا ، وأرسلتنا إلى الأرض ، وقلت لنا أيها الأطفال اذهبوا إلى الأرض فعيشوا فيها ، وسترون موتاً وحياة ، وعزاً وذللاً ، وقامراً ومقهوراً ، وغالباً ومغلوباً ، وحيوانات ذرية تسطو على الانسان ، وعلى الأسد ، والأسد يسطو على الانسان ، وانساناً يحارب انساناً بالسيف والنار والحديد والبارود والغازات السامة ، فتذهلون من هذا المنظر ، وتقولون موت وحياة ، وفراق ووصال ، ماهذا ماهذا ؟ ولكني اخترت منكم طائفة يعيشون بينكم وهم غرباء عنكم ، يعيشون فيكم وأرواحهم في الحقيقة كأنها مخلوقة منفصلة عن أجسامهم ، وكأنهم في عزلة عن المادة ، أشهدتهم صني ، وأفهمتهم حكمتي ، وأن ما يشاهدونه إنما هو المظاهر التي تشبه مظاهر السينما (دار الصور المتحركة) يراها المتفرجون صوراً تتبعها صور والنفس باقية خالدة لن تموت ، وما هذه الصور إلا أحوال مختلفات عارضات على النفس التي لا خلاص لها من هذا البحر المتلاطم وهو المادة إلا بما يعتبرها من نحس وسعد وموت وحياة ، فالأهل والأحباب على مر بعضهم وميتهم يكون ، والنبي والحكيم والفيلسوف يضحكون سروراً لما تجرى به المقادير عليهم وعلى غيرهم ، لأنهم للناس آباء ، والناس كلهم أبناءهم ، وقد أشهدهم الله وأطلعهم على مجمل سره المصون المكنون ، فعرفوا أنه رحيم وما عمله إلا لتخليص النفوس من الجهالة ورقبها إلى أن تصل إلى مبدعها الحكيم ، فتشاهد الجمال والجلال ، فهذه الطائفة

(١) وهذا خطأ لأنه اختراع اسلامي .

منهم كونفوشيوس وهو حكيم كبير . قال الكاتب الأمريكي في ذلك مذكورا في « مجلة المقتطف » في شهر نوفمبر سنة ١٩٣١ م :

« ولا بد لنا من رمز يمثل الصين ، الصين العظيمة التي يدعوها أبناؤها « كل ماتحت الشمس » والصين القديمة التي مازالت تدون تواريخ ملوكها وأعمالهم منذ أربعة آلاف سنة إلى الآن ، واني لأغتم هذه الفرصة لأعرض على نظر القارئ فقرة من كتابات كونفوشيوس ، فانها تحتوي على حكمة خالصة من الشواهب وهي من كتاب « المعرفة العظيمة » . قال : - « إن الأقدمين الأجداد كانوا اذا أرادوا أن يوضحوا الفضائل السامية وينشروها بين الناس ينظمون أحوال ممالكهم ، وقبل أن ينظموا أحوال ممالكهم كانوا ينظمون أحوال أسرهم ، وقبل أن ينظموا أحوال أسرهم كانوا يهذبون أخلاقهم ، وقبل أن يهذبوا أخلاقهم كانوا ينقون نفوسهم ، وقبل أن ينقوا نفوسهم كانوا يمحاولون أن يكونوا صادقين ومخلصين في تفكيرهم ، منزهين في أغراضهم ، وقبل أن يكونوا صادقين ومخلصين ومنزهين ، كانوا يوسعون معارفهم ، وتوسيع المعرفة كان يحىء عن طريق البحث والملاحظة ، شاهدوا الأشياء والأفعال فأكملت معارفهم ، ولما اكتملت معارفهم خلصت أفكارهم وتنزهت أغراضهم فتهذبت أخلاقهم فتنقت نفوسهم فانتظمت أسرهم ، ولما انتظمت أسرهم انتظمت دولهم وأصبحت الأرض كلها تفرح في السعادة والولائم » .

« ولما كنا مرانين في الفكر ، ونرفض أن نرى الأشياء على حقيقتها (كالديمقراطية مثلا والزواج والاستعمار ونظام الطبقات في أوروبا وأمريكا) ، فنحن لسنا مخلصين في تفكيرنا ، ولما كنا غير مخلصين في تفكيرنا تعذر علينا أن نبلغ بنفوسنا مراتب الكمال ، وأن ننظم حياتنا ، ولما كنا لانستطيع أن ننظم حياتنا الشخصية لم نستطع أن ننظم أسرنا ، واذن فدولنا في حالة اضطراب وفوضى » .

هذا هو الدرس البسيط الذي يلقيه علينا كونفوشيوس ، انى أحسد أولئك التلاميذ الصينيين الذين كان يفرض عليهم أن يحفظوا أقوال كونفوشيوس عن ظهر قلب ، فقد وجدت كل سطر من سطره يصل إلى صميم الحقيقة ، وفي الوقت نفسه يمكن تطبيقه ، واذ أخلو إلى نفسى أقول : لو أن بعض هذه الحكم طبع في نفسى من عشرين سنة لكنت فزت باتساق النفس ، والكرامة الروحية ، والفهم الهادى ، والخلق المتين ، والأدب الخالص ، وهي الصفات التي يتصف بها الصينيون المثقفون الذين عرفتهم ، أنا لأعرف رجلا طبع أمة بطابعه كما طبع كونفوشيوس أمة الصين ، فلنتخذ تاريخ وفاته رمزا وحافزا ، إن هذا الرمز ينطوى على القصائد الثنائية البديعة التي نظمها شعراء دولة « نافغ » الصينية ، وصور المشاهد الطبيعية المتسمة بسمه التصوف والشرق ، والآنية الصينية الكاملة شكلا وزخرفا ، وحكمة حكماء الصين وفلاسفتها ، إن حضارة من أعظم الحضارات القديمة تلخص في اسم كونفوشيوس . وبهذا تم الكلام على الفصل الثالث والحمد لله رب العالمين .

الفصل الرابع : في آراء سقراط في جمهوريته

لقد عرفت أيها الأخ الذكى أن كونفوشيوس في الصين بنى نظام المدينة والأخلاق كلها على اتساع المعارف واتساع المعارف بناء على البحث والملاحظة ، وبالبحث والملاحظة كملت المعارف فخلصت الأفكار ، وهذبت الأغراض والأخلاق وصفت النفوس فانتظمت الأسر فللول .

يا سبحان الله : إذن أم الاسلام لارقت لها إلا بمعرفة المشاهدات واستقصائها بحثا وتنقيا ، فيعرفون إذن علوم الكائنات حولهم ، ويطالعونها ، ويعرسون آثار الأمم البائدة التي ورثوا هم أرضهم وديارهم ، ومتى درسوا ذلك عرفوا الخطأ فتحاشوه ، إذن لندرس الآن هذه العوالم المحيطة بنا من صنع الله تعالى ،

و ندرس تواريخ أسلافنا من العباسيين والأيوبيين والصحابه والتابعين ، ثم نرى الحسن فنقله ، والقبیح فنقتبه ، لا اتناقتنى بسطوة الملوك وجبروتهم ، ومنهم الشعراء أموال الأمة جزافا ، ولنبتذل كل ما كان فيه استبداد كبريات الخلافة الاسلاميه بالمبايعه القسريه ، وتوارث المسلمين بها كما تتوارث النعاج والحراف ، كل ذلك لن يكون إلا بالمراسه ، وهذا الاجال الذى قلته فيلسوف الصين فصله سقراط المعاصر له ، فقد جاء فى الجمهوريه فى الكتاب الرابع حكاية عن (اديمنتس) الذى تدخل فى الموضوع وسأله قائلا : وبماذا تدفع عن نفسك ياسقراط (يريد بذلك أن سقراط حرم على رجال الدولة القائم بالحكم أن يتمتعوا بالأموال ، بل يجب أن يكونوا زهادا على الهيئه التى رأيناها فى أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم ، وأن لهم هم سعادة روحية ، وتبتلا ، وصلة برهم ، تجعلهم أسعد ألف مره من المترفين البائسين الجاهلين) اذا احتج أحد عليك بأنك لم تبلغ رجال هذه الطبقة «الحكام» أوج السعادة ؟ مع ان اللوم عليهم فى عدم سعادتهم لأن الدولة دولتهم عند التحقيق ، ومع ذلك فليس لهم فيها حظ الذين يملكون الأراضى ويشيدون الأبنية الفخمة ، ويفرشونها فرشاً يتفق مع نظامها ، ويذبحون الذبائح ، ويولون للاصحاب ، ويملكون القضاة والذهب ، وهل ماهو ضرورى لاسعاد الناس ، وقد يقال انهم كصغار المستخدمين ليس لهم فى المدينة إلا الخفارة .

(سقراط) نعم ، بل يظهر انهم يقتصرون على القوت ، ولا يأخذون معه مالا كالأخرين ، فلا يتمكنهم السفر على فقهم اذا أرادوه ، ولا تقديم الهدايا للحظايا ، وانفاق الأموال على الرغائب الأخرى ، كما يفعل المحسوبون سعداء ، وأمثال ذلك من الامور مما طويت عنه كشفا .

(اديمنتس) فأضيف ذلك إلى شكواى

(سقراط) أفسألنى أىّ دفاع أقدم ؟

(اديمنتس) نعم .

(سقراط) أظنّ اننا اذا استأنفنا السير فى الجهة نفسها أدركنا الدفاع المطلوب ، مع انه لا يستغرب كون هؤلاء الحكام أسعد السعداء حتى فى هذه الأحوال ، على اننا لم تؤسس الدولة لجرد اسعاد قسم من أهلها ، بل لاسعاد الجميع معا على قدر الامكان ، وفرضا فى انشاء السولة اكتشاف العدالة ، كما اننا فى دولة أخرى ساء نظامها نكتشف النعدى ، وبعد اكتشاف هذى ونلك يمكننا البتّ فى المسألة التى أمامنا ، فنحن جادون فى الوقت الحاضر فى انشاء دولة سعيدة ، لافى أن نخص أفرادا منها بالسعادة ، بل أن نسعد جميع أفرادها على السواء ، ثم ننظر فى دولة هى تقيض هذه أحوالا ، فلوصورنا شخصا بشريا فانقصدنا منتقد بأننا لم نزين أجل أقسام الصورة بأبهى الألوان ، لأن العيون وهى أجل أعضاء الجسم لم تلون بالأرجوانى بل بالأسود فيجب أن تفكر فى أنه دفاع كاف قولنا له : «أياها الناقد مهلا ، لانتوقع منا أن نلون العيون باللون الجليل بحيث لاتبقى عيوننا ، وهكذا يقال فى بقية أعضاء الجسم ، ولكن انظر اننا جعلنا الجسم كله جيلا بتلون كل عضويه باللون الملائم ، جريا على الطريقة نفسها فى مثلنا الحالى توجب علينا أن نسبع صنوف السعادة على الحكام فيصيرون غير ما هم اه .

وجاء فى الكتاب السادس من الجمهوريه فى صفحه ١٥٥ : « ان هؤلاء الحكام فضلا عن زهدهم فى المال ، وانهم آباء الدولة ، يجب أن يدرسوا كل علم ليصلوا إلى معرفة الله عز وجل الذى عبر عنه هو بالخير ، وهذه الدراسة مفصلة فى هذا التفسير ، بجملة فى الجمهوريه ، وانما طلب ذلك لأن تلك الدراسة توجب حب صانع العالم ، ومتى كان هذا الحب تمت السعادة وصلر هؤلاء الحكام خلفاء له فى إدارة أرضه : « يداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى الخ » .

وقسم في الكتاب الثامن من الجمهورية الحكومات إلى خمسة أقسام : (أرستقراطية ، وديموقراطية ، وأوليغاركية ، وديموقراطية ، واستبدادية) فالارستقراطية حكومة الفلاسفة ، وهي الحكومة العادلة المشروحة شرحا وجيزا فيما تقدم ، ثم يظهر بعد ذلك الحلف على غير طريقة السلف ، فيظهر خلف الفلاسفة غير مراعيين الحكمة ، فيصبح الأمر بيد القواد ، ويقومون بالدولة بدل الفلاسفة ، وهي التيموقراطية ، ثم يظهر بعد ذلك الطمع في المال ، وتذهب الحماسة من الجنود ، ويصبح المال هو المقصود بعد أن كانت الحكمة في الارستقراطية ، والحماسة في التيموقراطية ، فالمال إذن يكون هو المقصود في الاوليغاركية ، فإذا أصبح هذا مقصودا كبر الأمة فهم إذن مجرمون ، لأنهم يخدمون الشهوة الساقطة ، شهوة البطن والفرج ، واذن يصبح المال في يد الحكام ، فيقوم الشعب ويحاسبهم حسابا عسيرا ، وتنزع الأمة إلى الثورة ، فتكون الحكومة بالانتخاب ، والانتخاب يرجع فيه إلى الأفراد كلهم وهي الديموقراطية وتكون الحكومة الاستبدادية اذا لم يمكن ضبط الأفراد .

هذه هي الحكومات وأنواعها ، ومن رأى سقراط أن أعلاها أولها ، وآخرها أقلها شأنًا . والديموقراطية وهي الرابعة على حسب زمانه لقلة المواصلات رديئة ، ولكن في زماننا قيمتها عظيمة ، وهذه الحكومات ذكرناها هنا لتبني عليها ما تريد من الكلام في الفصل الخامس .

الفصل الخامس في تطبيق علوم تلك الأمم على أمننا الاسلامية في القرون الأولى

فإذا رأينا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يبذل قصارى جهده في التبرى من مال المسلمين ويكتفى بأقل القوت ، ورأينا أبا بكر قبله والنبى صلى الله عليه وسلم وعليًا وعثمان رضى الله عنهم ، فإنا نقول هذه الحكومة فيها اقتراب مما وصفه سقراط ، واذا رأينا أن العصر الأول لما ذهبت دولته ، ورأينا الأمويين والعباسيين في القرن الثاني يقاوم بعضهم بعضا وان كانوا مجتهدين والمجتهد له أجر ، ورأينا أمثال عبد الله من ذرية الحسن وقد حضر عند السفاح ، ورأى المال المنهوب من بنى أمية ، وهو جواهر وحلى للنساء ، وهو يطلبه من السفاح لأن ابنه كان هو صاحب البيعة فإنا لانشك أن هذا الجيل أقل من الجيل في القرن الأول ، لأن بعض آل البيت أحبوا المال وقد كان على رضى الله عنه وعمر يتبرأ منه ويهربان ، وهذا يأخذ ألف ألف درهم ، ويأخذ جواهر لبنات آل البيت ، وقد كانت تنفر منه وتحقره فاطمة رضى الله عنها ، فالسفاح في المثال المتقدم للشروح آنفا قبل هذا المقام في الطبقة الثانية وهي التيموقراطية فهو إلى الحماسة أقرب ، وعبد الله من ذرية الحسن أشبه بالطبقة الثالثة وهي الاوليغاركية ، وهي التي مقصد أربابها المال فهو إذن في رتبة شهوية كما كانت التي قبلها حاسية (وبعبارة أخرى) إن أمثال الخلفاء الراشدين إلى الحكمة أقرب ، وأمثال السفاح إلى الحماسة أميل ، وأمثال عبد الله المذكور إلى دولة المال أقرب ، وهي التي يعقبا الاضطراب .

هذا ما استنتجناه من قراءة التاريخ المذكور هنا ، ثم أصبح أبناء الخلفاء بعد ذلك جميعا على نسق واحد ، وهو هذه الطبقة . طبقة المال والشهوة البهيمية ، فأما جنودهم من الترك والفرس وغيرهم فهم أقرب إلى الحماسة ، فأصحاب الحماسة أذلوا أصحاب الشهوة : أى الطبقة الثانية أذلت الطبقة الثالثة .

اللهم إنك أنت المحمود على نعمة العلم ، نحمدك انك عرفتنا لماذا انتقمتم من المسلمين بعد العصر الأول وسلطت بعضهم على بعض ، وألبستهم شيئا ، وذاق بعضهم بأس بعض ، لأنهم لم يكونوا في النروة العليا من مقاصد الملك ، وهو العدل والصدق والاخلاص ، واعطاء كل ذي حق حقه ، أى أنهم لم يكونوا خلفاءك

أنت على عبادك في الأرض ، وبعضهم أخذ إلى الأرض ، واتبع هواه في الميل إلى عصبية ، وأبناء يثته ، وتفضيلهم على سواهم ، وأنت ما أرسلت نبيك محمدا صلى الله عليه وسلم إلا للعدل العام ، وهجر العصبية الجاهلية ، لذلك عاقبتهم بالتخاذل ، وجعلت الملك في أيدي غيرهم ، وجعلتهم خاضعة أعناقهم لقوادهم من الترك وغيرهم .

ههنا ظهرت الحكمة في تسيط بني هاشم بعضهم على بعض ، فالعباسي يقتل العلوي ، والعلوي يطالب بالملك ، والله يقول . كلا . لا ملك لأنكم تريدون مطلباً أدنى وهذا الدين نزل لما هو أعلى ، فكونوا متعادين لأسلط بعضهم على بعض ، وذلك جزاء الذين لا يعدلون .

خطاب من المؤلف الى السفاح العباسي وعبد الله الحسني

« أيها السيدان العظيمان : أزلتما دولة الأمويين ، وأخذتما جواهرهم وتقودهم ، لمن هذه التقود ، ولن هذه الجواهر ؟ أهى لكما أم للأمة ؟ ستقولان ان لنا في بيت المال كذا وكذا ، وتحتجان بفروع علم الفقه ، والفتاه مختلفون ، وعمررضى الله عنه يرى غير رأيكما ، لنضع فروع الفقه جانبا ، نحن نريد تربية الأمة ، إن الأمة لاتربي بهذه الطريقة ، لاتربي الأمم بأن تجعل طائفة منها تختص بالمال ، وتجعل غيرها مسخرة لها ، فهذا مثال العين وصفها بالصبيح الأرجواني الذي ذكره سقراط ضربه مثلا لطبقتكم الشريفة يرى علم الحكمة المدون قبل النبوة أن طبقة الحكام أولى بأن تزهد وترضى كما ترضى العين بصفتها البسيط وتتباعد عن أن تزين كما تزين العرائس ، وأن تكون مترفة ، إن المترف لتدليل ، وكثرة المترفين تسقط الأمم ، الوقوف عند فروع الفقه والجدل فيها لإضاعة لجمال الاسلام . يقول الله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

أليس هذا هودين الاسلام ؟ أيليق بنا أن نجعل جسم امتنا أعضاء مصابة بالشلل ، لنضع الفلسفة والحكمة العقلية جانبا ، ولنرجع الى النبوة ، ماذا رأينا فيها ؟ رأينا إعراضا تاما عن مال الأمة من نبينا ﷺ وخلفائه فماذا جرى بعد هؤلاء ؟ رأينا كما أيها السيدان تهديان مال بني أمية : فأنت ياسفاح تواسى به عبد الله الحسني لانك اقتصبت الخلافة من ابنه وهو يتشوق للمال ويفرح ، وأنتم معا نسيما ان المال مال الأمة ان لم يكن بعلم الفقه ، فليكن بعلم الاخلاق ، وعلم القرآن ، وعلم النبوة ، وسيرة الصحابة ، أين رأى الأمة في هذا المال ، نحن أيها السيدان نحفظ حقا وشرفا ونعد كما مجتهدين ، والمجتهد مخطئا ومصيبا مرحوم ولكن الاجتهاد شئ وتربية الأمة شئ آخر ، هاهو ذا كوفوشيبوس الفيلسوف الصيني يجعل تقارة الضمير وتهذيب النفس ، ونظام الأسرات ، ونظام الممالك : كل ذلك موقوف على البحث في المحسوسات وفهمها ودرسها ، وهاهي ذه النبوة المحمدية الشريفة قد ظهرت أنوارها في الخلفاء الأربعة : نسمع أصحابه رضى الله عنهم يقولون : « من حفظ البقرة وآل عمران جد في أعيننا » وهذا عجب ، ونسمعهم يقولون : (ما كنا نحفظ آي القرآن حتى نفهمها) وهذا تقدم قريبا : هذه البقرة ، وهذه آل عمران ، ونحن الآن نحفظهما ونحفظ القرآن كله ، ونحفظ علومها وعلومها ، ولكن أين ملاكنا وحكامنا وقضاتنا الذين أشبهوا أبا بكر وعمر وأمثالهما ، أخبراني أيها الشريفان العظيمان ، وقولالي يقع في خاطري ان النبوة كانت تلقى عليهم تعاليم تبعثهم على النظر في ملكوت السموات والأرض ، حتى ترسخ محبة الله ومحبة الخبير للناس في نفوسهم أولا ، وتعاليم أخرى تجعلهم يذكرون في الأمم والسول والأخلاق والأحوال ؟ والافلما ذا نسمع كما تقدم أن بعضهم يحفظ السورة في سنين معدودة ، ماهذا الحفظ ، وما هذا البطء إلا بتفهم المعاني التي ذكروا أنهم يتعلمونها من نبينا صلى الله عليه وسلم .

خطاب المؤلف للمسلمين

أيها المسلمون : نحن اليوم نسلم نسلنا قاطعا أن تعاليم الخلفاء الراشدين ومن كان معهم مجهولة عندنا ، ونقرّ ونشهد كما جاء في الأحاديث السابقة المنقولة عن ﴿ الاتقان ﴾ للسيوطي أن حفظ آيات من القرآن أيام النبوة كانت متبوعة بعمان نجعلها نحن الآن ، بدليل أننا لم نجد رجلا يضارعون الخلفاء الراشدين في تعميم العدل في الأمم ، نقرّ بهذا ونعترف به ، ونقرّ بأن التعاليم التي فهمها الصحابة أو أكثرهم لم يعرفها أكثر الناس بعد ذلك وضربوا عنها الذكر صفحا . نعم : الشريعة كلها بلغت هذا لاشك فيه إنما الامور التي وقرت في الصدور ، وهي التي تهذب الأخلاق وتحفظ الدول ، وتحفظ المال للأمة جعلت نسيا منسيا غالبا . أقول : فاعلم ما أطلنا به في هذا التفسير بحوم حول بعض تلك المعاني الشريفة : ففيه بهجة الجبال السامري والأرضي ، وفيه نظام الدول والممالك ، وكيف يكون زوال الملك تابعا للشريعة على المال : فاعلم هذا الكتاب يكون فاتحا بابا بلجة المسلمون بعدنا ويدخلون منه الحقائق الخلقية والنظم الدولية ، فلا يحجب في ذلك فقد رأينا النيل يجري من خط الاستواء وبين منبعه ومصبه في البحر الأبيض المتوسط ما يربو على ألفي ميل ، ولم تظهر ثمراته الا بالقرب من مصبه في بلادنا المصرية : أما في السودان فثمرته قليلة ، فاعلم دين الاسلام كذلك بالنسبة لزمانه القديم بعد العصور الاولى وزمانه الحديث اليوم ، والله هو الولي الحميد وهو حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

الفصل السادس ، في أن الله عز وجل هو الذي أسس ذلك التاريخ لنا نحن

ذلك أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . والعلم والدين لا تظهر فوائدهم التامة الا بعد التجارب الكثيرة ، وهانحن أولاء رأينا تجارب الآباء سنأخذ اليوم حذرنا مما وقعوا فيه ، ونؤسس الممالك على الشورى ، ولانكون مفرمين بالمال كالطبقة الشهوية ، ولا بالطبقة الحاسية بل نكون مفرمين بالعدل ، سائرين على منهاج الخلفاء الراشدين ، وماعدنا ذلك فنحن ندعه : وهانحن أولاء عرفنا حقيقة التاريخ ، والله بالمرصاد لمن غفل في السياسة ، كما إنه بالمرصاد لمن غفل في تدير الطعام والشراب فالقصر والمغالي فيهما مخذول مقهور مهان ذليل ، فمن أكثر من الطعام أوردته الأسقام ، وشرب الدواء الكريه المر هكذا من طغى في الملك منع لذيق النوم ، وأصبح محسورا مقهورا .

خطاب الله للأفراد والأمم

إن ما نراه من عقاب للأفراد وللأمم من حيث الاسراف في المأكل والمشرب ، ومن حيث الجهل بالحببة العامة في الأمم يفهمنا فهما علميا ، كأن الله عز وجل يخاطب الأفراد قائلا : أيها الناس . هاأنذا أنزلتكم في الأرض ، وأعطيتكم الحب والفاكهة والخضر ، وبؤأنتم في الأرض منازل وقصورا أنظرا تكفرون بجهل نفسي ووضعها في غير موضعها ، أم تشكرون بالنظام العام ؟ وقد أعددت لكم العدة ، وأقتت العدل بينكم ، وأنا سريع الحساب في الدنيا قبل حساب الآخرة ، فمن أكل فوق طاقته ، واتبع شهوته ، فاني أعددت له أمراضا مختلفات نذله ثم قتله ، وإذا أراد البره منها أعددت له أطباء وأمرتهم أن يحضروا له العقاقير المنافية لزاجعهم ولنوقه ، وأعطيتهم الأسلحة والمشارط ، وقلت لهم : أيها الأطباء من استغاث من هؤلاء الجاهلين بنظامي وهو مريض فترّ عوه كؤوس الأدوية يشربها صبورا وعلقما ، ومن قوا جلده بأسلحتكم المعتدة لتلك ، وأدخلوا تحت جلده مواد تحقنونه بها ، زبادة في تعذيبه ، ونكالا به ، لأنه جهل نعمتي ، وهذه الأدوية

المرّة ما هي إلا أنواع من السموم التي تحتل أجسامهم تحملها ، وتقدر على أن تسوغها وتمثل بها ، فن عاش من هؤلاء عاش عيلا سقيا ، ومن كثرت أدويته أوردته موارد الملكة ، وهجرت به إلى عالم الأرواح ليعرف مستقره ودرجته في عالم الأموات .

هذا خطاب الله الذي يخيل لنا أنه يخاطبهم به في كل زمان ومكان ، وكأنه عز وجل يخاطب الأم قائلا : « أيها الأمم : هاأنذا خلقتكم والحشرات وبقية الحيوان حولكم ، وكثير منهم طامعك منظمات ، ومحبة ومساعدة تامة كالنحل والنحل ، أما أنتم فإن أيّ أمة جهلت المحبة العامة وقاطعت ، وأصبح أفرادها بعضهم لبعض عدو كما حصل في أم العرب وأم الاسلام المتأخرين ، فوعزّي وجلالي لأسلطنّ عليهم من هم أكثر منهم الثنا ، وأوصلهم رجاء ، وأقرهم محبة ، وأحسن منهم نظاما في مدينتهم وإن كان دينهم أقلّ من دينهم ، وشرفهم أدنى ، ولكن المودة العامة نامية ، فهؤلاء أسلطهم على هؤلاء المتقاطعين يسمونهم سوء العذاب ، ويفتكون بهم فتكا ذريعا ، ويزيدونهم قاطعا بالوشايات والنسكيات ، ويصيرون لهم أشبه بالخدم والعبيد حتى يستيقظوا من نومهم .

فالأم العظيمة التي استحك نظامها وإن كان كثير من رجالها فاسقين أسلطهم على الأمم المتقاطعة وإن كان أكثر رجالها صالحين ، لأنّي أريد المودة العامة ، والمحبة الملتزمة ، التي تشمل الأمة كلها نظاما واتقانا ، فأىّ أمة قصرت في ذلك فإن من هي أحكم منها نظاما تسطو عليها ، وتهتك سترها ، وتذللها ، وتغير عليها بسلاحها ومدافعها وبارودها وطياراتها ، فتعذب عليها النار من الجوّ ، ومن السفن البحرية ، ذلك جزاء الجاهلين .

هذا ما خطر لي اليوم ١٤ يناير سنة ١٩٣٢ ميلادية — ٥ رمضان ١٣٥٠ هجرية بعد الظهر والحمد لله رب العالمين .

الفصل السابع : في بيان أن تجارب أيامنا هذا زمان ظهورها

إذا رأينا الفارس إذا مات في الهبباء اختص باللحم الطيور ، وبالعظام الوحوش ، وأخذ الخيالة ما عليه من سلاح وكراع ، وهذا هو المسمى (بالسلب) كسب كما يقول عنقرة شعرا :

لِي النُفوس وللطيور اللحوم وللشوحش العظام وللخيالة السلب

وإذا دفن في جدته ، فللدود والحشرات تراث لحم وعظمه ، ولورثته ماله وعقاره ، وللأمة والتاريخ حوادثه وأخباره ، لم يخلق الله خلقا عبثا ، فإذا مات أبؤنا الأول ، فلنا نحن أفضل ميراث عنهم ، وهي العبرة في التاريخ : لأنّ السود استوفى حظه ، والورثة نالوا مرادهم ، فلنستوف نحن ميراثنا الآن ، ولنقل أن الأئمة رضى الله عنهم كأبي حنيفة ومالك وابن حنبل ومن بعدهم كانوا تحت سلطان قاهر وسيف مسلط ، وملوك مقتصين ، فأهان المنصور الأول والثاني ، وأما الثالث فقد امتحن وأهين في مسألة خلق القرآن ، إذن فلا سبيل إلى إطانتهم في أمر نظام الدولة إلا بمقدار : أما أنهم يجسرون على تطبيق القرآن على الدول والممالك فلا (١) مثل أن يستنجوا من آية « ألم تر إلى الملائكة من بني إسرائيل من بعد موسى الخ » إن المدارف الملك على قوّة جسمه وعلمه : وأما مسألة شرف الآباء فليست مقياس ذلك ، وهامهم أولاد بنو إسرائيل يقولون : أتى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه لأنه لا لنا من يوتنه ، ونسنا أرفع من بيت طالوت ونسبه ، وأيضا ليس عنده سعة من المال والمدار في الملك على المال والنسب ، أي أنهم يريدون الطبقة الثالثة ، وهي التي تملك بسبب سلطان القوّة الشهوية ، وهي (الأوليغاركية) أي المالية فيصبح المدارف في الملك على المال : فقال الله لهم . كلا . أيها الناس : المدارف على العلم

بدل المال ، واستعداد المرء من حيث ذاته هو لأصله : فهذا رجوع الى أعلى طبقة ، وهو طبقة الأ كبر والحكماء بقدر الامكان : فهذه الآية تهدم الركن الركين في استيلاء العباسيين والأمويين ورجعون الى الشورى .

(٢) وهل يستطيع أصحاب الشافعي ومالك وابن حنبل وأبي حنيفة أن يرفعوا أصواتهم أمام ملوك هذه الدول : فيقولون أيها الملوك : أما سمعتم قول الله « وأمرهم شورى بينهم » وقوله « وشاورهم في الأمر » وقوله من قصة بلقيس : « قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون قالوا نحن أولوا قوة وألوا بأس شديد » الخ وقوله في قصة فرعون اذ يشارر الملأ في أمر موسى « إذ قال لئلا حوله فاذا تأمرون قالوا أرجه وأخاه » الخ : يا محبا مملكتان شريقتان يذكرهما القرآن ، ملكة تقول « ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون » ، وملك عات « يقول لئلا حوله فاذا تأمرون » القرآن صريح في الشورى ، لاملك يورث ، ولا مال يؤخذ الا بأمر نواب الأمة أى أهل الحل والعقد : فهذا كله ترك منذ العصور الاولى لأن الحكومات مستبدة وكل من رفع رأسه قتل أو أهين ، ودرج الخلف على ماسنه السلف ، ورضى الناس بالملوك وعاشوا في ظلالهم وهم كارهون أو غافلون :

أ كتب هذا الليلة : ليلة الثلاثاء ٤ شهر رمضان سنة ١٣٥٠ هـ أ كتبه وأنا مقبل على زمان سعادة وهناء لأمة الاسلام بعدنا ، وسيكون هذا من مقومات النهضة ، وبناء الحكومات على أساس وطيء ، فلا المال ولا النسب ، ولكن الكفاءة والعلم وضبط الملك ، فهنا نحن أولاء جثا في زمان لا حرج فيه على الكاتيين نظرنا في تجارب الآباء فاستنتجنا منها هذه النتائج ، وهي واجبة علينا فأما من قبلنا فقد كانوا في زمان لا يستطيعون فيه أن يرفعوا أصواتهم حتى يرفع السيف على أعناقهم ، وأنا لست أقول إنهم لم يدوتوا ذلك هم دوتوه ، ولكنهم لم يطولوا فيه كما أطالوا في البيوع والزكاة والصلاة وما أشبهها ، والعللة هي الخوف مع ان هذه المسألة حفاظ لما عداها : لانه لاصلاة ولا حجاج ولا غيرها والناس غير آمنين في منازلهم ، والأمن يكون أكل إذ أسند الأمر إلى أهله .

الفصل الثامن . في تبيان نعمة الله علينا وعلى الناس في زماننا وبعده

إن الله عز وجل سبأ كل ذى علم عن علمه ، والله سبأنى عن تقصيرى في النشر بعد الفهم : يقول الله تعالى « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب لئنننه للناس ولا تكتمونه الخ » ويقول « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم » .

وسيمع هذا أقوام بعدنا فيرون أن أهم ما فى القرآن متروك ، فلم يستنج منه الناس علوما فيوجبوا قراءتها (مثال ذلك) علوم الآثار كآثار الآشوريين ، والبابليين ، وقدماء المصريين ، والفرس ، وما أشبه ذلك ، تلك الأمم الخالية التي عثر الناس عليها في الحفائر والمقابر ، وعلى الألواح والطرورس ، والورق ، ورق الغزال ، والبردى ، أليست هذه هي التي يقول الله فيها كما قدمناه مرارا « وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال » وقد مكروا مكروهم وعند الله مكروهم وان كان مكروهم لتزول منه الجبال « فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله الخ » أليست ترى أن هذه الآية منطبقة تمام الانطباق على مكر الملوك المستبدين في الامم الاسلامية الذين ذكروناهم ، وكيف كانوا يكرون ويحتالون في

حيازة ملكهم ، واتنا نحن يجب علينا أن ندرس ذلك ، ومن المدهش أن علماء الاسلام أجعلوا ذلك ، جعلوا تلك العلوم من فروض التكفيات ، ولكن المسلمون تركوا ذلك كله جهالة كما أوضحناه .
 إن هذا المقال بطول اذا استطرنا فيه بذكر قصص القرآن وحوادث الأمم : كل ذلك ذكر لنظام الدول والممالك ، وأنا أجدك يا الله إذ وقت لوضع نبذ في هذا المقام تدل على البقية وعلى من يأتون بعدنا ، أن يدرسوا الفلسفة ، ويستخرجوا خلاصتها مع خلاصة القرآن وبرقوا الأمم : إن هذا الزمان مبدأ للأمم أسعد حالا وأرقى شأنًا ، ولذلك أنعم الله بهذا التفسير « فانه خير حافظا وهو أرحم الراحمين » .
 كتب ليلة الثلاثاء الساعة ١٢ أى نصف الليل ٤ رمضان سنة ١٣٥٠ هـ - ٢ يناير سنة ١٩٣٢

نظرتي في عوالم العقول وعوالم الحقول . والمزارع . والثمرات

والتسليم لله لمناسبة ما كتبه في هذا المقام

رباه : أمرت نبينا صلى الله عليه وسلم أن يسلم وجهه لله ، وأمرتنا بذلك التسليم في آية : « فان حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن » الآية .

وأمرت المسلم أن يقول في أول كل صلاة : « وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا »
 رباه : هاتحن أولاء وجهنا وجوهنا لك ، وسلمنا أمورنا إليك ، ورجعنا إلى كتابك ، وانتظرنا الفتح منك .
 رباه : هاتحن أولاء نزلت أرواحنا إلى هذه الأجسام في أرضك ، ونظرت في أحوال الأمم التي نعيش معها ، والأمم الخالية فألفينا عجبا ! ألفيناك فعلت في عقولنا ما فعلته في حقولك وحقولنا :

(١) ذلك انك أنزلت المطر مدرارا في خط الاستواء أكثر أيام السنة ، ولم يعوز الخلوقات الحية هناك حوث للأرض ، ولاروى للشجر ، فالأرض تجود بالشجر والمطر فوقها والثمار غزيرة ، والخلوقات الحية قريرة العين بتلك الثمرات اللاتي تؤتي أكلها كل حين باذن ربها .

(٢) ثم رأينا أنما أخرى في مناطق أخرى يعوزها حوث الأرض لاستخراج نباتها ، وقد كفاه المطر السقي (٣) وأم أخرى كأمنا المصرية يعوزها أمران : حوث لأرضها لتقلب الطين فيها ، واستخراج للآء من الآبار ومن النيل حتى يكون لها زرع وثمر . هكذا رأينا المواهب العقلية والحكومية :

(١) فهاتحن أولاء نرى أنبياء ظهرت الحكمة في قلوبهم فبشوها للأمم ، وهؤلاء الأنبياء لا يعورهم معلمون أرضيون ، ولبسوا في حاجة إلى دراسة النظريات الفلسفية .

(٢) ونرى حكماء في الأرض يعوزهم بحث وتنقيب في مقابلة القسم الثاني فيما تقدم .

(٣) ونرى علماء يعوزهم أمران : تدريب عقولهم بالبحث ، واستخراج العلم من مخزون علوم الانبياء والحكماء .

هذه أقسام المواهب العلمية المقابلة لمنابت المزارع والحقول والاشجار الارضية : إذن نحن اليوم من الفريق الثالث ، فعلىنا أن نجد لاستخراج ما كمن في عقولنا من المواهب في مقابلة حوث الأرض لاستخراج الزرع منها ، وأن نقرأ ما نبعث من منبع النبوة من العلم ، فلا ندع عقولنا بلا تفكير لثلاثهك الأمة كما تهلك أمنا المصرية جوعا اذا تركت حوث أرضها ، ولا ندع علوم آباءنا الأولين ولا حكماء الأمم ولا علم الرسالة المحمدية ، لثلاثهك أمنا الاسلامية كما تهلك الامة المصرية اذا تركت ماء النيل جانبا وأخذت ترقب المطر ، ولا مطر غزير في بلادها : رباه هذه طريقتنا في حياتنا الدنيا ، نكتب هذا ، وسيكتب نظيره من بعدنا ، ونسلم أمورنا إليك ، ونحن نوقن أن هذه المواهب وهذه المعارف ليست لنا ، بل هي منك وهي هبة لعبادك

فكل من كانت لديه أى حكمة من أمم الاسلام فى زماننا أو بعده : فإنه مأمور أن يسلم أمره لله ، وأن يسعى فى نشرها فى أمته ، وأن يعلم أنه لأفضل له فى معرفتها ولا فى نشرها : كما لأفضل لأشجار خط الاستواء فى غزارة ثمراتها ولالحقول الزرايع المصريين فى تغذية عبادك بحبوبها ، فأنت الزارع فى الحالين ، وأنت المهيم على الأمم منها : فيها أنا ذا أفوض أمرى إليك ، وأقول أسأمت وجهى لله إنباعاً لانيبائك ، لاسيما خاتم الرسالة صلى الله عليه وسلم ، وأدقن أن ما كتبته ماهو الاغيض من فضل رحمتك ، وما عقولنا ولا أبحاثنا إلا كلقم فى يد كاتبه بصرفه كيف يشاء ، أنت منزل الماء من السماء ومحى الأرض بعد موتها ، وأنت منزل الوحي ومصرف العقول ، وهادياها الى ماشاء من طرق الهداية . بها تحيى أعماماً ، ولعل هذه الطرائق الحديثة فى أمننا الاسلامية ، ترجع بالناس الى العصور الأولى النبوية ، عصور التسليم لك والاقبياد لأمرك والسبر على نصوص كتابك ، والاهتداء بأثوارك ، وقيام أم ودول ، تكون أقرب الى عصر النبوة فى حبك وفى الاشراف على عبادك بحسن السياسة وانتظام الشمل ، (وبعبارة أخرى) يكون المسلمون فى مستقبل الزمان رحمة لعبادك لانك رب العالمين اه .

إشراق شمس الاسلام بعد إظلام ليله

لقد أبنا فى تفسير هذه الآية : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بقت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تقيء الى أمر الله فان قامت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ، إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » اختلاف الأمم الاسلامية فى القرون المتأخرة ، وأفضنا فيه إفاضة كافية وافية ، ومن عادة الله عز وجل أن يجعل بعد العسر يسرا ، وبعد الضيق سعة : « وتلك الأيام نداؤها بين الناس » .

اللهم إنا نحمدك حمدا يوافي نعمك ، ويكافى مزيدك ، رباه قد نلنا ما كنا نتمناه فى أمم الاسلام ، رباه لقد ألتنتى ما كنت أتوقى إليه وأنا حى ، نعم نلت ذلك ، فياسبحان الله : هل كان يدور بخلدى أن أعيش حتى أطلع على الاتفاق بين إمام اليمن والملك ابن السعود ، فخذ أياما مختلفا على جبل بينهما ، فوكل الأول الحكم للثانى ، فحكم الثانى للأول ، وفى هذا اليوم جاء فى جرائدنا المصرية أى يوم الاثنين ١٨ يناير سنة ١٩٣٢ الموافق ١٠ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية تحت العنوان الآتى مانصه :

الاتفاق بين جلالة إمام اليمن والملك ابن السعود

« تم الاتفاق بين العاهلين العرييين ، وذلك على عدة نقاط ، النقطة الأولى ان الأربعة المخاليف التى كانت تابعة للسيد على بن محمد الادريسي ، والذين انقضوا عليه بعد وفاة والده السيد محمد الادريسي ، والذين أخذوا منه المدافع التى كانت معه من مترايوز والجبخانة ، وقد ظلوا حاكبين نفوسهم مدة من الزمن ، غير أنه حصلت الفوضى بينهم ، واختل الأمان والاطمئنان ، ثم أصبحت من غير راع ، فما كان من كبارها إلا أنهم اتفقوا على أنهم يسلمون أنفسهم لجلالة الامام يحيى ، وذهبوا الى أقرب نقطة تابعة لحكمه تسمى (ساقين) وطلبوا من عامل تلك الجهة أن يتقدم ليتسلم أمورهم ، ويجرى ضبطها ، قبل استفحال الفوضى بها ، وألزموه الحجة ، فطلب منهم تسليم المدافع والجبخانة الموجودة معهم ، وتسليم الرهائن بحسب العادة المتبعة هناك ، فأجيب طلبه ، فأرسل الجيوش المتوكية واحتلت الجهة تماما من غير أى مقاومة ، ولما بلغ الأمر الى ابن السعود من عامله بصبياء أرسل من طريق جيزان تنغرافا لعامل الامام بميدى ، وهو القاضى عبد الله العرشى

الذي منه رفعه إلى جلالة الامام يحيى ، حصلت المفاوضات بين العاهلين ، ثم اقترحا إرسال مندوبين من الطرفين كان على رأس مندوبي اليمن حاكم ميدى القاضي العرشى ومعه شيخ مشايخ بلاد خولان راجح ، وشيخ بلاد مجور ، وشيخ بنى جماعة ، واجتمع الوفدان عدة مرات ، ثم قرّر القرار على أن البلاد التي احتلها جيش الامام تضم إليه ، ويتوقف مؤقتنا عن التقدم الى جهة صيبا ومايلها ، ثم ان وفد ابن السعود طلب أن تعين الحدود ما بين عسبر واليمن ، فرفض الامام يحيى ذلك ، بحجة أن عسبر من أمها اليمن ، وقد أجرى الصلح مؤقتنا بهذا وبناء على ذلك تم الاتفاق ، وأمضى الفريقان المعاهدة . اهـ

أفليس من العجب أن يكون هذان الأيران ابني تلسم الأمم التي لم تعرف إلا المشاجرة والتناذب في القرون المتأخرة ، وقد رجعا لعصر النبوة كرة واحدة اتباعا لآية الصلح بين الطائفتين . هذا ومن عجب أن المسلمين يسرعون في الرقى ، فهل كان يدور بخلدى أثناء طبع ﴿سورة سبأ﴾ التي كمل طبعها في شهر شوال سنة ١٣٤٨ هجرية أى منذ أقل من سنتين (وأنا الآن أكتب هذا يوم الاثنين العاشر من شهر رمضان سنة ١٣٥٠ هـ) أن ماتمتمت لبلاد اليمن ، بل ما توقعته يتم قبل مضي سنتين اثنتين . أفليس هذا من عجائب صنع الله تعالى التي توقعها في هذا التفسير ، حقا حقا ان الله أذن برقى أم الاسلام .

كم ذكرت في هذا التفسير أن هذا زمان رقى أم الاسلام . كم كررت هذه الجملة ، نعم كررتها ، ولادليل عندي إلا دافع نفسى ، وهذا الدافع كان كافيا لما أكتبه ، وليس هذا الدافع برهانا عقليا ، إذ البراهين العقلية غير الامور الوجدانية القاصرة على صاحبها ، ولكم ضلّ قوم بوجدانهم فكثيرا ماخطى الوجدان ، ولكن في هذا المقام صدق الوجدان ، وتمّ ما كنت أتوقعه لهذه الأمة أوجب له ، حتى أصبح ذلك عندي يقينا صدقته ! حوادث .

فانظركيف كتبت في تفسير ﴿سورة سبأ﴾ المذكورة اننى كنت فسرتها تفسيرا أوليا بدون الاطلاع على ماكتبه المسلمون والادويون عن الآثار في أرجاء اليمن ، ثم عاقت العوائق عشر سنين اطلعت في أثناءها على تاريخ تلك البلاد ، وسبب اضمحلالها ، وأن القوم أهملوا أعمال زراعتهم ، وصيانة سدودهم ، فانهار السد ، ففترقوا شذرمذرا ، فكان الاستنتاج الاجالى الأولى هو عين التفصيل التحققي بعد ذلك ، وفي هذا التفصيل ظهر الكشف الحديث وفيه آثار بلاد سبأ ، وخريطة «مدينة مأرب» بعد خرابها ، وخريطة «سد العرم» ، وذكر العلماء الذين تقبوا عن تلك الآثار ، ومالاقوا من الفلّة والمهانة ، وهم من أمم مختلفة وكيف نشروا صور تلك الآثار في أنحاء أوروبا ، والمسلمون لجهلهم بعلومهم وبلادهم ، وعلوم الأمم حولهم ، ولغاتهم خامدون ناثمون جاهلون كأنهم لا يعلمون ، أو كأنهم غير موجودين في هذا الكوكب الذي نعيش عليه ، وختمت المقال هناك بندا وجهته لأمة الاسلام ، وقلت : إيه يا أمة الاسلام ، أهكذا يكون المسلمون ؟ إلى أن قلت : يجمل في دين المرومة والشرف أن يكون الجاهلون يعمرّون أرض الله أكثر من المسلمين ! إلى أن قلت : لا لا إن أمة الاسلام ستأخذ دورها عن قريب . أمة الاسلام النائمة قد اقتضى دورها ، وستأني أمة الاسلام اليقظة التي تحفظ نعمة الله الخ إلى أن قلت : لم ذكرت سبأ ؟ ألقصة تذكر . كلا . والله ذكرت لنا الآن ، ذكرت لمن يتعظون ، دفن الله المال والعلم في السخور والألواح وعلى الجدران ، ثم أخرج ذلك الآن الخ .

هذا قلّ من كل مما كتبت في ﴿سورة سبأ﴾ . أفليس من العجب العجيب أن نرى في صحيفه الجهاد في نفس التاريخ المتقدم تحت عنوان «أخبار اليمن» مانسه :

«تقدّمت الجيوش المتوكّية شرقا واحتلت وادى سبأ ومأرب والبيضا والسودا والحرا وبنى نوف والعواتق وبيجان والمصعين ومراد والجوبة ، والجميع يسلمون البلاد إلى القائد العام السيد عبد الله الوزير من غير

أى مقاومة ، وفي أثناء هذه المدة يجرى التقيب في مأرب باهتمام عظيم بواسطة الاختصاصيين الألمانين عن ملوك حبر وكنوزهم المدفونة تحت الجبال ، وقد اهدت الحكومة الحماية إلى اخراج مدفن بجمة مأرب ، ووجدت فيه كمية واسعة من الكنوز الذهبية والأحجار الكريمة ، وأيضاً وجدت مدفناً آخر بجمة بلد تسمى « النخلة الحمراء » وهي تابعة لبلاد الحذاء ، وتبعد عن صنعاء ٣٠ كيلومتراً ، والمشرف على اخراج ما بها من الكنوز سيف الاسلام محمد بن أمير المؤمنين ، وأيضاً وجد كنز بجمة بلدة تسمى « غمان » وقد وجد بها تمثال ملك من ملوك حبر ، وعدة تماثيل : منها ماهو على صور الخيل ، ومنها ماهو على صور أخرى ، وأما الملكة قرينة الملك فهم يتقبون عنها في بلد تسمى « بيان » وهي تبعد عن صنعاء ١٠ كيلومتراً ، والتقيب يجرى باهتمام عظيم . انتهى ماجاء في الخبر بدة المذكورة والحمد لله رب العالمين .

كل هذا لما كتبه وسمعه صديق العالم الذي اعتاد مناقشتي في هذا التفسير سرّاً أجماسرور ، وقال : هذا هو النصر والفتح المبين . هاهم أولاء القوامون على أمر اليمن قد نشطوا لاستخراج كنوزها ، ولكن خير لهم أن يعلوا أهل بلادهم كل علم وكل فن حالا كما فعلت اليابان ، وهاهم أولاء أمراء الاسلام غيروا طريقة آباءهم في القرون المتأخرة التي كانت كلها عشنا وبلاء فالحمد لله رب العالمين .

فقلت : إن أمم الاسلام اليوم تخطو خطوات واسعات نحو المجد ، وأنا أقول : ستشهد الانسانية مشهداً اسلامياً لا يشابهه إلا عصر النبوة ، وينشر الرقى الاسلامي انتشاراً لم يعهد له نظير ، وهذا ابتداء دوره في أثناء طبع هذا التفسير ، وهذه أمة مقبلة لاحد لكأها ، ولا تنتهي لسعادتها .

فقال صديقي : إن الأمر فوق ذلك ، إن اتساع المعارف أخذ يمتد بين أمم الاسلام جميعها ، فليس قاصراً على أمة العرب ، بل المدهش أن الأمم التي ليست بعربية أخذت ترتقي طفرة ، لافي الآثار وحدها ، ولا في الصلح بين الطوائف ، بل في سائر الشؤون الحيوية ، وهل أنك حديث « المقطم » يوم الثلاثاء ٢٩ ديسمبر ١٩٣١ تحت عنوان « معلومات جديدة » عن بلاد التركستان وهذا نصه :

معلومات جديدة

عن بلاد التركستان الصيفية (كشغر)

نصف ساعة مع السيد منصورخان

كثيراً ما كنت أحنّ إلى مصرحين الموضع الرّوم إلى فطيمها ، وكأما زمت حقائبي بقصد السفر فها كنتي الظروف وتقعدي الحوادث ، وما فتحت عيني من نوم إلا وأرى صورة الأزهر الشريف ماثلة أمامي ، لا تكاد تفارقني حتى أراد الله ، وكنت من جهة المدعوين إلى المؤتمر الاسلامي العام ، فلم أربداً من زيارة مصر التي باتت منى قلوب قوسين أو أدنى ، وبين عشية وضحاها كنت في مصر أسير في شوارعها جيئةً وذهاباً ، وفي ذات يوم ضمنى مجلس مع شاب يدعى « السيد منصور أمين خان » من بلاد تركستان الصيفية (كشغر) وهو في العقد الثالث من عمره ، يحسن خمس لغات : التركية ، والفارسية ، والعربية ، والفرنساوية ، وجاتنا من الانكليزية ، وهو أسمر اللون ، معتدل القامة ، طلق المنحيا ، يمتلي الجسم ، لا يتكلم اللغة العربية إلا بأسلوبها الفصيح ، حتى أنك اذا مزجت كلامك بكلمة عامية يطلب منك تفسيرها ، وانك تقرأ في جيبه عنوان الشرف والمبادئ السامية عند ما يقع بصرك عليه ، فطلبت منه أن يتحدثني بمعلومات عن تلك البلاد النائية ، ففضل علينا بالحديث الآتي :

(س) — ما السبب الذي جعلك على مفارقة الوطن ؟ وهل زرت غير مصر من البلاد الاسلامية ؟

(ج) — كنت تلميذاً في المدرسة الثانوية في (كشغر) والعلوم العصرية قليلة في بلادنا جداً بالرغم

من رقى العلوم الاسلامية والآداب العربية والفارسية ، فنسذ عصور قديمة كانت بلادى واخوانى المسلمون غرقى فى لجة الجهالة ، بحيث لايمكثنى تفصيل أحوالهم الاجتماعية فى هذه المدة القصيرة ، فهأناذا أريد الآن أن أرفع من شأن بلادى وشعبى (وهم مسلمو تركستان الصيفية) بالعلوم العصرية ، تلك العلوم التى كانت منذ أزمنة متطاولة حتى زماننا هذا معدودة من أسباب الزندقة والاحلاد فى البلاد بل الكفر ، وأن كل من يتعلم علما عصريا يعدّه قومي مارقا من الدين ، إلى أن بزغ فى آفاق عالم الاسلام شمس أحرقت بأنوارها حجب الجهالة ، فتجلى جمال الحقيقة ، وأزيل القطاء عن عيون شباب بلادى جميعا فى بضع سنين ، الأمر الذى عجرت عنه القرون المتطاولة ، والمؤلفات التى كانت تصدر آنا فآنا لفلسفة الاسلام ، وما هذه الشمس التى مزقت تلك الحجب وأحرقتها إلا مؤلفات فيلسوف الاسلام الأوحد فضيلة الاستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى المصرى الذى سحر عقول بلادنا فى مدة وجيزة ، وأبدع قرنا جديدا فى الحياة الاجتماعية الاسلامية ، ووفق بين القرآن والعلوم العصرية ، مما لايدع مجالاً للشك والريب فى أن تلك العلوم هى نفس الدين ، وأخص بالذكر من المؤلفات (التاج المرصع) الذى أهدها ليكادو اليابان و (نظام العالم والأمم) و (تفسير الجواهر) وكتاب (القرآن والعلوم العصرية) . ومن الحجب أى فى أى بلاد مررت بها فى سفرى إلى تركيا كنت أقابل من يعرف فيلسوف الشرق الشيخ طنطاوى جوهرى وفى يده أثر من آثاره القيمة يريد أن ينتقب به ، أو يتقف به غيره ، والحق يقال ان آثار الفيلسوف على ما أعتقد ستؤثر فى عقلية الشعوب تأثيرا يشبه تأثير المصلح فى الدين المسيحى «لوتر» . ولما كنت فى بلادى كان شباب تركستان الصيفية يتشاورون فيما بينهم أن يشيدوا باسم الفيلسوف الجوهرى جامعة تكون تذكارا لاسمه ، وتقديرا لأعماله ، إن تلك الآثار القيمة أثرت فى عقلية شبان تركستان الصيفية الذين كانوا ينيهون فى يدها آسيا الوسطى جبارى لامرشد لهم ولادليل ، فى عزلة عن الأمم المتعدنة ، فلما رأوها أقبلوا عليها ، وحلّ فى قلوبهم شوق إلى العلوم العصرية ، فسعوا إلى منابعها فى جامعاتها فى الممالك المتعدنة الاوروية والاسلامية ، وأن هذه الكتب الطنطاوية هى التى بعثتنا فى أقطار الشرق والغرب لدراسة علوم الأمم مما حرم منه جميع أجدادنا وآبائنا ، وأنا واحد من أوّل وفد قام من البلاد ، وعددنا ثلاثون شابا ، وقام بعدنا وفد آخر ، كل ذلك بتأثير مؤلفات هذا الفيلسوف ، فهأناذا غادرت بلادى إلى تركيا لاقتباس العلوم العصرية ، وللارتشاف من مناهل حياضها .

(س) ذكرتم أن فى بلادكم مسلمين ، فكم عددهم ومن يحكمهم ؟

(ج) عندنا أكثر من عشرة ملايين من الأتراك المسلمين الذين يتكلمون بلهجة قديمة من اللغة التركية ، أما المسلمون فى بلاد الصين فانهم أكثر من سبعين مليون مسلم يتكلمون باللغة الصينية ويتعادون العادات والتقاليد الصينية ، ويدينون بالديانة الاسلامية الحممدية ، وأن الذى يحكمهم هى الحكومة الصينية الأمبراطورية .

(س) هل تضيق الحكومة عليكم فى دينكم ؟ أم هل تقيمون الشعائر بكل حرية ؟

(ج) نحن أحرار بكل معنى الكلمة .

(س) هل زرتم غير مصر وتركيا ؟

(ج) الأفغان ويران فى طريقى إلى تركيا .

(س) هل مكثتم طويلا فى بلاد الأفغان .

(ج) جلت فى الأفغان ستة أشهر ، وأن رفيقى أمين أفسدى الكاشغرى دخل فى إحدى المدارس الأفغانية مجانا تحت حياجة أمان الله خان الملك السابق ، فحينما ذهبت إلى وزارة المعارف الأفغانية أخبرنى معاون الوزير أنه فى صدد ترجمة كتاب (نظام العالم والأمم) للاستاذ طنطاوى جوهرى إلى اللغة الفارسية لشبان الأفغان

(س) قلم ان كتاب « التاج المرصع » لهذا الفيلسوف أهدها صاحبه لأمبراطور اليابان ، فهل لهذا الكتاب أثر في تلك البلاد اليابانية ؟

(ج) إن التاج المرصع لما وصل إلى اليابان أكتب المسلمون اليابانيون الذين أسلموا من ربح قرن بارشاد للشهور عبدالرشيد إبراهيم السياح على قراءته ، والآن في اليابان على ما سمعت من بعض التفات أكثر من عشرين ألف مسلم ياباني ، فصار هذا الأثر النفيس (دولة) أى تتداوله الأيادي ، وأثر في زيادة محبتهم لدينهم ، والآن ينشر الدين الاسلامي بتأثير ترجمة هذا الأثر انتشارا واسع النطاق . انتهى ماجاء في الجريدة المذكورة
محمد سعيد درويش من سوريا الباب : تزيل مصر

فلما سمعت ذلك وكتبته . قلت : صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، هذا من فضل ربي ليلاوني أشكر أم أكفر ومن شكر فأعما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربي غني كريم ، وقرأت : « الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله » . كتب يوم الاثنين ١٠ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية ١٨ يناير سنة ١٩٣٢ م .

هذا هو نهاية الكلام على المقالة الأولى في قوله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بقت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبنى حتى تبقى إلى أمر الله فان قامت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » والحمد لله رب العالمين .

المقالة الثانية

في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولانساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلهووا أنفسكم ولاتنابذوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم ينب فأولئك هم الظالمون » يا أيها الذين آمنوا اجتنوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا يجب أحذكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم »

إن ما تضمنته هذه الآيات فيه « مقالان : المقام الأول » في غوائل اللسان من السخرية والاستهزاء والمز والتنابد بالألقاب والغبية وما أشبهها « المقام الثاني » في غوائل الأعمال القلبية ، وقد أشير لها بالنبهي عن كثير من الظن ، ويقرب منه التجسس ، فهنا أمران خطيران : هما اللسان والجنان . قال زهير بن أبي سلمى :
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * فلم يبق إلا صورة اللحم والدم
إن القلب هو العالم النورى الجميل العالى الشريف ، الذى يجمع صور العالمين الديوى والأخرى ، واللسان ينوب عنه في أداء ما يمكن فيه من المعاني والعلوم والمعارف ، وكل خير وشر ، إذن أمرها عظيم ، ولاجرم أن فتح المدارس والمعاهد الدينية والكلية والجامعات ، كل ذلك لتكميل العقل وتدريبه . ولقد كانت عناية الناس باللسان لها مقام عظيم أيضا ، ألا ترى أن العلوم اللسانية كلها في الشرق والغرب ترجع إلى تهذيب اللسان ، وفي لغتنا العربية ١٢ علما : كالنحو والصرف واللغة والمعاني والبيان والبديع والخط والانشاء والتاريخ والاملاء والشعر والخطابة ، كل هذه وما يشبهها إنما جعلت لترقية اللسان ، كما ان العقل يرقبه العلوم الرياضية والطبيعية ، والعلم الأعلى وهو العلوم العامة التى تبحث في نظام العالم العلم ، وفي علم النفس وفي علوم الأخلاق والسياسة والله والأرواح والملائكة ، إذن العقل واللسان أمرها عظيم ، لذلك كان لزاما

على في هذه المقالة أن أبين لك أيها الذكي عجائب العلم والحكمة ، وهذه الثروة العلمية التي ورثناها عن آباؤنا الأولين ، وكيف دفنت هذه الثروة في ثنايا الكتب مئات السنين ؟ وكيف نبغت الأمم الأوروبية في هذه الثروة الآن ولكن هبته غير الهبته الإسلامية والنتيجة واحدة .

أنا أرى الآن أنك قد تهيأت نفسك أيها الذكي للتبيان ، وشاقها مما سأقوله في هذا المقام ، واني سأعجل لك ذلك الآن فأقول :

يا سبحان الله . اللهم إنك أنت المعلم ، أنت الهادي ، أنت الحكيم ، أنت معلم الطيور في أوكارها ، والوحوش في أوجارها ، والخسرات في أكنائها ، والنترات المكروبية في أطوارها ومستقرها ومستودعها ، وكل من هذه له طريقة تناسبه ، وحال تلائمها ، فهكذا نوع الانسان قد جعلته أشبه بتلك الأنواع ، اتنازى أن الكلام في تهذيب اللسان يتخذ طرقاً متباينة ، وأحوالاً شتى ، ونرى ديننا الإسلامي فيه من كنوز العالم في هذا المقام وغيره ما به ينتفع الصادقون المخلصون ، فهاهذا الامام الغزالي قد ذكر في الجزء الثالث من الاحياء آفة اللسان جعلها عشرين ستقرؤها قريباً ، وأبان مضارها ، والاحتراس منها ، وهاهي ذه جمعية المباحث النفسية في انكسرتا نبعت في غوائل اللسان كما بحث علماءنا ، ولكن بطريق أخرى . فانظر ماذا جرى ؟ جعلوا العقل أشبه ببطارية الكهروبا ، واللسان أشبه بمحارس تلك الكهروباية ، فاذا حافظ عليها اللسان ولم يبعثرها وسكت ، فان تلك الكهروباية تكون عوناً لصاحبها في جذب القلوب واقبال الناس على الانسان وسهولة المعاملة وجميع مصالح الحياة ، إن هذه الطريقة نافعة لمن يريد العاجلة ، وطريقة علمائنا نافعة لمن يريد الآخرة ، والطريقتان تسعيان لغرض واحد ، وهذا أمر عجيب ! إن أسلافنا ظهر منهم الخطباء والحكام والعظماء وأرباب الحجا بدون أن يعوزهم ما ذكره الأوروبيون ، فهم عملوا بما وصى به الله ونبيه والعلماء فانتفعوا ، ولكن علماء المباحث النفسية أدركوا أن الناس الآن لا يهتمون إلا بالنتائج القريبة اللهم إن ظهور نتائج حفظ اللسان عند علماء المباحث النفسية في زماننا من أكبر المجهزات وأعظم القوائد في ديننا الإسلامي ، فلا ذكر لك أولاً ماسطرته من أقوال علماء جمعية المباحث النفسية ، ثم أتبعه بما قاله الامام الغزالي في الاحياء ، وهذان في حفظ اللسان وهو المقام الأول ، ثم أختتم بما ذكرته في كتابي في علم الأخلاق المسمى « جوهر التقوى » في الذنوب القلبية كالحسد والحقد بعد ذكر الذنوب اللسانية ، وهو المقام الثاني من المقالة الثانية وهاك ما قالته :

جمعية المباحث النفسية

المغناطيسية الشخصية

الفصل الأول : معرفة القوة

إننا كل منا فيه بطارية كهروباية ، يؤثر ويتأثر ، فالجب من الناس لتيارمنك وأنت لاتعلم ، وكذلك النفور ، فالمرء يؤثر ويتأثر طوعاً وكرهاً .

وجود التيارات العقلية

هناك قوة غير القوة العاقلة تعمل بغير العقل فلنسمها مغناطيسية وان كانت هي غيرها ، وقد تعمل أعمال الكهروبا ، والقصد أن نعرف كيف نتحكمها كما حكمنا الكهروبا وان لم نعرف حقيقتها كما جهلت الحياة .

الفصل الثاني

من هو الرجل المغناطيسي ؟ الرجل كالرأة في المغناطيسية

- (١) ترناح معاشرته .
- (٢) رزين لا يتأثر بسرعة .
- (٣) الاحساس بقوة خفية فيه (لا في حديثه ولا حركته ولا سكناته ولا معاملته) بل هي جزء منه .
- (٤) يستولى على جزء من كهر بائنتك فتذهب إليه .
- (٥) ينظر نظرات رحمة بين عينيك في أول الأتف بدون أن تشعر باشمئزاز مع اللطف عند أول كلامه معك .
- (٦) يصنى إلى حديثك دائماً .
- (٧) لاتقف أمامه عقبة ، ولا يتلهف على مطالبه ، بل هو واثق بها ، لأنه متشد لا تركانه على المعرفة ، وانه ينال مقصوده .
- (٨) لا يمدح نفسه ألبتة .
- (٩) يزداد القوى قوة في مغناطيسيته ، والضعيف يزداد ضعفاً ، هذه قاعدة .
- (١٠) لا يفرم باظهار العلم ، بل حديثه عادي .
- (١١) لا يظهر الرغبة في الحديث وأنت تجيب به لاعتقادك أنه قادر على الاخبار بالجناب وهو لا يريد وتظن أنه لا يعتمد ذلك ، ويظهر لك كأنه فوق المدح والاطراء .
- (١٢) إذا ترقى في هذه الصفة لا يسر بائتماره في أصحابه كالأول لأنه أرق من ذلك .
- (١٣) يترقى دائماً .
- (١٤) مميزات المغناطيسية الشخصية : السطوة ، والتأثير ، والثروة ، والجاه ، والقبول عند الناس ، وهي نتائج منطقية للفتنات السابقة ، ويجلب المحبة تجذب الثروة والأفراد .
- (١٥) يعز عليك مفارقتة ، تتعلق به تعلق الطفل بأمته .
- (١٦) يسلب علمك ، وهو يحفظ علمه ، ولو شاء لأسمعك فتحدثه وهو ساكت مصغ آخذ علمك

الرجل غير المغناطيسي

- (١) يخيفك وتكره مصاحبته .
- (٢) يزيدك حزناً واهتباطاً .
- (٣) يكثر المجالس .
- (٤) يشكو القدر ، والأصحاب ، والجو ، وكل شيء .
- (٥) متغير المبدأ ، سريع التنقل فيه ، وفي الحديث قليل عليك ، ولا يفتح بشيء ، عابس الوجه ، خائب ، لا يحب إلا الاطراء الكاذب ، فتخلص منه بالاطراء الكاذب .
- (٦) تفرح عند خروجه من عندك ، ولا مغناطيسية عنده ، هي سالبة ، فقد أخذ منك شيئاً وهو بعض المغناطيسية .
- (٧) سببه أنه لا يعتمد على نفسه ، لا يستقل ، والرجل المغناطيسي لا يشكو ، ولا يبكي ، هو قوة تخضع له الظروف ، ويؤثر في البيئة التي حوله .
- (٨) مسرف في أحواله .
- (٩) منهزم سريعاً .
- (١٠) النتيجة أنه لا يلاقى إلا السمار تبعاً لقوانين الطبيعة الصادقة .

القاعدة الذهبية

- (١) لا تشك مخلوق أملك .
 (٢) ولا تسع وراء اكتساب المدح ، ولا النقطة من الناس .
 (٣) وفي كل رغبة قوة مغناطيسية يجب حفظها للانتفاع .

الفصل الثالث : طبيعة التيارات العقلية

- (١) كل رغبة لأي مطلب هي تيار عقلي عملي يحمل قوة مغناطيسية ، يؤثر الرجل المغناطيسي على اخوانه ، ويعمل في هذا المستوى بقانون الجذب والتنافر .
 (٢) استخراج القوة من الرغبة ، هذه الرغبات اذا عصبتها وحفظناها كانت قوة حفظناها لأنفسنا وان جرينا وراءها ولننا مبتغايا فقدناها ، فلنحرص عليها ، لأننا أحوج إليها فنحزنها .
 (٣) إلا نانية والفخر الكاذب ، وقلة الصبر ، توجب أفعالا تصرف بها عنا تلك القوة .
 (٤) لا ندع مجالا لتيار الرغبة أن يفلت من يديك ، ولا تحقق تلك الرغبة لتكون لك قوة تنضم إلى أخوانها فتكون قوى الجذب لعيرك ، فاذا رغبت أن تدهش اخوانك بأخبار هجبية ، ورأيت فيك مطمعا لتلك فاسكت وهذه قوة حفظتها ، فان حققت ذلك أضعفت مغناطيسيتك .
 (٥) الكتبان : اذا رأيت أن نخبر أحد أسدقائك بخبر ولو كان لا قيمة له فاكتمه ، فهذه رغبة مكتومة حفظت لك مغناطيسية ، وهذه أشبه بالجمام في البرج ، يجلب إليه أخوانه ، وكلما كثرت الأمثال تضاعفت الزيادة ، وهذه تخدمك أجل خدمة .
 (٦) إياك أن تظن أن حفظ هذه القوة هو الجود والوقوف . كلا . بل كلما زادت حفظا زادت قوة كالتبر كلما علا سده زاد ضغط الماء عليه فيسهل الانتفاع بها أكثر .
 (٧) إن قوة الرغبة موجودة ، ألم تر أنك قد تحملك الرغبة على المشي وركوب العربا لاخبار صديقك فاذا حفظت هذه القوة حفظت لك كل قواك التي كانت ستصرفها .
 (٨) نحن لا يؤثر فينا غرابة الذكاء ، وإنما يؤثر فينا نفس الذكاء ، فقابل الخبر المرقص بسكون كأنك فوق ذلك ، لا انك لا تميل لسماحه . كلا . وكأن نفسك عميقة ، واهجابنا بما يبدو من الأذكياء أقل من اهجابنا بأنهم أعمق منا ، اجعل معارفك واخوانك في ظلام داس من جهة أفكارك ، ومتى فعلت ذلك بغاة أعجب بك أصحابك حالا .
 (٩) الكتبان جعل الأتباع يظنون في التبوعين قوة فوق طاقتهم ، لولا الكتبان ماجهلت الحقائق والجهل بها أورت الأتباع إعظاما لتبوعهم ، فعظماء الرجال سادوا بالكتبان .
 (١٠) بمن اتصف بهذه الصفة تشارلس استوارت الزعيم الأيرلندي وهو فوق نابليون ، وكان كثير من هؤلاء معضلات عند أصحابهم ، وكان استوارت يارتل قليل الكلام جدا ، ولا خشونة في صوته ، ولا يتكلم إلا باللازم ، وكان هادئا في حديثه .
 (١١) الصمت المذكور له أوقات كالأدوية المختلفة ، ومعنى هذا الصمت أن اخبارك تحفظها في نفسك وتعود التفكير فيها فتكون قوة حقة ، أما اذا تكلمت وصرت بأفكارك فقد ذهبت مغناطيسيتك ، فاذا لم تطلعهم على سرّك كنت ذا جاذبية قوية تجذبهم إليك كما يجذب المغناطيس قطع الحديد .

(١٢) لا تخبر اخوانك انك قرأت المغناطيسية فذلك يسقط قيمة عملك ، بل اكتب هذا تكون قوة عظيمة ، أما اذا علموا كانت أعمالك ضائعة ، واجتنب الاطراء ، فالذي يطرى أفعاله يزيد عليه الساكت الحافظ لرغباته ، فالناس هم المادحون له .

الفصل الرابع

انظر في حياتك الماضية تجد أنك أنت و ٩٩ من المائة من الناس ينهزون القرص لاخبار اخوانهم بما فعلوا لتظهر نباهتهم ، هذه فطرة حب الاطراء والمدح ، وهي تيار من تيارات المغناطيسية الانسانية العقلية في المنح يتسرب من النفس كما تضع الكهربية في الجوّ بدون عمل اذا لم تحفظ ، إن هذه الغريزة فيما متى تركت وشأنها أضعفت قوانا وأخذت منا منافع لانهلية لها ، وهي تضاد للمنافع الواجبة لنا فلنحفظها ، فلتحذر هذا وتجتهد أن تكون منبها ، فلا تحقق رغبة الاطراء ولوفى أبسط الأشياء ، فاحفظها نكسب غيرها بلا تعب ، فسوف تشاهد النتيجة محسوسة ، في زمن قصير ترى ﴿ أمرين : الأول ﴾ أنك بعد أن تقرأ هذه الأخلاق وتعمل بها ترى تغيرا محسوسا في نفسك ، وفي حياتك اليومية ، يزيد احترامك لنفسك وثقتك بها ، وتعلو هيبتك ووقارك ، وتحسّ بالقوة الحقيقية تسرى في عروقك ، بعد التغلب على كل تيار تشعر به ﴿ الثاني ﴾ انك ترى اخوانك قد تغيروا نحوك تغيرا كبيرا ، يزدادون رغبة للبحث عنك ، والمحادثة والبقاء معك ، يمكنك الزيادة في كل وقت اذا اتبعت ما يأتي : « لا تحقق رغبتهم في معرفة شؤونك ، واترك أصحابك حيارى من جهتك ، وياك أن تظهر أنك تفعل ذلك متعمدا » انتهى الفصل الرابع .

الفصل الخامس : كيف يمكن استعمال القوى المضادة لفاثدتك الشخصية

كل رغبة تيار موجب أو سالب يريد الاتحاد مع ضده فيحدث التبادل وترجع إلى ما كنت عليه كما يجذب القطب الموجب المغناطيسى القطب السالب ، الأثرى إلى السكبر كيف يضرب بالفضائل عرض الحائط ، ويضع نفسه ، وبخالف ضميره ، تلك قوة قاهرة بائسة ، فلانستفيد منها كما يستفيد المصارع الياباني من خصمه ، وتكون وبالا عليه .

معرفة القوة القابلة للاستعمال

قد علمت القوة المغناطيسية الكامنة في التكتّم ، ونبت الأمانة بالنسكّم والفخر ، كل دافع للرزيلة نعمة متسكرة فليقابلها اللبيب بصدر رحب على أى شكل كانت ، فزيد القوة المغناطيسية ، فيضيف جاذبية على جاذبية عنده ، فان اتبع هواه رجع كالعادة وتضعف البطارية العقلية . إن العازل الواقى لك من ضياع المغناطيسية هو العلم الذى قرؤته في مثل هذا .

تمرين هام لامتنصاص الطاقة

اذا عرض لك خاطر مزعج مما كان يؤثريك سابقا ، فافرح فانك أرقى منه ، وفكر في أنك ستملكه وتفتنح به ، ففي أثناء التفكير :

(١) خذ نفسك ببطء مقدار ٨ ثوان وكرر العبارة الآتية : « أسأسى حالا بارادنى لامتلاك القوة السلبية لهذه الرغبة » .

(٢) بعد ذلك احفظ الهوا في رقتيك ٨ ثوان ، وكررا للجملة الآتية في أثناء ذلك : « أسأسى الآن في

امتصاص هذه القوة التي ستصبح من الآن ملكاً لي .
 (٣) أخرج الهواء من رتيك ببطء نحو ٨ ثوانٍ وردد الجمله الآتية في نفسك أثناء ذلك : « أنا الآن في هدوء تام ، ويمكنني به أن أحكم القوة المغناطيسية التي أحزنتها » ويمكنك أن تكرر هذا التمرين عدة مرات إذا أردت .
 هاأنذا شرحت لك طريقة الامتلاك والامتصاص والهدوء ، وذلك ليس لحفظ القوة فقط ، بل العلماء يعتقدون أن هناك صلة بين الرنين ، وبين ضيعة الشعور البشرية .

يتغلب على هوى نفسه

إن هوى نفسك يفقد سلطانه عليك متى اعتقدت وعرفت أنك قادر على التغلب عليه ، وانك تسلب قوته ، وتستهملها لأغراضك ، ففي خطوة واحدة صرت أرقى من الهوى النفسى ، وأعلى من العواطف ، والناس يسعون لهذا طول حياتهم ، وقليل منهم الواصل . مثل الرغبة والعواطف كمثل قبلة فيها فتيلها المحترق الذى ينتهى بفرقتها ، فان تركها الرجل الجاهل تفرقت وقتلته ، أو شوهت جسمه ، وان رفع القبيل عنها (ولا أنالك إلا فاعلا ذلك) صارت ملكاً حلالاً تنتفع بها في حياتك متى شئت ، فالإنسان تحت العواطف هالك ، والمالك لها سعيد . انتهى الفصل الخامس .

الفصل السادس: الوقت اللازم لظهور النتائج

سيقول قائل : هذه الفصول الخمسة لم يجي فيها أمور عالية هي معقدة سر ؟ فنقول : عليك باتباع هذه التعاليم ، والنتيجة أشبه بنتيجة الزرع ، والقوانين هنا كالشمس ، الزرع لا يورق ولا يزهر ولا يثمر إلا في زمان ملائم ، هكذا هنا فليست النتائج بنت يوم أو بعض يوم .

بعض النتائج في الحال تشاهد

الطالب الجديد يشاهد في ٤ أو ٥ أيام على الأكثر بعض النتائج ، وفي الحال يشعر باحترام نفسه ، والثقة بها ، وكما زدت كعباً للنفس زدت قوة في أعصابك ومخك تزيد في أبحاثك وقتك بمغناطيسيتك الشخصية ، وهي ليست أنانية ، بل هي طمأنينة وراحة بها يتأكد لك عظيم فؤذك وتأثيرك ، وهي لا ندعو للباهة ، ولا المفاخرة أبداً ، ولينتقد كل طالب نفسه بصراحة في كل لحظة ، فلا يقع فيها يقع فيه الناس من الخطأ ، فلا تظن أن فقدك الجاذبية من أنانية الأصحاب وذوقهم السقيم ، فالخطأ منك أنت لأنك فقدت الجاذبية .

ضرب مثل

إن زبدا الذى كنت تحب إعجابك بك وهو صديقك قد أقبل ، وقد كنت تستجلب مودته وهو لا يلتذ بمعاشرتك ، ولا تسمه ، محبتك ، سبب ذلك أنك كنت البطارية المرسله وهو البطارية القابلة ، فكنت فأقدا شرارتك الكهر بانية ، فأضعت قوتك وراء الفخر والمباهاة طوعاً أو كرها ، وهو حاز وقتك واحترامك بلا تعب ، يمكنك أن ترجع إلى عقلك الآن ترى أن القوانين المتقدمة تدل على أنه سحب منك ولم تسحب منه .

ما يجب عليك ؟

اسكت الآن قليلاً ، اترك صاحبك ثلاثة أيام أو أربعة ، هل سررتك شئ تجربه أصحابك كهادتك ؟ احفظه اترك العادة القديمة ، تغلب على تلك الرغبة ، رغبة الاخبار والمباهاة ، هذا التغلب سهل في الأول ، صعب

بعد ذلك ، لتمكن العادة منك ، ولكنك أنت فوق كل صعب ، لأنك قوى العزيمة ، ولست بمن تقف أمامه العقبان ، ولقد كانت تهرب منك تلك القوة ، وأسفاه : فاحفظ رغائبك المادية والمعنوية لانقر منك ، وليس هذا نكران الذات إنما هو القانون العلمى الذى يحكم التيارات ، فإذا عملت بهذه القوانين وطبقها بذكائك أمكنك أن تحفظ قوتك ، وتقاوم رغباتك ، وقوة ذلك تصير ملكا لك . انتهى الفصل السادس :

الفصل السابع

لعلك تقول قبضت على قوى المادية والمعنوية بيد من حديد ، وجعلتها فى بطاريى العقلية ، فما النتيجة ؟
 ﴿ الجواب ﴾ القوة التى ملكتها وحفظتها سوف تجذب إليها ما يضافها من مغناطيسية الآخرين كالسحرة .
 الموجبة تجذب السالبة بدون عمل منك ولا فكر . وجهك يتغير ، وأخلاقك تتغير ، وأعمالك وأنت لا تشعر ،
 والذى كنت تطلبه فلا تصل إليه يجرى إليك عتارا بلاسى منك ، يأتى إليك اضطرارا بالقانون والجذب العام
 ﴿ والنصيحة ﴾ أن لا تندم إذا لم يأت لك نفس ما طلبته بعينه الذى كنت تسمى إليه ، انه سوف يأتى لك
 يوما من الأيام .

التغير الطبيعي المشاهد

متى ابتدأت فى العمل والتمرين والتقوية بهذه القوانين :

- (١) فالجسم يتغير .
- (٢) العين أكثر لهانا .
- (٣) البشرة تزيد بياضا .
- (٤) القامة أكثر اعتدالا .
- (٥) يترك الخوف ، والقلق ، والحزن ، والتعامل ، والسامة ، والتأثر .
- (٦) يكون هادئا ساكنا .
- (٧) صار الآن ليس هو ذلك الضعيف الذى تلعب به الطبيعة البشرية ، أصبح قوة لا يستهان بها فى الوجود ، تتغير الدنيا فى عينه ، تلبس حلة جديدة ، تبدل أفكاره من جهنما ، ويستمر فى فهم قوته المعنوية ، فيزيد إيمانا وعقيدة وطمأنينة ، نفسه أصبحت تفهم معنى الحياة ، والعلم قوة ليس بعدها قوة .

يجب الانتباه لأبسط الأشياء ، فإذا ترك فرصة واحدة أصاحت كثيرا من قوته ، هناك ظاهرة طبيعية ، لا يعتد بها صغار العقول ، وتكون سببا من أسباب اليأس ، وداع من دواعى الخيبة ، إذا سرت فى هذه الأعمال اتقادت لك السعادة ، وأصبح ما كان صعبا عليك فى غاية السهولة ، ولكن ربما تقف عند مانلته فاعلم أن القوة لا تنهاى ، فاطلب الأعلى ولا تقف عند ما وصلت إليه ، فليس للسعادة نهاية ، وللاقوة غاية .

الفصل الثامن : اقتراحات نافعة فى الامور العملية

قد عرفت هذه القوانين ، وفهمت كيف تحفظ كهر بائنتك ، وتريد أن تستعمل هذه الموهبة فى أمر ، كأن تتوجه إلى رجل فظ غليظ قاسى القلب ، وتريد أن تخلص منه وتؤثر فيه فيكون لك لاعتلك ، فهذه القوانين تساعدك :

- (١) تظاهر أمامه بظهورك الأدبى الحقيقى مع الفتور وعدم الاهتمام ، شاعرا انك قادر أن تكون أرق

من ذلك والطف في حضرتك ، ولكنك لا تريد ذلك . وتتسدى* الحادثة وأنت مقدر لقوتك المحفوظة في بطايرتك حق قدرها . تكلم بهدوء وطمأنينة . لا يظهر على وجهك علامة التلهف والاشفاق . لا يظهر الملل عليك ، ولا اليأس على وجهك ، اجعل السرور يعلو أسرار بطلعتك مع السكينة والهدوء والثقة بكل نجاح ، وكل حركاتك دالة على ماسبق ، وعند ابتداء الكلام انظر إلى البقعة بين عينيه في أعلى الأنف ولتعتقد انها موضع ضعف الرجل ، هؤلاء المحشون ضعاف ، فسقنظر عيناه يمينا وشمالا ، ولا تنظر لها بعين برائة بل بهدوء وطمأنينة فتبتعد عيناه عنك بقلبي زائد ، اجتهدي أن ينظر إليك وأنت تتكلم ، وإذا ابتداء في الكلام فارفع عنه نظرك وانظر الى أي نقطة أخرى من جسمه ، اصغ إليه باحترام ، فإذا ابتدأت الكلام انظر النقطة بغير وضوح بحيث لا يتنبه ، الهدوء والسكينة مفتاح نجاحك ، وبعد ذلك لا ينسأك أبدا وسوف يعرف أنك أثرت فيه

كيف تحصل على الراحة والطمأنينة والثقة بالنفس ؟

تدرّب على الخطابة في الأماكن الخالية ، أو في سجنك التي لا يجلس معك فيها أحد ، وحذ النفس بلطف وأخرجه بلطف هكذا ٥ دقائق ، والادخال والاخراج بالتدرج ، وبعد ذلك قف على قدميك ذاهبا جاتا ملقيا كلمات ذات رنان في أي موضوع على شخص ، أو أشخاص ، أو صورتك في المرآة ، وقب بصوت جهوري ، مشيرا بأصبعك ، مفكرا في كل جملة قبل النطق بها ، كامل الثقة ، واقفا ثقة تامة بالقول ، حاصرا فيه فكرك ، ونخرج الألفاظ كدقات الأجواس من أعماق صدرك ، والكلام في أي خاطر بطراً عليك ، ولو كانت الكلمات غريبة ، أو الأقوال غير معقولة ، وتؤثر على السامع الخيالي وكأن الحادثة حقيقة .

التأثير « قسمان : الأول » زيادة الثقة بالنفس وله نتائج عديدة بأشكال مختلفة مباشرة وغير مباشرة وعلى كل حال سوف تعرفها بنفسك وتشعر بها في حينها : متى شعرت بملل واحتجت إلى زيادة ثقته بنفسك فاقض في هذا التمرين نصف ساعة تمرّ العجب العجاب . والقسم الثاني تأثير العقيدة ، فإذا كان الحديث في قضية معلومة استفاد من هذه القوة الجبية فائدة ، وحصل على ما يريد على حسب ما طلب في حديثه ، وكأن تلك الأشياء ملك له فلا تلبث حتى تأتي له ، ووجهة تأثير العقيدة نظرية شائعة في أوروبا اليوم . والى هنا تم الكلام على المقالة الثانية والحمد لله رب العالمين .

هذا ما أردت ذكره من آراء مباحث الجمعية النفسية ذكرتها لأريك أن القوم في أوروبا أخذوا يبحثون على حفظ اللسان بمثل ذلك وإن كنت أعارض في بعض ما جاء فيه ، وأنت ترى أيها التكي أن هذه الجمعية احتالت على تهذيب اللسان بالنتائج العاجلة بحسب ظنها . وهذه النتائج الدنيوية وصل لها المهذبون من المسلمين سابقا بما أقصه عليك من نبا الأخبار والآثار التي ذكرها الامام الفزالي في الاحياء . وسترى عجا من توافقي النتائج في الحاليين وكيف كانت هذه الثروة المخزونة عندنا ضائعة . وظهر عند غيرنا ما وافقها في نتائجها . فانظر ما سئد كره فيما يلي وهو :

القسم الثاني من المقام الأول في المقالة الثانية

نذكر هنا ما جاء في الجزء الثالث من كتاب الاحياء في صفحة ١٠٠ وما بعدها وهذا نصه :
« ونحن بتوفيق الله وحسن تديره نفصل مجامع آفات اللسان ، ونذكرها واحدة واحدة بمحدودها وأسبابها وغوائلها ، ونعرف طرق الاحتراز عنها ، ونورد ماورد من الأخبار والآثار في ذمها ، فنذكر أولا فضل الصمت وتورده بذكر آفة الكلام فيها لا يعني ، ثم آفة فضول الكلام ، ثم آفة الخوض في الباطل ، ثم آفة

المراء والجدال ، مم آفة المحصومة ، مم آفة التعر في الكلام بالتشدد ، ونكاف السجع والفصاحة ، والتصنع فيه ، وغير ذلك مما جرت به عادة المتفاسحين المدعين للخطابة ، ثم آفة الفحش والسب وبذاءة اللسان ، ثم آفة اللعن إياحيوان أوجساد أو انسان ، ثم آفة الغناء والشعر . وقد ذكرنا في كتاب السماع ما يحرم من الغناء وما يحل فلا نصيده ، ثم آفة المزاح ، ثم آفة السخرية والاستهزاء ، ثم آفة افشاء السر ، ثم آفة الوعد الكاذب ثم آفة الكذب في القول واليمين ، ثم بيان التعارض في الكذب ، ثم آفة الغيبة ، ثم آفة النجاسة ، ثم آفة ذى اللسانين الذي يتردد بين المتعادين ، فيكلم كل واحد بكلام يوافقه ، ثم آفة المدح ، ثم آفة الغفلة عن دقائق الخطأ في خوى الكلام لاسيا فيما يتعلق بالله وصفاته ويرتبط بامول الدين ، ثم آفة سؤال العوام عن صفات الله عز وجل ، وعن كلامه وعن الحروف أمي قديمة أو محدثة ؟ وهي آخر الآفات ، وما يتعلق بذلك ، وجلتها عشرون آفة » ونسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه :

بيان عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت

اعلم أن خطر اللسان عظيم ، ولانجاة من خطره إلا بالصمت ، فلذلك مدح الشرع الصمت وحث عليه فقال صلى الله عليه وسلم (١) « من صمت نجأ » وقال عليه الصلاة والسلام (٢) « الصمت حكم وقليل فاعله » أي حكمته وحزم (٣) وروى عن عبد الله بن سفيان عن أبيه قال قلت لرسول الله : أخبرني عن الاسلام بأمر لا أسأل عنه أحدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم قال قلت فما أتني ؟ فأوماً بيده إلى لسانه (٤) وقال عقبه بن عامر قلت لرسول الله ما النجاة ؟ قال أمسك عليك لسانك ، ولبسك بيتك ، وابك على خطيئتك (٥) وقال سهل ابن سعد الساعدي قال رسول الله ﷺ : « من يتكفل لي بما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة » وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « من وثق شره قببه وذبيبه وقلقه فقد وثق الشره كله » التقيب هو البطن ، والتذبذب الفرج ، واللقاق اللسان ، فهذه الشهوات الثلاث بها يهلك أكثر الخلق ، ولذلك اشتغلنا بذكر آفات اللسان لما فرغنا من ذكر آفة الشهوتين : البطن والفرج (٧) وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكبر ما يدخل الناس الجنة فقال تقوى الله وحسن الخلق ، وسئل عن أكبر ما يدخل النار فقال الأجوفان القم والفرج فيحتمل أن يكون المراد بالقم آفات اللسان لأنه محله . ويحتمل أن يكون المراد به البطن لأنه منفذ ، فقد

(١) حديث : من صمت نجأ (ت) من حديث عبد الله بن عمرو بسند فيه ضعف وقال غريب وهو عند الطبراني بسند جيد .

(٢) حديث : الصمت حكمة وقليل فاعله : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف ، والبيهقي في الشعب من حديث أنس بلفظ حكم بدل حكمة وقال غلط فيه عثمان بن سعد والصحيح رواية ثابت ، قال : والصحيح عن أنس أن لقمان قال ورواه كذلك هو وابن حبان في كتاب « روضة العقلاء » بسند صحيح إلى أنس .

(٣) حديث سفيان الثقي : أخبرني عن الاسلام بأمر لا أسأل عنه أحدا بعدك الحديث (ت) ومصححه (ون ٥) وهو عند (م) دون آخر الحديث الذي فيه ذكر اللسان .

(٤) حديث عقبه بن عامر : قلت لرسول الله ما النجاة ؟ قال أمسك عليك لسانك الحديث (ت) وقال حسن

(٥) حديث سهل بن سعد : من يتوكل لي بما بين لحييه ورجليه أتوكل له بالجنة . رواه خ

(٦) حديث : من وثق شره قببه وذبيبه وقلقه الحديث أبو منصور الديلمي من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ : فقد وجبت له الجنة .

(٧) حديث : سئل عن أكثر ما يدخل الجنة الحديث (ت) ومصححه (و٥) من حديث أبي هريرة

قال (١) معاذ بن جبل : قلت يا رسول الله أنؤاخذ بما تقول ؟ فقال : نكلك أمك يا ابن جبل ، وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم (٢) وقال عبد الله الثقي : قلت يا رسول الله حدثني بأمر أعصم به ؟ فقال قل ربني الله ثم استقم . قلت يا رسول الله ما أخوف مما تخاف علي ؟ فأخذ بلسانه وقال هذا (٣) وروى أن معاذ قال يا رسول الله أي الأعمال أفضل ؟ فأخرج رسول الله ﷺ لسانه ثم وضع عليه أصبعه (٤) وقال أنس بن مالك قال صلى الله عليه وسلم : « لا يستقيم إيمان العبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ، ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جاره بوائقه » وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « من سرته أن يسلم فليزلم الصمت » وعن سعيد بن جبيرة مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ أنه قال (٦) إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكر اللسان أي تقول : اتق الله فينا فانك ان استقمنا ، وان اعوججت اعوججتنا (٧) وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى أبا بكر الصديق رضي الله عنه وهو يمد لسانه يده فقال له ما تصنع يا خليفة رسول الله ؟ قال هذا أوردني الموارد ان رسول الله ﷺ قال : ليس شيء من الجسد إلا يشكو إلى الله اللسان على حديثه (٨) وعن ابن مسعود انه كان على الصفا يلبي ويقول : « يا لسان قل خيراً تفنم ، واسكت عن شرّ تسل ، من قبل أن تندم » فقيل له يا أبا عبد الرحمن أهدنا شيء تقول له أو شيء سمعته ؟ فقال لا بل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أكثر خطايا بني آدم في لسانه » (٩) وقال ابن عمر : قال رسول

- (١) حديث معاذ : قلت يا رسول الله أنؤاخذ بما تقول ؟ فقال نكلك أمك ، وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم (ت) وصححه (وهك) وقال صحيح على شرط الشيخين .
- (٢) حديث عبد الله الثقي : قلت يا رسول الله حدثني بأمر أعصم به ؟ الحديث رواه (ن) قال ابن عساکر وهو خطأ ، والصواب سفيان بن عبد الله الثقي كما رواه (ت) وصححه (ه) وقد تقدم قبل هذا بخمسة أحاديث .
- (٣) حديث : ان معاذ قال يا رسول الله أي الأعمال أفضل ؟ فأخرج لسانه ثم وضع يده عليه ، الطبراني وابن أبي الدنيا في الصمت ، وقال : أصبعه مكان يده .
- (٤) حديث أنس : لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ، الحديث ابن أبي الدنيا في الصمت والمخراطة في مكارم الأخلاق بسند فيه ضعف .
- (٥) حديث : من سرته أن يسلم فليزلم الصمت ، ابن أبي الدنيا في الصمت ، أبو الشيخ في فضائل الأعمال والبيهقي في الشعب من حديث أنس باسناد ضعيف .
- (٦) حديث : اذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكر اللسان الحديث (ت) من حديث أبي سعيد الخدري رفعه ، ووقع في الاحياء عن سعيد بن جبيرة مرفوعاً وانما هو عن سعيد بن جبيرة عن أبي سعيد رفعه ، ورواه (ت) موقوفاً على عمار بن زيد وقال هذا أصح .
- (٧) حديث : ان عمر اطلع على أبي بكر وهو يمد لسانه فقال ما تصنع يا خليفة رسول ؟ قال ان هذا أوردني الموارد ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليس شيء من الجسد إلا يشكو إلى الله عز وجل اللسان على حديثه ابن أبي الدنيا في الصمت وأبو يعلى في مسنده والدارقطني في العلل والبيهقي في الشعب من رواية أسلم مولى عمر ، وقال الدارقطني ان المرفوع وهم على الداروردي ، قال وروى هذا الحديث عن قيس بن أبي حازم عن أبي بكر ولا علة له .
- (٨) حديث ابن مسعود انه كان على الصفا يلبي ويقول : يا لسان قل خيراً تفنم ، وفيه مرفوعاً : إن أكثر خطايا بني آدم في لسانه ، الطبراني وابن أبي الدنيا في الصمت والبيهقي في الشعب بسند حسن
- (٩) حديث ابن عمر : من كفت لسانه ستر الله عورته الحديث ابن أبي الدنيا في الصمت بسند حسن

صلى الله عليه وسلم : « من كفت لسانه ستر الله عورته ، ومن ملك غضبه وقاه الله عذابه ، ومن اعتذر إلى الله قبل الله عنده » (١) وروى أن معاذ بن جبل قال يارسول الله أوصني : قال اعبد الله كأنك تراه ، وعد نفسك في الموتى ، وان شئت أنبأتك بما هو أملك لك من هذا كله ، وأشار بيده إلى لسانه (٢) وعن صفوان بن سليم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن الصمت وحسن الخلق » (٣) وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت » (٤) وقال الحسن : ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « رحم الله عبدا تكلم فغمم ، أو سكت فسلم » وقيل لعيسى عليه السلام : « دلنا على عمل ندخل به الجنة ؟ قال : لا نتكلموا أبدا ، قالوا لا نستطيع ذلك . فقال : فلا تتكلموا إلا بخير » وقال سليمان بن داود عليهما السلام : « ان كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب » (٥) وعن البراء بن عازب . قال : جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال : دلني على عمل يدخلني الجنة ؟ قال : أطمع الجائع ، واسق الظمآن ، وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، فان لم تطق فكف لسانك لإلما من خير . وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « اخزن لسانك لإلما من خير ، فانك بذلك تغلب الشيطان » . وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله عند لسان كل قائل ، فليتق الله امرؤ علم ما يقول » وقال عليه الصلاة والسلام (٧) « إذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فانه يلقي الحكمة » (٨) وقال ابن مسعود : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الناس ثلاثة : غانم ، وسالم ، وشاحب ، فالغانم الذي يذكر الله تعالى ، والسالم الساكت ، والشاحب الذي يخوض في الباطل » وقال عليه الصلاة والسلام (٩) « إن لسان المؤمن وراء قلبه فاذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ثم أمضاه بلسانه وأن لسان المنافق أمام قلبه فاذا هم بشيء أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه »

- (١) حديث : ان معاذ بن جبل قال يارسول الله اوصني ، قال اعبد الله كأنك تراه الحديث ، ابن أبي الدنيا في الصمت وطب ، ورجاله ثقات ، وفيه انقطاع .
- (٢) حديث صفوان بن سليم مرفوعا : ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن الصمت وحسن الخلق ، ابن أبي الدنيا هكذا مرسل ورجاله ثقات ، ورواه أبو الشيخ في طبقات المحدثين من حديث أبي ذر وأبي الدرداء أيضا مرفوعا .
- (٣) حديث أبي هريرة : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت ، متفق عليه
- (٤) حديث الحسن : ذكر لنا رسول الله ﷺ قال : رحم الله عبدا تكلم فغمم أو سكت فسلم ، ابن أبي الدنيا في الصمت واليهيقي في الشعب من حديث أنس بسند فيه ضعف فانه من رواية اسماعيل ابن عياش عن الحجازيين .
- (٥) حديث البراء : جاء أعرابي فقال : دلني على عمل يدخلني الجنة ؟ قال أطمع الجائع الحديث ، ابن أبي الدنيا باسناد جيد .
- (٦) حديث : اخزن لسانك لإلما من خير ، الحديث (طص) من حديث أبي سعيد وله في المهجم الكبير ولا بن حبان في صحيحه نحوه من حديث أبي ذر .
- (٧) حديث : إذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فانه يلقي الحكمة (ه) من حديث أبي خلاد بلفظ : إذا رأيتم الرجل قد أعطى زهدا في الدنيا وقلة منطلق فاقربوا منه فانه يلقي الحكمة وقد تقدم
- (٨) حديث ابن مسعود : الناس ثلاثة : غانم وسالم وشاحب ، الحديث الطبراني ، وأبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدري بلفظ المجالس ، وضعفه ابن عدي ، ولم أجده ثلاثة من حديث ابن مسعود .
- (٩) حديث : إن لسان المؤمن وراء قلبه فاذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ، الحديث لم أجده مرفوعا وإنما رواه الخرائطي في مكالم الأخلاق من رواية الحسن البصري قال كانوا يقولون .

وقال عيسى عليه السلام : « العبادة عشرة أجزاء : تسعة منها في الصمت ، وجزء في الفرار من الناس » .
وقال نبينا صلى الله عليه وسلم (١) « من كثر كلامه كثرت سقطه ، ومن كثرت سقطه كثرت ذنوبه ، ومن كثرت
ذنوبه كانت النار أولى به » .

ومما ورد في الآثار : كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يضع حصاة في فيه يمنع بها نفسه عن الكلام ،
وكان يشير إلى لسانه ويقول : هذا الذي أوردني الموارد . وقال عبد الله بن مسعود : والله الذي لا إله إلا هو
ما شيء أحوج إلى طول سجن من لسان . وقال طاوس : « لسانى سبع إن أرسلته أكلتني » . وقال وهب
ابن منبه : في حكمة آل داود : حق على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه ، حافظاً لسانه ، مقبلاً على شأنه .
وقال الحسن : ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه . وقال الأوزاعي : « كتب إلينا عمر بن عبد العزيز رحمه الله :
أما بعد : فإن من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا بالسبب ، ومن عدّ كلامه من عمله قلّ كلامه إلا فيما
يعنيه » . وقال بعضهم : « الصمت يجمع للرجل فضيلتين : السلامة في دينه ، والفهم عن صاحبه » . وقال
محمد بن واسع لمالك بن دينار : « يا أبا يحيى : حفظ اللسان أشد على الناس من حفظ الدينار والدرهم » .
وقال يونس بن عبيد : « ما من الناس أحد يكون منه لسانه على بال إلا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله »
وقال الحسن : « تكلم قوم عند معاوية رحمه الله والأحنف بن قيس ساكت ، فقال له مالك : يا أبا بحر لا تتكلم
فقال له أخشى الله أن كذبت وأخشاك أن صدقت ، وقال أبو بكر بن عياش : « اجتمع أربعة ملوك : ملك
الهند ، وملك الصين ، وكسرى ، وقبصر . فقال أحدهم : أنا أندم على ما قلت ولا أندم على ما لم أقل . وقال
الآخر : انى إذا تكلمت بكلمة ملكتني ولم أملكها ، وإذا لم أتكلم بها ملكتها ولم تملكني . وقال الثالث :
عجبت لتكلم إن رجعت عليه كلمته ضرته وإن لم ترجع لم تنفعه . وقال الرابع : أنا على رد ما لم أقل أفدمني
على رد ما قلت » . وقيل أقام المنصور بن المعتز يتكلم بكلمة بعد العشاء الآخرة أربعين سنة . وقيل ماتكم
الربيع بن خيثم بكلام الدنيا عشرين سنة ، وكان إذا أصبح وضع دواة قوطاسا وقلما فكل ماتكم به كتبه
ثم يحاسب نفسه عند المساء ، فإن قلت فهذا الفضل الكبير للصمت ما سببه فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان من
الخطأ والكذب والغيبة والنميمة والرياء والنفاق والفحش والمراء وتزكية النفس والخوض في الباطل والخسومة
والفضول والتحريف والزيادة والتقصان وإبذاء الخلق وهتك العورات ، فهذه آفات كثيرة ، وهي سبابة إلى
اللسان لا تثقل عليه ، ولها حلاوة في القلب ، وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان ، والمخاض فيها قلما
يقدر أن يمك اللسان فيطلقه بما يحب ويمسكه ويكفه عما لا يحب فإن ذلك من غوامض العلم كما سيأتي
تفصيله ، ففي الخوض خطر ، وفي الصمت سلامة ، فلذلك عظمت فضيلته ، هذا مع ما فيه من جمع المهمة ودوام
الوفرة والفراغ للفكر والذكر والعبادة والسلامة من تبعات القول في الدنيا ومن حسابها في الآخرة ، فقد قال
تعالى : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » . وبدلك على فضل لزوم الصمت أمر وهو أن الكلام أربعة
أقسام : قسم هو ضرر محض ، وقسم هو نفع محض ، وقسم فيه ضرر ومنفعة ، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة ،
أما الذي هو ضرر محض فلا بد من السكوت عنه ، وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا تقي بالضرر ، وأما لا منفعة فيه
ولا ضرر فهو فضول والاشتغال به تضييع زمان وهو عين الخسران فلا يبقى إلا القسم الرابع فقد سقط ثلاثة أرباع
الكلام ويبقى ربع وهذا الربع فيه خطر إذ يمتزج بما فيه إثم من دقائق الرياء والتصنع والغيبة وتزكية النفس
وفضول الكلام امتزاجاً يخفى دركه فيكون الإنسان به مخاطراً ، ومن عرف دقائق آفات اللسان على ما سنذكره

(١) حديث : من كثر كلامه كثرت سقطه الحديث ، أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر بسند ضعيف ،
وقد رواه أبو حاتم بن حبان في « روضة العقلاء » والبيهقي في الشعب موقوفاً على عمر بن الخطاب

علم قطعا أن ما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم هو فصل الخطاب حيث قال (١) : « من صمت نجما » (٢) فلقد أوتى والله جواهر الحكم قطعا وجوامع الكلم ، ولا يعرف ما نحت آحاد كلماته من بحار المعاني إلا خواص العلماء ، وفيما سند ذكره من الآفات وعسر الاحتراز عنها ما يعترفك حقيقة ذلك ان شاء الله تعالى ، ونحن الآن نعد آفات اللسان ونبتدئ بأخفها ، ونترقى إلى الأغلف قليلا قليلا ، ونؤخر الكلام في الغيبة والنميمة والكذب فان النظر فيها أطول ، وهي عشرون آفة ، فاعلم ذلك ترشد بعون الله تعالى .

الآفة الأولى : الكلام فيما لا يعينك

اعلم أن أحسن أحوالك أن تحفظ ألفاظك من جميع الآفات التي ذكرناها من الغيبة والنميمة والكذب والمراء والجدال وغيرها وتكلم فيما هو مباح لا ضرر عليك فيه ولا على مسلم أصلا لأنك تتكلم بما أنت مستغن عنه ولا حاجة بك إليه ، فانك مضيع به زمانك ، ومحاسب على عمل لسانك ، وتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ، لأنك لو صرفت زمان الكلام إلى الفكر ربما كان ينفتح لك من تفحات راحة الله عند الفكر ما يعظم جدواه ، ولو هالت الله سبحانه وذكرته وسبحته لكان خيرا لك ، فكم من كلمة يبنى بها قصر في الجنة ، ومن قدر على أن يأخذ كثرًا من الكنوز فأخذ مكانه مدرة لا ينفع بها كان خاسرا خسرانا بينا ، وهذا مثال من ترك ذكر الله تعالى واشتغل بمباح لا يعينه ، فانه وان لم يأثم فقد خسرت فاته الرجح العظيم بذكر الله تعالى (٣) فان المؤمن لا يكون صمته إلا فكرا ونظرة إلا عبرة ونطقه إلا ذكرا هكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم ، بل رأس مال العبد أوقاته ، ومهما صرفها إلى ما لا يعينه ولم يتخير بها ثوابا في الآخرة فقد ضيع رأس ماله ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم (٤) « من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه » بل ورد ما هو أشد من هذا . قال أنس (٥) استشهد غلام منا يوم أحد فوجدنا على بطنه حجرا مربوطا من الجوع ، فسححت أمه عن وجهه التراب وقالت : هبنا لك الجنة يا بني ، فقال صلى الله عليه وسلم : وما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعينه ويمنع ما لا يضره ، وفي حديث آخر (٦) أن النبي صلى الله عليه وسلم فقد كعبا فسأل عنه فقالوا مريض فخرج يمشي حتى أتاه ، فلما دخل عليه قال أبشريا كعب ، فقالت أمه هبنا لك الجنة يا كعب ، فقال صلى الله عليه وسلم من هذه المنالية على الله ؟ قال هي أمي يا رسول الله قال وما يدريك يأثم كعب لعل كعبا قال ما لا يعينه

(١) حديث : من صمت نجما تقم .

(٢) حديث : انه صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلم (م) من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

(٣) حديث : المؤمن لا يكون صمته إلا فكرا ، ونظرة إلا عبرة ونطقه إلا ذكرا ، لم أجد له أصلا ، وروى محمد بن زكريا العلاني أحد الضعفاء عن ابن عائشة عن أبيه قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن الله أمرني أن يكون نطقي ذكرا ، وصمتي فكرا ، ونظري عبرة .

(٤) حديث : من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه (ت) وقال غريب (و) من حديث أبي هريرة .

(٥) حديث : استشهد منا غلام يوم أحد فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع الحديث وفيه : لعله كان يتكلم بما لا يعينه ويمنع ما لا يضره (ت) من حديث أنس مختصرا وقال غريب ورواه ابن أبي الدنيا في السميت بلفظ المصنف بسند ضعيف .

(٦) حديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم فقد كعبا فسأل عنه فقالوا مريض الحديث ، وفيه لعل كعبا قال ما لا يعينه أو منع ما لا يعينه ، ابن أبي الدنيا من حديث كعب بن عجرة باسناد جيد إلا أن الظاهر انقطاعه بين الصحابي وبين الراوي عنه .

أوضح مالا يفي به ومعناه انه انما تهايا الجنة لمن لا يحاسب ، ومن تكلم فيما لا يفي به حوسب عليه وان كان كلامه في مباح فلا تهايا الجنة مع المناقشة في الحساب فانه نوع من العذاب . وعن محمد بن كعب (١) قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة ، فدخل عبد الله بن سلام فقام إليه ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه بذلك وقالوا أخبرنا بأوتق عمل في نفسك ترجوه به ؟ فقال إني لضيف وان أوتق ما أرجو به الله سلامة الصدر وترك مالا يعني « وقال أبو ذر (٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل في الميزان ، قلت بلى يا رسول الله ؟ قال هو الصمت وحسن الخلق وترك مالا يعنيك . وقال مجاهد : سمعت ابن عباس يقول : « حسن لمن أحب الي من الدهم الموقوفة : لا تكلم فيما لا يعنيك فانه فضل ، ولا آمن عليك الوزر ، ولا تكلم فيما لا يعنيك حتى تجده موضعا ، فانه رب متكلم في أمر يعنيه قد وضعه في غير موضعه فصنت ، ولا تمار حلها ولا سفها ، فان الخليم يثقلك والسفيه يؤذيك ، واذا كرأناك اذا غاب عنك بما تصب أن يذكرك به ، واعفه بما تصب أن يفك منه ، وعامل أنك بما تصب أن يعاملك به ، واعمل عمل رجل يعلم أنه مجازى بالاحسان ، مأخوذ بالاجترام » وقيل للقمان الحكيم ما حكمتك ؟ قال لا أسأل عما كفت ، ولا أنكف مالا يعنيني . وقال مورك الجهلي : « أمر أنا في طلبه منذ عشرين سنة لم أقدر عليه ولست بتارك طلبه ، ذلوا وما هو ؟ قال السكوت عما لا يعنيني . وقال عمر رضي الله عنه : « لا تعترض لما لا يعنيك ، واعتزل عدوك ، واحذر صديقك من القوم إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشى الله تعالى ، ولا تصحب الفاجر فتعلم من غفوره ، ولا تطلع على سررك ، واستشر في أمرك الذين يحشون الله تعالى : وحد الكلام فيما لا يعنيك . أن تتكلم بكلام لو سكت عنه لم نأثم ولم تستضر به في حال ولا مال ، مثاله : أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارك ومارأيت فيها من جبال وأنهار ، وما وقع لك من الوقائع ، وما استحسنه من الأطعمة والثياب ، وما نجيبت منه من مشايخ البلاد ووقائعهم ، فهذه أمور لو سكت عنها لم نأثم ولم تستضر ، واذا بالفت في الجهاد حتى لم يمتزج بحكايتك زيادة ولا نقصان ولا تركية نفس من حيث التفاخر بمشاهدة الأحوال العظيمة ، ولا اغتياي لشخص ، ولا ممنة لشيء مما خلقه الله تعالى فأت مع ذلك كله . مضيع زمانك ، وأتى نسل من الآفات التي ذكرناها ، ومن جلتها أن تسأل غيرك عما لا يعنيك ، فأنت بالسؤال مضيع وقتك ، وقد ألبأت صاحبك أيضا بلجواب إلى التصنيع ، هذا اذا كان الشيء مما لا يتطرق إلى السؤال عنه آفة وأكثر الأسئلة فيها آفات ، فانك تسأل غيرك عن عبادته مثلا فتقول له : هل أنت صائم ؟ فان قال نعم كان مظهر العبادته فيدخل عليه الرياء وان لم يدخل سقطت عبادته من ديوان السر ، وعبادة السر تفضل عبادة الجهر بدرجات ، وان قال لا كان كاذبا ، وان سكت كان مستحقرا لك وتأذيت به ، وان احتال لدافضة الجواب افتقر إلى جهد وتعب فيه ، فقد عرضته بالسؤال إما للرياء أو للكذب أو للاستحقار أو للتعجب في حيلة الدفع ، وكذلك سؤالك عن سائر عباداته ، وكذلك سؤالك عن المعاصي ، وعن كل ما يخفيه ويستحي منه ، وسؤالك عما حدث به غيرك فتقول : ماذا تقول وفيه أنت ؟ وكذلك ترى انسانا في الطريق فتقول من أين ؟ فر بما يمنعه مانع من ذكره فان ذكره تأذى به واستحيا وان لم يصدق وقع في الكذب وكنت السبب

(١) حديث محمد بن كعب : ان أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة فدخل عبد الله ابن سلام الحديث ، وفيه : ان أوتق ما أرجوه سلامة الصدر وترك مالا يعنيني ، ابن أبي الدنيا هكذا مرسل وفيه أبو نجيب اختلف فيه .

(٢) حديث أبي ذر : ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن الحديث ، وفيه : هو الصمت وحسن الخلق وترك مالا يعنيك ، ابن أبي الدنيا بسند منقطع .

فيه ، وكذلك نسال عن مسألة لاحاجة بك إليها والمسئول ربما لم تسمح نفسه بأن يقول لا أدري فيجيب عن غير بصيرة ، ولست أعنى بالتكلم فيما لايعنى هذه الأجناس فان هذا ينطرق إليه إثم أو ضرر ، وإنما مثال ما لايعنى : ما روى أن لقمان الحكيم دخل على داود عليه السلام وهو يسرد درعا ولم يكن رآها قبل ذلك اليوم فجعل يتعجب مما رأى ! فأراد أن يسأله عن ذلك فغتمته حكمته ، فأمسك نفسه ولم يسأله ، فلما فرغ قام داود ولبسه ثم قال نعم الدرع للحرب ، فقال لقمان : « الصمت حكم وقليل فاعله » أى حصل العلم به من غير سؤال فاستغنى عن السؤال ، وقيل انه كان يتردد إليه سنة وهو يريد أن يعلم ذلك من غير سؤال ، فهذا وأمثاله من الأسئلة اذا لم يكن فيه ضرر وهتك ستر وتوريط في رياء وكذب وهوما لايعنى وتركه من حسن الاسلام فهذا حده ، وأما سببه الباعث عليه فالحرص على معرفة ما لا حاجة به إليه ، أو المباشطة بالكلام على سبيل التودد أو تزجية الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها ، وعلاج ذلك كله أن يعلم أن الموت بين يديه وأنه مسئول عن كل كلمة ، وأن أنفاسه رأس ماله ، وأن لسانه شبكة يقدر على أن يقتنص بها الحور العين ، فأعماله ذلك وتضييعه خسران مبین ، هذا علاجه من حيث العلم ، وأما من حيث العمل فالعزلة ، أو أن يضع حصاة في فيه ، وأن يلزم نفسه السكوت بها عن بعض ما يعنيه حتى يعتاد اللسان ترك ما لايعنيه ، وضبط اللسان في هذا على غير المعتزل شديد جدا . انتهى الكلام على الآفة الأولى .

الآفة الثانية : فضول الكلام

وهو أيضا مذموم وهذا يتناول الخوض فيما لايعنى والزيادة فيما يعنى على قدر الحاجة فان من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ويمكنه أن يجسمه ويقرره ويكرره ومهما تأدى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلتين فالثانية فضول : أى فضل عن الحاجة وهو أيضا مذموم لما سبق وان لم يكن فيه إثم ولا ضرر . قال عطاء ابن أبي رباح : « إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام ، وكانوا يعدون فضول الكلام ماعدا كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ أو أمرا بمعروف ، أو نهيًا عن منكر ، أو أن تنطق بحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها ، أنتسكرون : إن عليكم حافظين كراما كاتبين . عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، أما يستحي أحدكم اذا نشرت صحيفته التي أملاها صدر نهاره كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه » . وعن بعض الصحابة . قال : « إن الرجل ليكلمني بالكلام لجوابه أشهى إلي من الماء البارد إلى الظمان فأتترك جوابه خيفة أن يكون فضولا » . وقال مطرف : ليعظم جلال الله في قلوبكم فلانذكروه عند مثل قول أحدكم للكذب والحمار : اللهم أخزه ، وما أشبه ذلك ، واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر ، بل المهم محصور في كتاب الله تعالى . قال الله عز وجل : « لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس » وقال صلى الله عليه وسلم (١) : « طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه ، وأنفق الفضل من ماله » فانظر كيف قلب الناس الأمر في ذلك فأمسكوا فضل المال وأطلقوا فضل اللسان . وعن مطرف بن عبد الله عن أبيه . قال (٢) : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في رهط

(١) حديث : طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه ، وأنفق الفضل من ماله ، البغوي وابن قانع في معجمي الصحابة واليهيقي من حديث ركب المصري ، وقال ابن عبد البر انه حديث حسن ، وقال البغوي لا أدري سمع من النبي صلى الله عليه وسلم أم لا ، وقال ابن مند : مجهول لا نعرف له صحبة ورواه البزار من حديث أنس بسند ضعيف .

(٢) حديث مطرف بن عبد الله عن أبيه قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في رهط من بني عامر فقالوا أنت والذناوات سيدنا الحديث (دن) في اليوم والليلة بلفظ آخر ، ورواه ابن الدنيا بلفظ المصنف

من بني عامر فقالوا : أنت والدنا ، وأنت سيدنا ، وأنت أفضلنا علينا فضلا ، وأنت أطولنا علينا طولاً ، وأنت
الحنفة الغراء ، وأنت وأنت . فقال : قولوا قولكم ولا يستهويكم الشيطان إشارة إلى أن اللسان إذا أطلق
بالتناء ولو بالصدق فيخشى أن يستهويه الشيطان إلى الزيادة المستغنى عنها ، وقال ابن مسعود : أنذركم فضول
كلامكم ، حسب امرئ من الكلام ما بلغ به حاجته . وقال مجاهد : إن الكلام ليكتب حتى إن الرجل ليكتب
إبنة فيقول : أتباع لك كذا وكذا فيكتب كذا . وقال الحسن : « يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكلت بها
ملكاً كرميماً يكتبان أعمالك فاعمل ما شئت وأكثراً وأقل » . وروى أن سليمان عليه السلام بعث بعض
عقاريتة وبعث فرائضظرون ما يقول ويخبرونه فأخبروه بأنه مر في السوق فرفع رأسه إلى السماء ثم نظر إلى
الناس وهز رأسه فسأله سليمان عن ذلك فقال : هجيت من الملائكة على رموس الناس ما أسرع ما يكتبون
ومن الذين أسفل منهم ما يعملون . وقال إبراهيم التيمي : إذا أراد المؤمن أن يتكلم نظر فإن كان له
تكلم والا أمسك ، والقاهر إنما لسانه رسلاً رسلاً . وقال الحسن : من كثر كلامه كثرت ذنوبه ، ومن كثرت
كثرت ذنوبه ، ومن ساء خلقه عذب نفسه . وقال عمرو بن دينار (١) : تكلم رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم
فأكثر فقال له صلى الله عليه وسلم « كم دون لسانك من حجاب ؟ فقال شفتاي وأسنانتي ، قال : أفما كان لك
في ذلك ما يرد كلامك ؟ » وفي رواية أنه قال ذلك في رجل أتى عليه فاستهتر في الكلام ، ثم قال « ما أوفى رجل
شراً من فضل في لسانه » وقال عمر بن عبد العزيز راحة الله عليه : إنه ليعني من كثير من الكلام خوف
المباهاة . وقال بعض الحكماء : إذا كان الرجل في مجلس فأعجبه الحديث فليست ، وإن كان ساكناً فأعجبه
السكوت فليستكم . وقال يزيد بن أبي حبيب من فتنه العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع ، فإن
وجد من يكفيه فإن في الاستماع سلامة ، وفي الكلام تزوين وزيادة وتقصان . وقال ابن عمر : إن أحق ما ظهر
الرجل لسانه ، ورأى أبو البرداء امرأة سليطة ، فقال : لو كانت هذه خرساً كان خيراً لها ، وقال إبراهيم :
« يهلك الناس خلتان : فضول المال ، وفضول الكلام » فهذه مذمة فضول الكلام وكثرته وسببه الباعث
عليه ، وعلاجه ما سبق في الكلام فيما لا يعني . انتهى الكلام على الآفة الثانية .

الآفة الثالثة : الخوض في الباطل

وهو الكلام في المعاصي ، كحكاية أحوال النساء ، ومجالس الخمر ، ومقامات الفساق ، وتتم الأغنياء ،
وتعجب الملوك ، ومراسمهم المذمومة ، وأحوالهم المكروهة ، فإن كل ذلك مما لا يحل الخوض فيه وهو حرام ،
وأما الكلام فيما لا يعني أو أكثر مما يعني فهو ترك الأولى ولا تعريم فيه ، نعم من يكثر الكلام فيما لا يعني لا يؤمن
عليه الخوض في الباطل ، وأكثر الناس يتجالسون للتفريج بالحديث ، ولا يعدو كلامهم التفكه بأعراض
الناس ، أو الخوض في الباطل ، وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفنتها ، فلذلك لا يخلص منها إلا
بالاقتصار على ما يعني من مهمات الدين والدنيا ، وفي هذا الجنس تقع كلمات يهلك بها صاحبها وهو يستعقرها ،
فقد قال بلال بن الحرث (٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان
الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله به رضوانه إلى يوم القيامة ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط
الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة » ، وكان علقمة يقول : كم من كلام

(١) حديث عمرو بن دينار : تكلم رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فأكثر ، فقال : كم دون لسانك

من باب ، الحديث ابن أبي الدنيا هكذا مرسلًا ورجاله ثقات .

(٢) حديث بلال بن الحرث : إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله الحديث . وقال حسن صحيح

منعني حديث بلال بن الحرث ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم (١) : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا » وقال أبو هريرة : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقي لها بالا يهوى بها في جهنم ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقي لها بالا يرفعه الله بها في أعلى الجنة » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) : « أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضا في الباطل » ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : « وكنا نخوض مع الخائضين » وبقوله تعالى : « فلا تتعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره انكم إذن مثلهم » ، وقال سلمان : أكثر الناس ذنوبا يوم القيامة أكثرهم كلاما في معصية الله ، وقال ابن سيرين : كان رجل من الأنصار يمر بمجلس لم يسمع فيقول لهم تروؤا فان بعض ما يقولون شر من الحدث ، فهذا هو الخوض في الباطل ، وهو وراء ماسياتي من الغيبة والتمنيمة والقحش وغيرها بل هو الخوض في ذكر محظورات سبق وجودها أو تدبر للتوصل إليها من غير حاجة دينية إلى ذكرها ، ويدخل فيه أيضا الخوض في حكاية البديع والمذاهب الفاسدة ، وحكاية ماجرى من قتال الصحابة على وجه يوهم الطعن في بعضهم ، وكل ذلك باطل ، والخوض فيه خوض في الباطل ، نسأل الله حسن العون بلفظه وكرمه . انتهى الكلام على الآفة الثالثة ، والحمد لله رب العالمين .

الآفة الرابعة : المراء والجدال

وذلك منهي عنه ، قال صلى الله عليه وسلم (٣) : « لا تمارأناك ولا تمازحه ، ولا تعده موعدا فتخلفه » وقال عليه السلام (٤) : « ذروا المراء فإنه لا تفهم حكمته ، ولا تؤمن فتنته » ، وقال صلى الله عليه وسلم (٥) : « من ترك المراء وهو محق بنى له بيت في أعلى الجنة ، ومن ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت في روض الجنة » وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت (٦) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أول ما عهد إلى ربي ونهاى عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال » ، وقال أيضا (٧) : « ما ضل قوم بعد أن هداهم الله

- (١) حديث : إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة بسند حسن ، وللشيخين (وت) : إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا يهوى بها سبعين خريفا في النار ، لفظ (ت) وقال حسن غريب .
- (٢) حديث : أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضا في الباطل ابن أبي الدنيا من حديث قتادة مرسل ورجاله ثقات ، ورواه هو والطبراني موقوفا على ابن مسعود بسند صحيح .
- (٣) حديث : لا تمارأناك ولا تمازحه ولا تعده وعدا فتخلفه (ت) من حديث ابن عباس وقد تقدم .
- (٤) حديث : ذروا المراء فإنه لا تفهم حكمته ولا تؤمن فتنته (طب) من حديث أبي الدرداء وأبي أمامة وأنس بن مالك ووائل بن الأسقع بأسناد ضعيف دون قوله لا تفهم حكمته ، ورواه بهذه الزيادة ابن أبي الدنيا موقوفا على ابن مسعود .
- (٥) حديث : من ترك المراء وهو محق بنى له بيت في أعلى الجنة ، الحديث تقدم في العلم .
- (٦) حديث أم سلمة : أن أول ما عهد إلى ربي ونهاى عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني والبيهقي بسند ضعيف ، وقد رواه ابن أبي الدنيا في المراسيل من حديث عمرو بن رويم .
- (٧) حديث : ما ضل قوم إلا أوتوا الجدلات من حديث أبي أمامة وصححه وزاد : بعد هدى كانوا عليه ، وتقدم في العلم ، وهو عند ابن أبي الدنيا دون هذه الزيادة كما ذكره المصنف .

إلا أوتوا الجدل » ، وقال أيضا (١) : « لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المرء وإن كان محقا »
 وقال أيضا (٢) : « ست من كن فيه بلغ حقيقة الإيمان : الصيام في الصيف ، وضرب أعداء الله بالسيف ،
 وتجيل الصلاة في اليوم المنجس ، والصبر على المصيبات ، واسباغ الوضوء على المسكاره ، وترك المرء وهو
 صادق » . وقال الزيرلابنه : لا يجادل الناس بالقرآن فانك لا تستطيعهم ولكن عليك بالسنة . وقال عمر بن
 عبد العزيز رجة الله عليه : من جعل دينه عرضة للمخسومات أكثر التنقل ، وقال مسلم بن يسار : إياكم
 والمرء فانه ساعة جهل العالم وعندها يتنى الشيطان زلته . وقيل : ما ضل قوم بعد إذ هداهم الله إلا بالجدال .
 وقال مالك بن أنس رجة الله عليه : ليس هذا الجدال من الدين في شيء . وقال أيضا : المرء يقسى القلوب
 ويورث الضغائن . وقال لقمان لابنه : يا بني لا تجادل العلماء فيمقتوك . وقال بلال بن سعد : إذا رأيت الرجل
 لجوبا عماريا محجبا برأيه فقد تمت خسارته . وقال سفيان : لو خالفت أخى في رمانه فقال حلوة وقلت حامضة
 لسي في إلى السلطان . وقال أيضا : صاف من شئت ثم أغضبه بالمرء فليرمينك بداهية تمنحك العيش .
 وقال ابن أبي ليلى : لا أمارى صاحبي قلما أن أكذبه ، وأما أن أغضبه ، وقال أبو السرداه : كني بك إنما أن
 لا تزال عماريا ، وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « تكفير كل لحاء ركعتان » وقال عمر رضي الله عنه : لا تتعلم
 العلم ثلاث ولا تتركه ثلاث : لا تتعلمه لئمارى به ، ولا لتباهى به ، ولا لتراعى به ، ولا تتركه حياء من طلبه ،
 ولا زهادة فيه ولا رضا بالجهل منه ، وقال عيسى عليه السلام : « من كثر كذبه ذهب بجاله ، ومن لاسى
 الرجال سقطت مروءته ، ومن كثر همه سقم جسمه ، ومن ساء خلقه عذب نفسه » ، وقيل لميمون بن
 مهران : « مالك لا تترك أخاك عن قلى ؟ قال لأنى لأشار به ولأمار به » وما ورد في ذم المرء والجدال أكثر
 من أن يحصى : وحد المرء هو كل اعتراض على كلام الغير باظهار خلل فيه إما في اللفظ وإما في المعنى وإما في
 قصد المتكلم ، وترك المرء بترك الانكار والاعتراض ، فكل كلام سمعته فان كان حقا فصدق به وإن كان
 باطلا أو كذبا ولم يكن متعلقا بأمور الدين فاسكت عنه ، والطمع في كلام الغير تارة يكون في لفظه باظهار خلل
 فيه من جهة النحو ، أو من جهة اللفظ ، أو من جهة العربية ، أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم أو تأخير
 وذلك يكون تارة من قصور المعرفة ، وتارة يكون بطغيان اللسان ، وكيفا كان فلاوجه لاظهار خلله ، وأما في
 المعنى فبان يقول : ليس كما تقول وقد أخطأت فيه من وجه كذا وكذا ، وأما في قصده فمثل أن يقول : هذا
 الكلام حق ولكن ليس قصدك منه الحق وإنما أنت فيه صاحب غرض وما يجرى مجراه ، وهذا الجنس ان
 جرى في مسألة علمية ربما خص باسم الجدل ، وهو أيضا مذموم بل الواجب السكوت أو السؤال في معرض
 الاستفادة لأعلى وجه العناد والتكارة ، أو التلطف في التعريف لاقى معرض الطعن ، وأما المجادلة فعبرة
 عن قصد إقحام الغير ونجيزه وتنقيصه بالقدح في كلامه ، ونسبته إلى القصور والجهل فيه ، وآية ذلك أن يكون
 تنبيهه للحق من جهة أخرى مكروها عند الجادل يجب أن يكون هو المظهر له خطأ ليبين به فضل نفسه وقص
 صاحبه ، ولا نجاة من هذا إلا بالسكوت عن كل ما لا يأمم به لو سكت عنه ، وأما الباعث على هذا فهو الترفع
 باظهار العلم والتفضل ، والتوجه على الغير باظهار قومه ، وهما شهوتان بالمتان للنفس قويتان لها ، أما اظهار

(١) حديث : لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يذر المرء وإن كان محقا ، ابن أبي الدنيا من حديث
 أبي هريرة بسند ضعيف ، وهو عند أحمد بلفظ : لا يؤمن العبد حتى يترك الكذب في المزاحمة والمرء
 وإن كان صادقا .

(٢) حديث : ست من كن فيه بلغ حقيقة الإيمان الحديث وفيه ترك المرء وهو صادق أبو منصور الديلمي
 من حديث أبي مالك الأشعري بسند ضعيف بلفظ : ست خصال من الخبير الحديث .

(٣) حديث : تكفير كل لحاء ركعتان ، الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف .

الفضل فهو من قبيل تزكية النفس : وهي من مقتضى مافی العبد من طغيان دعوى العاثر والكبرياء ، وهي من صفات الربوبية ، وأما تنقيص الآخر فهو من مقتضى طبع السبعية فإنه يقتضى أن يمزق غيره ويقسمه ويصدمه ويؤذيه ، وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان وإنما قوتهما المراء والجدال ، فالواظب على المراء والجدال مقوطة الصفات المهلكة ، وهذا مجاوز حد الكراهة ، بل هو معصية مهما حصل فيه إيذاء الغير ، ولاتنكف المماراة عن الإيذاء وتهيب الغضب وحل المعترض عليه على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل ، ويقدم في قائله بكل ما يتصور له ، فيثور الشجار بين المتماز بين كما يثور الهراش بين السكابين ، يقصد كل واحد منهما أن يعض صاحبه بما هو أعظم نكابة ، وأقوى في إغنامه وإلغامه ، وأما علاجه فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على اظهار فضله ، والسبعية الباعثة له على تنقيص غيره كما سيأتي ذلك في كتاب ذم الكبر والعجب وكتاب ذم الغضب فإن علاج كل علة باماطة سببها ، وسبب المراء والجدال ما ذكرناه ثم المواظبة عليه تجعله عادة وطبعاً حتى يتمكن من النفس ويعسر الصبر عنه ، روى أن أبا حنيفة رحمة الله عليه قال لداود الطائي : لم آثرت الا نزواء ؟ قال لأجاهد نفسي بترك الجدال ، فقال احضر المجالس واستمع ما يقال ولا تتكلم ، قال ففعلت ذلك فما رأيت مجاهدة أشد عليّ منها وهو كما قال لأن من سمع الخطأ من غيره وهو قادر على كشفه تعسر عليه الصبر عند ذلك جدا ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « من ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتا في أعلى الجنة » لشدة ذلك على النفس ، وأكثر ما يظلب ذلك في المذاهب والعقائد فإن المراء طبع ، فاذا ظن أن له عليه ثوابا اشتد عليه حرمه ، وتعاون الطبع والشرع عليه ، وذلك خطأ محض ، بل ينبغي للانسان أن يكف لسانه عن أهل القبلة ، وإذا رأى مبتدعا تلتف في نصحه في خلوة ، لا يطر بى الجدال فإن الجدال يخيل إليه أنها حيلة منه في التليس ، وأن ذلك صنعة يقدر المجادلون من أهل مذهبه على أمثالها لو أرادوا ، فستمر البسدة في قلبه بالجدل وتآكد ، فاذا عرف أن النصح لا ينفع اشغل نفسه وتركه ، وقال صلى الله عليه وسلم (١) « رحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة إلا بأحسن ما يقدر عليه » ، وقال هشام ابن عروة : كان عليه السلام يردّد قوله هذا سبع مرات ، وكل من اعتاد المجادلة مدة وأثنى الناس عليه ، ووجد نفسه بسببه عزاً وقبولاً قويت فيه هذه المهلكات ولا يستطيع عنها نزوعاً إذا اجتمع عليه سلطان الغضب والكبر والرياء ، وحب الجاه ، والتعزز بالفضل ، وآحاد هذه الصفات يشقّ مجاهدتها فكيف بمجموعها ! وبهذا تم الكلام على الآفة الرابعة .

الآفة الخامسة : الخصومة

وهي أيضا مذمومة ، وهي وراء الجدال والمراء : فالمرء طعن في كلام الغير باظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير واظهار مزية الكياسة ، والجدال عبارة عن أمر يتعلق باظهار المذاهب وتقريرها والخصومة جناح في الكلام ليستوفى به مال أو حق مقصود ، وذلك نارة يكون ابتداء ونارة يكون اعتراضا والمراء لا يكون إلا باعتراف على كلام سبق ، فقد قالت عائشة رضی الله عنها (٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن

(١) حديث : رحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة إلا بأحسن ما يقدر عليه ، ابن أبي الدنيا باسناد ضعيف من حديث هشام بن عروة عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية هشام عن عائشة بلفظ : رحم الله امرأ كف لسانه عن أعراض المسلمين ، هو منقطع وضعيف جدا .

(٢) حديث عائشة : إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم خ وقد تقدم .

أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم» وقال أبو هريرة (١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع». وقال بعضهم: «إياك والخصومة فإنها تمحق الدين» ويقال: «ما خصم وربع قط في الدين»، وقال ابن قتيبة: مررت ببشر بن عبد الله بن أبي بكر، فقال: ما يجلسك هنا؟ قلت خصومة بيني وبين ابن عم لي، فقال: إن لأبيك عندي بدا واني أريد أن أبزيك بها، واني والله مارأيت شيئا أذهب للدين، ولا أتقص للرومة، ولا أضيع للذة، ولا أشغل للقلب من الخصومة قال فقلت لأنصرف فقال لي خصمي مالك؟ قلت لأخاصمك، قال انك عرفت أن الحق لي، قلت لا ولكن أكرم نفسي عن هذا، قال فاني لا أطلب منك شيئا هولاك، فان قلت فاذا كان للانسان حق فلا بد له من الخصومة في طلبه أوفى حفظه مهما ظلمه ظالم فكيف يكون حكمه، وكيف تدم خصومته؟ فاعلم أن هذا النعم يتناول الذي يخاصم بالباطل والذي يخاصم بغير علم مثل وكيل القاضى فانه قبل أن يتعرف أن الحق في أى جانب هو يتوكل في الخصومة من أى جانب كان فيخاصم بغير علم ويتناول الذي يطلب حقه ولكنه لا يقتصر على قدر الحاجة بل يظهر اللدد في الخصومة على قصد التسلط، أو على قصد الإيذاء، ويتناول الذي يخرج بالخصومة كلمات مؤذية ليس يحتاج إليها في نصرته والجلية واطهار الحق، ويتناول الذي يحمله على الخصومة محض العناد لتهر الخضم وكسره مع أنه قد يستحق ذلك القدر من المال، وفي الناس من يصرح به ويقول إنما قصدي عناده وكسره واني ان أخذت منه هذا المال ربما ربيت به في بئر ولا أبالي وهذا مقصوده اللدد والخصومة واللجاج وهو مذموم جدا، فأما المظالم الذي ينصر حجة بطريق الشرع من غير لدد واسراف وزيادة لجلاج على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وإيذاء فعليه ليس بحرام، ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلا، فان ضبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال متعذر، والخصومة توغر الصدر وتبيح الغضب، وإذا هاج الغضب نسي المتنازع فيه وبقى الحقد بين المتخاصمين حتى يفرح كل واحد بمساة صاحبه ويحزن بمسرة ويطلق اللسان في عرضه، فن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المحذورات، وأقل ما فيه تشويش خاطره، حتى انه في صلته يشتغل بمحاجة خصمه فلا يبقى الأمر على حد الواجب، فالخصومة مبدأ كل شر، وكذا المراء والجدال، فينبغي أن لا يفتح بابه إلا لضرورة، وعند الضرورة ينبغي أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة وذلك متعذرا جدا، فن اقتصر على الواجب في خصومته سلم من الإثم ولا ندم خصومته إلا أنه ان كان مستغنيا عن الخصومة فيها خاصم فيه لأن عنده ما يكفيه فيكون تاركا للأولى ولا يكون آثما نعم أقل ما يفوته في الخصومة والمراء والجدال طيب الكلام وما ورد فيه من الثواب، إذ أقل درجات طيب الكلام اظهار الموافقة، ولا خشونة في الكلام أعظم من الطعن والاعتراض الذي حاصله إما تجهيل وإما تكذيب، فان من جادل غيره أماراه أخاصمه، فقد جهله أو كذبه فيفوت به طيب الكلام، وقد قال صلى الله عليه وسلم (٢) «يكنكم من الجنة طيب الكلام واطعام الطعام» وقد قال الله تعالى: «وقولوا للناس حسنا»، وقال ابن عباس رضى الله عنهما: «من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه السلام وان كان مجوسيا إن الله تعالى يقول: وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها»، وقال ابن عباس أيضا: «لو قال لي فرعون خيرا لرددت عليه»، وقال أنس (٣) قال رسول الله ﷺ «إن في الجنة لغرفا يرى

(١) حديث أبي هريرة: من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع، ابن أبي الدنيا والأصفهاني في الترغيب والترهيب، وفيه رجاء أبو يحيى ضعفه الجمهور.

(٢) حديث: يمكنكم من الجنة طيب الكلام واطعام الطعام، الطبراني من حديث جابر وفيه من لأعرفه، وله من حديث هاني أبي شرح باسناد جيد: يوجب الجنة إطعام الطعام وحسن الكلام.

(٣) حديث أنس: إن في الجنة لغرفا يرى ظاهرها من باطنها، الحديث (ت) وقد تقدم.

ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام وألان الكلام ، وروى أن عيسى عليه السلام مرّ به خنزير فقال مرّ بسلام ، فقبل : ياروح الله أقول هذا الخنزير ؟ فقال : أكره أن أعود لساني النحر ، وقال نبينا عليه الصلاة والسلام (١) : « الكلمة الطيبة صدقة » . وقال (٢) : « اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا بكلمة طيبة » ، وقال عمر رضى الله عنه : « البرّ شيء هين ، وجه طلق وكلام لين » . وقال بعض الحكماء : « الكلام اللين يفسل الضغائن للمستكنة في الجوارح » . وقال بعض الحكماء أيضا : « كل كلام لا يخطرك إلا إنك ترضى به جليستك فلا تكن به عليه بخيلا فإنه لهله يعوضك منه ثواب المحسنين » . هذا كله في فضل الكلام الطيب وتضاده الخسومة والمرء والجدال واللجاج فإنه الكلام المستكره الموحش ، المؤذى للقلب ، المنقص للعيش ، المهيج للغضب ، الموغر للصدر ، نسال الله حسن التوفيق بمنه وكرمه . تمّ الكلام على الآفة الخامسة والحمد لله رب العالمين .

الآفة السادسة : التعمر في الكلام والتشدق

التعمر في الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة وللتصنع فيه بالتشبيبات والمقدمات وما جرت به عادة المتفاهمين المتعصبين للخطابة ، وكل ذلك من التصنع للمنوم ، ومن التكلف للمقوت ، الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما وأتقياء أمتي برآء من التكلف » . وقال صلى الله عليه وسلم (٣) : « إن أفضلكم إلىّ وأبعدكم مني مجلسا الثرثارون المتفيهقون المنتشدقون في الكلام » وقالت فاطمة رضى الله عنها (٤) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « شرار أمتي الذين غنوا بالنعيم ، يأكلون ألوان الطعام ، ويلبسون ألوان الثياب ، وينشدقون في الكلام » . وقال صلى الله عليه وسلم (٥) : « ألهلك المتطمعون ثلاث مرات ، والتطمع هو التعمق والاستقصاء . وقال عمر رضى الله عنه : إن شقاشق الكلام من شقاشق الشيطان » ، وجاء عمرو ابن سعد بن أبي وقاص إلى أبيه سعد يسأله حاجة فتكلم بين يدي حاجته بكلام ، فقال له سعد : ما كنت من حاجتك بأبعد منك اليوم ، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (٦) : « يأتي على الناس زمان يتخللون الكلام بالسنتهم كما تتخلل البقرة الكلاب بلسانها » وكأنه أنكر عليه ما قدمه على الكلام من التشبيب والمقنعة المصنوعة المتكلفة ، وهذا أيضا من آفات اللسان ، ويدخل فيه كل سجع متكلف ، وكذلك التفاسيح الخارج عن حد العادة ، وكذلك التكلف بالسجع في المحاورات إذ قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقرعة في الجنين فقال بعض قوم الجاني (٧) كيف ندى من لا شرب ولا أكل ولا صالح ولا استهال

- (١) حديث : الكلمة الطيبة صدقة (م) من حديث أبي هريرة .
- (٢) حديث : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، الحديث متفق عليه من حديث عدى بن حاتم وقد تقسم .
- (٣) حديث : إن أفضلكم إلى الله وأبعدكم مني مجلسا الثرثارون المتفيهقون المنتشدقون ، أجد من حديث أبي ثعلبة وهو عند (ت) من حديث جابر وحسنه بلفظ : إن أفضلكم إلى .
- (٤) حديث فاطمة : شرار أمتي الذين غنوا بالنعيم ، الحديث ، وفيه وينشدقون ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب .
- (٥) حديث : ألهلك للمتطمعون (م) من حديث ابن مسعود .
- (٦) حديث سعد : يأتي على الناس زمان يتخللون الكلام بالسنتهم كما تتخلل البقرة الكلاب بلسانها ، رواه أحمد .
- (٧) حديث : كيف ندى من لا شرب ولا أكل الحديث (م) من حديث المغيرة بن شعبه وأبي هريرة وأصلهما عند (خ) أيضا .

ومثل ذلك بطل ؟ فقال أسجعا كسجع الأعراب ، وأنكر ذلك لأن أثر التكلف والتصنع بين عليه ، بل ينبغي أن يقتصر في كل شيء على مقصوده ومقصود الكلام الفهم للفرض وما وراء ذلك تصنع مذموم ، ولا يدخل في هذه تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير من غير إفراط وإغراب فإن المقصود منها تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها ، فلرثافة اللفظ تأثير فيه فهو لائق به ، فأما المحاورات التي تجرى لقضاء الحاجات فلا يليق بها السجع والتشويق والاشتغال به من التكلف المذموم ، ولا باعث عليه إلا الرياء ، وإظهار الفصاحة والتعيز بالبراعة وكل ذلك مذموم يكرهه الشرع ويحجر عنه . انتهى الكلام على الآفة السادسة والحمد لله رب العالمين .

الآفة السابعة : الفحش والسب وبذاءة اللسان

وهو مذموم ومنهى عنه ومصدره الخبث واللؤم قال صلى الله عليه وسلم (١) : « إياكم والفحش فإن لله تعالى لا يحب الفحش ولا الفحش » (٢) ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن تسب قتلى بدر من المشركين ، فقال : لا تسبوا هؤلاء فإنه لا يخلص إليهم شيء مما تقولون وتؤذون الأحياء إلا أن البذاء لؤم وقال صلى الله عليه وسلم (٣) : « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذي » ، وقال صلى الله عليه وسلم (٤) : « الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها » ، وقال صلى الله عليه وسلم (٥) : « أربعة يؤذون أهل النار في النار على ما بهم من الأذى ، يسمون بين الجحيم والجحيم ، يدعون بالويل والثبور : رجل يسيل فوه قبحا ودما فيقال له : ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى ؟ فيقول : إن الأبعد كان ينظر إلى كل كلمة قد ذعة خبيثة فيستلذها كما يستلذ الرث . وقال صلى الله عليه وسلم (٦) لعائشة « يا عائشة لو كان الفحش رجلا لكان رجل سوء » وقال صلى الله عليه وسلم (٧) « البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق » فيحتمل أن يراد بالبيان كشف ما لا يجوز كشفه ، ويحتمل أيضا المبالغة في الإيضاح حتى ينتهي إلى حد التكلف ،

(١) حديث : إياكم والفحش : الحديث (ن) في الكبرى في التفسير والحاكم وصححه من حديث

عبد الله بن عمرو ، ورواه ابن حبان من حديث أبي هريرة .

(٢) حديث : النهي عن سب قتلى بدر من المشركين : الحديث ابن أبي الدنيا من حديث محمد بن علي

الباقر مرسلًا ورجاله ثقات وللنسائي من حديث ابن عباس بإسناد صحيح أن رجلا وقع في آب

للعباس كان في الجاهلية فلطمه الحديث ، وفيه : لا تسبوا أمواتنا فتؤذوا أحياءنا .

(٣) حديث : ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذي (ت) بإسناد صحيح من حديث ابن

مسعود وقال حسن غريب والحاكم وصححه وروى موقوفا ، قال الدارقطني في العلل والموقوف أصح

(٤) حديث : الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها : ابن أبي الدنيا وأبو نعيم في الحلية من حديث

عبد الله بن عمرو .

(٥) حديث : أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى : الحديث ، وفيه : إن الأبعد كان ينظر

إلى كل كلمة خبيثة فيستلذها كما يستلذ الرث : ابن أبي الدنيا من حديث شفي بن مافع ، واختلف

في صحبته ، فذكره أبو نعيم في الصحابة ، وذكره (خ حب) في التابعين .

(٦) حديث : يا عائشة لو كان الفحش رجلا لكان رجل سوء : ابن أبي الدنيا من رواية ابن أبي عمير عن

أبي النضر عن أبي سلمة عنها .

(٧) حديث : البذاء والبيان شعبتان من النفاق (ت) وحسنه (وك) وصححه على شرطهما من

حديث أبي أمية وقد تقدم .

ويحتمل أيضا البيان في أمور الدين وفي صفات الله تعالى فان إلقاء ذلك بجملا إلى أسماء العوام أولى من المبالغة في بيانه إذ قد يثور من غابة البيان فيه شكوك ووسوس فاذا أجمت بادرت القلوب إلى القبول ولم تضطرب ولكن ذكره مقرونا بالبذاء يشبه أن يكون المراد به المجاهرة بما يستحى الانسان من بيانه فان الأولى في مثله الاغماض والتغافل دون الكشف والبيان ، وقال صلى الله عليه وسلم ^(١) : « إن الله لا يحب الفاحش المتفحش الصياح في الأسواق » ، وقال جابر بن سمرة ^(٢) : كنت جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم وأبي أمامي ، فقال صلى الله عليه وسلم « إن الفحش والتفاحش ليسا من الاسلام في شيء وان أحسن الناس إسلاما أحسنهم أخلاقا » وقال ابراهيم بن ميسرة : يقال يؤتى بالفاحش المتفحش يوم القيامة في صورة كلب أوفى جوف كلب ، وقال الأحنف بن قيس : ألا أخبركم بأدور الداء ؟ اللسان البذي ، والخلق الدني ، فهذه مذمة الفحش ، فأما حده وحقيقته فهو التعبير عن الامور المستقبحة بالعبارات الصريحة ، وأكثر ذلك يجري في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به ، فان لأهل النسب عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه وأهل الصلاح يتحاشون عنها بل يكونون عنها ويدلون عليها بالرموز فيدكرون ما يقارنها ويتعلق بها . وقال ابن عباس : إن الله حي كريم يعفو ويكفّر ، كنى باللس عن الجماع ، فالسبس والسبس والدخول والصحبة كناية عن الوقاع وليست بفاحشة ، وهناك عبارات فاحشة يستحب ذكرها ويستعمل أكثرها في الشتم والتعير ، وهذه العبارات متفاوتة في الفحش وبعضها أخش من بعض ، وربما اختلف ذلك بعادة البلاد وأوائلها مكروهة وأواخرها محظورة وبينهما درجات يتردد فيها ، وليس يختص هذا بالوقاع بل بالكناية بقضاء الحاجة عن البول والغائط أولى من لفظ التفوط والخراء وغيرهما ، فان هذا أيضا مما يخفى وكل ما يخفى يستحيا منه فلا ينبغي أن يذكر ألفاظه الصريحة فانه خشن ، وكذلك يستحسن في العادة الكناية عن النساء فلا يقال قالت زوجته كذا ، بل يقال : قيل في الحجرة ، أو من وراء الستر ، أو قالت أم الأولاد ، فالتلطف في هذه الألفاظ محمود والتصريح فيها يفضى إلى الفحش ، وكذلك من به عيوب يستحيا منها فلا ينبغي أن يعبر عنها بصريح لفظها كالبرص والقرع والبواسير ، بل يقال العارض الذي يشكوه وما يجري مجراه ، فالتصريح بذلك داخل في الفحش ، وجميع ذلك من آفات اللسان . قال العلاء بن هرون : كان عمر بن عبد العزيز يتحفظ في منطقتة ، فخرج تحت إبطه خراج ، فأثبناه نسأله لئري ما يقول ، فقلنا من أين خرج ؟ فقال من باطن اليد ، والباعث على الفحش إما قصد الإبداء واما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق وأهل الخبث واللؤم ومن عادتهم السب . وقال أعرابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) « أوصني فقال عليك بتقوى الله ، وان امرؤ عبرك بشيء يعلمه فيك فلا تعبده بشيء تعلمه فيه يكن وبال عليه وأجره لك ولا تسب شيئا » قال فأسببت شيئا بعده . وقال عياض بن حمار ^(٤) قلت يا رسول الله إن الرجل من قومي يسبني وهو دوني هل علي من بأس أن أتصر منه ؟ فقال لللسان

(١) حديث : إن الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش الصياح في الأسواق : ابن أبي الدنيا من حديث جابر بسند ضعيف ، وله والطبراني من حديث أسامة بن زيد : إن الله لا يحب الفاحش المتفحش ، واسناده جيد .

(٢) حديث جابر بن سمرة : إن الفحش والتفحش ليسا من الاسلام في شيء : الحديث أحمد وابن أبي الدنيا باسناد صحيح .

(٣) حديث : قال أعرابي أوصني فقال عليك بتقوى الله وان امرؤ عبرك بشيء يعلمه فيك فلا تعبده بشيء تعلمه فيه : الحديث أحمد والطبراني باسناد جيد من حديث أبي جزي الهجيمي ، قيل اسمه جابر بن سليم ، وقيل سليم بن جابر .

(٤) حديث عياض بن حمار : قلت يا رسول الله إن الرجل من قومي يسبني وهو دوني هل علي من

شيطانان يتعاونان وينهارجان وقال عليه السلام (١) «سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر» وقال عليه السلام (٢) «المسئبان مائة لا فعلى البادية منها حتى يعتدى المظلوم» وقال عليه السلام (٣) «ملعون من سب والديه» وفي رواية «من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه قالوا يا رسول الله كيف يسب الرجل والديه قال يسب أبا الرجل فيسب الآخرا أباه»

الآفة الثامنة : اللعن

إما حيوان أوجاد أو إنسان وكل ذلك مذموم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) «المؤمن ليس بلعان» وقال عليه السلام (٥) «لا تلعنوا بلعنة الله ولا بغضه ولا بجهنم» وقال حذيفة مانلاعن قوم قط الاحق عليهم القول ، وقال عمران بن حصين (٦) «بيننا رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره إذ امرأة من الأنصار على ناقه لها فضجرت منها فلعتها فقال عليه السلام خذوا ما عليها وأغروها فانها ملعونة قال فكأنى أنظر إلى تلك الناقة تمشى بين الناس لا يتعرض لها أحد» وقال أبو الرداء مالعن أحد الأرض الاقالت لعن الله أعصاناته : وقالت عائشة رضيت الله عنها سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧) أبا بكر وهو يلعن بعض رقيقه فالتفت اليه ، وقال يا أبا بكر أصدقين ولعائنين كلا ورب الكعبة مرتين أو ثلاثا فأعتق أبو بكر يومئذ رقيقه وأتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال لأعود ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٨) ان اللعائنين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة ، وقال أنس (٩) كان رجل يسبر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير فلعن بعيره فقال عليه السلام يا عبد الله لاتسبر معنا على بعير ملعون ، وقال ذلك انكارا عليه واللعن عبارة عن الطرد والابعاد من الله تعالى وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده من الله عز وجل وهو الكفر والظلم بأن يقول لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين ، وينبغي أن يتبع فيه لفظ الشرع فان في اللعنة حظرا لأنه حكم على الله عز وجل بأنه قد أبعد الملعون وذلك غيب لا يطلع عليه غير الله تعالى و يطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أطلعه الله عليه : والمدقات المقتضية للعن ، ثلاثة الكفر ، والبدعة

بأس أن أتصر منه فقال المسئبان يتكاذبان وينهاران (د) الطيالسي وأصله عند أحمد

- (١) حديث سباب المسلم فسوق وقتاله كفر متفق عليه من حديث ابن مسعود
- (٢) حديث المسئبان مائة لا فعلى البادية حتى يعتدى المظلوم (م) من حديث أبي هريرة وقال مالك يعتد
- (٣) حديث ملعون من سب والديه ، وفي رواية من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه : الحديث أحمد وأبو يعلى والطبراني من حديث ابن عباس باللفظ الأول بإسناد جيد وافق الشيخان على اللفظ الثاني من حديث عبد الله بن عمرو
- (٤) حديث المؤمن ليس بلعان تقدم حديث ابن مسعود ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان : الحديث قبل هذا بأحد عشر حديثا وللترمذي وحسنه من حديث ابن عمر لا يكون المؤمن لعانا
- (٥) حديث لا تلعنوا بلعنة الله : الحديث (ت د) من حديث سمرة بن جندب قال (ت) حسن صحيح
- (٦) حديث عمران بن حصين بيننا رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره إذ امرأة من الأنصار على ناقه لها فضجرت منها فلعتها الحديث رواه (م)
- (٧) حديث عائشة سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضيت الله عنه وهو يلعن بعض رقيقه فالتفت اليه فقال يا أبا بكر لعائنين وصدقين : الحديث ابن أبي الدنيا في الصمت وشيخه بشار بن موسى الخفاف ضعفه الجمهور وكان أحمد حسن الرأي فيه
- (٨) حديث ان اللعائنين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة (م) من حديث أبي الرداء
- (٩) حديث أنس كان رجل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير فلعن بعيره فقال يا عبد الله لاتسبر معنا على بعير ملعون ، ابن أبي الدنيا بإسناد جيد

والفسق، وللعن في كل واحدة ثلاث مراتب: الأولى اللعن بالوصف الأعم كقولك لعنة الله على الكافر من المبتدعين والفسقة: الثانية اللعن بأوصاف أخص منه كقولك لعنة الله على اليهود والنصارى والمجوس وعلى القدرية والخوارج والروافض أو على الزناة والظلمة وأكلى الربا وكل ذلك جائز ولكن في لعن أوصاف المبتدعة خطر لأن معرفة البدعة غامضة ولم يرد فيه لفظ مأثور، فينبغي أن يمنع منه العوام لأن ذلك يستدعي المعارضة بمثله ويشير زاعما بين الناس وفسادا: الثالثة اللعن للشخص المعين وهذا فيه خطر كقولك زيد لعنة الله وهو كافر أو فاسق أو مبتدع والتفصيل فيه أن كل شخص ثبتت لعنته شرعا فتجاوز لعنته كقولك فرعون لعنة الله وأبو جهل لعنة الله لأنه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر وعرف ذلك شرعا أما شخص بعينه في زماننا كقولك زيد لعنة الله وهو يهودي مثلا فهذا فيه خطر فانه ربما يسلم فيموت مقربا عند الله فكيف يحكم بكونه ملعونا؟ فان قلت يلعن لكونه كافرا في الحال كما يقال للسلم رحمه الله لكونه مسلما في الحال وان كان يتصور أن يرتد، فاعلم أن معنى قولنا رحمه الله أي ثبته الله على الاسلام الذي هو سبب الرحمة وعلى الطاعة ولا يمكن أن يقال ثبت الله الكافر على ما هو سبب اللعنة فان هذا سؤال للكفر وهو في نفسه كفر بل الجائر أن يقال لعنة الله إن مات على الكفر وللعنة الله إن مات على الاسلام وذلك غيب لا يدري والمطلق متردد بين الجهتين ففيه خطر وليس في ترك اللعن خطر وإذا عرفت هذا في الكافر فهو في زيد الفاسق أو زيد المبتدع أولى فلعن الاعيان فيه خطر لأن الاعيان تتقلب في الاحوال إلا من أعلم به رسول الله ﷺ فانه يجوز أن يعلم من يموت على الكفر ولقدك عين قوما باللعن فكان يقول في دعائه على قريش (١) اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وذكر جماعة قتلوا على الكفر بيد حتى أن من لم يعلم عاقبته كان يلعنه فنهى عنه (٢) إذ روى أنه كان يلعن الذين قتلوا أصحاب بئر معونة في قنوته شهرا فترزل قوله تعالى ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يذهبهم فانهم ظالمون يعني أنهم ربما يسلمون فمن أين تعلم أنهم ملعونون وكذلك من يلن لنا موته على الكفر جاز لعنه وجاز ذمه ان لم يكن فيه أذى على مسلم فان كان لم يجر كما روى (٣) ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أبا بكر رضي الله عنه عن قبر مرتبه وهو يريد الطائف فقال هذا قبر رجل كان غائبا على الله ورسوله وهو سعيد بن العاص فغضب ابنه عمرو بن سعيد، وقال يا رسول الله

(١) حديث اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وذكر جماعة متفق علي: من حديث ابن مسعود

(٢) حديث انه كان انه يلعن الذين قتلوا أصحاب بئر معونة في قنوته شهرا فترزل قوله تعالى ليس لك من الأمر شيء: الشيطان من حديث أنس دعا رسول الله ﷺ على الذين قتلوا أصحاب بئر معونة ثلاثين صباحا: الحديث، وفي رواية لهما قنت شهرا يدعو على رجل وذ كوان الحديث ولهما من حديث أبي هريرة وكان يقول حين يفرغ من صلاة الفجر من القراءة ويكبر ويرفع رأسه للحديث وفيه اللهم العن لحيان ورجلا: الحديث، وفيه ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما أنزل الله ليس لك من الأمر شيء لفظ (م)

(٣) حديث أن رسول الله ﷺ سأل أبا بكر عن قبر مرتبه وهو يريد الطائف فقال هذا قبر رجل كان غائبا على الله وعلى رسوله وهو سعيد بن العاص فغضب ابنه الحديث (د) في المراسيل من رواية علي بن ربيعة قال لما افتتح رسول الله ﷺ مكة توجه من فوره ذلك الى الطائف ومعه أبو بكر ومعه ابنا سعيد بن العاص فقال أبو بكر لمن هذا القبر قالوا قبر سعيد بن العاص فقال أبو بكر لعن الله صاحب هذا القبر فانه كان يجاهد الله ورسوله الحديث، وفيه فاذا سببت المشركين فسبهم جميعا

هذا قبر رجل كان أطمع للطعام وأضرب للهام من أبي خافة فقال أبو بكر يكلمني هذا يارسول الله بمثل هذا الكلام فقال صلى الله عليه وسلم اكفف عن أبي بكر فانصرف ثم أقبل على أبي بكر فقال ياأبا بكر إذا ذكرت الكفار فمضوا فانكم إذا خصمتم غضب الأبناء للآباء ، فكفف الناس عن ذلك . (١) وشرب نعمان الطرخذت مرات في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال بعض الصحابة لعنه الله ما أكثر ما يؤثي به ، فقال صلى الله عليه وسلم لا تكن عوناً للشيطان على أخيك ، وفي رواية : لا تقل هذا فإنه يحب الله ورسوله ، فنهاه عن ذلك ، وهذا يدل على أن لعن فاسق بعينه غير جائز ، وعلى الجملة ففي لعن الأشخاص خطر فليجتنب ولاخطر في السكوت عن لعن إبليس مثلاً فضلاً عن غيره ، فان قيل هل يجوز لعن يزيد لأنه قاتل الحسين أوأمر به ؟ قلنا هذا لم يثبت أصلاً فلايجوز أن يقال انه قتله أوأمر به مالم يثبت فضلاً عن اللعنة ، لأنه لايجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غير تحقيق ، نعم يجوز أن يقال قتل ابن ملجم علياً ، وقتل أبولؤلؤة عمر رضي الله عنهم فان ذلك ثبت متواتراً ، فلايجوز أن يرمى مسلم بضيق أوكفر من غير تحقيق . قال صلى الله عليه وسلم (٢) « لا يرمى رجل رجلاً بالكفر ، ولا يرميه بالفسق إلا ارتقت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك » . وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « ما شهد رجل على رجل بالكفر إلا باه به أحدهما ، ان كان كافراً فهو كما قال ، وان لم يكن كافراً فقد كفر بتكفيره إياه » وهذا معناه أن يكفروه وهو يعلم انه مسلم ، فان ظن انه كافر ببدعة أوغيرها كان محطاً لا كافراً ، وقال معاذ (٤) قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنهاك أن تشتم مسلماً أو تعصى إماماً عادلاً ، والتعرض للأموات أشد . قال مسروق : دخلت على عائشة رضي الله عنها فقالت : ما فعل فلان لعنه الله ؟ قلت توفي ، قالت رجه الله ، قلت وكيف هذا ؟ قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) : « لا تسبوا

(١) حديث : شرب نعمان الطرخذت مرات في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض الصحابة لعنه الله ما أكثر ما يؤثي به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تكن عوناً للشيطان على أخيك ، وفي رواية : لا تقل هذا فإنه يحب الله ورسوله ، ابن عبد البر في الاستيعاب من طريق الزبير بن بكار من رواية محمد بن عمرو بن حزم مرسل ، ومحمد هذا ولد في حياته صلى الله عليه وسلم وسماه محمداً وكناه عبد الملك ، والبخاري من حديث عمر أن رجلاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اسمه عبد الله وكان يلقب حماراً وكان يضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قد جلده في الشراب فأثي به يوماً فأمر به بجلد فقال رجل من القوم اللهم لعنه ما أكثر ما يؤثي به فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تلعنوه فواته ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله من حديث أبي هريرة في رجل شرب ولم يسم ، وفيه : لا تعينوا عليه الشيطان ، وفي رواية : لا تكونوا عون الشيطان على أخيك .

(٢) حديث : لا يرمى رجل رجلاً بالكفر ولا يرميه بالفسق إلا ارتقت عليه ان لم يكن صاحبه كذلك متفق عليه والسياق للبخاري من حديث أبي ذر مع تقديم ذكر الفسق .

(٣) حديث : ما شهد رجل على رجل بالكفر إلا أنه أحدهما ان كان كافراً فهو كما قال وان لم يكن كافراً فقد كفر بتكفيره إياه ، أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف .

(٤) حديث معاذ : أنهاك أن تشتم مسلماً ، أو تعصى إماماً عادلاً ، أبو نعيم في الحلية في أثناء حديث له طويل .

(٥) حديث عائشة : لا تسبوا الأموات فانهم قد أفضوا إلى ما قدموا (خ) وذكر المصنف في أوله قصة لعائشة وهو عند ابن المبارك في الزهد والرفائق مع القصة .

الأموات فانهم قد أقضوا إلى ما قدموا . وقال عليه الصلاة والسلام (١) : « لا تسبوا الأموات فتؤذوا به الأحياء » . وقال عليه السلام (٢) : « أيها الناس : احفظوني في أصحابي واخواني وأصهارى ولا تسبوهم . أيها الناس : إذا مات الميت فاذكروا منه خيرا ، فإن قيل : فهل يجوز أن يقال قاتل الحسين لعنه الله ، أو الأمر بقتله لعنه الله ؟ قلنا الصواب أن يقال : قاتل الحسين ان مات قبل التوبة لعنه الله ، لأنه يحتمل أن يموت بعد التوبة ، فإن وحشيا قاتل حزة عم رسول الله ﷺ قتله وهو كافر ثم تاب عن الكفر واقتل جميعا ، ولا يجوز أن يلعن ، والقتل كبيرة ولا تنهى إلى رتبة الكفر . فإذا لم يقيد بالتوبة وأطلق كان فيه خطر ، وليس في السكوت خطر فهو أولى ، وإنما أردنا هنا لتهاون الناس باللعة وإطلاق اللسان بها ، والمؤمن لبس بلعان فلا ينبغي أن يطلق اللسان باللعة إلا على من مات على الكفر ، أو على الأجناس المعروفين بأوصافهم دون الأشخاص المعينين ، فلاشتغال بذكر الله أولى ، فإن لم يكن في السكوت سلامة . قال مكى بن ابراهيم : كنا عند ابن عون فذكروا بلال بن أبي بردة فجعلوا يلعنونه ويقعون فيه وابن عون ساكت فقالوا يا ابن عون إنما نذكره لما ارتكب منك فقال إنما هما كلمتان تخرجان من صحيفتى يوم القيامة لإله إلا الله ولعن الله فلانا فلأن يخرج من صحيفتى لإله إلا الله أحب إلى من أن يخرج منها لعن الله فلانا . وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) أوصنى فقال أوصيك أن لاتكون لعانا . وقال ابن عمر : إن أبغض الناس إلى الله كل طعان لعان . وقال بعضهم : « لعن المؤمن يعدل قتله » . وقال جلد بن زيد بعد أن روى هذا : لو قلت انه مرفوع لم أبال ، وعن أبي قتادة قال (٤) كان يقال : من لعن مؤمنا فهو مثل أن يقتله ، وقد نقل ذلك حديثا مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقرب من اللعن الدعاء على الانسان بالشر حتى الدعاء على الظالم كقول الانسان مثلا : لا صحح الله جسمه ، ولا سلمه الله ، وما يجرى مجراه فان ذلك مذموم ، وفي الخبر (٥) « إن المظلوم يدعوا على الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم عنده فضلة يوم القيامة » . ثم الكلام على الآفة الثامنة ، والجد لله رب العالمين .

الآفة التاسعة : الفناء والشعر

وقد ذكرنا في كتاب السماع ما يحرم من الفناء وما يحل فلا نعيد ، وأما الشعر فكلام حسنه حسن وقبيحه

- (١) حديث : لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء ، الترمذى من حديث المغيرة بن شعبة ورجاله ثقات ، إلا أن بعضهم أدخل بين المغيرة وبين زيلد بن علاقة رجلا لم يسم .
- (٢) حديث : أيها الناس : احفظوني في أصحابي واخواني وأصهارى ولا تسبوهم . أيها الناس : إذا مات الميت فاذكروا منه خيرا . أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث عياض الأنصارى : احفظوني في أصحابي وأصهارى واستاده ضعيف ، وللشيخين من حديث أبي سعيد وأبي هريرة : لا تسبوا أصحابي ، ولأبي داود والترمذى وقال غريب من حديث ابن عمر : اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساوئهم ، وللنسائي من حديث عائشة : لا تذكروا موتاكم إلا بخير ، واستاده جيد .
- (٣) حديث : قال رجل أوصنى قال أوصيك أن لاتكون لعانا ، أحمد والطبراني وابن أبي عاصم في الأحاد والثاني من حديث جرهموز الهجيمي وفيه رجل لم يسم أسقط ذكره ابن أبي عاصم .
- (٤) حديث : لعن المؤمن كقتله ، متفق عليه من حديث ثابت بن الضحاك .
- (٥) حديث : إن المظلوم يدعوا على الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم عنده فضلة يوم القيامة ، لم أقف له على أصل ، وللترمذى من حديث عائشة بسند ضعيف : من دعا على من ظلمه فقد اتهمه .

قبيح إلا أن التجرد له مذموم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « لأن يمتلي جوف أحدكم قبيحا حتى يريه خير له من أن يمتلي شعرا » ، وعن مسروق أنه سئل عن بيت من الشعر فكرهه فقيل له في ذلك فقال أنا أكره أن يوجد في صحيفتي شعر ، وسئل بعضهم عن شيء من الشعر فقال اجعل مكان هذا ذكرا فان ذكر الله خير من الشعر ، وعلى الجملة فانشاد الشعر ونظمه لبس بحرام إذا لم يكن فيه كلام مستكره . قال صلى الله عليه وسلم (٢) « إن من الشعر لحكمة » ، نعم مقصود الشعر المصحح والتم والتشبيب وقد يدخله الكذب ، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) حسان بن ثابت الأنصاري بهجاء الكفار والتوسع في المدح ، فانه وإن كان كذبا فانه لا يلتحق في التحريم بالكذب كقول الشاعر :

ولولم يكن في كفه غير روحه * لجاد بها فليتيق الله سائله

فان هذا عبارة عن الوصف بنهاية السخاء ، فان لم يكن صاحبه سخيا كان كاذبا ، وان كان سخيا فالبالغة من صنعة الشعر فلا يقصد منه أن يعتقد صورته ، وقد أنشدت أبيات بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم لوتبعت لوجد فيها مثل ذلك فلم يمنع منه . قالت عائشة رضيت الله عنها (٤) : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفض نعله وكانت جالسة أغزل فنظرت إليه فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتولد نورا قالت فهبت فنظرت إلى فقال مالك بهت فقلت يا رسول الله نظرت إليك فجعل جبينك يعرق وجعل عرقك يتولد نورا ، ولورأك أبو كبير الهذلي لعلم أنك أحق بشعره ، قال وما يقول يا عائشة أبو كبير الهذلي ؟ قلت يقول هذين البيتين :

ومبرأ من كل غير حيضة * وفساد مرضعة وداء مغيل

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه * برقت كبرق العارض للمتهلل

قال فوضع صلى الله عليه وسلم ما كان بيده وقام إلى وقبل ما بين عيني وقال جزاك الله خيرا يا عائشة ما سررت مني كسروري منك . (٥) ولما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الفئام يوم حنين أمر العباس ابن مرداس بأربع قلائص فاندفع يشكو في شعره وفي آخره :

وما كان بدر ولا حابس * يسودان مرداس في مجمع

وما كنت دون امرئ منهما * ومن نضع اليوم لا يرفع

(١) حديث : لأن يمتلي جوف أحدكم قبيحا حتى يريه خير من أن يمتلي شعرا (مسلم) من حديث سعد ابن أبي وقاص واتفق عليه الشيخان من حديث أبي هريرة نحوه والبخاري من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبي سعيد .

(٢) حديث : إن من الشعر لحكمة ، تقدم في العلم وفي آداب السماع .

(٣) حديث : أمره حسانا أن يهجو المشركين متفق عليه من حديث البراء أنه صلى الله عليه وسلم قال لحسان اهجهم وجبريل معك .

(٤) حديث عائشة : كان رسول الله ﷺ يخفض نعله وكانت أغزل قالت فنظرت إليه فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتولد نورا الحديث ، وفيه انشاد عائشة لشعر أبي كبير الهذلي :

ومبرأ من كل غير حيضة * وفساد مرضعة وداء مغيل

فإذا نظرت إلى أسرة وجهه * برقت كبرق العارض للمتهلل

إلى آخر الحديث ، رواه البيهقي في دلائل النبوة .

(٥) حديث : لما قسم الفئام أمر العباس بن مرداس بأربع قلائص وفي آخره شعره :

وما كان بدر ولا حابس * يسودان مرداس في مجمع

وما كنت دون امرئ منهما * ومن نضع اليوم لا يرفع

فقال صلى الله عليه وسلم اقطعوا عنى لسانه ، فذهب به أبو بكر الصديق رضى الله عنه حتى اختار مائة من الابل ، ثم رجع وهو من أَرْضِي الناس ، فقال له صلى الله عليه وسلم : أقول في الشعر جعل يعتذر إليه ويقول بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، إني لأجد للشعر ديبيا على لساني كديب الخمل ، ثم يقرصنى كما يقرص الخمل ، فلا أجد بدا من قول الشعر ، فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال : لا تدع العرب الشعر حتى تدع الابل الحنين . وإلى هنا تم الكلام على الآفة التاسعة ، والحمد لله رب العالمين .

الآفة العاشرة : المزاح

وأصله مذموم منهى عنه إلا قدرا يسيرا يستثنى منه . قال صلى الله عليه وسلم (١) : « لا تمارأناك ولا تمارزه » فان قلت المماراة فيها إبداء لأن فيها تكديبا للأخ والصديق ، أو تجميلا له ، وأما المزاح فخطابية وفيه انبساط وطيب قلب فلم ينه عنه ، فاعلم أن المنهى عنه الإفراط فيه أو اللداومة عليه ، أما المداومة فلا تته اشتغال باللعب ، والهزل فيه واللعب مباح ، ولكن المواظبة عليه مذمومة ، وأما الإفراط فيه فإنه يورث كثرة الضحك ، وكثرة الضحك تيمت القلب ، وتورث الضغينة في بعض الأحوال ، وتسقط المهابة والوقار ، فبانحو عن هذه الأمور فلا يذم كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (٢) : « إني لأمزح ولا أقول إلا حقا » إلا أن مثله يقدر على أن يمزح ولا يقول إلا حقا ، وأما غيره إذا فتح باب المزاح كان غرضه أن يضحك الناس كيفما كان ، وقد قال رسول الله ﷺ (٣) : « إن الرجل ليشكم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها في النار أبعد من التريا » . وقال عمر رضى الله عنه : « من كثرت ضحكته قلت هيئته ، ومن مزح استخف به ، ومن أكثر من شيء عرف به ، ومن أكثر كلامه أكثر سقطه ، ومن أكثر سقطه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه » ولأن الضحك يدل على الغفلة عن الآخرة . قال ﷺ (٤) « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » ، وقال رجل لأخيه : يا أخي هل أتاك أنك وارد النار ؟ قال نعم قال فهل أتاك أنك خارج منها ؟ قال لا ، قال فقيم الضحك ، قيل فإرني ضاحكا حتى مات . وقال يوسف ابن أسباط : أقام الحسن ثلاثين سنة لم يضحك . وقيل أقام عطاء السلمي أربعين سنة لم يضحك ، ونظروهيب ابن الوردي إلى قوم يضحكون في عيد فطر ، فقال : إن كان هؤلاء قد غفر لهم فإهذا فعل الشاكرين ، وإن كان لم يغفر لهم فما هذا فعل الخائفين ، وكان عبد الله بن أبي يعلى يقول : أضحك ولعل أكفانك قد خرجت

فقال صلى الله عليه وسلم اقطعوا عنى لسانه الحديث (مسلم) من حديث رافع بن خديج : أعطى رسول الله ﷺ أسفيان بن حرب ، وصفوان بن أمية ، وعيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس كل إنسان منهم مائة من الابل ، وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك ، فقال عباس بن مرداس : أتجعل نهي ونهب العبيد بين عيينة والأقرع وما كان بدر ولا حابس * يوقان مرداس في جمع وما كنت دون امرئ منهما * ومن نضح اليوم لا يرفع قال فأمم له رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة ، وزاد في رواية : وأعطى علقمة بن علاثة مائة ، وأما زيادة : اقطعوا عنى لسانه فليست في شيء من الكتب المشهورة .

(١) حديث : لا تمارأناك ولا تمارزه ، الترمذي وقد تقدم .

(٢) حديث : إني لأمزح ولا أقول إلا حقا ، تقدم .

(٣) حديث : إن الرجل ليشكم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من التريا ، تقدم .

(٤) حديث : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، متفق عليه من حديث أنس وعائشة .

من عند القصار ، وقال ابن عباس : من أذنب ذنبا وهو يضحك دخل النار وهو يبكي ، وقال محمد بن واسع :
 إذا رأيت في الجنة رجلا يبكي ألتس تجب من بكائه أقبل بلى ، قال فالذي يضحك في الدنيا ولا يدري إلى
 ماذا يصير هو أحب منه ، فهذه آفة الضحك ، والمدموم منه أن يستغرق فحسكا ، والمحمود منه التبسم الذي
 ينكشف فيه السر ولا يسمع له صوت ، وكذلك كان ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) . قال القاسم
 مولى معاوية (٢) : أقبل أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم على قلوب له صعب فسلم فجعل كلما دنا من
 النبي صلى الله عليه وسلم لبسأله يفر به فجعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون منه ففعل ذلك
 مرارا ، ثم وقصه فقتله ، فقيل يارسول الله ان الاعرابي قد صرعه قلوبه وقد هلك فقال نعم وأفواهم ملائ
 من دمه . وأما أداء المزاح إلى سقوط الوفاق فقد قال عمر رضى الله عنه : من مزح استخف به . وقال محمد
 ابن المنكدر : قالت لى أمى يابن لآتمزح الصبيان فهون عندهم . وقال سعيد بن العاص لابنه : يابن
 لآتمزح الشريف فيحقق عليك ، ولا اللقيء فيجترى عليك . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى :
 « اتقوا الله وإياكم والمزاح فإنه يورث الضغينة ، ويجرى إلى القبيح ، تحذثوا بالقرآن وتجالسوا به ، فإن نقل
 عليكم حديث حسن من حديث الرجال » . وقال عمر رضى الله عنه : « أتدرون لم سمي المزاح مزاحا ؟
 قلوا لا ، قال لأنه أزاح صاحبه عن الحق » ، وقيل : لكل شيء بذور وبذور العداوة المزاح ، ويقال :
 المزاح مسلبة للنهى ، مقطعة للأصدقاء . فإن قلت قد نقل المزاح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه
 فكيف ينهى عنه ؟ فأقول ان قدرت على ما قدر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهو أن تمزح
 ولا تقول إلا حقا ، ولا تؤذى قلبا ولا تفرط فيه ، وتقتصر عليه أحيانا على التدور فلا حرج عليك فيه ، ولكن
 من الغلط العظيم أن يتخذ الانسان المزاح حرفة يواظب عليه ويفرط فيه ثم يتمسك بفعل الرسول صلى الله
 عليه وسلم ، وهو كمن يدور نهاره مع الزنوج ينظر إليهم وإلى رقصهم ويتمسك بأن رسول الله صلى الله عليه
 وسلم أذن (٣) لعائشة في النظر إلى رقص الزنوج في يوم عيد وهو خطأ إذ من الصغائر ما يصير كبيرة بالاصرار ،
 ومن اللبسات ما يصير صغيرة بالاصرار فلا ينبغي أن يفهل عن هذا ، نعم روى أبو هريرة (٤) أنهم قالوا يارسول الله
 انك تداعبنا ، فقال انى وان داعبتكم لا أقول إلا حقا . وقال عطاء (٥) ان رجلا سأل ابن عباس : أكان
 رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ؟ فقال نعم ، قال فما كان مزاحه ؟ قال كان مزاحه انه صلى الله عليه
 وسلم كسا ذات يوم امرأة من نسائه ثوبا واسعا فقال لها البسيه واحدى وجرى منه ذبلا كذيل العروس .
 وقال أنس : ان النبي صلى الله عليه وسلم (٦) كان من أفكك الناس مع نسائه . وروى (٧) انه كان كثير التبسم

(١) حديث : كان ضحكه التبسم ، تقدم .

(٢) حديث القاسم مولى معاوية : أقبل أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم على قلوب له صعب فسلم
 فجعل كلما دنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم لبسأله يفر به وجعل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم
 يضحكون منه ففعل ذلك ثلاث مرات ثم وقصه فقتله فقيل يارسول الله ان الاعرابي قد صرعه
 قلوبه فهلك قال نعم وأفواهم ملائ من دمه ، ابن المبارك في الزهد والرقائق وهو مرسل .

(٣) حديث اذنه لعائشة في النظر إلى رقص الزنوج في يوم عيد تقدم .

(٤) حديث أبي هريرة : قلوا انك تداعبنا ، قال انى وان داعبتكم فلا أقول إلا حقا ، الترمذى وحسنه

(٥) حديث عطاء ان رجلا سأل ابن عباس : أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ؟ فقال ابن عباس
 نعم ، الحديث فذكر منه قوله لامرأة من نسائه : البسيه واحدى وجرى منه ذبلا كذيل العروس
 لم أقف عليه .

(٦) حديث أنس : كان من أفكك الناس ، تقدم . (٧) حديث انه كان كثير التبسم ، تقدم .

وعن الحسن (١) قال : أنت عجوز إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة عجوز فبكت ، فقال انك لست بعجوز يومئذ ، قال الله تعالى : إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارا . وقال زيد بن أسلم (٢) ان امرأة يقال لها أم أيمن جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت ان زوجي يدعوك ، قال ومن هو ؟ أهوالذي بعينه يياض ؟ قالت والله ما بعينه يياض ، فقال بلى إن بعينه يياض ، فقالت لا والله ، فقال صلى الله عليه وسلم : ما من أحد إلا بعينه يياض ، وأراد به اليباض المحيط بالحدقة ، وجاءت امرأة أخرى فقالت (٣) يا رسول الله احلني على بعير ، فقال بل نعملك على ابن البعير ، فقالت ما أصنع به ؟ انه لا يحملني ، فقال صلى الله عليه وسلم : ما من بعير إلا وهو ابن بعير فكان يمزح به . وقال أنس : كان لأبي طلحة ابن يقال له أبو عمير (٤) وكان رسول الله ﷺ يأتيهم ويقول : يا أبا عمير ما فعل النغير ، لنغير كان يلعب به وهو فرخ العصفور . وقالت عائشة رضي الله عنها (٥) خرجت مع رسول الله ﷺ في غزوة بدر فقال تعالى حتى أسألك فشددت درمي على بطني ثم خططنا خطا فقمنا عليه واستبقنا فسبقتني وقال هذه مكان ذي المجاز ، وذلك أنه جاء يوما ونحن بذى المجاز وأنا جارية قد بعثني أبي بشيء فقال أعطيني به فأيت وسعيت وسعي في أثرى فلم يدركني ، وقالت أيضا (٦) سبقتني رسول الله ﷺ فسبقته فلما جلت اللحم سبقتني فسبقتني وقال هذه بتلك ، وقالت أيضا رضي الله عنها (٧) كان عندي رسول الله ﷺ وسودة بنت زمعة فصنعت حريرة وجئت به فقلت لسودة كلي فقالت لأحبه فقلت والله لتأكلن أولأطبخن به وجهك فقالت ماأنا بذاتقته فأخذت يدي من الصحيفة شيئا منه فلطخت به وجهها ورسول الله ﷺ جالس بيني وبينها تخفض لها رسول الله ﷺ ركبته لتستقيمني فتناولت من الصحيفة شيئا فسحبت به وجهي وجعل رسول الله ﷺ يضحك . وروى أن الضحاك بن سفيان الكلابي (٨) كان رجلا دميما قبيحا فلما بايعه النبي ﷺ قال ان عندي امرأتين أحسن

- (١) حديث الحسن : لا يدخل الجنة عجوز : الترمذي في الشمائل هكذا مرسلًا وأسنده ابن الجوزي في الوفاء من حديث أنس بسند ضعيف .
- (٢) حديث زيد بن أسلم في قوله لامرأة يقال لها أم أيمن قالت : ان زوجي يدعوك أهو الذي بعينه يياض ، الحديث الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة والمزاح ، ورواه ابن أبي الدنيا من حديث عبدة ابن سهم الفهري مع اختلاف .
- (٣) حديث : قوله لامرأة استحكمت نعملك على ابن البعير ، الحديث أبو داود والترمذي وصححه من حديث أنس بلفظ : أنا حملك على ولد الناقة .
- (٤) حديث أنس : أبا عمير ما فعل النغير ، متفق عليه وتقدم في أخلاق النبوة .
- (٥) حديث عائشة في مسابقتها صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر فسبقها وقال هذه مكان ذي المجاز ، لم أجد له أصلا ، ولم تكن عائشة معه في غزوة بدر .
- (٦) حديث عائشة : سبقتني فسبقته ، النسائي وابن ماجه ، وقد تقدم في النكاح .
- (٧) حديث عائشة في لطح وجه سودة بحريرة ولطح سودة وجه عائشة فجعل صلى الله عليه وسلم يضحك الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة وأبو يعلى بإسناد جيد .
- (٨) حديث ان الضحاك بن سفيان الكلابي قال عندي امرأتان أحسن من هذه الجيراء أفلا أنزل لك عن إحداهما فتزوجها وعائشة جالسة قبل أن يضرب الحجاب فقالت أهي أحسن أم أنت فقال بل أنا أحسن منها وأكرم فضحك النبي صلى الله عليه وسلم لأنه كان دميما ، الزبير بن بكار في الفكاهة من رواية عبد الله بن حسن مرسلًا أو معضلا ، وللدارقطني نحو هذه القصة مع عيينة بن حصن الفزاري بعد نزول الحجاب من حديث أبي هريرة .

من هذه الخبراء ، وذلك قبل أن تنزل آية الحجاب أفلا أنزل لك عن إحداهما فتتزوجها وعائشة جالسة تسمع فقالت أهي أحسن أم أنت فقال بل أنا أحسن منها وأكرم فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم من سؤالها إياه لأنه كان دميماً . وروى علقمة عن أبي سلمة (١) أنه كان صلى الله عليه وسلم يدلع لسانه للحسن بن عليّ عليهما السلام فيرى الصبي لسانه فيهش له ، فقال له عيينة بن بدر الفزاري والله ليكونن لي الابن قد تزوج وبقل وجهه وماقبلته قط ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن من لا يرحم لا يرحم . فأكثر هذه المطايبات منقولة مع النساء والصبيان ، وكان ذلك منه صلى الله عليه وسلم معاملة لضعف قلوبهم من غير ميل إلى هزل ، وقال صلى الله عليه وسلم (٢) مرة لصهيب وبه رمد وهو يأكل تمرًا : أنا أكل التمر وأنت رمد ؟ فقال إنما آكل بالشق الآخر يا رسول الله ، فتبسم صلى الله عليه وسلم ، قال بعض الرواة حتى نظرت إلى نواجذه . وروى (٣) أن خوات بن جبير الأنصاري كان جالساً إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة فطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا عبد الله مالك مع النسوة ؟ فقال يقتلن ضفير الجمل لي شرود ، قال فضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجته ثم عاد فقال يا أبا عبد الله أمارك ذلك الجمل الشراد بعد ، قال فسكت واستحييت ، وكنت بعد ذلك أقتر منه كلما رأيته حياء منه حتى قدمت المدينة ، وبعد ما قدمت المدينة قال فرأتني في المسجد يوماً أصلي بجلس إلى فتولت فقال لانطول فاني أنتظرك ، فلما سلمت قال يا أبا عبد الله أمارك ذلك الجمل الشراد بعد ، قال فسكت واستحييت ، فقام وكنت بعد ذلك أقتر منه حتى لحقني يوماً وهو على حمار ، وقد جعل رجليه في شق واحد ، فقال أبا عبد الله أمارك ذلك الجمل الشراد بعد ، فقلت والذي بعثك بالحق ما شرد منذ أسلت ، فقال الله أكبر الله أكبر ، اللهم اهدنا أبا عبد الله ، قال حسن إسلامه وهداه الله . وكان نعيمان الأنصاري (٤) رجلاً مزاحاً ، فكان يشرب الخمر في المدينة فيؤتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيضربه

- (١) حديث أبي سلمة عن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم كان يدلع لسانه للحسن بن عليّ فيرى الصبي لسانه فيهش إليه ، فقال عيينة بن بدر الفزاري والله ليكونن لي الابن رجلاً قد خرج وجهه وماقبلته قط ، فقال إن من لا يرحم لا يرحم ، أبو يعلى من هذا الوجه دون ما في آخره من قول عيينة بن بدر وهو عيينة بن حصن بن بدر ونسب إلى جدته ، وحكي الخطيب في المهمات قولين في قائل ذلك : أحدهما أنه عيينة بن حصن ، والثاني أنه الأقرع بن حابس ، وعند مسلم من رواية الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن الأقرع بن حابس أبصر النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الحسن فقال إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لا يرحم لا يرحم .
- (٢) حديث : قال لصهيب وبه رمد أنا أكل التمر وأنت رمد ؟ فقال إنما آكل على الشق الآخر ، فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم ، ابن ماجه والحاكم من حديث صهيب ورجاله ثقات .
- (٣) حديث : إن خوات بن جبير كان جالساً إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة فطلع عليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا عبد الله مالك مع النسوة ؟ فقال يقتلن ضفير الجمل لي شرود ، الحديث الطبراني في الكبير من رواية زيد بن أسلم عن خوات بن جبير مع اختلاف ورجاله ثقات ، وأدخل بعضهم بين زيد وبين خوات ربيعة بن عمرو .
- (٤) حديث : كان نعيمان رجلاً مزاحاً ، وكان يشرب فيؤتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيضربه ، الحديث ، وفيه أنه كان يشتري النبي ويهديه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثم يجيء بصاحبه فيقول أعطه ثمن متاعه ، الحديث الزبير بن بكار في الفكاهة ، ومن طريقه ابن عبد البر من رواية محمد ابن عمرو بن حزم مرسلًا وقد تقدم أوله .

بعله ويأمر أصحابه فيضربونه بنعالهم ، فلما كثر ذلك منه قال له رجل من الصحابة لعنك الله فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لا تفعل فإنه يحب الله ورسوله ، وكان لا يدخل المدينة رسل ولا طرفة إلا اشترى منها ثم أتى بها النبي صلى الله عليه وسلم فيقول يا رسول الله هذا قد اشترته لك ، وأهديته لك ، فإذا جاء صاحبها يتقاضاه بالتمن جاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال يا رسول الله أعطه ثمن متاعه فيقول له صلى الله عليه وسلم أولم تهده لنا ؟ فيقول يا رسول الله أنه لم يكن عندي ثمنه وأحييت أن تأكل منه فيضحك النبي صلى الله عليه وسلم ويأمر أصحابه بثمنه ، فهذه مطايات يباح مثلها على التدور لاعلى الدوام ، والمواظبة عليها هزل مذموم وسبب للضحك الميت للقلب . وإلى هنا تم الكلام على الآفة العاشرة والحمد لله رب العالمين .

ونكتفي بذكر هذه الآفات العشرة عن باقيها في هذا المقام لطولها ، ونذكر باقيها إن شاء الله تعالى في ﴿سورة ق﴾ عند آية : « ما يلفظ من قول إلا إليه رقيب عتيد » وأذن فليكن هذا نهاية القسم الثاني من المقام الأول في آية : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولانساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلعنوا أنفسكم » الآيات إلى قوله « إن الله تواب رحيم » .

المقام الثاني من المقالة الثانية

في غوائل الأعمال القلبية

أى مشارها بقوله تعالى : « إن بعض الظن إثم » والتي يشير لها قوله تعالى في ﴿سورة ق﴾ بآية « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » وآية « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » .
والأعمال القلبية وهذه الغوائل قد شرحها الامام الغزالي في الاحياء ، وقد اقتصرنا هنا على نموذج لها أجلناه في كتابنا الذي ألفناه لطلبة دارالعلوم وهو « جوهر التقوى » فهناك ما جاء في ذلك الكتاب في صفحة ١١٣ وما بعدها وهذا نصه :

الفضيلة والرذيلة والسعادة

إذا زرعتنا شجرا وتعينا في إنجائه ففابتنا ثمره ، هكذا إذا نصبنا في تحصيل الفضائل فالغاية السعادة . السعادة نيل المراد الشريف ، وراحة النفس ، والاستلذاذ بالنضائل ، ولإسعادة لقواد مضطرب ونفس فاجرة ، فما من رذيلة إلا ولها في النفس سوء الأثر ، فالجهل أشد الآلام ، والبلادة شقاء الجهال ، والنسيان والسهو بلية الانسان ، والحجب والكبر يوردان القلب موارد العطب ، ويصرعانه في المنقلب ، بالخطوطة الحسيسة والشهوات الباطلة ، والتعرض لمت الماقتين ، واستهزاء المستهزئين ، والحسد يودي بصاحبه ويقطع فؤاده ويقبله في نار السعير ، ويعرضه لخطر كبير ، والشره يعذب صاحبه ويوقعه كل يوم في نائبة ، ومن ظن المال غاية ما اشتهاه ، والسلطان والعز قصرارى مناه ، عذب بها العذاب الأكبر . « ولا تجيبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليذهبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم » بما يصيب محبوبهم من الآفات ، وما يعرض له من التكببات ، وهم عادموا الصبر ، قليلا الأجر ، كثير المطلاع ، عظيم الجزع ، فأنى يكون المرء من السعداء ، وقد كتب نفسه يديه في ديوان الأشتياه ، فالسعيد من أتبع الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم بالعمفة وما يتبعها ، والشجاعة والحكمة وأقسامها ، وأولئك هم السعداء في الدارين ، عند ربهم يرزقون فرحين إذا اعتادوا ومرنوا على ذلك حتى صار مستلذا معشوقا ، فيأنس بالمعارف العالية ، والطبيعات وأقسامها ، والرياضيات وأفلاكها ، والاهليات وجاهها ، ويعلم ما تسليه القوة البشرية من المعارف الحسكية ، ويأنس بالعدل في

عمله ، والصدق في منطقته ، والمروءة في أصحابه ، وقد أَرْضَى أشرف العقلاء ، ورضى بما ساقه القضاء ، ولا يطمعن في رضاء سائر العالمين ، فان ذلك ليس في حيز الامكان ، وغاية الأمر وقصاره تعالى عن الرعونات الدنيوية والرضاء ثم الطمأنينة : « يأتيها النفس المطمئنة أرجى إلى ربك راضية مرضية فادخلني في عبادي وادخلني جنتي » .

من هذا تعلم قول بعض علماء القرب لبعض شبانا : « لا يضلك المال ، اذا امتلأ قلبك بالفضيلة فاملاً القلب حكمة وفضيلة والجيب فضة وذهبا ، فالعدم محدود الفضائل ، والمثرى واسع المعروف » .
وأنا أقول : ألم تسمع أقوال النبي سليمان عليه السلام : « وأوتينا من كل شيء إن هذا هو الفضل المبين » . انتهى

القدوة الحسنة

ما من نبي أو عالم أو عامل إلا كان قدوة على حسب درجته ، فاصبر واجتهد حتى تكون كالشمس ونجماها والنجم الزاهر في ظلمات الدياجر ، لتكن شمسا يضيء سناها للناظرين ، وسيرتك هدى ، وعلمك نبراسا للسايرين .

أبها الطالب : إن حركاتك وسكناتك وغدواتك وروحانك أساس يبنى عليها ومقدمات لتنتج ، فاحذر الحذر كنه أن تكون قدوة سيئة للبين ، وكن خيرا لقدى لخبر المقتدين ، حتى يصدق علينا قول السمومل :
اذا مات منا سيد قام سيد * فتول لما قال الكرام فقول

لا يرين الناس منك إلا كالا ، ولا يطلعون منك إلا على ما جل وحلا ، ولا تقن عين منك على قبيح ، وأصلح السريرة ، وأحسن العلاية ، وذرا المباهاة والملاحاة ، والمنافاة والمراء ، وأظهر البشر ، وقل للناس حسنا ، وآت ذا القربى حقه ، واعف واصفح ، إن الله يحب المحسنين .

علاج الرذائل

إن السبيل الأقوم ، والمنهج الأوضح ، في علاج الرذائل مقاومة كل واحدة بضدها ، والتعود على قبيضها ، ومحاربتها بعدوها ، فالجهل بمزاولة التعليم ، والبخل بتكليف البذل ، ومداومة العطاء ، إلا أن العادة لتأثرا على النفوس الحيوانية فضلا عن الانسانية ، كم من حيوان اقتاده الانسان بالتمويد فسخره للركوب وامتناء للحرب ، وذلكه للحلب وسباقه للمحرت ، وصبره يسقى الزرع ، وقد كان قبل ذلك لا ذلول يثر الأرض ولا يسقى المحرت ، أفليس الانسان أرقى من الحيوان وقد علم اليان ؟ فكيف من جبان ركب هول البحر وهو مضطرب الحركات ، هائج الأمواج ، فألف الصعاب وصار شجاعا ، وكف من يخيل تعود البذل فأعطى المال وأكرم النزيل ، حتى صار طبعا مستلذا ، وعادة مألوقة .

عجب للعادة وأى عجب ! قلب المحبوب مكروها ، وورد المألوف مبغضا ، وتجعل السفه حلما ، والحليم سفيا ، والجاهل عالما ، والكاذب صدوقا ، للعادة في النفوس عجائب ألا ان للجوارح لأثرا في النفوس ، وللنفوس أثرا في الجوارح ، كالبحر يمحطه السحاب والسحاب من البحر ، وغاية التهذيب أن يصير الفضائل لذائذ والرذائل آلاما . إلا أن متكلف الفضائل مجاهد ، ومريد لا يزال على الصراط مسافرا ، لم ينل بغيته ، ولم يحظ بنواله ، فانه فضل على القاعد الغافل ، والساهى النائم ، والفضل كل الفضل أن يصير المتكلف مرغوبا والمكروه من الطاعات محبوبا ، قال في الحديث الشريف : « جعلت قرّة عيني في السلاة » ، ألا وان قوام الأمر وعماده : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى » اه

الغضب

الغضب نوران يغلي به الدم ، فيرتفع في أعالي العروق ، فيحمر ظاهرا بالبدن دفعا للأذى قبل وقوعه ، وانتقاما من المؤذي بعد حصوله ، إذا طلق القدرة على خصمه ، فإن بدله الضعف تبدل الاحرار اصفرارا ، وكثر الدم راجعا لأعماق الجسم هاربا من إيذاء الخصم وان تردد بين الاعتقادين ، وشك في الأمرين ، تعاقب اللونان ، فأحمر ان قدر ، وأصفر للخور ، فالدم كالغيش المحارب ، يقدم اقدام القادر ، ويحجم إجمام الخائر : « ماترى في خلق الرحمن من تفاوت » .

والغضب آثار ظاهرة كتغير اللون ، وشدة الرعدة في الأطراف ، وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام ، واضطراب الحركات والكلام ، حتى يظهر الزبد على الأشفاق ، وتحمر الأهداق ، وتقلب المناخر ، وتستحيل الخلقة ، ولعمرك ان قبح الظاهر أثر لقبح الباطن ، وما الظاهر إلا مرآة تجلت فيها صورة النفس ، وثمرة ظهرت في شجرة أصلها ثابت في القلب ، وفرعها ممتد في الجوارح ، وهل انطلاق اللسان بالشتم والفتح من الكلام مع تحبط النظم واضطراب اللفظ والاقدام على الضرب والتهجم والتزويق والجرح عند التمكّن حتى اذا عجز عن التشنّي رجع إلى نفسه فترقّب نوبه ، ولطم خده ، وضرب يده على الأرض ، وغدا كالواله السكران والمدهوش المتحير ، وربما سقط فأغشى عليه ، وقد يضرب الجواد ويخطب الحيوان ، وربما رفته دابة فرفسها ، أو انكسر القلم فشجه كما يعامل العقلاء .

هل هذا إلا من آثار اضطراب نيران القلب وصورة من قبضه ، وكلمه من صور تبرزها الأيام ، وتجليها الحوادث مع الغضب عليه كالحقد ، والحسد ، والشهامة بالمسآت ، والحزن بالسرور ، وافناء السر ، وهتك السر ، والاستهزاء ، فهذه ثمرات افراط الغضب .

وأما ما يضافه فالجنية الضعيفة ، وثمرتها قلة الأثمة ، واحتمال النلة ، وعدم الغيرة على الحرم ، والسكوت عند مشاهدة المنكرات من غيره ، وأن لا يغضب على نفسه فيلومها عند مقارفة الذنوب ، ومباشرة العيوب ، فلا يتوب ، فمن ابتلى بذلك فليترجته ، فكلا الطرفين مذموم ، والوسط ممدوح ، هدايا الله الصراط المستقيم .

ضرب مثل لقلب الانسان بحال الأرض

ألا إنما مثل قلب الانسان كمثل سطح الأرض ، ان خفت أنبتت القناد والشوك والحسك ، وخيبت النبات يتغلب على طيبه ، ورديته على جيده ، ومما مثل الهجر والحسد والشهامة والاحتقار والقبية وهتك السر وايدائه بالضرب وغيره ، الناجمة من الحقد ، النابتة في أرض القلب الذي أفسده الغضب إلا مثل شوك السعدان ، وشجر الطرفاء ، ونبات الخنظل والعليق ، إذا نبتت في أرض لم يتعدها . صلحوها ، ولم يقم عليها أهلها ، ألا وان القلب إما جنة ذات رياض وفاكهة وروح وربحان من علم نافع وحكمة صالحة ، وأما نار تستعر ، ويحجم ترمى بشرر ، فيحترق الجثمان ، وتنحل الأبدان .

ألقى بيصرك في الفضاء ، وتأمل النبات وتجب ، ألم ترّ إلى ذلك النبات الأبيض المسمى بالهلوك الذي ينبت ما بين شجرات الفول فيمتص غذاءها ، ويبيد أثمارها وحبها ، تشابه هذا العالم ، وكانت الأرض مثل القلوب ، والفول مثل الفضائل ، والهلوك مثل سيئات الأخلاق ، كالحقد والحسد ، ونحن مازرعناه وإنما هو النامي بنفسه ، المعتدى على نباتنا ، الميت لما دتنا ، الميّد لأغذيتنا ، ألا وان ماضرّ الناس نام بنفسه وما نفهم يعوزه القيام عليه .

فاذا ابتليت بمن آذاك فلا تجعل للحقد عليك سبيلا ، وأزل الرذيلة من قلبك كما تزيل الحشائش الضارة للزرع بعزقها ، وافعل ما فعله أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، فانه لما حلف أن لا ينفق على مسطح قريبه وقد

تتكلم في واقعة الإفك نزل قوله تعالى : « ولا يأتئروا أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤثروا أولى القربى
والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » ،
فوصله بعد القطيعة ، وأنعم عليه بعد الحرمان . انتهى

المعجب وسببه وعلاجه

المعجب استعظام التهمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى الذم ، فأما من كان خائفا وجلا مشفقا من
زواها ، ومن فرح بها من حيث انها نعمة من الله فليس بمعجب ، أما سببه فالجهل ، وأساسه الوهم الذي
عليه تبنى قصور الهوى ، ومحارِب الجهل ، وتماتيل القنار . فأما علاجه فأَنْ يعرف المرء أن ماتباهي به بين
الأقران لا يخلو من أحد أمرين : إما ما يدخل تحت اختياره ويظهر بعمله ويحصل بسعيه كالعبادة والصدقة ،
وإصلاح الأمة ، وسياسة الجمهور ، وحشد الجنود ، ورفع البنود ، ونظام الموازين ، وتعليم الناشئين ، فهل
جهل ذلك المسكين أنه مخلوق ضعيف ، مركب من عناصر مقهورة ، مؤلف من أشجاف في ماء مهين ، وماذا
عمل ؟ ان هو إلا آلة مسخرة ، وطينة محبرة ، وصورة مجندرة ، وصنعة مدبرة ، وآية صغرة ، وعظمة وتذكرة ،
فما جبر من جبره ، أو شاكر من بره .

وأما ما لا عمل له فيه فان كان جالا أوقوة أو نسا أوميراثا من كل ما لا اختيار له في حصوله ، ولا سبب أوصله
إليه فان الأمر أهون ، والمعجب إذن أشد جهالة ، وأخسر صفقة ، وأقل فكرا ، وأبعد ضللا ، وأسوأ حالا .
ومن أجهل ممن يعجب بما لم يفعل ، وان المعجب مفتر بنفسه ، آمن زوال نعمته حيث لا أمان ، قتل الانسان
ما أجهله . واعلم أن أسباب ذلك ستة أمور وهي : الجلال ، القدرة ، العلم ، النسب ، الميراث ، الملك .

العلاج

التأمل ، والتذكر ، والتدبر ، وادّكار أن الموت شامل ، والاعتبار بمن مضى من الأمم ، فأخاوا الميراث
فصارت قاعا صنفقا بعد العز والبأس ، ورسوخ السهولة ، وتعمام الزينة .

الأحاديث ووازع الدين

قال صلى الله عليه وسلم : « لولم تذببوا لحشبت عليكم ما هو أكبر من ذلك ، العجب » وقيل لعائشة رضي الله
عنها : متى يكون الرجل مسيئا ؟ قالت اذا ظن أنه محسن . وقال الله تعالى : « ويوم نحسبكم
كثرتكم فلم نقن عنكم شيئا » . وقال صلى الله عليه وسلم : « ثلاث مهلكات : هوى مطاع ، وشع متبع ،
والمعجب المرء بنفسه » .

الكبر

الكبر أن يرى الانسان نفسه فوق غيرها يعلم حصوله ، أو عمل أفعنه ، أو أصل نسب له ، أو جمال أظفاه ،
أو مال أهلاه ، أو قوّة أعزته ، أو عشيرة نصرته . فهذه أسباب تدعو أولا للمعجب بنفسه ، واستحسانه صفته
والفرح بما يراه أهلا له من صفة الكمال والجمال ، وقد يكون لحقد ملا فؤاده ، أو لحسد أغضبه ، أو لرياء
اعتراه ، فهذه أربعة أسباب تدعوه للكبرياء ، أما العجب فقد تقدّم ذكره ، وسبق شرحه .

أما من حقد على من آذاه ، وأضر له السوء ، واستبطن له الشر ، فانه يتكبر عليه ويزدر به ، وهكذا
الحاسد على النعمة ، الفاقد للفضيلة ، والمرائي الذي يطلب الرنعة والسودد ، انه لا يقبل العلم أمام الجالس ،
ولا يقتر بالفضيلة للحسودين ، ولا يسمع النصيحة في ملا من العالمين .

الملاج

فليعالج المتكبر نفسه بالعلم والفهم ، وليتذكر أنه مكوّن ضعيف مرئوب ، وليواظب على أعمال المتواضعين وليحذر النزول والمذلة والابتذال ، فاذا تقدّم لآخوانه وقرنائه فسوى فعالمهم وأكرم متواهم ، وسارّهم وسرّهم وغدا إلى باب الدار معهم ، فهو المتواضع وان تنزل إلى أسفل السرايات ، وعامل من تحت درجته معاملة آخوانه أو أخذ يتلقى ، أو يتذلل ، فقد تنزل إلى الأسفل ، وأضحى من المتبذلين ، فليعالج المتبذل نفسه برفعها ، ولينف المتكبر أسباب كبريائه من الحسد القاتل ، والحقد المكين .

ذم الكبر وإيضاحه

الكبر شجرة أصلها ثابت في القاب ، وفرعها في الجوارح ، ونثمرتها في الأعمال ، كأن يترفع عن مجالسة نظيره ، ويأنف من مخالطته ، ولا يسار به في مجالسه ، وإذا ناظره عنف ، وان كلمه أنف ، ويتقدّم عليه إن ماشاه ، ولا يقبل منه نصيحته ان هداه ، وهذا الخلق غائلة العباد والزهاد ، وبلية الوعاظ والعلماء ، فضلا عن العامة الجهلاء ، وهو أعظم المن ، وأكبر البلياء والاحن ، قال صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر » والانسان ظلوم جهول قد يسوقه الغرور للتكبر على الله فيقول « أنا ربكم الأعلى » وقد يرى نفسه أحقّ بالرسالة ، وأولى بالشفاعة ، فيقول : ولم أرسل المرسلون ؟ واصطفى النبيون ، ومنع من تلك النعمة فلا يتبع نبيا ، ولا يرى له رسولا ، وقد يرى الناس دونه خلا ، والعامة حيرا ، فيعظم خطبه ، ويفحش ذنبه .

الفرق بين العجب والكبر

العجب يرى مدلا بنفسه ، فرحا بسمته ، وان كان غيره أسمى في نظره ، وأعظم في معتقده ، والمتكبر أعظم جرما ، وأكبر إثما ، فهو يريد أن يرى غيره دونه ، وهو القاهر فوقهم ، وقد ذمّه الله تعالى فقال سبحانه « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وان يروا سبيل التي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » . وقال : « والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجبل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين » . وقال عليه الصلاة والسلام : « اللهم إني أعوذ بك من نفخة الكبرياء » . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ان نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنه وقال إني أمر كما بأنتين وأنها كما عن اثنتين : أنها كما عن الشرك والكبر ، وأمر كما بلإله إلا الله فان السموات والأرض ومن فيهنّ لو وضعت في كفة الميزان ووضعت لإله إلا الله في الكفة الأخرى كانت أرجح منهما ، ولو أن السموات والأرض وما فيهنّ كانت حلقة فوضعت فيها لإله إلا الله لتقصمتها ، ثم أمر كما بسبحان الله وبحمده فانها صلاة كل شيء » وقال صلى الله عليه وسلم : « لا ينظر الله إلى رجل يجرّ إزاره بطرا » . وروى عنه عليه السلام انه بصق يوما على كفه ووضع أصبعه عليها وقال يقول الله : يا ابن آدم أنجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى اذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وجيب جمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أتصدق وأتى أوان الصدقة اه

ولتقتصر من كتابنا « جوهر التقوى » في علم الأخلاق على هذا المقدار ، ورجى باقيا إلى تفسير (سورة ق) عند آية : « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد »

إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد * وبهذا انتهى المقام الثاني الذي هو في غوائل النفس من المقالة الثانية في آية : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلهزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » .

المقالة الثالثة

في قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » فأذكر هنا كيف تعاملنا أوروبا الآن معاملة قاسية إقناظا لنا حتى نرجع مجدنا بهيئة أشرف مما كان عليه أبؤنا العظم ، ولا كتف في هذا المقال بما كتبه العلامة (لوثرود استودارد) العالم الاجتماعي الأميركي المترجم إلى العربية في الجزء الأول من كتابه المسمى « حاضر العالم الاسلامي » إذ ذكر السلطان عبد الحميد وكيف نشر الدعوة بين المسلمين ليقوموا ضد أوروبا ، وكيف كانت ثورة تركية الفتاة وثورة إيران يزيدان استيقاظ العالم الاسلامي ، وكيف زادت الحرب البلقانية الطين بلة فزاد المسلمون استيقاظا ، وكيف اتحد الترك والعرب في قتال الطليان في طرابلس وهكذا اشتد غليان العالم الاسلامي ، وقد تقدم هذا كله في (سورة الفتح) من نحو صفحة ١٤٢ من الكتاب المذكور إلى حوالي صفحة ١٦٤ ولتقتصر من الكتاب على ما لم يذكر هناك من بعد ذلك وهذا نصه : —

وإذ قد بلغنا في الكلام على الجامعة الاسلامية من وجهتها الدينية والسياسية إلى هذا الحد يجدر بنا أن نقول كلمة في الجامعة من حيث وجهتها التجارية والصناعية ، وذلك ما يعرف بالجامعة الاسلامية الاقتصادية . إن السبب في انتشار الجامعة الاسلامية الاقتصادية هو عوامل الاستنزاف ، واحتياز موارد الثروة في الشرق ، فمن قبل خمسين سنة خلت كان العالم الاسلامي يتسكع في أجياله الوسطى ، فكانت الشريعة الاسلامية ومافيهما من تحريم الربا مرعية حتى الرعاية بحيث لم تكن الحياة الاقتصادية بمعناها الحالي ميسورة ، وما كان هناك من بعض التجارة والصناعة انما كان غالبه في أيدي النصارى واليهود من أهل البلاد ، زد على هذا أن الزحام الغربي جاء فانشر فززل الحياة الاقتصادية الشرقية زلزالا هائلا ، إذ أن فتح أوروبا للعالم الاسلامي الفتح السياسي كان يماشيه الفتح الاقتصادي جنبا إلى جنب ، وربما كان هذا الأخير أهم نظاما وأكمل عدة فبات كل صقع شرقي في طوف من البضاعات والحاج البهضة الأثمان للمقولة من أوروبا ، ووراء ذلك رعوس الأموال الغربية متدفقة لا تحصى ، تسرب في البلاد وتنشر بأخضع الصور وأملق الأساليب كالقروض والامتيازات التي من شأنها متى ما عقدت أن تكون تمهدا لاستقرار السيطرة السياسية الغربية ، فنصر أوروبا الذي نالته في فتحها هذا الفتح السياسي الاقتصادي التام كان باعثا للشرقيين على العداة والمقاومة ، فاستيقظ العالم الاسلامي غضبان ، فهاله مارآه في دياره من الأسباب والأدوات الغربية المأتى بها لاستنزافه واستنفاد خيراته الطبيعية ، فقد رحوله إزاء حول القرب الجبار العاني فأدرك شقة البعد ، فطفق للحال يجد في سبيل التحرر الاقتصادي جده في سبيل التحرر السياسي من رقب النذل والاستعباد ، ثم أنشأ حكماء المسلمين وأرباب البراية فيهم والرأى السديد ، يلتمسون الأسباب الغربية الفضلى ، التي من شأنها أن ترقى بالعالم الاسلامي رقا اقتصاديا جليلا ، فسخت الأساليب والمناهج الغربية ونسج على منوالها ، وما كانت تحريمات الشريعة لتقف سدا في وجه النهضة ، ولتتحول دون مجراها ، فتتج عن ذلك تطور عظيم في الحياة الاقتصادية أخذ ينجو ويزداد : ناهجا منهجا اقتصاديا غربيا ، ولكنه حتى اليوم ما برح يجتاز الدور الأول من أدواره ، وهو أظهر وأبين في البلاد التي هي أشد صلة ومساسا بالسيطرة الغربية كالمند ومصر والجزائر ، أما متجهه فواحد

في كل قطر اسلامي ، وسنفضل الكلام على هذا في فصل التطور الاقتصادي ، فليحجب اعتباره في هذا المقام هو تدبر شأن هذا التطور من حيث صلته بالجامعة الاسلامية ومنزلة فيها ، وهذا الشأن هو عظيم جداً ، لأن أوثق وحدة وأمن صلة ظهرت في المسلمين حتى اليوم إنما هي الوحدة الاقتصادية بلاسراء ، ولا يعزب عن البال أن الروابط الدينية ، والصلات الخلقية التهذيبية ، التي تجمع بين المسلم والمسلم ، ما انفكت تزيد في تواتر المسلمين وتآزرهم ، وتعاطفهم وتضامنهم ، كأنهم في المعمور الاسلامي أمة واحدة بعضها يفار على بعض ، وبجانب يساند آخر ، دع ما هو هناك من الأسباب القريبة للنقل والتواصل ، المسهولة على المسلمين القيام بالأسفار إلى كل جهة أرادوا ، فآزداد بذلك تعارفهم ، واستمسكت أواصرهم ، فنشأ فيهم نشء جديد ، أبناؤه مقادير ، بعداء الهمة ، أشدها العزم ، فيهم النجار وأرباب السفن البحرية والأعمال التجارية ، والسيارة والسفارة ، حتى وأرباب المصانع والمعامل ، ممن لم ير أمثالهم في المسلمين من قبل بقرن أو نصف قرن خلا ، وأبناء هذا النشء الجديد على غاية من التفاهم والتواتر ، تربط بعضهم ببعض الروابط الاسلامية ، ويحملهم التزامهم القريب المنتشر في بلادهم على شدة التضامن ، فلهم في الواقع من سعة المجال للعمل المنظم والاتحاد الوثيق ما ليس مثله للامة المسلمين ، إذ في الأفق الاقتصادي يتلاقى الأحرار ودعاة الجامعة الاسلامية والغلاة وسائر الأحزاب الوطنية على أتم وتمام ، فلا خلاف بينهم في هذا الميدان يفضى بهم إلى الانقسام لعدة اتباع إحدى السياسات كسياسة الثورة أو الجهاد اقتصادياً يحملهم على تهديد أوروبا المسلحة ، أو يؤدي بهم إلى المجازفة بالنفوس والماء والأموال ، بل هم جميعاً في نطاق الجامعة الاقتصادية سواء ، متحدوا الكلمة ، يجتهدون في سبيل الحياة الاقتصادية الاسلامية ، متوخين في ذلك الطرق والأساليب التجارية التي لا يجبراً القرب أن يحول دونهم ودونها ولا يقف في وجهها .

فما هي غاية الجامعة الاسلامية الاقتصادية ترى ؟ إنما هي ثروة المسلمين للمسلمين وثمرات التجارة والصناعة في جميع المعمور الاسلامي هي لهم يتعممون بها وليست لتصارى القرب يستنزفونها ، وهي نقض اليد من روس المال الغربية والاستعاضة عنها بروس مال اسلامية ، وفوق جميع هذا هي تحطيم نواجذ أوروبا ، تلك النواجذ العاضة على موارد الثروة الطبيعية في بلاد المسلمين ، وذلك بعدم تجديد الامتيازات في الأرضين والمعادن والنفابات وقطر الحديد والجارك ، العقود التي مادامت خارجة من أيدي العالم الاسلامي فهو يظل عالة على القرب .

هذه هي أغراض الجامعة الاسلامية الاقتصادية وجميعها حديث المنشأ ، وسببه السيطرة الغربية الشديدة في العالم الاسلامي ، السيطرة التي تكلم عليها في الفصل التالي من هذا الكتاب . وإلى هنا تم الكلام على المقالة الثالثة ، والحمد لله رب العالمين .

المقالة الرابعة في جوهرتين اثنتين

الجوهرة الاولى فيما كتبه لأمم القرب في مجلة المعرفة في عددها الرابع الصادر في أغسطس سنة ١٩٣١ وهذا نصه : —

صوت صارخ من الشرق إلى القرب

بسم الله الرحمن الرحيم

ملكنا فكان العفو منا سجية * فلما ملكتم سال بالدم أبطع
فهذا وذاكم فعلنا وفعلكم * وكل إناء بالذي فيه ينضح

الانسان نوع واحد من أب وأم فأصبح شعوبا وقبائل فتكاثروا أنفاذا وعشائر لتزداد السعادة ويتمّ الهناء في الأمم والأفراد . انتشروا في الأرض شرقا وغربا ، فكان شريقون وخر يون ، الشرق أب والغرب ابنه ، والأب يعطف على ابنه بدافع المحبة والولاء ، إن الديانات كلها شرقية ففيها البوذية والكونفوشيوسية واليهودية والنصرانية والاسلام ، زحف إلى الشرق منكم اليونانيون والبطالسة والرومان من قبل وبعد ميلاد المسيح واقتسموا السلطة هم والفرس في الشرق الأدنى وهم غاصبون .

هناك قال الأب لابنه : أيها الابن العزيز : لئن رميتني بحجر لأرمينك بالتمر ، لا تخرجن من دار أبيك إلا بعد أن أهديك الصراط المستقيم ، وهل ذلك إلا قول المسيح عليه السلام : اعبدوا الله أيها الأبناء وافشوا في الأرض السلام ، لاسلح ، لاقتال ، لا جدال ، كونوا عباد الله اخوانا .

وهل سبب ذلك إلا انه رأى كم تعبدون غير الله ، فاليونان والرومان كانوا يعبدون الكواكب والأصنام والفرنسيون تشبه عبادتهم عبادة أهل الهند الوثنيين ، والانجليز كانوا يسجدون للمسخور وللحجارة وللمناجيع المياه ، فأما استوريا (النمسا) والبروسية والروسية واسبانيا والبرتغال وهولاندا والمانترك والسويد والتروج وسويسره فدينهم القديم دين من ذكرناهم أولا حذو القذة بالقذة ، فلما رأى كم على هذه الحال دعاكم إلى عبادة الله وإلى السلام ، فدخلتم في الدين المسيحي أفواجا ، ففرنسا سنة ٤٩٦ م وإيطاليا سنة ٥٠٠ م وانكلترا سنة ٥٩٦ م ويقرب من هؤلاء في التاريخ النمساويون والأسبانيون والبرتغال إلى آخر من ذكرنا ماعدا دولة روسيا فانها لم تدخل إلا في نحو القرن العاشر الميلادي ، ولكن لما دخلتم المسيحية لم تعملوا بما علمه المسيح من السلام العام إذ بقيتم في الشرق وازداد ظلم الرومان للشرقيين ، فإذا كان ظهر نبي عربي في صحراء قاحلة وقال كما قال المسيح : « افشوا السلام ، وأديعوا الصلح ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة ربكم بسلام » ودعاكم إلى الاسلام والسلام العام واستعمل السيف عند الحاجة بشروط خاصة لأن المسيح قبله لم يخضع من شوكتكم ولم تعملوا بنصيحته في السلام فتتركوا الشرق للشرقيين الذين هم أسانذة لكم معلمون ، لم يمض على امتشاق الحسام الاسلامي عشرون سنة حتى عادت المياه إلى مجاريها وتركتم الشرق لأهله ، إذن الاسلام قد أتم ما ابتدأته المسيحية لسلام أهل الأرض ، فسلام المسيح عقائد ، وسلام الاسلام عقائد وأعمال .

هناك أخذ النور يمتد في الشرق ، والظلام يعمّ في الغرب ، واستبدت البابوية الرومانيون بكم ، وقتلوا ، وأزرقوا بالنار ألوفا ، وأذلوا ملوككم ، وأذاقوكم سوء العذاب ، قال المسيح لكم : « الطوبى للرحماء فانهم يرجون ، الطوبى لسانى السلام فانهم أحباب الله بدعون » خالفتم قوله ، ففي سنة ٧٨٢ قبض شارلمان الكبير بايعاز الخبر الروماني على أربعة آلاف ساكسوني ونيف في مدينة وارسو ، وضرب أعناقهم في يوم واحد ، لأنهم أبوا قبول العماد ، وفي سنة ١٠٠٧ أحرق في مدينة أورليان جثة (أرايكيين) وهم أحياء ، وتبع ذلك كثير من القتل والاسراق في سنة ١١٢٤ وسنة ١١٥٥ حتى عمّ الظلم والاهلاك والتدمير ، وأسس ديوان التفتيش في سنة ١١٨٤ وصادق عليه البابا (انيوشفسوس الثالث) وثبته البابا غريغوريوس وتسلم ماردو مينيكوس ورهبانه ادارته ، وسودوا صفحات التاريخ باسراق وقتل الملايين .

هناك ساقتم العناية الإلهية إلى الشرق كما ساقتمكم في المرة الأولى التي فيها اعتنقتم دين المسيح ، لأن في الشرق نورا اسلاميا ، ومتى أشرق على ربوعكم قل ذلك الظلام ، ان الله هو الذي رحمكم بانبعث نفوس رجال الدين إلى اغرائكم على أهل الشرق بحجة المدافعة عن الأماكن المقدسة ، فأثرتم الحروب الصليبية ، ودام الصراع نحو مئتي سنة ، فرجعتم تحملون في صدوركم نور العلم والاصلاح والحرية والاخاء بسبب معاشره أهل الاسلام ، فلم تملكوا الأماكن المقدسة ولا بلاد الشرق ولكن ملكتم ناصية السيادة واتزعمتموها

من رجال الدين الذين أغروكم على محاربة الشرقيين فكانت الهزيمة لأولئك الباباوات الذين هم في الحقيقة الجانون على الدين ومتبعيه لالشرقيون ، رجال الدين أرادوا الانتقام من الشرق بلاحجة وأراداته انتقام سلطتهم بالعدل « إن ربي على صراط مستقيم » .

فهل ظهر فيكم (لوتر) المصلح العظيم (وفولتير وروسو) وأضرابهم إلا بعد اطلاعكم على كتب منقولة عن تعاليم الاسلام « وأمرهم شورى بينهم » .

ألم يقل (سدبوالفرنسي) في كتابه المسمى (تاريخ العرب) : « إن اللاتينيين استمتعوا العلوم الفلكية الأولية من العرب فان (جوربت) الذي كان بابا روما الملقب بسلاستر الثاني أدخل من سنة ٩٧٠ إلى سنة ٩٨٠ ميلادية عند الافرنج العلوم الرياضية التي كسبها من عرب اسبانيا ، وادهيلارد الانكليزي ساح من سنة ١١٠٠ إلى سنة ١١٢٠ ميلادية في كل من اسبانيا ومصر وترجم مبادئ اقليدس من العربية بعد أن ترجمها العرب من اليونانية . وهكذا سارت أم أوروبا مثل الاستاذ (رودلف) من أهالي بروجس البلجيكية إذ ترجم مسائل بطليموس في الفلك ، وبتليون البولندي ترجم كتاب الخازن في علم الضوء والتظر ، وهكذا كثير وكثير جدا .

هاأنتم الآن اليوم رجعتن مرة ثالثة إلى الشرق بلاحجة إلاهتضام حقوقه واذلال الشرقيين ، ومامثلكم في ذلك إلا كمثل النمل إذ تحارب جيوشه أنواعا أخرى منه ، ويعيش الغالبون من ثمرات كد المغلوبين ، فينقرض الغالبون لكسلهم على مدى الزمان ، فأنتم في ذلك كالمثل أوكدولة الرومان .

هانحن أولاء أخذنا نوازن بيننا أيام عظمة ملكنا وبينكم في أيامنا هذه فألينا عهدنا مع الضعفاء محفوظة فأما أنتم فلاعهد لكم مع الضعفاء ، فماكم أيها الاخوة ماجاء في كتاب أشهر مشاهير الاسلام تحت عنوان « جندي سابور وأمان عبد أمضاء جيش المسلمين » وهذا نصه : —

روى الطبري أن أبا سبرة لما فرغ من السوس خرج في جنده حتى نزل على جندي سابور وزيرين عبد الله بن كليب فحاصرهم فأقاموا عليها يضادونهم ويراحونهم القتال فلم ينجأهم يوما إلا وأبواب البلد تفتح ثم خرج الناس وخرج الأسواق وابتأ أهلها خار المسلمون من ذلك وأرسلوا فسألوهم : أن مالكم ؟ قالوا ريمتم إلينا بالأمان قبلنا ، وأقررنا لكم بالجزية على أن تمنعونا ، فقال المسلمون ما فعلنا ، فقال أهل جندي سابور ونحن ما كذبنا ، فسأل المسلمون فيما بينهم ؟ فإذا عبد يدعى مكثفا كان أصله منها هو الذي كتب لهم فقالوا انا لانعرف حرك من عبدكم فقد جاءنا أمان فنحن عليه قد قبلنا ولم نبدل فان شتم فاعدروا ، فأسكوا عنهم وكتبوا بذلك إلى عمر فكتب إليهم : إن الله عظيم الوفاء فلا تذكرون أوفياء حتى تفوا ما دمتم في شك ، جيزوهم وفوا لهم ، فوفوا لهم وانصرفوا عنهم « اه

هذه أخلاق خلفائنا الأربعة مع المستضعفين ، فهل فعلتم ذلك معنا بعد الحرب العظمى ؟ وقد قلتم : ساعدونا ، ونحن ما أثرناها إلا لتحرير المستعبدين ، فماكم ما قاله العلامة الطائر الصبت (لوتروب استودارد) الأميركي في كتابه « حاضر العالم الاسلامي » وهذا نصه : —

« مما لامشاحة فيه أن الحرب العظمى الكونية قد أفضت بالحالة إلى المأزق الحرج والساعة العصيبة ، إذ التفت الشرق في سنة ١٩١٤ فرأى الأمم الأوروبية التي كانت ما برحت حافظة لشيء من الوحدة القائمة على اعتبارات عنصرية جبيلة قد انبرت تنافس في سوق حرب لم يحو التلويح بين دفتيه ميثلا لها قسوة وفضاعة ، وتناسر مدفعة بعضها بعضا نحو الجزيرة الهائلة والبران الجهنمية ، ورأى وحدة الجيل الأبيض قد عصفت فيها ربح المطامع السياسية ، والنقائص الأدبية فزعزعتها وهدمتها تهديما ، فوفقت كل أمة من الأخرى وبينهما غورسحق ، وهوة بعيدة ، ولم يكن للأمم الشرقية من سبب للتأسي والصبر على بلوى الجماعة

الكبرى سوى ذلك البيان الحرّ الذي نقش ساسة الحلفاء حروفه في أعلام دولهم ورايات جيوشهم ، ولكن لما وضعت الحرب أوزارها ، ونال الحلفاء الظفر المبنى أخذت الأسرار تنفضح ، فذاع للأمة كافة أنه في الحين الذي كان فيه أقطاب الحلفاء وساستهم وقوادهم يطبرون إلى أنحاء العالم قاطبة خطبهم الحرّة المعربة عن الغاية التي في سبيلها آثرت دولهم الانغماس في الحرب الزبون وهي تحرير الشعوب المستعبدة ، وإطلاق الأسر للآثم المستضعفة في اختيار حكمها ، وتقر برمصيرها ، كان هؤلاء الأقطاب الساسة في الوقت عينه يتفاوضون ويعقدون ويبرمون فيما بينهم سلسلة من المعاهدات السريّة لاقتسام الشرق الأدنى ، مدفوعين إلى ذلك بروح الجشع الكلبى ، تلك الروح الاستعمارية التي لم يسبق لها مثيل في تاريخ الانسان ، ولما كان انعقاد مؤتمر الصلح الذي ولى الحرب أتى بطائفة تلك المعاهدات لابتك الخطب الحرّة التي أذاعها الأقطاب والساسة وجعلت أساسا بنيت عليه التسوية الشرقية ، ومؤدّاها (حبر على ورق) إخضاع الشرق الأدنى والأوسط إخضاعا تاما ، واقتيادها بمخزائم الاستعمار والسيطرة السياسية ما أفضتها » انتهى ماجاء في الكتاب المذكور في صفحة ٤٣ و٤٤

أليس هذا تاريخنا وتاريخكم وفيما بعهد عبد لنا ، ولم تفوا بعهود أقطاب سياستكم ، إذن عالم الانسان اليوم مجرم كذاب .

أيها الاخوة الغربيون : الدهر قلب « وتلك الأيام نداو لها بين الناس » ، الشرق هو الشرق ، وقديما هجمت عليكم أمم من قبل التاريخ المسيحي فأهلكوا الحرث والنسل ، ثم أعادوا الكرة منذ نحو سبع قرون ولاتزال أعقاب التتار في بلاد النمسا إلى الآن ، وهامم التتار المسلمون في قلب روسيا المسيحية ، أليس هؤلاء أمما شرقية سطت على أوروبا !

حذار حذار أيها الغربيون ، إن فلاسفتكم وأكابر علمائكم يعلمون أن عملكم عاقبته خسران لكم ميين ولكنكم لاتسمعون الناصحين ، لأن العائمة يسوقون توابكم إلى مزاولة الشهوات الزائلة ، وأعينهم في غطاء والجهل يطمس على أبصارهم فلا يدركون سرّ العواقب ، فهمل ترضون أيها السقاس أن تكونوا أسرى العائمة تابعين لأهوائهم ، ألساء ماتفعلون .

شرق الشرق أبدى ناجذيه لكم ، آن وقت الحساب ، استيقظ الشرق فهو كزرع دفن تحت الثلج ثم أرسلت الشمس أشعتها فذاب فأسرع الزرع في نمائه ، احذروا غضبة الشرقيين ، اليابان والصين والهند والترك والفرس والعرب والأفغان ومع هؤلاء روسيا كلهم متحفزون أفلا تعقلون ؟ أفلا تنظرون ١ .

فياليت شعري من ذا الذي يصدّ ناموس النشوء والارتقاء عن مجراه ، ألكم قدرة على إيقاف الشمس عن مجراها ، أو الهواء عن مسراه ؟ إذا خطر لكم ذلك فأهون به خاطرا ، وما أضلّ هواه .

أفلا أسمعكم صوتنا لنا : أفلا تسمعون اليوم أيها الاخوة صوت رجل شرقيّ وهو كاتب هذه السطور ، يقول لكم قولا بعد الدينين السابقين (المسيحية والاسلام) فلعلكم لما اتبعتم الأوّل بعد صدوره بخمس قرون وانتفعتم بتعاليم الثاني في حرّيتكم أيام الحروب الصليبية بعد نزوله بقرون تضارعتها في العدم تسمعون هذا عند صدوره بلاناخبر لأنكم اليوم علماء دارسون معلمون ، وليس كتابي دينا بل هو كتاب جعل سياسته على العلوم الطبيعية الكونية والحقائق العقلية . هاهوذا كتاب «أبن الانسان» نشرته منذ ٢٠ سنة قبل الحرب الكبرى بأربع سنين ، وبينت فيه قصور الانسان ، وقرّظته علماءكم في ايطاليا وفرنسا وألمانيا وقالوا هذا هو الصالح لرقّ نوع الانسان ، إذ يجعل الأمم كلها أشبه بجسد واحد يستمتع الغربيون والشرقيون معا بالحرية والمساواة والاخاء ، نحن أمم الشرق الأدنى عموما وسط بين أوروبا والشرق الأقصى فلنكن نحن بين الطرفين المتباعدين واسطة السلام والمحبة والاخلاص ، نحن الآن نطلب السلام . وأنا بلسان ثلاث مئة وخمسين مليوننا من المسلمين أطلب السلام فهل أتم متتهون ؟ انتهى ما كتبه في مجلّة المعرفة وبهذا تم الكلام على الجوهرة الأولى

الجوهرة الثانية : وهي خامّة المقالة الرابعة

في ذكر سرّ من أسرار آية : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم »
وهي من عجائب القرآن ومجيزاته في هذا الزمان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وآله وصحبه أجمعين .

(أما بعد) في أيها المسلمون : هل أناكم نبأ معجزات القرآن الحكيمية ، وعجائبها السياسية ، وحلها السنسية ، وحلاها الجوهريّة ، وعقودها الدرّية ، وحكمها القدسية ، وأنوارها البهية ، وأسرارها الربانية ، وعلاؤها اللدنية ، وآياتها العبقريّة ، وآثارها الجليلة .

أحدتكم أيها الاخوان حديثا انه لو تعلمون عظيم ، أحدتكم عن سرّ القرآن ، ونور العرفان ، وبرهان الزمان ، وشرف الانسان ، وجمال الدين ، وفضل رب العالمين . بماذا أحدتكم ؟ أحدتكم عن نبأ السياسة الشريفة والفريفة ، في الآيات القرآنية ، سيقول قائل ماهذا التشويق ؟ ولهم هذا التنميق ؟ قل وأوجز ، واقتصر وانجز . فأقول :

لقد خطر لي خاطر منذ عشرين سنة ، إذ قرأت في إحدى الجرائد أن انكثرا لما رأت أن ذكورها يقلون عن انثائها في كل ألف نفس ١٥ أي تزيد النساء عن الذكور ١٥ في كل ألف ، وانهم ينادون بالويل والثبور ، ويقولون : لمن نكل أمر هؤلاء النسوة ؟ وذلك في ناديهم الأكبر المسمى (البرلمان) .

فلما سمعت ذلك عجبت كل العجب ! وفكرت في أمر الانسان والحيوان ، فوجدت حقا أن النسبة محفوظة في كل أمة من أمم الأرض ، وفي كل حيوان ، وفي كل قرية ، فهالني الأمر جدا ، وأخذني العجب كل مأخذ ، وقلت في نفسي : ان عناية الخالق الحكيم قد لاحظت كل حامل من حوامل الانسان والحيوان ، وراعت النسبة بين الذكور والاناث ، ولو أن أهل مصر ، أو أهل سوريا مثلا ، لم يولد لهم اناث أورد كور مدة ثلاثين سنة مثلا لاقرضت الأمة اقراضا تاما ، إذ لايجد الذكور لهم اناثا يلدون لهم . ثم نظرت فوجدت القاعدة مطردة ، أي اني وجدت في كل قرية وبلدة ومصر قد تسارى تقريبا ذكورها واناثها ، ولم يذر الله قرية ولا أمة من هذه المساواة ، لافرق بين المتوحشين والتمدنين ، ثم نظرت في الحيوان فوجدته كذلك فلم يمنع الاناث أو الذكور من البقر في بلدة حتى يحتاج الذكور أو الاناث من بلدة أن يذهبوا إلى أخرى ، بل رأيت الله قد حفظ النسبة تامة غير منقوصة . ثم اني بعد ذلك اطلعت على هذا الاحصاء فأبد قولتي وهو :

(١) إن القارة التي يزيد عدد النساء فيها على الرجال على وجه العموم هي أوروبا فان نسبتهن إليهم كنسبة خمس إلى أربع .

(٢) وأن نسبة الرجال إلى النساء في آسيا كنسبة ١٠٠٠ إلى ٩٧٣ وفي افريقيا كنسبة ١٠٠٠ إلى

٩٦٨ وفي استراليا كنسبة ١٠٠٠ إلى ٨٢٢

هذا الاحصاء ربما كان تقريبا ولكنه على كل حال أيد نظريتي . هناك فكرت في أمر آخر :

الصناعات والعلوم

فقلت : هاأنذا أنظر فأرى الأمم كلها فيها قادة وفلاسفة وحكماء ، وفيها صناعات ، وفيها عمال ، يظهر لي أن العقول لما خلقت روعيت فيها النسبة ، لأننا نرى أهل أوروبا الذين انتشر العلم بينهم أقلهم مفكرون للمجموع وأكثرهم لأعمال خاصة ، أو علوم تناسبهم ، فهالني الأمر أيضا ، وقلت : يظهر أن الحكمة العاقمة كما راعت

النسبة بين الذكور والاناث بالمساواة راعت النسبة في أعمال الحياة وعالومها على مقتضى الحاجة كالعادن من ذهب وحديد وفضة ، ثم هذه صارت عقيدة عندي ، وقلت : إذن هذا الانسان ظالم جاهل لأنه لم يضع كل عقل فيما خلق له .

الأرض واستعدادها

ثم نظرت الى الأرض التي نحن عليها فوجدتها مختلفة الاستعداد ، ففي بلادنا تزرع القطن وبلاد الانجليز لاتصلح له ، وهم يحتاجون لصنع قطننا ، وهكذا كل بلدة من بلاد العالم لها خاصية ، فتنوعت خواص الأرض وخواص العقول ، فأيقنت أن الحكمة عامة ، وأن الانسانية طفلة ، وأنه سيأتي يوم يعرف الناس هذه النظرية ويسخروا كل عقل فيما خلق له كما يستعملون كل أرض فيما خلقت له ، ومستحيل أن يسعد الناس على الأرض إلا اذا فعلوا ذلك أي شغلوا كل العقول في جميع الأرض ، فالأرض عروس أزيفت للناس وهي محبوبة عنهم حتى يهبثوا لها جميع العقول في الشرق والغرب ، ذلك هو مهرها الذي ينالون به ثمراتها ، نبتت هذه العقيدة عندي .

نظرتي في الأمم

ثم نظرت في حال الأمم فوجدتهم في الشرق والغرب جميعا يجهلون هذه الحقيقة ، ومن عرفها منهم لا كماها بلسانه ، وقلبه بالظلم والغش مشغول ، ونظرت في سياسات الأمم شرقها وغربها فما نوع الانسان إلا أشبه بالذئب والنمور والصقور ، كل لكل راصد ، وله محارب .

تأليف « ابن الانسان »

هنالك ألفت كتاب « ابن الانسان » وذكرت فيه ان الله يعاقب الأمم على جهالها ولا بد من حرب يجتمع فيه أهل الشرق وأهل الغرب ، واطلع عليه أهل أوروبا سنة ١٩١١ م وذلك قبل الحرب الكبرى بأربع سنين ، ولقد كان عجبها حينما اطلعت على تقريرها العلامة الاستاذ (سانتلاه الطلياني) من فلاسفة إيطاليا وحكامهم ، فقد لخصه في مجلة بلغتهم التي نشرها في أوروبا ، هكذا ورد ذكر هذا الكتاب في تأليف العلامة (كراديفو) الفرنسي في هذه السنة (١٩٢٦ م) وسأذكر لك كلامهما قريبا هنا ، فالكتاب إذن ظهر منذ ١٧ سنة وتأليف التفسير لم يكن بطريق جدي إلا في هذه السنين ، وقد أتممت منذ سنة ونصف وهأنذا الآن أي في أوائل سنة ١٩٢٧ م وقم للطفعة ، فانظر ماذا حصل :

توجهت منذ أيام إلى ناحية المرج (كما تقدم في سورة الأفعال) وقابلني عالم بعلم الزراعة ، وأراني حشرة صغيرة تهلك الأشجار ، فإذا جرى ؟ فكرت في أمر الحشرة ، وأن اناتها قد تلد بصير ذكور ، وانها أشبه بالنار اذا شبت في بيت أحرقت بقية البيوت ، فهي وجيع الأمراض العامة والظاعون وأمثالها اتخذت الكرة الأرضية كأنها قرية واحدة تنتقل من شجرة إلى شجرة ، ومن حقل إلى حقل ، ومن أمة إلى أمة ، هنالك تفكرت في قوله تعالى : « وأصلحوا ذات بينكم » في سورة الأفعال ، فذلك هو الاتحاد بين المسلمين وفي قوله تعالى هنا : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » .

الذكورة والانوثة اتحدنا في أدنى الحيوان ، وفي أدنى النبات ، ثم أخذ الافتراق الشخصي يظهر في الأصناف العالية فهما ، فإذا جرى ؟ أخذ الصنفان يتعارفان بأنواع المعارف من جمال وأخلاق وآداب ، فاجتمعا وتزوجا وولدا ، هنالك رجعت إلى هذه الآية وتفكرت في كتاب « ابن الانسان » فوجدته كله

معنى هذه الآية ، لأنها ابتدأت بالذكورة والانوثة ، وهي التي عليها بنيت كتاب «أبن الانسان» ، هنالك أخذني العجب كل مأخذ ، وعلقت أن كتاب «أبن الانسان» الذي أعجب به أهل أوروبا وقالوا في فرنسا وفي إيطاليا : انه ينعش العقول والأرواح هوسر هذه الآية ، فأنا هناك ظننته من آيات أخرى مثل قوله تعالى « وكل شيء عنده بمقدار » الخ ولكن هذه الآية صرحت بمبدأ الفكرة ونهايتها ، فبدؤها الذكور والاناث ونهايتها التعارف العام بعد اختلاف الشعوب والقبائل ، وقد قدمت لك اني قست جميع العلوم والصنائع على الذكور والاناث ، إذن الآية تفسر بالكتاب جميعه ، وعلى هذا تكون هذه الآية خطابا للأمم كلها بدليل انه قال : « يا أيها الناس » ولم يقل أيها المؤمنون ، وانما قال يا أيها الناس لأن هذا الكلام مرجعه للعقل كما بينته لك ، فاني لما ألفت الكتاب لم أولفه باعتبار انه دين بل هو مبني على العقل ، فهذه الآية وان كانت مقدسة فهي خطاب للعقل الانساني العام ، إذن على المسلمين أن تقوم فيهم طائفة مفكرة تبحث على نحو ما بحثت في كتابي «أبن الانسان» وذلك بعد أن يساوا الأمم في العلوم العصرية ، وهذه الطائفة يتمون ما ابتدأته في كتاب «أبن الانسان» ويحاطبون الأمم بالعقل كما خاطبناهم ، وحيث نكون حقيقة : « خيرة » أخرجت للناس « فيكون في العالم الاسلامي جاعتان : جاعة تصالح ذات البين بين المسلمين ، وجاعة حكماء مفكرين للتعارف مع الأمم ونسعى « جاعة التعارف » تيمنا بالقرآن ، ويفهمون الأمم أن التعارف مبني على البحث العقلي الذي ابتدئ بالذكور والاناث ، هذا ماسنح لي في هذه الأيام سطرته ليكون تذكرا لمن بعدنا . وهالك ما وعدتك من ذكر ما كتبه الاستاذ (سنلانه) والبارون (كراديفو) وانما أكتب هذا لك هنا :

- (١) ليكون أمامك ملخص الكتاب بقلم فيلسوف أوروبا حتى يقدم الشبان بعدنا على الحكمة والعلم والتعارف بالحكماء في أوروبا والصين كما أمر ربنا .
- (٢) لتعلم أن أم الأرض مستعدة للتقاهم والتعقل .
- (٣) وأن القرآن حقيقة دين الفطرة .
- (٤) واني مع انه ليس بيني وبين أحد من أهل أوروبا معرفة ولا مخاطبة ، ولم تكن من المسلمين جاعة يشدون أزري ، بل كان الفضلاء من أهل بلادى يعرضون عنه اعراضا ، بل أكتب وحيدا فريدا لا ناصر لي إلا الله عز وجل الذي سبب الأسباب ، فطبعت الكتب وانشرت بلاقوة تفشرها إلا قوة الإيمان واليقين بالنصر .

أقول : اني مع هذا أرى حكماء أوروبا وكبراءها يقرظون كتاب «أبن الانسان» وقرظون هذا التفسير أيضا ، فمن هذا تعلم أن للام الاسلامية مستقبلا باهرا ، فيقرمون هذا التفسير وأمثاله ، ويقوم فيهم حكماء وعلماء ، ويننون على ما أسنائه ، ويشيدون ما بينناه ، ويجدون الأمر عليهم سهلا لطيفا ، إن الله أبدنى ونصرنى نصرا مؤزرا ، وهذا النصر هو للأمم الاسلامية الذين سيقرمون هذا التفسير بعدى وقرمون كتبى الأخرى ، فيسيرون في طريق الرقى وهم مجدون منصورون ، ولينفق فيهم نابضون ، فلا بدنى بتقريظ الاستاذ (سنلانه) الذي ترجمه المرحوم مصطفى أفندى رياض من الطليانية إلى العربية وهالك نصه : « قال الاستاذ سنلانه : ليس من يجهل بمصر الشيخ طنطاوى جوهرى المدرس بمدرسة المعلمين الناصرية فهو ذلك الكاتب التحرير ، والمحرر الشهير ، ذلك الانسان ذوالعقل الكبير ، بل هو أحد رؤساء الحركة السياسية الاجتماعية التي انتشرت في كافة طبقات الشعب الاسلامى تحت اسم الجامعة الوطنية ، وتلك الحركة ترمى إلى الاستقلال السياسى والاصلاح الدينى طبقا لمنهج مرسوم بعيد المدى مشوب بشيء من الابهام ، وذلك بقصد التوفيق بين العلم وبين ما جاء به القرآن الكريم ، وبقصد الرجوع إلى تلك التقاليد الجليلة التي

ازدانت بها حضارة الاسلام في غابر الأيام ، فقد أراد المؤلف أن يفشر هذه الأفكار وبينها بين قومه نارة بالخطابة وأخرى بالكتابة ، فما دون في هذا المعنى كتابان جديران بالذكر ، وهما (نظام العالم والأمم) و (نهضة الأمة وحياتها) وآخر ما صدر من مؤلفات ذلك العلامة الكثير الآثار هو كتاب « ابن الانسان » ذلك الكتاب الحديث الذي انشر منذ عهد قريب ، وهو الذي أردنا التعريف عنه ، كتبه الشيخ أخيرا وقال فيه انه يقدمه لمؤتمر الأجناس العام الذي عقد بلوندره في يوليو وأغسطس سنة ١٩١١ م كهدية للحكام الخاضعين ، وعلما للمشرقين ، وفلاسفة المغربين ، وساسة العالم أجمع ، والحق يقال انه لعمل انساني عظيم في قالب احتجاج سياسي ، ولم يك كتابه موجها إلى المصريين فقط بل للعالم كله ، لأن المسألة التي يريد حلها هي مسألة العالم بالاجماع . قال المؤلف : انه بينما كان في ليلة من شهر مايو سنة ١٩١٠ ينظر إلى السماء ليكتشف مذهب هيلي الذي أنذر علماء الفلك الناس بعودته في هذا الزمن ، سئحت له سوانح المقارنة بين نظام العالم الجليل ، ونظام الأمم الضئيل ، فرأى بونا شاسعا مؤلما ، فسأل نفسه : أمن المحتمل أن تكون هذه الأجرام السماوية محرومة من سكان مثلنا ؟ وإذا كانت معمورة فكيف تكون حياة تلك الجماعات ؟ أمي أقل ؟ كمالنا ؟ وكيف تكون حال الانسانية بعد مرور خسة وسبعين عاما عند ما يعود المذهب لزيارتنا ، أهناك أمل أن يجد الناس أقل وحشية ، وأقل ظلما ، وأقل خشونة ، وأقل نفاقا ؟

وبينما كان في ليلة ٢٩ مايو سنة ١٩١٠ م تتجاذبه الأفكار وقع في نوم عميق إذ رأى نورا مشرقا وشابا جيل الطلعة كأنه روح طاهرة تطوف العالم آتية من مذهب هيلي لرؤية الأرض ، فقال له : ابن الانسان ؟ فأجابه المؤلف بتأثر وانفعال : نحن أولاء بنو آدم نوع الانسان (وهنا دارينه وبين الروح حديث دام عدة أيام) قالت الروح : أنظنون أنكم تمثلون الانسانية الحقة ؟ وبأي طريقة يستحل الانسان هذا الاسم ؟ أم تقل في كتبك انه حتى الساعة لم ير إلا تقدم مادي في المدنية ولكن المدنية الحقة هي المؤسسة على الوجدان والصدقة والعدل والاحسان ، أفلم تك زهورها نادرة عندهم ؟ فأجاب المؤلف : ان كان للانسانية مساوي فان لها أيضا فضائل وان كانت أنجبت أشرا فلاها أن تفتخر بمن أخرجتهم من عظام الرجال كالأنبياء والقديسين والفلاسفة والحكام الذين يشرفونها ، فأجابت الروح : أنظن أن ذلك يكفي ؟ أنت لا تدري حقيقة الانسان ، إن المادة قابلة لتطورات كثيرة مبتدئة من المعادن للانسان ، هكذا الروح الانسانية لها قدرة غير متناهية من كالات يظهر أن الانسان يبجلها . لوعرف الانسان شرف طبيعته وتعهدها كما يجب لوصل إلى مستوى ما يأمل ، ولكنه ماذا عمل بفطرته وعقله ؟ فلم يرين الناس سوى المشاكسة والمخاربة والنظم تحت ستار من النفاق والخيانة والغدر ، وهذه القوات هي السائدة على جماعة المتمدينين ، ولإثبات ذلك نرجع إلى العلم ونسأل فلسفة (داروين) الذي رأى الأمم القوية تقتك بالضعيفة وتبيدها من الوجود ، حكم بأن لافلاح إلا بالغلبة وقوة السلاح ، وكذلك قيل : « إن الأمم التي تأكل اللحم تقهر النباتيين » ، فكذبهم الأفعال وانتصرت اليابان في حربها مع الروس ، هكذا بينا الحيوانات التي من فصيلة واحدة تعيش براحة بعضها مع بعض فان الشعوب التي هي أكثر حضارة على العكس من ذلك روا بطها قائمة بالظلم والوحشية الدائمة ، فأين الانسان ؟ ثم سألته الروح : لعلمكم تفخرون بالسكك الحديدية ، والتلغراف الذي لاسلك له ، واقتان السلاح من كل نوع ، وهذه كلها لفائدة الأمم الغالبة فانها تنزع السلاح من الأمم المقهورة ، وتتخذها خديما وعبيدا ابتغاء مرضاة الشهوات المادية ولزيادة الزهو والمسارعة ، وعليه تكون نتيجة تقدم المدنية هو اعطاء الحق للأقوى فحقى يفهم الناس أنهم لم يعرفوا للآن من كتاب الطبيعة الأكبر إلا بعض حروفه ؟ ومتى يفهمون أن لافرق بين استعداد وكفاءة انسان وانسان وجنس وآخر ؟ واننا كنا من نوع واحد ومن طبيعة انسانية واحدة ؟ أم بك أوروبا اليوم المتمدين هو سلالة أولئك البرابرة النترين الذين خربوا ملك الرومان ؟ من يقدر أن يحزم

بأن زنجي اليوم وهو ذلك الفقير المتوحش لا يكون له مستقبل باهر؟ وأعلم أن القضية العتيقة القائلة بأن القوى يظل الضعيف لا تنطبق على العصر الحاضر الذي يقضي بأن العقل فوق القوة، هنا يهصر المستقبل فن واجب الانسانية المقدس أن تتحد حتى تحكم الطبيعة، وتستخرج أسرارها، وتؤهل العقول لعصر جديد في التاريخ حتى لا يصبح فيه أسياد وعبيد، ولا يقال قاهرون ومقهورون، وتكون الانسانية واحدة متحدة في العلم والعمل والمنافع العامة، فهلا كان من الأمم حولكم أولوبقية ينهون عن الفساد في الأرض بترك زراعتها، وعن خراب العقول بتعمد اهماها، وفي كليهما ضرر عظيم على المجموع الانساني؟ ذلك أولى من استعمالهم القوة لمناوأة الضعيف واستعباد من لا يقوى على الدفاع. اعقلوا أيها الناس! فأين الانسان؟

عادت الروح للسؤال: ماذا تنفعه النباهة التي وهبها الله له فهو أشبه بطفل أعطاه أبوه سلاحا فضرب به نفسه لجهله استعماله، وهنا عدت الروح كثيرا من افراط ومساوي الجمعية الانسانية كالزخرف والزينة والنفاق والسكيب في الحياة الاجتماعية، وتكلمت على الخداع الذي ساد في الشعوب السياسية، أولئك الذين يعلنون بالسنتهم ما يخالف ضمائرهم تبعا لمنافعهم الذاتية، هنا انقطعت المحادثة حيث اخفت الروح ولم يرها المؤلف إلا بعد ثلاثة أشهر، وتبع ذلك فصل في الحكم أودع فيه المؤلف الأفكار التي أثرت فيه من منظر الطبيعة وصفاء السماء، وجمال المنظر، وتقريد الأطيبار، وهلم جرا، كل ذلك قاده لفكر واحد، وهو: أوجد في العالم جمال كثير، وروثق بهي، ونظام هكذا كامل ولا يشعر به الانسان وفي نفسه فضائل طبيعية وبذور بديعة من المحبة، يظهر أن الانسان لا يعرف ذلك لأن شهواته وأمياله أسدلت نقابا على عقله، فلذلك هو يجهل ذاته والعلم هو الذي ينجي فيه المحبة ويقربه لآخوانه، فاذا كانت الطبيعة السفلى قادرة على ذلك الروثق ولكن الانسان ميالا للخير، أفلم يأن أن يأتي اليوم الذي يرى فيه نفسه حكيما مستقبلا بالعلم فيعرف ماله وما عليه؟ فاليوم يستثنى بعض العلماء كالعلامة (كنت) الألماني و(هربرت سبنسر) الانكليزي وأمثالهم ممن يستخدمون علومهم للتوفيق بين الشعوب، وازالة البغضاء من بينهم، وسيأتي يوم تظهر فيه الانسانية بظهر يختلف عن سابقه، وينبأ أن المؤلف يفكر في ذلك عادت الروح إليه في ليلة من يوليو سنة ١٩١٠ وعرضت عليه سياحة سمارية فقبل بالارتياح هذه السياحة في العالم السماوي إذ رآها فرصة جديدة لوصف عجائب السموات، ومن ثم يعرج على الفكرة الأساسية ويقول: كيف يبعد الانسان الذي يقدر أن يفهم هذا الترتيب العجيب عن المنظمات الاجتماعية؟ فأجابه مرشده: ذلك لأن الانسان لم يترك طباعه البهيمية ولا أفكاره الأولى، ثم أذى بهما اللطاف إلى كوكب غير زحل، كوكب لا يعرفه علماء الفلك، فوجد في أربعة آلاف أمة مختلفة ولكنها مجتمعمة في شكل حكومة واحدة باسم نادي الأمم العام وهو ذلك الحكم الذي تصبو إليه نفوس الناس، ولكن شتان بين اليقظة والنمام، ذلك النادي هو مجلس مؤلف من أعضاء فوضت الأمم المختلفة إليهم القيام بحكم هذه الجمهورية التاسعة الأرباء، فشهد من مزايا العدل وحسن النظام والمدق في القول ما لا يحلم به أهل الأرض، وقد سأله بعض أعضاء هذه الجمعية المباركة أن يصف لهم أحوال الانسان الاجتماعية، فكانت إجابته سببا لخبرتهم ودهشتهم، حتى أنهم لم يصدقوا أن الأرض مسكونة بالانسان بل حكموا على أهلها بأنهم وحوش ضارية في صورة الانسان، وهنا انقطع الحلم، وتبع ذلك فصل في المذكرات لاحظ فيه المؤلف الشريعة السائدة في العالم الطبيعي والكيمائي، ونسبة المواد الثابتة التي تتكوّن منها الأجسام المختلفة، والنسبة المعتدلة في تعداد الاناث والذكور في عالم النباتات والحيوان، ثم فكر قائلا: أمن الجائر أن الخالق سبحانه وتعالى أعطى للأداة شرائع محكمة، وأن العالم المعنوي الذي هو أرقى منها يترك لحكم المصادفة، وكيف انضمت عرى الانسانية، وقطعت تلك الرابطة التي نشاهدها في العوالم السفلى، اذا كان عضو واحد من الأسرة الانسانية ضعيفا جاهلا وحشيا فالأعضاء الأخر تتأثر به، لأن الانسانية متضامنة

متحدة ، فالشعوب القوية التي نذل الضعيف تربي في نفوس أبنائها عادات البطش والظلم التي يكتسبها الغالبون فيتولد عنها نتائج سيئة لمستقبلهم الاجتماعي والسياسي ، وسيعاقب كل قريبا أو بعيدا على انتهاك حرمة القوانين الطبيعية ، كيف يسوغ لأمة أن تقول لأخرى لا تتعلمي ولا تفكري ولا يكن منك جيوش ولا قواد ، نحن أعلم منك بما يلزم لحمايتك ومصالحك وأنا عليك لساهارون .

مافائدة الكليات والمدارس مادام السؤاس يقولون مالا يفعلون ، ويعلمون ذلك لشبانهم ، ويفتخرون بأن هذه سياسة ، فعلاّم الكليات اذا كان السؤاس يهدمون البناء ، أليس من العار أن العالم الذي حولنا من الأرض والسموات معظمه عالم صادق ونحن ظالمون جاهلون كاذبون ، فالجهل يفرق الناس والعلم يزيدهم حجة ، وكلما قلّ العلم قلّ الحب ، ولذلك ترى الحكماء أشد حبا للناس ، والجهال والكذابون والسؤاس أقل حبا وأكثر طمعا وجعا للمال ، فعلمنا ليس بالعلم الصحيح بل هو أبتري كما قال الغزالي : « البلاهة خير من الغفلة البتراء ، فتبجح بدعوى المعرفة مع اننا لم نرد إلا ما قرأناه في كراسة المعلم وقبلناه بغير تحقيق ، ثم ندعى خدمة الانسانية والمدنية وفي الحقيقة نخدم أنفسنا ، ليس هناك أم حكم عليها أن تعيش للأبد في الانحطاط ، وكما أن في عالم المعادن والنباتات تقلّ الأشياء الثمينة وتكثر التافهة هكذا تكون العقول البشرية فتري الأذكيا في سائر الأمم يقلون ، وأما الذين يمكن استخدامهم في الامور والأعمال العادية فهم دائما كثيرون » .

وعليه فلا يمكن أن يقال لأي جنس أنت محكوم عليك أن تبقى في مكانك بغير عروج ، فالحكم على أمة بالانحطاط جنابة عليها وعلى المجموع الانساني الذي يخسر بذلك عضوا عاما فرمناشأ فيها من العقول والآراء مايم بركانه الكون أجمع : فقلها والحالة هذه كمثل من يستعمل الذهب والفضة لعمل عجلات السكك الحديدية وفي ليلة من شهر يوليو سنة ١٩١٠ أخذت المؤلف سنة الكرى فعادته الروح واستمعته معها للكوكب الجديد فرأى الناس يرغبون ولا يرهبون ، وبالشوق والحب يعملون ، وسمع الموسيقى ونغمات الآلات تشف الأذان مرحبة بأعمال الحياة ، اذا شيخ جليل القدر ، وهو العالم الاحصائي في علم الأرض والمريخ قد بدأ بسؤال فقال : خبرني ماذا فعلتم بالانسانية ؟ وبماذا ارتقيتم عن الحيوان ؟ فأجابته بالصناعات والعلوم ومعرفة استعمالها ، فقال الشيخ : أنت تشرح الحيوان وما يحتاجه الجسد ، ولكنني سألتك عن الانسانية : فأى حكومة أسستم ولأى نقطة وصلت السداقة والطهارة والحياة الداخلية والمحبة الانسانية ؟ فطفق المؤلف يدافع عن الانسان بتلك الأساليب الخطائية المعروفة من حيث التضامن ، فذكره ذلك الشيخ بوحدة الطبيعة الانسانية (بصرف النظر عن الفارق السطحي في اللون والعقيدة) وتكويّن الحكومات وما أشبه ذلك . وقال : إنما تعاليجكم الناقصة المبتورة هي التي بتغاليتها في الفوارق أوجدت بين الأمم المظالم والبربرية التي لم تقررها الطبيعة ، وقد استنتج الفيلسوف اليوناني (أبيقور) والعالم الطبيعي الانجليزي (دروين) بأن الأضعف لا بد أن يكون طعمة للأقوى وقاسا نظام الانسان على هذا الحيوان فرجعا بالانسان الى مرتبة دنينة تأبأها النظرة ويدحضها العقل ، إلا أنكم يابى آدم نوع واحد لا أنواع ، ولكم ناموس وقانون خاص لاتعتونه ، فأتمم كجسم واحد ونفس واحدة ، فلا يصح أن يعتدى بعضكم على بعض لأن ذلك مضر بمصالح الانسانية العام ، ألا تعلمون أن الانسان كلما كثرت أفراده زادت ثمراته على نسبة الأعداد المضاعفة ، فكما زاد العدد كثير المدد ، وبشكاثر الأمم تنكاثر الخبرات ، وعلى هذا القياس لا يصح أن يقال ان الأمم القوية تكون أفيد للانسانية ، ولكن الأفيد لها ان كل أمة وكل قبيلة وكل فرد يعيش لما يصلح له ، ويقع الطريق المرسوم له من الطبيعة تبعاً للعدل والعلم والفضيلة ، أفما كان الأجدر بدل الانقسام أن تجتمع الأمم فتشكل منها ناديا عاما يتعهد بتحصين الجنس البشري ، انه يتقنا كشبر من العمل للحصول على ذلك ، فأى علاج يفيد

لاصلاح سوء النظام السائد ؟

سأل المؤلف ذلك الشيخ الجليل الاحصائي في علم الأرض ، فأجابه معيدا إليه كلمات الاستاذ (كنت في علم تربية النفس : « العلاج اثنان علم وعدل ، فهما ياساس الملك ، وهما صنوان لايفترقان ، فنظام العالم يجب أن يؤسس على ماأوجدته الطبيعة والانسانية ، انظروا إلى نظام الكواكب الكبيرة والصغيرة ، فكل منها يدور في فلك لايتعداه ، لايطغى كبيرها على صغيرها ، وهي نظرية محسوسة دلت عليها العناية العالية والجادية التي هي أساس الطبيعة البشرية ، ولتكن كل أمة منكم كوكبا يحب الأعلى الأدنى ، فلايطغى بعضها على بعض ، ولتكن الأمة الكبرى لأخواتها الصغيرة كالشمس للسيارات حولها تلقي عليها أشعة علمها ، لاينبغي منها جزاء ولاشكورا ، وليس هناك إلاطريق واحد للوصول إلى هذا الحل الانساني الأخوي المحبوب ، ألا وهو العلم ، ولتكن في جميع الممالك طرق متشابهة للتدريس لتعليم الأطفال منذ نعومة أظفارهم فضائل الحب العام وورزايا الحروب ، وبذلك تصل إلى الحل المرغوب ، ثم بين المؤلف طريقة التعليم التي يلقونها في الكوكب القريب من نبتون بالفصل الثامن عشر وهي مبنية على مثال الحب في نوعنا العالي الشريف الذي هو بمثابة الكهرباء لاثور إلا بالفرك ، فالغناء والموسيقى والتأمل في جبال الطبيعة يثبت في الأطفال عادة اعتبار الانسانية كعائلة كبيرة وأن سائر الأصناف أعضاء لها متضامنون نافعون ، فبرى الانسان انه كائن مقدس ينفع أخاه ويعتبر حياته لا تنتهى عند ذاتها ، بل كمدرسة تربية الأفراس والأزواج ، والمهرمات والمشتبهات ، والانسان فيها يستعد لمستقبل زاهر . وبالفصل التاسع عشر فصل مجلس الحكماء وضرب كثيرا من الأمثال الحسية للأمور العقلية ، وكلها ترمى إلى مبدأ الكتاب الأصلي ، وهو مشروح في صفحة ١٩١ و ١٩٨ و ١٩٩ و ٢٠٠ ، ولولا ضيق المجلة وعدم إمكان التلخيص لكنا أتينا على ترجمته إلى اللغة الطليانية بالحرف الواحد وبالصفحة ٢٠٥ نرى مظاهرات روحانية للنفس ثم لوحة الحياة الانسانية بصفحة (٢٠٠-٢٠٤) مأخوذة من لوحة المريح وهو المسمى (لفزقابس) وهو في ذلك يرى إلى مذهب السياسي في النظام الذي أشار إليه ، ويصعب جام غضبه على هام التفاق والوحشية والجماعات الجنسية المقول عنها متمدنية ، ويقول : ان الذهب والنفضة لايجديان نفعاً ، ولايفنيان شيئا ، بل هما للبادلة في المنافع وانهما لاقيمة لهما اذا لم يصف اليهما تسمية النفس والفضيلة ، ومن ثم يذهب المؤلف إلى أن العوامل الخارجية بحسب الفلسفة العامة تختلف ، فارة تكون للخير ، وتارة للشربيعا للظروف ، فالتى للخير لانكذب ولاتمسدى ومركزها الحق ونفس الانسان ، وفيها تكون سعادة الأمم جيما فتعاود الأجناس بعضها مع بعض لفائدة المدنية العامة ، وسيصلها نوع الانسان في مستقبل الأزمان ، وبالفصل التتم عشرين خلاصة الكتاب بالصفحة ٢٢٥ في بيان استخراج السلام العام في الأمم من التواميس الطبيعية ، والنظامات الفلكية ، والفطر الانسانية ، وقد سبقت الإشارة إليه ، ثم يلي ذلك فهرست ، وبالصفحة ٢٤٧ تحت عنوان « نعمة من موسيقى الكتاب » ضمنها الأسباب التي دعته لتحريره ثم أوضح ما كان يتخيل نفسه من آيات كتاب الله العزيز ، وهي هذه : « وان من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » (جزء ٢٥ - ٢١) . « وكل شيء عنده بمقدار » (جزء ١٣ - ٩) . « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » (جزء ٢ - ٢٣٣) . « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » (جزء ٢ - ٤٩) . وعليه فان هذه النسبة ، وهذه الشرائع ، وهذه العدالة كلها هي التي تحكم العالم الطبيعي بأجعه كذرات الاكسوجين والايديروجين الثابتة التي تتكون الماء وتدخل في تركيب سائر المواد في العالم الطبيعي والكيمياء ، وبمقابلة العالم النباتي بالعالم الحيواني معا ، وكذا بمقابلة العالم الحيواني بالعالم الانساني ترى الانسان يشاركهما في الغذاء والتناسل ، ويشارك الحيوان في الحركات الاختيارية والحواس والادراك والفرائز ولكن النبات والحيوان يولدان كاملين ، وكل منهما عنده من المبدأ جميع مايلزم لأداء وظيفته الخاصة ،

فالعنكبوت تغزل الحيوط، والنحلة تبنى خليتها بلا حاجة إلى مرشد، أما الانسان فعلى العكس محتاج للعلم فيقول انه وان كانت العقول واحدة، فالاستعداد الشخصي مختلف، فوظيفة العلم يجب توجيهها لتنمية الأفعال الانسانية المختلفة، ولكن التربية الحالية حائدة عن الصراط السوي، وهؤلاء المتوحشون القاطنون حول بحيرة بناسا بالسودان تجدهم أقوى أجساما، وأصح أبدانا، من المتمدينين كما قال عنهم المستر (كارينتر) وترى قوة الأهالي بالسودان عظيمة جدا كما ان بعض عواندهم طاهرة لانشوبها شابة.

وإذا قرأنا تاريخ الرومان مثلا نجد ما يدهش العقول، فتراهم يفتخرون بغزو الأمم وتدبج الممالك، فزديلة في التربية العلمية التي بمرتها تغذى الأجسام تعطى العقول نماذج مشابهة لتلك التي عند الحيوانات المفترسة وهي التي تطلق في الانسان قابلية التقدم التي هي هبة الطبيعة، وبيئنا ترى الناس يعطفون على بعضهم بالقول تراهم يجهرون بامتداح القواد القاتلين كنبليون، ويشرفون الكذوب من رجال السياسة، فتنرى كل طائفة فرحة بما لديها، فاعة بما وصلت إليه، وأن الشعور بالمحبة شامل للجميع، ولكن رغما من سائر الموانع ترى حركة في عالمنا الحاضر تدفع الانسانية للأمام، فالخلق كامن في النفوس يجب البحث عنه في الآفاق لظهوره للناس على سطح الكرة، ومتى تجلت الانسانية بهذا المنظر الذي ينشده المؤلف، فهناك الوفاق والوئام، الانسان آخر درجات ذلك السلم المتصل أولها بأخرها، فمن معدن لا ينمو إلى نبات ينمو ويتوالد ويتدرج بالترتيب إلى حيوان يترقى فيصل إلى أعلى درجاته من قرد وفيل وأمثالها فيصل الانسان إلى أعلاه وهو الذي يكتب بالتدرج خصال الكائنات التي تماثله مضافا إليها خصاله وفيه بذور المحبة والرحمة كما قيل في « اخوان الصفاء » : -

« منذ ستة أجيال قبل الميلاد ظهر (بوذا أو جوطامي) فأوصى بالشفقة والمحبة والرحمة والعطف على كافة الكائنات الحية، ولما ظهر دين المسيح عليه السلام أوصى بالرحمة والشفقة وحب النوع الانساني، وكذلك الاسلام منع القتال في الأشهر الحرم وحرم الصيد في الحرم وقتل المحتسب به، وأجعوا أن يقولوا للناس : ارحموا رحوا، واعلموا أن للحيوان ادرا كما وشعورا، وانه يتألم كما تتألمون، ويشعر كما تشعرون، فإياكم أن تؤذوه، وهناك أبناء كثيرة مأثورة عن علماء الانسانية كالحكيم سولون وسقراط وأبيقور والبارون هولباغ دلامتري وهلفينديوس ولكنهم لم يقفوا على كبح جماح جهل واستبداد الانسان. وهما هي طريقة (داروين) خطت خطوة للوراء وهكسلى أوضح أن لافرق بين أدنى الانسان وأعلى الحيوان إلا كما بين الحيوانات العليا والدنيا، بل المسافة في آخرهما أوسع مما في أولهما، فظنوا أنهم وجدوا كنزا وأن الانسان الجاهل في مستوى الحيوان، وانه يجوز للأمم القوية احتضام حقوق الأمم الضعيفة باعتبار أنهم أدنى منهم مقاما وانهم ما خلقوا إلا ليكونوا لهم خادمين وعبيدا مسخرين، وختم الكتاب بخطاب جاسي للعالم حتى يتخلص الناس من قيود الاستبداد والاستعباد، ويتنسما رائحة الحرية التي سقتها لهم الطبيعة البشرية.

هذا كتاب الشيخ طنطاوي الذي أردنا أن نوسع له في مجلتنا، وماهي بالعادة المتبعة لديها، لأن ذلك الكتاب من الصحف العظيمة الدالة في الوقت الحاضر على مبلغ أفكار وشعور الطبقة الراقية الاسلامية، وليس لنا عليه ملاحظة إلا تجاهله بالذوق التاريخي وما يحدث عن العمل برأيه من اضطراب الأمم وارتباك الشعوب، وما يصادفه القراء من صعوبة حل نظرياته، ومن البديهي كما قال المؤلف انه لا يمكن في أقل من عشر سنوات (ان أمكن) وضع أساس اصلاح اجتماعي عظيم مثل هذا، وذلك بواسطة جمع أعقل رجال العالم فيعملون بالكتب والرسائل لتعليم الأمم ما هو الحب العام، وينشرون تلك المبادئ السامية بالمدارس ويلاحظون تطبيقها، ولكن مع ذلك ومع اعترافنا باخلاص المؤلف وعلو مقاصده في هذا الكتاب مع فصاحته وبلاغته وتفوق معلوماته التي يندر وجودها في الكتاب واتساع دائرة فكره لا يسعنا إلا الدهش من عدم مراعاته ذوق

الأم التي حوله ، وتسلسل تاريخها وهو ما لما أشارت إليه جرائدنا في العصر الحاضر » انتهى مقاله الأستاذ ساتلانه الطلياني عن كتابي « ابن الانسان » والحمد لله رب العالمين .

وهذا مقاله الأستاذ البارون « كركراديفو » وكلامه في « ابن الانسان » وفي التفسير ، وهذا كانت نشرته جريدة الاهرام في أواخر سنة ١٩٢٩ وقد ابتدأ بالتفسير وختم بكتاب ابن الانسان ، فذكرناهما معا لتشرح صدور أهل العلم في الاسلام ، وليعلموا أن دينا روح العالم الانساني ، وليشجعهم على العلم والنشر ، وهاك ما قال : -

(١) « مصر الحديثة ، روح الديانة المصرية ، جامعة الأزهر ، الشيخ محمد عبده » .

(٢) « النهضة الاسلامية للشيخ طنطاوي جوهرى » .

(٣) « نشأة مصر الحديثة في عهد محمد طي باشا » .

وانا سنين الثلاث مظاهر الرئيسية لتطور مصر الحديث وهي : -

(١) الميل الشديد الذي أظهره محمد علي باشا ورفاعة بك إلى التقدم والالتفات إلى معارف ومواهب أهل أوروبا .

(٢) العناية التي أظهرها رجلان من رجال الدين ، وهما الشيخ محمد عبده ، والشيخ طنطاوي جوهرى في تمثيل الدين الاسلامي وتأثيره في النفوس للهوض بها إلى التطور الحديث .

(٣) الوطنية الحديثة الوهاجة التي مثلها خير تمثيل كل من مصطفى كامل وسعد زغلول .

وهذا ما كتبه المؤلف فيما بين صفحة ٢٧٥ و صفحة ٢٨٤ في الجزء الخامس من كتاب ابن الانسان بعد أن قرظ الأستاذ تفسيره للقرآن الشريف أحسن تقريظ : وقد تقدم ذلك التقريظ في أول المجلد السابع عشر من هذا التفسير فلا نعيده هنا ، وقال بعد ذلك مانعه : -

« وقد نشر الشيخ طنطاوي كتاب « ابن الانسان » المطبوع سنة ١٩١١ الذي قرظ الأستاذ ساتلانه الطلياني الكبير في المجلة الشرقية بروما لسنتها الرابعة ، وللأستاذ كتب أخرى مثل : « نظام العالم والأم » و « نهضة الأمة وحياتها » ، وكتاب « ابن الانسان » هذا وضعه المؤلف بهيئة رواية فلسفية سياسية ، فهو في هذا يشبه الفارابي من حيث أصل الفكرة ، وابن طفيل من حيث الاسلوب والمنهج ، فجمع بين دقة الفكر وجمال الاسلوب وغيرهما .

« الأستاذ في هذا الاسلوب يذكرنا بأساليب علمائنا وأدبائنا في أوروبا مثل توماس موروس وكامبانيا ومعاصرنا هانوبتر .

« وصف الأستاذ الجمعية الانسانية وصفا لا يشرفها بالكمال ، بل أظهر نقائصها ، وأبان سوء أفعالها ، وأخذ يسدى نصائح ، ويبدي حجاجا ، لالتئام الأمم ، واتحاد الدول ، بل يطلب ما فوق ذلك ، وهو الحب والاخلاص العام والمثل الأعلى في ذلك : ويمتني (كما تمتني الفارابي) أن تكون الدول جميعها مؤسسة نظامها على الحب العام وتبادل المنافع : ولكن دولنا الآن في الأمم الأرضية وان كانت ارتقت ارتقاء ماديا لم يؤسس بنيانها إلا على تبادل الحرب ، وتخريب المدن ، وقمع السلاح ، فأما تلك الأفكار اللذيذة والمحبة العامة فهي مغلوب عليها ، إن الأساس الذي بنت عليه الدول الآن هو ما سطره (داروين) الانجليزي ، وفقى على آثاره (نيتشه) الألماني من إبادة الضعفاء وغلبة الأقوياء . إن المؤلف خيالا ساميا غزير المعنى واسع ، فانه بينما كان ينظر إلى السماء في ليلة من ليالي ربيع سنة ١٩١٠ م وهو يبحث في مذنب هالي الذي يرجع مرة بعد أخرى ، أخذ يقول : يا ليت شعري : اذا كانت هذه السماء الصافية بهجة النجوم منظمة فهل فيها سكان ؟ وهل

سكانها مثلنا في الظلم والقتال ؟ أم هم في هناء وعدل كما يرى في نظم السموات ، وبيننا هو مستغرق في تأملاته إذ وافقه روح مشرقة النور ، بهية الطلعة ، في هيئة شاب جبل حسن الشكل ، فأخذت هذه الروح تناقشه ثم اقترحت عليه أن يجول معها جولة في السموات العلاء ، فلبى طلبها بشوق عظيم ، وهذه الفكرة الخيالية تذكرنا بأحلام : باستر سيدول سويدنبرج

إلى أن قال : « ومن عجب أن المؤلف طبع هذا الكتاب سنة ١٩١٠ وتنبأ فيه بطريق حكمي شعري بما جرى بعد ذلك بأربع سنين وهو الحرب الكبرى . إن مقصود هذا الكتاب كله وما فيه من المحاورات التصويرية هونشر التعليم العام ، والحب بين الشعوب والأمم بحيث يتمزج بمفانيهم وأشعارهم وموسيقاهم حتى يكون ذلك إلهاما للأطفال في أول حياتهم ، وأن يكونوا محبين لجميع الأمم ، كارهين للحرب ، ناظرين بجمال الطبيعة ، محترمين الجمعية الانسانية أي احترام .

هذا الكتاب بما فيه من جمال العلم والحكمة يعث في الشيوخ نشوة الشبان ، ويعث في النفوس الانسانية غراما وولوعا ، ويقلب الطبائع الانسانية بما فيه من السحر الحلال ، وهو يدعو الأمم كلها أن تكون أسرة واحدة ، نعمة النظام ، وبهي الأطفال في الأمم كلها أن يكونوا على نسق الأمم التي زارها والنصيحة التي سمعها من أولئك العلماء .

فقل هذا الكتاب المملوء حكمة وعلمًا ، العزيز المادّة ، السامى الفكرة ، النابع من تفكير عميق ، وبحث يخلّ نظيره بدعوة دعوة حارة إلى سعادة الأمم أجمعين ، ويدعو أيضا بالحماسة الشديدة إلى التجديد العام ، وهو مفخرة لمصر والاسلام . وقد قدم هذا السفر الجليل إلى مؤتمر الأجناس المتعقد في لندن في شهرى يوليو وأغسطس سنة ١٩١١ م « انتهى كلامه .

بهجة المناظر الخيالية ، وآثارها العالمية

في سرّ قوله تعالى : « إن الله عليم خبير »

في ليلة الثلاثاء ٢٥ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية الموافق أول فبراير سنة ١٩٣٣ م بينما أنا بين اليقظة والنوم إذ خيل لي كأن في الجوّ رجلا ولهكنى لا أرى أشخاصهم ، وهم يتسامرون ، وهذا ما وعيت من حديثهم . قال أحدهم : حدثني رعاك الله ، لم يقول الله تعالى في آية : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » . عليم خبير ! مع أن العلم والخبر مترادفان ، فقال الآخر : إن كمال العلم الاحاطة بكل شيء ، ظاهره وباطنه ، دقيقه وجليله ، وأوله وآخره ، وهذا على أممّ الوضوح والكشف على أمم ما يمكن فيه . بحيث لا يتصور مشاهدة كشف أظهر منه ثم لا يكون مستفادا من المعلومات بل تكون المعلومات مستفادة منه ، فأما الخبير فهو الذي لا تعزب عنه الأخبار الباطنة ، ولا يجرى في الملك والملكوت شيء ، ولا تتحرك ذرّة ، ولا تسكن ، ولا تضطرب نفس ، ولا تطمئن إلا ويكون عنده خبر .

فلما سمعت ذلك ، قلت في نفسي : هذا هو الترادف بعينه ، فأين الجواب ؟ وهناك جاشت نفسي وهي لا تزال في حال تشبه حال النوم ، وأخذت تسأل نفس السؤال وهو أنهما مترادفان ، فما كاد الخاطر يخطر لي بذلك حتى سمعته يقول له : إن معنى العليم هو معنى الخبير ، ولكن هناك فرق ، لأن العلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة سمي خبرة وسمى صاحبها خبيرا فهو أشبه بذكر الخاص بعد العام ، فهناك زاد اضطراب نفسي وقلت في نفسي : يا سبحان الله ، ولم ذكر هذا الخاص ؟ ألتسكنة العلم لا المنفعة للسامعين ذكر هذا الاسم هنا ،

فيا ليت شعري هذه الآية مذكورة في أمر نظام الدولة الاسلامية ، ونظامها يقضى أن الناس جميعا متساوون فيبقى تعارفهم ، وأرقامهم هم الذين اتقوا ، وهم الذين يذكرون ربهم فلا ينسونه ، وبطبعونه فلا يعصونه ، وما كاد الخاطر يتم حتى سمعته يقول له : إن هذا سرّ قول علماء مصطلح الحديث ، أن الجرح مقدم على التعديل ، وهناك استيقظت وأنا في دهش من هذا المثال ! أولا هو يوافق ما أنا بصدده ، ولكن الفائدة لم تتم ، فرجعت إلى معنى « عليم خبير » في كتاب شرح أسماء الله الحسنى للغزالي رحمه الله ، فوجدت هذه المعاني بنصها وفيها ، فلم يبق عليّ إلا أن أفهم ما المقصود من الجرح والتعديل ؟ وما نتائجهما هنا في نظام الدول والممالك ؟ وهنا توجهت لمبدا الكائنات ، وهو الذي علم تلك الأرواح العالية ، فأنا منه أقنيس المعرفة وهو معلم الأولين والآخرين ، ففتح عليّ وتذكرت ما ذكره ابن خلدون في المهدي المنتظر ، وقدم ذلك في أول ﴿ سورة الحج ﴾ فقد ذكرت هناك أن ابن خلدون رحمه الله نقل جميع أحاديث المهدي ، وأن في بعض رواياتها طعنا ، وإذا كان في الراوي تعديل وجرح فالجرح مقدم ، وعلى ذلك تكون أحاديث المهدي فيها ما فيها ، وهذه الأحاديث قامت شيع في الاسلام ودول ، ولكنها عفت آثارها ، ومن آثارهذه الأمم حسن بن الصباح الذي تقدم ذكره في ﴿ سورة الكهف ﴾ عند آية : « وما كنت متخذ المضلين عضدا » وكيف أمر أتباعه بشرب الخشب حتى سماهم المؤرخون حشاشين ، وكيف ظهر لهم بهيمة مقدس معصوم ؟ وكيف اتقادوا له ، وكيف يكون الدرس الذي ألقاه على أتباعه في القرن الخامس الهجري هو نفسه الذي تلقفه محمد بن نورمت وهو معاصر للغزالي (الذي يقال انه لاقاه) بعده حذوا القذة بالقذة ، فالأول كان في قلعة الموت بناحية أصبهان ، والثاني بالمغرب الأقصى ببلاد السوس ، وكل منهما ترفع وتعالى على أتباعه ، واعتقدوا فيه العصمة ، وكلاهما أمر فأطيع ، ومنعا الناس العلم ، واستند كل منهما إلى أحاديث المهدي .

محدثات في أمر المهدي ومما مناسبت له لاسم الخبير المذكور في الآية ؟

ويبان أن سرّ القرآن بذكر هذه الأسماء قد ظهر الآن ، وأن المسلمين في مستقبل الزمان

سينتفون بهذه المعاني الجيلة البديعة

حضر صديقي العالم الذي اعتاد مناقشتي في هذا التفسير . فقال : هذا مقام غريب ، الآية جاءت لعدم التفاضل بين الناس إلا بالقوى ، ولكن الخبرة إلى الآن لم يظهر المقصود منها ؟ ذكرت المهدي ابن نورمت وذكر حسن بن الصباح ، ولكن لم تظهر المناسبة القائمة بين هذا التاريخ وبين الآية ؟ فقلت بإصاح : أذكرك بأن الأحاديث الكثيرة التي وردت في المهدي جعلت أمره موكولا إلى النسب ، وهؤلاء بتلك الأحاديث مع ماضوه إليها من الاغراء والتحذير قد رفعوا أنفسهم فوق الأمم ، فاستكان المسلمون أي استكانة ، وخضعوا ، وتركوا العلوم بأمرهم ، وحقرها ، ولانزال آثار تلك الظلمات إلى الآن .

اللهم أنقذ المسلمين من ذلم واسارهم ، اللهم أنجز وعدك الذي وعدت أن تكون خیرة أخرجت للناس اللهم انك أنت اللهم المعلم ، فاخذ أنتنا من الجهالة العمياء . فقال : أي جهالة تريد ؟ فقلت : ألم تعلم ما سرّ سابقا في هذه السورة وما قبلها من أخبار العباسيين والأمويين ، وأن العباسيين قاموا باسم المهديين ، وأن الأرض تملأ عدلا ونورا بعد ما ملئت ظلما وجورا ، هل برّوا بوعدهم الأمة ؟ ألم يقتل السفاح رجالات من الأمويين كانوا في ضيافته ؟ ألم ينبشوا القبور ؟ وإذا كان العباسيون هم الذين جاء الحديث بأنهم يمشون الأرض عدلا ونورا ، مخلصين المسلمين من ظلم الأمويين الذين أهانوا آل البيت ، وظلموهم ، وظلموا المسلمين ، فكيف يقلدون الأمويين في العسف والجور ويزيدون عليهم حتى إن محمد بن عبد الله الحسني الذي كانت له البيعة الصحيحة كما تقدم قريبا بكي على أيامهم ، فأبن العدل ، وأبن النور ؟ وأبن المهديّة التي جى بها

للمسلمين؟ أليس ذلك لاستكثان النفوس، وتقديم التعديل على الجرح. وجعل النسب في الفردة العليا، وعدم الاكثارات بالقوى، ولا الفضائل الانسانية التي جاء بها نص الآية هنا، وهي التي يفهمها تقام الدول وبجملها نذل، جهلت الأمم الاسلامية آيات القرآن الصريحة، هاهوذا القرآن يقول على رموس الأشهاد، ان الفضل بالقوى، وهاهي هذه قصة طالوت (في البقرة) ضربت الذكركر صفحا عن النسب، وجعلت الملك تابعا للعلم والقوة، إذن جعل المهدي تبعا للنسب من أكبر مصائب الاسلام، لأن هذه العقيدة أخذت تتعالى بين الناس، وأخذ اللدجل والبهتان والكذب الصراح ينتشر بين المسلمين، وأخذ أولئك الرؤساء يشنون الجهالة بين أم الاسلام، ويرجعون الرموسين إليهم انكالا عليهم واستعاذة بهم غالبا، وقد تقدم هذا واضحاً في آخر (سورة ابراهيم) عند ذكر أغامنون بالهند، وفي (سورة الكهف) كما تقدم، وفي (سورة الشعراء) عند آية السحر، وفي (سورة سبأ) عند آية الرؤساء والمرموسين، وفي مواضع أخرى فلانعيده هنا، وهذا كله إنما جاء من عدم البحث في تاريخ المسلمين وأحوالهم حتى يستبينوا آثار التقليد الذي هذ مجد أمنا الشايخ، أنا لست أنكر فضائل بعض المهديين في الاسلام، ولست أنكر اني تعلمت في الأزهر الشريف الذي هو ثمرة من ثمرات المعز لدين الله الفاطمي، ولست أنكر أن هؤلاء أفادوا المسلمين، ولكن المنفعة إنما جاءت بسبب العقول الكبيرة المودعة في هؤلاء كالمالك الذي أقامه محمد بن تومرت وأحاطه بالأحوال المستعبدة للشعب، فبقى الملك أمدا ثم ذهب وهكذا الفاطميون، ولقد عاش المسلمون زمنا ليس بالتصبير قرونا رقرونا وهم يتفتشون ظلال الألفاظ، فاناموا عليها، وعكفوا عكيفا آدى للنوم العميق، إن تعاليم المسلمين ومنهم أهل الأزهر الذين أنا منهم قد بقيت خاضعة لظواهر الألفاظ، وترك جبال الطبيعة، وجبال النجوم، وجبال العقول، وبهاء الحكمة، فطمست النفوس، وضفت القبول، وانكسبت الأمة في تلك القرون حتى وقتنا هذا.

فلما سمع صاحبي ذلك. قال: لقد طال الكلام فليكن المحجوم على الموضوع، لأنى أريد العلاقة بين ذكر العليم الخبير، وبين ذكر تاريخ المهديين الذي ذكرته هنا (و بعبارة أخرى) أريد ماهو السر في ذلك، وما علاقة هذه الأسماء الحسنی بهذا التاريخ؟ وبنظام أم الاسلام، فأرجو أولا ذكر حديث واحد من الاحاديث وان كان قد تقدم في (سورة الحج) لتدرس الجرح والتعديل فيه. ثانيا: اذ كر نتيجة ذلك لبيان المقصود. فقلت: جاء في الجامع الصغير مانصه: « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اذا رأيتم الرايات السود قد جاءت من قبل خراسان فاتبعوهم فان فيهم ولي الله المهدي » (حم ك عن ثوبان). وقال الشارح: اسمه محمد بن عبدالله يأتي قبيل عيسى أومعه، وقد ملئت الأرض ظلما وجورا فيملؤها قسطا وعدلا. وقال بعد ذلك: قال الشيخ حديث صحيح.

فقال: فاذا كر لي أولا ماهذه الرموز؟ وما تلك الرموز التي تقدمت في تخریج احاديث الاحياء المتقدمة في هذه السورة فاني لا أعرفها، وثانيا: اذا كان الحديث صحيحا فكيف تتجاوزته وتقول إن احاديث المهدي ضعيفة؟ فقلت: الجواب عن الأول ان الرموز تبلغ ٣٠ قال فأرجو بيانها. فقلت هاهي ذه:

(خ) البخارى .	(ن) النسائي .
(م) مسلم .	(هـ) لابن ماجه .
(ق) طهما .	(٤) طهؤلاء الأربعة .
(د) لأبي داود .	(٣) طم إلا ابن ماجه .
(ت) الترمذی .	(حم) لأحمد في مسنده .

- | | |
|--------------------------------|---|
| (ع) لعبد الرازي في الجامع . | (عم) لابنه عبدالله في زوائده أي زوائد مسند أبيه |
| (ع) لأبي يعلى في مسنده . | (ك) للحاكم . |
| (قط) للدارقطني . | (خد) للبخاري في الأدب . |
| (فر) للديلمي في مسند الفردوس . | (تح) له في التاريخ . |
| (حل) لأبي نعيم في الحلية . | (حب) لابن حبان في صحيحه . |
| (هب) للبيهقي في شعب الإيمان . | (طب) للطبراني سليمان النخعي في الكبير . |
| (هق) له في السنن . | (طس) له في الأوسط . |
| (عد) لابن عدي في الكامل . | (طص) له في الصغير . |
| (عق) للعقيلي في الضعفاء . | (ص) لسعيد بن منصور . |
| (خط) للخطيب أحمد بن علي . | (ش) لابن أبي شيبة . |

الجواب عن الثاني : وهو قول شارح الجامع الصغير ان الحديث صحيح فأنا أذكره بما تقدم ، وهو أن الجرح مقدم على التعديل ، أنسيها ؟ قال نعم هو صحيح قلت ولكن غيره يقول ههنا جرح لبعض الرواة . قال : فأرجو ذكر نتيجة الموضوع بنامه مختصرا . فقلت : بسم الله الرحمن الرحيم « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » . إن الله علم قبل أن يخلق السموات والأرض أن المسلمين ستنشد غفلتهم وينامون نوما عميقا ، ويقلد الأبناء الآباء ، والتلاميذ الشيوخ ، بلا علم ولا هدى ، ولا كتاب منير ، فأنزل هذه الآية ، وجعل المدار في الفضل على التقوى ، وعلم أن أمما وأمما سيجعلون أم الاسلام تبع أناس بأحوال خاصة ، ولا يجعلون المدار على صلاحيتهم للحكم ، فقال إنما أنزلت هذه الآية ، لأني أخبر بواطن طباعكم ، ومن بواطنها انها تر يد الاثرة والرفعة ، واستعباد الناس باسم النسب لا بالتقوى ، فجعلت التقوى هي الأصل لاني التفضل على الناس ، والحبيب النسب قد يكون جاهلا أوفاسقا ، فيفضل الناس ويتخذهم خولا ، ولذلك فضل رسولي لكم ذلك بأن أمر بلالا أن يؤذن في الكعبة بمحضور أشرف قريش تطبيقا على معنى الآية ، فذكر خير هنا اتضح في أيامنا هذه ، لأن بواطن الأمم لم تكن معروفة قبل وجودها ، والله يعلمها قبل خلق العالم فأنزل هذه الآية ، وهذان محاسن أسماء الله الحسنى ، والسر كل السر في تلك الأسماء وهي أسماء الله وهما وحسنا حسنها هو جمال العلوم وجمال الوجود ، جمال العلوم هنا تظهر في الخبرة المأخوذة من معنى خير ، لأن اختبارنا لتاريخ أم الاسلام عرفنا أن هذا المهدي الذي جاء به الحديث المتقدم هو السفاح ، والسفاح قد تقدم تاريخه وكفى بلفظه دليلا .

فقال صديقي : ولكن ذلك سيكون يوم القيامة . فقلت : هذا الحديث ينطبق عليه فإن الرايات السود التي جاءت من قبل خراسان هي التي كانت مع أبي مسلم الخراساني ، وهو الذي قام بها من خراسان لنصرة بني العباس ، وقد عرف تاريخه فيما تقدم في نفس السورة ، فهو تاريخ ملطخ بالدماء ، فقد قتل من المسلمين على مامر بك ٦٥٠ ألف مسلم غدرا بأمر ابراهيم الامام ، وهو أخو السفاح ، إذن هذه المهديوية بنيت على سفك الدماء . فقال : وما المانع من أن يكون المهدي يخرج في آخر الزمان ، وتقوم راياته السود من خراسان فقلت : إذن يكون معنى هذا اننا نعيش بلا عقول ، القرينة ظاهرة واضحة ، إن تلك الأحاديث جاءت لأجل هؤلاء ، ولماذا لا يأتي المهدي في آخر الزمان إلا من نفس هذا المكان وتكون رايته سودا ؟ ثم ما هذا المهدي الذي يأتي بالسيف ؟

الله أكبر : إن العلوم كلها كفرود شجرة واحدة ، فدراسة الحديث من غير مراعاة العلوم الأخرى معناه

الجهل والغفلة ، وعدم الفطنة والموت . فقال : وما تقول في قول الشارح : ان اسمه محمد بن عبد الله ، سلمنا أن الجرح هنا مقدم على التعديل ، وأن التاريخ أيد ذلك ولكن لم ذكر أن اسمه كذلك ؟ فقلت : بينما كان العباسيون يخفقوا راياتهم السود في خراسان كما تقدم آتفا ، وكان هذا الحديث ينشر بين المسلمين كانت تنشر أحاديث أخرى مثل حديث : « يخرج رجل من بيتي اسمه على اسمي واسم أبيه على اسم أبي بلاء الأرض فسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما » .

وعبد الله هذا من ذرية الحسن ، وابنه هو النفس الزكية المتقدم في تفسير هذه السورة ، وهو الذي قتله المنصور فيما بعد ، وقد كانت له البيعة الصحيحة ، وأفتى به أبو حنيفة ومالك ، فاضطهدهما المنصور . هذا معنى كلام الشارح ، وحرام على أن أعرف هذا ولا أئنه للمسلمين بعدنا ، لأن عزل التاريخ وبقية العلوم عن القرآن والحديث أضرت أشد الضرر بأمنا الإسلامية العزيزة على ، وهي التي قال الله فيها : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » . فقال : لقد ظهر سر اسم الحبير في هذه الآية ، وظهر اشراق نور اسم من أسماء الله في علم سياسة الأمم الإسلامية ، فهل تسمح بقول تلقيه مختصرا فيما تؤمله لأمم الإسلام من أمثال هذا المقال ؟ قلت : ان أرجو ما أرجوه لأمم الإسلام انهم بقراءة أمثال هذا التفسير سيكون فيهم محققون عظماء حكماء ، لا يشق لهم غبار ، ذلك انه قد اتضح الآن أن دين الإسلام ليس هو ذلك الدين الذي يعيش على الألفاظ ويعلق عليها أهمية الحياة وحدها . كلا . إن هذا التفسير وما كتبتة قبله قد كشف السنار عن هذه الناحية ، وقد فهم المسلمون فعلا وعملا ، ودفنت الجهالة في قبرها ، وولد في الإسلام جيل جديد فعلا ، بل المسلمون كلهم تأثروا بالفكرة ، فلارجعة للجهالة بعد اليوم ، وأنا اليوم سعيد بأبناء بلاد الإسلام .

والآن أقول ﴿ كلمتين اثنتين ﴾ بشارة للشبان المسلمين : الكلمة الأولى ما كتبتة في (سورة البقرة) من نبا لم أوضحه إذ ذاك ، ولكنني أوضحه الآن : وذلك أن ثلاثة من الشبان المصريين تلاميذي بالمدرسة الخديوية توجهوا إلى فرنسا ليتعلموا علم الحقوق ، هناك كفاهم وراقبهم الاستاذ (لمير) . ذلك ان دانلوب (الذي كان أيام احتلال الانجليز مصر قابضا بيد من حديد على التعليم بها ، منع الشبان في التعليم الثانوي من كل ما يرقى أفكارهم) لم يسر من اعتراض (لمير) الفرنسي المذكور على التعليم الثانوي لتصوره وتقديره ، فليس يعد التلاميذ لدراسة الحقوق التي كان يرأسها الفرنسي المذكور بمصر دراسة صحيحة ، فلذلك رفته من الوظيفة ، فرجع إلى فرنسا ، وصار يستقبل تلاميذ المصريين ويعطف عليهم .

فلما رجع هؤلاء التلاميذ زاروني وأخبرني واحد منهم قائلا : اننا نحن الثلاثة كنا نجتمع الأزهار من الحديقة ، فدعانا الاستاذ (لمير) وقال : لقد لاحظت فيكم أمرا لم أراه في اخوانكم المصريين ، ذلك انكم تحبون الزهر ، فما السبب ؟ قال : فأجبنا اننا كنا سنة ١٩٠٧ م تعلم اللغة العربية والمعلم الشيخ طنطاوي جوهرى ، وكان في دروس الانشاء يحيننا في الطبيعة ، ويجعل نفوسنا في شدة الشوق إليها . فقال : أفي مصر هذا ؟ فقالوا نعم . فقال : إذا وجد في مصر رجل مثل هذا فلماذا جئتم فرنسا ؟ لفتح كلية ، ولتعلم هو وأمثاله في نفس مصر فانها ترتقي سريعا .

فلما سمعت هذا من أحد الثلاثة لم يتصوره عقلي ، فنظرت إلى الآخرين بدون أن أتكلم ، فكانت جوابهما : ان الكلام كان بحضورنا : هذه هي كلمتي الأولى .

كلمتي الثانية

سترى أيها الأخ الذكي في أول (سورة الحديد) عند معنى : « سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » ، ماهورأى (ستانلي هول) وهو أكبر علماء النفس في أمريكا ورئيس إحدى جامعاتها

وملخص كتابه في ذلك أن شرط النجاح ثمانية أشياء ، ومن هذه الثمانية حب الطبيعة ، وقال : يجب على الناس أن يكتفوا من المشي في الحقول لرؤية أحسن المناظر ، ثم قال : وخبر الوطنية ما كانت نابتة من الحقول ومنها ترقية العواطف ، ومنها الصحة ، ومنها كشف ما فيها من القوى الكامنة ، ففي كل منا قوة كامنة ، وهذه لابد من استخراجها ، وإظهار ما فيها من الجباب ، ولاجوم أن قرأ هذا التفسير وأمثاله سيحبون الطبيعة حبا جما ، وسيكون فيهم حكماء لانظير لهم في الأمم لأنهم في حال حبهم الطبيعة يؤدرون درسا دينيا ، فهنا نجد الدين والعقل ، وسيزول الذبل والتلبس من أمم الاسلام بسر اسمه الخبير الذي ظهر في هذا المقام وسينبع في الاسلام خبراء بالعلوم بأشراق هذا الاسم ، وتظهر محاسن الوجود المقتبسة من حسن أسماء الله ، واليه الإشارة بآية : « والله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون » وعن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » وهذه الأمة هي الأمة الاسلامية كما تقدم في تفسيرها فما المناسبة بين ذكر الأسماء الحسنى وبين كون الأمة الاسلامية أمة تهدي بالحق وبه تعدل ؟ لولا أن جلال أسماء الله الحسنى الذي أشرق اليوم فعلا على أمم الاسلام قد ابتداء يكشف لهم الحقائق التي كانت مستورة ، وقد ظهرت لهم نفس الجباب الإطية في المخالقات ، وصارت أهم مافي دين الاسلام ، وهذا هو الوعد الذي وعده الله ، فقال : « ليظهره على الدين كله » وقال : « سرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » .

هذه هي الهداية المستقاة من أسماء الله الحسنى ، ومن محاسن المخالقات المشرقات التي يراها الناس صباحا ومساء وكانوا عنها غافلين ، إن الله تجلى للناس اليوم بالعرفان ، وذلك كله سر قوله : « إن الله عليم خبير » والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الاربعاء ٢٦ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية : الساعة الثانية بعد الظهر .

بهجة هذا المقال

وحكم فيها وصحة وجال

في يوم ٢٧ رمضان سنة ١٣٥٠ هـ بعد العصر حضر صاحبي العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير فقال : لقد كنت أراك أمس وأنت تكتب هذه المقالة تنقد حساسة ، فإذا خطر لك بعد ذلك لحدثني به ؟ فقلت يا أخي كأنك تعلم الغيب ، انني بعد أن انتهيت من كتابة المقالة السابقة انتحيت جانبا وخلعت ملابسي ساترا العورة ، جالسا في الشمس ، عملا بما كتبت ، واستجلابا للصحة ، إذ تقدم في أول (سورة يونس) عند آية : « هو الذي جعل الشمس ضياء » مقال لبعض الأطباء على الشمس من حيث إفادتها الصحة إذا وقمت أشعتها على نفس الجسم بشروط خاصة ، فها أنا ذا أمس عملت بما علمت كما فعلت مرارا ، ولم أكد لأجلس فيها وأضواء الشمس تحيط بجسمي حتى أخذت أفكر في هذا الانسان المسكين المحبوس ، هذا الانسان الذي قتلته العادات ، اكتسى بالملابس ، ترفا وتنعما وتجملا ، فأصبحت الملابس حلا ثقيل ، وذلا وبلا ، وشرًا مستطيرا ، وأخذت أقول : يا الله ، يارب السماء ، يا حكم ، يا عدل ، يا حلیم ، أنا أستعذب بك من النمل ، ومن الجهل ، ومن سوء المنقلب ، يارب قرأنا أسماء الله الحسنى فظننا أن اللبظ هو المقصود ، فأخذ علماء منا يحسبوننا بالجل ، وأخذوا يتلوننا لقضاء الحاجات ، وألف فيها البوني [شمس المعارف الكبرى] كأن هذه الأسماء نزلت من السماء لأجل السحر ، لا لأجل ارتقاء الأمم (وبعبارة أظف) لأجل قضاء الحوائج ، وقرأنا القرآن فاكتفينا بالقشور ، ونبذنا الحقائق ، ونسينا انه يجعل الفضل للتقوى لا للنسب ، فوقنا في ذل وحيرة ، وجهل مشين ، حسب النوع الانساني في عاداته من حيث الملابس والأغذية ، وحسب المسلمون في اعتقادات أذلتهم دهورا ودهورا .

تشابهت الأمم في أحوالها

هاهي ذه الانجليز في الهند اليوم في أثناء كتابة هذه المقالة تذيب الوطينين العذاب لامتناعهم عن شراء الملابس ، لماذا ؟ لأن عمالهم يصنعونها ويبيعونها لهؤلاء ، جهل والله يارب هذا الانسان الجهول ، صنع فريق من الانسان الملابس ، لماذا ؟ ليجعلها ترفا وتنعما لفريق آخر ، يعيش من كد يده ، ييقظ هذا الفريق اليوم ، فقال : أيها الأخ : أنا لا ألبس ، لأن هذه الملابس سجون ، ودل لاعز ، لأن العلم اليوم يحدتنا أن هذه الملابس ليست ضرورية ، فقليلها يعني ، بل تعرض الجسم للشمس يزيد قوة وسنانه فنحن كنا جاهلين ، فيقول الفريق الأول : لابد أن تلبس ، وها أناذا أضربك بقنابلي ، وعسى أن أزيد هذا المقام بيانا في (سورة المتحنة) عند قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة » وأن نبين تحريم شراء البضائع التي يصنعها من يؤذي المسلمين من الدول الحاضرة وأسأل الله التوفيق لذلك .

أفـ هذه الانسانية العمياء ، ومثل هذه الملابس ينطبق على عكوف المسلمين على الدراسة اللفظية ، فاكفوا باللفظ ونسوا المعنى ، نسوا جمال النجوم ، جمال البحار ، جمال الشجر ، جمال الزهر والحقل والغابات .

فليقف المسلم في الحقل ، وليقف في الجبل ، وليقف في ظلام الليل ينظر النجوم ، فليقف وليقف ، فهناك هناك تجلي ، ثم تجلي ، ثم تجلي له معاني هذا الوجود ، يقف أمام عجائب ربه في هذه الدنيا حتى يستعد للقائه بعد الموت ، فهناك تبرزه معاني كتاب الله ، هناك تبرزه معاني أسماء الله الحسنى ، أي يعرف السر في وصفها بأنها حسنى ، وكيف كانت حسنى ؟ وكيف وصفها الله بالحسنى ، لماذا ولماذا ؟ إذن يكون المسلم في فهمه إذ ذاك بعقله مثله كتل جسمي وهو عار مقابل لأضواء الشمس مباشرة ، فتكون صحته أم ، وهتل الحيوانات النرية للمهلكة للانسان ، وتعتدل دورة الدم ، إن مثل المسلم في تلك الأحوال السابقة من حيث العلم والمعرفة كتل جسمي والشمس تشرق عليه .

سيتعلم المسلمون بعدنا من نفس عجائب صنع ربهم ، فيعطهم من العلم ما لا يحصر على حسب استعداد كل امرئ ، وبهذا وحده نزول تلك القويها القديمة ، والرؤساء الخادعون ، والدعاوى الطويلة العريضة ، وتكون الدراسة موجهة للحقائق لا مجرد الألفاظ ، ويخرج النوع الانساني من الغرام بأصنام مشخصة مزينة ومن الغرام بأشخاص خاربة نفوسهم إلا من الابهام والجهل ، ومن الاكتفاء بالكتب المصنفة .

إن الناس يخضعون لما هو جليل ، فأصنام قدماء المصريين ، وعجولهم المنحطة ، وملوكهم ، كل هؤلاء مزبنون خبز زينة ، وعلى منوال هؤلاء في التزيين والتضليل الأمم التي فتتك بغيرها في زماننا الحاضر للفتح والاستعمار ، وقولهم : جئنا لاسعادتكم ، فهؤلاء أصنام خاوية كأصنام قدماء المصريين ، وهكذا أكثر من ادعوا المهدوية في الاسلام ، وكثير من الشيوخ الدجالين ، وعلى شاكلتهم العادات المضروبة في نوع الانسان كالتباهي بالملابس التي بها استعبدت بلادنا المصرية بتدخل الأجنبي .

كل ذلك سيزول من بلاد الاسلام حينما يدرسون نفس الوجود ، ويفهمون الحسن الحقيقي فيه ، ويدركون سر وصف أسماء الله بالحسنى ، فالحسن الذي يجب فهمه لاسعاد الانسانية حسن هذه الأرض ، وهذه السماء ، هذا هو انكشاف الغطاء عن أعين المسلمين ، وقد آن أوانه ، وظل ابانه : من الآن ، من الآن ، من الآن ، فليشر الأذلاء بالعرز .

كل ذلك أيها الأخ حضر في نفسي عند ما جلست في الشمس ، لأنني لم أجد فرقا بين حبس نعمة ضوء

الشمس عن جسمي وبين حبس العلم عن العقل بالوقوف عند الألفاظ ، أو بأوامر رئيس يقول : « العلم حجاب » أو بالاكتفاء بالكتب المصنفة إلى آخر ما تقدم هنا .

هذه هي الخطرات التي خطرت لي أمس وجسمي يتلقى أشعة شمس الشتاء ، وأنا معتقد في ضمن الوقت أن هذه من نعمة العلم ، واني أؤدّي واجبا ، لأن المؤلف اذا لم يعمل بما يكتبه لم يؤثر التأثير المطلوب ، فأنا والحمد لله في مطعمي ومشربي أجدّ في أن أعمل بأقوال الأطباء ، وهكذا وجدت في لساني ميلا إلى التكلم فيما لا يعني فأنا أجدّ بقية حياتي في حفظه بقدر امكاني بعد ما سطرت الكلام على آفات اللسان قريبا ، وليس على أن أنال كل مطلوب في مهما كبرت سني ، ولكن نفس الاجتهاد نعمة كبرى ، وان لم ينل الانسان الغاية . هذه حال الآن أنشرها ذكري لمن بعدنا . فقال : إن هذا حسن ونشره يفيد بعض الأذكياء . فقلت : أنا موقن بذلك ، وعسى أن يزيد هذا المقام كشفا في أول (سورة الحديد) وفي آخر (سورة الحشر) والى هنا تم الكلام على (سورة الحجرات) والحمد لله رب العالمين .

(تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الثاني والعشرون من كتاب « الجواهر » في تفسير القرآن الكريم ، ويليّه الجزء الثالث والعشرون ، وأوله تفسير سورة : ق)



فهرس

الجزء الثاني والعشرين

من كتاب الجواهر في تفسير القرآن الكريم

	صفحة
٢	تفسير ﴿سورة الفتح﴾ مكتوبة مشككة بالحرف الكبير
٤	هذه السورة أربعة أقسام
٥	القسم الأول في تفسير البسطة، وبيان أن رحمة الله عامة وسعت كل شيء، وهي عامة وخاصة، وهذه الأخيرة تختلف باختلاف الأشخاص، ولقد كانت أمينتي في حال صغري أن أقف على الحقائق، ولم أكن لأبالي بالصيت والعلو والعظمة، دخلت (دارالعلوم) ودهشت لما رأيت علومها هي التي كنت أبحث عنها في الحقول من ذلك وطبيعة الخ وقد وصل انهامي لنفسى اننى كنت أظن أن نعمة الانشاء لا أستحقها، وهنا حكاية المرحوم الشيخ محمود العالم، ولما وظفت في الحكومة طالبت نفسى بعهدها وهو نشر العلم، وهنا ألفت كتاباً، وحوادث الدهر تزججني فلم أعبأ بها، ولقد انتشرت الكتب في جميع أقطار الاسلام شرقاً وغرباً، حتى ان شاباً من بلاد التركستان الصينية حضر هذه الأيام وقص قصصه في المحافل العامة، وانه كان في حيرة مثل حيرة المؤلف، فأهذه منها هذه الكتب مثل «نظام العالم والأمم» و«التاج المرصع الخ»، ثم قال انه وصل إلى كابل ببلاد الأفغان فوجد الفكرة هناك منتشرة إن المؤلف هنا عرف رحمة الله الخاصة إذ نال أمينته وهي انتشار الفكرة حتى في بلاد الصين وجميع الشرق الأقصى والأوسط، وهذه هي الرحمة الخاصة التي لم يصل خبرها إلا في تفسير سورة الفتح وهذا عجب وهو يقول: انه ما كان ليخطر له وهو يبحث على شاطئ نهر أبى الأخضر في الصفر انه يشارك مسلمي الصين في تلك الباحث وهو حى .
٨	إن الحسين سنة الماضية كانت ذات صبغة خاصة، فاجتاز الناس أحوالاً قديمة، وارتقوا، ونالوا سعادات بالركبات المختلفة في الأرض وفي الجوّ الخ. إن سعادات الجموع الانسانية ازدادت ولكن الأفراد لم ينلهم شيء من تلك السعادات، فالناس أشبه بقطرات الماء في البحر الملح، هي كثيرة ولكن القطرة فيه نظير القطرة في إناء في منازلنا، ثم تكلم عن الحسين سنة الآتية فقال: إن الناس يستعملون قوة المد والجزر، وضوء الشمس، وحرارة جوف الأرض في مصالحهم، ويستقوم الكهرباء بأعمال مدهشة مع جهلنا بحقيقتها، وسيرى الناس الخطباء في أقطار بعيدة، وبسمعون كلامهم. ويقول عالم آخر: إن هذه الآراء ليست أضغاث أحلام. كلا. سيمتلئ الجوّ بالركبات ولا يكون هناك اصطدام، وستتحول السحاب بواسطة الكهرباء إلى الصحارى والقفار، فينزل عليها المطر فتخرج البركات والخيرات، وسترتقى الجراحة حتى تحسن ما قبح من أشكال الناس، وسيجدد النسل، وربما يولدون الأطفال في المعامل الكيميائية .
١٠	القسم الثاني من السورة، التفسير اللفظي للسورة كلها، من أول السورة إلى قوله تعالى: «فسيؤتيه أجراً عظيماً» .
١٢	القسم الثالث من السورة، تفسير: «سيقول لك المخلفون» إلى قوله: «عذاباً ألجماً»

- ١٣ بيعة الرضوان ، وهي بيعة الشجرة .
- ١٥ لطائف هذا القسم ، وهي أربع لطائف : اللطيفة الأولى في آية : « قل للخلفين من الأعراب » ، هذه الآية أعطتنا قاعدة كالتي يقبها الأطباء وعلماء الأخلاق ، لأنهم يداورون المرض ، والخلق بضد ما هو عليه كالحرارة في مرض بارد الخ .
- ١٦ اللطيفة الثانية : ليس على الأعمى حرج ، وههنا ايضاح الكلام على الاستعداد فليجعل كل امرئ في الأمة في العمل اللائق لمزاجه ومحنه وقوته ، فكل مجاهد على مقدار طاقته ، هذه هي الحقيقة المثلى اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : ولتكون آية للمؤمنين ، ويبان أن الولوع بالعلوم ، والولوع برقى الأمة هما الصفتان اللتان بهما يصل الانسان إلى أعلى سعادة في الدنيا والآخرة ، والله وملائكته يكونون معه ، هذا يؤخذ من هذه الآية : « ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما »
- ١٧ جهاد الفرد وجهاد الجيش : إن جهاد الفرد أشق من جهاد الجيش ، لأن الجندي في الجيش معه نظراؤه ، أما الفرد فهو يعضى في عمله متكلا على ربه ، والمعونة له أكثر من المعونة للفرد في الجيش ، إن نصر النبي ﷺ في الغار أعظم من نصره وهو في غزوة من الغزوات ، تجرب أيها الذكي نصر الله لك وأنت وحيد كما جربت أنا أيام هذا التفسير ، فاعلم أن الله مع المجاهد بنفسه في رقى أمته ، وقد جعل قول النبي صلى الله عليه وسلم : لا تحزن إن الله معنا ، وهو في الغار ضرب مثل لكل عالم اسلامي يحب هذه الأمة الاسلامية ويعمل لها ، وقد أدهش المؤلف سرعة قضاء حوائجه وحل مشكلاته النبوية والعلمية أثناء هذا التفسير ، ومن أعجبها أنه توقف في مسألة تسيير السفن بالكهرباء ، لأنه ليس من علماء هذا الفن ، فحدثه نفسه انه سيطلع عليها حالا ، فاطلع عليها بعد دقائق في مجلة علمية لم يرها من قبل فكتبها في (سورة البقرة) وهو مبتدئ في تفسيرها .
- ١٩ تذكرة في موازنة آيات الأحكام بآيات الأعمال الأخرى ، واذا كان الحنفية والشافعية دققوا في أمر ذبح الهدى ، أهو الحرم أم المكان الذي أحصر فيه المحصر ؟ وذلك في الوسائل فكيف بالمقاصد وهي مانعن فيه من الهداية للصراف المستقيم ، إن الأئمة رضوا الله عنهم دققوا في الوسائل ليعلمونا أن ندقق نحن في المقاصد وهي أعمال القلوب .
- ٢٠ دفع وهم : إياك أيها المسلم أن تظن أنك بمجرد الاسلام لا تحيط بك المصائب . كلا . فهذا وهم بل الانسان يرتقى بما يقاسى من الشدائد ، وما يزاو من الأعمال ، وإياك أيضا أن تقول : اذا كان النبي صلى الله عليه وسلم شفيعا لي فأنا سعيد من غير عمل ، فإن الشهداء والعلماء شفعاء ، ومن كان مصاحبا لواحد من هؤلاء وهو تارك للأعمال فهو خاسر الدنيا والآخرة ، فالشافعون المذكورون محركون للعمل لا يطلون إن الشفاعة قد حرفها جهال المسلمين ، إن الشفيع ليس معلما للكسل .
- اللطيفة الرابعة في معنى : سنة الله الخ وهي تدل على أن الله مع كل مخلص . الكلام على بيعة الرضوان ، وقصة مركز وسهيل بن عمرو ، والمحاورة بين النبي صلى الله عليه وسلم وعلى في عود ذكر الرسالة من الكتاب .
- ٢١ القسم الرابع من السورة . تفسير : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا » إلى آخر السورة .
- ٢٣ المسلمون ضرب الله مثلهم بزرع أخرج شطاء ليجذبهم الكفار ، ولكن المسلم الآن يرى أن بعض المسلمين أشبه بزرع هشيم تذرره الرياح ، فهم الألعيب في يد الفرنجة ، فهذه هو الأمير عبد الكريم يريد أن يحترق صرا كش ، ومولاي يوسف يأمره الفرنسيون أن يذبح منشورا يقول فيه : « إن

عبد الكريم ليس له حق في ذلك ، فهذا موت لاجياة » . تقول : وهذا الموت بعده الحياة وبرتقى المسلمون . اللطائف العامة في السورة وهي أربع لطائف .

٢٤ اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » : كما أن الأرض الطيبة هي التي يخرج نباتها سهلا بلانصب ولا تعب ، وثمرات زرعها تنفع كل ساكن في الأرض ، هكذا القلوب الشريفة كقلبه صلى الله عليه وسلم ، فهو يقبل العلم ويعلم النفوس الضعيفة الجاهلة ، وصفاء نفسه يجعله قابلا للكشف العلمي ، وهو الفتح على الحقيقة ، ويتفرع على هذا الفتح العلمي كل فتح ظاهري كفتح مكة وصلاح الحديبية أراى فتح اسلامي في مشارق الأرض ومغاربها إلى يوم القيامة ، وهذا الفتح يتقدمه صفاء النفس لقبوله ، ويعقبه تمام النعمة ، وانتشار النبوة في الأرض ، وعلو هذا الدين على غيره ، فهذه أربعة أمور هي المذكورة في الآية . آثار الفتح النبوي في زماننا ، وبيان أن المسلمين ملؤا الأرض نورا ؟ ثم رجعوا فانزوا وذلوا ، ولكن جيلنا الحاضر س يرجع المجد على يديه ، ودليلنا ماقاله العالم الأميركي صاحب كتاب « حاضر العالم الاسلامي » الذي يقول : « إن أوروبا في الخمسين سنة الثانية من القرن التاسع عشر قد أخذت تخنق المسلمين خنقا وتحتل ديارهم ، وهذا العمل أحدث رد فعل وبغضا شديدا ، وأخذ المسلمون يقرءون علوم أوروبا ، وحصل التفاعل الشديد ، وليس ارتقاء المسلمين الحديث مجرد محاكاة للغرب . كلا . بل نفس الأمم الاسلامية لها من نفسها آراء وحكمة ، وبهذا وذلك حصل انقلاب في آراء المسلمين بعيد المدى ، من ذلك آراء خير الدين باشا الذي ألف كتابا لاصلاح تونس سنة ١٨٦٠ وانشر ذلك الكتاب ثم مات المؤلف واحتلت فرنسا تونس . قال : وقد أثر كتابه تأثيرا حسنا حتى أصبح كتابا مقدسا عند أهل تونس والجزائر ، وقد جعل محور الكلام فيه على أن العدل والحريية هما أسس تقدم أوروبا . ثم قال صاحب « حاضر العالم الاسلامي » مانعه : « إن سيطرة أوروبا على الشرق مبنية على أساس واهٍ ضعيف ، فليس الغربي محبوبا عند الشرقي ، والاحترام راجع للخوف لا للحب ، وما يدل على ضعف السيطرة الأوروبية في الشرق حادثة الحرب الروسية اليابانية ، فاليابان لما غلبت الروس عرف الشرقيون ضعف أوروبا ، وفرح أهل الشرق جميعا وأيقنوا أن أوروبا خارجة كلها من الشرق ، وساعد على استيقاظ الشرقيين زيادة اعتداء أوروبا اعتداء وحشيا بربريا بجشع ونهم » . وقال أرميدوس : « اعتداء الغرب على الشرق جعل الأخير يزداد اتحادا » .

٣٠ ثم قال مؤلف « حاضر العالم الاسلامي » : « إن الخلافة في صدر الاسلام كانت منيعة الجوانب عظيمة القدر ، وبعد ذلك صارت استبدادية وأخذ المصلحون يحاربونها ليرجعوها إلى الشورى ، ثم ذهبت الحرية الدينية في خبر كان ، ولكن سيرة الخلفاء الراشدين باقية في الأذهان ، والعرب في شبه جزيرتهم هم الذين حافظوا على حريتهم إلى الآن ، وأقوال أبي بكر وعمر في الحريية لاتزال تسمع في كل آن ، إذن ليس الاسلام سبب تضعف المسلمين . كلا . بل السبب كل السبب هو استبداد الأمراء وتأويل الآيات القرآنية بما يوافق أهواءهم ، فنبذوا الحريية والشورى » .

٣١ « إن اليقظة الاسلامية اليوم تشمل الاصلاح الديني والسياسي لتخلص المسلمين من أمراهم الظلمة ، ولكن جاء تيار نظم أوروبا فوقف في وجه هؤلاء المصلحين وساعد الظلمة من ملوك المسلمين على اذلالهم وهذا زاد بغض المسلمين لأوروبا ، إن بعض المسلمين كمحمد علي باشا بمصر والسلطان العثماني محمود الثاني في تركيا أرادا ارتقاء بلادهم ، ولكنهم أبقوا السلطة في أيديهم فأسلحوا الطواغر ولم يبنوا على

الأساس ، فإن رجال الدولة ملزمون بالطاعة العمياء ، وهناك أحزاب قامت حرة أحسن من سابقهم ، اقتبست آراء أوروبا بمطالمة المجلات ونحوها كالحركة الفكرية في تركيا في آخر القرن التاسع عشر ، فأثمرت ثمرا يافعا ، ولكن الإصلاح الظاهري لأولئك الملوك المستبدين لم يفعل شيئا .

٣٣ مسامرة النجوم ، في عجائب العلوم : بعد ما كتب المؤلف ما تقدم تبدي له شخص خيالي أخذ يتحدث ويقول له : أنت مثل الآيات السابقة بشجرة لها أغصان ، فأصلها هو كشف العلوم ، وأغصانها ثلاثة : صفاء النفس المعبر عنه بالمغفرة والهداية والنصر ، فهنا قوة جسمية يشير بها النصر ، وقوة أدبية تشير لها الهداية ، وكشف نفسى تشير له المغفرة . ثم قال الخيال : أنا جئت لك من التريا ، لأنك دائما تنظر في النجوم لأنهم لك مقصود الآية ، ولا بد من تطبيقها على الأمم الحاضرة وعلى الأمم الإسلامية السابقة ، أما التطبيق الأول فهو أن ملخص تعاليم أوروبا يرجع إلى ما سيأتى ، إن التعليم له دعائم ثلاث : دعامة الأدب ، ودعامة الجسم ، ودعامة العقل . فاذا علمنا الصبي صناعة أو علما ولم نعلمه طهارة الضمير فإنا نكون قد أعطيناه سلاحا به يضر مجتمعا ، وإذا برع في العلوم وكان مهذبا ولكننا لم تقو جسمه فلانفع فيه ، فالقوة البدنية يشار لها بالنصر في الآية ، والقوة العلمية يشار لها بانكشاف الحقائق وهي الفتح ، والقوة الأدبية يشار لها بالهداية . أما التطبيق الثاني فهو ما ذكره ابن خلدون عن أحوال الأمم السابقة ، ذلك أن الأمة إذا تقلص الدين منها ذهبت ورااه الشفقة والحنان فالعدل فزوال الملك ، فهنا أصل هو الدين وفروعه تبع له ، والسياسة نتيجة ذلك كله ، فزوال الدين مبدأ ، فالأخلاق فسياسة الدولة ، فالدين ومعه العلم هو القوة العلمية ، والرحمة ومعها الأدب هي القوة الأدبية فأما القوة الجسمية فلها شأن آخر مذكور هناك في ﴿ سورة النمل ﴾ مثل الحديث المفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يخاف علينا إلا من كثرة الفئام والترف والمفيد أيضا تصرح النبوة بأن المسلمين سيفرقون في الترف وهو شر لهم ، وذلك هو ضعف الأبدان المنافي للنصر ، إذن المعاني المذكورة في هذه الآية طبقت على الأمم الحاضرة تعلما وعلى الأمم السابقة اضمحللا ، أليس هذا من معجزات القرآن ؟ ﴿ تذكرة ﴾ إن حركات الصلاة ، وأعمال الحج ، وكذا الصوم كلها مقويات للأبدان ، وهذه إحدى الدعائم ، وبقى العلم والأدب وهما واضحا في أقوال الصلاة ، ويلحق بما تقدم في تقوية الجسم السبق والرمي ، وهما متروكان في الإسلام الآن .

٣٥ مسامرتان فيهما ذكر فتاة ألمانية تزوجت مصريا ، فلما رأت أباه وأمه يصليان دهشت وأسلمت ، لأنها عرفت قيمة هذه الحركات ، وسيدة أخرى رأت تاجرا في المرح يتوضأ ويصلى ، وقد أخبرها بأن هذا يتكرر خمس مرات في اليوم . فقالت : إذن لا أحد منكم يمرض .

٣٦ نظرة المؤلف في أمم الإسلام المستقبلية . يقول : إن أمم الإسلام المستقبلية ستكون صلاتهم غير صلاة المسلمين الحاليين ، لأنهم سيقومون مثل هذا ويعرفون سر هذه الأعمال فتكون صلاتهم بعلم فيرون في الصلاة صحة كما تقدم ، وهداية للأخلاق في : « اهدنا الصراط » الخ وتحريضا على العلم في نحو : « الحمد لله رب العالمين » .

وهنا مسامرة ثالثة لازدياد شرح أن الفتح هو الفتح العلمي ، وذلك أن السيد أحمد خان مؤسس جامعة عليكرة قدم الفتح العلمي كما في الآية على الفتح العملي . ذلك أن المسلمين كانوا يحكم الهند ولما دخل الانجليز الهند انتشر العلم فيها وغض الطرف عنه المسلمون وحقوقه فزال ملكهم في القرن الثامن عشر ، وكلما ناروا صودروا في أنفسهم وأمواهم ، والهندوس هم الذين كانوا يتعلمون ، فرأى

السيد أحمد خان أن التعليم مطلوب ، فأسس المدرسة المذكورة وذلك سنة ١٨٥٦ م وجعل لغتها الإنجليزية لأن الأوردية لا تصلح لذلك ، ورضى بالانتقاد الشديد على اختياره اللغة الإنجليزية ، ولكن المعارضون فيها بعد سيعلمون أنه محق ، فالمدار على الغاية لاعلى المبدأ ، وجعل المدرسة أولا في أكواخ والمال قليل ، وانتفع بمواهب علماء أوروبا مثل علماء جامعتي كبريدج وأكسفورد ، وكان معه ابنه السيد محمود حين زار تلك الجامعات ، وجعل المدار على الخلق والتربية الشخصية ، فلم يجد مفرا من جعل اللاميد يتعلمون تعليما داخليا ليتمّ تقويمهم ، وهكذا جعل فيها التمارين الرياضية ، إذ أن قامت الكلية بالتربية البدنية والخلقية والعلمية وهي الأركان الثلاثة المتقدمة في الآيات جسمية وخلقية وعلمية بد تعمل ، وقلب يجب ، وعقل يفكر ، لولا كلية «عليكركه» لم يكن للمسلمين صوت الآن ، لولاها لكانوا الآن خداما وعبيدا ، وقد قالت الصحف الفرنسية عن مؤسس الكلية : انه نبي التربية ، وتوفى سنة ١٨٩٨ وقد أنشأها لتنتشر الثقافة منها في العالم الاسلامي كله . إن كلية (عليكركه) تحتاج إلى ٦٠٠ ألف جنيه ، وقد وصلت الآن إلى ٢٠٠ ألف جنيه بتدبير السيد أحمد خان ابن السيد محمود ، ثم قال الخطيب : ليرحل المسلم المصري فليتعلم فيها ، لأن تعليمها لا نظير له ، والأزهر لم يصل إليه الآن .

٤٢ اللطيفة الثانية في قوله تعالى : هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين الخ ان عصر الصحابة كانت السكينة فيه بأنوار النبوة ، أما عصرنا فالعامة وصغار العلماء يطمثون بما يرون من أن المسلمين مع ضعفهم وانتشارهم في الأرض محفوظون ، فأما الحكماء فانهم يزيدهم سكينة فوق ذلك ما يعرفون من عجائب الصناعة الإلهية . (مسامرة) جاء فيها أن علماء الدين في زماننا كعلماء الطب ، فكأن عالم الدين اكتفى بتعليم العامة الوضوء والصلاة وما شابهها من الامور العلمية ، ولم يذكرهم بحمال هذا العالم وعجائبه ، هكذا عالم الطب لا يعنى إلا بالمداواة ، أما حفظ الصحة المقابل لمعرفة عجائب العالم فهو متروك عنده ، فهذه أم تعيش كما يعيش الخمل ، عمل ولا علم ، إن دين الاسلام علم وعمل ، فليدرس المسلم الدنيا فانه أولا يراها غابة مملوءة من الشرور ، ولكن بعد التروى يرى هذه الشرور مفتاح النعيم ، ومستحيل أن يحقق هذا غير كبار المفكرين ، مثال ذلك ماستراه من السمايل التي ما هي إلا قلاع تحتها الجرائم القتالة للأعداء الداخلة في الجسم من الذرات المهلكة من الخارج ، فالسمايل أمراض ولكنها جعلت نعمة لتخليص الجسم من الأذى ، إن الأسد جندي لاحداث الحياة لشبهه ولاحداث الهلاك لفريسته فهذا مثال واحد عرفنا جنود الله المهلكة ، والجنود المعدّات لاحداث الحياة .

٤٤ كما أن جسم الانسان يهلك بالعفونات ولكن أمثال السمايل والحي تخلصه ، هكذا الأمة اذا فسدت يسلط الله عليها الأعداء ، فهؤلاء الأعداء كالسمايل ظاهرهم ضرر وباطنهم نفع . خطاب المؤلف لأمة الاسلام يقول : إن الله وعدنا أنه برينا الآيات في الأنفس والآفاق وقد أنجز وعده ، في زماننا لأننا عرفنا مامعنى منتقم وجبار ، فاذا كان منتقما بأمثال الحي والسمايل وحلول الأعداء الديار فهو انتقام ظاهرا رجة باطنا . وهذا كرم المؤلف أن طبيبا مصرية مشهورا يداوى الناس ولكنه هو ترك نفسه فلم يبال بصحتها ، فالمؤلف نصحه بأن يقلع عن ذلك ، فليحافظ على صحته ، فسمع النصيحة وانتفع ، وهذه الحادثة تنطبق على حال المسلمين ، فهم بالفقه مولعون وغفلوا عن ترقية العقول كما قد يفعل الطبيب عن صحة جسمه وهو مكب على مداواة الناس . هذا بيان أنواع الجنود ، هي حسية ومعنوية ، وكل منهما إما للاهلاك واما لاحداث الحياة .

اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « ولة جنود السموات والأرض وكان الله عليا حكما » . إن هذه الجنود واضحة في أجسام الناس التي تراها مشاكلة لنظام الأمم مشاكلة تامة ، وبيانه أن جسم الانسان أشبه بمملكة ، وهذه المملكة يحيط بها الأعداء من كل جانب ، ويمكن دخولها إما من الفم وإما من الجلد كما يدخل العدو المملكة من الباب أو من السور ، فإذا دخلت الميكروبات وهي الحيوانات النثرية المهلكة من الفم تلقنها الجيوش التي في المعدة فأهلكتها ، فإذا نجت منها تلقنها جنود أخرى في الامعاء وأيضا لتجد لها الاكسوجين فتموت ، فأما اذا دخلت هذه الجنود المهلكة من الجلد فإن الجنود المدافعة وهي الكرات البيضاء والليمفاوية تقاثلها ، وتكون هناك معركة دموية بسببها تجندل جنود من الأعداء وجنود من المدافعين وخلايا من الجسم ، فتصبح هذه مادة القيح ، ثم تقوم جيوش الجسم بترقيق جلد الورم كالمهل مثلا ، فبني انفتح أعقب ذلك أنها تجفف الجرح وتصلح الجسم من جديد ، وقد اعتاد العاقبة في مصر أن يسموا ما يرى تحت الابط من ورم « حبلا » أي قوة للجرح الحاصل في اليد مثلا ، وهذا القول عجيب لأن علم الطب الآن أثبت أن هذه نكتة لجنود الجسم تلبأ فيها ، لتغيب الجسم من الأعداء الداخليين . ومن عجب أن الانسان اذا أهمل الرياضة البدنية والاستحمام بالماء الحار والبخار والتعرض لضوء الشمس وتغفنت الأغذية المقرامة في الجسم فانه يفسد لولا أن الله يسلط على تلك العفونات فيه الحمى ، تلك الحمى التي تذيب تلك العفونات بدل الشمس وأنواع الحرارة المتقدمة ذكرها . إذن ظهر من العلم اليوم أن جميع هذه الامراض نعم لاقم ، وظهر أن هذه المخلوقات جنود الله لافرق بينها وبين جنود الأمم المعلومة في كل زمان .

- ٤٨ إيضاح مختصر لجنود الله في الأرض ، الدم سائل لالون له ، خذ قطرة دم صغيرة بحيث تكون جزءا من عشرين ألف جزء من البوصة فانك تجد فيها ٩ آلاف من الخلايا البيضاء ، وخسة ملايين من الخلايا الحمراء ، ونفس هذا الجزء مثل سنق الابرة ، ووظيفة الخلايا الحمراء أولا أنها تلوّن الدم ثانيا أنها تحمل الاكسوجين فتوصله إلى خلايا الجسم ، ثالثا أنها تأخذ البقايا المتخلفة في الجسم فتعطيها إلى الهواء فتخرج معه وهي المادة الكربونية ، ووظيفة الخلايا البيضاء انها تحارب الأعداء ، فهي جيوش مقاتلة مدافعة ، فهي تصطف صفوفاً وتحترق أجسام الجيوش الداخلة وتكتم أفضاسها فتموت .
- ٤٩ المعركة اليومية في الجسم البشري ، الوقاية الطبيعية للجسم ، المناعة ، الميكروب وقوة أمراضه ، العداء بين الجسم والميكروب ، الميكروب في داخل الجسم ، الخلايا البالغة ، الحرب بين الميكروب والخلايا ، الوقاية النوعية ، العدوى والمرض .
- ٥٠ المناعة ، الميكروب وقوة أمراضه .
- ٥١ العداوة بين الجسم والميكروب ، الميكروب في داخل الجسم .
- ٥٢ الخلايا البالغة .
- ٥٣ الحرب بين الميكروب والخلايا .
- ٥٥ صورة توضح حركة الأهداب التوجيهية وشكل البلعمات عند خروجها من الأوعية الشعرية ، وتبين الغدد والمجارى الليمفاوية ، وكيفية اجتماع الميكروبات بطرق خاصة .
- ٥٦ صورة تعرف كيف تتمدد الأوعية وتنقل البلعمات إلى المنطقة المطلوبة ، ويان شكل الاميبا ويان الخلايا الهدبية المبطنة للقصبه الهوائية .
- ٥٨ صور تبين اتجاه البلعمات نحو الجلد لهضمه ، وتبين خروج البلعمات إلى ميدان القتال ، وتبين محاصرة

- البلعمات للميكروبات .
- ٥٩ وفيه أشكال تبين إبادة الميكروبات بلوالمهلنكة ، وكيف تأكل البلعمات الميكروبات ، وكيف تخرج البلعمات من الأوعية الشعرية .
- ٦٠ الوقاية النوعية . خلاصة ماتقدم .
- ٦١ فصل في جنود الإحياء وجنود الاماتة ، أوالظلمة والنور ، وبيان أنها تسعة أنواع بجنود الكهرباء السالبة والموجبة ، والجوامد والسوائل والغازات والميكروب وبسميه وهكذا .
- ٦٢ خطاب الله عزوجل للعالم ، اطاعة الكهرباء والأنوار لربها ، خطاب الله للأنوار أن تكون أسرع فتكون منها الغازات والسوائل والجامدات .
- ٦٣ ههنا نحو عشرين نوعا من خطاب الله لهذه المخلوقات كخطابه للنترات أن تفتت المواد لغذاء النبات ، وللنترات التي في المواد المتفطنة وللآساد والجراد والنمل والعنكبوت وبنى آدم ، وكقوله : قم ياشرق وتم ياغرب ، وللمسلمين اليوم أن اتحدوا ، وللعلماء منهم أن ينصحوهم .
- ٦٤ تفنن في صورالمادة وتفنن في صورالألفاظ وبيان هذا المقام أن ههنا شمبا وكواكب تتردد في المنازل طالعة غاربة فتحدث عنها صورشتى من حيوان ونبات وهجائب لاصصرطها ، وههنا نظيرذلك في الانسان هواء يتردد في المخارج فيحدث به صوت فتكون حروف وتلك الحروف تعطى صورامعنوية تعرفها النفس وهي صورجميع المخلوقات المتقدمة ، وهكذا هناك حركات في الذهن تعطى صورامكينة هي العلوم والمعارف ، إذن ههنا شمس وكواكب تجرى فتحدث صوراهواء يعطى صورافى النفوس بألفاظ وأفكارفى العقل تفعل كذلك ، فالجنود إما من صورتحديثها الكواكب ، وإما من ألفاظ يحدثها الهواء فى القم ، وإما من نفس العقل .
- ٦٥ وجنود العلم اليوم فى بلادالاسلام تطرد عدوين : المخرافات والأم الاوروية أى المجرمة منها ثم ان الجنود النورية حسية وعقلية ، والقسم الثانى أحق باسم الجنود ، ومقدمة إضاح هذا القسم الثانى مايتأتى : ان الناس ضيوف عند ربهم ، وهذه الضيافة لها مثل وهوان (ماربه) بنت عفر من بنات ملوك اليمن خطبها ثلاثة من خول الشعراء ، وقدموا لها هدايا ، وأسمعوها شعرا ، فكان أشعروا كرم الثلاثة إنما هو حاتم المشهور بالبكرم ، وهذه الحكاية قصصتها على الفلاحين فأذكرتنى أن الأم ضيوف عندربهم ، نظرت النخيل ليلا والكواكب فتذكرت أن الناس يمدحون من يقدم لهم طعاما ويضىء لهم سراجا ، والله قسم للناس الكواكب والشموس وجميع ما فى الأرض ، فهم يفهمون النعم القليلة ولايفهمون النعم العكثيرة فى السموات والأرض ، فهم ينسون الكثير ويفهمون القليل . الجنود صنفان ولاحصر لأفرادها . الجنود المعنوية العقلية .
- ٧١ جنود العقول الانسانية والحيوانية . الاستدلال بالعقول الارضية الجزئية على العقول الكاية السهاوية
- ٧٢ النتيجة صادقة لمقدمات محسوسة . نتيجة هذا القول تفسير آية : « والله جنود السموات والأرض » وآيات كثيرة .
- ٧٣ ههنا عقول انسانية تستخرج سراجا تنتفع به ، وهذا السراج إن هو إلامن البترول أوالفحم أوالشمع أوالكهرباء أوغيرها ، وهل كل ما فى الأرض إلا مشتق من الشمس ، إذن الضياء الارضى مشتق من الضياء السهاوى فليكن العقل الارضى مشتقا من عقل كلئى وهو الذى صنع الشموس والكواكب كما صنعنا نحن أضواءنا فى الأرض فى قناديلنا ، وماذاك العقل الكلى إلا ملك وما أكثرالملائكة وما أكثر

النجوم والشموس .

٧٤ ملخص ماتقدم في ستة جل ، غامدى يصف رحلته في المياه المصرية ، وهذا المقال مناسب لهذا المقال من حيث انه ذكر الشدة واللين ، والحب والخوف ، وقال : إن اللين ينفع في كل حال ، وأن من استعمل اللين لا يكون عمله شريفاً إلا إذا كان قويا لا يتخاف ، والمحبة لا تجتمع مع الخوف ، المحبة لا تنبأى عند ما تعطى : المحبة تكافح العالم ثم تفوز وتفوز ، إن المحبة في الانسان أقوى من الكهر باء في الطبيعة من يكشف المحبة العائمة أقوى عن يكشف الكهر باء ، ولا جرم أن الشدة واللين والحب والخوف من جنود الله المعنوية في هذا المقام ، وههنا مقال ضاف يشرح : —

(١) معنى أن الحياة مطردة الوجدان مع انها محوطة بعوامل الهدم والهلاك ، وذلك أن الهدم ماهو إلا اصلاح لما فسد وارجاعه بحال أنفع للوجود من الحال السابقة ، إذن هذا العالم محوط بالحب ، وما الهدم إلا عملية لبقاء ذلك المحبوب بعد هدمه .

(٢) وما معنى أن الحب له السيادة في العالم والعالم كله شقاء ، وأن ذلك الشقاء والنل ماهو إلا تربية وترقية للأرواح في الارض فما يظهره ضد الحب هو للحب .

(٣) ثم ما معنى أن ناموس المحبة يعطى سلاحا وطمأنينة ويفسر خفايا الطبيعة وهذا مفهوم مناسب اللطيفة الرابعة في قوله تعالى : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله الخ » ٨٠ وفيها أربع جواهر : الجوهرة الأولى في آية : « ليظهره على الدين كله » وفيه مقال (لوثروب استودارد) الامريكى تكلم عن الرسالة المحمدية إذ قام بشرها في زماننا هذا السياح والتجار والحجاج وغيرهم كالطرق الدينية وأعمها جماعة السنوسية الذين يدخلون الوثنيين في الديانة الاسلامية في افريقية ، وقد قال أحد الانجليز : « إن الاسلام يفوز فوزا عظيما في أواسط افريقيا ونوره ينسخ ظلام الوثنية ، والنصرانية أصبحت خرافة » . وقال مبشر بروستنتى : « إن الاسلام يسير سيرا حثيثا لم يقف إلى اليوم ، النصارى يحلمون بفتح افريقيا في نومهم والاسلام فتحها في اليقظة ، عرب زنجبار من سنة ١٩٠٠ بشروا بالاسلام بلاد (نياسلاند) فأصبح بعد سنين معدودة في كل قرية مسجد ومدرسة والانجليز لم يقدروا على صد هذه الدعوة ، وسيجتاز الاسلام زمبارى و يطبق جنوب افريقيا والقارة كلها ، والاسلام ينسخ النصرانية كما ينسخ الوثنية ، فالذين تنصروا أيضا يسلمون ، بل النصرانية في الحبشة ينسخها الاسلام في هذا الزمان ، بل ظفر الاسلام في الحبشة أعظم ظفر للاسلام ، والمسلمون المرتدون قهرا في روسيا رجعوا إلى الاسلام .

٨٢ السلام على آية أشداء على الكفار ، وأن هذه الشدة أحست بها أوروبا في زماننا ، فقد جاء في مقالة عنوانها « أوروبا وآسيا » أن انكلترا وان خرجت ظافرة من الحرب الكبرى كان هذا الظفر خيبة لها فقد ثار عليها الأفغان والهند ومصر ، ثم ان تركيا المضمحلة نهضت وطردت انكلترا وحلفاءها ، والصين تطلب البلاد المنسلخة منها (وبعبارة أخرى) آسياتأمة اليوم ضد أوروبا وقد أصبحت روسيا معاونة لأهل آسيا بعد الحرب وقد كانت معادية لهم قبلها ، وأيضا يقول : ان انكلترا استفادت من بغض روسيا لأهل آسيا ، فكانت روسيا ترهب الصين والبرلة العثمانية ، وانكلترا كانت تأخذ ثمرات ذلك ، فاحتلت ما أرادت احتلاله ، وإيطاليا أخذت طرابلس ، وفرنسا أخذت الجزائر وهكذا ، فلما أصبحت الروس بلشفية نفس الشرق الصعداء وأصبح أمام انكلترا ومن معها وجهها لوجه تحفز المسلمين لتلك الشدة المذكورة في الآية ، و بيان الذى أوقد نار تلك الشدة وهو السيد جمال الدين ٨٣

الأفغاني ، وقد حبس معه رجل اسمه « رضا آقا خان » في قزوين ، ولما جاء رجال الدين إلى الاستانة زاره رضا آقا خان المذكور وأوصاه جمال الدين أن يقتل سلطان الفرس ناصر الدين فقتله ففرح جمال الدين وهذه أغضب سلطان تركيا عليه وهو عبد الحميد ، فعزل الخديفة في قتله ، فقتله بحجة السرطان في لسانه تعاليم جمال الدين معروفة قوية ، ولم يخفه أحد من أهل أوروبا مثل ما خافته بريطانيا ، سجنته في الهند ثم أطلتته جفا إلى مصر ، وله يد في الثورة العراقية ولما دخل الانجليز نفوه ، ثم وصل القسطنطينية فساعدته السلطان على الجامعة الاسلامية .

٨٥ شدة المسلمين على الكفار في زماننا ، واغارة ايطاليا على طرابلس ، وتآلب الدول البلقانية على تركيا نظرت جميع أملاكها ، ثم اتفقت انكلترا والروسيا على خنق الثورة الفارسية ، وعصفت فرنسا على مهاكش ، فضرب المسلمون غضبا شديدا ، وهذه العداوات جعلت المسلمين يحبون الوثنيين في الشرق الأقصى ، وفرحوا بانتصار اليابان على روسيا فرحا شديدا ، وأحبوا أن تدخل اليابان دين الاسلام ، وأوفد السلطان وفدا إلى اليابان .

٨٨ إن أوروبا نفسها بافغارها صدور المسلمين جمعت كلمتهم .

٨٩ الفصل الرابع في الكلام على الجامعة الاسلامية ، وأن ساسة أوروبا يشهدون أن الجامعة الاسلامية اليوم أشد منها في كل زمان ، وليس نداء السلطان عبد الحميد للمسلمين بالجهاد شرعيا حتى يتخذ دليلا على وهن تلك الجامعة .

٩٠ بيان أن الصحافة الاسلامية اليوم منتشرة انتشارا عظيما ، وقد أيقظت المسلمين هي وغيرها ايقاظا عظيما

٩١ في سنة ١٩٠٠ لم يكن في العالم الاسلامي أكثر من مائتي صحيفة للدعوة فبلغ هذا العدد سنة ١٩٠٦ خمسمائة صحيفة ، وزاد سنة ١٩١٤ على ألف صحيفة ، وازداد التواصل أشعل تلك الحركات .

٩٢ يقول عالم فرنسي : « إن المسلمين لا يعتبرونا مالمدين في بلادهم » .

٩٣ نور على نور وفيه انتشار الاسلام في أوروبا وأمريكا في زماننا ، وكيف أسلم الاستاذ محمد أفندي عز الدين (لوماكس الأمريكاني) وهما هي رسالته في ذلك ، يقول : « الاسلام في جوهره قوة وقدره الخ » .

٩٤ متى وكيف اتصل الاسلام بقلبي وهداني سواء السبيل ، وهما ذكر خمسة أصول اسلامية كالشهادتين والصلاة والصوم الخ .

٩٦ وهكذا الحاج ناصر الدين دينة المستشرق الفرنسي المصور المشهور ومعه الاستاذ راشد بك رسم ، وقد ألفت الأول رسالة عربيها الثاني اسمها « أشعة خاصة بنور الاسلام » وفيها أن قوة الحياة كامنة في اللغة العربية والعقيدة الاسلامية ، وأن أوروبا مصرة على عداوة الاسلام والمسلمين ، وقد قل عن القس (زويمر) أن خمسين مليوناً من السودان وقبيلة هادسا الكبيرة وقبائل بلاد النيجر والشاطي الذهبي أسلم الكثيرون منهم ، بل الاسلام سيعمهم جميعا ، وفي البنغال بالهند أسلم أكثر من عشرة ملايين ، وكذلك برمانيا بجوارها زاد عدد المسلمين على الثلث في عشر سنوات ، وفي أنحاء أوروبا وأمريكا أسلم كثيرون .

٩٨ شرح عداوة أوروبا للاسلام : وكراهية الاسلام تحت ستار العلم

٩٩ الجوهرة الثانية في آية : « رجاء بينهم » مع آية : « إنما المؤمنون اخوة » في ﴿ سورة الحجرات ﴾ وفي هذه الجوهرة ملخص المقدمة التي كتبها مؤلف « حاضر العالم الاسلامي » .

١٠٠ نشوء الاسلام وارتقاؤه وانحطاطه ، وهما أعجب المؤلف بدين الاسلام بحجابا شديدا ، إذ ذلك سلطان

الروم والفرس الخ ارتقى الاسلام ارتقاء مدهشا في زمن الخلفاء الراشدين وفي العصور الأولى ، ثم أخذ يتبدل شيئا فشيئا ، وأول التبدل في أوائل القرن العاشر ، وههنا مزق هذه الهولة الاحسن والضعفان بسبب جعل الخلافة ملكا عضوا لاشورية ، فرجعت العصبية كرة أخرى ، وهنالك تفككت أجزاء تلك الأمة الاسلامية ، فكان للعباسيين دولة في بغداد ، وللأمويين في الأندلس ، وللفاطميين في مصر ودخل الفرس أولا والترك ثانيا في أمور الدولة ، فزقت الدولة كل ممزق ، وفي القرن الحادى عشر المسيحي بحيث معالم الحضارة الاسلامية .

١٠٦ دخول الترك في الاسلام سراعا لم يدمت أخلاقهم ، ولما حكموا أم الاسلام لم يكونوا رجاء بالنصارى الذين يحجون إلى بيت المقدس كما كان العرب من قبلهم فآذوهم فتعصبت أوروبا ، فكان ذلك سببا للحروب الصليبية ، فالترك هم السبب في تعصب أوروبا للنصرانية ضد المسلمين .

١٠٨ خضع المسلمون العرب للترك ، ثم جاء جنكيزخان وخلفاؤه فأهلك العالم الاسلامى وقطع سدود العراق فأصبحت البلاد مراعى للماشية بعد أن كانت مزارع عامرة إلى آخره .

١١٠ الترك العثمانيون هجموا على أوروبا ووصلوا إلى فينا ، ولكن أوروبا بردتهم ، ومن ذلك الوقت أحست بأنها قوية ، وقوتها الأموال الأمريكية الجديدة ، ونام الاسلام قرونا إلى القرن التاسع عشر ، وقد اقتسمت أوروبا أقطاره ، ولكن الآن هب الاسلام من نومه ، وابتدأ يأخذ دوره .

١١٢ الفصل الثانى فى آية : « رجاء بينهم » وبيان أن انكثرا وفرنسا كانتا تجهلان حال العالم الاسلامى أيام الحرب الكبرى ، ولكن ايطاليا كانت تعرف الحقيقة .

١١٤ ذكر مايقوله ساسة أوروبا وعلمائها من أن الاسلام دين الحرية ، وأن المسلمين أول الأمم فى الحرية من أى صنف كانوا .

١١٥ الفصل الثالث فى أن أوروبا شورية فى بلادها مستبدة فى غير بلادها ، وأهل الشرق والمسلمون لا بد فائزون من كتاب « حاضر العالم الاسلامى » .

١١٦ الفصل الرابع فى هياج العالم الاسلامى .

١١٧ معجزة جديدة لم تعرف من قبل وهى توضح حديث : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » الويل لأوروبا اذا جهلت : من كلام المؤلف الأمريكى المذكور .

١٢٣ مؤلف هذذا الكتاب يقول : « إن المسلمين اليوم أرقى منهم أيام الامام الغزالى مبرهنا بما يقرهون من كلامه الفلسفى » .

١٢٤ فصل فى ذكر مثال واحد لرجة المسلمين لقبأم الاسلام من رجال العصور المتأخرة ألاوهو السيد الأجل الذى كان حاكما فى مدينة (بنان) من بلاد الصين بأمر ملكها ، وقد أقام العدل ، ونظم الجند ، وحفر الترع ، وأقام الجسور ، وحزنت الأمة كلها عليه لمسات ، وبفت له المعابد ، وأبقت اسمه مذكورا فى الكتب على مدى الأجيال إلى الآن .

١٢٦ الجوهرة الثالثة فى آية : « تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا » .

١٢٧ الصلاة فى نظر المهاتماغاندى ، وأنه يرى أنه كلما زاد اعتقاد الناس فى الله زادت رغبتهم فى الصلاة وأن أول حياته إلحاد ثم جاءه نور من الله ، الصلاة للروح ألزم من الغذاء للجسم ، ولاجبة للصلاة وهناك حبة للأكل ، بوذا وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يسعدوا إلا بالصلاة ، لافلسفة عندى ولكن عندى الصلاة .

١٢٨ فضل الله على الناس : يعتقد المؤلف أن عذاب الناس في الأرض لم يقصد به التعذيب وهم محبسون فيها ويجب كيف يكون السجن بستانا وفيه أعمال لتهديب المسجونين ، ولقد أهدم الله أهل أسبارته أن يمرتوا الاطفال على قبول التعذيب ، وأهدم السودانيين الرضاء بالتعذيب أمام العانيات .

١٢٩ الجوهرة الرابعة في آية : كزرع أخرج شطأه الخ . يذكر المؤلف أن الله صدق وعده وأن هذا زمن ظهور المعجزات وبشكر ربه على ذلك ، لأنه ذكر في أوائل هذا التفسير أن الفرنسيين انقضوا على سوريا ففتكوا بها ، وذكر في آية : « ألم ترى إلى الذين أتوا نصيبا » الخ أن اليهود اتمكوا على شفاعة آبائهم غلب ظنهم ، وأخرجوا من ديارهم ، وذلك جعل لرقينا نحن وانه اعتبارنا لاغير ، وأن هذا سر (ال م) الخ . يقول المؤلف هذا تقدم ، وهل كان يخطر لي أنني لايتم طبي للتفسير حتى أرى أن العراق قد صارت مستقلة ، وأن سوريا يستقل حالا ، وأن ذلك سيكون فاتحة دور جديد في الشرق الأدنى ، وأن أوروبا خاب ظنها .

١٣١ الفتح الاسلامي في زماننا وآثار النبوة المحمدية ، ثم زادت دهشة المؤلف من حضور شاب تركستاني من بلاد التركستان الصينية وقد أخبر الناس بمصر وفي الجرائد أن هذه الكتب كانت سبب فتح مدارس في بلاد التركستان والصين وغيرها ، وأن هذه الأمم اقلب نظامها رأسا على عقب ، ومعنى هذا أن الاسلام انتشر انتشارا غربيا مدهشا ، وهذه كلها آثار : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » .

١٣٢ المؤلف يتخيل شبانا يأتون من التركستان والصين في المراكب الهوائية يزورون أهل شمال افريقيا ويرد هؤلاء الزيارة لهم ، ويجب المؤلف أيضا من أن يكون هذا الزمان قد ظهر فيه مؤتمر اسلامي لم يكن له نظير ، وفيه ثمان لجان لحفظ كيان الأمم الاسلامية .

١٣٤ ﴿ سورة الحجرات ﴾ نص الآيات مشككة .

١٣٥ القسم الأول من السورة تفسير البسطة ، وأن عادة الشعراء أن يبدوا بالفضل ثم ينتقلوا للذم ، ولكن براعة استهلال القرآن جاءت بذكر الرحمة والرجة . شروحة في ﴿ سورة الرحمن ﴾ والرجة في ﴿ سورة الفتح ﴾ أصولها انكشاف الحقائق ثم فتح البلدان ، والرجة في هذه السورة عملية وهي الفضائل التي تبلغ ١٢ كالآدب مع النبي صلى الله عليه وسلم والعمل الصالح واجتناب التجسس الخ وههنا مبحث واسع ، ماخصه أن مقتضى الرحمة أن لا يكون نقص في الانسانية حتى يحتاج الانسان في دفعه إلى الزواجر القرآنية ، وأجاب المؤلف على ذلك بأن هذا العالم كله ليس شيئا مذكورا ، وهل هو إلا حركات وتلك الحركات صارت أضواء ان كانت أقل وسجرا وحديدا وأرضا الخ ان كانت كثيرة ، إذن هذه الدنيا كلها وكواكبها كهر باه مضغوطة ، إذن هذا عالم أشبه بالعدم ، وما أشبه بالعدم فهو ناقص ، والله موجود ، وهو يريد أن يخلق روحا يكملها ، ووسيلة كلها أن تتفاعل تفاعل الكهر باه السالبة والموجبة حتى يكون لها وجود مستقل ، وأشبهه مستقل ، ومن تمام التفاعل العلم والحكمة والأنبياء والعلما وهكذا .

١٣٨ جمال في جمال : خيال المؤلف يرى أن العالم موسيقي ، ويبين ذلك بأن المادة راجعة فعلا إلى أنوار كهر بائية ، وهذه الأنوار فيها حركات وأنوار ، فالحركات موسيقي والأنوار جمال ، وضروب القسمين لاحد لأفرادها ، فلو تجملت لنا العوالم على هيئتها الأصلية لفترقت أرواحنا من جمال الصور المشبكة الألوان وسماع الأغاني المدهشة ، فمن رحمة الله أن حجب هذا كله بالقتال والحصام ، وأنواع الذنوب ، وذنم الاخلاق لئلا تشتغل بالخروج منها .

- ١٣٩ القسم الثاني ، التفسير اللفظي لقسم الثاني من السورة من أولها إلى آية : « والله غفور رحيم »
- ١٤١ القسم الثالث من السورة من آية : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » إلى آخر السورة
- ١٤٣ خاتمة في مباحث هذه السورة وهي ٩ مثل أن لا يتجاوز صوتهم صوته صلى الله عليه وسلم وهكذا .
- ١٤٤ قسم التحذية فيه ١٤ فصلا مثل النهي عن تصديق كلام الفاسق ، ومثل النهي عن الغيبة وهكذا
- ١٤٥ القسم الثالث : التحلية بالفضائل ، مثل ان الناس يتعارفون ، وأن بلالا أذن على ظهر الكعبة وقريش ترى ذلك على خلاف عادتها .
- ١٤٧ لطيفة في آية : « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » وبيان أن المؤلف رأى امرأة عرجاء صفراء ، فخطر له انها لا تطلب للزواج ، وانتقل من ذلك إلى أن كل امرئ ممتحن لمن يريد زواجها ، فالجاهل يكتفي بامتحان ظاهر الجلال ولكن العاقل يرى أن الامتحان يكون في الخلق والقوة الجسمية والقوة العقلية ، وهذه الخلال الثلاث هي التي تسعى لها جميع مدارس العالم شرقا وغربا كما تقدم في آية ويهديك صراطا مستقيما ، وهنا عجب المؤلف من آية : « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » وهو امتحان في الأخلاق ، وهذه دعامة من الدعائم الثلاث وامتحان الله في إحداها ، وإذا امتحن الله فيما هو أصعب فعلينا أن نمتحن فيما هو أسهل من باب أولى ، إذن لمتحن كل شيء ، الطيب يمتحن المريض بحسب نبضه لسا ، وبسماح عدد الضربات ، وبمشاهدة البول واللسان ، فهو ممتحن باللس والسمع والبصر ، هكذا فلنمتحن كل شيء ولانتسكل على الفريضة ، بل ندقق الامتحان في كل شيء .
- وهنا ذكر المؤلف امتحان الرجل الكامل من كتاب « مسررات الحياة » وانه ذوالعقل الرزين ، والعواطف الشريفة ، الصادق النظر ، ذوالقوة البدنية ، فإذا لم يكن العقل رزينا وقع في الخطأ ، وإذا لم تكن العواطف نبيلة كان الانسان عابدا لنفسه ، وإذا لم يكن جسمه حديديا فإن عمله يكون ضئيلا وان كانت نيته حسنة ، إن العبقري من الرجال صفاته عظيمة ومقامه فوق كل مقام .
- ١٤٩ اللطيفة الثانية في آية : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » إلى قوله : « علم خير » وفيها أربع مقالات : المقالة الأولى في الصلح بين الطائفتين المقتلتين .
- ١٥١ الشيعة العباسية والعلوية ، وهما دهن المؤلف من جميع المسلمين في تلك العصور ، فالشيعة العباسية والعلوية قاموا في وجه بني أمية ، ولكنهم بعد انهزام الأمويين لم يحصل منهم عدل لامع الأمويين فانهم قتلهم قتيلا في حال الامن ، ولامع بعضهم فان العباسيين اغتصبوا الملك من بعض بني الحسن الذي تمت له البيعة الصحيحة ، فتولى الملك السفاح ثم المنصور الذي قتل صاحب البيعة ، وكان المنصور والسفاح كثيرى القدر بمن يعطونهم الأمان من أقاربهم العباسيين ومن غيرهم من العلويين ومن أشياعهم حتى ان أبا جعفر المنصور قتل أبا مسلم الخراساني ، ذلك الذي قتل ٦٥٠ ألف نفس بلا ذنب إلا الاتهام ، وذلك بأمر ابراهيم الامام .
- ١٥٤ سياسة العباسيين في تأييد سلطتهم .
- ١٥٥ المنصور والسولة العباسية .
- ١٥٧ امتحان المؤلف لسيرة هذه الأمم مثل ان هشام بن عبد الملك يقتل سرا أبا هاشم بن محمد بن الحنفية غدرا ومثل ان أبا هاشم لما أحس بالموت أوصى لبني العباس بالبيعة ، ومثل ان العباسيين بايعوا باسم آل محمد ومثل انهم غدروا بأبي سلمة الخلال المثرى الشهير ، ومثل ان عبد الله بن الحسن والد صاحب البيعة طلب المال من السفاح ، ومثل ان أبا جعفر المنصور يقتل أبناء الحسن الذين كانوا نصرائه بالأس ،

فأين الشورى إذن ؟ ومثل اختلاف الأمين والمأمون

١٥٩ نتيجة أعمال الأمويين والعباسيين في الاسلام ، الأمويون أعزوا العرب ، والعباسيون أذلوهم ، واستعانوا بالفرس والترك ، وهذا العمل بقي إلى الآن ، مثل المعاليك البرية والبحرية بمصر ، واستعان أمراء الأندلس ببابا رومه ودوق فينيزيا وبارونات أوروبا ، وكيف ذلت هذه الأمة بهذا الجهل .

١٦٠ بيان أن الأمة أشبه بطفل وكل قرن سنة ، فهي الآن في الرابعة عشرة ، إذن قد بلغت بلوغا أشبه ببلوغ الاحتلام ، وكل ما حصل لآبائنا هو عظة لنا ، فهي نعمة لأننا المستقبلة .

النظام العام في الاسلام ، وبيان أن أم الاسلام كانت عادلة في أحكامها بواسطة القرآن والدين ولكن الملك تنقل من دولة إلى دولة « وتلك الأيام نداوطا بين الناس » .

١٦٢ جمال العالم ونور الحكمة وأزهار الحدائق العلمية : يقول المؤلف : انه بينما كان يفكر في تفسير « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم » في سورة ق إذ استبان له بعض أسرار (الم) وأن هذه الحروف في (سورة ق) لها صلة بها في أول (سورة البقرة) والتي في أول سورة البقرة مفتاح للعلوم التي كانت أبوابها مغلقة قبل زماننا : والدين بعدنا سيفتحون أبواب تلك العلوم بهذه المفاتيح ، وأن النباتات أنواع متفرقات مختلفات ، فبها ما يتغذى به الدود مما هو قدر محض منبؤذ ، ومنها ما يتغذى به الانسان ويدهما درجات كثيرة جدا ، وليس في الأرض عاقل يعترض على هذا النظام ، فكل عاقل في أرضنا لا يعترض على اتساع عالم النبات لتغذية الحشرات والأنعام والدود والانسان ولا يأتف من ذلك ، بل يراه أمرا عظيما ، وإذا كان هذا واضحاً في النبات فلنقص عليه ما ليس بشديد الوضوح في غيره مثل دين الاسلام ، فهو تنزى بل الله ، وقد فعل الله فيه ما فعل في النبات ، فكما رأينا النبات قبل الدود والحشرات الخ هكذا رأينا هذا الدين قبل أنهما ليست في البروة العليا من الانسانية ، ولم تقبل منه تلك الأمم إلا على مقدارهما كما قبل الدود من النبات على مقدار استعداده ، فهذا نظام عجيب ، وهذه حكمة التكوين الذي هو أمر آخر غير نظام التشريع ، ولا جرم أن نظام الفلسفة العام ونظام الحكومات كحكومتنا المصرية ، ونظام الديانات العام ، ونظام المذاهب الاسلامية كلها تقاس على نظام النبات كما تقدم ، فنظام الفلسفة العام لا يختص بعلم من الطبيعيات أو الرياضيات ، بل هو عام لها كلها ، ويتر الفيلسوف آحاد الأمم يفكرون في العلوم الجزئية كما حصل من الدود والحشرات في الاكتفاء من النبات بما يناسبها ولم تفكر كما يفكر الانسان في جميع النبات ، فكما كان الانسان فيلسوف الحيوانات هكذا رأينا قارى الحكمة فيلسوف العلماء بالعلوم الجزئية ، وهكذا صاحب السلطان في الأمة كرئيس الجمهورية له الاشراف هو ومجلس النواب على الوزراء ، فهو في الأمة كالفيلسوف المذكور مع العلماء وكالانسان مع الحيوان في أمر النبات ، هكذا علماء المذاهب الاسلامية عموما من الشيعة وأهل السنة ، فكل هؤلاء لا ينظر ببالم نظام الاسلام العام ، بل هم متفرقون في الفروع التي تلقوها كبرا عن كابر ، فهؤلاء أشبه بحيوان يأكل نباتا خاصا ، أو بشيخ قرية في البلاد المصرية وهكذا ، وليس يقدر أن يرفع بصره إلى أعلى ، وهذه درجته وهو معذور في ذلك ، وسيقوم في المسلمين الآن و بعد زماننا أناس حكماء يقولون : أيها المسلمون على رسلكم : ماذا جرى لكم ؟ ان علماءنا السابقين كانوا معذورين جميعا ، وعلينا نحن أن ندرس القرآن دراسة أخرى .

١٦٩ ألم تروا كيف كان الصحابة اذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لا يتركونها حتى يفقهوا معناها ، ونحن لا نعرف ماذا كانوا يتعلمونه منه ، وها هو ذا نور الله في الخليفة ، فلندرس الدنيا ونظامها

وبهذا يتجلى لنا هذا القرآن والا فكيف نرى أن ابن عمر لم يحفظ البقرة إلا في ثمان سنين وما معنى
« ليتبروا آياته » .

١٧١ آراء « جون راسكن » في التعليم وأن المدارس فيه على أن يكون مغريا للتعلم أن يكون مكبا على العلم
أما كثرة المعلومات فلاهمية لها . ويقول غيره : « نحن لا تعاطى طعامنا كله أول النهار هكذا ليس
التعليم خاصا بأول العمر ، الحياة كلها زمان للتعلم ، ولا سبيل لجعل الانسان عاشقا للعلم مدة الحياة إلا
بتعليم المعلمين له ذلك » . إن حكماء الأمم الاسلامية بعدنا سيصلحون ما أفسده سوء التعليم لآبائنا ،
وسيصرفون هذه الأمة عن هذه الذنوب والأخلاق الشائنة ، وسيقولون : إن مارقع لآبائنا جعل نعمة
لنا لنحترس مما وقعوا فيه ، وإذا كانت الأمم المحيطة بالمسلمين قد اتحدت أفلا يكون المسلمون أولى بهذا
الاتحاد ، وعلامة هؤلاء المصلحين في الاسلام أولا ان عددهم قليل كقلة عدد ملكات النحل ، ثانيا :
هم يحبون خلاصة العلوم كلها فتتفدى نفوسهم بها كما تفدت ملكات النحل بعسل أبيض يخالف لفضاء
رعايا هذه الملكة ، ثالثا : انهم مفرمون بجمال هذه الدنيا ، رابعا : ان الناس يميلون إلى تعالجهم .

١٧٢ نور على نور في أخلاق عصر النبوة ، وفي الخلافة الاسلامية ، وفي فروع الدولة العباسية المنفصلة عنها
وفي جميع الممالك الاسلامية من عصر النبوة إلى الآن ، وفي هذا المقام مقالة المفيرة أمام رستم القائد
الفارسي في أثناء واقعة القادسية ، ومقالة عبادة بن الصامت للقوقس صاحب مصر لما خوفه بجموع
الروم ، وأن المسلم ينال أحد أمرين : إما دخول الجنة بالقتل ، وأما النصر في الدنيا .

١٧٥ آراء خطيرة في الخلافة : وهو مقال للمؤلف ذكره في « مجلة المعرفة » يقول فيه : « إن خلفاء المسلمين
بعد العصر الأول لم يتبعوا الشورى ، والخلفاء الراشدون لم يجعلوها بالوراثة ، والمسلمون ليسوا سلعا يرثها
الأبناء عن الآباء ، فيجب أن يجتمع الأمراء اليوم ، ويجعلوا واحدا منهم هو الخليفة ، وليكن جيشه
أعظم ، وعلم أمته أوسع ، بشرط أن لا يكون لسلطة أجنبية عليه يد .

١٧٦ وههنا ذكر الولايات العشر المفرقة عن الدولة العباسية لما أخذت في الاضمحلال مثل البصرة وخوزستان
وفارس والبحرين والعمارة وهكذا . ذكر استبداد الجند والخدم ، وكيف فعل جند المغاربة والأتراك
بلمعز سنة ٢٥٥ هجرية إذ أوقفوه في الشمس وعذبوه ، ثم قتلوه قتلا شنيعا .

١٧٧ جدول الدول الاسلامية منذ ظهور الاسلام إلى الآن ، وهي ثيف ومائة دولة ، وعدد رؤسائها ١٢٠٠
رئيس فيهم الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء والأنباكة والاششيديبة والحدوية والشرفاء والبيات
والهدايات ، ومنهم العرب والفرس والترك والشراكية والأكراد والهنود والترك والمغول والأفغان وغيرهم
ومن عواصمهم المدينة والكوفة والشام وبغداد ومصر والقبروان وقرطبة والاسنانه وصنعاء وعمان
ودهلي وغيرها .

١٨٠ بهجة الجمال في تاريخ الأمم الاسلامية وفي جواب اعتراض على المؤلف : يقول المعارض على المؤلف
انك قد ظهرت في هذا المقام بمظهر يجعل القارئ في حيرة من دول متشاكسة ، وأحوال متعارضة ، مع
ان آية : « وان طاقتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » لا تتدخل ذلك ، وهذا خارج عما درج
عليه المفسرون ؟ فأجاب المؤلف قائلا : أولا إن الانسانية بارزة من وسط الحيوانية الثائرة الشهوات ، وقد
أرادت الاعتدال في القوة السبعية والبهيمية ، ثم ظهر فيها مصلحون أمثال (كونفوشيوس) المصلح
الصيني في القرون الأولى ، وقد ظهرت علامه مرتبة ترتيبا مدهشا منظما بحيث انه جعل نهذيب الفرد
يتبعه نظام الأسرة يتبعها نظام الدولة فيكون العدل العام ، ونظام الفرد الذي هو الأساس مبني على

- نظام تهذيب الأخلاق ، وهذا مبني على النقاوة المبنية على الصدق والأخلاص في التفكير ، المبني على اتساع المعارف ، المبنية على المشاهدة ، إذن كونفوشيوس يجعل المشاهدات مبدأ تمتد منها سلسلة تنتهي بنظام النبوة ، وآراء هذا الحكيم تقارب آراء علماء اليونان مثل سقراط في جمهوريته الذي يقول : « إن رجال الحكومة يجب أن يكونوا منزهين عن المادة منصرفين إلى المثل الأعلى ، وهم آباء للأمة والأمة أبناؤهم ، وتعليمهم يجب أن يكون تعليما عاليا على مقتضى ما قاله كونفوشيوس وإن لم يعرف أحدهما الآخر ، ولما طبق المؤلف هذه المعارف على أمم الاسلام وجد أن ترتيب الحكومات من أعلاها إلى أدناها في مراتبها الخمس ظهرت في أمم الاسلام فعصر الصحابة بهيئة الوصف الذي وصفه سقراط ، ثم جاء الأمويون والعباسيون ومن معهم ومن بعدهم فأخذوا ينزلون درجة درجة ، فكان المثل الأعلى أيام النبوة وعصر الصحابة وحكومة الجند التي هي أقل منها كانت أيام الدولة الأموية وأول العباسية ، ثم كانت حكومة الثروة والمال ، ثم اضمحلت النبوة فكان الاستبداد ، وذلك ظاهر في بغداد والقاهرة وقرطبة وجميع بلاد الاسلام ، وهذا كله يجب ذكره تطبيقا على آية : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » وكل هذا داخل تحت فصول مثل عالم الحيوان وظهور الانسان وآراء سقراط الخ .
- ١٨٦ تطبيق علوم تلك الأمم على أممنا الاسلامية .
- ١٨٧ خطاب من المؤلف إلى السفاح العباسي ، وعبد الله الحسني .
- ١٨٨ خطاب المؤلف للمسلمين ، وبيان أن الله أسس ذلك التاريخ لنا الآن ، وخطاب الله للأفراد والأمم .
- ١٨٩ فصل في أن تجارب أيامنا هذا زمان ظهورها .
- ١٩٠ الفصل الثامن في تبيان نعم الله علينا وعلى الناس
- ١٩١ نظرتي في عوالم العقول وعوالم الحقول والمزارع والثمرات
- ١٩٢ اشراق شمس الاسلام بعد اظلام ليله : الاتفاق بين ملك اليمن ، والملك ابن السعود .
- ١٩٤ مصداقا لما قلناه من ظهور نور الاسلام في زماننا هذا خاصة بعد عصر الصحابة والتابعين وذكر معلومات جديدة عن بلاد التركستان الصينية ، وانها اشرفت فيها شمس الأنوار المحمدية ، وأخذوا يقرءون علوم الأمم التي لم يقرأها آباؤهم بما قرءوا في كتب مؤلف هذا التفسير .
- ١٩٦ المقالة الثانية : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم » الخ وبيان أن هذه الآيات فيها مقامان : المقام الأول في غوائل اللسان ، المقام الثاني في غوائل القلب ، والمقام الأول يشتمل على مباحث الجمعية النفسية في أوروبا ، وعلى ما كتبه الامام الغزالي .
- ١٩٧ أما مباحث الجمعية النفسية ، فهي ترجع إلى أن للانسان مغناطيسية اذا ضغطها ولم يتكلم وكنتم أموره كان أشبه بكوكب ، وانجذبت إليه الناس ، وارتيق عقله ، وكثر ماله ، وأحبه جميع الناس بل انصب ولا تعب ، أما المتكلم بكل ما يخطر له فانه يصح فارغا ويحقره الناس وهو لا يدري لماذا يكون هذا الاحتقار
- ٢٠٣ أما ما قاله الامام الغزالي في الاحياء فذلك انه جعل غوائل اللسان عشرين نوعا وفصلها تفصيلا ، وقد ذكرنا هنا منها عشرة ، وسندكر العشرة الأخرى في ﴿ سورة : ق ﴾
- ٢٠٤ بيان عظم خطر اللسان وفضيلة الصمت ، وذكر الأحاديث الشريفة مثل حديث : « من صمت نجح » ومثل : « الصمت حكم وقليل فاعله » وقد كتب على الهامش بيان صفة هذه الأحاديث من الضعف والصحة والحسن الخ .
- ٢٠٨ ذكر آفة الكلام فيما لا يعني .

- ٢١٠ الآفة الثانية : فضول الكلام والأحاديث الواردة في ذلك . مثل : « طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأتقى الفضل من ماله » .
- ٢١١ الآفة الثالثة : الخوض في الباطل ، والأحاديث الواردة في ذلك مثل : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله » الخ .
- ٢١٢ الآفة الرابعة : المرء والجدل .
- ٢١٤ الآفة الخامسة : الخصومة وأحاديثها .
- ٢١٦ الآفة السادسة : النعرة في الكلام والتشدد .
- ٢١٧ الآفة السابعة : الفحش والسب وبذاءة اللسان وأحاديث في ذلك مثل حديث : « الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها » .
- ٢١٩ الآفة الثامنة : اللعن ونحره بأحاديث مثل : « ان العائنين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة »
- ٢٢٢ الآفة التاسعة : الغناء والشعر .
- ٢٢٤ الآفة العاشرة : المزاح ، وأن المزاح يحسن تركه ، وإذا مزح الانسان فليكن ذلك قليلا جدا ، والا استخف به الناس نارة وأبفضوه نارة أخرى .
- ٢٢٨ المقام الثاني من المقالة الثانية في غوائل الأعمال القلبية ، وبيان الفضيلة والرذيلة والسعادة الخ .
- ٢٣٠ الغضب : ضرب مثل لقلب الانسان بحال الأرض .
- ٢٣١ العجب وسببه وعلاجه ، العلاج ، الأحاديث ووزع الدين ، الكبر .
- ٢٣٢ العلاج ، ذم الكبر وإيضاحه ، الفرق بين العجب والكبر .
- ٢٣٣ المقالة الثالثة في قوله تعالى : يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا
- ٢٣٤ المقالة الرابعة في جوهرتين : الجوهرة الأولى ما كتبه المؤلف في مجلة المعرفة تحت عنوان « صوت صارخ من الشرق إلى الغرب » ، وأن أوروبا غدرت في عهددها أيام الحرب العظمى ، إذ قتلوا : أيها الشريكون : إنا نحارب لاستقلالكم ، ثم ظهر انهم غير مخلصين ، ونحن أيام قدرتنا في عصر الصحابة وفينا يهد أحد عبيدنا ، وبيان أن المسيح أرسله الله فقال للناس : كونوا اخوانا ومع ذلك لم يسمع تلك النسيحة الرومانيون فبقوا في الشرق كما هم بغاء نبينا صلى الله عليه وسلم فوجدهم كما هم فقال بالسلام وسهانا مسلمين ، وشعلنا : السلام عليكم ، ولكن الله أمره بالقتال عند الحاجة ، فلم يخرج أوروبا إلا بالقتال ، ثم صارت أوروبا بعد ذلك أمة مخزفة استبد بها القسيسون والرهبان ، وأحرقوا آلافا وآلافا منهم بسبب أمور دينية ، ولما أشعل البابا الحروب الصليبية على المسلمين وبقيت مائتي سنة تنور المسيحيون وعرفوا من مخالطة المسلمين حقوقهم وحريتهم فرجعوا وأوقفوا رجال الدين عند حدودهم فارتقوا ، وهام أولاء جاموا كرة أخرى للشرق ، فلتم أوروبا أن الشرق اليوم غير الشرق السابق ولينذروا أم الشرق لما هجمت على أوروبا في أزمان قديمة فدكتها دكا ، ثم لينذروا النار الذين هجموا عليها منذ نحو ٧ قرون وهذه بقاياهم في روسيا وغيرها ، فهاهذا الشرق اليوم يريد أخذ ناره ، فالويل لأوروبا .
- ٢٣٨ الجوهرة الثانية في ذكر سر آية : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » وأن المؤلف لما عرف أن هذه الدنيا مدهش نظامها ، وأن الذكور والاناث أعدادها متقاربة في الانسان وفي الحيوان أدهشه ذلك وأخذ يفكر في أن العلوم والصناعات حتما يجب أن تكون موضوعة في العقول بنظام كما

أن المنافع موزعت على الأرض بنظام ، إذن الناس جميعا في الأرض جاهلون غافلون ، فيجب عليهم أن يستخرجوا منفعة كل عقل ومنفعة كل أرض ليسعد الانسان الجاهل الآن .

٢٣٩ الأرض واستعدادها ، نظرتي في الأمم ، تأليف ابن الانسان ، يقول المؤلف : انه سنة ١٩١١ ألف كتاب ابن الانسان ، وأرسله إلى أوروبا ، وملخص هذا الكتاب أن المؤلف تخيل انه ركب مركبة بين اليقظة والنوم وارتقى بها مع انسان روسي حتى وصل إلى كوكب وراء نبتون ، وهناك وجد أربعة آلاف أمة متحدثين معا ، ولما رآوا المؤلف أخذوا يهزؤون بنظام أهل الأرض ، وعدوا كل نظامنا الحالي نظاما حيوانيا ، فما هذه الآلات المهلكات لإذرائع للحيوانية لا للانسانية ، وكيف يسى فريق من الناس في قتلهم أظفار الفريق الآخر واخضاعه واذلاله ليكون آلة مسخرة له ، فهو ينزل عن الانسانية إلى الحيوانية ، وكيف تبقى الأرض عند طائفة من الأمم لاجل اعمال فيها يستخرجون منافعها ، والأم الأخرى قد اكتظت أرضهم بسكانها . كلا . مم كلا . يجب أن يؤخذ ما زاد من الناس عن أرضهم إلى أرض أمة أخرى يعيشون معهم بسلام ، ويجب أن يوضع كل امرئ فيما استعد له ، ويجب أن يتعلم إلى آخر درجة يستحقها ، والأم كلها ملزمة بذلك ، فتطالب كل أمة بتعليم كل فرد ، وباستخراج كل منفعة في الطبيعة ، وليكن كل انسان نافعا لكل انسان كأنهم جسم واحد ، وقد لخص هذا الكتاب الاستاذ (سنلانه) التلياني في مجلته بمدينة روم ، وأثنى على الكتاب .

٢٤٠ ههنا مبدأ كلام الاستاذ (سنلانه) وفيه هذه المعاني المقدمة .

٢٤٦ الاستاذ (البارون كرايفو) وكلامه في ابن الانسان ، وهو يذكر أن آراء المؤلف في اسلام العام أحسن من آراء (داروين) الانجليزي ، ويفتخيه الألماني ، وأن هذين يريدان أن يفتك القوي بالضعيف ، أما الشيخ فانه يريد أن يكون الناس أمة واحدة ، ويقول : انه يجب أن يتعلم التلاميذ ذلك في مدارسهم ، ويسمعون النعمات التي نظمت في محبة جميع النوع الانساني الخ .

٢٤٧ بهجة المناظر الخيالية ، وآثارها العلمية ، في سر قوله تعالى : « إن الله عليم خبير » وبيان سر اسمه الخبير ، وذلك أن الله علم قبل أن يخلق الخلق أن المسلمين سينامون نوما عميقا إذ يظنون أن المدار إنما هو على النسب ، فحكم الأمم يرجع إلى النسب لا إلى الكفاية والتقوى وأمثالهما فقال لهم بصرح العبارة ان المدار على التقوى ، وختم الآية بأنه عليم خبير والخبرة معرفة بواطن الامور ، ومن بواطن الامور هنا أن أم الاسلام اكتفت بالألفاظ والظواهر ، وقدمت التعديل على الجرح في الأحاديث مع ان الجرح مقدم على التعديل في أمثال أحاديث المهدي الذي جعل مداره على النسب لاعلى التقوى ، وههنا ذكر حديث الرايات السود المقبلة من قبل خراسان ، فهذه تتج عنها تولية السفاح العباسي ، وهل السفاح يكون مهديا ؟ وهل المهدي الذي يملأ الأرض عدلا هو الذي يهلك من بني العباسي وغيرهم رجلا بلا ذنب بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، والذي ورد أن اسمه على اسم النبي ﷺ واسم أبيه على اسم أبيه هو النفس الزكية ، وأبوه عبد الله ، واسمه محمد ، وقد قتله المنصور والبيعة كانت له ، فإذا قيل ان الذي رايته السود تأتي من قبل خراسان يكون قبل قيام الساعة ، قول إذن يكون معنى هذا اتنا لا نقول لنا ، فهل الرايات السود وخراسان ينحصر المهدي فيهما مرتين ، وما هذه الهداية التي لا تقوم إلا بالسيف ، إذن ظهر اليوم سر خبير بعد علم لأن الله يعلم بواطن الأمم ، فلذلك جعل المدار على التقوى لعله أن ميل الناس قوى جهة النسب ، فلكونه خيرا بذلك صرح بما ذكرناه .

كتب للمؤلف :

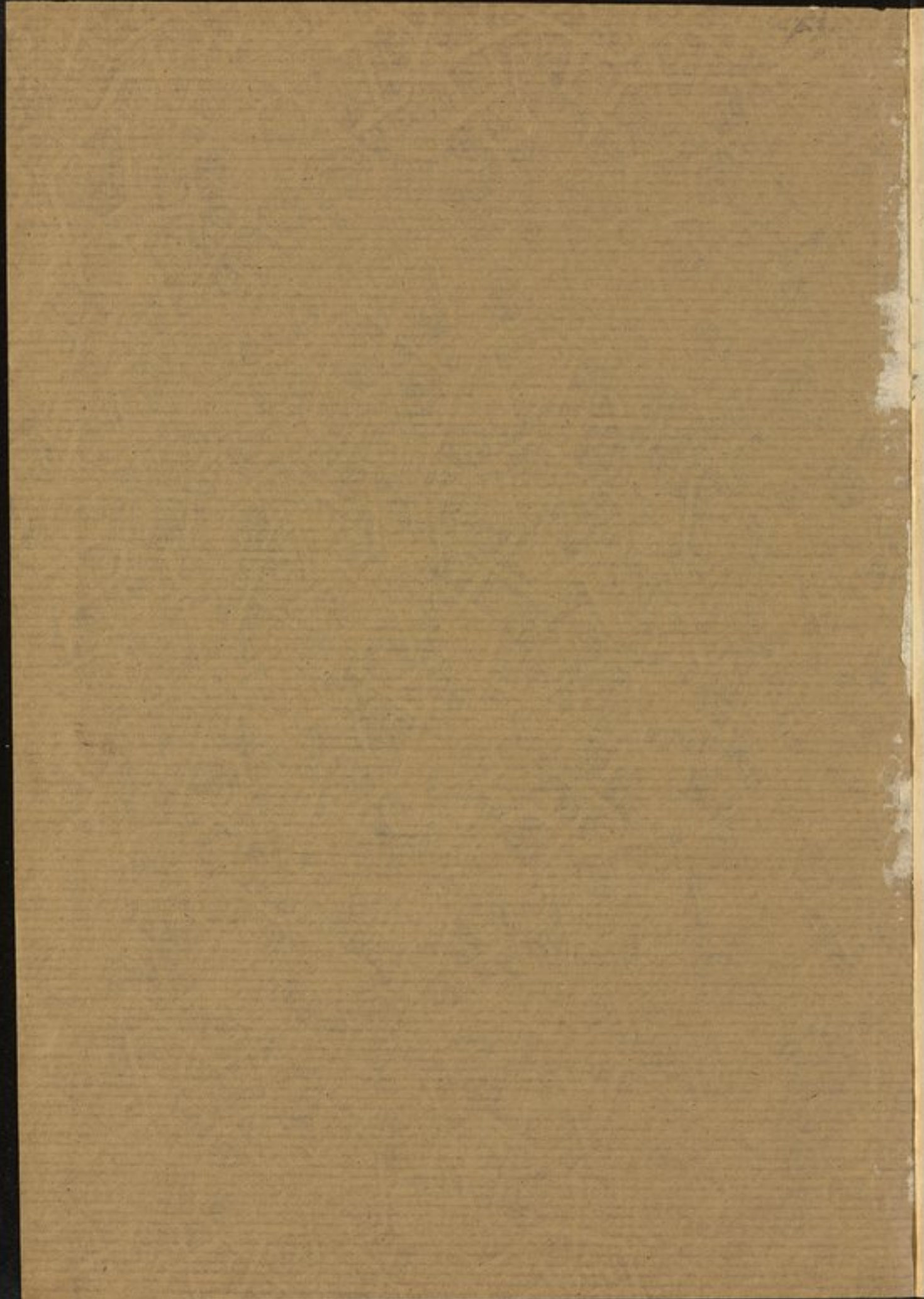
تطلب من مكتبة مصطفى البابی الحلبي وأولاده بمصر
شارع التبليطة رقم ١١ بجوار الأزهر الشريف

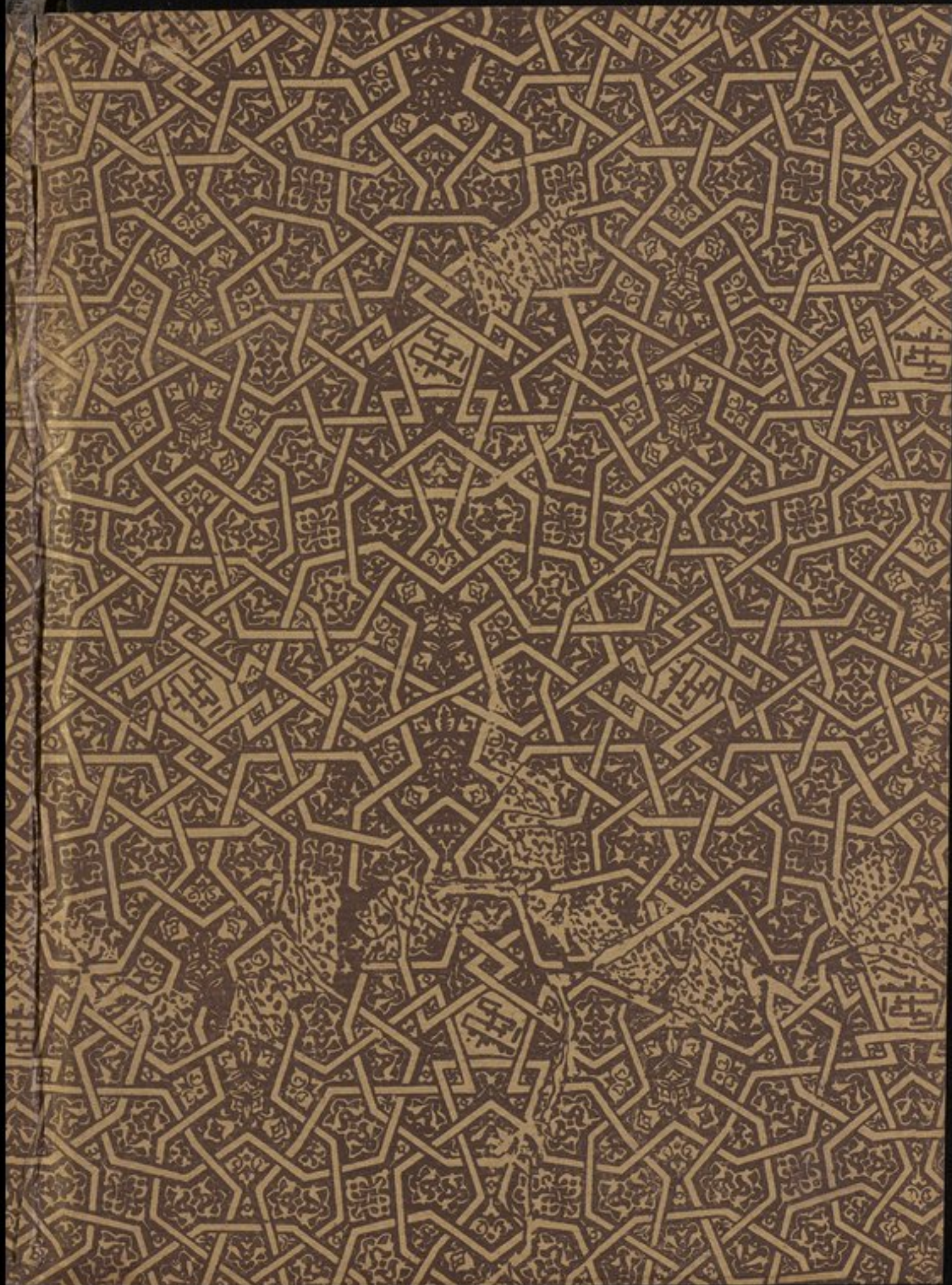
- ١ - براءة العباسة أخت الرشيد .
تحقيق تاريخي على خطير في هذه القضية مع نبذة عن الطوائف والسامرات في أيام
الدولة العباسية .
- ٢ - تفسير سورة الفاتحة (كتاب خاص) .
- ٣ - القرآن والعلوم المصرية .
- ٤ - بهجة العلوم والحكم في الفلسفة العربية ومقارنتها بالعلوم والأفكار المصرية .
- ٥ - جواهر العلوم .
- ٦ - أحلام في السياسة وكيف يتحقق السلام العام .
- ٧ - نهضة الأمة وحياتها .

اطلبوا قائمة بأسماء الكتب من جميع العلوم والفنون وكتالوج بأنواع الصحاف الشريفه

ترسل هدية لمن يطلبها

المراسلات : صندوق بريد الغورية رقم ٧١ مصر





COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0036758477

BP
130.4
.J27
v. 21-22

NOV 21 1973

